كتاب الشهر

الأيام العصيبة

ملخص من كتاب
بقلم جيرالد فورد



تركز" اهتمام كبير على الافول المذهل والمؤسف لرئاسة ريتشارد نيكسون. على ان الاضواء لم تسلط مطلقا من زاوية نظر الرجل الذي اختير خلفا له، وهو الرجل الذي تناهشته صنوف الولاء المتضارب - سواء أكان لرئيس الدولة الذي شَوَّهت سمعته او لبلاده ولزوجته وافراد اسرته - الامر الذي جعل جيرالد فورد يطرق درب الرئاسة بأقصى ما يمكنه من الرفق والحرص ابان الازمة التي المت بالولايات المتحدة الامريكية وملكت افكار مواطنيها ومشاعرهم.

هنا يروي جيرالد فورد، في كلماته الخاصة، حكاية تلك الايام العصيبة من شهر اغسطس (آب) ١٩٧٤، والحيرة المفزعة التي وقع هو فيها ازاء فضيحة ووترغيت.



٨ أغسطس (آب) ١٩٧٤: الرئيس نيكسون ونائب الرئيس فورد في المكتب الرئاسي البيضوي.

الأيام العصيبة

بقلم

Gerald R. Ford

قبيل الساعة التاسعة من صباح الفاتح من اغسطس (آب) ١٩٧٤، تلقيت مكالمة هاتفية من كبير موظفي البيت الابيض، الكسندر هيغ، الذي قال: "سيادة نائب الرئيس، ثمة ضرورة ملحة تقتضي ان اجتمع بك في اقرب وقت ممكن".

وبعد خمس عشرة دقيقة دخل هيغ الى مكتبي القائم في مبنى المكتب التنفيذي القديم. وكنت قد طلبت الى روبرت هارتمان ان يحضر الجسلة معنا كعادتي في هذه المناسبات. لكن هيغ بدا غير مطمئن لحضور هارتمان حتى خيل الي انه لن يقوى على البوح بكل ما يريد. بيد ان ما صرح به هيغ كان مقلقا ما فيه الكفاية.

واذ كانت المحكمة الامريكية العليا قد اصدرت قبل ثمانية ايام، اي في الرابع والعشرين من يوليو (تموز)، حكمها بان يسلم الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون ٦٤ شريطا مسجلا للمحادثات التي دارت في مكاتب الرئاسة الى قاضي المحكمة الاقليمية جون سيريكا، فقد اردف هيغ: "اود تنبيهك الى ان الامور في تدهور الان، ومن الحري بك ان تباشر التفكير في تبديل مجرى حياتك".

كما ابلغني هيغ ان الاشرطة الجديدة تحتوي على ادلة من شأنها ان تثبت علم نيكسون بمحاولة طمس حادث ووترغيت بعد ستة ايام فقط من السطو على مكاتب الحزب الديموقراطي في ١٧ يونيو (حزيران) ١٩٧٢، وان الرئيس نيكسون ظل يخادع الشعب الامريكي منذ ذلك الحين.

لكم عللّتُ النفس بلا طائل خلال الاشهر الثمانية الاخيرة، بصفتي نائبا للرئيس بان ووترغيت لا بد من ان تنقشع وبأن نيكسون سيبرهن عن براءته منها. غير ان التمني بدأ يتبدد الان ويتبخر.

واتصل بي هيغ هاتفيا مرة اخرى بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، طالبا مقابلتي ثانية في اقرب فرصة ممكنة. الا انه لم يشأ ان يحضر هارتمان جلستنا. فخطر لي ان هيغ لا بد من ان يكون قرأ، منذ اجتماعنا الصباحي، نسخة مدونة للمحادثات المسجلة، او انه استمع الى مناقشتها بالتفصيل. على انه ما ان دخل مكتبي حتى بادرني قائلا: "ليس في وسعي ان ابلغك بما سيحدث خلال الساعات الثماني والاربعين اللاحقة. فأنا لا ادري ماذا سيفعل الرئيس".

ثم اطلعني في منتهى الحرص على الخيارات الباقية امام الرئيس نيكسون كما يراها "المطلعون" في البيت الابيض، وهي الآتية: اولا - ان "يصمد" الرئيس في وجه العاصفة ويسمح للكونغرس بان يأخذ مجراه في توجيه التهمة اليه، وان يجابه امر ادانته بنفسه ويحاربها في اصرار. ثانيا - ان يستقيل. وهنا يتزايد عدد السبل البديلة التي يمكنه سلوكها: يمكنه، مثلا، ان يتنحى وقتيا بموجب المادة الخامسة والعشرين للدستور، او ان يرجىء استقالته حتى مرحلة لاحقة من اجراءات ادانته، او ان يقبل بتصويت الكونغرس على عزله، او ان يعفو هو عن نفسه وعن جميع الاطراف المعنية بقضية ووترغيت وبعدئذ يستقيل من منصبه. بل يمكنه ايضا -كما يرى بعض موظفي البيت الابيض حسب قول هيغ - ان يوافق على هجر كرسي الرئاسة شرط ان يلتزم الرئيس الجديد، جيرالد فورد،

بالعفو عنه. واكد لي هيغ ان هذه ليست آراءه، ولكنه لم يفصح عن اسماء اصحابها، بل اكتفى بالقول انه لا تفضيل لديه لاحد هذه الآراء على سواه.

وغادر هيغ مكتبي بعد ٤٥ دقيقة. لكن ما انطوت عليه اقواله من مضاعفات جثمت بثقلها على صدري، واحسست بالغضب يجتاحني لان نيكسون لم يطلعني على حقيقة الامور. وفيما انا مسترسل في هذه التأملات، قطع علي بوب هارتمان حبل افكاري بدخوله مكتبي. فأعدت على مسمعه الخيارات التي ذكرها هيغ. واذا باجراس الانذار تدوّي في رأس بوب:

- ذلك الخيار الاخير الذي ذكره هيغ حول استقالة نيكسون مقابل العفو عنه... انا لا أرتاح اليه بالمرة.

فقلت له: "لكن لم يقترح ذلك من عنده بل ذكر بعض ما يتداوله الناس في البيت الابيض".

عندئذ كرر بوب قوله:

- اعلم ذلك جيدا. ان هيغ لم يقصدك ليخرج خالي الوفاض. ولا هو بحث معك هذه المسألة الحساسة من دون علم نيكسون. وقد ذكر لك امر العفو من قبيل الايحاء اليك بما يجدر فعله، بينما بقيت انت مصغيا اليه من غير ان تنطق بكلمة واحدة. والسكوت في حال كهذه ينطوي على الموافقة. وربما عاد هيغ الى البيت الابيض واخبر نيكسون بانك لم تبد غير مرتاح ازاء ذكر الفكرة. والحق انه ليس من اللياقة ان يطرق هيغ هذا الموضوع امامك.

لقد كان رد فعل بوب امرا متوقعا نابعا من طبيعته. والواقع اني لما كنت بطبيعتي انسانا لا يرتاب في الآخرين، رأيت من الحكمة ان يكون بين موظفيّ شخص كثير الشكوك. وكان بوب يشك في كل انسان. وتلك الخصلة فيه انقذتني من مزالق كثيرة على مر السنين. ولكن شعرت هذه المرة بانه تجاوز الحد المعقول، واعلمته بحقيقة شعوري.

ونظرت الى الساعة في يدي لاجد ان عقربيها يشيران الى الخامسة والنصف مساء. ولما كنت اعلم ان زوجتي بيتي تنتظرني، فقد قررت تأجيل مناقشة الخيارات الى وقت آخر وملاقاة بيتي التي كانت تريد معرفة رأيي في الاقسام التي اختارتها نزلا لنا ولضيوفنا من المبنى الكبير الذي يقع في منطقة مرصد البحرية الامريكية حيث اجاز الكونغرس، في اعقاب تعييني نائبا للرئيس، استخدام ذلك المبنى منزلا موقتا لنائب رئيس الولايات المتحدة. وبناء عليه، دأبت زوجتي خلال الاشهر القليلة الماضية على مقابلة المسؤولين من البحرية والمخابرات للبتّ في امر التعديلات التي ينبغي ادخالها على المبنى. وقد شعرت بتفاهة القيام بمثل هذه الاعمال في تلك اللحظة بالذات.. غير ان تبديل خططنا في اللحظة الاخيرة من شأنه ان يثير تساؤلات الصحافيين والمراسلين. وهذا ما اردت تجنبه.

وقادنا احد مهندسي التصميم الداخلي للمنازل برفقة مسؤول من البحرية في جولة داخل المبنى، وتحدث الاثنان عن مشروعات تزيين غرفة النوم الرئيسية وغرف نوم

اولادنا. وبحثنا امر اصطحاب بيتي الى محلات مختصة في نيويورك لشراء اواني الخزف والستائر والاثاث.

وانتهت الجولة اخيرا برحمة الرحمن. وعدنا الى المنزل الذي كنا نسكنه لتبديل ملابسنا استعدادا للخروج الى حفلة عشاء. ولم يتسع الوقت لبحث ما دار في ذلك النهار بتفاصيله. ولكن اعلمت بيتي بان بينات قد تظهر، من شأنها ان تسدد ضربة شديدة الى شخص الرئيس. وحين انتهت الحفلة رجعنا الى البيت، وفي غرفة الجلوس اخذنا نتجاذب اطراف الحديث الى ان تطرقت الى ذكر الاجتماعين مع هيغ خلال النهار. فاتسعت حدقتا بيتي دهشة لانها كانت تشاركني الرأي في ان ما اصدره البيت الابيض من بيانات في السابق كان صدقا لا مراء فيه. وها ان الاسطورة بدأت تتصدع الان. فانعقد لسانها، خصوصا لانها لم تكن من النوع الذي يتأجج غضبا لتصيح مزمجرة: "اللعنة! لم يكن نيكسون منصفا بحقك". بل انها امرأة حنونة، عذبة اللسان، ولم يتجاوز رد فعلها الاول حدود اظهار الاسف والحزن على الرئيس وافراد اسرته.

وازداد قنوطنا عندما اوصلنا الحديث الى ذكر التجارب الجديدة التى سنتقاسمها مستقبلا، فقلت لها: "ربما انتقلنا الى البيت الابيض في الاسبوع المقبل، او ربما بقينا معلقين بين بين طوال ستة اشهر اخرى ريثما يفرغ الكونغرس من اجراءات ادانة الرئيس. والامر كله مرهون بما يعتزم نيكسون فعله".

كانت الساعة بلغت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل عندما اتجهنا الى فراش النوم. ودخلنا غرفة النوم وخلعنا ملابسنا واطفأنا الانوار. ومع انه لم يكن من عادتنا التعبير عما يخالجنا، الا اننا شعرنا في تلك اللحظة بالحاجة الى ان يستمد واحدنا من الآخر قوة وان نستمد معا قوة جديدة من الله. لذلك، ما ان اضطجعنا والظلمة محدقة بنا حتى امتدت يدانا في وقت واحد وتلامستا، واخذنا نصلي:

- اللهم هبنا قوة من لدنك، والهمنا بحكمتك، وسدد خطانا في حال مواجهة حياة جديدة. اننا نعاهدك بان نبذل كل ما في وسعنا مهما حل بنا. انك انت الذي آزرتنا في ماضي حياتنا، واننا لمؤمنان بهديك في ايام التحدي العصيبة المقبلة. واننا نتضرع اليك باسم سيدنا يسوع المسيح.

وختمت الصلاة باستشهاد من سفر الامثال: "توكل على الرب بكل قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد. في كل طرقك اعرفه، وهو يقوّم سبلك".

لقد تعلمت هذه الصلاة طفلا. واذكر انى رددتها ليلة اكتشفت ان زوج امي لم يكن والدي الحقيقي. ورددتها مرارا وانا في البحر في الحرب العالمية الثانية. كما رددتها في كل مرة نشبت أزمة.

قنبلة موقوتة

تكلمت صباح اليوم التالي مع جاك مارش، النائب السابق من ولاية فرجينيا، وهو احد الاعوان المقربين الي كثيرا، وأطلعته على ما جرى خلال الساعات الاربع والعشرين الماضية. واذا به يوافق هارتمان الرأي حول ان

مجرد ذكر العفو يشكل احتمالا بان يكون ذلك الخيار قنبلة موقوتة بالنسبة الي. ولما حاولت ان اوضح له ان هيغ لم يقترح اي صفقة وان الخيارات التي ذكرها لم تصدر عنه في الاصل وانه لم يبدر مني ما يمكن تفسيره بالموافقة او الرفض لاي منها، اصرّ مارش على رأيه كما فعل هارتمان، وقال: "اذا كنت لا تصدقنا، فما عليك الا ان تستشير شخصا اخر تقيم وزنا لرأيه".

وقفزت الى مخيلتي على الفور صورة برايس هارلو، الرجل القصير القامة ذي الوجه الصارم الذي يعمل الآن مديرا تنفيذيا لشركة في واشنطن. وهو سبق ان عمل مستشارا لستة رؤساء اميركيين، وكان رجلا نزيها لا تشوب كرامته شائبة. ولكن قبل ان اراه، توجهت بالسيارة الى "كابيتول هيل"، مركز الكونغرس، لمقابلة هيو سكوت من ولاية بنسلفانيا ومايك مانسفيلد من ولاية مونتانا، زعيمي الحزبين الجمهوري والديموقراطي في مجلس الشيوخ، اللذين ارادا محادثتي حول الاجراءات التي تنبغي مراعاتها في حال توجيه التهمة ومحاكمة رئيس الولايات المتحدة. والمعروف ان مجلس النواب الاميركي هو الذي يحقق، بموجب الدستور، في التهم الموجهة ضدّ رئيس البلاد ويقرّر بالتصويت امر احالته الى المحاكمة على غرار ما تفعل هيئة المحلفين الكبرى. ثم ترفع القضية الى مجلس الشيوخ حيث يرئس الجلسة عادة نائب رئيس الجمهورية. لكن هذا الواجب سيرفع، لحسن الحظ، عن كاهلي في حال ادانة الرئيس.

وجلسنا نحن الثلاثة ينفث كل منا دخان غليونه، وهو مدرك الألم الذي تكابده البلاد والمسؤولية الملقاة على عاتقه. وقام سكوت بالقسط الأوفى من الكلام في ذلك الاجتماع. الا انني كنت واثقا من انه لم يسمع بعد بالبينات الجديدة، وشعرت بأنه من غير اللائق ان اطلعه عليها، لكنه كان مقتنعا، على اساس ما يعرفه، بان القضية خاسرة وبان توجيه التهمة رسميا الى الرئيس في المجلس النيابي وادانته في مجلس الشيوخ بعدئذ امران مفروغ منهما.

واذ غادر مانسفيلد الغرفة، بقيت وحدي مع سكوت الذي ابلغني بانه تحدث الى الشيخ باري غولدووتر من ولاية اريزونا، وحاول معه تحديد مدى التأييد الذي ما زال يتمتع به نيكسون داخل مجلس الشيوخ حيث يحتاج الى ٣٤ صوتا لينجو من الادانة. وقال سكوت ان نيكسون يتمتع حاليا بستة وثلاثين صوتا، بيد ان احد عشر صوتا بينها اصوات متقلبة وغير اكيدة. وكان سكوت يفهم انني ملزم بتأييد الرئيس. ولذلك ارتج صوته واضطرب وهو يقول: "التأييد المستمر سيجعل من العسير على البلاد في ما بعد ان تتوحد. انك انت الانسان الوحيد الباقي لدينا - للبلاد كلها، لا للحزب فحسب".

وخيّل اليّ ان الدموع بدأت تترقرق في عينيه. فحاولت تهدئة خواطره، ولكني وجدت صعوبة في السيطرة على عواطفي الشخصية. وخطر لي انه من الحري بي ان ادلي بتصريح علني خلال الايام القليلة المقبلة اقول فيه انه ما دام شطرا الحكومة التنفيذي والتشريعي في نزاع محتدم مرير،

فانه لا يليق بي بعد الآن ان ابدو طرفا في النزاع او عنصرا فاعلا في نتائجه. وبذلك اكون قد اعلنت، في اختصار، موقفا حياديا. ولكن في اي مكان يمكنني الادلاء بمثل هذا التصريح؟ ولما كنت انوي السفر في نهاية الاسبوع الى ولايتي ميسيسيبي ولويزيانا، فقد اقترحت على سكوت ان اصدر تصريحي من هناك. فلم يستحسن فكرتي مطلقا، وقال: "ان تصريحا ذا اهمية قومية شاملة ينبغي ان يصدر من عاصمة البلاد، لا من مكان اخر".

وكان سكوت محقا في رأيه. وشعرت بأنه يمكنني الادلاء بذلك التصريح لدى عودتي من الرحلة. واذ غادرنا الغرفة في "كابيتول هيل"، طوّق سكوت ذراعه حول كتفي بشدة، ولم يكن بنا حاجة الى قول كلمة اخرى.

وجاء برايس هارلو الى مكتبي في وقت متقدم بعد الظهر، وكان هارتمان في الغرفة. ورحت اسرد كل ما عندي، فيما كان برايس صامتا لا تنم ملامحه عن اي رد فعل. وحين انهيت كلامي، قال لي بصراحة لا يشوبها التردد انه متفق مع بوب وجاك، وان مجرد ذكر خيار العفو قد يسبب لي متاعب جمة في الايام المقبلة. وهكذا، توصلنا الى نتيجة مفادها ان الامر الوحيد الذي يمكنني فعله هو دعوة هيغ امام الشهود وتسوية القضية معه. فطلبت الى هارتمان ان يتصل به هاتفيا بعدما كتبت حرفيا كل ما اردت قوله، ثم قرأت عليه ما كتبت ببطء منعا لاي التباس او غموض. وبدأت كلامي:

- اريد ان تفهم انه ليس في نيتي ان اوصي بما ينبغي ان يفعله الرئيس ازاء استقالته او عدم الاستقالة، وانه يجب ألاّ يؤخذ شيء مما دار بيننا البارحة مأخذ اعتبار او حسبان في اي قرار قد ينزع الرئيس الى اتخاذه.

وردّ هيغ في اختصار: "انت على حق".

"شكرا سيدي الرئيس"

جرت العادة على ان يرافقني عدد قليل من رجال المخابرات. ولكن هذه المرة كان ثلاثة عشر رجلا منهم برفقتي على متن طائرة نائب الرئيس حين توجهت يوم السبت في ١٣ اغسطس (آب) الى ولايتي ميسيسيبي ولويزيانا. وامتدت ظاهرة التضخم هذه الى رجال الصحافة ايضا. فقد كانت العادة ان يتولى بعض الصحافيين تغطية انباء رحلاتي. الا ان عددهم هذا اليوم ارتفع بوجود احد عشر صحافيا اضافيا.

وحطت بنا الطائرة في مطار ستاركفيل في ميسيسيبي بعيد الساعة العاشرة صباحا. وبعدما القيت كلمة في حشد من الناس، استأنفنا رحلتنا الى جاكسون على بعد اربعين دقيقة جوا، حيث كررت تأكيداتي على ان الرئيس غير مذنب في ارتكاب خطأ يستوجب المحاكمة. ولو قلت غير هذا الكلام، لربما انهدم البنيان الكرتوني الهش باكمله.

ودأبت خلال هذه الرحلة على الاتصال بزوجتي بيتي التي كانت تحمل عبئا ثقيلا. وكنت اقلق على الدوام حيال طبيعة مشاعرها وما يفعله اولادنا، فضلا عن أني اردت معرفة انطباعاتها عن الاخبار ومعرفة

ما اذا كان اصدقاؤنا ابلغوها امرا كان ينبغي ان تعرفه. ومع ان بيتي لا تستمتع اطلاقا بالامور السياسية، الا ان لها اذنا صاغية مرهفة وحساسية عظيمة لما تعكسه الحوادث من ظلال. وقد قالت لي ان كل شيء هادىء.

صباح الاثنين ٥ أغسطس (آب) القيت محاضرة في نيو اورلينز امام جمعية قدامى المحاربين الامريكيين المعاقين من الحرب. ولئن كنت اتوقع فعلا ان يصفقوا لي، الا ان الامر الذي لم اتوقعه هو ان يتوجه رئيس الجمعية الى المذياع فور جلوسي ليقول: "شكرا سيدي الرئيس". وكانت تلك المرة الاولى التي سمعت فيها احد الناس يناديني بهذا اللقب، فجفلت له.

وفيما انا عائد جوا، تلقيت نبأ من جاك مارش جاء فيه ان البيت الأبيض سيدلي باعلان خطير مناهض للرئيس في وقت لاحق من ذلك اليوم. وما ان مضت نصف ساعة على هبوط طائرة سلاح الجو الرقم ٢، وهي الطائرة المخصصة لنائب الرئيس، في قاعدة اندروز العسكرية في تمام الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين، حتى وجدت نفسي في مكتبي من جديد. وجاء هيغ لمقابلتي على الفور، وكان يبدو منهكا اكثر من اي وقت مضى. بل اذكر اني فكرت حينذاك بأني لم ار في حياتي قط انسانا خائر القوى جسديا ونفسيا مثله في تلك الساعة. واوضح لي هيغ ان موقف نيكسون يتقلب بين الاستقالة والصمود في وجه الرياح، وان معظم كبار اعوانه يحثونه على اتباع الخط الاول، بينما اخرون افترضت انهم من افراد اسرة نيكسون، ولكن هيغ لم يذكر اسماءهم - ينصحونه بالصمود والكفاح. ويبدو ان مزاجه متقلب لا يثبت على حال. فتراه في الصباح مصمما، بفضل الدعم والمساندة من مؤيديه خلال المحادثات التي كانت تمتد حتى ساعة متقدمة من الليل، على التمسك بمنصبه، في حين يبدو عند المساء مستعدا للتنحي عن الرئاسة بعد ان يكون قد استمع الى التقارير الواقعية من كبار معاونيه خلال النهار.

وفي وقت متقدم من عصر ذلك اليوم، ارسل البيت الابيض نسخة من بيان نيكسون الى مكتبي في مبنى المكتب التنفيذي القديم، وفيه يعترف بأنه حاول في وقت مبكر يعود الى ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩٧٢، اي بعد ايام قليلة من السطو على ووترغيت، ان يستخدم وكالة المخابرات المركزية لمنع المكتب الفيديرالي للتحقيقات من ان يكتشف ان لجنة اعادة انتخابه رئيسا هي التى دبرت ومولت عملية السطو على مكاتب الحزب الديموقراطي في مجمّع ووترغيت.

وفي الساعة السابعة مساء، اصدرت بياني الخاص الذي قلت فيه: "لقد توصلت الى نتيجة خلاصتها ان المصلحة العامة لم تعد تنتفع بترديد ما اعربت عنه سابقا من اعتقاد بان الرئيس الامريكي - استنادا الى ما هو متوافر لدي ولدى الشعب الامريكي من ادلة - لم يرتكب ذنبا يستوجب الاتهام الرسمي. وقد عاهدت الكونغرس لدى تعييني نائبا للرئيس على ان ابذل قصارى جهدي لكي اكون واسطة اتصال هادىء

ومصلحا مستعدا للتوسط بين فرعي الحكومة الفيديرالية: التنفيذي والتشريعي. غير ان عملية توجيه التهمة الى الرئاسة قد اقحمت الرئيس والكونغرس في علاقة عدائية تفرق بعمق بين اعضاء الهيئة التشريعية بمقدار ما هي تفرق بين افراد الشعب الذي يمثله هؤلاء الاعضاء. وثمة امور ملحة كثيرة في جدول اعمال امريكا، آمل ان اواصل خدمة بلادي من خلالها. ويجب ان تستمر الاعمال الحكومية، وكذلك ينبغي تلبية احتياجات الامة الحقيقية. واعتقد ان في امكاني ان اقدم مساهمة افضل من اجل هذه الغاية، من دون الانغماس شخصيا في المناظرة اليومية حول اتهام الرئيس، لان ذلك امر ليس لي فيه دور دستوري".

ولم يعد يراودني ادنى شك حول نتيجة الصراع: لقد انتهى نيكسون. والمسألة الوحيدة الباقية هي مسألة الوقت الذي سيدرك فيه نيكسون هذه الحقيقة والقرار الذي سيتخذه في شأنها.

لكم كنت منهكا وانا لم ار زوجتي واولادي منذ ايام ولكم كنت مشتاقا كي اذهب الى منزلي. وها قد ذهبت اخيرا. ولما كان المساء عند بركة السباحة في حديقة منزلنا الخلفية مغريا وباردا، فقد سبحت قاطعا البركة عشر مرات او اكثر، ثم بدلت ملابسي وتناولت الشراب مع بيتي عند باحة الدار. ولم نكد انا وبيتي

وولدانا سوزان وستيف نجلس الى مائدة الطعام حتى دق جرس الهاتف ليخبرني الميجور جورج جولوان، مساعد هيغ في البيت الأبيض، انه تقرر عقد اجتماع حكومي صباح غد. وافترضت عندئذ ان نيكسون سيكشف النقاب عن نياته، فأحسست فجأة بأن امكان انتقالنا الى البيت الأبيض بات امرا حقيقيا.

وجهاً لوجه

نهضت صباح اليوم التالي كعادتي في الساعة السادسة والنصف وسبحت في البركة أشواطي المعهودة، ثم توجهت الى مبنى "الكابيتول". وكان مقررا ان يتم اجتماع الحكومة الساعة العاشرة. لكني وجدت، لدى دخولي المكتب، ان الاجتماع أرجىء ساعة كاملة، فاغتنمت الفرصة للتشاور مع هارتمان ومارش اللذين كانا على قناعة تامة بأني ملزم خلقيا بالوقوف امام الرئيس وجها لوجه لابلاغه حقيقة موقفي.

وقبيل الساعة الحادية عشرة دخلت الجناح الغربي ومضيت في طريقي نحو قاعة الحكومة. ووقفت وراء مقعد الجلد البني الثقيل الخاص بي، اتجاذب اطراف الحديث مع وزير المالية وليم سايمون عندما دخل نيكسون القاعة بخطى واسعة. وكانت تلك المرة الاولى التي أراه فيها منذ نحو عشرة ايام. وكان التغير الذي طرأ عليه واضحا تماما، وأكيد انه لم يهنأ بنوم مريح. وقد امتقع لون بشرته وبدا اقل حيوية مما عهدته، من الناحيتين الجسدية والنفسية.

وكان التوتر في القاعة على أشده. واحسست شخصيا باضطراب في اعصابي، وأظن ان الآخرين جميعا كانوا في مثل حالي. ولكن يبدو ان نيكسون لم يلاحظ ذلك. فقد نظر اولا الى الساعة الموضوعة على الطاولة امامه، ثم الى الملف الجلدي الذي تضمن النقاط التي أراد بحثها، قبل ان يبادر الى القول:

- اريد ان اناقش أهم مسألة تجابه أمتنا، وهي مسألة نجابهها ايضا في المجال الدولي: انها مسألة التضخم المالي. ذلك لان وضعنا الاقتصادي يحتمل ان يكون قضية العالم الرئيسية اليوم.

يا الهي! لقد كنت أظن ان هذه المناسبة ستكون اشد المناسبات خطورة، وان نيكسون سيجابه فيها التهديد الموجه الى رئاسته. وها انا أُفاجأ بخوضه الوضع الاقتصادي بمثل هذا الاسهاب! فصرت كلما أصغيت اليه ازدادُ خوفا وارتقابا. فقد راح يتحدث في امور لا تمت بصلة الى الظروف التي تواجهه كما تواجه الأمة جمعاء. وشعرت بانها محاولة سخيفة ومضحكة لانها تتحاشى القرارات القاسية الواجب عليه اتخاذها.

وفجأة تحوّل نيكسون في حديثه الى ووترغيت والادلة الجديدة، وذكر وكالة المخابرات المركزية والمكتب الفيديرالي للتحقيقات، وقال ان اهتمامه الاول هو الأمن القومي، وان هناك "شؤونا سياسية معينة" جرى بحثها. وأضاف: "أظن من اللائق في الظروف الراهنة ان اسمح بالاطلاع على الأشرطة المسجلة"، وهي الاشرطة التي سجلت عليها محادثاته يوم ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ حول استخدام وكالة المخابرات المركزية لعرقلة تحقيقات المكتب الفيديرالي للتحقيقات. وقال انه لا يريد لمجلس

النواب ان يصوت على موضوع احالته الى المحاكمة قبل ان تتوافر لهذا المجلس جميع الحقائق. وأقر بان بعض المعطيات الجديدة يلحق به الضرر، بينما بعضها الآخر يبرّئ ساحته، وانه لم يكن هناك "انتهاك متعمّد للقانون" ولا عرقلة للعدالة، وكل ما في الامر انه "لم يرد ان تختلط الامور الامنية بهذه المسألة الخرقاء".

كان نيكسون جالسا ووراءه النافذة المطلة على الحديقة الجنوبية. وأردف: "ان اجماع الرأي في مجلس النواب يُظهر اننا سنخسر"، وكان يشير بذلك الى المناقشة التي تقرر بدؤها في ١٥ أغسطس (آب)، حول امكان احالته الى المحاكمة. غير اني اريد اظهار الحقائق، وسأتحمل أي ضربات تكال لي. واني مقتنع، بعد استشارة اناس أوفر مني علما بالقانون الدستوري، بانه ليس هناك بينة لذنب يستوجب المحاكمة.

"وأنا على استعداد لتقبل اي حكم يصدره مجلس الشيوخ بحقي، علما بأن النتيجة قد تكون غير مشجعة. لكني أريد ان افعل ما هو الصواب في حق الامة وفي حق نفسي ايضا، ولكن الامة تأتي في المقام الاول. وأنا من اصحاب وجهة النظر القائلة بعدم اتخاذ خطوة من شأنها ان تبدل الدستور وتشكل سابقة للرؤساء في المستقبل. وقد يخالفني بعضكم في هذا الرأي - وانا احترم ذلك - غير اني اتخذت القرار، وأنا اطلب منكم تأييده".

وكان على وشك الانتقال الى موضوع آخر حين قررت انه يتوجب علي ان اتكلم الان والا ضاعت اللحظة، فقلت: "سيدي الرئيس".

وشعرت بان كل الانظار اتجهت نحوي.
- ان لدي ما أقوله لو تكرمتم بافساح المجال.
□ تفضل، قل يا جيري.
- ان جميع الحاضرين هنا يعلمون حقيقة موقفي الحرج. وليس هناك من يأسو لمثل هذه التطورات المؤسفة اكثر مني. وانا اشعر تجاهك وتجاه افراد اسرتك الكريمة بتعاطف شخصي عميق. ولكني اريد ان أؤكد لك بانه لو سبقت لي معرفة ما انكشف عن ووترغيت خلال الساعات الاربع والعشرين الماضية، لما كنت أدليت بعدد من التصريحات التي اعلنتها بصفتي نائبا للرئيس.

بعد ذلك بحثت امور أخرى، وعاد نيكسون الى موضوع الاقتصاد مجددا. وقد حاول جورج بوش، رئيس اللجنة القومية للحزب الجمهوري، ان يوجه الاهتمام من جديد الى قضية الساعة الكبرى، قائلا انه ينبغي تدبر موضوع ووترغيت دونما ابطاء، لان انعدام الثقة الشعبية أثر في الاقتصاد. على ان نيكسون اهمل ملاحظته وأضاف كلاما حول خفض الموازنة والاستراتيجية الاقتصادية، قائلا ان خير ما نفعله هو الدعوة الى عقد مؤتمر قمة اقتصادي.

وهنا قاطعه الشيخ السابق وليم ساكسبي، الذي عيّن مدّعيا عاما، بقوله: "في ظني، سيدي الرئيس، ان الواجب ليس عقد مؤتمر قمة، بل التأكد من أن لك القدرة على الحكم".

وللتو تغير جو القاعة وأطبق عليها صمت ثقيل. وأخيرا اجاب نيكسون بصوت مجرد من الانفعال: "أجل، لدي القدرة يا بيل تماما مثلما كانت لي خلال السنوات الخمس ونصف السنة الماضية".

وأحس وزير الخارجية هنري كيسينجر بأن الاجتماع قد يتحول الى مشهد بشع مشحون بالضغائن، فتدخل قائلا: "ان المرحلة التي نجتازها مرحلة صعبة من كل الوجوه. وعلينا ان نبدي الثقة ونظهر ان البلاد قوية ما فيه الكفاية للمضي قدما في الاجراءات الدستورية".

وأخيرا، وبعد مضي ساعة و٣٧ دقيقة، دفع نيكسون مقعده الى الوراء واعطى اشارة بأن الاجتماع قد انتهى. فحملت اوراقي ومشيت بأقصى سرعة ممكنة الى خارج المبنى. وعلمت في وقت لاحق بأن كيسينجر لحق بالرئيس الى المكتب البيضوي وابلغه باسلوب غير مباشر بضرورة استقالته.

استدعاء رئاسي

كعادتي كل اربعاء، توجهت صباح الاربعاء ٧ أغسطس (آب) بالسيارة الى "كابيتول هيل" لتناول الفطور في مبنى جمعية "تشودر ومارشينغ" التي انتميت اليها منذ أسسها النواب الجمهوريون في المجلس عام ١٩٤٩. وما كدت اجتاز منتصف الطريق حتى نقل الي سلك المخابرات السرية رسالة من هيغ يقول فيها "إنس موضوع الفطور ودعنا نلتقي في مكتبك بأسرع ما يمكن".

ووصل هيغ الى مكتبي قبيل الساعة الثامنة، وقال لتوّه: "سيدي نائب الرئيس، أظن أن الوقت حان لان تستعد لتسلم مهمات الرئاسة".

الا انه قرن اعلانه ببعض تحفظات، موضحا ان نيكسون لم يتخذ بعد قرارا نهائيا، وان كان هيغ يظن انه على

وشك ان يفعل ذلك. عندئذ استدعيت بعض اعواني وطلبت اليهم بالحاح ان يُعدوا لي، في أسرع وقت ممكن، اسماء فريق انتقالي لتسلم المناصب الحكومية. والواقع اني كنت طلبت بعد ظهر اليوم السابق من هارتمان ان يعد مسودة لخطاب قبول منصب الرئيس. وما كان من هارتمان الا ان ذهب الى احدى دور السينما حيث استسلم ساعات للنوم، ثم نهض في الثالثة صباحا ليباشر الطقطقة على الآلة الكاتبة التي ما برح يطقطق عليها حتى هذه اللحظة. وهذه كانت عادته كل مرة اطلب اليه اعداد خطاباتي: يماطل في كتابتها الى ان يقترب موعد القائها، فيعمل تحت ضغوط جمة. ولقد كنت أستاء من تصرفه هذا وأقلق كثيرا بسببه.

لكن الحق يقال انه ما تقدم الي يوما بخطاب الا من الطراز الاول. ولم يشذ خطاب القبول عن الجودة المعهودة. وما ان شرعت في قراءة المسودة حتى جاشت العواطف في صدري. وترقرق الدمع في عيني حين طالعت قوله: "أنا لست مدينا لامرىء في هذه الدنيا، وانما انا مدين لامرأة هي زوجتي العزيزة".

لكم كان هارتمان متفهما حقيقة مشاعري. وبعدها قرأت سطرا جاءت فيه العبارة الآتية: "يا ابناء وطني ان كابوسنا القومي الذي طال أمده قد تبدد الآن". وبدا لي في هذا التعبير قسوة حادة على نيكسون، وسألت هارتمان ان كان من الافضل الاستعاضة عنه بقول آخر، فأجاب: "كلا! كلا! انه كابوس للجميع - لك انت، ولي انا، ولاصدقاء نيكسون واعدائه على حد سواء، ولكل مواطن في هذه الديار. انها قولة ينبغي ذكرها، وأنت الوحيد الذي يمكنه قولها".

لقد كان هارتمان محقا في رأيه. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا اتجهت الى مكتب جون رودس، زعيم الاقلية في مجلس النواب، لحضور جلسة الصلاة الاسبوعية كعادتنا كل يوم اربعاء. وضم مجلسنا ايضا نائب ولاية مينيسوتا البرت كيوي ونائب ولاية ويسكونسن السابق ميلفين ليرد. وكنا قد درجنا على عقد هذه الاجتماعات منذ أمد طويل، حيث كانت صلاتنا تتخذ على الدوام الشكل الآتي: يبدأ أي واحد منا بصلاة بسيطة، ثم ننتقل من شخص الى آخر من دون دور معيَّن الى ان يكمل الرجل الاخير صلاته، وعندئذ نشترك جميعا بصوت واحد في تلاوة الصلاة الربّانية "أبانا الذي في السموات...". ولم يذكر احد منا في هذا اليوم الازمة المستفحلة في عاصمة البلاد، ولم يكن هناك داعٍ لذكرها، اذ لم تكن تضرعاتُ الآخرينَ سوى ابتهالات من أجلي شخصيا نظرا الى احتمال تسلمي منصب الرئاسة. وقد سألت في صلاتي عونه تعالى وتأييده في مؤازرة الاخوان لي حيال التحديات الجديدة التي لا مفر من مواجهتها.

واتصل بي هيغ صباح اليوم التالي وقال بصوت هادىء لمست فيه نبرة الانفراج: "الرئيس يود مقابلتك. ولا اخالك الا عارفا ما يريد التصريح به". وبعد عشر دقائق بالتمام دخلت البيت الابيض، وتوقفت لحظة عند مكتب هيغ باحت خلالها عيناه بكل ما احتجت الى معرفته، ومضيت وحدي الى المكتب البيضوي.

كان نيكسون جالسا وراء طاولته. وما ان فتحت الباب حتى هب واقفا لاستقبالي. فتصافحنا ودعاني الى الجلوس عن يمينه.

رمى الرئيس بكاهله الى الوراء عندما جلس على كرسيه، بينما اشتبكت يداه فوق حضنه وارتسمت على وجهه ملامح الجد والرزانة. لقد كان يعاني، ولا ريب، ضغوطا هائلة شتى، وكانت امارات التوتر بادية في جلسته. الا انه كان مسيطرا على نفسه، وراح يخاطبني بلهجة بطيئة متعمدة، متقحما صلب الموضوع من غير تمهيد:

- لقد توصلت الى قرار الاستقالة خدمة لمصلحة الوطن. وأنا لا أريد الخوض مطلقا في حسنات القرار او سيئاته. وكل ما في الامر انني اتخذت القرار وكفى.

وتوقف هنيهة عن الكلام، ثم اردف:

- جيري، انا واثق من انك ستحسن العمل.

وما ان فرغ من قول هذا الكلام حتى انفرجت أساريره وغدا الحديث بيننا أكثر عفوية وعلى جانب من الظرف. وراح - وقد نفض غبار الاعباء عن نفسه - يسدي الي النصح باعتباري صديقا قديما له. وتحدثنا عن توقيت الفترة الانتقالية وترتيباتها، وقرر نيكسون ان يعلن نبأ استقالته على شاشة التلفزيون تلك الليلة، على ان تصبح الاستقالة نافذة اعتبارا من ظهر اليوم التالي، اي يوم الجمعة، لانه اراد ان يغتنم فترة الصباح في توديع اعوانه المخلصين وافراد اسرهم في القاعة الشرقية من البيت الابيض. واعرب عن أمله في ان اتفهم طبيعة رغبته،

واستطرد انه سيكتب الى هنري كيسينجر، وزير الخارجية، رسالة يعلن فيها نبأ استقالته، وان الرسالة ستبلغ كيسينجر في الوقت الذي يكون نيكسون خارج منصب الرئاسة وفي طريقه الى سان كليمنت كأي مواطن عادي. وعندئذ يمكنني ان أؤدي اليمين الدستورية.

ولم يظهر نيكسون في لقائنا ذاك اي حقد او مرارة تجاه الناس الذين كان ينتقدهم سابقا امامي. ولم يعلق بكلمة على ما تقوله الصحف. ولم يتطرق مطلقا الى ذكر ووترغيت. لكنني سمعت ان النقاش الذي دار مع افراد اسرته حول قرار الاستقالة كان حاميا. بيد ان الرئيس لم يأت على ذكر ذلك مطلقا. وأحسست انه قد اتخذ قراره وانتهى الامر في نظره، وغدا همه الوحيد الان تحقيق انتقال السلطة في هدوء ونظام.

دامت مقابلتي مع نيكسون سبعين دقيقة، بحث خلالها باقتضاب كل موضوع ذي بال. ولما نهضت مستأذنا وتوجهت نحو الباب، طوقني بذراعه فقلت في نفسي: "ها هو ذا صديقي القديم الذي اتخذ قرارا سيبدل مجرى حياة كلينا. وها هو يتمنى لي الخير العميم لا لمصلحتي فقط، وانما للبلاد كلها". وخانتني طلاقة اللسان في تلك اللحظة نظرا الى احتدام العواطف التي جاشت في نفسي. ولم ازد على القول له: "حسنا، أراك غدا. تمنياتي الى بات والاسرة". ولكن حتى هذه الكلمات الخفيفة النبرة لم تخرج بسهولة من فمي. وأجاب الرئيس: "انك وبيتي ستحبان العيش في هذا البيت. سنراكم غدا".

وتصافحنا مودعين، ومشيت مسافة الاربعين خطوة التي تفصلني عن سيارة الليموزين في الباحة من دون ان التفت ولو مرة واحدة الى الوراء او ان ارفع نظري الى رجال الخدمة السرية المرافقين لي خشية ان أفضح مشاعري. وكنت احدد النظر الى السيارة المنتظرة امامي، متمنيا ان يفتح لي هؤلاء الرجال بابها بلمح البرق كيما اقبع داخلها وحيدا واخلو الى نفسي.

جوهر الديموقراطية

لا تزال هناك امور عدة ينبغي انجازها، كاختيار مكان أداء اليمين الدستورية والشاهد الذي سأؤدي اليمين امامه، واعداد لائحة باسماء الضيوف، وانتخاب ناطق صحافي جديد، والموافقة النهائية على الكلمة التي سألقيها في الحفل.

لقد جرت التقاليد على ان يؤدي معظم رؤساء الولايات المتحدة اليمين الدستورية على مدرج "الكابيتول". وكعضو سابق في الكونغرس كنت افضل اختيار هذا الموقع. على ان الوقت لا يتسع لاعداد الترتيبات اللازمة، ناهيك بان اختيار "الكابيتول" يضفي على المناسبة جوا من الاحتفال والبهجة لم تكن البلاد في مزاج لتقبله. ولهذا شعرت بان القاعة الشرقية من البيت الابيض انسب واكثر اتضاعا. وهنا سألني هارتمان: "من تريد ان يستحلفك اليمين الدستورية؟"

انه لامر مهم جدا ان اظهر في هذه المناسبة ان الحكومة بفروعها الثلاثة انما تعمل في تناسق ووئام. فاقترحت اسم وارين بيرغر، رئيس المحكمة العليا الذي كان يحضر آنذاك مؤتمرا في لاهاي. فاتصل به مارش هاتفيا. وبعد دقائق أومأ الي بان

اكلمه، فقلت له: "حضرة الرئيس، اظن انك سمعت الاخبار. كم يسوؤني ان اقطع عليك رحلتك، ولكن يسعدني ان تكون معنا هنا في احتفال اداء اليمين".

وقاطعني رئيس المحكمة العليا بسرعة: "اوه. ان الواجب يحتم ان اكون معكم. لا بل اني اريد ان اكون هناك".

واتصلت ايضا بتوماس اونيل الابن (الذي كنا ندعوه "تيب") زعيم الاكثرية الديموقراطية في مجلس النواب. وكنا قد لعبنا معا قبل ثمانية ايام في مباراة للغولف والتقطت لنا مجلة "نيوزويك" صورة فيما كنا نمشي في ممر على جانب النهر وقد القى كل منا ذراعه على كتف الآخر. وكان موضوع تلك الصورة فاتحة حديثي معه. بيد اني دخلت في لب الامر بسرعة نظرا الى ان نيكسون كان سيقدم استقالته الى كيسينجر في الساعة العاشرة صباحا وستصبح نافذة عند الظهر. وقد احببت ان يحضر تيب اداء اليمين الدستورية. وسرعان ما سألني: "هل الزوجات مدعوات ايضا يا جيري؟ اني أسألك لانه سبق لي ان طلبت من زوجتي ميلي ان تعد نفسها!" فأجبته: "الزوجات، يا تيب، غير مدعوات، لكنهن الان اصبحن مدعوات فعلا".

وصمت تيب هنيهة، ثم قال: "اسمع يا جيري، لقد اعددت بيانا لالقيه في الاحتفال، واود ان تسمعه".

وصمت مرة اخرى ثم بدأ يقرأ: "اننا صديقان حميمان في علاقتنا الشخصية. وانا اكن لنزاهته وكرامته وقدراته احتراما عظيما، على رغم ان فلسفتنا السياسية على طرفي نقيض. واني اتمنى له النجاح في التقريب بين اجزاء بلادنا الممزقة حاليا، وله ان يتوقع التعاون من جانب الكونغرس وانا واثق من انه سيتعاون مع الكونغرس وبقية الكيان الامريكي في الايام المقبلة".

- رائع يا تيب. واريد ان اوكد لك اني ساعتمد علك في اسداء المشورة وتقديم العون.

وتنهد تيب وقال:

- اليست بلادنا رائعة وعظيمة يا جيري؟ ها نحن نتكلم الان هذا الكلام وفي امكاننا ان نكون صديقين، علما باني بعد ثمانية عشر شهرا من الان سأجول في طول البلاد وعرضها لاركلك باقصى ما اوتيت من عزم واسدد اليك الطعنات والانتقادات بلا هوادة.

ما اغرب هذا الاسلوب وما اعجبه اذ يخاطب به احد الناس رئيسا جديدا للولايات المتحدة! انه صورة طبق الاصل عن طباع تيب اونيل.

والواقع ان ملاحظته تلك احتوت على مقدار عظيم من الصحة. فنحن فعلا صديقان حميمان، ولكننا في ميدان السياسة عدوان لدودان. وانا لم اشك قط في انه سيبر بوعيده في اقل من ثمانية عشر شهرا، ولكن... اليس هذا هو جوهر الديموقراطية؟

المواجهة

توقعنا وصول ابننا البكر مايك وزوجته غيل من ولاية ماساتشوسيتس، ولكن لم اجدهما في المنزل عندما وصلت اليه في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين مساء. وكذلك ابننا الأوسط جاك لم يحضر بعد بطريق الجو من بيلوستون ناشونال بارك. لكن سوزان وستيفن

كانا موجودين، وقد فرغا للتو من تناول طعام العشاء. وبدا في تصرفهما تحفظ غير عادي لدى جلوسنا في الدار. وعلى رغم انهما لم يعرفا اسرة نيكسون معرفة وثيقة، الا انهما حزنا لما حصل واحسا بالحذر والرهبة ازاء ما سيطرأ على حياتنا من تبدّل.

كان متوقعا ان يظهر نيكسون على شاشة التلفزيون الساعة التاسعة. والواقع أني لم اقو في لحظات انتظاري على مقاومة استرجاع الماضي وروابطي وعلاقتي الطويلة به. فقد كان نيكسون من اول الزملاء الاوائل الذين التقيتهم بعد ادائي القسم الدستوري كعضو في مجلس النواب في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٤٩. وقد تلاقت دروبنا السياسية على مر الايام عبر السنوات الخمس والعشرين التالية مرات ومرات، وتوطدت بيننا اواصر الصداقة. لقد كان نيكسون متوقد الذهن وذا حساسية مرهفة في ما يتعلق بالجو السياسي في البلاد. وهو محنك وذو قدرة فذّة على تحليل شؤون السياسة الخارجية والنفاذ اليها والبت فيها بحزم وصرامة. والحق ان سر قوته كان في اتخاذه القرارات الكبرى. وسجله في هذا الميدان قمة شاهقة. بيد انه كان يأنف من تفاصيل الامور ويسره تفويضها الى مرؤوسيه. وذلك لعمري واحد من الاسباب الكثيرة التي افضت الى استقالته الآن.

ان في معظم الناس عيوبا خفية او خصالا ملتوية لا تطفو على السطح الا نادرا. اما عيب نيكسون الظاهر فهو كبرياؤه واحتقاره ضعف الآخرين. وكثيرا ما سمعته يتكلم بخفة عن اولئك المتلونين الذين يسهل قيادهم حيثما تهب الريح. ودارت بي الافكار وانا جالس في دار منزلنا الى موضوع ووترغيت، ولم ادر ما اذا كان نيكسون قد علم مسبقا بأمر السطو. ولكن لم استطع تصور علمه بذلك، وان كشفت الاشرطة المسجلة الجديدة عن معرفته بالسطو بعد وقت قصير من وقوعه. بيد اني تفهمت الدوافع التي حملته على الشعور بأنه وقع في الفخ وان لا مخرج له منه. فبعض الذين تورطوا في السطو كانوا، مثل جون ميتشل، اصدقاء مقربين اليه، ولم يشأ ان يرغمهم على دفع الثمن او مواجهة العواقب. وحالت كبرياؤه دون ادراكه لفداحة الذنب، واعتبر الاعتراف بالحق ضعفا. وهذا في ذاته خطأ آخر.

واقتربت الساعة المرتقبة، وارتسم على شاشة التلفزيون ذلك الوجه المألوف، واستهل الرئيس كلمته قائلا:

"مساء الخير. شعرت طوال فترة ووترغيت الصعبة الطويلة ان من واجبي ان امضي قدما بثبات وان ابذل كل جهد ممكن لتولي مسؤولياتي طوال الفترة التي انتخبتموني لها. ولكن اصبح من الجلي خلال الايام الاخيرة انه لم تعد لي قاعدة سياسية قوية في الكونغرس تبرر استمراري في بذل تلك الجهود".

"لقد كان يتملكني شعور قوي بضرورة المحافظة على استمرار الاجراءات الدستورية حتى ختامها ما دامت لي في الكونغرس مثل تلك

القاعدة، لان الاقدام على اتخاذ خطوة بديلة لن يكون وفاء لروح تلك الاجراءات العسيرة المتعمدة، وانما ستصبح سابقة خطيرة لعدم الاستقرار مستقبلا. اما الآن وقد تلاشت القاعدة التي اعتمدتها في الكونغرس، فقد بت اشعر بأن اهداف الدستور استوفيت، ولا داعي لاطالة الاجراءات، خصوصا لان المضي في الكفاح عبر الاشهر المقبلة لتبرئة ساحتي سيستغرق معظم الاهتمام والوقت من الرئيس والكونغرس معا في زمن يتوجب توجيه كامل انتباهنا الى القضايا العظمى - قضايا السلام في الخارج والازدهار من دون تضخم في الداخل".

"لذلك، سأستقيل من منصبي اعتبارا من ظهر يوم غد".

طالت خطبته خمس عشرة دقيقة، واقتنعت لدى نهايتها بأن نيكسون لم يكن على صلة بالواقع. واذهلني منه ربط الاستقالة بفقد القاعدة المؤيدة له في الكونغرس. ولا يزال هذا الامر يؤرقني حتى الآن. فلو كان نيكسون على جانب اكبر من الاسف والندامة وطلب الى الامة الامريكية ان تغفر له زلته، لاستجاب الناس له بحرارة اعظم. غير انه لم يستطع ان يخطو خطوته الاخيرة في ذلك الدرب.

اذا، هذه ليلتي الاخيرة نائبا للرئيس. وها ان احتمالات التبدل في حياتي تحبس النوم عن جفني فترة اطول من المعتاد.

"في امكاننا فعلها"

وصلت صباح اليوم التالي الى المكتب التنفيذي القديم الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة عشرة، وراجعت خطبتي ثانية، وعالجت امورا اخرى، مدركا ان نيكسون كان في اللحظة يودع اعضاء حكومته وموظفي البيت الأبيض. ولم احضر شخصيا حفلة الوداع. ولكن اخبرت في وقت لاحق ان ملاحظاته كانت فلسفية الطابع، اذ قال لمستمعيه: "تذكروا دائما ان الآخرين قد يبغضونكم، ولكنهم لن يفوزوا بشيء ابدا ما لم تبادلوهم انتم ايضا البغض. وعندئذ تدمرون انفسكم". ولو عمل هو بمقتضى نصحيته للآخرين، لما ازفت هذه الساعة.

وبعيد التاسعة والدقيقة الثلاثين، تلقيت اشعارا بان اسرة نيكسون على وشك المغادرة، فأنضممت انا وبيتي اليهما في قاعة استقبال الديبلوماسيين في الطابق الارضي من البيت الابيض. وكانت طائرة هليكوبتر جاثمة فوق ارض الحديقة الجنوبية بانتظار نقل نيكسون وزوجته الى قاعدة سانت اندروز التابعة لسلاح الجو. فمشينا نحن الاربعة نحو الطائرة، وكان الوداع مؤلما جدا لنا جميعا، وكنا كلنا، بلا استثناء، نتصنع الشجاعة ونتظاهر بالقوة. وما ان بلغنا باب الطائرة حتى وقفنا متمنين لنيكسون وزوجته السعادة والصحة الطيبة. فأمسكني الرئيس من مرفقي وأبقى قبضته لثوان اطول مما ينبغي، كأنما اراد أن ينوب بذلك عن قوله: "اتمنى لك حظا سعيدا". واخيرا حانت اللحظة المرتقبة، فنطق نيكسون بالكلام قائلا: "وداعا سيدي الرئيس".

ومد يده مصافحا، فقلت له: "وداعا سيدي الرئيس".

وتصافحنا وتراجعت انا وزوجتي خطوات، فيما ارتفعت الطائرة قليلا فوق الارض. ولوحت له بيدي للمرة الاخيرة، ثم خطفت يد بيتي وقلت لها: "في امكاننا فعلها... اننا على استعداد". ولم تجب بيتي، ولكنها نظرت الى عيني وابتسمت.

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين، غادرت مكتب نائب الرئيس ومشيت نحو الغرفة الحمراء في البيت الابيض حيث كانت بيتي في انتظاري. وما هي الا دقائق حتى سرنا برفقة الحرس الى الغرفة الشرقية الغاصة بالناس، وقد تبينت بينهم اولادنا الذين سددوا نظراتهم الي بمهابة واعتزاز في آن واحد.

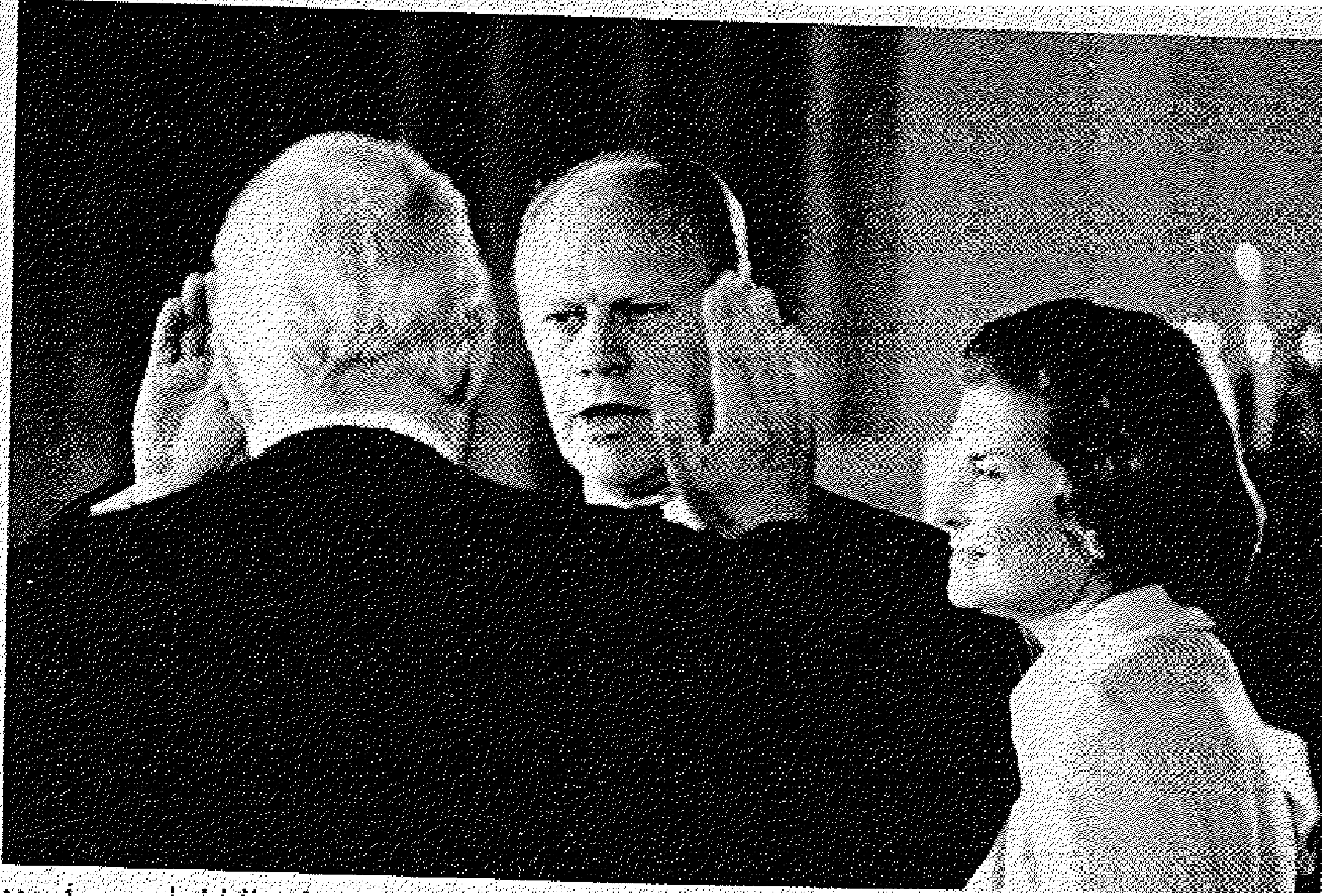
وللتو شرع رئيس المحكمة العليا السيد بيرغر يستحلفني قائلا:

- سيدي نائب الرئيس، هل انت مستعد الآن لأن تؤدي اليمين الدستورية لتنصيبك رئيسا للولايات المتحدة؟

كانت بيتي تحمل الكتاب المقدس، فوضعت يدي فوقه وكررت القسم بعد بيرغر. ثم تقدمت الى المنصة متيقنا من ان اعين العالم تراقبني، وشرعت اقول:

"ان اليمين التي اديتها هي اليمين الدستورية عينها التي اداها جورج واشنطن وكل رئيس للولايات المتحدة من بعده بمقتضى الدستور. غير اني اتسلم مهمات الرئاسة في ظروف غير عادية لا عهد للامريكيين بمثلها من قبل، وان هذه لساعة من التاريخ تؤرق الفكر وتؤلم القلب.

"ولهذا اشعر بانه من واجبي في



جيرالد فورد يؤدي اليمين الدستورية كرئيس للولايات المتحدة بعدما استحلفه رئيس المحكمة العليا وارين بيرغر يوم ٩ اغسطس (آب) ١٩٧٤. وتبدو السيدة فورد الى اليمين.

حدثان الامر ان اتقدم متضامنا مع ابناء وطني لا بخطاب استهلالي ولا باقصوصة تروى حول مواقد النار ولا بخطبة حملة انتخابية، وانما بميثاق لم يسبق له مثيل، هو مجرد كلام صريح قصير بين اصدقاء.

"اني مؤمن بان الحق هو الغراء الذي يلاحم بين اطراف الحكومة. ولا اعني حكومتنا فقط، بل المدنية ذاتها. ولئن كان ذلك الوثاق قد أجهد او توتر، الا انه لم يستدع، لا في الوطن ولا خارجه.

"واني، بصفتي رئيسكم، اتوقع ان انهج في كل اعمالي الخاصة والعامة نهج ما تمليه علي فطرتي في الصراحة والانفتاح، واثقا من ان النزاهة خير سياسة على الدوام.

"يا ابناء وطني، ان كابوسنا القومي قد انتهى وزال. والدستور هو الباقي. وجمهوريتنا العظيمة هي حكومة قوانين لا حكومة رجال. وهنا الشعب هو الذي يحكم.

"لقد سألتكم في بدء كلامي ان تصلوا من اجلي. وها انا في ختام اتوجه اليكم طالبا صلواتكم من اجل ريتشارد نيكسون واسرته، لعل الرئيس السابق الذي اتى بالسلام الى الملايين يجد سلاما لنفسه.

"واني – بكل ما اوتيت من قوة وم اكسبتني اياه الحياة من حكمة وبكافة ما يولينى افراد اسرتي واصدقائي والموظفون المتفانون في اعمالهم من ثقة، وبكل النيات الحسنة من عدد لا يحصى من الامريكيين – اؤكد بحزم تعهدي بأ

احافظ على الدستور وان اعمل ما هو حق حسبما يلهمني الله، وان ابذل قصارى جهدي من اجل امريكا.

"وبأزر الله وعونه، لن أخيب آمالكم".

"مدمنو ووترغيت"

حين اصبح جون كينيدي رئيسا عام ١٩٦١، ناشد الشعب بفتح "الحد الجديد" واقسم على ان يقودنا بعيدا عن سلبية عهد ايزنهاور. اما ليندون جونسون فقد كانت لديه رؤى افخم وأجل عندما أكد ان في امكان الحكومة الاتحادية ان تفعل اي شيء حالما تتوافر له الاموال. وتعهد ريتشارد نيكسون بان "يؤلف ما بيننا ويجمع شملنا"، واذا برئاسته تحقق نتيجة معكوسة. وها هي البلاد منذ ايام جون كينيدي تتقاذفها ضربات من حوادث الشغب في مدننا الكبيرة والاغتيالات السياسية وحرب دموية مفرقة للشمل ومسببة للشقاق. اضف الى هذه وتلك بهرجة مشهد ووترغيت السقيمة. فلا غرابة، اذاً، ان شعرت عندما اصبحت رئيسا بأن ما نحتاج اليه هو وقت للشفاء.

ان السنوات المثقلة بالفضائح والشكوك والارتياب بلغت اوجها في استقالة نيكسون، وحطت من معنويات امتنا التي فقدت ثقتها برؤسائها المنتخبين وبمؤسسات حكومتها. وما لم اقم انا بما يرد اليها الثقة والاعتبار، فلن افوز بموافقتها على الاتيان بأي عمل آخر.

وقد قال برايس هارلو ان اثمن ما يمكن ان ارجو تحقيقه في ايامي الاولى هو ان استبدل عبوس الامة بابتسامة. ولم يسعني سوى الموافقة على ملاحظته، خصوصا لان نيكسون احجم عن الحديث الى المراسلين وامتنع عن التعامل مع الكونغرس وانقطع عن مخاطبة الشعب. وقد ترتبت على مهمة النهوض بهذه الامور الثلاثة مجتمعة.

كانت علاقاتي مع الصحافيين ممتازة منذ ايام عضويتي في الكونغرس وخلال الفترة التي قضيتها نائبا للرئيس. وكنت فعلا اتطلع بشوق الى مؤتمري الصحافي الاول يوم ٢٨ اغسطس (آب). وتوهمت ان رجال الصحافة سيركزون اهتمامهم على الاقتصاد واعادة تنظيم موظفي البيت الابيض والمبادرات التي نويت اتخاذها في السياسة الخارجية. لكن هارتمان لم يشاركني تطلعاتي الى المؤتمر، بل حذرني من ان السلك الصحافي لا يكترث الا لقضية واحدة هي قضية نيكسون. فكيف اواجهه؟ لكني لم اعر وضع نيكسون القانوني اي تفكير، خصوصا لان سلطات مسؤولة كانت تنظر في امره. وبدا لي من غير اللائق ان توجه الصحافة الي اسئلة عن رجل مصيره مرهون في يد المدعي العام المختص بقضيته والمحاكم. ولكن اقر بأني كنت على ضلال في رأيي. فما ان ابتدأ المؤتمر حتى انطلق السؤال الاول من مندوبة وكالة "يونايتدبرس"، هيلين توماس، حول ما اذا كنت اعتقد انه يجب ان يتمتع نيكسون بالحصانة. وتوالت بقية الاسئلة التي لم تعد كونها تنويعات للنغمة ذاتها.

وبعد انتهاء المؤتمر عدت الى مكتبي، وسألت مستشاري كم سيدوم اهتمام الصحف بهذا الموضوع وهل

ستوجه الي الاسئلة كل مرة عن مصير نيكسون. فأجابوا جميعا بالتأكيد، قائلين ان السؤال باق ما بقي وضع نيكسون القانوني ومصير اوراقه واشرطته غامضين.

والانكى من ذلك كله هو ادراكي في ما بعد ان اجاباتي يمكن بل يرجَّح تفسيرها من وجوه عدة. فقد اجبت، مثلا، عن سؤال هيلين توماس عما اذا كنت اوافق على رأي نيلسون روكفلر في وجوب منح ريتشارد نيكسون حصانة من النيابة العامة بالايجاب، بينما قلت ردا على سؤال آخر اني اعتقد "ان المدعي العام ملزم بأن يتخذ اي اجراء مناسب في حق اي فرد وفي حق الجميع". هذان الجوابان متناقضان في فحواهما، ولم ادر كيف اتحاشى مثل هذا التباين.

ان البلبلة التي ادركت انها ستنجم عن ملاحظاتي والاحساس بان الغموض سيزداد الى ان تسوّى قضية نيكسون نهائيا دفعاني الى مجابهة المسألة باسلوب مباشر سعيا الى ازاحة هذا الحمل الذي تربع كالقرد فوق كتفيّ. وكنت فعلا قد بدأت اصارع في ذهني سؤالا مهما هو: من الذي له الحق الشرعي في اوراق نيكسون وأشرطته؟ لان الموضوع بدأ يقحم نفسه في جدول اعمالي بالحاح متزايد يوما بعد آخر وينهب اوقاتي التي كنت في أمس الحاجة اليها للنظر في الشؤون الاقتصادية المضطربة والمشكلات السياسية الخارجية المتراكمة في ارجاء العالم. وهكذا لم يعد يمكنني، في غمرة ضغوط القضايا المهمة الحرجة التي اخذت تضيق الخناق علي وعلى امتي كلها، ان اعطل كل عمل آخر لا لشيء سوى الرد على سيل لا ينقطع من الاستفهامات عن وضع نيكسون القانوني.

وهكذا، انتحيت عقب المؤتمر الصحافي الاول بمساعدي القانوني فيل بوكن وقلت له: "يا فيل، لست ادري ما الذي ساقرره. انما يجب ان احصل على بعض المعلومات. وقد أردت ان اعلم ما اذا كان يحق لي، بصفتي رئيسا، ان اعفو عن شخص لم تسبق محاكمته او ادانته. وهل يمكن ان اصدر عفوا لا يتضمن اشارة الى جناية محددة؟ وهل يجوز اصدار عفو عام؟

وفي الايام التالية أعطيت احتمال العفو اعتبارا مستمرا ومؤرقا. على اني، وان كنت لم اتوصل بعد الى قرار محدد، الا ان عددا من الاستنتاجات الرئيسية بدأ يتبلور ساعة بعد أخرى ويتجسد اكثر فأكثر. وكان في مقدم ما اخذته في الحسبان عدم اقتناعي بان البلاد تريد ان ترى رئيسا سابقا للولايات المتحدة سجينا خلف القضبان. فنحن شعب يتوق ليس الى الانتقام بل الى الغفران. وهذه سمة متأصلة في صميم التقاليد الامريكية. وفي نظري ان نيكسون قاسى ما فيه الكفاية وان استقالته كانت اعترافا ضمنيا بالذنب وانه سينوء على مدى الايام تحت ثقل علمه بان افعاله حطت من قدره في أعين مواطنيه. ومع ذلك، لم تكن دوافعي منبثقة أساسا من الشفقة لمصابه او القلق على وضعه الصحي، وانما الذي قضّ مضجعي هو حال بلادنا الصحية.

لقد صدق الميجور بوب باريت، احد الاعوان العسكريين، حين قال: "نحن جميعا مدمنون على ووترغيت. بعضنا يتعاطاها حقنا في العروق، وبعضنا يستنشقها بالشم، والبعض الآخر يضيف اليها "رشة" لتغيير نكهتها. ولكننا كلنا مدمنون عليها، وسيستمر هذا الادمان الى ان يقوم بين الناس قائم يعلن على الملأ اننا كأمة يتوجب علينا ان نكف عن تعاطيها على الفور وان ننقطع عنها نهائيا، والا متنا من فرط تجرعها".

ما خالجني شك مطلقا في ما سيحدث لو سمحت للتهم الموجهة الى نيكسون بأن تأخذ مجراها القانوني. عندئذ ستأخذ القضية أشهرا طويلة بين اجراءات توجيه التهمة واجراءات المحاكمة، وسيستغرق البت فيها نهائيا سنوات. فان قصر امدها فلن تنتهي قبل عامين على الاقل، وان طال دامت ست سنوات كحد اقصى. وفي خلال ذلك ستهيمن قصتها وتطغى على كل شيء سواها، ولن تقوى على منافستها اي قضية اخرى. فأي مشهد سيكون اشد اثارة من مشهد رئيس دولة سابق يجاهد من أجل بقائه خارج السجن؟ وسيستحيل عندئذ توجيه الانتباه الى اي مشكلة اخرى، وستجتاح البلاد لسنوات امواج متلاطمة من المماحكات والمهاترات مما سيعود عليها بالوبال، في حين انها تحتاج الى الانتعاش لا الانتقام، والى تنقية الكيان الامريكي من تلك الكراهية كيما تبدأ عملية الشفاء.

العفو

احتفظت بهذه الافكار سرا مطويا في صدري. وفاتحت خمسة من كبار معاوني حول امكان العفو، وهم بوكن وهيغ وكيسينجر وهارتمان ومارش، واستحلفتهم فردا فردا بكتمان الامر. وكنت اعلم ان بوكن يحبذ الفكرة. اما كيسينجر فقال انها في اعتقاده عمل سليم لان مشهد محاكمة رئيس سابق سيضر بسمعة بلادنا دوليا. بينما اعرب هارتمان ومارش عن تحفظاتهما، ولكنهما لم يعترضا على عدالة الفكرة او يخالفاني الرأي في انها السبيل الاوحد لتصفية القضية واقصائها بعيدا عن المكتب البيضوي الرئاسي. غير انهما شعرا في الوقت نفسه بأن من واجبهما تقديم حلول بديلة. وقد قال هارتمان: "سيدي الرئيس، المسألة ستشن عليك نيران الجحيم من جانب الصحف وسيجن جنون السلك الصحافي في البيت الابيض".

اجتمعت مرة اخرى مع فيل بوكن في ٣ سبتمبر (ايلول) فأفادني بأن صلاحية العفو مخولة للرئيس وانها صلاحية موغلة في القدم وتستند الى اسبقيات يرجع تاريخها الى زمن يسبق عهد الآباء المؤسسين الذين وضعوا الدستور وتبنوه. والجدير بالذكر ان هذه النقطة بالذات اثيرت في مؤتمر الدستور وقرر عندئذ تخويل الرئيس صلاحية العفو قبل الادانة. وفي تاريخنا اسبقيات كثيرة تؤيد هذه النظرة، فضلا عن الحكم الذي اجازته المحكمة العليا بأن العفو "ينطوي على تثبيت الذنب، وقبوله، والاعتراف به".

ولم أكن قد اتخذت قراري النهائي بعد، ولكن اتضح لفيل اني كنت أنزع الى اصدار عفو، فقال: "انظر. في

اعتقادي انه يجب عليك، ان كنت مزمعا على هذا الامر، ان تتيح لي الفرصة لارى الحد الذي يمكن الذهاب اليه للحصول على اتفاق حول الاوراق والاشرطة.

حقا ان القضية كانت اعوص واشد تعقيدا مما بدا للوهلة الاولى. ففي البيت الابيض وفي المكتب التنفيذي القديم قرابة ٩٥٠ شريطا مسجلا و٤٦ مليون ورقة مدونة تعتبر من وجهة تقليدية ووفقا للقرارات التي اصدرها الرجال الذي شغلوا منصب المدعي العام ملكا للرئيس السابق. وكان نيكسون متلهفا للحصول عليها، الا ان المدعي العام ليون جاورسكي، الذي كلف النظر في قضية نيكسون، كانت له هو الآخر مصلحة في رؤية المواد، كما كانت لهيئة الدفاع في قضية ووترغيت مصالح فيها. وتوجب علينا ان نوفق، بطريقة ما، في ارضاء هذه المصالح المتضاربة وان نفعل ذلك باسلوب يطمئن جميع الناس بعدم اتلاف هذه المواد او تعديل شيء فيها، خصوصا في ضوء اكتشاف فترة صمت في احد الاشرطة تدوم ثماني عشرة دقيقة ونصف دقيقة، وهو شريط يعدّ بالغ الاهمية.

بدأ قرار العفو في المباحثات اللاحقة يتبلور ويتخذ اطار ارتباط متين باتفاق يتحكم بهذه المواد ويقترن ببيان من نيكسون يعترف فيه بتورطه في ووترغيت. وسعيا الى انجاز مثل هذا الاتفاق، اراد هيربرت ميلر (جاك)، محامي نيكسون، ان يتوجه الى سان كليمنت واقترح اصطحاب احد موظفيّ القانونيين. فأخترت بنتون بيكر الذي شغل سابقا منصب النائب في وزارة العدل والذي يعمل الان لحسابه الخاص، وكلفته بالمفاوضة على اتفاق يشمل الاوراق والاشرطة وبالبحث مع نيكسون حول استجابته في حال اتخاذي قرارا بالعفو. وخوّلت بيكر ان يقول له الآتي: "ليس هذا الامر مفروغا منه، ولكنه من أكثر الاحتمالات ترجيحا".

ولدى عودته الى واشنطن، روى لي بيكر قصة مثيرة جدا. فهو لم يكد يصل الى سان كليمنت في وقت متقدم جدا من الليل حتى بادره رون زيغلر، السكرتير الصحافي السابق لنيكسون، بقوله: "دعنا نبحث الموضوع من أوله. ودعني اوضح لك ان نيكسون لن يصدر اي بيان من اي نوع على الاطلاق بخصوص ووترغيت، سواء أعفا عنه جيري فورد او لم يعفُ".

ها أنذا أجابَه مرة أخرى بالموقف المتحدي ذاته الذي طالما اعرب عنه زيغلر ايام خدمته سكرتيرا صحافيا للرئيس. وها هوذا يشير الى نيكسون وكأنه لا يزال رئيسا، ويكنّيني كعادته باسمي الاول مجرّدا، للاستخفاف. بيد ان بيكر ما ان سمع منه ذلك الكلام حتى هدد بان يقفل راجعا لتوّه. وعندها تدخل ميلر وافلح في تهدئتهما حتى اتفقا على اللقاء ثانية في اليوم التالي.

تركزت المفاوضات في النهار التالي على الاوراق والاشرطة. وبحلول نصف النهار، تم التوصل الى حل وسط هو ان يتقاسم نيكسون الاوراق والاشرطة مع الحكومة، بحيث يكون هناك مفتاحان لمكان خزن تلك المواد، احدهما في يد نيكسون

والآخر في حوزة الحكومة. وسيكون نيكسون وحده الذي يخوّل مدّعيه العام او اي شخص سواه حق التدقيق في محتوياتها. واتصل بيكر هاتفيا بفيل بوكن الذي اعلمني بتفاصيل الامر. وبدا لي ان بنتون وفيل مقتنعان بأن ذلك افضل ترتيب يمكن اعتماده. فاتخذت، بناء على توصياتهما، قرارا بقبول الاتفاق. ثم تحولت المباحثات في سان كلمينت الى رد فعل نيكسون في حال منحي اياه العفو. وكانت المسودة التي اعدها زيغلر بادىء الامر بمثابة الكارثة في نظر بيكر، لانها تخلص الى نتيجة انه كان ينبغي على نيكسون ان يعطي موظفيه صلاحية اقل في التصرف. وذلك كل ما في الامر.

وأعد زيغلر ثلاث مسودات أخرى لم يرض بيكر عن اي منها، لانها لم تكن "الاعتراف الكامل" الذي كان يأمل في الحصول عليه من الرئيس السابق، ولانه ظن ايضا ان المسودة الاخيرة ستقصر كثيرا عما توخيته انا. وعلى رغم ذلك، فقد ظن بيكر أن نيكسون ربما صرح بجل ما يمكن ان يصرح به، وأن القرار النهائي يعنيني انا وحدي. لذلك ابلغ زيغلر بأنه سيحمل المسودة الاخيرة الى واشنطن ليرى ما اذا كانت تفي بالغرض المطلوب. وطلب - متذكرا تعليماتي له - مقابلة نيكسون شخصيا. لكن زيغلر رفض ذلك. وتدخل ميلر مرة اخرى قائلا انه لا يرى ضيرا في المقابلة. وأخيرا قال زيغلر: "حسنا. يمكن ان تدخل الى مكتبه الان".

كان المكتب صغيرا جدا ومظهره يدل على ان صاحبه انتقل اليه أخيرا. وكان نيكسون يجلس وراء الطاولة ويبدو - حسبما ابلغني بيكر في وقت لاحق - متزعزعا، وقد اخذت منه الشيخوخة مأخذها خلال الشهر الذي مضى على استقالته. وكانت مصافحته واهنة جدا.

وشرع بيكر يخاطبه: "سيدي الرئيس، لقد انجزنا انا واعوانك اهدافا حسنة جدا للأمة ولك شخصيا في ما يتعلق باوراقك".

ولم تبدو اي استجابة من نيكسون الذي تكوّر في كرسيه وكأنه لا يستطيع متابعة مجرى الحديث، مثله مثل شخص على وشك ان يفقد ارادة الحياة. وانتقل بيكر الى موضوع العفو قائلا: "انا متأكد من ان السيد ميلر والسيد زيغلر قد أبلغاك ان الرئيس فورد يفكر الان في العفو. كما اعلم انهما أطلعاك على مسودة الوثيقة. لكن هناك امورا محددة يجب ان تعرفها بالنسبة الى العفو، ومن واجبي التأكد من انك عالم بها".

أراد بيكر ان يكرر وجهة نظر البيت الابيض في ان قبول العفو ينطوي على اعتراف بالذنب. غير ان نيكسون لم يشأ طرق الموضوع. وبدلا من ذلك سأل عن مكان اقامة بيكر، ودهش حين عرف انه من واشنطن. وحين أكد له بيكر ذلك، سأله الرئيس الامريكي السابق: "قل لي ما حال فريق "ردسكينز" (لكرة القدم) هذا العام؟"

- لست ادري، سيدي الرئيس، انما لدينا مواضيع مهمة للكلام حولها.

ومرة اخرى أكد له بيكر النقطة الجوهرية، وهي ان قبول العفو يشكل

اعترافا بالذنب. فلم يزد نيكسون على التلفظ بهمهمة: "آه ها".

لقد كان تركيزه محدودا وملاحظاته قصيرة ومبتورة. وبعد نحو عشرين دقيقة غادر بيكر المكتب وانتظر مع ميلر وصول السيارة التي تقلهما من سان كليمنت. وفي تلك الساعة جاء زيغلر واستدعى بيكر لان نيكسون اراد مقابلته مرة أخرى.

- لقد كنت دمثا معي، وأنا عييت من كثرة المتمرّين.

وتلعثم نيكسون في كلامه وحول نظره بعيدا، ثم أضاف بعد برهة: "اريد ان اعطيك شيئا. ولكن انظر: لم يعد في المكتب شيء لانهم اخذوا مني كل الاشياء".

وشعر بيكر بحرج شديد وقال: "لا بأس، لا بأس سيدي الرئيس".

وقاطعه نيكسون: "لا، لا، لا. لقد طلبت الى بات ان تحضر الي هاتين...". وفتح نيكسون درج طاولته وأخرج علبتين صغيرتين فيهما زرّان لكمّي القميص ودبوس لربطة العنق، وقال: "لقد جاءتني بها بات من صندوق مجوهراتي الخاص. ولن تجد في الدنيا مثيلا لها، واريدك ان تحتفظ بها".

تناول بيكر العلبتين وصافح نيكسون وخرج بأقصى ما اوتي من سرعة، لانه لو تريث لحظة أخرى لانهارت اعصابه وأجهش بالبكاء كما أخبرني. ومضى يقول: "لست طبيبا، وانما يخامرني شك كبير في ان يعمر ذلك الرجل حتى الانتخابات".

فقلت له: "لا يزال عام ١٩٧٦ بعيدا".

وأجاب: "لا أعني ١٩٧٦، وانما ١٩٧٤".

لم يكن بيان العفو من جانب نيكسون ملائما. وكنت اخاله سيكون اكثر استجابة لفكرة تصفية القضية، ولكنه لم يكن مستعدا بالمقدار الذي توخيته. فقد خلا بيانه من الاعتراف بالذنب. وشعرت بخيبة الامل، علما بأني كنت اقدم على مغامرة خطرة لم يستجب هو لها بالحساسية اللازمة.

الحق اني كنت قد توصلت الى قراري قبل ان يتوجه بيكر جوا الى سان كليمنت، لانه ليس في وسع المرء ان يتباطأ كثيرا في انتزاع ضمادة الجرح، ولايماني بانه كلما اسرعت في اصدار العفو كان في ذلك خير للبلاد. وقررت اعلان القرار صباح اليوم التالي، اي الاحد ٨ سبتمبر (ايلول). لكن الامور تشابكت على الفور عندما اتصل بيكر هاتفيا بسان كليمنت ليجد ان زيغلر شرع يعدّل في بيان قبول نيكسون العفو ويخفف من لهجته. وقال بيكر: "اخشى، اذا هو استمر على هذا المنوال، ان نعود من حيث أتينا".

فقلت له: "اتصل بزيغلر واعلمه اننا لن نحتمل مزيدا من الضعف في البيان". وقد أثر هذا الكلام معه، واوقف محاولاته في تغيير كلمات نيكسون.

وقبيل الحادية عشرة صباحا دخل فريق مصوري التلفزيون ومهندسي الصوت الى المكتب البيضوي. وما ان ابصرت الضوء الاحمر يومض في اسفل عدسة الكاميرا حتى قرأت الآتي:

"سيداتي سادتي، لقد توصلت الى قرار شعرت بضرورة اعلامكم وجميع المواطنين الامريكيين به حالما أيقن

عقلي واقتنع ضميري بأنه العمل الحق.

"ان ضميري يملي علي، في وضوح ويقين، انه ليس في وسعي ان اطيل أمد الاحلام المزعجة التي ما زالت تعيد وتجتر فصلا من كتاب قد طوي. ان ضميري يقول لي اني انا وحدي، بصفتي رئيسا للبلاد، أملك السلطة الدستورية لطيّ صفحة هذا الكتاب بحزم وبصورة نهائية. وضميري يحدّثني بان واجبي لا يقتصر على اعلان الهدوء والسلام في الداخل، وانما يحتم علي استخدام كل وسيلة في متناول يدي لضمان ذلك".

ثم بدأت قراءة اعلان العفو نفسه:

"وهكذا، فانني انا، جيرالد فورد، رئيس الولايات المتحدة، قد منحت الان، وفقا لصلاحية العفو التي خولني اياها الدستور، عفوا كاملا وحرا ومطلقا لشخص ريتشارد نيكسون عن جميع الذنوب التي ارتكبها في حق الولايات المتحدة، او الذنوب التي ربما ارتكبها او اشترك في ارتكابها خلال الفترة الممتدة من ٢٠ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٩ حتى ٩ أغسطس (آب) ١٩٧٤".

وأخيرا انتهت القضية. وشعرت كأن حملا ثقيلا لا يتصوره العقل ارتفع فجأة عن كتفيّ. لقد اتخذت قرارا محقا بكل تأكيد. ويمكنني الان استئناف اعمالي من دون ان يطاردني نيكسون او تتعقب مشكلاته خطواتي. وسيمكنني - ولا شك - أن أكرس اوقاتي تكريسا تاما للمشكلات الكثيرة التي تواجهني وتواجه الامة.

ولكن لم يمض وقت قصير حتى ادركت كم كنت مخطئا في ظني.

ردّ الفعل

حظيت خلال الشهر الاول من فترة رئاستي بتغطية صحافية مكثفة يتمناها ويكاد لا يحصل عليها اي رجل سياسي. ولكن ايقنت، بفضل تمرّسي في السياسة زمنا طويلا، ان مثل هذه الشعبية الهائلة لا تدوم ابد الدهر. أما ان تردّ الصحف على قرار العفو بشن حملة عدائية عنيفة ضدي، فهذا ما لم اتوقعه. ويبدو لي ان بعض معارضي نيكسون تمنوا رؤيته مسحولا مقطع الاوصال، فيما كنت أظن ان الناس سيعتبرون استقالته في ذاتها عقوبة وأهانة فيهما الكفاية. وتوقعت ان ألمس روحا على جانب اعظم من التسامح، وان يتفهم الناس الاسباب التي حدتني على اتخاذ القرار.

وهكذا اصبح اجراء العفو سببا لأكبر خيبة عرفتها في فترة رئاستي، اذ رأيت الناس يركّزون اهتمامهم على الشخص لا على القضايا المحدقة بهم. ولكم تمنيت ان يتفهم الناس ان قراري بمنح العفو لم تكن له صلة بأي عطف قد اشعر به تجاه نيكسون شخصيا او بأي قلق على وضعه الصحي. ومهما يكن الامر، فانه يجدر بي ان أقرّ بأن حديثي التلفزيوني لم ينجح في التأكيد على نحو ملائم على اني اردت ان اكرّس كل اهتمامي للامور الخطيرة في مجالي الاقتصاد والسياسة الخارجية، كما أخفق في التركيز الوافي على الناحية القانونية، وخصوصا ما صدر عن المحكمة العليا من ان العفو ينطوي على الاعتراف بالذنب.

كنت اعرف يوم اصبحت رئيسا ان الرئاسة لن تكون بساطا من الورد وان القرارات القاسية تتمخّض احيانا عن

ردود فعل عنيفة. بيد اني لم اكن مهيأ لاستقبال الاتهامات التي زعمت ان العفو جاء نتيجة "صفقة سرية" دبّر امرها مع نيكسون قبل استقالته، وان اختياري صباح يوم الاحد - وهو وقت يقل فيه عدد المتفرجين على التلفزيون - موعدا لاذاعة العفو هو "برهان" على وجود مؤامرة.

وفي صباح يوم الاثنين نقلتني طائرة سلاح الجو الرقم ١ - وهي طائرة الرئيس الامريكي - الى بيتسبورغ حيث كان مقررا ان القي خطابا. واذا بمتظاهرين يستقبلونني بهتافات: "احبسوا فورد، اسجنوه"، بينما وقف عامل بالقرب من سياج المطار يصرخ في المراسلين: "المسألة مدبرة. قال لنيكسون: هات المنصب وسأعطيك العفو". وشعرت عندئذ بأني، بدلا من ان اشفي الجراح بقراري، فركتها بالملح.

وبدأ يتضح لي في نهاية الاسبوع الاول من اعلان العفو مدى الضرر السياسي الذي لحق بي. ومن بين اربعة آلاف رسالة الى البيت الابيض، كان عدد الرسائل المؤيدة اقل من ٧٠٠. وتدنّت شعبيتي في استفتاء الرأي العام تدنيا حادا من ٧١ في المئة الى ٤٩ في المئة.

وفي ١٦ سبتمبر (ايلول)، عقدت مؤتمري الصحافي الثاني منذ تسلمي منصب الرئاسة. وطرح فيه اثنان



الرئيس فورد يدلي بشهادته امام اللجنة الفرعية للقانون الجنائي في ١٧ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٤.

وعشرون سؤالا، خمسة عشر منها تتعلق اما بالعفو واما بالاتفاق الخاص باوراق نيكسون وأشرطته. وكانت نبرة الاسئلة تنضح بالشبهات: هل كان لديك "سبب سري" لمنح العفو؟ لماذا اخترت اعلان القرار "صبيحة الاحد على حين غرّة"؟ هل العفو "يسعف حقا في تضميد جراح الامة"؟ هل هناك "نوع من الترتيبات والصفقات" بينك وبين الرئيس السابق؟ وأيقنت هنا ايضا اني لم افلح في عرض المسألة عرضا سليما ووافيا.

فترة "اللاصفقة"

مرت بضعة اسابيع وانا اصارع الشؤون الاقتصادية واعالج مشكلات خطيرة في نطاق السياسة الخارجية. وبدأت تخمد تدريجا نيران الاحتجاج العام على قرار العفو. الا ان عددا من الليبراليين الديموقراطيين في الكونغرس ظل يحاول فتح القضية من جديد "ليرى ما اذا كان هناك صفقة". وتقدموا، حالما منحت العفو، بعدد من الاقتراحات ذات الاولوية في مجلس النواب التي تطلب مني التجاوب مع تحقيقاتهم. والامر الذي يفعله رئيس الجمهورية في معظم الحالات بالنسبة الى قرار ذي اولوية هو انه يحيله الى مسؤول حكومي يتمتع بصلاحيات في موضوع الخلاف. وعلى رغم ذلك، لم يسعني في حال العفو تفويض الصلاحية الى اي شخص اخر لانها صلاحية منوطة بي وحدي.

والواقع ان وليم هانغيت، النائب الديموقراطي ورئيس اللجنة الفرعية للقانون الجنائي المنبثقة عن اللجنة التشريعية في مجلس النواب، لم يكن مهتما بمتابعة القضية. غير ان نوّابا ثلاثة - هم جون كونييرز وبيلا آبزوغ واليزابيت هولتزمان - الحّوا عليه طالبين جوابات محددة عن اسئلتهم. واستشاط غضب تلك المجموعة من النواب حين ارسل اليها احد موظفي البيت الابيض رزمة من البيانات الرئاسية ونسخا مدونة لمؤتمريّ الصحافييَّن وحاولنا حينذاك ان نضع مسودة لرسالة تجيب عن اسئلة النواب، ومنها: "هل سبق ان بحثت في مسألة العفو مع أي عضو من موظفي نيكسون قبل ان تصبح رئيسا؟" وكان الاشخاص الوحيدون الذين علموا بما دار خلال اجتماعي مع هيغ يوم الخميس الاول من اغسطس (آب) هم هارتمان ومارش وهارلو. وأخيرا قلت:

– اتدرون؟ اراهنكم بأن خير ما يمكنني فعله هو التوجه بنفسي الى "كابيتول هيل" للادلاء بافادتي ووضع النقاط على الحروف.

وعارض هذا الرأي بوكن وآخرون على اساس عدم وجود سابقة في تاريخ امتنا الرئاسي لمثل هذه الخطوة. فلم يسبق، على حد علمهم، ان ادلى الرئيس التنفيذي منذ زمن جورج واشنطن بشهادته في جلسة رسمية تعقدها لجنة من الكونغرس.

لم يكن لدي ما اخفيه. والظهور امام اللجنة خير من توجيه رسالة يمكن ان يقتطف منها اعضاء اللجنة اقوالا خارج نصوصها. فضلا عن انه اذا ما أحجمت الان عن الادلاء بافادتي، فسيستمر الجدل وتتكاثر انواع الاستنتاجات العجيبة والغمزات والتقولات. والسبيل الوحيد لقطع الطريق عليها هو مجابهة اعضاء اللجنة وجها لوجه.

توجهت الى "كابيتول هيل" يوم ١٧ اكتوبر (تشرين الاول)، ودخلت الغرفة ذات الرقم ٢١٤١ في مبنى "رايبورن هاوس". وكانت تلك هي الغرفة نفسها التي مثلت فيها خلال جلسات التحقيق قبل تثبيتي في منصب نائب رئيس الجمهورية، وذلك قبل قرابة عام واحد من هذا الوقت. وجلست على كرسي الشاهد وفسرت لاعضاء اللجنة ان العفو كان يرمي الى "تبديل محور اهتمام امتنا، لانني اردت ان ابذل ما في وسعي لزحزحة انتباهنا من مطاردة رئيس كبا جواده الى ملاحقة الاحتياجات الملحة لامة جديدة". وذكرت أمر اجتماعي مع هيغ في الاول من اغسطس (آب)، وأكدّت على ان العفو - كما قال هيغ - لم يكن سوى خيار واحد بين عدد كبير من الخيارات التي بحثها رجال البيت الابيض في ذلك الوقت، وعلى اني لم آت بفعل او قول يستشف منه حتى الميل المجرّد الى فكرة او أخرى. ثم توقفت عن الكلام في انتظار اسئلتهم.

شكر اعضاء اللجنة قراري بالمثول امامهم، واعربوا عن املهم في ان تجلو شهادتي ذلك الصباح أي شكوك متبقية ازاء العفو. وكانوا جميعا لطفاء الا اليزابيث هولتزمان، النائبة الديموقراطية المتعصبة لحزبها، وهي من بروكلين (ولاية نيويورك). وسرعان ما اتضح انها لن ترضى بأي شيء اقوله واعربت عن "فزعها" من ان "التحقيق الذي جرى اليوم لن يعطي الشعب الامريكي الحقيقة كاملة" بالنسبة الى قرار العفو. وعلقّت هي نفسها على اسئلتها، مؤكدة انها تنبثق من "شبهات قاتمة جدا ثارت في اذهان المواطنين"، وأضافت ان كل شخص يحار في ما اذا كانت هناك صفقة ما. وعندها استطعت ان اقحم قولي بين كلماتها المتدفقة: "لم تكن هناك اي صفقة بتاتا في اي ظرف او قالب".

بيد انها، بطبيعة الحال، لم تصدقني، بل جابهتني بتسعة اسئلة اتهامية متلاحقة دونما توقف، ولو من قبيل المجاملة، لتتيح لي فرصة الرد عليها. وقد أُحرج اعضاء اللجنة الآخرون، بمن فيهم الديموقراطيون، من فرط قحتها. وايقنت، في ختام الجلسة التي دامت ساعتين، ان مثولي الشخصي امامهم قد حقق الهدف المنشود. وقلت: "أرجو أن أكون تمكنت، على الاقل، من تصفية الجو لكي يعرف معظم الامريكيين ما الذي جرى واسباب حدوثه. وآمل ايضا ان نتمكن جميعا من العودة الى مزاولة اعمالنا في السعي من أجل حل المشكلات كلها، الداخلية والخارجية".

قُصارى جهده

كتب توماس جفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٨٠١ - ١٨٠٩)، مرة يقول ان الرئاسة ليست "سوى تعاسة رائعة". ووصفت وليم هوارد تافت، الرئيس الامريكي السابع والعشرون (١٩٠٩ - ١٩١٣)، البيت الابيض بانه "أكثر اماكن العالم وحدة". وسماه واريّن هارديغ، الرئيس التاسع والعشرون (١٩٢١ - ١٩٢٣)، "السجن". وكان الناس على الدوام يسألونني: "أليس الحمل ثقيلا الى حد حرمانك النوم؟" او: "أليست الضغوط كافية لتكدير ذهنك؟" وكنت اجيبهم: "كلا، على

الاطلاق"،لاني لم اشعر من قبل بصحة افضل ولم يكن ذهني اشد صفاء، ولا اذكر اني خبرت تجربة اشد امتاعا. والحق اني كنت اتشوق الى بزوغ النهار ومباشرة عملي.

وأحَدُ الاسباب التي جعلتني احب البيت الابيض ذلك المستوى الرفيع الذي يتَّسم به الموظفون الدائمون. وكنا نرغب في ان يسود ارجاء المنزل جو عائلي حقيقي. ولذا عمدت بيتي منذ البداية الى ان تُحيي موظفي البيت الابيض بقولها: "مرحبا" او "وداعا" او، في احيان اكثر، "شكرا". وكانت ودودة وحارة، الا انها تحيرت لعدم استجابتهم لملاطفاتها. وما لبثت ان اكتشفت انهم تلقوا تعليمات ايام نيكسون، من قبل اعوانه، بألا يستجيبوا لمثل هذه الملاحظات التي قد يخاطبهم بها رئيس الجمهورية او السيدة الاولى. فأوقفنا تلك العادة، وغدا الجو بين عشية وضحاها مرحا مرة أخرى.

اما السبب الثاني فهو الحس التاريخي الذي يكتنف المكان. والواقع ان مكتب الرئيس البيضوي كان فسيحا ومريحا وملهما. وكنت اعلم ان في امكاني كرئيس ان افعل امورا كبيرة عظيمة الشأن. لكني لم أجلس يوما على الكرسي وراء طاولتي قائلا لنفسي: "اني رجل قوي، واستطيع ان اضغط زرا او أسحب مفتاحا وسيحدث كذا وكذا". بل، على نقيض ذلك، فكرت في الرؤساء الذين سبقوني والقرارات التي وجب عليهم اتخاذها، وحاولت ان اقرن بينها وبين تلك التي تواجهني.

وكنت احيانا في الليل الج الغرفة في الطابق الثاني حيث كان الرئيس ابراهام لينكولن يعقد اجتماعات حكومته، فأحس بأن التاريخ يملأ تلك الغرفة. وكنت أحيانا اجلس فيها بمفردي وانظر الى اللوحات والصور التي تعود الى عهد آخر، فأكاد اسمع اصواتا تعود الى ١١٠ اعوام خلت. وكنت أشعر دائما بالانتعاش حين اغادر الغرفة.

لقد جرت التقاليد على ان يمهل مراسلو الصحف في واشنطن الرئيس الجديد فترة مئة يوم لوضع نهج سياسته وتفسيرها قبل بدء مراقبتهم اياه عن كثب. ولما انتهت فترة المئة يوم في السادس عشر من نوفمبر (تشرين الثاني)، احسست بأني حققت بعض النجاح في علاج جراح الامة وتبريد حمم الزمان والمشاعر وجعل الشعب الامريكي يعلم اننا عازمون على معالجة الامور بحكمة وباسلوب عملي. والواقع ان المقيِّمين الذين يحكمون على دوري كرئيس كانوا لا يزالون ينظرون في امر الحكم علي. ومع ذلك، فقد كانت لدي قناعة بأن الشعب الامريكي كان يثق بأني اعمل جادا في منصبي وان حكومتي تُقلِّب الامور على مختلف وجوهها واننا نخطو الى الامام بصراحة وعلى نحو بنَّاء.

ولاحظ جيمس رستون في تعليق نشرته "النيويورك تايمس" في مناسبة مرور مئة يوم على وجودي في الرئاسة ما يأتي: "اننا لم نحظ، منذ ايزنهاور، برجل دمث وطيب ومنفتح وغير متوتر في البيت الابيض. غير انه، في اخلاصه وطيبته، يعطي انطباعا بأننا لسنا في عصر ثوري، وانه ينبغي علينا بالتالي ألا نحدث تغييرات اساسية في حياة الاسر

والامم، بل يجب علينا فقط ان نكون صبورين وعاقلين، وسيكون كل شيء على خير ما يرام وهذا حقا حلم جميل. كما ان فورد شخص نزيه ...عث على التفاؤل. لكن واشنطن في ...برة من امره".

...لم يدرك رستون تماما انه كان ...وجب علينا ان نعزز الامور ونشدها ...ضا الى بعض قبل ان يمكننا البدء ...في احداث تلك "التغييرات ...ساسية" التي تحدّث عنها. لكني ...عرت بأن مقاله كان منصفا. أما ...ذي اصاب الهدف اكثر من غيره فقد ...ن التحليل الذي جاء في صحيفة ...وول ستريت جورنال" التي اشارت ...ى انه، في ما عدا تكرار الالتزام ...تخاذ اجراءات للاقتصاد في ...نفقات الحكومية، فان حكومتي ما ...ل عليها ان تعمل على وضع هدف ...يسي لها، شرط الا يكون ورد ذكره ...ي الرواية الآتية التي سردها احد ...ظفي الرئاسة:

تقدم مهاجر للفحص امام القاضي من أجل الحصول على الجنسية الامريكية. وراح القاضي يسرد اسماء شهيرة، وكان المهاجر يحاول تعريف اصحابها وذكر مكانتهم في التاريخ الامريكي. وصاح القاضي: "ابراهام لينكولن"، فأجاب المهاجر: "رئيس الولايات المتحدة". عندئذ سأله القاضي: "ولكن قل لي ما الذي فعله لينكولن؟".

واصرّ القاضي على سؤاله الاخير، وانتظر بالطبع ان يجيب المهاجر، مثلا، بأنه "حرّر العبيد" او "حافظ على الوحدة ايام الحرب الاهلية الامريكية بين ١٨٦١ و١٨٦٥". واخيرا اجاب المهاجر: "لقد فعل قصارى جهده".

وذلك لعمري فعل لا يستهان به في نظري. ولو شاء ذلك المهاجر في القصة ان يقول الشيء نفسه عن ايامي المئة الاولى في الرئاسة، لما ساءني ذلك مطلقا.

انحسار الحرية

كلما خضنا حروبا اكثر من أجل الحرية، نقصت حريتنا.

ك.غ.

اثمن الممتلكات

قرب هايلبرون في ولاية ورتمبرغ في المانيا، تتربع مدينة فاينسبرغ على تل يطل على مزارع الكروم المحيطة. وفي كنيسة البلدة المبنية على الطراز الروماني لوحة مهداة "الى ذكرى الزوجات الوفيات". وما ان تبتعد مسافة كيلومتر حتى تواجهك آثار قلعة فايبرترو التي تعني "قلعة الزوجات الوفيات".

أما سر ذلك فهو قصة تفخر المنطقة برواياتها. ففي عام ١١٤٠، وخلال الصراع بين الغيلف والغيبلين، حاصر الامبراطور كونراد الثالث ابن فريدريك الثاني من سلالة هوهن شتاوفن المدينة وقلعتها حيث لجأ ابناء البلدة، ومنع الرجال المدافعين عن القلعة من مغادرتها، بينما سمح للنساء بالخروج وصرح لهن بنقل اثمن ممتلكاتهن. وعند ذاك حملت كل امرأة زوجها على ظهرها ورحلت.

(مجلة "صدى العالم"، فرنسا)

كتاب الشهر

لندبرغ

الطائر المنفرد

ملخص عن كتاب بقلم:
برندان جيل



لندبرغ الطائر المنفرد

في شهر مايو (ايار) عام ١٩٢٧، أصبح تشارلز لندبرغ أول طيّار يعبر المحيط الاطلسي منفرداً من دون توقف من نيويورك الى باريس (٥٨٠٠ كيلومتر)٠ ولقد كانت تلك الرحلة مغامرة جريئة لم يمح ذكرها حتى الان من خاطر العالم٠ وان يكن المغامر المقدام نفسه توارى من بعدها في ذمة التاريخ٠ وقد خصّ برندان جيل - بالتعاون مع أسرة لندبرغ - هذا الحدث الفريد بمجموعة من المذكرات الرائعة التي لا تتناول الرحلة التاريخية بمقدار ما تلقي الاضواء على شخصية ذلك الرجل الخارق الذي حقق هذا الحدث فتغيرت حياته على نحو مثير، بل تغيرت معه حياتنا اجمعين٠

ذلك اليوم الذي تغيّر فيه كل شيء من دون رجعة بالنسبة الى لندبرغ كان يوم الجمعة ٢٠ مايو (أيار) عام ١٩٢٧٠ ففي ذلك الصباح، أقلع تشارلز لندبرغ منفرداً في طائرة صغيرة بمحرك واحد، وانطلق بها من مدرج موحل في ضواحي نيويورك، حتى اذا ما سار كل شيء طبقا للخطة التي رسمها - وقد تعود تشارلز منذ طفولته الباكرة أن يبذل قصارى جهده لكي يجيء دائما كل شيء حسب خطط يرسمها - فسوف يكون هو أول رجل في التاريخ يطير من دون توقف من مدينة نيويورك الى مدينة باريس٠

وكان ريمون اورتيغ، الفرنسي الذي أثرى من صناعة الفنادق في نيويورك، يعرض على مدى سنوات عدة مكافأة مقدارها ٢٥٠٠٠ دولار لاول طيار يعبر المحيط الاطلسي في رحلة متصلة من دون توقف، بطائرة برية أو مائية (أثقل من الهواء) انطلاقا من باريس أو من شواطىء فرنسا الى نيويورك، أو بالعكس من نيويورك الى باريس أو الى شواطىء فرنسا٠

وقبل أن يبدأ لندبرغ رحلته بأقل من اسبوعين، انطلق أثنان من مشاهير الطيارين الفرنسيين من باريس بطائرتهما، ولم يلبثا ان اختفيا في مكان مجهول فوق المحيط الاطلسي المتجهم٠ وكان عدد آخر من الطيّارين حاولوا القيام بمثل هذه المغامرة انطلاقا من الجانب الامريكي، ولكنهم تعرضوا للفشل تلو الفشل، بل ان بعضهم كان نصيبه الموت٠ وكان العالم بأكمله يرى، من دون أن يشاطره لندبرغ هذا الرأي، أن حظ هذا الرجل في النجاح ضئيل وأن احتمالات فشله عالية الى درجة مأسوية محزنة٠ وما ان تحرّكت "روح

سانت لويس" فوق المدرج تنوء بثقل الوقود الذي تفوق كميته كل ما سبق لها أن حملته، حتى أجمعت التقديرات على اعتبار لندبرغ في وضع خطر يكاد يكون ميؤوسا منه.

ولكم يستحيل علينا اليوم ان نتصور قلة احتمال نجاح محاولة لندبرغ في نيل جائزة أورتيغ. ذلك ان مغامرة الطيران من دون توقف من نيويورك الى باريس عبر الاطلسي قد اصبحت عملية عادية لا تستغرق أكثر من بضع ساعات في الهواء، حتى أننا لم نعد نفكر اطلاقا في الاشارة الى أنها تتم "من دون توقف". منها ان العمل الرائع الذي حققه لندبرغ بمزيج من الذكاء الفائق والارادة الفولاذية، قد أصبح أمرا عاديا يقوم به الملايين من الناس بانتظام، من دون أن يكلفهم من الذكاء أو الارادة أكثر من شراء بطاقة السفر واعداد الحقيبة.

وبعد انقضاء ٥٢ عاما على رحلة لندبرغ، تثبت الاحصاءات على نحو قاطع أننا نتعرض أثناء ذهابنا في سياراتنا الى المطار لمقدار من الخطر يفوق بكثير ما نتعرض له أثناء الطيران. فنحن ندخل قذيفة هائلة الحجم، ونجلس في راحة وكأننا في صالة أحد نوادي الضواحي، فتحملنا الطائرة مندفعة عبر السماء بسرعة مئات الكيلومترات في الساعة وهي تحلق على ارتفاع آلاف الامتار فوق سطح الارض، بينما تجتاز الممرات جيئة وذهابا أزواج من المضيفات الانيقات يقدمن لنا ما تتطلبه راحتنا، سواء أكان وسادة أم بطانية أم نسيجة دافئة لغسل الوجه واليدين.

فأين هذا كله من الطيران كما خبره لندبرغ في شبابه، وكتب عنه باعتزاز في السنوات التالية بأنه: "لقاء على ذروة الوعي بين رجل فرد ومهاراته المتنوعة التي اكتسبها بالعناء من جهة وقوى الطبيعة التي ابدعها إله قدير يقصر دون ادراكه العقل والبصر من جهة أخرى؟ ذلك أن لندبرغ مع تقدمه في السن وزيادة تعمقه في تأمل ماضيه، أصبح يؤمن بأن العالم مشحون بالاعجاز الإلهي الذي يتبدى للانسان بأجلى صوره في عزلة الطيران، ويقل" مظهره بين الجماهير الغافلة الحاشدة الصاخبة.

ومن سخرية الاقدار التي تكررت كثيرا في حياة لندبرغ أن القدوة التي كان يضربها بنفسه لسائر الناس كانت تنتهي على الدوام تقريبا الى نتائج تتعارض جذريا مع نياته الاصلية. فرحلة الطيران الاولى من نيويورك الى باريس، بما اشتملت عليه من مجازفات رهيبة واجهها وتغلب عليها برباطة جأشه شاب وحيد مقدام، قد أدت الى حركة أسفار مطردة الازدياد في سماء الاطلسي، كذلك هي أدت الى اطراد تناقص الوعي بالرهبة والخطر، لدى ذلك الحشد من المسافرين من غير الطيارين الذين يقتفون أثره. ومن الصعب علينا أن نظل على وعي حي بمدى جسارته الهائلة حين نجد أن أسوأ ما نضطر الى مواجهته ومحاولة التغلب عليه فوق المحيط الاطلسي هو... الملل.

وقد سافر لندبرغ عن طريق الجو مرارا كثيرة في الخمسينات والستينات. ولم يركب في الدرجة

الاولى الا عندما لا يجد مكانا في الدرجة السياحية، وكانت امتعته لا تزيد على حقيبته اليدوية التي يستطيع ان يحملها الى مقعده من دون ضيق من ازدحام. ذلك أن الطيران أصبح بالنسبة اليه، كما هو بالنسبة الى معظمنا، مجرد وسيلة لتوفير الوقت.

وكان يخشى لتلك الساعات الطويلة التي يقضيها في الهواء أثناء رحلاته، أن تكون مصدر ضيق له وملل، لو لم يجد وسيلة فعّالة لكي يشغلها على نحو مثمر. فلا يكاد لندبرغ يصعد الى الطائرة حتى يندفع الى مقعده ويستقر فيه: رجل أبيض الشعر بدأ الصلع يغزو رأسه، ولم يعد من السهل على الغرباء من كبار السن ان يجدوا فيه "لندي" الرشيق الذي عرفوه في شبابهم. ويستسلم لعناء الكتابة التي أصبحت بالنسبة اليه أفضل وسيلة لاغلاق بابه في وجه العالم، وأفضل وسيلة لفتح باب يؤدي الى داخل نفسه.

وباستثناء اغفاءات قصيرة خاطفة من آن الى آخر، فقلّما كان لندبرغ يرفع عينيه عن الورقة التي أمامه والتي تنساب عليها الكلمات بخطه القوي الواضح. كان يكتب "السيرة الذاتية للقيم"، وقد بلغ حجم مخطوطها مئات الصفحات من دون أن يبدو لندبرغ متعجلا أمر انهائها. وكان قضى وقتا طويلا ينظم الامور الواقعية الملموسة في حياته الخارجية، ثم اتجه بعد ذلك الى تنظيم حياته الداخلية وهو كتب بعد أن تجاوز السبعين من عمره: إن الشيخوخة تتيح موقعا ممتازا لاستشراف القيم المتجمعة عبر حياة كاملة "فالذي يتمتع بالصحة في شيخوخته يظل على مقربة من الحياة تكفي لتمكينه من تلمس تدفّقها. وعلى مقربة من الموت تتيح له أن يمد بصره الى ما يجاوز عواطفه وانفعالاته". وفيما كان يكتب الكلمات، على وجه التقرب، اخذت صحته تنهار والمّت به سلسلة من الامراض تبين انها أقنعة يتوارى وراءها سرطان قاتل.

وحين اقترب منه الموت في صيف عام ١٩٧٤، كان لندبرغ مستعدا له على خير ما يمكن أن يستعد انسان. وكان يرى أن الموت اختبار يجب تقبله واجتيازه بشرف، اختبار أخير ولكنه ليس بالضرورة أشق مما مرّ في حياة طويلة حافلة بالاختبارات. وظل بشوشا ينضح بالطمأنينة والثقة، وقال مراراً انه على شفير الموت، ولكنه لا يشعر بأي جزع في برهة انتقاله الى العالم الآخر، أو بخوف مما يحتمل أن يحدث له بعد ذلك، وانه سيلقى الموت كما اعتاد دائما أن يلقى الحياة، طبقا للخطة المرسومة.

لقد كانت حياة لندبرغ حافلة بالمفارقات، ولكن أغربها جميعا ان الطيران، وهو الوسيلة التي جعلت منه أشهر رجل في القرن العشرين، كان لا يزال جنينا في رحم الغيب لدى ولادة لندبرغ. وقد ترعرع الصبي في بلدة ليتل فولز في ولاية مينوسوتا الامريكية من دون أن تقع عينه على طائرة واحدة، بل ان السيارات كانت نادرة نسبيا في مدن مينوسوتا الصغيرة في تلك الايام.

وكان لندبرغ في شيخوخته لا يكف عن التأمل في التغيرات المتعددة التي خبرها بنفسه خلال فترة قصيرة نسبيا لا تزيد على حياة رجل واحد. كانت جدته لأبيه، التي عرفها جيدا، تستعيد في حكاياتها له صورا حية من الرعب الذي تملكها أثناء الثورة اليائسة المستميتة التي قام بها هنود "السيوكس" عام ١٨٦٢، وراح ضحيتها مئات من مستوطني مينوسوتا البيض. كما استمع الى قصص حفظها باعتزاز، يرجع عهدها الى ما قبل ثورة السيوكس، ويروي عن جده لأبيه أنه كان قبل هجرته الى العالم الجديد عضوا واسع النفوذ في البرلمان الاسوجي وصديقا قريبا من الملك شارل الخامس عشر.

لله دره ما أشجعه، ذلك العجوز أوغست لندبرغ! حدث مرة أن تعثر واصطدم بمنشار آلي في مصنع أخشاب في بلدة سوك سنتر، فتمزقت ذراعه اليسرى وبات بترها أمراً لا مفر منه، وقد أجريت عملية البتر من دون مخدر. وتروي الاسرة أن أوغست لم ينبس بآهة واحدة طوال العملية، ولم يلبث بعد ذلك أن صنع لنفسه جهازا جعله قادرا على الاحتطاب، وحصد الحشيش المجفف للعلف، والقيام بأي عمل زراعي آخر بكفاية تعادل كفاية أي رجل يستخدم ذراعيه الاثنتين.

ولم تختلف كثيرا حياة أوغست لندبرغ في حقول مينوسوتا ومراعيها عن حياة أسلافه في اسوج على مدى قرون قبله - حياة قريبة من الطبيعة وراضخة لقوانينها. حياة أتيح للصغير تشارلز لندبرغ أن يلحق بآخر أصدائها اللاواعية حين كان يعيش في المزرعة. حياة بلا كهرباء ولا هاتف، بل وبلا أي نوع من الاجهزة الميكانيكية، باستثناء مضخة تعمل بالغازولين (البنزين) لسحب الماء من البئر. وكان الرجل الذي عاش تلك الحياة هو نفسه الذي عرف أيضا، بعد عقود قليلة، حياة القاعدة الفضائية في كيب كانافيرال، بصواريخها المنطلقة برجال الفضاء الذين يجوبون بأحذيتهم الضخمة ارجاء الارض الحصبائية على سطح القمر.

ولعل طفولة لندبرغ تبدو لنا الان امراً بعيداً جداً عن القرن العشرين، فهو قضاها على ضفاف نهر الميسيسيبي، يتجول في غابات الصنوبر والسنديان، ويسبح ويصيد السمك والحيوانات البرية (كانت لديه بندقيته الخاصة عيار ٢٢ في سن السادسة وبندقية من عيار ١٢ حين بلغ الثامنة)، ولكنه حين طار عبر المحيط الاطلسي عام ١٩٢٧ أصبح في أعيننا رمزا مجسدا لنوع جديد من الناس، يتعامل بارتياح ومرح على نقيض غالبيتنا - مع الاعاجيب التقنية المعقدة التي تتدفق كل يوم من مختبراتنا ومصانعنا. كان رجلا يمثل مذهبا جديدا ويبشر به عن ايمان راسخ بين ملايين البشر في أنحاء العالم، سواء بالقول عن طريق الخطب والاحاديث الموجزة، أو بالقدوة كما فعل في رحلته بطائرته الصغيرة. وكان مذهبه يتلخص في أن الطيران خير كبير في ذاته، وأنه سيغدو بلا ريب خادما عظيم النفع للجنس البشري.

ولئن شاعت المفارقات أن يكون عمر الرجل أكبر من عمر مهنته، الا

ان المفارقة الاغرب هي أن يعيش هذا الرجل الى مرحلة يتمنى فيها لو أن مهنته لم تخرج أبدا الى عالم الوجود. فقد عمل لندبرغ طوال سنوات عدة مستشارا لوزير السلاح الجوي وساعد من خلال أدائه لهذا المنصب على اعادة تنظيم القيادة الجوية الاستراتيجية. وقد كتب عن ذلك في "السيرة الذاتية للقيم": "على رغم أني لم أستطع ان أجد بديلا حكيما من ذلك، الا أن كل عام أمضيته عاملا في تطوير الاسلحة كان يزيد من قلقي على مستقبل البشر. فقد بدا لي أن حضارتنا تنطوي على تطور سلبي للحياة، وأن الامن الذي نشيّعه ليومنا وغدنا يحث خطانا نحو كارثة منتظرة. وكان الأسوأ من ذلك والاكثر اثارة للقلق هو ادراكي المتزايد أن الحرب الكارثة المدمرة قد لا تكون هي أفدح الاخطار التي تواجه الانسان. فقد راحت التكنولوجيا المدنية تنافس التكنولوجيا الحربية في تخريب البيئة، فتطلق في كل يوم أعدادا مطردة التزايد من الجارفات والجرارات التي تشق الجبال وتجندل أشجار الغابات وتترك على وجه الارض ندوبا وتشويهات تفوق كل ما يمكن أن تحدثه القنابل. وهناك الغازات التي تطلقها السيارات المدنية فتلوث الجو والفضلات التي تخرج من المصانع المدنية فتلوث بحارنا. أما الطيران المدني فقد غزا كل نقطة على سطح الارض أمام الغارات التجارية الكاسحة.



تشارلز لندبرغ قرب طائرته "روح سانت لويس"، قبل اقلاعه منفردا الى باريس.

فما هو يا ترى مستقبل البشرية؟"

وكان المستقبل في نظر لندبرغ قاتم المعالم، ولكنه قد تعلّم في شبابه كطيّار ان يستجمع جأشه ويواجه جحافل الظلام الزاحف بدلا من أن يتقهقر أمامها، فعندما كان يقوم بعروضه في الطيران والقفز بالمظلة في الاحتفالات والمهرجانات، ثم حين أصبح يقود طائرة البريد من سانت لويس الى شيكاغو، انتهى الى الاقتناع أن أفضل وسيلة للتعامل مع الخطر هي أن يظل على اتصال مستمر وحميم به. والان، وهو يشعر بأن الحضارة، كما عرفها، تتعرض لخطر جسيم، فقد انكبّ بحيويته المعتادة وعزمه المألوف على محاولة انقاذها، وبدأ بأن استوعب تاريخ الحضارات التي انهارت في الماضي، ثم قام برحلات في أنحاء العالم كي يعاين بنفسه مدى الكارثة التي توشك أن تقع.

ان الشاب النحيل الاهيف الذي كان يحث دائما على فتح المزيد من الطرق الجوية، وانشاء المزيد من المطارات، لتحقيق المزيد من التجارة الدولية قد غدا الان رجلا مسنا يحثنا على الاكتفاء بالمقدار الاقل من كل شيء: أطفال أقل، وسيارات أقل وأسلحة أقل، ووسائل ترف أقل. وقال "انه لمن المدهش حقا ان نكتشف مدى ما يمكننا أن نتعلم الاستغناء عنه في حياتنا". وفي ١٩٧٤، قبل وفاته ببضعة اسابيع، كتب برصانة الحكيم الذي يدون وصيته الاخيرة: "لا اودّ أن أكون واحدا من أفراد هذا الجيل الذي يدفعه عمى البصيرة واللامبالاة الى تدمير نوعية الحياة على هذا الكوكب".

من أين جاء هذا الرجل الفذ؟

لقد جاءت الاجابات تترى عن هذا السؤال بمقدار متزايد من اللامسؤولية منذ ان شدت الطائرة الجديدة "روح سانت لويس" رحالها للمرة الاولى من مدينة سان دييغو في كاليفورنيا، في أقصى الغرب من الولايات المتحدة. كانت الطائرة من تصميم دونالد ا. هول، كبير مهندسي شركة "خطوط ريان الجوية"، طبقا للمواصفات التي وضعها لندبرغ بنفسه.

ولم تكن هناك أي طائرة تماثلها في أي مكان من العالم. كانت تبدو لعبة جميلة، فضية اللون، طولها أقل من ثمانية أمتار ونصف متر، والبعد بين طرفي جناحيها ١٤ مترا، مزودة بمحرك من طراز "رايت هوير لويند"، يفترض أنه قادر على العمل مدة ٩٠٠٠ ساعة من دون أن يصيبه عطل (وكان لندبرغ يقدر أنه قد يحتاج الى ٤٠ ساعة تقريبا ليقطع مسافة الـ٥٨٠٠ كيلومتر بين نيويورك وباريس، ومن ثم فقد كان هامش الامان بالنسبة الى المحرك أكثر من كاف).

وحطم لندبرغ الرقم القياسي للطيران شرقا من دون توقف من سان دييغو الى سانت لويس، ثم حطم في اليوم التالي مباشرة رقما قياسيا آخر للطيران من سانت لويس الى نيويورك. ولم يكن لندبرغ حتى ذلك الحين أكثر من مجرد اسم يخطىء الكثيرون هجاءه بين زحام الانباء عن مشاهير الطيارين الآخرين الذين يتنافسون على الفوز بجائزة اورتيغ، مثل بيرد وتشامبر لين وغيرهما. وحين هبط في مطار كورتيس، في لونغ أيلاند، نيويورك، كان خيال

الناس قد تعلق بأنباء تلك الطائرة الصغيرة ذات السرعة المثيرة للدهشة وقائدها الشاب ذي العينين الزرقاوين والشعر الاشعث، وقد كتب لندبـرغ بعد ذلك في مؤلفه "روح سانت لويس": "ما ان يعلن شخص ما باسمـي حتـى أجدنـي علـى الفـور محاصرا بحشد من الناس. وحتى في الفنـدق، أجـد الصحافييـن يمـلأون الردهـة ويراقبـون المدخـل بحـرص شديد، أعجز ازاءه عن الدوران حول المبنى من دون أن يتبعني البعض، فأنا لا أملك لحظة واحدة من الحرية الا عندما أغلق عليّ باب غرفتي".

أما لقب "ليندي المحظوظ" الذي اطلقته عليه الصحافة فقد كان يمقته لندبـرغ الى أبعد الحدود! فهو لم يعتمد على الحظ في حياته على الاطلاق، كما أن أحدا لم يناده من قبل باسم "ليندي"، وانما هو اسم مستعار مصدره حاجة الصحافة في عناوينها الى اسم مختصر ملفت للنظر.

ويوما بعد يوم، تابع الصحافيون نزقهم العشوائي من دون أن يخطر في بال أحد منهم أن يكلـف نفسه مشقة المراجعـة والبحـث، فراحـوا يهرفون بما يعن لهم كي يرسموا للندبـرغ صورة تثير شوق الجمهور الى القراءة عنه، صورة تجعله عنصر رواج لصحفهم. وزاد من سهولة مهمتهم أن المعلومات المتاحة عنه كانت قليلة.

وكان لندبـرغ نحيفا، طويل القامة، له هيئة جذابة من الجدّ الذي يمكن أن يتحول في غمضة عين الى ابتسامة مشرقة بالمرح المحبب. وعلى رغم أنه كان في الخامسة والعشرين من عمره، وقد واجه الموت من قبل على الارض وفي الهواء، الا أنه كان يلفت الانظار بما يبدو عليه من سمات الشاب الذي لم ترهقه الحياة.

بيد أن هذه السمة الصافية كانت شيئا أعمق من مجرد مظهر الشبيبة الصبيانية، فقد كانت تنبثق في معظمها من نقاء في الخلق والشخصية لا تشوبه شائبة ولا ينازع فيه منازع. فلندبـرغ لا يدخن ولا يشرب الخمر، كما كان من المستحيل تصوره زير النساء. وكان مجرد النظر الى عينيه الصافيتيـن والاستمـاع الـى صوتـه الجلي. يبعـث الثقـة فـي النفـوس ويحمل على الاقتناع بان هذا الرجل لا يستطيع الخداع او الكذب ولا يسمح لنفسه بميزة لا حقّ له فيها. بل لقد كان هناك شيء أكثر من هذا، هو ذلك الرجل "الداخلي" الفخور والمفعم بالحماسة والتصميم على تحقيق ذاته بأي ثمن، والذي أخطأت الصحافة فهمه واستمرت في ذلك على مدى حياته بأكملها.

وقـد تعقبـه الصحافيـون بيقظـة ملحوظة خلال تلك الايام الطويلة من شهر مايو (ايار) عام ١٩٢٧، وكان لندبـرغ يعـرف مـا يسعـى اليـه الصحافيون، ويعجب في قرارة نفسه لركاكتهم المهنية، فالحقائق غزيرة وفيرة، فما بالهم لا يبذلون أدنى جهد للحصول عليها أو التحقق منها؟ وبعد أكثر من ربع قرن، كتب لندبـرغ في "روح سانـت لويـس" بصيغـة المضارع يعبر عن استغرابه الشديد لهذه الظاهرة: "يتوقف الامر على الصحيفة التي التقطها، لأجد نفسي قـد ولـدت فـي مينوسوتـا، أو

ميتشيغان، أو نبراسكا، او انني تعلمت الطيران في أوماها أو لينكولن أو سان أنطونيو.

"أما سلوك رجال الصحافة عندما جاءت أمي، فقد أضاع من نفسي كل احترام لهم. لقد راحوا يسألونها: هل تعرف مدى خطورة الرحلة التي يتعزمها ابنها؟ هل تدرك أن كثيرا من الطيارين الاكبر سنا والاكثر خبرة قد قتلوا في محاولات مماثلة؟ ،طلبوا منها أن تصف مشاعرها لقرائهم، ثم طلبوا منا نحن الاثنين أن نتعانق أمام أجهزة التصوير في وداع زائف. وحين رفضنا ذلك، جاءت احدى الصحف بشخصين آخرين وجعلتهما يمثلان الدور، ثم وضعت رأسينا مكان رأسيهما في الصور التي نشرتها".

وقبل ايام قليلة من بدء رحلته الى باريس، انطلق لندبرغ في كورتيس فيلد بطائرته مرتين في جولات اختبارية، وفي آخر هاتين الجولتين انكسرت المزلقة الذيلية لطائرة "روح سانت لويس"، ووقع الحادث لان عددا من المصورين ركضوا الى مدرج الطائرة واعترضوا طريق لندبرغ. وكتب هو عن ذلك الحادث: "كان أشد ما يبعث على الضيق في الامر أن هؤلاء المصورين والصحافيين لم يدفعوا غرامات عقابا لهم على خرق قوانين المطار، بل هم استفادوا من هذه المخالفة بأن حصلوا على صور أكثر قيمة وعلى رواية صحافية أكثر اثارة ورواجا. وفي حدود ما رأيته، فان مغامرتي بتعريض طائرتي للتلف بغية تجنب صدم أحد من الصحافيين او مصوريهم لم تلق من أي منهم

اهتماما على الاطلاق، بل ان معظم الصحافيين تجاهلوا ذلك في ما رووه عن الحادث. وورد في احدى المقالات التي نشرت في اليوم التالي ما يأتي: "لقد كانت سرعته لدى الهبوط كبيرة الى درجة أحدثت بعض التلف في المزلقة الذيلية. ولم يأبه لندبيرغ لهذا الحادث الذي اعتبره تافها، بل وثب من الطائرة وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وصاح: "كما ترون أيها الرفاق، انها تتحرق شوقا الى الانطلاق". ولا بد أن هؤلاء الناس يحسبونني واحدا من رعاة البقر وقد تحولت الى الطيران".

التعايش المرير

كان لندبرغ يأخذ جدياً قول أفلاطون إن الحياة التي لا يخضعها صاحبها للفحص والتأمل لا تستحق أن تعاش. إلا أنه كانت هناك أوقات وجد فيها لندبرغ أن احترام هذا المبدأ أيسر من اتباعه. ولا شك في أن أبعد الأحداث أثرا في تكوين شخصيته كان انهيار الحياة الزوجية بين أبويه، ولكنه أعاد النظر مرارا وتكرارا في هذا الحدث طوال حياته، وكان يتراجع دائما عن سبر أغواره في ابتئاس بنوي حقيقي. وبعد ان طعنت به السن ظلّ يعلل الأمل في أن يكون أبواه قد بقيا، على رغم كل شيء، يبالي كل منهما بالآخر.

وكان تشارلز أ. لندبرغ الأب رجلا لا يكاد يقل عن تشارلز الابن في اتسامه بالصفات الفذة الملفتة. فقد شق طريقه، بفضل جدارته، من صفوف أهل الفقر المدقع الى صفوف ملاكي الأراضي من الطبقة المتوسطة، ثم تزوج فتاة من أجمل الحسان في بلدة ليتل فولز، وأنجب منها ثلاث بنات، توفيت إحداهن ولم تلبث زوجته أن لحقت بها فجأة، في السن الحادية والثلاثين بسبب سرطان يتعذر استئصاله بالجراحة.

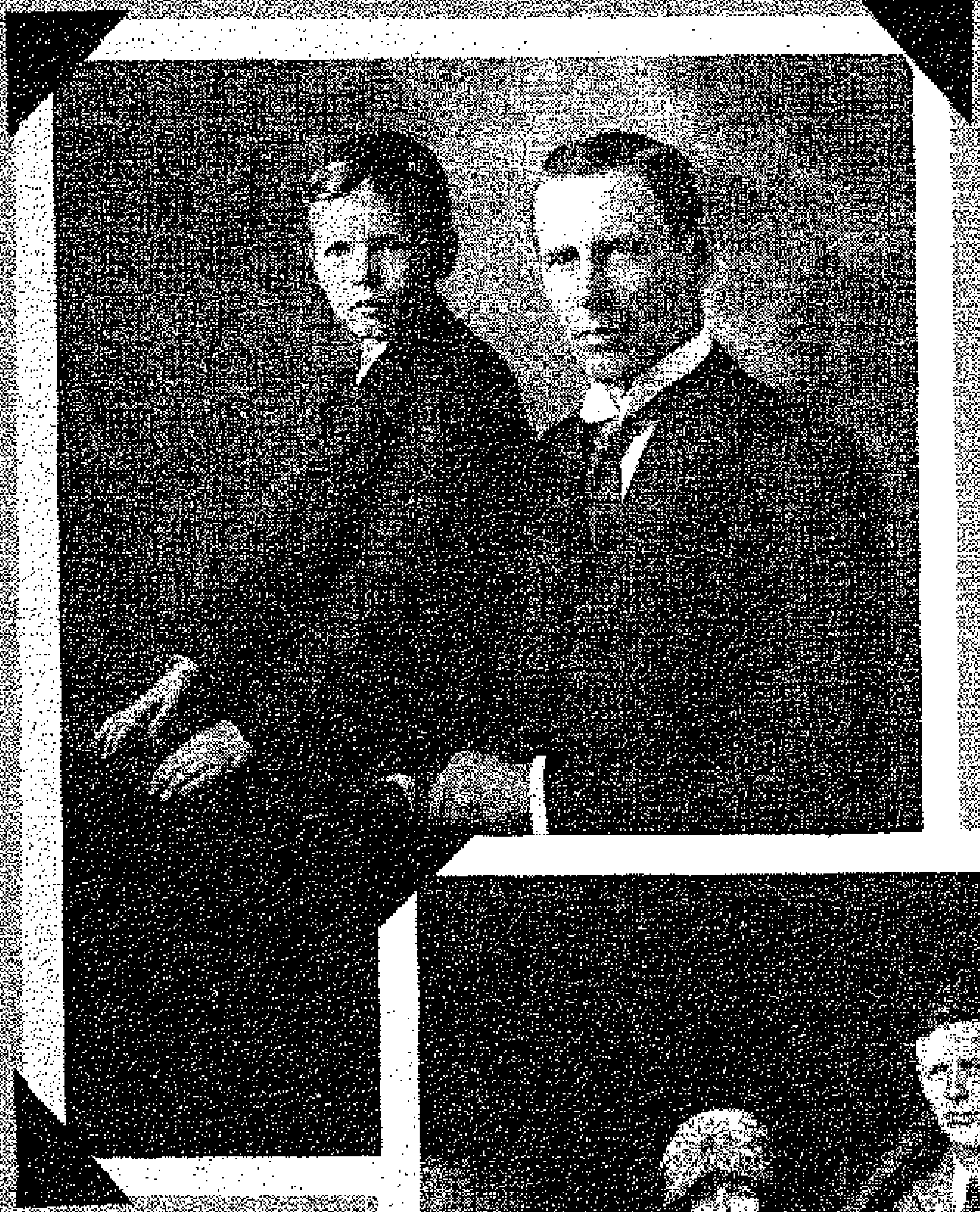
وغدا تشارلز الأب، حسب التسمية المألوفة في تلك الأيام، عريسا "لقْطة" مثيراً للاهتمام، ولكن حزنه على زوجته كان حقيقيا وعميقاً، فانقضت بضع سنوات قبل أن يرضى بالوقوع في شباك امرأة أخرى. وكانت الفتاة التي اقتنصته تعتبر "لقْطة" هي الأخرى، غريبة وكريمة، جديرة بمجتمع ليتل فولز الذي تسوده التقاليد العريقة التي نقلها المهاجرون من اسوج ونشأت عليها اسرهم. وكانت تحمل درجة بكالوريوس في العلوم من جامعة "ميتشيغان"، وقدمت في السن الرابعة والعشرين الى البلدة لتعليم الكيمياء في مدرستها الثانوية. وقد قيل عنها إنها كانت أجمل فتيات الجامعة خلال سني دراستها وأكثرهن حماسة وتوقدا. وكانت لها جدة أيرلندية، فكان يطيب لها أن تكتشف في نفسها دلائل على ما ورثته من دعابة ايرلندية. كان اسمها ايفانجيلين لودج لاند، وكان ابوها الدكتور تشارلز هـ. لاند، من أشهر أطباء الأسنان والمخترعين في ديترويت. وكانت امها ابنة طبيب معروف في ديترويت أيضا.

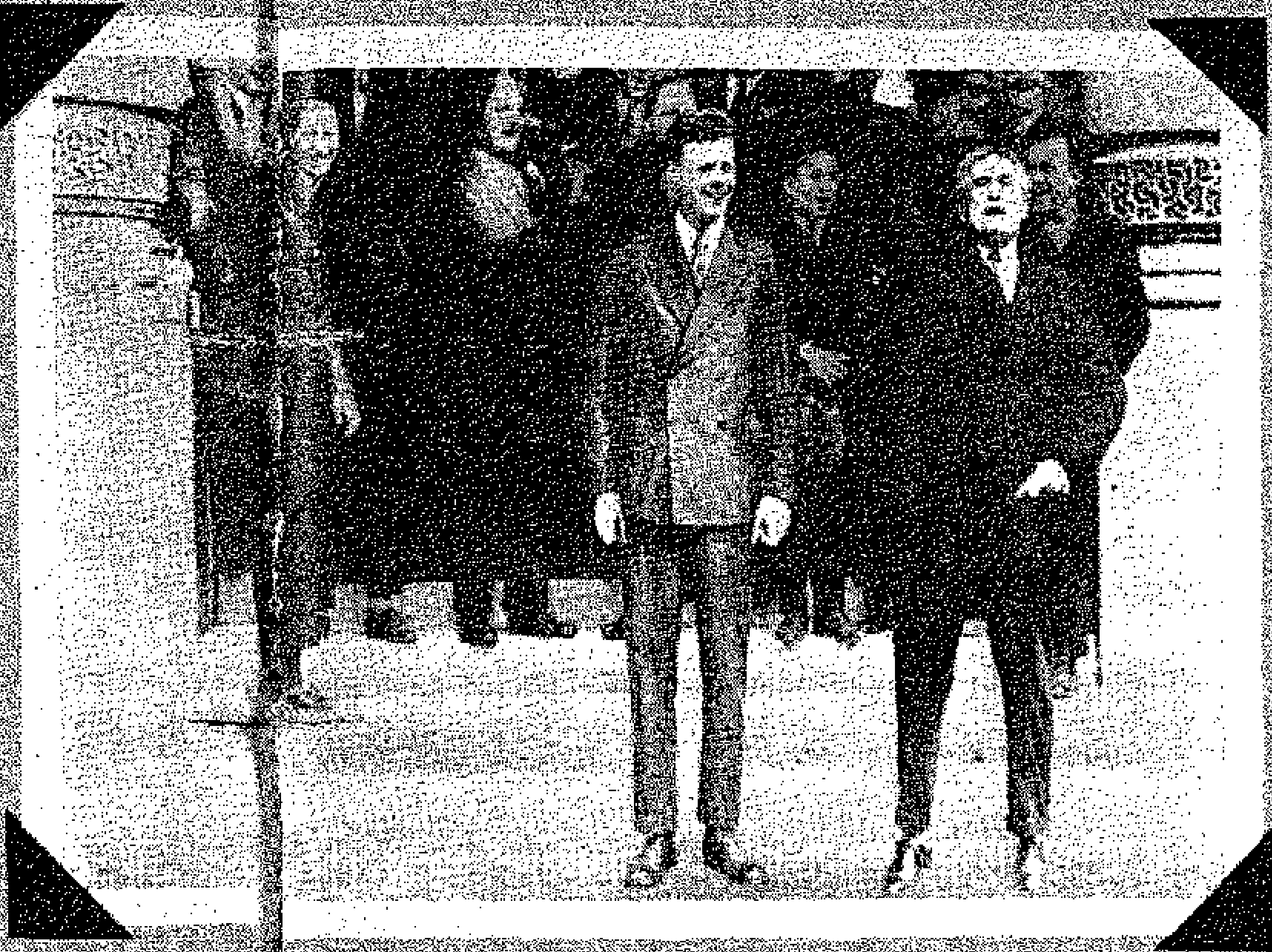
وتزوجت ايفانجيلين وتشارلز الأب في بيت والدي العروس في شهر مارس (آذار) ١٩٠١، وأمضيا شهر العسل في كاليفورنيا. ثمّ عادا في شهر مايو (أيار) إلى بلدة ليتل فولز

وبدأ بناء بيت كبير فوق جرف عال يطلّ على نهر الميسيسيبي. وكان تشارلز الأب قد تملك منذ سنوات عدة تلك الأرض التي تشمل ٥٠ هكتارا تقريبا (حوالي مئة وعشرين فدانا) من الخضرة والحقول والمراعي المنحدرة برقة نحو النهر ترصعها الأشجار. وأطلق الزوجان على بيتهما اسم "ليندهولم"، وهو اختصار تقريبي باللغة الاسوجية لاسم معناه "بيت لندبرغ".

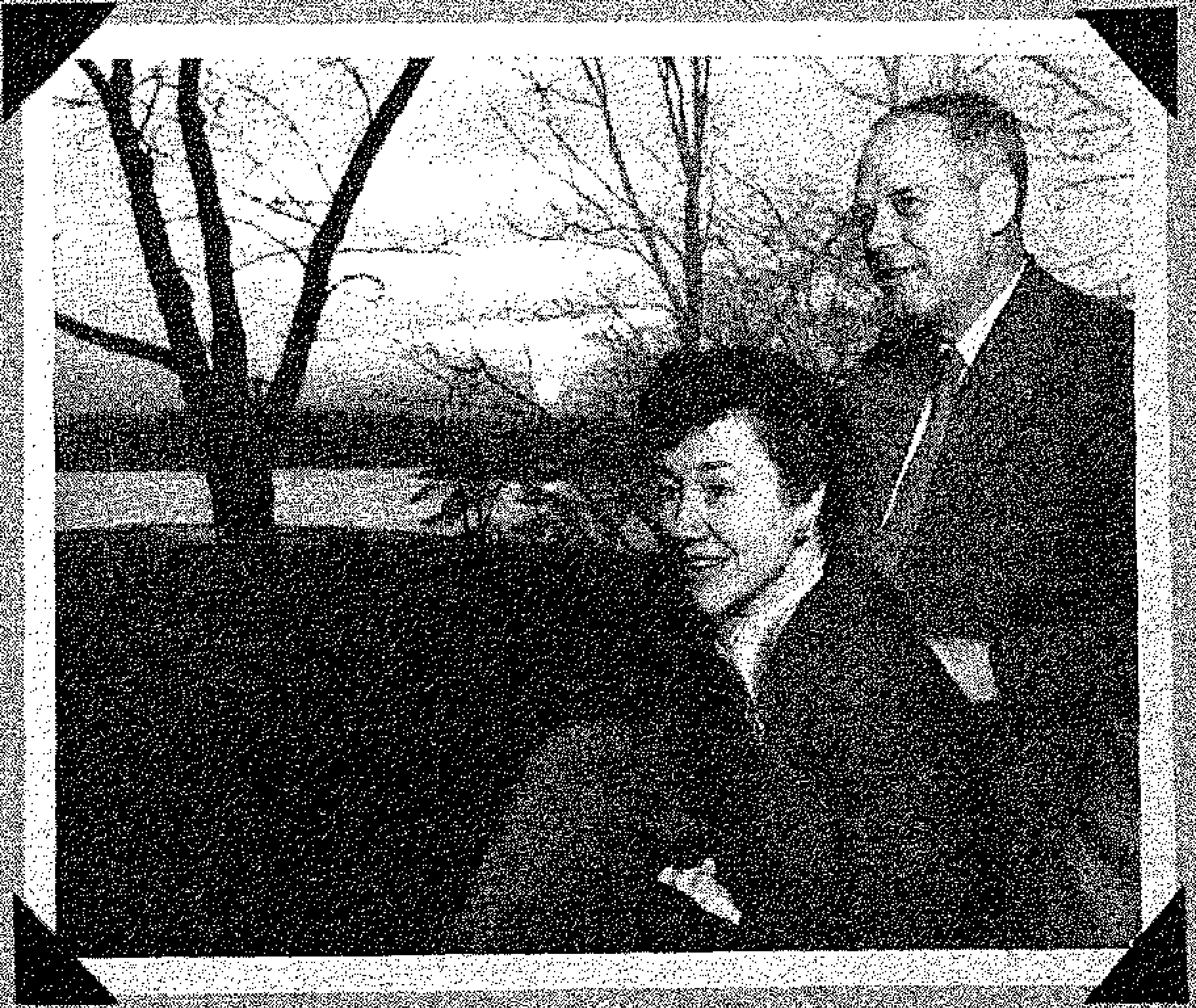
كان المبنى الرئيسي من الخشب، يرتفع الى ثلاث طبقات ويحتوي على ١٣ حجرة ويقوم فوق قاعدة تضم كهفا فسيحا مبنيا بالحجر، تعلوه طبقة ارضية تتألف من غرفة الجلوس وغرفة الطعام وغرفة المكتب والمطبخ والمغسل. وتعلو ذلك طبقتان تضمان سبع غرف للنوم وغرفة للبليارد. أما المباني الخارجية فكانت تضم بيتاً صغيرا للوكيل المشرف على المباني والاملاك ومخزناً للحبوب، وبيتاً للتبريد. وكانت تتخلل البلدة ممرات تؤدي الى ضفاف الميسيسيبي المعشبة من جانب، وتخترق من الجانب الآخر مجموعات أشجار الصنوبر الشامخة وأشجار السنديان الضخمة حتى تصل إلى "بايك كريك".

وفي فترة الصيف التي استغرقها بناء البيت، أقام تشارلز الأب وعروسه ايفانجيلين في كوخ موقت، وكانت ايفانجيلين قد حملت من زوجها وغدت فخورة بذلك وشعرت بانها تمر بأسعد الفترات التي عرفتها هي وزوجها خلال حياتهما معا. وولد الطفل في يوم ٤ فبراير









(شباط) ١٩٠٢، وسمي تشارلز أوغستس الابن من دون ان يثير ذلك اي جدل باعتبار ان اسمه الأول يفي، لحسن الحظ، بالتكريم اللازم لجدّه لأمه، الدكتور لاند.

وكانت من أولى الذكريات التي رسخت في عقل تشارلز الصغير ذكرى الحريق الذي دمّر ليندهولم ذات يوم من شهر أغسطس (آب) ١٩٠٦. كان الطفل يلعب مع أبيه في الردهة حين وجد اباه فجأة يدفع به إلى ذراعي مربيته التي حملته ومضت تركض به حتى بلغت مخزن الحبوب، على بعد بضع مئات من الأمتار، كي تبعده عن النار التي كانت تلتهم البيت. وقد روى لندبرغ هذا الحادث في كتابه "روح سانت لويس" باعتباره من أعمق الذكريات العالقة في نفسه.

وفي اليوم التالي، وقف مع أمه ينظران الى حطام البيت، بينما كان الدخان لا يزال يتصاعد من كهفه الذي تحول الى كتلة سوداء فاحمة. وقالت أمه: "سيبني لنا أبوك بيتا جديدا". ولكن الطفل لم يصدق ذلك لسبب ما، وهو يقول في كتابه: "لقد ذهب الى الأبد كل ما كنت أملكه من اللعب، كما ذهب السلم الكبير وغرفتي التي كانت تطل على النهر". ذلك ان الحادث الأليم لم يصب البيت وحده وإنما أصاب العلاقة بين أبويه أيضاً. وبدا البيت الجديد في نصف حجم البيت القديم، واعتبر حلاً موقتاً يضيق باقامة الحفلات او تربية الأسرة الكبيرة. ومن المحتمل ان يستمر كل من ايفانجيلين وتشارلز الأب يحب كل منهما الآخر، ولكنهما لم يعودا مغرمين احدهما بالآخر. وهو أمر يحس به الطفل اكثر من غيره.

كان تشارلز لندبرغ الأب، مثله مثل أبيه من قبله، رجلا على درجة فائقة من الثبات ورباطة الجأش. ولم يكن هناك اختبار للتحمل العقلي او البدني لا يستطيع ذلك الرجل أن يجتازه بنجاح. وكان يذكر عنه في بلدة ليتل فولز انه خرج لاصطياد البط مع جماعة من الرجال في يوم شديد البرودة من أيام الخريف، واصطادت الجماعة عددا من الطيور ولكنها سقطت جميعا في بحيرة ثلجية المياه الى درجة جعلت كلاب الصيد كلها تحجم عن خوضها لالتقاط الطيور ولكن لندبرغ الأب خلع ملابسه ونزل الى البحيرة سابحا حتى استعاد الطيور كلها.

وقد درّب الوالد الطفل منذ نعومة أظفاره، على مواجهة الألم والخطر كما كان يفعل هو. ومع ان الأب كان بلغ منتصف العمر حين ولد الطفل الا ان لياقته البدنية كانت ممتازة، فغدا رفيقاً حميماً للصبي، وعلمه كيف يصطاد الأسماك والحيوانات، وكيف يعسكر في العراء ويوقد النار وينصب الخيام ويجدف في القوارب السريعة. وقد كتب تشارلز الابن عن ذلك بعد سنوات عدة فقال: "كان يتركني أسير خلفه وفي يدي بندقية محشوة وأنا في السابعة، وعلمني ان استخدم البلطة حالما توافرت لدي القوة الكافية لتطويحها، كما علمني أن اقود سيارته الفورد الى أي مكان وأنا في الثانية عشرة. لم يكن للعمر اي فارق بالنسبة اليه، فكنت اتمتع بحريتي كاملة. وكان كل ما يطلبه مني في مقابل ذلك هو الالتزام بالمسؤولية".

وذات يوم تعلم تشارلز السباحة على طريقة آل لندبرغ التقليدية. فهو خاض الماء مبتعدا عن الشاطىء فوجد نفسه فجأة، وعلى غير انتظار، قد بلغ موضعا يتجاوز فيه عمق الماء طول قامته فالتفت الى ابيه فزعا يطلب العون فرآه لا يزال على الشاطىء وهو يضحك لما يراه من ورطة ابنه. وبدأ الابن يضرب بيديه وقدميه في هلع فاكتشف بعد بضع ثوان انه يستطيع البقاء طافيا. ولا يبدي لندبرغ في روايته لهذا الحادث اي تلميح يشير الى جزعه لسلوك أبيه، فتلك هي الطريقة التي يجدر بالآباء ان يسلكوها. وقال الأب للصبي ذات مرة: "أنت وأنا نستطيع تحمل الصدمات العنيفة ونسلك سبيلنا الى غايتنا مهما حدث".

وعندما تدهورت العلاقات الزوجية، استولى على ايفانجيلين احساس بأنها تعيش في سجن ظالم لا تقوى على الافلات منه، اذ ليس لدى تشارلز الأب أدنى نية لأن يطلق سراحها، فهو كان يخوض الانتخابات النيابية لعضوية الكونغرس للمرة الاولى ومن ثم فأن الطلاق ان حدث سيقضي على مستقبله السياسي، لذلك كان يتجنب اي مبرر للطلاق. وحين طلبت الانفصال (التفريق) بحكم من القضاء، أبى عليها ذلك أيضا.

وتبدو لنا هنا وهناك لمحات قليلة عن طريقة سلوك الصبي خلال هذا التعايش الطويل المتزايد المرارة بين أبويه. فكان يتناقله كل منهما وكان هو يحبهما معا ويتودد الى كليهما ويجتهد بألا ينحاز الى اي منهما. وكثيرا ما تحدث لندبرغ في ما بعد عن طفولته فكان يصفها دائماً كفترة هانئة في أحضان طبيعة جميلة. ولا شك في ان هذه النظرة ترجع في جانب منها الى حرص امه على كتمان اشياء أكثر بكثير من تلك التي باحت له بها فهي فرضت على نفسها الانضباط في هذا الصدد تجنباً لتسرب مرارتها اليه. غير ان هناك ناحية واحدة، غير متوقعة تماما، هي التي تتعلق بدراسته وكأنها كانت تفرض فيها على الطفل عقابا مباشرا لما تعانيه هي من تعاسة.

الطالب النّفور

لم يحدث أبدا ان اتم لندبرغ فترة دراسية كاملة إلا بعد أن قارب العشرين من عمره. فكان ينتقل على الدوام من مدرسة الى اخرى وفقا لمقتضيات ابويه. فهو حينا في ليتل فولز وحينا اخر في ديترويت او واشنطن، وأحيانا أخرى يقيم موقتا في أماكن غير متوقعة مثل ريد وندو بيتشن في كاليفورنيا حيث قضى مع امه بضعة اشهر من عام ١٩١٦. وكانت ليتل فولز المكان المفضل لديه، الا انه لم يلبث ان نفر من المدرسة حتى في تلك البلدة الأثيرة الى نفسه. ولما كان محروما من الثقة والطمأنينة اللتين يتمتع بهما أقرانه، وهم ينتقلون بانتظام من فترة دراسية الى اخرى على طريق التخرج، فكان طبيعيا ان يقل اداؤه عن المستوى الذي كان يرشحه له ذكاؤه الواضح.

وكان ينعم في ليتل فولز بمتعة الغابات والحقول ومجاري الماء التي يحبها. كما انه خلال زياراته المتعددة، والطويلة في احيان كثيرة،

لمدينة ديترويت مع امه كان يحظى بعشرة جده النشط الذي كان يتوق دائما الى رؤياه حيث يستغرق الاثنان في مختبر الجد العابق بالدخان او يخرجان في نزهات طويلة بين ربوع الريف القريب من المدينة. اما في واشنطن، فهو لم يكن ينفر من الذهاب الى المدرسة فحسب بل كان ينفر أيضا من المدينة نفسها، لأن الحياة هناك في شقة صغيرة لا تتيح لصبي نشأ في الريف الفرصة الكافية لما يحب ان يمارسه من نشاط.

ولا يعني ذلك انه لم يستمتع بان يكون ابناً لأحد اعضاء البرلمان البارزين، وكثيرا ما شوهد الابن الصغير الاشقر ينتقل في حدائق مبنى الكابيتول (البرلمان) على مزلجته ذات العجلات، او ذاهبا في صحبة ابيه الى قاعة مجلس النواب. وذات مرة، وهو في الثالثة عشرة من عمره، رافق اباه الى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس وودرو ويلسون. وصافح الرئيس تشارلز الصغير وسأله بلطف عن حاله، فأجابه الصبي بلطف مماثل: "على احسن حال يا سيدي. أشكرك". وفي ذلك المساء أخبر امه بأنه لم يجد المقابلة شيئا بالغ الاثارة، فالرئيس في نهاية الامر رجل مثل سائر الرجال. وحين هبط لندبرغ بطائرته في باريس بعد ذلك بسنوات وغدا موضع حفاوة من عدد لا يحصى من رؤساء الدول ورؤساء الوزارات، تميز سلوكه برشاقة اجتماعية ولباقة أثارتا الاعجاب بهذا الشاب الريفي الا ان هؤلاء اخطأوا فهمه حينذاك، كما كان يساء فهمه دائما تقريبا، والصحيح ان لندبرغ قد جاء من الريف ولكنه لم يكن أبداً ريفياً ساذجاً.

وكان فشله في دراسته مثارا لألمه، وانما الألم الاكبر كان فشله في الانتماء الى اي مجموعة. والصبي الذي يبدأ الفترة الدراسية متأخرا يكون محكوما عليه في العادة باحتلال ادنى المراكز في الترتيب المألوف في المدارس، وكان ذلك هو وضع لندبرغ في غالب الاحيان، وساعد هو على زيادة تعقيد الامور لنفسه بما كان يبديه من تحفظ واختصار في الحديث وعدم الاهتمام الظاهر بأسلوب الآخرين في التعامل معه. ولم يحاول أبدا ان يجتذب الاهتمام عن طريق الخضوع للآخرين، او ان يتطوع للاجابة عن الاسئلة في الفصل. ونادرا ما كان يحاول الاشتراك في رياضات المنافسة، مثل البيسبول وكرة القدم وكرة السلة التي تعتبر اساس الانشطة الجماعية في المدرسة.

ولعل أفضل ما يقدم تلخيصا مؤثرا للانفراد الذي تميزت به انواع التفوق التي سعى اليها لندبرغ، هو أنها كانت على الدوام أنشطة لا تتطلب منه أن يتنافس مع الآخرين، بل مع نفسه. ولم يكن طيرانه الى باريس سوى نموذج متطرف لهذا الانفراد.

ونظراً الى ما أبداه تشارلز من قلة اهتمام بدراساته، فقد ساعده الحظ اذ طرأ واحد من غرائب التاريخ كفل له التخرج في المدرسة الثانوية. فقد دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧، وتطلب الأمر زيادة الجهود المبذولة على النطاق الوطني لانتاج الغذاء، فاصدرت ولاية مينوسوتا مرسوما

يقضي بأن اي فتى تفرّغ للعمل في احدى المزارع خلال عام كامل يعتبر انه قضى ذلك العام بنجاح في الدراسة الثانوية. وقد رحّب تشارلز بهذا المرسوم وقضى الجانب الأكبر من سنة دراسته النهائية (الرابعة) في المدرسة الثانوية في تحويل مزرعة ليندهولم الى مزرعة حقيقية، بعدما كانت شيئا اقرب الى الوهم. وتخرج تشارلز في المدرسة الثانوية في ليتل فولز عام ١٩١٨ بعدما اصبح مزارعا حقيقيا، مقتنعا بأنه سيشق طريقه في الحياة مقتفيا خطى اسلافه الاسوجيين في فلاحة الأرض.

وفي حدود ما يمكن القطع به، يقال ان أباه وأمه قد رضيا كلاهما عن قراره، وهو أمر يبدو على شيء من الغرابة، لأن أباه كافح كفاحاً شاقا للارتفاع بنفسه فوق مستوى العمل اليدوي في مزرعة أبيه، وكان التعليم وسيلته في ذلك الكفاح. وكان الأب المحامي والأم المدرّسة مثالين حيّين بارزين للمزايا التي يحققها التعليم الجامعي، وعلى رغم ذلك فانهما قد تصرفا في حياتهما على نحو تلاشت معه فرصة التحاق ابنهما بالتعليم الجامعي.

وهنا يجدر التساؤل عما اذا كان حرمانهما تشارلز فرصة المتابعة الدراسية العادية نتيجة أنانية بريئة غير واعية، او نتيجة اتجاه لا شعوري الى استخدامه وسيلة يقتص بها احدهما من الآخر؟ ام هل كان تشارلز الأب شديد الانشغال او كثير التغيب عن بيته فمنعه ذلك من الاحاطة بما كان يجري؟ ام انه درى ولكنه فضّل ان يتجاهل الأمر ويتغاضى عن قيام إيفانجيلين بانتزاع تشارلز من مدرسته مرارا وتكرارا كي يرافقها في زيارات هنا وهناك، حتى انتهى بها الامر الى احتكاره لنفسها في بلدة ليندهولم المنعزلة؟

وحدث مرة، بعد ان اصبح تشارلز شخصية مشهورة، ان اتهمت احدى الصحف إيفانجيلين بأنها كانت تتكابر على جيرانها في ليتل فولز الى درجة انها كانت تمنع ابنها تشارلز من ملاعبة اطفالهم. وقد اعترض تشارلز على ذلك ودافع عنها في احاديثه الخاصة، وأكد انها، على نقيض ذلك، كانت تغري احيانا اطفال الجيران ببعض النقود لملاعبة تشارلز. ولا ريب في ان هذا الدفاع يبعث على الحيرة اكثر من الاتهام نفسه فلماذا تدعو الضرورة الى دفع هذه النقود، مهما كانت ضئيلة؟ وكيف حدث وبقي هذا الصبي الوسيم بلا اصدقاء حميمين؟ لقد كانت لتشارلز شخصية جذابة اصبح لها صداها التلقائي في انحاء العالم، فكيف حدث له ان ظل نكرة تقريباً بين ابناء جيله من الفتيان والفتيات في بلدة ليتل فولز؟

وعندما وفد مراسلو الصحف الى البلدة في صيف عام ١٩٢٧ لجمع المعلومات عن ماضي لندبرغ، قلما استطاع اهل البلدة ان يسترجعوا عنه شيئا يذكر، في ما عدا انه كان يظهر استعدادا لان يصبح ميكانيكيا ويحب ركوب الدراجات البخارية، ولا يخرج للنزهة مع الفتيات اطلاقا. فقد كان حرص ايفانجيلين النفسي على احتكار ابنها والسيطرة عليه بالغ الشدة، على غير وعي منها. فكان

تشارلز يخصها وحدها، وبدا انه عندما بلغ السابعة والعشرين من عمره لم يكن اقام اي علاقة حقيقية مع امرأة ما. ومن النادر ان تمارس ام مثل هذا الاحتكار المطلق لأي من ابنائها.

أعلى درجات الامتياز

قضى تشارلز طوال فترة الحرب العالمية الأولى يعمل في المزرعة، ولكن الأسعار بدأت تتدنى خلال عام ١٩١٩، واتضح انه مهما ثابر تشارلز على العمل واجتهد فيه مع الأجير المساعد، فان مزرعة ليندهولم كانت أصغر من ان تصمد للمنافسة أمام المزارع الضخمة الاخرى في الناحية. وقد كتب تشارلز بعد ذلك عن هذا الموضوع: "في عام ١٩١٩ سلمت المزرعة الى المستأجرين استعدادا لبدء الدراسة العالية. وكانت العملية شاقة مؤلمة، حين وجدتني انخلى عن الموجودات المخزونة والماشية والاجهزة، وتتقلص اساليبي وتتبخر فيخلو الجو" لأساليب الآخرين وآمالهم. وقضيت وقتا طويلا في اختيار المعهد الذي التحق به، ثم استقر رأيي اخيرا على جامعة ويسكونسن، فكان ذلك إيذانا بانتهاء كل علاقاتي الوثيقة بمزرعتنا".

وقد سر أبواه لقراره تجربة حظه في التعليم العالي، وأسعد ذلك ايفانجيلين خصوصا فاطمأنت الى الاحتفاظ به لنفسها ولم تلبث ان انتقلت معه واستأجرت شقة لاقامتهما قرب الجامعة وحصلت على وظيفة مدرسة للعلوم في مدرسة محلية. وقد قدر لها الا تعيش في ليندهولم بعد ذلك ابدا، والا تخطو مذ"اك في ظل زوجها. وبذلك انتهى سجنها البيتي.

ومضى تشارلز يتعثر ويحصل على تقديرات منخفضة في عامه الجامعي الأول، واحزن امه عندما رأته يتعثر اكثر في عامه الجامعي الثاني. وفي شهر فبراير (شباط) عام ١٩٢٢ تلقت المذكرة التالية من مرشد تشارلز الدراسي، الذي لم تكن صلته به وثيقة الى درجة تجعله يألف اسمه الشخصي:

"إن سجل كارل خلال النصف الأول من العام الدراسي غير مشجع أبداً

تصميم الآلات -	١	راسب.
الرياضيات -	٥٢	راسب.
الفيزياء -	٥١	لم يستكمل.
أعمال الورشة -	٦	٨٨
أعمال الوشة -	١٣	٨٨

وفي ضوء هذه الدرجات الحقيرة، قررت لجنة المستشارين الدراسيين للسنة الثانية في ٢ فبراير (شباط) طرد كارل من الجامعة".

وحين كتب تشارلز مؤلفه "روح سانت لويس" بعد هذا الحادث بثلاثين عاما تقريبا، قال عنه: "عندما كنت طالبا في السنة الثانية في جامعة ويسكونسن، قررت أن اتوقف عن متابعة دراستي للهندسة الميكانيكية كي اتعلم الطيران". فعلى رغم انه كان رجلا صادقا عنيدا في صدقه، الا انه لم يستطع في هذه الحال بالذات ان يقول أكثرمن انه ترك الجامعة، من دون ان يعترف بأنه قد فصل عنها. بيد ان المهم هنا هو نهاية الفقرة السابقة، اذ انه منذ اللحظة التي عقد فيها عزمه على تعلم فن الطيران، تغيرت حياته تماما.

وكأن لندبرغ، حين اتجه الى الفضاء، اكتسب لتوه قدرة خارقة على

تحقيق الذات يفتقر اليها سائر البشر. وكانت تلك القدرة خليقة بأن تقف به على مبعدة من معظم معاصريه وان ترفعه - حتى قبل مغامرة طيرانه الى باريس - في نظر الآخرين الى مرتبة الأبطال. وكان الأسف والسخط يتملكان لندبرغ كلما أطلق عليه لقب البطولة. غير انه عندما كان يمارس الطيران الاستعراضي في انحاء الغرب الامريكي في عامي ١٩٢٢ و١٩٢٣ ماشيا على جناحي الطائرة ومقدما استعراضات القفز بالمظلة، وعندما حدث له بعد ذلك بزمن ان اضطر في مناسبات عدة الى القفز من طائرته طلبا للنجاة، كانت رباطة جأشه المستمرة في مواجهة الخطر امرا يعتبره الآخرون تحقيقا بطوليا لا جدل فيه.

كان كل من ايفانجيلين وتشارلز الأب ضئيل الثقة في جدوى الطيران. وحين فاتحهما تشارلز للمرة الاولى باحتمال اتجاهه بعد التخرج في المدرسة الثانوية الى كسب عيشه كطيار، هز الاثنان رأسيهما بالمعارضة، وقال له أبوه بصراحة ان الطيران خطر وانه ابنهما الوحيد ولا يمكنهما المجازفة بحياته.

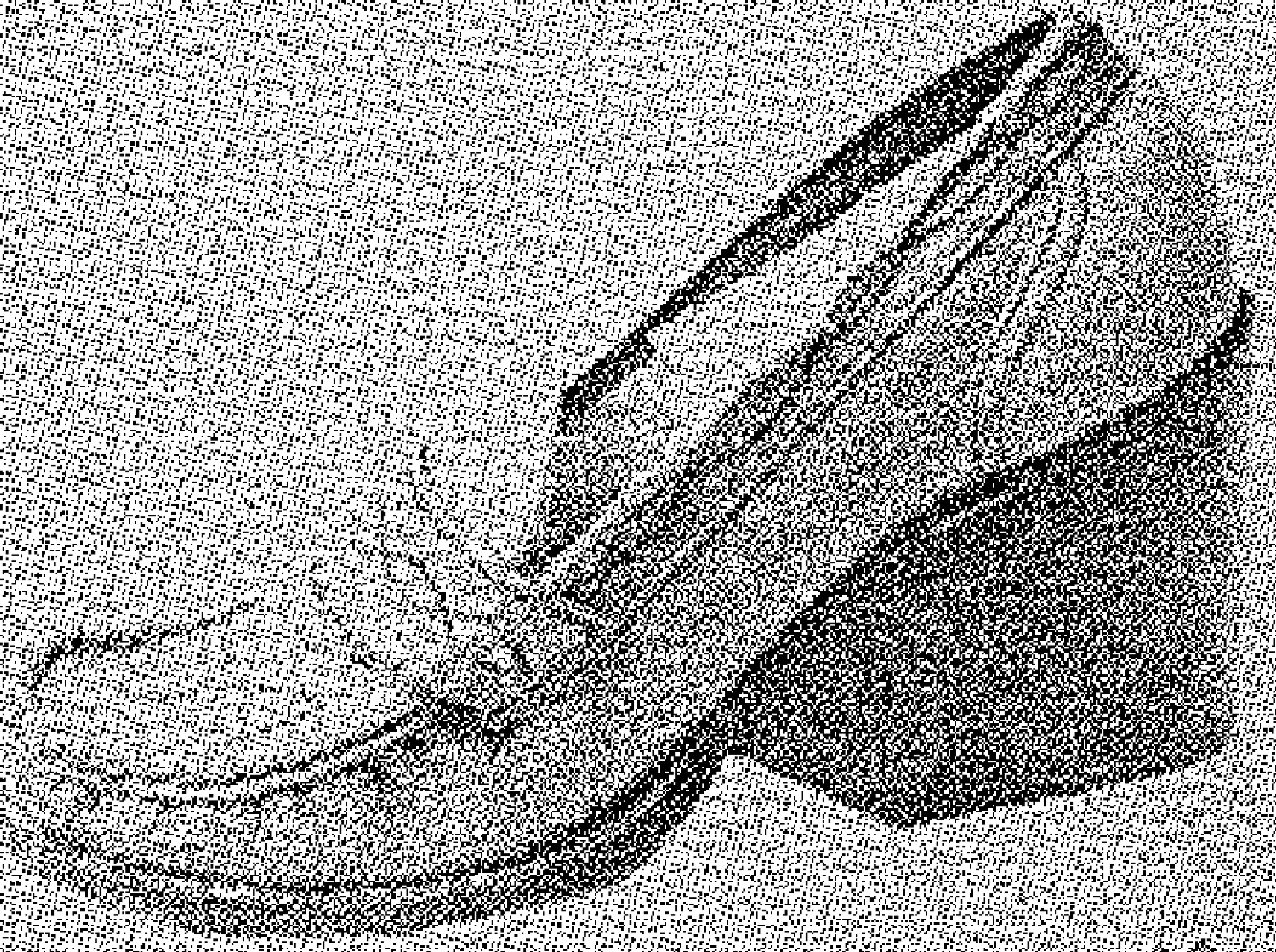
ولكن فشل لندبرغ في الجامعة اتاح له ان يعلن لأبويه عزمه المطلق على الطيران. وهو يصف في "روح سانت لويس" المناسبة التي انهى فيها هذا القرار الى امه بالآتي: "كانت رغبتي في الالتحاق بالطيران شديدة الى درجة جعلتني لا أكاد ادرك وقع قراري على امي التي قالت: "حسنا، اذا كنت تعتزم الطيران حقا فذلك هو ما ينبغي ان تفعله". ثم قالت بعد حين: "لا بد ان تمارس حياتك الخاصة، ويجب عليّ ألا أقعدك عن ذلك. كل ما في الأمر اني لست ادري متى سيتاح لنا ان نقضي معا وقتا كافيا بعد ذلك". وقد تحققت نبوءتها. فقد قطعت مئات الرسائل وطرود البريد المسافة بيننا، ولكني منذ ذلك الحين لم استقر في البيت أبدا اكثر من أيام قلائل في كل مرة كنت اعود اليه. غير أننا ذهبنا في الصيف سويا الى جنوب مينوسوتا حيث مارست الطيران الاستعراضي، كما انها قطعت الطريق بين شيكاغو وسانت لويس مرارا لا حصر لها في صحبتي عندما كنت اقود طائرة البريد على هذا الخط، وكانت تفترش أكياس البريد في الطائرة".

ولعلّ "مئات" الرسائل التي يشير اليها لندبرغ كانت أقرب الى الآلاف، فقد كانت إيفانجيلين مواظبة على المراسلة. ولم يكد تشارلز يلتحق بالطيران حتى راحت هي تمطره باخبارها. وعندما تخلى عن الطيران الاستعراضي والتحق بمدرسة سلاح الطيران، عزا رفاق دراسته في قاعدة "بروكس فيلد" وقاعدة "كيلي فيلد" ضخامة حجم بريده الى ان هناك صديقة تلاحقه ملاحقة محمومة، فاضطر تشارلز الى مطالبة امه بالاعتدال في المراسلة اعفاء له من هذا الحرج فردت امه مقترحة ان تعنون رسائلها بخطوط مختلفة، وقالت: "وهكذا، فانهم سيحسدونك لظنهم ان لك عددا كبيرا من الصديقات، بينما لن يكون هناك في الحقيقة سواي".



امش

جرّب الاحذية الهندية
تجدها طليقة الحركة متعددة
الاستعمال حسبما شئت من الاصناف
■ احذية للرجال
■ احذية للنساء
■ احذية للاطفال يمرحون بها طوال النهار
اختر حذاء من الهند،
مصنوعاً باليد لراحة
قدميك واناقتهما.



تصدير الهند



تمتع

من اجل المزيد من التفاصيل تفضل بالاتصال بـ:

For details please contact:

Export Promotion Council for Finished Leather & Leather Manufactures
15/46 Civil Lines
Kanpur-U.P. 208001 (India)
Phone: 62464 Gram: 'LEXPORT'
Telex: KEPC KP 286



أو اركض بالاحذية الهندية

ومن حسن حظ تشارلز ان ايفانجيلين كانت تكتب خطابات مسلية تذكر فيها أحدث النكات المتداولة في المدرسة حيث تعمل، وتسجل بدقة غرائب السلوك التي تميز بعض تلاميذها وزملائها. وكان مستوى الصراحة المتبادلة بينهما كبيرا، يتيح لها ان تكتب حينا بلغة دارجة خشنة وغير مصقولة احيانا، كما يتيح لتشارلز ان ينفض عنه الحرج ويروي لها حكاية رجل ثمل ركب معه الطائرة في مقابل خمسة دولارات وظل طوال الوقت يحاول مغادرة الطائرة وهو يصيح بملء رئتيه: "اريد ان أقضي حاجة...!"

وثمة امران يتضحان من رسائل تشارلز أثناء هذه الفترة: اولهما ولعه بالنكتة، وثانيهما تحوله من طالب ذي مستوى دون العادي الى طالب بالغ التفوق. وقد اعترف لندبرغ بانه استاذ في فن اعتصار معجون الاسنان داخل افواه الزملاء النائمين، ووضع العقارب والحشرات الاخرى في ثنايا ملاءات الاسرة، واخفاء ملابس ضحيته ومعداته فوق اسطح الثكنات وفي غير ذلك من الاماكن التي يصعب الوصول اليها.

وعلى رغم ثقة لندبرغ التامة بقدرته على الطيران، الا انه كان يخاف مما يمكن أن يحدث له في حجرة الدراسة. وكان يعي تماما ان طلبة الطيران ستجري "تصفيتهم" بانتظام على مدى سنوات الدراسة في معهد السلاح الجوي، بحيث انه لن يبقى عند التخرج سوى واحد من كل خمسة تقريبا ليحصل على شهادة الطيران الحربي.

واتبع لندبرغ اسلوبه المعتاد الذي يتلخص في مواجهة المواقف الصعبة بصراحة تامة، والسعي الى معالجتها بوضعها قدر الامكان تحت سيطرته الكاملة. وقبل وفاته بعام، استعاد ذكر هذا الموقف في السيرة الذاتية للقيم" فقال: "انتهيت من تفكيري الى ان اؤمن الوسيلة لاجتياز جميع الامتحانات بنجاح، وهي الا اسعى لمجرد النجاح وحده، بل الى الحصول على اعلى الدرجات الممكنة. وبدأت ادرس واستذكر كما لم افعل من قبل ابدا، في الامسيات وعطلات نهاية الاسبوع واحيانا في دورة المياه بعد ان ينام الجميع فأظل استذكر حتى ساعة متقدمة من الليل. وحين تخرجت في شهر مارس (آذار) عام ١٩٢٥، حصلت على اعلى درجات الامتياز في دفعتي".

كالسمكة في الماء

ان تتبع الظروف التي عرفها لندبرغ في ضوء حياته العملية كفيل بأن يكشف لنا كثيرا من الدلائل على ما كان القدر يعتزم أن يحمله اليه من مجد. فقد كان لندبرغ فريدا في نسبه وتربيته. ومنذ لحظة التحاقه بمدرسة الطيران الحربي حقق نجاحا فريدا في الطريق الذي اختاره لنفسه.

ففي السن الثالثة والعشرين، تخرج في مدرسة الطيران الحربي وحصل على رتبة ملازم ثان في القوات الاحتياطية للسلاح الجوي، وقبل وظيفة كبير طياري البريد في شركة "روبرتسون" للملاحة الجوية في سانت لويس. ولعله وهو في اوائل العشرينات من عمره كان يحصل من

عمله على اجر لا يقل عن اجر اي طيار اخر في البلاد مهما يكن شأنه. وفضلا عن ذلك، فانه في فترة استعداده للطيران من نيويورك الى باريس، كان قفز بالمظلة اربع مرات من طائرات اضطر الى التخلي عنها للنجاة بحياته، وهو امر انفرد به دون سائر طياري الولايات المتحدة.

وقد دخلت اولى هذه القفزات تاريخ الطيران لانها كانت المرة الاولى التي نجا فيها اثنان من الطيّارين بعد اصطدام طائرتيهما في الهواء. وكان تقرير لندبرغ الرسمي عن الحادث ممتازا ومتميزا، لا بسبب الوقائع التي تضمنها فحسب، وانما كذلك بسبب المهارة الظاهرة في صياغته. وقد نشر هذا التقرير بعد حين في مجلة "الطيران" ثم في صحيفة "ايفننغ وورلد" التي تصدر في نيويورك، واصبحت المدارس تستخدمه كنموذج لاسلوب رواية الوقائع على نحو مبسط وخال من الزخرف.

وقد جاء في نص التقرير ما يأتي:

"تقرير من الطيار تشارلز أ. لندبرغ عن تصادم في الهواء وقع قرابة الساعة ٨،٥٠ صباحا يوم ٦ مارس (آذار) ١٩٢٥، على بعد عشرة اميال تقريبا الى الشمال من قاعدة كيلي الجوية.

كان تشكيل من تسع طائرات من طراز «SE—5»، بقيادة الملازم بلاكبورن يهاجم طائرة من طراز «DH4B» يقودها الملازم موجان على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم تقريبا، وفوق مستوى السحاب ببضع مئات من الاقدام. وكنت أطير الى يسار الوحدة العليا والى يميني طائرة الملازم مكاليستر والطيار "لاف" يطير في المقدم. وحين بدأنا الانقضاض على الطائرة «DH»، هاجمت من اليسار وهاجم الملازم مكاليستر من اليمين. وبعد ان انهى الطيار لاف هجمته وارتفع، واصلت الانقضاض على الطائرة «DH» لفترة قصيرة قبل ان اعود الى الارتفاع متجها نحو اليسار، من دون ان ارى اي طائرة اخرى قريبا مني. وحلقت فوق الطائرة «DH»، وبعد لحظة شعرت بهزة خفيفة مفاجئة اعقبها صوت اصطدام واندفع رأسي الى الامام مصطدما بغطاء قمرة القيادة، وبدا ان الطائرة قد دارت حول نفسها وتوقفت لحظة قصيرة بلا حراك تقريبا، فأغلقت مفتاح البنزين ورأيت الى يساري على بعد اقدام قليلة طائرة من طراز «SE—5» وفيها الملازم مكاليستر في مقعد القيادة، وكان يستعد للقفز.

وكانت الطائرتان متشابكتين وذيلاهما يكادان يكونان متوازيين. وكان جناح طائرتي الايمن مصابا وقد انثنى قليلا الى الخلف، ثم بدأت الطائرتان تدوران حول نفسيهما واخذت الأسلاك تصفر، وبدأ الجناح الايمن لطائرتي يتذبذب ويصدم رأسي في كل واحدة من حركاته الى اسفل اثناء اهتزازه، فخرجت من مقعدي وتسلقت عبر الحافة المدلاة للجناح التالف، وقفزت الى الخلف بعيدا عن الطائرة وتحرزا من ان تقع فوقي قطع من حطام الطائرة، فانني لم اجذب حبل المظلة لفتحها الا بعد ان سقطت بضع مئات من الاقدام. وقد ادت المظلة مهمتها تماما.

ورأيت الملازم مكاليستر سابحا في الهواء فوقي ومرت الطائرتان المحطمتان على بعد قرابة ٩٠ مترا الى أحد الجانبين وهما تدوران الى اليمين حول نفسيهما تاركتين خلفهما خطا من الشظايا الأخف وزنا على طول مسارهما، وظللت أراقبهما حتى سقطتا فوق الشجيرات على مسافة ٢٠٠٠ قدم تقريبا الى أسفل وانفجرتا مشتعلتين بعد اصطدامهما بثوان.

وكنت أسبح في الهواء في الاتجاه العام لحقل محروث، وصلت اليه بتقصير المظلة. ومع أن صدمة هبوطي على الارض كانت شديدة الى درجة لم أتمكن معها من البقاء واقفا، الا انني لم أصب بأي أذى. وأثناء هبوطي فقدت نظارتي وجهاز تصوير كان في وضع محكم في جيب سروالي الخلفي اضافة الى حبل المظلة".

وأكثر ما يبعث على الدهشة في هذا التقرير، خصوصا في نظر غير الطيارين، أن الحادث لم يسبب قلقا يذكر للندبرغ. فقد أوشك الهواء أن يصبح بيئته الطبيعية الى درجة أن حادثا مفزعا يقع فيه على ارتفاع ١٥٠٠متر في السماء يكاد لا يسبب له من الاضطراب ما قد يحدثه اصطدام سيارتين منطلقتين بأقصى سرعة فوق الارض.

"أحر" التهاني"

ومن العقبات التي يصطدم بها كل من يحاول كتابة سيرة لندبرغ هو ان أهم حدث في حياته، الحدث الذي دفع به الى رحاب التاريخ بين ليلة وضحاها قد وصفه لندبرغ نفسه بحماسة وخيال لا يأمل احد في أن يأتي بأفضل منها. فالقارىء ينتقل عبر صفحات كتاب "روح سانت لويس" وكأنها سلسلة من آخر الاخبار المثيرة، وكأن نتيجة هذه الرحلة الطائرة التي لم يسبق لها مثيل لا تزال ساعة بعد ساعة غير مضمونة لما يحف بها من أخطار وصعاب.

ان ما يجعل قيمة الانجاز الذي حققه لندبرغ في ذلك الكتاب أكبر مما يظن عادة هو أن الرحلة نفسها، اذا استثنينا مصادفة واحدة سيئة، كانت سهلة. سهلة؟ ان كلمة السهولة تبدو غير معقولة في وصف محاولة كانت حتى ذلك الحين تنتهي دائما تقريبا الى الموت، ولكن من أهم الموضوعات التي ينطوي عليها الكتاب أن لندبرغ ودونالد هول مصمم الطائرة قد حسبا مقدما حساب كل احتمال بدقة يمكن معها القول انه من الناحية الميكانيكية لم يعد هناك أي مجال لوقوع أي طارىء أو تلف يمكن اعتباره مهما.

وحسب رأي الاثنين كان لا بدّ للطائرة، بمجرد ارتفاعها عن الارض وتحليقها في الجو في اتجاه باريس ان تتغلّب على كل الاسباب التي يحتمل ان تحول دون وصولها الى وجهتها في الوقت المناسب. فقد كانت المشكلة التي حلها التصميم الهندسي بسيطة تتلخص بالآتي: المطلوب هو تصميم طائرة يمكنها لدى الارتفاع عن الأرض حمل كمية من الوقود تكفي للطيران مسافة ٦٥٠٠ كيلومتر. ومتى تحقق ذلك، بات كل شيء بعده متوقفا على الطيار.

وفي لحظات قلائل من صباح يوم

٢٠ مايو (ايار) ١٩٢٧، اتضح أن لندبرغ وهول قد صمما الطائرة المنشودة. وكان الجو خلال الرحلة رديئا، ولكنه لم يكن أسوأ من الجو الذي كان لندبرغ يواجهه كثيرا وهو ينتقل بالبريد بين سانت لويس وشيكاغو. وقد بدا طريق "الدائرة العظمى" الذي رسمه لندبرغ على شكل مراحل طول كل منها ١٦٠ كيلومترا يبدو على خريطته، ذات العلامات التي تشبه بقع الحبر الخشنة، وكأنه رسم خطه طفل صغير، ومع ذلك فقد ثبتت دقته الفائقة وتمكنت معه الطائرة "روح سانت لويس" - بالاضافة الى ملاحة لندبرغ الممتازة - من عبور المحيط والتحليق فوق الارض عند الهدف المحدّد تقريبا، فوق خليج "دنغل باي" على الساحل الجنوبي الغربي من ايرلندا. وقد قدّر لندبرغ أنه يصل الى اوروبا منحرفاً عن مساره بنحو ٦٥٠ كيلومترا تقريبا، ولذلك طلب ان يكون مدى الطائرة ٦٥٠٠ كيلومتر. وحين هبط في باريس، لم يستطع ان يكتم تباهيه بان الوقود الباقي في خزاناته كان يكفيه لمواصلة الطيران حتى مدينة روما.

وينتهي نص كتاب "روح سانت لويس" بمفاجأة وعجب فيقول: "وكان المطار بأكمله أمامي مغطى بوجوه متراكضة!" وفي "خاتمة" قصيرة بعد ذلك، يشير لندبرغ الى احتمال صدور ذيل للكتاب: "ان الترحيب الذي لقيته في مطار لو بورجيه كان مجرد بشير بالترحيب الذي قابلتني به فرنسا وبلجيكا وانكلترا، بل وسائر اوروبا عن طريق الرسائل التي تلقيتها. غير أن قصة تجاربي في الخارج وعودتي الى الولايات المتحدة وامتناني لشعوب اوروبا وامريكا، كل هذا، سيكون له موضع آخر".

ولم يقدر لهذا الموضوع أن يكتب أبدا. الا أننا نجد في "السيرة الذاتية للقيم؟" لمحات كثيرة من الاحداث التي ربما انطوى عليها ذلك الموضوع. فقد وصل لندبرغ الى مطار لو بورجيه قبل الموعد المضروب، فظن أنه لن يجد أحدا في استقباله. وكان لا بدّ له ان يعلن عن وصوله، وان يتخذ الترتيبات اللازمة باستخدام اسلوب الاشارات اذا دعت الضرورة لايواء طائرته في الحظيرة، ثم طلب المساعدة كي ينتقل الى باريس ويأوي الى فندق معتدل الكلفة. ولكنه اهتم بالتركيز الشديد على رحلة الطيران ذاتها وأغفل التفكير في توابعها.

وقد اذهله الحشد الكبير الذي وجده في مطار لو بورجيه. فلم يدر أنه منذ شوهدت طائرته فوق مدينة شربور تواترت البلاغات على باريس بالبرق والهاتف تعلن اقترابه فوق وادي السين. وبدا أن باريس بأجمعها قد اتجهت الى المطار للترحيب به، مما أدى الى أكبر أزمة مرور في تاريخ المدينة. وحطت طائرته على أرض المطار الساعة ١٠،٢٢ مساء بتوقيت باريس. وبينما كانت الطائرة لا تزال تجري على المدرج قبل توقفها، اخترق الوف المرحبين ساحة المطار وتحلقوا حولها.

ووقع السفير الامريكي هيريك على الفور تحت سحر الطيار الشاب وطلب من لندبرغ ان يرافقه الى السفارة

ويعتبر نفسه انه في بيته، فقبل لندبرغ الدعوة. ومنذ اللحظة التي استغرق فيها في النوم وهو يرتدي بيجاما استعارها من السفير، لم يعد لندبرغ ابدا الى عالم صباه وشبابه. وكان من دلائل انتقاله من عالم الى آخر تلك البرقية الغريبة الرقيقة التي أرسلها السفير هيريك الى ايفانجيلين لندبرغ في ديترويت: "أحر التهاني. لقد شرّفني ابنك الفذ بقبوله ضيافتي، وهو في خير صحة ويغفو غفوة حلوة تحت سقف العم سام".

وعندما استيقظ لندبرغ بعد الظهر بقليل يوم ٢٢ مايو (ايار)، وجد بلانشار، الخادم الخاص للسفير، واقفا الى جانب سريره، يعلن أن الحمام جاهز. وتبادر الى ذهن لندبرغ على الفور أن الغرفة التي يجد نفسه فيها تشبه ما كان رآه في الافلام: غرفة في قصر، تختلف عن كل ما سبق له أن صادفه في واقع الحياة. وكان بلانشار يحمل ثوب حمام (برنس)، وبدت هيئته للندبرغ شيئا خياليا شبيها بما في الافلام. ولم يكن سبق له في حياته كلها أن اقتنى ثوب حمام، اذ كان يعتبره قطعة زائدة من الملابس لا لزوم لها على الاطلاق.

وكتب لندبرغ عن ذلك في ما بعد: "كنت - كفرد - مندهشا لما أحدثه هبوطي الناجح في فرنسا من أثر على أمم العالم. كان الامر في نظري شبيها بعود ثقاب يشعل نارا سريعة الانتشار، ولذا فقد اعتقدت أن الناس يخلطون بين ضوء النار ولهب الثقاب، وأن الناس يسندون الى فرد واحد فضل عمل قامت به في الحقيقة جماعات كثيرة من أفراد عديدين".

لقد كتب لندبرغ هذه الكلمات بعدما تجاوز الستين، ولم يكن في ذلك اي تصنّع او تواضع زائف على الاطلاق، ان الـ ٣٣ ساعة التي قضاها طائرا في الهواء بين نيويورك وباريس لم تغيره مثقال ذرة بل انها كشفت فيه الصفات التي دفعته الى القيام برحلته، ولكن الـ ٣٣ ساعة الاولى من اقامته في باريس أنذرت بأن تسبغ عليه حياة جديدة ليست بالضرورة جديرة بالترحيب، وكان عليه أن يتصرف بسرعة حتى لا يكون مجرد سلوكه الوديع المنبعث من أدبه ظاهرا في أعين العالم وكأنه قبول بلا معارضة لهذه الحياة الجديدة.

الجولة الكبرى

لقي لندبرغ في نيويورك ترحيبا لا مثيل له استمر أربعة أيام، كان كل منها سلسلة لا تنقطع من المواكب والولائم والاستقبالات الخاصة والعامة. وفي صباح اليوم الاول، خلال المسيرة التقليدية بالسيارة في برودواي، امطرت نوافذ ناطحات السحاب في الحي المالي، طنين من قصاصات الورق الملون والاشرطة الورقية، على موكب السيارات الذي صاحبه، وفي الصباح التالي خصصت "النيويورك تايمس" صفحاتها الستة عشرة الاولى للندبرغ، دلالة على أن محرري الصحيفة يعتبرون الانجاز الذي حققه أهم حدث منفرد في التاريخ الامريكي.

وطار لندبرغ من نيويورك الى سانت لويس ليقضي يومين في احتفالات لا تنقطع، شارك فيها الاشخاص التسعة الآخرون الذين ساندوا رحلته وأعانوه على انجازها.

وانتقل من سانت لويس في رحلة جوية خاطفة الى مدينة دايتون في ولاية أوهايو، حيث كان يأمل في القيام بزيارة هادئة لاورفيل رايت (★) ولكن آلافا مؤلفة من الراغبين في التعبير عن عواطفهم الطيبة نحوه تجمعوا عند بيت أورفيل وطالبوا صاخبين بمشاهدة لندبرغ، وتدافعوا فدمروا حدائق منزل رايت وأحالوها الى تراب، بل وعدا البيت نفسه مهددا بتلف خطير.

وعاد لندبرغ الى نيويورك في أواخر يونيو (حزيران) ليبدأ وضع كتاب عن رحلته. وألغى جميع ارتباطاته المعلقة، واستقر في بيت ريفي لاحد اصدقائه، وانكب على كتابة مؤلفه الصغير "نحن" بخط يده وبسرعة ملحوظة. وكان مضيف لندبرغ في هذه المناسبة الكابتن هاري ف. غوغنهايم، رئيس صندوق دانيل غوغنهايم للنهوض بعلوم الطيران، والذي كان طيارا بحريا في الاسطول أثناء الحرب العالمية الاولى.

وكان لغوغنهايم بيت ريفي يدعى "فاليز" (الشاطىء الصخري) يقع في "ساندز بوينت في لونغ أيلاند في منطقة نيويورك، وقد أتاح للندبرغ العزلة التي يحتاج اليها لوضع الكتاب، بعيدا عن الحشود المفتونة بالبطولة والصحافة التي كانت تلاحقه في اصرار حتى عندما لا تكون لديه أخبار يزودها بها. وفضلا عن ذلك، كان هناك مرعى للجياد في الارض التابعة للبيت يصلح مدرجا للطائرات.

وقرية فاليز هي المكان الذي اصطحب اليه لندبرغ في طائرة مستأجرة آن مورو في أول موعد ضربه لها من مواعيد لقائهما الثلاثة التي سبقت خطبتهما.

وفي الوقت نفسه كان لندبرغ يضع الخطط لمغامرة جديدة. وفيما كان هو منكباً على كتابه "نحن"، تلقى مئات الطلبات لالقاء خطب. وخطر له أنه يستطيع تلبية هذه الطلبات واداء دور يؤمن به وقد فرضته عليه، على نحو او آخر، رحلته الى باريس هو دور المتحدث الرئيسي باسم عالم الطيران التجاري الجديد. وقرّر ان يقوم - باسم هذه القضية بجولة في مدن البلاد من ساحل الاطلسي الى ساحل المحيط الهادىء ليوضح أنه عندما يتعلق الامر بالمحافظة على التوقيت المنتظم الدقيق، فان الطائرات توشك بالفعل ان تضاهي القطارات (وهو ايضاح لم يكن ينتظر أن يستطيع أحد سوى لندبرغ القيام به).

وبدأ لندبرغ جولته في يوليو (تموز) وانتهى منها في أكتوبر (تشرين الاول) وقطع خلالها مسافة ٣٥٠٠٠ كيلومتر في ٢٦٠ ساعة توقف أثناءها في مواعيد دقيقة في ٨٢ مدينة، وألقى رسائل في ساعات محددة على مدن أخرى لا حصر لها، وخصص ١٤٧ من خطبه لموضوع الطيران عموما.

مغامرة جديدة.. وخطرة

وهذه التظاهرة الكبيرة للمهارة في الطيران لم يناظرها سوى تلك الرحلة من دون توقف التي قام بها في شهر ديسمبر (كانون الاول) بين العاصمة واشنطن ومدينة مكسيكو - سيتي

(★) أحد الاخوين ويلبور واورفيل رايت اللذين كانا أول من نجح في التاريخ في صنع طائرة تشق الفضاء وهي اثقل من الهواء.

عاصمة المكسيك، وهي رحلة ثبت من نواح معينة أنها كانت أشق من رحلته الى باريس وانها لم تقل عنها خطورة. وكان دوايت و. مورو، سفير الولايات المتحدة في المكسيك، رئيسا للجنة عينها الرئيس كالفن كولدج لاستقصاء أحوال الطيران في الولايات المتحدة. ودعا مورو لندبرغ الى زيارة ودية للمكسيك بواسطة الطائرة.

ويقول لندبرغ عن ذلك في "السيرة الذاتية للقيم": "لقد أتاحت لي دعوة السفير ان احقق عدة أهداف في رحلة طيران واحدة. فالى رغبته في أن تكون الرحلة تعبيرا عن الصداقة، وجدت انني أستطيع بذلك أن أبين بمزيد من الوضوح امكانات الطائرات الحديثة، وأن في مقدوري بعد انتهاء الزيارة مواصلة الطيران الى أمريكا الجنوبية، فأساعد بذلك على الربط جوا بين قارتي نصف الكرة الغربي الذي نعيش فيه".

وقلق السفير مورو حين علم باعتزام لندبرغ الطيران حتى المكسيك دون توقف، وقال انه لا يريد من لندبرغ القيام بأي محاولة من شأنها تعريضه للخطر. ورد لندبرغ على ذلك باسما: ان على السفير الكف عن القلق لان امر الطيران يعنيه هو (اي لندبرغ) وحده.

وتبدو رواية صحيفة "النيويورك تايمس" عن اقلاع لندبرغ في تلك الرحلة نموذجا حسنا للطريقة التي كانت تتبعها الصحافة في الكتابة عن لندبرغ في تلك الايام. وما قالته الصحيفة آنذاك: "كان بادي التركيز والهدوء، صافي العينين والرأس تحت ظروف تتطلب أقصى درجات الشجاعة الادبية والبدنية وأعلى مستويات المهارة. وانطلق الفاتح الامريكي الشاب بطائرته الرمادية من وجه بطحاء تنتشر فيها برك الماء الصغيرة وصعد بها يقتحم افريزا من السحاب القاتم المخيف قبل ظهر اليوم بقليل، ثم أدار مقدمها نحو الجنوب، وانطلق مرة أخرى في مغامرة جديدة خطرة نحو أرض غريبة، مجسدا من جديد في قلوب شعبه صفته الرائعة كسفير لهذا الشعب يحمل عربون صداقته ونياته الطيبة".

وطار لندبرغ طوال اليوم نحو الجنوب فوق ولايات فرجينيا وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا، وهو يتفادى العواصف الشديدة ذات الامطار الغزيرة، واستمر في طيرانه خلال الليل حتى وصل قرابة الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي الى تامبيكو في المكسيك. وقد خلف وراءه العواصف الماطرة والضباب والسحب الكثيفة، وبدت السماء أمامه زرقاء صافية والرؤية تمتد بلا حدود، وافترض أنه انتهى من أسوأ مراحل رحلته. وفجأة، اكتشف لدهشته الشديدة امرا مزعجا: لقد ضل الطريق! كانت أفضل خرائط المكسيك التي استطاع لندبرغ الحصول عليها في الولايات المتحدة لا توضح الا القليل من التفاصيل، خطوط سوداء أقرب الى الاستقامة تمثل السكك الحديد، وخطوط متعرجة تمثل الانهر وعليها بعض المواضع المميزة للعبور. ولكن نظراته التي كانت تنتقل تكرارا بين الخرائط المنشورة

على ركبتيه وسطح الارض تحته لم تجد اي تناظر يمكن تمييزه والاعتماد عليه. ومضى يتبع خطا حديديا متجها الى الغرب، آملا في أن يلتقي خطا حديديا آخر فيؤلف بذلك تقاطعا وزاوية يمكنه أن يتعرف عليها، ولكن هذا الالتقاء لم يحدث.

وحاول بعد ذلك أن يتبع طريقة كان يستخدمها أيام اشتغاله في الطيران الاستعراضي. فكانت هناك على طول خط السكة الحديد كثير من القرى والدساكر، ولكل منها محطة للسكة الحديد. وجرت العادة ان تضع كل قرية على جدار كل من طرفيها لافتة بالدهان الاسود تحمل اسمها وكثيرا ما كان لندبرغ يهبط الى ارتفاع منخفض قرب هذه المحطات ليقرأ أسماءها ويتحقق من مساره، وعلى ذلك فقد بدأ الان ينخفض فوق هذه المحطات المكسيكية الصغيرة الى ارتفاع ١٥ مترا فقط فوق سطح الارض.

ورأى لافتة مكتوبا عليها كلمة "كاباليروس"، ولكنه لم يجد في خريطته بلدة بذلك الاسم. وهبط فوق بلدة أخرى فرأى لافتة تحمل الكلمة نفسها. وتكررت المسألة على نحو يبعث على الحيرة. وكانت انقضت عليه في الطيران ٢٥ ساعة لم يذق خلالها طعم النوم، وبدأت ردود أفعاله تتباطأ، واخيرا... أنعم الله عليه بحل، وأدرك أن الكلمة التي تتكرر على تلك اللافتات لا تشير الى اسم بلدة ما وانما الى أماكن دورات مياه الرجال.

ها هوذا اذاً، تائه وسط النهار، في جو نموذجي للطيران وقد فات الموعد الذي ضربه للوصل الى مدينة مكسيكو.

ووصل في النهاية متأخرا عن الموعد ساعتين وأربعين دقيقة، وهو يشعر بحرج بالغ وعميق. غير انه أدرك الجانب الفكاهي للحادث. ففي وصفه للرحلة، الذي نشرته صحيفة "النيويورك تايمس" كرسالة منه، كتب الآتي: "لقد حدث خلل ما، ولا بد أنه حدث في شخصي أنا".

وخلال الاسابيع الستة التالية، طار لندبرغ الى ١٤ بلدا في امريكا اللاتينية، كما طار الى منطقة قناة بناما، ولقي ترحيبا حادا في كل مكان حل به وكأنه طيف الهي يهبط من السماوات باسما كريما. وفي يوم عيد ميلاده السادس والعشرين، طار من بورتوريكو الى سان دومنغو (جمهورية الدومينيكان حاليا). وكان بدأ فعلا يعد الخطط لانهاء حياته "العامة".

وقطع لندبرغ في جولته ١٥٠٠٠ كيلومتر وانهاها في مدينة سانت لويس في فبراير (شباط) ١٩٢٨. وبعد ذلك بأسابيع قليلة قام بآخر رحلة له في الطائرة "روح سانت لويس".

رجل الحياة

افترض لندبرغ انه عندما يعلن عودته الى الحياة الخاصة، فان شهرته ستبدأ في التقلص بالسرعة نفسها التي انطلقت بها. ولم يكن لندبرغ في افتراضه هذا ساذجا او غير واع لحقائق الامور، لان هناك تقليدا في الولايات المتحدة يقوم على خلق الشخصيات الشهيرة، بين ليلة وضحاها، واستهلاكها ثم نبذها.

ولكن سوء حظ لندبرغ شاء أن يظل الجمهور متعطشا على الدوام الى المزيد من أخباره، ولذا فقد بدأ نوع من الحرب غير اللائقة بين الصحافة وبينه، ولم تنته تلك الحرب الا بوفاته.

وقدر لأعظم طياري العالم أن ينشغل طوال السنوات القليلة التالية برسم مسارات الطيران التجاري داخل الولايات المتحدة وبين امريكا الشمالية وبقية القارات. وكان بين حين وحين يطير أسرع أو أعلى او اطول من اي شخص آخر قبله، الا ان تلك الانجازات لم تكن تقاس بالانباء المثيرة - الحقيقية أو الزائفة - التي كانت تنشرها الصحف طلبا للرواج. وما أكثر ما خرجت العناوين السوداء الكبيرة تعلن الانباء الزائفة عن أحدث صديقاته أو آخر مرض أصابه أو آخر حادث وقع له، أو آخر "وفاة" له.

ولا شك في أن أسعد حادث في حياة لندبرغ هو وقوعه في حب آن مورو وزواجه منها. ولكن فترة خطبتهما وشهر عسلهما تحولا الى كابوس مرهق بسبب مخبري الصحف الذين لم يكفوا عن ملاحقتهما ليل نهار والذين كانوا يكررون بسماجة وبغير ملل سؤال لندبرغ كلما نجحوا في محاصرته: "ما الخبر الان يا لندي؟ هل هي حامل؟" كذلك كان أتعس حادث في حياة لندبرغ اختطاف ابنه الرضيع الذي كان يحمل اسمه وقتله عام ١٩٣٢، ولكن الصحافة استغلت هذه المأساة وحولتها الى مهرجان!

وكان لندبرغ حتى ذلك التاريخ أضاف الى سجله اللامع في الطيران سجلا آخر في مجال التكنولوجيا الطبية لا يقل قيمة عن الاول. فهو استمر منذ عام ١٩٣٠ يعمل مع الدكتور الكسيس كاريل في معهد روكفلر للبحوث الطبية في مدينة نيويورك من أجل صنع مضخة لرش الاعضاء الحية رشا اختراقيا. وقد أعلن كاريل ولندبرغ صنع المضخة الاولى في مجلة "العلم" عام ١٩٣٥، واشتركا بعد ذلك بسنوات ثلاث في نشر كتاب بعنوان "زرع الاعضاء".

وعام ١٩٣٨، انتقل آل لندبرغ مع ابنهما جون وطفل آخر جديد هو لاند مورو، الى جزيرة بالغة الصغر تدعى ايليك، أمام ساحل بريتاني في فرنسا. وكانت الجزيرة على مسافة بضع دقائق بالقارب أو على الاقدام، اذا كان الجزر منخفضا، من جزيرة أخرى أكبر منها قليلا هي جزيرة سان جيلواس، التي جعل فيها الدكتور كاريل وزوجته مقرهما الصيفي. وكان المؤلف الموسيقي أمبرواز توما يملك جزيرة ايليك في أواخر القرن التاسع عشر فبنى فيها بيتا ريفيا كبيرا. وكانت ظروف المعيشة في الجزيرة بدائية مما جعلها مناسبة لذوق لندبرغ الذي كان يشعر بالقوى الازلية الكامنة في الاشجار العتيقة التي تعصف بها الرياح، وكان يبتهج للعواصف العاتية التي ترسل رشاشا من أمواج البحر العاتية فوق سقف البيت الحجري المتين.

غير ان متعة تلك الحياة لم تلبث أن قطعتها الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٣٩، غادر آل لندبرغ مرغمين جزيرة ايليك واستأجرا بيتا ريفيا في لونغ آيلاند في ولاية

نيويورك. وبدأ لندبرغ من ذلك المقر يؤدي دورا صرف عنه الجانب الاكبر من تعلق الناس به من دون أن ينال كثيرا من شهرته. فقد بدأ وحده أولا، ثم في ظل اللجنة المسماة "لجنة أمريكا أولا"، بعد ذلك، يناضل بشدة وحماسة ضد دخول أمريكا الحرب. وفي خلال مناظرة مريرة مع حكومة روزفلت رأى أنه يجدر به التنازل عن رتبته كعقيد في سلاح الطيران الامريكي.

وانتهى دوره في هذه المناظرة بواقعة بيرل هاربور (★★). فقد عرض لندبرغ تطوعه فور وقوع الكارثة على سلاح الطيران، ولكنه أبلغ أن ترخيص البيت الابيض باعادة رتبته اليه مرهون بأن يعلن أولا اعترافه بأنه كان مخطئا في معارضته لدخول الولايات المتحدة الحرب. وقد رفض لندبرغ ذلك، وفرضت الضرورة أن تكون مساهمته في المجهود الحربي على أساس أنه مدني. وكانت تلك جرعة مريرة ولكنها حفظت له كبرياءه.

وبعد الحرب نيطت بلندبرغ مهمات كثيرة، بعضها لحساب السلاح الجوي والبعض الآخر لحساب الطيران التجاري، والبعض الثالث لحساب العديد من مؤسسات الخدمات الاجتماعية التي أخذ اهتمامه بها يتزايد، كان عمله شاقا يتطلب كثيرا من السفر، ولكن اسرة لندبرغ تمكنت في النهاية، وللمرة الاولى منذ بداية حياتها الزوجية، من اتخاذ مقر ثابت تبدأ منه الاسفار وتؤوب اليه. ذلك هو البيت الريفي في بلدة دارين في ولاية كونكتيكت. فقد حلت على الزوجين هناك نعمة من خير النعم: المرح والترفيه اللذان تشيعهما الحياة في بيت كبير قديم يموج بأطفال ممتلئين صحة ونشاطا وجمالا. وكان هناك منهم ثلاثة أبناء هم جون ولاند وسكوت وبنتان هما آن وريف.

وكم كان الاطفال أنفسهم مصدر ايحاء لبعض القصص. مثال ذلك أنه عندما كان لاند طفلا في المدرسة سأله أحد أقرانه: "ألم يكتشف أبوك امريكا؟" فأجاب لاند: "نعم، وعبر المحيط طائرا أيضا".

وبعد ان كبر الاطفال، باع آل لندبرغ بيتهم في دارين واحتفظوا بجزء من الارض التابعة له لبناء بيت أصغر. وكانوا يقضون جزءا من العام في دارين، وجزءاً آخر في بيت جبلي يملكونه قرب بلدة فيفي في سويسرا، وجزءاً ثالثاً في ماوي، في جزر هاواي.

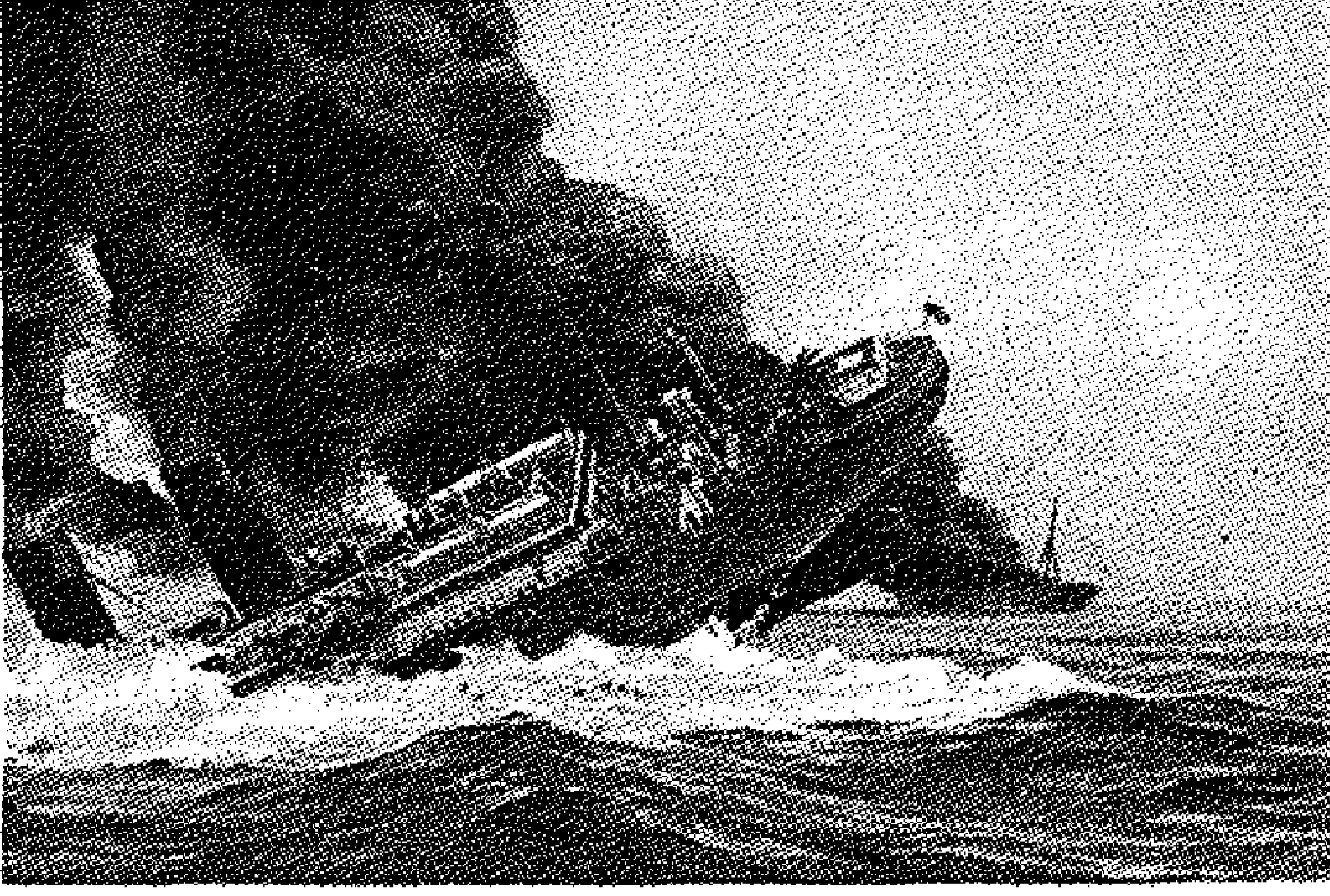
وكان لندبرغ يفضل بيت ماوي، وما ان أخبره الاطباء في نيويورك باقتراب أجله حتى طلب نقله بسرعة الى ذلك البيت.

وكان يضع على أنفه قناع الاوكسيجين حين دخل في النزع الاخير، وقد ظن في بادىء الامر أن خللا ما قد طرأ على الجهاز الذي يزوّد القناع بالهواء (كان أول ما يطرأ على ذهنه التأكد الدائم من سلامة معداته) فمدّ يده وكأنه سينزع القناع، ثم قرأت زوجته أن في عينيه أنه ادرك أن الخلل ليس في القناع..

(★★) بيرل هاربور: ميناء في جزر هاواي هاجمه الطيران الياباني فجأة ودمّر جانبا كبيرا من الاسطول الامريكي الذي كان راسيا فيه (٧ ديسمبر - كانون الاول ١٩٤١).


كتاب الشهر
السفينة
التي اصطادت نفسها
ملخص عن كتاب
بقلم كولن سيمبسون

السفينة التي اصطادت نفسها



بقلم كولن سيمبسون

وقع الحادث في الحرب العالمية الاولى، بعيد اندلاع الاعمال العدوانية، عندما صدرت الاوامر الى ربان كل من باخرتي الركاب العملاقتين المجهزتين بكل اسباب الترف، قاطعة المحيط البريطانية "كارمانيا" والباخرة الالمانية "كاب ترافلغار"، بتحويل باخرته الى سفينة تجارية مسلحة. وكان من المحتمل لاي باخرة منهما ان تغدو لقمة سائغة للعدو العازم على الفتك بها، فكان لا بد لها من التنكر اخفاء لهويتها. شاءت المصادفة ان يختار احدهما لسفينته المظهر نفسه الذي اختاره الآخر. وكان الاغرب من ذلك ان التقى الربان في جنوب الاطلسي. وكانت حصيلة اللقاء الاصطدام ونشوب معركة بينهما من اغرب المعارك البحرية في التاريخ.

في منتصف ليلة ٤ اغسطس (آب) ١٩١٤، تمنى جيمس كلايتون بار، ربان السفينة كارمانيا التابعة لخطوط كونارد البحرية، ليلة سعيدة لركاب سفينته وصعد الى منصة القيادة. كانت ليلة صيف جميلة يبللها النسيم العليل وتبدو فيها مياه الاطلسي على امتداد البصر دافئة جذابة.

وكانت كارمانيا قد اقلعت من نيويورك قبل ثلاثة ايام وعلى متنها ٨٠٠ راكب. وكان بار يتوقع ان يلقي مرساته في ليفربول صباح ٧ اغسطس (آب) ثم يمضي اجازة اسبوعين في احضان عائلته في اسكوتلندا، على ان يتم له ذلك في غضون اسبوع واحد اذا ساعده الحظ.

والقى بار نظرة خاطفة على الرجال في منصة القيادة، ثم اتجه الى جانب السفينة المحجوب عن الريح ليشعل سيجارا. ولاحظ وهو يمسك علبة الكبريت انوار الطراد البريطاني بريستول على بعد ١،٨٥٢ كيلومتر تقريبا يسير في خط مواز لسفينته. فانحنى بار قليلا وكوّب راحتيه لاشعال سيجاره، وما ان اعتدل حتى توارى الطراد بريستول عن الانظار.

وظن بار ان بصره خانه في الظلمة لبضع ثوان بسبب وهج عود الكبريت في وجهه وهو يشعل السيجار. وأطال التحديق عبر المياه القاتمة، لكنه لم ير شيئا. وقد علمته السنون التي قضاها في قيادة السفن ان يتحذر من الطوارىء، فاطلق لصوته العنان واصدر امره "بخفض السرعة الى النصف". وفي تلك اللحظة اطل القمر عبر الغمام وانعكست اشعته على الموج المتكسر في مقدم الطراد بريستول وهو يشق عباب اليم مندفعا باتجاه كارمانيا.

وقفز بار الى حلبة صفارة الانذار واطلق اشارة "الخطر" المألوفة في الملاحلة الدولية، فاسرع الطراد بريستول الى الاستدارة بشكل حاد، معتمدا على قوة محركاته ودفته، بحيث كاد جانبه يلامس جانب كارمانيا. واخذ الطراد اذ ذاك يبث الرسالة الضوئية الآتية: "كارمانيا، لقد اعلنت الحرب. عتموا السفينة وامتنعوا عن الاذاعة".

وامر بار باتخاذ هذه الاجراءات الاحتياطية، ونزل الى حجرته ففتح صندوقه الحديد وسحب منه سجل السفينة ومفكرته اليومية وظرفا مختوما يحمل هذه العبارة: "لا يفتح الا في حال الحرب". وكما توقع، فقد توجب عليه تسليم كارمانيا الى الاميرالية البريطانية فور وصوله الى الميناء. واتصل بار بمنصة السفينة وامر بمضاعفة المراقبة، وارسل فريقا من البحارة الذين غالبهم النعاس للتثبت من قوارب النجاة تحسبا للطوارىء. ثم كتب في مفكرته ان الحرب قد اعلنت، واضاف العبارة الآتية: "احمد الله على اني لم اتعلم ان اكره احدا".

كان عمر جيمس بار آنذاك ٦٠ سنة. وسبق له ان ارتاد البحار عام ١٨٧٢. وما ان التحق بخطوط شركة كونارد حتى جاءته الترقية بسرعة. وقبل كارمانيا، استلم قيادة عدد من اكثر سفن الشركة شهرة، بما فيها الباخرة موريتانيا. وكان يطمح الى ان يصبح يوما قائد الخطوط البحرية، محتلا اعلى رتبة ملاحة في الشركة. لكنه ايقن الآن، بعد تسليم معظم سفن الشركة الى الاميرالية، انه لم

تبق هناك سفن ولا حاجة الى خدماته في المستقبل، خصوصا لانه تجاوز السن التي تتطلبها الخدمة العسكرية.

وعند الفطور في صباح اليوم التالي، تعمد بار تجاذب اطراف الحديث مع اكبر عدد ممكن من المسافرين، فراح ينتقل بينهم بمرح مصطنع. وقالت له احدى المسافرات: "اظن، يا سيادة الربان، انك ستتولى قيادة سفينة حربية حالما تصل الى انكلترا". فلم يرق بار هذا الكلام الذي قطع عليه مرحه المصطنع، واجاب: "ذلك مستحيل تماما يا سيدتي، اذ سأكون في اجازة مع عائلتي في غضون اسبوع".

اما "كاب ترافلغار" فكانت موضع فخر شركة الخط الملاحي بين هامبورغ واميركا الجنوبية، واكبر سفينة واجملها في الاسطول التجاري لهذه الشركة. وعندما اعلنت الحرب كانت هذه السفينة راسية على رصيف المسافرين في ميناء بوينس ايرس، بابراجها الشامخة المتعالية فوق السفن الاخرى. وكانت مزودة بثلاثة محركات توربينية تمكنها من الانتقال بسرعة ١٨ عقدة في الساعة. ويبلغ طولها ٢١٠ امتار. وكان جسمها مطليا باللون الأسود، يقابله اللون الأبيض على الاجزاء المرتفعة فوقه، ويزدان سطحها بمجموعة من المظلات الزاهية المقلمة بالازرق والابيض من حول حوض السباحة وملاعب الاقراص الخشبية في مقدم السفينة، وتعلو مؤخرها ثلاث مداخن ضخمة. وتحوي الواجهة الخلفية فوق سطحها الرئيسي كميات كبيرة من الالواح الزجاجية. وقد سمي هذا القسم "حديقة الشتاء"، واشتمل على سلسلة من المصاطب المكسوة بالرخام الاصفر تتخللها احواض النباتات والزهور الاستوائية ونوافير المياه التي تتراقص على انغام الطيور الاستوائية الجاثمة في مجموعة ساحرة من الاقفاص. واما الزخرفة الداخلية فكأنها اقتلعت من معابد حضارة المايا واقيمت وسط فردوس استوائي.

وكان ربان كاب ترافلغار، القبطان فريتز لانغر هانس، رجلا طويل القامة، رفيع الثقافة، يتقن عددا من اللغات ويجيد لعبة البولو. كما كان من هواة اليخوت، وكانت معرفته باميركا الجنوبية وبريطانيا لا تقل عن معرفته وطنه الأم المانيا.

وكان اسم كاب ترافلغار يستحضر الى الذهن ذكر الاميرال البريطاني العظيم هوراشيو نيلسون وانتصاره الكبير على الاسطول الفرنسي عند رأس الطرف الأغر قرب جبل طارق، ذلك الانتصار الذي قضى على قوة نابوليون البحرية. وقد اختير هذا الاسم للسفينة خصوصا لاجتذاب الركاب الانكليز الى السفر على متنها الى اميركا الجنوبية. وكان اسم السفينة مناسبا جدا لقيادة لانغر هانس الذي كان معجبا بنيلسون، يقرأ كل ما كتب عنه. وقد ترجم الى الالمانية مجلدين عن سيرة نيلسون لروبرت ساوثي، واشرف بنفسه على تزيين غرفة التدخين والمكتبة بمجموعة من الصور تمثل اهم معارك نيلسون البحرية.

وكانت السفينة قد وصلت الى ميناء بوينس ايرس في ٢ اغسطس (آب) بعد رحلة متمهلة من هامبورغ، معرجة في طريقها على ساوثمبتون

(جنوب انكلترا) حيث قام لانغر هانس بعرض سفينته الجديدة على بعض معارفه الانكليز الذين يشاركونه هواية اليخوت. وفي اثناء ذلك تحدث لانغر هانس بصراحة عن خطر اندلاع الحرب. وكان ونستون تشرشل قد اعلن اذ ذاك في البرلمان بدء "تعبئة تجريبية" للاسطول الثالث. وكان معلوما ان هناك خطة لتحويل سفن الركاب البريطانية الى طرادات مسلحة لحماية طرق بريطانيا التجارية. وقد كشف لانغر هانس ان شركة خط هامبورغ - امريكا الجنوبية حصلت على اعانة مالية من الحكومة الالمانية بنت بها مرابض للمدفعية على سطح السفينة كاب ترافلغار تيسيرا لتسليحها على وجه السرعة. وقال وهو يضحك، مشيرا الى قاعة "حديقة الشتاء": "لكن الناس الذين يقيمون في بيوت من زجاج يكونون في منتهى الغباء اذا بدأوا برمي الحجارة".

وفي بوينس ايرس، لدى اعلان الحرب، صدرت الاوامر من الاميرالية الالمانية باخطار جميع السفن الالمانية بمغادرة الميناء، عدا سفينة واحدة كان عليها ان تجازف بالافلات من سفن الاسطول البريطاني المنتشرة في مياه الاطلسي في محاولة لنقل رجال الاحتياط واولئك الذين يرغبون في التطوع. ونتيجة لتلك الاوامر، خسر لانغر هانس اكثر من ١٥٠ رجلا من طاقمه، بمن في ذلك رئيس الطهاة واربعة ضباط وخادمه الخاص والشخص المخصص لرعاية الطيور والمكلف ايضا بحديقة الشتاء. وقد اعتمد الى حد كبير على سحر شخصيته، فاقنع معظم افراد فرقة



فريتز لانغرهانس، ربان كاب ترافلغار.

الاوركسترا بان يساعدوا في الاهتمام بالمواقد والغلايات. وكان يأمل في ان يقلع بسفينته دونما ابطاء، ظنا منه ان كاب ترافلغار كانت سفينة ركاب غير مسلحة وانه ليس هناك ما يبرر لأي قطعة حربية بحرية، سواء أكانت بريطانية او المانية، ان تعترضها.

ربان جديد

تأخرت اخبار الحرب عن بلدة كلوز الفرنسية الصغيرة عند سفوح جبال الألب. وعندما وصلت اخيرا نسخة من عدد اول اغسطس (آب) من جريدة "التايمس" اللندنية، تسلمها رجل كهل كان يراقب غروب الشمس من كرسيه المديد على شرفة نزل "شميت" وقد لف ركبتيه ببطانية طلبا للدفء.

وكان هذا الرجل العاجز نويل غرانت (٤٥ سنة) قبطانا في البحرية


القبطان نويل غرانت٠

الملكية، وكان مصابا بما سماه "الربو الملعون"، وهي عبارة ملطفة لمرض السل الذي كان يعانيه٠

وكان غرانت قد التحق بسلاح البحرية كطالب عندما كان عمره ١٢ سنة٠ وفي الخامسة عشرة من عمره تخرج على رأس صفه في سفينة التدريب "بريتانيا"، واخذ يعتلي سلم الترقية بما بذله من جهد شاق حتى وصل الى رتبته الحالية ولما يبلغ الخامسة والعشرين٠ وكان ذلك انجازا مهما جعل من غرانت شخصا لا يستغنى عنه٠ كان يعرف جميع كتب التعليمات والاصول والانظمة البحرية عن ظهر قلب٠ وكان ملاحا خبيرا معروفا بتعلقه بالنظام وبمواهبه التي استحقت له الثناء مرارا كثيرة، لكنه كان قليل الاصدقاء٠

وقد منح اجازة نقاهة بنصف راتب في الاشهر الستة الاولى من عام ١٩١٤، فكان يترقب غيوم الحرب وهي تتلبد في الافق٠ ووجد لزاما عليه الآن ان يرجع فورا الى الوطن، لربما اعادت اليه الحرب راتبه الكامل، بل حملت اليه الترقية كذلك٠ وما هي الا خطوة قصيرة حتى يرتقي من رتبة كابتن الى رتبة عميد بحري (رير ادميرال)، فتعقب ذلك احالته على التقاعد اللائق براتب محترم٠

وبعد ظهر ٥ اغسطس (آب)، تقدم الكابتن غرانت بطلب الى الاميرالية في لندن يعلن فيه استعداده للخدمة الحربية٠ وفي خضم تلك الايام العاصفة لم تلزمه الاميرالية باجراء الفحص الطبي٠ وفي صباح اليوم التالي قيل له انه عين قائدا للباخرة كارمانيا التي ستصل الى ميناء ليفربول في اليوم التالي٠ وقد تقرر ان يكون هو في استقبالها وان يشرف على تحويلها الى سفينة مسلحة ويهيئها للعمليات الحربية٠

لقد كانت هناك مشكلة واحدة تخص غرانت، اذ لم يسبق له ابدا ان تولى قيادة سفينة بضخامة كارمانيا٠ وقد ترددت الاميرالية فعلا قبل ان تضع في تصرفه سفينة تزن حمولتها ٢٠ الف طن ويبلغ طولها ٢٠٥ امتار، وتغطس محملة الى عمق عشرة امتار ونصف متر٠ وقد طلب منه رسميا ان يعرض على ربانها الحالي، الكابتن بار، فرصة الابحار معه كملاح و"مستشار"، وان "يلطف" له الامور، او بالاحرى ان يجعل من الصعب عليه رفض هذا العرض بتقديمه له وظيفة آمر (كومندان) موقت في احتياط السلاح البحري الملكي٠

وصل غرانت الى حوض شركة كونارد في ميناء ليفربول قبيل

الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. وتورد سجلات الشركة بيانا بما جرى في ذلك الوقت:

"رست كارمانيا في ميناء ليفربول الساعة الثامنة من صباح ٧ اغسطس (آب) ١٩١٤. وصعد فورا على متنها الكابتن نويل غرانت من البحرية الملكية ونائب المقدم البحري ادموند لوكيير اللذان تقرر ان يتوليا قيادها في الظروف الجديدة: الاول بوصفه القائد المسؤول الأول عنها والثاني بوصفه مساعداً له.وللتو بدأ أكبر عدد من الدهانين الذين امكن جمعهم بتغيير اللون الفاتح لهيكلها ومداخنها وازالة اللونين الاحمر والأسود اللذين اشتهرت بهما سطوحها، بينما راح فريق من العاملين في صناعة السفن يقص ما ارتفع من هيكل السفينة عن مستوى سطحها من الأمام والوراء، وذلك تيسيرا لتصويب المدافع التي ستركب هناك نحو الزوايا المناسبة. وكانت المدافع جميعا من عيار ١٢٠ مليمترا ومداها ٨٥٠٠ متر. وخرجت كارمانيا فعلا الى البحر كطراد مكتمل السلاح بتاريخ ١٤ اغسطس (آب) بعد اسبوع واحد فقط من دخولها الميناء كباخرة سياحية عادية من الدرجة الاولى".

لقد تمت عملية تحويل الباخرة كارمانيا والكثير من السفن البريطانة الاخرى بسرعة وجدارة لم يستطع الالمان مجاراتها. بيد ان الالمان كانوا قد وضعوا منذ حين خططا لتحويل سفنهم الكبرى الى طرادات حسنة التسلح لاستعمالها في غزو البواخر التجارية التي تجوب المحيط الاطلسي. لكن تنفيذ هذه الخطط كان أمرا آخر اصيب بنكسات خطرة. فعند



جيمس بار، ربان كارمانيا.

اندلاع الحرب، كانت المانيا تتوقع ان تكون لها ٤٢ سفينة مسلحة جاهزة للعمل في غضون اسبوع. ولكن لم يكن لديها، في واقع الامر، اي سفينة من هذا القبيل. وكل ما كان لديها لم يتجاوز ١٤ سفينة راسية في الموانىء الالمانية و١٧ سفينة حبيسة في موانىء مختلفة خارج المانيا حيث تقف لها السفن الحربية البريطانية بالمرصاد، وبالتالي تحول دون خروجها.

واستولى البريطانيون في بداية الحرب على ست بواخر المانية اخرى كانت قد حاولت الهروب من الموانىء الخاضعة للسيطرة البريطانية. وبقيت هناك خمس بواخر لم تتسلح منها الا باخرة واحدة هي "كايزر ويلهلم دير غروس"، على اسم القيصر وليم الكبير. ولكن، لسوء حظها، اكتشفها الطراد البريطاني "هاي فلاير" وهي

تتزود بالوقود، فسارع الى الاجهاز عليها. اما الباخرة "كرونبرنز ويلهلم" (على اسم ولي العهد وليم)، فقد فوجئت صباح ٦ اغسطس (آب) قرب الساحل الامريكي وهي تنقل السلاح من الباخرة "كارلزروه"، ولم تكن حينذاك في وضع يمكنها من القتال، فاعتمدت على سرعتها الفائقة للهرب الى عرض المحيط حيث لم تعد تشكل اي تهديد يذكر بسبب قلة وقودها ونظرا الى انه لم يتح لها التزود بأكثر من ثلث ذخيرتها.

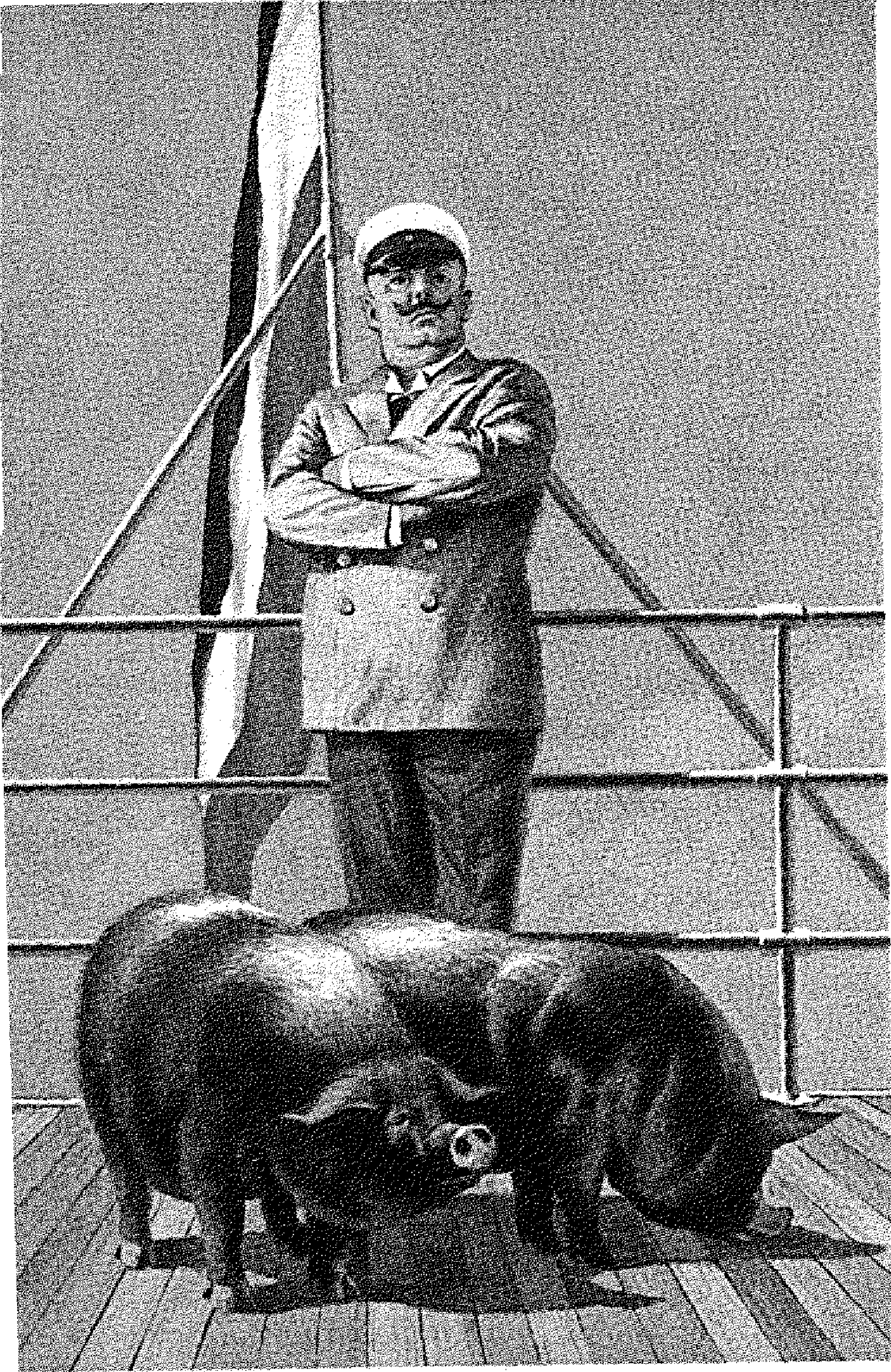
ومن اصل البواخر الثلاث الباقية، اختارت الاميرالية البريطانية ان تركز على كاب ترافلغار، وهي اكبرها واسرعها واكثرها تحملا للخطر. وتقرر منعها، باي ثمن، من التسلل الى طرق التموين البريطانية.

راعي طيور من الدرجة الثانية

لم تساور الكابتن لانغر هانس اي اوهام بالنسبة الى المشاكل التي تنتظره في بوينس ايرس. ولم يكن يبالي بجولات التفتيش التي ربما قامت بها السلطات الارجنتينية على باخرته، علما منه بان الاسلحة الوحيدة الموجودة على متن الباخرة كانت مقتصرة على مسدسه الشخصي وبندقيتي صيد تلقاهما هدية منذ بضع سنوات. وعلى اي حال، فالاميرالية الالمانية كانت قد انتهت من وضع خطتها بالنسبة الى فرار هذه السفينة في اواخر الاسبوع الاول من الحرب. فكان من المقرر ان تتزود بالفحم والمؤن وان تتهيأ للاقلاع، تماما كما اراد لانغر هانس نفسه، في الموعد المحدد لها اصلا. وقد رأت الاميرالية الالمانية ان السفينة، بوصفها باخرة ركاب "بريئة"، تستطيع الانطلاق الى عرض المحيط من دون ان يعترضها احد، فتقوم هناك بتسليح نفسها لتصبح "سفينة غازية" على طرق الملاحة البريطانية. وكانت الاميرالية تظن خطأ ان كاب ترافلغار قد غادرت ميناء هامبورغ وهي تخفي مدافعها سرا في عنابرها.

ولم يكن لانغر هانس تبلغ بعد خطط الاميرالية النهائية المتعلقة بسفينته، فكان يأمل في السماح له بالاقلاع في الموعد المحدد، اي في العاشر من اغسطس (آب)، ليعود الى بلده، لكنه، كما يبدو، اقتنع بعدم تمكنه من التزود بكميات كافية من الفحم على الرغم من بعض الرشوة الحذرة التي يستمد لها المال اللازم من الجالية الالمانية المحلية لتأمين عودة هذه السفينة الى الوطن في اقصى سرعة ممكنة. ولسوء الحظ، قرر لانغر هانس الاتجاه اولا الى الولايات المتحدة املا بالتزود بمزيد من الفحم في طريقه الى الشمال.

وقد نجمت عن ذلك مشكلة أخرى. فقد كان عدد الركاب الحاجزين اماكن على متن السفينة للعودة الى المانيا لاسباب شتى، يفوق ما تستوعبه السفينة. فاوصى لانغر هانس بان يسافر هؤلاء الركاب على احدى البواخر التي رتبها القنصل الالماني لهذا الغرض. ولكن كانت هناك فئة اخرى من المسافرين شغلت باله، ومن بينهم اعضاء فرقة اوبرا صغيرة تتجول بجهازها المسرحي ومعداتها وادواتها الموسيقية وتقيم حفلات لموسيقى موزارت وواغنر للجاليات الالمانية المنتشرة على الساحل الشرقي من القارة الامريكية. ولم



يكن لدي افراد تلك الفرقة المال الكافي او فرصة البقاء في الارجنتين، فقبلهم لانغر هانس كركاب على سفينته وهو واثق من انهم سيتدبرون امر نفسهم في الولايات المتحدة·

لكن مشكلة المشاكل كلها كان شخصا ضخما متقدما في السن، هو الجراح البيطري الدكتور هانس براونهولز الذي صعد الى متن السفينة ومعه صندوق يحتوي على حيوانين كبيرين· وكان في نية هذا الطبيب استخدم الحيوانين لتحسين نسلهما في الارجنتين حيث كان، حسب المقاييس الالمانية، صغير الحجم ويكاد لا يصلح للحم المعلب· وقد وجدته سلطات الميناء في بوينس ايرس مخالفا للقوانين الصحية، فامرت بعودته بشكل قاطع الى المانيا على سفينة كاب ترافلغار·

وكان من طبع هذا الطبيب التدخل في كل شيء· فبدأ بالمطابخ التي كانت موضع افتخار السفينة، وحكم عليها بأنها غير صحية· ثم اعلن عن وجود عيوب في حديقة الشتاء من حيث تصميمها وطيورها ونظام غذاء الطيور· وعندما حاول ابقاء الحيوانين في تلك الحديقة، نفد صبر لانغر هانس وثارت ثورته·

وكان قد لفته الى هذا الموضوع

ضابطه الأول، الملازم بيرند فيدرسن الذي وقف صامتا بينما كان لانغر هانس يفرغ جام غضبه. وبعدما هدأت ثورته، عرض عليه فيدرسن الحل الآتي: ان المانيا الآن في حالة حرب، وهو على متن السفينة حيث تعتبر كلمة الكابتن هي القانون في اي وقت، خصوصا في اثناء الحرب، وان ما يحتاج اليه الطبيب البيطري الدكتور براونهولز هو حمله على الاحساس بالواجب نحو الرايخ الالماني. واقترح على لانغر هانس ان "يجند" براونهولز كفرد عامل من افراد طاقم السفينة.

لاقت الفكرة استحسانا لدى الكابتن، وسرعان ما اتخذت حجرته شكل غرفة عمليات بحرية. ففرش العلم الالماني على مكتبه، واعاره فيدرسن قبعته التي حصل عليها كضابط احتياط في البحرية الالمانية. واشرك الكابتن وفيدرسن معهما في هذه "الحيلة" احد ضباط الصف الذي قلده لانغر هانس احدى بندقيتيه وطلب اليه ان يقف خارج الحجرة عند الباب كحارس. وهنا قام ضابط النظام في السفينة باستدعاء الدكتور براونهولز.

واعلن الكابتن لانغر هانس، بصوت "رسمي"، عن تعيين الدكتور هانس يواكيم براونهولز، الجراح البيطري، "مراقبا من الدرجة الثانية للحيوانات التابعة للبحرية الالمانية"، وذلك من غير راتب، على ان يكون مسؤولا عن تغذية جميع الطيور والحيوانات الاخرى على متن السفينة وعن العناية اليومية بها. وسرعان ما اضاف الى ذلك: اما الحيوانان اللذان يخصان الطبيب فيبقيان في الهواء الطلق

عند الرافعات في مؤخرة السفينة، وانه اذا صدرت عنهما اقل رائحة كريهة فسيحالان على جزار السفينة لاجراء اللازم.

وما ان انتهى الكابتن لانغر هانس من تلاوة "اعلانه الرسمي" حتى فوجىء الجميع بامارات الغبطة والارتياح ترتسم على وجه الدكتور براونهولز الذي لم يكن لديه الا سؤال واحد: هل يمكنه الحصول على بذلة نظامية؟ فرد عليه الكابتن بلهجة رصينة ان في استطاعته ان يرتدي السترة والقبعة الاستوائيتين اللتين كان يستعملهما راعي الطيور في وقت السلم. ثم امره بالانصراف قبل ان يفسد الضحك عليه وعلى فيدرسن "اللعبة".

لكن ضحكهما لم يستمر طويلا. فبينما كانا لا يزالان في الحجرة، قدم ضابط النظام في السفينة بصحبة زائر اخر هو الكابتن البحري اوغست مولر الذي اعلن انه، باسم الرايخ، يضع يده رسميا على كاب ترافلغار لحساب البحرية الالمانية، واعقب ذلك بقائمة طويلة تحدد السمؤوليات انهاها بقوله: "في حال العمليات الحربية يكون لانغر هانس مسؤولا عن ملاحة السفينة، بينما يتولى فيدرسن عمليات القتال".

وسأل لانغر هانس ببساطة: "ولكن بماذا تقاتل السفينة؟" وهو يعلم ان الحارس عند باب حجرته كان يحمل ٥٠ في المئة من "ترسانة" الاسلحة. وكان مولر يجهل ذلك، فعاد الى دار المفوضية الالمانية وابرق رسالة مستعجلة الى برلين. فجاء الرد في برقيتين، الاولى تطلب من لانغر هانس ان يتوجه الى يودي لابلاتا حيث امنت له الامبرالية الفحم الكافي في مونتفيديو. اما البرقية الثانية فتأمره، بعد التزود بالفحم، ان يتوجه حالا الى جزيرة ترينيداد (وهي غير الجزيرة الكبيرة التي تحمل الاسم نفسه في جزر الهند الغربية). وهذه جزيرة صخرية يبلغ طولها خمسة كيلومترات وعرضها كيلومترين ونصف كيلومتر، وتبعد ١٢٠٣ كيلومتراً شرق الساحل البرازيلي. وقد تم اختيار هذه الجزيرة المعزولة غير الآهلة كمكان اجتماع لعدد آخر من السفن الالمانية.

بعد ان تزودت كاب ترافلغار في مونتفيديو غادرت الميناء منتصف ليل ٢٢ اغسطس (آب). وكان لانغر هانس في منصة القيادة، لكنه كان يتردد احيانا الى غرفة الراديو حيث اعاره الاختصاصي سماعتين تشدان حول الرأس لالتقاط المكالمات. ولعل اعلى هذه المكالمات كانت تلك التي يبثها الطراد البريطاني "غلاسكو" والتي، بحكم قوتها، جعلته يقدر ان الطراد لا يبعد عنه اكثر من ٤٨ كيلومترا. وفي تمام الساعة الثالثة صباحا، امر لانغر هانس ان تنطلق كاب ترافلغار باقصى سرعتها شرقا الى عرض البحر، علما بان جزيرة ترينيداد تبعد حوالى ٢٨٠٠ كيلومتر شمال شرق مونتفيديو. وقد شاء لانغر هانس الابتعاد عن الساحل الامريكي الجنوبي ما استطاع، تقديرا منه ان الدوريات البريطانية نشطة على امتداد هذا الساحل، وانه اذا اتجه شرقا مسافة كافية، فانه يستطيع ان ينعطف شمالا فيبلغ ترينيداد من الجنوب، وهو اخر اتجاه يتوقع احد ظهوره منه.

لقد استصعب الكابتن بار الامر عندما عرض عليه ان يكون مستشارا لرجل يصغره نحو ١٥ سنة. ولعل ما جعله يرضخ لذلك يقينه بأنه اذا ما اختار ان يبقى على اليابسة في سنه هذه، فمن الارجح انه سيقضي عليها بقية عمره. فاستجاب لعرض غرانت ببساطة: "انا رجلك يا كابتن غرانت". ورد عليه غرانت: "شكرا يا حضرة الكومندان". وجلس في حجرة بار التي اتخذ منها مقرا له، وطلب اوراق كارمانيا وتقارير غرف المحركات وقوائم باسماء افراد الطاقم ونسخا عن جميع سجلات الضباط الشخصية. ثم امضى بقية اليوم منفردا. وقد افرغ بار الحجرة من امتعته الشخصية. وبعد ان فكر هنيهة في المكان الذي سينتقل اليه، قرر ان يستمتع بالاقامة في الجناح الفاخر المحجوز لاعضاء مجلس ادارة كونارد.

غذاء الديوك المقاتلة

ظلت العلاقة بين الرجلين مقصورة على طابع الرسميات والتحفظ طوال ذلك الاسبوع الحافل الذي جرى فيه تحويل كارمانيا الى سفينة حربية. وبذل بار جهده ليبقى متنحيا ما امكنه ذلك. لكن معظم افراد الطاقم الذين بقوا على متن السفينة كانوا من موظفي كونارد، وكان طبيعيا ان ينظروا الى بار على انه هو الكابتن المسؤول. وكتب بار في ما بعد يقول: "حالما يتسلم رجل قيادة سفينة كبيرة، يصبح انسانا منفردا. ان قيام الكابتن غرانت الآن بدور "النجم" لم يرحني مثقال ذرّة، اذ انه لم يمض علي بعد وقت طويل مذ كنت انا الكابتن. فما زلت في نظر الكثيرين من الضباط رجلا على حدة. وهكذا، فقد حدث ان غرانت وانا، الرجلين الذين احببنا رفقاءنا، كنا نشعر بشيء من الوحدة".

كان الهم الأول للكابتن غرانت ان يلم بامور قيادته الجديدة. فقد اصبح على متن كارمانيا الآن طاقم قوامه ٤٢٠ بحارا، ألف الكثير منهم ان يشعلوا الغليون عندما يشاؤون او ان يمضغوا التبغ في اثناء العمل. ولم يكن اي منهم يبالي كيف يبصق طالما كان ذلك في اتجاه الريح!

وكان من حسنات غرانت انه تخلى بسرعة عن عادته في التقيد الصارم بالانظمة بالنسبة الى افراد الطاقم. لكنه عوّض عن ذلك باتخاذ مسلك مختلف تماما مع ضباطه الذين كانوا جميعاً تابعين لشركة كونارد، باستثناء نائب المقدم البحري لوكيير واربعة من صغار ضباط الصف. فقد كان غرانت، في نظر هؤلاء، انسانا منفردا عنهم، منطويا على نفسه، لاذعا في انتقاداته، متشددا في مقاييسه، ومتجاهلا، كما يبدو، ذلك الوضع الشاذ من تعارض الولاء الذي يتجلى بوجود ربانين اثنين على متن سفينة واحدة.

ولكم كان من السهل ارتكاب الهفوات والتعرّض لقساوة غرانت الذي بدا كأنه يعمل ٢٤ ساعة في اليوم. وكان الامر بالطبع لا يقل صعوبة بالنسبة الى غرانت ذاته، وربما كان محقا في ذلك بسبب اعتلال صحته. وقد اخذ على نفسه ان يفهم الجميع، بطريقة ما، انه هو وحده صاحب الكلمة الأولى والاخيرة

على متن السفينة. وسنحت له الفرصة لذلك في ليلته البحرية الثانية عندما كان لوكيير المسؤول الاول المناوب في منصة القيادة، وقد تجمع خلفه عدد من الضباط الآخرين - وكلهم من رجال كونارد - يترصدون بقلق عباب البحر وسط الظلام، بينما اخذت كارمانيا تشق طريقها عبر مياه الاطلسي. وفي غمرة هذا التوتر مدّ احدهم يده الى جيبه وتناول غليونه وحشاه بالتبغ كما يروقه ثم اشعل عود كبريت. واذا بغرانت، الذي كان قد تسلل الى منصة القيادة ووقف صامتا وراء الضباط في الظلام الدامس، يصيح بصوت لاذع: "اطفىء هذا الضوء الملعون. احضر الى حجرتي. لا اسمح بالتدخين على منصة قيادتي". ولم يحن وقت الفطور حتى ادركت السفينة بكاملها من هو القائد على متنها.

وقد عينت لكارمانيا، كما كان متوقعا، منطقة تبلغ مساحتها حوالي ٣٦٠ كيلومترا مربعا لتتولى فيها اعمال الدورية والخفر. وتمر عبر هذه المنطقة جميع الطرق الملاحية الرئيسية الوافدة من الشرق او الغرب الى شمال غرب ايرلندا. وكان المطلوب من كارمانيا ان تطلع على هوية كل سفينة تشاهدها، اضافة الى توليها بعض المهمات الاخرى الممكنة، علما بانه تتعذر عليها مهاجمة السفن الحربية الالمانية لان ضخامة حجمها يجعلها هدفا سهلا لتلك السفن، ولان استهلاكها الباهظ من الوقود لا يتيح قيامها بتطوافات طويلة. فان قطع الاطلسي باتجاه واحد، مثلا، يستنفد ٩٠ في المئة من

وقودها. ثم ان تحويلها الآن الى سفينة مسلحة يحول دون تزودها بالوقود الا في المملكة المتحدة او في موانىء الامبراطورية او الموانىء التي في ايدي الدول الحليفة.

ولم تلبث ان بدأت روح التعاون تنمو بين الرجال على متن كارمانيا. وذلك يعود الى اسباب عدة، منها الروح القيادية والتقاليد العريقة والقضية المشتركة. لكن هناك عاملا واحدا جعل من كارمانيا نسيجا فريدا في البحرية البريطانية، وهو ان الضباط وافراد الطاقم على السواء كانوا يقتاتون مثل الديوك المقاتلة التي تغذى تأهبا للرهان عليها في حلبة الصراع.

كانت كارمانيا باخرة سياحية تتميز بالترف والاسراف، وكان ما تحمله من صنوف الطعام والخمور شيئا اسطوريا في ذلك الظرف. وفي خضم عملية تحويلها السريع الى سفينة حربية، لم يفطن احد لما تحفل به ثلاجاتها من افخر الاغذية او ما تضمه اقبيتها من اجود انواع النبيذ التي تركت على متنها من غير ان تمس. ثم لم يكن هناك متسع من الوقت لطلب المخصصات الغذائية العادية التي تزود بها الاميرالية قطعها البحرية. فما كان امام شركة كونارد الا ان تترك لكارمانيا المؤن نفسها التي درجت على تزويدها بها: احسن انواع سمك السلمون الاسكوتلندي، اجمل ضلوع لحم البقر، سمك دوفر سول الشهير، بيض، قشطة (كريم)، فواكه طازجة وكميات من الدجاج.

وذكر بار، بعد سنين من ذلك، ان شركة كونارد ارسلت، من دون شك، قائمة الحساب الى الاميرالية لتعويضها عن تلك الارزاق التي زودت بها السفينة، واضاف بار: انها لجريمة ان تهمل "ممتلكات البحرية".

فقد كانت وجبتا الغذاء والعشاء في غرفة طعام الضباط سخية كل السخاء. وكان في استطاعة الضباط المناوبين ان يطلبوا كل ما تشتهيه انفسهم، فيقدم لهم على طبق من فضة يحمله خادم في سترة بيضاء. حتى ان الوقادين وعمال غرفة المحركات كان نصيب كلمنهم نحو كيلوغرامين من شرائح اللحم التي كانوا يفضلون شيّها على رفوشهم بدلا من ان يصعدوا الى القاعة لتناول الطعام مع سائر البحارة.

وعلى اثر احد العشاءات الفاخرة مساء الاربعاء ١٩ اغسطس (آب)، قدم الى غرفة الضباط رجل الاشارة المناوب وفي يده رسالة بالرموز (الشيفرة). فما كان من غرانت الا ان دعا بار الى حجرته لمساعدته على فك رموزها. كانت الرسالة مقتضبة جافة: "غادروا منطقة الدورية حالا. سارعوا في الاتجاه نحو برمودا". وكانت تلك البرقية بداية تحركات متعددة ادت الى مجابهة كارمانيا مع كاب ترافلغار في قصة مثيرة.

عملية تنكر

كانت كاب ترافلغار سفينة حديثة العهد، ولم يكن من المحتمل ان يورد اي مرجع بحري رسما بينا لشكلها. وكانت، بمداخنها الثلاث الضخمة، تبدو كأنها احد الطرادات الالمانية او البريطانية الكبيرة التي يستطيع اي منها ازالة كاب ترافلغار عن سطح اليم عن بعد بضعة كيلومترات. فلم

يكن من المتوقع، اذاً، لاي طراد بريطاني او الماني، ان يجازف بالاقتراب منها للتأكد من هويتها. وهكذا، قرر لانغر هانس ان مهمته الاولى هي اجراء عملية تنكر لسفينته.

ولحسن الحظ، لم تكن اقرب المداخن الثلاث من مؤخرة السفينة متصلة بغرفة الغلايات، اذ كان الغرض منها تهوئة شرفات المسافرين والمطابخ وانطلاق البخار المستنفد من غرفة المحركات. فاذا ازيلت هذه المدخنة، اصبحت السفينة بمدخنتين فقط. وبقي السؤال: اي سفينة ركاب يجب ان تشبه؟ وسرعان ما امتدت يد لانغر هانس الى الانبوب الصوتي ليناد فيدرسن الذي كان متمددا في قمرته.

سأل لانغر هانس بطريقة غير مباشرة: "اذا ابلغك المراقبون عن وجود باخرة في الافق البعيد، لها مدخنتان وحمولتها ٢٠ الف طن، فأي باخرة يحتمل ان تكون تلك؟".

ورد فيدرسن على الفور: "لا بد من ان تكون باخرة ركاب بريطانية تابعة لشركة كونارد او لشركة يونيون كاسل. وربما كانت تلك الباخرة كارونيا او فرنكونيا او كارمانيا...".

ويبدو ان الاسم الاخير قد ضرب على وتر في ذهن لانغر هانس، فاخذ يفكر اين سمع هذا الاسم. وبدأ يستعرض الاحاديث التي جرت معه خلال الايام القليلة الماضية. نعم، لقد تجرأ الدكتور براونهولز (الطبيب البيطري) على مقارنة مطابخ كاب ترافلغار بمطابخ كارمانيا. وفي غضون بضع دقائق كان براونهولز منتصبا امام "رئيسه" الكابتن. فسأله لانغر هانس ماذا يعرف عن كارمانيا.

بدأ براونهولز يتبجّح كعادته. وراح يقول بغير ترتيب: ان كارمانيا سفينة قذرة تحفل مطابخها بالصراصير، بل ان هذه الصراصير تفوق بحجمها الصراصير على اي باخرة اخرى تجتاز الاطلسي. وقال ان الطعام الذي تقدمه يقزز النفس، وان لعبة "البريدج" فيها ليست شريفة.

قاطعه لانغر هانس سائلا ما اذا كان يتذكر شكل كارمانيا. وكان جواب براونهولز ابلغ مما توقع لانغر هانس، فقد ابرز قصاصة جريدة تكاد تكون بالية وعليها صور الباخرة. فاكتفى لانغر هانس بنظرة واحدة الى الصور وقال لفيدرسن: "يجب ان يصبح شكل كاب ترافلغار هذه الليلة شبيها بشكل كارمانيا".

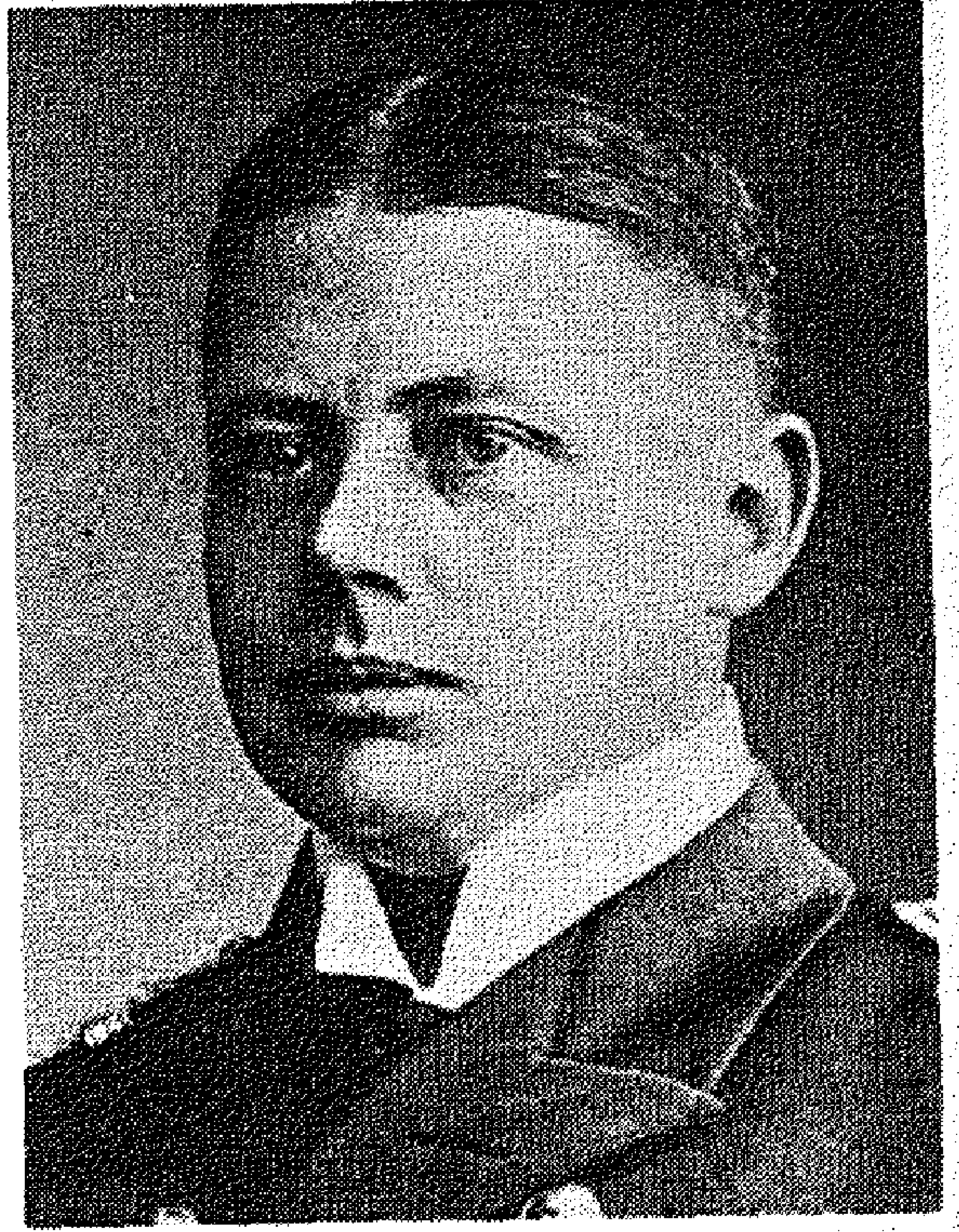
وكانت المشكلة الاولى ازالة المدخنة الاقرب الى مؤخر السفينة، والتي كانت مصنوعة من الحديد بسماكة ثمانية مليمترات وارتفاع ١٢ مترا فوق سطح السفينة. وكانت قاعدة المدخنة مثبتة بمجموعة من البراغي الثقيلة. واضافة الى ذلك، فقد شدّت اسلاك حديد الى طوق على مسافة ٣٠ سنتيمترا من قمة المدخنة. واستنبطت طريقة جديدة لفك المدخنة: تركت البراغي والطوق مكانها موقتا، واقيمت صقالة نقالة على الحبال، وبدأت عملية طويلة لقص المدخنة بالاوكسجين عموديا من فوق الى تحت. وكانت خطوط القص العمودي تبعد بعضها عن بعض حوالي

٣٠ سنتيمترا بحيث تتسنى ازالة الطوق في المساء، ثم شد "شرائح" المدخنة المقصوصة بواسطة بكرات جرارة، من فوق الى تحت، تماما كما يقشر الموز عند فتحه. ولئن لم تكن هذه الوسيلة هي المثلى لانجاز هذا العمل، الا انها، نظرا الى اهتزاز السفينة المنطلقة بأقصى سرعتها وسط البحر الهائج، بدت انها الطريقة العملية الوحيدة. وقد نجحت بالفعل.

وقد جرى طلاء المدخنتين الاخريين باللون الاحمر الذي يعلوه الاسود، وهما اللونان اللذان تستعملهما شركة كونارد في جميع سفنها. اما قوارب النجاة، التي كانت سوداء يعلوها اللون الابيض على متن كاب ترافلغار، فقد اعيد طلاؤها كلها باللون الابيض فقط، وفقا للاسلوب الذي تتبعه كونارد في هذا الشأن.

ولاحظ لانغر هانس من قصاصة براونهولز ان منصة القيادة في كارمانيا تمتد على عرض السفينة، بينما كانت منصة كاب ترافلغار اشبه بعلبة كبريت فوق الصالة الرئيسية، ولا تتجاوز ربع عرض السفينة. فاصدر لانغر هانس الامر بنقل كل اثاث الصالة الرئيسية وبوضع اطار خشبي خفيف وتثبيته بالبراغي الى جانبي المنصة الاصلية. وقرر لانغر هانس تغطية الاطار الخشبي بالقماش وطلاءه بحيث تبدو المنصة تماما مثل منصة كارمانيا. واوكل هذه المهمة الى المدير المسرحي لفرقة الاوبرا المتجولة التي لجأت الى سفينته.

وشرع المغنون والموسيقيون



القبطان جوليوس ويرث.

والممثلون بالعمل بكل عزم وجد، بينما راح احدهم يعزف اعذب الالحان على البيانو ويتبعه شخص اخر بالغناء، وما هي الا دقائق حتى دوت السفينة كلها باصوات اعضاء فرقة الأوبرا الذين اخذوا ينشدون الاغنية تلو الاخرى ويرد عليهم آخرون خارج الصالة، وتتناقل الايدي فراشي الدهان على انغام الموسيقى. وكانت كاب ترافلغار كلما قطعت ميلا تغير مظهرها بشكل ملحوظ، فاصبحت الاغاني المدوية من افتك الاسلحة لديها وهي تمخر البحر في اتجاه الشرق.

وتم تركيب المنصة الوهمية وطلاؤها في اصيل اليوم السادس والعشرين من اغسطس (آب). فتوجه لانغر هانس الى مقدم السفينة لتفقد منصته الجديدة، فتعذر عليه، وهو في الخارج، معرفة اين ينتهي الحديد واين يبدأ القماش. واما من داخل المنصة فكان المظهر مختلفا تماما بما تخلله من المشاهد المصورة من اوبرا "زواج فيغارو" من ناحية ومنظر طريق تخترق غابة اشجار باسقة من الناحية الاخرى. اما المشاكل الباقية، فكانت ثانوية، كالاهتمام بتقليد الشعار الاحمر لبريطانيا العظمى وعلم شركة كونارد. وما ان تم ذلك حتى خيط الشعاران احدهما الى الآخر ووضعا على السارية استعدادا لرفع هذا العلم الجديد في احوال الطوارىء. لكن لانغر هانس تشاءم من ازالة اسم كاب ترافلغار المدهون على مقدم السفينة ومؤخرها، فأبقى عليه. وفي منتصف ليلة ٢٦ اغسطس (آب)، بلغت كاب ترافلغار خط الطول ٢٩ درجة و٣٠ دقيقة غربا، وغمر لانغر هانس شعور بالارتياح عندما استدار بسفينته شمالا قاصدا جزيرة ترينيداد التي اصبحت لا تبعد عنه سوى مسافة ٧٢٤ كيلومترا تقريبا. وقيل له انه ربما صادف في طريقه الى الجزيرة بعض وحدات من البحرية الالمانية التي كانت تنتظره.

تحركات مشؤومة حاسمة

في هذه الفترة وفي الاسابيع الثلاثة التي تلتها، وقعت سلسلة من الاحداث كان لها الاثر الحاسم على مصير كاب ترافلغار.

لدى اندلاع الحرب، كانت السفينة المدفعية الالمانية "ايبر"، بقيادة الكابتن جوليوس ويرث البالغ من العمر ٣٩ سنة، ازاء الساحل الافريقي. وكانت ايبر سفينة صغيرة، ضئيلة السلاح، بنيت خصوصا

لخفر ساحل جنوب غرب افريقيا الذي كان تابعا لالمانيا انذاك. لكنها في ١٣ اغسطس (آب)، تسلمت برقية تأمرها بالتوجه الى جزيرة ترينيداد "للالتقاء بوحدات اخرى".

وصل ويرث مساء ١٥ اغسطس (آب) باكرا. وبعد بضعة ايام انضمت اليه اربع حاملات فحم صغيرة. فملأ مخازنه بالفحم وبدأ دوريته الحذرة حول الجزيرة. وعند فجر ٢٠ اغسطس (آب) لمح عن بعد شبح سفينة حربية، وتنفس الصعداء عندما تبين انها الطراد الالماني دريسدن. ثم قيل له ان سفينة مسلحة تدعى كاب ترافلغار ستصل قريبا، وان عليه ان يتولى قيادتها.

وحدث في غضون ذلك ان اعترضت الاميرالية البريطانية برقية مرسلة الى برلين، لم تستطع الاميرالية فك رموزها. لكنها ادركت، من خلال اشارة النداء، انها صادرة عن الزورق الحربي ايبر الذي كانت تقدّر انه يعمل في محاذاة الشاطىء الافريقي. وقد عزز ذلك اعتقاد الاميرالية ان المانيا كانت تخطط لأمر رهيب على الخط التجاري منكيب تاون او في منطقة غرب افريقيا نفسها. وكانت مواجهة هذا التهديد تعني اضعاف الاسطول الذي يغطي جنوب الاطلسي الذي تجتازه خطوط تجارية تعتبر حيوية جدا بالنسبة الى بريطانيا. وهكذا تقرر ان تستأنف كارمانيا (التي وصلت لتوها الى برمودا) مسيرتها في اتجاه الجنوب على مسافة ١٦٠٩ كيلومترات اخرى الى جزر الهند الغربية لتعمل - خلافة لامنية ضباطها - كسفينة تموين.

وغادرت كارمانيا جزيرة برمودا في ٢٩ اغسطس (آب)، وبعد رحلة مملة، حطت مراسيها في جزر الهند الغربية في ٢ سبتمبر (ايلول). وجرى فورا تحميلها بما يلزمها من الفحم والمؤن التي امرت بتسليمها الى اسطول الاميرال السير كريستوفر كرادوك، المكلف تعقب السفن الالمانية التي قد تغير على السفن البريطانية بالقرب من الساحل الفنزويلي.

واستنتجت الاميرالية من الرسائل اللاسلكية المعترضة ومن السفن الالمانية التي شوهدت بالمكبرات من مسافات بعيدة، ان ثمة اسطولا المانيا مغيراً -يضم كاب ترافلغار والطرادين دريسدن وكرونبرنزويلهلم - يجمع شمله قرب جزيرة ترينيداد الصغيرة. وفكرت الاميرالية فيمن ترسله لاستجلاء الامر، فوقع الاختيار على كارمانيا التي تلقت التعليمات في الساعة العاشرة من صباح ١١ سبتمبر (ايلول) باستكشاف المياه المحيطة بجزيرة ترينيداد. فاذا وجدت اي سفن للعدو في المنطقة، كان عليها ان تنقل الخبر الى الطراد بريستول.

وكان لبرقية الاميرالية التي تضمنت هذه التعليمات لكارمانيا وقع الصاعقة على كل من غرانت وبار. وكان غرانت يعاني اخيرا اشتداد وطأة المرض عليه. والواقع ان خادمه وجد بياض سريره في الصباح ملوثا ببقع من الدم. ونتيجة لذلك، وبناء على اقتراح طبيب السفينة، بدأ غرانت يتمهل في الامور ويتجنب اجهاد نفسه الى اقصى المستطاع. ومع هذا، فما ان تم فك رموز برقية

الاميرالية حتى كان غرانت في غرفة الخرائط يتدارس الشؤون التكتيكية مع بار.

وسرعان ما اكب الرجلان على تدارس ميزات السفن: فالطراد دريسدن مخفوض البناء، معد للسرعة وللطواف على مسافات كبيرة، وله ثلاث مداخن، وتبلغ سرعته ٢٤ عقدة. والطراد كرونبرنز ولهلم مزود باربع مداخن، ويستطيع الاسراع بمقدار ٢٣ عقدة، بينما تبلغ سرعة السفينة كاب ترافلغار ١٨ عقدة، اي بزيادة عقدة واحدة على سرعة كارمانيا.

وجالت فكرة واحدة في خاطر الرجلين: اذا امكن حمل الألمان على الاعتقاد بان كارمانيا هي كاب ترافلغار، فانهم سيفسحون لها مجال الاقتراب حتى مرمى مدفعيتها. ولكن لم يفكر اي منهما في ما عساهما يفعلان لو كانت كاب ترافلغار راسية هناك.

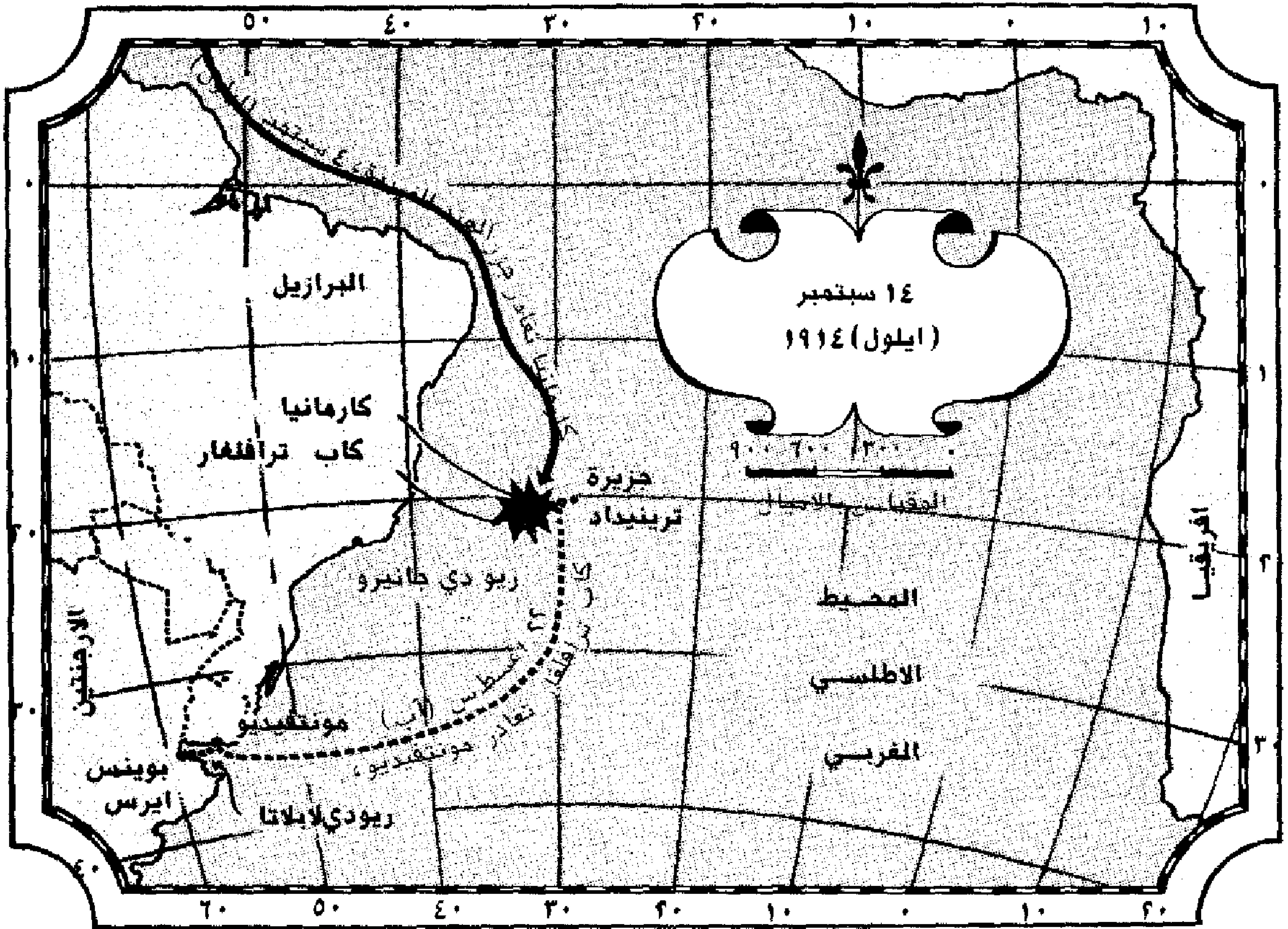
وامضيا بقية اليوم في الاشراف على تركيب المدخنة الثالثة الوهمية. وكانت هذه المدخنة مجرد هيكل مصنوع من قماش المظلات التي كانت على سطح السفينة، وقد شدت الى اطار خشبي خفيف في شكل الرقم "٧"، مع توجيه زاويته الى الامام. فالمهم هو ان تبدو السفينة بثلاث مداخن. وتم تثبيت المدخنة الوهمية بالاسلاك خلف المدخنة الثانية التي اصبحت الآن المدخنة الوسطى.

مساء ذلك اليوم اقيمت حفلة عشاء لمناسبة عيد ميلاد غرانت، احرزت نجاحا منقطع النظير لكثرة ما قدم فيها من اطباق الطعام الشهي وانواع النبيذ الفاخر، وكأنها الحفلة التي اقامتها دوقة ريتشموند على شرف ولنغتون عشية معركة واترلو. واعقبت العشاء حفلة موسيقية احيتها فرقة السفينة، وتضوعت الصالة الرئيسية برائحة سيجار الهافانا الذي لم ينطفىء. واستمر شرب النبيذ "موتون روتشيلد" واجود اصناف الكونياك حتى اليوم التالي. وكانت لحظة "النجاح والاستحسان"، بالنسبة الى بار، عندما وقف واقترح ان يشرب الحاضرون نخب السيدات، ولا سيما السيدة غرانت. فعلت حمرة الخجل وجنتي غرانت وكأنه تلميذ مدرسة.

وحدث بعض المزاح البريء عندما فكر الرجلان في ارتداء الملابس التنكرية. ووقف طبيب السفينة واقترح ان يشرب نخب السفينة، وقال انه لا يعلم ما اذا كان يشرب نخب كارمانيا او نخب كاب ترافلغار. واكتفى بشرب نخب الدارعة "سيبارايت". وانتهت السهرة بان توالى كل منهم على انشاد اغنية من الاغاني الشائعة آنذاك، بينما اخذ الباقون يرددون اللازمات وكأنهم كورس محترف. واصبحت السفينة على مقربة من جزيرة ترينيداد القابعة على مسافة تقل عن ٩٠ كيلومترا الى الجنوب.

"لمسة نلسون"

في هذه الاثناء، خضعت كاب ترافلغار لتغيير مسرحي آخر. وبلغت جزيرة ترينيداد في ٢٨ اغسطس (آب) حيث القت مرساتها بعد الظهر. وفي ذلك الوقت كانت كارمانيا لا تزال في برمودا.



ذهب لانغر هانس وفيدرسن رأسا لحضور مؤتمر على متن الزورق ايبر. وقرر ويرث نقل اسلحة ايبر وطاقمها الى كاب ترافلغار، وتعزيز ذلك الطاقم بما يلزم من المتطوعين من كاب ترافلغار نفسها ومن ناقلات لفحم. وكان على علم تام بأن الاسلحة المتوافرة لديه لا تكفي، لكنه كان يأمل في أن يلتقي وحدات أخرى من البحرية الالمانية ويحصل منها على بعض المدافع.

وتولى أحد قوارب النجاة التابعة للكابتن ويرث اعادة ضباط كاب ترافلغار الى سفينتهم، واحاطهم علما بأن ويرث سيصعد الى متن تلك السفينة في تمام الثامنة من صباح اليوم التالي ليتولى قيادتها. وأمرهم ايضا بمراعاة التعتيم وابقاء السفينة على أهبة الابحار في أي لحظة.

في صباح اليوم التالي قدم ويرث في الموعد المحدد تماما، وقد ارتدى اجمل حلة رسمية لديه وتقلد حسامه وتزود بنسخة من دليل البحرية الالمانية الذي يحدد واجبات الضباط ومسؤولياتهم. وكان يتوقع ان يحييه الحارس عند سلم السفينة وأن يتسم استقباله بالمراسم البحرية المألوفة، وان يرافقه احد الضباط الى حجرة الربان. غير انه صعد السلم من دون أن يصادف احدا، ودخل الى الحديقة الشتوية حيث لم ير الا الدكتور براونهولز الذي كان مشغولا في اطعام الببغاوات، فحيّاه هذا تحية "مدنية" وانصرف الى شأنه.

في تلك اللحظة دخل لانغر هانس الحديقة الشتوية، ومدّ يده الى ويرث مصافحا وقال: "يحلو لي أن اراك على متن هذه السفينة يا رفيقي العزيز. ضع ذلك السيف المخيف في مكان ما، وتعال لنتناول الفطور معا".

صعق ويرث بذلك الفطور المترف الذي اشتمل على الكعك المحلّى والكلاوي وصنوف اللحم المقدّد والفاكهة الطازجة وبجانبها طاسات صغيرة لغسل اصابع الايدي مملؤة ماء يطفو على سطحه اجمل الزهر. وبدأت الشكوك تساور ويرث حول الحكمة من تحويل هذه السفينة الى طراد حربي.

كانت ايبر تحمل مدفعين من عيار ١٠٥ ملليمترات، مدى كل منهما ٦٥٠٠ مترا، اضافة الى ستة مدافع رشاشة ثقيلة. وكانت كاب ترافلغار قد جهّزت بأربعة مرابض للمدفعية على سطحها، ولكن لم تكن هذه المرابض صالحة لاستقبال المدفعين من ايبر. لذلك كان لا بدّ، اولا، من حفر مجموعة جديدة من الثقوب لايواء البراغي عبر صفائح النحاس البالغة سماكتها ١٣ سنتيمترا. ثم كان لا بدّ من انجاز هذا العمل باليد.

وفي اثناء هذا العمل، قام آخرون بنقل المدافع الرشاشة الى متن السفينة، في حين جلس ويرث تحت مظلة السطح الامامي واخذ يرسم المخطط تلو الآخر بالنسبة الى مظهر السفينة من عل، ثم حاول ان يحسب زوايا اطلاق النار بطريقة لا تعوقها منشآت السفينة. وراقبه لانغر هانس قليلا ثم قال: "قد لا تصدق، ولكن ربما استطعت ان اساعدك، باعتبار اني اعرف الكثير عن نوع الاشتباك الذي اظن انك تخطط له".

وأدرك كلاهما انه، في حال الالتقاء بسفينة حربية معادية وتبادل النار معها، فستكون كاب ترافلغار في وضع يائس نظرا الى قصر مدى مدفعيها الصغيرين بالنسبة الى مدفعية العدو. اما اذا شاءت كاب ترافلغار استعمال مدافعها الرشاشة، فيجب ان تكون قريبة جدا من السفينة المعادية، مما يجعل مثل هذا الاقتراب ضربا من الانتحار ما لم يتسنّى لها، بفضل رشاشاتها الكثيفة، ان تلزم رجال السفينة المعادية بخفض رؤوسهم الى ان يتم لكاب ترافلغار ان تقترب من حافة السفينة المعادية وينقضّ رجالها عليها على طريقة القراصنة.

وقال لانغر هانس: "انك تحتاج الى خطة خاصة بتبادل النار من مسافة قريبة ضد عدو ابطأ منك، كما انك تحتاج الى تعزيز "فرق الانزال" التي ستتولى الانقضاض على متن السفينة العدوة. اتراني مصيبا في استنتاجي هذا؟" فهز ويرث رأسه بالموافقة. عندئذ اقترح لانغر هانس ان يذهبا الى غرفة المكتبة. وهناك وقف لانغر هانس امام كتبه وقال لويرث بخيلاء: "كل شيء هنا. انا شخصيا من المعجبين بنلسون، وان ما تحتاج اليه في الواقع هو ما يسمى لمسة نلسون". وشرح له ان ذلك يعني اظهار البراعة في التصرف في اي موقف، وفي هذه الحال بالذات يعني اتباع تكتيك خاص يتيح الاقتراب من مقدم سفينة العدو اولا، مع الحرص ما أمكن على عدم تعريض جانب سفينتهما لنيران العدو قبل ان تقرب كاب ترافلغار الى مسافة تمكنها من الاستدارة بسرعة بحيث يصبح جانبها

فجأة ملامسا لجانب السفينة المعادية. وعندئذ يتسنى لفرق الانزال اعتلاء متنها.

أراد لانغر هانس الاسترسال في حديثه، لكن ويرث قاطعه قائلا ان ذلك ممكن عمله بسفينة سهلة المناورة مثل ايبر، وليس بسفينة في ضخامة ترافلغار. فالامر هنا يختلف كليا، اذ ستحتاج الى أكثر من ثلاثة كيلومترات لتتوقف والى قرابة كيلومترين لتستطيع الاستدارة وملامسة جانبها لجانب السفينة المعادية.

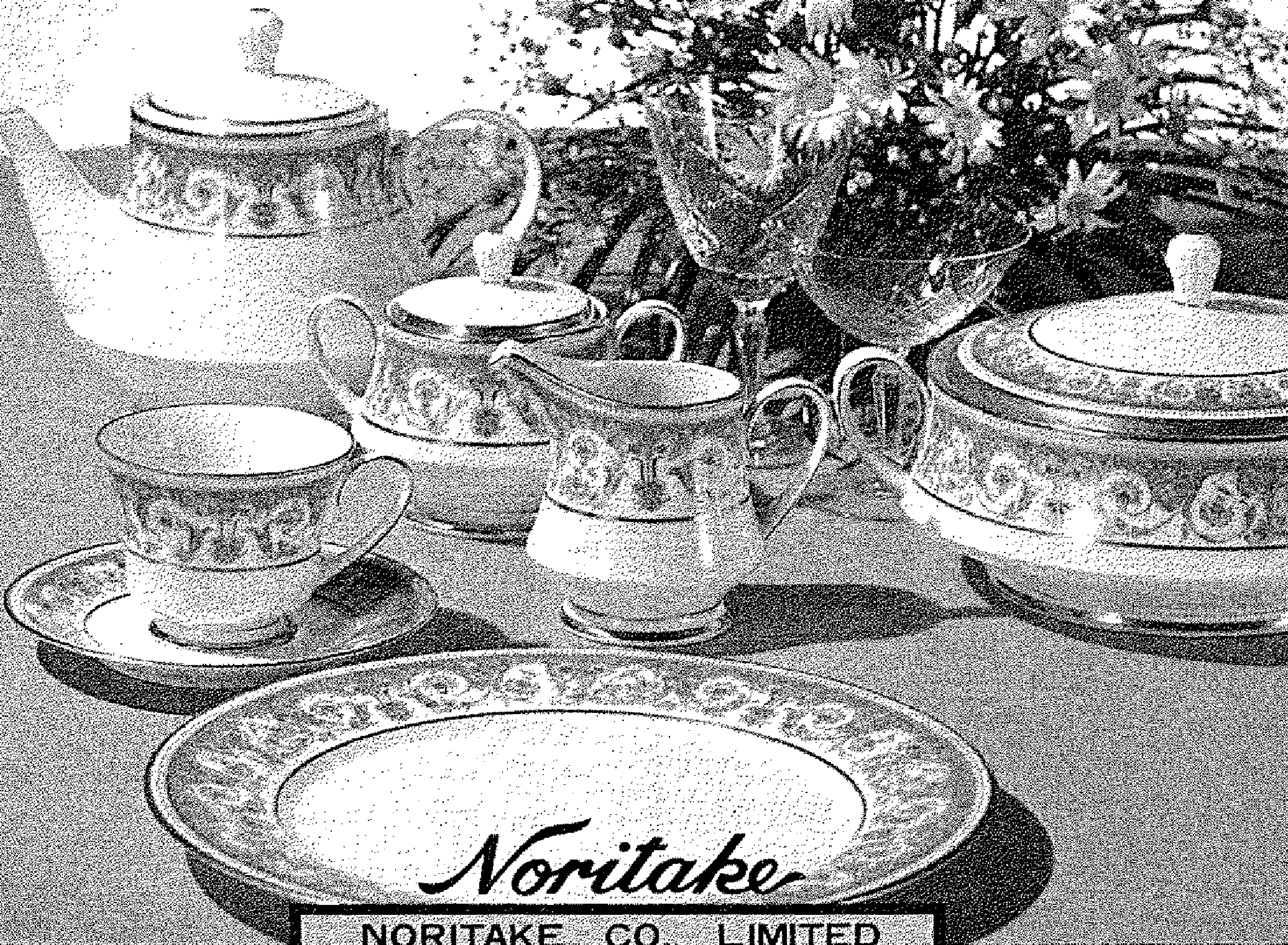
ورد لانغر هانس قائلا ان كاب ترافلغار مجهّزة بثلاثة رفاصات توربينية يتسنى تشغيل كل منها على انفراد. واذا دار المحرّكان الاوسط والايمن بأقصى سرعتهما في اتجاه عكسي، فذلك يكفي لاستدارة السفينة بحيث يتجه مؤخرها نحو الميناء في وقت قصير نسبيا.

واقتنع ويرث بكلام لانغر هانس الذي اقترح عليه ان يتثبت من صحة اقواله باجراء تجربة عملية، خصوصا أن السفينة كانت على أهبة الابحار وفقا للتعليمات. وفي صباح اليوم التالي خرجت السفينتان ايبر وكاب ترافلغار الى عرض البحر. وقد حملت الساعات القليلة التالية الى ويرث درساً لن ينساه في الملاحة البحرية.

وجّه لانغر هانس مقدّم كاب ترافلغار نحو ايبر وانطلق في اتجاهها. وربما تخيّل، ولو للحظة قصيرة، كيف ان اعضاء مجلس ادارة كونارد ينظرون اليه فاغرين افواههم وهو يقوم بهذه الحركات البهلوانية. وما ان صار على قاب قوسين من ايبر حتى اصدر الامر بتشغيل المحركات

أتحف مائدتك بأواني نوريتاكه

هذه الاواني الابيض من الخزف الصيني الاصيل هي الاكثر مبيعا في العالم • وهي تتيح لك مجالا كبيرا للاختيار من مجموعتها الرائعة •



Noritake

NORITAKE CO., LIMITED

1-1, Noritake-shinmachi, Nishiku, Nagoya451, Japan

للمزيد من المعلومات عن نوريتاكه، يرجى الاتصال ب :

دبي : اشرف واخوانه هاتف ٢١٩٧٥
دبي : شركة المشاريع التضامنة المحدودة 〃 ٢٣٢٦٥
الدوحة : ستوديو ومحلات السلام 〃 ٢٢٥٤٠
جدة : عبد الباسط باجنيد واولاده 〃 ٣٤٨٤٤
الرياض : محلات المطرف للتجارة 〃 ٢٨٠٤٤
الخبر : شمس الدين اشرف ٤١١٠٤

الكويت : اشرف وشركاه هاتف ٤١٢١٨٠
الكويت : محلات مقامس 〃 ٦١٠١٣٢
البحرين : اشرف واخوانه 〃 ٥٣٤٥٧
البحرين : متجر المحمود 〃 ٥٤٧٥٤

مسقط : كيمجي رامداس هاتف ٢٢٢٥
مسقط : شاه ناجارداس مكنجي 〃 ٢٣٠١
بيروت : فونتانا 〃 ١٧٥٨
عمان : حنا زنا نيري واولاده 〃 ٢٢٢
طرابلس : محلات لبنه 〃 ٧٢٥
بنغازي : محمد محمد الكواقي واخوته 〃 ٢٠٤
ابوظبي : ستوديو ومحلات السلام 〃 ٦٤٣
ابوظبي : جنرال انتربرايزس كومباني 〃 ٥٤٦
صنعاء : معرض بلقيس للأواني المنزلية 〃 ٥٨

الثلاثة بالسرعة القصوى الى الوراء. ولم يلبث ان بدا كأنه على وشك الاصطدام بإيبر، فأومأ برأسه الى ويرث الذي سارع الى تحويل دفة السفينة الى الميمنة تحاشيا للاصطدام. واذا بجانب كاب ترافلغار يكاد يلامس جانب ايبر بسرعة تفوق ما تصوره ويرث.

أمضت السفينتان طوال ذلك اليوم تكرران تلك "اللعبة" الى أن اتقنتا التكتيك المنشود. وعند حلول الغسق أمر ويرث بالعودة الى الجزيرة حيث تم تركيب المدافع على متن كاب ترافلغار في مواضع تتيح لها تقديم افضل الدعم الممكن. وفي ٤ سبتمبر (ايلول)، خرج ويرث بكاب ترافلغار الى عرض البحر لتدريب فرق الانزال على الانقضاض. وبقي لانغر هانس في الجزيرة.

تزوّدت كاب ترافلغار بمجموعة كبيرة من الشباك المستعملة لرفع الامتعة من العنبر. وصنعت على عجل منصة خشبية غير مصقولة ركّزت فوق حدى هذه الشباك. وعند رفع المنصة مع الشبكة في الهواء، بدت كأنها شبكة للصيد. فتعلم فريق الانزال الاول كيف يتعلق بهذه الشبكة من الخارج. ووجد ويرث انه يستطيع رفع افراد الفريق من العنبر والميل بهم فوق جانب السفينة، ثم انزالهم على سطح السفينة المعادية في أقل من دقيقة واحدة.

وحرصا على سلامة فرق الانزال، أمر ويرث باحضار لفّة ضخمة من السجاد جرى تثبيتها من أحد طرفيها الى شرفة السفينة للتمكن من قذفها بالطرف الآخر الى سطح السفينة المعادية فينزلق عليها افراد فرق الانزال عند انقضاضهم على هذه السفينة. وقد اعجب هذا الابتكار معظم البحارة، وحقّق لفيدرسن وفريق السجادة لقب "علي بابا والاربعون حراميا".

وعلى أثر هذه التدريبات الشاقة، استدار ويرث بالسفينة عائدا الى الجزيرة. وشوهدت ترينيداد عند ظهر ١٣ سبتمبر (ايلول).

سلاح غير عادي

راقب الكابتن لانغر هانس، بشعور من الغبطة المشوبة ببعض وجل، السفينة كاب ترافلغار وهي تقلع للقيام بدوريّتها.

وكان لانغر هانس قد ابدى ملاحظة بأن وجوده على متن السفينة الى جانب رجل يصغره سنا ربما أدى الى عرقلة اسلوب ويرث في تصريف الامور. فأصدر ويرث امراً بتعيين لانغر هانس مسؤولا عن سائر السفن المدنية وعن المنشآت البحرية الصغيرة في الجزيرة. ولكن بعد ان خرجت كاب ترافلغار الى عرض البحر واقفر المرفأ الصغير، قرّ رأي لانغر هانس على القيام بجولة استكشافية. وحمل بندقيته وركب قاربا صغيرا وأخذ يجذف بنفسه نحو الشاطىء.

ولاحظ ان هناك بقايا رصيف بحري مع مبنى حجري متداع عند أحد طرفيه، وان الدخان يتصاعد من المبنى. فدخله ووجد فيه الطبيب البيطري الدكتور براونهولز الذي كبرت مسؤولياته لتشمل الحيوانات على متن السفن الاخرى. واستفسر لانغر هانس عن الحيوانين اللذين اصطحبهما، فوجدهما مزدهرين، وقد اطلق عليهما براونهولز اسمي نلسون وايما، تيمنا باسمي الاميرال

وخليلته. وبدت ايما على وشك ان تضيف مخلوقا جديدا الى سكان الجزيرة في أي لحظة.

بعد تناوله طعام الغذاء مع الطبيب البيطري، توجّه لانغر هانس الى أعلى نقطة في الجزيرة حيث أقام ويرث مركزا للمراقبة. واستغرق وصوله الى تلك النقطة المرتفعة بعض الوقت، لان الطريق البرية المؤدية اليها كانت تكسوها الاعشاب الكثيفة في بضعة اماكن. وكان المنظر رائعا حقا من تلك القمة. وقدّر لانغر هانس ان الهضبة تعلو نحو ١٥٠ مترا فوق سطح البحر، وانها تتيح للناظر رؤية واضحة الى مسافة لا تقل عن ٤٠ كيلومترا. ووجد الرجال في مواقع المراقبة يستريحون بين بقايا تحصينات حجرية قديمة ربما اقامها الاسبان، وهم أول القادمين الى هذه الجزيرة التي اتخذوا منها ملجأ عمليا تتوافر فيه مياه الشرب.

كانت هناك طريق أخرى للنزول من القمة، سار عليها لانغر هانس ووجد انها تؤدي الى مكان سرعان ما أدرك انه كوة فوهة مدفع هاون قديم مصنوع من النحاس، وهو من النوع الذي كان يستعمل لعمليات الحصار. وكان المدفع كامنا خلف متراس منخفض يشرف على مياه المحيط.

كان قطر الفوهة نحو نصف متر، ولا يتجاوز طول ماسورة المدفع القزم مترا واحدا. وكان عند قاعدة الماسورة من الداخل تجويف خاص لحشوة البارود ينفذ عبره ثقب الى أعلى لاشعال البارود من خلاله. وقد استعمل نلسون هذا النوع من المدافع، كما تعرّض لنيران امثالها، في جزيرة كورسيكا.

أخذ لانغر هانس يتخيل الاثر الذي تحدثه قذيفة من هذا المدفع قدر وزنها بعشرين كيلوغراما، اذا سقطت على سطح سفينة معادية. وقدّرت سرعة انطلاق هذه القذيفة بـ٢٢٥ كيلومترا في الساعة. وربما ادى هبوطها على سطح السفينة الى اختراقه الى اسفل. وعندما عاد لانغر هانس الى "ايلينور وورمان"، ناقلة الفحم التي اتخذ منها الان مقرا له، كانت خطة الافادة من هذا المدفع قد ارتسمت ملامحها في ذهنه.

كان لكاب ترافلغار ممر جانبي مجهّز بباب تحت منصة القيادة بحيث يتاح للركاب الصاعدين الى متنها ان يدخلوا رأسا الى الشرفة "ب". فكر لانغر هانس في تركيز مدفع الهاون في هذا الممر الذي، اذا فتح بابه، يبدو كأنه نافذة يطل منها المدفع ايذانا ببدء اطلاق النار على العدو. واذا لقم المدفع بقذيفة محشوة بقطع من الفحم المشبع بالزيت، استطاعت هذه القذيفة ان تفجّر وابلا من حمم الفحم في جميع الاتجاهات فوق سطح السفينة التي تنزل عليها، فتحدث الحرائق وتثير ستارا من الدخان وتشيع الارتباك والحيرة، وبالتالي تساعد فرق الانزال في مهمتها. فراقت لانغر هانس هذه الافكار وأثملته.

وتبين ان اعداد هذه الخطة كان اسهل مما يتصوره العقل. ذلك ان احدى ناقلات الفحم كانت مزودة على جانبيها بعدد من اطارات المطاط القديمة تجنبا لتأذي معدنها عند شحن الحمولة او افراغها. فجلب لانغر هانس بعض هذه الاطارات وأقحم فيها ماسورة المدفع في شكل دولاب،

تسنّت معه "دحرجة" المدفع الى رصيف الميناء، وأمكن بالتالي نقله الى ايلينور وورمان ورفعه الى أعلى مقدّم المركب. ولم يكن في نية لانغر هانس ان يستعمل المدفع في هذا الوضع الذي لم يختره الا لانه الجزء الاعلى من السفينة الذي يسهل نقل المدفع منه الى متن كاب ترافلغار لدى عودتها.

وعندما وصلت اشارة من الكابتن ويرث الى ان كاب ترافلغار هي الان في طريق عودتها، كان قد تم تركيب مدفع الهاون على منصة متينة مصنوعة من الحديد المستعمل لربط خطوط السكك الحديد وظهرت الى جانبه مجموعة من "القذائف" المملؤة بأجود انواع فحم مقاطعة ويلز المنقوع بالزيت.

لقاء العملاقين

شعر الكابتن ويرث بأن البريطانيين اصبحوا قريبين، وكان يأمل في اخلاء الجزيرة بأسرع وقت ممكن. وبينما كان يتزود بالفحم شاء ان تتخذ ايلينور وورمان موقعا الى الجنوب الغربي لاستكشاف اي حركة قد تلوح في الافق. والواقع ان غرانت كان يقترب من الشمال لتصبح الجزيرة حاجزا بينه وبين المرسى الى الجنوب الغربي.

ولما اجتمع ويرث على متن كاب ترافلغار بالكابتن العجوز لانغر هانس، اعرب له عن شكره عندما علم بمدفعه. لكنه اقترح عليه بكل لطف، مع تحاشي الاساءة الى شعوره، ان يبقي المدفع في الوقت الحاضر في مكانه على متن ايلينور وورمان حيث يمكن استعماله عند الضرورة لاعطاء الاشارة. وبعد انتهاء الاجتماع ودع ويرث صديقه العجوز بحرارة، وعاد لانغر هانس بقارب صغير الى ايلينور وورمان. وما ان بلغها حتى طلب من بحارة القارب الانتظار قليلا. ولم يلبث ان جاءهم بكتاب طلب تسليمه الى ويرث. كان هذا الكتاب المجلد الثاني من سيرة نلسون بقلم ساوثلي. ووضع لانغر هانس اشارة على فقرة من تعليمات نلسون الاخيرة قبيل معركة الطرف الاغر، جاء فيها: "لا يخطىء الكابتن اذا وضع سفينته الى جانب سفينة العدو".

في حدود الساعة ١١ من صباح ١٤ سبتمبر (ايلول)، وفي اثناء عملية تزويد كاب ترافلغار بالفحم، شاهد ويرث سفينة غريبة تقترب من الشمال، فسارع مع فيدرسن الى الصعود الى قمة منصة القيادة لمحاولة التعرف على هوية السفينة المتطفلة. وظن فيدرسن انها احدى سفنهم لشبهها الكبير بالسفينة الشقيقة "كاب فينيستير". ورفع ويرث مرساة السفينة استعدادا للابحار، وامر رجل الاشارة ان يطلب من الزائر الغريب الاعلان عن هويته.

اما غرانت فقد القى نظرة فاحصة على كاب ترافلغار التي ظهر هيكلها بأبراجه ومنشآته الضخمة. وقال لبار متسائلا: "يا الهي! اي سفينة هذه؟" فرد بار: "يتبين من مدخنتيها انها - من دون شك - احدى سفننا او احدى سفن خطوط يونيون كاسل".

وأخذت "الطريدة" الان تتحرك جنوبا. ورفع غرانت رايته ليعلن عن هوية سفينته. كانت احدى السفينتين تبعد عن الاخرى زهاء ١٥ كيلومترا وتتجهان كلاهما جنوبا. ولكن ما أن اتضح شعار راية كارمانيا

وهي ترفرف على رأس الصاري حتى أمر ويرث بالاستدارة ١٨٠ درجة في اتجاه العدو. وبينما اخذت المسافة تضيق بين السفينتين، أمر غرانت باطلاق قذيفة نحو مقدم كاب ترافلغار. وسقطت القذيفة امامها، وارتفع عمود من الماء اثر انفجارها. فأمر ويرث على الفور برفع راية سفينته والرد على هذه "التحية" بأحسن منها.

اعطي الامر لرجال المدفعية الالمان بالتركيز على منصة قيادة كارمانيا وعلى ما ارتفع من منشآتها فوق هيكلها الرئيسي. وكان الغرض من ذلك الاستيلاء عليها وليس اغراقها. مرت الطلقة الاولى من فوق السفينة، واصابت الطلقة الثانية حبل الراية ودمرت صاري الجهاز اللاسلكي. اما الطلقة الثالثة فقتلت معظم طاقم أحد مدافعها.

في مقابل ذلك، انفجرت قنبلتان من كارمانيا في "الحديقة الشتوية"، وتطايرت الشظايا في جميع الاتجاهات محدثة الحرائق الصغيرة هنا وهناك. كان ويرث يظن انه يستطيع استعمال مدافعه الرشاشة في دقيقتين. واذا بشظية تنزل وراءه وتردي رجل الدفة قتيلا. وانحرفت كاب ترافلغار فجأة الى جانبها الايسر، فقفز ويرث الى دفة القيادة ليعيد سفينته الى خطها الهجومي.

وسرعان ما شبّ الحريق في المنصة الزائفة التي أقيمت على كاب ترافلغار. وساهم البخار والدخان مع السنة اللهب المتصاعدة من المنصة الزائفة في حجب الرؤية عن كارمانيا. وعلى أي حال، فقد اتاح انحرافها الموقت للمدفع المثبت في مؤخرها ان يسجل اصابة مباشرة في منصة قيادة كارمانيا.

وجد ويرث انه صار الان على مسافة ستة كيلومترات من العدو، فقرر ان الوقت حان للاطباق عليه حسب التدريبات الشاقة التي سبق أن اجراها مع لانغر هانس. فأمر رماة المدافع الرشاشة بفتح النار. وهنا صاح غرانت لرفيقه بار: "هل تعلم؟ اظن ان هؤلاء المعتوهين يحاولون وضع سفينتهم في محاذاة سفينتنا".

وازاء وابل الرصاص المنهمر، قرر غرانت الابتعاد عن مرمى الرشاشات. فاستدارت كارمانيا الى جانبها الايمن، ولكن بعد ان اصدر لوكيير امره لمدفعيتها بتصويب قذائفها على ذلك الخط من جسم كاب ترافلغار الذي يلامس مياه البحر.

اصابت الدفعة الاولى من القذائف الجانب الايمن من كاب ترافلغار، واخترقت احداها هيكل السفينة عبر أحد الحواجز المائية، فتدفقت المياه الى واحد من العنابر. واستقرت قذيفة ثانية في مكان آخر من السفينة، فاندفعت المياه الى غرفة المحركات. واصابت قذيفة ثالثة مخزن الوقود الاحتياطي فاحدثت فيه اضرارا بالغة. وسارع المهندس الرابع، كارل ريك، الى اتخاذ الاجراءات الطارئة وجعل المياه تتدفق الى جانب السفينة الايسر في محاولة لرفع جانبها الايمن. وكان ويرث يريد متابعة هجومه، الا ان تدفق المياه من الجانب الايمن لسفينته حمله على العدول.

واخذت السفينتان تفترقان. واطلقت كاب ترافلغار قذائفها على كارمانيا قبل ان تبتعد عن مرمى

مدفعيتها، فاخترقت احدى القذائف غرفتين على سطحها واندلعت فيهما النيران. وطلب غرانت الى بار ان يتولى الاشراف على اخماد الحريق الذي سرعان ما انتشر الى منصة القيادة. واضطر غرانت الى الانتقال الى مركز قيادة آخر اقامه بار في مؤخر السفينة لتسهيل عملية رسوها. وكانت شبكة المواصلات قد دمرت في الدقائق الاولى من الاشتباك. ولم يبق امام غرانت الا الاعتماد على فريق من الرجال المتمركزين عند فتحات السفينة ليتناقلوا اوامره بصفاراتهم

سمع لانغر هانس دويّ القذيفة الاولى التي اطلقتها كارمانيا وهو على متن ايلينور وورمان، وتابع سير المعركة في الافق البعيد امامه. وكان مدفع الهاون لا يزال مثبتا على السطح الاعلى من سفينته الصغيرة وعلى أهبة الاستعمال بالطريقة التي ابتكرها. فتبادل النظرات مع ربان الباخرة ثم التقط خرطوم الصوت النحاسي.

تلمس لانغر هانس جيبه باحثا عن علبة لفائف السيجار، فوجد انه لم يبق فيها سوى ثلاثة. فقرر ان يحتفظ بواحدة منها لتدخينها لدى اقدامه على تنفيذ المخطط الذي رسمه لنفسه. ثم اشعل السيجارين الآخرين، فقدم واحدا الى ربان السفينة ووضع الآخر بين شفتيه وهو يتجه نحو سحب الدخان التي انطلقت من الباخرتين المحترقتين.

الوداع الاخير

كانت خراطيم المياه على السطح الاسفل من كارمانيا مليئة بالثقوب لكثرة ما اصابها من الشظايا. وقد حاول بار اخماد النار باغلاق جميع منافذ الهواء اليها ورشها بالمواد الكيمائية المخصصة لهذا الغرض وبما امكن من الماء. وكان على وشك اخمادها عندما اضطرمت النيران من جديد على حين غرة. فنسب ذلك الى أحد امرين: اما ان يكون اتجاه الريح قد تغير واما ان تكون كارمانيا غيرت اتجاهها. وسارع الى سطح السفينة لاستطلاع حقيقة الامر.

بعد ان سد بار منافذ الهواء تحت السطح، ظن غرانت انه سيطر على النار، فحاول تجديد هجومه. وصاح بار في وجهه: "ما هذا الذي تفعله؟" وردّ عليه غرانت مشيرا بيده الى ناقلة الفحم: "اريد القضاء على تلك السفينة". في تلك اللحظة كانت ايلينور وورمان تحشرج بمحركها وتتهادى رابطة الجأش بين السفينتين العملاقتين، بينما وقف الكابتن العجوز لانغر هانس على السلم القائم بين ظهر السفينة وسطحها الامامي وقد احكم في فمه سيجاره الاخير، وثبّت احدى يديه على الشرفة بينما أمسك باليد الاخرى الفتيل المتدلي من مدفعه. ومج نفسا قويا من الدخان تطاير في الفضاء، وراح يراقب من خلال ضبابه وجهة الريح. وبعدما اطمأن الى الوضع، اشعل الفتيل بنار سيجاره. وفجأة لمع وميض خاطف كالبرق اعقبه دويّ انفجار كبير. واذا بسحابة من الدخان الاسود الكثيف تنطلق من فوهة المدفع العتيق لتحجب كاب ترافلغار، ولو موقتا، عن مدافع كارمانيا الفتاكة. ثم ركّز لانغر هانس سيجاره مطمئنا في شريط قبعته وراح يحشو المدفع من جديد.

كان ويرث لا يزال ممسكا بدفته. لكن كاب ترافلغار بدت كأنها تسمرت مكانها. فقال له فيدرسن انه لا يستطيع السيطرة على تدفق المياه. وما ان سأله ويرث عن حال اخماد الحرائق حتى انفجرت قذيفة بين فرق الاطفاء، فصرعت اطفائيا وأصابت اثنين آخرين بجراح خطرة.

وركع ويرث الى جانبهم واخذ يردد بصوت خفيض عبارات المؤاساة. واذا بقذيفة اخرى تنفجر قريبا منه فتدفعه بعنف الى الوراء. وحاول فيدرسن ان يسمك به، لكنه رأى قطعة مسننة من اطار المنصة منغرسة تحت ابطه. ولم يجرؤ على انتزاعها لان الجرح كان ينزف بغزارة. واستجمع ويرث ما تبقى من قواه وأمر فيدرسن بمغادرة السفينة مع رجاله. وسرعان ما اخذت كاب ترافلغار تميل بشدة الى ان اصبح معظم جانبها الايمن تحت الماء. وعند ذلك انطلقت ايلينور وورمان بسرعة واهتياج، كالدجاجة التي تحن على فراخها، ووقفت بين كارمانيا والسفينة التي كانت تعاني سكرات الموت.

وأخذ بار يراقب عن سطح السفينة البريطانية تحركات ناقلة الفحم ويتتبعها بدقة، من دون ان يدري ان فريق الاطفاء قد لحق به واصبح الى جانبه. وتملكت غرانت فكرة القضاء على السفينة الصغيرة. لكن بار صاح به، متجاهلا ما تفرضه عليه رتبته من الاحترام لغرانت، وحذّره بانه "سيكون الخاسر هذه المرة اذا لم يبتعد".

وخيم الوجوم على بحارة كارمانيا، واخذوا ينظرون تارة الى بار وطورا الى غرانت، بينما ينتظر رجال المدفعية تعليماتهم. وادرك الجميع ان جل ما يبتغيه بار هو سلامة سفينته بعد هذه المعركة. فقد اتضح الان ان كاب ترافلغار انتهى امرها، وان ايلينور وورمان اخذت تقوم بمهمة انسانية لانقاذ الرجال من الغرق، وان استمرار تحرك كارمانيا وسط الرياح من شأنه ان يحيلها رمادا.

واصدر غرانت أمره بكل هدوء بأن ينصرف "المتفرجون" الى أعمالهم. ثم تقدم نحو بار وقال له: "هيا بنا الان نخمد الحريق". وانسحبت كارمانيا مبتعدة عن موقع المعركة.

لا أحد يعلم من بدأ الغناء: ربما كان احد اعضاء فرقة الاوبرا في أحد قوارب النجاة التي انزلت الى البحر من كاب ترافلغار. وذكر فيدرسن انه سمع صوتا صادحا عبر المحيط يردد المقطع الاول من نشيد علم البحرية الالمانية. وتبعه صوت ثم آخر. وسرعان ما انضم اليهم طاقم ايلينور وورمان. وما هي الا لحظات حتى كانت هناك ٣٠٠ حنجرة تشق عنان السماء بألحان ذلك النشيد الحماسي. وكتب لانغر هانس في مفكرته: "لم يكن مبعث النشيد الشعور بالاعتزاز والفخر او الانفراج من كرب المعركة، وانما كان وداعا للكابتن ويرث وسفينته".

بدأت كاب ترافلغار تستعيد توازنها وهي نصف غرقى، وكأنها شاءت الاستجابة لاصوات الكورس، تماما كما يصحو المحتضر على فراش الموت. وظهر ويرث كالتمثال متكئا على دفة القيادة عند حطام منصته. ولم يلبث مؤخرها ان راح يرتفع عاليا

في الهواء لتغوص بهدوء في الاعماق وتتوارى عن الانظار.

حبس لانغر هانس العبرات في مقلتيه. وكم تمنى في تلك اللحظة لو وجد سيجارا واحدا في العلبة الفارغة في جيبه. ولم يخمد حسرته منظر كارمانيا تلتهمها النيران. والقى نظرة الى مدفع الهاون الذي كان الدخان لا يزال ينبعث من فوهته، واستدعى ستة بحارة ليساعدوه على تنفيذ ما اعتزمه. فشمروا عن سواعدهم وبذلوا الجهد الجهيد لزحزحة المدفع وتسديد قاعدته نحو البحر، وقذفوه الى البحر ليستقر في القاع الى جانب كاب ترافلغار. وعند ذلك تفجرت دموع لانغر هانس وراح يجهش كالطفل. ثم اجاز لقبطان ناقلة الفحم ان يساعده على النزول الى حجرته.

خاتمة

تقدمت ايلينور وورمان للبحث عن الباقين على قيد الحياة من كاب ترافلغار، فوجدت فيدرسن وانتشلته. كما انتشلت جثة الكابتن يوليوس ويرث مع ١٥ جثة أخرى للذين قتلوا او غرقوا مع السفينة. وفي ١٥ سبتمبر (ايلول)، ووريت الجثث مثواها الاخير في البحر حسب التقاليد البحرية.

اما كارمانيا فقد نقلت خبرا عن اشتباكها مع "طراد مساعد" للعدو ومزوّد بسلاح ثقيل، وافادت بانها اغرقته بعد معركة قصيرة حامية. لكنها بقيت جاهلة حقيقة هوية كاب ترافلغار الى ان وصلت ايلينور وورمان الى ميناء بوينس ايرس وعلى متنها البحارة الناجون. ولم تصدق السلطات في الارجنتين والاوروغواي ان كاب ترافلغار كانت تحمل مدفعي ايبر وستة مدافع رشاشة فحسب. وقدرت ان لانغر هانس خدعها عندما اخبر مفتشي الميناء في البلدين ان سفينته كانت خلوا من السلاح. وجرت محاكمته في مونتفيديو حيث برئت ساحته. ثم احتجز في الارجنتين مع بعض رفقائه الالمان حتى نهاية الحرب. ولم يعلم شيء عن تاريخ وفاته أو مكانها.

اما الدكتور براونهولز، الطبيب البيطري الذي رفض التخلي عن حيوانيه ايما ونلسون لدى ابحار السفن، فقد اقام في جزيرة ترينيداد وعاش خليّ البال في عزلته التي استمرت حتى ١٥ فبراير (شباط) ١٩١٥ عندما التقطه الطراد الالماني "برنز ايتيل فريدريك" الذي طلب اللجوء لاحقا الى الولايات المتحدة. وقد رخص حينذاك لبراونهولز، بصفته مدنيا، أن ينزل الى اليابسة حيث كتب وصفا مسهبا لمغامراته نشرته صحيفة المانية.

بلغ عدد ضحايا كارمانيا تسعة قتلى و٢٦ جريحا. وبعد اجراء عمليات الاصلاح اللازمة لها، ارسلت الى جبل طارق واوكلت اليها اعمال الدورية قبالة لشبونة، العاصمة البرتغالية. وبعد الحرب اعيد تجهيزها كسفينة ركاب، فخدمت بنجاح على خطوط الاطلسي الى ان تقرر "تقاعدها" عام ١٩٣١.

واستمر الكابتن غرانت في الخدمة كقائد لمدة قصيرة. لكن كثرة لجوئه الى المستشفيات أدت، عام ١٩١٦، الى اعلان عدم اهليته الصحية للعمل في البحر. وكلف مهام أخرى في البر، وتمت ترقيته الى رتبة نائب عميد بحري.



القسطنطينية:
الأيام الأخيرة الحاسمة

بقلم غوردون غاسكل

القسطنطينيّة:
الأيّام الأخيرة الحاسمة

بسطت الامبراطورية الرومانية سلطانها في الماضي على معظم انحاء العالم المعروف. وكان حكمها في البدء حكماً مركزياً، ثم انتقلت السلطة الى القسطنطينية، العاصمة الاسطورية في الشرق. وتضاءلت رقعة الامبراطورية الجبارة مع الزمن، وانكمشت بحيث لم تتعدّ بضعة آلاف من الهكتارات او اكثر قليلا داخل نطاق العاصمة نفسها. ومع ذلك فقد بقيت القسطنطينية تعدّ عام ١٤٥٣ دولة الامبراطورية الرومانية، واعتبر حاكمها قسطنطين التاسع، الخلف الثامن والستين بعد المئة للامبراطور الروماني الأول.

تصدى السلطان التركيّ الشاب محمد الثاني للامبراطور قسطنطين. وكان السلطان ذا ارادة حديدية لا تغلّ، وحاكماً مطلقاً لامبراطورية عثمانية عسكرية فتية امتدّت حدودها الشاسعة حتى تجاوزت اطرافا اوروبية، جاعلة من مدينة القسطنطينية جزيرة مسيحية وسط بحر اسلاميّ. ولطالما استنجدت المدينة بالغرب اذ شعرت باستمرار عجزها وفقرها. إلاّ ان الغرب لم يستجب. وكان مبعث الصد، الى حدّ بعيد، رفض الكنيسة الارثوذكسية اليونانية في القسطنطينية الاعتراف بالبابا الكاثوليكي في روما زعيماً روحياً لها.

على ان الاباطرة الرومانيين في آخر العهد كبتوا كبرياءهم وبدأوا يعترفون بالسيادة البابوية مقابل الحصول على عون عسكري. وادرك السلطان محمد الثاني انه لا بدّ من الاسراع في توجيه الضربة، فنجمت عن ذلك معركة مفعمة بالاحداث المثيرة والترقبات المحيرة التي لم يأت التاريخ بمثيل لها. وها نحن نسرد وقائعها على نهج ما كان سيفعله المراسلون لو انهم نقلوا أخبارها فور حصولها.



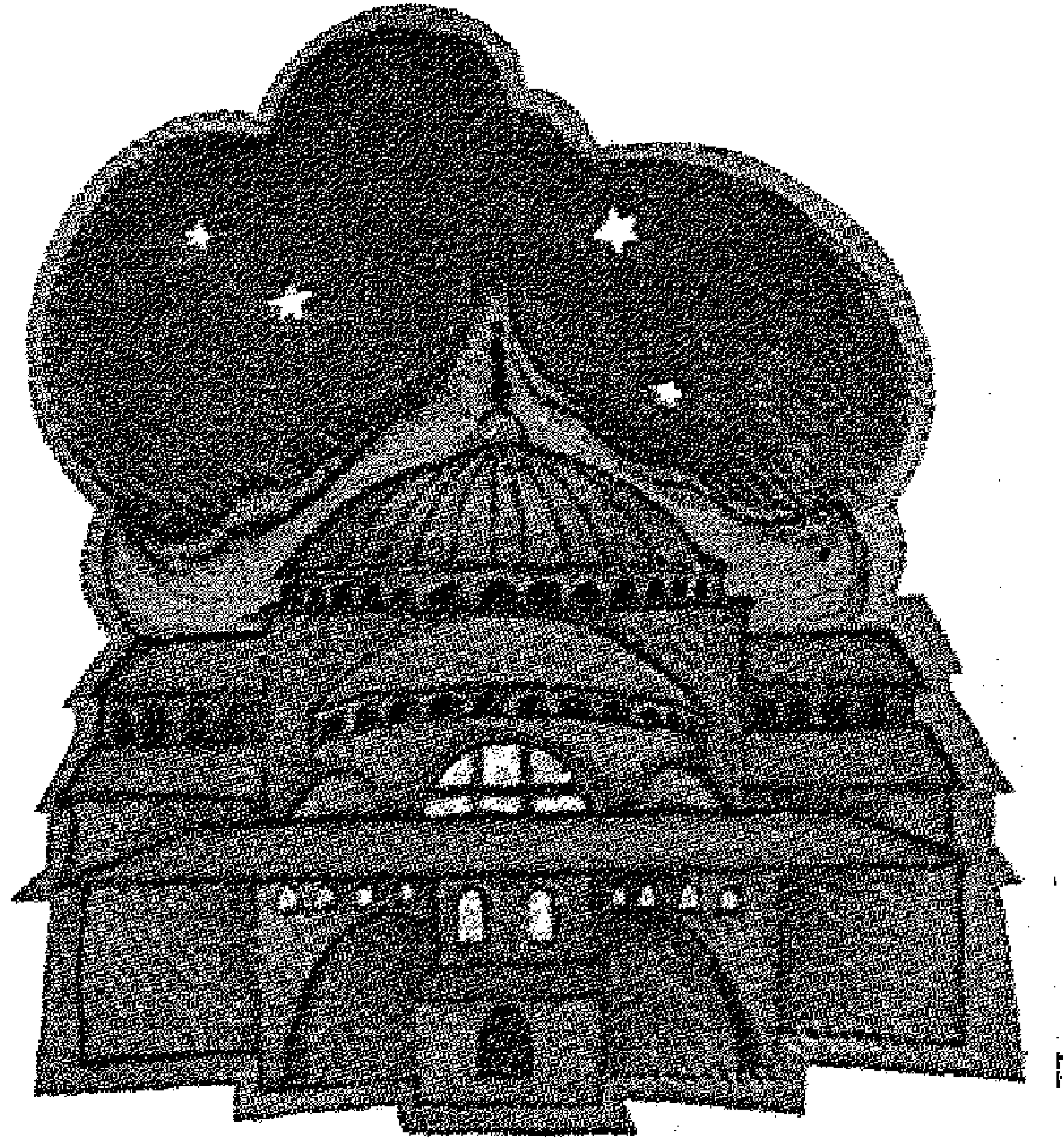
القسطنطينية، ١٥ ابريل (نيسان) ١٤٥٢ ـ شرع اليوم السلطان محمد الثاني ـ في ما يعتبر انتهاكاً سافراً للاتفاقات السابقة مع المدينة ـ ببناء قلعة ضخمة على بعد ثمانية كيلومترات من سور المدينة على الجانب الاوروبي من مضيق البوسفور. والمعروف ان للسلطان الشاب، الذي يناهز العشرين، قلعة ثانية قائمة على الشاطىء الآسيوي المقابل، عند نقطة من المضيق لا يزيد اتساعها على ٨٠٠ متر. وما ان باشر ما يقرب من الف بناء والفي عامل مساعد اعمالهم في القلعة حتى احتشد جميع اهالي القسطنطينية، ابتداء من الامبراطور حتى اصغر المواطنين شأناً، فوق سور المدينة المرتفع وراحوا يسرحون النظر نحو الشمال في خوف صامت.

القسطنطينية، ٣٠ يونيو (حزيران) ـ اتخذ الامبراطور قسطنطين ومجلس وزرائه قراراً بارسال بعثة رسمية الى السلطان. وتجدر الاشارة الى ان الامبراطور الذي يبلغ الثامنة والاربعين من عمره ـ وهو رجل مديد القامة، نحيل الجسم، اسمر الوجه، عسكري المظهر ـ كان قد بذل قصارى جهده لتسوية الامور مع السلطان الشاب، حتى انه ارسل في بادىء الامر وجبات الطعام الى البنائين والعمال الذين يشيدون القلعة قبالة مدينته. لكنّ الجنود الاتراك اطلقوا العنان لخيولهم في ما بعد لترعى في حدائق المسيحيين حتى اتلفوها. وعندما احتجّ القرويون على ذلك، أبادهم الاتراك عن بكرة أبيهم. عندئذ ارسل الامبراطور مبعوثاً شخصياً ليرفع الشكوى الى السلطان. لكنّ محمد الثاني ردّ على المبعوث بقوله انه سيفعل ما يشاء، واذا جاءه الرسل مرة اخرى فسيقطع رقابهم. ولهذا فان الامبراطور ينتظر الآن نتائج بعثته الأخيرة بقلق شديد.

ادرنه (ل) ١٥يوليو (تموز) ـ أصغى السلطان بوقار الى كلام السفراء عن المعاهدات السابقة، وانصت الى التماسهم اللبق للتأكيدات على ان اقامة القلعة الجديدة لا تعني انه ينوي مهاجمة القسطنطينية. ولما فرغوا من حديثهم ردّ السلطان عليهم بجواب بسيط ومقتضب. لقد أمر بقطع رؤوسهم.

القسطنطينية، ٣٠ يوليو (تموز) ـ انهمكت المدينة باسرها في جمع المواد التي تحتاج اليها في الحصار الذي لا بدّ من ان يُضرب حولها. فكدّسوا الاسلحة والحجار وزيت الوقود ومركبات سرية تستخدم في صنع "نار الأغريق" التي دأبت المدينة على استخدامها عبر القرون، وهي سائل لزج سريع الاشتعال يحرق الضحايا حرقاً مروعاً حتى الموت.

وانشغل الحدّادون وصانعو الدروع في طرق المعادن وصنع السلاح. وأمر الامبراطور بسدّ عدد كبير من أصغر بوابات المدينة الخمسين، فهي، في رأيه، كثيرة جداً، فضلا عن انها قد تصبح مصدر خطر عظيم. وفي داخل اسوار المدينة التي كانت تعجّ بالناس والحركة، أمست بعض

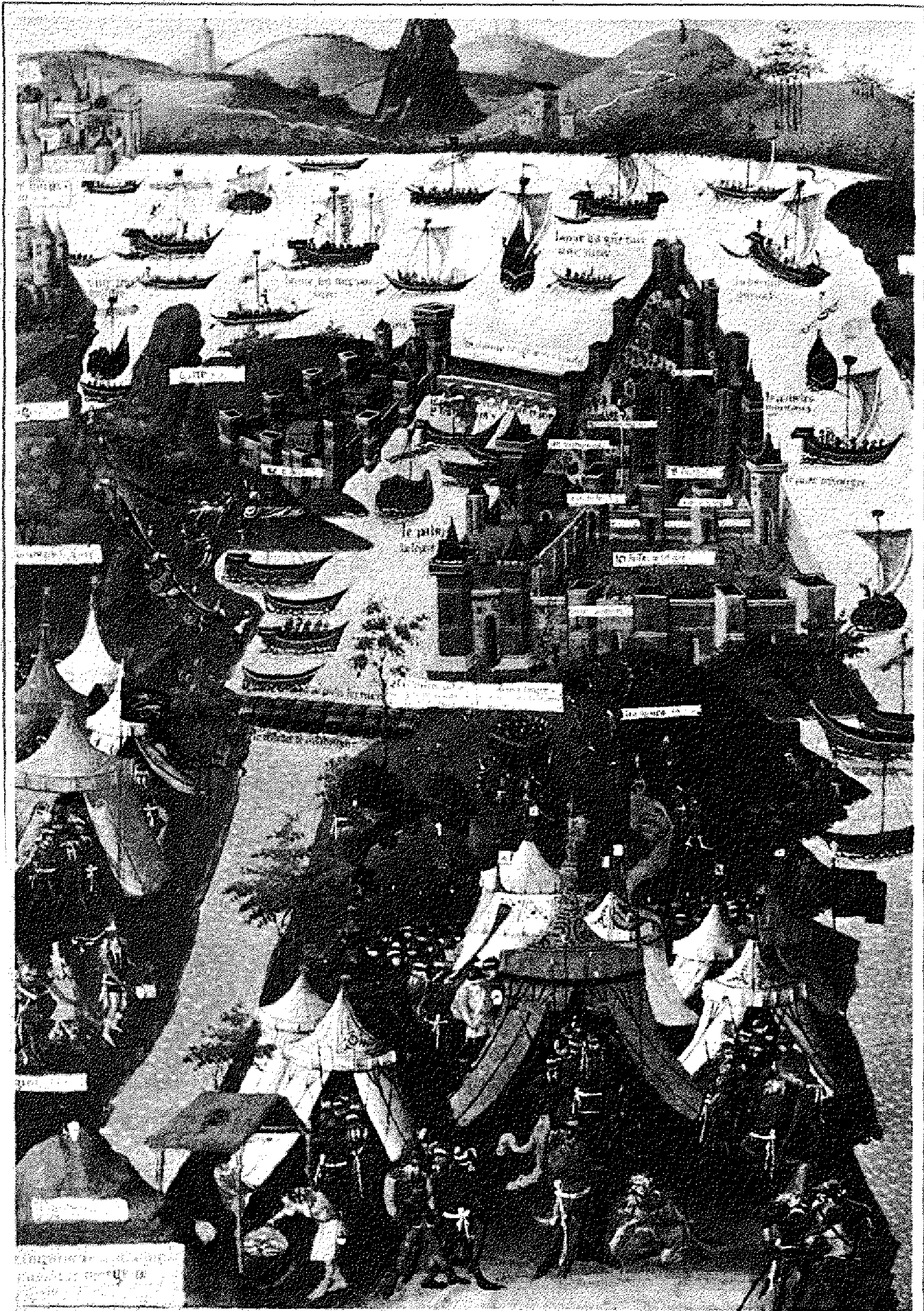


الاراضي الزراعية المهملة بوراً. وكان في الامكان استغلالها لانتاج غذاء وافر، الا ان الظروف حتمت استيراد المزيد منه من الخارج، فأرسل الامبراطور سفناً لهذه الغاية. أما ماء الشرب فلا خوف عليه، اذ حفرت أحواض ضخمة تحت ارض المدينة منذ قرون، وفيها من الماء ما يكفي لمئة عام.

القسطنطينية، ٣١ اغسطس (آب) - اكتمل اليوم بناء القلعة التركية الهائلة التي سماها الاتراك "خانقة المضيق" وهو اسم يليق بها فعلا، فالسلطان الآن يسيطر سيطرة تامة على حركة المرور من الناحية الشرقية للقسطنطينية بعدما اصبحت له قلعة على كلّ جانب من المضيق. فسدّد بذلك ضربة خطرة الى المدينة التي قطعت كل رجاء في العون من الخارج الاّ بحراً من الناحية الغربية.

ادرنه، ٣٠ سبتمبر (ايلول) - اجرى الاتراك اليوم تجربة ناجحة لاضخم مدفع يتمّ صنعه في العالم. وكان صانع المدفع، وهو مجري مسيحيّ يُدعى اوربان، قد عرض خدماته اولا على الامبراطور الذي عجز عن دفع اجوره وتزويده بالمواد التي يحتاج اليها. ثم توجه اوربان الى الاتراك، فقدم له السلطان اربعة اضعاف ما طالب به وأمده بكل ما احتاج اليه من مواد، ولم يشترط عليه سوى امر واحد هو الاسراع في صنع مدافع تبلغ من الضخامة ما يمكنه من دكّ اسوار المدينة التي تعذر قهرها على كل مهاجم قبله. وسُرّ السلطان لنتائج التجربة، فأمر اوربان بصنع مدفع آخر يوازي حجمه ضعفي حجم المدفع الاول.

القسطنطينية، ٢٦ اكتوبر (تشرين الاول) - هللت المدينة لوصول السفن محملة باول مساعدة ملموسة من الغرب، وهي ٢٠٠ رام من اعظم الرماة في نابولي أرسلهم البابا نقولا الخامس. لكنّ حماسة الترحيب سرعان ما اعتراها الفتور عندما شاهد الناس اثنين من كبار رجال الكنيسة اللاتينية اوفدهما البابا ايضاً لتمثيله في القسطنطينية، هما المفوض البابوي الكاردينال ايسيدور والاسقف ليوناردو الجنوي من جزيرة خيوس القريبة. ووجم الناس خلال مرورهما



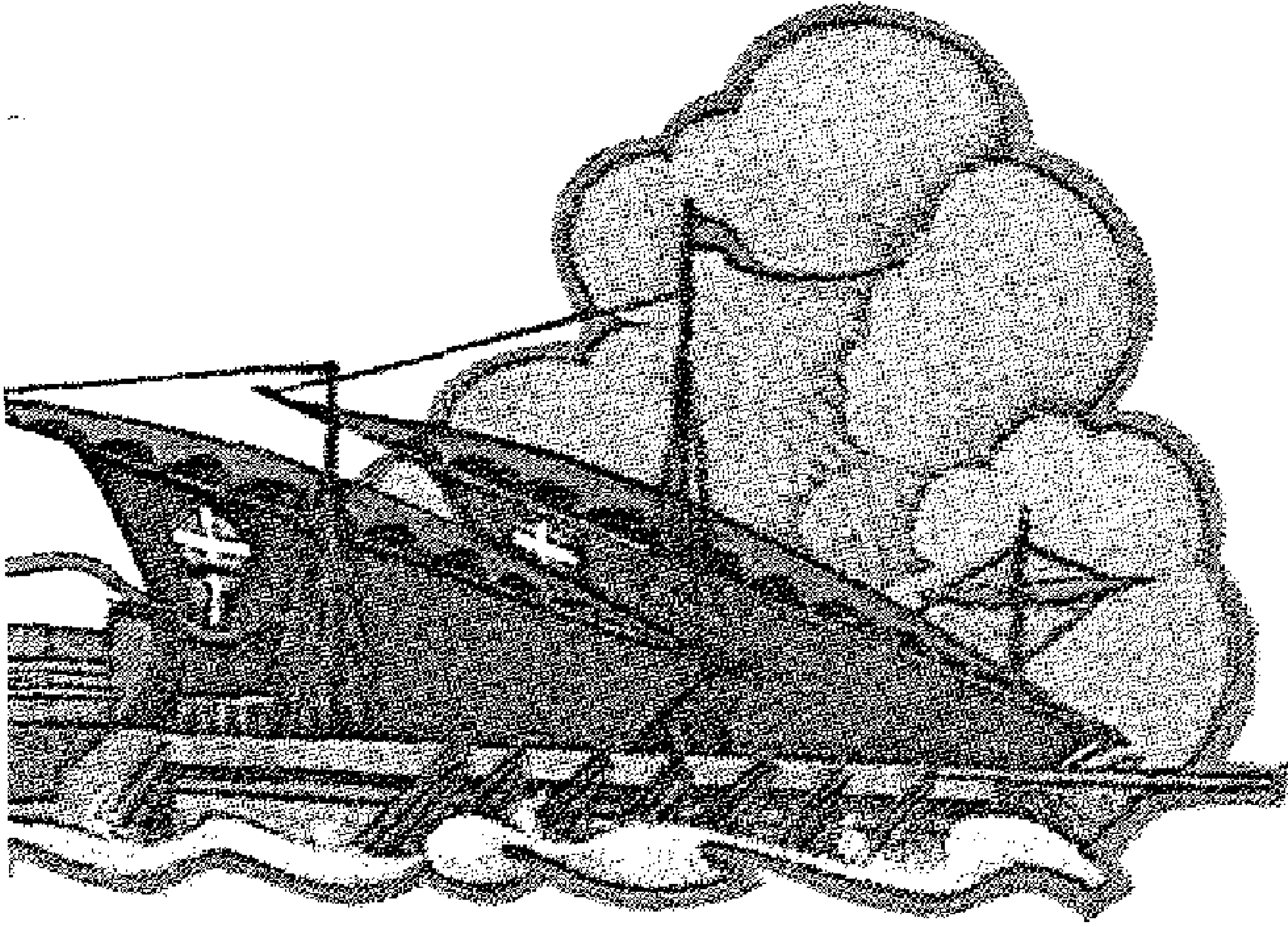
القسطنطينية محاصرة: لوحة حديثة تمثل قوة الأتراك.

في شوارع المدينة، مدركين انهما قدما لفرض "الاتحاد" الموعود مع روما، وهذا ما يرفضه معظم المسيحيين الشرقيين. ولم يتورع بعض الناس عن كيل الشتائم على مسمع منهما.

ادرنه، ٢٠ نوفمبر تشرين الثاني) - اصدر السلطان حكمه هذا اليوم على بحارة سفينة البندقية التي رفضت الامتثال لأمر التوقف عند "خانقة المضيق" على البوسفور. وعندها اطلقت الحامية العسكرية التركية على السفينة قذيفة واحدة من مدفعها الجديد، فأغرقتها. وقبضت على ربان السفينة وثلاثين بحاراً من طاقم الملاحين، وساقتهم الى ادرنه حيث امر السلطان بقطع رؤوس البحارة وبتعليق الربان حياً على خازوق. فدُفع بجسمه فوق وتد حاد الطرف، وترك يموت بآلامه.

القسطنطينية، ١٢ ديسمبر (كانون الاول) - وافق الامبراطور بمضض، بعد اصرار المفوض البابوي، على اقامة صلاة "الوحدة" هذا اليوم في كنيسة آيا صوفيا التي شيدت قبل ٩٠٠ سنة. وأحسّ معظم الناس بالخزي والاهانة لسماع شعائر القداس باللاتينية بدلا من اليونانية. ونُقل عن دوق نوتاراس الكبير، وهو المسؤول الثاني في القسطنطينية، قوله: "رؤية عمامة السلطان في هذا المكان افضل عندي من رؤية قبعة الكاردينال أو تاج البابا المثلث".

ادرنه، ٢٨ يناير (كانون الثاني) ١٤٥٣ - تسرّبت انباء لتوّها تؤكد ان محمداً الثاني اتخذ قراراً بمهاجمة "التفاحة القرمزية" - وهذا هو اللقب الذي يطلقه الاتراك على مدينة القسطنطينية. وكان السلطان قد امر قبل بضع ليال بايقاظ رئيس وزرائه خليل باشا من نومه في ساعة مبكرة جداً. وكان خليل يظنّ انه اقنع السلطان بعدم مهاجمة المدينة. وعندما دخل على السلطان كان يرتجف خوفاً. لكنه وجد ايناساً ووداً من



جانب السلطان، على رغم ارقه. واشتكى السلطان من أرقه قائلا: "كيف يتسنى لي النوم؟ عليك يا خليل ان تأتيني بهدية عظيمة - القسطنطينية!" وصدم خليل مما سمع، غير انه لم يقو الا على الانحناء والقول: "رغبات مولانا اوامر مطاعة".

القسطنطينية، ٢٩ يناير (كانون الثاني) - ارتفعت معنويات المدينة مرة أخرى. فقد وصلت سفن من جنوى وعلى متنها ٧٠٠ رجل من أشدّ المقاتلين بأساً بقيادة القائد الجنوي العظيم جيوفاني جوستينياني، الخبير في شؤون حرب الحصار. وقد عمت شهرته اوروبا، وبلغت لباقة تصرفه هنا واحترام الناس له حداً

جعل جنود البندقية، الذين يمقتون اهالي جنوى، يوافقون على الخدمة تحت امرته بصفته القائد الاعلى.

ادرنه، ٣٠ ينـايـر (كانـون الثاني) - قـذف المدفـع الضخـم الثاني الذي صنعه اوربان في تجربته الاولـى كلـة مـن الصوان تـزن ٥٥٠ كيلوغرامـاً الـى بعـد كيلـو متريـن تقريباً. وبلغ طول المدفع، الذي صنع من البرونز الخالص، ثمانية امتار وقطر فوهته متراً واحداً، مما يتيح لرجل ضخم الجثة ان يتحرك داخله بسهولة. وقد سُمع دويّ المدفع على بعد ١٥ كيلومتراً. واغدق السلطان الذهب على اوربان، وأمره بصنع عدد كبير آخر من المدافع الضخمة.

الـبـنـدقـيـة، ١٨ فـبـرايـر (شباط) - اتخـذ مجلـس الاعيـان قراراً بارسال سفينتي نقل كبيرتين للمساعدة في نقل الامدادات الى القسطنطينية، اضافة الى ارسال ١٥ قادساً حربياً حالما يكتمل تجهيز هذه السفـن الشراعيـة الـكـبـيـرة ذات المجاذيف. لكـنّ بعـض المشككيـن يذكرون ان الاعيان صوتوا في شهر اغسطس (آب) الماضي الى جانب قـرار يطالـب بارسـال العـون الـى القسطنطينية، من غير ان يدعموا اقوالهم بالافعال.

القسطـنطـيـنـيـة، ٢٧ فـبـرايـر (شباط) - تسلل لـيلـة أمـس ٧٠٠ ايطالي وابحروا بعيداً طلباً للنجاة، خشية الموت في حصار القسطنطينية المقبل. وهزت انباء هربهم المدينة، وعم الناس شعور بازدراء الايطاليين واحتقارهم. غير ان القائد البحري غبريال تريفيسان من البندقية أقسم

بانه هو وبحارة سفنه الست القوية سيبقون هنا حتى الموت اذا اقتضت الضرورة، "من اجل جلال الله وكرامة العالم المسيحي"٠

القسطنطينية، ٢٨ مارس (آذار) ـ راقب المسيحيون صباح اليوم بحر مرمرة وكاد يحجبه سلاح السلطان السري الجديد ـ اسطول بحري! انها صدمة مروعة، اذ لم يكن للاتراك من قبل اي اسطول بحري لكن محمداً الثاني عكف على بناء سفنه سراً، وها هو اليوم يجاهر بها ليبث الهلع في النفوس٠ وكان بعضها مزوداً بمجاذيف فقط والبعض الآخر باشرعة بيضاء٠ ولم يتفق الرأي حول عددها، ولكن يرجح ان يكون بينها ٥٠ سفينة حربية كاملة التجهيز وزهاء ٣٥٠ سفينة اصغر حجماً٠ وهكذا اصبح اسطول السلطان يهدد الآن الطريق الوحيدة الباقية التي تصل المدينة بالعالم الخارجي، وهي الممرات البحرية من ناحية الغرب٠

القسطنطينية، ٣٠ مارس (آذار) ـ ارتعب الامبراطور من نتائج الاحصاء السري الذي اجري لمعرفة عدد القادرين على القتال والذين يجدون في انفسهم استعداداً للمقاتلة، كالرومان القدماء، حتى الرمق الاخير٠ والواقع ان غالبية السكان الساحقة (٦٠ الف نسمة)، بمن فيهم الامبراطور نفسه، هي يونانية لغة ومذهباً، وعرقاً وثقافة٠ وبين الاحصاء ان هناك ٤٩٨٣ يونانياً فقط صالحين لتحمل اعباء الجندية، فضلا عن قرابة ٢٠٠٠ اجنبي، اي ان هناك اقلّ من ٧٠٠٠ رجل لحراسة ٢٢ كيلومتراً و٤٠٠ برج في وجه السلطان الذي بدا كأن "العالم كله منخرط في جيشه"٠

القسطنطينية، ١ ابريل (نيسان) ـ اليوم هو أحد الفصح، وهو ابهج الاعياد عادة في التقويم الارثوذكسي٠ وقد حلّ فصل الربيع أخيراً، فأزهرت اشجار الفاكهة وصدحت البلابل وبدأت طيور اللقلق في بناء اعشاش لها فوق سطوح المنازل وغصت الكنائس بالمصلين الا كنيسة آيا صوفيا التي ظلت مهجورة لان المصلين رفضوا حضور "الوحدة" فيها٠ وعلى ورغم مناسبة العيد، فقد عمّ الوجوم محيا الناس واستغرق المسيحيون في التفكير وقد استبدّ بقلوبهم جميعاً خوف واحد: ترى أيكون هذا آخر فصح في حياتنا؟

القسطنطينية، ٢ ابريل (نيسان) ـ بدأ اليوم الحصار المتوقع منذ زمن طويل٠ واحتشد خارج الاسوار الجنود الاتراك وقد رفرفت فوق رؤوسهم مئات الرايات الخضر٠ وأمر الامبراطور بتدمير كل جسر من الجسور المؤدية الى المدينة وباغلاق جميع البوابات٠ ثم امتطى صهوة جواده وتفقد مواضع الذخيرة، ومواقع الجند على طول اسوار المدينة٠

ان مدينة القسطنطينية مثلثة الشكل تقريباً، وتحميها مياه البحر من جانبين ترتفع ضفة احدهما عمودياً فوق بحر مرمرة الى علوّ يتعذر اقتحامه٠ ولم يحاول احد في الماضي شن هجوم من هذه الناحية اما الجانب المائي الثاني فيقابل خليجاً ضيقاً على هيئة الهلال، وهو ميناء المدينة المسمى بالقرن الذهبي

نظراً الى شكله٠ ويطوق مدخل الخليج حاجز من السلاسل الضخمة تعومها فوق سطح الماء عشر طوافات وتحرسه ٢٦ سفينة حربية تسدّ القرن الذهبي في وجه المهاجمين بحراً٠

لهذا جاءت معظم الهجمات التي شنت خلال الاعوام الالف الماضية عن طريق الممرّ البريّ الوحيد الى المدينة٠ لكنّ احداً من الغزاة لم يستطع ان يخترق حتى الجدار الاول من جبهة السور الامامية الهائلة، وهي ثلاثية الجدران وتمتدّ مسافة ثمانية كيلومترات٠ ويتحتم على الغازي اولا ان يعبر خندقاً مائياً عرضه ١٨ متراً وعمقه عشرة امتار٠ ويقع وراء الخندق من ناحية المدينة جدار منيع منخفض نسبياً، يليه جدار ثان بارتفاع ثمانية امتار، وأخيراً جدار ثالث بعلو ١٣ متراً وسمك اربعة امتار عند قاعدته٠ وتعلو الجدران ستة وتسعون برجاً، يبلغ ارتفاع بعضها ١٨ متراً٠ انها جدران رائعة، لكنها مغرقة في القدم٠

القيادة التركية خارج الاسوار، ٥ ابريل (نيسان) - وصل هذا اليوم السلطان نفسه وسط ضجة عارمة من قرع الطبول ونفير الابواق، ونصب خيامه الحمر والذهبية على بعد أقلّ من ٥٠٠ متر عن بوابة القديس رومانوس التي كانت على الدوام اضعف حصون المدينة٠

وراح السلطان يوجه بنفسه عمليات

توزيع الجنود والمدافع. ونصب المدافع الكبرى التي عقد عليها الامل في دك الاسوار وتقويضها على مقربة من خيامه. وتجدر الاشارة الى ان نقل اضخم المدافع حجماً من مدينة ادرنه الى هذا المكان استغرق مدة شهرين. وقد رُكب المدفع فوق ٣٠ عربة شدت بعضاً الى بعض وقام بجرها ٦٠ ثوراً، بينما تولى مئات الرجال تمهيد الطريق امام العربات وموازنة المدفع فوقها خشية جنوحه وسقوطه.

وقد ضرب السلطان حول مقره طوقاً من ١٢ الف "انكشاري" هم صفوة جنده. ويتميز هؤلاء الانكشاريون بشدة ولائهم للسلطان. وكان معظمهم في الاصل ينتمي الى اسر مسيحية، لكنهم انتزعوا من عائلاتهم عندما كانوا صغاراً ونشئوا تنشئة اسلامية ودربوا وسلحوا على خير وجه. ولعلهم كانوا خيرة الجنود في العالم.

وجعل السلطان قوة من الجنود النظاميين، قوامها ٨٠ الف رجل، ترابط على ميمنته. ومعظمهم من الاتراك الاناضوليين، وبينهم عدد قليل من الصرب المسيحيين الملتزمين ادبياً بخدمة السلطان حتى وان عنى ذلك مقاتلة اخوانهم المسيحيين داخل الاسوار.

ونُشرت وراء هذه القوات قوة أخرى تتألف من ١٠٠ رجل، سميت تحقيراً بقوات "الباشبوزوق" (الجنود غير النظاميين). ولم يكن الباشبوزوق جنوداً على الاطلاق، ولم يدربوا على فنون القتال، وانما كانوا افراد قوة سيئة التسليح، همها السلب والنهب والتخريب. واغلب الباشبوزوق اتراك، الا ان بينهم آلافاً من اجناس اخرى، بمن فيهم بعض المسيحيين الذين اغرتهم اجور الالتحاق بالقوة ومطامع الفوز بغنيمة ثمينة.

وفي المساء بعث السلطان برسول الى القوم المحاصرين يحمل انذاراً نهائياً جاء فيه انه اذا استسلمت المدينة له فوراً فسيحتلها ويصون ارواح جميع مواطنيها وممتلكاتهم، والا فسيهلكهم بالسيف. وردّ الامبراطور على الانذار باجابته المتوقعة: ان الله عهد اليه بالذود عن حمى الدين المسيحي واوكل اليه مهمة الدفاع عن هذه الامبراطورية والمدينة، وان الشرف يأبى عليه ان يتخلى عن هذين الواجبين.

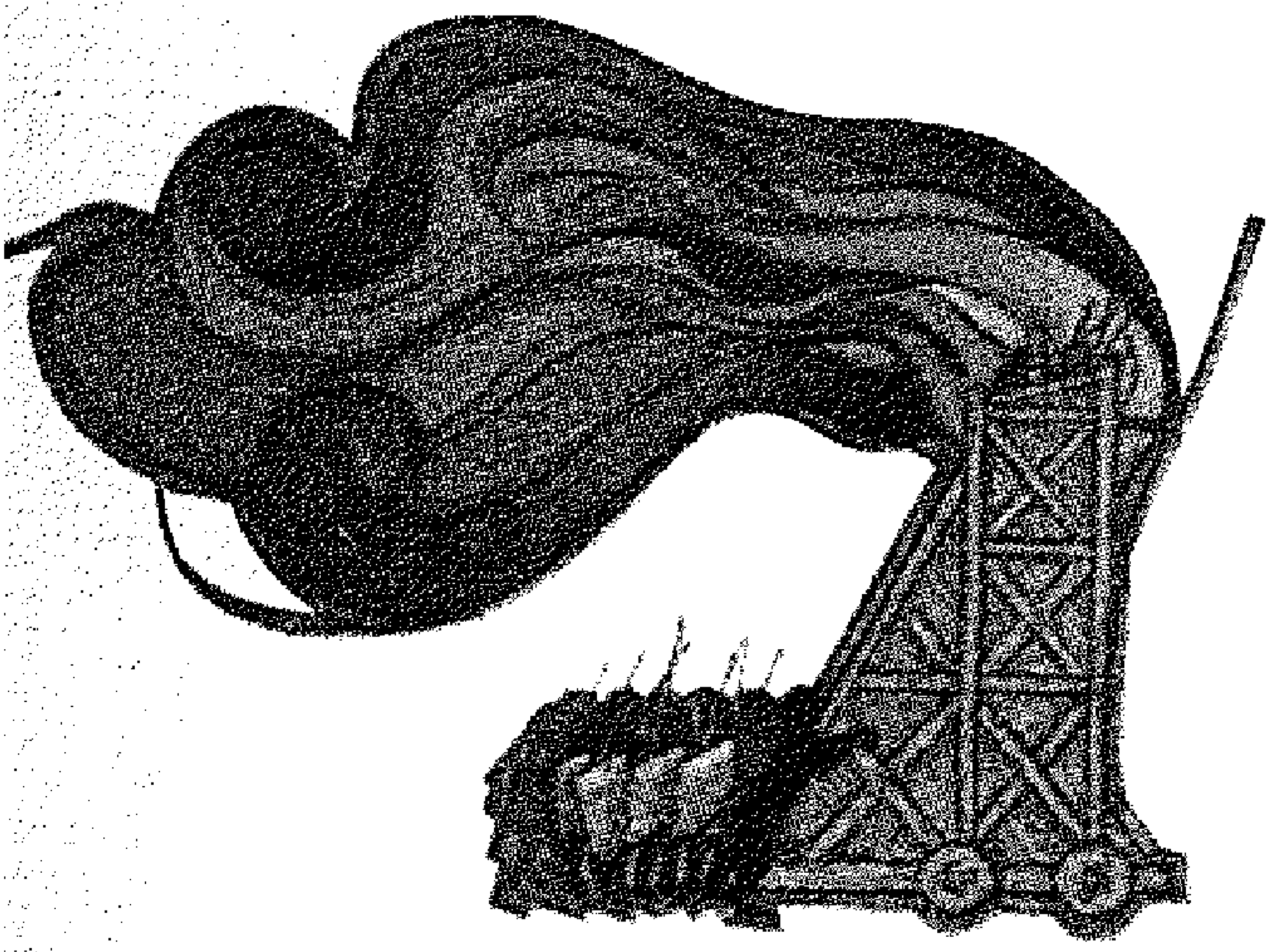
داخل اسوار القسطنطينية، ٦ ابريل (نيسان) - بدأت المدافع التركية هجومها هذا الصباح. ولما كان هدف السلطان الرئيسي الواضح مهاجمة منطقة بوابة القديس رومانوس، فقد نقل الامبراطور مقره الرئيسي الى هذه البقعة وجعل على مقربة منه مقرّ رئيس اركانه جوستينياني. وكان اكبر المدافع التركية لا يطلق سوى سبع قذائف او ثماني في اليوم الواحد. غير ان كل كلة صوان تزن ٥٥٠ كيلوغراماً كانت تهدم كتلا ضخمة من بناء الجدران الذي ضعف مع تقادم العهد. وكان الجند الاتراك تحت حماية هذه النيران يجلبون المواد لردم الخندق المائي والعبور فوقه. ولم يكن لدى المدافعين سوى مدافع صغيرة وكميات قليلة من البارود لمقاومة الهجوم.

مقرّ القيادة التركية، ٧ ابريل (نيسان) - امر السلطان، الذي استاء الى حدّ من مدفعيته، بوقف

الهجمات ريثما يتم احضار المزيد من المدافع. وقد تمكن المدافعون من رأب الجدران المهدمة بسرعة مذهلة، مستخدمين الاشجار والصناديق وبراميل التراب. وكانوا احياناً يعلقون فوقها رزماً من الصوف او القطن للتخفيف من اثر ارتطام الكلل المدفعية. وفي هذه الاثناء احتل السلطان قلعتين مسيحيتين صغيرتين خارج المدينة. وتمكنت مدافعه من هدم جدرانهما بسهولة وقتل جميع المدافعين عنها في الداخل، باستثناء ٧٦ شخصاً علقوا على الخوازيق تحت اسوار المدينة ليدرك المسيحيون اي مصير ينتظرهم.

داخل اسوار القسطنطينية، ١٩ ابريل (نيسان) - شهدت الايام الاخيرة هجوماً لا يتوقف ودفاعاً لا ينقطع ودماً يُراق باستمرار. لقد قاتل الاتراك بضراوة. (وكان السلطان يدفع بالحرس خلف صفوف المقاتلين، فاذا احجم احد المقاتلين عن الهجوم قتله الحرس). وسقط كثيرون منهم وهم يقاتلون ببسالة. وكلما مات جندي منهم، كان في امكان السلطان ان يعوض عنه بعشرة آخرين، لا بل بمئة. في حين انه اذا سقط جندي مسيحي مدرّب، فلا بديل له اطلاقاً. وتمكن الاتراك من ملء الخندق في اماكن عدة، ثم اقتحموا الجدار الخلفي المنخفض الذي فتحت فيه المدافع فجوة طولها ٤٥٠ متراً. لكن الجنود المدافعين امطروهم بوابل من النشاشيب والرماح الخفيفة التي تطلق من الاقواس وبرصاص في حجم الجوز وبسيل من النار اليونانية المروعة. وجند كلّ مسيحي غير مقاتل لنقل الاقفاص والصناديق والواح الخشب والبراميل المملوءة تراباً لسدّ فجوات خط الدفاع المتداعي.

القيادة التركية، ٢٠ ابريل (نيسان) - دهش خفر السواحل الاتراك من رؤية اربع سفن شراعية مسيحية كبيرة تندفع مع الرياح القوية هذا الصباح في اتجاه المدينة.



وفجأة خمدت الريح، مما اضطر السفن الى التوقف في مكانها دونما حراك. فطوّقتها على الفور نحو مئة سفينة تركية اصغر منها حجماً، وكأنها سرب من الثعالب يدهم قطيعاً صغيراً من الفيلة. الا ان الريح هبت بقوة مرة أخرى في اللحظة الاخيرة، فتمكنت السفن المسيحية من مراوغة مهاجميها والابحار بأمان الى القرن الذهبي. وعلى اثر ذلك، أمر السلطان بجلد امير البحر التركي بقضيب من ذهب.

داخل اسوار القسطنطينية، ٢١ ابريل (نيسان) - تفقدّ الامبراطور هذا اليوم السفن التي حملت اليه المواد الغذائية الاساسية ومزيداً من

الجنود الذين كان يعول على مجيئهم. وشكر الامبراطور ربابنة السفن، واستفسر بقلق عما اذا كانت هناك امدادات اخرى في طريقها من الغرب. الا ان اخبارهم لم تبشر بالخير: لقد دفع البابا من صندوقه الخاص الجزء الاكبر من اكلاف عشر سفن، لكنه وضعهاتحت امرة ملك نابولي الاسباني الاصل، فغدر الملك بالامانة وابحر بها الى مكان آخر، اذ كان يطمح الى ان يصبح هو نفسه امبراطور القسطنطينية. أما أهالي البندقية فقد تشدقوا بالحديث عن ارسال العون، الا ان كلامهم لم يتجاوز الاقوال. ولم يكن احد يعلم ما اذا كان الاسطول المرتقب سيبحر ام لا.

القيادة التركية، ٢٢ ابريل (نيسان) - تمكن السلطان من وضع ٧٠ سفينة حربية صغيرة داخل القرن الذهبي. فبعد شنه هجومين بحريين على القرن الذهبي واخفاقهما في كسر طوق السلاسل الطافية فوق الماء، امر السلطان بنقل سفنه براً على حاملات ذات دواليب جرتها الثيران مسافة ١٥ كيلومتراً فوق طريق رصفت بالالواح الخشبية على هضبة يبلغ ارتفاعها ٧٥ متراً. وانزلت السفن هذا اليوم الى الميناء الاعلى من القرن الذهبي وسط مياه ضحلة يتعذر على السفن المسيحية الكبيرة عبورها من اجل شن هجوم. وعزز السلطان سفنه بعدد من المدافع الثقيلة. وهو ويكاد يطير فرحاً اذ اصبح في امكانه مهاجمة المدينة من ناحيتين في آن واحد. وقد كانت وسائل الدفاع عن القرن الذهبي على

الدوام اضعف كثيراً منها في الخطوط الدفاعية الاخرى.

داخل اسوار القسطنطينية، ٤ مايو (ايار) - حاول المجلس الامبراطوري اقناع الامبراطور قسطنطين بالتسلل ليلا الى اوروبا، لان حضوره الشخصي هناك هو وحده الذي سيضمن تقديم المساعدات. غير ان الامبراطور شكر لهم مشورتهم وقال: "كلنا يعلم ما سيحدث قريباً. كيف استطيع التخلي عن كنائس الله - وكهنته، وعن هذا العرش وعن شعبي؟ كلا، كلا، لن اترك هذا المكان. اني مصمم على الموت هنا معكم". وغصت اعين مستمعيه بالدموع، ولم يتفوه احد منهم بكلمة.

بدأت المدافع التركية تطلق قذائفها بمعدل قذيفة في الدقيقة طوال ساعات الليل والنهار. ولم تتوقف الكنائس عن قرع نواقيس الخطر لصدّ هجمات متكررة ورأب فجوات جديدة. وتناقصت كميات الطعام وقامت سوق سوداء لتفي بحاجات الموسرين.

القيادة التركية، ١٩ مايو (ايار) - أقامت قوات السلطان قبل ليلتين برجاً خشبياً ضخماً فوق دواليب، فيه كوى مستطيلة يحتمي الرماة خلفها ومنصات ناتئة يثب الجنود منها الى الجدران. وجُرّ البرج على دواليبه يوم امس الى بوابة القديس رومانوس التي انهار معظمها بفعل نيران المدافع. لكنّ الليل جاء، فأمر السلطان بوقف الهجوم. وتحت ستار من الظلمة، شنّ المسيحيون هجوماً خاطفاً على البرج فأحرقوه، واقبلوا على البوابه فرمموا معظمها وعندما شاهدها السلطان صباحاً دهش من امرها وصاح: "والله لو جاءني ٣٧ الف شاهد واخبروني عن هذا الامر لما صدقت ان في امكان المسيحيين ان ينجزوا ما انجزوه في مثل هذه السرعة".

القيادة التركية، ٢٠ مايو (ايار) - حاول السلطان شنّ الهجمات على المدينة بشتى الاساليب، ومنها هجومان رئيسيان في اليومين السابع والثاني عشر من شهر مايو (ايار) الجاري. وفي الهجوم الاول لقي حامل اللواء التركي مصرعه على حدّ سيف جندي مسيحي شقّ جسمه نصفين فسقطت راية الحرب المقدسة ارضاً، وفي ذلك نذير شؤم. والانكى من ذلك تواتر التقارير عن وصول اساطيل كبرى من الغرب لنجدة المدينة. الا ان السلطان عقد العزم على شنّ هجوم اخير للاستيلاء على المدينة، فاستدعى منجمه المفضل ليختار اليوم الانسب لذلك الهجوم الاخير. فقال المنجم بعد اجراء عدد من الاحصاءات الغامضة ان النجوم تشير بالنصر يوم الثلثاء الواقع فيه التاسع والعشرون من هذا الشهر. واعلن السلطان انه سيشن هجومه الاخير في هذا التاريخ، فان اخفق رفع الحصار عن المدينة نهائياً.

داخل اسوار القسطنطينية، ٢٣ مايو (ايار) - رمى احد الجواسيس - او ربما كان الرامي صديقاً مسيحياً في القوات التركية - سهماً فوق اسوار المدينة ربط به رسالة مقتضبة تقول: "السلطان يشنّ هجومه يوم الثلثاء في التاسع والعشرين من شهر مايو

(ايار)". وفي وقت لاحق من هذا اليوم عادت السفينة الكشافة التي انسلت الى عرض البحر قبل عشرين يوماً، للتحقق من وصول اسطول النجدة من البندقية. لكن السفينة لم تقع على أثر للاسطول.

داخل الاسوار، ٢٧ مايو (ايار) - في محاولة لاحداث البلبلة في صفوف الاتراك الذين بدأوا يحشدون القوات ويكدسون التعزيزات استعداداً للهجوم الكبير، شن نفر قليل من المسيحيين هجوماً صاعقاً من قطاع غير متوقع. فقد تذكر بعض المتقدمين في السن وجود بوابة خلفية صغيرة غير مستعملة ومقفلة باحكام منذ بضع سنوات، اسمها "بوابة المدرج"، ففتحها هؤلاء الجنود المسيحيون عنوة واندفعوا خارجها في هجوم تخريبي، ثم قفلوا راجعين بسرعة خاطفة.

القيادة التركية، ٢٨ مايو (ايار) - هذا يوم الراحة والكفارة بالنسبة الى قوات السلطان. انه يوم الصلوات والوضوء او الغسل سبع مرات مفروضة. وهو يوم الدراويش والائمة الذين يحضون الرجال على القتال ويذكرونهم بالجنة: فمن سقط في مقاتلة الكُفار وعلى شفتيه اسم الله، فله الجنة يدخلها على الفور آمناً مطمئناً.

وامتطى السلطان صهوة جواده العربي الابيض، وجال بين الجند معتمراً عمامة بيضاء ذات عقدة ارجوانية كبيرة. واكدّ لجنوده ان الاستيلاء على القسطنطينية بات امراً مفروغاً منه. ووعدهم بمضاعفة اجورهم وأباح لهم نهب المدينة وسلبها ثلاثة ايام كاملة، وحذرهم بشدة قائلا: "ولكن لا تخربوا المباني او اي نصب تذكاري لان المدينة ملكي، وسأجعل من التفاحة القرمزية عاصمة لي!".

داخل الاسوار، ٢٨ مايو (ايار) - غصت الشوارع بآلاف الناس في مسيرات طويلة، حاملين الايقونات والصلبان وهم ينشدون التراتيم ويرتلون "كيرياليسون" (يا رب ارحم"!). وتجمعت المسيرات كلها في كنيسة آيا صوفيا الرائعة حيث عكست آلاف المصابيح والشموع اضواءها على الفسيفساء الذهبية التي تصور السيد المسيح وامه وعشرات القديسين وسلسلة طويلة من الاباطرة والامبراطورات السالفين. وفي قتام الكنيسة العابقة بأريج البخور، قام المصلون بشعائر الدين الاخيرة، فاعترفوا للكهنة بخطاياهم وتناولوا القربان المقدس، ولم يكترثوا هذه المرة ما اذا كان الكاهن كاثوليكياً لاتينياً او ارثوذكسياً شرقياً. فالكل يعلم ان الليلة هي عشية المعركة الكبرى وان كلّ الخطايا مغفورة.

وأشار الناس بخوف الى ضوء بدا متوهجاً فوق قبة آيا صوفيا الصقلية: لربما كان انعكاساً للنار المضرمة في معسكرات الاتراك، او قبساً من نور القمر، او وهجاً لاحد القديسين. لكن المصلين توجسوا فيه نذير شؤم، فصرخوا: "ان الله تخلى عن المدينة!" وصعق الامبراطور لمرأى القبة، وترنح في خطواته وكاد يسقط مغمياً عليه، فأحضر ماء الورد لانعاشه. ثم توجه الى قصره وودّع

افراد اسرته وحاشيته وطلب اليهم الصفح عن اي اساءة بدرت منه. وعند انتصاف الليل سار الامبراطور في الشوارع بصحبة رفيق واحد هو اقرب الاصدقاء اليه وكبير رجال بلاطه، وتوجها الى كنيسة آيا صوفيا للاعتراف بخطاياهما وتناول القربان للمرة الاخيرة. ثم امتطيا جواديهما واتجها معاً نحو الاسوار عند بوابة القديس رومانوس التي لا بدّ من ان تدور رحى المعركة حولها. فتعانقا عناقاً حاراً ثم توجه كلّ منهما الى موقعه.

القيادة التركية، ٢٩ مايو (ايار) - انفجر العالم فجر هذا اليوم بآلاف الطبول تستحث الهمم والعزائم للقتال. وملأت الابواق الفضية الجوّ دوياً ودندنت الصنوج. وامر السلطان شراذم قوات الباشبوزوق ان يهاجموا المدينة، وان لم يكن يتوقع منهم تحقيق اي انجاز مهم. لكنه كان في غنى عنهم واراد بواسطتهم بلبلة المدافعين عن المدينة وانهاكهم على الاقلّ. فتدافع الباشبوزوق بثيابهم الرثة الى الجدران افواجاً افواجاً بصياح وصراخ عظيمين، حتى ان كلّ ضربة وقذيفة وجهها المسيحيون اصابت هدفاً لها. واندلعت نار الاغريق المخيفة فوق الجدران، فقتلت المهاجمين واحرقت معدات خشبية كثيرة، وكذلك العيدان والحطب التي ملأت الخندق. وبلغت الحرارة درجة لا تطاق. وبعد ساعتين من هجوم مخفق تراجعت قوة الباشبوزوق.

وفي الساعة الثامنة صباحاً، امر السلطان جنوده النظاميين بدخول المعركة. وكانت احدى الكتل المدفعية قد اصابت مصادفةمكاناً ضعيفاً من الجدران الدفاعية ودمرت جزءاً كبيراً منه. فدفع الاتراك بمئات الجنود اليه. الا ان المدافعين تصدوا لهم فقتلوا العديد منهم وردّوا الباقين على اعقابهم. وفي أماكن اخرى كان الاتراك يحتمون بالدروع فوق رؤوسهم ليمنعوا عنهم الحجار الضخمة التي قذفتها راجمات المسيحيين ووابلا مستمراً ومسدداً من الحجار الصغيرة والرصاص والنشاشيب. وقد تمكن بعض الجنود من اسناد السلالم على الجدران. وأخذت زمر، قوام، كلّ منها عشرون جندياً، تتسلق تلك السلالم. لكن المدافعين اسقطوهم بعدما غرسوا النشاشيب غرساً في اجسامهم، وبعد مرور ساعتين لم تحرز هذه القوات النظامية اي تقدم، فأمرها السلطان القلق بالتراجع.

وقبيل الساعة العاشرة صباحاً قرر السلطان ان يرمي بآخر سهم في جعبته، الا وهو قوة الانكشاريين المخيفة.

تقدم هؤلاء الجنود الاشداء البارعون الذين لم ينهزموا اطلاقاً في اي معركة بخطى ثابتة نحو اسوار المدينة، غير عابئين بنيران المدافعين. وكانوا كلما سقط منهم جندي احتل مكانه جندي آخر على الفور. وقد وعدهم السلطان بأن يجعل اول واحد منهم يعتلي الاسوار حاكماً لاجمل اقليم في امبراطوريته. وقاد احد عمالقة الانكشاريين، واسمه حسن، ثلاثين من رفقائه فوق احد الابراج المحطمة، لكن ١٨ منهم

سقطوا. الا ان الاثني عشر الباقين صمدوا وراء قائدهم. وصاح الاتراك صيحة النصر لما رأوا حسناً واقفاً منتصب القامة فوق السور ليفوز بجائزة السلطان. لكن المسيحيين قذفوه وراء السور وقتلوه بوابل من الحجار والنشاشيب.

داخل الاسوار، ٢٨ مايو (ايار) – بدأ المدافعون عند الظهيرة يترنحون من شدة الانهاك، اذ انهم قاتلوا خمس ساعات دامية دونما توقف. وفجأة دوت صرخة الانذار بينهم عندما شاهدوا راية النبي الخضراء ترفرف على برج فوق بوابة المدرج المهملة. فقد اكتشف خمسون انكشارياً امر البوابة ووجدوا انها لم تكن مغلقة باحكام، فانسلوا داخلها وتسلقوا برجها ورفعوا العلم فوقه. فانطلق المدافعون اليهم وقتلوهم. ثم علت بين المسيحيين صرخة ذعر: ان جوستينياني العظيم، القائد الباسل الذي حافظ حتى الان على رباطة الجأش وهدوء الاعصاب اصيب بجرح مميت من قذيفة تركية. فانهارت عزيمته وطالب بنقله الى احدى سفن جنوى للعلاج. وهرع اليه الامبراطور متوسلا بقاءه في مكانه، مؤكداً له ان تخليه عن موقعه على مرأى من الجميع سيقوض الدفاع بأسره. لكن جوستينياني هزّ رأسه رافضاً، وتم نقله الى السفينة. وانتشرت الكلمة كالنار في الهشيم: لقد استعفى جوستينياني العظيم... ان كلّ شيء ضاع الآن. وهكذا انهار دفاع المسيحيين.

القيادة التركية - لاحظ السلطان الذي قاد قواته الانكشارية الى حافة الخندق للتو حدوث البلبلة في صفوف المدافعين فوق السور، فصاح: "ان المدينة لنا"· وأمر القوات اجمعها بالهجوم من جميع النقاط· فلم يلقوا الا مقاومة ضئيلة· وتسلقت حشود غفيرة منهم الجدران وفتحت بوابات الاسوار· وفي غضون ١٥ دقيقة كان ما لا يقل عن ٣٠ الف تركي داخل المدينة·

بقي قسطنطين مع عدد قليل جداً من الجنود يحرسون بوابة القديس رومانوس· ولكن عندما شاهد الاتراك يندفعون داخل مدينته، ادرك ان كلّ شيء قد انتهى· وكان يعلم ان السلطان وعد بجائزة ثمينة لمن يأتي به حياً او ميتاً، والافضل ان يؤتى به حياً كي يكون هزأة بين الناس في ارجاء امبراطورية السلطان· لهذا خلع الامبراطور زخارفه الملكية، ثم اقتحم غمار اشدّ المعارك الدائرة حوله كثافة سعياً الى مقتلة في ساحة الحرب تليق بالاباطرة·

آيا صوفيا - هرع الآف المسيحيين هاربين أمام صيحات الجنود الاتراك المنتشين بحمى النصر الى هذا المكان المقدس· وتسمرت عيون كثيرين منهم على عمود المرمر الطويل المنتصب في ساحة كنيسة آيا صوفيا الخارجية· وكانت نبوءة قديمة تقول ان الاعداء، اذا اخترقوا المدينة حتى هذه النقطة، فسيهبط ملاك على العمود وفي يده سيف سحري يصدّ به الاعداء· الا ان الملاك لم يهبط·

وتدافع الناس داخل الكنيسة واقفلوا ابوابها الضخمة· لكن الاتراك حطموا الابواب بالفؤوس واقتحموا الكنيسة في دقائق ليستولوا على السبايا والغنائم· وكانت حمىّ سفك الدماء قد فترت· وبدأ الجنود يدركون ان السبي خير من القتل، اذ يمكن بيع الرق او الحصول على فدية لهم· وبدأوا بتجميع أغنى الضحايا البشرية من الاعيان والكهنة والراهبات والنسوة الثريات المختبئات اللائي يرتدين البرقع باستمرار،واستولوا على الصلبان المرصعة بالجواهر، والكؤوس المسكوبة من الذهب الخالص والاردية الكهنوتية الثمينة، ثم حطموا جميع هياكل الكنيسة العظمى·

أماكن أخرى من المدينة - كان لصيحات الخوف ولأنات الجرحى المشرفين على الموت اصداء تتردد في ارجاء القسطنطينية الدامية· والاتراك يهاجمون كل بيت ودير وكنيسة، يغتصبون النساء بالآلاف ثم يقتلونهن او يأخذونهن سبايا· وخشي البحارة في الاسطول التركي ان يستأثر الجنود بالغنائم كلها، فهجروا سفنهم واقتحموا المدينة طالبين نصيبهم منها وتركوا الميناء بلا حراسة، فابحرت السفن المسيحية بأمان مثقلة بالفارين·

وعند العصر دخل السلطان في موكب رسمي المدينة التي قاومته ٥٣ يوماً دامياً· فهتف الجنود له هتافاً طغى على هدير الطبول والابواق والصنوج· وترجل عند بلوغه آيا صوفيا ودخلها· وبينما هو يسير في اتجاه الهيكل ابصر جندياً تركياً

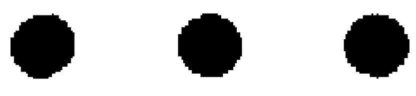
يحاول خلع بلاطة من المرمر الثمين، فضربه ضربة مؤلمة بالطرف غير الحاد من سيفه المعقوف قائلا: "الم آمرك بسلب الغنائم وترك المباني بلا ضرر؟ ان هذه المدينة لي!".

وأجال السلطان نظره بفخر في هذه الكنيسة التي تعدّ اعظم كنيسة في العالم، وامر بتحويلها الى جامع اسلاميّ واضافة المنارات اليها وتعليق الستائر فوق الايقونات الفسيفسائية لان الدين الاسلامي يحرم التصوير البشري.

وركب السلطان جواده واتجه ببطء نحو القصر الملكي المهجور الذي كان آخر مقرّ لآخر امبراطور روماني. وبينما كان يتجول في قاعات القصر المهدمة، تمتم بأبيات من قصيدة فارسية عن المجد الداثر: "في القصر الملكي نسج العنكبوت بيته، وعلى ابراج افراسيا نعق البوم". والحّ السلطان بالسؤال عما اذا كان الجنود عثروا على الامبراطور. وجاءه جنديان برأس مقطوع، قال بعض اليونانيين انه رأس سيدهم. لكن عدداً آخر كبيراً شكك في هويته. ووقع آخرون على جثة. بلا رأس، وعلى قدميها حذاء الامبراطور الارجواني. لكن التعريف لم يكن جازماً ايضاً.

وفي الخارج كان الآف من الجنود المنتصرين يحيون السلطان ويهتفون بحياته لما غنموه من ذهب وفضة وسبايا واسرى موثوقين بالحبال. ودوت هتافاتهم لهذا الرجل ذي الارادة الحديدية الذي اتاح لهم هذه المكاسب. وكان السلطان حتى تلك الساعة يحمل القاباً تقليدية: السلطان محمد الثاني، الامبراطور التركي، سيد البحار الثلاثة، شقيق الشمس، ظلّ الكون، امير المؤمنين، نائب النبي على الارض.

أما الآن فقد خلعوا عليه لقباً سيتميز به ابد الدهر: محمد الفاتح!



القسطنطينة الآن هي مدينة اسطنبول. الا ان ذكرى الحصار العظيم ما زالت عالقة في الاذهان. لقد استبدل اسم بوابة القديس رومانوس القديمة باسم "توبكابي"، اي بوابة المدفع. وعلى مقربة منها برج يدعى "برج حسن" تكريما للانكشاري العملاق الذي كان اول من اعتلى اسوار المسيحيين. وفي التاسع والعشرين من مايو (ايار). من كل عام يحتفل الاتراك بذكرى فتح المدينة بالخطب الوطنية والموسيقى العسكرية واطلاق المدافع.

وقد خلفت المعركة القديمة ايضاً عداء مستفحلا بين اليونانيين والاتراك. ولأكثر من خمسة قرون ظلت شعلة عدائهم المبطن تلتهب احياناً فتنفجر في اعمال عنف متفرقة، كان آخرها ماوقع في جزيرة قبرص قبل خمسة اعوام.

وتعدّ اسطنبول اليوم اقصى حصن شرقي لاوروبا وابعد قاعدة امامية ضد اي هجوم من الشرق، تماماً كما كانت القسطنطينية قبل اكثر من ٥٠٠ سنة. ووضعها الآن مضعضع كما كان في السابق بسبب الانقسامات العميقة في الغرب. وتلك لعمري تركة ورثتها المدينة عن ذلك اليوم الدموي... يوم الثلثاء من عام ١٤٥٣.

■ غوردون غاسكل

كتاب الشهر

الممرّ السرّي الى بكين



ملخّص من كتاب
"سنواتي في البيت الأبيض..."
بقلم هنري كيسينجر

الممر السري الى بكين

بعد فترة وجيزة من انتخاب ريتشارد نيكسون رئيسا للولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٦٨ • عين هنري كيسينجر مستشارا للرئيس لشؤون الامن القومي • كان كيسينجر نفسه اكثر الناس دهشة وهو يقول معلقا على ذلك: "لقد قضيت عشر سنين مدرسا في جامعة هارفرد حيث الاستهانة بريتشارد نيكسون هي القاعدة المشتركة بين اعضاء هيئة التدريس • وكان ابعد الناس اثرا في حياتي رجل هزمه نيكسون مرتين في السباق على الترشيح للرئاسة هو نلسون روكفلر" • وفضلا عن ذلك، فان خبرة كيسينجر في العمل الحكومي لم تتجاوز مهمتين استشاريتين قصيرتي الامد اسندتا اليه في اثناء رئاسة دوايت ايزنهاور ورئاسة جون كينيدي • وعلى رغم ذلك قدر لآرائه ان تكون خلال سنوات قليلة عاملا حاسما في صياغة سياسة خارجية امريكية جديدة • لم يثق نيكسون بوكالة المخابرات المركزية (السي - آي - اي) ولا بوزارة الخارجية، فعمل على ان يصبح البيت الابيض (مقر الرئاسة) تدريجا مصدر القرارات في مجال السياسة الخارجية، ومن ثم صارت المسؤولية المطلقة عن هذه القرارات تقع على عاتق الرئيس وعاتق هنري كيسينجر • انتهز كيسينجر هذه الفرصة الفريدة ليوجه الاحداث في العالم • وبرزت ذروة جهوده في الخطوات السرية الدقيقة التي فتحت الطريق امام سياسة الانفتاح على الصين الشعبية • وفي ما يأتي مقتطفات من مذكراته التي طال انتظارها: "سنواتي في البيت الابيض"، تحكي قصة ذلك الانجاز الضخم ويرويها الرجل الذي تولى تخطيطه وتنفيذه •

CONDENSED FROM SMITHSONIAN (NOVEMBER 77) COPYRIGHT 1977 BY SMITHSONIAN INSTITUTION WASHINGTON D.C.

عندما انتهينا من صياغة البيان حول زيارتي السرية للصين في يوليو (تموز) ١٩٧١، علق رئيس الوزراء الصيني شو ان لاي، على ذلك بقوله ان الاعلان عن الزيارة سيهز العالم. وهو كان على حق. فلم يعتبر البيان حدثا مثيرا لاجهزة الاعلام فحسب، بل هو غيّر بنية السياسة العالمية. فبعد عشرين عاما من العزلة خطا مبعوث امريكي على أرض الصين الغامضة ممهدا الطريق لزيارة رئيسه.

كان الامر مفاجئا ومثيرا للدهشة، لكنه جاء ذروة جهد ٣٠ شهرا من الاعداد الصبور المتأني.

لم يسبق لنا أن تصورنا الوفاق ممكنا، بل كنا مقتنعين بأن الصينيين أهل تعصب وعداء. الا اننا على رغم عدم استطاعتنا في البداية رؤية وسيلة للتفاهم مع الصينيين فان الايمان بأهمية الانفتاح على الصين الشعبية كان رسخ في نفس الرئيس نيكسون وفي نفسي انا كذلك.

وقد ساعدتنا الاحداث، لكني أشك في امكان تحقيق تقارب الى هذا الحد مع الصين في ظل أي رئيس آخر. لقد تميز نيكسون بغريزة فريدة تدفعه الى تحديد ما هو جوهري وحيوي والى التمسك به. لم تهمه الوسائل أو دقائق الامور بل كان النقاش حول تفاصيل التنفيذ يزعجه بالفعل. واذا اتخذ قرارا سياسيا فغالبا ما كان يترك لي أمر تنفيذ الاستراتيجية. بيد ان تصميمي كثيرا من الخطوات التي اتخذت، لم يمنحني القوة السياسية الكافية كي أتابع بمفردي هذا التغيير الجذري في سياسة البلاد.

تفهم نيكسون بعمق جوهر تلك الفرصة المتاحة وبذل جهده بصبر ومثابرة من أجل تحقيقها. ونظرا الى استناد قاعدته السياسية الى اليمين، فقد حماه ذلك من تهمة "التساهل مع الشيوعية". وكان أسلوبه في الادارة والحكم ملائما للتكتيكات السرية التي استوجبتها تلك السياسة.

والحق ان جميع الافكار حول التقارب بيننا وبين الصين - أيا تكن مبرراتها - لم تتعد، عندما تسلمت الحكومة الجديدة الحكم، كونها نظريات غامضة. لقد انقضى عشرون عاما كاملا من العزلة الفعلية والحرب العقائدية بين البلدين، شهدت عليها حرب كوريا المريرة حيث استعر القتال العنيف بين الامريكيين والصينيين. وجرت بين البلدين محادثات ثنائية بدأت في جنيف عام ١٩٥٤ بين موظفين قنصليين من الولايات المتحدة ومن جمهورية الصين الشعبية، ثم رفعت الى مستوى السفراء عام ١٩٥٥ ونقل مقرها الى فرصوفيا (وارسو) عاصمة بولونيا. وفي ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٥، تم التوصل الى اتفاق لتبادل الاسرى كان الانجاز الوحيد في ١٣٤ اجتماعا عقدت بين عام ١٩٥٤ وعام ١٩٦٨. كان اتفاق اعادة المواطنين الى بلادهم هو الانجاز الملموس الوحيد الذي تحقق.

ظهرت أول بارقة أمل في أعقاب أحداث ٢١ أغسطس (آب) ١٩٦٨، وأعني بها الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا. فخلال الاحداث العنيفة التي جرت عام ١٩٥٦ في بولونيا والمجر، حاول الصينيون

الالتزام بدور الوسيط، لكن موقفهم هذه المرة كان ادانة صريحة قاسية الالفاظ للاتحاد السوفييتي. وفي ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٨، بعد ثلاثة اشهر من الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا، وبعد الانتخابات الامريكية مباشرة، اقترحت بكين عقد اجتماع آخر في فرصوفيا في ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٦٩.

لم يكن هناك مجال للشك في أن الاتحاد السوفييتي بدأ يشكل المصدر الرئيسي للقلق من وجهة نظر السياسة الخارجية الصينية. فقد ساد مناطق الحدود الصينية - السوفييتية نوع من التوازن العسكري ظل قائما حتى اوائل ١٩٦٦ عندما بدأ السوفييت ينقلون الى هذه المناطق وحدات ميدانية على مستوى عال من التدريب والمعدات، سحبوها من أوروبا الشرقية. وظهرت بين الاسلحة السوفييتية صواريخ أرض - أرض ذات رؤوس نووية، وتزايد عدد الفرق السوفييتية على طول الحدود الصينية من نحو ١٢ فرقة غير متكاملة عام ١٩٦٤ الى ما يزيد على ٤٠ فرقة حديثة التجهيز عام ١٩٧٠.

تبدو جميع السياسات الناجحة بعد تنفيذها كأنها كانت أمرا مقدرا. ويحلو للقادة والزعماء أن يدّعوا استباق الاحداث وسلامة تقديرهم للاعمال الناجحة، وأن يسندوا الى التخطيط كل الفضل في أمور تبدأ مرتجلة. لم يختلف الامر في السياسة الجديدة مع الصين، فقد كانت لدى الحكومة الامريكية الجديدة نية لفتح صفحة جديدة، لكنها لم تملك اي فكرة محددة عن طريقة التوصل الى ذلك. وكان عليها أن تضع في حسابها حقائق الاوضاع الداخلية في البلاد، ومن أهمها نشاط تلك الجماعة من مؤيدي نيكسون التي تنتمي الى "اللوبي الصيني" المحافظ الذي لم يغفر أبدا للرئيس ترومان ولوزير الخارجية دين أتشيسون ما سماه خيانتهما لتشانغ كاي - تشيك.

وربما واجهت الزعماء الصينيين في بكين مشكلة مماثلة، اذ كان ماو تسي - تونغ يحكم بلدا لم يكد يخرج من خضم الثورة الثقافية، وقد سعى من خلال هذه الاضطرابات العنيفة (الثورة الثقافية) الى القضاء في المهد على ما يبدو اتجاها حتميا في الدول الشيوعية نحو الوقوع في فخ البيروقراطية والركود، وكان اسلوبه في ذلك فرض فوران ثوري دائم. ولا شك في أن ذلك أحد الامثال النادرة في التاريخ حيث يعمد رئيس دولة الى هدم المؤسسات والنظم التي أقامها هو.

حفلت الاشهر الاولى من رئاسة نيكسون بالاتجاهات المتناقضة. فقد وردت في خطابه الاول بعد توليه الرئاسة اشارة مبطنة الى استعداد الحكومة الجديدة للتباحث مع الصين، لكنه لم يلبث بعد خمسة أيام أن أرسل الي والى وزير الخارجية وليم روجرز رسالة يشكو فيها من أن سفيرنا في احدى الدول الاوروبية فشل في منع تلك الدولة من اعلان اعترافها بحكومة بكين. وقال نيكسون في رسالته ان ذلك السفير "كارثة" يجب التخلص منه فورا.

في أواخر يناير (كانون الثاني) طلب القائم بالاعمال الصيني في

هولندا اللجوء السياسي الى الولايات المتحدة، ولم يلبث الصينيون ان الغوا في ١٨ فبراير (شباط) اجتماع فرصوفيا الذي كان مقررا عقده في العشرين من ذلك الشهر متذرعين في ذلك بأن الولايات المتحدة "حرّضت" القائم بالاعمال على "خيانة وطنه". ولم يشأ نيكسون أن يهزمه الصينيون في هذا المضمار، فما كان منه في مؤتمره الصحافي في ٤ مارس (اذار) الا أن سكب ماء باردا على احتمالات التقارب بين الصين وأمريكا.

بدت العلاقات الصينية - الامريكية في مارس (اذار) ١٩٦٩ وقد تجمدت عند الموقف نفسه الذي ظلت تتميز به طوال عشرين عاما، وهو موقف العداء الناجم عن فقدان التفاهم والثقة بين الطرفين. كانت لدى الحكومة الامريكية الجديدة نية في التقارب مع الصين، لكنها لم تضع بعد استراتيجية لتحقيق ذلك.

ومعلوم ان السياسة تبرز الى الوجود عندما تلتقي الفكرة بالفرصة، وقد سنحت هذه الفرصة عندما اشتبك الجنود السوفييت والجنود الصينيون في سهوب سيبيريا المتجمدة على امتداد نهر لم يسبق لاحدنا ان سمع به. منذ تلك اللحظة تلاشى الغموض والتأرجح، ومضينا من دون تردد نحو احداث تغيير حاسم في السياسة العالمية.

المؤشرات الاولى

في الاصقاع النائية شمال شرق آسيا قطعة من الحدود السوفييتية - الصينية التي تمتد مسافة ٧٠٠٠ كيلومتر تقريبا هي نهر اوسوري. وفي نقطة منعزلة من مجرى النهر تبعد نحو ٤٠٠ كيلومتر عن مدينة فلاديفوستوك جزيرة صغيرة يسميها السوفييت دامانسكي ويسميها الصينيون تشينباو.

صباح ٢ مارس (اذار) ١٩٦٩، استنادا الى رواية المصادر الصحافية السوفييتية، اقدم ٣٠٠ جندي صيني على اعداد مكمن لدورية سوفييتية من حرس الحدود، فقتلوا ٢٣ من افرادها وجرحوا ١٤ في معركة استمرت ٢٠ دقيقة.

كنا في واشنطن منشغلين بمشكلة فيتنام الى درجة عاقتنا عن الاستجابة لاحداث تكاد لا نفهم لها أصلا، ولم يتضح مغزاها الا بعد اسابيع. وكان رأي نيكسون ورأيي انا ان الصين هي التي بدأت القتال على الارجح. ولكن حجة الصينيين بأن تصرفهم كان ردة فعل لسلسلة من الاعتداءات السوفييتية بدت جديرة بالتصديق، ذلك أن الضعيف لا يجازف عادة بالتعرض للهزيمة عن طريق تنفيذ هجمات لا يبررها أي استفزاز.

وشهد ١٥ مارس (اذار) اصطداما حدوديا آخر في جزيرة دامانسكي (تشينباو). وكان كلا الطرفين مستعدا هذه المرة، فارتفعت ارقام الضحايا. وفي ١٦ ابريل (نيسان) و١٧ منه وقع مزيد من القتال في نقطة أخرى تبعد ٤٠٠٠ كيلومتر الى الغرب على الحدود بين مقاطعة سينكيانغ الصينية وجمهورية كازاخستان السوفييتية. ثم حدث اصطدام آخر في المنطقة نفسها في ٢٥ ابريل (نيسان) أعقبته اشتباكات في مايو (ايار).

وعندما نظرت الى خريطة

تفصيلية، ادركت ان حوادث سينكيانغ وقعت على بعد كيلومترات قليلة من نهاية خط حديد سوفييتي في حين يبدأ اقرب خط حديد صيني على بعد مئات الكيلومترات. عندها بدا لي أن القادة العسكريين الصينيين لا يمكن أن يختاروا مثل هذا الموقع غير الملائم للهجوم. واذا كان الاتحاد السوفييتي هو المعتدي، فان امامنا مشكلة كما أن أمامنا فرصة. المشكلة هي أن غزوا سوفييتيا فعليا وشاملا للصين لا بد من أن يحدث خللا خطيرا في التوازن العالمي، لا على الصعيد الجغرافي - السياسي فحسب، بل على الصعيد النفسي ايضا، ثم أن هذا الغزو سيخلق قوة خطيرة لا تمكن مقاومتها. غير انه لم يكن من السهل مقاومة مثل هذا العدوان نيابة عن بلد ليس لنا معه اي علاقات ديبلوماسية ولا بيننا وبينه اي وسيلة اتصال فعالة على أي مستوى.

ضاعفنا جهودنا كي نقيم اتصالا مع بكين. وفي ٢٦ يونيو (حزيران) جاءتني من الرئيس نيكسون رسالة تقول بوجوب تشجيع السناتور مايك مانسفيلد على تنفيذ رغبته القديمة في زيارة الصين. ولكن الضرورة تطلبت عملا اكثر صراحة. كان الموعد قد حان لتعديل الحظر التجاري الذي فرضناه ضد الصين، وهذا التعديل ضئيل الاهمية في ذاته لكنه يحمل مغزى ضخما. ولعل المشاورات المرهقة الحافلة بالقلق التي استوجبها اتخاذ هذه الخطوة الصغيرة خير مقياس للتقدم الذي طرأ منذ ذلك الحين.

وبينما نحن نستعد لاصدار البيان الموعود وقع حادث من تلك الحوادث التافهة التي يمكنها تدمير أدق الخطط واكثرها حرصا، ففي ١٦ يوليو (تموز) غرق يخت على متنه امريكيان قرب ساحل هونغ كونغ. وحمل التيار قارب النجاة الذي ركباه الى داخل المياه الاقليمية الصينية حيث قبض عليهما. وقررنا، وكيل وزارة الخارجية اليوت رينتشاردسون وأنا، تأجيل اصدار البيان بضعة أيام حتى نرى ما اذا كان الصينيون سيتخذون من حادث اليخت ذريعة لشن حملة دعائية مضادة لامريكا. لكن الايام مرت وبكين صامتة.

وفي ٢١ يوليو (تموز ١٩٦٩)، قبيل سفر الرئيس في جولة حول العالم، اصدرت وزارة الخارجية بيانا موضوعيا هادئا يعلن تخفيف القيود المفروضة على التجارة مع جمهورية الصين الشعبية وعلى السفر اليها. ولم يشترط البيان أي اجراء مماثل من جانب الصين. وفي ٢٤ يوليو (تموز) أفرج الصينيون عن الامريكيين اللذين كانا في اليخت. لقد فهمت بكين قصدنا.

رقصة التقارب المعقدة

اعتزم نيكسون في رحلته حول العالم أن يترك بطاقات زيارة للصينيين في كل موضع يتوقف فيه. فتحدث بصراحة مع الرئيس الباكستاني يحيى خان ومع الرئيس الروماني نيقولاي تشاوشيسكو لادراكه صداقتهما للصينيين. وفي أغسطس (آب) قال نيكسون للرئيس يحيى خان في لاهور (باكستان) ان وجهة نظره الشخصية التي يشاطره

فيها سائر أعضاء حكومته وكثير من الامريكيين هي أن آسيا لا تستطيع أن "تتحرك قدماً" اذا ظلت أمة ضخمة فيها مثل الصين منفردة ومعزولة، وطلب اليه نقل مشاعره هذه الى الصينيين على أعلى المستويات. وفي واشنطن دعوت بدوري السفير الباكستاني آغا هلالي الى مقابلتي كي اضمن استمرار الباكستانيين معنا في اللعبة وأقيم خط اتصال متينا.

وفي ٨ أغسطس (آب) أنهى الاتحاد السوفييتي وجمهورية الصين الشعبية محادثاتهما التي بدأت في يونيو (حزيران) ووقعا اتفاقا في شأن تحسين الملاحة في الانهار الواقعة على الحدود. وبدلا من أن يسفر هذا الاتفاق عن تخفيض التوتر زاده حدة، فبعد ايام قليلة اندلع القتال الدامي من جديد على طول الحدود بين سينكيانغ وكازاخستان.

تكاثرت دلائل التوتر. وفي ١٨ أغسطس (آب) كان وليم ستيرمان، احد اختصاصيي الشؤون السوفييتية في وزارة الخارجية، يتناول طعام الغداء مع أحد موظفي السفارة السوفييتية، واذا بالروسي يسأله فجأة وبلا مقدمات عما يمكن أن تكون ردة فعل الولايات المتحدة الامريكية ازاء هجوم سوفييتي على المرافق النووية الصينية. بدا الامر لي على درجة كبيرة من الخطورة دفعتني الى عقد اجتماع في ٢٥ أغسطس (آب) لفريق واشنطن للعمليات الخاصة، في سان كليمنتي (منتجع الرئيس نيكسون في كاليفورنيا) حيث طلبت من الاعضاء اعداد خطط طوارىء لسياسة الولايات المتحدة في حال نشوب حرب صينية - سوفييتية. واذا وقعت هذه الكارثة، فسوف نضطر - نيكسون وأنا - الى مجابهتها من دون مساندة تذكر من سائر أعضاء الحكومة، ولا حتى من الدوائر الاخرى في البلاد، لما نراه من ضرورة استراتيجية تحتم علينا معاونة الصين.

تبين لنا في أواخر أغسطس (آب) ان السلاح الجوي السوفييتي قد وضع في حال الاستعداد التام الذي يقضي بابقاء الطائرات جميعها في اعلى درجات التأهب، وهو غالبا دليل على احتمال شن هجوم في أي وقت، ويمثل، في ادنى درجات خطورته انذارا عنيفا بحرب اعصاب قاسية. وقررنا، بناء على هذه المعلومات، أن نرفع صوتنا قليلا كي نوضح بجلاء أننا لا نقف موقف اللامبالي ازاء هذا التهديد السوفييتي للصين. وفي ٥ سبتمبر (أيلول) أدلى اليوت ريتشاردسون بالتصريح الآتي في مؤتمر عقدته الرابطة الامريكية للعلوم السياسية في نيويورك:

"في ما يتعلق بالصين الشيوعية، فان تحسن العلاقات بيننا وبينها أمر يخدم مصالحنا الوطنية. نحن لا نسعى الى استغلال اي تنافر بين الاتحاد السوفييتي وجمهورية الصين الشعبية، والخلافات الايديولوجية بين العملاقين الشيوعيين أمر لا يعنينا. غير أننا لا نملك الا أن نشعر بالقلق العميق ازاء أي تصعيد لهذا الخلاف يبلغ به مستوى الخرق الجسيم للسلام العالمي".

هكذا بدأت بيننا وبين الصينيين رقصة تقارب معقدة جرى تخطيطها بدقة بالغة تتيح لكل من الطرفين أن

يؤكد عدم وجود اتصالات مع الطرف الآخر. ورسمت خطواتها في حدود صارمة تعفي كلا من الجانبين من تحمّل عبء المبادرة، واتخذت لها مسارات غير مباشرة تكفل تجنب أي خطر يمكن أن يصيب العلاقات بين أي من الجانبين وأي طرف ثالث. وبين شهري نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٩ ويونيو (حزيران) ١٩٧٠، حصلت عشر حالات على الاقل من تبادل الحديث بين موظفين امريكيين في الخارج وزملاء لهم صينيين في مناسبات ديبلوماسية، وكان ذلك أمرا يتناقض تناقضا حادا مع السوابق المألوفة، حيث كان الصينيون يقطعون الاتصال على الفور بمجرد ادراكهم أن الذين امامهم امريكيون. بل ن هذه المناسبات العشر كانت بينها أربع مناسبات جاءت فيها المبادرة من الموظفين الصينيين ثم بدأت الاتصالات تتجاوز حدود تبادل المجاملات الاجتماعية.

وفي ٩ سبتمبر (أيلول)، عندما كان الهلع من نشوب الحرب بلغ قمته، توجه سفيرنا في بولونيا والتر ستويسل لمقابلة الرئيس. وبينما كنا ننتظر سويا مقابلة نيكسون، حثثت ستويسل على أن يتوجه الى سفير جمهورية الصين الشعبية في اول مناسبة اجتماعية يحضرانها وينبئه بأننا على استعداد لاجراء محادثات جدية مع بلاده.

وانقضت بعد ذلك ثلاثة أشهر لم يحدث فيها شيء. وفي ٣ ديسمبر (كانون الاول) كان ستويسل حاضرا عرض أزياء يوغوسلافية أقيم في قصر الثقافة في العاصمة البولونية فرصوفيا، فوقعت عيناه على لي - يانغ القائم بالاعمال الصيني. وعندما اقترب منه ستويسل تراجع القائم بالاعمال الصيني هابطا درجا صادفه، فلاحقه ستويسل وأبلغه الرسالة. وقال لي شو إن - لاي بعد ذلك بسنوات أننا كدنا بتلك المبادرة ان نتسبب للقائم بالاعمال المسكين في نوبة قلبية من هول المفاجأة، وأن لي - يانغ، الذي لم تكن لديه اي تعليمات لمواجهة مثل هذا الطارىء انطلق هاربا من ستويسل لانه لم يعرف كيف يتصرف.

لكن الرسالة بلغت شو إن - لاي على أي حال. وفي ٦ ديسمبر (كانون الاول) أفرجت جمهورية الصين الشعبية عن أمريكيين آخرين كانا محتجزين منذ ١٦ فبراير (شباط) عندما ضلاّ الطريق بيختهما ودخلا به المياه الاقليمية الصينية.

نسمة هواء منعش

في يوم ١١ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٩، فوجئنا بأن السفير ستويسل تلقى دعوة من السفارة الصينية، كانت الاولى من هذا النوع تحصل في أي اتصال صيني - أمريكي منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم في بكين. ورد ستويسل بأنه لا يمانع في الذهاب الى السفارة سرا من الباب الخلفي، ولكنه أبلغ ان هذا الحرص أمر لا داعي اليه (ولعل الهدف من ذلك كان تفادي أي احتمال لان يفوت الامر على المخابرات السوفييتية). وقد ذهب ستويسل فعلا الى السفارة ودخل من بابها الامامي، والتقى زميله الصيني في جو "وديّ". واقترح ستويسل استئناف محادثات

فرصوفيا من دون أن يتعدى ذلك الى مناقشة أي موضوع آخر، وتم الاتفاق على عقد اجتماع آخر في سلسلة المحادثات خلال الشهر نفسه.

وأدت محادثات فرصوفيا الى اطلاق جميع ردود فعل اساطين وزارة الخارجية. وكان أول فريق ارتفع صوته هو الفريق المتخصص في العلاقات الامريكية - السوفييتية. فقد كان أعضاء هذا الفريق مقتنعين بأن القوتين النوويتين العظميين هما اللتان تمتلكان مفاتيح الحرب والسلام، ومن ثم ارادوا التقليل الى أدنى حد من الاخطار التي يمكن أن تتعرض لها العلاقات بين هاتين القوتين. وكان رأيهم، بناء على ذلك، أن التقارب مع الصين لا يحمل سوى تعويض ضئيل لما يترتب عليه من خطر يهدد هذه العلاقات.

وكان الموجه الفكري لهذه الجماعة سفير الولايات المتحدة السابق في الاتحاد السوفييتي ليولين طومسون. ومنذ شهر يونيو (حزيران)، كان هو وزميله السفير السابق تشارلز بولن قد قاما بزيارة نيكسون عندما علما اننا نعتزم تخفيف القيود على التجارة مع الصين، وأقدما بشجاعة على تحذير الرئيس من اي محاولة "لاستخدام" الصين ضد الاتحاد السوفييتي، قائلين ان هذا من شأنه توليد نتائج بالغة الضرر على العلاقات الامريكية - السوفييتية. ولم يكن يطوف في ذهننا في طبيعة الحال - اي افكار في فجاجة "استخدام" جمهورية الصين الشعبية ضد الاتحاد السوفييتي، وانما كنا نسعى الى ايجاد حافز يدفع كلا الطرفين الى تحسين علاقاتهما بناء. وكان سلوك نيكسون في استقباله السفيرين السابقين كلاسيكيا، اذ هو عبَّر في حضورهما عن تعاطفه معهما، ثم أعرب بعد انصرافهما مباشرة عن سخريته مما يعتبره ضعفا عقليا لا أمل في اصلاحه لدى موظفي وزارة الخارجية.

وكان هناك في الوقت نفسه جزء آخر من الجهاز البيروقراطي ينهك نفسه في العمل. فوزارة الخارجية الامريكية تؤدي مهمتها عن طريق شبكة شديدة العجب من "الاعتمادات" والموافقات التي تكفل ابلاغ الحوادث المهمة لمختلف اقسام الوزارة وللحكومات الاجنبية على نحو آلي تقريبا. وخلال ايام قليلة، اتضح ان وزارة الخارجية قد أرسلت تقارير عن اجتماع فرصوفيا الى سفاراتنا في طوكيو، وتايبيه (عاصمة تايوان) وموسكو، والى قنصليتنا العامة في هونغ كونغ. اما حكومات بريطانيا واوستراليا وكندا وفرنسا وايطاليا ونيوزيلندا فقد تلقت بلاغات مختصرة عن الموضوع اما قبل مقابلة ستويسل أو بعدها. ومع أن جميع هذه الاطراف تلقت تحذيرات لتجنب أي تعليق علني على الموضوع، الا أن نشر مثل هذا النبأ "الشهي" على مثل هذا النطاق الواسع كانت له بالضرورة أصداء بعيدة في الدوائر الديبلوماسية في العالم. وعندما أنبأت الرئيس بما حدث، تنهد وقال: "اننا سنقتل هذا الطفل قبل أن يولد". وكانت صعوبة السيطرة على جهاز الاتصالات الضخم المعقد في وزارة الخارجية سببا رئيسيا من الاسباب التي أدت الى

نقل السيطرة على معاملاتنا الديبلوماسية مع الصين بالتدريج الى البيت الابيض.

وقد سار اجتماع فرصوفيا الذي عقد يوم ٨ يناير (كانون الثاني) على خير ما يرام، اذ وصل القائم بالاعمال الصيني الى السفارة الامريكية على نحو ملفت في سيارة كبيرة يخفق عليها العلم الصيني، وتمت تسوية الامور الاجرائية في جو ودي، كما تم الاتفاق على استئناف اجتماعات فرصوفيا الرسمية المنتظمة بين السفراء. وهكذا، بعد عام كامل من تولي الرئيس نيكسون مهمات منصبه اتفقت جمهورية الصين الشعبية والولايات المتحدة الامريكية على استئناف المحادثات الموضوعية للمرة الاولى منذ اكثر من عامين، ولكن على نحو يختلف عن أي اجتماع آخر من الـ١٣٤ اجتماعا السابقة، لان الاعداد لها قد جرى بمنتهى الدقة والعناية على مدى أشهر طويلة عن طريق الرسائل - التي كانت غير مباشرة في البداية ثم أصبحت بالتدريج صريحة على نحو متزايد - تعبيرا عن الاستعداد والرغبة في احداث تغير جوهري في علاقاتنا. لكن الطريق امامنا كان مع ذلك طويلا، وان كنا بلغنا في النهاية مشارف العقبات الكبرى التي استغرق منا تخطيها بعد ذلك ١٨ شهرا أخرى.

كانت تلك لحظة من لحظات الامل الكبير النادرة. فالدراما التي يمثلها انهاء التباعد القائم بيننا وبين الشعب الصيني، من الناحية الانسانية وما يعنيه ذلك لمستقبل السلام، كانت نسمة من الهواء المنعش وتذكيرا بما تستطيع الولايات المتحدة انجازه من خلال زعامتها العالمية. وكان التوصل الى تحقيق ذلك وسط حرب اسفرت عن انقسام في الامة (حرب فيتنام) أمرا يثبت لنا وللآخرين اننا لا نزال نمثل عاملا رئيسيا من عوامل التأثير في الشؤون العالمية، ولدينا القدرة على العمل بجرأة ومهارة من أجل تحقيق غاياتنا ورفاهية كل من يعتمدون علينا.

صراع البيروقراطية

لم يكن على السطح شيء ملفت في أول اجتماع يعقد في عهد حكومة نيكسون بين الولايات المتحدة الامريكية وجمهورية الصين الشعبية. وقد عقد الاجتماع في السفارة الصينية في فرصوفيا يوم ٢٠ يناير (كانون الثاني) بين والتر ستويسل، على أحد جانبي طاولة المحادثات، ولي - يانغ على جانبها الآخر. وكانت النقطة الرئيسية التي دارت حولها الـ١٣٤ اجتماعا السابقة هي موضوع علاقتنا بتايوان الذي كان يمثل متاهة كلاسيكية: فلم يكن مستطاعا التوصل الى أي حل فيه ما دامت العلاقات العدائية مستمرة بين أمريكا والصين، كما أن هذا العداء لا يمكن أن ينتهي ما دام موضوع تايوان من دون تسوية. أما القضايا الاخرى التي تثار في الاجتماعات من وقت الى آخر فلم تكن أكثر من بنود احتياطية عتيقة، منها: الطلبات الامريكية لتعويض الممتلكات المؤممة والديون التي لم تسدد، والجهود الصينية لاسترداد أموال الصين التي جمّدتها الولايات المتحدة في عام ١٩٤٩ بمقتضى قانون التجارة مع

الاعداء، وجهود الولايات المتحدة من اجل الافراج عن السجناء الامريكيين في الصين، ومحاولات الحصول على تصريح للصحافيين الامريكيين بدخول الصين، او استطلاع امكانات التبادل التجاري بين البلدين.

وكان المنتظر ان يعود النقاش الممل حول هذه الموضوعات المألوفة في الاجتماع الـ١٣٥. لكن نيكسون كان يتفق معي في أنه على رغم أهمية هذه الموضوعات العتيقة، الا ان اجتماع فرصوفيا يتيح فرصة طيبة لنقل رسالة جديدة الى الصين تحمل مغزى أعمق وأكثر أهمية. فلم يكن مستطاعا تحديد - بل حل - أي موضوع في جدول الاعمال هذا ما دامت بكين تعتبر الولايات المتحدة عدوها الخارجي الرئيسي وما دامت واشنطن ترى في الصين منبعا لكل أشكال العدوان والنشاط الثوري في آسيا، بما في ذلك فيتنام.

وكنت أرى ان من الضروري نقل الحوار الى مستوى يتيح للمفاوضين ممارسة مقدار من الاخذ والرد وان يكون هؤلاء مطلعين على افكار زعمائهم مما ييسر لهم تفهم الاستراتيجية الكامنة وراء الموضوع بأكمله. وعلى ذلك فقد أردت أن أستخدم اجتماع ٢٠ يناير (كانون الثاني) كي أوضح استعدادنا لايفاد رسول الى بكين، واقترحت على الرئيس ألا نولي أهمية كبيرة لاي شيء يقال في الاجتماع ما دام ذلك يتضمن افكارنا الاساسية، وهي: أننا نريد ان نبدأ بداية جديدة وأننا لن نسير على هدى الايديولوجية، وانما على أساس تقدير المصالح المتبادلة.

وقد تعرض كل من هذين الموضوعين لمقاومة عنيفة عندما بلغنا مرحلة صياغة الكلمة التي سيلقيها السفير ستويسل في اجتماع ٢٠ يناير (كانون الثاني)، ذلك أن خبراء الشؤون الآسيوية في وزارة الخارجية لم يشاطرونا آمالنا في بداية جديدة (وهو أمر يعود جزئيا الى جهلهم ما كان يجري عن طريق الاتصالات السرية)، كما أن خبراء الشؤون السوفييتية كانوا قلقين خشية أن يؤدي مجرد عقد المحادثات الى اثارة عداء الاتحاد السوفييتي. ورأى البعض ان أي تقدم في هذه المحادثات لا بد من أن يعني بالضرورة النص على التخلي عن استخدام القوة في مضيق تايوان والاشتراك في مفاوضات الرقابة على التسلح او تقديم ضمانات باتباع الاساليب السلمية في آسيا، مع ان هذه كلها أمور لا يمكن أن تفكر الصين في مجرد النظر فيها الا في سياق أكثر شمولا. أما موضوع ايفاد مبعوث الى بكين، فان مجرد ذكره قد أصاب موظفي وزارة الخارجية بقشعريرة شديدة، لان مثل هذه المحادثات ستجري على الارجح في اشراف البيت الابيض، بعيدا عن دهاليز وزارة الخارجية.

وقد تمت تسوية النزاع البيروقراطي بحل وسط، بالطريقة البيروقراطية التقليدية: فقد سلمت بجميع النقاط التي تمسكت بها وزارة الخارجية، من حيث الاشارة الى تايوان والرقابة على التسلح والمطالبات المالية والسجناء وما الى ذلك، في مقابل التسليم من جانب

الوزارة بالموضوعات التي كنت أعتبرها جوهرية. وفي اجتماع ٢٠ يناير (كانون الثاني) تلا ستويسل بيانا يقرر أن الولايات المتحدة لا تسعى "الى الانضمام الى أي اتفاق ثنائي مع الاتحاد السوفييتي يكون موجها ضد الصين، ثم أضاف جملة غطت صيغتها الواقعية على كل الدماء البيروقراطية التي سفكت، اذ قال ان الولايات المتحدة "ستكون على استعداد للنظر في ايفاد ممثل لها الى بكين لاجراء محادثات مباشرة مع المسؤولين في حكومتكم، أو استقبال ممثل من طرف حكومتكم في واشنطن لاجراء بحث أكثر دقة وتعمقا لاي من الموضوعات التي ذكرتها في ملاحظاتي اليوم أو اي أمور أخرى قد نتفق عليها". ولم يستجب القائم بالاعمال الصيني لي - يانغ لهذه المبادرة المفاجئة، ولكنه تلا بيانا تضمن عبارتين مثيرتين للاهتمام بما تحملانه من مغزى، على رغم ورودهما مختفيتين وسط بقية العبارات المألوفة. وكان نص هاتين العبارتين كما يأتي:

"اننا على استعداد لان نبحث وننظر في اي افكار واقتراحات قد تتقدم بها حكومة الولايات المتحدة (...) ومن الممكن لهذه المحادثات ان تستمر على مستوى السفراء، أو ان تجرى على مستوى أعلى، أو عن طريق اي قنوات أخرى يقبلها الطرفان".

ان الذي حدث اذاً هو أن بيانين تمت صياغتهما في عاصمتين يفصل بينهما ١٩،٠٠٠ كيلومتر تقريبا قد عرضا في الحقيقة اقتراحين متشابهين. لكن طبيعة اجتماعات فرصوفيا كانت تفرض علينا ان ننتظر شهرا كاملا حتى نتبين ما اذا كان يمكن الفكرة ان تتحرك قدما.

وكان اجتماع فرصوفيا الرقم ١٣٦، الذي حدد لانعقاده يوم ٢٠ فبراير (شباط)، مصدرا لخلاف آخر بين البيت الابيض ووزارة الخارجية. فقد واجهتنا طريقة التصرف في حال حصول ما يبدو محتملا من قبول الصينيين لاقتراحنا ايفاد مبعوث الى بكين أو استقبال مبعوث صيني في واشنطن. وكنت أريد من ستويسل، عندما يحدث ذلك، ان يبدي موافقته من حيث المبدأ ثم يحيل الامر على واشنطن لتتولى الرد بالتفصيل. اما وزارة الخارجية فقد تقدمت بتوصية بالغة الغرابة مؤداها ان ننسحب من المبادرة التي تقدمنا بها نحن ونكتفي بمجرد "العلم" بالرد الصيني من دون تعليق.

وقد انتصرت وجهة نظري، وأمرني نيكسون بأن أصدر التعليمات الى السفير ستويسل بأن يرد بالايجاب، ولكن من دون أن يغفل في طبيعة الحال انشاء الترنيمة المتكررة عن القضايا المعلقة بين الطرفين والتي كانت عصب الـ١٣٥ اجتماعا السابقة. وقد بلغت الرسائل وجهتها وقوبلت بالتفهم. وفي الاجتماع الـ١٣٦، تلا لي - يانغ بيانا لين الصيغة الى درجة غير عادية، وقبل اقتراحنا ايفاد مبعوث الى بكين. وبدا اننا على وشك اختراق الحواجز في الطريق الى غايتنا.

لباقة مفرطة

غير ان الشك المتراكم على مدى عقدين لم يكن أمراً يسهل التغلب

عليه. وفي مذكرة موجهة الى الرئيس يوم ١٠ مارس (آذار)، اقترح وزير الخارجية روجرز يوم ١٩ مارس (اذار) موعدا لاجتماع فرصوفيا التالي. لكنني كنت أعرف ان الصينيين لا يمكنهم التحضير لاجتماع في هذه المهلة البالغة القصر، كما أن جدول الاعمال المقترح كان يجعل احتمال نجاح الاجتماع أمرا مستبعدا.

وبعد جدل كثير، اقترحت الولايات المتحدة على الصينيين عقد الاجتماع يوم ٣٠ ابريل (نيسان) او في اي تاريخ لاحق. لكن الصينيين، وقد بدا أنهم قد تضايقوا، قرروا أن يلعبوا هم أنفسهم لعبة التأجيل، فانتظروا أربعة اسابيع قبل أن يردوا. وفي ٢٨ ابريل (نيسان) اقترحوا أن يكون موعد الاجتماع ٢٠ مايو (ايار)، وقبلنا نحن ذلك.

والواقع ان حصولنا على أي رد على الاطلاق كان أمراً غير منتظر. فقد كانت قوات فيتنام الجنوبية تشق طريقها الى منطقة "منقار الببغاء" في كمبوديا، وكانت قوات الولايات المتحدة على اهبة التحرك لمهاجمة ملاجىء القوات المعادية. وظل الصينيون صامتين ازاء ذلك حتى ١٨ مايو (ايار)، بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على بدء عملياتنا، ثم أصدروا في ذلك اليوم - عن طريق وكالة أنباء "الصين الجديدة" - بيانا شديد الايجاز والصرامة، يقرر انه نظرا الى الغزو "الفاضح" الذي تتعرض له كمبوديا، "فان الحكومة الصينية ترى أنه لم يعد من المناسب عقد الاجتماع الرقم ١٣٧ في محادثات السفراء بين الصين والولايات المتحدة يوم ٢٠ مايو (ايار) كما كان مقررا". ولم يكن في ذلك بأس، لان حكومتنا كانت - ببساطة - غير مستعدة لان تتحدث بصوت واحد. حقيقة اني كنت نجحت بعد جهود كبيرة في تعديل التعليمات الخاصة باجتماع يوم ٢٠ مايو (ايار) بحيث تتضمن مناقشة للجوانب الفنية المتعلقة بزيارة مبعوث، وتفوّض ستويسل الحديث عن علاقات أوسع نطاقا، خصوصا في الشرق الاقصى. لكن التذمر الذي رافق قبول هذه التعديلات، والفيض الغامر من العبارات التقليدية الذي أغرقت فيه على نحو ظاهر أوضح بجلاء انه يتعذر على محادثات فرصوفيا ان تكون هي المكان المناسب لاجراء محادثات جديدة. وعندما أعيدت الاتصالات بيننا وبين الصينيين في موعد لاحق من العام كان ذلك عن طريق آخر، وبمقدرا أكبر من التركيز على الهدف المنشود.

وفي يوم ١٨ مايو (أيار) نفسه، اتهمت صحيفة "برافدا" السوفييتية جمهورية الصين الشعبية بأنها رفضت نداءات الاتحاد السوفييتي للقيام بعمل مشترك في كمبوديا. وكان الصينيون بالغي الحساسية لمثل هذا الاتهام، فردوا عليه بأعنف وسيلة لديهم الا وهي الاعلان الذي اصدروه يوم ٢٠ مايو (أيار) باسم ماو تسي - تونغ بعنوان: "يا شعوب العالم! اتحدوا لتهزموا المعتدين الامريكيين وكلاب صيدهم!".

وبلغ بيان ماو واشنطن في فترة كان مزاج نيكسون شديد العصبية، فلم ينتظر تحليلي للبيان، وأمر بأن

تتجه الى مضيق تايوان كل عناصر الاسطول السابع الامريكي التي لا تدعو اليها الحاجة في عمليات فيتنام، وقال في ذلك: "اريد ان يظهر ذلك مظهر الاستفزاز والتحدي. أريدهم ان يفهموا اننا لا نلعب لعبة الديوك (*) هذه ولا اريد ان يعد لي أحد بيانات مطولة ولا أن يراجعني أحد في هذا الامر. وأريد ان تصل وحدات الاسطول هذه الى مضيق تايوان خلال ٢٤ ساعة".

وكان ذلك واحدا من تلك الاوامر التي كان مساعدو نيكسون المقربون يميزونها بأنها قد تخدم المصلحة العامة على نحو أفضل اذا أوقف تنفيذها لمدة ٢٤ ساعة. وعندما استخدم نيكسون عبارة "لا أريد ان يراجعني أحد" كان ذلك دليلا على عدم الثقة في سلامة التصرف. وبعد ان أتيحت لنا فرصة مناقشة المعنى الحقيقي لبيان ماو، راجع نيكسون نفسه في قراره ارسال القوات البحرية الى مضيق تايوان، اذ تبين أن ماو ترك ثغرات كثيرة يمكن النفاذ منها الى تجديد المسيرة الطويلة لكل من بلدينا تجاه الآخر، وأن أحدا لن يكسب شيئا من الاقدام على اقفال هذه الثغرات في نوبة غضب.

وقرابة منتصف يونيو (حزيران)، عندما بدأت المشاعر التي ثارت حول كمبوديا تهدأ، سعينا الى تجديد الاتصالات، فصدرت التعليمات في ١٥ يونيو (حزيران) الى الجنرال فيرنون والترز ملحقنا العسكري في باريس كي يتصل بزميله فانغ - وين الملحق العسكري الصيني وينبئه بأن لديه رسالة يريد ابلاغه اياها. وأعطينا والترز نصاً كي يتلوه، يتضمن رأينا الذي أصبح الان مألوفا، ومؤداه: انه لما كان منبر فرصوفيا علنيا أكثر من اللازم ومثقلا بالرسميات والشكليات، فاننا نود أن نقيم سبيلا آخر الى الاتصالات السرية. وقد حاول والترز مرتين ابلاغ زميله الصيني نص الرسالة لكنه لم يفلح. وكان شو ان - لاي وماو تسي - تونغ هما اللذان قررا من جانبهما أن الوقت حان لارسال اشارة الينا. ومن سوء الحظ ان ما نقلوه الينا كان مغلفا باللباقة وغير مباشر الى درجة أن نقطة الهدف المقصودة منه فاتت تماما على عقولنا الغربية الغليظة. ففي أول أكتوبر (تشرين الاول)، وهو العيد الوطني للصين، قاد شو ان - لاي الكاتب الامريكي ادغار سنو - الصديق القديم للشيوعيين الصينيين - وزوجته واوقفهما الى جانب ماو لتلتقط لهما صور مع ماو وهو يعرض الموكب السنوي. وكان ذلك أمرا لم يسبق له مثيل، لان هذا الشرف لم يسبغ على أي امريكي من قبل. فمن الواضح اذاً ان الرئيس صاحب الاساليب العويصة المبهمة يحاول أن ينقل رسالة ما عبر هذا التصرف. (علّق سنو نفسه على هذه الواقعة فيما بعد بأن "القادة الصينيين لا يقدمون على أي تصرف علني من دون أن يكون وراءه هدف"). وقد فهمت بعد ذلك ان ماو قصد بهذا التصرف الاشارة الى أن العلاقات الصينية - الامريكية قد

(*) لعبة بالسيارات يقود فيها متباريان سيارتيهما، احدهما في اتجاه الآخر، ويكون الخاسر من ينحرف بسيارته أولا.

أصبحت موضوع اهتمامه الشخصي. لكن ادارك هذه الاشارة فاتنا وكانت مناسبة مهمة، وبذلك أسفرت اللباقة المفرطة عن فشل في الاتصال.

من رئيس الى رئيس

لقد استخدم ماو حساما رشيقا لينقل به اشارته، أما نيكسون فقد لجأ في ابلاغ رسالته الى مطرقة ضخمة. ففي اللحظة نفسها تقريبا التي كان سنو يراقب الموكب السنوي للصين، كانت مجلة "تايم" تجري مقابلة مع نيكسون، أدرج فيها عبارة عن موضوع نهوض الصين بدور عالمي وعن دور نيكسون نفسه في ذلك، قال فيها:

"ومن الجائز ألا يكون هذا الدور ممكنا الا بعد خمس سنوات، وربما عشر. لكنه لا بد من أن يتحقق في ظرف عشرين عاما والا تعرض العالم لخطر قاتل. واذا كان هناك ما أود ان أفعله قبل أن أموت فهو زيارة الصين. واذا لم أتمكن من ذلك فانني أريد أن يتمكن أبنائي منه".

وكان من التطورات ذات الاهمية الحيوية استقبال الرئيس نيكسون في مكتبه يوم ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) الرئيس الباكستاني يحيى خان الذي كان على وشك زيارة بكين. وقد طلب نيكسون من يحيى خان أن ينقل الى الصينيين أننا نعتبر التقارب الصيني - الامريكي أمرا "جوهريا"، وأننا على استعداد لايفاد مبعوث سري على مستوى عال الى بكين. وفي اليوم التالي، كرر نيكسون الاقوال نفسها للرئيس الروماني نيقولاي تشاوشيسكو، ثم استغل زيارة تشاوشيسكو بعد ذلك كي يقوم بخطوة علنية أخرى فشرب في حفلة

عشاء رسمية نخب المصالح الكثيرة المشتركة بين الولايات المتحدة ورومانيا، وعدد منها خصوصا ما يتعلق بالعلاقات الطيبة، مثل تلك العلاقات القائمة بين رومانيا من جانب والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي و"جمهورية الصين الشعبية" من جانب آخر. وكانت تلك هي المرة الاولى التي يقدم رئيس امريكي على استخدام الاسم الرسمي للصين. وأصبح كل ما نستطيع عمله بعد ذلك هو أن ننتظر.

لم نكن نعلم آنذاك أن الصينيين قد بعثوا الينا برسالة تختلف تماما عن كل ما تلقيناه قبل ذلك. فقد قام يحيى خان، بزيارته للصين التي استمرت من ١٠ الى ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني)، وافترضنا نحن أنه لم يطرأ شيء ولكن حدث في ٨ ديسمبر (كانون الاول) ان قال السفير الباكستاني في واشنطن هلالي ان لديه رسالة لي تتعلق برحلة الرئيس يحيى خان، فدعوت هلالي الى البيت الابيض في اليوم التالي حيث أخرج رسالة مكتوبة بخط اليد على ورق أبيض ذي سطور بيضاء، قائلا انها جاءته مع رسول ديبلوماسي خاص لان الرئيس يحيى لم يأتمن عليها المواصلات البرقية. وقال هلالي انه غير مفوض ترك هذه الوثيقة لدي، فكان الحل الوحيد ان يمليها علي ببطء لانسخها بخط يدي. واستغرقنا في هذا العمل الآلي الى درجة لم نلحظ معها غرابة موقف هذا المتحدث الانيق بلسان النخبة المختارة في بلد يستند الى دين عريق وهو يملي رسالة من زعيم أمة آسيوية ثورية مكافحة على ممثل زعيم العالم الرأسمالي الغربي، أو اننا في عصر الاتصالات الفورية قد عدنا الى الاساليب الديبلوماسية التي كانت متبعة في القرن الماضي.

ان ما يحصل في الديبلوماسية هو ان كل حدث ديبلوماسي منفرد يكون حلقة في سلسلة من الاحداث تندمج في تيار متصل لا تتيسر رؤية مغزاه الا من خلال عدسة الزمن. أما "نقاط التحول" فانها لا تتضح عادة الا عند النظر اليها بعد فترة من حدوثها. لكن الرسالة التي جاء بها هلالي كانت حدثا واضح الاهمية تماما. فهي ليست اشارة خفية لبقة يمكن انكارها عند ظهور أول بادرة متاعب، وانما هي رسالة شخصية موثوقة موجهة الى ريتشارد نيكسون من شو ان - لاي، أكد فيها انه لا يتحدث باسمه فقط وانما أيضا باسم الرئيس ماو ونائب الرئيس لين -بياو. وقال شو ان - لاي ان الصين "كانت دائما على استعداد ودائما تحاول أن تتفاوض بالوسائل السلمية (...) ومن أجل مناقشة موضوع الجلاء عن الاراضي الصينية التي يطلق عليها اسم تايوان، فان بكين ترحب كل الترحيب باستقبال مبعوث خاص من الرئيس نيكسون". ولاحظ شو ان - لاي بلطف أن هناك رسائل أخرى كثيرة وردت من الولايات المتحدة الامريكية عن طريق مصادر مختلفة "ولكن هذه هي المرة الاولى التي يصدر اقتراح من رئيس موجه عن طريق رئيس، الى رئيس".

ما كاد هلالي ينصرف حتى مضيت عبر الدهليز الى مكتب الرئيس، حيث

تحادثنا - نيكسون وأنا - طويلا، وكان اتفاقنا تاما على قبول الدعوة. وأوضحنا في ردنا ان الولايات المتحدة على استعداد لاجراء محادثات على مستوى عال في بكين.

ديبلوماسية البينغ بونغ

ومرة أخرى، لم يكن أمامنا ما نفعله سوى الانتظار. وقد انتفعت بهذه المهلة لكي أحاول تثقيف نفسي في أمور الصين. وبين منتصف ديسمبر (كانون الاول) وأوائل ابريل (نيسان)، التقيت ثلاث مرات مجموعات من الخبراء الاكاديميين في شؤون الصين من مختلف المؤسسات العلمية العالية المستوى. ويسعدني ان أقرر أن زملائي السابقين قد أفادوني كثيرا بلمحات ساطعة من البصيرة النافذة. غير انهم كانوا مقتنعين بأن القضيتين اللتين تحتلان مكان الصدارة من اهتمام الصين هما فيتنام وتايوان، وهو ما تبين بعد ذلك أنه خطأ تام. وكانت الرقابة على التسلح من الموضوعات الاخرى التي قال الخبراء ان لها اولوية كبرى، في حين أن الصينيين لم يشيروا اطلاقا الى هذا الموضوع، بل ردونا عن الحديث فيه عندما أثرناه نحن. ومن الآراء الاخرى التي كان الخبراء شبه مجمعين عليها أن تحسن العلاقات الامريكية - الصينية مرهون باعترافنا المسبق بأن حكومة بكين هي حكومة الصين الوحيدة، أو على الاقل بسماحنا بانضمام بكين الى الامم المتحدة. وقد ثبت ان هذا ايضا خطأ، اذ ان تحسن العلاقات بدأ قبل أن تنضم الصين الى الامم المتحدة باشهر عدة، كما أن سبع سنوات كاملة انقضت قبل أن تعترف حكومة الرئيس كارتر بأن حكومة بكين هي الحكومة الوحيدة للصين.

وكان هناك رأي واسع الانتشار بين الخبراء ايضا مؤداه أن الصين ستصر على تقديم تأكيدات بأننا سننسحب من آسيا، في حين أن نقيض ذلك هو الذي ثبتت صحته، اذ ان الصين كانت تريد بشدة ان نبقى في آسيا لكي نكون عنصر توازن مع الاتحاد السوفييتي. وقد استمعت بأدب الى اقتراحات زملائي مستعينا على نفاد الصبر بتذكر أني لم أكن أكثر منهم توفيقا في تناول الامور من جانبها الصحيح حين عملت مستشارا اكاديميا لحكومتين سابقتين.

كانت الاحداث المثيرة التي توشك أن تفاجئنا قد سبقتها تباشير العمل المنهجي من جانب الصين لاعادة بناء ديبلوماسيتها الشاملة بعد الشلل الذي اصابها من جراء الثورة الثقافية. وقد باشرت الصين في مايو (ايار) ١٩٦٩ اعادة سفرائها الى العواصم التي كانوا منتدبين لها وكان هؤلاء استدعوا الى الصين في أثناء الثورة الثقافية. وجاءتنا من وزارة الخارجية تقارير عن تطورات أخرى ذات مغزى منها - على سبيل المثال - ان شو ان - لاي استقبل وزير خارجية اليابان السابق آيشيرو فوجي ياما في مارس (اذار) وأخبره ان "من الممكن في مرحلة ما حصول تحسن مثير مفاجيء" في العلاقات مع الولايات المتحدة. وأبرزت وزارة الخارجية أن "بكين أرسلت فريقها لكرة الطاولة (البينغ

بونغ) الى اليابان للاشتراك في مباريات للبطولة الدولية، وهذا أول نشاط رياضي من هذا النوع تقوم به بكين منذ أعوام".

وكان فريق الولايات المتحدة لكرة الطاولة مشتركا في هذه المباريات التي جرت في مدينة ناجويا اليابانية. وفي ٤ ابريل (نيسان) الذي كان يوم راحة في المباريات، توجه غلين كوان، الشاب ذو التسعة عشر عاما من كلية مدينة سانتا مونيكا، الى رئيس الفريق الصيني تشانغ تسي - تونغ الذي حاز بطولة العالم ثلاث مرات قبل ذلك، وتحدث معه وانتهى به الامر الى مرافقته في نزهة بالحافلة مع اللاعبين الصينيين الى مزارع اللؤلؤ في شبه جزيرة "مي" (ولا شك في أن الصينيين لم يكونوا ليوافقوا على اصطحاب غلين كوان لو لم تكن لديهم تعليمات أكيدة بضرورة التعامل الودي مع الامريكيين. ومن أبرز مواهب الصينيين أنهم قادرون على أن يجعلوا الامر المخطط بمنتهى الدقة والعناية يبدو عفويا وفوريا). وفي اليوم التالي انتظر كوان تشانغ حتى انتهى من مباراة كان يلعبها ثم قدم اليه قميصا امريكيا. فقبل تشانغ الهدية، وقدم الى كوان في مقابلها منديلا مزينا ببعض المناظر الصينية.

في ٦ ابريل (نيسان)، أصيب الجميع بالذهول عندما وجه الصينيون الدعوة الى الفريق الامريكي لزيارة الصين. وأسرع غراهام ب. ستينهوفن رئيس الاتحاد الامريكي لكرة الطاولة الى الاتصال هاتفيا بالسفارة الامريكية في طوكيو طالبا المشورة. ولم يكن خبير الشؤون الصينية في السفارة وليم غراهام يعلم شيئا عن جهودنا للتقارب مع الصين سوى أن لدينا رغبة عامة في تحسين العلاقات مع بكين، لكنه لم يتردد لحظة واحدة في أن يشير على ستينهوفن بقبول الدعوة.

لقي لاعبو كرة الطاولة الامريكيون حفاوة في الصين. وفي ١٤ ابريل (نيسان) استقبلهم رئيس الوزراء شو ان - لاي في قاعة الشعب الكبرى، وخاطبهم قائلا: "لقد فتحتم فصلا جديدا في العلاقات بين الشعبين الامريكي والصيني واني على ثقة بأن هذه البداية الجديدة للصداقة بيننا ستقابل من دون شك بتأييد الغالبية العظمى من أفراد شعبينا". وعندما بدا أن لاعبينا المذهولين لم يستجيبوا لكلامه، استأنف الحديث: "ألا توافقونني على رأيي؟" فانفجر الامريكيون بالتصفيق، وسارعوا بتوجيه الدعوة الى الفريق الصيني للقيام بجولة في الولايات المتحدة، فلقيت دعوتهم قبولا فوريا.

لحظة النشوة

كانت الاسابيع التي اعقبت ديبلوماسية البينغ بونغ أكثر المراحل اثارة للاعصاب في العملية المعقدة كلها. وكنت أنا ونيكسون الوحيدين اللذين يفهمان المضامين الكاملة لما فعله شو ان - لاي لاننا كنا الوحيدين المطلعين على جميع الاتصالات التي تمت بين بكين وواشنطن، وكنا نعرف أن امرا ضخما على وشك الحدوث. لكن الحيرة تتملكنا ازاء تحديد الشكل الذي سيتخذه هذا الحدث.

وكما يحصل في أحيان كثيرة عندما

تكون أحداث كبيرة على وشك الوقوع، تملكت نيكسون أحاسيس متضاربة من التشاؤم والتخوف والامل، نابعة من مركب شخصيته الفريد الذي يجمع في آن بين سمو الغاية الوطنية والحسابات السياسية والشخصية. كان متخوفا من انسحاب الصين في اللحظة الاخيرة (وهو ما اعتقدته أمراً بعيد الاحتمال) يراجع نفسه في ما تقرر بالفعل من وجوب قيام أحد مرؤوسيه بزيارة بكين قبل سفره هو اليها، ويريد ان يستغني عن ايفاد هذا المبعوث خشية ان يقلل ذلك من بهاء رحلته هو.

وأرسلنا اشارات أخرى تؤكد استمرار عزمنا على السير في الاتجاه نفسه. وفي ١٤ ابريل أعلن البيت الابيض أول خروج كبير على الحظر التجاري المفروض ضد الصين منذ عشرين عاما. وكنت في اليوم السابق استدعيت القائم بالاعمال السوفييتي كي أنبئه بقرارنا فتح باب التجارة مع الصين قبل اعلانه بيوم واحد، وأكدت له أن هذا القرار لا يعكس أي نيات سلبية ضد الاتحاد السوفييتي. وهذا الاسلوب هو وسيلة الطمأنة التقليدية المتبعة في الديبلوماسية، اذ يعطى الطرف الذي توجه ضده المناورة تأكيدات رسمية تستهدف هز أعصابه بمقدار ما تستهدف تهدئته، وتخطىء غايتها تماما اذا قوبلت بالتصديق الفعلي. وتضاعف قلقنا ونحن ننتظر، وبدا نيكسون فريسة للتوجس من أن ينتهي المشروع كله الى الفشل.

وجاءتنا أول اشارة الساعة ٣،٤٥ مساء ٢٧ ابريل (نيسان)، عندما طلب السفير الباكستاني هلالي مقابلتي بصفة عاجلة لمدة خمس دقائق. واستقبلته في الساعة ٦،١٢ مساء، حيث سلمني مذكرة من صفحتين تحمل رسالة من شو ان - لاي رداً على رسالة الرئيس نيكسون في ديسمبر (كانون الاول). وكانت المذكرة مكتوبة بخط اليد الانيق، ومن محتوياتها ما يأتي:

"ان الحكومة الصينية تعيد تأكيد استعدادها لأن تستقبل رسميا في بكين مبعوثا خاصا من رئيس الولايات المتحدة (كالسيد كيسينجر) او وزير خارجية الولايات المتحدة او حتى رئيس الولايات المتحدة نفسه لاجراء مقابلات ومحادثات مباشرة".

وغادر هلالي مكتبي بعد فترة لا تتجاوز عشرين دقيقة، فمضيت فورا لمقابلة الرئيس فوجدته في قاعة الجلوس وتلوت عليه الرسالة. ولم تكن هناك حاجة الى تبادل حديث كبير حولها.

ان المناصب العالية كثيرا ما تحيط بها أسباب الضيق والاحباط والحسابات الصغيرة. وعلى خلاف القمم المثيرة التي يتصورها خيال الجمهور، فان هذه المناصب عادة ما تعني تراكما متتابعا لضغوط وتوترات تبدو لا نهائية ويكون كل حل ظاهر فيها لاحدى المشاكل سبيلا الى مجموعة مشاكل جديدة. ومحك صفات الزعماء هو مدى استعدادهم للمثابرة في مواجهة عوامل القلق وبواعث عدم الثقة والتوجس ومواصلة البناء لمستقبل لا يمكنهم وصفه أو تمييزه بوضوح.

غير أنه يحدث من وقت الى آخر ان

يتمكن محظوظون قلائل من المشاركة في حدث يعرفون انه سيغير الاوضاع الى الافضل. في ذلك المساء جلست وحدي في غرفة مكتبي أتأمل. لقد كان الكابوس الذي يقض مضجعي طوال عامين هو أن تستنزف مشكلة فيتنام رصيد أمتنا من الثقة بالنفس وتجردها من قدرتها الحاسمة على وقاية العالم الحر ومساندة الآمال في التقدم. وبينما كان عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية يتهاوى على نحو اصبحت معه مساهمتنا الخلاقة امرا لا غنى عنه، أكثر من أي وقت مضى، اذا بنا عرضة لخطر استنفاد قوانا الوطنية في صراع داخلي مرير حول ركن بعيد من جنوب شرق آسيا. ومهما حدث في الهند الصينية، فان علينا أن نبدأ عهدا جديدا في العلاقات الدولية، وهو هدف لا يمكن تحقيقه من دون عزيمة وطنية واتفاق وطني عام.

كانت الرسالة الواردة من بكين تنبئنا قبل كل شيء آخر بأنه على رغم أحداث الهند الصينية، فأن أمامنا فرصة لكي نرفع انظار الشعب الامريكي الى مستقبل حافل بالامل. وأمامنا الان امكان يتيح للامريكيين أخيرا أن يتحدوا خلف رؤيا تمتد الى عالم أكثر سلاما واتجاها نحو البناء، وأن يستمدوا الامل من بيان عملي يثبت أن امريكا - حتى في المحن - لا تزال تتمتع برصيد من القوة الداخلية يعينها على النهوض بعظائم الامور. وللمرة الاولى منذ عامين، أحسست وسط الاثارة والقلق بحلظة من النشوة والسلام الداخلي.

والتقيت في اليوم التالي نيكسون في المكتب الرئاسي حيث طلب مني أن اتلو المذكرة الصينية على مساعده بوب هالدمان وأن أشرح مغزاها. ولم يكن سبب ذلك أن نيكسون لم يفهم الرسالة ولكنه أراد ان يتذوق لحظة الانجاز بالاستماع اليها وهي توصف لزميل قديم رافقه منذ أيام العزلة الاليمة. كان ذلك نوعا من التزكية لاثبات كون جهود تلك السنين لم تذهب هباء.

وفي ساعة لاحقة من ذلك الصباح أنبأني نيكسون بأنه قرر ايفادي الى الصين في المهمة التي طرحتها الرسالة، وبأنه عليّ مباشرة الاستعداد لذلك على الفور. وكانت دوافع نيكسون مختلطة، كما هي حال الزعماء السياسيين دائما. فالمراقبون الرومانسيون وحدهم هم الذين يعتقدون أن الرجال الذين انتصروا في صراع قاس على السلطة يتخذون قراراتهم على أساس الافكار التحليلية وحدها. ولا شك في أن أقوى بواعث نيكسون على اتخاذ هذا القرار كان وثوقه بأني خير من يتفهم سياستنا في هذا الصدد، وأن ألفتي شخصيته المعقدة ستتيح لي ترتيب زيارته لبكين على أفضل نحو يريحه. بيد أنه لا شك ايضا في أن من أهم دوافعه الاخرى معرفته أنني - من بين جميع المبعوثين الذين يمكن ايفادهم - أكثرهم خضوعا لسيطرته المباشرة. فقد كنت موظفا في البيت الابيض لا أملك وسيلة للاعلان عن نشاطي الا عند طريق المكتب الصحافي للبيت الابيض، وسيكون نجاحي نجاحا للرئيس نفسه. كما أني كنت غير معروف تقريبا لعامة

الجمهور، وقد انقضى على التحاقي بوظيفتي عامان ونصف عام من دون أن أعقد أي مؤتمر صحافي مسجل.

ولا أستطيع الزعم بأني دهشت كثيرا في تلك اللحظة، وانما شعرت براحة كبيرة، لاني سأتمكن من اكمال المشروع حتى نهايته المثمرة بعد أن انشغلت في تصميمه وقتا طويلا. أما نيكسون، فمهما تكن دوافعه المعقدة فهو جدير بالتقدير لشجاعته في الاقدام على احداث ثورة في سياسة الولايات المتحدة الخارجية التي كانت متبعة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، على رغم درايته بأن ذلك سيحدث صدمة عنيفة بين صفوف مؤيديه التقليديين. وقد استعان في ذلك بمستشاره للامن القومي وحده، من دون التماس الاعذار في ما توفره الاجراءات العادية للحصول على الموافقات البيروقراطية، وأصدر بنفسه الامر لأيفاديفي مهمة لو فشلت لأسفر فشلها عن كارثة سياسية له وكارثة دولية لبلاده. والقول ان الظروف كانت تبدو مؤاتية لا يغير شيئا من الوحدة القاسية التي أحاطت بالاختيار لدى اقراره، كما ان القول ان نيكسون كتوم بطبعه لا يغير من حقيقة أن الموقف كان يحتاج الى رجل ماضي العزم قوي التصميم كي يسير في طريقه على حافة الهاوية مع مساعد واحد فقط.

مهمة سرية

بدأت اتخاذ الترتيبات الفنية للرحلة، فبعثت في ٣ مايو (ايار) برسالة الى جوزف فارلاند سفيرنا في باكستان قلت فيها:

"الأسباب بالغة الحساسية لا يعرفها سوى الرئيس وأنا، يود الرئيس منك أن تصطنع سببا شخصيا للقيام برحلة فورية الى الولايات المتحدة حتى تتمكن من التشاور معي. ولا بد من أن يكون لقاؤنا سريا وألا تفشى طبيعته لاي شخص آخر".

واستبدت الحيرة بفارلاند المخلص، ولكنه طار الى لوس أنجيليس في ما وصفه لرؤسائه بأنه "مسألة شخصية". (وكان من حسن حظنا أن سفيرنا في باكستان كان من خارج "مؤسسة" السلك الديبلوماسي العادية، ولو كان رجلا تقليديا لما استجاب لطلبي من دون أن يؤمن ظهره برسالة "شخصية" الى رؤساء ادارته في واشنطن). وأتيت به من لوس أنجيليس الى بالم سبرينغز في طائرة خاصة يملكها أحد الاصدقاء، ثم التقيته سراً يوم ٧ مايو (ايار) في المسكن الخاص الذي كنت أقيم فيه، وقضينا معاً ثلاث ساعات.

عرضت وفارلاند جميع رسائل بكين التي وردت علينا عن طريق الباكستانيين، وأخبرته بأن الترتيبات الفنية للرحلة ينبغي أن تتم عن طريقه، لتجنب احتمالات سوء الفهم التي تترتب على مرور المواد الحساسة المعقدة في أيد كثيرة.

ووضعت الخطوط العريضة لمسار الرحلة التي اعتزمها، على أساس ان أغادر واشنطن في رحلة "استقصائية" تحملني الى سايغون وبانكوك ونيودلهي واسلام آباد وباريس، وأن يتضمن جدولي في كل من هذهالعواصم اجتماعات توجيهية عدة، ولكن من دون عقد اي مؤتمرات

صحافية، وألا يصاحبني في الطائرة التي تحملني اي صحافيين على الاطلاق. وعندما أصل الى اسلام آباد سأكون - كما آمل - قد أثرت ملل الصحافيين المحليين الى أبعد حد وأثبت" أني غير مفيد من الناحية الاعلامية بحيث لا يبقى أي اهتمام صحافي كبير بتحركاتي وتصرفاتي.

واتفقت وفارلاند على ان انجع خطة هي أن أصل الى باكستان صباح يوم جمعة، على أن يضع فارلاند جدول نشاطات تستغرق اليوم بأكمله، سواء أفي السفارة او مع ممثلي حكومة باكستان. واذا وافق الرئيس يحيى خان، فانه قد يدعوني الى قضاء عطلة نهاية الاسبوع في مكان منعزل مناسب، وليكن ممر خيبر أو مكانا آخر في الجبال. وهناك أترك طائرتي في مكان ظاهر في المطار، ثم أذهب الى الصين في طائرة أخرى أمريكية او باكستانية او صينية تكون أعدت في باكستان. وبعد غيبة لا تزيد على ٣٦ ساعة، أعود الى الظهور أمام الجميع ثم أستأنف رحلتي غربا الى باريس.

عدت الى واشنطن من "اجازتي" في بالم سبرينغز يوم ٩ مايو (ايار) وقد وضعت مسودة رد على رسالة شو ان - لاي الاخيرة، اعتمدها نيكسون في الصباح التالي وسلمتها عند الظهر الى السفير هلالي، من دون توقيع. وقد جاء فيها:

"من أجل الاعداد للزيارة التي سيقوم بها الرئيس نيكسون، وبغية اجراء اتصالات موثوقة مع قادة جمهورية الصين الشعبية، يقترح الرئيس نيكسون عقد اجتماع تمهيدي سري بين مساعده

لشؤون الامن القومي الدكتور كيسينجر ورئيس الوزراء شو ان - لاي أو أي عضو آخر على مستوى عال في الحكومة الصينية. وسيكون الدكتور كيسينجر على استعداد لحضور هذا الاجتماع على أرض الصين، ويفضل أن يكون ذلك في مكان تقترحه جمهورية الصين الشعبية، ويقع على مسافة طيران مناسبة من باكستان، وسيكون الدكتور كيسينجر مفوضا مناقشة الظروف التي تكفل تحقيق أكبر فائدة ممكنة من زيارة الرئيس نيكسون، ومناقشة جدول أعمال ذلك الاجتماع وموعد تلك الزيارة وبدء تبادل وجهات النظر التمهيدية في شأن جميع الموضوعات التي تهم الطرفين".

وقد علمنا بعد ذلك أن رغبتنا في السرية أثارت لدى الصينيين أكبر مقدار من الشك. ولعلهم رأوا في ذلك وسيلة نريد منها أن تتيح لنا فرصة تغيير اتجاهنا بسرعة، وضاعف من شكوكهم أنهم كانوا يرتابون في قدرتنا على المحافظة على الاسرار. لكننا كنا ندرك أن أي اعلان سابق عن الزيارة سيضعنا في حصار بين أولئك الذين سيطلبون قائمة بالتنازلات التي نعتزمها وأولئك الذين يريدون ضمانات تؤكد استمرار موقفنا المتصلب، وقد يسفر ذلك كله عن قتل النبتة الرقيقة التي كلفتنا رعايتها والمحافظة عليها كل تلك الجهود التي استغرقت أكثر من عامين. وقد استطاع الصينيون بعد ذلك أن يتفهموا مبررات السرية هذه.

وفي ٣١ مايو (ايار) تلقينا من هلالي رسالة مثيرة: هناك رسالة طويلة من بكين في الطريق الينا يحملها رسول ديبلوماسي من باكستان. ما محتوى هذه الرسالة؟

من الصعب المبالغة في وصف ما شعرت به آنئذ من راحة. فقد قبل شو ان - لاي اقتراحنا بأن يكون كل من الطرفين حرا في اثارة القضايا التي تحتل المقام الاول من اهتمامه، وهذا يكفل تناول المناقشات القضايا الرئيسية الشاملة التي كانت تهمنا أكثر من غيرها.

وسرت من مكتبي في الجناح الغربي الى مقر اقامة الرئيس فوجدت لديه ضيوفا على العشاء. وقلت لمساعد عسكري يقف خارج قاعة الولائم الرسمية ان هناك ضرورة لان ارى الرئيس بضع دقائق. وخرج الرئيس قرابة الساعة ٩،٣٠ فأنبأته بالرسالة، فاصطحبني مبتهجا الى قاعة جلوس لنكولن وأخرج زجاجة براندي وكأسين واقترح ان نشرب نخبا لا يزال عالقا في ذهنه حتى الان، قال فيه: "هنري، اننا لا نشرب نخب انفسنا أو نخب نجاحنا أو نخب سياسات حكومتنا التي جعلت ورود مثل هذه الرسالة امرا ممكنا، لكننا نشرب نخب الاجيال المقبلة التي قد تتاح لها فرصة أفضل للعيش في سلام بسبب ما فعلناه". غير أن ذاكرتي أنا ليست مرهفة بهذا المقدار، ولعلي كنت أرى أن الوقت لا يزال مبكرا لمثل هذه التوقعات الرائعة. غير ان الصيغة التي نقلتها عن نيكسون تعكس بالضبط ما انتابنا من مشاعر وما انعش في نفسينا من آمال في أن نخرج من المرارة والانقسام اللذين اثارتهما حرب قاسية محبطة وقد تجددت الثقة الوطنية لدى شعبنا في مستقبل بلاده.

وقد رددت على بكين عصر ٤ يونيو (حزيران)، واقترحت ان يكون وصولي الى الصين يوم ٩ يوليو (تموز) ومغادرتي لها يوم ١١ يوليو (تموز) وأن انتقل بطائرة بوينغ باكستانية من اسلام آباد الى بكين. وفي ١١ يونيو (حزيران)، وافق شو ان - لاي على هذه الترتيبات.

المغص "المناسب"

في أول يوليو (تموز) أجريت واحدة من أكثر المقابلات ايلاما في حياتي، اذ حضر سفير جمهورية الصين (الوطنية) جيمس - شن ليبحث معي في موضوع المحافظة على مقعد تايوان في اقتراع الجمعية العمومية التالية للامم المتحدة حول تمثيل الصين. وليست هناك حكومة أقل استحقاقا مما كان على وشك أن يحدث لها مثل حكومة تايوان التي ظلت حليفا مخلصا وظل سلوكها نحونا نموذجيا. وقد وجدت دوري مع شن بالغ الايلام، لاني كنت أعرف أنه لن ينقضي وقت طويل حتى تكون مناقشته للمناورات الاجرائية قد طارت هباء أمام رياح الاحداث القوية. غير اني لم أكن استطيع أن أقول له شيئا.

وحضرت كذلك ثلاثة اجتماعات مع الرئيس استغرقت في مجموعها أكثر من ساعتين لمراجعة التعليمات التي لدي. وقد تحدثت الروايات بعد ذلك عن اجتماعات ليلية في قاعة جلوس لنكولن بين رئيس غارق في التفكير ووزير خارجية غارق في التأمل وهما يخططان الاستراتيجية معا، ولكن ذلك كان في معظمه هراء ومن أجل الاستهلاك الاعلامي. وقد طلب مني احد الصحافيين بعد ذلك مقابلة لتناول هذه الاجتماعات فرجوت هالدمان اعفائي من ذلك، ووافق بالفعل قائلا: "ان هناك حدودا لقدرة الانسان على الكذب"، مضيفا بذلك بعدا جديدا الى الضرورة الاخلاقية للصدق. وواقع الامر اني قد تحدثت مع الرئيس بالفعل في قاعة جلوس لنكولن عندما نقلت اليه رسالة الصينيين يوم ٢ يونيو (حزيران)، لكننا لم نكن نلتقي فيها الا نادرا.

وفي ٣٠ يونيو (حزيران)، اذاع الناطق الصحافي باسم البيت الابيض في مؤتمره الصحافي العادي بيانا يعلن أن الرئيس نيكسون سيوفدني في بعثة لتقصي الحقائق الى فيتنام من ٢ الى ٥ يوليو (تموز)، وأني سأذهب بعد ذلك الى باريس للتشاور مع سفيرنا ديفيد بروس، وسأتوقف في طريقي الى باريس للتشاور مع مسؤولين في حكومات تايلاند والهند وباكستان.

وزادت الرحلة من حساسية نيكسون تجاه موضوع العلاقات العامة. وكانت احدى رغباته الا يذكر اسمي في البلاغ الذي يعلن زيارتي، لانه يريد ان يكون اسمه واسم شو ان - لاي هما أول الاسماء التي تذكر في وثيقة صينية - امريكية رسمية. غير انه لم يوضح كيف يمكن الاعلان عن زيارة مبعوث امريكي الى بكين من دون الكشف عن اسم ذلك المبعوث، اللهم الا اذا كان الهدف هو ان يشتهر الانسان في الصين بالغموض التام. وقد تولى الواقع حل هذه المشكلة. وكان نيكسون يريد كذلك من الصينيين تأكيدات بأنهم لن يدعوا

الى زيارتهم أي شخصية سياسية امريكية أخرى قبل زيارته هو، لكني قررت تأجيل مثل هذه الطلبات الى حين وصولي الى بكين.

بدأت رحلتي من قاعدة اندروز الجوية قرابة الثامنة مساء. وكنت اقترحت ان ننشر جدولا لرحلتي يقصّر مدة بقائي في باكستان على ٤٨ ساعة، من ٨ الى ١٠ يوليو (تموز)، على أن أزعم لدى وصولي اني اعاني مغصا شديدا، يظل يزداد حدة الى أن يدعوني الرئيس يحيى خان الى استراحته في "ناثيا غالي" في الجبال حتى اتعافى، فيتيح لي ذلك اضافة يوم آخر الى مدة زيارتي لباكستان، والاختفاء مدة يومين اقضيهما في بكين (وقد قررت الآلهة ان تعاقبني على تطاولي البشري، فأصابني في نيودلهي مغص حقيقي اضطررت الى تحمله صامتا كي لا أثير الشك حولي عندما أصل الى باكستان).

وسارت زيارتي لباكستان وفق ما خطط لها، فحضرت مأدبة غداء في مقر السفير فارلاند، واجتماعا مع الرئيس يحيى خان، ثم اجتماعا في السفارة، ثم عشاء خاصا مع الرئيس يحيى خان وكبار معاونيه.

وأصبح "مغصي" في أثناء العشاء موضوعا عاما للحديث، وحثني الرئيس يحيى على الذهاب الى "ناثيا غالي"، وعندما تمنعت اصر على دعوته. وكان مقنعا في حديثه الى درجة أن أحد رجال الامن السريين في حرسي - عندما سمع المحادثة - رتب على الفور ايفاد أحد زملائه في زيارة "استطلاعية" للاستراحة الجبلية، ثم اتصل بي الاخير هاتفيا في منتصف الليل ليقول بانزعاج انه قد فحص الاستراحة ووجدها غير مناسبة. ولم يكن أمامي عندئذ سوى الطلب من الباكستانيين احتجاز الحارس التعس في ناثيا غالي الى حين عودتي من بكين.

وفي الساعة ٣،٣٠ من صباح يوم ٩ يوليو (تموز) استيقظت في دار الضيافة في اسلام آباد وتناولت افطارا مبكرا، ثم حملتني السيارات مع جماعتي الى مطار تشاكلالا يرافقنا وزير الخارجية سلطان خان. وكان معي من المساعدين ونستون لورد وجون هالدريدج وديك سمايسر، بالاضافة الى رجلي الامن السريين جون د. ريدي وغاري ماكلاود. وبناء على اقتراح فارلاند، كنت أرتدي قبعة ونظارة شمس لتفادي احتمال تعرف احد علي ممن يصادف مرورهم آنئذ في الشوارع. ووجدنا في انتظارنا في الجانب العسكري من المطار طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للخطوط الجوية الدولية الباكستانية، في حين كانت طائرتي الخاصة متوقفة في الجانب المدني من مطار تشاكلالا بعيدا عن مرمى البصر من طائرة البوينغ الباكستانية وتحت عيني أي صحافي وموظف في أي سفارة يتفق مروره أو وجوده. وفي الساعة ٤،٣٠ صباحا اقلعت بنا البوينغ الى بكين في رحلة طولها ٤٥٠٠ كيلومتر.

وبعد بضع ساعات، نفذت خطة التعمية في اسلام آباد، وانطلق موكب سيارات من دوني يقطع رحلة الثمانين كيلومترا الى استراحة ناثيا

غالي. وهذا ما يدعو الى التفكير.

من الامور التي لا تحدث كثيرا أن يتمكن الانسان، وهو راشد، من استرجاع الصفة التي كانت تجعله في حداثته يحس بأن الزمن قد توقف، وتضفي على كل حدث سر الجدة، وتجعل لكل خبرة مذاقا خاصا بسبب تفردها. وكلما تقدم بنا العمر رحنا نتعزى بالامور المألوفة التي أصبحت لدينا ازاءها ردود فعل محفوظة، ووجدنا أن الزمن يمضي سريعا على نحو يتناسب مع تزايد سيطرة الروتين على عالمنا، وأن الحياة قد أصبحت خليط الوان من الخبرات التي يسهل أن تحل كل منها محل الاخرى. وهنا يستوجب الامر وقوع حدث غير مألوف بالمرة، يتميز بالجدة والاثارة وبأنه غير عادي، حتى يمكن الانسان أن يسترجع براءة السنوات التي كان كل يوم من أيامها يمثل مغامرة ثمينة. وقد كان الامر كذلك بالنسبة الي وأنا في الطائرة التي تعبر قمم الحملايا المغطاة بالثلوج وتندفع نحو السماء في الوهج الوردي للشمس المشرقة.

جلسنا في الطائرة حول مائدة نتبادل الحديث هينا لينا مع أربعة من الديبلوماسيين والمترجمين الصينيين، وكأن الاتصالات بين بلدينا لم تنقطع يوما واحدا. وأخذوا هم يسبرون بلطف تلك الاسباب التي جعلتنا نصر على السرية. هل نحن نخجل من الاعتراف بأننا سنلتقي الزعماء الصينيين، فلم يكن الصينيون قد نسوا الاهانة التي وجهها اليهم وزير الخارجية الاسبق جون فوستر دالاس عندما كانت المناسبة مؤاتية ورفض مصافحة شو ان - لاي عام ١٩٥٤ في مؤتمر جنيف الذي عقد حول مشكلة الهند الصينية، وتكررت اشارتهم اليها في أثناء الرحلة وفي مناسبات عدة في اليومين التاليين وفي الزيارات اللاحقة كذلك.

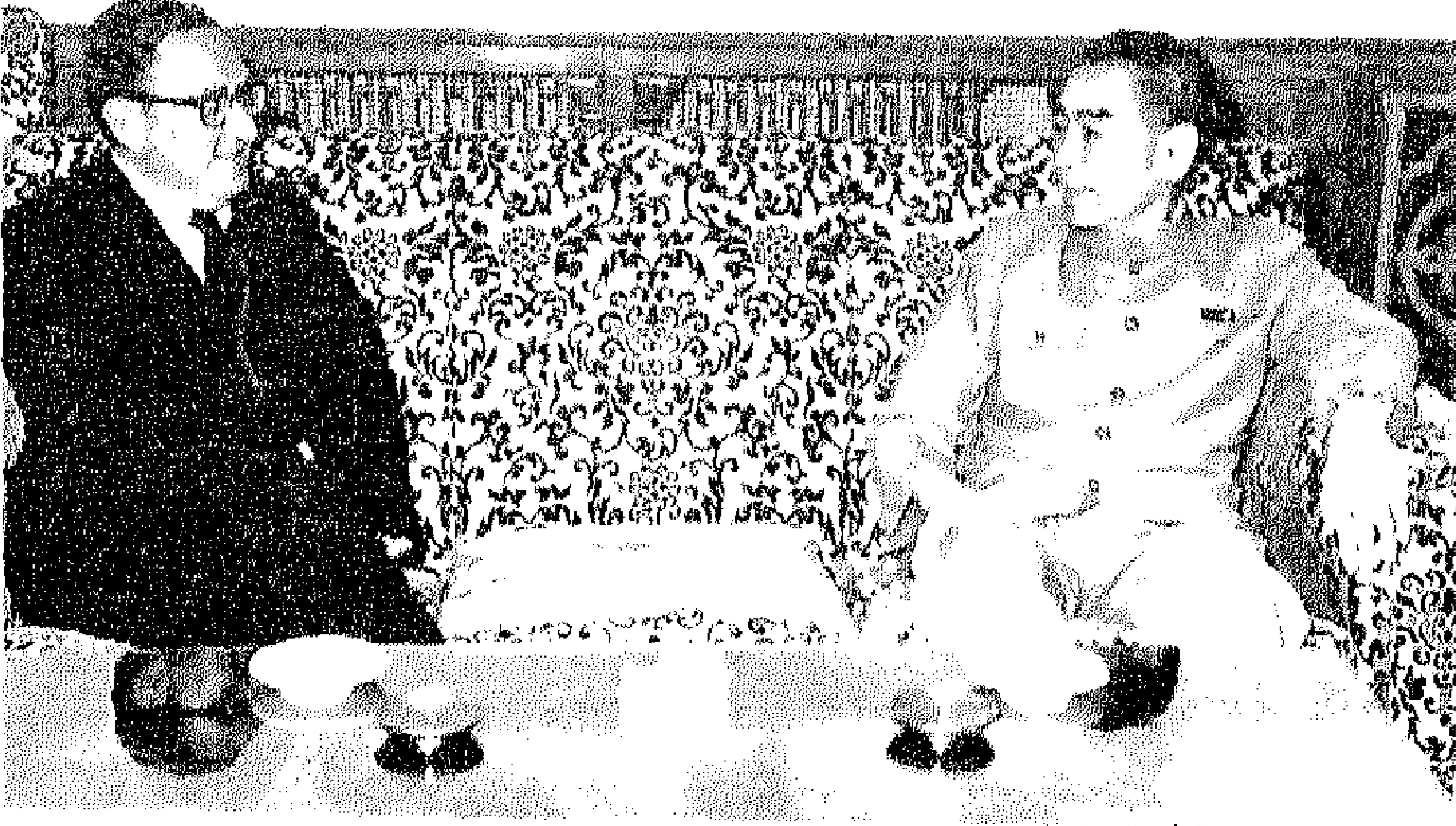
وهبطت بنا الطائرة في مطار عسكري على مشارف بكين حيث وجدنا في استقبالنا الماريشال ييه تشيان - ييننغ، وهو من ابرز أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني. واصطحبني الماريشال ييه الى المدينة في سيارة كبيرة أرخيت ستائرها. وكانت وجهتنا استراحة مخصصة لضيوف الدولة تقع، مع استراحات أخرى عدة مماثلة، في حديقة كبيرة مسورة في الجزء الغربي من المدينة.

ووصل شو ان - لاي في الساعة الرابعة والنصف عصرا. وكان أبرز ما في وجهه النحيل المعبّر عينان نافذتان يطل منهما مزيج من التركيز الشديد والراحة، ويختلط فيهما الخدر البالغ بهدوء الثقة بالنفس. وكانت حركاته رشيقة ووقورة، وهو يملأ المكان الذي يوجد فيه لا بحجمه المادي (مثل ماو تسي - تونغ أو شارل ديغول)، وانما بما يحيط به ويصحبه من جو التوتر المنضبط. وقد استقبلته عند الباب وتعمدت ان أمد اليه يدي على نحو ظاهر، فعلت وجهه ابتسامة سريعة وصافحني على الفور. كانت تلك أول خطوة نحو القاء الماضي خلف ظهورنا.

كان شو - على نقيض ماو - قد عاش خارج بلاده. فهو ولد لاسرة من الطبقة المتوسطة عام ١٨٩٨، وكان طالباً نابغة، درس وعمل في فرنسا

وألمانيا في العشرينات، واشترك بعد ذلك في المسيرة الطويلة. وكان الى ذلك رئيس وزراء جمهورية الصين الشعبية الوحيد على مدى اثنين وعشرين عاماً، جمع خلال تسعة منها منصب وزير الخارجية إلى منصب رئاسة الوزارة. وقد تفاوض شو مع الجنرال جورج مارشال في الاربعينات. وها هو أمامي شخصية من شخصيات التاريخ، يتحدث بسهولة وألفة في الفلسفة والتحليل والاستطلاع التكتيكي والردود الفكاهية. وكان امتلاكه ناصية الحقائق، خصوصاً درايته بالاحداث الامريكية - وبتاريخي أنا الشخصي فوق ذلك - أمراً يثير العجب والذهول.

كان شو إن - لاي، في اختصار، أحد رجلين أو ثلاثة تركوا في نفسي أعمق الاثر من بين جميع من التقيتهم. فهو مهذب، صبور بلا حدود، ذكي إلى درجة غير عادية، لبق، مناور، راح يشق طريقه في مناقشاتنا برشاقة نفذت إلى جوهر علاقتنا الجديدة وكأنها أمر ليس له بديل معقول. وكان تحقيق التقارب بين مجتمعين فرقت بينهما العقيدة والتاريخ إلى هذه الدرجة الكبيرة مسألة تمثل تحدياً كبيراً. وكانت الحكمة التقليدية تقضي بأن نعمل لازالة بعض اسباب التوتر الواضحة المحددة، غير انه كان هناك سبب واضح للتوتر هو تايوان وهو سبب لا يتيح مجالا لاي حل سريع. وكان الجواب الوحيد الممكن هو ان نناقش الاساسيات التي تتناول تصوراتنا للشؤون العالمية وللآسيوية خصوصاً على نحو يوضح الاهداف ووجهات



شو إن - لاي وكيسينجر في اجتماع ٩ تموز (يوليو) ١٩٧١.

النظر ومن ثم يقيم بالتالي جسراً عبر عقدين كاملين من الجهل المتبادل.

وقد حدد شو نغمة المحادثات في النصف الساعة الاول من لقائنا. وكنت اعددت كلمة افتتاحية طويلة ومملة قليلا اروي فيها تاريخ العلاقات بين الولايات المتحدة والصين حتى انتهي إلى الاجتماع القائم. وفي نهاية الجزء التمهيدي من كلمتي قلت محاولا أن اكون بليغاً: "لقد جاء زوار كثيرون إلى هذا البلد الجميل الذي يبدو لنا غامضاً". وهنا رفع شو يده وقال: "إنك ستجده غير غامض. عندما تألفه ستجد أنه ليس غامضاً كما كان يبدو". وفوجئت، الا ان شو كان محقاً

تماماً، إن علينا أن نبني الثقة ونزيل الغموض، وكان ذلك هو هدفه الاساسي معي، وهدفي الاساسي معه.

ولم يكن شو يساوم على الاطلاق من أجل كسب نقاط صغيرة. وسرعان ما تبينت ان أفضل طريقة للتعامل معه هي ان اعرض موقفاً معقولا واوضحه بدقة وعناية ثم اتمسك به. وكان شو يتصرف بالطريقة نفسها. وفي مناسبة لاحقة اعترضت على جميلتين في قسم من بلاغ يوضح وجهة النظر الصينية. وعلى رغم اننا لم نكن مسؤولين عما يقوله الصينيون، إلا اني رأيت ان هاتين الجملتين ستؤديان إلى خلاف لدى إعداد بيان مشترك. وقد عرضت ان احذف في مقابل هاتين الجملتين عبارتين مناظرتين من القسم الذي يوضح وجهة النظر الامريكية، لكن شو قال لي بنفاد صبر:"اعط جملتيك هاتين لرئيس جمهوريتك إذا احببت، فلست اريدهما. ولا داعي الى ان تتاجر معنا، كل ما عليك ان تفعله هو ان تقنعني بالسبب الذي يجعلك ترى ان في لغتنا ما يبرر الحرج". وكان شو عند كلمته، إذ اختفت من النص الصيني اكثر العبارات شدة.

إن هناك مفاوضين آخرين يلجأون في تلهفهم لاثارة اعجاب الرؤساء او الجمهور إلى اتباع ما يسمى باسلوب السلامي (البسطرمة) احياناً، فيحاولون تقسيم تنازلاتهم شرائح رقيقة إلى اقصى حد ويوزعونها على اطول فترة زمنية ممكنة. وهذا الاسلوب يعطي انطباعاً وهمياً بالصلابة. ولما كان كل من الطرفين لا يستطيع ان يحدد اي شريحة من السلامي في يد خصمه هي الاخيرة، فان ذلك يغري كلا منهما بالمزيد من الانتظار ومن ثم بالمزيد من إطالة المفاوضات. وقد وجدتني افضل على هذا كثيراً اسلوب التفاوض الذي اتبعه الصينيون معنا، وهو ان نحدد بمقدار الامكان طبيعة الحل المعقول، وننتقل إليه على الفور، ثم نتمسك بذلك الموقف.

ولم تكن لدي اي اوهام عن نظام الحكم الذي يمثله شو، كما اني لم اشك لحظة واحدة في انه يمكن ان يصبح خصماً خطيراً في خدمته لاهداف ذلك النظام. فقد تحقق المجتمع الجديد في الصين بثمن هائل أراه انا، في ضوء قيمي، فادحاً. إذ ان التضحيات التي فرضت على الحرية والتلقائية والثقافة وحياة الاسرة كلها تبدو لي اكثر مما يمكن اي مجموعة من الزعماء ان تمتلك الحق الاخلاقي في فرضه على شعبها.

وعلى رغم ذلك فقد تملكني حزن كبير عندما توفي شو، لأن وفاته تركت العالم اقل حيوية وجعلت الرؤية على مشارف المستقبل اقل وضوحاً. ولم يكن اي منا نحن الاثنين غافلا عن ان العلاقة بين بلدينا غامضة في جوهرها، او عن الاحتمال الذي يمكن ان تسفر عنه تطورات التاريخ فتجعل من طريقي امتينا مسارين متوازيين لفترة قصيرة فحسب، قد تجدان نفسيهما بعدها على طرفي نقيض. وإذا حدث وجاء ذلك اليوم، فان الصينيين سيقبلون على هذه المجابهة بالعزم والذكاء والدهاء انفسها التي اقبلوا بها على التعاون معنا. لكن

هذا كله لا ينفي ان من اثمن ما خرجت به من اشتغالي بالشؤون العامة هو اني تمكنت على مدى لحظة - مهما تكن قصيرة عابرة بمقاييس التاريخ التي لا ترحم - من العمل مع رجل عظيم عبر الحواجز الايديولوجية في الكفاح اللانهائي الذي يخوضه رجال الدولة ساعين إلى انقاذ بعض الدوام من بين براثن الوهن الشائع في بصيرة البشر.

الإعلان التاريخي

بلغت قاعدة "ايلتورو مارين كور" الجوية في كاليفورنيا في الساعة السابعةمن صباح الثلثاء ١٣ يوليو (تموز)، وقضيت الفترة بين الساعة ٧،٢٠ والساعة ٩،٣٠ صباحاً مع الرئيس، اقدم اليه بياناً تفصيلياً بما صادفت في رحلتي في غرفة مكتب متواضعة في مقره في سان كليمنتي، تطل على المحيط الهادىء.

وانضم إلينا هالدمان قرابة الساعة ٩،٣٠، فاتخذ الحديث وجهة عملية. واراد هالدمان ان يعرف حجم الفريق الصحافي الذي سيرافق الرئيس، ولم تلبث ان بدت على وجهة علائم الازدراء حين علم اني لم اعالج هذا الموضوع، ثم اخلى الازدراء مكانه من ملامحه ليحل محله عدم التصديق عندما ابلغته اني قدرت لشو إن - لاي العدد الإجمالي لمرافقي الرئيس بخمسين شخصاً تقريباً. وقال هالدمان إن رجال الامن السريين الذين يرافقون الرئيس سيتجاوزون هذا العدد، ناهيك بالصحافيين. فلم يكن هالدمان يرى اي معنى لصنع التاريخإذا لم تكن عدسات التلفزيون حاضرة لتبثه.

أدى ذلك إلى حديث طويل متبادل بين نيكسون وهالدمان حول طريقة تأمين اوسع تغطية صحافية وتلفزيونية ممكنة للزيارة، مع الاحتفاظ فيالوقت نفسه بمقدار من السيطرة على اختيار من يمكنهم الذهاب. وكان من مفاهيم نيكسون التي لا تتزعزع انه يستطيع بطريقة ما حمل الصحافة، بالابتزاز، على ان تتخذ منه موقفاً اكثر ودية، وذلك بان يحابي اولئك الصحافيين الذين يعاملونه - من وجهة نظره - معاملة منصفة. وغني عن البيان ان نيكسون لم ينجح في مسعاه هذا ابداً.

والأخطر من ذلك كان الطريقة التي سيقدم بها الرئيس الاعلان المشترك. وأشار كل دهاقين العلاقات العامة الى ان من المستحسن ايراد ذلك في احدى الخطب العاطفية التي تميزت بها رئاسة نيكسون، لكني عارضت الفكرة بشدة، لأننا كنا عند نقطة البداية في علاقة جديدة ، وكلما زاد ما نسبغه عليها من زينة كلما ثقل العبء على الديبلوماسية الدقيقة التي لا بد منها لتوثيق تلك العلاقة، ومن ثم ينبغي لنيكسون ان يترك البيان يتحدث عن نفسه، مهما يكن موجزا وغير شاف. وقد وافق الرئيس على هذا ببعض من عدم الرضا، فيما وافق هالدمان بمقدار كبير من التوجس والشك.

في الساعة ٥،٤٥ بتوقيت المحيط الهادىء يوم ١٥ يوليو (تموز)، سافرت مع الرئيس بالهليكوبتر الى لوس انجيليس، حيث توجه نيكسون الى استوديوهات شركة الاذاعة الوطنية (إن - بي - سي) في

بيربانك وألقى خطابا قصيراً استغرق سبع دقائق قال فيه:

"أسعدتم مساء، لقد طلبت الليلة هذه الدقائق من وقت البث التلفزيوني كي اعلن عن تطور رئيسي في جهودنا من اجل بناء سلام دائم في العالم... وان البيان الذي سأتلوه عليكم الآن يذاع في اللحظة نفسها في بكين:

إن رئيس الوزراء شو إن - لاي والدكتور هنري كيسينجر، مساعد الرئيس نيكسون لشؤون الأمن القومي، قد أجريا محادثات في بكين خلال الفترة من ٩ الى ١١ يوليو (تموز) ١٩٧١. ولما كان رئيس الوزراء شو إن - لاي يعلم الرغبة التي اعرب عنها الرئيس نيكسون في زيارة جمهورية الصين الشعبية فانه قام باسم حكومة جمهورية الصين الشعبية بتوجيه الدعوة الى الرئيس نيكسون لزيارة الصين في موعد مناسب قبل شهر مايو (آيار) ١٩٧٢. وقد قبل الرئيس نيكسون الدعوة بسرور.

وسيكون هدف الاجتماع بين قادة الصين والولايات المتحدة تطبيع العلاقات بين البلدين، بالاضافة الى تبادل وجهات النظر حول المسائل التي تهم الجانبين".

وتوجه نيكسون وكبار معاونيه بعد ذلك الى مطعم "برينو" في لوس انجيليس حيث استمتع الرئيس بنصر ليس فيه منازع. وكان يسير ببطء نحو مائدتنا الواقعة في مقصورة في احد الاركان وهو يتذوق حلاوة التهاني التي يتلقاها من بعض الرواد ويدعو الآخرين الذين لم يكن بلغهم النبأ بعد الى ان يتمنوا له التوفيق. ولدى مغادرتنا المطعم، تمهل مرة اخرى في قاعته الرئيسية حيث راح يوقف رواداً آخرين ليقدمني اليهم بصفتي الرجل الذي قام بالرحلة الى بكين. وكانت المناسبة مؤثرة، لأن نيكسون لم يكن فخورا، بل كان يتصرف كأنه يكاد لا يستطيع تصديق ما اعلنه منذ برهة. وساد الجو نوع من الخجل المتبادل، لأن نيكسون لم يكن يستطيع الانطلاق بسجيته مع الغرباء، كما ان الرواد الآخرين لم يكونوا متحررين من الحرج وهم يتعاملون مع رئيس الجمهورية. وقد بدا نيكسون في ساعة الانجاز والانتصار هذه مكشوفا على نحو غريب، وهو ينتظر في توقع ان يتلقى التقدير من دون ان يكون قادرا على اجتياز الهوة التي فصل بها نفسه عن بني جنسه. وبهذا المعنى، كان ذلك المشهد الذي جرى في مطعم "برينو" رمزاً حياً لانتصار ريتشارد نيكسون ولمأساته في آن.

أعقبت ذلك بضعة ايام من الاثارة والغرائب، وانهالت التهاني تترى من انحاء العالم. وكادت وسائل الاعلام تجمع على الثناء على حدث بهر خيال العالم. ولم نفتقد المشورة والنصائح، لأن كل فئة وكل جماعة كان لديها مشروعها المفضل الذي تقدمت به الى نيكسون كي ينفذه. الا ان هذه المشكلة كانت من المشاكل المحببة، اذ لم يسبق لنا أبداً ان غمرنا مثل هذا الفيض من المتطوعين الذين يعرضون تأييدهم لسياستنا.

الزيارة الثانية

كنت اخبرت شو إن - لاي أننا سنواصل التعامل مع موسكو، لكننا سنخطر بكين تفصيليا بأي تفاهم قد نبحثه مع السوفييت ويمس المصالح

الصينية، وأننا سنأخذ وجهات نظر الصين في الاعتبار. وأكد نيكسون هذه التعهدات في رسالة منه الى شو إن - لاي يوم ١٦ يوليو (تموز)، أرفقنا بها نص بيان عن خلفيات زيارتي لبكين وزعته على الصحافيين يوم ١٦ يوليو (تموز)، وكانت تلك مجاملة منا تستهدف اثبات حرصنا على رعاية العلاقة الجديدة.

كانت تلك الرسالة اول اتصال جرى عن طريق حلقة اتصال جديدة في باريس تم الاتفاق عليها في بكين. وقد اتيحت لنا مناسبات كثيرة لاستخدام حلقة الاتصال هذه، حيث تبادلنا بين اول اغسطس (آب) ونهاية سبتمبر (أيلول) عدداً من الرسائل يزيد عما تبادلناه على مدى العشرين عاما السابقة. وكان احد موضوعات هذه المبادلات قيامي برحلة ثانية الى الصين من اجل الاعداد لاجتماع القمة في بكين. وكان شو إن - لاي متلهفاً لذلك، ربما لكي يمحو وصمة السرية التي علقت بزيارتي الأولى.

ولم تكن هذه المبادلات تخلو من لحظات التوتر والضيق. ومثال ذلك ان الصينيين، على رغم امتداد تاريخهم عبر آلاف السنين، لم يسبق لهم ابدا ان استقبلوا جماعة طليعية للاعداد لزيارة رئيس جمهورية خصوصا جماعة قد شحذت مهاراتها الرحلات الشاقة المضطربة التي يقوم بها مرشح للرئاسة في قلب امريكا، وفرض عليها انضباطها الصارم ذلك الهوس الفريد بالعلاقات العامة الذي تميزت به رئاسة نيكسون.

انطلقت الى وجهتي يوم ١٦ اكتوبر (تشرين الأول) في طائرة رئيس الجمهورية، اجرب الطريق الذي رسم لرحلة نيكسون بما يتخلله من توقف في هاواي وغوام، بقصد اتاحة الفرصة لمرافقي الرئيس للوصول الى الصين من دون ارهاق مفرط بسبب اختلافات الوقت وتأثير الطيران النفاث مدة طويلة. ووصلت الى بكين في ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول).

واكتشفنا لدى دخول غرفنا ان كلا منها يحتوي على نشرة دعاية باللغة الانكليزية تحمل على غلافها نداء الى شعوب العالم كي "تتخلص من الامبرياليين الامريكيين وكلاب صيدهم"، كما كانت هناك لافتات مشابهة مدهونة على طول الطريق الذي سيسلكه موكب سيارتنا، معظمها بالصينية ولكن فيها لافتة واحدة او اثنتين بالانكليزية. ولم تكن لدي اي نية لتقبل الاهانات مهما تكن الأهمية التي اعلقها على العلاقات الامريكية - الصينية، فأصدرت تعليماتي الى معاون لي بأن يسلم النشرة الموجودة في غرفتي الى احد موظفي البروتوكول الصينيين مع الحرص على ان يذكر له ان وجودها في الغرفة لا بد من ان يكون نتيجة نسيان لها من جماعة الضيوف السابقين، كما امرت بجمع كل النشرات الأخرى المماثلة وتقديمها الى الصينيين من دون تعليق.

وفي ساعة لاحقة من ذلك اليوم استقبل شو إن - لاي فريقنا باكمله في قاعة الشعب الكبرى، واقتصر اجتماعنا الأول على العموميات وجدول الأعمال، ثم اقام شو إن - لاي مأدبة على شرفنا شرب فيها نخبا بالغ



كيسينجر يزور جدار الصين الكبير في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧١.

اللطف والترحيب، يخلو من اي اشارة الى الخلاف الايديولوجي او الى الحرب في الهند الصينية. ونظرا الى ان صيغة هذا النخب لم تنشر، ولأنه كان اقل اتساما بالصفة الرسمية، فاني اورده هنا لأنه يعطي صورة عن اسلوب شو أفضل من تلك التي تعطيها الأنخاب الرسمية. قال شو إن - لاي:

"دكتور كيسينجر، أيها الأصدقاء

أود ان انتهز هذه الفرصة كي ارحب بالمبعوث الخاص للرئيس نيكسون - الدكتور كيسينجر - وبالأصدقاء الامريكيين الآخرين الذين جاؤوا الى الصين في هذه الزيارة العابرة. ان صفحة جديدة ستفتح الآن في تاريخ العلاقات بين الصين والولايات المتحدة الامريكية، بعد ان ظلت هذه العلاقات مقطوعة طوال ٢٢ عاما. ويجب ان نقرر ان الفضل في ذلك ينبغي ان ينسب الى الرئيس ماو تسي - تونغ والى الرئيس نيكسون. وكان ضروريا في طبيعة الحال ان يكون هناك شخص يقوم بمهمة الدليل، وهذا الشخص هو الدكتور كيسينجر الذي اقدم بشجاعة على القيام بزيارة سرية للصين التي يزعمون انها "بلد الأسرار". لقد كان ذلك عملا طيباً حقاً. وها هو الدكتور كيسينجر الآن يقوم بزيارته الثانية للبلد الذي ينبغي الا يعتبر بعد الآن "سراً". وقد جاءنا الدكتور كيسينجر كصديق مصطحبا معه عددا من الاصدقاء الجدد. وفي ما يتعلق بي، فانني لم أزر الولايات المتحدة أبداً، لكني اعرف عدداً لا بأس به من الأصدقاء الأمريكيين،

كما ان الولايات المتحدة ليست غريبة علي" تماما.

ومن الواضح ان النظامين الاجتماعيين في بلدينا مختلفان، وأن نظرة كل منا الى العالم - وهي ما يحب الدكتور كيسينجر ان يسميه "فلسفة" - تختلف عن نظرة الآخر اختلافا تاما لكن هذا ينبغي الا يمنعنا من ان نجد ارضا مشتركة.

اني اقترح ان نشرب نخب الصداقة بين الشعب الامريكي العظيم والشعب الصيني العظيم، ونخب صحة الدكتور كيسينجر وجميع اصدقائنا الآخرين".

وراح شو إن - لاي بعد العشاء يتجول في القاعة، يصافح الحاضرين ويدق كأسه بكأس كل فرد في المجموعة التي تصاحبني، فحدد بذلك النغمة الدافئة التي سادت بقية الرحلة التي رتبها المنظمون الصينيون بعناية قصد تعويد الشعب الصيني على العلاقة الجديدة.

غير انه كان على الصينيين اولا ان يسوّوا موضوع النشرات الدعائية التي وجدناها في غرفنا واللافتات التي طالعناها في طريقنا الى المدينة. وقد حضر لزيارتي نائب وزير الخارجية في بيت الضيافة في اليوم التالي لوصولنا لمرافقتي الى اجتماع مع شو إن - لاي. ونحن في طريقنا بالسيارة الى قاعة الشعب الكبرى اوضح لي هذا المسؤول ان لكل امة وسائلها في الاتصال بشعبها، فنحن في امريكا نستخدم الصحف والتلفزيون وهم في الصين يستخدمون الملصقات الجدارية: ثم اشار الى احد هذه الملصقات فنظرت الى الموضع الذي كانت فيه امس لافتة تندد بالامبريالية الامريكية، واذا بي ارى لافتة باللغة الانكليزية تقول: "مرحبا بمباريات البنغ بونغ الافرو - آسيوية". وبعد ذلك ببضع دقائق قال لي شو إن - لاي إننا ينبغي ان نلتفت الى اعمال بكين، وليس الى خطابياتها، فالدعاية المناهضة لامريكا لا تزيد على كونها "اطلاق مدفع فارغ".

تميزت بقية زيارتي بما لقيته من كياسة وود غالبين، كان الأهم منهما ايضا ذلك الجهد الكبير الذي بذل لكي يستقر في وعي الجمهور الصيني ان الامريكيين جاؤوا الى بلادهم ضيوفا مكرمين. ففي يوم وصولنا، نشرت صحيفة الحزب الرسمية قائمة باسماء اعضاء لجنة الترحيب الرسمية الذين بدا من علو مناصبهم مدى الأهمية التي تحظى بها الزيارة. وفي ٢١ اكتوبر (تشرين الأول) نشرت صحيفة "الشعب" صورتين لشو ولي، وكانت تلك اول مرة منذ عشرين عاما تنشر صورة مسؤول امريكي الى جانب صورة زعيم صيني. اما المشكلات الفنية فقد حلت نفسها بنفسها، بالسهولة التي اتاحتها العزيمة المتهوسة لرجال الطليعة. وجاء رجل الاتصالات يحمل خطة طموحة لو نفذت لأدت الى مصادرة جميع الخطوط الهاتفية في بكين لحساب الزيارة. وقلت لشو ان في وسعه متى انتهى رجالنا من عملهم، الاتصال بواشنطن فوراً، الا ان تمكنه آنئذ من الاتصال بشنغهاي سيكون أمراً آخر. واستطاع قائد فريق الأمن في مجموعتنا لفت النظر اليه عندما طلب قائمة بالاشخاص المشاغبين الذين يوجدون في كل منطقة يحتمل ان يزورها

الرئيس نيكسون. وأثار سؤاله قضية تبعث على الاهتمام، لأن السائد في الصين هو اعتبار الجمهوريين المحافظين من المشاغبين الانقلابيين من دون أدنى شك، ولو كنا سألنا عن عدد المتعاطفين مع الشيوعية لجاءنا الرد الذي يهز الأعصاب انهم ٨٠٠ مليون شخص.

عد إلينا قريبا

وقضينا - شو وأنا - ٢٥ ساعة معاً نعرض الأوضاع العالمية، فضلا عن ١٥ ساعة اخرى امضيناها في اعداد بيان اصبح يعرف باسم "بلاغ شنغهاي". وكان اكثر اجتماعاتنا اثارة هو ذلك الذي عالجنا فيه امر البلاغ. والمراقب الخارجي لديه ميل الى اعتقاد - يشجعه عليه رؤساء الحكومات - مؤداه ان هذه البيانات المشتركة تظهر الى الوجود تلقائيا من واقع المناقشات التي يزعم البيان انه يلخصها لكن النقيض هو الصحيح عادة، اذ ان مناقشات رؤساء الحكومات تجري في اطار يحدده بلاغ يتم اعداده مقدما في العادة.

وكان نيكسون رأى واعتمد مسودة بلاغ توليت انا اعداده مع معاوني. وكان هذا البلاغ يلتزم الأسلوب التقليدي فيبرز مواضع الاتفاق المهمة ويلقي في الظل بنواحي الخلاف مغرقاً إياها في التعميمات المألوفة التي لا تأتي بجديد. وقد سلمت هذه المسودة لشو إن - لاي مساء ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول). وفي المساء التالي اوضح لي شو إن - لاي رد فعله المبدئي قائلا ان الصينيين يودون ان يضيفوا وجهات نظرهم في بعض المواضع، وأن نائب وزير الخارجية تشي بنغ - في سيبدأ معي عملية اعادة الصياغة في الصباح التالي.

وشد ما كانت دهشتي في الصباح التالي عندما وجدت امامي في الموعد المقرر رئيس الوزراء نفسه. وعلى غير اسلوبه المتميز، القى شو خطاباً عنيفا استغرق ساعة كاملة، معلنا ان اسلوبنا غير مقبول بالمرة. فالبيان يجب ان يوضح الخلافات الأساسية بجلاء، والا بدت عباراته "في مظهر يجانب الحقيقة" فضلا عن ذلك فان علينا ان نتخلى عن ارتباطاتنا مع تايوان. اما مسودة البيان التي نعرضها حاليا فهي من نوع التفاهة التي يمكن ان يوقع عليها السوفييت من دون ان يعنوا كلمة واحدة منها او يلتزموا بها.

ورددت عليه بشدة غير معتادة، فقلت إنني احترم قناعات شو، لكن الاعلانات عن العقائد التي لا يرقى إليها الخطأ لا مكان لها في بلاغ محادثات. ولا شك في ان الصينيين لن يحترمونا إذا بدأنا علاقتنا الجديدة بخيانة اصدقائنا القدامى. إننا لن نتخلى عن روابطنا مع تايوان. اما المشكلات القائمة بيننا فيجب ان يحلها التاريخ وليس القوة. ونحن لم نأت هنا لمجرد تسجيل الخلافات الفلسفية، بل لكي نخط طريقاً إلى المستقبل.

وعقب فترة استراحة، قال شو إنه سيقدم مسودة بلاغ مقترحة في موعد لاحق من اليوم. وقد جاءت مسودة البلاغ في صورة لم يسبق لها مثيل، إذ سجلت موقف الصين تجاه مجموعة كاملة من القضايا في عبارات صارمة قاطعة، وتركت صفحات بيضاء كي

نسجل عليها موقفنا الذي افترض انه مناقض. وكانت العبارات الخاصةبتايوان في غاية التصلب.

وقد ذهلت في البداية، لأن اختتام زيارة لرئيس الجمهورية ببيان يعدد نواحي الخلاف امر شاذ تماماً. غير اني حين امعنت التأمل بدأت ارى ان جدة هذا الاسلوب في ذاتها قد تخرجنا من حيرتنا. ذلك ان بيان الخلافات من شأنه ان يطمئن الحلفاء والاصدقاء إلى ان مصالحهم كانت موضعاً لحمايتها والدفاع عنها، واذا استطعناان نتوصل إلى ذكر بعض المواقف المشتركة، فانها ستبرز عندئذ في صورة قناعات حقيقية يتمسك بها زعماء ذوو مبادىء. وسيتيح لنا ذلك ان نتفادى تفسيرات العبارات المكررة المألوفة الممجوجة التي هي آفة البلاغات المعتادة.

وقلت لشو إني اتقبل نهجه في اساسه، وان يتضمن البلاغ بياناً مطولا باوجه الخلاف، غير ان بعض الصياغات الصينية قد وضعت في قالب متصلب غير مقبول ولا يمكن الرئيس نيكسون ان يضع توقيعه على وثيقة تردد مواقف دعائية ثابتة تنشرهاالصحف كل يوم.

وتولى ونستون لورد إعادة صياغة مسودة البيان في حين انتزعت أنا ثلاث ساعات من النوم، ثم نام هو وتوليت انا مراجعة مسودته في ما تبقى من الليل. وقد ركزنا جهودنا على تلطيف لغة التعبير عن المواقف الصينية وكتابة الاقسام التي تعبر عن مواقف الولايات المتحدة، وإبراز عدد من نقاط الاتفاق.

كانت مسودتنا المضادة موضوعاً لجلسة استغرقت يوماً بطوله. وكانتقضية تايوان اصعب القضايا، كما هو متوقع. وكنا في حاجة إلى صيغة تعترف بوحدة الصين، وهي النقطة الوحيدة التي تتفق عليها تايبيه وبكين، من دون ان يتضمن ذلك تأييداً لمطالب اي منهما. وانتهيت اخيراً إلى التعبير عن الموقف الامريكي الخاص بتايوانعلى النحو الآتي:

"إن الولايات المتحدة تقر بأن جميع الصينيين على كل من ضفتي مضيق تايوان يتمسكون بأنه ليست هناك سوى صين واحدة، وليس لدى حكومة الولايات المتحدة اي اعتراض على هذا الموقف".

ولا اعتقد ان اي شيء قلته قد اثر في شو إن - لاي بمقدار ما اثرت فيه هذه الصيغة ذات الحدين والتي استطاع كلا الجانبين ان يتعايشامعها زهاء عقد كامل من الزمان.

وفي الساعة ١١،٣٥ مساء طلب الصينيون رفع الجلسة موقتاً، ثم جاؤوا في الساعة ٤،٤٥ صباحاً وقدموا الينا مسودة صينية جديدة، واعقبت ذلك عودة شو إن - لاي في الساعة ٥،٣٠ صباحاً. وقضينا - هو وأنا - بضع ساعات اخرى في تنقيح النص حتى الساعة ٨،١٠ صباحاً، عندما اتفقنا على الخطوط العريضة الرئيسية للبيان بعد جلسة استغرقت ٢٤ ساعة متواصلة من دون توقف تقريباً.

وكنا حددنا موعد رحيلنا في الساعة ٩،٠٠ صباحاً، فاخذني شو معهحتى باب بيت الضيافة، وخاطبني باللغة الانكليزية للمرة الاولى قائلا: "عد إلينا قريباً كي نستمتع بالحديث".

ولم تكد طائرتي تقلع في اتجاه الوطن حتى اضطربت مفاتيح المبرقة الكاتبة (التليبرينتر) تنقل إلينا نبأ فقدنا لمعركة المحافظة على مقعد تايوان في الامم المتحدة. وقال لي شو إن - لاي في ما بعد إنه كان علم بنتيجة التصويت في الامم المتحدة قبل سفري مباشرة، لكنه لم يشأ إحراجي بان يكون هو اول من يخبرني.

واحتلت بكين مقعدها في الامم المتحدة، وكان ذلك مصحوباً بدعابة خاصة بين شو وبيني لم يفهمها احد سوانا. ذلك ان نائب وزير خارجية الصين تشياو كوان - هوا اوضح بجلاء ان الصين لا تهدر شيئاً ابداً عندما ادرج في اول خطاب له في الامم المتحدة كل الجدليات التي كنت حذفتها من البلاغ. عندئذ اصدرت تعليماتي بدوري إلى سفيرنا في الامم المتحدة جورج بوسن ان يعرب عن اسفه لان بكين رأت ان تبدأ مشاركتها في هذه المنظمة العالمية "بإطلاق مدافع الخطابة الفارغة هذه". وقد فهم شو إن - لاي ما اقصده، على رغم ان بعض كتاب الافتتاحيات في الصحف وجدوا ان هذه العبارة خشنة، بينما تعجب آخرون لغرابة الاستعارة.

وحدث في عطلة "عيد الشكر" (رابع يوم خميس في شهر نوفمبر - تشرين الثاني) ان كنت في طائرة رئيس الجمهورية متوجهاً إلى سان كليمنتي مع ابني ديفيد الذي يبلغ من العمر تسعة اعوام. واخذ الصحافيون يشاغبون الصبي، فسألوه عما إذا كان يعرف الموعد - الذي كان لا يزال سراً - المحدد لرحلة نيكسون إلى الصين. وكان ديفيد سمع شهر مارس (آذار) يذكر في الراديو، فأجابهم بذلك، واسرع الصحافيون مبتهجين ينقلون ذلك على انه نصر صحافي، وقضيت بعد ذلك اياماً عدة يتعقبني صحافيون يريدون ان يعرفوا ما إذا كنت اعتزم "تكميم" ابني عقاباً له على إذاعة اسرار الدولة. غير ان تقارير الصحافة عما "افشاه" ديفيد كانت خاطئة تماماً، مثل التقرير الاخباري الذي سمعه الصبي في الراديو وذكر لهم الموعد الوارد فيه. وفي ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) اعلن البيت الابيض ان تاريخ زيارة نيكسون لبكين الذي تم الاتفاق عليه هو - لحسن حظ ابني - يوم ٢١ فبراير (شباط) ١٩٧٢.

إن العام الذي بدأ برسائل اختبارية غير مباشرة لبكين عن طريق اطراف ثالثة انتهى بمحادثات مباشرة وباقامة قنوات اتصال عدة مباشرة. وبعد ان ظلت اتصالاتنا بالصينيين منقطعة مدة عشرين عاماً كاملة، اجرينا معهم اشمل عرض للعلاقات الدولية عرفته طوال خبرتي الديبلوماسية. وها هو رئيس الولايات المتحدة على وشك زيارة العاصمة الصينية، وقد تم الاتفاق بالفعل على كل العناصر الجوهرية للبلاغ الذي سيصدر عن زيارته. لقد اتخذنا خطوة عملاقة أحدثت تحولا كبيراً في ديبلوماسيتنا، واضفينا على سياستنا الخارجية مرونة جديدة.

حقيقة إن الطريق امامنا كان في طبيعة الحال لا يزال طويلا، ولكننا كنا انطلقنا من نقطة بداية جديدة.

■ **هنري كيسنجر**


كتاب الشهر
حوار مع ناس في العالم الآخر!
ملخص من كتاب بقلم جون فولر

حوار مع ناس في العالم الآخر!

الغوامض التي اكتنفت الكابتن رايموند هنشكليف ومركبته الجوّية من طراز "ر-١٠١" في اواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من هذا القرن خلفت أصواتاً لها رجعى في زماننا. واذا كانت تلك الغوامض لا تزال خفية، إلاّ ان المؤلف جون فولر يبوبها ويبسطها في تسلسل كامل وانسجام دقيق يفضيان به الى تدوين سفر آسر يعدّ من أفضل السجلات الوثائقية في ميدان الاختبارات الروحية الخارقة للطبيعة في الأزمنة الحديثة.

وفي معرض حديثه عن هذا الكتاب، يقول تشارلز غيبس - سميث، استاذ تاريخ الفضاء سابقاً في قسم بحوث ليندبرغ التابع لمتحف الجو والفضاء الامريكي، ما يأتي:

"كان لا بد من تأليف هذا الكتاب. وإني أشعر بامتنان عميق لظهوره في خريف حياتي وحياة ابناء جيلي. واعتقد انه سيصبح من اعظم المراجع للدلالة على استمرار الوجود البشري بعد الموت".

وقع صباح ١٣ مارس (آذار) ١٩٢٨ ما أطلق العنان لسلسلة من الأحداث قادت عدداً كبيراً من المتبصرّين ذوي الفطنة، وحتى من المشككين، الى استنتاج ان ثمّة حياة بعد الموت.

بدأت تلك الأحداث في بلدة غرانتام الانكليزية، وفي مكان لا يبعد كثيراً عن نقطة انطلاق اولئك القوم الذين شرعوا قبل نحو ٣٠٠ سنة من ذاك التاريخ بتأسيس مستعمرتهم على خليج ماساتشوسيتس. ويجمع بين الحدثين هدف واحد مشترك، هو: رحلة آمنة الى "العالم الجديد"، مع فارق انها، في هذا العصر، تتمّ على متن طائرة ستينسون الاحادية السطح المسماة "المسعى" - ولكم كان هذا الاسم لائقاً بها. أما الطيار الذي سيتولى قيادتها الآن فهو الكابتن رايموند هنشكليف الذي لم ينجح أحد قبله في رحلة كهذه، بل لاقى كثيرون حتفهم في المحاولة.

كان هنشكليف من أعظم الطيارين المحنكين في زمانه. وقد اسقط في الحرب العالمية الأولى سبع طائرات المانية وحاز وساماً من أرفع الأوسمة البريطانية، هو وسام صليب الطيران. وقد أصيب برصاصة المانية أفقدته حاسة البصر في عينه اليسرى، فوضع فوقها عصابة لازمته حتى آخر أيامه. لكنه، على رغم اصابته، استطاع ان يحقق ٩٠٠٠ ساعة طيران مع الخطوط الجوية التجارية بعد الحرب.

وبدا ظاهرياً ان هنشكليف سيصحب في رحلته الجوية الى العالم الجديد رفيقه الطيار الكابتن غوردون سينكلير الذي كان مثله، في الثلاثينات من عمره، ومفعماً بالحماسة العارمة للتحليق في الجو التي تميزت بها تلك الحقبة الأولى من تاريخ الطيران. بيد أن رفيقه الحقيقي - بل الحري ان نقول رفيقته الحقيقية - هي إلسي ماكيه، الممثلة البارعة الممتلئة حيوية. وهي، الى ذلك، فارسة لها على ظهور الخيل صولات وجولات، فضلا عن كونها مهندسة بحرية احترفت الطيران. وأكبر من هذا وذاك انها أغنى الوريثات في انكلترا. فأبوها جيمس ليل ماكيه هو اللورد انشكيب، قطب شركة الملاحة "بي آند أو".

كان هنشكليف قد عقد العزم منذ سنوات على ان يقهر المحيط الاطلسي طيرانا. ولم يحفزه على ذلك طلب المجد وحده، بل كان يبغي أيضاً تأمين المال والضمان الاجتماعي له ولزوجته التي يحبها ولسائر افراد اسرته. ولهذا قدّر هنشكليف احتياجاته المادية بعناية وحرص، طالباً عشرة آلاف جنيه استرليني اجراً لرحلته، وهو مبلغ كان يُعدّ في العشرينات ثروة طائلة.

ومن ناحية اخرى، أقنعت السي ماكيه المسؤولين في وزارة الطيران البريطانية بأن يُعرّفوها على هنشكليف، واستحلفتهم كتمان الأمر لأنها كانت تطمح الى ان تكون المرأة الاولى التي تعبر الاطلسي جوّاً. ولو درى والدها سرها لبذل قُصارى جهده في ردعها واحباطها.

وهكذا تكفلت ماكيه بالضمانات المالية للرحلة، وأمّنت على حياة هنشكليف بمبلغ عشرة آلاف جنيه. وحين بحث هنشكليف المشروع مع زوجته اميلي، اتفقا على انّ الوقت قد حان: فإما الاقدام الآن واما

الاحجام أبداً، اذ من المؤكد ان تضعف حاسة البصر في عينه السليمة وتؤثر على مستقبله كطيار في الخطوط الجوّية التجارية، ناهيك بأنه قد يحقق الفخار لبلاده انكلترا والعزّة والدعة لأسرته، باعتباره اول طيار يجتاز المحيط الاطلسي جواً من شرقه الى غربه بعدما قطعه ليندبرغ من الجهة المعاكسة.

غير ان جوهر المسألة كلها هو موضوع التأمين على حياته. واذا ما وقع شرُّ الاحتمالات طراً، فلن تُسدّ ابواب الحياة الكريمة في وجه اميلي وطفلتيها. والحق ان احتمال وقوع مأساة قد خطر في بالهما. ولم يكن الدين يلعب في حياتهما دوراً كبيراً. ومن المرّات النادرة التي تطرقا فيها الى ذكر الدين تلك المناسبة التي طالعا فيها مقالاً نشرته صحيفة "الصنداي اكسبرس" اللندنية حول استحضار الارواح واحتمال استمرار الحياة بعد الموت.

والجدير بالذكر ان تلك الفترة التاريخية تميزت بعزوف السير آرثر كونان دويل عن متابعة تأليف روايات شرلوك هولمز وانكبابه على اكتشاف الميدان النفسي. كما تميزت باقتناع الفيلسوف الفرنسي الكبير هنري برغسون، الحائز جائزة نوبل، باستمرار الحياة بعد الموت، وبدراسات كارل يونغ للظواهر الروحية التي خلفت في نفسه انطباعاً قوياً عن واقعيتها جعله يحثّ الآخرين على دراستها علمياً. وقد كتب سيغموند فرويد نفسه في إحدى رسائله: "لست واحداً من اولئك الذين يستهجنون منذ البداية دراسة ما يُسمى بالظواهر النفسية الخفية على اعتبار أنها ظواهر غير علمية او تافهة او حتى خطرة".

على ان هنشكليف وزوجته بحثا المقال في صحيفة "الاكسبرس" باقتضاب. وأسرّ هنشكليف في حينه الى زوجته عن حقيقة مشاعره ازاءها، قائلا انها "هراء محض".

لقد انقضى الآن نحو اسبوعين على بداية شهر مارس (آذار)، ولا يزال هنشكليف عاكفاً على فحص طائرته واعادة التدقيق فيها، الى ان آزفت الليلة الثانية عشرة من الشهر فبات مستعداً للرحيل. وما ان أطلّ صباح اليوم التالي حتى كانت "المسعى" ترتجف كالريشة في مهب الريح العاتية فوق المدرج العشبي المقفر في مطار كرانويل قرب غرانتام، بانتظار ساعة الصفر.

كان غوردون سينكلير، شريك هنشكليف الاسمي في تلك الرحلة، اول من صعد الى متن الطائرة. وفي تمام الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين، صعدت السي ماكيه وحلت مكانه في قمرة القيادة المكتظة. وبعدها اعتلى هنشكليف هيكل الطائرة التي راحت تتهادى بثقل فوق المدرج الى ان أقلعت متعالية فوق سطح الأرض ثم غابت في أبعاد الفضاء.

اما الاتصال التالي الذي تمّ من جانب هنشكليف بعدئذ فكان على مقدار من الغرابة يتعذر معه التصديق حتى بعد اجراء فحوص صارمة للظروف التي احاطت بذلك الاتصال.

حلم المستقبل

على رغم النجاح الذي حققه ليندبرغ أخيراً وما تبعه من حرارة

الجهود الرامية الى تقليد مأثرته، فان الناس في العشرينات من هذا القرن لم يعيروا اهتماما بالغاً للآلات الصغيرة التي لم تتفوق كثافتها على كثافة الهواء إلا قليلا، ولم يعتبروها وسائل صالحة للتنقل عبر مسافات شاسعة. ولا غرو في ذلك - فأيّ مسافر عبر المحيط سيتشوّق الى زجِ نفسه وسط اسطوانات البنزين وغيرها من لوازم الطيران ليجلس فوق كرسي صلب داخل طائرة في حجم الفراشة؟

من هنا كان الأمل الوحيد في الطيران هو بناء منطاد او مركبة فضائية متينة قابلة للتوجيه. وبدا ان في الامكان صنع مركبات جوية على نمط طائرات زبلين الالمانية التي حملت الرعب والدمار الى لندن إبان الحرب الأخيرة، وادخال تحسينات عليها لتغدو وسائل ذات حمولات معقولة لقطع المحيط الاطلسي.

وبحلول العام ١٩٢٨، اوشكت بريطانيا، التي كانت تنافس كلا من الولايات المتحدة والمانيا في ميدان الطيران، على الانتهاء من بناء اضخم مركبتين جويتين من نوعهما في العالم، وهما "ر-١٠٠" و"ر-١٠١" اللتان حملتا جُلّ آمال عصر الامبراطورية الجوي، وهي الآمال في تقريب المسافات بين اطراف الامبراطورية بحيث يتمّ الوصول الى الهند في خمسة ايام او ستة، والى كندا في ثلاثة أيام، والى اوستراليا في عشرة ايام. وهكذا تجسد مشروع بناء فنادق هوائية ضخمة بعدما كان حلماً من احلام اليقظة. وما ان العمل على بناء "ر-١٠١" التي يبلغ طول هيكلها ٢٢٣ متراً قد بلغ الآن مرحلته الثالثة والأخيرة.

وتجدر الاشارة الى ان الميجور اوليفر فيلبيرز، كبير المساعدين في سلك المخابرات في وزارة الطيران، كان، ساعة اقلاع "المسعى" في مغامرتها الجوية الخطرة، منهمكاً جداً في اشغاله. فقد توجب على هذا الرجل الذي يناهز الرابعة والاربعين والذي تزين صدره اوسمة عدة تقديراً لبطولته في الحرب، ان يُلم بكل شاردة وواردة متعلقة بشؤون الطيران وتطوره في ارجاء الامبراطورية كلها. وما كاد بناء "ر-١٠١" ينتهي حتى اقتضى ذلك منه مزيداً من التنبه واليقظة، خصوصاً لأن رئيسه السير سفتون برانكر، نائب ماريشال الجو ومدير الطيران المدني، رجل برم ضيق الصدر، وكثيراً ما يفاجئه رافعا نظارته ذات الزجاجة الواحدة في الهواء وصائحا به: "أف منك ايها الرجل! ألا تستعمل عقلك؟".

والحق يقال ان جزءاً من تلك الضغوط التي تراكمت على كاهل فيلبيرز لم تكن سوى نتيجة لتولي الحكومة بناء الطائرة "ر-١٠١" بينما كانت شركة "فيكرز" المدنية تتولى بناء الطائرة "ر-١٠٠". ولم يُخفِ وزير الدولة للشؤون الجوية اللوردَ طومسون، وهو من مقاطعة كاردينغتون، حقيقة مشاعره في إيثار الطائرة الحكومية. وازداد من جرّاء ذلك أوار المنافسة بين القطاعين الخاص والعام.

على ان ثمة سبباً آخر في إلحاح الحكومة، وهو ان اللورد طومسون، المعتد بنفسه، كان يصبو الى تقلد منصب نائب الملك في الهند. ولهذا اراد ان تقلع به الطائرة الحكومية الى بلاد الهند في أقرب فرصة.

وفي أثناء هذه الفترة كانت هناك امرأة في الثلاثينات من عمرها، دكناء الشعر دافقة الحركة، استرعت اهتماماً كبيراً من كبار المفكرين. اسم هذه المرأة ايلين غاريت، وقد مرّت في طفولتها بتجربة مريعة من الاستبصار او القدرة على معرفة المستقبل. وحين شبّت بدأت ترى بعين مخيلتها مشاهد من حيوات اشخاص عرفتهم، معكوسة بالألوان على شاشة فضية باطنية. وعلى سبيل المثال، فقد رأت خلال حضورها حفلة عشاء صاخبة في فندق "سافوي" في لندن ايام الحرب العالمية الأولى مشهد انفجار قنبلة مزّقت زوجها أشلاء. وبعد مرور يومين على تلك الرؤية، أكدّت لها وزارة الحربية صحّة مشاهدتها.

شعرت ايلين بقلق عظيم ازاء هذه القدرات الظاهرة لانها كانت امرأة واقعية تتخذ من النتائج العملية مقياساً لتحديد قيمة الظواهر وصدقها، فضلا عن كونها مفكرة لها اصدقاء ومعارف، من بينهم عمالقة امثال جورج برنارد شو ود.هـ. لورنس وجيمس جويس وهـ.ج. ويلز وروبرت غريفز وكارل يونغ والدوس هكسلي ووليم بطلر بيتس وآرثر كونان دويل وآخرين كثيرين. ومع ان ثقافتها لم تكن اكاديمية، الا انها كانت تضارعهم بديهة وادراكاً.

وقادتها رغبتها في التحليل النفسي الى العالم الاسكوتلندي هيوات ماكنزي المتقد حماسة لعلوم النفس، وهو مؤسس "الكلية البريطانية لعلم الاستجابات للمؤثرات الروحية الخارقة للطبيعة". وكان هيوات في البدء ينزع الى التشكيك، غير انه اقتنع تدريجاً بصحة الظواهر النفسية الخارقة والحياة بعد الموت وامكان الاتصال مع الموتى. بيد انه ظلّ، على سالف عهده، متعنتاً، شديد التمسّك باعتراضاته على كل ما قد يبدو تحايلا او خداعاً في هذا المجال. وبين العديد من الوسطاء - وهم اولئك الذين يتمتعون بملكة الاستجابة لمؤثرات نفسية خارقة - كانت ايلين غاريت الوسيط الذي اثار اهتمامه اكثر من سواه. وقد يكون سبب ذلك رفضها الخزعبلات ورغبتها مثله في التوصل الى معرفة الحقيقة.

وذات يوم كانت ايلين تمشي في حدائق هولاند بارك في لندن، واذا بها ترى في مخيلتها مركبة عملاقة تنبلج من بين الغيوم وتتهادى غرباً ببطء، ثم تجنح وتتأرجح وتغوص في اتجاه الارض فيما كانت تنبعث من هيكلها سحب الدخان التي ملأت قمرة القيادة وخزانات الوقود تحت الجناح. وتغيب الطائرة أخيراً في غياهب السحب التي اكتنفتها. وأحسّت ايلين لتوّها بالخدر يدبّ في أوصالها ويكاد يُفقدُها كلّ احاسيسها من جرّاء الصدمة. ومما زاد في هول المشهد تذكرها رؤية منظر مماثل قبل عامين فقط من ذلك التاريخ، اي عام ١٩٢٦، حين خرجت في نزهة مع كلبها الى حدائق هايد بارك. ولهذا أخذت ايلين تتفقد اعمدة الصحف طوال الاسبوع التالي بحثا عن نبأ سقوط طائرة، فلم تجد له اثراً. فتعاظم اضطرابها واخذت تتساءل عما اذا كانت رؤيتها استبصاراً آخر فحسب، ولكن في زمان لا صلة له بالحاضر، ولذلك فليس له تفسير منطقي يتقبله العقل.

لم تحلق في زمن تلك الرؤية اي طائرة في سماء بريطانيا. ولم تكن تفاصيل رؤية ايلين غاريت مطابقة لما حلّ بالكابتن هنشكليف وطائرة ستينسون الخفيفة. ولكن سنرى كيف ستتلاقى تلك المركبات الجوية وهؤلاء الطيارون مع الأيام عبر هذه القدرة العجيبة التي تتمتع بها ايلين غاريت.

"انا يائس... ضائع"

ما ان غابت طائرة هنشكليف عن الأنظار حتى عاد غوردون سنكلير ادراجه وانضم الى زوجته والى اميلي زوجة هنشكليف. ولم يكن على متن "المسعى" اي جهاز اتصال بالراديو، مثلها في ذلك مثل "روح سانت لويس"، طائرة ليندبرغ الذي اجتاز المحيط من شاطئه الغربي. ولهذا لم يبق امام المودعين سوى الانتظار لسماع كلمة من ايرلندا عن رؤية الطائرة او تلقي اشعار من إحدى السفن التي تمخر عباب المحيط.

وفي تمام الاولى والنصف بعد الظهر شاهد كونتي كورك، حارس منارة مايزن هيد، طائرة احادية السطح تطابق اوصاف "المسعى". وادخل هذا النبأ، على اقتضابه، فرحاً عظيماً في نفس اميلي. وأمكن بعد ذلك التقاط نبأ آخر بثته احدى السفن البخارية الفرنسية، جاء فيه ان البحارة أبصروا، وهم يقاومون هوج العواصف وتساقط الثلج، طائرة تحلق على ارتفاع خفيض. وبعد ذلك ساد صمت مطبق.

وفي تمام الثانية من صباح ١٤ مارس (آذار)، اي بعد مرور قرابة ١٨ ساعة على اقلاع "المسعى"، كان ريفرز أُولدميدو، وهو قائد سرب في سلاح الجو الملكي البريطاني، ورفيقه الكولونيل ج.ل.ب. هندرسون، يمخران عباب الماء على ظهر سفينة الركاب "بارابول" التابعة لشركة "بي آند أو" شمالا في اتجاه انكلترا. وكانا آنذاك في موقع ما جنوب جزر الكناري. وهما صديقان حميمان لهنشكليف، وغالبا ما كانا يدعوانه "هنش" تحبباً. لكنهما لم يسمعا برحلته مطلقاً.

ومن المعروف ان الكولونيل هندرسون كان يتميز ببصيرة قوية حين ينظر الى الصور الفوتوغرافية التي يظهر فيها رهط من الناس، فيميز من كان منهم على قيد الحياة ومن وافته المنية. إلا انه كتم امر قدرته هذه عن جميع الناس باستثناء المقربين إليه، ومنهم قائد السرب ريفرز اولدميدو.

لم يكن البحر عند موقع "بارابول" هائجا في تلك الساعة التي غطّ فيها ريفرز اولدميدو بنوم هانىء في قمرته. وعلى حين غرّة فتح هندرسون باب حجرته عنوة واقتحم خلوته صائحا والخوف مرتسم على وجهه:

–إن امراً مرعباً قدحدث يا ريفرز. لقد دخل هنش قمرتي بملابس الطيران الكاملة وعلى عينه عصابتها المعهودة، وايقظني من نومي صائحا بي المرّة تلو المرة: "هندرسون، ماذا يمكنني ان أفعل؟ قل لي ما الذي يمكنني ان افعله؟ ان في صحبتي امرأة، وأنا يائس... ضائع". ثم اختفى من امامي... هكذا. مجرد اختفاء امام عيني!

وحاول ريفرز ان يهدىء من روع صديقه، فسكب له قدحاً من الشراب

أسعفه قليلا. وقفل هندرسون راجعاً الى قمرته، وحاول من جديد ان ينام. وبعد ثلاثة ايام بالتمام ظهر على لوح النشرات الاخبارية في سفينة بارابول النبأ الموجز الآتي: "الكابتن ريموند هنشكليف مفقود بعد محاولته اجتياز الاطلسي جواً".

رسائل غريبة

توجهت اميلي هنشكليف الى مؤسسة المحامين ادريدجز ومارتن ودراموندز في شارع هاي ستريت في كرويدون بالقرب من لندن، بعدما اتضح لها ان زوجها لن يعود اليها. وكان هؤلاء محامي اسرة هنشكليف الذين تبنوا، استجابة لمطلبها، الاتصال بالمصارف المسؤولة عن شؤون السي ماكيه المالية بخصوص بوليصة التأمين، خصوصاً لأن ظروف اميلي المادية باتت تضيّق عليها. وبعد بضعة ايام جاء الرد: نعم، إن السي ماكيه قد رتبت أمر بوليصة التأمين وسحبت صكاً لدفع رسم التأمين قبل طيرانها. إلا ان رصيدها الجاري لم يكن كافياً لتغطية الصك. وقد جُمدت جميع ارصدتها وحُوّلت الى اللورد انشكيب باعتباره القيم على شؤونها. وفي عبارة أخرى، لا توجد اي بوليصة تأمين على الاطلاق لأن المعاملة لم تُنفذ أصلا.

صُعقت اميلي لدى سماع النبأ، نظراً الى انها أصبحت على حافة الافلاس التام. وها هي رسوم شراء البيت الذي تنزل فيه تتراكم، فضلا عن متطلبات العناية بابنتها البكر جوان التي لا تزال في الرابعة من عمرها وبطفلتها الثانية بام التي لا تتجاوز الأشهر.

ومع ان اميلي كانت خبيرة في اعمال السكرتاريا كالطباعة والاختزال، إلا ان واجبات تربية الأطفال تحتل، في نظرها، المرتبة الأولى. وهكذا اجترأت على طرق السبيل الوحيد المتبقي لديها، وهو الكتابة الى اللورد انشكيب نفسه. ولكن لنتركها عند هذه النقطة ولنعد الى ايلين غاريت ونلتقط خيوط القصة من خلال حادث وقع لهذه خلال اجتماع عقدته زمرة البحث والدراسة التابعة للاتحاد الروحي في لندن.

لقد اكتشفت ايلين ظاهرة جديدة مقلقة من ظواهر قدراتها النفسية حين تحلّق حولها افراد تلك الزمرة داخل احدى قاعات الاتحاد واسترسلوا في سكون التأمل. وكان من عادة ايلين غاريت ان تبدأ الكلام فور انتقالها بالتأمل من حال إلى أخرى. لكنها، على رغم تبدل حالات وعيها، تظلّ مدركة ادراكاً تاماً ما تقوله او ما يجري حولها، إلا هذه المرّة التي وجدت فيها نفسها تغطّ تدريجاً في سبات كامل. ولم تذكر شيئاً مما حدث. ولكم بلغت دهشتها حين اخبرها جلساؤها المتحلقون حولها ان صوتاً رجلياً خشناً خرج من حبال صوتها، متحدثا بعبارات بطيئة موزونة ذات لكنة شرقية، ومعرّفاً نفسه باسم "يوفاني". وقد تضمنت اقواله فيضاً من المعلومات التي يمكن التدقيق في صحتها ضمن رسائل بثها من الغيب اموات كان جلساء تلك الزمرة يعرفونهم جيداً. وبين افراد تلك الزمرة امرأة مسنة، طيبة السجية، اسمها السيدة بياتريس ايرل، وهي من مقاطعة ساري جنوب

انكلترا. وكانت قد ثكلت ابنها في الحرب العالمية الأولى، فوجدت في زياراتها للاتحاد الروحي وتسلمها الأخبار من ولدها المتوفى عزاء وسلوانا كبيرين. لكن أياً من اخباره السابقة لا يضارع، من حيث الصدق والتفصيل، ما سمعته في تلك الجلسة على لسان ايلين غاريت وصوت يوفاني. والواقع ان السيدة ايرل نفسها تتمتع بمقدار من معرفة الغيب وتلجأ احيانا الى اجراء التجارب مستخدمة لوح "اويجا"، على رغم معرفتها بأنه لا يعدو كونه وسيلة بدائية من وسائل البحث النفسي.

وهكذا، ما ان احست السيدة ايرل وهي قابعة في عقر دارها مساء السبت ٣١ مارس (آذار) بوحشة وحدتها، حتى جلست الى المائدة التي وضعت فوقها لوح "اويجا" وركزت اصابعها على مؤشره بعدما اعدّت مجموعات من الحروف الهجائية، منتظرة "اتصال" ابنها على حد تعبيرها. ومرّت لحظات أحست السيدة ايرل على اثرها بحقيقة وجود تلك الطاقة مهما كان نوعها.

تحرّك مؤشر اللوح. وللتوّ انطلق المؤشر يكتسح صفحة اللوح في اتجاه صفّ من الحروف التي رتبتها تباعاً، مع المحافظة على مسافة قليلة بين الحرف والآخر. وبدلا من ان يشكل المؤشر رسالة من ولدها، صاغ سؤالا أجفلت منه السيدة ايرل: "هل يمكنك مساعدة رجل مات غرقا؟" وقالت السيدة ايرل بعدما استردت أنفاسها: "من انت؟".

وبدأت سلسلة جديدة من الحروف تتشكل على النحو الآتي: "لقد غرقت مع السي ماكيه".

كانت السيدة ايرل قرأت في الصحف عن رحلة هنشكليف. ولكن هل يُعقل انه يحاول الآن الاتصال بها؟ وعادت مرّة أخرى الى اللوح الذي بدأت الحروف تتجمع فوقه بسرعة محمومة لتشكل جملة جديدة: "بلغي زوجتي اني اريد مخاطبتها. اني في يأس عظيم".

هذه رسائل صحيحة لا ريب في فحواها. وهي اشبه ما تكون بنص برقية بريدية. ولكن ما الذي يسع السيدة ايرل فعله؟ لقد كانت تثق بأمر "اتصالات" ولدها المتوفى، لأن في امكانها التيقن من صدق اشاراته الى تفاصيل خاصة في حياتهما. لكن هذه الرسائل الجديدة جاءت من طيار غريب يبدو انه مات غرقاً، وهي لا تعرف عنه شيئاً وليس لديها اي فكرة عن مكان إقامة زوجته السيدة هنشكليف. ولهذا نحّت اللوّح جانبا وحاولت جاهدة ان تقتلع تلك العبارات من فكرها وان تجتثها من أصولها لتمحو كلّ اثر لها، فأفلحت في مسعاها ولكن الى حين. ذلك انه بعد عشرة ايام، اي يوم الأربعاء ١١ ابريل (نيسان)، وجدت نفسها محمولة الى تجربة اللوح مرّة أخرى. واذا بالمؤشر يجمع، بطرفة عين، حروف رسالة أخرى من المصدر نفسه: "هنشكليف. بلغي زوجتي اني اريد محادثتها".

وترددت السيدة ايرل هنيهة قبل ان تسأل: "اين اجدها؟".

تواتر ترتيب الحروف على اللوح بسرعة البرق: "بيرلي؛ واذا لم تبلغها

رسالتك فاتصلي بدراموندز، شارع هاي ستريت، كرويدون".

والمعروف ان بلدة بيرلي مجاورة لكرويدون، وكلتاهما ضاحيتان من لندن. على ان السيدة ايرل لم تعرف لأسم دراموندز أصلا وفصلا. وسألت نفسها كيف سيكون شعورها لدى تسلم الرسالة لو كانت هي مكان السيدة هنشكليف. ولهذا قررت التريث في الأمر.

وفي اليوم التالي تناولت اللوح ثانية باضطراب. وما هي إلا لحظات حتى تكررت الحكاية ذاتها:

"هنشكليف. رجاء، بلغي زوجتي يا سيدة إي... اني اتضرع اليك".

وترددت السيدة ايرل بمرارة من جديد ولم تثبت على رأي. ثم قالت: "انها مجازفة رهيبة. وقد لا تصدقني السيدة هنشكليف".

وعلى التو بدأ المؤشر يتهجأ حروف الاجابة: "جازفي. إن حياتي كانت كلها مجازفات. يجب ان أكلمها".

عندئذ أيقنت انه لا بد من الاستجابة لطلبه. فتناولت دليل الهاتف لبلدة كرويدون وراحت تقلبه بحثا عن اسم دراموندز. ووجدت ان للاسم عنواناً هو "٤ هاي ستريت، كرويدون"، وفيه اشارة الى مؤسسة المحامين "ادريدجز ومارتن ودراموندز". ومع ذلك تقاعست عن الكتابة الى ارملة هنشكليف مباشرة وخطرت لها فكرة بديلة.

إن السير آرثر كونان دويل من الشخصيات البارزة وله اطلاع على المسائل الروحية وارتباطات متميزة مع كل من الكلية البريطانية لعلم الاستجابات للمؤثرات الروحية الخارقة للطبيعة والاتحاد الروحي في لندن حيث حضرت هي دورات دراسية في اشراف ايلين غاريت. واطمأنت الى ان مكانته الاجتماعية ستساعدها في تبديد الشكوك التي لا بد من ان تخامر من لا خبرة له في الامور النفسية الباطنية. لذلك أكبت للتو على تدوين نسخ عن جميع الرسائل التي افترضت انها واردة من هنشكليف وأرفقت نسخة منها بخطاب ارسلته الى كونان دويل، شارحة فيه ظروف القضية وطالبة اليه النصح حول قيمة هذه الرسائل وصحتها. والحق انها كانت في حاجة الى من يؤازرها. وأرسلت في الوقت ذاته مذكرة الى السيدة هنشكليف بواسطة مؤسسة المحامين ضمنتها نص الرسائل. وباتت السيدة ايرل ترجو في قرارة نفسها ألا يرتاب السير آرثر كونان دويل والسيدة هنشكليف في امرها او يستنتجا انها امرأة اصابها مس من الجنون.

يوفاني يتكلم

غمر الاكتئاب نفس اميلي حين فضت رسالة بياتريس ايرل وقرأتها يوم ١٣ ابريل (نيسان). وأخذت الرسالة منها كل مأخذ، على رغم انها لم تكن تؤمن بالحياة بعد الموت.

ومن جهة اخرى، تسلم كونان دويل رسالة السيدة ايرل، لكنه اراد ان يتأكد بادىء الأمر من مدى صحتها لئلا يبعث الأمل جزافاً في نفس أرملة الطيار. فارتأى استخدام وسيط آخر لهذا الغرض. ورتب لقاء بين السيدة ايرل وايلين غاريت في ١٨ ابريل (نيسان). وتحدث يوفاني في تلك

الجلسة التي دونت السيدة ايرل محضرها بعجلة ومن غير عناية. ودار جُلّ كلام يوفاني حول الظروف التي اكتنفت اخفاق هنشكليف الذي تعاورته الريح الشمالية، على حد قول يوفاني، وأرغمته على الاتجاه جنوبا مسافة ٨٠٠ كيلومتر خارج مسار طيرانه حتى نفد مدده من الوقود. (ومن الواضح انه سيتعذر التثبت من هذه المعلومات نظراً الى عدم العثور على حطام الطائرة).

واضاف يوفاني عن هنشكليف: "ان همه الاعظم زوجته، وهو يريد محادثتها. ولا اظن ان زوجته انكليزية. بل اظن - من غير ان اكون متأكداً - ان لديها طفلا رضيعاً. وربما كان لديها طفل آخر... ان هنشكليف مشوّش الذهن كثيراً".

وجد كونان دويل هذه الملاحظات التي تزود بها من السيدةايرل مثيرة جداً. ولكن لا يمكن اعتبارها سليمة لا يأتيها الباطل، اذ ربما طالعت ايلين غاريت مثل هذه المعلومات في مكان ما في الصحف. ومع ذلك، كتب كونان دويل الرسالة الآتية الى السيدة هنشكليف في ١٤ مايو (ايار): "ربما تسلمت خطابا من امرأة تدعى السيدة بياتريس ايرل. وفي اعتقادي انها تلقت رسالة صادقة من زوجك، امكن تعزيز ما ورد فيها من وسيطة ثانية أبدت ملاحظة عن كونك غير انكليزية وان لك طفلا رضيعاً وربما طفل آخر. وتهمني معرفة مدى صحة هذه المعلومات".

نعم انها صحيحة! ان اميلي هنشكليف قدمت من موطنها هولندا. ازال دخول السير آرثر كونان دويل محور القضية كل تردد من جانب اميلي التي كتبت في اليوم عينه رسالة الى السيدة ايرل. والتقت الامرأتسان في ١٩ مايو (ايار)، وشعرت اميلي بارتياح عندما وجدت ان السيدة ايرل لم تكن - كما توقعت - وسيطاً محترفا. واستمرّ الحديث بينهما ساعات عدة. وفكرت اميلي انه اذا صدق كل ما قالته السيدة ايرل لها، فهي لن تقوى على تخييب امل زوجها فيها، بل ستمضي في هذه الطريق حتى تكتشف المزيد عنه. واصرّت السيدة ايرل على ان لوح اويجا بطيء لا يفي بالغرض، واقترحت على اميلي الاجتماع بايلين غاريت باعتبارها وسيطا من النوع الذي يغط في غيبوبة يمكنها فيها ان تسبر بعمق باطن الامور لتخرج بادلة وافية يمكن تمحيصها والحكم عليها، وبالتالي رفضها او قبولها. ووافقت اميلي على ذلك.

وبعد مضيّ اربعة ايام، التقت الاثنتان مرة اخرى في مقرّ الاتحاد الروحي في لندن حيث رحبت بهما ايلين غاريت. وقدّمت اميلي اليها من دون ذكر اسمها، ولكن باعتبارها صديقة للسيدة ايرل. واوضحت لهما ايلين ان صوت الوسيط او المرشد من العالم الآخر في اثناء الغيبوبة قد يتحول من رواية الحديث عن الآخرين الى التحدث بضمير المتكلم مباشرة كأنما هو يتقمص شخصياتهم. وهذا يستدعي التحليل لاحقاً لرفع الالتباس وجلاء الغاية. وجلست اميلي ووضعت كرّاس الاختزال فوق ركبتها استعداداً لتدوين ما يقال حرفاً حرفاً.

بدأت ايلين تتنفس بعمق ثم غطت

في النوم. وبعد قليل استقامت في جلستها وصلبت ذراعيها فوق صدرها، ثم انحنت في اتجاه الضيفة المذعورة. وخرجت من حنجرتها كلمات يوفاني بنبرتها الشرقية وبصوت ذي طبقة خفيضة رخيمة هو صوت رجل بالتأكيد. وراح هذا يقول: "ها ان عزيزاً عليك قدم الآن. انه شاب صغير. خرج فجأة. انتقل الى عالم آخر بسبب احتقان القلب".

وتساءلت اميلي وهي تكتب الكلمات بصورة مختزلة: "اي احتقان؟ ايكون ذلك بسبب الغرق؟" ومضى الصوت يقول بواسطة ايلين: "ها انه يريني بعض الصور ويذكر اسم جوان، بل جوان الصغيرة. كان في الثالثة والثلاثين من العمر".

بلى! لقد كان رايموند يدعو ابنتهما التي بلغت الرابعة "جوان الصغيرة". وعمره هو ايضا صحيح. ولكن ليس من الصعب الحصول على مثل هذه المعلومات.

-لا بد انه زوجك. فهو ما فتىء يشير الى خاتم الاصبع. هل تزوج مرتين؟ ام ان لديك انت خاتمي زواج؟

وكان الاحتمال الاخير هو الصحيح.

انه يسألك اذا كنت تحملين ساعة اليد التي اعطاك اياها. انها تحمل اسمه محفوراً عليها، وهو يريدك ان تلبسيها. هل تحملين الخاتم او سوار المعصم الذي اهداه اليك لمناسبة الخطوبة؟

مهما تكن هذه التفاصيل تافهة، الا انها كلها صحيحة فلقد قدّم اليها رايموند ساعة يد وسواراً.

-انه يذكر اسمي هيرمان وفلهلم. لقد رآهما كليهما هنا.

يا للعجب! وما ادق هذه المعلومات. لقد لقي صديقه الحميم هيرمان هس مصرعه في حادث تحطم طائرة عام ١٩٢٥، بينما قُتل فلهلم هيبنو عام ١٩٢٦ في اصطدام جوّي. وبدأت كلمات يوفاني تتدفق سراعا وهو يحاول وصف الحادث:

-يا الهي، ما افظع ذلك! لقد نسي كلّ شيء الا زوجته وطفلتيه. عندما يكبر سنا سيستطيع الاتصال على نحو افضل. لقد كانت محاولته الأخيرة السباحة الى الشاطىء".

وران على المكان صمت برهة، ثم: "قل لهم: ليس هناك موت، بل حياة ابدية. الحياة هنا ما هي الا سفرة وتحوّل الى ظروف مختلفة".

ورويداً رويداً بدأت ايلين تفتح عينيها. لقد انتهت الجلسة.

الورقة المفقودة

لم يصدر بعد اي ردّ فعل من جانب اللورد انشكيب، مع ان اميلي كتبت اليه مراراً. وفي الحقيقة ان اميلي ليست بلا نصير في كفاحها. فقد تبنى السير سفتون برانكر، على رغم كثرة اعماله وانشغاله في بناء طائرة "ر-١٠١"، قضيتها اكراماً لذكرى صداقته مع زوجها. وقال لها السير سفتون ان ثمة شخصاً ذا نفوذ يراقب وضعها باهتمام، وهو اللورد بيفر بروك صاحب صحيفة "الديلي اكسبرس". وعلق على انشكيب بقوله انه رجل قاس يصعب تحريك عواطفه، لكنه قد يستجيب لها اذا ما غطت الصحف انباء محنتها. ومثل هذه الحملة الصحافية ستكون سلاحاً احتياطيا يمكن اللجوء اليه عند الضرورة.

وفي الرابع والعشرين من مايو (أيار) زارت اميلي مقر" الاتحاد الروحي في لندن مرة اخرى بعدما رتبت موعد زيارتها من دون اعطاء اسمها حفاظاً على كتمان هويتها. وهذا اجراء عادي في ارتباطات الاتحاد. ولدى وصولها الى المقر" طلبت الى امين عام الاتحاد الانفراد بالسيدة ايلين غاريت حتى يحين موعد الجلسة مغالاة في التكتم. وما ان دخلت السيدة غاريت طور الغيبوبة حتى سمعت اميلي الكلمات الآتية:

-لقد جئت الى هذا المكان من قبل. بل جئت اليه حديثاً. ثمة رجل قريب اليك: رجل مديد القامة، نحيل الجسم، ذو شعر بني فاتح وعينين زرقاوين وأنف مستدق. وقد شغل في الماضي منصباً عسكرياً في الجيش، وما زال حتى ...

هذا كلام حق.

ومضى الصوت متنقلا بين الأوصاف الشخصية والظروف التي رافقت رحلة هنشكليف المهلكة بما فيها السرعة والطقس وتبديل وجهة الطيران، وهي امور هيمنت ولا ريب على فكر زوجها. وخطر لاميلي، وهي تدون تلك الملاحظات حرفاً حرفاً، ان في امكانها على الأقل ان تدقق في موضوع الطقس مع سلطة الارصاد الجو"ية.

-هو يعلم انك قلت لجوان انه ذهب في رحلة، فسألتك عن موعد رجوعه.

فعلا لقد سألت جوان عن عودة أبيها في الليلة الماضية فقط.

- انه يشكرك على عدم ابلاغ جوان حتى وقت لاحق. بيتي امرأة حريصة وأمينة وشديدة العناية بكلا

الطفلتين. قبلي "جوان الصغيرة" من اجلي ... يقول إنه رأى رسمهما.

كانت تلك الملاحظة تحمل اشارة الى اللوحة التي باشرت اميلي رسمها بالألوان الزيتية منذ وقت. اما بيتي فهي المربية التي تعتني بالطفلتين. ولكن مهلا! ألا يعقل ان تكون ايلين مطلعة على هذه الامور؟ بلى. إن هذا الاحتمال معقول، ولكن لو كان صحيحا لعنى انها امرأة داهية ومخاتلة. وهو أمر يشق على أميلي تصوره.

-يقول الآن انه ينوي الاتجاه شمالا. ولكن كلما حاول تبديل وجهة سيره ازدادت الريح المعاكسة عتواً. لم يكن متأكداً من شموع الاشعال فاستبدلها قبيل الاقلاع.

ووضعت اميلي اشارة في كر"اسها عند هذه النقطة، اذ لم تكن قد سمعت بمسألة شموع الاشعال من قبل. وشاءت ان تسأل غوردون سينكلير عن رأيه فيها. وتبعت تلك الملاحظات تفاصيل كثيرة مؤلمة عن حياة هنشكليف، ومنها قوله: "هو يعرف انك رتبت اوراقه في منضدته. ان الازرار موجودة داخل علبة صغيرة في الخزانة".

لقد فتشت اميلي طويلا، ولكن من غير جدوى، عن أزرار زوجها التي يحتمل ان تكون ذات قيمة ثمينة. لذلك، ما ان انتهت الجلسة حتى اسرعت الى بيتها وذهبت تو"اً الى الخزانة التي ذكرها زوجها - هذا اذا كان زوجها هو المتكلم حقاً. لكنها وقفت مشدوهة امامها وكاد الخوف يستبد" بها، خصوصاً لأنها ألقت في مرة سابقة نظرة عاجلة على درج الخزانة ولم تعثر فيه على الأزرار.

وبعد جهد فتحت الدرج ورأت علبة صغيرة كانت الأزرار في داخلها. وفي وقت لاحق التقت غوردون سينكلير وأثارت موضوع شموع الاشعال قائلة: "هل ابدل رايموند الشموع قبل الاقلاع؟" فأجاب سينكلير بالايجاب، واضاف انه الشخص الوحيد الذي شاهد إبدالها.

عقدت اميلي جلسة أخرى مع ايلين غاريت في ٩ يونيو (حزيران)، وتطرق يوفاني هذه المرّة الى امور جديدة:

- إن زوجك قلق حيال موقف انشكيب. واذا رفض الاصغاء اليك فان ثمة سبيلا الى فتح الباب الموصد. زوجك يتحدث الآن عن شخص في صحيفة الديلي اكسبرس.

وأخذ يوفاني يتحدث بضمير المتكلم: "انا لست مسؤولا خلقياً عن الرحلة وظروفها. اذا سمع والد إلسي بالأنباء في الصحف، فهو سيقدّم بعض المال. ابحثي الامر مع الديلي اكسبرس. اسم الرجل هناك اللورد بيفر بروك".

وسرد الصوت بعدئذ تفاصيل كثيرة اخرى ورد فيها اسم صديق مدين لهم ببعض المال والمبلغ المستحق، وتحدث عن علامات مميزة في جسمه وندوب الجروح فيه. وكانت كلها ملاحظات صادقة. ومن جملة ما ذكره العصا المصنوعة من دعامة إحدى الطائرات. وعلى حين غرّة عاد الى موضوع انشكيب وحدّد موعداً لتسلم المال هو يوم ٢٥يوليو (تموز)، أو اليوم الأخير من الشهر نفسه. ثم سأل: "هل ذهبت الى ادريدجز بخصوص الأرض؟".

لقد اشترت اسرة هنشكليف قبل اربع سنوات قطعة ارض للبناء. لكن اميلي لم تجد وثيقة المسح التي تحدد موقعها وتخومها. وفي نهاية تلك الجلسة رتبت اميلي موعداً آخر مع ايلين غاريت. وقامت في هذه الاثناء بزيارة اخرى الى السيدة ايرل التي تلقت بواسطة اللوّح بضع رسائل يتعلق معظمها ببناء الطائرات، لكنّ فيها ايعازاً واضحاً حول مسألة مختلفة: "ستجدين ورقة مفيدة وراء الدرج على الجانب الأيسر من منضدتي".

وحين عادت اميلي الى دارها فتحت ذلك الدرج وأخرجته برفق من مكانه. واذا بها تبصر شيئاً أزرق مصنوعاً من ورق مصقول يشبه الجلد في مظهره. وكان ذلك الشيء وثيقة مسح الأرض.

انباء مقلقة

نشر اللورد انشكيب خلال الاسبوع الاول من شهر يوليو (تموز) قراره حول الثروة الخاصة التي خلفتها ابنته السي ماكيه - وهي تقدّر بمبلغ ٥٤٧ ألف جنيه استرليني - معلناً انشاء صندوق مالي خاص باسمها يحرّم مسّه طوال ٤٥ سنة يؤول بعدها، مع ما تجمّع عليه من فوائد وأرباح، الى الحكومة البريطانية للتصرف به من أجل سدّ ديون الدولة فقط. ولم يرد في بيانه ذكر لاميلي هنشكليف.

وفي غضون دقائق معدودة من صدور القرار، وصل احد مراسلي الديلي تلغراف الى بيت اميلي طالباً مقابلتها. وما ان ابصرته حتى لمعت في ذهنها رسالة زوجها الأخيرة خلال جلستها مع ايلين غاريت اذ قال:

"تحدّثي الى الصحف". ففتحت له الباب ودعته الى الدخول. وهكذا تصدّرت الصحف في الأيام التالية عناوين بارزة تعلن ان "السيدة هنشكليف على حافة الافلاس"، وانها "قلقة على مستقبل طفلتيها". كما أُثير في مجلس العموم البريطاني نقاش حول التزام اللورد انشكيب خلقياً بمساعدة اميلي. على ان ونستون تشرشل، وزير المالية عندئذ، حسم النقاش بقوله ان المسألة لا تدخل ضمن اختصاصات مجلس النواب. اما اللورد انشكيب نفسه فقد لزم الصمت.

واجتمعت اميلي في أواسط شهر يوليو (تموز) مرة اخرى بايلين غاريت، وتحدث يوفاني كالمعتاد: "يجب الا تفقدي الامل. هذا ما يقوله زوجك".

وشرع يتحدث بضمير المتكلم: "سيهتاج الرأي العام في نهاية الأمر الى حدّ لا يطاق. الا تذكرين الخامس والعشرين من يوليو (تموز)؟".

- بلى. اذكر أنه الموعد الذي حدّدته انت في المرّة الأخيرة.

وأجابها يوفاني هذه المرة بقوله: "انه يعدك بان الأمور ستسوى في حينها، وان طال فلن يدوم اكثر من اليوم الأخير من الشهر الحالي".

والحق ان اميلي لم تفقد املها مطلقاً الى ان جاء يوم ٣١ يوليو (تموز). وأفل النهار وأزف المساء وفرغت من تناول عشائها. وعندئذ فقط ادركت ان النبوءة اخفقت. غير انها عقدت العزم على ألاّ تسمح للخيبة بأن تزعزع ايمانها الراسخ بانها على اتصال مع زوجها رايموند.

وفي الثامنة والنصف تماماً رنّ جرس الهاتف، واذا بمراسل من صحيفة الديلي اكسبرس يبلغها بان ونستون تشرشل ادلى في مجلس العموم البريطاني بالبيان الآتي:

"لقد وضع اللورد انشكيب في تصرف وزير المالية مبلغاً اضافياً من جيبه الخاص، مقداره عشرة آلاف جنيه، لصرفه كما يرى الوزير لمواجهة المسائل الملحة لئلا يصبح صندوق السي ماكيه مثار جدل وشكاوى من الذين تضرّروا بالكارثة التي اودت بحياة كريمته".

غنيّ عن القول ان الشخص المعني بهذه المنحة التي قُدمت على مضض هو اميلي هنشكليف وحدها التي، ما ان طالبت بالتعويض، حتى حصلت على المبلغ كاملا. فغمرتها الدهشة وعمّها شعور عميق بالامتنان وتاقت الى جلسة اخرى مع ايلين غاريت. وكان اللقاء لطيفاً ومبهجاً. الا ان كلمات زوجها الختامية تحولت فجأة الى نبرة تحذير ملحة: "انهم في عجلة من امرهم. كيف لي ان أحذر جونستون؟ انك، ولا شك، تذكرين الاصطدام المؤسف الأخير".

لقد عيّن جونستون - قائد السرب في سلاح الجوّ الملكي - ملاحاً لطائرة "ر-١٠١". اما الحادث المؤسف الذي اشار اليه صوت هنشكليف فهو ما حلّ بالمنطاد "ر-٣٨" الذي انشق نصفين فوق نهر هامبر عام ١٩٢١: "اني على يقين من انه، اذا استمرّ العمل على هذا المنوال، فسوف تنبعج الطائرة او يصيبها احديداب بسبب الاسلاك غير المتينة التي تشد هيكلها. يجب ابلاغ جونستون. لن يتكلل هذا العمل

بالنجاح. بلغيهم ان يكونوا حريصين".

والحق ان اميلي تعرف مصطلحات الطيران وتجيد، الى حد ما، التحدث بها. ولكن كيف السبيل الى جونستون، صديق زوجها؟ أتحذره بناء على رسالة من العالم الآخر؟ألن يبدو الأمر في رأيه سخفاً وحماقة؟ لكن اميلي باتت مقتنعةبان مهمتها الأولى في الحياة هي مساعدة اكبر عدد ممكن من الناس في مشاركتها ايمانها الجديد باستمرار الحياة البشرية بعد الموت. ومن اجل هذه الغاية اعدّت سلسلة من المحاضرات سعياً الى معرفة ما يحدث بعد الموت. ولهذا واظبت على حضور اجتماعاتها مع ايلين غاريت، خصوصاً لأن هذه وافقت على تسخير قدراتها كوسيط من اجل ذلك السعي. واستمرت الجلسات الشاملة المستفيضة من ١٩٢٩ حتى ١٩٣٠.وقد تجمعّت لدى اميلي حصيلة عظيمة من المعلومات التي جاد بها كلّ من يوفاني وزوجها. لكنها معلومات يتعذر التحقق من صحتها، في هذه الحياة على الأقل.

في هذه الاثناء ظل زوجها رايموند يلحّ عليها في التحدث الى جونستون عن المشكلات التي تكتنف بناء طائرة "ر-١٠١" ويقول: "لست اتمنى لهم انيلاقوا مصيري. اذا ارجئت الرحلة فسيكون كل شيء على خير ما يرام. انا ادرك تماماً ما اقول".

والجدير ذكره انه، بحلول خريف ١٩٢٩، حان اخراج "ر-١٠١" من حظيرة بنائها لاجراء سلسلة من التجارب عليها. لكن يوفاني، قبل ذلك التاريخ باسابيع، حذّر بلسان هنشكليف: "لا اظن ان في امكان هذه الطائرات ان تصمد للتقلبات المناخية. وقد تنتهي تجربة "ر-١٠١" الأولى على خير. لكن هناك خطراً جسيماً بكل تأكيد".

وفي تلك الجلسة بلغ الانفعال والقلق بزوجها حداً وجدت معه اميلي صعوبة كبيرة في تدوين اقواله بامانة. وعندما اطلعت الطيار غوردون سينكلير ورفيقه موركهام على هذه الانباء المقلقة، لاحظا ان ما اطلعا عليه من محاضر الجلسات السابقة كان يتضمن معلومات أوفى وتفاصيل تقنية ادق مما ورد في محضر الجلسة الأخيرة. لكن الذي اثار اهتمام موركهام هذه المرة هو اللجاجة في التحذير. فوافق الى جانب سينكلير على ضرورة اتصال اميلي بجونستون.

وبعد اخذ وردّ اتصلت اميلي بكونان دويل الذي انصت اليها بحماسة واهتمام الى حد انه اجرى الترتيباتاللازمة لمرافقة اميلي الى كاردينغتون حيث تبنى طائرة "ر-١٠١". ولما كان جونستون قد قرأ روايات شرلوك هولمز وعرف اميلي منذ زمن بعيد، فانه لم يشعر بأي حرج كما لو كان مع غرباء، بل أصغى اليهما بتعاطف واحترام، وأكدّ لهما ان الجميع حريصون على تأمين كلّ التدابير الاحتياطية الممكنة. وانصرف كونان دويل واميلي مدركين ان مهمتهما خابت.

في اليوم التالي عادت اميلي الى ايلين. وفي مطلع الجلسة وردت رسالة جديدة: "جونستون لن ينصت أبداً. والطائرة لن تصمد طويلا، حتى وان سلمت في رحلتها الأولى".

وصدف في تلك الاثناء ان خرجت ايلين غاريت في نزهة مع كلبها ،واذا بها تشاهد في كبد السماء طائرة اخرى فضية اللون تنفث الدخان من جوفها وتغوص خلف احدى البنايات".

"إننا ملتزمون بوعودنا"

تأخر انجاز طائرة "ر-١٠١" كثيراً. وكلما سُوّيت احدى مشكلاتها الفنية برزت مشكلة اخرى. هناك، على سبيل المثال، اكياس الغاز العملاقة التي تصعد الطائرة فوق الأرض وتبقيها مرتفعة في الهواء. وقد ركبت الاكياس في الفراغات بين روافد هيكل الطائرة، فبدت مثل طبول ضخمة مصفوفة على جوانبها، الا ان علو بعضها يضاهي ارتفاع بناية من عشر طبقات. ومع ذلك، فانها طبول رخوة سريعة الاتساخ لأنها صنعت من الغشاء الخارجي الناعم لامعاء الثيران. ولطالما سعى الالمان والامريكيون والبريطانيون الى ايجاد بديل لها، ولكن بلا جدوى.

والواقع ان هذه الاكياس المملوءة بغاز الهيدروجين هي التي ترتفع بالطائرة الى الجو. لكنها، في الوقت نفسه، قد تتسبب في سقوطها اذا رشح الغاز منها وتسرب الى الخارج. ولذلك صنع المهندسون شبكة معقدة من الاسلاك لتطويق كل كيس في مكانه حفاظاً على سلامة سطحها من الخدش والاحتكاك إما بروافد الطائرة واما بارتطام الاكياس بعضها ببعض نتيجة دوران الغاز داخلها. ولكن لم يسبق أبداً استخدام مثل هذا النظام من الشبكات، وبالتالي ما كان احد ليدري مدى فعاليتها.

ولم تنته التجديدات عند هذا الحد. فقد أدخل على الطائرة نظام آخر جديد قائم على استخدام خمسة محركات ديزل بدل المحركات التي تستخدم البنزين. وبلغ وزن هذه المحركات ١٧ طناً في حين لم يزد وزن محركات الطائرة "ر-١٠٠" على التسعة اطنان ومحركات "غراف زبلين" على السبعة اطنان. ولا يخفى ان هذه المحركات الجديدة ستوفر في استهلاك الوقود، فضلا عن انها اقل عرضة لاخطار الاشتعال والنيران، خصوصاً لأن البنزين سريع الاحتراق.

امل المهندسون بادىء الامر ان تتسع طائرة "ر-١٠١" لحمولة مقدارها تسعون طناً. بيد ان محركات الديزل وخزانات الوقود خفضت تلك الحمولة الى قرابة ٣٥ طناً مما جعلها واسطة نقل باهظة الكلفة، ناهيك بأن المحركات الجديدة بدأت، بحلول العام ١٩٢٩، تسبب للمهندسين متاعب اجبرتهم في نهاية الامر على استخدام اربعة محركات فقط لدفع السفينة الى الامام خلال طيرانها، والاحتفاظ بالمحرك الخامس احتياطاً لاستخدامه في عكس وجهة الطيران عند الضرورة. وترتب، بموجب هذا النظام، ان تنهض المحركات الأربعة العاملة بحمولة اضافية عديمة الفائدة تقدر بطنين، فضلا عن نقل خمسة اطنان اخرى لم تدخل في حساب التقديرات الأولية. وهي وزن الاسطوانات التي تغلف المحركات الخمسة.

ولكن على رغم تفاقم هذه المشكلات فقد افلحت طائرة "ر-١٠١" في الاقلاع في رحلتها التجريبية الأولى يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٢٩ حين خرج سكان لندن

بالالوف المؤلفة الى الشوارع وسطوح البنايات يراقبونها وهي مقبلة من وجهة شمالية شرقية حتى بلغت منطقة وستمنستر حيث تقوم مباني البرلمان، ثم قفلت راجعة الى برج كاردينغتون بعد رحلة خمس ساعات قطعت خلالها مسافة ٣٠٠ كيلومتر. ولم يفصح احد بشيء عما حدث لدى هبوطها حين ارتطم احد الاسلاك بمقدم الطائرة ذي النسيج الناعم فثقبه. على ان رأب الثقب لم يستغرق سوى نصف ساعة.

لكن الانكى من هذا هو عدم ذكر شيء عن عجز الطيارين عن تشغيل اكثر من ثلاثة من محركات "ر-١٠١" الخمسة. ولهذا، لا عجب ان تكون التجارب استمرت على الطائرة طوال الاشهر التالية مما كشف عيوباً جديدة استوجبت ادخال تحسينات كثيرة واضطرت المسؤولين الى ارجاء موعد اقلاعها.

في هذه الاثناء دلت احصاءات قائد الجناح في سلاح الجو الملكي، ر.ب. كولمور، على ان الرحلة الى الهند ستقتضي نقل كمية من الوقود مقدارها ٢٥ طناً، مما لا يترك سوى عشرة اطنان لنقل الركاب والملاحين والامتعة. وهكذا بدأ المهندسون يتخلصون من قطع كثيرة من معدات الطائرة وانتقلوا الى تقليص وزن قطع اخرى وخفض اتساع هيكل الطائرة الى النصف تقريباً لبناء جناح جديد يتسع لوضع كيس غاز اضافي من شأنه ان يساعد في رفع حمولة اضافية تزن تسعة اطنان.

وبناء عليه، اعيدت "ر-١٠١" الى حظيرتها وأخرج كل كيس من اكياس الغاز فيها. وتبين انها - باستثناء كيس واحد- مثقوبة في اكثر من موضع، بل ان الكيس المرقم ١١ كان مثقوباً في ١٠٣ مواضع. وتعين على المهندسين صنع ما لا يقلُّ عن أربعة آلاف لبادة من اجل لفها على الوصلات والصمولات والبراغي والروافد التي قد تتسبب في ثقب تلك الاكياس المصنوعة من اغشية امعاء الثيران. وفي الوقت نفسه تراكمت شتى الضغوط على كولمور وبرانكر وجونستون والملازم اروين الذي عُين قائداً للطائرة، للاسراع في تجهيزها، لان اللورد طومسون قرر السفر الى الهند على متنها في موعد لا يتجاوز نهاية شهر سبتمبر (ايلول)، خصوصاً لأن وزارة المال دعمت تلك الرحلة تبريراً للأموال الطائلة التي صرفتها عليها حتى ذلك الوقت.

لكن العمل لن ينتهي قبل منتصف الخريف، والطائرة في حاجة الى مزيد من الاختبارات عليها قبل اقلاعها الى الهند. على انه لا يمكن التهاون في ارجاء موعد رحيلها، خصوصاً لأن طائرة "ر-١٠٠" المنافسة - وهي الطائرة التي يتولى صنعها القطاع الخاص - تغلبت على جميع الصعوبات بما فيها المحركات واكياس الغاز، وتمكنت في ٢٨ يوليو (تموز) ١٩٣٠ من الطيران الى مونتريال، حيث استقبلها الكنديون استقبالا حماسياً منقطع النظير، والعودة الى انكلترا سالمة في بحر ١٦ يوماً. بينما اكمد الهمُّ العاملين في طائرة "ر-١٠١" نظراً الى انها ما زالت جاثمة في حظيرة بنائها وقد شطرت نصفين كرغيف من الخبز، وما زال العمل المحموم لاصلاحها جارياً دونما توقف تلافياً لكل خطأ في تصميمها وتسريعاً

لموعد طيرانها، وإلا فقدت هذه الطائرة مستقبلها. فقد تقرر بناء الطائرات جميعها في وقت لاحق وفقاً لتصميم موحد يتم اختياره بناء على النجاح الذي يمكن احرازه.

ولدى اقتراب موعد اقلاع "ر-١٠١"، تلقت اميلي مزيداً من التحذيرات في جلسات استحضار الارواح مع ايلين غاريت. والواقع ان ايلين خامرها قلق شديد لدى صحوتها من غيبوبة التأمل واطلاعها على فحوى التحذيرات التي وردت بواسطتها ولكن من دون علمها. ذلك ان للتحذيرات صلة واضحة وقوية بما شاهدته من سفن محترقة في سماء لندن في ثلاث مناسبات.

غير انها أهملت امر رؤاها باعتبارها هلوسة من أثر الغارات التي شنتها طائرات "زبلين" الالمانية زمن الحرب العالمية الأولى، وكتمت سرها عن جميع الناس. اما الآن فقد بدأت تحس بضرورة تحذير أحد المسؤولين. وشاءت المصادفات ان تهيىء لها مناسبة للاجتماع باحدهم خلال عشاء حضرته مع صديقتها الممثلة المسرحية اوريول لي في اواسط شهر سبتمبر (ايلول)، وهي صديقة السير سفتون برانكر الذي كان احد المدعويين. وهكذا جمعت اوريول لي بين ايلين غاريت وبرانكر اللذين انزويا في احد اركان القاعة حيث اخبرته ايلين بحقيقة الرؤيا التي مرّت بها في ثلاث مناسبات وبالتحذيرات التي يرسلها هنشكليف حول الكارثة التي تنتظر "ر-١٠١".

عندئذ قال السير سفتون برانكر: "انها الطائرة المزمعة على السفر الى الهند. وسأكون شخصياً على متنها مع اللورد طومسون وآخرين لانني التزمت بالطيران معهم".

- اما من سبيل الى ارجاء موعد رحلتها؟

وأجاب السير سفتون: "كلا اننا جميعا ملتزمون بوعودنا".

عندئذ احسّت ايلين بانها ادّت واجبها وليس في امكانها ان تفعل المزيد.

نطاق من السرية

أقلعت "ر-١٠١" من مطار كاردينغتون متوجهة الى الهند في تمام السابعة والدقيقة السادسة والثلاثين من مساء ٤ اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٣٠. وفي تلك الساعة ذهبت اميلي هنشكليف لزيارة صديقتها السيدة ايرل وقد اخذت منها الظنون كل مأخذ بسبب محاولاتها العقيمة في تحذير جونستون. ولم تشأ اي منهما الاتصال بالعالم الآخر. الا انهما لم تستطيعا مقاومة اللوح مرة واحدة اخيرة للاتصال مع هنشكليف علّه يطمئنهما. وللتوّ تشكلت الكلمات الآتية:

"العواصف تهب. لن ينجوا إلا باعجوبة".

في ذلك الوقت حلقت طائرة "ر-١٠١" في سماء لندن وتابعت طيرانها حتى عبرت القنال الانكليزي. ثم توجهت الى باريس والجنوب حيث تصدّت لها رياح عاتية وامطار غزيرة. ومع ذلك، فقد بقي الاتصال مع الطائرة بالراديو يدعو الى التفاؤل، وإن ظهرت ادلة على انخفاض حاد في مسارها وتعطّل جهاز قياس الارتفاع. وفي تمام الثانية والدقيقة الخامسة من صباح اليوم التالي، اصطدمت "ر-١٠١"

بهضبة على بعد بضعة كيلومترات من بلدة بوفي وانفجرت فوقها»، ولم ينجُ من ركابها الاربعة والخمسين سوى ستة ملاحين. اما برانكر وكولمور وجونستون واروين وضباط القيادة الآخرون - الذين لو سلموا لأدلوا بتصريحات مفيدة وواضحة عن اسباب الكارثة - فقد لاقوا حتفهم جميعاً.

وتشكلت على الفور لجنة للتحقيق في الحادث. وبعد يومين من ذلك التاريخ، اي في ٧ اكتوبر (تشرين الأول)، اوردت وكالة رويتر للانباء النبأ الآتي:

"من المقرر ان ترفع اللجنة بيانها الى محكمة التحقيق مباشرة. ولن يصدر في هذه الاثناء اي اعلان حتى تفرغ اللجنة من جمع الحقائق والأدلة".

ولكن لنقدّم الآن شخصاً آخر دخل في حبكة الاحداث، اسمه هاري برايس. والواقع ان الذي اثار اهتمامهفي الموضوع هو تسلمه، قبل موعد اقلاع "ر-١٠١" بثلاثة أشهر، تقارير من وسطاء عدة زعموا انهم تلقوا رسائل من السير آرثر كونان دويل عقب وفاته في ٧ يوليو (تموز) ١٩٣٠. وهكذا بدأ برايس، رجل الاعمال الناجح، يكرس جلّ اوقاته لدراسة الاستجابات للقوى الروحية. وكان من الذين درسوا فنون السحر واطلعوا على مدى امكانات التحايل والخداع، فضلا عن كونه مصوراً فوتوغرافياً حاذقاً لا يخدعه اي زيف في مظاهر الأشياء. والحق انه لم يهتم كثيراً بالمسائل الروحية، وانما اراد فقط ان يعلم كيف يتسنى للوسيط خلال التنويم المغناطيسي ان يحصل على معلومات صادقة يزعم انها جاءته من الأموات.

وصدف في اليوم الثاني من اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٠ ان اتصل ببرايس هاتفياً صحافي اوسترالي يعمل في انكلترا اسمه إيان كوستر، الذي انيطت به مهمة كتابة تحقيق صحافي حول امكان الاتصال بالسير آرثر كونان دويل في السابع من اكتوبر (تشرين الأول)، اي بعد مرور ثلاثة اشهر على وفاته. وفكر برايس هنيهة في طلب كوستر، ثم قال: "لم لا؟ دعنا نحاول. وعسى ان اجد وسيطاً ملائماً".

وبعد المكالمة فوراً اتصل برايس بايلين غاريت، ولكن لم يعطها فكرة عن هوية الشخص الذي يودّ كوستر الاتصال به. وحدّد معها موعداً لجلسة خاصة ضمت كوستر الذي وصل في الساعة المحددة، وبرايس وايلين غاريت طبعاً، وامرأة اخرى خبيرة في شؤون الاختزال اسمها ايتيل بينهام.

ولدى بدء الجلسة نقل يوفاني رسالة خاصة الى برايس من صديق له توفي قبل عام. غير ان الرسالة لم تأتِ بجديد يمكن التحقق منه. وفجأة اعترى وجه ايلين غاريت اضطراب عظيم، وراحت الدموع تنهمر فوق وجنتيها بينما انقبضت يداها بقوة. وتدفق صوت يوفاني وكلماته تتسارع على لسان ايلين:

"اني ارى ارفينغ او اروين. يقول اروين انه يجب القيام بعمل ما ازاء الموضوع. عفواً لاقحام نفسي في الجلسة، ولكن قل لهم - بالله عليك - ان كاهل الطائرة يفوق طاقة محركاتها. والمحركات نفسها اثقل وزنا مما ينبغي".

وازداد تدفق الكلام حتى كادت خبيرة الاختزال ايتيل بينهام تعجز عن تدوينها٠

"ثقل السفينة الاجمالي لم يتم حسابه على نحو دقيق٠ اما فكرة المصاعد الجديدة هذه فانها محض حماقة٠ المصعد علق في مكانه وانسد انبوب الزيت٠ وهذا المشروع المرتفع الكلفة، الذي يستخدم الكربون والهيدروجين، خطأ فادح٠ لا يمكنك ان ترتفع بواسطة هيدروجين الكربون الى علو يذكر٠ الطيران على انخفاض شديد٠ لا يمكن الصعود٠ والشيء نفسه ينطبق على "ش ل-٨"٠ بلغوا اكثر٠ فترة التجارب قصيرة جداً٠ لم يعرف احد منا المركبة جيداً٠ نظام دفع الوقود سيء، وكذلك نظام التبريد٠ سعة القطر الداخلي غير كافية٠ يجب استعمال اسطوانات في المرة المقبلة، بمحرك قطره ١١٠٠ سنتيمتر مكعب٠ ولكن حتى هذا القطر ليس كافياً لرفع حمولة ثقيلة"٠

لم تدر ايتيل بينهام شيئاً عن هذه الامور، وفاتها تدوين كلمات عدة٠ ومضى الصوت يقول:

"الطقس سيء للتحليق مسافات طويلة٠ جسم الطائرة مغمور بالماء، ومقدمها منحدر صوب الارض٠ مضت ساعتان ونحن نحاول تقويمها، وكادت تلامس سطوح المنازل في بلدة آشي"٠

وعند هذه الجملة دوّن برايس ملاحظة خاصة لانه لم يسمع من قبل باسم آشي٠ واردف يوفاني:

"التحقيقات التالية ستظهر ان البناء الفوقي للطائرة لا يحتوي على اي مقاومة وان وزنه ثقيل جداً٠ والقسم الأوسط الذي اضيف اليها ينطوي على خطأ كبير، وهو اثقل مما تستطيع المحركات حمله"٠

دهش برايس لسماع هذه الأقوال وايقن انه ما من احد يستطيع اختراع حكاية من هذا النوع بمثل هذه السرعة، او ان يسوق معلومات فنية ومصطلحات علمية بهذه السهولة٠ ولذلك ذهب، بعد انتهاء الجلسة مباشرة، الى مكتبة المتحف البريطاني، وراح ينقب في المراجع عن بلدة اسمها آشي تقع شمال فرنسا، ولكن لم يعثر على اثر لها٠ غير انه، في صباح اليوم التالي، وجد خريطة كبيرة لخطوط السكك الحديد في المنطقة المجاورة لبوفي٠ وحين دقق النظر فيها تبين له اسم آشي، وهي محطة قطار حديدي على بعد ١٩ كيلومتراً شمال بوفي٠ وعلى هذا الاساس، شعر برايس بضرورة اطلاع احد الخبراء في وزارة الطيران على محضر الجلسة كما دونته ايتيل بينهام٠ لكنه اكتشف ان الوزارة ضربت نطاقا من السرية الكاملة حول القضية، ولكن بصورة غير رسمية، ريثما تفرغ اللجنة المختصة من تحقيقاتها٠

"كلّنا قتلة"

لم ينس الميجور فيلييرز الحديث الذي دار بينه وبين السير سفتون برانكر حين رافقه الى كاردينغتون قبل صعود برانكر الى متن "ر-١٠١" المشؤومة٠ وقد عمد الميجور فيلييرز، المعروف بقوة ذاكرته وحفظه للتفاصيل حفظاً شبه كامل، الى تدوين ما دار بينهما في مذكراته التي جاء فيها قول برانكر:

"تشاجرت مع طومسون قبل يومين٠ وخلال الشهر الماضي تحدثت

مراراً في هذا الشأن مع سكوت وكولمور. (سكوت طيار مُحنك برتبة ميجور، وهو الذي تولى قيادة "ر-١٠٠" في رحلتها الى مونتريال). إن عدم ارتياحهما للرحلة الى الهند تزايد يوماً بعد يوم. وفي رأيهما ان الطائرة لا تصلح للطيران. الا ان طومسون يصرّ على المضي قدماً لا لشيء سوى انه تعهد بذلك. وعندما اعترضت على موقفه قبل يومين، ناصحاً اياه بأن يواجه الحقائق ويتقبلها اذا لم تكن المركبة جاهزة للرحيل، ثارت ثائرته وصاح بي: "اذا كنت خائفاً فلا تأت. هناك آخرون كثيرون يتمنون هذه الفرصة". فانسحبت من الغرفة فوراً احتجاجاً على فظاظة معاملته".

وفي الأيام التي اعقبت الكارثة تعددت المناسبات التي جعلت فيلبيرز يستعيد ذكرى هذا الحديث، خصوصاً لأنه تقرر ان تبدأ محكمة التحقيق جلساتها في ٢٨ اكتوبر (تشرين الأول).

واخذ فيلبيرز يجمع الملفات الخاصة بطائرة "ر-١٠١" ويصنفها استعداداً لبدء التحقيق. وقبيل افتتاح جلسات المحكمة دعا فيلبيرز صديقه سورزبي، الخبير المالي، الى عشاء مع آخرين. وقد عُرف عن سورزبي - عدا خبرته المالية - اهتمامه الشديد ببحوث الاستجابة للقوى الروحية الخارقة. فلا غرابة اذا تجاذب الضيوف اطراف الحديث في هذا الموضوع.

وسرد سورزبي على مستمعيه بعض الوقائع الخارقة التي صادفها في حياته. وذكر فيلبيرز بدوره انه تلقى، في مناسبات معينة، رسائل شخصية شبه مباشرة من شخص متوفى عزيز عليه. وقال ان تلك الرسائل لم تكن شفوية او مسموعة، الا انها مفهومة وواضحة باطنياً على اي حال. وعلق سورزبي على حكايته بقوله إن مثل هذه الظواهر شائعة أكثر مما يتصوره المرء كثيراً للوهلة الأولى.

وفي حدود الحادية عشرة مساء، انصرف الجميع الى حجراتهم الا فيلبيرز الذي صب لنفسه كوباً من الشاي وجلس بالقرب من الموقد. وعلى حين غرّة احس بحضور ما. لكنه عزا احساسه الى موضوع الكلام الذي دار في اثناء العشاء. وفجأة سمع ذهنياً صوت الكابتن اروين يقول له: "بربك، دعني اكلمك. ان الخطب مريع. ولهذا يجب ان اتحدث اليك. اننا جميعاً قتلة مجرمون".

وفي صباح اليوم التالي بلغ فيلبيرز صديقه سورزبي ما حدث له بعد العشاء. وتطوع سورزبي للجمع بين صديقه فيلبيرز وافضل وسيط روحي في انكلترا، الا وهو ايلين غاريت. وضرب موعداً للاجتماع بينهما من دون ان يعطي ايلين اسم صديقه كاملا، بل اكتفى بالحرف الأول منه: "ف". ولم يعلم اي من فيلبيرز او سورزبي شيئاً عن الجلسة التي عقدها هاري برايس وإيان كوستر مع ايلين.

وصل فيلبيرز يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) الى شقة السيدة غاريت التي اوضحت له بايجاز ما ينبغي معرفته عن صوت يوفاني. وامسك فيلبيرز بالقلم والكراس تأهباً لتدوين ما يقال في الجلسة، واثقاً من قدرته على تسجيل الكلام حرفياً، حتى وإن لم يكن خبيراً في شؤون الاختزال، نظراً الى قوة ذاكرته

التي تمكنه من استعادة جميع التفاصيل بحذافيرها.

وبعد دقائق من الصمت سمع صوت يوفاني متحدثا بلسان عدد من الناس لم يعرف فيليبرز احداً منهم. واستمر يوفاني على هذا المنوال قرابة نصف ساعة كاد ينفد فيها صبر فيليبرز. وبعدئذ سمع صوتا خفيضاً يخرج من حنجرة ايلين، تلاه صوت يوفاني كأنما هو يحاول تفسير ما قاله صاحب الصوت الضئيل. وفي ما يأتي المادة التي دوّنها فيليبرز عقب كل جلسة استنادا الى الملاحظات المسهبة التي كتبها والى ما حفظه في الذاكرة. على انها ليست سجلا حرفياً لما وقع.

يوفاني (اروين جزئيا؟): اروي... أروي... (بصوت اعلى): اروين اروين. ارجوك ألا تذهب. ابقَ هنا. اريد ان اتكلم. نحن نشعر باننا قتلة مغضوب عليهم. كان ينبغي ان نقول لا.

فيليبرز: من "نحن" الذين ذكرتهم؟

اروين: جوني وسكوتي وأنا (لا شك في انه يعني الملاح جونستون والميجور سكوت).

فيليبرز: حاول ان تخبرني عما حدث.

اروين: (بتوتر وسرعة): انها اثقل بأطنان مما ينبغي. وبناؤها من صنع الهواة، لا المحترفين. اكياس غاز المنطاد والروافد لم تصنع من مواد سليمة تماماً.

فيليبرز (وقد عجز عن متابعة الكلام): مهلا يا صديقي. دعنا نبدأ من البداية.

اروين: لاحظت بعد الظهر - قبل ساعات من موعد اقلاعنا - ان مؤشر الغاز يرتج ارتفاعا وهبوطا، مما يدل على رشح الغاز.

فيليبرز: حاول ان تفسر الموضوع. لم افهم ما تعنيه.

اروين: لأكياس الغاز مسام ينفذ منها الغاز لانها غير قوية، فضلا عن حركة الأكياس ذاتها التي تعمل كالمنفاخ، محدثة ضغطاً داخليا يسبب رشح الصمامات. وعندما نظرنا الى الرسوم البيانية للأحوال الجوية - وهي رسوم احضروها لنا قبل الرحيل - انزويت مع سكوتي وجوني وتشاورنا في الأمر، فنالنا خوف شديد.

فيليبرز: ألم يساعدكم طومسون؟

اروين: عندما بلغته امر تسرب الغاز، قال طومسون: "هذا مقدار ضئيل لا يدخل في الحسبان. وسنقلع بلا ابطاء في الوقت المحدد".

فيليبرز: كيف كانت النهاية بالضبط؟

اروين: تقوّست احدى الروافد في مقدم السفينة وثقبت الغلاف الخارجي. وهي الرافدة عينها التي سببت لنا المتاعب في الماضي. وهم يدركون ذلك. (يظن فيليبرز ان الضمير هنا عائد الى مسؤولين في وزارة الطيران). كانت الريح تهب بعتوّ والامطار تنهمر غزيرة. واندفاع الريح هو الذي جعلنا نهبط من علونا للمرة الأولى. غير اننا قوّمنا من انحدار المركبة الى حين، حتى عصفت الريح مرة اخرى داخل ثقب الغطاء، فاحدثت ضغطاً اضافياً اودى في النهاية بحياتنا.

فيليبرز: قل لي، ما الذي سبب الانفجار؟

اروين: الاشتعال الخلفي في محرك الديزل. ذلك ان عيار انسياب الوقود اليه لم يكن مضبوطا. ومن ناحية اخرى، ازداد الضغط داخل اكياس الغاز بسبب الروافد السفلى التي

تقوست عليها فضاعفت من اندفاق الغاز الى الخارج. وهذا الاقتران بين الاشتعال الخلفي في المحرك وتسرب الغاز اضرم النار في المركبة الجوية. (وانتقل اروين عند هذه النقطة الى ابداء ملاحظة حول محكمة التحقيق التي باشرت جلساتها). ان من المخجل سماع اقوالهم. كلام هراء. انهم يدركون ذلك، لكنهم يحجمون عن قول الحق.

بهذا الكلام انتهت الجلسة الأولى.

التقرير النهائي

اعلن يوفاني في بداية الجلسة الثانية مع ايلين غاريت ان ثمة شخصاً يود التكلم مع فيلبيرز. ومن ثم بدأ يصفه وصفاً حمل فيلبيرز على الظن انه برانكر.

يوفاني: انه يبتسم في وجهك كثيراً ويقول: "كلا، لا اريد ان اذكر اسمي حتى ارى اذا كان يذكرني". ها هو يضع يده في جيب صدرته ويضع زجاجة مستديرة فوق عينه ويقول لك: "استعمل ذكاءك".

واكتسب صوت يوفاني نبرات برانكر، وسجل فيلبيرز ملاحظة في ما بعد تفيد انه احسّ بحضور برانكر في الغرفة. وانتقل يوفاني بعد قليل الى وصف شخص آخر له وجه بشوش مدوّر ورأس كبير، مؤكداً ان فيلبيرز ابصره، في لقائهما الأخير، مرتدياً سترة زرقاء ومعتمراً قبعة مستدقة القمة. وفي لمحة عين تقمص يوفاني شخص الميجور سكوت الذي عرّف نفسه قائلا: "أجل يا صاحبي، انا سكوتي".

فيلبيرز: عرفتك يا صديقي منذ اللحظة الأولى.

سكوت: واحسرتاه يا فيلبيرز! لكم تعجز الكلمات امام هول ما وقع. يا للأرواح والخبرات والأموال والمعدات التي هُدرت وذهبت ادراج الريح!

فيلبيرز: حنانك ايها العزيز سكوتي، قل لي متى بدأت تشك في ان المركبة غير صالحة للطيران؟

سكوت: منذ الرحلة الأولى حين اتضح انها صعبة القيادة. ومن ثم دهمتنا بشتى المتاعب.

فيلبيرز: اي متاعب؟ لقد ذكر اروين مقدم الطائرة.

سكوت: نعم، وكذلك الروافد والمحركات.

فيلبيرز: رويدك لو سمحت. ينبغي ان افهم الموضوع جيداً. هل تستطيع تحديد المكان بالضبط؟ اني اعلم ان الدعامات الطويلة مرقمة من الحرف "أ" الى الحرف "ز".

والجدير بالملاحظة ان فيلبيرز اراد ان يقول "الروافد". لكن العبارة التي دونها في محضر الجلسة كانت "الدعامات". فأبقاها على رغم علمه بخطأه.

سكوت: هذا غير صحيح، لان الترقيم يبدأ من الاعلى بالصفر، ثم يتدرج نزولا الى ا، ب، ج، د، هـ، و، ز. لم لا تلقي نظرة الى نموذجك؟ (والغريب ان فيلبيرز نسي تماما حتى تلك اللحظة انه يحمل في جيبه رسماً بيانياً مرقماً).

سكوت (مرة اخرى): انها الرافدة على ميمنة الطائرة، الرقم ٥ والحرف ج.

فيلبيرز: لحظة. دعني ارى. الرقم ٥ هو الجناح وراء المحرك الأيمن مباشرة. و... ا، ب، ج. نعم! الثالثة. تفضل.

سكوت: وجدنا بعد انتهاء الرحلة ان

الرافدة اجهدت، لكنها لم تتصدع. ومع ذلك، فقد تسببت في مشكلات الغطاء الخارجي التي اودت بحياتنا في المرة الأخيرة. المكان نفسه: ٥-ج.

فيليبيرز: هل انكسرت الرافدة واخترقت الغطاء الخارجي؟

سكوت: كلا، لم تنكسر. لكنها تصدعت كثيراً واحدثت مزقاً في الغطاء الخارجي، ولك ان تتصور المشهد: الغطاء على ميمنة ٥-ج يتمزق ويولد ضغطاً هائلا في الداخل يسفر عن التواء هيكل الطائرة، والضغط الجوي الخارجي يتزايد حدة. واذا بالطائرة تنوء باثقالها وتغوص من علوها للمرة الأولى. اما ما حدث في المرة الثانية فهو اسوأ كثيراً، إذ تزايدت الضغوط على اكياس الغاز الى درجة قصوى وهبت في الوقت نفسه عصفات من الريح العاتية. وهذا الضغط الخارجي الذي اقترن بضعفالصمام ادى الى خلع الصمام من مكانه واذا بالاشتعال الخلفي لمحرّك الطائرة يضرم النار في الغاز الذي بدأ يندفق الى الخارج.

فيليبيرز: صبراً يا سكوتي. لقد استدرجت نوبل الى الحديث عن الروافد ليلة امس عندما كنا مسافرين في القطار، وسألته عما اذا عثر فيها على اخطاء. فرد بقوله: "كلا. أبداً. لا. لا، لا شيء على الاطلاق". ولهذا احجمت عن الاستطراد في الموضوع وطرقت بابا آخر للحديث.

والحق ان "نوبل" اسم مستعار، وكذلك "روبرتس" الذي يرد ذكره بعد قليل. وقد بُدّل الاسمان بناء على طلب فيليبيرز. وكان نوبل يشغل منصب كبير مساعدي كولمور وروبرتس كبير مساعدي اللورد طومسون. وهما آخر مسؤولين نزلا من المركبة الجوية "ر-١٠١" قبيل اقلاعها، واخذا جميع الملفات والاوراق ذات العلاقة بالمركبة. الا انهما، في رأي فيليبيرز، انتهازيان يتسمان بالتملق والنفاق ولا يتورعان عن تمويه الحقائق والتعتيم على تقصير وزارة الطيران واخفاقها.

سكوت: اياك ان تتنفس بكلمة امامه. لا تأمن جانبه يا فيليبيرز. كم يشق علي هذا القول. لكنه يدرك جيداً ما وقع.

فيليبيرز: نوبل يعلم جيداً؟ كيف؟

سكوت: هو وروبرتس معا شاهدان على كل كلمة قيلت في المناقشة الحادة مع طومسون والآخرين.

فيليبيرز: لا شك في ان روبرتس سيصرح بما يعلم.

سكوت: بل هو مسكين لا يقوى على شيء خشية فقدان وظيفته ودفع الثمن غالياً.

فيليبيرز: ثمة امر آخر. كبير المهندسين قال ان المحركات كانت في وضع سليم.

سكوت: يا الهي ما اكذبه! انه لا يتستر من الله بستر. ان المحركين كليهما سببا لنا المتاعب في مختلف الاوقات. لكن الذين نجوا سيتعهدون، بناء علىتعليمات صدرت إليهم،بذكر رواية واحدة تذهب الى ان كل شيء كان على خير ما يرام.

فيليبيرز: ولكن يجب ان احصل على الحقيقة بطريقة ما.

سكوت: لن تفوز بمطلبك. في وسعهم ان ينكروا الحقائق. ولو درى المسؤولون في وزارة الطيران بأنك تشتبه، حتى مجرد اشتباه، بما

يقولون لطاردوك وأقضوا مضجعك. وعلى اي حال، فإن اطلاعك انت بالذات على الحقائق يفرّج من كربنا.

عقد فيليبرز سبع جلسات مع ايلين غاريت، تحدث خلالها كل من برانكر وكولمور. غير ان سكوت كان اكثرهم تفصيلا في شرح خلل الاجهزة وظروف انفجار المركبة الجوية. وقد اسهب في ذكر دقائق الامور الى حد مؤلم احيانا (*).

واتضح ان للطائرة "ر-١٠١" ومدى صلاحها للتحليق تاريخاً طويلا حافلا بالمماحكات والنقاش المتسم بالاحقاد والضغائن، ومسجلا بحرص شديد في شتى الرسائل والمذكرات والملفات التي وقعت في ايدي نوبل وروبرتس. على انهما لن يكشفا، ولو جزءاً منها، امام محكمة التحقيق التي رئسها السير جون سايمون. ولهذا راودت فيليبرز فكرة الاجتماع بسايمون سراً واطلاعه على المعلومات التي جمعها خلال الجلسات الروحية. ولعل اخطر نقطة فيها ما قاله كولمور في الجلسة الثالثة حول مجموعة كاملة من التقارير عن سير تقدم بناء الطائرة. وهذه التقارير مودعة في درج مقفل داخل مكتبه في كاردينغتون.

واضاف: "ان تاريخ هذه المشكلات مدون في كتاب ذي رقم مسلسل هو الحرف "أ" والأعداد ٥-٧". ولاحظ فيليبرز في جلسة لاحقة، هي الجلسة الخامسة، اضطراباً شديداً في صوت كولمور. ودوّن فيليبرز في محضر الجلسة بعد انقضاء فترة ما يأتي:

كولمور: امضيت نهاية الاسبوع الماضي كلها في طيران مستمر دونما انقطاع، محاولا العثور على اوراقي وملفاتي. لقد ذهبت الى مكتبي في كاردينغتون فوجدت ان كلّ شيء قد أُزيل من مكانه. اين اختفت الكتب؟

فيليبرز: آمل كلياً ان تكون في حوزة المحكمة، والا فهي مخفية في مكان ما.

وفي الجلسة السادسة اثار فيليبرز نقطة مهمة اخرى حول الضابط ن.ج. اثرستون الذي توفي اخيراً في حادث اصطدام. وقد قرىء امام المحكمة جزء من يومياته:

فيليبرز: أيمكنك الاتصال باثرستون؟

كولمور: سأحاول. لماذا؟

فيليبرز: سمعت ان الكلمات الأخيرة في يومياته هي الآتية: "اننا، كأكباش الفداء، نُقدّم قرباناً لارضاء مجلس الطيران، عليه اللعنة". غير ان كلماته الأخيرة التي قُرئت على المحكمة تؤكد ببساطة ان تجارب الطيران كانت حسنة. والذي اود معرفته هو كيف تسربت رواية "اكباش الفداء" التي سمعتها شخصياً من مصدر موثوق؟ لا يسعني سوى الاستنتاج ان ملاحظته الأخيرة عن الوزارة حذفت من المفكرة في وقت لاحق.

كولمور: ارسلت اروين في طلبه. واروين يقول ان اثرستون خائف جداً ولن ينضمّ الينا. لكنه يقول ان لديه مفكرتين، واحدة رسمية منمقة العبارة واخرى خاصة دون فيها حقيقة خواطره.

وانتهت الجلسة بعيد ذلك الكلام. ولم يفلح فيليبرز في الاتصال

(*) في إمكان الذين يهمهم الأمر ان يراجعوا النص الكامل لمحضر جلسات فيليبرز الذي نشر كاملا للمرة الاولى في الكتاب الملخص هنا.

باثرستون مباشرة الا في الجلسة الأخيرة التالية:

فيلييرز: انت تعلم يا اثرستون اني سمعت من افضل المصادر بما دونته انت في احدى مفكرتيك حيث تفصح عن حقيقة مشاعرك. ففي ايهما فعلت هذا؟ وهل لديك حقاً مفكرتان؟ لقد اطلعت المحكمة على مفكرة "جميلة".

اثرستون: لم يكن لدي سوى مفكرة واحدة.

فيلييرز: هل تعترف بانك كتبت ذلك الكلام؟ اين؟ الا ترى انه يجب اعلامي بالحقيقة؟ انه لأمر كبير الأهمية بالنسبة الى سايمون ان يطلع عليها بنفسه.

اثرستون: انا لم اكن انسانا ذا شأن.

فيلييرز: ليس هذا موضوع جدل الآن. ارجوك يا كولمور، فسر له ضرورة اطلاعي على الحقائق.

اثرستون: (بعد فترة صمت): عندي مفكرة جيب سلمتها الى زوجتي قبل الرحيل لأني كنت احس بامكان عدم العودة.

وفي نهاية المطاف اجتمع فيلييرز بالسير جون سايمون رئيس محكمة التحقيق وبكبير مساعديه ل.ف. داربي. وروى لهما القصة كاملة ثم سلمها ملخصة في ثماني صفحات ليس لاستخدامها في التحقيقات ذاتها، لان ما تحويه من معلومات لا يُعدّ ادلة مشروعة، وانما هو للاطلاع فقط، من اجل مساعدة المحققين في ابراز بعض الشواهد المطموسة.

وفعلا، توجه كبير المساعدين داربي فوراً الى كاردينغتون وفتش مكاتبها تفتيشاً دقيقاً بحثاً عن اوراق كولمور التي انكر المسؤولون وجودها. على ان ارملة كولمور اكدت لداربي حين زار منزلها انها متيقنة من صحة وجودها، لأن زوجها كان يحضر الكتب والملفات احيانا الى داره ويملي عليها بعض الفقرات لادراجها في سجلاته. اما السيدة اثرستون فقد امتنعت عن التصريح بكلمة واحدة، سواء أكانت تأكيداً او نفياً، لوجود المفكرة الخاصة.

وفي ٥ ديسمبر (كانون الأول) فرغت المحكمة من جلساتها، واصدرت بعد اسابيع تقريراً نهائياً غامضاً لم تنحُ فيه باللائمة على احد، وانما ذكرت ان سبب الكارثة هو تسرب الغاز، ولكن "تستحيل" معرفة كيف بدأ. ولم يتضمن التقرير ذكراً لانتقادات كولمور او برانكر او اثرستون وهم على قيد الحياة، او حتى للسجلات او الرسائل او اليوميات ذات الصلة بالحادث. على ان التقرير حرّم طيران "ر-١٠٠"، واهملت الطائرة كلياً في ما بعد. وما ان انفجر المنطاد الالماني "هندنبرغ" بعد ست سنوات من ذلك التاريخ حتى دق الناقوس معلناً موت عصر المركبات الجوية.

مزيد من الغوامض

لم يعلم هاري برايس طوال هذا الوقت بمحاولات فيلييرز لاكتشاف سر كارثة "ر-١٠١". ولم يعلم فيلييرز من جانبه بمساعي برايس وكوستر مع ايلين غاريت. غير ان فيلييرز وبرايس، على افتراقهما، تلاقيا في تيار واحد من ردود الفعل. فقد انقسمت الشواهد في نظرهما الى قسمين: الاول يعزز احتمال استمرار الحياة بعد الموت، والثاني يؤثر في نتائج لجنة التحقيق.

ولما كان برايس جاهلا شؤون السفن الجوية، فقد راح يبحث عن خبير ليدقق في المعلومات التي وردت اليه خلال جلسات استحضار الارواح. وبعث في الوقت ذاته بنسخة عن محضر الجلسات الى وزارة الطيران، اسفرت عن استجابة غير مباشرة تلفت الانتباه. فقد توجه موظفان في سلك المخابرات التابع لسلاح الجو الملكي الى بيت ايلين غاريت من دون ان يقدما سبباً للزيارة. ولما الحت عليهما، أقرّا بانهما اطلعا على النسخة التي بعث بها هاري برايس الى الوزارة، واعترفا بانها تتضمن اموراً سرية. ولهذا فهما لا يجدان مناصاً من توجيه سؤال محرج اليها، الا وهو: هل تربطها علاقة غرامية باحد ضباط الطيران؟

وردّت ايلين على سؤالهما بفتح باب الدار، مشيرة لهما بكل حزم بالخروج.

وفي أوائل نوفمبر (تشرين الثاني) وجه برايس رسالة الى السير جون سايمون، عرض فيها استعداده لتقديم نسخة له عن محضر الجلسات. غير ان رئيس المحكمة امتنع عن قبولها حينذاك.

وبعد انتهاء التحقيقات باسبوعين، نشرت احدى الصحف مقالا بقلم كوستر وبرايس عن محاولة الاتصال بروح الكاتب المتوفى كونان دويل بعدما أقحم اروين نفسه في مستهل جلسات استحضار الارواح. وجاء في المقال انهما سمعا صوتا زعم انه هو الكاتب الذائع الصيت. وكاد المقال كله يقتصر على هذا الموضوع. ولم يأت كوستر وبرايس على ذكر اروين و"ر-١٠١" إلا لماماً وباسلوب غير مباشر لا يتضمن اي تفاصيل.

لكن هذه الاشارة، على اقتضابها، لقيت هوى في نفس وليم تشارلتون، كبير ضباط تموين الطائرة، فكتب بصفة شخصية يطلب السماح له بمراجعة محاضر الجلسات وابداء الرأي في ما يختص باروين وتصريحاته. وبما ان برايس كان يتحين مثل هذه الفرصة، فقد ارسل اليه على الفور نسخة عما دونته خبيرة الاختزال ايتيل بينهام، سائلا تشارلتون ان يعتبر محتوياتها "مادة شخصية خاصة".

وما ان تسلم تشارلتون محضر الجلسات حتى استدعى جميع اعضاء المجلس التنفيذي للفنيين في كاردينغتون واطلعهم على النسخة. ووافق الجميع على انها وثيقة مثيرة للدهشة. وتناقشوا بعد مراجعتها واحداً واحداً، ودوّن كل منهم ملاحظاته الخاصة التي تولى تشارلتون امر تنسيقها. واجمع الفنيرن على ان الوثيقة تحتوي على اربعين اشارة الى امور علمية معقدة وتفاصيل سرية من الحماقة ان نتصور انها صادرة عن مخيلات اشخاص عاديين في حلقة لاستحضار الارواح. واتفقوا على ان تصريحات اروين عن اسباب تحطم الطائرة تراوح بين ما هو "غامض" و"مرجح كثيراً" و"اقوى الاحتمالات ترجيحاً"، وأن مصطلحاته العلمية كلها صحيحة وسليمة بلا استثناء. لكن هناك ثلاثة بيانات تستحق انتباها خاصاً، وهي الآتية:

١. كادت الطائرة تلامس سطوح المنازل في بلدة آشي.

جاءت تحقيقات تشارلتون في هذا

الصدد تعزز ما اكتشفه برايس: "لا تظهر آشي على الخرائط العادية، لكنها مذكورة على الخرائط الكبيرة الخاصة بنقل العتاد الحربي، كالتي كانت في حوزة اروين. والبلدة تقع فعلا على طريق الطائرة "ر-١٠١".

٢- هذا المشروع الباهظ التكاليف، الذي يستخدم الكربون والهيدروجين، ينطوي على خطأ فادح.

علق تشارلتون بقوله: "جرى التفكير ايام اختبار ر-١٠١ في اعداد سلسلة اختبارات تعتمد حرق مزيج من الهيدروجين ووقود النفط (اي الكربون والهيدروكربون) واستمرت الاستعدادات لمثل هذه التجربة العلمية المعقدة التي لم تجرب خلال الطيران. ولا يحتمل ان يدري احد بهذه الشؤون خارج الدوائر الرسمية المعنية".

٣- الشيء نفسه ينطبق على "ش ل-٨". بلغوا اكنر.

"تأكد" ان ش ل-٨ هو رقم الطائرة الالمانية. والحرفان يرمزان الى اسم شوت لانز، احد مصممي المركبات الجوية وصانعيها. واتضح هذا الامر بعدما راجع "ش" (اي تشارلتون) جميع سجلات المركبات الجوية الالمانية. وهذا يعني ان المعلومات لم تكن معروفة لدى اعضاء المجلس التنفيذي قبل التنقيب عنها. الا انها معلومات متوافرة لدى اروين بحكم عمله. اما اكنر فهو الدكتور اكنر الذي بنى طائرات غراف زبلين".

لم يتردد هاري برايس لحظة واحدة في اعلان هذه النتائج التي نشرتها صباح اليوم التالي صحيفة "مورنينغ بوست". وصعق فيليبرز للنبأ. ولكن سبق السيف العذل. فقد صدر التقرير النهائي للمحكمة، وما من رسالة من "عالم الغيب" تستطيع ان تبدل فيه حرفاً واحداً.

النتائج

دأبت ايلين غاريت على مزاولة نشاطاتها عقب الجلسات الخاصة بكارثة "ر-١٠١" لأكثر من ثلاثين سنة. واستمرت حيرتها ازاء قدراتها الغريبة بلا هوادة طوال هذه الفترة. ورضيت بشتى الاختبارات العلمية التي اجراها ج. ب. راين، الاستاذ في جامعة ديوك الامريكية، والدكتور الكسيس كاريل وعلماء النفس في جامعتي كولومبيا في ولاية نيويورك وبالتيمور في ولاية ماريلاند. وانصاعت لمختلف الفحوص والتجارب التي اجراها العلماء والخبراء في باريس وروما واكسفورد وكيمبريدج. على ان النتائج لم تكن مقنعة لأن العلم لم يكن مؤهلا لاستيعاب مثل هذه الظواهر. فحار العلماء في امر قدراتها مثل حيرتها.

اما فيليبرز، الذي كان موظفاً في سلك المخابرات، فقد احجم، نظراً الى طبيعة عمله، عن الادلاء بما لديه من معلومات لسنوات عدة. لكنه كشف النقاب عن بعضها، عقب وفاة السير جون سايمون، لاحد الصحافيين الذين يتمتعون بمكانة مرموقة في مجال عمله، وهو جيمس ليزور الذي باشر تأليف كتاب عن "ر-١٠١". وقال فيليبرز في رسالته الى ذلك الصحافي عام ١٩٥٦: "اشك في امكان اي انسان الادعاء بوجود وفرة من الادلة تشكل برهانا قاطعاً. لكني اعتقد، على كل حال، ان ثمة كثرة من الشواهد المفصلة تمكنني من القول بأن وعينا الفردي، بعد عبوره ابواب

الموت، يستمر في الحياة مستعينا بجسد روحي، وانه يستطيع، في ظروف معينـة، جعـل أهـل الأرض يحسون بوجوده".

وفي العـام ١٩٦٧ شـرع مايـكـل كوكس، مخرج الافلام الوثائقية، في تسجيل تحقيقـات عصريـة لكارثـة "ر-١٠١". واتصل بمن بقي على قيد الحياة من أقرباء الضحايا، وتوسع في تحرياته حتى التقى ارملة الضابط اثرستون. وراحت السيدة اثرستون تنقب في اوراق زوجها بعد مرور هذه الاعوام الطويلة، الى ان عثرت على مفكرته الخاصة التي تضمنت سجلا وافياً بسير العمل في بناء "ر-١٠١" وتجاربـهـا. وقـد ورد فـي احـدى صفحاتها قوله: "ثمة الحاح جنوني واسراع مفزع لانهاء بناء المركبة الجويـة. ان اطـلاق هؤلاء الضـبـاط الطياريـن فيمركبـة جديـدة بهـذا الحجم لم يسبق اختبارها لهو اجحاف في حقهم. وليس للمركبة قوة تذكر في الصعود بحمولتها. ومن الواضح انها ثقيلة جدا في بنائها السفلي".

وتناولت صحيفة "الصنداي ميرور" اللندنية الخبر بالتعليق الآتي: "لنا ان نتصـور مـدى الهيـاج الشعبـي لـو انكشفت مثل هذه التهم عقب مأساة جوية هذه الأيام".


ولكم أدخل هذا الكشف الجديد الطمأنينة والحبور الى قلب فيلييرز الذي ظل يتحرى، منذ العام ١٩٣٠، عن ادلة مادية واقعية تؤكد صدق معلوماته. ولهـذا، فـان اختباراتـه الروحية مع اصدقائه الذين لاقوا مصرعهم في حادث "ر-١٠١" تعززت الآن بهذه الانباء المتأخرة عن وجـود مفكرة اثرستون وطبيعة محتوياتها. ودعم هذا ايمانه باستمرار الحياة بعد الموت، وأرسى آسسا فكرية راسخة اضيفت الى ايمانه الشخصي بالله.

والحق ان ابطال الرواية الذين ادوا ادوارهم على هذه الشاشة الكبيرة تأثروا كلهم بنتائج الكارثة: فانقلبت نظرات اميلي هنشكليف بين ليلة وضحاها من الشك المطلق الى الايمان الصامد، واصبح هاري برايس اقل تشككاً بعد خبرته مع الكابتن اروين، وانتقل ايانكوستر الى نقطة اقل تطرفاً واكثر تعقلا في شكه. ولم يقو وليم تشارلتون على التمسك بمذهبه التشكيكي، وغدا من المؤمنين بوجود الارواح. وبدأ يدرس علماً نظيراً لعلم النفس.

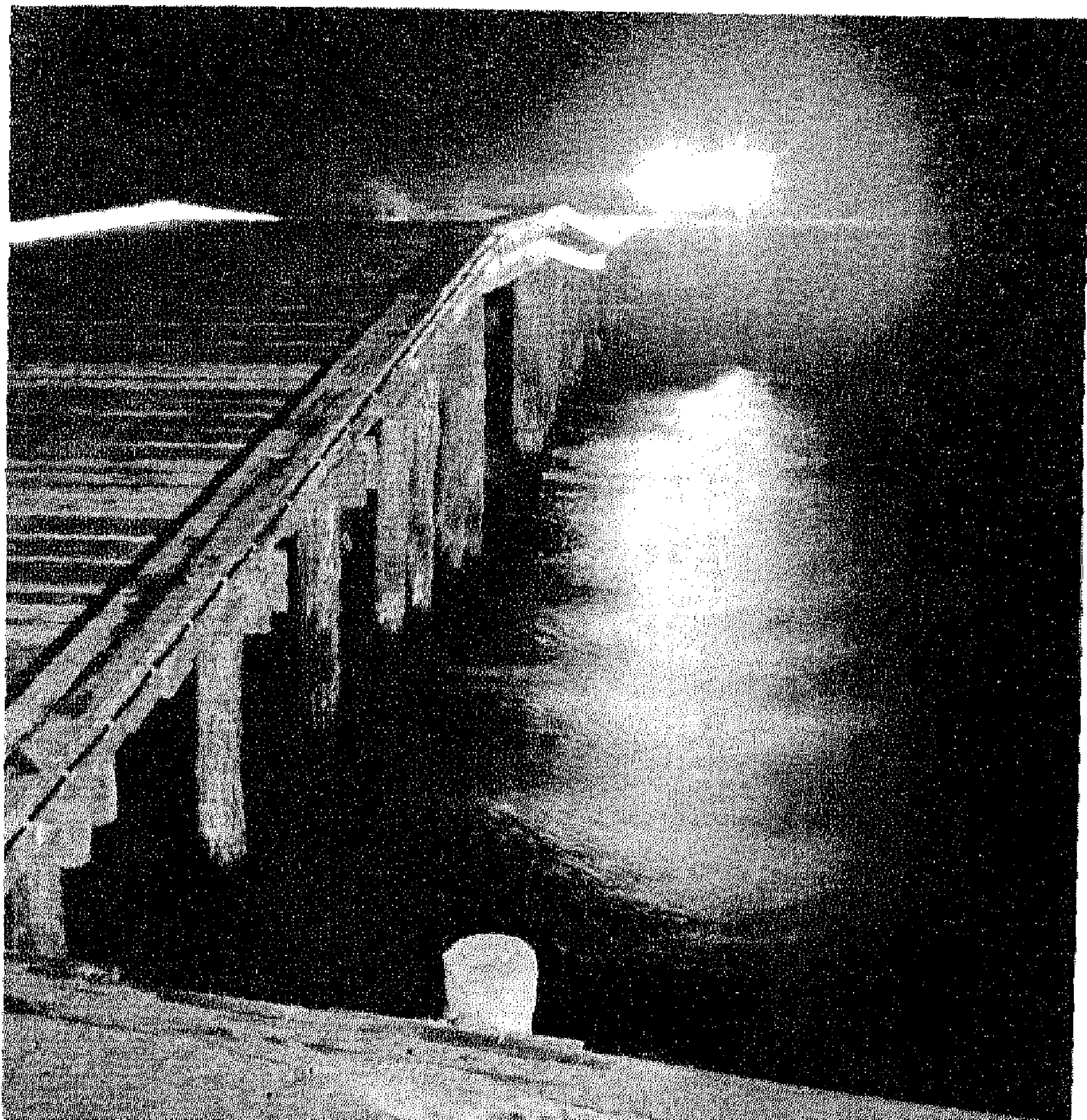
أما ايلين غاريت، وهي المنبع الذي انبثقـت منـه هـذه الاحـداث جميعاً، فقد دأبت ، حتى وفاتها عام ١٩٧٠، على تسخير كل ما لديها من وسائل في دعم المساعي الرامية الى دمـج العلـوم الطبيعيـة بالظـواهـر الخارقة للطبيعة. غير انها لم توفق على الاطلاق في بلوغ غايتها. ومع ذلك فهي جديرة - لما امتازت به من توقد الذهن والفطنة - بأن تكون صاحبـة الكلمـة الاخيـرة فـي هـذه القضية. وقد كتبت الآتي:

"ان اثبات وجود الروح عقلياً مسألة ترك امرها للدين والشعور الشخصي. على ان اياً من الاثنين لا يرسم طريقاً واضحة ومحددة بالنسبة الى الحياة بعد الموت تتقبلها المقاييس العلمية. اما انا فاعيش في عالم حافل بظواهر ما وراء الطبيعة. وهي ظواهر لا تسمح لنفسها بأن تتنحى جانباً، بل تتصرف على الدوام كقوة مرشدة".

■ جون فولر


مأساة
ادوارد كينيدي

مأساة ادوارد كينيدي



لقد اصبحت لفظة "تشاباكويديك" في عقول الامريكيين رمزاً للمأساة، والاحجية الغامضة، وربما للفضيحة كذلك.

ولا شك في ان وفاة امرأة شابة - لاقت حتفها بعد ان تدهور السناتور ادوارد م. كينيدي بسيارته فوق جسر في جزيرة تشاباكويديك ليلة ١٨ - ١٩ يوليو/تموز ١٩٦٩ - لا تزال مأساة لاسرتها ولاسرته كذلك. والسؤال المطروح الآن هو: هل يعتبر حادث تشاباكويديك وما احاط بهذه المأساة امراً يجيز للرأي العام ان يهتم له اليوم؟

هناك كثرة من المعلقين المسؤولين توافق على مثل هذا الاتجاه. فصحيفة "غلوب" التي تصدر في مدينة بوسطن تقول: "ان اشهر فاجعة سجلتها حركة السير في هذا القرن ستلعب دوراً مؤكداً تقريباً في اختيار الرئيس القادم للولايات المتحدة الامريكية. وهذا شيء واجب، لان تشاباكويديك لم تكن مجرد حادث سيارة. وكثير من الامريكيين يخامرهم الشعور، وهم معذورون، بان تصرف كينيدي في اعقاب الحادث ليس الا ضرباً من ضروب المماطلة والتعويق التي يألفها السياسيون. وهم يتساءلون عما اذا كان في وسع كينيدي ان يكذب على الشعب الامريكي في حال وقوع ازمة عامة. وما لم يتمكن كينيدي من عمل شيء ما لتوضيح ظروف ذلك الحادث في اثناء حملته الانتخابية، فسيظل محكوماً عليه بأن يعيش في ظل هذا الارتياب".

وتقول" وول - ستريت جورنال": "ان قدرته على الاضطلاع بمهمة الرئاسة تتوقف الى درجة لا يستهان بها، على شعور الامة بأنه ذاك الرجل الذي يكون موضع ثقتها بالتزام الصراحة في ايضاح تصرفاته بكاملها. ومن هذه الثقة لا بد للقيادة الوطنية ان تصبح امراً مستحيلا في نهاية الامر. وعلى رغم ان مأساة تشاباكويديك لا تمت مباشرة الى نهج التصرف بالشؤون العامة الا انه يصعب على المرء ان يتغاضى عما تثيره من تساؤلات حول مستوى الثقة، وما يتجاوز ذلك من طباع شخصيته.

وان التغاضي عن هذه التساؤلات لم يعد جائزاً، لان اعلان ادوارد كينيدي ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة يوجب على الناخبين ان يتساءلوا عما اذا كانوا يستطيعون تصديق روايته عن اكبر ازمة في حياته، وعما اذا كانوا يستطيعون ان يصدقوا ما سيقوله لهم عن اي ازمة تحدث في اثناء رئاسته".

وتقول صحيفة "لوس انجيليس تايمس": "ان التساؤلات المعلقة عن تشاباكويديك تزعج حتى اولئك الذين يأملون له الفوز".

وتقول صحيفة "النيويورك تايمس": "لا ينبغي ان يكون هناك اي تردد في اعادة فحص هذه القضية المربكة. واذا تبين ان كينيدي قد استغل نفوذه الضخم لحماية نفسه ومستقبله السياسي بستر سوء سلوكه - وهو ما تحمل الوقائع المعروفة على التشكك فيه - فان ذلك لا يضطره فحسب الى العيش في ظل المأساة، بل في ظل فساد من نوع ووترغيت. وقد تعلمنا من قضية ووترغيت ان ليس هناك تساؤل يتعلق برئيس الجمهورية اشد خطورة من التساؤل عن مدى الوثوق به في التزامه احترام القانون. فجميع الذين لهم اي علاقة بقضية تشاباكويديك وذيولها مدينون للامة بتقديم حساب عنها لم يضطروا - لسبب ما - الى تأديته طوال عشرة أعوام".

وفيما كانت "الدايجست" تعد هذا المقال، طلبت مراراً من السناتور ادوارد كينيدي اجراء مقابلة معه لكي تتسنى له الاجابة المتعمقة عن التساؤلات القلقة حول حادث تشاباكويديك والتي لم تلق جواباً منذ بضع سنوات. ولكن السناتور كينيدي لم يوافق على استقبال اي صحافي من الدايجست.

أياً تكن طبيعة الازمة النفسية العنيفة التي هزّت السناتور إدوارد م. كينيدي في باكورة ذلك الصباح، فانه أفلح تماماً في إخفائها. فقد بدا حسن الهندام في بنطلونه الابيض وحذائه الأبيض كذلك وقميصه الرياضي الأزرق كما بدت عليه مظاهر العافية والاطمئنان وهو يمشي متمهلا من فندق "شايرتاون إن" في بلدة مارثاس فانيارد قرابة الساعة ٧،٣٠ صباحاً. والتقى السناتور المتين البنية الذي يبلغ ٣٧ سنة، رفيقاً له في رياضة اليخوت يدعى روس س. ريتشاردز، الذي فاز عصر اليوم السابق بالمرحلة الاولى من سباق الزوارق وتبادل الرجلان التحيات الودية، وعاد كينيدي بصحبة ريتشاردز إلى الفندق حيث جلسا على الشرفة أمام غرفتيهما. ولم يظهر على كينيدي أي شيء غير عادي سواء في حديثه او تصرفه وظل يتبادل مع رفيقه حديثاً ودياً عن الطقس والسباق حتى الساعة الثامنة صباحاً.

ثم أقبل اثنان من أصدق أصدقاء كينيدي، هما جوزف ف. غارغان وبول ف. ماركهام، ولاحظ ريتشاردز ان هندامهما مهمل وعليهما آثار البلل.

فنهض كينيدي على الفور ومضى واياهما الى غرفته مباشرة، وأغلق الباب. ومر في تلك اللحظة تشارلز و. تريتر مساعد كينيدي، وبدا له من خلال النافذة أنه لاحظ على وجه السناتور ايماءة تدعوه الى دخول الغرفة. ولكنه عندما دخل صدم بلهجة رئيسه يطلب منه الانصراف.

وقرابة الساعة ٨،٣٠ صباحاً، خرج كينيدي الى بهو الفندق، وطلب نسخاً من صحيفة "بوسطن غلوب" وصحيفة "النيويورك تايمز"، واقترض قطعة عشرة سنتات من أحد موظفي الفندق ليجري مكالمة تلفونية. وبعد دقائق قليلة، مشى هو وغارغان وماركهام مسافة قصيرة لا تتجاوز بضع بنايات في اتجاه المعدية التي تعبر باستمرار قناة ميناء إدغارتاون البالغ عرضها ١٥٠ متراً وتفصل بلدة مارثاس فانيارد عن جزيرة تشاباكويديك.

وبعد العبور، وقفوا على مرسى المعدية في جزيرة تشاباكويديك فترة تقارب العشرين دقيقة، رأوا بعدها ان المعدية تنزل سيارة القطر التي ارسلتها محطة جون آليوم لانقاذ السيارات الغائصة، وصاح أحد عمال المعدية يخاطبهم قائلا: "هوه! هل انتم على علم بما حدث؟"

فأجاب غارغان بهدوء: "نعم، سمعنا به لتونا".

ولم يعد هناك مجال للاختيار، فاضطر كينيدي في نهاية الامر للتوجه الى مركز الشرطة. وقد حرص كينيدي - وهو محام - قبل أن يركب المعدية في طريق العودة على أن يصدر تعليماته لغارغان - وهو محام أيضاً - ولماركهام - وهو نائب عام سابق - فقال لهما: "اسمعا، أنا لا أريد الزج بكما في هذا الموضوع، ولا أريد أن يمسكما منه شيء. وفي ما يتعلق بكما، فانكما لم تعلما بأي شيء عن الحادث في تلك الليلة".

ماتت السيدة الشابة

وبينما كان كينيدي واصدقاؤه المؤتمنون، يبحثون في الامر كان هناك رجال آخرون على بعد خمسة

كيلومترات يحاولون مواجهة ما بدا لهم أنه طارىء يتهدّد بالخطر حياة ضحاياه. فراح الغطاس جون ن. فارار يستكشف سيارة الاولدزموبيل الكبيرة من طراز عام ١٩٦٧ المقلوبة على ظهرها والمغمورة بالماء في قاع بركة مجاورة لجسر خشبي، يزيد عمقها على المترين. وتبين له للوهلة الاولى من خلال الضوء المتسرب عبر المياه الصافية انه يرى قدميـن بشريتين داخل السيارة، فانزلق بسرعة من النافذة الخلفية اليمنى إلى الداخل آملا في أن يكون من فيها على قيد الحياة. ولكن فارار ورفاقه وصلوا متأخرين، فكانت "ماري - جو كوبتشني" قد اصبحت جثة متصلبة المفاصل وانشبت قبضتيها كالمخالب في المقعد الخلفي والتوى رأسها الى الخلف وإلى أعلى كأنه يستنجد الهواء.

واستوى دومينيك جـ. أرينا، رئيس شرطة إدغارتاون، بجسمه الضخم في الماء فوق السيارة، وهو يحتضن الجثة بين ذراعيه في انتظار قدوم القارب. وراعه ما يبدو على الآنسة كوبيتشني من حياة وجمال، حتى وهي ميتة، بشعرها الاشقر البديع وعينيها الواسعتين، والاناقة التي يضفيها عليها قميصها الابيض الطويل الكمين، وبنطلونها الفضفاض الداكن وخفّاها الابيضان. وكانت ناحلة الجسم وحجمها يكاد يعادل حجم ابنته البالغة من العمر ١٤ عاماً.

وكانت لوحة رقم السيارة الخلفية ظاهرة، فطلب رئيس الشرطة أرينا معلومات عنها بالراديو، وجاءه الرد يثبت أن السيارة مسجلة باسم إدوارد م. كينيدي، بمبنى جون فيتزجيرالد كينيدي في مدينة بوسطن. وبعد عودته الى الشاطىء اسرع أرينا إلى مبنى الحاجز الصخري المجاور للطريق، على بعد حوالي ١٣٠ متراً من الجسر، بقصد الاتصال تلفونياً برجاله ليبحثوا عن كينيدي، ولكن سكرتيرته ردت عليه بأن كينيدي موجود في مركز الشرطة، واعطت الخطّ للسناتور.

فقال له أرينا: "يؤسفني أن تكون لدي أخبار سيئة، لقد وقع حادث هنا لسيارتك وماتت السيدة الشابة".

فأجاب كينيدي: "أعرف ذلك. هل يمكنك أن تخبرني ما إذا كان هناك أحد آخر في السيارة؟".

- نعم

"وهل هو لا يزال في الماء؟"

- كلا

"هل يمكنني أن أحدثك؟"

- نعم.

"هل تريد أن تحدثني؟"

- أفضل أن تأتي الى هنا.

وفي مركز شرطة إدغارتاون الذي يشغل غرفتين في مبنى البلدية القديم الذي بني قبل ١٤١ عاماً، طلب أرينا من كينيدي أن يدلي بمعلوماته، فسأل السناتور ما إذا كان يمكنه أن يقدمها كتابة، فرد عليه أرينا بالايجاب، ولكي يتيح له الخلوة، اصطحبه هو وماركهام إلى مكتب قريب من مكاتب البلدية حيث قضيا ما يقرب من ساعة. وقرابة الساعة ١١ صباحاً، قرأ أرينا أول محضر لكينيدي عن الحادث، مكتوب بخط ماركهام (من دون توقيع)، وكان نصه كالآتي:

"يوم ١٨ يوليو/تموز عام ١٩٦٩، الساعة ١١،١٥ مساء تقريباً، في تشاباكويديك في بلدة مارثاس فانيارد في ولاية ماساتشوستس، كنت أقود سيارتي في الشارع الرئيسي متجهاً الى المرسى لأعبر بالمعدية عائداً الى بلدة إدغارتاون. وكان الطريق غير مألوف لي، فانحرفت الى اليمين على طريق الحاجز الصخري بدلا من أن أتبع المنحنى الحاد الى اليسار، على الطريق الرئيسي. وبعد أن قطعت قرابة ثمانمئة متر على طريق الحاجز الصخري، هبطت على هضبة بلغت في آخرها جسراً ضيقاً خرجت السيارة عن جانبه. وكان معي في السيارة راكبة واحدة هي الآنسة ماري....(١) السكرتيرة السابقة لأخي السناتور روبرت كينيدي. وقد انقلبت السيارة وغاصت في الماء واستقر سقفها على ارض القاع. وقد حاولت عندئذ ان افتح باب السيارة ونافذتها، ولكني لا أتذكر كيف خرجت منها. وبعد أن بلغت سطح الماء عاودت الغطس الى السيارة مرات عدة كي أرى ما إذا كانت الراكبة لا تزال في داخلها، ولكن محاولاتي لم تنجح. وكنت في حال إعياء وصدمة. وأذكر أني مشيت عائداً الى حيث كان أصدقائي يتناولون الطعام. وكانت هناك سيارة واقفة أمام البيت، فدخلتها وجلست في المقعد الخلفي، ثم طلبت أن يعيدني أحد الى بلدة إدغارتاون. وأتذكر أني تمشيت بعد ذلك فترة قصيرة ثم عدت الى غرفتي في الفندق. وعندما ادركت بوضوح هذا الصباح ما حدث، اتصلت بالشرطة على الفور".

ولم يلق هذا المحضر الارتياح التام لدى جورج و. كينيدي، المراقب في إدارة تسجيل السيارات في ولاية ماساتشوستس المسؤولة عن التحقيق في حوادث السيارات التي تتسبب في الوفاة. وبعد ان قرأ المراقب جورج كينيدي المحضر في مركز الشرطة، قال للسناتور: "هناك شيء أود ان اعرفه".

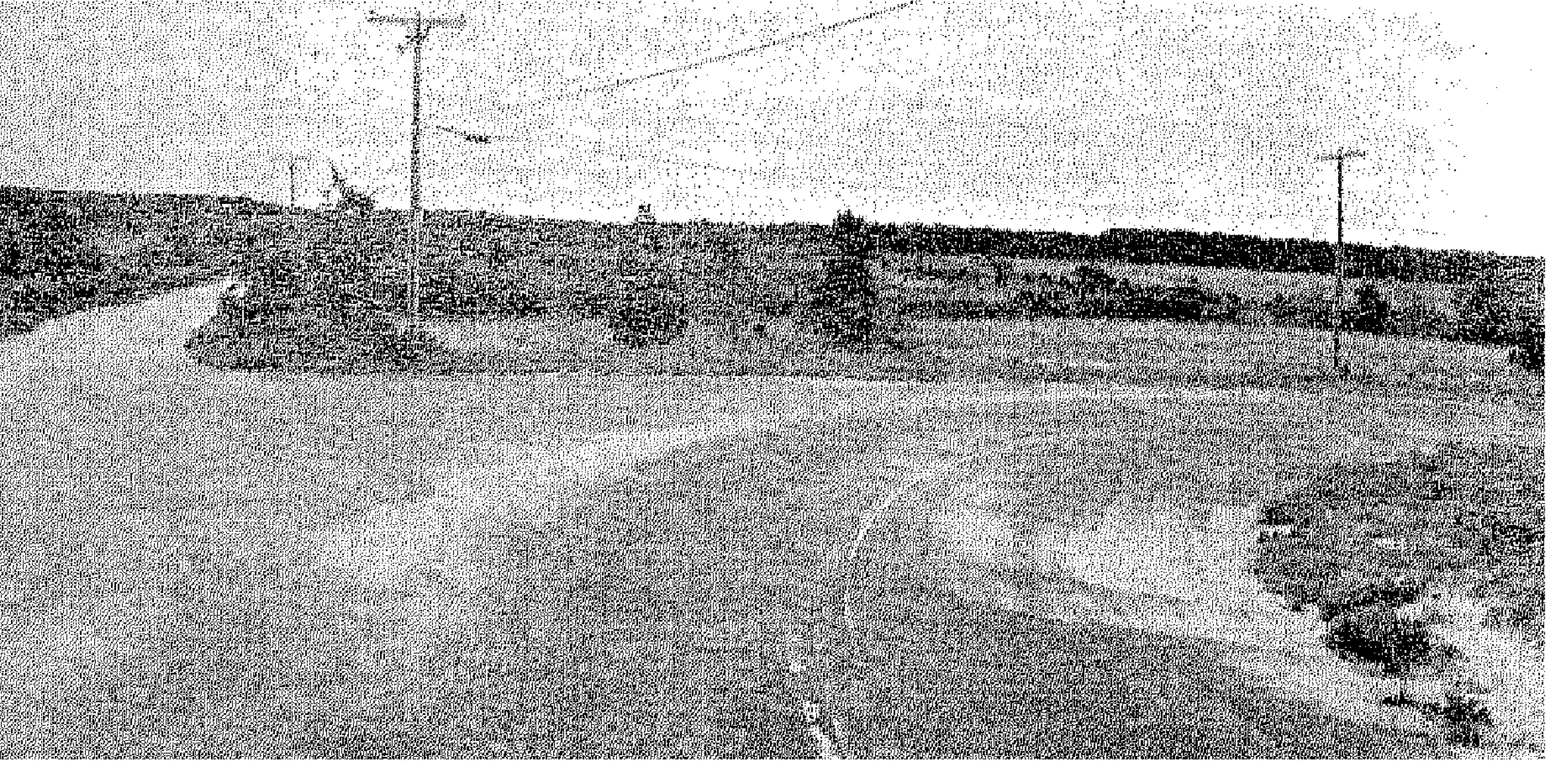
فرد السناتور: "ليس لدي أي تعليق آخر".

وادار المراقب نظره إلى ماركهام وغارغان. وقد افاد في وقت لاحق بانهما "قالا لي إنه سيدلي بأقوال أخرى في ما بعد، وأنه سيجيب عن المزيد من الاسئلة".

وابل من الاسئلة

ان رئيس شرطة ادغارتاون دومينيك آرينا رجل عملاق يبلغ طوله ١٩٠ سنتيمتراً ويزيد وزنه على مئة كيلوغرام، وهو نجم سابق في لعبة الكرة أثناء دراسته الثانوية، ورقيب سابق في قوات مشاة البحرية وشرطي سابق من شرطة الولاية. وهو نموذج الشرطي الامين الشريف الذي لا يعرف المواربة في بلدة صغيرة. ولم يكن أجره من عمله في ذلك الوقت يزيد على ١٠٥٠٠ دولار في السنة. وقد احزنه الحادث باعتباره مأساة جديدة تنتكب بها عائلة كينيدي وهذا ما حمل آرينا على السماح لكينيدي بالانصراف من دون استجواب، عندما قال السناتور انه يرغب في الاتصال

(١) لم يرد في المحضر الأول اسم الآنسة كوبتشني كاملاً، لأن كينيدي لم يكن متأكداً من طريقة هجائه بالضبط.



تقاطع الطرق حيث اتجه كينيدي يميناً نحو طريق الحاجز الصخري بدلا من التوجه يساراً.

بمحامي أسرته بيرك مارشال الذي كان مساعداً سابقاً للمدعي العام، ووعد بأن يتصل مجدداً برئيس الشرطة أرينا. ولم يكن في أقوال كينيدي اي الماع على الاطلاق الى احتمال وجود اي معلومات عن الحادث لدى ماركهام وغارغان ولذلك لم يخطر لأرينا أن يحاول الحصول على مثل هذه المعلومات منهما، كما أنهما لم يتطوعا من جانبهما لذكر شيء.

وتوسل ماركهام الى أرينا أن يحجز المحضر عن الصحافيين الى ما بعد تشاور كينيدي مع مارشال، كما اتصل به تلفونياً بعد الظهر ليكرر هذا الطلب. ولكن أرينا كان ابلغ الصحافيين مضمون المحضر قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر. وبدلا من أن يؤدي هذا العمل الى تهدئة الصحافيين، إذا به يثير منهم وابلا من الاسئلة:

لماذا لم يطلب كينيدي النجدة لانقاذ الآنسة كوبتشني؟ لماذا انتظر عشر ساعات كاملة قبل أن يبلغ عن الحادث؟ أين كان وماذا كان يفعل طوال هذا الوقت كله؟ لماذا اندفع بسيارته خارج حافة الجسر؟ وكيف حدث ذلك؟ ومن هم الاصدقاء الذين كانوا "يتناولون الطعام"؟ وأين كانوا يتناولونه؟ ولماذا لم يفعل "أصدقاؤه" هؤلاء شيئاً؟ وما هو وضع التحقيق الآن؟

وتزاحمت هذه الاسئلة في رأس ارينا وتعذرت عليه الاجابة عن أي منها الا انه راح يمني نفسه بامكان الحصول على الاجوبة خلال حديث مقبل مع السناتور كينيدي. ولم يكن يدري آنئذ أن تلك الفرصة لن تتاح له أبداً، وأن هناك عشرة أشخاص آخرين كان يمكنهم ان يقدموا اليه معلومات عن الحادث ولكنهم اختفوا جميعاً من الجزيرة دفعة واحدة، ولم يبق في مارثاس فانيارد سوى ممثل واحد لكينيدي، هو ك. دن جيفورد، الذي لا يستطيع تقديم اي معلومات أو أدلة، إذ أنه وصل الى الجزيرة في طائرة خاصة عصر ذلك اليوم نفسه

مكلفاً مهمة واحدة: نقل الجثة بأسرع ما يمكن. وقد لازم جيفورد الجثمان في بيت المأتم وهو يسأل بقلق عما إذا كانت الجثة ستشرح ام انها ستحتجز فعلم أنه لن يجري شيء من ذلك.

ودفنت الآنسة كوبتشني يوم ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٦٩ في مقبرة ريفية في ولاية بنسلفانيا، حيث رفض والداها، وهما زوجان رقيقا الحال ولكنهما معتزان بكرامتهما، عرضاً من كينيدي لدفع نفقات الجنازة، وفضلا الاقتراض من المصرف وسحب ما كانا قد ادخراه على مدار السنين لانفاقه على عرسها!

المجلس الكبير

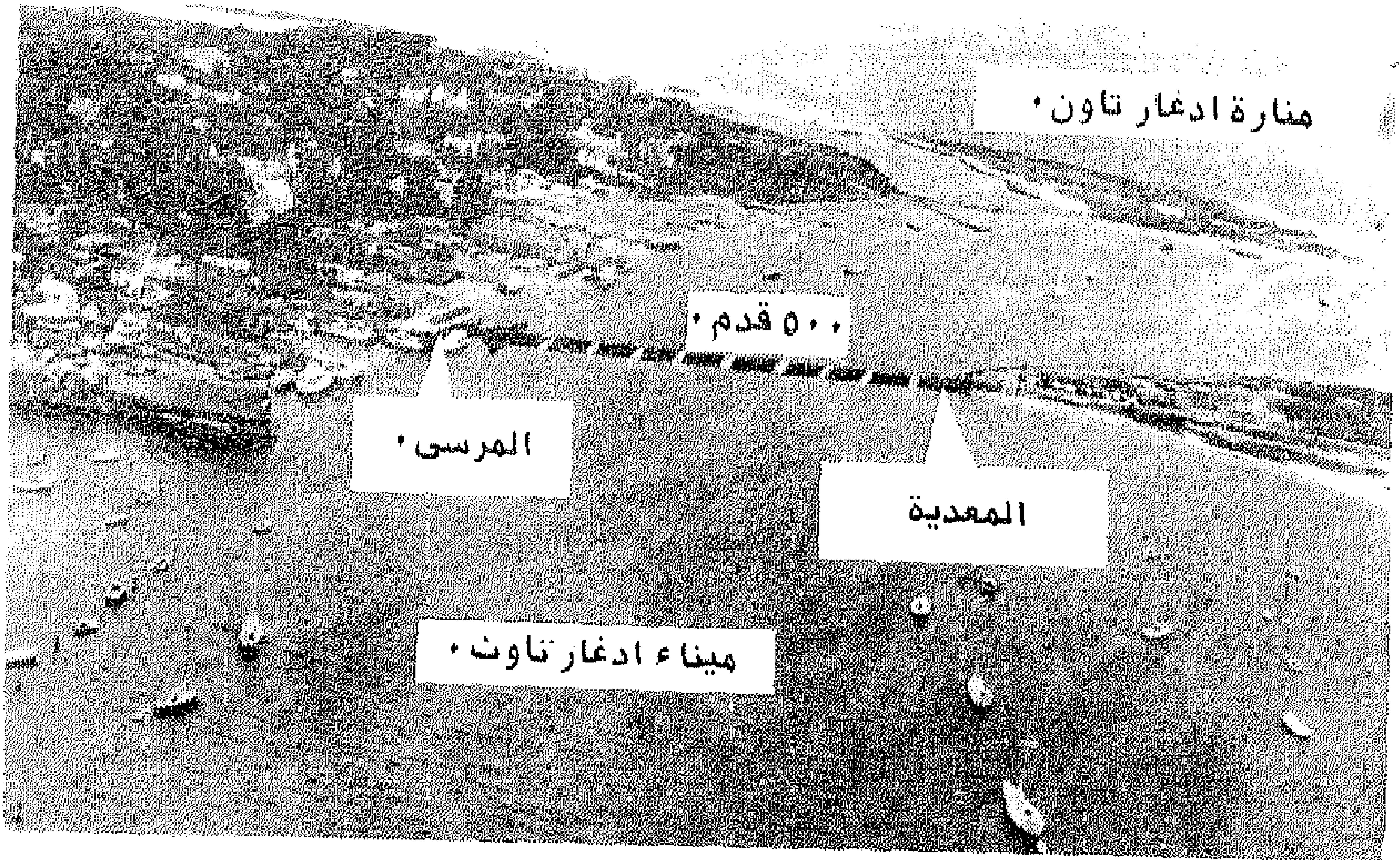
وطوال الايام الستة التالية لاذ كينيدي بالصمت وحبس نفسه خلف أبواب ضيعة الاسرة في هيانيس بورت في ولاية ماساتشوستس، ولم يغادرها إلا لكي يحضر جنازة الآنسة كوبتشني ويعود منها على الفور بالطائرة. وكان هو والقريبون منه يدركون حرج الموقف. وأخذ مشاهير الرجال يتجمعون في الضيعة لتقديم المشورة، ووضع استراتيجية التصرف والمعاونة في إعداد محضر ثان، لان المحضر الاول كان مثاراً للتساؤلات والشكوك على نطاق واسع.

وكان من بين الذين وفدوا لحضور المجلس الكبير وزير الدفاع السابق روبرت مكنمارا وجون كوليفر وجون توني اللذان كانا آنئذ عضوين في مجلس النواب ثم أصبحا عضوين في مجلس الشيوخ عن ولايتي أيوا وكاليفورنيا، وثيودور سورنسن وريتشارد جودوين اللذان كانا يكتبان خطب الرئيس الراحل كينيدي، ورئيسا النيابة العامة بيرك مارشال وميلتون غويرتزمان، والاستاذ في جامعة هارفرد آرثر شلزينجر الابن والمستشار السياسي كينيث أودونل ومدير أعمال الاسرة ستيفن سميث. وفي هذه الاثناء كان المحامون الذين أوفدوا الى بلدة مارثاس فانيارد يتفاوضون بالنيابة عن كينيدي.

وقد أتاح نجاح هؤلاء للسناتور أن يخرج عن صمته يوم ٢٥ يوليو (تموز). فبعد إتمام الترتيبات المناسبة مع ممثل الادعاء، عاد كينيدي الى بلدة إدغارتاون وأقر بأنه مذنب في جنحة مغادرة موقع الحادثة، فأدانه القاضي - بموافقة الادعاء - بأدنى عقوبة ينص عليها القانون، وهي الحبس مدة شهرين مع وقف التنفيذ، وسحب رخصة قيادة السيارات التي يحملها لمدة عام.

وبعد ذلك أعلن كينيدي: "لقد استعدت الليلة حريتي فيمكنني ان أنبئكم بما حدث"، وقدم كينيدي في ذلك المساء "الى اهل ماساتشوستس" (والى المشاهدين الذين استبد بهم الفضول على صعيد الامة كلها) بياناً بالتلفزيون استغرق ١٧ دقيقة واحدة يختلف اختلافاً ملموساً عن الاقوال التي ادلى بها الى رئيس الشرطة آرينا قبل ستة أيام. وبعد ستة أشهر، في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٧٠، أدلى كينيدي وماركهام وغارغان وغيرهم بأقوالهم بعد حلف اليمين القانونية في تحقيق سري تناول وفاة الآنسة كوبتشني.

فماذا حدث بالفعل في تلك الليلة المشؤومة؟



منظر جوي لميناء ادغار تاون٠

إن تتابع الاحداث كما رواها السناتور وأصدقاؤه، سواء في الحديث التلفزيوني أو في التحقيق السري (الذي أعلن نصه في ٢٨ أبريل /نيسان ١٩٧٠)، لم يطرأ عليه أي تعديل من جانبهم طوال السنين العشر التي انقضت منذ وقوع الحادثة٠ وفي ما يأتي ملخص لاقوالهم، يتلوه تحليل للنقاط الدقيقة ولبعض الوقائع الجديدة:

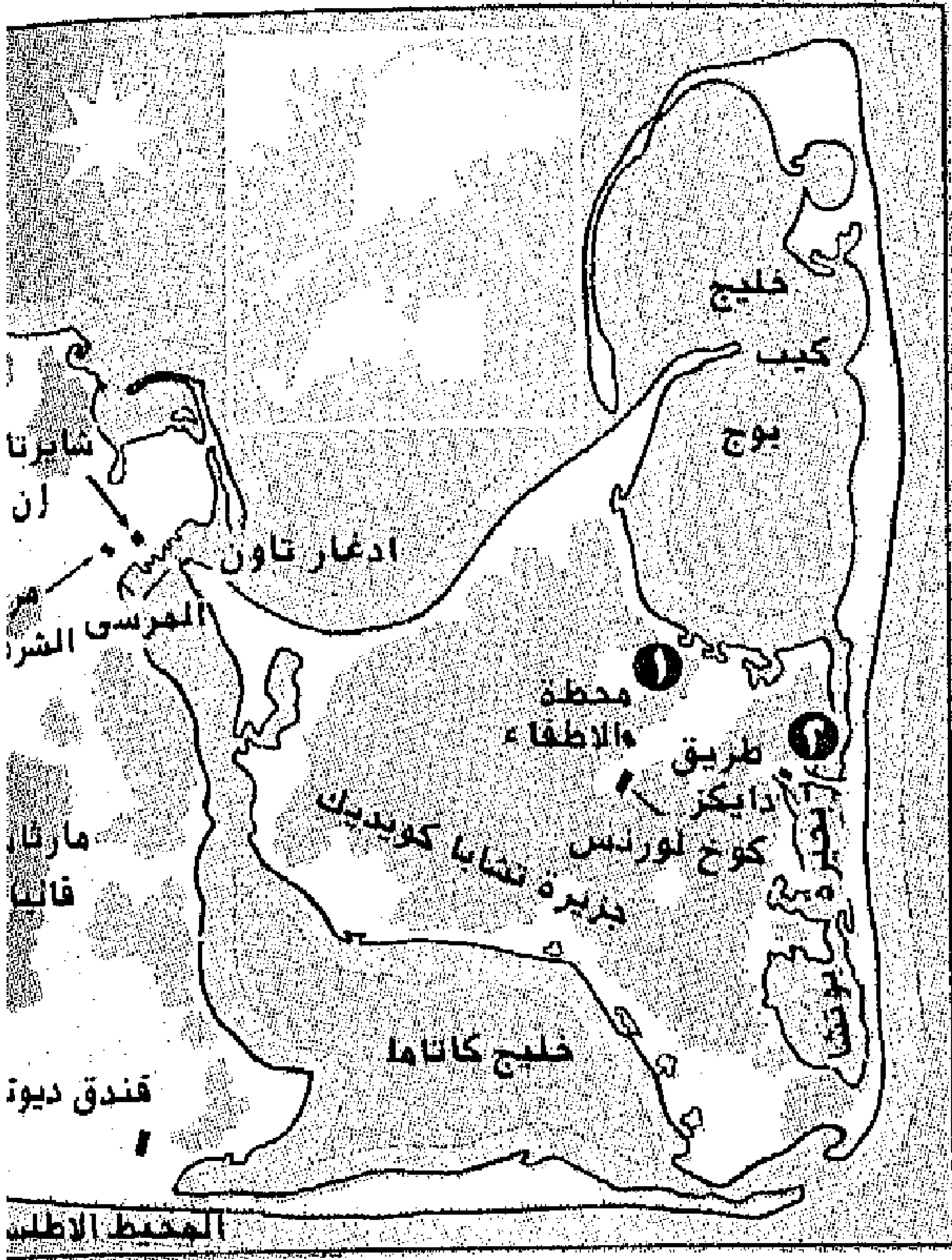
انحراف الى اليمين

درج آل كينيدي طوال ثلاثين عاماً على الاشتراك في سباق الزوارق في ادغارتاون٠ وتمشيا مع هذا التقليد، وحضور حفلة "شجع السناتور كينيدي على اقامتها وشارك في رعايتها، تكريماً لمجموعة مخلصة من سكرتيرات حملة ترشيح كينيدي للرئاسة"، قدم السناتور الى بلدة إدغارتاون حيث وصل قرب الساعة الاولى بعد ظهر يوم ١٨ يوليو (تموز)، في سيارة يقودها مستخدمه جون ب٠ كريمينز البالغ من العمر ٦٣ عاماً٠ وركب كينيدي المعدية الى تشاباكويديك ليستحم هناك في المحيط الاطلسي انعاشاً للقوى قبل بداية السباق٠ ولكي يصلا بالسيارة – هو وكريمينز – الى الشاطىء، كان عليهما أن ينحرفا بالسيارة عن الطريق الوحيد المرصوف في الجزيرة ويتجها بها نحو طريق الحاجز الصخري وعبر الجسر القائم فوق بركة بوتشا والذي يزيد عرضه قليلا على ثلاثة أمتار، كما كان عليهما بعد ذلك أن يعودا من الطريق ذاتها٠ (وعلى ذلك، فان كينيدي قد عبر مرتين هذا الطريق البالغ الخشونة وذلك الجسر المتميز الذي يعلو المكان الذي قدر للآنسة كوبتشني أن تلاقي حتفها فيه بعد قليل)٠

وانتهى كينيدي من السباق وهو يحتل المركز التاسع، ثم سجل اسمه في فندق شايرتاون - إن، وغير ملابسه، وشرب "ثلث زجاجة بيرة تقريباً" مع بعض الاصدقاء قبل أن يعود به كريمنز في السيارة إلى تشاباكويديك الساعة ٧،٣٠ مساء. وكان "غاريدغرانت" الذي يتولى تشغيل المعدية يعمل من الساعة السادسة مساء حتى الساعة الاولى والثلث صباحاً. وهو يتذكر المناسبة، فيقول: "إن الليلة كانت بديعة شديدة الهدوء، وكان الماء كالزجاج".

وكان غارغان قد استأجر لإقامة الحفلة بيتاً من غرفتين للنوم يعرف باسم "كوخ لورنس"، ويقع على مسافة عشرة أمتار تقريباً من الطريق الرئيسي المرصوف الذي يؤدي إلى مرسى المعدية على بعد خمسة كيلومترات تقريباً. وكان بين ضيوف الحفلة ست نساء غير متزوجات، جميعهن في العشرينات من عمرهن، وكانت الآنسة كوبتشني في الثامنة والعشرين أكبرهن سناً. واما سائر الحاضرين، فكانوا: كينيدي، وكريمنز، وغارغان (٣٩ عاماً)، وماركهام (٣٩ عاماً)، وتريتر (٣٠ عاماً)، وريموند لاروزا (٤١ عاماً). وهو أحد موظفي الدفاع المدني في ولاية ماساتشوستس.

وكان كريمنز قد زود المنزل بثلاث زجاجات كبيرة من الفودكا تسع كل منها نصف غالون (أكثر من ليترين)، وبقرابة أربعة ليترات من الويسكي، وزجاجتين من الروم، وصندوقين من البيرة. وطبقاً للشهادات التي وردت في التحقيق، فان أحداً ممن اشتركوا



على اثر مغادرته مكان الاحتفال في "كوخ لورنس"، استقل كينيدي سيارته متوجهاً الى المرسى، وهو انحرف بها يميناً (١) ثم اتجه نحو طريق الحاجز الصخري قبل ان يعبر الجسر (٢).

في الحفلة لم يتناول طوال تلك الامسية أكثر من ثلاث اقداح من الشراب. وشرب كينيدي آخر قدح من الروم الممزوج بالكوكاكولا في الساعة التاسعة مساء. وكان الاصدقاء يتسلون بأكل شرائح اللحم المشوية، وبالغناء والرقص والاستماع إلى الراديو وتبادل الذكريات والمشي.

وفي الساعة ١١،١٥ ليلا، كما يصرّ كينيدي على القول، قرر أن يعود الى فندقه ليحصل على قسط واف من النوم. وتصادف أن كانت الآنسة كوبتشني تتحدث معه آنئذ، فقالت أنها هي ايضاً تريد مغادرة المكان ورجته أن يتكرم باصطحابها الى فندق "ريونز" حيث تنزل هي واخريات. وكان فندق كوبتشني يبعد

بضعة كيلومترات عن فندق كينيدي. (راجع الخريطة) فأخذ السناتور مفاتيح السيارة من كريمنز وقادها بصحبة الآنسة كوبتشني على الطريق الرئيسي متجهاً الى مرسى المعدية.

إلا أنه بدلا من ان يواصل السير على الطريق الرئيسي المرصوف حيث ينحني انحناءة حادة نحو اليسار، دار كينيدي خطأ الى اليمين واندفع في الطريق الترابي الوعر بسرعة تناهز ثلاثين كيلومتراً في الساعة. وعلى رغم أنه كان صاحياً، غير ثمل، "وفي كامل وعيه" مركزاً كل انتباهه على الطريق من امامه ولا يلهيه عنه أي شيء آخر، إلا أنه لم يدرك خطأه، ولم ير الجسر إلا قبل أن يبلغه "ببضعة أجزاء من الثانية". واندفعت السيارة الضخمة وتجاوزت الحافة اليمنى من الجسر، وانقلبت على ذاتها وغاصت في الماء حتى استقر سقفها فوق ارض قاع بركة يوتشا.

وتدفق الماء الى داخل السيارة من نافذتها الامامية اليسرى التي كانت مفتوحة، ومن نافذتي الجانب الايمن اللتين حطمهما الاصطدام. ويقول كينيدي عن ذلك: "أتذكر، عندما اندفع الماء البارد حول رأسي، أنني تصورت انني غارق لا محالة، ولكنني قاومت على نحو ما وبلغت سطح الماء حياً". (لم يتمكن كينيدي أبداً في تعليقاته وتصريحاته العلنية اللاحقة من ان يتذكر كيف نجا بنفسه من السيارة المغمورة بالماء، ولكنه يتذكر "حركة ماري - جو إلى جواري وهي تقاوم، وربما ترتطم بي وترفسني").

وعندما بلغ كينيدي سطح الماء "جرفه التيار الذي كان ينساب بقوة غير عادية خلال ذلك الممر الضيق، وعجز عن السباحة في ذلك الوقت بسبب التيار". ولكنه بعد أن خاض الماء الى الشاطىء واسترد أنفاسه، عاود الغطس سبع مرات أو ثماني في اتجاه السيارة التي كانت أنوارها لا تزال مضاءة، ولكن التيار القوي أفسد كل جهود الانقاذ التي بذلها. وبعد ١٥ أو ٢٠ دقيقة بلغ به الاعياء درجة منعته من الاستمرار في المحاولة، فاستراح على الشاطىء قرابة ١٥ أو ٢٠ دقيقة أخرى، ثم بدأ "يمشي، ويعدو، ويركض، ويتعثر" عائداً الى كوخ لورنس.

كان لا بد لكينيدي في طريق عودته هذه من أن يمر على نحو بضعة أمتار من بيت مضاء على يساره قرب الجسر، وأمام بيت آخر مضاء ايضاً الى جهة اليمين، بعد البيت الاول بقليل، ولدى كل من هذين البيتين جهاز تلفون. كما كان لا بد له أيضاً من ان يمر سيراً أو عدواً على مسافة أمتار قليلة من محطة مطافىء مضاءة ومفتوحة ومزودة بمقبض إنذار يكفي مجرد جذبه لإيقاظ الجزيرة بأكملها).

وحين بلغ كينيدي كوخ لورنس، اندفع داخل سيارة واقفة من طراز "فاليانت" وجلس على مقعدها الخلفي بعدما نادى لاروزا الذي كان واقفاً عند مدخل الكوخ، وطلب منه أن يستدعي غارغان، ثم ماركهام.

وقال لهما حين جاءا: "لقد سقطت السيارة من فوق الجسر قرب الشاطىء وفي داخلها ماري - جو". وفي أثناء انطلاقهم مسرعين نحو الجسر قرابة

الساعة ١٢،٢٠ بعد منتصف الليل، لم يطلع كينيدي صديقيه على اي تفاصيل عن الحادثة، وهما لم يسألاه عن اي معلومات.

سأتولى الامر

قاد غارغان السيارة الفاليانت عبر الجسر وسلط أضواءها على البركة، فاستطاعوا بذلك رؤية السيارة الاولدزموبيل المقلوبة. وخلع ماركهام وغارغان ملابسهما وظلا طوال الدقائق الخمس والاربعين التالية يكرران الغوص مرة بعد أخرى وهما يحاولان دخول السيارة الغائصة. ولكن التيارات القوية أفسدت محاولاتهما. ويتذكر كينيدي أنه عندما خرج غارغان من البركة، "كان مصاباً بخدوش كثيرة ابتداء من مرفقه، وكان ما تحت ذراعه مليئاً بالرضوض ودامياً".

وتخلوا أخيراً عن محاولات الانقاذ غير المجدية، ومضوا بالسيارة الفاليانت إلى مرسى المعدية، وكينيدي ينشج وعلى وشك الانهيار التام وسط دموعه. وقال: "إن ما حدث لم يكن ممكناً. ولست ادري كيف حدث". فقال ماركهام: "لقد حدث. وحدث بالفعل".

قال كينيدي: "ماذا عساي أفعل الآن؟ وماذا استطيع فعله؟"

وجلسوا في السيارة عند مرسى المعدية يتحدثون مدة عشر دقائق أو نحوها، وحث غارغان كينيدي على الاتصال تلفونياً بأسرته وبمساعده الاداري "ديفيد بيرك" قائلا: "يجب أن تبلغ عن هذا الحادث على الفور".

قال كينيدي: "حسناً، حسناً، سأتولى الامر. ارجعا الى حيث اتيتما ولا تعكرا مزاج الفتيات، ولا تزجاهن في هذا الموضوع، وسأتولى أنا الامر". ثم خرج كينيدي من السيارة ومشى بضع خطوات الى الشاطىء، ثم اندفع فجأة إلى قناة الميناء وبدأ يسبح في اتجاه إدغارتاون. "بدأت آنذاك أسبح متخبطاً في ذلك التيار. واشتد التيار فجأة... فشعرت به يقذفني قذفة غير عادية ثم يكاد يجذبني الى أسفل مرة أخرى، والماء يستقطبني الى أسفل. وأدركت فجأة في تلك اللحظة ما فاتني أن أدركه قبل أن أغطس، وهو أني في حال ضعف وأرهاق... وبدأ التيار يجرفني الى الخارج، وشعرت للمرة الثانية في ذلك المساء بأني على وشك الغرق، وبأن قواي تتناقص باستمرار. وكنت في تلك اللحظة على حوالي ٥٠ متراً من الشاطىء. وتذكرت أن التيار جرفني في اتجاه منارة إدغارتاون ثم ابتعد بي الى الظلمة. وبعد ذلك بفترة قليلة - وأظنني كنت قد بلغت منتصف القناة أو أكثر من ذلك قليلا - اصبح التيار أكثر هدوءاً وأقل قوة، وبدأت أسترد بعض قواي، وأحرز بعض التقدم، حتى تمكنت في النهاية من بلوغ الشاطىء الآخر...".

وسار كينيدي جاهداً في اتجاه فندق شايرتاون إن لـ"يستند إلى احدى الاشجار ليستريح فترة من الوقت" حتى يسترد قواه. وقبل الساعة الثانية صباحاً بقليل، بلغ غرفته في الفندق وخلع ملابسه المبللة "وهوى في فراشه". وكان رأسه يدوي بالخفقان، والالم يجتاح رقبته وظهره، وكان "واعياً بالمأساة وفقد

صديقة شديدة الاخلاص" . ونظراً الى انه "لم يكن متأكداً مما إذا كان الوقت صباحاً أو عصراً أو ليلا"، فقد ارتدى ملابس جافة ونزل الى بهو الفندق وسأل موظف الفندق عن الوقت، فوجد أن الساعة كانت ٢،٢٥ صباحاً .

"لم ابلغ عن ذلك"

وفي جزيرة تشاباكويديك - حسب الافادة التي ادلى بها غارغان وماركهام بعد حلف اليمين القانونية - وقف الاثنان يرقبان كينيدي بعد أن قفز الى الماء حتى بلغ نصف المسافة الى الشاطىء الآخر او ثلاثة أرباعها، واطمأنا الى سلامته والى أنه سيبلغ عن الحادث كما وعدهما، فتجولا بالسيارة قليلا ثم عادا الى كوخ لورنس بين الثانية والثانية والربع صباحاً .

وحرصا هناك على الظهور بمظهر الراحة والاطمئنان، وأنبأ غارغان عدداً من صديقات الآنسة كوبتشني بان هذه قد قادت السيارة الالدزموبيل وذهبت وحدها الى إدغارتاون وعبرت بها على آخر معدية وبلغت فندقها بأمان . وبما انهما لم يجدا بعد ذلك قارباً لنقل السناتور، فقد اختار هو ان يعود الى فندقه سباحة وقفز الى الماء، فقفزا تلقائياً وراءه، ثم قررا بعد ذلك أن يتركاه يسبح وحده الى الفندق .

وعندما أعيد تمثيل هذا المشهد أثناء التحقيق، ثار فضول القاضي جيمس أ . بويل الذي اشرف على التحقيق . وعندما أخذت إحدى موظفات حملة كينيدي الانتخابية - وهي ماري ايلين ليونز - تروي بعد حلف اليمين القانونية ما قاله غارغان وماركهام، تدخل القاضي بويل، ودارت بينهما الاسئلة والاجابات الآتية:

- ألم تقولي لهما: "حسناً، كيف حدث أن تأخذ ماري - جو السيارة ويعود السناتور سابحاً؟" .

فبدأت الآنسة ليونز تجيب قائلة: "لقد افترضت أن ..."

- ألم يخطر في بالك أن هذا أمر شديد الغرابة؟

"في الحقيقة لا . وكما كنت أقول، فان الامر لم يبد على هذه الصورة" .

- هل كنت تعرفين أنهما انصرفا سوياً في السيارة؟

"نعم" .

- وقد افترضت عندئذ أنهما اتجها الى إدغارتاون؟

"كلا، لم أكن أعرف وجهتهما، ولم ينبئني أحد بشيء عندما انصرفا" .

- ثم علمت أن السناتور قد اضطر الى السباحة بسبب عدم وجود قوارب، وان السيارة - سيارته التي انصرف فيها بصحبة ماري - جو - قد عبرت على المعدية وفيها ماري - جو؟

"حسناً، لقد افترضت أنه قد قرر لسبب ما ألا يذهب في السيارة" .

- ولم يبد لك أن في هذا الامر ما يبعث على الاستغراب؟

"كلا، في الحقيقة، يا سيادة القاضي" .

وفي الصباح، عندما جاء غارغان وماركهام ووجدا كينيدي يتحادث مع رينشاردز على شرفة الفندق، ثم مضيا معه الى غرفته، سألاه: "ماذا حدث؟"

فقال كينيدي: "إنني لم أبلغ عن الحادث"· فهو قضى الليل "يتقلب ويدور ويمشي في غرفته جيئة وذهاباً"، غير قادر "على استجماع قواي الداخلية، لكي أتصل تلفونياً بمسز كوبتشني (٢)· فقد "كنت أؤمن على نحو ما بأنه عندما تشرق الشمس على صباح جديد فان ما حدث في الليلة الفائتة لن يكون قد حدث وسأتبين أنه لم يحدث(···) وأنه كان مجرد حلم مروع· ولم أكن واثقاً حتى من وقوعه "بالفعل"·

فقال ماركهام: "ولكنه حدث، ولا بد لك من الابلاغ عن هذا الامر وعليك أن تفعل ذلك الآن"· وأصر غارغان على أن يتصل كينيدي حالا بالهاتف ببيرك مارشال وديفيد بيرك· ونظراً الى ان كينيدي أراد ان يكون منفرداً لدى إجراء الاتصالين التلفونيين فقد اقترح عليه غارغان أن يستخدم جهاز التلفون الموجود على مرسى المعدية في جزيرة تشاباكويديك· وبناء على ذلك استقل ثلاثتهم المعدية الى تشاباكويديك لاستخدام التلفون الموجود على المرسى حيث بدأ كينيدي سباحته في الليلة الفائتة·

هذا هو ما أقسم كينيدي وصديقاه اليمين القانونية على أنه قد حدث، وهذا ما يدعي كينيدي اليوم انه قد حدث بالفعل·

وقد قرر طبيب الاسرة الذي فحص كينيدي يوم ١٩ يوليو (تموز) أن السناتور قد أصيب "بارتجاج بسيط في المخ"، وأن "التصرف غير المنطقي لا يتعارض مع مثل هذه الحال"· وقال كينيدي في حديثه التلفزيوني: "غير أني لا أسعى الى التنصل من مسؤولية أعمالي عن طريق التلطي بالصدمة البدنية او العاطفية التي ترتبت على الحادث او اسنادها الى أي شخص آخر"· وأقر بعد ذلك بأنه - أياً تكن الحال - كان "متمالكاً حواسه" في الصباح الباكر عندما التقى ريتشاردز وتحادث وأياه·

وصرح كينيدي أن تصرفاته، كما يسردها مجدداً "لا تبدو لي منطقية على أي وجه اطلاقاً"، وأن عدم إبلاغه عن الحادث فور وقوعه "تصرف لا يمكن الدفاع عنه وان تعليل اقواله وافعاله المختلفة، كان متعذراً، كذلك كانت هذه متناقضة وغير حاسمة· وقال لمشاهدي التلفزيون: "أقول بكل صراحة أني كنت نهباً لخليط من المشاعر المتضاربة: الحزن والخوف والشك، والارهاق، والذعر والارتباك والصدمة"·

ثمانية اسئلة اساسية

ولما كان تفسير كينيدي النهائي هو أن سلوكه يتحدى كل تفسير، فقد لا يكون هناك مجال للدهشة من أن السجل قد بقي مشحوناً بالنقاط غير القابلة للتصديق وبوجوه التعارض، والتناقض الصريح، وأنه يثير الشكوك في صحة ما يقوله كينيدي· وفي ما يأتي ثمانية أسئلة اساسية تثب الى الذهن من ثنايا البيانات المتاحة:

١ - إلى أين كان كينيدي يصحب الآنسة كوبتشني بالفعل؟

خطر هذا السؤال للقاضي بويل بسبب مجموعة من الوقائع التي أبرزها التحقيق· فكينيدي لم يخبر أحداً، سوى كريمنز بأنه والآنسة

(٢) اتصل كينيدي بوالدة ماري - جو كوبتشني تلفونياً في النهاية في الساعة ١٠،٣٠ صباحاً·

كوبتشني سيغادران الحفلة، ولم يودع أحداً من الضيوف على رغم أنه هو المضيف. وعلى رغم أنه في الظاهر كان يعتزم الذهاب للتمكن من عبور القناة بالمعدية قبل آخر رحلة لها في منتصف الليل، وعلى رغم أن ثمانية من الضيوف الذين بقوا في الحفلة كانوا يعتزمون العودة للبيت في إدغارتاون، إلا انه لم يعرض على أحد منهم أن يصحبه في سيارته(٣). وفي هذه المناسبة آثر كينيدي أن يقود السيارة بنفسه، وهو نادراً ما يفعل ذلك. وقد شهد كريمنز بأن كينيدي عندما طلب منه المفاتيح أوضح له أنه سيصطحب الآنسة كوبتشني الى إدغارتاون لأنها منحرفة الصحة. ولكن الآنسة كوبتشني لم تذكر لأحد أنها مريضة، ولا حتى لكينيدي، كما أقر هو نفسه في ما بعد. كذلك لم تودع الآنسة كوبتشني قبل انصرافها أياً من أصدقائها وصديقاتها. وعلى رغم أن مفتاح غرفتها في الفندق لم يكن معها فانها لم تطلبه من رفيقتها في الغرفة بل أنها لم تجشم نفسها العناء لأخذ حقيبة يدها.

والصعوبة الكبرى التي تعترض ادعاء كينيدي انه كان يتجه بالسيارة إلى المعدية، يعود أمرها الى طبيعة الطرق التي سلكها. فالسائق الذي يتحول خطأ عن الطريق الرئيسي المرصوف الى طريق الحاجز الصخري غير المرصوف، لا بد أن يخفف سرعة سيارته الى ما يقارب التوقف كي يدور على اعقابه دورة يبلغ انفراج زاويتها ٩٠ درجة. ذلك أن السائق يشعر على الفور بما يطرأ من تغيير على سطح الطريق. فالطريق الرئيسي مرصوف ناعم، في حين ان طريق الحاجز الصخري - كما أفاد عدد لا يحصى من المحققين - "شديد الخشونة" مثل لوح الغشيل. ويدعي كينيدي أنه يتعذر التمييز بين المرصوف وغير المرصوف بالنسبة الى اي شخص يعيش في منطقة "كيب كود" أو يزور الجزيرة... ولكن جيمس ر. ديكنسون، مخبر صحيفة "واشنطن ستار"، لخص النتيجة التي انتهى إليها عدد كبير من الصحافيين الآخرين على مدى السنين في ما كتبه في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي، حيث قال: "إلا أن ادعاءه بأنه انحرف سهواً في اتجاه خاطىء وظل يظن أنه منطلق الى الغرب على الطريق المرصوف نحو المعدية التي تعبر الى ادغارتاون، وليس في اتجاه الشرق على الطريق غير المرصوف نحو جسر الحاجز الصخري وشاطىء الاطلسي، يبدو لأي شخص قاد سيارته فوق هذه المنطقة أمراً لا يقبل التفسير بل يعصو على التصديق. وهذا هو أفضل ما يمكن أن أفسر به المسألة".

وقد بدا ادعاء كينيدي مستعصياً على التصديق ايضاً في نظر القاضي بويل. وكان القاضي خلال التحقيق أبعد ما يكون عن اتخاذ موقف عدائي من السناتور، بل إنه في الحقيقة كان يستبعد أحياناً بعض الاسئلة او الشهادات التي يمكن أن تؤذيه. وعلى رغم ذلك، فقد ذكر في تقريره النهائي عن نتيجة التحقيق ما يأتي:

(٣) تلك الليلة، لم يعد اي من الضيوف الى ادغارتاون بل هم بقوا في تشاباكويديك.

"إن التفسير المعقول والمحتمل الذي أستنتجه من مجموع الوقائع التي تقدم ذكرها هو أن كينيدي وكوبتشني لم يكونا يعتزمان العودة الى بلدة ادغارتاون في ذلك الوقت، وان كينيدي لم يكن ينوي قيادة السيارة الى مرسى المعدية، وأن انحرافه الى طريق الحاجز الصخري كان متعمداً...

"ان سرعة ثلاثين كيلومتراً في الساعة حسبما شهد بذلك كينيدي - بسيارة بضخامة الاولدزموبيل - أمر أقل ما يقال فيه هو انه ليس بذي بال، بل يمكن اعتباره عملا طائشاً ومتهوراً. وإذا كان كينيدي على علم بهذه المخاطرة (خطر الجسر والطريق) فان قيادته للسيارة على هذا النحو تشكل سلوكاً إجرامياً.

"وفي تاريخ سابق اي في يوم ١٨ يوليو (تموز) ذاته، كان كينيدي قد مر بسيارته - يقودها سائقه - فوق طريق تشاباكويديك الرئيسي ثلاث مرات، وفوق طريق الحاجز الصخري والجسر الخشبي مرتين. وكانت كوبتشني قد ركبت سيارة مرت بها فوق طريق تشاباكويديك خمس مرات وفوق طريق الحاجز الصخري والجسر الخشبي مرتين. "وفي اعتقادي انه من المحتمل ان يكون كينيدي دارياً بالمخاطرة التي يقدم عليها على طريق الحاجز الصخري ولكنه، لسبب غير مذكور في شهادته، لم يلتزم جانب الحرص الواجب وهو يقترب من الجسر.

"وبناء على ما تقدم أرى ان هناك مبرراً للاعتقاد بأن ادوارد م. كينيدي قد قاد سيارته باهمال عبر طريق أو في مكان يحق للجمهور اجتيازه، ويبدو أن هذه العملية قد ساهمت في التسبب بموت ماري - جو كوبتشني".

٢ - هل حصل الحادث على النحو الذي يرويه كينيدي؟

خلال العقود الاربعة التي انقضت على قيام الجسر كان كينيدي الشخص الوحيد الذي يتدهور فوقه.

لقد أقسم خمسة من أصدقاء كينيدي الذين حضروا الحفلة على أنه هو والانسة كوبتشني ظهراً في تمام وعيهما حين غادرا المكان. ونظراً الى ان السناتور لم يذهب إلى مقر الشرطة إلا بعد الحادث بساعات، فانه لم يخضع لاختبارات قياس الكحول في الدم أو في الزفير، ومن ثم فلا دليل هناك على أنه لم يكن "صاحياً تماماً" كما يقول هو.

ومع هذا، فان طريقة قيادته لسيارته على طريق الحاجز الصخري لا يستدل منها انها صادرة عن رجل مسؤول متمالك لنفسه.

وشهد كينيدي في التحقيق بأنه لم يدرك أنه قد تحول في الاتجاه الخاطىء إلا في اللحظة التي سقط فيها بسيارته في الماء تقريباً. ولكن ماركهام ذكر ايضاً في التحقيق أن كينيدي قال له "إنه انحرف في اتجاه خاطىء وانه لم يستطع الاستدارة بالسيارة". والواقع ان هناك أماكن عدة كان يستطيع فيها الدوران بالسيارة، ومن بينها مدخلان للسيارات على جانبي الطريق على مسافة ١٥٠ متراً قبل بلوغ الجسر.

كذلك أقسم كينيدي على أنه، فيما كان يحدق الى الامام، لم ير الجسر

إلا قبل هنيهة أو "جزء من ثانية" من مروره فوقه. لكن ماركهام، حين كان عائداً مع كينيدي وغارغان في وقت متقدم تلك الليلة، أمكنه أن يبصر الجسر على رغم أنه كان مسرعاً. من ناحية اخرى، ورد في تقرير لشركة "آرثر د. ليتل" وضع بناء على طلب كينيدي، أنه "كان من المتعذر حتماً رؤية الطريق فوق الجسر خلال الليل وعلى مسافة تتجاوز كثيراً ١٨ متراً أو حتى ٢٧ متراً". وتشير المعطيات الاكثر موضوعية الى ان سرعة ٣٢ كيلومتراً في الساعة لا تمنع سائقاً معتدل الانتباه من ايقاف سيارته فوق الحصى" الجافة ضمن مسافة تقل عن ١٨ متراً. لذلك كان لايزال لدى كينيدي، حتى تحت أقسى الظروف التي ذكرها تقريره، متسع من الوقت لرؤية الجسر والتوقف إذا كان فعلاً، كما شهد السناتور كينيدي وافترض مستشاروه، يقود السيارة بسرعة ٣٢ كيلومتراً في الساعة.

حتى هنا لم يكذب أحد تقدير السناتور كينيدي للسرعة التي كان يقود السيارة بها. وربما كان ذلك عائداً الى تقرير المراقب كينيدي الذي أيد كلام السناتور. فالآثار التي أحدثها انزلاق عجلات السيارة على حافة الجسر جعلت المراقب كينيدي، خبير مصلحة تسجيل السيارات والآليات، يحسب أن السرعة كانت بين ٣٢ كيلومتراً و٣٥ كيلومتراً في الساعة. ولكن لا يجوز علمياً استنتاج السرعة بناء على آثار الانزلاق فحسب، خصوصاً اذا تمت مراقبتها ودراستها بسرعة كما حصل في حال الاولدزموبيل. إلا أن أحداً لم يطرح على المراقب كينيدي خلال الاستجواب هذا السؤال التقني. كما ان القاضي منعه منعاً باتاً من التصريح بأن آثار انزلاق العجلات ربما اختفى معظمها بفعل السيارات التي مرت من هناك صباح اليوم التالي.

لقد مات المراقب كينيدي، ورفضت مصلحة تسجيل السيارات والآليات في ولاية مساتشوستس في اكتوبر (تشرين الاول) الماضي إعطاء نسخة عن تقريره الاساسي حول الحادث إلا بإذن خطي مصدق من السناتور كينيدي نفسه.

كم كانت السرعة التي قاد بها كينيدي سيارته؟ من أجل الاجابة عن هذا السؤال استشارت الـ"ريدرز دايجست" عدداً من مهندسي السير ذوي الخبرة الطويلة في ميدان دراسة حوادث السير بتكليف من الحكومة الفيديرالية والافراد. وقد أقنعتهم الشواهد المتعلقة بمسار السيارة والمسافة التي قطعتها من الجسر، بأن كينيدي كان يقود السيارة بسرعة تفوق كثيراً ٣٢ كيلومتراً في الساعة.

ثم مولت الدايجست دراسة موضوعية مفصلة عهدت بها الى السيد رايموند ماكهنري، أحد أبرز الخبراء الامريكيين في تحليل حوادث السيارات. واعتمد ماكهنري أساليب تحليلية متقدمة سبق أن أيدت صحتها وزارة المواصلات الامريكية واستخدمت في قضايا قانونية متعددة. فألقم دماغاً الكترونياً من نوع "آي. بي. إم" معلومات من بينها وزن السيارة وقوة عجلاتها وارتفاع الطريق وخصائص الجسر

الهندسية، حتى توصل، بعد محاولات عدة، الى حساب حركات السيارة. وفي ما يأتي الارقام النهائية والنتائج:

كان كينيدي يقود السيارة على الجانب الخطأ (اليسار) من الطريق حين وصل الى الجسر بسرعة ٥٥ كيلومتراً في الساعة تقريباً. (بناء على مقاييس علمية دقيقة، يقول ماكهنري ان هذا الرقم قد يكون زائداً أو ناقصاً سبعة كيلومترات في الساعة. من هنا كانت السرعة في حدها الادنى ٤٨ كيلومتراً في الساعة، وقد تكون بلغت حدها الاقصى وهو ٦٢ كيلومتراً).

ورأى كينيدي الجسر حين كان على مسافة ١٥ متراً منه على الاقل، وربما أبعد من ذلك. وعلى بعد خمسة أمتار من الجسر، داس كابح السيارة (الفرامل) بقوة فأوقف العجلتين الاماميتين على الفور. وبفعل السرعة الشديدة انزلقت السيارة خمسة أمتار على الطريق ثم حوالي سبعة أمتار ونصف متر فوق الجسر قبل أن تقفز عن حاجز يرتفع ١٥ سنتيمتراً فوق الجسر وتنحدر قرابة عشرة أمتار لتلامس الماء. وكانت السيارة لا تزال تتحرك بسرعة تراوح بين ٣٥ و٤٥ كيلومتراً في الساعة قبل أن يوقفها اصطدامها بالماء.

لقد وصف القاضي بويل قيادة السيارة بسرعة ٣٤ كيلومتراً في الساعة على طريق دايك المرتجة وغير المستقرة بأنها عمل يدل على "إهمال وربما على تهور". فكم بالحري اذا بلغت السرعة ٤٨ أو ٦٢ كيلومتراً في الساعة؟

يضاف الى ذلك كله اعتبار آخر، هو أنه طوال فترة الخمسة والثلاثين عاماً التي انقضت على إنشاء الجسر فوق بركة بوتشا، كان كينيدي هو الشخص الوحيد الذي سقط بسيارته من فوقه.

٣ - هل حاول كينيدي أو ماركهام وغارغان إنقاذ الآنسة كوبتشني بالفعل كما يدعون؟

لم يكن هناك شهود على محاولات الغوص التي يقول كينيدي إنه قام بها. وطبقاً لروايته، كان السبب في فشله وجود تيار قوي "بصورة غير عادية".

ولتحديد مدى قوة التيار الذي يحتمل ان يكون كينيدي واجهه، كلفت الـ "ريدرز دايجست" في نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي برنارد ليميهوتي . مهندس علم المحيطات المشهود له عالمياً، اجراء دراسة علمية في هذا الصدد. فتولى مساعده إرنست داديو قياس قوة التيار في بركة بوتشا مرات متتابعة في مواعيد مختلفة طوال يوم ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عندما كانت ظروف التيارات في الموقع مطابقة الى حد كبير للظروف التي كانت سائدة ليلة ١٨ - ١٩ يوليو (تموز) ١٩٦٩. وقد التزم ليميهوتي في دراسته هذه التزاماً دقيقاً بالمنهجيات العلمية الموثوقة، وانتهى إلى أنه في الوقت الذي قال كينيدي إن الحادث وقع فيه، كان التيار ينساب بسرعة ٠،٨ عقدة(٤) في الساعة في وسط البركة، و٢،١

(٤) العقدة توازي ١،٨٤ كيلومتر.



هذه الرسوم التي انجزها الدماغ الالكتروني، استناداً الى تحليل ماكهنري، تمثل الثواني القليلة المأسوية الأخيرة من الحادث.

عقدة في الساعة على جانب البركة الشرقي، وعقدة واحدة في الساعة تقريباً عند الموضع الذي غرقت فيه السيارة. وكان رأي الغواصين التابعين للأسطول والغواصين المدنيين الذين استشارتهم "الدايجست" أن تياراً تراوح قوته ما بين ٠،٨ عقدة و٢،١ عقدة في الساعة يشكل عائقاً له أهميته بالنسبة الى اي شخص يحاول أن يسبح ضده لمسافة طويلة، خصوصاً اذا كان مرتدياً ملابسه.

ولكن بناء على الشروط السائدة يظن خبراء سلامة المياه أن تياراً كهذا لا يمكنه أن يشكل عائقاً يستحيل اجتيازه على سابح متمرس، رابط الجأش، عقد عزمه على إنقاذ غريق.

لقد استقرت السيارة على بعد تسعة امتار تقريباً من حافة البركة، وحددت أضواؤها الكاشفة موقعها، اذ كانت لاتزال تلمع تحت الماء. وتشير المعطيات حول المد والجزر في المنطقة الى أن العمق الاقصى للمياه في البركة لم يتجاوز المترين في تلك الاثناء. فلو قصد شخص ما إنقاذ غريق لاجتاز جزءاً من المسافة سابحاً في اتجاه التيار، ثم عبر الامتار القليلة الباقية مخلفاً التيار وراءه. عندئذ يمسك بمحمل السيارة المقلوبة وينزلق نحو ١٢٠ سنتيمتراً الى داخلها، عبر احدى النوافذ المفتوحة الثلاث، كي يصل الى قسم الركاب.

ويقول برنارد امبلتون، المدير التنفيذي لمجلس التعاون المائي القومي: "ذلك ما كان في الامكان فعله، وتلك هي الطريقة التي وجب اتباعها".

وقد ذكر غارغان وماركهام أيضاً ان التيار القوي كان السبب الرئيسي لفشلهما في الوصول الى الآنسة كوبتشني. وفي الساعة ١٢،٢٠، وهو

الموعد الذي يفترض أنهما بدآ الغوص فيه، كانت قوة التيار قد زادت الى ٣،١ عقدة في الساعة وسط البركة والى ١،٥ عقدة في الساعة على الجانب الشرقي. وهنا أيضاً يرى خبراء الغوص أن مثل هذا التيار يزيد من صعوبة جهود الانقاذ ولكنه لا يجعل نجاحها مستحيلا.

وقد سئل بعض أصدقاء كينيدي في التحقيق عما إذا كانوا لاحظوا وجود اي إصابات في جسمي ماركهام وغارغان لدى عودتهما، فكانت إجابتهم جميعاً بالنفي. وكان غارغان في اليوم التالي في مركز شرطة إدغارتاون يرتدي قميصاً قصيرة، الكمين، ولكن رئيس الشرطة أرينا والمراقب كينيدي لم يلاحظا وجود اي إصابات في أي من ذراعيه، اللذين كانت احداهما - طبقاً لرواية السناتور - قد امتلأت بالجروح من المرفق الى أعلى... وانتشرت فيها الرضوض وأصبحت دامية".

وبعد الساعة التاسعة تقريباً من صباح يوم ١٩ يوليو(تموز)، عاد غارغان إلى كوخ لورنس حيث أنبأ عدداً من صديقات الآنسة كوبتشني بأن هناك حادثاً قد وقع وأن الفتاة مفقودة، فسألنه:"وماذا عملوا لمساعدتها؟ هل استدعي حرس السواحل؟"

فأجاب المحامي غارغان برزانة:"لا اعرف"، وذلك على رغم الزعم القائل بأنه هو نفسه قد غاص تكراراً قبل بضع ساعات مجازفاً بحياته من أجل إنقاذ الآنسة كوبتشني.

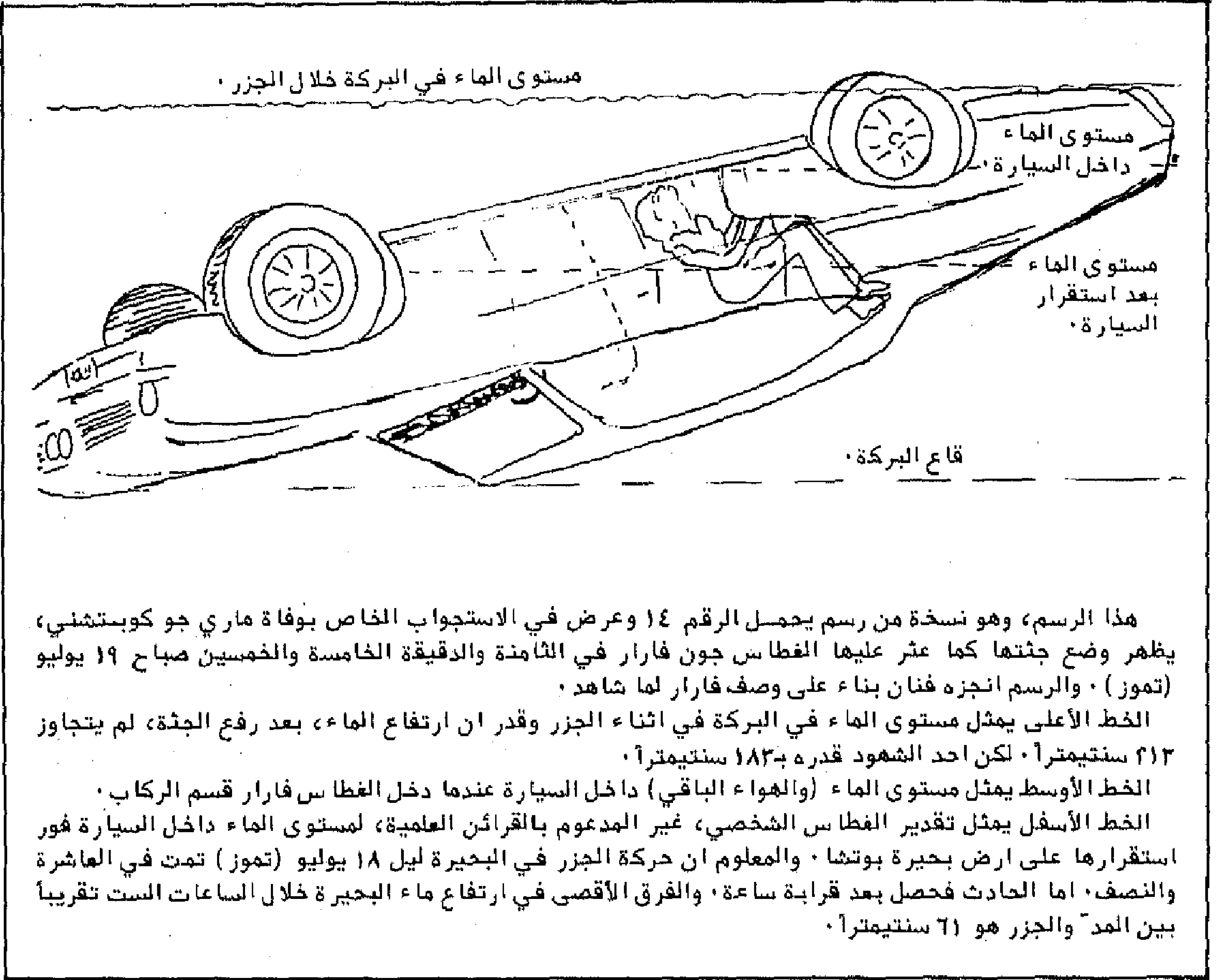
والواقع أنه كان انقضى أسبوع كامل على الحادث، تصاعدت خلاله نغمة النقد من الرأي العام عتباً على كينيدي لانه لم يبذل مزيداً من الجهد لانقاذ الآنسة كوبتشني، قبل أن يتقدم كينيدي برواية الاستعانة بغارغان وماركهام للقيام "بحملة إنقاذ" في البركة.

٤ - لماذا لم يلجأ كينيدي وصديقاه على الفور إلى طلب المعونة؟

بعد أقل من ثلاث دقائق من وقوع الحادث، كان كينيدي يستطيع الحصول على عون فعال من محترفين وهو في طريقه، بمجرد السير الى المنزل المضاء الذي لا يبعد عن الجسر اكثر من ١٣٠ متراً. ولو كان فعل ذلك لتولى أصحاب المنزل - آل بيار مالم - إجراء الاتصالات التلفونية اللازمة، ولما كان هو أضاع الوقت في الركض الى كوخ لورنس(١٥ دقيقة حسب روايته، و٢٥ دقيقة حسب المخبرين الصحافيين الذين قاموا فيما بعد بقطع المسافة سيراً أو عدواً).

ولم يكن أي من غارغان أو ماركهام أصيب باي صدمة، وقد شرب غارغان نحو أربعة أقداح من الكوكاكولا طوال المساء لأنه أراد الاحتفاظ بصفاء ذهنه بصفة خاصة لكي يتولى طهي شرائح اللحم. وفي طريقهم الى البركة معاً، كان يمكنهم التوقف دقيقة واحدة لاعلان الانذار في محطة المطافىء أو لإجراء اتصال تلفوني من أحد البيوت. ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك.

وقد سأل وكيل النيابة ادموند ديينس صراحة عن سبب عدم قيامه بطلب عون خارجي بعد الحادث، فطلب كينيدي "أن تكون المحكمة رحبة الصدر" كي يرد، وأجيب إلى



هذا الرسم، وهو نسخة من رسم يحمل الرقم ١٤ وعرض في الاستجواب الخاص بوفاة ماري جو كوبتشني، يظهر وضع جثتها كما عثر عليها الغطاس جون فارار في الثامنة والدقيقة الخامسة والخمسين صباح ١٩ يوليو (تموز) · والرسم انجزه فنان بناء على وصف فارار لما شاهد ·

الخط الأعلى يمثل مستوى الماء في البركة في اثناء الجزر وقدر ان ارتفاع الماء، بعد رفع الجثة، لم يتجاوز ٢١٣ سنتيمتراً · لكن احد الشهود قدره بـ١٨٣ سنتيمتراً ·

الخط الأوسط يمثل مستوى الماء (والهواء الباقي) داخل السيارة عندما دخل الغطاس فارار قسم الركاب ·

الخط الأسفل يمثل تقدير الغطاس الشخصي، غير المدعوم بالقرائن العلمية، لمستوى الماء داخل السيارة فور استقرارها على ارض بحيرة بوتشا · والمعلوم ان حركة الجزر في البحيرة ليل ١٨ يوليو (تموز) تمت في العاشرة والنصف· اما الحادث فحصل بعد قرابة ساعة· والفرق الأقصى في ارتفاع ماء البحيرة خلال الساعات الست تقريباً بين المدّ والجزر هو ٦١ سنتيمتراً ·

طلبه· وكان رده على السؤال "مونولوجاً" طويلا متعرجاً كرّر فيه رواية سباحته "الرهيبة" عبر القناة وحكاية أفكاره المشوشة المضطربة، ولكنه لم يرد على السؤال نفسه· وبعد دقائق باشر وكيل النيابة حث كينيدي على شرح اسباب تأخره في ابلاغ الشرطة بما حدث الا ان القاضي بويل بادر الى رفع الجلسة لتناول طعام الغداء· ولم يوجه السؤال الى كينيدي بعد ذلك·

وقرب ختام شهادته، ذكر كينيدي بالفعل أنه بعد أن فشل غارغان وماركهام في إنقاذ الآنسة كوبتشني اقتنع هو بأنها قد ماتت، ومن ثم لم تعد هناك فائدة من طلب المعونة· إلا أن كينيدي ظل بقية المساء ــ طبقاً لروايته ــ يأمل في أن تكون على قيد الحياة ويتصرف وكأنها يحتمل أن تكون كذلك·

ومع ذلك كله، فان هذا ليس هو بيت القصيد، وإنما بيت القصيد كان ــ ولايزال ــ هو السؤال الآتي: لماذا لم تطلب المعونة مباشرة بعد الحادث في فترة كان يمكن منطقياً ان تعني الفرق بين الحياة والموت؟

إن أحداً لم يضطر كينيدي ولا ماركهام ولا غارغان الى الاجابة·

٥ ــ هل كان يمكن إنقاذ الآنسة كوبتشني؟

إن الدراسة التي قامت بها شركة آرتر د٠ ليتل، بناء على طلب كينيدي، انتهت إلى أنه لا بد وأن يكون الماء قد اندفع داخل السيارة وطرد الهواء منها بسرعة شديدة، بحيث أن الآنسة كوبتشني لم تستطع البقاء في وعيها سوى فترة تراوح بين دقيقة واحدة وأربع دقائق فقط٠ وكان يمكن إنعاشها خلال فترة قد تصل إلى عشر دقائق بعد فقدها الوعي٠ وعلى ذلك، فطبقاً للتحليل الذي أجري بطلب من كينيدي نفسه، كان في إمكان السناتور انقاذ الآنسة كوبتشني لو تكللت جهوده الاولى بالنجاح٠

وقد دق جرس التلفون لدى الغواص "فارار" في محل "تورف وتاكل" الساعة ٨و٢٥ دقيقة من صباح يوم ١٩ يوليو (تموز)، وانتشل هو الجثة من السيارة الساعة ٨،٥٥، بعد أن تأخر في الوصول الى موقع الحادث خمس دقائق لأن المعدية كانت غادرت الشاطىء لتوها حين وصل هو اليه٠ وعلى ذلك، فمن المعقول الافتراض أنه لو كان "فارار" استدعي بعد الحادث مباشرة لأمكنه إخراج الآنسة كوبتشني في حدود ٣٠ دقيقة، وربما في حدود ٢٥ دقيقة٠ ولكن، إذا أخذنا بصحة الدراسة التي قامت بها شركة آرتر د٠ ليتل، فان هذه الفترة لا تكفل السرعة اللازمة لانقاذ الفتاة٠

غير أن "فارار" الذي كان في مكان الحادث عندما رفعت السيارة الاولدزموبيل من الماء، يقول انه رأى فقاقيع هوائية كبيرة تنبعث من السيارة في أثناء سحبها خارج الماء٠ ويفيد فارار وجون البوم، اللذان اشرفا على رفع السيارة، أن الوضع الذي وجد فيه قرار جسد الآنسة كوبتشني يحمل على الاعتقاد القوي بأنها قد استمرت لفترة لا يمكن تحديدها وهي تتنفس في جيب هوائي٠

وقد تولى الفاحص الطبي المساعد دونالدر٠ ميلز - وهو طبيب محترم السمعة ولكنه ليس أخصائياً باتولوجياً - فحص الجثة لمدة عشر دقائق ولكنه لم ينتزع في هذه العملية كامل الثياب عن الجثمان ولم يفحص كل أجزائه، وانتهى منه إلى أن الآنسة كوبتشني قد توفيت غرقاً٠ غير أن مجهز الموتى للدفن "يوجين فريه" عندما اتبع الاجراءات العادية المألوفة في تفريغ الماء من جثث الغرقى، أدهشته قلة الرطوبة المنبعثة من جثمان الآنسة كوبتشني٠ وهو ابلغ الصحافيين ان ضآلة الماء تشير الى ان الاختناق وليس الغرق هو سبب الوفاة٠

وقد كان السبيل الوحيد لتحديد سبب الوفاة وموعدها على وجه الدقة هو تشريح الجثة، لكن هذا التشريح لم يحصل إطلاقاً(٥) ومع ذلك فان هناك أمراً واحداً مؤكداً هو أنه أياً تكن الفرصة المتاحة للآنسة كوبتشني كي تعيش، فان هذه الفرصة قد أضاعها عدم استدعاء كينيدي من

---

(٥) ان سبب عدم حصول تشريح للجثة لا يزال غامضاً٠ ويشهد المدعي العام المحلي دينيس على انه خابر شرطة الولاية في العاشرة من صباح الأحد ٢٠ يوليو (تموز) طالباً تشريح الجثة٠ "غير ان الضابط الملازم جورج كيلين أعلمني بأن جماعة كينيدي اخرجت الجثة من الجزيرة"٠

وفي اغسطس (آب)، طلب دينيس من محكمة في بنسلفانيا اصدار امر بنبش الجثة وتشريحها، لكن والدي الآنسة كوبتشني المفجوعين عارضا الطلب٠

كانوا قادرين على إنقاذها ٠

٦ - هل يقول كينيدي الحقيقة في ما يرويه عن سباحته عبر قناة الميناء؟

يتضح من أحدث الاستنتاجات العلمية أن روايته هذه تخالف الحقيقة ٠

ومن بين جميع الوقائع التي صاغها كينيدي، تبقى واقعة سباحته عبر القناة أكثرها مثاراً للشجاة٠ فها هو يعي مرة أخرى أنه كان على وشك الغرق"، ويكرر ثلاث مرات ذكر التيار العنيف الذي كاد أن يجره الى أسفل وجرفه بقوة نحو الشمال "في اتجاه منارة إدغارتاون وابعده الى الخارج في الظلمة" عندما أخذت قواه تخور على نحو يهدد بالخطر٠٠٠

ولكن الاستقصاء العلمي يحكي رواية أخرى٠

ان الانواء والرمال المتحركة قد غيرت طبيعة ميناء إدغارتاون منذ العام ١٩٦٩ لذلك يتعذر اليوم أخذ قياسات في القناة تحدد علمياً وبدقة سرعة التيار بين الساعة ١،٣٥ و١،٤٥ من صباح يوم ١٩ يوليو (تموز) ١٩٦٩، حيث يدعي كينيدي واصدقاؤه انهم قاموا بالسباحة تلك٠ الا ان هناك بيانات أخرى، من بينها بيانات فروق ارتفاع المد، أتاحت لبرنارد ليميهوتي حساب الاندفاع النسبي للتيار وللوجهة التي يتخذها الاخير٠ وهو يقول في تقريره: "قرابة الساعة ١،٣٠ صباحاً كان التيار ضعيفاً لا بل معدوماً وبعد ذلك جنح التيار جذباً صوب خليج كاتاما وزادت سرعة انسيابه، واستمرت هذه الحركة حتى قرابة الساعة الرابعة"٠ ولو صادف كينيدي أي تيار على الاطلاق في سباحته، لكان ذلك التيار قد دفعه - لا نحو الشمال في اتجاه المنارة كما يقول - وإنما نحو الجنوب، في الاتجاه المضاد تماماً لما يقوله هو٠

وفضلا عن ذلك، فان تحليل ما ورد في محضر التحقيق يكشف عن أن رواية كينيدي عن سباحته تتناقض مع ما ورد في الشهادة التي أدلى بها على حدة، وبعد حلف اليمين القانونية، كل من حليفيه الوفيين غارغان وماركهام٠

فقد وقف الاثنان على مرسى المعدية في تشاباكويديك مدة ثلاث أو اربع دقائق يراقبان كينيدي حتى اجتاز بين نصف المسافة عبر القناة وثلاثة ارباعها - وهو ما يتخطى بكثير تلك المنطقة التي يدعي أن التيارات العنيفة اعترضته فيها - ولم يبد لهما أن التيار يدفعه بعيداً٠ بل إن ماركهام يقول - على نقيض ذلك - أن كينيدي كان يسبح نحو مرسى العوامة المقابل في إدغارتاون، ولم يلاحظ أي من ماركهام أو غارغان أن كينيدي كان يتعرض لاي متاعب، ولم يريا أي سبب يدعو الى القلق٠

وقد طرح القاضي بويل على ماركهام السؤال الآتي: "ألم يبساورك القلق في شأن قدرته على قطع المسافة؟"

فأجاب ماركهام: "كلا، على الاطلاق، لأن السناتور يمكنه أن يسبح هذه المسافة جيئة وذهاباً خمس مرات أو ستاً دفعة واحدة"٠

٧ - لماذا انتظر كينيدي عشر ساعات قبل أن يبلغ عن الحادث؟

لقد أجاب كينيدي عن هذا السؤال مرات عدة بقوله إنه - ببساطة - لم

يتحمل أن يتصل تلفونياً بالسيدة كوبتشني (أم الضحية) في منتصف الليل كي يبلغها النبأ.

وعلى رغم ذلك، فإن السؤال هو: "لماذا لم يبلغ كينيدي الشرطة؟"

لقد وجه اليه مخبرو صحيفة "غلوب" هذا السؤال عام ١٩٧٤، فقال كينيدي إنه في أثناء سباحته عبر القناة كان يقول لنفسه: "لا يمكنني أن أفعل ذلك. لا يمكنني أن أفعل ذلك. لا يمكنني أن أفعل ذلك".

غير أنه الساعة ٧،٣٠ صباحاً كان تمالك نفسه بدرجة كافية لكي يرتدي ملابس أنيقة، ويتنزه مشياً على الاقدام، ويتجاذب مع ريتشاردز حديثاً عابراً عن الجو. فلماذا لم يذهب هو الى الشرطة عندئذ؟ يقول كينيدي إنه لم يذهب الى الشرطة آنئذ لأنه كان لا يزال يأمل في أن تكون الحادثة لم تقع وأن تكون الآنسة كوبتشني على قيد الحياة. هذا ما كان "يريده" هو.

ويقول ماركهام وغارغان إنهما أكدا له أن الحادث قد وقع بالفعل، ونصحاه بالابلاغ عنه فوراً. ولكن السناتور وصديقيه لم يبلغا عن الحادث عندئذ بالذهاب الى مركز الشرطة القريب، بل ركبوا المعدية عائدين الى تشاباكويديك حيث وقفوا عند المرسى حتى ووجهوا فجأة بما يدل على أن السيارة قد اكتشفت في البركة. وهنا فقط أسرعوا بالابلاغ عن الحادث.

وفي سلسلة المقالات التي نشرتها "بوسطن غلوب" عن حادثة تشاباكويديك، ذكرت الصحيفة في عددها الصادر يوم ٢٩ أكتوبر/تشرين الاول عام ١٩٧٤ ما يأتي: "وفضلا عن ذلك، فأن مصدراً وثيق الاطلاع قد أخبر الصحيفة بأن الرواية التي أدلى بها كينيدي تفتقر الى الدقة في وجوه عدة، وأن الرواية الحقيقية للموضوع تتناقض مع عناصر مهمة في ما أدلى به السناتور من بيانات علنية وما شهد به بعد حلف اليمين القانونية في التحقيق الذي تناول وفاة الآنسة كوبتشني.

"وعلى وجه التحديد، فان جوزف غارغان - نسيب كينيدي - قد وافق في لحظة ما على أن يتحمل هو مسؤولية الحادث - طبقاً لما يرويه المصدر - إلا أنه رؤي التخلي عن هذه الخطة قبل قليل من إبلاغ الشرطة عن الحادث.

"ويلاحظ أن هذا المصدر لم تكن له صلة بالمدعين في تهمة السيارة التي وجهت الى كينيدي، كما أنه نفى بشدة صحة عدد من النقاط التي وردت في رواية كينيدي، بما في ذلك الزعم باجراء محاولة إنقاذ بعد وقوع الحادث بساعة".

إن أقوالا لا يؤيدها دليل تصدر عن شخص لا يكشف عن هويته ويرى أنه ليس حراً لكي يتكلم ويتقدم لاستجوابه صراحة وعلناً لا يمكن في طبيعة الحال أن تتخذ دليلا على أي شيء. لكن المخبرين الثلاثة الذين أعدوا سلسلة مقالات صحيفة "غلوب" يعتبرون من أحسن الصحافيين، من حيث السمعة، كما أن كل ما راجعه باحثو الـ"ريدرز دايجست" لاختبار صحته مما ورد في هذه المقالات قد ثبتت دقته تماماً.

٨ - هل حدثت عملية تغطية؟

يدّعي كينيدي أنه حرص منذ البداية على أن يجيب إجابة كاملة وأمينة عن جميع ما وجه اليه من أسئلة عن تشاباكويديك، وأنه سيستمر في انتهاج هذه الخطة. وهو يقول إن كل من يساوره الشك يستطيع أن يطلع على سجلات الحادثة المتاحة للجمهور ويحكم بنفسه.

ولكن سجل التحقيق الخاص بما قاله كينيدي لماركهام وغارغان قبل إبلاغ الحادثة الى الشرطة بدقائق يورد هذه العبارة الموجهة منه إليهما: "في حدود ما تعرفانه، فانكما لم تعلما بأي شيء عن الحادث في تلك الليلة". وهذا يبين بوضوح أن كينيدي، وان في البداية على الاقل، كان يعتزم ابلاغ السلطات بما هو أقل من الحقيقة الكاملة.

كما ان التقرير الذي أعدّ بعناية، وسلّم الى رئيس الشرطة آرينا، قد أخفى بالفعل حقيقة وجود عشرة شهود على الوقائع السابقة واللاحقة للحادثة، من بينهم اثنان يعرفان معلومات تفصيلية. وباغفاله هذه الوقائع أتاح كينيدي الفرصة لجميع هؤلاء الشهود كي يهرعوا الى مغادرة الجزيرة قبل حلول الظلام في ١٩ يوليو (تموز) وليتجنبوا استجوابهم في وقت كانت الاحداث لا تزال جديدة في ذاكرتهم.

وعندما أراد أحد موظفي الولاية - وهو المراقب كينيدي - أن يؤدي واجبه ويستجوب السناتور رد عليه هذا باقتضاب قائلا: "ليس لدي أي تعليق" ثم انصرف، ولم يضع نفسه بعد ذلك في متناول رئيس الشرطة آرينا كما كان وعد، ولا في متناول المراقب كينيدي كما كان صديقاه وعدا.

وعلى نقيض الانطباع الذي حرص كينيدي على نشره، فانه لم يخضع مطلقاً لأي اختبار أو استجواب في جلسة محكمة علنية، وأجرى محاموه مساومة ناجحة مع ممثل الادعاء المحلي "وولتر آ. ستيل" الذي تقاعس عن أن يوجه الى كينيدي تهمة الاهمال الخطيرة، واكتفى بدلا من ذلك بأن سمح له بالاعتراف بأنه مذنب في جنحة نظير الحكم عليه فيها مع وقف التنفيذ. وبذلك كله استطاع كينيدي ان يتجنب ما كانت ستفضي إليه المحاكمة من فحص دقيق واستجواب له طابع الخصومة.

وقال ممثل الادعاء المحلي "ستيل" في ما بعد: "مهما يكن الامر فانك لا تعامل عضواً في مجلس الشيوخ الامريكي متهماً بجريمة كما تعامل سمساراً في البورصة. وهذا من ضعف الطبيعة البشرية".

واستجابة لما ثار من ضجة ونقد على مستوى الجمهور، طلب وكيل النيابة إدموند ج. دينيس" إجراء تحقيق، وحدد القاضي بويل لإجرائه يوم ٣ سبتمبر (أيلول) ونص الوكيل في قراره على أن هذا التحقيق سيكون مفتوحاً للصحافة. وهنا قدم محامو كينيدي استئنافاً إلى المحكمة العليا لولاية ماساتشوستس، فقررت هذه في ٢ سبتمبر (أيلول) تأجيل التحقيق الى أجل غير مسمى.

ولم يحدث أبداً أن كانت أي من الشابات اللائي اشتركن في الحفل موضع شك في قيامها بأي عمل خاطىء، لكن كينيدي صرف "مبلغاً

يقرب من ٣٢٠٠٠ دولار" من ماله الخاص لتعيين محامين لهن ولكريمنز ولاروزا وتريتر كذلك. وقد رفع هؤلاء المحامون مع محامي كينيدي دعاوى يطلبون فيها من المحكمة العليا للولاية أن تأمر باغلاق التحقيق أمام الصحافة والجمهور وجعله سرياً، وقد أكرمتهم المحكمة العليا للولاية في النهاية بالموافقة على هذا الطلب.

وأخيراً بدأ التحقيق يوم ٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٠، وكانت لإجرائه سراً آثار ملحوظة. فلو كان مخبرو الصحف حاضرين لوصف الثغرات والتناقضات لكان الارجح أن يتصاعد ضغط الرأي العام من أجل إجراء تحقيق جدي لا يقاوم.

ولكن منع الصحافة من حضور التحقيق فرض عليها الاقتصار على نشر تأكيدات كينيدي المليئة بالثقة من دون غيرها، مثل:"إنني أتوقع تبرئتي وتبرئتي تماماً عندما يعلن مضمون محضر التحقيق ويؤذن لي عندئذ أن أجيب عن الاسئلة". ولكن محضر التحقيق لم يعلن سريعاً، لأن المحكمة العليا للولاية أمرت بحفظه حتى ينتهي أجل كل احتمال لاتخاذ اي إجراءات قضائية أخرى ضد كينيدي.

وكانت هيئة المحلفين الكبرى في مقاطعة ديوكز تتلهف للبحث في وفاة الآنسة كوبتشني، ولكنها وافقت على التريث الى ما بعد التحقيق، لاعتقادها أن محضره سيسهل عليها مهمتها. وفي مارس(آذار) ١٩٧٠، تقدم رئيس هيئة المحلفين ليسلي هـ. ليلاند - وهو صيدلي شاب مثالي - بطلب رسمي من وكيل النيابة دينيس لدعوة هيئة المحلفين الكبرى الى دورة خاصة، معلناً "أن كل إنسان يشعر بأن إساءة كبيرة قد لحقت بالقواعد الديمقراطية، وان هناك عملية تبرئة وتغطية، وان الامور قد أخفيت على نحو غير قانوني. وأنا أشعر بأنه يتحتم علينا النهوض بالواجبات والمسؤوليات التي نضطلع بها بصفتنا أعضاء في هيئة المحلفين. وقد انقضت فترة كبيرة من الزمن منذ وفاة الفتاة، وقد حان الوقت لكي يتبين الجمهور ما حدث".

ورأس الجلسة الخاصة لهيئة المحلفين القاضي "ويلفرد ج. باكيت" البالغ من العمر ٦٧ عاماً ويعد من كبار المتحمسين للحزب الديمقراطي.

وقد ألقى القاضي باكيت في المحلفين عظة مدتها ٩٠ دقيقة للفتهم الى القيود التي تحد من مسؤولياتهم، وكان يجلس الى جانبه طوال الوقت قسيس أقام صلاة قبل مباشرة المحلفين عملهم ابتهل فيها الى الله أن يستوحي المحلفون "العدل والمحبة". وحذر القاضي الشيخ المحلفين بان عليهم ان يقتصروا على المعلومات المقدمة من المحكمة أو من دينيس أو المعلومات التي يعرفونها شخصياً. وقرر - وسط دهشة المحلفين - أنه غير مصرح لهم بمطالعة محضر التحقيق ولا النتائج التي انتهى إليها القاضي بويل (والتي قرر هذا القاضي في ختامها أن كينيدي يحتمل أن يكون مذنباً في تهمة السلوك الاجرامي).

ووجد المحلفون أنفسهم مقيدين باحكام بهذه الموانع، وان ليس

لديهم سوى البيانات الهزيلة التي قدمها دينيس، فعجزوا عن أي شيء، ولم يلبثوا أن فضوا دورتهم في خيبة من دون اتخاذ أي قرار. وأصبح كينيدي حراً طليقاً.

وفي ٢٩ ابريل (نيسان) ١٩٧٠ أعلن محضر البحث والتحقيق الذي أجراه القاضي بويل. وفي وقت لاحق من ذلك النهار أصدر كينيدي بياناً قال فيه: "إن وجهة نظري الشخصية هي أن الاستدلال والنتائج النهائية الواردة في تقرير القاضي لا تقوم على أساس، وأنا أرفضها. وقد أصبحت كل الحقائق المتعلقة بهذه الحادثة معلنة الآن بكاملها، ويعود امر بتها وتفهمها الى الجهات المختصة. أما عن نفسي، فلست أنوي إصدار أي بيان آخر عن هذه المأساة". وهذا كل ما في الامر.

وعلى مدى سنوات، ظل كينيدي والعشرة الآخرون الذين كانوا معه على جزيرة تشاباكويديك متحصنين خلف جدار من الصمت العميق إزاء لغز تشاباكويديك. وكان التعليق الوحيد الذي قاله ماركهام: "لست أرى اي امكان لمناقشة هذه القضية. لا اليوم ولا غداً، أرى ضرورة للحديث عنها ولا حتى في أي موعد على الاطلاق". أما غارغان وتريتروكريمنز واربع من الفتيات فقد التزموا بدورهم جانب الصمت الابكم.

وفي عام ١٩٧٤، تمكن مخبرو صحيفة "بوسطن غلوب" انتزاع بضع كلمات من الفتاة الخامسة، الآنسة استرنيوبرغ، التي قالت: "هذه أسئلة كان يجب طرحها في التحقيق، ولكن ذلك لم يحدث. وقد تثير الاجابات عنها قضايا على مستوى البلاد كلها، وأنا لست على استعداد لأتسبب مرة اخرى في هذا النوع من الشهرة (...) إني كأي شخص آخر يحيرني غموض ما حدث، ولا يمكنني ان أصدق كل شيء قيل في مصلحته (أي كينيدي)، لأن هناك تعارضات كثيرة".

وقد تفوه "راي لاروزا" بالكلمات القلائل الآتية: "لقد لقننا المحامون تلقيناً جيداً، وكنا نعرف تماماً ما ينتظرنا".

وفي خريف عام ١٩٧٩، مع اقتراب موعد دخول كينيدي معركة الترشيح لرئاسة الجمهورية، بدأ يسمح ببعض المقابلات معه، ولكنه لم يحد أبداً عن الرواية التي أدلى بها قبل عشر سنين. وفي إذاعة تلفزيونية سجلتها معه إذاعة كولمبيا في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي، سأله مراسل الاذاعة روجر ماد: "حضرة السناتور، هل تعتقد حقاً أن هناك أحداً على الاطلاق يمكن أن يصدق شرحك لما حدث في تشاباكويديك؟"

فكان رد كينيدي كالآتي: "أوه، هناك... مشكلة أن... منذ تلك الليلة... أنا... أنا وجدت السلوك، المسلك، شيئاً يتجاوز التصديق في نظري أنا بالذات.

"أعني ان هذا هو ما كان عليه الامر... ولكني أظن أن ذلك... ذلك ذلك هو الامر كما كان.

"ذلك... ذلك هو ما حدث.

"الآن، أجده كما اشرت، أنني قد وجدت أن السلوك في، في تلك الليلة... نتيجة لتأثير حادث الـ... والاحساس بالخسارة، والشعور بالامل، و، الـ، والشعور بالمأساة،

والمجموعة الكاملة من بعض الظروف، أن السلوك لا يمكن توضيحه.

"لذلك أجد أن تلك، تلك... تلك الانواع من الاسئلة تنطبق على تلك... وهي أسئلة من أعماق روحي ذاتها، بالمثل.

"ولكن، ذلك، ذلك هو ما حدث".

وبعيد اعطائه هذا الايضاح، صرح السناتور كينيدي لبرنامج "لقاء مع الصحافة" الذي تقدمه شبكة "ان. بي. سي" بالآتي: "لن يكون هناك أي معلومات جديدة تقف في وجه شهادتي. وفي حال ظهور أي معلومات جديدة تخالف أو تتحدى الشهادة التي أقسمت عليها، فلن يبقى لدي أي عذر قط لممارسة الحياة العامة، ناهيكم بترشيح نفسي لانتخابات الرئاسة الامريكية".

وقد أظهرت التحريات العلمية أخيراً، التي تولاها مهندس البحار برنارد ليميهوتي، ان الجزء الرئيسي من شهادة كينيدي المحلفة الخاصة بسباحته عبر قناة ميناء ادغارتاون باطل. كما أظهرت التحريات العلمية التي تولاها خبير الحوادث المرموق رايموند ماكهنري أن شهادة كينيدي المحلفة حول قيادته السيارة عبر دايك رود باطلة. وبين التحليل الدقيق لاستجواب كينيدي أن تصريحه المكرر مراراً حول تعاونه المخلص مع المستجوبين باطل أيضاً.

وعلى رغم هذه "المعلومات الجديدة" كلها، لا يزال السناتور كينيدي متمسكاً بالرواية التي أعطاها منذ عشر سنين، مصراً على ان "الامور حصلت على ذلك النحو".

■ **جورج بارون**

جون بارون حاز، عندما كان في "الواشنطن ستار"، جوائز تقديرية عدة واكتسب شهرة واسعة في عالم الصحافة الامريكية. ومنذ التحاقه بـ"الريدرز دايجست"، كمحرر بارز، اثمرت استقصاءاته كتاباً عن "جهاز الاستخبارات السوفييتية" وآخر عن "مقتل الارض الطيبة" (مأساة كمبوديا). اما كتابه الأخير فكان عن فرار طيار "الميغ" فيكتور بيلينكو.



لا داعي للانتظار

دعتني ابنة جارنا الصغيرة لمشاهدة اختها المولودة حديثاً، فقلت لها اني سأزورهم حين تتحسن صحة امها. واذا بها تبادرني هاتفة: "لا تقلقي، فمرضها غير معدٍ".

م.ت.

الله ... والاطفال

طلبت مني ابنتي ان اصف لها الله. فقلت لها الحكمة التي ترددها زوجتي دائما "تستطيعين ان تري الله في هذه الزهور الجميلة وتلك الطيور المغردة". فقالت ساهمة: يا له من اله جميل.

ماهر خليفة - سلطنة عمان


خاص
الفارس العاشق
ملخص من كتاب بقلم
غبرييل روي





هي معلمة لم تبلغ الثامنة عشرة بعد، في قرية صغيرة وسط سهل مانيتوبا الفسيح في كندا. وهو صبي في الرابعة عشرة، في عينيه عنف وكآبة. في هذه القصة تروي الكاتبة بحنان ما حدث بينهما خلال سنة دراسية، فتثير مشاعر الغموض والقلق التي ترافق البلوغ

خلال سنواتي التي امضيتها في التعليم لم يخفني احد كما فعل ذلك الصبي، حتى قبل ان اراه.

كنت وصلت لتوي لتسلم وظيفتي في تلك القرية المنعزلة وسط المروج. وبدا كل شيء حسناً بيني وبين تلاميذي. ولكن كلما توقفت لتسلم رسائلي من مخزن البلدة وتكلمت عن المدرسة بحماسة، برز احدهم يخمد حرارة اندفاعي: "آه ... كل شيء يسير على ما يرام، اليس كذلك؟ حسناً. تمتعي بوقتك لان الوضع سيتغير عندما يأتيك الصبي ميديريك".

أخبروني انه هدد المعلمة السابقة بمدية حملها في جيبه. ولم يبق احد الا تنبأ بمعركة لا بد من أن تنشب بيننا.

Condensed from «Children of My Heart.»
Translation by Alan Brown. (c). 1979. published by McClelland and Stewart Ltd., the Canadian publishers. Toronto, Ontario. Originally published by «Ces Enfants de Ma Vie.» (c) 1977. by Editions Internationales Alain Stanké Ltée.

ومضى النصف الاول من سبتمبر (ايلول)٠ وبدأ تلاميذي الكبار الذين كانوا يساعدون أولياءهم في الحصاد، يفدون الى المدرسة واحداً بعد الآخر٠ كلهم ما عدا ميديريك! لكن الامر لم يطل٠ فقد جاء على حين غرة، وتلك كانت طريقته٠

كنت واقفة بجانب اللوح الاسود٠ وفجأة ساد خلفي سكون تام٠ فالتفت٠ لم يكن انتباه الصف موجهاً الي٠ رأيت عيون التلاميذ مسمرة على بقعة بيضاء تقترب بسرعة عبر المروج البعيدة، ثم تكشفت عن حصان أبيض ذي عرف اسود٠ ورأيت فارساً صغيراً منحنياً على عنق جواده الجاري بأقصى سرعته وهو يحثه على المزيد٠ وكان يضع على رأسه قبعة كاوبوي ضخمة٠

وصل الفارس الى مدخل الملعب٠ وبدلا من ان يتبع الطريق الخاصة، اكره حصانه على القفز فوق الاسلاك الشائكة، وتابع سيره في اتجاه السارية حيث رفرف علم الاتحاد٠ وبقفزة واحدة اصبح على الارض، الى جانب العلم، يربط رسن جواده الذي راح يهز رأسه بعنف فيرتجف معه العلم كأن ريحاً قوية هبت عليه٠

وبدت قبعة الفارس الضخمة تغطي عينيه٠ ووصل الى الباب بحذاء مكسيكي ضخم عالي النعل، ورجلاه متباعدتان ويداه غارقتان فيجيبي سرواله ذي الشراريب، وقد ربط على وسطه حزاماً٠ وتقدم بين المقاعد، يصفر بلا مبالاة كأنه يمشي في الطريق٠

وكانت غرفة الصف، كما في معظم مدارس ذلك العهد، مزودة بمقاعد مزدوجة٠ وقد وصل كل مقعد بطاولة طويلة، في كل من طرفيها دواة وفجوة خاصة لوضع الاقلام٠ وثبت في أسفل الطاولة رفان للكتب٠

وصل ميديريك الى طاولة وسط القاعة حيث جلس احد أصغر تلاميذي، وارتمى الى جانبه ودفعه بعنف الى الارض٠ وساعدت الصغير الباكي على النهوض قائلة: "تعال٠ من الافضل لك ان تجلس في مكان آخر بعيداً عن ذلك الشرس الضخم"٠

وكنت ارغب في مواصلة الكلام بالنبرة نفسها، لكني سيطرت على رغبتي وتابعت الدرس٠ كنت آنذاك في الثامنة عشرة وهو في الرابعة عشرة٠ ولم يتجاوز طولي ارتفاع كتفيه٠ لكن ذلك لم يكن الامر الوحيد الذي فاقني فيه٠

ولم ادر كيف اتصرف مع صبي في ذلك العمر٠ لكني استطعت، بصمتي، ان اوصله الى اقصى درجات الانزعاج٠ فراح، لفرط ضجره، يمزق صفحات دفتره ويصنع منها كرات يغمسها في الغراء ثم يقذفها بمسطرته لتلتصق بالسقف٠

وفي الساعة الرابعة، بينما كان التلاميذ ينصرفون الى بيوتهم، ناديته للمرة الاولى: "ميديريك ايمارد! اجلس من فضلك"٠

واستدار بغتة، كأنه في حال دفاع عن النفس٠ كانت عيناه حادتين وقبضتاه محكمتين٠ لكنه جلس٠ ووقفت قرب طاولتي اتوسل رباطة الجأش، فأخذت ارتب الاوراق وانظر الى دفاتر التمارين٠ وفي النهاية تجرأت على النظر اليه٠ لقد بدا لي أنه في مثل اضطرابي٠ عندئذ نهضت

ومشيت نحوه وجلست بوجل على الجانب الآخر من مقعده. فتحرك قليلا ليفسح لي مكاناً أوسع. في تلك اللحظة تبين لي أنه، على رغم ذلك العنف، لا يزال ولداً هزيلا.

وفي النهاية تكلمت كأني اخاطب نفسي: "افترض يا ميديريك ان ناظر المدرسة، او الكاهن، جاء الى هنا وسألني من اين اتت هذه الزخرفة المضحكة الى السقف، فلن يكون في وسعي الا ان اقول:" هل تصدق؟ انها صنع اكبر تلاميذي. وليست لي قوة لردعه، فهو أطول مني بأكثر من ١٥ سنتيمتراً. كما انه الوحيد الذي يستطيع ازالة تلك النقوش اذا رغب في ذلك".

وللتو نهض ميديريك ليحضر سلماً نقالة. وراح يعمل بمكنسة على ازالة تعب يومه.

وعندما انتهى، وقد احمر وجهه من الجهد، نظر الي بمزيج من التحدي والخجل. ومن دون ان يتفوه بكلمة اصبح خارجاً، وقفز الى حصانه دافعاً قبعته عن رأسه الى الخلف وانطلق باقصى ما يستطيع. وسرعان ما تحول الى بقعة صغيرة على السهل العاري الفسيح.

حكمة الجواد

اخطأت في ظني اني نجحت في ترويض ميديريك. واستعملت شتى الطرق لجذب انتباهه. كان ينظر الي لحظات قصيرة احياناً، كأنه على وشك الوقوع في شرك، ثم يتيه في احد احلام يقظته كأنه يحتقرنا جميعاً.

وكنت، كلما نظرت اليه، تصورته حيواناً بريئاً على وشك الوقوع في فخ الصياد. وفي الوقت الذي تمنيت اسره خامرني شعور بالذنب، اذ لم يكن قد مر وقت طويل على تركي دنياي الطفولية. لقد استيقظت لتوي من احلام مراهقتي، ولم اتكيف بعد مع حقيقة بلوغي سن الرشد. وكلما لاح لي تلاميذي الصغار على تلك المروج في الصباح الباكر، تملكتني رغبة في اللحاق بهم والبقاء في رفقتهم الى اللانهاية بدلا من انتظارهم وسط جدران المدرسة.

وذات يوم التفت لارى ميديريك شارد النظرات يحدق الى الحقول. وكان غاسبارد، الحصان الابيض ذو العرف الاسود، مشدوداً الى سارية العلم وقد رفع رأسه الجميل في اتجاه المدرسة. وبعد لحظات سمعنا صهيله المليء باللوم كأنه يشكو لنا عذاب قضاء العمر في القيود. فهو مشدود الى سارية العلم، ونحن مسجونون في مقاعدنا. لكن النهار كان رائعاً وفاتنا ان نفهم حكمته.

وقال ميديريك:"لولا المدرسة لكنت اليوم على تلال بابكوك".

فأجبته: "بصراحة يا ميديريك، اذا كنت تكره المدرسة الى هذا الحد فلست ادري سبب مجيئك".

واستحال اللون البنفسجي في عينيه ظلاماً. ورأيت، للمرة الاولى، الصبي الغاضب الذي وصفه لي الجميع. واجابني بخشونة: "ابي هو الذي يرغمني على المجيء. وقد ارسل الشرطة في طلبي مرتين: مرة عندما حاولت العمل في احدى المزارع، ومرة اخرى عندما تسللت الى تلال بابكوك". واضاف وهو يرتجف غيظاً: "لكني سابلغ الرابعة

عشرة قريباً، ولن يستطيع ابي بعد ذلك ارغامي على المجيء الى المدرسة. سوف أنال حريتي!"

وذات يوم مررت قرب طاولة ميديريك. وسمعت نفسي أسأله: "تلالك هذه ليست سوى هضاب صغيرة، اليس كذلك؟"

وانتزع ميديريك قلمه ليرسم جبلا صغيراً نثر عليه بضع اشجار وصخور فكانت النتيجة مكاناً سحرياً في عالم آخر.

وقال متتبعا خطوطه: "هناك في الوسط جدول، وقد تبعته مرة الى منبعه. ان الماء هناك بارد كالجليد، وفيه يسبح سمك السلمون. هل تعلمين ايتها الآنسة؟ ان اغرب ما هناك..."

منذ اللحظة التي بدأ فيها يتكلم عن التلال بدا ميديريك كطفل منح حريته. وأضاف: "يسبح سمك السلمون عكس التيار أحيانا. وعندما يصل الى المنبع، حيث الماء المتجلد، يسمح لك بامساكه. فما رأيك في ذلك؟"

قلت: "ربما كان السبب ان برودة المياه تخدره".

فقال حالما: "تستطيعين ان تمسكيه وتمرري يدك عليه بلطف". ورأيت في عينيه البنفسجيتين الكسولتين حبا في أسمى درجات الرقة.

واخبرني مرة عن أعجب اكتشافاته. انه هناك على القمة، محفور في الصخر: "هل لديك تفسير لذلك أيتها الآنسة؟ انها صورة سمكة".

فقلت: "ربما كانت سمكة متحجرة. ان بحيرة أغاسيس كانت تغمر قسما كبيرا من قارتنا منذ زمن بعيد". ثم ارسلته كي يحضر احد اجزاء الموسوعة العلمية وينظر تحت عنوان "اغاسيس". وقرأنا معاً الفقرة الطويلة.

ووسط عجبه من اثبات حقيقة اكتشافه، صرخ بفرح: "ذلك هو ما رأيته تماماً!"

وسألته: "اخبرني يا ميديريك: تلالك تلك، هل هي بعيدة؟"

فقال: "ابداً. اذا تبعت طريقي المختصرة فلن تسيري اكثر من ١٤ كيلومتراً". ثم بدأ يدرك سبب سؤالي، فقال: "هل ترغبين في الذهاب الى هناك؟"

اجبته: "نعم، ولكن ليس عندي حصان".

فقال: "ان لدي فرساً صغيرة، وهي ودودة جداً".

وظهر ترددي. لم اكن افكر في الحماقة التي اوشك على القبول بها، وانما في الفائدة التي سأجنيها من الرجاء الذي اوقدته في صدر ميديريك. فقلت: "لنعقد صفقة انا وانت. انت تدرس كل هذا - واشرت الى جزء كبير من كتاب القواعد - وعندما اتأكد من معرفتك قواعد تصريف الافعال، ربما بعد اسبوعين، ارافقك الى تلال بابكوك".

انها في يدي!

لست افهم كيف فعل ميديريك ذلك في الامتحان الشهري. هل تراه نسخ ما كتبه زميله؟ لا اظن ذلك، فقد كنت اراقبه طوال الوقت. كل ما اعلمه ان علامته هذه المرة تجاوزت المعدل بقليل بعدما كانت دائماً في ادنى القائمة.

وفي الصباح الباكر من يوم السبت جاءني ميديريك ممتطياً جواده

"غاسبارد" وممسكا بعنان فرسه "فلورا" التي احببتها على الفور.

لن انسى ذلك المشهد مدى حياتي. وكلما استعدت ذكرياتي امتلأت نفسي سعادة. ما سر تلك البهجة الغريبة التي غمرتنا لدى رؤيتنا ذلك المنظر عن ارتفاع؟ لست ادري. لكنني واثقة من أمر واحد: أني لم ار المروج في تلك الرهبة والجلال والسعة من قبل، ولا رأيت حزنها النبيل كما في ذلك الصباح وقد جلست على صهوة فرسي الى جانب جواد ميديريك.

في الوادي الضيق، الذي قادني اليه ميديريك عبر تعرجات كادت لا تنتهي، رأيت سيلا من الماء يتدفق تحت شجرة ضخمة رماها الموت لتبدو كرجل يشرب من ماء الجدول.

ومرر ميديريك يده تحت جذع الشجرة اللزج يتحسس الماء. وقال: "انها هنا أيتها الانسة! لقد انزلقت احداها على يدي الآن. انظري، ها هي ثانية. انها تدعني امسك بها".

كان يصرخ في همس كي لا يخيف السمكة، وقد تملكته حماسة لم يستطع السيطرة عليها. ورجاني بلهفة: "حاولي بنفسك يا آنسة".

ووضعت يدي في الماء. وتوهمت شيئاً يلامس اطراف اصابعي، لكنني ظننت انه العشب المائي. وفجأة انزلق وسط يدي مخلوق صغير ناعم، لم يحاول الهرب مني عندما ضممت اصابعي حوله برفق. وقلت لميديريك: "لو رويت لي ذلك لما صدقتك".

وجلس ميديريك القرفصاء على العشب وقال: "لقد قرأت كتباً كثيرة يا آنسة. فكيف تفسرين جرأة سمك السلمون؟"

فأجبته: "في امكانك انت ان تجيب عن هذا السؤال أفضل مني. انت تعلم اسراراً في الطبيعة لا ادري بها".

وقال ميديريك، وفي صوته وعينيه وقار عميق: "ان هناك غموضاً في كل مكان. اليس كذلك؟"

سألت صاحبة الغرفة التي اسكنها اي نوع من الرجال كان والد ميديريك. فاخبرتني قصة مدهشة: كان رودريغ ايمارد شاباً وسيماً ثرياً، وقد تزوج سراً فتاة نصف هندية. لكن هذه السعادة الشاعرية لم تدم طويلا. فبعد ولادة ميديريك بوقت قصير اختفت المرأة الشابة. وقال البعض ان رودريغ طردها من بيته، بينما ظن آخرون انها تسللت ليلا كي تنضم الى القبيلة التي تنتمي اليها والتي تحميها من محاولة زوجها اعادتها.

وحاولت زوجة رودريغ رؤية الطفل مراراً من غير جدوى، ذلك لأن المحكمة منحت الوالد حق الوصاية عليه. ومهما يكن الامر، فقد بدأ رودريغ يشيخ منذ ذلك الحين. صار يكثر من شرب الخمر، وظهرت عليه عوارض اضطراب عقلي. وكان يحاول السيطرة على نفسه أحياناً، لكنه يعود دائماً الى الاسراف في الشراب.

وبعد رواية صاحبة الغرفة بأيام، جاءني ميديريك يحمل الي بلهفة دعوة والده الى تناول طعام العشاء مساء الاحد التالي. وقال لي عاتباً: "عائلتنا هي الوحيدة التي لم تشرفيها بزيارتك. وربما ظن الجميع ان منزل ايمارد هو الوحيد الذي لن تطأه قدماك. وقد قال ابي ان في

استطاعتي اخذك في العربة اذا كان الطقس سيئاً، وانا اتمرن على قيادتها منذ سنتين".

في الساعات الاولى من صباح الاحد بدا واضحاً ان الطقس سيكون سيئاً. وبغتة لاحت على الثلج اغرب عربة رأيتها في حياتي. كانت في الحقيقة مزلجة عالية ذات مقعد واحد يظلله جلد أسود اسدل الى مستوى العينين. وسمعت صاحبة الغرفة تقول: "يا للسماء! تلك عربة الزواج التي اوصى رودريغ بصنعها لدى نجار شهير. لم يرها احد بعد اختفاء ماريا".

وفي الطريق انهمر الثلج بغزارة. وهبت الريح من جميع الجهات، فغرقنا في حلم لذيذ كأننا على متن زورق تتلاعب به الامواج فيرتجف فوق المياه البيضاء. والتقت نظراتنا في عتمة العربة وقد امتلأت عيوننا إثارة.

حلم الطفولة

لم ار ما يدعو الى الكآبة، بعد اغنية الريح الصاخبة، اكثر من ذلك البيت الذي قصدته. وما ان وطئت العتبة حتى استقبلني رجل ضخم في افضل ثيابه وقد فاحت منه رائحة الكحول. ولم يلبث ان رفع الكلفة بيننا. وتملكتني شفقة على ميديريك. ان ذلك الولد الذي يعشق الحرية مجبر على ملازمة هذا المكان.

في غرفة الطعام المظلمة، بأثاثها الضخم وستائرها المخملية الشاحبة، بدت الوليمة بطيئة ومملة. وجلس رودريغ ايمارد على الطاولة الضخمة، كأنه ملك على عرشه، يصب الخمر من إناء امامه. وخاطبني: "يقولون انك معلمة ممتازة وتستطيعين تدبير الامور مع الاولاد. هل انا مصيب في ان اتوقع خيراً من ارسال ابني الى المدرسة، ام ان ذلك ليس سوى اضاعة وقت ومال؟ هل لمحت فيه بارقة ذكاء ايتها الآنسة؟"

والتقت عيناي عيني مديريك حيث رأيت ثانية، في البقعة البنفسجية، نظرة العداء القديمة. واجبت: "ان ميديريك، من بعض النواحي، افضل تلاميذي. انه اكثرهم اخلاصاً للامور التي تهمه، كالطبيعة".

وضرب رودريغ ايمارد الطاولة بقبضته وصرخ: "الطبيعة! لتذهب الطبيعة الى الجحيم. ما اريده هو العلم. اذا كان ميديريك ذكياً حقاً، فلماذا لا يأتي في مقدم الصف؟"

واجبته: "ربما لان قلبه ليس في الصف".

وانفجر رودريغ ايمارد بضحكة احتقار وقال: "من الضروري طبعاً ان يضع قلبه في الصف. لكن القلوب تختلف، وقد يؤدي بك القلب الى اخطاء كبيرة". ثم اضاف: "هكذا وقعت في خطئي الاول. عندما كنت في سن ميديريك احببت المدرسة، وكنت أظن ان لدي موهبة ما. والله يعلم ما كان سيحصل لو توافر لي من يرشدني وينير طريقي".

في ذلك الوجه المتجعد والعينين الثقيلتين خلت نفسي ارى العذاب الصامت، حين يذكر المرء في نهاية حياة خائبة، حلم الطفولة. ورحت اصغي بانتباه، وقد اخذتني الشفقة، الى ذلك الرجل المغرور المعذب.

وهمس لي رودريغ، وهو يجذب كم ثوبي كأنه يفشي سراً: "لهذا اريد لميديريك ان ينال ما لم استطع

نيله". ثم صرخ عالياً: "والا حطمته!"

وسرعان ما هدأ. وشعرت بأسى من اجله. لكني قلت له ان ميديريك سينال فائدة اكبر لو تركه يختار ما يحب ويتعلم على طريقته.

وفي غمرة سكره سدد الي رودريغ نظرة حقد خلت معها انه عاد الى الصواب. وقال: "سعيد على طريقته؟ هل تلك اغنيتك التي تغنينها له عندما تذهبان وحدكما الى التلال؟"

واستطعت السيطرة على اعصابي بعد تلك الاهانة، مجبرة نفسي على النظر عبر الستائر الى المشهد الرهيب في الخارج. وعندما استعدت هدوئي قلت: "ان الطقس يزداد سوءاً كل دقيقة. واظن من الافضل لي ان اذهب الآن".

فقال ايمارد: "لا، ابداً. لن تبدأ العاصفة الحقيقية قبل ساعة او ساعتين. ولدينا الوقت الكافي لشرب القهوة".

عندما دخلنا الردهة توقفت مشدوهة امام صورة لصبية جميلة. في عينيها رأيت عيني ميديريك: لوناً بنفسجياً قاتماً، مليئاً بالاحلام الحزينة، خلف اهداب سوداء طويلة.

وهنا انفجر رودريغ باحدى ضحكاته العالية وقال: "انها زوجتي الراحلة. وانا ادعوها كذلك لمجرد الشعور بالراحة. انها حية مثلك تماماً، لكنها شبه ميتة مذ تركتنا. لقد اختارت ان تقطن اكواخ الهنود". ثم هز ذقنه باحتقار نحو ميديريك وتابع: "لن اعجب اذا هو فعل مثلها يوماً. وأملي الوحيد ان يكون لك اثر فيه".

ثم أضاف: "لكني احذرك. لن تسيء اليه ملاطفة الفتيات المتوحشات. وهو، لو أخذ بنصيحتي، لقلت له ان ينتظر الفتاة التي تستحقه. وفي هذه القرية الصغيرة لا يجود الانتظار بأفضل من معلمتنا الفتية التي ربما هبطت من السماء في يوم سعيد. لو انتظرتها انا، عندما كنت في سن هذا المغفل الصغير، لرافقتها الى حفلات الرقص و... لكنها لم تأت لتوقظني من الضلال وترشدني الى الحياة. ان ابني محظوظ لمجيئك، ولذلك نبهته الى عدم اضاعة هذه الفرصة".

وهنا نهضت وقلت لميديريك: "هيا بنا. هل ستعود بي الى البيت؟"

في جنون العاصفة

على رغم بدء العاصفة التي كنا نسمع هديرها كالمياه المتدفقة من سد متهدم، لم نقاس هولها وسط الاشجار المغروسة في الممر. فهي ساعدتنا على اقتفاء طريقنا وسط الثلج الذي يعمي البصر. وجلسنا متباعدين بصمت. وفي النهاية همهم ميديريك بصوت يكاد لا يسمع: "اني آسف يا آنسة. لم اتصور انه سيهينك تحت سقف منزلنا".

ومددت يدي لالمس يده واطمئنه. لكني توقفت، فقد فكرت في ان علي الا افعل ذلك. وراودني شعور بالحرمان امتد الى المستقبل المجهول. لم اكن ادري من يستحق الشفقة: انا ام هو؟ ام أنه شخص آخر بلغ سن الرشد ليكتشف انه خسر جزءا من روحه التي تحطمت عفويتها؟

عندما خرجنا من الممر الى المرج المفتوح احسست كأننا في مركب ننتقل من رافد شبه هادىء الى نهر

هائج علينا ان نشق طريقنا فيه عكس التيار. وكان غاسبارد مقدم مركبنا، ورأيت ميديريك غارقاً في الاهتمام، يبذل اقصى جهده لتمييز اعمدة الهاتف التي كانت دليلنا الوحيد. وقررت مساعدته في رؤية علامات مميزة. وكنا، إذا طال بنا الامر، سادنا خوف من ان نكون قد تهنا وسط الحقول واننا سنبقى ضائعين الى الابد. ثم لا يلبث احدنا ان يرى عموداً فينادي الآخر.

وفجأة قال، كأنه لم يستطع مواصلة التكتم: "اظن من الافضل الا اعود الى المدرسة ... بعد ما قاله ابي". وامتدت يدي ثانية لتمسك بيده، لكنها توقفت في منتصف الطريق. وقلت له: "بل على العكس. عليك ان تأتي الآن اكثر من اي وقت مضى. انها طريقك الى الهرب".

ومن غير ان يجيب، راح يحث غاسبارد على الاسراع. ورفع الحيوان الشجاع رأسه ومضى يشق طريقه تحت وابل مخيف من الثلج ووسط صفير الرياح. واختفت اسلاك الهاتف. كذلك الارض الصلبة، تحت تلال الثلج الناعمة. ورأينا غاسبارد يغوص فيها الى صدره ثم يستعيد توازنه ليقع ثانية. وقال لي ميديريك: "أظن اننا اضعنا الطريق يا آنسة".

تلك هي الكلمات التي تفوه بها. لكن نبرة صوته كانت تقول لي خفية: "لقد نجونا أيتها الآنسة". وشعرت بنفسي ارتجف كأني سمعت خبراً ساراً.

وذهب ميديريك الى غاسبارد، فاستسلمت الى حلمي وسط دفء الاغطية. حلمت باننا غادرنا هذا

العالم، وباننا سألمان وقد نجونا من الشر ومن الفساد الموروث ومن تشوه الروح الذي يخافه الانسان، اكثر من اي شيء، في كبرياء شبابه. وخلتنا، ميديريك وانا، تمثالين جميلين طاهرين عندما يجدوننا، بعد هدوء العاصفة، وقد زين الثلج شعرنا واهدابنا.

وفجأة تحرك الجواد الابيض وخرج بالعربة من الثلج الذي غرست فيه. وقفز ميديريك الى العربة وارخى العنان وقال: "لقد عدنا الى الطريق ثانية".

واغمضت عيني، لا رغبة في النوم بل في مواصلة حلمي. لقد غادرتني فكرة الموت، كذلك فكرة الكبر، ورحت احلم بحياة تطول ولا ترافقها شيخوخة.

وفتحت عيني لارى امامي احد المصباحين الجميلين اللذين ثبت زجاجهما بالرصاص في كل من جانبي العربة. وانعكست صورة وجهي على الزجاج القاتم، ورأيت فيه عينين غامضتين تنظران بعيداً الى الثلج المنهمر، وقد تدلت على الجانبين خصل شعر متلألئة. ولم استطع ان ازيح نظري.

والى جانب وجهي رأيت وجه ميديريك الذي اقترب مني، من دون ان يدري ان الزجاج يعكس وجهه ايضاً، ومال برأسه الي، ربما ليرى ان كنت نائمة. ورحت اراقبه، بعينين نصف مغمضتين، في زجاج المصباح حيث بدا وجهانا، خلف الغشاوة، كأنهما صورة زواج قديمة.

وافلتت خصلة شعر من قبعتي ولامست وجهه. وحدقت الى زجاج القنديل لاراه يخلع قفازه كي يمسك بالخصلة الهائمة. وكاد ان يمسكها، لكنه توقف وفي يده حيرة. كان في نظرته تلك دهشة عميقة وحنان لا يتذوق الانسان لذته ثانية بعد ارضاء ثورة حبه، او حتى بعد ان يدرك ان ما يشعر به هو الحب بعينه.

بدا ميديريك كأنه يعوم على جزر من ثلج. وسادني شعور غريب بان كل ما اراه لم يحدث الا في زجاج المصباح. لكني رأيت وجهه وقد اغمض عينيه بذعر لدى رؤيته المنظر للمرة الاولى.

خلف حجاب العمل

لم تعد علاقتنا ابداً كما كانت سابقاً. ومع ان ميديريك بلغ الرابعة عشرة، فقد تابع المجيء الى المدرسة. ولكن لماذا؟ كان انتباهه يخف يوماً بعد يوم. ولم يحاول مصادقة احد اذ كان أكبر سنا من معظم التلاميذ. وابتعد عن الجميع ولم يرض الا بجواده رفيقاً.

وذات يوم، بينما كان ميديريك يقرأ بصوت عال، تغيرت نبرته فجأة حتى ان الجميع التفتوا ليروا من ذلك الغريب. وكانت البنات الصغيرات اول من ادرك انه صوت ميديريك. وانفجرن بالضحك. وتابع ميديريك القراءة، وسط ارتباكه، بهمهمة خافتة لم استطع معها سماعه من طاولتي اذ توقفت عن الجلوس بجانبه على المقعد. واقتربت منه وامسكت بيده. لقد كان يحتاج الي اكثر من اي وقت مضى.

وذات مساء، بعد انتهاء الدروس، عرض علي ميديريك ان يساعد في ترتيب الغرفة. وكنت اطلب ذلك من

التلاميذ الكبار، لكني استثنيت ميديريك لانه كان يسكن بعيداً. فان اقل تأخير يعني انه قد يصل الى بيته ليلا . لكن ساعات النهار صارت أطول الآن.

وخامرني شك في انه يريد ان يكلمني على انفراد. فعزمت على مساعدته. وسألته، والقلم في يدي كأن لا وقت لدي: "هل تحسنت علاقتك بأبيك الآن؟" وكنت احاول ان اتكلم بعفوية.

وارتفع عن ميديريك حمل تردده الثقيل. فاقترب وقال: "آه، ايتها الآنسة! ان أبي نادم كثيراً على ما حدث عندما زرتنا. انه لا يشرب الى هذه الدرجة عادة. وهو مستعد للتضحية بكل شيء في مقابل محو اساءته بعشاء آخر اذا كنت تقبلين".

فقلت: "لكني ظننت اننا طوينا تلك الصفحة يا ميديريك".

وهنا نظر الى الارض وقال: "اخبرني ابي ان في امكاني مرافقتك بالعربة الى اي مكان تريدين، هذا اذا لم ترغبي في زيارتنا ثانية. هناك مسرح في القرية المجاورة واشياء جميلة اخرى. وأبي يظن أنك تضجرين هنا، فانت فتاة وحيدة وليس عندك من يرافقك".

وحاولت ان اظهر كأني مغرمة بوظيفتي، فقلت: "ان عملي ليس مملا يا ميديريك. انه حياتي وحبي".

وحدق الي بعينيه البنفسجيتين بلون الغروب، وقال بحزن كأنه يطلب النجدة بصمت: "انك لم تعودي تحبينني ايتها الآنسة".

ونظرت اليه طويلا . وادركت انه،

من دون ان يعلم حقيقة شعوره، كان يقصد اني لم أعد أهتم به في الصف كما كنت أفعل سابقاً. فابتسمت له وقلت: "طبعاً احبك يا ميديريك. واذا كنت ترغب في معرفة المزيد فاعلم أني لا أفكر في أي من تلاميذي كما أفكر فيك. واذا نجحت في دروسك فسوف أكون أسعد معلمة في العالم".

فقال: "لكنك لن ترافقيني ثانية الى التلال، ولا حتى في نزهة بالعربة".

أجبته: "كلا يا ميديريك. كل ذلك انتهى بالنسبة إلي. ومنذ الآن سأكرس وقتي للصف. واذا اردت ارضائي فعليك ان تفعل الامر نفسه".

كان ميديريك واقفاً قرب طاولته يجمع كتبه وأوراقه. وخطر لي انه ربما كان يختبر حقيقةشعوري، لذلك علي الا أحمل الامر محمل الجد. وهكذا تظاهرت باللامبالاة على رغم ان قلبي كان يتمزق أسى. ذلك لان مجرد التفكير في فقدانه أظهر لي أن وجوده بجانبي هو أغلى كثيراً مما تصورت.

وربط ميديريك كتبه بحزام جلدي، وحدق الي بتلك النظرة الغريبةالتي تحمل التعب والوحدة، وقال: "أيتها الانسة، لست ارى فائدة في بقائي هنا. وأظن اني لن آتي الى المدرسة بعد الآن".

وثارت في قلبي آلاف الكلمات، اردت ان أتفوه بها لاردعه عن قراره. لكنني، أنا ايضاً، كنت صغيرة وتنقصني البراعة، فقلت: "اذا كان مجيئك الى المدرسة لا يغير شيئاً ولا يزيدك معرفة، فلست ادري لماذا..."

ولم يكن هناك وقت لقول المزيد. فقد استدار ميديريك وغادر الغرفة بذلك العنف القديم، يجر كتبه العالقة بطرف الحزام الجلدي كأنها كرة حديد في سلسلة أصبح على وشك التخلص منها.

ذلك الطفل الشاب

جاء الربيع، وقد لاحت تباشيره منذ أسابيع عبر غيم كثيف وسماء رمادية ومطر غزير. في ذلك اليوم سطعت الشمس للمرة الاولى، فظهر لنا الربيع بكل جلاله. لكن مجيئه احيى في نفسي شعوراً بالندم. ولم يكن هناك ما يعزيني بعد خيبتي مع ميديريك، فتوقفت عن الرجاء. ولكن عندما انحنيت على حافة النافذة ذات يوم، اذا بي ارى في البعيد ذلك العرف الاسود للجواد الجميل.

وقفز ميديريك عن ظهر جواده غاسبارد، وربطه الى سارية العلم وركض في اتجاه المدرسة. وارتجفت إذ رأيته يحمل كتبه، فقد اسعدني أني انتصرت اخيراً.

ورأيت ظل ميديريك يسبقه الى عتبة الباب. وهناك وقف ذلك الشاب الطفل، وفي عينيه نظرة قلقة كمن ضل طريقه أياماً. وبدا لي كأنه استنفذ طاقاته كلها، فعاد بعد أن لم يبق أمامه مكان آخر.

لم يلق ميديريك تحية على أحد، بل مشى وسط الغرفة وهوى على مقعده. كنت أريد بحرارة ان أجد كلمة رقيقة كي ارحب به، لكن التغير الذي رأيته فيه اذهلني فلم استطع ان افتح فمي.

وازدادت دهشتي ساعة الانصراف. فقد بقي ميديريك جالساً على مقعده.

وكان واضحاً أنه اراد التحدث الي، لكن خجله عقد لسانه، وعندما لم اعد استطيع احتمال ذلك الصمت، سألته: "ما الامر يا ميديريك؟"

ورأيت شفتيه ترتجفان، وللحظة ظننت ان سؤالي البسيط سيدفعه الى البكاء، ولم اكن قد رأيت الدمع في عينيه من قبل، ودفعني ذلك الفيض من الانفعال الذي تعذر على الطفل الشاب ضبطه، الى الجلوس بجانبه على المقعد كما فعلت منذ فترة وجيزة، لكنني لم أعرف ماذا أقول، وبقينا صامتين فترة طويلة نحدق الى الفراغ، وخلت أننا مسافران نجلس على مقعد واحد في قطار يمتنع عن مغادرة المحطة.

ونظرت اليه أخيراً، فرأيت في عينيه وقد تسمرتا في عيني، حيرة الحب الاول وعذابه، ذلك الحب المتفتح الذي لم يكتشف ذاته بعد، بل هو يرتجف خوفاً وسعادة ورغبة.

وكما لو أنه لم يعد يحتمل ذلك المجهول، ومن دون ان يعي ما يحدث، ترك ميديريك رأسه يتكىء برفق على كتفي،كان وجهه شاحباً، وقد وضع يديه على ركبتيه، وفجأة رفعهما الى قلبه كأن الالم الذي يعانيه قد انبثق من هناك، وقال: "آه، ايتها الانسة! أخبريني ماذايحدث لي، أشعر كأني واقع في... ليس الذنب ذنبي، فلم اقصد ذلك".

وشعرت به يغص خجلا، وتجرأت على لمسة صغيرة، فرحت أمسد شعره القاتم بحنان، وقلت: "ما من أحد قصد ذلك يا ميديريك".

وقبل ان يعي ما حدث، أخذت رأسه بين يدي وأسندته برفق الى ظهر المقعد، ثم عدت الى طاولتي، في تلك اللحظة أحسستبأني أشهد موت الصبي تحت ضغط الرجل الذي ينبثق منه، وان عليّ انقاذ ذلك الجانب المهدد من ميديريك مهما يكن الثمن، لكنني لم أكن أدري كيف أبدأ.

وفتح ميديريك عينيه، فرآني جالسة على طاولتي وقد شغلني العمل ووقفت الاوراق والكتب سداً بيننا، ورأيت في عينيه دمعتين حجبتهما أهداب كثيفة، ثم بدأ يجمع كتبه، ولم يفعل ذلك غاضباً هذه المرة، بل متردداً، ثم قال بأدب: "لقد كان وقتاً جميلا بالنسبة الي".

وخانه صوته،فقلت له:"لماذا تتكلم كذلك يا ميديريك؟ ما الذي يمنعك من العودة؟ ان مقعدك سيكون دائماً في انتظارك".

وهز ميديريك رأسه بحزن، كأنه يشير الى انه خسر مقعده بسبب خطأ ارتكبه منغير قصد، فقلت: "بحق السماء، ماذا ستفعل يا ميديريك؟"

فالتفت الي وقد أظلمت عيناه، وقال: "وماذا يهمك في ذلك؟"

فقلت: "لقد أخبرتنيأنك تفكر فيّ كثيراً، لكن ذلك لا يدفعك حتى الى محاولة تحقيق ما أرجوه لك".

واستدار ميديريك بعنف هذه المرة، ورأيت في نتوء فكيه شبح رودريغ ايمارد، وقال: "ماذا تريدين بعد؟ قولي!"

وانتظرت حتى هدأت ثورته، وقلت كأني أخاطب نفسي: "قبل ان ترحل - اذا كان لا بد من الرحيل - أريد ان التقي رفيقي الى التلال، هل أراه ثانية يا ميديريك؟"

ورفع ميديريك الي عينين سكنهما

الالم وامتزج فيهما الغضب والحنان، ثم غادر المدرسة يعدو كطفل مذعور.

الهدية الغالية

حلت نهاية العالم الدراسي من غير ان أشعر. لم أكن قد رأيت ميديريك منذ ذلك اليوم الربيعي المحموم. وكنت اشعر بالاسى من أجله، لكنني وجدت من الحكمة ان يبقى بعيداً. ومع ذلك تمنيت رؤيته قبل رحيلي، بعدما عرضت علي وظيفة في مدرسة في المدينة. وكان علي مغادرة القرية نهائياً في أواخر يونيو (حزيران)، وقد اعدت لي حفلة وداع في الصف. وفكرت في ان ميديريك سوف يسمع بذلك ويأتي لوداعي.

كانت الحفلة بسيطة ومؤثرة. وقد زين الاولاد المدرسة بالاوراق والزهر، وأرسل أهلهم الحلوى والمآكل الشهية. وأحاطتني طفلة بذراعيها وانفجرت باكية: "ماذا سيحل بنا بعد رحيلك؟" فطوقتها بذراعي وقلت لها: "سوف تأتي سيدة اخرى في السنة المقبلة، وقد تحبينها أكثر مني".

وراحت الطفلة تنتحب كأنني انتهكت حرمة ذلك الحب الذي تكنه لي، وقالت: "كيف تستطيعين قول ذلك؟"

وعندما انحنيت كي أقبل الطفلة أدركت أني، بذلك، أعزي نفسي لعدم استطاعتي مواساة الولد الآخر. وأمضيت النهار بطوله أراقب السهل علني المح فارساً صغيراً يجري في اتجاه المدرسة.

وفي اليوم التالي جاء الاولاد الى المحطة لوداعي. ومددت رأسي عبر نافذة القطار، وقد بدأ يتحرك، لأرى تلك الاجساد الصغيرة تشير الي كأنني في باخرة تبحر بعيداً. وبدأت صور الاولاد تختفي عن ناظري. وشعرت كأني تخليت عن اطفالي المساكين، وأن المسافات المتزايدة أصبحت سداً بعيدا بيننا.

ورحت انظر بلا مبالاة الى الريف الذي اجتازه. كانت افكاري سابحة في مكان آخر. ولاح لي أن الطريق الموحلة والموازية لخط السكة الحديد، هي نفسها التي اجتزتها مع ميديريك في تلك الليلة العاصفة. لقد بدت طريقاً هادئة، لكن صفير الرياح بقي يتردد في أذني، وعاودتني انفعالات تلك الليلة العنيفة.

وفكرت في ميديريك، وقد انعكست صورته على زجاج المصباح، وهو ينظر الي بوجه ملأته الحيرة. وتسمرت صورته أمامي فوق الزهر المنتشر في حقول القمح والشوفان. ومع أني لم اقصد أبداً تشجيع ميديريك على اذكاء جذوة حبه المتفتح، الا أني، في تلك اللحظة، ادركت كم سيكون حزني كبيراً لو علمت بموت ذلك الحب. ولم أكن أتمنى سوى ان يهيم بي، من بعيد، كما لو كنت نجمة تقوده في طريق الحياة. فأنا أيضاً ما زلت طفلة.

في تلك اللحظة بينما كنت القي نظرتي الاخيرة على ذلك المكان، رأيته آتياً من السهل البعيد. كان منبطحاً على حصانه الجاري بسرعة خطرة وقبعته ترقص على كتفيه. وكان يرتدي الثياب نفسها التي رأيتها عليه في اليوم الاول من لقائنا، ويمتطي حصانه الابيض ذا العرف الاسود والحقول حوله عارية. لقد حفر في نفسي صورة هي ذاتها

تلك التي تركها في اليوم الاول. تلك كانت المرة الاخيرة التي رأيت فيها ميديريك.

ورحت أحثه في خيالي وقد خامرني اليأس. ثم رأيته يعبر نقطة كان القطار سينحرف عندها. ولمحت على السرج شيئاً كان ميديريك يحميه باحدى يديه. وخامرني شعور قوي بأن ذلك الشيء لي.

وعندما انحرف القطار حول تلك النقطة كان ميديريك ينتظر فوق تلة صغيرة. ورأيت في وجهه قوة لم أرها من قبل. كان يبحث عني بيأس بين وجوه الركاب. وبما ان الوقت كان صيفاً، فقد تركنا نوافذ القطار مفتوحة. ومددت رأسي كي يراني. وبخفة، رفع ميديريك ما في قبضته وادار يده مرتين او ثلاثاً، زيادة في قوة الزخم، وقذف به بدقة رائعة ليستقر في حجري. تلك كانت باقة ضخمة من زهر الحقل، خفيفة كالفراشة، تكاد أعناقها الجميلة تتبعثر. لكنها وصلت الي سالمة وقد تفككت قليلا لتظهر وريقاتها مكللة بالندى.

لم يسبق لي ان رأيت تشكيلة من زهر الحقل جمعت من ذلك الريف كهذه. ولا شك في ان بعضها جمع من الحقول المجاورة، لكن بينها زهراً لا ينمو الا في منابت خفية، كزهر السحلبية الآتي من ناحيةالجدول حيث يتوافر له الظل طوال الصيف. وتخيلت ميديريك يبحث بين الاشجار، مع بزوغ الفجر، كي لا تغيب زهرة من ذلك الفصل الحنون عن هديته.

والتقت عيوننا. ورأيت في وجهه، تحت قبعته البالية، يقظة وجدية وحباً كما في ذلك اليوم، منذ أجيال، عندما سمح له سمك السلمون بمداعبته فسألني حينئذ: "ان هناك غموضاً في كل مكان، اليس كذلك؟"

وتحركت شفتاي بصمت لترسما الكلمات الوحيدة التي صرخ بها قلبي: "آه، ميديريك... ميديريك..."

ورفع ميديريك يده عالياً الى السماء الصافية بحركة بدت كأنها أبدية. وحياني غاسبارد بطريقته الخاصة، رافعاً رأسه بعصبية مرتين. ثم انحرف القطار واختفيا عن ناظري.

وحدقت الى باقة الزهر الراقدة في حجري، وقد جدل حولها رباط من العشب وفاح منها أريج رائع. لقد حدثتني عن الصيف الفتي الذي ما ان يولد حتى يموت.

■ غبرييل روي



في حياة كل امرأة فترة لا بد من ان تكون فيها جميلة لكي تكون محبوبة، ثم تصل الى عمر لا بد من ان تكون فيه محبوبة لكي تبقى جميلة.

فرانسواز ساغان، صحيفة "ويست فرانس".

يتوق الشباب الى المزيد من المراعي الخضر، وما ان يطل منتصف العمر حتى نتعثر في حصاد المتوافر لنا منها.

أ.ث.

عدد خاص

رحلة في أدغال الأمازون

بقلم

اليكس تشوماتوف

رحلة في أدغال الأمازون

ان الادغال الواسعة في امريكا الجنوبية، الحاملة اسم "امازونيا"، تعتبر، حتى في يومنا هذا، قارة ضائعة تلفها الاسرار والاساطير.

منذ زمن قريب تغلغل فيها طولا وعرضا شاب امريكي خبير بعلم الطبيعة، اسمه اليكس شوماتوف. وهو يروي هنا احدى المغامرات الفريدة التي عاش مراحلها خلال رحلته في هذا العالم المجهول المليء بالمتناقضات.

طرحت السؤال على نفسي: هل يجوز ان اضع ثقتي بهذا الرجل، ابن الادغال الحافي القدمين، الذي لا تتجاوز قامته متراً ونصف متر والذي يسمي نفسه "البيروانو"؟

لقد عرض علي ان يقودني في زورقه المقدود من الشجر في رحلة تستغرق عشرة ايام على مجرى نهر امازوني مهجور. قال لي انه ينوي زيارة مسكنه هناك والعودة حالا.

كنت آنئذ في رحلة استطلاع في وادي الامازون كلفني بها نادي "سييرا"، وهو جمعية امريكية خاصة تعنى بالحفاظ على نوعية المناخ وصفائه وعلى صيانة البيئة، خصوصاً في جبال سييرا نيفادا في المنطقة الشرقية من ولاية كاليفورنيا. وبدا لي عرض هذا الرجل فرصة مناسبة اطلع فيها على نوعية الحياة التي يعيشها شعب الادغال في الامازون.

جلسنا في كوخ سقفه من قش النخل، في جزيرة تقوم على مصب نهر كاتريماني وتبعد نصف درجة عن شمال خط الاستواء. يبلغ طول هذا النهر نحو ٦٤٠ كيلومتراً، وينحدر متعثراً من الاعالي الجبلية في فنزويلا لينساب في الادغال والبراري في اقصى شمال منطقة الامازون

البرازيلية المسماة روررايما، ثم يصب في نهر برانكو الذي يصب بدوره في نهر نيغرو، اكبر روافد نهر الامازون.

قدم البيروانو الى منطقة روررايما عام ١٩٤٣ ليعمل في مزارع المطاط. ومنذ ١٩٦٨ عاش بين جماعة "الأيكا"، وهي قبيلة هندية تنتمي الى شعب يانومامو في المنطقة العليا من نهر كاتريماني، وتصطاد النمور المرقطة وتبيع جلدها بطريقة غير مشروعة في ماناوس، المدينة العصرية الكبيرة القائمة على مصب نهر نيغرو.

والد هذا الرجل ابن البيرو، ووالدته ابنة القبيلة الهندية توكانو. عمره يناهز الخمسين، وعظام خديه مرتفعة وحنكه متهدل ينتأ نحو الخارج فيسهل عليه عملية فتح قناني الكاشاسا، وهو نوع من شراب الروم الابيض المسكر. وقد سكر به البيروانو في هذه اللحظة مع ان الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً.

لم يكن لدي سبيل لمعرفة ما اذا كان البيروانو اهلا لان اسلمه حياتي. واخيراً كان لا بد من القرار، فقررت ان اجازف.

في هذه الليلة اقيمت في الكوخ حفلة رقص، دارت فيها اسطوانات السامبا على آلة فونوغرافية تحركها بطاريات. ورقص اهل كاتريماني حتى بزوغ الفجر.

عدد اكواخ هذه المستعمرة لا يزيد على الثلاثة. غير ان اسمها يبرز واضحاً على معظم خرائط امريكا الجنوبية المقبولة الحجم. والسبب انه لا منافس لها على وجه الخريطة على مدى ١٥٠ كيلومتراً من الجهات المختلفة.

تناولت قيثارتي ولحقت بهم، فنقرت على اوتارها عدداً من الاغاني. وحولت انتباهي نحو فتاة هندية في سن المراهقة اخذت تلعب مع الاولاد الى حين، ثم مالت عنهم وغرقت في صمت عميق. سألتها، باللغة البرتغالية، عن اسمها، فارتبكت ارتباكاً شديداً ورفعت طرف ردائها تستر به وجهها. وبعد برهة سألت البيروانو عنها فقال: "هي زوجتي. وقد وهبتني اياها قبيلة الايكا بعد وفاة زوجتي "المتمدنة" منذ تسع سنوات. كانت وقتئذ في الثامنة من عمرها، وكانت تحمل اسماً ذا علاقة باحد الحيوانات. فاخترت لها اسماً "متمدناً" هو ماريا، وعلمتها ان تكتسي الثياب وان تتكلم اللغة البرتغالية".

قلت: "لماذا اخذها الحياء حين سألتها عن اسمها؟"

فاجاب: "لأن اهل الايكا يعتقدون ان معرفتك لاسمهم الاصيل يخولك سلطاناً عليهم".

وكان الصباح. فزودنا الزورق، الذي يبلغ طوله اربعة امتار، باكياس من السكر والملح والبارود والملابس، وبمجموعة من الهدايا اختارها البيروانو لأصدقائه الايكا. فرزح الزورق تحت العبء وبقي منه ١٥ سنتيمتراً فقط فوق سطح الماء. وركبناه ودفعناه بعيداً عن الضفة، ضاربين الماء ضربات رشيقة بمجاذيفنا. وجلس البيروانو القرفصاء في مقدم الزورق واخذ يفرش في الماء راحة مجذافه العريضة المعينة الشكل، وجلست انا في الوسط اساعد ما استطعت بمجذاف اصغر، بينما تربعت ماريا

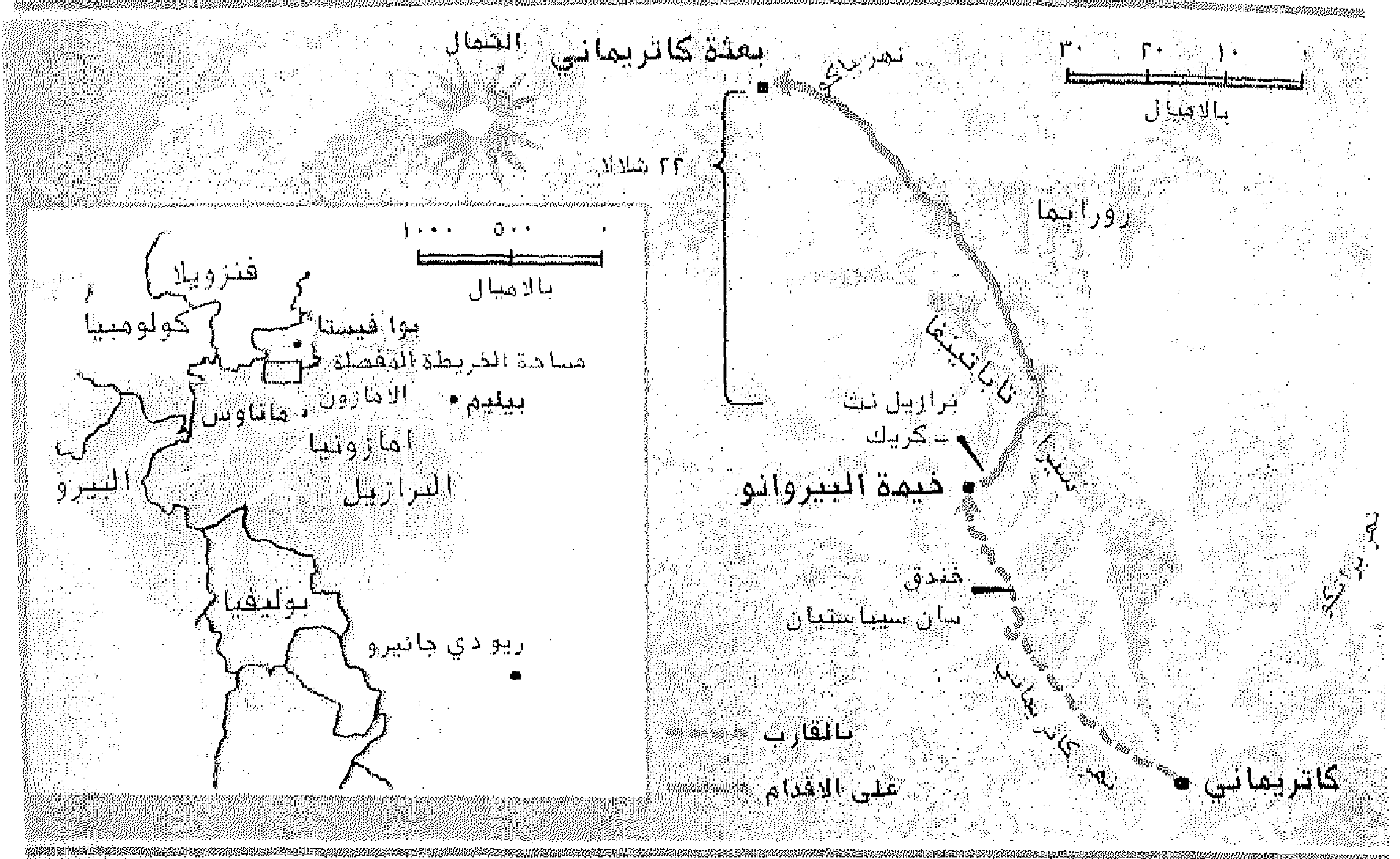
في المؤخر، ترنم الحانا لنفسها وتلون اظافر رجليها، وحينا آخر ترفع الماء الراشح الى الزورق بطاسة من خشب.

لم يمض قليل من الوقت حتى انصبت علينا قوافل من الذباب الدقيق الطنان المدعو "بيوم"، تجمهرت حول كواحلنا ومرافقنا تمتص منها الدم لتغذي بطونها الشفافة حتى تكاد جوانحها تعجز عن حملها. وسرعان ما غطتني بلسعاتها. لكن الاذى الناجم عن هذه اللسعات لا يولد خطراً في ذاته، كما انها، معظم الاحيان، لا تنقل معها الامراض. الا انه، بعد ساعات من لسعاتها، يستحكك جلدك الى حد لا يطاق، وتزداد فيك الحاجة الى الحك فتتضخم اللسعة لتصبح في حجم حبة المشمش وتتحول، بفعل ما تحوي الاظافر الوسخة من "الاميبا" وسواها من الجراثيم الخطرة، الى تلوثات متفشية تؤدي حتماً الى الموت اذا لم تعالج في الحال. وهذه المرة لم تترك لسعات البيوم اثراً لدى البيروانو وماريا لانه سبق لهما ان اخذا نصيبهما الوافر منها. لكنهما لاحظا امارات البؤس على وجهي. فقال البيروانو معزياً: "سنيور، سيعجبك المسكن الذي نعيش فيه: انه خال من ذباب البيوم".

واصلنا رحلتنا اياماً يكتنفنا فيها قفر تام لا يعكر جوه شيء. ولحقت بنا دلافين قرنفلية اللون تحوم حول الزورق مداعبة وتقفز فوق سطح الماء نافخة. ودارت حولنا على مرمى سهل المنال من رمح البيروانو، لكنه تركها وشأنها. وتتعدد الخرافات حول هذه الحيوانات عند شعب الادغال، ويعتقد ان فيها شبهاً بشرياً. ولكن مهما يكن من هذا كله، فان لحمها لزج وقاس، وكل من يتجاسر على اصطيادها فانما يقدم عليه كي يستخرج من عيونها الشمالية المشعرة مشروباً سحرياً يولد الحب في اعتقادهم.

كان الموسم جافاً جرت فيه مياه النهر ثلاثة امتار تحت مستواها العادي بالنسبة الى شهر يوليو (تموز). سال التيار ضمن خنادق طويلة مستقيمة متوازية مع الاشجار العالية المتكاثفة في هذه الادغال الغزيرة بامطارها. وسرنا نحن متلاصقين احياناً مع جدار من الطين الشفاف، وجذفنا تحت قوس متواصل من الجذور العالقة والعرائش المتدلية. وفاجأتنا احياناً اخرى منعطفات واسعة كاشفة، فالتوينا مع مجرى النهر وقطعناه من ناحية الى ناحية متلمسين دوماً حماية الظل. واعترضتنا ايضاً سدود وافرة من الرمل، فترجلنا ومشينا جارين وراءنا الزورق. والتقينا على طول مسيرتنا سمك "الراي" النهري الذي كان يهب من مخابئه الرملية ثم يغوص في بطن المياه الكثيفة الخضراوية. ان ضربة واحدة من ذيل هذا السمك المنشاري كافية لان تسبب اوجاعاً لا تحتمل تدوم اياماً بكاملها. اما اليوم فبدا الراي غير آبه بنا لحسن طالعنا.

صوبت ماريا اهتمامها الاكبر الى السلاحف، اذ كنا في ختام الموسم الذي تطرح فيه سلاحف الامازون بيضها. فأخذت تقتفي آثار زحفها على الرمال الى حيث تقوم اعشاشها، حتى جمعت مقدار مئة بيضة. وهذا



البيض مليء بالبروتيين ولذيذ الطعم، خصوصاً اذا جبل بدقيق "الكاسافا". وعلى رغم ان السلاحف تتمتع بحماية القانون البرازيلي، إلا ان هذه الحماية لم تكن لتوقف شعب الادغال عن اصطيادها والاستيلاء على بيضها.

اما أدهش الحيوانات التي صادفناها فكان صنفاً من القوارض الضخمة المسماة "كابيبارا". انها بنية اللون وذات خطم مربع، وهي تهجم منتفضة من بطن اعشاب الغابة لتقفز الى عمق الماء وتختفي عن الانظار. وقد قال لي احد العلماء في وقت لاحق ان هذه الحيوانات تستطيع ان تحبس انفاسها تحت الماء مدة ثلاثين دقيقة. اما البيروانو فصرح بانها تهيىء لنفسها حجوراً تحت المياه تأوي اليها هرباً من اعدائها.

واشار البيروانو بحركة واسعة من يده الى الطيور: هناك طائر الطوقان بالوانه الغنية ومنقاره العريض، يتعالى صراخه من قمم الاشجار. وهناك رفوف اوزات "الاورينوكو" الرشيقة تحلق بانتظام فوق رؤوسنا. وهناك ايضاً مختلف اصناف الببغاء: الببغاء القرنفلي الناري اللون، المدعو "ماكاو"، يملأ الفضاء بنداءاته الخشنة، والببغاء الاخضر الزمردي يطير من ضفة الى ضفة حاملا وراءه ذيله الطويل... وفي اختصار، لقد اتيح لي ان احصي ثمانين صنفاً من الطيور، اغربها ذاك الصنف المدعو "اورو بوندولاس". وتحط افراده على شجرة حتى تمتلىء بأعشاشها الشبيهة بالجوارب، التي يزيد طول الواحد منها على المتر.

ويتفرد هذا الطائر بنغم خاص، فيه قرقرة دامعة يتبعها صوت كصوت الوقواق، يرن في الاذن كأنه ساعة الكوكو السويسرية بالذات.

والتقينا حيوانات اخرى لاعد لها، منها ثعالب الماء (القضاعة)، يلاحق بعضها بعضاً على طول ضفة النهر، نتحملها، نميل الى أحد الروافد الكثيرة التي تغذي نهر كاتريماني ونحط رحالنا. واحاول ان اغطس في ماء الرافد سابحاً، فيصدني البيروانو ويذكرني بأنها تعج بسمك الراي السابق ذكره والانقليس الكهربائي الذي له القدرة على ان يوزع في الجسم هزات عنيفة تبلغ قوتها ٦٠٠ فولت، كذلك بأفاعي "الاناكوندا" التي تحبس انفاس فريستها في طياتها، فضلا عن اصناف الحيتان الشرسة، وهي اربعة اكبرها الصنف الأسود. ان عضة واحدة من هذا الصنف تقلع من فخذ الانسان قطعة لحم توازي حجم الدولار الفضي. ويسكن اخيراً في هذه النهيرات ارهب الخلائق على الاطلاق، وهو صنف من السمك دقيق جداً يبدو في حجم المسواك ويدعى "كانديرو". وهو يتغلغل في فتحات الجسم ويشق طريقه، مخلفاً صفاً متواصلا من الشوكات الحادة، لا يستطيع الانسان التخلص منها الا بواسطة عملية جراحية.



ماريا زوجة البيروانو على ضفة نهر كاتريماني.

ومنها الافاعي التي تلف امتارها الثلاثة حول الاغصان، ومنها الخفافيش الصغيرة، ينتابها الاهتياج لدى مرورنا ضمن جناح شديد العتمة من الغابة فتضرب الفضاء بأجنحتها ضرباً عشوائياً، ثم لا تبرح ان تعود فتغط متجمعة بعضها على بعض، لا يميز بينها وبين الغاب شيء.

يعتبر علماء الطبيعة ان اصناف سمك نهر الامازون المعروفة لديهم حتى اليوم لا تتجاوز ثلثي عددها الكامل، علماً بأن عدد الاصناف المعروفة يراوح بين ١٣٠٠ و١٤٠٠.

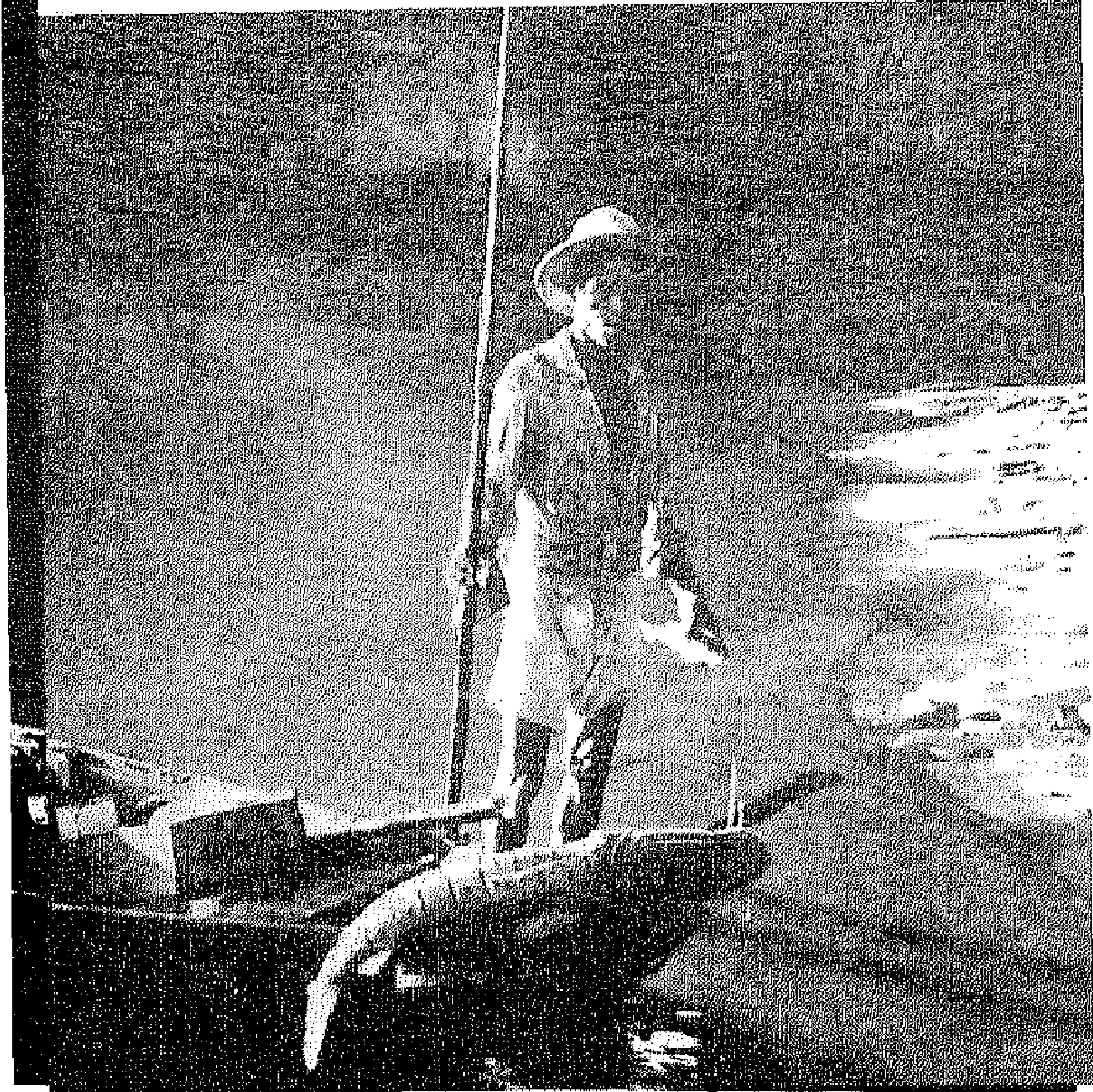
هذا الشح في المعرفة ليس جزءاً من جهل كثيف متراكم حول وادي

ارض مجهولة

في الحادية عشرة من كل صباح، عندما تشتد حرارة الشمس فلا نعود

الامازون. وتعادل مساحة هذا الوادي مساحة اراضي الولايات المتحدة القارية. وهو القفر الاخير والاوسع الذي تغطيه الاشجار بهذه الكثافة على وجه الارض. ولا يعرف من اصناف نباتاته سوى ٢٥ ألفاً، اي نصف عددها الاجمالي، فيما لم يتعرض للتحليل العلمي اكثر من ١٠ في المئة من المقومات الكيميائية لهذه النباتات. ومن يدري كم صنفاً من الادوية العجائبية، الشبيهة بتلك المادة الصمغية "الكوراري" التي يستخدمها الهنود لاسهمهم المسممة، لا تزال تنتظر من يكشف عن اسرارها؟ الشعوب الهندية ذاتها لم تُحدَّد مواقع اقامتها بعد. كما ان الانهر الرئيسية لم تكتشف بكاملها. وحدث في العام ١٩٧٦ ان حلقت طائرة تابعة للقوى الجوية البرازيلية فوق القاطع الجنوبي الغربي من ادغال امازونيا وصورتها، فكشفت الصور عن نهر مجهول تماماً يبلغ طول مجراه ٦٤٠ كيلومتراً، تغطيه الاشجار من البداية حتى النهاية.

ذات يوم تتبعت بنظري السحابة البيضاء الرقيقة التي تجرها وراءها الطائرة النفاثة في الفضاء الازرق. انها، بلا شك، الطائرة الاسبوعية التي تنقل المسافرين كل ثلثاء من مدينة ريو دي جانيرو في البرازيل الى مدينة ميامي في الولايات المتحدة. وفكرت في المسافرين وهم ينهمكون بالكشف عن طعامهم المعد سابقاً والملفوف بورق السيلوفان الصقيل الشفاف، واستولى علي شعور قوي باني بعيد فعلا كل البعد عن العصر الذي تعيش فيه هذه الطائرة وركابها.



البيروانو مع سمكة من صيده.

اعتدنا ان نأوي عند الغسق الى احد النهيرات الجانبية، فنصف زورقنا على ضفته ونبدأ قطع اغصان الشجر من حولنا بالفؤوس لكي نعد مكاناً لاستراحتنا ونعلق اراجيحنا المشبكة. اما ماريا فكانت تهتم باشعال النار، توقدها من قشارات الحطب ثم تغذيها بقضبان ضخمة، فيعلو اللهب ويقينا لمعانه الباهر خطر النمور المرقطة.

بعد ايام من الرحلة كانت خطتنا

مرسومة بانتظام: ننهض باكراًنحو الثالثة والنصف ونبدأ مسيرتنا بعد ساعة، فنسعى الى قطع مسافة طويلة قبل بزوغ الفجر. وكلما تركنا وراءنا بضعة كيلومترات، كنت اسمع البيروانو يهمس وهو ينظر وراءه: "عشرة اخرى منها اليوم".

بقي امامنا الشوط الثاني من الرحلة، وهو شاق، قويم الخط. طوال الايام الثلاثة اللاحقة لم نجد في مسيرتنا اي اثر لضفة النهر.لقد ضاق مجراه واشتدت سرعة التيار، تعترضنا وتمنعنا احياناً من التقدم على رغم ضربات مجاذيفنا العنيفة. وبدا التعب على وجه البيروانو، فاعترف قائلا: "انني رجل مسكون بالامراض". ثم دخلنا سان سيباستيان، وهو خندق مستقيم طويل يبلغ عمق المياه فيه خمسين ذراعاً على حد قول البيروانو. وراح يخبر انه في موسم الامطار، تعج الماء هنا بقوة يعجز الانسان عن مجابهتها في زورقه: هنا يعيش الصل الكبير، وهو هول خرافي يتحدث عنه الفولكلور الامازوني: يمتد ثلاثين متراً ويغرق الزوارق ويبتلع البشر. وقال البيروانو: "لم ار قط في حياتي الصل الكبير. ولكن يخبر الناس ان لعينيه لمعان الحباحب الناري".

"إياكم ان تقتلوه"

سألت البيروانو عن قبيلة ماريا. قال انه تعرف على جماعة الأيكا للمرة الاولى عام ١٩٤٨ حين كان يعمل في مزارع المطاط. كان عددهم آنذاك نحو مئتين، وكانوا يسكنون ضفة نهر آخر. وفي اواخر الخمسينات لقي رئيس القبيلة وعدد كبير من افرادها حتفهم من جراء "حمى" حملها اليهم احد رجال الادغال. وتجدر الاشارة الى ان عبارة "حمى" قد تعني، لمواليد الامازون، اي نوع من الامراض، من الملاريا حتى السل. وقد تمكنوا من التكيف مع بيئة الادغال القاسية، لكنهم فقدوا اي مناعة ضد الامراض التي تصل اليهم من عالم ليس بعالمهم. ففي عصرنا هذا وحده هبط عدد هؤلاء الهنود من ٢٥٠ ألفاً الى ٧٥ ألفاً.

ثم رحلت قبيلة الأيكا في اتجاه نهر كاتريماني. وانتقل البيروانو عام ١٩٥٩ ليسكن معهم هناك. وكان هدفنا في هذه الرحلة احدى مستعمراتهم، "برازيل- نت كريك"، حيث تعيش ثلاث عائلات. وعلى مسافة ست ساعات من تلك المستعمرة يعيش ثلاثون هندياً آخر، بينما يعيش بعض العائلات الباقية على ضفاف نهر باكو، احد روافد كاتريماني. ويجتمع هنود هذه المنطقة من وقت الى آخر لاقامة الاحتفالات. انهم شعب يعشق الطرب. وهم يسترخون في اراجيحهم ويتبادلون النكات طوال الليل. وينهض احدهم من حين الى آخر ويباشر الرقص او يروي احدى الروايات، بينما يظل الباقون منصتين اليه. وقال البيروانو: "انهم سيحبونك. وستكون هذه المرة الاولى في حياتهم التي يسمعون نغم القيثارة".

في اليوم العاشر من رحلتنا تراءت لنا المستعمرة المقصودة. وهرع نحونا ثلاثة من رجال الهنود فيما تعالت صرخة ابتهاج من حنجرة البيروانو لدى رؤية مسكنه. وما ان ترجلنا الى

ضفة النهر حتى تناولت يده واخذت اهزها بحرارة، كما كنت اتصرف مع دليل من جبال الالب يقودني الى تسلق احدى قمم جبال بلاده. وللحال خامرتني فكرة العودة التي تبدو سهلة جداً لانها في اتجاه تيار النهر من بدايتها الى نهايتها. ولكن سرعان ما تبين لي ان مغامراتي لما تنته، واني ما زلت في المراحل الاولى منها.

جلسنا في الغرفة الرئيسية من الكوخ المرتفع، مع روبي ومانويل وبدرينيو، وهي الاسماء التي اختارها البيروانو للهنود الثلاثة. اما اسماؤهم القبلية الاصيلة فقد علمتني خبرتي السابقة ان امتنع عن السؤال عنها.

ووزع البيروانو هداياه عليهم: سراويل قصيرة وشراب الكاشاسا وقبضة من قذائف بندقية الخردق. وجلسنا في اراجيحنا نمضغ قطعاً مجففة من اللحم. وقال البيروانو: "لا اظن اني سأعود حالا الى كاتريماني. لن اترك هذا المكان عاجلا، اذ لا داعي الى ذلك. ان ظهري يؤلمني من جهة، ومن جهة اخرى انوي زرع بعض حبوب الكاسافا".

وحاولت ان احافظ على هدوء اعصابي عند سماع هذا الكلام، فسألت: "متى تنوي العودة اذاً؟"

– من يدري؟ ربما عدت "غداً".

لكن الغد ههنا قد يمتد من النهار الآتي حتى السنة المقبلة. فقلت له: "هل يمكنك ان تكون أكثر وضوحاً، فتقول لي متى تنوي العودة الى كاتريماني؟"

– من يدري؟

بعد شهرين او ثلاثة!

قلت محاولا السيطرة على اعصابي: "انت تعلم جيداً انه لا بد لي من الرجوع حالا والا سيقلق الاهل في امريكا على مصيري".

فأجاب: "لا داعي الى هذا القلق. اذا كانت امريكا تبعد مسافة اربع سنوات بالزورق عن هذا المكان، كما صرحت لي سابقاً، فما الفرق اذا طال غيابك شهرين او ثلاثة؟"

واصابتني الملاحظة في الصميم، فلم اجرؤ على اضافة اي كلمة. لكني صممت على ان اعمل كل ما في وسعي لئلا ابقى دفيناً هنا هذه الاشهر كلها. ان مهمتي العلمية، من جهة، لم تنته بعد، ولا يزال امامي مناطق كثيرة اخرى تدعو الى الاستكشاف. وان مناخ هذا المكان، من جهة اخرى، لا يدعو الى الارتياح، بل يوهن العزائم. فالمسكن وزريبته هما ملعب تسرح الصراصير فيه وتمرح، كما تفوح منه الرائحة الكريهة المتصاعدة من اللحم العفن.

وفي النهاية افشيت كربي، فقلت: "اذاً، ما العمل؟ وكيف السبيل للخروج من هنا؟"

اجاب البيروانو: "اذا سلكت مجرى النهر، فانك على مسافة اسبوع من ارسالية كاتريماني. ولكن يعترضك في طريقك اليها اثنان وعشرون شلالا، لا رغبة لي الآن في مواجهتها. واذا سلكت اليابسة عن طريق الجبال، فانت امام المسافة ذاتها".

سألته: "هل ترافقني؟"

قال: "لا. ان المسافة طويلة بالنسبة الي. لماذا لا تسأل الاصحاب هنا؟ اطلب مساعدتهم وقدم اليهم بدلا عنها، فيطيب لهم الامر".

وهكذا كان. ووقع اختيار مانويل على بطاريتي، ولعبت عين روبي على فأسي الجديدة. اما بدرينيو فارتضى

الحصول بدوره على قميص بنصف كم.

بلغ مانويل الثامنة عشرة من عمره، وهو ذو رجلين ضخمتين وشعر محلوق على هيئة طاسة. وكان روبي في السابعة عشرة، وهو يتقن استعمال نحو مئة كلمة من اللغة البرتغالية. وراقبته في ساعة الظهر وهو يسلخ جلد هرة برية، فبدت لي عيناه فارغتين، لا حس فيهما ولا نور، مع شيء يجلب الرعب. اما بدرينيو فظهر اللطف.

وبعدما تم الاتفاق بيننا وزع البيروانو عليهم ارشاداته الاخيرة، فقال: "اياكم قتله. انه رجل ذو شأن. واذا حدث ان قضيتم عليه، فستأتي طائرة تحوم فوق رؤوسكم وترميكم بوابل قذائفها".

لقاء مع ساحر

في الصباح الباكر خرجنا، نحن الاربعة، الى مرعى تعلو اعشابه خمسة امتار. حمل مانويل سلة من دقيق الكاسافا، اضافة الى قيثارته وبندقية محشوة بالخردق. وحمل روبي بندقية اخرى مع صرتي ورفعها معكوسة كي يلف حزامها حول رأسه. وحمل بدرينيو قدراً للطبخ مع حزمة من ثمار استوائية شبيهة بالموز. اما انا فعلقت على كتفي حقيبتي الملأى بالتجهيزات التصويرية والتسجيلية المختلفة مع دفاتر مذكراتي.

سرت وسار الهنود الثلاثة وشفاههم السفلى منتفخة بأوراق الدخان الملفوفة. وقطعنا الغابة نماشي مجرى النهر، وأشرفنا على سهل واسع ارتفعت اعشابه بكثافة، وهو ذو أرض رملية تعترضها هنا وهناك بعض الاشجار القصيرة الملتوية. وانتصبت امامنا في الافق البعيد قمم سييرا تاباتينغا الصخرية الناتئة، يؤلف اعلاها مثلثاً كامل الهندسة، وقامت في ظل الجبل قرية تخص قبيلة الايكا.

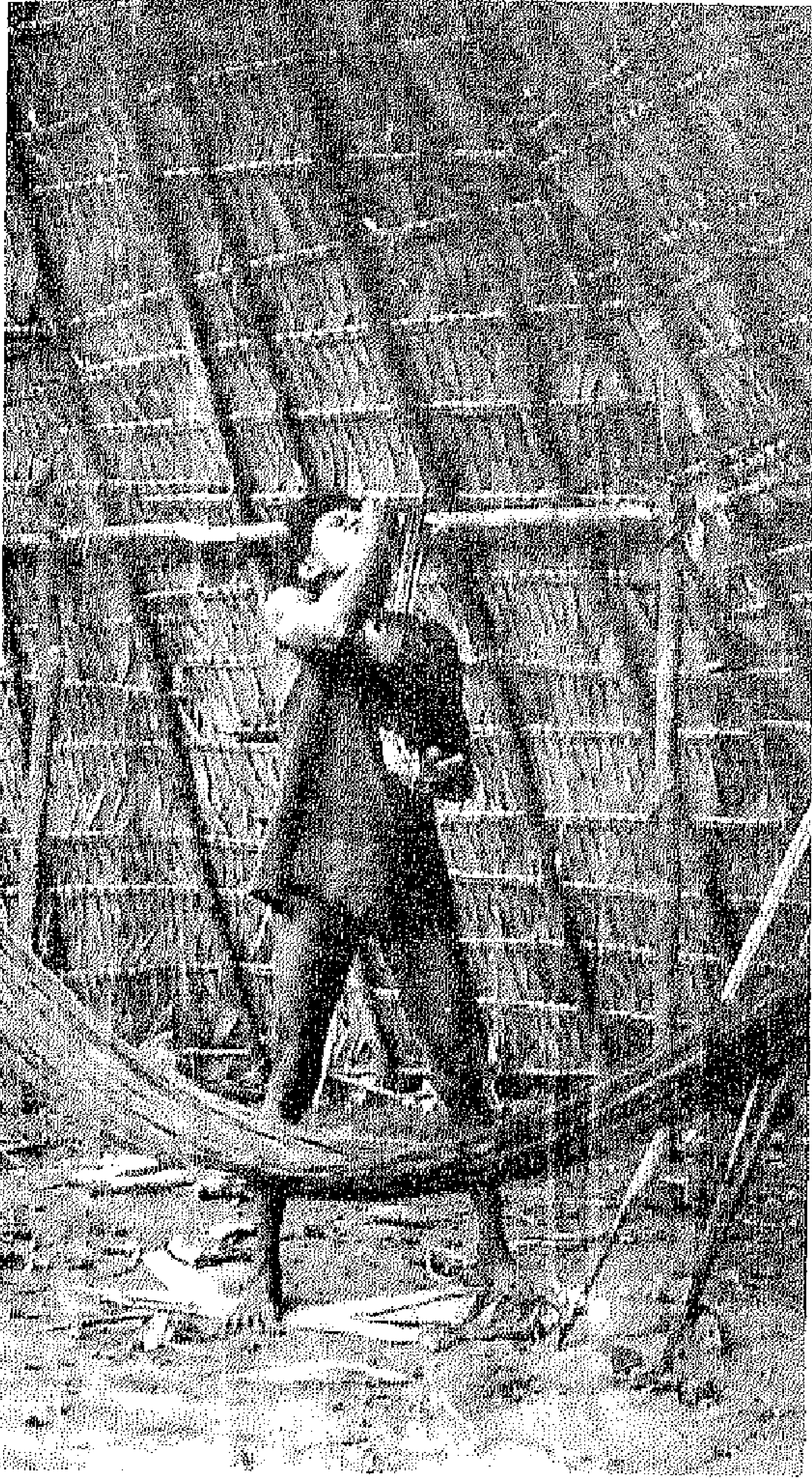
وسألتهم: "ما المسافة بيننا وبين القرية؟" فمد بدرينيو يده بحركة واسعة، مشيراً الى الموضع الذي تصل اليه الشمس عند الساعة الخامسة. وكان خط السير الذي يقطع السهل المعشب ممراً ابيض ضيقاً، لا يتجاوز عرضه العشرة سنتيمترات. ويعود ضيقه الى الطريقة التي يتبعها الهنود في سيرهم. فهم يضعون رجلهم الواحدة امام الاخرى من دون أن يحيدوا عنها، ويمكنون في الارض اصابع ارجلهم العريضة ويقطعون المسافات ركضاً لا مشياً. ويبلغ معدل سيرهم على هذا النحو ٦٥ كيلومتراً في النهار. واجهدت نفسي كل الجهد كي الحق بهم، غير اني تعثرت مراراً بالجذور والعرائش، وانبطحت ارضاً بملء قامتي. وعندما كنت أنهض وانتصب على رجلي، كان الهنود يغيبون عن نظري من جديد وتضيع علي معالم الطريق. فاناديهم بصوت يسجع كهديل الحمام كي استرعي انتباههم، فيرجعون على خطاهم وينتصبون حولي وايديهم على خواصرهم للدلالة على نفاد صبرهم... اني مقتنع بان اي انسان في حالي الخرقاء هذه يعرض نفسه للهلاك المحتم في عالمهم.

وكانت الغابة عند الطرف الآخر من السهل المعشب فتغلغلنا فيها وسلكنا طريق الصعود في اتجاه قمم الجبال. وتسلق روبي شجرة كاكاو وقطف من ثمارها الناعمة المشوكة،

فتلذذنا بلبها الابيض الشهي. وأظهر مهارته في تسلق الاشجار على الطريقة الهندية: تناول بيديه جذع الكاكاو العاري ورفع رجليه الى مستواهما، ثم رفع اليدين الى مستوى اعلى والحقهما سريعاً بحركة مماثلة من الرجلين، واخذ يصعد هكذا الى ان بلغ القمة.

دخلنا القرية في الخامسة بعد الظهر حسب الموعد المحدد، فوجدناها خالية من سكانها. لقد خرجوا جميعاً للاعتناء بحدائقهم. وبدا مسكنهم الجماعي رائع البناء، مصنوعاً من سعف النخل المنسوج حول هيكل من السواري يبلغ قطره ٤٥ متراً وعلو محوره ١٢ متراً. ويعيش في هذا المسكن ثمانية رجال وست نساء وستة اولاد. ولكل عائلة منهم منطقة خاصة مقطوعة على شكل اسفين، تحتوي على مقود مع عدد من الدعامات التي تصلح لتعليق الأراجيح والطعام والمقتنيات الاخرى. ووجدنا حول المواقد قدوراً معدنية اكتسبوها من البيروانو، وهي المظهر الوحيد لديهم الذي كان يدل على الحضارة الغربية ومنتجاتها.

بعد غروب الشمس عاد جماعة الايكا من عملهم في ضوء البدر الكامل. وبدا رجالهم طوال القامة بالنسبة الى المقياس الهندي العادي. وكانت رؤوسهم حليقة الشعر على هيئة طاسة وأسنانهم لماعة. اما رقابهم واعالي اذرعتهم فبرزت مزينة بجدائل من الخيزران الصغيرة البيضاء. وحمل كل منهم قوساً طولها متران ونصف متر مع سهامه. وبدت النساء قصار القامة، مع مسحة حياء على وجوههن، وقد ارتدين مآزر



ليونسا الساحر يتنشق مسحوق "واشاهاروا" المخدر.

منسوجة قصيرة. اما الاولاد فقد زينوا شحمات آذانهم واعالي اذرعهم بعناقيد من ريش الطوقان.

استقبلني شاغاس، وهو شقيق مانويل الاكبر ورئيس القبيلة، ببشاشة، وتوصل الى افهامي ان عدد الايكا بلغ ١٢٠ شخصاً لثلاث سنوات خلت، وان معظم الذين توفوا ذهبوا ضحية "الحمى". وبلغني في وقت لاحق ان البيروانو ابتلي بداء السل، وهو داء مجهول لدى قبيلة الايكا والبيروانو بالذات. فراودتني فكرة أن البيروانو، الذي يعتبره الهنود

صاحب اليد البيضاء عليهم، هو في الحقيقة المسبب لوفاة معظمهم.

بعد ظهر اليوم التالي عاد ساحر القرية ليونسا من رحلة الى بطن الغابة قام بها وحده. هذا الهندي عمره اربعون سنة، وجهه منبسط كوجه الطفل وجسمه صلب مثل جسم الراقص. طرح قوسه وسهامه على الارض ومد يده الى جعبته الخيزرانية، وطولها ٤٥ سنتيمتراً، متناولا غطاء مصنوعاً من جلد الخنزير. ووضع في طياته ثلاثة انواع من اسنان الاسهم: سن من الخيزران العريض لاصطياد الخنزير، وسن شائك من عظم السعدان لاصطياد الطيور، واخيراً سن من خشب مستقيم شبيه بالصنارة لاصطياد السعادين. وطلى كلا من هذه الاسنان بمادة صمغية مسحوقة لها، من جهة، مفعول السم، ومن جهة اخرى مفعول مخدر يولد الهذيان.

تناول ليونسا قبضة من هذه الاسنان واخذ يفركها فوق ورقة موز، الى ان تجمع لديه ركام كاف من مسحوق يراوح لونه بين الاحمر والبني. ورفع المسحوق الى انفه وتنشقه من منخريه، ثم اوى الى ارجوحته. وما ان مضت عليه خمس عشرة دقيقة حتى هب من مكانه واخذ يغني ويبصق ويئن ويرقص مؤدياً حركات رشيقة من يديه وملقياً نظرات مستعطفة الى اعلى. وقام غناؤه على نغمة جميلة هادئة، شبيهة بالاغاني الروحانية الخاصة بزنوج امريكا، ترافقها مقاطع طويلة من الكلمات الغريبة تنطلق متدحرجة من فمه. وأسر روبي في اذني: "هو وحده يدرك ما يقول".

ان هذه التنشيقة، التي يسميها الايكا "واشاهاروا"، يتناولها رجالهم فقط، ولاسيما السحرة منهم. وقال روبي: "انها تزجك في عوالم اخرى، فترى الأفاعي الطويلة (الاناكوندا) تسبح في الفضاء، وترى عيون النمور المرقطة تهيج باللمعان من خلال الاغصان". ويعتقد جماعة الايكا ان الموت والمرض ليسا مصادفة، وانما تسببهما روح شرير او عدو بشري. ويتنشق الساحر الواشاهاروا لمعرفة هوية المذنب، لانها تساعده على ادراك الاسباب الخفية للأحداث.

أفعى "سن الرمح"

ضم روبي ومانويل جهودهما كي يقنعا ليونسا بمرافقتنا الى الارسالية، فقبل. وقمنا نسير تاركين وراءنا بدرينيو بعدما فقد الرغبة في مواصلة الرحلة. واظهر ليونسا براعة في استعمال القوس، من دون ان ننتظر ذلك. ولدى سماعه نداء من مجموعة اشجار، صادراً من حنجرة طائر الكوراسو، هيأ واحداً من سهامه ثم قفز نحو مصدر الصوت برشاقة. وتنقل بقفزات طويلة وهو ينحني نصف انحناءة. وقبل ان يشعر الطائر به، انتصب على مقربة منه وصوب اليه ضربة جعلته يهوي على الارض والسهم معلق في عنقه.

واكلنا كل ما وقعت عليه ايدي الهنود. في احدى الليالي اكلنا سلحفاة سلخ روبي جلدها وقلبها يضرب حياً. وفي ليلة لاحقة اكلنا القاطور، وهو تمساح امريكي هرّم روبي ذيله بضربات متتالية من فأسه. ثم وضعه فوق النار، فأخذ الذيل

يلتوي وينتفض فوق لهبها. وسألت روبي اذا كان هناك شيء يمتنعون عن اكله، فقال: "اننا لا نأكل الايل والنمور السوداء او المرقطة لانها حيوانات مقدسة، تسكنها ارواح الموتى".

في هذه الليلة بعينها، بينما كنت مستلقياً في ارجوحتي، ادركت اخيراً اني نلت مبتغاي واتممت المهمة التي من اجلها قدمت الى بلاد الامازون. واستولت علي الرغبة في ان اهجر عالم حضارتنا لمدة معينة، وانتقل الى حضارة اخرى اقدم منها في الزمن واقرب الى الطبيعة، حضارة لا يزل الناس يعيشون فيها عيشة الطبيعة بالذات. ووجدت في شخص ليونسا الانسان الطبيعي الذي ابحث عنه. ولمست من خلال الوهج اللطيف الذي تشع به شخصيته انه مدرك كل الادراك حقيقة الوحدة الضمنية التامة التي تربط بينه وبين بقية الكائنات الحية حوله. وفي الوقت نفسه لمست من خلال انقطاعي التام عن الحضارة التي نشأت فيها، العزلة الرهيبة حولي، فثارت فيّ هزة خفيفة من الوجل والرهبة.

ان الكتاب الوحيد الذي حملته معي يروي تفاصيل رحلة الى بلاد الامازون هذه، وقد كتبه أحد الرحالة منذ مئة سنة. والجدير بالذكر أن كل ما وصفه الكتاب عن هذه البلاد لا يزال هنا اليوم، ثابتاً على حاله الاولى، كما لا يزال مهيمناً عليها ذاك السأم المخيف الذي يجر البشر الى شفير الجنون. واستولى علي شعور غريب بأني غدوت سجين تلك الرتابة التافهة في لونها الاخضر الذي تفرضه هذه الادغال الغزيرة الامطار. وشعرت بالتعب يلوعني من جراء طنين الذباب الذي يحوم حولي دونما انقطاع، كذلك من هجمات الاسهال المتتالية. وادركت ان اعضائي بدأت تنضح بالنتانة المتفشية في جسم لا يكف عن إفراز السوائل. واقلق راحتي اخيراً هاجس المحافظة على حلق ذقني ونظافة اظافر يدي والعناية بكل ما من شأنه ان يعيد الي ذكرى انسانيتي "المتمدنة".

في اليوم التالي اشرفنا على مطل بني اللون، يكشف عن مشهد شامل للغابات الممتدة اميالا وراء اميال والمتراصة بعضها على بعض، مع قمة جبل شاهق تنتصب وراءها عند حدود الافق. وكانت تلك المرة الاولى التي نرى كرة الشمس ونورها الذي جرح وهجه عيني. وهبطنا مرة اخرى نحو عتمة الغابة والامطار تهطل من جديد.

في اليوم التالي بلغنا نهر باكو الذي يجري بعرض ٤٥ متراً ويتقلب فوق ركام من صخور ملساء ضخمة، تتلألأ بسوادها تحت رذاذ الماء، فاتيح لنا، للمرة الاولى منذ ايام، ان نغسل ثيابنا التي امتصها العرق، ثم نضربها على الصخور وننشرها في عين الشمس الى ان تنشف. وهرع روبي ومانويل وليونسا الى متابعة مسيرتهم من غير شفقة. وجريت وراءهم مترنحاً كالسكران وباذلا غاية جهدي، خصوصاً بعد ليلة قضيتها اعاني اوجاع الاسهال.

فجأة توقف ليونسا كالمصعوق واوقفني معه. هنا امامنا، وسط الممر الضيق، ربضت الافعى المسماة "سن الرمح"، بطولها البالغ ٧٤ سنتيمتراً.

فوق رؤوسنا، فاخذنا نركض غير مبالين بها. وحين توقف المطر، توقفنا بدورنا وحططنا رحالنا للاستراحة. وقال لي روبي: "على اثر المطر، تخرج الافاعي من اوكارها. وهي، اذا لسعتك، اماتتك حتماً. فاحذرها".

وهذا الصنف هو اكثر الافاعي السامة انتشاراً في امازونيا. ويعرف عنه انه شديد الشراسة وقادر على ان يحقن في جسم الانسان كمية هائلة من السم الاصفر القتال. لكن أفعانا تلك لم تبد اي مقاومة عندما تقدم منها ليونسا وتناولها بلطف على سن سهمه ليلقيها على جانب الممر. وكان نظره الحاد اكتشفها بين الاوراق الزيتية اللون، فاوقفني عن السير لئلا ادوسها فتلسعني. وكنت احمل ستة انابيب للحقن المضادة للسم، لكن مفعول الدواء لن يحميني تماماً من سم الافعى. وانا مقتنع باني مدين بحياتي لليونسا.

نهاية الطريق

مرت ساعات قبل ان نصل الى مستعمرة الايكا على نهر باكو. وهي مؤلفة من اربع سقائف هزيلة او خمس وسط حديقة موز. ووجدناها خالية، فتوجه ليونسا ومانويل وروبي الى الصيد. واذ لم يحالفهم الحظ، عادوا بسرعة وهم يحملون كومة من جذور الكاسافا الحلوة الطعم. وكان أكلنا في اليومين السابقين قليلا وحقيراً، والآن هذه الجذور وحدها.

وتكلم روبي باسم الهنود الثلاثة، قائلا ان التعب اخذ منهم كل مأخذ وانهم عائدون الى مسكن البيروانو في مطلع الصباح. وأضاف: "عليك ان تجد سبيلك بمفردك الى الارسالية". فاستولى علي الرعب وصرخت بهم: "كيف يكون ذلك وانا لا اعلم اين تقع الارسالية؟" فاجاب روبي: "اما ان تجد سبيلك واما ان تموت جوعاً". فاستحال الرعب في الى غيظ، واخذتني رغبة في ان امنع عنهم البطارية والفأس وبقية الاشياء التي وعدتهم بها. ثم فكرت في نفسي: ولكن من يمنعهم عن قتلي والاستيلاء على كل شيء؟

وبدا مانويل اقلهم تصلباً في موقفه. كان ينام خلال رحلتنا على قطع خشب ضبط بعضها مع بعض بحبل لانه لم يكن يملك ارجوحة. فعرضت عليه ان يرافقني في مقابل ارجوحتي. فقبل العرض.

لم تكن الارسالية بعيدة عنا، بل كانت على مسافة ثلاث ساعات فقط كما تبين لي لاحقاً. وسلكنا مزارع واسعة من الموز والكاسافا. وفي العاشرة صباحاً أخذ يبلغ آذاننا ضجيج الشاحنات من الوادي على الطريق العام تحتنا. فتوقف مانويل وارتدى افضل ما عنده من لباس وصبغ وجهه بعصير لامع، احمر وبرتقالي معاً، اسمه "اوروكتو"، ثم شك ريشة في شحمة اذنيه وهو يفسر لي موقفه قائلا: "يؤم الارسالية نساء قادمات من القرى البعيدة. ومن يدري؟ قد يسعدني الحظ فاجد بينهن واحدة تناسبني".

وصلنا الى مسكن مستدير يبلغ علو سقفه ٢٣ متراً، وجدنا في داخله هنوداً يحركون بمجاذيفهم معجوناً من الموز الحار في زند من الخشب واسع مجوف. ولمعت عيونهم اهتياجاً لدى

رؤيتنا، ثم اقتادوني تواً الى المستشفى حيث التقيت حسناء بيضاء في الاربعين من عمرها. انها كلوديا اندوجار، احدى شهيرات فن تصوير الهنود في البرازيل. وعرفتني على رجل ايطالي ملتح اسمه كارلو زاكيني. وهو يعيش هنا منذ ثماني سنين، يمارس خدمة الكهنوت ويقدم العناية الطبية الى قبيلة يانومامو، وفي الوقت نفسه يهتم بدراسة حضارتهم وأساطيرهم. ويبلغ عدد أفراد قبيلتهم العشرة آلاف هندي، وهي تعد من اضخم المجموعات البشرية البدائية في عالمنا اليوم.

أجفل كلوديا وكارلو في البداية لرؤيتي. فهما يعلمان كل العلم انه ليس من السهل اطلاقاً ان يحل على هذه الارض زائر. وتبعد الارسالية ١٤٣ كيلومتراً عن الطريق العام الذي يشق حالياً وينتظر ان يلف اطراف الحدود الشمالية من منطقة الامازون البرازيلية. وعند حدود الكيلومتر ٤٩، اقامت المؤسسة الهندية القومية حاجزاً لتمنع المرور على كل انسان لا يحمل تفويضاً رسمياً. وقبل اقامة هذا الحاجز، غزا المنطقة جماهير من المنقبين عن الاورانيوم وحملوا معهم داء الحصبة الذي مات بسببه عشرون هندياً من قبيلة يانومامو.

واطلعني كارلو على النظام الذي تتبعه الارسالية في علاقاتها مع الهنود. وقال: "اياك ان تهبهم شيئاً من غير بديل من صنع ايديهم او من غير خدمة يؤدونها". والغاية من هذه القاعدة منع الهنود من ان يتحولوا الى طلاب حسنة ويخسروا مميزات حضارتهم. ووزع عليهم كارلو



روبي وبدرينيو: اثنان من مرافقي الكاتب.

بطاقات تحمل نقاطاً متعددة الالوان يبدلونها بفؤوس ومرايا وقدور من الالومينيوم. اما الشيء الوحيد الذي يحصلون عليه مجاناً فهو العناية الطبية التي كرس لها كارلو وكلوديا معظم اوقات النهار. الى ذلك يعمل كارلو، ببعض المرارة، على مقاومة الدور الذي يقوم به اناس مثل البيروانو، إذ يقنعون الهنود بهجر الاعمال الاساسية المرتبطة بحضارتهم، كالعناية بحدائقهم والانصراف الى صيد النمر المرقط وابدال جلده بزوج من السراويل.

ويدرك كارلو تماماً ان نظام المكافأة هذا سينهار يوم افتتاح الطريق العام. فعلى هذا الطريق بالذات سيعود ابناء الادغال النازحين الى مساقط رؤوسهم، حاملين معهم شراب الروم والالبسة والبنادق، والامراض حتماً. ويأمل كارلو اليوم

في ان يتعلم الهنود في الارسالية، بواسطة نظام البطاقة ذات النقاط والالوان، قيمة المال وطريقة استعماله، اذ ان مفهوم المال مفقود تماماً من حضارتهم. لكن تفاؤله ضئيل. فهو يعلم ان ادخال البنادق، مثلا، سيقضي على مهارتهم في الرمي بالقوس - تلك المهارة التي مارسوها وطوروهامنذ آلاف السنين - وبالتالي سيكون قاضياً على مستقبل القبيلة بكاملها... عندما يفتح طريق الاستعمار سيرحل كارلو من هنا الى مكان آخر.

واخبرني كارلو ان اليانومامو يعتقدون ان الكون مركب من ثلاثة مستويات:الأرض، ما فوق الأرض، ما تحت الارض. الكائنات استمدت وجودها من المستوى الأعلى،الا ان قسماً منها سقط على الأرض، تاركاً وراءه ثقباً واسعاً فيالفضاء، وهوى قسم آخر من الارض الى عالم اللاوعي. وبعد الموت تعود بعض الارواح الى المستوى الاعلى، مرتقية سلماً من العرائش. وهذا المستوى مرتع سعيد يحفل بالمآكل والنساء الحسان، كما انه ملتقى اعضاء العائلة الواحدة الذين فرقتهم الايام. وهناك ارواح تستحيل حيوانات بسبب افعالها الرديئة.

وفي عقيدتهم ان اسم الانسان الاول "أوماما"،وان هذا ضاجع رجلا آخر فحبل في فخذه. اما المرأة الاولى فقد اصطيدت في نهر او طلعت من الصخر. وهناك روايتان مختلفتان في هذا الشأن. ويبدو انالمرأة في حضارة اليانومامو لم تخطر في البال الا في وقت لاحق. ومهمتها ان تحمل الموز وخشب الموقدة، وان تكون فريسة الخطف. وتتعرض الزوجة عندهم للضرب المستمر او للحرق بجمر متوهج. وهي تنتظر مثل هذه الخشونة في المعاملة وتقيس اهتمام زوجها بها بعدد الضربات التي تتلقاها منه.

والنساء هن المسبب الاكبر لحروب اليانومامو. فخطفهن من قرية الى قرية يعني، من جهة، القضاء على اجيال المستقبل لدى العدو، ومن جهة اخرى زيادة عدد افراد القبيلة وتسرب دم جديد الى دمها يحول دون انقراض النسل.

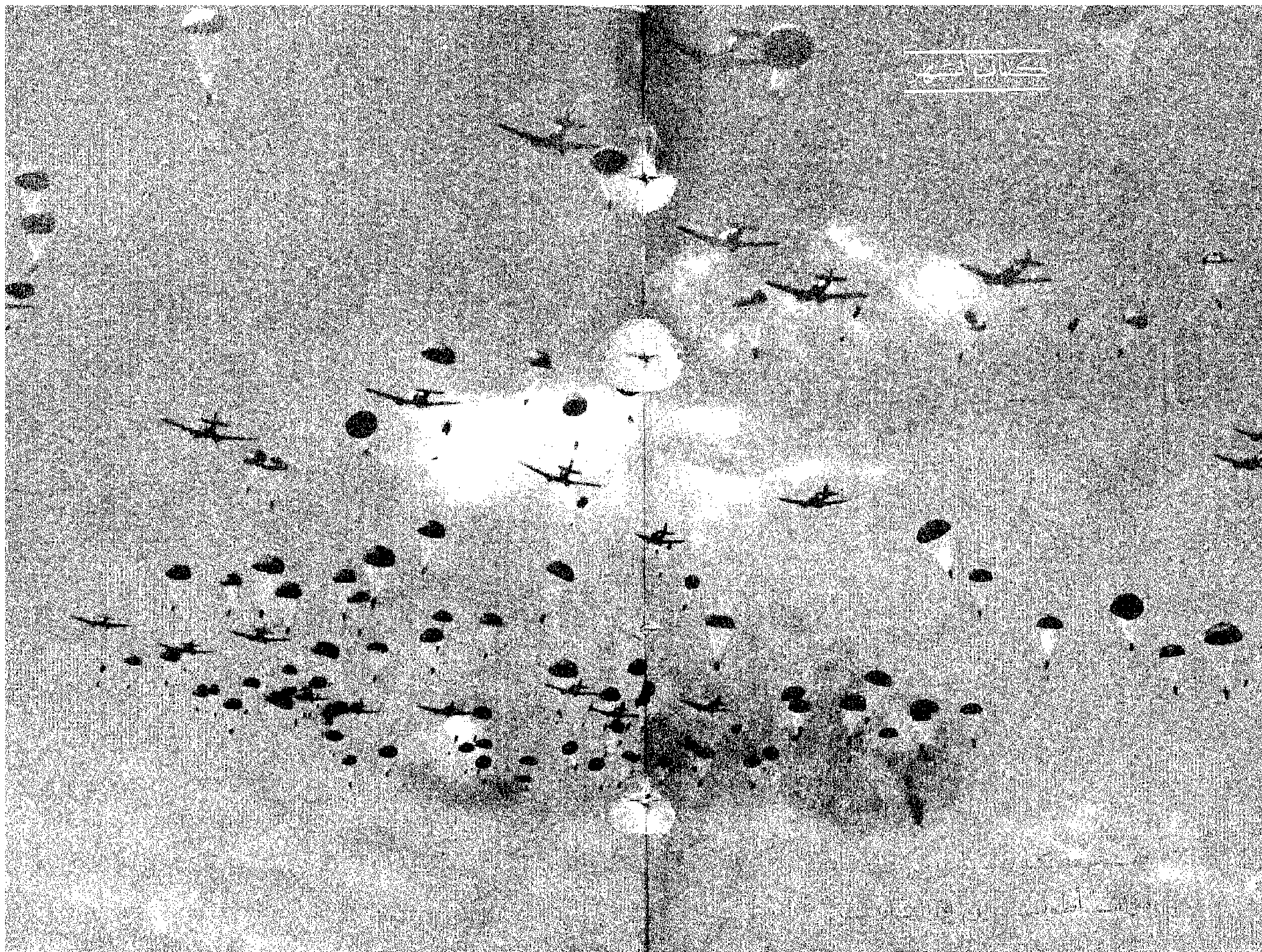
وختم كارلو حديثه قائلا ان شعب اليانومامو منتشر في قرابة مئة قرية، هنا في منطقة روررايما وفي جنوب فنزويلا، وان نصف هذه القرى فقط تعرض حتى اليوم لغزو الاجانب. لكن الطريق العام الجديد سيغير هذه الحال نهائياً.

في صباح اليوم التالي هبطت طائرة تنقل جمهوراً من المرسلين الايطاليين يقومون برحلة استطلاعية على منشآتهم في امريكا الجنوبية فطرت معهم. وبعد ظهر اليوم نفسه كنت في بوافيستا، عاصمة روررايما، اغازل كأساً من البيرة الباردة.

وجلس قربي رجلان، سمعت احدهما يتذمر من شعب الهنود الذين يربضون على سطح ارض زاخرة بالمعادن وقادرة على ان تجعل من البرازيلبلداً غنياً،واردف:"لو كان الحكم في يدي لقطعتهم عن بكرة ابيهم".

في تلك اللحظة بدا عالم اصدقائي الهنود بعيداً عني مسافة أجيال...

■ **اليكس شوماتوف**





في شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٤٤، بدا كأن الحرب في اوروبا أوشكت على النهاية. فقد اندفعت القوات البريطانية والامريكية عبر فرنسا وبلجيكا، وأخذت المواقع الدفاعية الالمانية تتهاوى في كل مكان. وأحس قادة الحلفاء بأن دفعة جريئة واحدة قد تكفي لفتح الطريق الى برلين وانهاء القتال.

وبهذا المقدار من التفاؤل المفرط، بدأت عملية "ماركت - غاردن"، وهي هجمة هائلة محمولة جوا كان هدفها الرئيسي جسراً على المشارف السفلى لنهر الراين، يقع في مدينة آرنهيم الهولندية. ومع أن المعركة التي أسفرت عنها هذه الهجمة غير معروفة جيدا ولا مشهورة، الا انها كانت أفدح هزيمة لحقت بالحلفاء اذ أصيبوا فيها بخسائر تفوق كثيرا ما تحملوه في عملية غزو النورماندي.

وهذه الرواية التالية التي تصف ما حفلت به هذه المعركة من تضحيات وبطولات رأت "المختار" نشرها في جزءين هنا اوّلهما.

المعركة الكبرى

على بعد كيلومترات قليلة من قلب مدينة بروكسل، كان الفيلد مارشال برنارد لو مونتغومري قابعا في احدى خيام معسكره المتقشف الذي يضم مركز قيادته وسط حدائق القصر الملكي البلجيكي. وكان مونتغومري ينتظر بصبر نافد رداً على رسالته الشفرية السرية التي بعث بها "ليقرأها ايزنهاور وحده فقط".

كانت الجيوش البريطانية تحتل بروكسل وتكاد تدخل ميناء أنتويرب، وبذلك بلغت الحرب نقطة تحول حاسمة. وكان مونتغومري مقتنعا بأن الالمان يترنحون على وشك الانهيار، فأرسل في ٤ سبتمبر (ايلول) ١٩٤٤

الغنيمة: معبر آرنهيم، اقصى المعابر شمالا بين جميع معابر الانهار التي كان الحلفاء يأملون في الاستيلاء عليها بعملية ماركت - غاردن.

رسالته المؤلفة من تسع فقرات، يعبر فيها عن اقتناعه بأن اللحظة حانت للقيام "بهجمة قوية كبيرة" يستطيع بها لا أن يبلغ منطقة الروهر الصناعية الالمانية فحسب، بل أن يندفع حتى يبلغ برلين نفسها.

وفي بلدة غرانفيل القائمة على الجانب الغربي من شبه جزيرة شيربور في فرنسا، كان القائد الاعلى لقوات الحلفاء، الجنرال دوايت د. ايزنهاور، في الفيلا التي اتخذها مقرا له، يقرأ في غرفة نومه رسالة مونتغومري وهو يكاد لا يصدق عينيه من الغضب. فقد سبق أن كرر عليه مونتغومري ثلاث مرات، وبالحاح يستفز الحليم، خططاً مشابهة عن هجمات فردية مماثلة. وكان ايزنهاور ملتزما خطة شاملة تقضي بالتقدم على جبهة عريضة. وأوضح ذلك لمونتغومري غير مرة، وظن انه سوّى هذا الخلاف الاستراتيجي نهائيا. ولكن ها هو مونتغومري الان لا يعيد الدفاع عن نظريته السابقة فحسب، بل يقترح ايضا ان يندفع بقواته على طول المسافة الى برلين نفسها.

وكان ايزنهاور في العادة رجلا هادئا بشوشا. لكنه لم يتمالك نفسه هذه المرة، فانفجر صارخا في هيئة أركان حربه: "ليس هناك شخص سوى مونتغومري يصدق أن هذا الامر ممكن التحقيق".

غير ان مونتغومري لم يكن وحده تماما في هذا الرأي. فقد كانت حمّى النجاح تتملك قادة المعارك على طول الجبهة. وبعد الاكتساح المذهل عبر فرنسا وبلجيكا وأدلة الهزيمة التي حاقت بالالمان في

جميع المواقع، أصبح الرجال موقنين من أن لا شيء يقوى على وقف موجة النصر عن الاستمرار واختراق خط سيغفريد الى قلب المانيا.

لكن المشكلة الرئيسية التي انطوى عليها هذا التقدم كانت النقص في الموانىء البحرية. لقد كانت الامدادات والمؤن أكثر من كافية، لكنها كانت مخزونة اما في النورماندي وإما في الميناء الوحيد الذي يعمل - ميناء شيربور - والذي يقع على مسافة ٧٢٥ كيلومترا خلف الخطوط الامامية. وكان ارسال الامدادات من هذا الميناء البعيد الى أربعة جيوش كاملة تواصل زحفها أمرا شبه مستحيل. وقال ايزنهاور: "ان الكلام عن الزحف الى برلين بجيش يستمد معظم مؤنه عبر الساحل لأمر خرافي حقاً!".

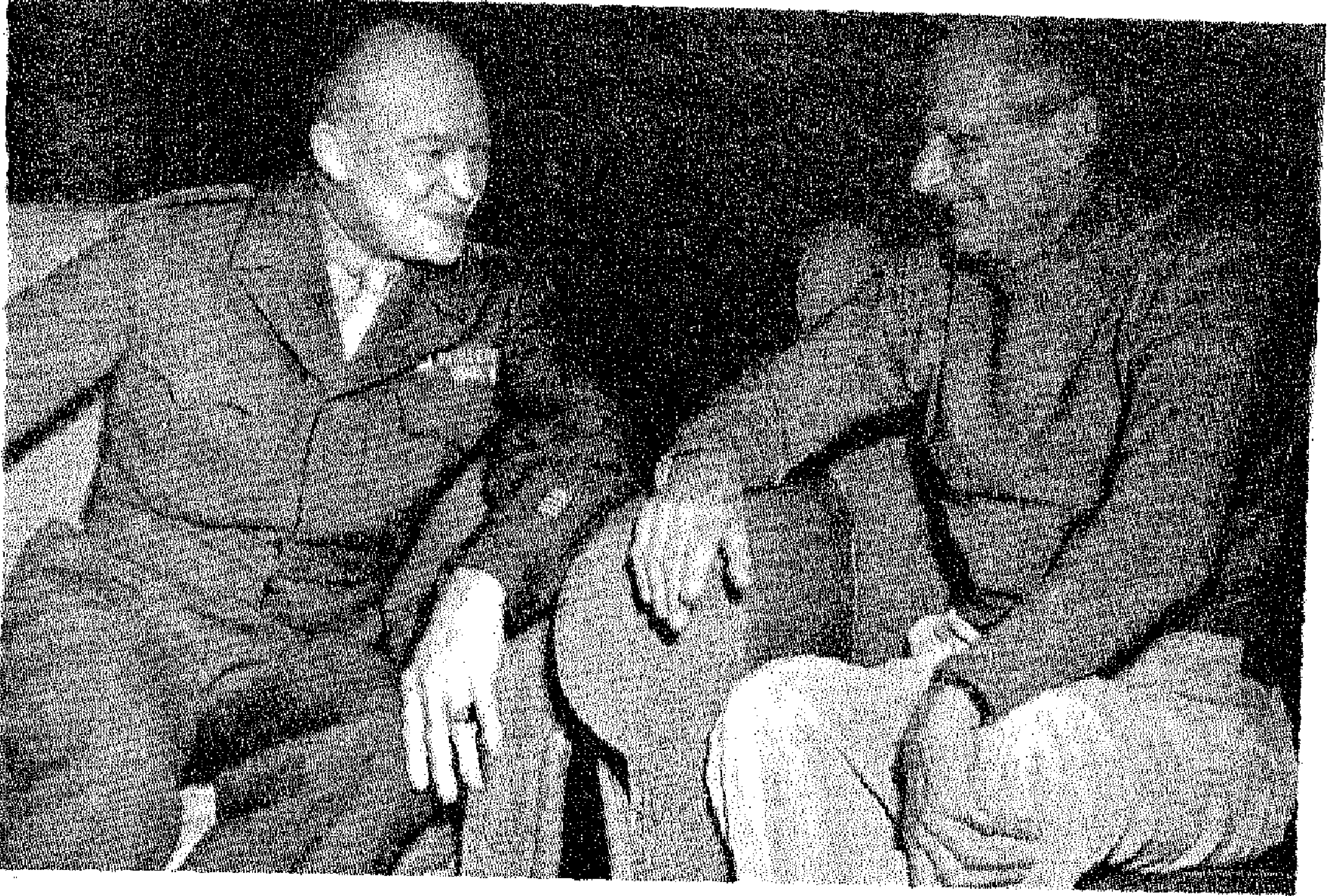
وعلى رغم ذلك، فقد تملك ايزنهاور قلق عميق إزاء الفجوة المتعاظمة بينه وبين أشهر قادة بريطانيا وأكثرهم تمتعا بالحب والتقدير. فقرر ان يلتقي مونتغومري خلال الايام القليلة التالية، وحدد يوم الاحد ١٠ سبتمبر (ايلول) موعدا لذلك.

كان القلق والتصميم يتملكان مونتغومري وهو واقف في مطار بروكسل يراقب طائرة ايزنهاور وهي تهبط. وكان ايزنهاور قد أصيب حديثا بالتواء في ركبته، فلم يتمكن من مغادرة الطائرة، بل عقد المؤتمر داخلها. ولم يلبث مونتغومري أن أخذ يندد بسياسة الجبهة العريضة التي يتبعها القائد الاعلى، محتجا بأن هجوم قوات الجنرال باتون الامريكي نحو منطقة السار يتمتع بتأييد يتيح له التقدم على حساب قواته هو، أي مونتغومري. واذا "استمرت هاتان الهجمتان المرتجّتان غير المتناسقتين"، وظلت الامدادات مقسمة بينه وبين باتون، "فان أيا من الاثنين لا يمكن أن ينجح".

وأضاف مونتغومري انه من الضروري أن يختار ايزنهاور بينه وبين باتون.

كان مونتغومري عنيفا وخارجا على الانضباط في كلامه الى حد جعل ايزنهاور ينحني في مقعده فجأة ليمد يده ويلمس بها ركبة مونتغومري قائلا: "اهدأ يا مونتي! لا يجوز أن تكلمني بهذه اللهجة. أنا رئيسك!" وللحال تلاشى غضب مونتغومري وقال بهدوء: "آسف يا آيك".

الا ان مونتغومري استمر بالاسلوب نفسه من العناد والتصميم، ولكن بمرارة أقل، يجادل في سبيل خطته للقيام "بهجمة فردية". وأنصت ايزنهاور الى حججه بانتباه وتعاطف، من دون أن يبدّل رأيه حول ضرورة استمرار خطته للتقدم على طول جبهة عريضة. وشرح لمونتغومري السبب بوضوح. وتذكر ايزنهاور لاحقا انه قال لمونتغومري: "ان ما تقترحه هو الآتي: اذا أعطيتك جميع الامدادات التي تريدها، فانك ستتمكن من الاندفاع رأسا الى برلين. أنت مجنون يا مونتي. اذا حاولت تسيير طابور طويل كهذا في هجمة واحدة فانك ستضطر الى التخلي عن الفيلق بعد الفيلق كي تحتل مواقع على جانبي خط تقدمك لتحمي جناحيك. انك لا تستطيع أن تفعل ذلك يا مونتي".



نشأ بين ايزنهاور ومونتغومري خلاف مرير حول استراتيجية الحرب. وكان مونتغومري يعتقد ان القائد الاعلى متردد وغير حاسم، بينما كان ايزنهاور يرى ان الفيلد مارشال البريطاني، صاحب الشعبية الواسعة، رجل شديد الاعتداد بذاته.

وكان رفض ايزنهاور حازما، وأكد انه لا بد من الاستيلاء على ميناء أنتويرب وفتحه أولا قبل أن يمكن التفكير في توجيه أي هجوم كبير الى داخل المانيا. وهنا لعب مونتغومري ورقته الاخيرة الحاسمة، فقال ان آخر التطورات - وهي ضرب مدينة لندن بصواريخ "ف - ٢" من قواعد في هولندا - تحتم التقدم فورا في هولندا، وانه (مونتغومري) يعرف بالضبط كيف ينبغي ان يبدأ هذا التقدم. وكانت خطته لذلك صيغة موسعة ضخمة من خطة سابقة كانت تسمى "عملية كوميت"، ويقتضي تنفيذها فيلقاً ونصف فيلق. وكانت خطة "عملية كوميت" تلك قد ألغيت.

واقترح مونتغومري أن يستخدم معظم أفراد الجيش الاول المحمول جواً للحلفاء، وهو جيش كان شكّل حديثا بقيادة الليفتنانت جنرال لويس هايد بريرتون. وكان رأي مونتي ان يتسخدم هذا الجيش لتوجيه هجوم مفاجيء مكثف صاعق، تستولي فيه قواته المحمولة جواً على سلسلة متعاقبة من معابر الانهار في هولندا، في أماكن متقدمة على خط اتجاه قواته، بحيث يكون هدفها الرئيسي المعبر القائم على المجرى الادنى لنهر الراين عند مدينة آرنهيم. وغرض هذا الهجوم المفاجيء فتح ممر نحو الشمال، تنطلق عليه دبابات الجيش الثاني البريطاني الذي يقوده الجنرال مايلز دمبسي، فتندفع مسرعة عبر المعابر التي تم الاستيلاء

عليها حتى تبلغ مدينة آرنهيم وتعبر عندها نهر الراين. وكان مونتغومري يأمل، بعدما يتم ذلك، أن يستدير نحو الشرق فيلتف حول خط سيغفريد (خط الدفاع الالماني) ويندفع مقتحما منطقة الروهر الصناعية الالمانية. وتصور أنه بمجرد عبوره الراين، يصبح متعذرا على القائد الاعلى ان يوقفه عن التقدم.

استهوى هذا العرض ايزنهاور وبدا انه تأثر به. فقد كانت الخطة جريئة ولا تصدر الا عن مخيلة قوية وذكية، وهي تحقق بالضبط نوع الهجوم المكثف الذي كان هو نفسه يبحث عن موضع لاجرائه كي يشغل فيالقه المحمولة جوا بعدما طال بها المقام من دون عمل. غير أن القائد الاعلى وجد نفسه الان في مأزق بين المطرقة والسندان: فموافقته على هذا الهجوم تعني ضرورة تأجيل فتح ميناء أنتويرب وتحويل الامدادات عن جيش الجنرال باتون. وعدم الموافقة يعني أن الفرصة ستفوته لاعادة بعث الحيوية في تقدم جيوشه السريع، وربما لدفع قواته الى مطاردة العدو عبر نهر الراين ايضا. ووجد ايزنهاور نفسه أخيرا يوافق على خطة مونتغومري الجريئة.

لكن القائد الاعلى شدد بوضوح على أن الهجوم يجب أن يكون "محدودا". وأكد لمونتغومري أنه يعتبر هذه العملية المشتركة بين القوات المحمولة جوا والقوات البرية "مجرد امتداد لحركة التقدم العام الى الراين والروهر". وحين استعاد ايزنهاور الواقعة لاحقا، تذكر انه قال لمونتغومري: "هذا ما سأفعله يا مونتي: سأعطيك كل ما تطلبه. ولكن دعنا نعبر نهر الراين أولا قبل أن نناقش أي أمر آخر".

وبعد رحيل ايزنهاور، شرح مونتغومري تفاصيل العملية على خريطة لليفتنانت جنرال فريدريك براونينغ، نائب قائد الجيش الاول المحمول جواً للحلفاء. ورأى هذا ان القوات المحمولة جواً مطلوب منها الاستيلاء على سلسلة من المعابر، فيها خمسة رئيسية. ومن هذه ثلاثة تمتد عبر أنهار عريضة هي نهر ماس ونهر فال ونهر الراين الادنى، وذلك كله على مسافة ١٠٣ كيلومترات من الحدود البلجيكية - الهولندية الى مدينة آرنهيم. وفضلا عن ذلك، فان القوات مكلفة المحافظة على هذا الممر مفتوحا، كي تمر عليه المدرعات البريطانية. وهو، في معظم مواضعه، طريق واحد متجه شمالا. وكانت أخطار العملية واضحة. الا ان ذلك كان بالضبط نوع الهجوم المفاجىء الذي دربت عليه القوات المحمولة جواً. ولكن براونينغ ظل يشعر بالقلق. وأشار الى أقصى معبر في الشمال - وهو ذاك الذي يمتد عبر نهر الراين الادنى عند مدينة آرنهيم - وسأل: "ما هي المدة التي ستستغرقها المدرعات حتى تصل الينا؟".

فرد مونتغومري بحماسة: "يومين".

وقال براونينغ وهو يواصل فحص الخريطة بامعان: "اننا نستطيع الاحتفاظ بالممر مفتوحا مدة أربعة أيام". وأضاف: "لكني، يا سيدي، أظن اننا قد نكون ذاهبين أبعد من اللازم بمقدار معبر واحد".

عملية حاسمة

كانت الحاجة تدعو الى تطوير الخطة الاساسية بأسرع ما يمكن. (وقد اطلق على العملية بعد ذلك اسم رمزي هو "ماركت - غاردن": "ماركت" اشارة الى العملية التي ستقوم بها القوات المحمولة جواً، و"غاردن" اشارة الى هجوم المدرعات). وعلى رغم أن المقاومة التي كانت تلقاها قوات مونتغومري من الالمان في ذلك الوقت ازدادت صلابة، الا انه كان مقتنعا بأن القوات الالمانية في هولندا - وراء القشرة الصلبة لخطوطهم الامامية - لا تملك الا القليل من وسائل القوة. وكانت تقارير مخابرات الحلفاء تؤيد تقديراته. وعلى رغم ذلك، فقد أصر مونتغومري على شنّ الهجوم خلال أيام قلائل والا فاته الوقت. وبكل ثقة، حدد يوم الاحد ١٧ سبتمبر (ايلول) موعدا لتنفيذ العملية.

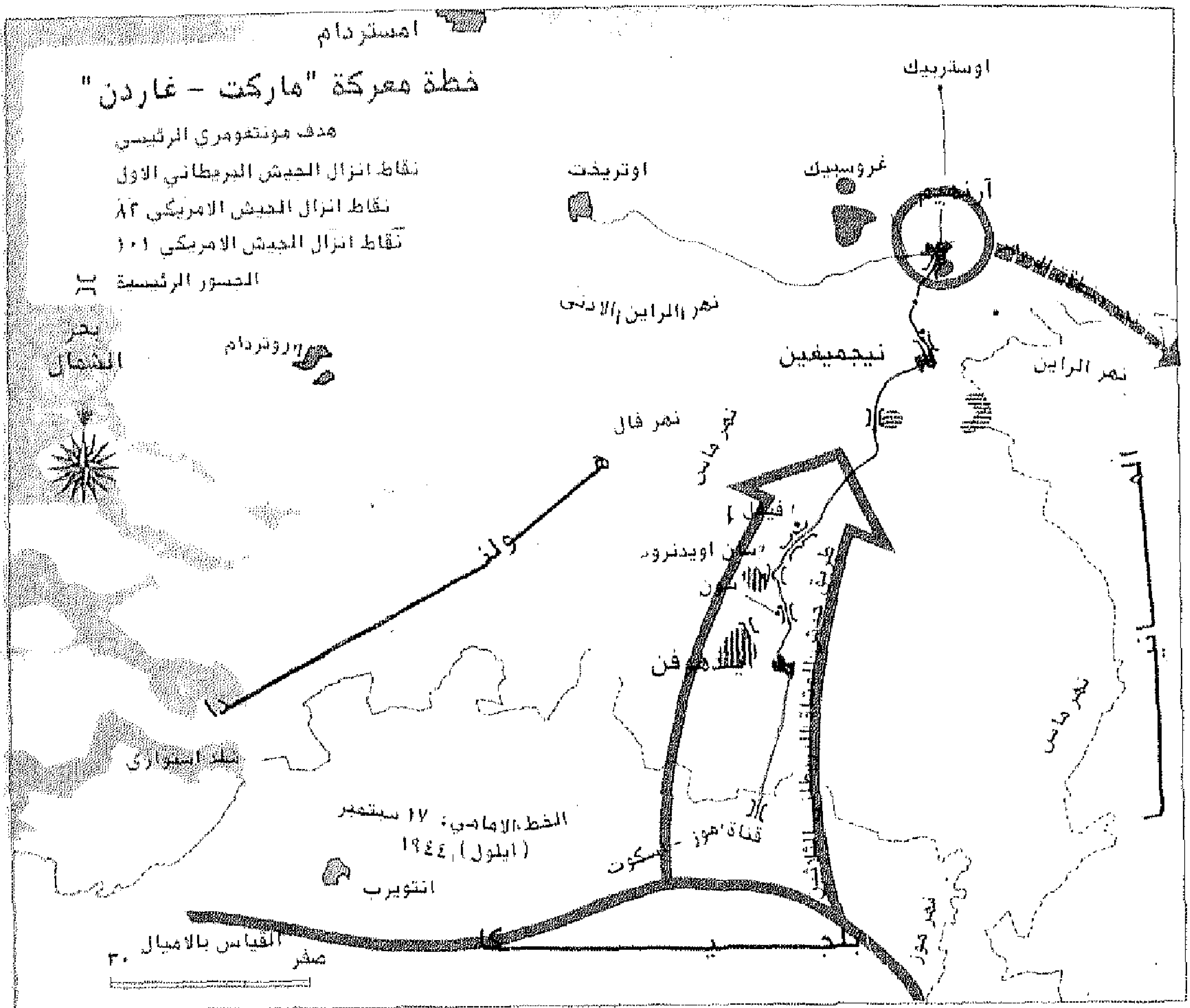
وللحال حمل الجنرال براونينغ الخطوط العريضة لخطة مونتغومري وطار بها الى انكلترا وفور هبوط طائرته، أخطر الجنرال بريرتون. ولم تكد تنقضي بضع ساعات على صدور قرار ايزنهاور حتى كان الجنرال بريرتون يعطي الايضاحات والتوجيهات اللازمة لسبعة وعشرين من كبار الضباط عن أكبر عملية عسكرية محمولة جواً نسجها خيال انسان.

وكانت خطة بريرتون لغزو هولندا جواً تقضي بأن ينزل فوقها ما يقرب من ٣٥ ألف جندي، أي ما يعادل ضعف عدد جنود المظلات والمشاة المحمولين بطائرات الانزلاق (الشراعية) الذين استخدموا في غزو النورماندي، وذلك بكامل معداتهم وعرباتهم ومدفعيتهم. ولكي يمكن حمل هذه القوة الضخمة الى أهدافها على بعد ٥٠٠ كيلومتر، كان عليه أن يستخدم كل ما وُضع في إمرته من الطائرات الشراعية، وهو أسطول هائل يضم أكثر من ٢٥٠٠ طائرة.

وكانت مهمة الطائرات الشراعية نقل ثلث القوة المؤلفة من ٣٥ الف جندي. أما الباقون فيثبون فوق أهدافهم بالمظلات. وسيحتاج الامر الى حشود من أسراب الطائرات المقاتلة من جميع أنحاء انكلترا، يبلغ عددها ١٥٠٠ طائرة، لحراسة اسطول النقل الجوي. وتبين أن مجموع الطائرات من جميع الانواع التي ستشترك في العملية يقارب الخمسة آلاف. ولتجنب الاضطراب والارتباك بسبب الظلام، قرر الجنرال أن يجري الهجوم في ضوء النهار، وهو قرار لم يسبق له مثيل.

وعيّن بريرتون الجنرال براونينغ لقيادة العملية العملاقة. وكان هذا، في الوقت نفسه، قائدا للفيلق البريطاني الاول المحمول جواً، ومن رواد انشاء القوات المحمولة جواً وأكبر المدافعين عنها. وهو كان متفائلا، ويعتقد ان تلك العملية تحمل مفتاح نهاية الحرب.

ثم اتخذ بريرتون أخطر القرارات جميعا: فقد اضطر الى اخضاع الخطة لامكانات النقل الجوي المتاحة التي فرضت عليه ان يخطط لنقل قواته على دفعات، بحيث تطير الفيالق الثلاثة والنصف الى أهدافها خلال ثلاثة أيام. وكانت الاخطار التي تحف بذلك



كبيرة: فالامدادات الالمانية قد تصل الى منطقة عملية ماركت - غاردن بأسرع مما ينتظره أحد، كما قد تتأخر دفعتا الانزال الجوي الثانية والثالثة بسبب سوء الطقس. وكان رأي بريرتون في هذا كله أن مثل هذه المجازفات أمر لا بد من قبوله.

وكان اثنان من الفيالق المشتركة في الهجوم أمريكيين، يقود أولهما الميجور جنرال ماكسويل تيلور الذي كان عليه أن ينطلق قبل الهجوم المدرع مباشرة، فيعبر الحدود البلجيكية - الهولندية بفيلقه الرقم ١٠١ المحمول جواً ليستولي على معابر القنوات والانهار على مسافة ٢٥ كيلومترا تمتد بين مدينة ايندهوفن ومدينة فيغيل. والى الشمال من ذلك كان على الفيلق ٨٢ الامريكي، بقيادة البريغادير جنرال جيمس م. غافين، ان يتولى أمر المنطقة الواقعة بين مدينة غريف ومدينة نيجميغين.

وكان أهم هدف على الاطلاق هو المعبر الضخم المبني بالخرسانة المسلحة والصلب والذي يصل طرفي الطريق الرئيسي الكبير عبر نهر الراين الادنى عند مدينة آرنهيم. وقد أسندت مهمة الاستيلاء عليه الى قوة من "الشياطين الحمر" البريطانيين

ومن البولونيين، تضم الفيلق البريطاني الاول المحمول جواً بقيادة الميجور جنرال روبرت أوركوهارت ولواء المظلات البولوني الاول بقيادة الميجور جنرال ستانيسلاف سوسابوفسكي. وقد وقع اختيار براونينغ على أوركوهارت - الاسكوتلندي الضخم الذي ترتفع قامته ١٨٣ سنتيمترا ويبلغ وزنه ٩١ كيلوغراما - لانه كان لا يزال "مشتعلا بنار القتال" بعدما خدم بامتياز في شمال أفريقيا وصقلية وايطاليا. وكانت آرنهيم هي الجائزة الكبرى. ولولا الراين الذي يشق هذه المدينة، فان ضربة مونتغومري الجريئة التي تستهدف تحرير هولندا والالتفاف حول خط سيغفريد والوثوب الى قلب المانيا ستخفق.

وكانت مهمة أوركوهارت تنطوي على مشكلة واحدة تثير القلق على نحو خاص. فالارض الواقعة حول المعبر المذكور كان بعضها خلاء مشبعا بالمياه والبعض الآخر مبنيا ومأهولا، فضلا عن أنها محمية بالاسلحة المضادة للطائرات. واضطر أوركوهارت مرغما على ان يحدد لقواته مناطق انزال تقع في بعض المراعي الفسيحة الى الغرب والشمال الغربي من آرنهيم. وكانت مناطق الانزال هذه مثالية من جميع الوجوه باستثناء واحد، وهو انها تبعد عن معبر آرنهيم مسافة تراوح بين تسعة كيلومترات و١٣ كيلومترا.

وحين سمع الجنرال غافين باختيار أوركوهارت لمواقع الانزال أصابته دهشة بالغة جعلته يقول لرئيس عملياته: "يا إلهي! انه لا يمكن ان يعني ذلك حقاً!" لكن غافين، على رغم ذلك، سكت ولم يقل شيئا. وعلق على ذلك في ما بعد بقوله: "لقد افترضت أن البريطانيين، بخبرتهم القتالية الضخمة، يعرفون ما يفعلونه تماما".

كذلك دارت في خلد الجنرال سوسابوفسكي مخاوف كبيرة، لان وصول الجنود الى المعبر "سيحتاج الى مسيرة خمس ساعات، فكيف يمكن تحقيق المفاجأة اذاً؟ ان أي أبله من الالمان سيعرف خططنا على الفور". ولم يلبث سوسابوفسكي أن قال للجنرال براونينغ ان محاولة انجاز هذه المهمة من غير قوات اضافية لا تزيد على مجرد انتحار. فأجابه براونينغ: "ولكن يا عزيزي سوسابوفسكي، ان الشياطين الحمر والبولونيين الشجعان قادرون على عمل أي شيء!".

اغفال الشكوك

لم يكن الجميع على هذه الدرجة من الثقة والاطمئنان. وكان هناك واحد على الاقل من كبار ضباط مونتغومري لديه من الاسباب ما يثير في نفسه القلق. فقد ارتأى الجنرال مايلز دمبسي، قائد الجيش البريطاني الثاني، على نقيض الفيلد مارشال، ألاّ يرتاب في صدق تقارير عدة وردت أخيرا من رجال المقاومة الهولنديين، وهي تشير الى تزايد سريع في حجم القوات الالمانية بين مدينتي ايندهوفن وآرنهيم، وهي المنطقة نفسها التي يعتزم انزال المهاجمين فيها من الجو.

بل كان هناك تقرير هولندي يقول "ان عددا من تشكيلات البانزر

الالمانيـة المدرعـة التـي أصيبـت بخسائر كبيرة أرسلت الى هولندا لاعادة تسليحهـا واصـلاح شأنهـا". وقيل أيضا ان هذه التشكيلات نفسها موجودة في منطقة عملية "ماركت - غاردن". وقد أرسل دمبسي هذه الانباء كلها الى براونينغ في قيادة الجيش البريطانـي الاول المـحمـول جواً. لكن المعلومات كانت تفتقر الى اي مسانـدة او تأييـد مـن جـانـب مونتغومري أو أركان حربه. وقد أدى جو التفاؤل السائد الى اغفال هذا التقرير تماما.

وكان رئيـس مخابـرات الجيـش البريطـانـي الاول المـحمـول جـواً، الميجور بريان أوركوهارت (وهو لا يمت بأي قرابة الى الجنرال الذي يحمل الاسم نفسه) يشعر هو الآخر بقلق شديد ازاء جو التفاؤل السائد في القيادة. وكان هذا الشاب، الذي لا يتجاوز الخامسة والعشرين، هو الوحيد تقريبا الذي نظر الى تقرير الجنـرال دمبسـي بعيـن التصديـق. والحق أن المعلومات لم تكن دقيقة أو محددة، الا انه تلقى هو الآخر أنباء مماثلة تثير القلق من ضباط الاتصال الهولندييـن فـي قـيـادة الجيـش البريطـانـي الاول. وعنـدمـا أضـاف الميجور أوركوهارت معلوماتـه الـى معلومات الجنرال دمبسي، تأكد لديه على نحو معقول، ان هناك عناصر من اثنين على الاقل من فيالق البانزر الالمانية المدرعة موجودة في مكان ما من منطقـة آرنهيـم. وكانـت هـذه الوحدات غير محددة وقوتها غير معروفة. وهو لا يستطيع أن يجزم اذا كان هدف وجودها في المنطقة اعادة تسليحها أو المرور فقط. وعلـى رغم ذلك، فقد كان أوركوهارت - كما ذكر هو لاحقا - "في غاية الانزعاج".

والحق ان الشاب كان "خائفا من عملية ماركت - غاردن، لان موطن الضعف الواضح فيها كان الافتراض أن الالمـان لـن يبـدوا اي مقـاومـة فعّالة". وكان جوهر الخطة، كما رآه هو، "يعتمد على فكرة لا يمكن تصديقها، وهـي انـه مـا ان يـتـم الاستيلاء على المعابر حتى يصبح في امكان الدبابات ان تمضي قدما في هذا الممر الذي يبلغ من الضيق حدا رهيبا لا يتيح أي فرصة للمناورة، ثم تدخـل المانيـا كأنهـا عـروس فـي طريقها الى الكنيسة لعقد قرانها. واني، بكل بساطة، لم أصدق أن الالمـان سيـنـبطـحـون أرضـا ويستسلمون".

وفي عصر ١٢ سبتمبر (ايلول)، طلب الميجور أوركوهارت ان تتولى طائـرات السـلاح الجـوي الملـكـي (البريطاني) عمليات مسح استطلاعي لمنطقة آرنهيم من ارتفاع منخفض. وكان يأمـل فـي أن تـكـون الصـور الفوتوغرافية للدبابات، اذا وُجدت، وسيلته للبرهان عن صحة شكوكه.

وفي ١٥ سبتمبر (ايلول) - أي قبل عملية ماركت - غاردن بأقل من ٤٨ ساعة - حصل الميجور أوركوهارت أخيرا على الصور التي كان ينتظرها، وهي خمس صور أخذت من زوايا مائلة تبين وجـود الدبابـات فـي منطقـة آرنهيم بوضوح لا يترك مجالا للشك.

واندفع أوركوهـارت الـى مكتـب الجنرال براونينغ، ووضع الصور على مكتبه وقال: "أنظر الى هذه الصور".

فتأمل الجنرال الصور بامعان واحدة واحدة، وعلّق، حسبما يتذكر أوركوهارت: "لست أرى أن هذه الدبابات تستحق أي اهتمام". ثم أشار الى الدبابات قائلا: "وهي قد تكون غير صالحة للعمل على أي حال!".

وذهل أوركوهارت وعلّق على ذلك في ما بعد بقوله: "لقد بلغت لهفة الجميع على بدء العملية حداً لم يعد يمكن معه أن يصدّهم عنها شيء".

وفي الوقت نفسه تقريبا، عبر بحر المانش في فرنسا، كان اللفتنانت جنرال وولتر بيدل سميث، رئيس أركان حرب ايزنهاور، ينصت الى رئيس مخابراته البريطاني الميجور جنرال كينيث و. سترونغ وهو يؤكد له أن وجود المدرعات الالمانية في منطقة آرنهيم أمر لا يحتمل أي شك، بل ان رسائل رجال المقاومة الهولنديين حددت هذه الوحدات بأنها فيلقا بانزر "إس - إس" التاسع والعاشر المدرعان. وكان كلا الفيلقين اصيبا بخسائر كبيرة، ولكن من غير المحتمل انهما دمّرا تماما.

وتشاور سميث على الفور مع القائد الاعلى، وقال لايزنهاور: "ان الفيلق البريطاني الاول المحمول جواً، والذي ينتظر انزاله في آرنهيم، لا يمكنه الصمود لفيلقين مدرعين". وأوصى بتقوية عملية ماركت - غاردن.

وبحث ايزنهاور الاختيارات المتاحة أمامه. أولا، هو يستطيع أن يتصرف من فوق في خطة مونتي ويزيد عليها قوات اضافية. لكن ذلك كان يعني تحديا لكفاية مونتغومري القيادية، مما قد يؤدي الى تدهور الموقف الدقيق في دوائر القيادة. وثانيا، هو يستطيع الغاء عملية ماركت - غاردن بأكملها على أساس هذا التقرير الوحيد للمخابرات.

وشرح ايزنهاور الموقف لسميث بالآتي: "أنا لا أستطيع أن أقول لمونتي كيف يتصرف في قواته، كما أنني لا أستطيع الغاء العملية بعد اعطاء مونتي الضوء الاخضر للمضي فيها. واذا كانت الضرورة تدعو لاجراء تعديلات، فلا بد من أن يكون الذي يجري هذه التعديلات هو مونتغومري نفسه".

وسافر بيدل سميث على الفور الى بروكسل، حيث وجد مونتغومري مفعما بالثقة والتفاؤل. فأوضح له مخاوفه واقترح بشدة اعادة النظر في الخطة. لكن مونتغومري "هزأ بالفكرة، وظل يكرر أن كل شيء سيمضي على ما يرام اذا ساعدناه في التغلب على مصاعبه الادارية. ولم يقلقه أمر المدرعات الالمانية". وبذلك انتهى المؤتمر بلا نتيجة. وقال سميث: "لقد حاولت على الاقل أن أوقفه، لكنني لم أحرز أي نجاح، لان مونتغومري - بكل بساطة - طرح جميع اعتراضاتي جانبا دونما اكتراث".

"هولندا، او الجحيم"

كانت الاستعدادات تجري بنشاط لتعبئة جنود المظلات وجنود المشاة التابعين لجيش الحلفاء الاول المحمول جواً، وذلك في ثماني قواعد جوية بريطانية و١٦ قاعدة جوية أمريكية. وخلال الساعات الثماني والاربعين السابقة كان الضباط قد كرروا على رجالهم جميع الايضاحات والتعليمات

اللازمة، مستعينين بالخرائط والصور والنماذج الطوبوغرافية. وكانت الاساطيل الهائلة من حاملات الجنود الطائرة وطائرات السحب والطائرات الشراعية قد فحصت وروجعت وملئت بالوقود وشحنت بجميع المعدات الضرورية، من المدافع الى سيارات الجيب.

وابتداء من مقر القائد الاعلى فما دون، راح كبار الضباط ينتظرون تقارير الارصاد الجوية بقلق، اذ كانت العملية تحتاج الى ثلاثة أيام من الطقس الحسن على الاقل. وفي الساعات المبكرة من مساء ١٦ سبتمبر (ايلول) أعلن خبراء الارصاد الجوية تقريرهم، فقالوا انه، باستثناء بعض الضباب في الصباح الباكر، فان الطقس سيكون جيدا خلال الايام الثلاثة التالية. وفي مقر قيادة جيش الحلفاء الاول المحمول جواً، اتخذ الجنرال بريرتون قراره بسرعة: "تأكيد عملية ماركت - غاردن ليوم الاحد ١٧. أفيدوا بوصول الامر".

ونقل النبأ الى الرجال المحتشدين في حظائر الطائرات ومدن الخيام والاكواخ الموقتة المصنوعة من صفائح الصلب. وفي قاعة طعام الرقباء في مقر وحدة الاشارة التابعة للفيلق البريطاني الاول المحمول جواً، قرب بلدة غرانتام البريطانية، كتب أحدهم بالطبشور على مرآة كبيرة فوق المدفأة: "أمامنا ١٤ ساعة... ولا إلغاء للعملية". وكان الرقم يعاد تصحيحه كلما مرت ساعة. ولم يعد أمام الرجال سوى الانتظار.

وفي قاعدة مانستون في مقاطعة كنت البريطانية، كان الرقيب جورج بيليس، من فوج الطيارين الشراعيين، يتطلع الى شيء من الترفيه. وكان قد سمع ان الهولنديين يحبون الرقص، فحرص على أن يحزم في متاعه حذاء الرقص الخاص به.

وكان هناك رجل آخر يحمل معه هدايا اشتراها في لندن قبل أيام. فعندما اجتاح الالمان هولندا لم ينتظر اللفتنانت كوماندر أرنولدوس فولترز، الضابط في الاسطول الهولندي الذي يبلغ اثنين وثلاثين عاما، وانما سارع بالهرب الى انكلترا في كاسحة ألغام. وقبل أيام قلائل، طلب من فولترز أن يذهب الى هولندا كعضو في فريق الحكومة العسكرية والشؤون المدنية الملحق بقيادة الجنرال أوركوهارت. وقال فولترز: "كنت أتوقع أن أصل يوم الاحد الى هولندا، وأن أكون يوم الثلثاء مع زوجتي وطفلتي في بلدة هيلفرسوم". وكان قد اشترى ساعة لزوجته ماريا، واشترى دمية بهيئة دب، ارتفاعه ٦٠ سنتيمترا، لطفلته التي رآها للمرة الاخيرة وهي رضيعة قبل سنوات أربع. وكان يأمل في ألا يلقى اعتراضا على اصطحابه هذا الدب في الطائرة الشراعية.

أما اللفتنانت كولونيل جون فروست (٣١ عاما) المكلف قيادة احدى الكتائب التي اوكلت اليها مهمة الاستيلاء على معبر آرنهيم، فقد وضع بوقه النحاسي الذي كان يستخدمه في صيد الثعالب مع بقية عتاده الحربي. وكان هذا البوق هدية من أعضاء فريق الصيد الملكي العراقي الذي كان فروست رئيسا له خلال ١٩٣٩ - ١٩٤٠. وكان فروست

استخدم هذا البوق في التدريبات لجمع رجاله، واعتزم أن يفعل الامر نفسه في هذه العملية. وقد نام فروست نوما عميقا يوم ١٦ سبتمبر (أيلول). ومع أنه لم يكن ساذجا الى حد الاعتقاد ان معركة آرنهيم ستكون أمرا هينا، الا انه طلب من جندي مراسلته "ويكس" أن يضع بندقية الصيد وذخيرتها ومضارب الغولف وسترة العشاء في عربة القيادة التي ستلحق بهم.

وأصبحت قاعة طعام الرقباء خالية. وظهرت على المرآة التي تعلو المدفأة عبارة أخيرة كتبت قبل أن ينشغل الرجال بالرحيل: "أمامنا ساعتان... ولا إلغاء للعملية".

عبر المانش

كان أزيز التشكيلات الضخمة الطائرة يصم الآذان. وحول قواعد الطائرات الشراعية البريطانية في مقاطعتي اكسفوردشير وغلوسترشير، جمحت الماشية والخيل رعباً في الحقول، وراح الناس في كل مكان يحملقون مذهولين في منظر لم يشهد أحد منهم مثيلا له من قبل، اذ ان أضخم قوة محمولة جواً في التاريخ كانت قد أقلعت نحو أهدافها.

بدأت العملية في الساعات التي تسبق الفجر واستمرت طوال الصباح. واستهل الامر بأن راحت ١٤٠٠ من قاذفات قنابل الحلفاء تدك مواقع المدفعية المضادة للطائرات والتجمعات العسكرية الالمانية في منطقة عملية ماركت-غاردن. وفي الساعة ٩،٤٥، ولمدة ساعتين وربع ساعة، ازدحمت السماء بـ٢٠٢٣ طائرة من حاملات الجنود والطائرات الشراعية وطائرات الجر. وكانت طائرات "هاميلكار"، التي تحمل كل منها ثمانية أطنان من المعدات، تتمايل وتتأرجح وسط جحافل الطائرات الشراعية الاصغر حجماً، من طراز "هورسا" و"واكو". وفوق هذه الحشود وتحتها وعلى جانبيها كانت تطير أسراب المقاتلات والقاذفات المقاتلة. وفي الساعة ١١،٥٥ كانت القوة بأكملها طائرة في الجو، وهي تضم أكثر من ٢٠ ألف جندي، و٥١١ سيارة و٣٣٠ من قطع المدفعية و٥٩٠ طناً من المعدات.

ولم تلبث الحوادث السيئة أن بدأت تقع على الفور تقريباً. فمع وصول آخر المواكب الجوية الى الساحل الانكليزي، كانت ٣٠ من الطائرات الشراعية قد سقطت لأسباب مختلفة، منها تعطل محركات طائرات الجر وانقطاع حبال الجر الجديدة وكثافة السحب في بعض المواضع. ومن سوء الحظ أن ٢٣ من هذه الطائرات الثلاثين كانت من قوة الجنرال أوركوهارت التي يعتزم انزالها فوق آرنهيم.

ثم سقطت ثماني طائرات شراعية أخرى فوق بحر المانش. ولئن كانت وحدات الانقاذ الجوية - البحرية قد نجحت، بمهارة نادرة، في انقاذ معظم طواقم هذه الطائرات الثماني، غير ان ذلك كان يعني مزيداً من التآكل في قوات الجنرال أوركوهارت، لأن خمساً من هذه الطائرات الثماني كانت وجهتها آرنهيم.

وعندما ظهر الساحل الهولندي في الافق، بدأ جنود الفيلق ٨٢ الامريكي

والجنود البريطانيون في التشكيلات الشمالية يلاحظون بوادر لا تبشر بالخير، اذ ظهرت في الجو نفثات رمادية وسوداء من دخان البارود تفضح نار المدفعية الالمانية المضادة للطائرات. وبدأت مقاتلات الحراسة تنفصل عن التشكيلات وتشتبك مع مواقع المدفعية المضادة للطائرات. وكان الرجال في الطائرات يسمعون أصوات الشظايا التي استنفدت قوتها وهي تحتك بالجوانب المعدنية للطائرات التي تنقلهم.

وعمل الجنود المخضرمون على اخفاء مخاوفهم بطرق متباينة. فعندما رأى رقيب الاركان بول نونان "كرات الغولف المألوفة من رصاص المتابعة الاحمر تصعد نحونا"، تظاهر بالنعاس. أما الرقيب بيل تاكر، الذي سبق ان تعرض لنار المدفعية المضادة للطائرات فوق النورماندي، فقد تملكه خوف بشع من ان يصاب من أسفل. وأحس بأنه أقل عرياً حين جلس فوق كومة من ثلاث سترات مبطنة مما يستخدم في سلاح الطيران.

وكان الامر الذي يصدق ان الالمان لم يدركوا كنه ما يحدث، على رغم القذف الواسع والمركز بالقنابل في الليلة السابقة، والهجمات الجوية المتواصلة على آرنهيم ونيجميغين وايندهوفن. وكان الفيلد مارشال فالتر مودل في مقره في بلدة أوستربيك ينتظر تشكيلات قاذفات القنابل منذ حين. وبدا الرأي في مقر القيادة اجماعياً: ان أسراب القلاع الطائرة هذه عائدة من عمليات القذف الليلي بالقنابل في ألمانيا. وهناك، كالعادة، أسراب اخرى من هذه القلاع تتجه شرقاً لمواصلة القاء القنابل بلا هوادة فوق ألمانيا. أما القنابل التي تسقط محلياً فهي أمر شائع، اذ ان من عادة الطائرات ان تلقي بما يبقى لديها من القنابل غير المستعملة فوق منطقة الروهر المتاخمة لهولندا. ومن الطبيعي ان يسقط بعضها في هولندا نفسها.

وفي الساعة ١١،٣٠ صباحاً، ارتفعت في سماء آرنهيم أعمدة من الدخان الاسود عندما اندلعت النار في جميع أنحاء المدينة في أعقاب غارة قذف مشبعة بالقنابل استمرت طوال ثلاث ساعات. وفي مدن فولفهيزي واوستربيك ونيجميغين وايندهوفن، سحقت المباني وامتلأت الشوارع بحفر القنابل وأخاديدها وتناثر في أرجائها الحطام وشظايا الزجاج، وأخذ عدد الضحايا يتزايد كل دقيقة. وكان الهولنديون يتكومون في الكنائس والاقبية والمخابىء، أو يخرجون بشجاعة نادرة ليتجولوا بدراجاتهم في الشوارع أو ليتطلعوا من فوق سطوح المنازل. أما حالهم النفسية فكانت تتأرجح بين الخوف ونشوة الانتصار.

وبالقرب من قرية زيلست الصغيرة، على بعد ثمانية كيلومترات غرب مدينة ايندهوفن، كان جيراردوس دي ويت قد احتمى في أحد حقول الشمندر السكري (البنجر) خلال القذف بالقنابل. وما ان انتهى القذف حتى اندفع ملهوفاً للعودة الى زوجته وأطفالهما الاحد عشر. ولاحظ، وهو يقترب من زيلست، أن القنابل التي كانت على الارجح تستهدف المطار القائم خارج مدينة ايندهوفن أخطأت

هذا المطار وسقطت، بدلا من ذلك، على القرية نفسها مباشرة. ولم يستطع دي ويت أن يرى شيئاً سوى الخرائب والاطلال. وكانت النار مشتعلة في منازل عدة، بينما انهارت منازل أخرى وبدا الناس واقفين بلا حول وقد تملكهم الذهول والبكاء.

ثم رأى زوجته أدريانا تجري نحوه قائلة: "تعال بسرعة، لقد أصيب ابننا تايني". ويقول دي ويت: "عندما وصلت الى الصبي، رأيت جانبه الايمن بأكمله مفتوحاً وساقه اليمنى على وشك الانفصال عن جسمه، وكانت ذراعه اليمنى مفقودة. وسألني عن ذراعه، فواسيته بقولي انه مثني تحته". وحمل دي ويت ابنه وسار به نحو نقطة للصليب الاحمر. لكن الفتى ابن الاربعة عشر عاماً مات بين ذراعيه في الطريق.

المجابهات الاولى

بدا للجنرال ماكسويل تيلور، قائد الفيلق ١٠١ الامريكي، ان انزال فيلقه كان "ناجحاً على نحو غير عادي، كأنه مناورة تدريبية". وكان أركان حربه قد توقعوا في الخطة الاصلية نسبة عالية من الاصابات تكاد تبلغ ٣٠ في المئة. لكن عدد جنوده الذين ركبوا الطائرات في أنكلترا كان ٦٦٩٥، قفز منهم ٦٦٦٩ واحداً فوق الموقع. وعلى رغم كثافة المدفعية المضادة للطائرات، فان شجاعة طياري القلاع الطائرة والمقاتلات أتاحت للفيلق ١٠١ انزالا شبه مثالي. غير أنه من بين ٤٢٤ قلعة طائرة كانت تحمل الفيلق، أصيبت واحدة من كل أربع طائرات، وسقطت منها ١٦ طائرة ومات أفراد أطقمها.

ومن بين أفراد الفيلق ٨٢ الامريكي المحمول جواً، نظر الملازم أول جيمس كويل من الهواء فرأى انه متجه الى الهبوط بمظلته فوق خيمة ضخمة لمستشفى ميدان الماني. وفجأة تدافع جنود العدو، وبدأوا يركضون نحو مدافع مضادة للطائرات من عيار ٢٠ مليمتراً منصوبة حول الموقع. وتحرك أحد الالمان في اتجاه الملازم أول كويل، فأخرج هذا مسدسه (عيار ٤٥) من قرابه وحاول اطلاقه فلم يفلح. وبعدما هبط الى الارض، صوب مسدسه الى الالماني مرة أخرى. ويكمل كويل روايته: "كان الالماني على مسافة مترين، ورأيته يتصرف كأنه لا يلاحظ وجودي مطلقاً. وللحال أدركت أنه يهرب". وهرول الالماني في طريقه، وعندما مر بجانب كويل ألقى ببندقيته وخوذته، فتبين كويل "أنه صبي لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة. ولم أستطع من ناحيتي أن أطلق النار على رجل أعزل. وأدركت، من آخر نظرة تابعت بها الصبي، أنه كان يجري نحو الحدود الالمانية".

ومع ان مقاومة العدو في منطقة غروسبيك وصفت رسمياً بأنها تافهة، الا ان مقداراً لا يستهان به من القذائف المضادة للطائرات ونار الاسلحة الصغيرة كان يصدر من الغابات المحيطة بمواقع الانزال في المنطقة. ولم ينتظر جنود الفيلق ٨٢ الامريكي حتى يتجمعوا، بل راحوا يعملون فرادى وفي جماعات صغيرة. فهاجموا جيوب المقاومة هذه ولم يلبثوا ان أخضعوها وأخذوا جنودها أسرى. وفي

الوقت نفسه كانت الطائرات المقاتلة تنقض حتى رؤوس الشجر مباشرة وتفرق بنار مدافعها الرشاشة مواقع العدو. وقد نجح الالمان في احداث خسائر جسيمة في هذه الطائرات المهاجمة على ارتفاع منخفض.

وخلال ١٨ دقيقة، كان ٤٥١١ رجلا من الفوجين ٥٠٥ و٥٠٨ من الفيلق ٨٢، مع مهندسيهم و٧٠ طناً من المعدات، قد هبطوا فوق المواقع المحددة للانزال أو بالقرب منها، على جانبي مدينة غروسبيك. ثم جاءت الطائرات الشراعية بما تحمله من رجال أكملوا العدد حتى بلغ ٧٤٦٧ رجلا.

عطل حاسم

في الوقت نفسه في الشمال، كان الاسطول الهائل من الطائرات الشراعية البريطانية يهبط بجنوده وسط الضباب الذي تنفثه الارض واللهب والدخان المتصاعدين من المباني المشتعلة في آرنهيم. وكان الدخان الازرق يتصاعد من موقعي الانزال اللذين امتدت فوقهما طوابير الطائرات الشراعية والطائرات التي تجرها، الى مسافة ٣٠ كيلومتراً تقريباً.

ولفت السكون السائد الجنرال أوركوهارت، الذي يتذكر ذلك بقوله: "كان الهدوء شيئاً لا يصدق، كما لو كنا في حلم". وبينما راح رئيس أركان حربه يقيم مقر القيادة التكتيكي للفيلق على حافة الغابة، اتجه أوركوهارت الى مواقع انزال جنود المظلات التي تبعد نحو ٤٠٠ متر. وكان الوقت قد حان لوصول لواء المظلات الاول بقيادة البريغادير جيرالد لاثبوري.

وفي مكان ما من موقع الانزال، كان الملازم روبين فلاستو قد صدم الارض حين هبط بمظلته صدمة عنيفة أذهلته، فجلس برهة يستجمع حواسه ويتبين اتجاهه. وكان يحس "بعدد لا يصدق من الاجسام والاوعية الضخمة يهبط في كل موضع حوله، بينما الطائرات مستمرة في انزال المظليين". وحين بدأ يفك نفسه من الاربطة التي تقيده الى المظلة، سمع صوتاً عالياً شديد الغرابة. فالتفت، واذا به يرى الكولونيل فروست سائراً بالقرب منه وهو ينفخ في بوق صيده النحاسي.

وفي جميع أنحاء مواقع الاسقاط والهبوط، حيث وصل ٥١٩١ من جنود الفيلق سالمين الى الارض، كانت الوحدات تتجمع وتصطف ثم تتحرك الى وجهتها. وكان الجنرال أوركوهارت "في قمة الغبطة، اذ بدا ان كل شيء يسير على نحو رائع".

ووسط الذعر والارتباك الذي ساد الدوائر الالمانية، كان أول ضابط ألماني كبير دق ناقوس الخطر هو الجنرال فيلهلم بيتربتسن، قائد جيش بانزر "اس - اس" الثاني المدرع. ففي الساعة الاولى والنصف بعد الظهر، تلقى التقرير الاول عن قوات محمولة جواً تنزل الى الارض قرب آرنهيم. فتولى حالا انذار الليفتنانت كولونيل فالتر هارتسر، قائد فيلق البانزر التاسع، وأمره بالاستطلاع في اتجاه آرنهيم وأوستربيك. وفي الوقت نفسه أصدر أوامره الى فيلق البانزر العاشر كي يتحرك بمدرعاته الى نيجميغين كي "يستولي على معابر المدينة ويحتفظ

بها ويدافع عنها". وكان جلياً ان وحدات البانزر التي أهمل مونتغومري شأنها تماماً بدأت تتحرك.

انتابت الحيرة الميجور انطوني دين - دراموند، نائب قائد وحدة الاشارة في الفيلق البريطاني الاول المحمول جواً، ولم يستطع ان يفهم سبباً لما يحدث. فمنذ برهة كان الاستقبال في أجهزة الراديو مثالياً من لواء البريغادير لاثبوري المتجه نحو أهدافه، ومن بينها معبر آرنهيم. أما الآن فقد خفتت اشارات الراديو حتى كادت الا تسمع.

وكانت اشارات لاثبوري ورسائله جوهرية لتمكين الجنرال أوركوهارت من ادارة المعركة. وقرر دين - دراموند ان يرسل سيارة جيب مزودة بجهاز راديو وجندي اشارات لالتقاط رسائل لاثبوري واعادة ارسالها الى قيادة الفيلق. وبعد فترة قصيرة بدأ يسمع الاشارات الصادرة من وحدة التوصيل هذه، فبدا له ان مجال فعالية جهاز الوحدة تضاءل الى حد كبير، لأن اشاراتها وصلت بالغة الضعف والخفوت. وبينما هو يستمع اختفت الاشارات كلياً، ولم يستطع دين - دراموند عندئذ ان يقيم اتصالا مع اي جهة أخرى على الاطلاق.

وحدث الامر نفسه لفريق خاص من جنود الاتصالات الامريكيين في سيارتي جيب تحملان أجهزة راديو. وكان هذا الفريق قد جمع على عجل ودفع به الى قيادة الفيلق البريطاني الاول المحمول جواً قبل ساعات قليلة من اقلاع الفيلق نحو هدفه. وكانت مهمة هؤلاء الامريكيين اقامة اتصال بين الارض والجو بأجهزة "ذات ذبذبة عالية جداً"، حتى يمكن بذلك طلب تدخل الطائرات المقاتلة لمساندة القوات عند الضرورة. ولا شك في ان سيارتي جيب الراديو هاتين كان يمكنهما تغيير سير المعركة في ساعاتها الاولى. لكنهما، بدلا من ذلك، كانتا بلا نفع على الاطلاق، لأن أجهزتهما لم تكن قد ضبطت على الذبذبات الصحيحة الضرورية. وبذلك لم تكد المعركة تبدأ حتى تبين أن اتصالات الراديو البريطانية تعطلت تماماً.

تأخير ينذر بالشر

من فوق السطح المنبسط لمصنع كبير قرب قناة ميز - اسكو على الحدود البلجيكية - الهولندية، كان الجنرال بريان هوروكس، قائد الجيش البريطاني الثلاثين، يراقب آخر التشكيلات الضخمة من الطائرات الشراعية وهي تمر فوق دباباته المنتظرة. واطمأن الجنرال الى ان الهجوم المحمول جواً قد بدأ، فأصدر أوامره لقوات عملية غاردن بالهجوم. وفي الثانية والربع بعد الظهر ارتفع زئير هائل من ٣٥٠ مدفعا أخذت تصب نيرانها.

وأخذت القذائف تسقط طناً بعد طن على مواقع العدو، وهي مركزة على كيلومتر ونصف كيلومتر فقط من الجبهة بعمق ثمانية كيلومترات، فارتجت الارض تحت دبابات قوات الحرس الايرلندي وهي تتقدم ببطء الى خط البدء. ووراء هذه التشكيلات الامامية، بدأت مئات الدبابات والعربات المصفحة الاخرى تتحرك خارجة من مواقفها.

وراحت الدبابات تهدر وتقرقع على

الطريق بسرعة ١٣ كيلومتراً في الساعة. وارتفع ستار المدفعية قليلا ليزحف أمام المدرعات المتقدمة بالسرعة عينها. وكان رجال الدبابات يرون بأعينهم القذائف وهي تنفجر على مسافة أقل من مئة متر أمامهم.

وسارت خلف تشكيلات المقدم عربة الاستكشاف الخاصة بالكولونيل جو فاندلير. وكان هذا اذا وقف في سيارته، يستطيع ان يرى أمامه وخلفه. وهو يتذكر ذلك بقوله: "كان الضجيج يفوق التصور، لكن كل شيء كان يمضي طبقاً للخطة الموضوعة". الا ان الصورة تغيرت فجأة في ثوان معدودة كما يقول فاندلير: "فقد بدأ الالمان يعجنوننا حقاً".

كان الالمان محتمين جيداً في مواقع محصنة حسنة الاخفاء على جانبي الطريق. وانتظرت مدفعيتهم حتى تجاوز ستار مدفعية الحلفاء مواقعهم، وتركوا الدبابات القلائل الاولى تمر، ثم فتحوا النار. وفي دقيقتين اثنتين، أصيبت تسع دبابات وتعطلت، وانتثرت مشتعلة عاجزة فوق ٧٥٠ متراً من الطريق.

وبذلك اوقف الزحف قبل ان يبدأ حقاً. وعجزت التشكيلات الآتية من الخلف عن التقدم. حتى ولو كان في استطاعتها ان تتجاوز الكتل المشتعلة من الدبابات المصابة، فان الهدافين الالمان المختبئين كانوا سيصيدونها. ولكي يمكن استئناف التقدم، طلب فاندلير معونة طائرات تايفون التي كانت تحلق فوقه. ويقول فاندلير: "لقد أذهلتني شجاعة هؤلاء الطيارين. فهم أخذوا ينقضون بطائراتهم متلاحقين، ويخترقون ستار مدفعيتنا نحن. وانفجرت احدى هذه الطائرات فوق رأسي. وكان الامر كله عسيراً على التصديق: فالمدافع تزأر، والطائرات تهدر، وصرخات الرجال ترتفع".

وبينما كانت الطائرات توالي انقضاضها، أرسل فاندلير الى المقدم كاسحة مصفحة لازاحة الدبابات المحترقة من الطريق. ثم تقدمت تشكيلات المشاة كي تنظف الغابة على جانبي الطريق من المكامن الالمانية، مستعينة بعربتين تحمل كل منهما مدفع "برن". ويتذكر قائد دبابة انه رأى "كلتا عربتي المدفع طائرتين في الهواء، بعد ان مرتا فوق ألغام أرضية زرعها العدو". وحين انقشع الدخان، رأى "أجساداً معلقة في الشجر، وقطعاً من الرجال تتدلى من كل غصن شجرة".

عندئذ تقدم المشاة البريطانيون بتصميم عنيد حاقد لارغام الالمان على الخروج من خنادقهم المخفية. وتجرد رجال الحرس الايرلندي من الشفقة، فكانوا يرغمون الاسرى على الركض على الطريق وهم ينخسونهم بحرباتهم. وحاول أحد الالمان الفرار، "فمات في اللحظة عينها التي راودت الفكرة ذهنه"، كما يذكر أحد جنود المشاة.

وتلقى الجنرال هوروكس في موقع قيادته تقريراً يفيد ان المكامن الالمانية على جانبي القوات المتقدمة قد سحقت. ولكن تبين ان هذه القشرة من القوات الالمانية أقوى من كل التوقعات، اذ كان بين الاسرى رجال من كتائب مظلية ذائعة الصيت. ولكي تكتمل المفاجأة التي تلقاها

البريطانيون، كان بينهم أيضاً مشاة مخضرمون تابعون لفيلقي بانزر "اس - اس" المصفحين التاسع والعاشر.
وحتى تتضاعف الدهشة أكثر، تبين كذلك ان بعض الاسرى ينتمون الى الجيش الالماني الخامس عشر الذي يقوده الجنرال غوستاف فون تسانغن.
وقد ورد في اليوميات الحربية لقوة الحرس الايرلندي ما يأتي:"أمضت مخابراتنا هذا اليوم في حال دهشة غاضبة، لأنها ظلت تكتشف كتائب ألمانية عديدة أخذت تظهر واحدة بعد أخرى، في حين كان يظن أنها بعيدة عن هذا المكان".

وكان الجنرال هوروكس توقع ان تستغرق دباباته" بين ساعتين وثلاث ساعات" كي تقطع مسافة الـ٢١ كيلومتراً التي تفصلها عن مدينة ايندهوفن. لكن وقتاً ثميناً ضاع، ولم يتمكن الحرس الايرلندي الا من قطع مسافة ١١ كيلومتراً فقط ليصل الى بلدة فالكنسفارد مع هبوط الليل. وبذلك تأخرت عملية ماركت غاردن منذ البداية على نحو ينذر بالسوء.

... وتوقف الموكب

كان رجال لواء المظلات الاول الذي يقوده البريغادير لاثبوري يسيرون بملابس القتال المميزة وخوذات الصدام متجهين نحو آرنهيم، وهم مثقلون بالاسلحة والذخائر. وكانت الخطة تقضي بأن تتخذ كل من الكتائب الثلاث التي يتألف منها اللواء طريقاً مختلفاً، بحيث تصل كلها الى آرنهيم من ثلاث جهات متباينة. وأسند تحقيق أهم الاهداف الى الكتيبة الثانية بقيادة الكولونيل فروست. وكان عليها ان تتخذ طريقاً ثانوياً يمتد قرب الضفة الشمالية لنهر الراين الادنى، ثم تستولي على المعبر الذي يمتد فوق النهر ليربط طرفي الطريق الرئيسي الكبير. وكان على الكتيبة أيضاً ان تستولي في طريقها على معبر السكة الحديد والمعبر العائم الواقعين غرب المعبر الرئيسي للطريق الكبير. أما الكتيبة الثالثة، بقيادة الليفتنانت كولونيل ج. ا. فيتش، فكان واجبها بلوغ المعبر الرئيسي من الشمال كي تدعم قوة الكولونيل فروست. وبمجرد انطلاق هاتين الكتيبتين نحو وجهتهما بنجاح، كان على الكتيبة الاولى التي يقودها الليفتنانت كولونيل د. روبي ان تتقدم على طول الطريق الاكثر تطرفاً الى الشمال كي تحتل الارض المرتفعة الواقعة شمال المدينة.

وعلى طول خطوط الزحف الثلاثة، التقى الرجال جماعات من الهولنديين الذين تملكتهم الفرحة. وكان كثير من المدنيين غادروا مزارعهم وقراهم البعيدة ولازموا جنود المظلات، يتبعونهم منذ وقت مغادرتهم مواقع الانزال. ومع تضخم جماعات المتابعين، بدا ان الترحيب يوشك ان يطغى على الزحف نفسه فيغرقه. وكان الكابتن اريك ماكاي يسير على الطريق الجنوبي الاقصى مع الكتيبة الثانية التي يقودها الكولونيل فروست، فأقلقه جو النزهة الذي يحيط بالزحف. وهو يقول في هذا الصدد:"كان المدنيون الهولنديون يعوقون تقدمنا، اذ راحوا يلوحون ويهتفون ويصفقون، ويقدمون التفاح والاجاص (الكمثرى) والمشروبات.



الكولونيل فروست ٠

وكان ذلك لطفاً منهم، لكنهم عاقوا تقدمنا وجعلوني أحس بالخوف الشديد من أن ينتهي ذلك بافتضاح مواقعنا لدى العدو"٠

وحدث ما كان يخشاه ماكاي، اذ ان موكب النصر هذا توقف فجأة٠ ويتذكر الرقيب الاول هاري كالاغان، الذي كان يسير على الطريق الاوسط، ما حدث، فيقول:"لقد وقع الامر بسرعة بالغة٠ ففي لحظة كنا نسير بانتظام نحو آرنهيم، وفي اللحظة التالية كنا مبعثرين في الحفر والخنادق، حين فتح القناصة الالمان نارهم على حين غرة، فقتلوا ثلاثة جنود تمددت جثثهم في عرض الطريق"٠ ويتذكر كثير من الرجال ان أول مقاومة ألمانية جدية بدأت بعد انقضاء الساعة الاولى على مسيرتهم، اي نحو الرابعة والنصف مساء٠ ولم تلبث اثنتان من الكتائب الثلاث ـ كتيبة دوبي الاولى على الطريق الشمالي وكتيبة فيتش الثالثة في الوسط ـ ان وجدتا فجأة انهما مشتبكتان في قتال عنيف ضد هجمات العدو٠ وقد أوشك تقدم كتيبة دوبي الاولى على التوقف تماماً حين شارفت بلدة فولفهيزي٠

ويتذكر الجندي السابق وولتر بولدوك الامر فيقول:"توقفنا٠ ثم عاودنا السير٠ ثم توقفنا وحفرنا ملاجىء احتمينا فيها٠ وبعد ذلك تحركنا مغيرين اتجاهنا٠ وكان تقدمنا مرهوناً بنجاح تشكيلات المقدم، بينما كانت قنابل المورتار وقذائف الرصاص تنصب علينا طول الوقت"٠

وقد دهش جنود المظلات من شراسة الهجمات غير المتوقعة التي شنها العدو٠ وكان الجندي السابق اندرو ملبورن على الطريق الشمالي، فطرق مسامعه دوي النار تطلق عن بعد نحو الجنوب٠ وانتابه للحظة قصيرة شعور بالرضا لأن كتيبته الاولى كلفت مهمة الاحتفاظ بالارض المرتفعة الواقعة شمال مدينة آرنهيم٠ ولكن عندما اقترب ملبورن مع كتيبته من بلدة فولفهيزي، تبين له أن طابور الكتيبة انحرف نحو الجنوب وخرج عن الطريق الرئيسي٠ ورأى محطة السكة الحديد وبالقرب منها دبابة٠ وكان أول ما انتابه الابتهاج، وقال في نفسه:"يا الهي! ان مونتي كان محقاً،فها هو الجيش الثاني وصل الى هنا فعلا!" ثم رأى ملبورن برج الدبابة يدور ببطء، كما رأى صليباً أسود مرسوماً

على الدبابة. وعلى حين غرة، تبين ان الالمان حولهم في كل مكان.

وكان انهيار الاتصالات وما أسفر عنه من افتقار الى التوجيهات عائقاً كبيراً يعرقل رجال الكتيبتين الاولى والثالثة الذين وجدوا أنفسهم يصطدمون بالعدو طوال الوقت في اشتباكات مريرة لا تنقطع، يواجههم فيها جنود "وافن اس ـ اس" المخضرمون المستميتون. وكان هؤلاء الجنود الالمان أقل عدداً، لكنهم يتمتعون بمساندة العربات نصف المجنزرة والمدفعية والدبابات. فتمكنوا من ابطاء سرعة التقدم البريطاني على الطريقين العلويين حتى أصبح مثل زحف السلاحف، ولم يعد هناك أمل كبير في ان تتمكن الكتيبتان الاولى والثالثة من بلوغ هدفيهما عند آرنهيم طبقاً للخطة الموضوعة. وأصبح كل شيء يتوقف الآن على الكتيبة الثانية التي يقودها الكولونيل جون فروست، والتي كانت تتقدم باطراد على طريق الراين الادنى، وهو الطريق الثانوي الذي أهمله الالمان على نحو شبه تام.

"انجاز عسكري رائع"

على رغم ان كتيبة الكولونيل فروست عرقلت مرات عدة لفترات قصيرة بسبب نار العدو، الا أنها أسرعت بالتقدم نحو أول أهدافها، وهو معبر السكة الحديد الذي يمتد فوق نهر الراين الادنى الى الجنوب الشرقي من مدينة أوستربيك. وطبقاً للخطة الموضوعة، انفصلت جماعة الميجور فيكتور دوفر عن الكتيبة واتجهت الى النهر. وبدا المعبر حين اقتربوا منه خالياً وبلا دفاعات، فصدر الامر الى الملازم بيتر باري بأن يقود فصيلته عبر المعبر. وكانت فصيلة باري على بعد ٣٠٠ متر من المعبر حين رأى "ألمانياً يجري فوق المعبر آتياً من الجانب الآخر حتى بلغ منتصف المعبر، فركع وبدأ يفعل امراً لم أتبينه. فأمرت جماعة من جنودي باطلاق النار، وأمرت جماعة أخرى باقتحام المعبر".

ويتذكر باري انه ورفاقه بلغوا أول المعبر وبدأوا يركضون فوقه بأقصى سرعة. "وفجأة حدث انفجار هائل وتناثر المعبر في وجوهنا حطاماً". وبذلك اختفى أحد المعابر الثلاثة.

وكانت في انتظارهم خيبة أمل أخرى. فعندما بلغوا المعبر العائم، وجدوا ان القسم الاوسط منه قد أزيل. غير أنه بقي أمامهم ـ على مسافة ١٥٠٠ متر ـ المعبر الرئيسي الضخم المبني بالخرسانة والصلب، وقد ظهر قوسه الكبير واضحاً لأعينهم في ضوء الغسق قبل حلول الظلام.

وحين اقتربت طلائع الكتيبة الثانية من المعبر، دهش الملازم روبين فلاستو، قائد احدى فصائل المجموعة "ر". من "ارتفاع المعبر ارتفاعاً كبيراً لا يصدق". ولاحظ فلاستو "وجود نقط حراسة محصنة عند طرفي المعبر بدت هيئتها تنذر بالخطر، حتى وسط جو الهجران والفراغ الذي بدا سائداً". وتقدمت المجموعة "أ" بهدوء في الظلام، واتخذت لها مواقع عند أسفل الدعائم الهائلة الواقعة عند الطرف الشمالي للمعبر، حيث تناهى الى أفرادها هدير حركة المرور فوقه.

وبعيد الثامنة مساء، وصل

الكولونيل فروست مع قيادة الكتيبة وأصدر أوامره فوراً الى المجموعة "أ" بأن تعتلي المعبر. وحين بدأ الرجال يتحركون فوق طرف المعبر دبت الحياة في الالمان، ووجد الرجال النار تنهال عليهم من نقطة الحراسة الواقعة في الطرف الشمالي للمعبر ومن عربة مدرعة وحيدة تقف عند طرفه الجنوبي. وتقدمت فصيلة يعاونها رافعو الالغام التابعون لقيادة اريك ماكاي وهم يحملون قاذفات اللهب، وبدأ الجميع يتحركون في الطوابق العليا لعدد من المنازل التي تقع سقوفها وحجراتها العليا في مستوى النظر مع منحدر بداية المعبر. وفي الوقت نفسه شقت فصيلة الملازم فلاستو طريقها خلال الاقبية. وحين اتخذ الجميع مواقعهم، بدأوا يهاجمون نقطة الحراسة المحصنة.

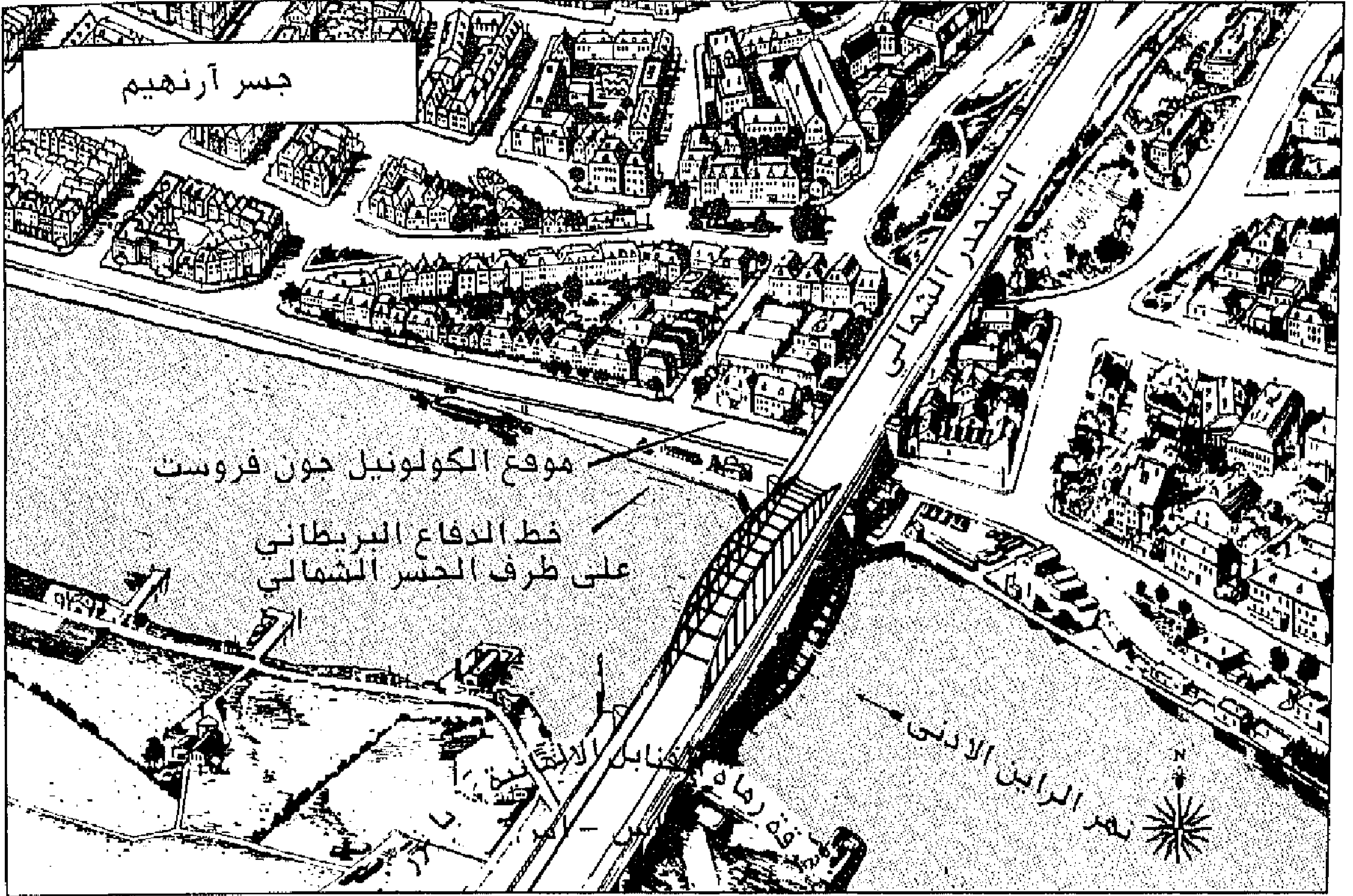
ويتذكر فروست أنه عندما بدأ قاذفو اللهب مهمتهم، "بدا كأن الجحيم اطلق من عقاله. فقد أضاءت النار السماء، وارتفع صوت المدافع الرشاشة، وحدثت سلسلة انفجارات متتالية، وارتفعت طقطقة الذخائر المحترقة التي تخللتها طلقة مدفعية، وطوقت النار مبنى خشبياً قريباً، وتصاعدت صيحات الرعب والخوف".

وانتهت المعركة الوحشية القصيرة فجأة وهمدت مدافع الحراسة المحصنة. ورأى فروست من خلال النار الجنود الالمان يسيرون مترنحين نحو رجاله. وبذلك تمكنت الجماعة "أ" من تطهير الطرف الشمالي للمعبر بنجاح، فأصبح في قبضتها. لكن النار وانفجارات الذخيرة المحترقة جعلت المجازفة باندفاع آخر لاحتلال الطرف الجنوبي مغامرة انتحارية. ولو تم الامر قبل نصف ساعة لأمكن نجاح العملية. أما الآن فقد وصلت الى الضفة الجنوبية للنهر مجموعة من رماة بانزر "اس - إس" واتخذوا مواقعهم متأهبين.

ولم يعد فروست يستطيع ان يفعل شيئاً تلك الليلة سوى حراسة الطرف الشمالي للمعبر الذي استولى عليه من هجمات العدو. وبعد ان تشاور فروست مع ضباطه، انتهى رأيه الى انه من الواضح ان يكون عرض للكتيبتين الاولى والثالثة عائق ما. وكان من المستحيل معرفة ما حدث لهما بالضبط نظراً الى انقطاع الاتصالات. واذا لم تصل الكتيبتان الى آرنهيم خلال ساعات الظلام، فسيتاح للالمان وقت كاف لقطع كل طريق بين رجال فروست وسائر قوات الفيلق.

غير ان الطرف الشمالي من معبر آرنهيم كان في قبضة فروست، ولم تكن لديه أو لدى رجاله المغاوير أدنى نية في التخلي عنه.

وأقيم مقر قيادة الكتيبة على عجل في منزل يشرف على المعبر. وجلس فروست يستجمع أنفاسه للمرة الاولى ذلك اليوم. وأخذ يرشف الشاي من قدح كبير، وهو يقول لنفسه ان الموقف في مجموعه ليس بالغ السوء: "فقد قطعنا ١٣ كيلومتراً فوق أرض صعبة الاختراق واستولينا على هدفنا، وذلك كله خلال سبع ساعات من هبوطنا في هولندا. وهذا انجاز عسكري جيد حقاً". وعلى رغم القلق الذي كان ينتاب فروست، الا أنه



كان، مثل رجاله، متفائلا٠ وكانت معه تلك اللحظة قوة من ٥٠٠ رجل٠ وكل ما عليه هو الصمود لمدة ٤٨ ساعة أخرى في أقصى تقدير، حتى تصل دبابات الجيش الثلاثين الذي يقوده الجنرال هوروكس٠

خيبة الالمان

كان لهجوم الحلفاء المفاجيء وقع الصاعقة على القيادة الالمانية العليا، من برلين الى الجبهة الغربية٠ ولم يكن رد الفعل ازاء هذا الهجوم عنيفاً وسريعاً الا في آرنهيم، حيث هبط الفيلق البريطاني الاول المحمول جواً فوق فيلقي البانزر اللذين يقودهما الجنرال بيتريتش٠ أما في المواقع الاخرى، فقد تملكت الحيرة والارتباك القادة الالمان وهم يحاولون ان يحددوا ما اذا كانت الاحداث المفاجئة التي وقعت يوم ١٧ سبتمبر (أيلول) تمثل فعلا مرحلة البداية في عملية غزو للرايش الالماني٠

وفي مقر قيادة الفيلد مارشال جيرد فون رونشتد في مدينة كوبلنتس، كان رد الفعل العام هو الدهشة٠ ولم تكن دهشة فون رونشتد، الاريستوقراطي الصلب، ترجع الى الهجوم بمقدار ما كان مبعثها الرجل الذي هداه منطقه الى انه قائده، وهو مونتغومري٠ فقد كان فون رونشتد واثقاً منذ امد طويل من ان الجنرال باتون وجيشه الامريكي الثالث الزاحف نحو منطقة السار هو مصدر الخطر الحقيقي٠ ومن أجل درء ذلك التهديد، كان قد وجه أفضل قواته كي تصد دبابات باتون الزاحفة بسرعة٠ أما الآن فها هو أشهر قادة ألمانيا

فقد توازنه موقتاً، اذ أنه لم يكن يتوقع أبداً ان يكون مونتغومري قائد الهجوم الرئيسي لأيزنهاور فهو كان يعتبر دائماً ان مونتغومري "مفرط في الحذر، وأسير عادات محددة، ومنهجي للغاية".

وكان من المستحيل خلال ساعات الليل تقدير حجم قوات الحلفاء التي حملت جواً الى هولندا. لكن فون رونشتد كان مقتنعاً بأنه يجب توقع المزيد من عمليات الانزال. لذلك خرجت الرسائل من مقر قيادته تحمل أوامر بنقل عدد من الوحدات من مواقعها المواجهة للأمريكيين عند مدينة آخن. وكانت هذه التحركات مجازفة، غير أنها مجازفة لا بد منها، اذ ان هذه الوحدات كان عليها التحرك فوراً نحو الشمال. وربما استغرقت ما لا يقل عن ٤٨ ساعة حتى تبلغ مواقع القتال. كذلك أصدر فون رونشتد تعليمات أخرى الى مناطق الدفاع على طول الحدود الشمالية الغربية لألمانيا، يأمر فيها بأن تتجه جميع وحدات المدرعات والمدفعية المضادة للطائرات التي يمكن توفيرها الى هولندا التي كانت هادئة حتى ذلك الحين، ثم أصبحت فجأة، وفق اقتناعه الراسخ، مكمن الخطر المباشر على الرايش الثالث.

كانت السماء تنشر صفحة من الضوء المائل الى الاحمرار فوق آرنهيم عندما شارفت المدينة السيارة المسرعة التي حملت الميجور جنرال هاينز هارمل من برلين. وكان الجنرال متوتراً ومتعباً اثر رحلته الطويلة المرهقة. ولكن حين بلغ مقر قيادة

الفيلد مارشال مودل والجنرال بيتريتش
والميجور كناوست والميجور جنرال هارمل يتباحثون خلال المعركة.



فيلق بانزر "اس - اس" المدرع العاشر في رورلو، وجد ان موقع قيادته انتقل الى بلدة فيلب على بعد نحو خمسة كيلومترات شمال شرق آرنهيم. وهناك قابل رئيس أركان حربه الذي كان يبدو منهكاً تماماً. وقال الرجل حين رآه: "حمداً لله أنك عدت". وشرح له أحداث اليوم بسرعة. ويتذكر هارمل الموقف فيقول: "أذهلني الموقف تماماً، اذ بدا كل شيء مرتبكاً وغير واضح. وعلى رغم أني كنت مرهقاً، الا ان خطورة الموقف كانت شديدة الى درجة جعلتني أتصل بقائدي، الجنرال فيلهلم بيتريتش، وأقول له اني ذاهب لرؤيته على الفور".

وما ان دخل هارمل على بيتريتش حتى شرع هذا في ايضاح الخطوط العريضة للموقف على خرائطه. وقال لهارمل: "لقد هبط المظليون البريطانيون هنا، غرب آرنهيم، وليست لدينا أدنى فكرة عن حجم قواتهم الفعلي ولا عن نياتهم". ثم أشار قائد الجيش بيتريتش الى نيجميغين وايندهوفن واستطرد: "لقد حصلت القوات الامريكية المحمولة جواً على مواقع في هاتين المنطقتين، كما ان قوات مونتغومري هجمت شمالا عبر الحدود. وفي رأيي أنهم يستهدفون المعابر، لأن استيلاءهم عليها يفتح الطريق أمام مونتغومري للمضي مباشرة الى وسط هولندا، ثم يواصل تقدمه من هناك ليدخل منطقة الروهر".

ولوح بيتريتش بيديه وقال: "ان مودل يخالفني الرأي. وهو يعتقد ان هناك مزيداً من القوات المحمولة جواً سيجري انزالها شمال نهر الراين، شرق آرنهيم وغربها، كي تزحف بعدئذ نحو الروهر". (★)

ومضى بيتريتش يشرح ان فيلق بانزر "اس - اس" التاسع بقيادة هارتسر قد صدرت اليه الاوامر لتصفية البريطانيين غرب آرنهيم وشمالها، وأن فيلق بانزر "اس - اس" العاشر كلف تولي جميع العمليات اللازمة في شرق آرنهيم وفي الجنوب حتى نيجميغين. وطعن بيتريتش الخريطة باصبعه وقال لهارمل: "لا بد من الاحتفاظ بمعبر نيجميغين بأي ثمن. وأنت المسؤول عن معبر آرنهيم والمنطقة الواقعة جنوبه حتى نيجميغين".

وبينما كان هارمل ينصت، تكشف له بفزع متزايد انه اذا وقع معبر آرنهيم في ايدي البريطانيين، فانه لن يجد اي وسيلة تتيح له نقل مدرعاته بسرعة عبر الراين الادنى كي تتجه جنوباً الى نيجميغين، وسيضطر اذ ذاك الى نقل فيلقه كاملا ليقطع به النهر عند عبّارة عائمة تقع في قرية بانردين، على مسافة ١٣ كيلومتراً جنوب شرق آرنهيم.

وسأل هارمل قائده بيتريتش وهو ينصرف من مقر قيادته: "لماذا لا ندمر معبر نيجميغين قبل فوات الاوان؟" فرد بيتريتش بلهجة تشيع منها السخرية: "لقد رفض مودل تماماً مجرد

(★) الواقع ان هناك بياناً مفصلا بخطط عملية ماركت - غاردن كان قد وقع في أيدي الالمان، وفيه بيان بمواقع الانزال والاهداف وطرق والاقتراب والهجوم. لكن القتال عاق وصول الخطط الى المارشال مودل لبضع ساعات، حتى اذا بلغته هذه الخطط أهملها في البداية ولم يصدقها.

بحث الفكرة، قائلا اننا قد نحتاج الى هذا المعبر لنقوم بهجوم مضاد".

فحملق هارمل وقد تملكته دهشة شديدة، وقال: "وبماذا نشن هذا الهجوم المضاد؟".

انطلق هارمل في الظلام نحو بانيردين. وكانت وحداته بدأت التحرك فعلا نحو المعبر العائم. واختنقت الطرق بالجنود والعربات، في حين شكلت السيارات في بلدة بانيردين نفسها أزمة مرور هائلة. وكان من رأي أحد ضباط هارمل أن هذه الوحدات قد لا تبلغ منطقة العمليات عند قطاع آرنهيم - نيجميغين قبل يوم ٢٤ سبتمبر (ايلول) اذا لم تمكن زيادة سرعة المعبر العائم الشديد البطء.

وكان هارمل يعرف أن المشكلة لها حل واحد فقط، هو أن يسترد معبر آرنهيم ليفتح الطريق الرئيسي الى نيجميغين مرة أخرى. ومع انتهاء هذا اليوم الاول من أيام عملية ماركت - غاردن، تركزت كل مشاعر الخيبة لدى الالمان على رجل واحد عنيد، هو اللفتنانت كولونيل جون فروست القابع عند معبر آرنهيم.

"مدرعات فوق المعبر!"

ظلت رحى المعركة من أجل المعبر دائرة طوال الليل. وقد حاول رجال فروست اقتحام الطرف الجنوبي مرتين، لكنهم ردوا على أعقابهم. ثم حاولت سيارات نقل المانية مليئة بالمشاة الالمان اغتصاب طريقها في الاتجاه المضاد، فأشعل فيها رجال فروست نار قذائفهم التي أحرقت رماة البانزر أحياء في جحيمها. وسقطوا صارخين في مياه الراين الجارية على بعد ٣٠ مترا أسفل المعبر.

وطوال الليل، كان رجال من الكتيبتين البريطانيتين الاولى والثالثة ينجحون - في جماعات صغيرة من اثنين او ثلاثة - في اختراق طريقهم بالقتال والمرور عبر حلقة دفاع الكولونيل هارتسر في الشمال والغرب لبلوغ المعبر. ومع فجر ١٨ سبتمبر (ايلول)، قدر فروست أن لديه بين ٦٠٠ رجل و٧٠٠ على



"الشياطين الحمر" البريطانيون يدخلون آرنهيم.

المشارف الشمالية للمعبر. غير ان كل ساعة كانت تحمل اليه المزيد من الجنود، كانت تنقل الى أذنيه أيضا تعاظم أصوات آليات العدو. فقد كانت وحدات الجنرال هارمل المصفحة تدخل المدينة وتتخذ مواقعها فيها.

بل ان المدرعات الالمانية نفسها

وجدت آرنهيم مكانا خطرا ومخيفا. فعلى امتداد طرق كثيرة تخترق المدينة، كان المدنيون الهولنديون العاديون قد سدوا السبل بالمتاريس. واستطاع الرقيب ريجينالد إيشروود، من الكتيبة البريطانية الاولى، ان يجد طريقه أخيرا - وبعد عناء - الى وسط مدينة آرنهيم عند الفجر، عقب ليلة حافلة بالخطر على الطرق. وهناك رأى "منظرا سيبقى حيا في ذهني الى آخر أيامي": فقد كان الهولنديون يتحدّون رصاص الالمان والانكليز على السواء ويخرجون من الاقبية والمخابىء والحدائق والمباني المحطمة كي يجمعوا جثث القتلى والمصابين". وكانوا يحملون الجرحى "الى عيادات ارتجالية ومخابىء أقيمت في الملاجىء"، حسبما يذكر إيشروود، "أما جثث القتلى فكانت تصف مثل أكياس الرمل في صفوف طويلة، مع وضع الرؤوس والاقدام بالتبادل". وكان مواطنو آرنهيم المتلفعون بالكبرياء والحزن يصفّون جثث الاصدقاء والاعداء على السواء عبر الشوارع ويقيمون بها متاريس يبلغ ارتفاعها مترا ونصف متر أو أكثر لمنع الدبابات الالمانية من بلوغ موقع فروست.

وفي الوقت نفسه، في الضواحي الغربية لمدينة آرنهيم، تحولت الحدائق والشوارع التي كانت منسقة ونظيفة الى مسطحات تملأها ندوب المعركة، بينما كانت القوة الرئيسية للكتيبتين البريطانيتين الاولى والثالثة تواصل كفاحها لبلوغ المعبر.

واستمرت هذه المعركة الغريبة المدمرة، التي خربت مشارف المدينة، على بعد ثلاثة كيلومترات فقط من معبر آرنهيم، من غير أن يبدو انها تسير وفق اي خطة واضحة. وكانت قد غدت مثل كل معارك الشوارع: كتلة واسعة النطاق ومختلطة من الاشتباكات الفردية الشرسة، تجري في اطار بالغ التعقيد من الممرات الضيقة.

وفي تمام التاسعة والنصف صباحا، نظر العريف دون لامب من موقعه فوق أحد سطوح المنازل القريبة من المعبر، ثم صاح بانفعال: "دبابات! انه الجيش الثلاثون". وفي مقر قيادة الكتيبة القريب، سمع الكولونيل فروست جندي مراقبة آخر يعلن ظهور الدبابات، فانتابته لبرهة قصيرة مشاعر الابتهاج الشديد التي تملكت العريف لامب. وهو يسترجع ذلك بقوله: "كنت أحسب اننا سنحظى وحدنا بشرف الترحيب بالجيش الثلاثين في آرنهيم". أما الرقيب تشارلز ستوري فقد صعد السلم ركضا الى نقطة رقابة العريف لامب. وحملق في اتجاه الدخان الذي كان لا يزال يتصاعد من المشارف الجنوبية للمعبر، فرأى طابور الدبابات الذي رآه لامب. وكان رد فعل الرقيب ستوري فورياً: فقد عاد هذا الجندي المخضرم (منذ ما قبل دانكرك) وأسرع يهبط الدرج ركضاً وهو يصيح: "انهم ألمان! مدرعات فوق المعبر!".

وفوق المعبر كانت تتقدم بأقصى سرعة طليعة قوة الاقتحام الالمانية التي يقودها الكابتن بول غرابنر. وراح السائقون الالمان يتعرجون بمصفحاتهم يمينا ويسارا بمهارة فائقة، فنجحوا لا في تجنب الحطام

الملتهب المتناثر فوق المعبر فحسب، وانما ايضا في تجاوز حقل ألغام كان البريطانيون زرعوه ليلا. وكل ما حدث لهم هو أن عربة واحدة من عربات غرابنر الخمس لمست لغماً من حافتها، فأصابها من انفجاره تلف بسيط لم يمنعها من مواصلة زحفها.

وأذهل البريطانيين هذا الاقتحام المفاجىء، لكنهم تمالكوا أنفسهم بسرعة. وراحوا من أعلى المنازل ومن فوق سطوحها، ومن النوافذ ومن خنادقهم، يطلقون النار بكل أنواع الاسلحة التي في متناول الجنود، من المدافع الرشاشة الى القنابل اليدوية. ونجح جندي رفع الالغام رونالد ايمري في اصابة قائد العربة نصف المجنزرة الاولى ومساعده. وحين دخلت الثانية في نطاق النظر، أصاب قائدها ايضا، فتوقفت العربة فجأة بعد أن شارفت المنحدر، وبدأ سائر أفراد طاقمها المؤلف من ستة أفراد يهجرونها، فأصيبوا جميعا واحدا بعد الآخر.

وتقدمت عربتان أخريان نصف مجنزرتين على المعبر، لكن الفوضى انتشرت فجأة بين صفوف المقتحمين الالمان. فقد جرح قائد العربة نصف المجنزرة الثالثة، وأصابه ذلك بالذعر وجعله يغير اتجاه سير عربته الى الخلف، مصطدما بالعربة نصف المجنزرة التي كانت وراءه، فتلاحمت العربتان ودارتا في عرض الطريق، ثم انفجرت احداهما مشتعلة. لكن الالمان المتقدمين من الخلف ظلوا يحاولون شق طريق لهم بعناد شديد. فراحوا يزيدون سرعة عرباتهم في محاولة عصبية يائسة لبلوغ الطرف الشمالي للمعبر، لكن المحاولة كانت تنتهي بهم الى الاصطدام بعضهم ببعض ثم بالاكوام المتضخمة من الحطام التي تنثرها قذائف المدفعية وانفجاراتها. وفقد بعض السائقين السيطرة على عرباتهم نصف المجنزرة، فاصطدمت بحافة منحدر المعبر بعنف جعلها تنقلب فوق الحافة لتستقر على أرض الشارع تحت المعبر. اما المشاة الالمان الذين كانوا يسيرون خلف العربات نصف المجنزرة فقد انهالت عليهم القذائف وصرعهم الرصاص بلا رحمة. وأخيرا عجز الالمان تماما عن التقدم بعد منتصف المعبر، فسارع الناجون منهم بالعودة الى طرفه الجنوبي. وكان الكابتن بول غرابنر، قائد الاقتحام قد لقي مصرعه خلال القتال العنيف الذي دار بلا رحمة.

وكأن القدر شاء ان يهنىء رجال الكتيبة الثانية على نجاحهم في صد الهجوم الالماني، فتمكن رجال الاشارة بينهم فجأة من التقاط رسالة قوية واضحة من الجيش الثلاثين. وتخيل الجنود المرهقون أن محنتهم أوشكت على الانتهاء، اذ لا بد من أن تكون دبابات الجنرال هوروكس على بعد ساعات قلائل منهم.

لكن الامر لم يكن كذلك. فقد كان كل ما وقع من الممر الكبير الموعود في ايدي القوات الانكلو - امريكية حتى ذلك الحين لا يزيد على ٤٥ كيلومترا، تمتد من الحدود البلجيكية الى مدينة فيغيل. فالفيلق ١٠١ تمكّن من قطع ٢٥ كيلومترا من الطريق بسرعة غير عادية، واستولى على مدن ايندهوفن وسانت أودنرود وفيغيل، وعلى كل المعابر الاحد عشر التي

نيطت به مهمة السيطرة عليها ما عدا معبرين اثنين. لكن الالمان نسفوا المعبر القائم عند بلدة سون، وبذلك أصبح جيش الاغاثة الذي يضم ٢٠ الفاً من الآليات، بقيادة الجنرال هوروكس، عاجزا عن التقدم خطوة أخرى قبل أن يتم اصلاح المعبر.

بحر الانقاض

تأخرت عملية الانزال التالية في اليوم الثاني بسبب رداءة الطقس، فلم تصل الطائرات الى أهدافها الا قرابة الثانية بعد الظهر. وكان الاسطول الجوي ضخما، بل أكبر كثيرا من اسطول اليوم السابق. وعلى رغم ان المعركة كانت جارية، الا ان ٩٠ في المئة من عمليات الانزال تمت في المواقع الصحيحة. ولكن ما ان بلغ الجنود الارض حتى غرقوا في بحر المعركة الدائرة خارج آرنهيم. وفضلا عن ذلك، فان الجنود لم يتلقوا سوى ١٢ طناً من أصل ٨٧ طناً من الذخيرة والطعام والمؤن التي أسقطتها الطائرات، فيما وقع الباقي وسط صفوف الالمان.

وعلى رغم الاصابات الشديدة، فان الكتيبة الثانية والجنود الافراد الشجعان من الكتيبتين الاخريين الذين نجحوا في بلوغها كانوا لا يزالون صامدين في مواقعهم. لكن حال قوات فروست كانت قد بلغت حد اليأس منذ ساعات، وأخذت تتدهور بسرعة أكثر فأكثر.

وكان جنود بيتريتش يحتلون شمال آرنهيم ويحصرون فروست ورجاله عند المعبر، بعد ان نجحوا في منع كتيبتي دوبي وفيتش (الاولى والثالثة) من نجدتهم. وكانت الكتيبتان عجزتا عن التقدم من المناطق المبنية الواقعة حول مستشفى سانت اليزابيث على بعد ١٥٠٠ متر من المعبر، كما كانت تلك حال كتيبة ساوث ستافوردشير والكتيبة الحادية عشرة اللتين وصلتا حديثا. ويقول الجندي روبرت س. ادواردز، من الجماعة "د" في كتيبة ساوث ستافوردشير: "لقد بلغنا الارض الواسعة المكشوفة على الطريق الممتد في محاذاة النهر أمام مستشفى سانت اليزابيث، ثم انهمرت علينا النار سيولا. ولا شك في اننا كنا نبدو كالاهداف الثابتة في ساحة التدريب. وكل ما كان على الالمان فعله هو تركيز مدافعهم كلها على هذه الثغرة الواحدة - وعرضها نحو ٤٠٠ متر - ثم اطلاق النار. وكان من المستحيل أن يخطئوا الهدف".

وقد ألقى ادواردز ببعض قنابل الدخان ليحاول اخفاء تقدمهم، "ثم خفضت رأسي وجريت كالارنب البري". لكنه تعثر "بأكوام من الموتى الغارقين في بحيرات الدماء، حتى بلغت منطقة الحماية الجزئية التي توفرها البيوت والمباني على الجانب البعيد من الطريق". أما الجماعة "د" فقد بيّن احصاء أفرادها "ان ٢٠ في المئة منهم بقوا. واتضح انه لا يمكن أن نستمر في مواجهة هذه القوة الالمانية ذات التفوق الساحق، فاعتصمنا بالامل وانتظرنا طلوع الفجر".

وبدا كأن حائطا صلدا هبط ليفصل الفيلق عن رجال فروست القلائل المتشبثين بمواقعهم عند المعبر.

وفي آرنهيم نفسها، اخترقت

روائح المعركة قلب المدينة. أما على المعبر فقد ارتفع ركام الحطام عاليا فوق أسواره الخرسانية وتناثرت أجزاؤه في الشوارع المحاذية لمجرى الراين الادنى.

وكان الدخان الاسود يلتصق بجدران المباني والساحات فينشر عليها طبقة دهنية، بينما كانت مئات الحرائق تشتعل على امتداد واجهة النهر من دون أن يكون هناك من يحاول اطفاءها. ويتذكر الرقيب روبرت جونز أن المنظر كان "بحراً من المباني المتهاوية التي تضطرم النار فيها وفي أعداد لا حصر لها من العربات نصف المجنزرة وسيارات النقل وسيارات الجيب".

وتتابعت الساعات بينما فروست ينتظر بلا جدوى أن تتمكن كتيبتا دوبي وفيتش من كسر الحلقة الالمانية والوصول الى المعبر لنجدته. وعلى رغم أن أصوات القتال كانت تبلغه من غرب آرنهيم، الا انه لم تكن هناك دلائل على تحركات لقوات كبيرة. وفضلا عن ذلك، فان التائهين من جنود الكتيبة الثالثة الذين أمكنهم اختراق خطوط الالمان وبلوغ مواقع فروست أخبروه ان دبابات الجنرال هوروكس لا تزال بعيدة. بل ان بعضهم سمع من مصادر المقاومة السرية الهولندية أن المدرعات لم تبلغ بعد مدينة نيجميغين.

ونحو منتصف الليل، غادر فروست مقر قيادته وقام بجولة في أنحاء قطاعه لدراسة أحوال رجاله. وعلى رغم أن المعركة كانت دائرة بلا هوادة منذ بدء الهجوم الالماني المدرع في الصباح، الا أن معنويات الرجال كانت لا تزال عالية. وكان فروست فخورا بجنوده المتعبين الذين تعلوهم القذارة والتراب، اذ بقوا اليوم بطوله يصدون هجمات الالمان المتتابعة على نحو لم يتمكن معه اي جندي الماني أو عربة المانية من بلوغ الطرف الشمالي للمعبر. لكن المعركة كانت قد تحولت الى مباراة في التحمل الشديد، وهي مباراة كان فروست يعرف ان رجاله لن يستطيعوا كسبها من دون معونة خارجية.

غياب حاسم

كان نقص الاتصالات قد أدى الى أزمة لها أبعاد الكارثة. فمنذ اللحظات الاولى للمعركة فقد الجنرال أوركوهارت اتصاله تماما بجنوده. والحق أن سلسلة من الاحداث التي لا تصدق جعلت قواته تعتقد انه مات أو وقع في الاسر، فتولى البريغادير هيكس قيادة الفيلق بدلا منه.

وفي عصر أول أيام الحملة، ١٧ سبتمبر (ايلول)، بينما كان فروست ودوبي وفيتش يسيرون بكتائبهم نحو معبر آرنهيم، كان الكولونيل تشارلز ماكنزي، رئيس أركان حرب أوركوهارت، يراقب الجنرال يخطو جيئة وذهابا "وهو متوتر وقلق ينتظر الاخبار". وكان المتبع عادة أن يتولى الجنرال ادارة المعركة من مقر قيادة الفيلق، لكنه التفت الى ماكنزي وقال: "أظن اني سأذهب شخصيا لالقاء نظرة يا تشارلز". ولم يصطحب الجنرال سوى سائقه وأحد رجال الاشارة، وانطلق بسيارته الجيب في أعقاب رجاله. وكانت الساعة ٤،٣٠ مساء.

ومضت سيارة الجنرال مسرعة على

طريق أوترخت - آرنهيم. ولم يمض وقت طويل حتى لحقت بوحدات مؤخر الكتيبة الثالثة وكان الجنرال أوركوهارت قد علم أن لاثبوري مضى الى الامام، فذهب في أعقابه. وعند أحد التقاطعات على طريق أوترخت - آرنهيم، عثر الجنرال على البريغادير لاثبوري. وكانت المنطقة آنئذ تتعرض لقصف مدفعي شديد.

واحتمى أوركوهارت ولاثبوري في أحد الخنادق وناقشا الموقف، بعدما كان انقطاع الاتصالات قد شل جهودهما لادارة المعركة. وقرر أوركوهارت محاولة الاتصال بمركز قيادة الفيلق بواسطة جهاز الراديو في سيارته. وحين اقترب من السيارة، رأى انها أصيبت بقذيفة مدفع، وأن رجل الاشارة الذي صاحبه أصيب بجرح بالغ. وعلى رغم أن جهاز الراديو بدا سليما، الا ان أوركوهارت عجز عن الاتصال بمركز قيادة الفيلق. وكتب عن ذلك لاحقا: "رحت ألعن الاتصالات البالغة السوء. وثناني لاثبوري عن محاولة العودة الى مقر قيادتي، لان قوات العدو كانت قد تكاثفت في المنطقة الواقعة بيننا وبين مواقع الانزال. واقتنعت بصحة رأيه فبقيت لكني أدركت تلك اللحظة اني بدأت أفقد السيطرة على الموقف".

وفي منزل كبير يبعد عن الطريق مسافة غير قصيرة، استعد أوركوهارت ولاثبوري لقضاء الليل. لكن أوركوهارت كان قلقاً وغير قادر على نفض التوتر عنه. "وظللت أكرر السؤال عما اذا كان تم أي اتصال مع فروست. لكن شيئا لم يحدث".



الميجور جنرال روبرت أوركوهارت.

واستيقظ أوركوهارت في الثالثة صباحا ومضى خلف الكتيبة الثالثة في تقدمها البطيء. ثم أقفلت الطرق على جنود دوبي ومن بعدهم على جنود فيتش، وتبعثرت الكتيبتان في الضواحي الغربية لآرنهيم. فاضطر أوركوهارت ولاثبوري الى الهرب طلبا للامان، حتى احتميا أخيرا في منزل من ثلاثة طوابق يقع ضمن مجموعة من المباني قرب طريق أوترخت - آرنهيم.

وكانت محنة أوركوهارت تزداد سوءا من دقيقة الى أخرى. وحين وجد نفسه متورطا وسط القتال الدائر، آمن بأن وسيلته الوحيدة للخروج من هذا المأزق هي النزول الى الشوارع ومحاولة اختراق المواقع الالمانية الى مقر قيادته. واختلف معه في ذلك

لاثبوري وضابطان آخران، اذ رأوا ان هذا يعرض سلامته الشخصية للخطر. غير ان أوركوهارت صمم على رأيه.

وخلال المؤتمر الذي عقد على عجل وسط ضجيج المعركة، ذهل أوركوهارت وضباطه حين رأوا عربة بريطانية تحمل مدفع "برن" وهي تذرع الشارع غير عابئة بسيول النار الالمانية، حتى توقفت أمام المبنى الذي يجتمعون فيه ووثب منها جاريا نحو المبنى ملازم كندي وصفه أوركوهارت بأنه "بدا كأن حياته تحميها تعويذة سحرية". واستطاع أوركوهارت للمرة الاولى ان يعرف مجرى الامور من هذا الملازم. وقال لاحقا: "ان الاخبار كانت غير مشجعة اطلاقا، اذ كانت الاتصالات لا تزال مقطوعة، وكان فروست على طرف المعبر الشمالي يتعرض للهجمات المكثفة وهو ثابت في موقعه، وكنت أنا - طبقا للبلاغات - مفقودا أو أسيرا". وقال أوركوهارت للاثبوري انه بات محتما الان "أن نجازف للخروج من المأزق قبل أن يطوقنا الالمان كلياً".

وقرروا مغادرة المبنى من الخلف، حيث يحتمل أن يتمكنوا من النجاة تحت غطاء من النار وقنابل الدخان. وكان الطريق أشبه بالكابوس، اذ بدأ جنود المظلات نشر ستار كثيف من الدخان، واندفعت جماعة اوركوهارت خارجة من الباب الخلفي حيث ركض أفرادها مخترقين حديقة خضَر، ثم تسلقوا سوراً بعد آخر، كان من بينها جدار يرتفع ثلاثة أمتار. وانتقلوا على طول مجموعة المنازل حتى بلغوا في النهاية نقطة تقاطع مع شارع مرصوف بالبلاط الصغير. وهنا جعلهم التعب والارتباك يخطئون الحساب على نحو جسيم. فبدلا من أن ينحرفوا يسارا - وهو الاتجاه الذي كان يمكن أن يوفر لهم مجالا للامان - اتجهوا يمينا نحو مستشفى سانت اليزابيث، تحت النار الالمانية مباشرة، فأصيب البريغادير لاثبوري.

وأسرع الآخرون يجرونه داخل أحد المنازل. ورأى أوركوهارت أن الرصاصة اخترقت الجزء الاسفل من ظهر البريغادير وأصابته بشلل موقت، فلم يعد يستطيع السير أو الانتقال. وحث لاثبوري الجنرال على أن يمضي ويتركه، وقال له: "لن يفيدك البقاء يا سيدي، بل سيوقعك في الاسر". وبينما هما يتحدثان، رأى اوركوهارت جنديا المانيا عند النافذة، فرفع مسدسه الاوتوماتيكي وأطلق النار من مسافة قصيرة جدا، فتحول وجه الالماني فورا الى كتلة مختلطة دامية ثم اختفى.

وترك الرجال الثلاثة الآخرين زميلهم لاثبوري لعناية زوجين هولنديين ثم، كما يقول اوركوهارت: "غادرنا البيت من بابه الخلفي للانطلاق في متاهة أخرى من الحدائق الصغيرة ذات الاسوار". لكنهم لم يتمكنوا من الذهاب بعيدا، اذ انهم، حين بلغوا حديقة المنزل الرقم ١٤ في شارع "سفارتفيغ"، اضطروا مرة أخرى الى الاحتماء في مطبخ هذا البيت الذي يملكه انطون ديركسين. وأخذ انطون يلوح بيديه محاولا انذار البريطانيين بأن الالمان يحيطون بالمنطقة، وأسرع يدفع زواره الى صعود درج ضيق ينتهي الى غرفة

نوم. ونظروا بحرص شديد عبر النافذة، فأدركوا مغزى اشارات انطون العصبية، اذ رأوا الجنود الالمان تحتهم مباشرة في بضعة مواقع تنتشر على امتداد الشارع. ويقول أوركوهارت متذكرا: "كنا قريبين منهم جدا، بل كنا نسمع حديثهم". وأخذ يقارن في ذهنه بين مجازفة الاستمرار عبر الحدائق الخلفية للمنازل ومجازفة الاندفاع في الشارع الامامي مع الاستعانة بالقنابل اليدوية لفتح الطريق. وكان مستعدا لاي مغامرة في سبيل العودة الى مقر قيادته. لكن حرص ضباطه على حياته جعلهم غير مستعدين اطلاقا لقبول أي من هذه المجازفات، اذ رأوا من الافضل الانتظار حتى يستولي الجنود البريطانيون على القطاع بدلا من المخاطرة بتعريض الجنرال الذي يقود القوة كلها للاسر أو الموت.

ولم يلبث أوركوهارت ان سمع القرقعة والصرير المألوفين اللذين تصدرهما سلاسل الجرارات، فاضطر الى البقاء في مخبئه القسري. ورأى الضباط الثلاثة عبر النافذة مدفعا المانيا اوتوماتيكيا "يجر" في الشارع ببطء، حتى توقف خارج منزل ديركسين تماما. وكاد سقف العربة المصفحة ان يبلغ مستوى نافذة غرفة النوم التي يقبعون فيها. ولم يلبث أفراد طاقم المدفع أن نزلوا من العربة وجلسوا يدخنون ويتحدثون تحت النافذة مباشرة. واتضح انهم لن يواصلوا سيرهم، وتوقع الضباط البريطانيون أن يدخل هؤلاء الالمان البيت في أي لحظة، فسارعوا الى انزال سلم صغيرة تؤدي الى غرفة عليا ضيقة وصعدوا اليها على الفور.

وتكوم الجنرال اوركوهارت في الغرفة الضيقة ونظر حوله، فرأى - وهو العملاق الذي تبلغ قامته ١٨٣ سنتيمترا - ان مخبأه الجديد لا يسمح الا بالزحف. وأحس بأنه "أبله ومدعاة للهزء، وان قيمته في هذه المعركة لا تتجاوز قيمة المتفرج". فهو الرجل الوحيد الذي كان يمكنه أن يضفي التماسك والتنسيق على الهجوم كله. الا انه معزول هنا في غرفة عليا، عاجز عن الافلات من المصيدة التي وقع فيها داخل الخطوط الالمانية.

ولم يصل الجنود البريطانيون الى المنزل الرقم ١٤ في شارع سفارتفيغ، الا صباح ١٩ سبتمبر (ايلول). وكتب أوركوهارت عن ذلك لاحقا: "سمعنا صرير المدفع الاوتوماتيكي خارج البيت، ثم تصاعدت قرقعة جنازيره حين بدأ يتحرك مبتعدا". وظهر أمامهم عندئذ انطون ديركسين، "وأعلن بعصبية وحماسة أن البريطانيين عند ناصية الشارع. فجرينا في الطريق، وحمدت الله على أننا عدنا الى الاتصال بقواتنا".

واستولى اوركوهارت على سيارة جيب وقادها بأقصى سرعة مخترقا وابلا كثيفا من نار القناصة، حتى بلغ أخيرا قيادة الفيلق في السابعة والثلث صباحا، بعد أن تخلّف وفقد السيطرة على المعركة في أحرج فتراتها لمدة ٣٩ ساعة تقريبا. وأسرع الكولونيل ماكنزي يقدم اليه بيانا عن الموقف كما يبدو لقيادة الفيلق.

كانت الصورة مفزعة. وامتلأت نفس أوركوهارت بالمرارة وهو يرى فيلقه الشامخ يتبعثر ويتقطع. وجالت

في خاطره جميع العقبات التي لاحقت قواته في عملية ماركت: البعد الكبير بين مواضع الانزال والمعبر، انهيار الاتصالات على نحو شبه تام، تأخر الانزال الثاني بسبب سوء الاحوال الجوية، فقد شحنات الامدادات الثمينة التي سقطت بمظلاتها بين صفوف الالمان، بطء تقدم دبابات هوروكس. وكان أشد ما بعث الحسرة في نفس أوركوهارت ذلك التفاؤل المفرط الذي لازم تخطيط العملية في مراحلها الاولية وأدى الى عدم توجيه الاهتمام الكافي لوجود قوة مدرعات البانزر التي يقودها بيتريتش.

تلك العوامل كلها تفاعلت لتدفع فيلق أوركوهارت الى حافة الكارثة. ولم يعد التماسك يضفي على صفوف "الشياطين الحمر" سوى انضباطهم الفائق وشجاعتهم التي تفوق التصور.

ومع ذلك، فقد أدرك أوركوهارت أن عليه أن يطلب من رجاله المنهكين الجرحى مزيدا من التضحيات يفوق كل ما سبق أن طلبه أي من قادة القوات المحمولة جواً. ولم يكن أمامه مجال للاختيار، اذ ان هذا الجنرال الاسكوتلندي الخافت الصوت رأى أن السيل المطرد من الامدادات الالمانية يفرض عليه ان يتخذ قراراته فوراً، "والا تعرض فيلقي للتدمير التام". بل ان الوقت في تلك اللحظة قد يكون فاته لانقاذ فيلقه المحبوب من الابادة.

■ **كورنيليوس ريان**

الجزء الثاني في العدد المقبل



غرام الملوك

في مأدبة عشاء اقيمت في لوس انجيليس تكريماً للامير تشارلز ولي عهد بريطانيا، روى الممثل الامريكي دين مارتن هذه الفكاهة: "ليتني اكون اميراً يوماً واحداً، واقابل اميرة، لاصحبها في المساء ثم اسألها: هل نذهب الى قصرك ام الى قصري".

ا. ك.

من دون بهارات

دخل ساعي البريد المكتب وهو يعرج وقد تمزقت رجل سرواله. فسأله رئيس المكتب: "ماذا حدث؟"

ـ كنت في طريقي، واذا بكلب ضخم اصفر ينقض على ساقي ويعضني في كاحلي.

□ هل وضعت اي شيء على كاحلك؟

ـ ابداً. لقد اعجبه هكذا، من دون اي بهارات.

د. ب.

كتاب الشهر

المعركة الكبرى

الجزء الثاني

بقلم كورنيليوس ريان

المعركة الكبرى

كانت على الممر الضيق الذي سيحمل اندفاع القوات المدرعة خمسة جسور لا بد من الاستيلاء عليها سليمة عن طريق مهاجمتها بقوات محمولة جواً. وكان خامس تلك الجسور، وهو الجسر البالغ الاهمية الذي يمتد عبر مجرى نهر الراين الادنى عند بلدة تسمى آرنهيم على مسافة ١٠٣ كيلومترات وراء الخطوط الالمانية، هو مثار قلق اللفتنانت جنرال فريدريك براونينغ، نائب قائد جيش الحلفاء الاول المحمول جواً. فقد أشار براونينغ الى جسر آرنهيم على الخريطة وسأل: "كم من الوقت ستستغرقه القوات المدرعة حتى تصل الينا؟" فأجابه الفيلد مارشال برنارد مونتغومري بلهجة قوية حاسمة: "يومين!" فواصل براونينغ النظر الى الخريطة وأجاب: "في استطاعتنا ان نظل محتفظين بها مدة أربعة أيام". وأضاف: "لكني أعتقد يا سيدي أننا ربما كنا مستهدفين هنا جسراً أبعد مما يجب". هذا ما يرويه الميجور جنرال روبرت أوركوهارت في المذكرات التي كتبها بعنوان "آرنهيم".

وفي هذا الجزء الثاني الاخير من كتابه الملحمي عن كبرى المعارك الاوروبية في الحرب العالمية الثانية، يصور كورنيليوس ريان الصعوبات الهائلة التي أحاطت بعملية "ماركت غاردن"، أضخم عملية مظلية في الحرب كلها، في مسيرتها المحتومة نحو خاتمتها المخفقة.

في المساحة المعشبة الخضراء التي تتوسط طريق يوسيبيوس بويتن سينغل ـ الشارع العريض المؤدي الى الجسر الممتد عبر نهر الراين في بلدة آرنهيم الهولندية ـ وضع الميجور جنرال هاينز هارمل خطته الاخيرة اليائسة لمواجهة الموقف الخطير. ففي ١٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٤، هبطت في المنطقة بالمظلات عصبة صغيرة من الجنود البريطانيين واستولت على طرف الجسر الشمالي، فأغلقت الطريق أمام فيلق دبابات ألماني بأكمله يقوده الجنرال هارمل، ومنعته من التقدم نحو الجنوب حيث كانت قوات مظلية بريطانية أخرى تهدد بتحرير هولندا والاندفاع منها الى قلب الرايش الثالث.

والآن، في ١٩ سبتمبر (أيلول)،

بعد يومين من القتال المرير، كان الجنرال هارمل يعرف أن البريطانيين المتمركزين على الجسر، والذين لم يزد عددهم أبداً على ٧٠٠ رجل، أوشكت مؤنهم وذخيرتهم على النفاد، وأن اصاباتهم، اذا كان يمكن قياسها باصابات رجاله، بلغت معدلا شديد الارتفاع. ومع ان البريطانيين كانوا في البداية يحتلون ١٨ منزلا تطل على الجسر، الا أنهم اصبحوا الآن يحتلون أقل من اثني عشر منزلا.

ويقول هارمل: "كنت صممت على توجيه قذائف الدبابات والمدفعية لتدمير كل مبنى استولوا عليه تدميراً تاماً. غير ان شجاعتهم الرائعة في القتال جعلتني أشعر بان من واجبي ان اطلب منهم التسليم أولا".

وكان رد البريطانيين: "اذهب الى الجحيم".

وبناء على ذلك، أصدر هارمل الى قادة الدبابات والمدفعية المجتمعين أمامه اوامر واضحة محددة: "نظراً الى ان البريطانيين يرفضون الخروج من جحورهم، فاننا سننسفهم حتى يتطايروا معها مزقاً. صوبوا قذائفكم الى ما تحت السقوف تماماً وتابعوا الضرب متراً متراً وطابقاً طابقاً حتى ينهار كل منزل تماماً، ولا يبقى بعد تنفيذنا هذه المهمة سوى كومة حجار".

وبدأ القذف واستمر بلا شفقة ولا هوادة. وكان، كما يتذكره الجندي هورست فيبر: "أشد نار رأيتها في فعاليتها. فقد أخذت المباني تنهار ابتداء من سقوفها مثل بيوت الدمى. وبدا لي انه يستحيل على اي انسان البقاء حياً وسط هذا الجحيم. وانتابني أسف حقيقي على مصير البريطانيين".

ويتذكر الجندي نفسه مبنى كان قائماً عند ناصية: "انهار سقفه الى الداخل وبدأ طابقاه العلويان يتهاويان، ثم سقط جداره الامامي كله الى الشارع، كأنه شريحة جلد تنفصل عن هيكل عظمي، كاشفاً كل طابق من داخله حيث كان البريطانيون يندفعون في كل اتجاه كالمجانين". ويتذكر فيبر ان التراب والحطام لم يلبثا ان جعلا الرؤية مستحيلة. وكان الضجيج مريعاً. ولكن على رغم ذلك، فقد فاقه ارتفاعاً صراخ الجرحى الذي تناهى الى أسماعنا".

كان الليفتنانت كولونيل جون فروست، الذي استولى رجاله على الجسر، يدرك ان كتيبته الثانية انتهت الى كارثة محققة، لأن قوات العون والغيار لم تتمكن من اختراق صفوف العدو. وأيقن فروست بأنها لم تعد تستطيع معاونته. وكانت ذخائر كتيبته نفدت تقريباً، وارتفعت نسبة الاصابات بين رجالها الى حد أن كل ملجأ متاح بات مليئاً بالجرحى. كما أن الرجال واصلوا القتال بلا هوادة لفترة تزيد على خمسين ساعة متواصلة.

وكان فروست يدرك أنهم لن يستطيعوا تحمل هذا العناء الرهيب لفترة أطول كثيراً. فالمنازل القائمة حول قطاعه من كل جانب تشتعل فيها النار، والمباني تنهار، والمواقع يجتاحها العدو. لكن فروست لم يكن على استعداد لتسهيل مهمة الاعداء. فصمم تصميماً لا أمل منه على منع

الالمان من الاستيلاء على الجسر حتى آخر لحظة ممكنة.

ولم يكن فروست متفرداً بهذه المشاعر فقد بدا أن رجاله تأثروا بمحنتهم تأثراً مماثلا. فكان الجنود يقتسمون ما لديهم من ذخيرة ويأخذون القليل الذي يجدونه مع الجرحى كي يتأهبوا للمصير الذي بدأ يحيق بهم. ولم يظهر عليهم من امارات الخوف سوى القليل، وبدا ان ما أصابهم من ارهاق وجوع وألم أيقظ لديهم احساساً بالفكاهة تجاه أنفسهم وأوضاعهم. وراح هذا الاحساس ينمو مع تعاظم تضحياتهم.

وثقلت وطأة القذف بالقنابل على قصر قيادة فروست مع غياب العصر. وهبط الاب برنارد ايغان، قسيس الوحدة، الى الملجأ لتفقد الجرحى، حيث لاقاه الرقيب جاك سبرات الذي كان يعتبر ممثل الفكاهة في الكتيبة. وقال الرقيب: "حسناً يا أبانا. انهم يقذفوننا بكل شيء لديهم ما عدا موقد المطبخ". ولم يكد ينهي جملته حتى أصابت البناء فوق رؤوسهم قذيفة مباشرة، فانهار سقف الملجأ وأمطرهم بالاقذار وقطع الملاط الصلبة. وعندما استجمعوا شتات انفسهم، رأوا أمامهم على الارض موقد مطبخ بين الحطام الساقط عليهم. فنظر اليه الرقيب سبرات وهز رأسه قائلا: "كنت أعرف ان أولاد الزنا هؤلاء على مقربة منا، ولكن لم أكن أحسب أنهم يستطيعون سماع حديثنا!"

ومع هبوط الليل، رأى فروست بلدة آرنهيم كأنما اشتعلت كلها بالنار. ولاحظ "أن قرقعة الخشب المحترق والاصداء الغريبة لأصوات المباني المنهارة توحي بأنها آتية من عالم آخر".

وكانت الخطة الاصلية تقضي بأن تتولى كتيبة فروست مع الكتائب الغائبة الاخرى مهمة الاستيلاء على الجسر، في حين تتولى وحدات أخرى من المظليين والجنود المحمولين بالطائرات الشراعية الاستيلاء على معابر مياه أخرى جنوب هولندا، ثم تنطلق دبابات الجيش الثاني البريطاني لتزأر على طول ممر ضيق ممتد من الحدود البلجيكية في هجوم مفاجيء يمكن ان يواصل اندفاعه حتى برلين.

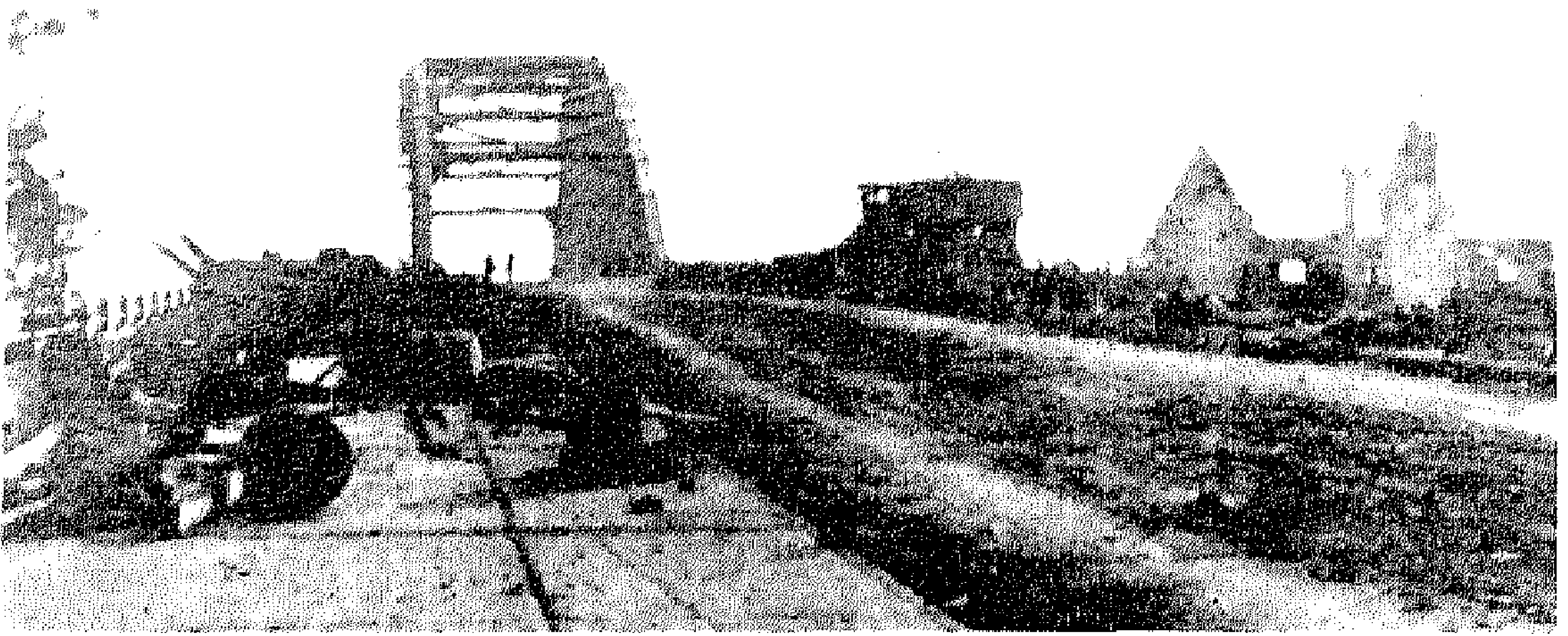
أما الآن فان رجل الاشارة ستانلي كوبلي، الذي كان جالساً في أعلى المبنى القائم فوق رأس فروست، وجد نفسه، في يأسه وحزنه، مضطراً الى التخلي عن ارسال الاشارات الرمزية والبث باللغة الصريحة، فمضى يكرر دونما انقطاع: "رد علي أيها الجيش الثاني... رد علي أيها الجيش الثاني". لكنه لم يتلق أي رد على الاطلاق.

تحذيرات أغفلت

في مقره الصغير في بروكسل عاصمة بلجيكا، كان صاحب الامير برنارد (زوج ولية العهد الاميرة جوليانا، والتي اصبحت ملكة في ما بعد) يتابع كل تطور جديد بمزيد من القلق، وهو يرى بلاده تتحول ساحة قتال شاسعة.

وسأل رئيس أركان حربه: "لماذا رفض البريطانيون الاصغاء الينا؟"

فقد كانت الخطة التي وضعها



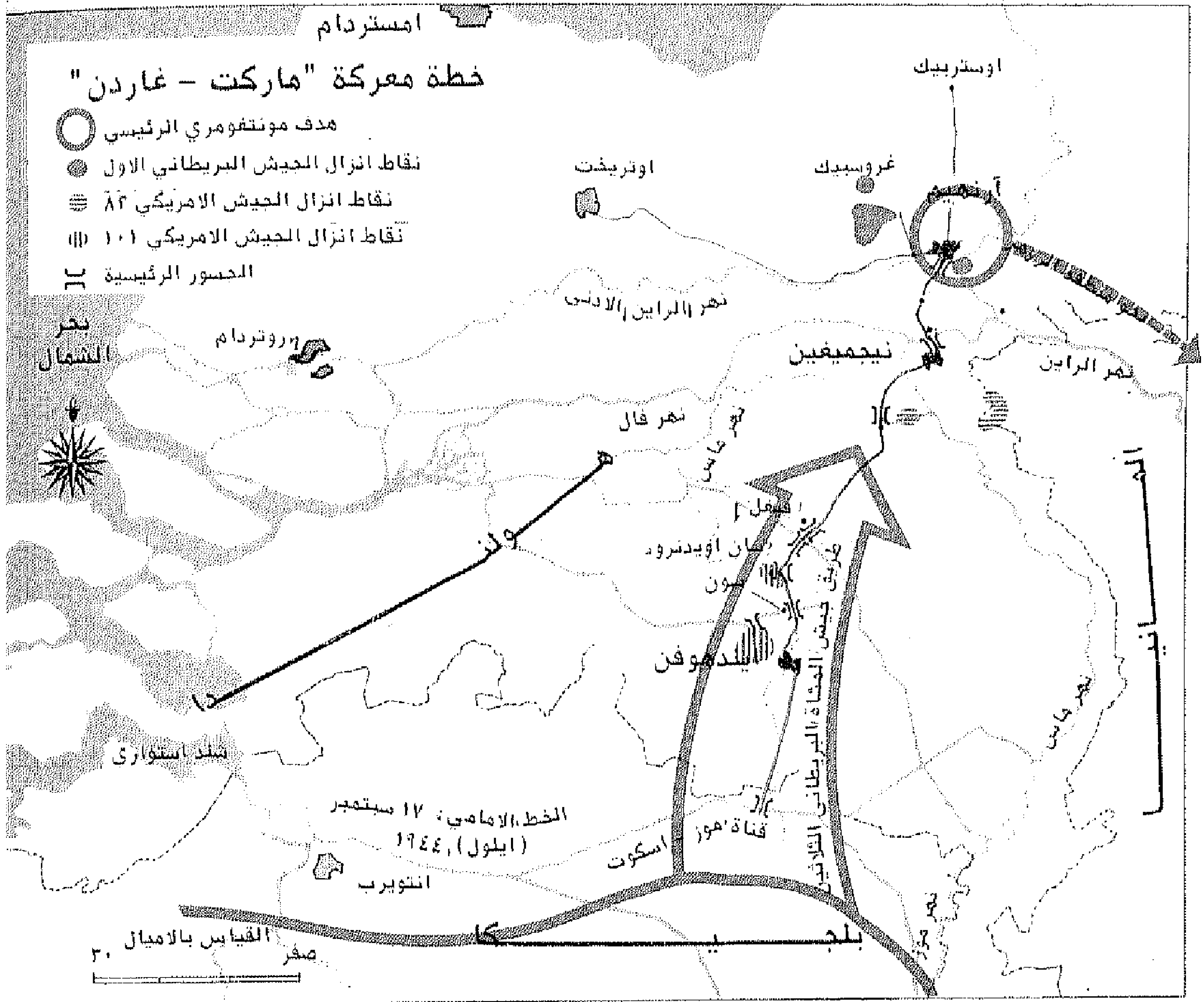
صورة التقطها الالمان لجسر ارنهيم خلال المعركة.

الفيلد مارشال البريطاني برنارد لو مونتغومري تقضي باستخدام أكبر قوة مظلية في التاريخ، وهي مؤلفة من ٣٥ ألف جندي. وكان مونتغومري يتوقع بثقة ان يؤدي هذا الهجوم المفاجيء الى انهاء الحرب. ولم يكن الفيلد مارشال وحيداً في تفاؤله هذا، لأن حمى النجاح سيطرت على جميع القادة الميدانيين على امتداد الجبهة. وكانت عمليات الانزال التي تمت على ساحل النورماندي قبل ثلاثة أشهر فقط قد أعقبها اكتساح مذهل عبر فرنسا وبلجيكا، وكان الالمان يتقهقرون عبر هولندا. وبدا ان استراتيجية مونتغومري في هذه العملية التي عرفت باسم "ماركت غاردن – "ماركت" للوحدات المحمولة جواً و"غاردن" للقوات الارضية – هي بالضبط الضربة السريعة الحاسمة التي تتطلبها الحال.

لكن الامور سارت على نحو بطيء منذ اليوم الاول للعملية. ولم يكن الامير برنارد يوجه اللوم الى أحد. فالامريكيون والبريطانيون كانوا يقدمون حياتهم قرباناً لتحرير هولندا من قاهريها القساة. غير ان الامير، مع ذلك، لم يلبث أن استاء من مونتغومري وهيئة أركان حربه، لأن كبار المستشارين العسكريين الهولنديين استبعدوا تماماً من تخطيط العملية، على رغم أن مشورتهم كان يمكن ان تكون عظيمة القيمة.

وعلى سبيل المثال، فان مناطق انزال المظليين والقوات المحمولة بالطائرات الشراعية في قطاع آرنهيم، وهي حلقة الاتصال الحاسمة في خطة مونتغومري، كانت تبعد عن جسر آرنهيم مسافات تراوح بين عشرة كيلومترات و١٣ كيلومتراً، مما يجعل المباغتة مستحيلة تماماً.

ويسترجع الامير برنارد ذلك بقوله: "لو عرفنا في الوقت المناسب اختيار مواقع الانزال والمسافات التي تفصلها عن جسر آرنهيم، لكان رجالنا أبدوا رأياً في هذا الصدد من دون شك". أما الطريق المقترح للدبابات التي تمثل رأس الحربة في الهجوم



الارضي فلم يكن أكثر من طريق رئيسي واحد، يمتد كثير من قطاعاته فوق قمة السدود البحرية. ومنذ علم الجنرالات الهولنديون بأمر هذه الفكرة، بذلوا قصارى جهدهم لكي يثنوا عنها كل من قبل الاستماع اليهم، محذرين من أخطار الاعتماد على الطريق الممتدة فوق السدود البحرية المكشوفة. ويقول الامير برنارد: "لقد أجرينا في كليات أركان الحرب لدينا دراسات لا حصر لها على هذه المشكلة. ونحن نعرف، بكل بساطة، ان الدبابات لا يمكنها ان تعمل على طول هذه الطرق من غير عون المشاة".

وفضلا عن ذلك، فان مصادر حركة المقاومة الهولندية ضد الالمان أخطرت البريطانيين بأن في منطقة آرنهيم وحدتين من الدبابات الالمانية، هما فرقتا الصدام المدرعتان "س - س" التاسعة والعاشرة، اللتان تحملتا خسائر كبيرة في القتال في فرنسا وبلجيكا، ولكنهما لا تزالان على درجة كبيرة من القوة. غير ان هذه المعلومات قوبلت، كما يبدو، بالاهمال التام من جانب

مونتغومري والقادة الآخرين.

ويقول الامير برنارد: "ان البريطانيين لم يأبهوا لموقفنا السلبي. وعلى رغم ان جميع الذين لقيناهم عاملونا بأدب جم، الا ان البريطانيين فضلوا ان يتولوا التخطيط بأنفسهم. وكان الموقف السائد بينهم يلخص بالآتي: "لا تقلق أيها الصديق القديم، فسوف ننجز هذه المهمة".

ونتيجة لذلك، فان البريطانيين الذين هبطوا الى الارض في آرنهيم سرعان ما وجدوا أنفسهم يواجهون مقاومة شديدة من فرقة الصدام المدرعة "س - س" التاسعة. ولم يتمكن أحد من بلوغ الجسر سوى الكولونيل فروست وكتيبته، بينما احتجزت كتيبتان أخريان عند مشارف البلدة.

وكان الامير برنارد يرسل من مقره في بروكسل تقارير مستمرة الى الحكومة الهولندية في المنفى في لندن والى حماته الملكة ولهلمينا ذات الاربعة وستين عاماً، التي كانت تكره النازيين بشدة. وكان الامير برنارد أخبرها في مرحلة مبكرة من العمليات "بأن القوات لن تلبث ان تجتاح عدداً من القصور والضياع الملكية"، فكان رد الملكة: "أحرقوها من اساسها". وفوجىء الامير برنارد بهذا الرد، فقال متلعثماً: "سامحيني، اذ لم أسمع جيداً ما قلت". فقالت الملكة ولهلمينا: "اني لن أضع قدمي أبداً في مكان شهد جلوس النازيين في غرفي وقاعاتي. أحرقوا هذه الاماكن حتى تترمد".

وكانت الملكة، مثلها في ذلك مثل زوج ابنتها، تتوقع ان يتم تحرير هولندا بسرعة. أما الآن فان احتمال اخفاق عملية ماركت غاردن جعل الاسرة المالكة تخشى "الانتقام الرهيب الذي سيفرضه الالمان على الشعب الهولندي لترحيبه بقوات الحلفاء". وكان كل ما يستطيعه الامير برنارد وأركان حربه "الانتظار والامل، بعد ان ملأ سير الاحداث نفوسنا مرارة واحباطاً. فلم يدر في أذهاننا أبداً أن مثل هذه الاخطاء الباهظة الثمن يمكن ان ترتكب في القمة، على يد القيادة العليا". وكان مصير هولندا نفسها يزيد من مخاوف برنارد، "لأنني كنت أعلم أنه اذا اضطر البريطانيون الى التراجع عند آرنهيم، فستكون النتائج التي يتحملها الشعب الهولندي على ايدي الالمان رهيبة ومخيفة".

قرار مرير

كان واقع الحال عند آرنهيم أسوأ كثيراً مما يتصوره أي انسان، لأن جميع الاتصالات اللاسلكية انقطعت لأسباب غير مفهومة منذ الساعات الاولى للمعركة، فانعدمت وسائل السيطرة على المعركة لدى قائد الفرقة المظلية الاولى التي اسندت اليها المهمة الحاسمة الخاصة بالاستيلاء على جسر آرنهيم، وأصبح هذا القائد، وهو الميجور جنرال روبرت أوركوهارت، العملاق الاسكوتلندي الذي يتجاوز طوله ١٨٣ سنتيمتراً ويزيد وزنه على ٩٠ كيلوغراماً، غير قادر على توجيه وحداته المختلفة. وزاد الامور سوءاً ان الجهود التي بذلها لمعرفة ما يجري على أرض المعركة انتهت به

الى الانحصار وسط معمعان القتال، فلجأ الى غرفة عليا في منزل صغير. وعندما تمكن في آخر الامر من الافلات، صباح يوم ١٩ سبتمبر (أيلول)، كان اتصاله بقواته قد بقي مقطوعاً طوال ٣٩ ساعة حاسمة.

ووصل الجنرال أوركوهارت الى مقر قيادته في فندق هارتنستاين في ضاحية أوستربيك، وحاول، بأقصى ما لديه من جهد، انقاذ من بقي من رجاله. وكانت نظرة واحدة الى الخريطة كافية لتنبيء بالموقف اليائس. فلم يكن هناك أي خط أمامي، وكانت الاسهم الحمراء في كل مكان تشير الى ما تحمله التقارير الاخيرة من أنباء التجمعات الجديدة لدبابات العدو وجنوده. وبدا أن بعض هذه التجمعات يتخذ مواقعه فعلا خلف الوحدات البريطانية.

وكان يوم ١٩ سبتمبر (أيلول)، الذي وصفه أوركوهارت بأنه "مظلم ومميت"، نقطة التحول. فقد أخفقت كل محاولة: قوات الدعم لم تصل من انكلترا بسبب سوء الاحوال الجوية في المطارات. اسقاطات المؤن والذخائر تمت وفقاً للخطة الموضوعة، لكن معظمها سقط في المناطق التي يحتلها الالمان. الكتائب الاخرى لحقت بها خسائر باهظة في محاولتها بلوغ كتيبة فروست. وكان احصاء قوات أوركوهارت الباقية ينبيء بوضع مخيف:فطوال ليلة ١٩ سبتمبر (أيلول)، أخذت الكتائب التي لا تزال على اتصال بالقيادة تقدم تقارير عن أحوالها. وعلى رغم ان الارقام كانت تقريبية وغير دقيقة، الا أنها أعطت صورة قاتمة. فقد بدا منها ان فرقة أوركوهارت على وشك ان تباد.

وكانت كتيبة فروست الثانية وحدها هي التي تقاتل كوحدة منسقة متماسكة، وان يكن أوركوهارت لا يعلم عدد الرجال الباقين فيها. وكان قد بقي في الكتيبة الثالثة خمسون رجلا وقتل قائدها، وانخفض عدد أفراد الكتيبة الاولى الى ١١٦ رجلا، بينما جرح قائدها وأسرة الالمان. أما الكتيبة الحاديةعشرة فتضاءل عديدها الى ١٥٠ رجلا، ولم يبق في كتيبة ساوث ستافورد شير الثانية سوى ١٠٠ رجل، وقد جرح القائدان في كلتا الوحدتين. وأصبحت قوة الكتيبة العاشرة ٢٥٠ رجلا، وقوة الكتيبة ١٥٦ اقتصرت على ٢٧٠ رجلا. ومع أن القوة الاجمالية لفرقة أوركوهارت - بما فيها وحدات المهندسين والخدمات - كانت تضم أكثر من ذلك، الا ان كتائب الهجوم فيها أوشكت على التلاشي. وفضلا عن ذلك، فان جنود هذه الوحدات المهاجمة كانوا متناثرين في جماعات صغيرة نال منها العياء والصدمة واختفاء قادتها في أحيان كثيرة.

وكان القتال دامياً وعنيفاً الى حد انهار معه رجال من المحاربين القدماء الذين صقلتهم المعارك الكثيرة. وشعر أوركوهارت ورئيس أركان حربه بأن هناك جواً من الذعر يتسرب الى مقر القيادة عندما راحت جماعات صغيرة من الجنود الذين تاهوا عن وحداتهمتجري عبر الحشائش المنبسطة في ساحة فندق هارتنستاين وهي تصيح:"الالمان قادمون!" وكان أولئك الجنود، في معظم الاحيان، من صغار السن

"الذين خانتهم موقتاً السيطرة على النفس"، كما قال أوركوهارت لاحقاً.

وتتابعت الاوامر طوال ليل ١٩ سبتمبر (ايلول)، صادرة الى القوات كي تنسحب داخل قطاع اوستربيك. وفي الساعات الاولى من صباح ٢٠ سبتمبر (أيلول)، صدرت التعليمات الى البريغادير جون هاكيت بالتخلي عن هجومه المعتزم في اتجاه جسر آرنهيم. وقال أوركوهارت في ما بعد: "لقد كان اتخاذ ذلك القرار أمراً بالغ الايلام، لأنه كان يعني التخلي عن الكتيبة الثانية التي تقاتل عند الجسر. لكنني كنت أعرف ان فرصة الوصول اليهم مستحيلة تماماً، مثل فرصة الوصول الى برلين". وكان رأيه هو ان الامل الوحيد ينحصر في اقامة حاجز دفاعي ومحاولة الصمود فيه حتى تبلغهم دبابات الجيش الثاني.

وفي الثامنة من صباح ٢٠ سبتمبر (ايلول)، اتيحت الفرصة لاوركوهارت كي يوضح الموقف أمام فروست والميجور فريدي غاو عند الجسر. فقد استخدم غاو توصيلة راديو ارتجالية تمكن عن طريقها أخيراً من الاتصال بقيادة الفرقة. وكانت تلك المرة الاولى التي يتحدث مع أوركوهارت منذ ١٧ سبتمبر (أيلول). ورسم غاو صورة سريعة للموقف عند الجسر، وقال: "ان الروح المعنوية لا تزال عالية، ولكننا نفتقر الى كل شيء". وبعد ذلك، كما يتذكر اوركوهارت، "سأل غاو ما اذا كان يمكنهم ان يتوقعوا قوات دعم".

ولم يكن الرد سهلا. ويتذكر اوركوهارت: "قلت له اني لست واثقاً مما اذا كانت المسألة هي ان نصل نحن اليهم او أن يصلوا هم الينا". ثم جاء فروست على الخط، فطلب منه أوركوهارت "ابلاغ كل فرد في القوة خالص تهنئتي وتقديري لما بذله من جهد رائع". ولم يكن ثمة ما يقال بعد ذلك.

"سأقتلك فوراً"

حدث ما توقعه الهولنديون، ووجدت دبابات الجيش الثاني - الفيلق الثلاثين - ان المتاعب أخذت تحيق بها منذ البداية، لأن المدافع الالمانية المستورة جيداً جعلت التقدم السريع الذي توقعه مونتغومري أمراً مستحيلا ما لم يؤت بالمشاة الى المقدم ليتولوا تطهير الارض من مكامن العدو. وأضيف الى ذلك ان الالمان نسفوا الجسر الذي يعبر قناة ولهلمينا عند بلدة زون، ولم تتيسر اقامة جسر موقت من قطاعات معدنية لتواصل عليه الدبابات تقدمها الا صباح ١٩ سبتمبر (أيلول)، وهو اليوم الذي دخلت قوات أوركوهارت أحرج مراحل القتال. وكان معنى ذلك ان فترة تأخر القوات المدرعة عن موعد تقدمها بلغ ٣٦ ساعة كاملة.

ولم يكن في استطاعة أحد في هذا القطاع من الممر أن يتصور آنئذ مدى تأثير ذلك التأخير على العملية كلها، كما ان المستقبل القريب كان يخفي ما هو أسوأ من ذلك. فقد كان الجسر الكبير الممتد عبر نهر فال عند بلدة نيجميغين على مسافة ٥٥ كيلومتراً الى الشمال، لا يزال في أيدي الالمان. وكان قادة قوات المظلية يخشون ان ينسفه الالمان هو الآخر ما لم يتم الاستيلاء عليه بسرعة. وكان السبب الوحيد الذي أقعد الالمان عن

نسفه حتى ذلك الوقت ان الفيلد مارشال الالماني فالتر موديل أمر بابقائه مفتوحاً لتيسير القيام بهجوم مضاد.

وتتابع مرور الدبابات الهادرة، تراقبها أعين جنود الميجور جنرال ماكسويل تيلور، قائد الفرقة المظلية (١٠١) وقد ملأ صدورهم الفخر بما أنجزوه. فقد تمكن الامريكيون بعد هبوطهم بالمظلات من احتلال قطاع يبلغ طوله ٢٥ كيلومتراً من الطريق الممتد من ايندهوفن الى فيغيل، وحمايته ضد مقاومة عنيفة غير متوقعة. وكان الرجال على طول الطريق يلوحون ويهتفون للكتلة الجبارة من مدرعات الفيلق الثلاثين البريطاني وهي تندفع أمامهم في سبيلها. وخلال دقائق معدودة، كان طابور الفيلق قد تحرك من بلدة زون الى بلدة فيغيل، وواصل سيره بتلك السرعة التي توقعتها خطة مونتغومري للعملية كلها. فمضى رأس الحربة المدرعة في سبيله وسط جموع الهولنديين الهاتفين الملوحين بالاعلام، حتى بلغت بلدة غرافي في الثامنة والنصف صباحاً. وهناك تحقق الاتصال بين قوة الدبابات وقوة البريغادير جنرال جيمس غافين التي تتألف من الفرقة المظلية ٠٨٢. ويتذكر العريف وليم شينيل الامر قائلا: "عرفت أننا وصلنا اليهم لأن الامريكيين أوقفونا باطلاق نار الانذار، احتياطاً لأي مفاجأة غير مستحبة".

وواصلت القوات تحركها بسرعة، فبلغت أولى الدبابات ضواحي بلدة نيجميغين عند الظهر، وبذلك تم فعلا عبور ثلثي مسافة الممر الحيوي.

لكن الضغوط كانت تتصاعد على طول الكيلومترات الخمسة والعشرين التي تحميها الفرقة (١٠١)، المسماة "النسور الصارخة"، التي يقودها الجنرال ماكسويل تيلور، الى حد ان جنود الفرقة أطلقوا على قطاعهم هذا اسم "الطريق الجهنمي". وكان واضحاً أن العدو يهدف الى عزل الدبابات التي تؤلف رأس الحربة المدرعة، معتمداً في ذلك اتخاذ بلدة بيست قاعدة له. وفي النهاية، قام الجنرال تيلور عصر ١٩ سبتمبر (أيلول) بدفع الفوج ٥٠٢ بأكمله ليتولى تطهير القطاع من الالمان. وبوغت العدو بهذا الهجوم الذي خسر فيه الالمان أكثر من ٣٠٠ قتيل وما يزيد على الالف أسير.

وحدثت خلال معركة بيست احدى الوقائع التي لا تنسى في العملية كلها. فبينما كانت الصفوف الطويلة من أسرى الالمان تساق الى قيادة الفرقة، راح الرقيب تشارلز دوهن، الذي يبلغ من العمر (٣١ عاماً) يبحث عن ضابطه، النقيب ليغراند جونسون. وكاد دوهن خلال وجودهم في انكلترا، قبل الانزال الجوي، ان "يفقد وعيه من القلق"، ولم يكن ضابطه النقيب جونسون،ذو الاثنين والعشرين عاماً، أحسن منه حالا.

وكان النقيب جونسون، صباح ١٩ سبتمبر (أيلول)، اندفع بسريته الى مهاجمة الالمان قرب بلدة بيست. وفي المعركة الشرسة التي اعقبت ذلك، والتي يتذكرها جونسون بأنها "كانت أسوأ ما رأيت أو سمعت به من معارك"، أصابته رصاصة في كتفه

اليسرى. وبعدما أنقصت الاصابات عدد سريته من ١٨٠ الى ٣٨ رجلا وحوصروا في حقل مليء بأكوام التبن المشتعلة، ظل جونسون يصد الالمان حتى تمكنت السرايا المعاونة من اجلاء المصابين الاحياء.

وبينما كان جونسون يستند على أحد المعاونين متجهاً الى وحدة للاسعاف الاولي، اصابته رصاصة أخرى أخترقت رأسه هذه المرة. وترتب على ذلك أنه، حين بلغ محطة الاسعاف الاولى، وضع جسمه بين المصابين بجروح مميتة،في ما يسميه جنود الخدمة الطبية "كومة الموتى". وهناك، بعد بحث طويل، عثر عليه الرقيب دوهن، فركع الى جانبه يفحصه. وما لبث ان أيقن أن في ضابطه رمقاً من الحياة.

وحمل دوهن الجسد المرتخي ومدده مع أربعة مصابين آخرين من سريته في سيارة جيب، ومضى نحو مستشفى الميدان في بلدة زون. وقطع عليه طريقه ظهور الالمان، فقاد السيارة الجيب داخل الغابة، حيث اختبأ حتى غابت الدورية الالمانية عن البصر، فخرج مواصلا طريقه.

وعندما بلغ المستشفى، وجد طوابير طويلة من المصابين الذين ينتظرون أدوارهم في العلاج. وكان دوهن موقناً من أن جونسون قد يموت في اي لحظة، فتجاوز صفوف المنتظرين حتى وصل الى أحد الجراحين، وقال له:"سيدي الرائد، ان ضابطي يحتاج الى العلاج فوراً". فهز الرائد الجراح رأسه وقال:"آسف أيها الرقيب. لا بد له من أن ينتظر دوره". فعاود دوهن المحاولة قائلا:"انه سيموت يا سيادة الرائد اذا لم تفحصه على الفور". لكن الجراح قال بحزم:"ان أمامنا هنا رجالا كثيرين. وسنعتني بضابطك حالما يأتي دوره".

عندئذ أخرج دوهن مسدسه (عيار ٤٥) ورفع زناده، وقال بهدوء:"ان ذلك لا يكفل السرعة اللازمة. وسأقتلك يا سيدي الرائد على الفور حيث تقف الآن ما لم تفحصه حالا". فحملق الجراح في وجه دوهن مذهولا، ثم قال:"أئتني به".

ووقف دوهن في غرفة العمليات ممسكاً بمسدسه، بينما أخذ الجراح، بمعاونة فريق طبي، يعمل على جروح جونسون. وبعدما أزيلت الرصاصات من جسم النقيب وضمدت جروحه، تقدم دوهن من الجراح وسلمه مسدسه قائلا:"حسناً. شكراً جزيلا. يمكنك الآن ان تقبض علي".

وأعيد دوهن مخفوراً الى قيادة الكتيبة حيث سيق أمام قائدها، فوقف معتدلا وقفة عسكرية في وضع الانتباه. وحين سئل عما اذا كان يدرك جسامة ما ارتكبه، وأن عمله ذاك يشكل جريمة تستحق المحاكمة العسكرية، أجاب:"نعم يا سيدي، أعرف ذلك". فأخذ القائد يتمشى جيئة وذهاباً، ثم توقف فجأة وقال:"أيها الرقيب، انني أضعك رهن الاعتقال". ونظر الى ساعته واستطرد:"لمدة دقيقة واحدة بالضبط". ووقف الرجلان ينتظران بصمت، ثم نظر القائد الى دوهن وقال:"انصراف! ارجع الآن الى وحدتك". فحياه دوهن تحية عسكرية

رائعة وأجاب: "نعم يا سيدي". وانصرف.

"كابوس حقيقي"

كان آخر عائق مائي بين الدبابات وآرنهيم يقوم عند نيجميغين، حيث يوجد جسران – أحدهما لمرور القطارات والثاني للسيارات – يمتدان عبر نهر فال الذي يبلغ اتساعه نحو ٤٠٠ متر. وفي ١٧ سبتمبر (أيلول)، لم يكن لدى الالمان سوى بضعة جنود يحرسون مشارف الجسرين. ولكن مع حلول عصر التاسع عشر، قدر الجنرال غافين ان في مواجهته عدداً يزيد على الخمسمئة من رماة "س – س" الالمان، يحتلون مواقع ملائمة وتعاونهم المدفعية والمدرعات.

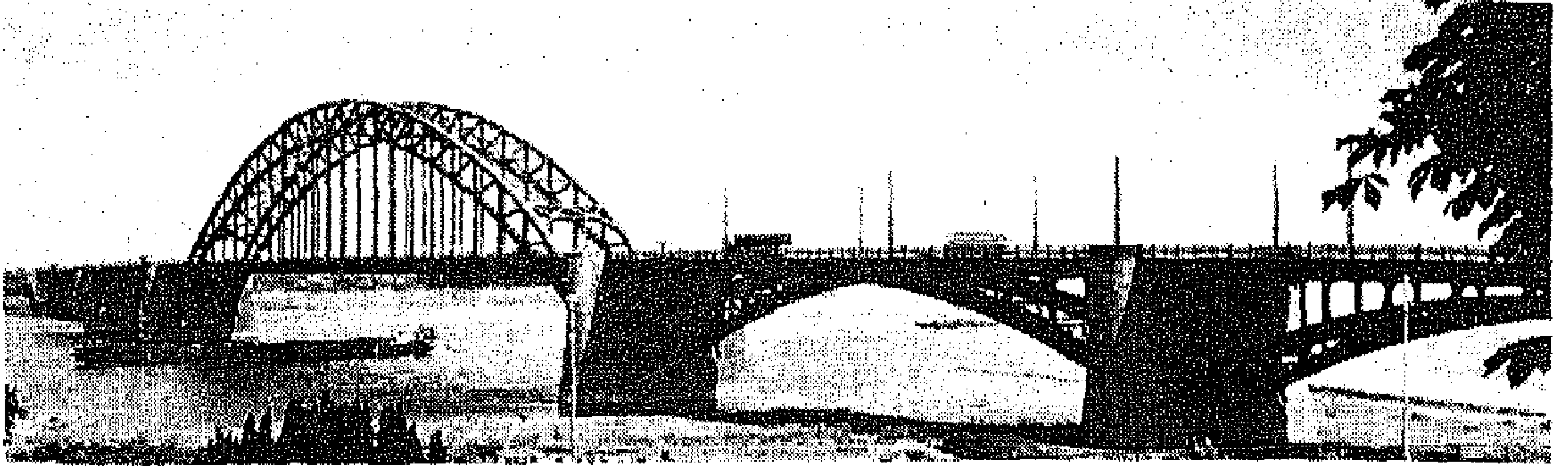
وقال غافين مخاطباً مجموعة من الضباط البريطانيين والامريكيين: "هناك طريقة واحدة للاستيلاء على الجسر، وهي أن نهاجمه من الجانبين في وقت واحد".

وكانت خطة غافين تقضي بارسال قوة تحملها القوارب عبر النهر عند نقطة تبعد نحو ٨٠٠ متر أسفل المجرى، مع مواصلة الهجوم في الوقت نفسه للاستيلاء على المشارف الجنوبية للجسر، على ان تتولى القوات العابرة بعد ذلك، تحت ستار من نار الدبابات، اقتحام خطوط دفاع العدو على الجانب الشمالي للجسر قبل ان يتمكن الالمان من ادراك ما يحدث بالضبط.

لكن المباغتة الكاملة كانت أمراً غير ممكن، اذ ان النهر أعرض من ان يتيح نقل حمولة القوارب من الرجال من غير ان يلحظهم احد. كما ان الضفة على الجانب البعيد كانت مكشوفة تماماً الى حد يفرض على الجنود، بعد العبور، اختراق مسافة عرضها ٢٠٠ متر من الارض المسطحة العارية. وعلى رغم أنه كان متوقعاً حدوث نسبة مرتفعة من الاصابات في البداية، الا ان غافين رأى أن هذه الاصابات ستكون، مع ذلك، أقل مما يمكن حدوثه اذا استمرت هجمات المواجهة ضد مشارف الجسر الجنوبية حتى يتم اجتياحه.

وكانت المشكلة العاجلة تتعلق بتأمين القوارب. وبحث الجنرال برايان هوروكس، قائد الفيلق الثلاثين، في أمر هذه القوارب مع مهندسيه، فعلم أنهم يحملون معهم ٢٨ قارباً خفيفاً مصنوعاً من القماش السميك وألواح الخشب الرقيق. وتقرر الاسراع في حمل هذه القوارب الى نيجميغين ليلاً. واذا أمكن تنفيذ الخطة في الوقت المناسب، فان هجوم غافين البرمائي، الشبيه بهجوم النورماندي على نطاق صغير، سيجري عبر نهر فال في الاولى من بعد ظهر ٢٠ سبتمبر (أيلول). ولم يكن سبق لجنود المظلات أن حاولوا مثل هذه العملية القتالية. لكن خطة غافين كانت تتيح، كما يبدو، أفضل أمل للاستيلاء على جسر نيجميغين سليماً. ويمكن بعد ذلك، كما كان الجميع لا يزالون يعتقدون، القيام باندفاع آخر سريع على طول الجزء الباقي من الممر والالتقاء مع القوات المقاتلة في آرنهيم.

وفي صباح ٢٠ سبتمبر (ايلول)، كان المظليون المنتظرون يزحمون المنطقة على مسافة قليلة من موقع



صورة التقطت في العام ١٩٦٤ لجسر نيجميغين٠

العبور، أسفل المجرى من جسر السكة الحديد عند نيجميغين٠ وكان الجنود الامريكيون والبريطانيون واصلوا العمل طوال الليل لتوسيع المساحة المؤدية الى ضفة النهر كي تتمكن دبابات الفيلق الثلاثين ومدفعيته الثقيلة من احتلال مواقع لاطلاق النار بغية دعم الهجوم٠ وكان من المقرر ان تحلق طائرات تيفون على علو منخفض فوق الضفة الشمالية قبل ساعة الصفر بنصف ساعة لتغرق المنطقة كلها بنار الصواريخ والرشاشات، على ان تتولى الدبابات والمدفعية من مواقعها الارضية قذف الموقع مدة ١٥ دقيقة أخرى، تنشر الدبابات بعدها ستاراً من الدخان تنطلق في ظله الموجة الاولى من الرجال بقيادة الميجور جوليان كوك البالغ ٢٧ عاماً، لتقوم بواحدة من أجرأ عمليات عبور الانهار في التاريخ٠

ووقف كوك في الطابق التاسع لمحطة مجاورة لتوليد الطاقة يراقب الضفة الشمالية عبر منظار، فرأى وراء الضفة المنبسطة رصيفاً منحدراً لسد مائي يرتفع بمقدار أربعة أمتار ونصف متر الى ستة أمتار٠ ورأى بوضوح جنود الاعداء في مواقعهم على طول أعلى السد٠ ويتذكر كوك ان الفكرة التي راودته آنذاك كانت "ان شخصاً ما تفتق ذهنه عن كابوس حقيقي"٠

ولم تصل القوارب في الموعد المقرر، فأعيد تحديد موعد الهجوم للساعة الثالثة عصراً٠ لكن الساعة بلغت الثانية عصراً من غير ان يظهر اي أثر للقوارب٠ ولم يعد الوقت يسمح بوقف هجوم اسراب طائرات تيفون التي بدأت تقترب فعلا٠ وفي تمام الثانية والنصف عصراً، بدأت الطائرات ضربتها٠ وانطلقت تبرق في السماء فوق الرؤوس لتنقض واحدة بعد أخرى مطلقة صواريخها ونار مدافعها الرشاشة على مواقع العدو٠ وبعد عشر دقائق وصلت الشاحنات الثلاث التي تحمل القوارب٠ فرأى رجال كوك للمرة الاولى - وكان ذلك قبل موعد العبور بعشرين دقيقة فقط - الزوارق الهوائية الخضراء الهشة التي ستحملهم٠

كان طول الزورق يقل عن ستة أمتار وله قاع مسطح مقوى بألواح من الخشب الرقيق العريض٠ وكانت

جوانبه المصنوعة من القماش السميك مثبتة في أماكنها بدعائم خشبية يبلغ ارتفاع كل منها ٧٥ سنتيمترا. وكان المفروض ان يكون كل زورق مزودا بثمانية مجاذيف. لكن عددا كبيرا من الزوارق لم يكن فيه سوى مجذافين، مما كان يعني ان على الرجال استخدام قواعد بنادقهم للتجذيف.

وسارع المهندسون الى بدء عملية تركيب الزوارق. ولدى فراغهم من تركيب أحدها، كان المظليون المختصون يحملون اليه معداتهم ويتأهبون للاندفاع به الى مياه النهر. وتم تجميع القوارب كلها أخيراً وسط ضجيج القذف بالنار الموجهة الى الضفة البعيدة. ويتذكر الملازم أول باتريك مولوي أن "شخصاً ما صاح قائلا: انطلقوا! فأمسك الجميع بجوانب زوارقهم وأخذوا يسحبونها نحو مياه النهر".

الا انه عندما وصلت الموجة الاولى، التي يبلغ عددها ٢٦٠ رجلا، الى حافة النهر، بدأت عملية العبور تتخذ شكل الكارثة. فقد وضع بعض الزوارق في مياه ضحلة أكثر من اللازم، فالتصقت بطين القاع وتعذر تحريكها. وأخذ الرجال يكافحون ويتخبطون في المياه الموحلة ليحملوها الى مواضع أعمق. ودفعوها نحو وسط المجرى ثم تسلقوا ليعتلوها، لكن بعض الزوارق انقلب خلال محاولة الجنود رفع أنفسهم اليها. وكان بعض الزوارق الاخرى المثقلة بأحمالها قد وقع في قبضة التيار وبدأ يدور حول نفسه وتعذرت السيطرة عليه. وغرقت زوارق أخرى تحت وطأة شحناتها. ووسط هذا الارتباك الشامل، فتح الالمان نارهم.

وبلغت كثافة النار وتركيزها درجة أعادت الى ذهن الملازم مولوي "ذكرى أسوأ ما واجهناه في بلدة آنزيو لدى هبوط قوات الحلفاء على ساحل ايطاليا فقد كان الالمان يطلقون نارهم بالرشاشات الثقيلة ومدافع الهاون موجهين الجانب الاكبر منها من أعلى رصيف السد على الضفة المقابلة ومن جسر السكة الحديد. وأحسست فعلا بأني هدف ثابت لهم". وأصيب القسيس ديلبرت كويهل بالغثيان لفظاعة ما شاهده. فقد انفجر رأس الرجل الجالس الى جواره، بينما ظل كويهل يردد: "لتكن مشيئتك يا رب".

وراحت شظايا القذائف تمزق الاسطول الصغير. وغرق الزورق الذي يحمل نصف قوة الملازم جيمس ميغيلاس من غير ان يترك أثراً أو ينجو من ركابه أحد. وتساقطت النار حول زورق النقيب موفات بوريس وكأنها الوابل. وأخيراً قال المهندس الذي يتولى توجيه الزورق: "أمسك الدفة، فقد أصبت". واشتبكت قدم المهندس بمؤخر الزورق خلال سقوطه الى الماء، فأخذ الزورق يدور حول نفسه. واضطر النقيب بوريس الى دفع جثة المهندس بعيداً في الماء، وقتل رجلان آخران في زورقه قبل ان يتمكن من انهاء ذلك.

وأخيراً وصلت الموجة الاولى من المهاجمين الى ضفة النهر الشمالية. وكان اللفتنانت كولونيل جايلز فاندلير يراقب عملية الانزال، فرأى زورقاً أو اثنين يصلان الى الضفة، وخلفهما ثلاثة زوارق أو أربعة اخرى.



الفرقة المظلية ٨٢ تتحرك عبر اطلال بلدة نيجميغين .

ولم يتوقف أحد ، بل خرج الرجال من زوارقهم وبدأوا يركضون على الفور نحو رصيف السد . لقد كان حقاً مشهداً لا نظير له من مشاهد الجسارة والاقدام ! فقد مضى الرجال يعبرون تلك الارض المكشوفة باصرار ، ولم أر واحداً منهم يتوقف أو ينبطح أرضاً الا اذا أصيب . وفي ظني أن القوة التي عبرت لم تزد على نصف أسطول الزوارق" . ثم رأى فاندلير ما أذهله:"فقد استدارت الزوارق عائدة لكي تحمل الموجة الثانية" . والتفت الجنرال فريدريك براونينغ الى الجنرال هوروكس وقال:"هذه أجرأ عملية رأيتها في حياتي كلها" .

الى الجسرين

بينما كان زورق الهجوم الذي يستقله الرائد جوليان كوك يقترب من الضفة الشمالية للنهر ، رأى كوك الى يمينه حركة في المياه الرمادية العكرة . "ورأيتني أنظر الى ما يشبه فقاعة هوائية كبيرة تتحرك بثبات نحو الضفة ، فظننت ان خيالي جمح بي . وعندئذ انشق الماء عن قمة خوذة بقيت تتحرك الى الامام ، ثم ظهر تحت الخوذة وجه رجل عرفت فيه الجندي جوزف جدليكا من مجموعة المدافع الرشاشة . ورأيته يخرج من الماء بجسمه الصغير وقد التفت حول كتفيه أشرطة من طلقات المدفع

الرشاش، وفي كل من يديه صندوق مليء بالطلقات أيضاً". وكان جدليكا سقط في مياه عمقها مترين ونصف متر قبل ان يصل زورقه الى الضفة. فما كان منه الا ان حبس أنفاسه ومضى يمشي بهدوء فوق قاع النهر حتى خرج من الماء.

ووسط الدخان والضجيج والارتباك الشامل، لم يتمكن بعض رجال الموجة الاولىمنتذكر طريقةعبورهم المنطقة المكشوفة على الضفة. وعلى سبيل المثال، فان العريف جاك بومر، المختص بالاتصالات والاشارة، كان مثقلا بالمهمات، فمضى بكل بساطة يركض الى الامام، "وفي ذهنه أمر واحد: أن يظل حياً اذا استطاع".

وكان يعرف أن عليه بلوغ رصيف السد وانتظار المزيد من التعليمات. وعندما بلغ قمة الرصيف رأى "الجثث في كل مكان. وكان الجنود الالمان - وبعضهم لا يزيد عمره على ١٥ عاماً والبعض الآخر جاوز الستين - الذين أمعنوا فينا قتلا قبل بضع دقائق ونحن في الزوارق، يصرخون طالبين الرحمة وهم يحاولون الاستسلام كأسرى حرب". لكن المهاجمين كانوا تحت تأثير الصدمة العنيفة والغضب الشديد بسببالمحنةالتي مروا بها مع زملائهم الذين رأوهم يموتون تحت أبصارهم، فلم يأخذوا كثيراً من الإسرى. ويتذكر بومر "ان بعض الالمان قتلوا رمياً بالرصاص على الفور من مسافات قريبة جداً".

ولم تتمكن الموجة الاولى من اجتياح جميع مواقع العدو. لكن العديد من رجالها أصبحوا قابعين في مواقع المدافع الرشاشة التي كان يشغلها الالمان من قبل، مما أتاح لهم المساهمة في حماية وصول الموجات التالية. وقد فقد زورقان آخران في عملية العبور الثانية. لكن المهندسين، على رغم العياء الشديد ووابل القذائف المنصب عليهم، تمكنوا من القيام بخمس رحلات أخرى في الزوارق الاحد عشر الباقية، أنجزوا فيها نقل جميع الجنود عبر نهر فال الدامي. وأصبحت السرعة أهم عنصر بعد ذلك، اذ كان على رجال كوك الاستيلاء على أطراف الجسرين الشمالية قبل ان يتنبه الالمان لما حدث، وقبل ان ينسفوا الجسرين.

وكان الالمان آنذاك ينسحبون الى مواقع ثانوية. لكن جنود كوك لم يتركوا لهم اي فرصة بل اندفعوا وراءهم بلا هوادة ولا شفقة. ويعلق النقيب هنري كيب على ذلك:"بدا ان الباقين من رجال الكتيبة تملكتهم حمى الهياج وأفقدهم الغضب كل وعي، فنسوا معنى الخوف الى حين. ولم يحدث أن رأيت أبداً - لا قبل ولا بعد - تحولا بشرياً عنيفاً وحاداً كالذي رأيته اليوم. لقد كان مشهداً رهيباً، لكنه لم يكن جميلا على الاطلاق".

ومضى الجنود بنجاح كبير يرغمون الالمان على الخروج من جحورهم ومواقعهم ويواصلون هجومهم الساحق من دون أن يتوقفوا للراحة أو لاعادة التجمع. وواصلوا القتال في الحقول والبساتين والمنازل القائمة وراء رصيف السد، تحت نار الرشاشات وبطاريات المدافع المضادة للطائرات التي صوبت اليهم. وفي الوقت

نفسه، انطلقت بعض الوحدات من السريتين تسابق الريح في عدوها نحو الجسرين.

وعند جسر السكة الحديد، جوبهت السرية "هـ" بدفاع شديد من الالمان بدا انه يهدد الهجوم الامريكي بالتوقف. لكن استمرار ضغط الهجوم من القوات الامريكية والبريطانية عند طرف الجسر الجنوبي وفي بلدة نيجميغين نفسها جعل دفاع العدو ينهار فجأة. ودهش النقيب كارل كابل وهو يرى الالمان يتراجعون عبر الجسر "بأعداد كبيرة"... نحو مدافع الامريكيين! وتركهم الامريكيون يقطعون ثلثي المسافة، ثم فتحوا عليهم النار. وقتل من الالمان ٢٦٠ رجلا وجرح كثيرون، ووقع العشرات منهم أسرى قبل ان يتوقف اطلاق النار. وبعد ساعتين من بدء الهجوم على جسري نهر فال، سقط أول الجسرين في أيدي المهاجمين.

واتصل النقيب كابل بالرائد كوك عن طريق الراديو ليحثه على دفع الدبابات البريطانية الى العبور بأسرع ما يمكن، اذ كان النقيب كابل والنقيب بوريس يظنان ان حصولهما على دعم هذه الدبابات يكفل لهما الاستيلاء على الغنيمة الكبرى، وهي الجسر الذي يمتد فوقه طريق السيارات. وانطلق الجنود في طريقهم من غير ان يترددوا لحظة واحدة.

كان الدخان المتصاعد يحجب منظر نهر فال البعيد في ضوء الغسق عندما أخذ الجنرال الالماني هاينز هارمل يحملق عبر منظاره، محاولا رؤية ما يجري من موقعه الامامي قرب بلدة لينت حيث جاء الى الجنوب من آرنهيم. وكانت المدافع تزأر حوله في كل اتجاه، والجنود يتحركون متراجعين خلال البلدة ليتخذوا مواقع جديدة. وكانت أسوأ مخاوف الجنرال هارمل قد تحققت، اذ تمكن الامريكيون، خلافاً لكل التوقعات، من عبور نهر فال بنجاح جريء ومدهش. ومن بلدة نيجميغين نفسها كان الكابتن كارل يولينغ قد أرسل الى قائده آخر رسائله المختصرة، يخبره انه محاصر ولم يبق معه سوى ستين رجلا. ولم يعد لدى الجنرال هارمل أي شك في ان الجسرين ضاعا. ولم يكن يعلم اذا كان جسر السكة الحديد قد تم نسفه أم لا. لكنه أدرك انه اذا كان يريد نسف الجسر الذي يجري عليه طريق السيارات، فلا بد له من ان يفعل ذلك على الفور.

ولم يكن هارمل اتصل بقائده الجنرال فيلهلم بيتريتش "لأنذره مقدماً بأني ربما اضطررت الى نسف جسر السيارات. وقد افترضت ان بيتريتش هو الذي أصدر الامر باعداد التدابير لنسف الجسرين". ورأى هارمل من المنطقي بناء على ذلك - وعلى رغم أوامر مودل - "أنه لو كان بيتريتش مكاني لنسف الجسر الرئيسي. وكان رأيي ان أوامر مودل بعدم نسف الجسر أصبحت على اي حال لاغية آلياً فيضوء التطورات التي حدثت". وكان يتوقع ان تظهر الدبابات البريطانية في اي لحظة على جسر السيارات.

ووقف هارمل قرب المهندس المختص الى جوار صندوق التفجير، وأخذ يفحص المعبر بدقة. ولم



دورية المانية قرب آرنهيم.

يستطع في البداية ان يكتشف اي حركة. وما لبث ان رأى دبابة وحيدة تبلغ منتصف الجسر، تعقبها دبابة أخرى تسير وراءها بانحراف قليل الى اليمين. فقال للمهندس:"استعد". وظهرت في مجال النظر دبابتان أخريان. وانتظر هارمل حتى وصل صف الدبابات الى منتصف الجسر تماماً، ثم أصدر امره:"انسفه!"

وضغط المهندس مقبض صندوق التفجير الى أسفل، ولكن لم يحدث شيء. وواصلت الدبابات البريطانية تقدمها، فصرخ هارمل:"مرة أخرى!" وعاد المهندس يضغط مقبض التفجير الى أسفل، لكن الانفجارات الهائلة التي كان هارمل يتوقعها لم تحدث. وهو يقول مستعيداً ذلك:"كنت اتوقع رؤية الجسر ينهار والدبابات تتهاوى الى النهر. لكنها، بدلا من ذلك، راحت تواصل تقدمها بلا هوادة، وأخذ حجمها يزداد ضخامة وقرباً عبر المنظار". وصاح هارمل مخاطباً اركان حربه الذين استولى عليهم القلق:"يا الهي! انهم سيصلون الى هنا في دقيقتين!"

وراح هارمل يصدر أوامر متتابعة الى ضباطه، فأمرهم "باقفال الطرق بين بلدتي ايلست ولينت بكل قطعة متوافرة من المدفعية المضادة للدبابات وغيرها، لأننا ان لم نفعل ذلك فسوف يواصلون طريقهم الى آرنهيم مباشرة". وانتهى الى علمه في تلك اللحظة ان جسر السكة الحديد كذلك لا يزال قائماً لم ينسف. فازداد أسفه وقلقه، واندفع الى وحدة للراديو في أحد مواقع القيادة

القريبة، حيث اتصل بمقر قيادته المتقدم وتحدث الى ضابط عملياته قائلا: "انبىء بيتريتش بأنهم عبروا نهر فال".

وكانت الساعة بلغت السابعة والربع من مساء ٢٠ سبتمبر (ايلول)، وكانت آرنهيم على مسافة لا تتجاوز ١٨ كيلومترا.

"حفظ الله الملك"

عند جسر آرنهيم، كان التحدي الذي قامت به قلة من الشجعان في وجه الالمان أوشك على نهايته. فقد استأنف الالمان عند الفجر وابل قذائفهم الرهيب، وأخذت أكوام الحطام العاري التي كانت بيوتا ومكاتب من قبل تستقبل من جديد نار الالمان الكثيفة.

لقد كانت الشجاعة العارية وحدها سند رجال فروست حتى تلك اللحظة. وأمدتهم هذه الشجاعة المجردة بما يكفي من عزم وقوة وثبات لصد الالمان طوال ثلاث ليال ويومين، فتمكنت كتيبتهم بمفردها من تحقيق هدف فرقة انزال جوي كاملة. وثبتت في مواقعها فترة أطول مما كان مطلوبا من الفرقة أن تفعله. وطوال الساعات الحافلة بالاستماتة والقلق، في انتظار معونة لم تصل أبدا، كانت الفكرة السائدة بينهم تلك التي لخصها العريف غوردون سبايسر حين كتب: "من المتقاعس عن أداء واجبه؟ لسنا نحن!"

وقرب الظهيرة، جرح الرجل الذي صمد في تحديه للالمان بهذا العناد الاسطوري. فقد كان فروست يقابل الميجور دوغلاس كرولي حين فوجىء، كما يذكر هو، "بانفجار هائل" اقتلعه من قدميه وألقى به منبطحا على وجهه على بعد بضعة أمتار. فقد انفجرت قذيفة مدفع هاون بين الرجلين، لكنهما أفلتا من الموت بمعجزة. غير أن الشظايا مزقت كاحل فروست الايسر وقصبة ساقه اليمنى. وقام حاملو المحفات بنقل الرجلين الى الملجأ مع الجرحى الآخرين. ورأى الملازم جون بلانت أن منظر الكولونيل ممددا على محفة كان ضربة قاصمة: "فقد كان أمرا بالغ الايلام أن نراه محمولا الى الداخل على تلك الصورة، بعد ما بقي صامدا كالطود لا يهزه شيء".

واستيقظ فروست نحو السابعة مساء وقد استبد به الضيق لانه استسلم للنوم. وكان الملجأ قد امتلأ بأكثر من ٢٠٠ مصاب، وأصبحت الحرارة فيه شديدة. وطلب فروست أن يرسلوا اليه الميجور غاو. وقال له حالما رآه: "عليك أن تتولى القيادة".

كان المبنى يحترق والجرحى معرضين لخطر "الشواء وهم أحياء". وكان الرجال في جميع أنحاء الملجأ المظلم يسعلون من فرط الدخان الخانق المتسرب اليهم. وركع الدكتور جيمس لوغان، رئيس الوحدة الطبية للكتيبة، الى جوار فروست، وقال له ان الوقت حان لاخراج المصابين. واستطرد بتصميم: "لا بد لنا من الاتفاق مع الالمان على عقد هدنة موقتة يا سيدي. فنحن لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك". فالتفت فروست الىالميجور غاو وأمره باتخاذ التدابير اللازمة، "ولكن مع توزيع الجنود المقاتلين على مبان أخرى ومواصلة العمليات. فقد

رأيت أنه، على رغم ضياع الجسر من أيدينا، فقد كنا نستطيع مواصلة السيطرة على مشارفه لفترة أخرى قد تكون كافية لضمان وصول مدرعاتنا".

وانصرف غاو ولوغان لاتخاذ تدابير الهدنة. ثم حمل فروست الى أعلى بمعاونة جندي مظلات مصاب بصدمة القنابل، ووضع على ضفة النهر قرب الجسر الذي بذل كل ذلك الجهد المستميت حتى يبقى مسيطرا عليه. وكانت الحرائق الشديدة مشتعلة في المباني القائمة من حوله في كل اتجاه. ورأى الجنود الالمان والبريطانيين "يعملون معا بأقصى سرعة لاخراج المصابين، بينما كان ضوء اللهب يسطع على المنظر كله".

وبعد اخراج آخر مصاب بدقائق قليلة، ارتفع زئير مفاجىء ثم انهار المبنى بأكمله واستحال كومة انقاض ملتهبة. والتفت فروست الى الرائد كرولي الراقد على محفة بجانبه، وقال بصوت متعب: "حسنا يا دوج، اننا لم نفلت بالغنيمة هذه المرة، أليس كذلك؟" فهز كرولي رأسه وقال: "كلا يا سيدي، لكننا جعلناهم يشقون من أجلها شقاء عظيما".

وكانت عيون الجرحى البريطانيين مفعمة بالدهشة والحذر وهم يراقبون الجنود الالمان الذين راحوا يتنقلون بينهم بروح زمالة غير عادية ويقدمون اليهم السجائر والشوكولاته والشراب. ولاحظ جنود المظلات البريطانيون بمرارة أن معظم تلك الامدادات بريطانية، وكان واضحا ان الالمان جمعوها من الامدادات التي أسقطتها الطائرات البريطانية، لكنها وقعت في أيدي الالمان.

غير أن اليأس لم يتطرق الى من بقي سالما من رجال فروست الاشاوس. وبينما كان آخر جريح يحمل خارج الملجأ، بدأت المعركة من جديد كأشد ما كانت قبل ساعة. ويتذكر غاو ذلك بقوله: "كان كابوسا مريعا، اذ كنا حيثما التفتنا، نجد الالمان أمامنا وخلفنا وعلى الجانبين فقد تمكنوا من تسريب قوة كبيرة الى المنطقة خلال الهدنة، وأصبحوا متمركزين في كل مبنى بلا استثناء. لقد اجتاحوا موقعنا فعلا".

وكان الالمان يعرفون أن القتال انتهى، وأن كل ما بقي منه لا يزيد على عملية تطهير. وكان مما يثير السخرية أنه، على رغم وجود دبابات لهم فوق الجسر، فان تلك الدبابات كانت عاجزة عن العبور لان الحطام المتشابك فوق الجسر كان يحتاج الى ساعات طويلة لازالته. وفي النهاية، لم يمكن فتح طريق ضيق وبدء المرور عبر الجسر الا في الساعات الاولى من صباح ٢١ سبتمبر (ايلول).

ومع أول ضوء في يوم الخميس، خرج غاو ومن بقي من رجاله المبعثرين في القطاع من مخابئهم. ان القوات الرديفة لم تصل، بينما كان الالمان يعملون منهجيا على احتلال المواقع وارغام الرجال الذين نفدت ذخيرتهم على التسليم. وأخذ الجنود البريطانيون الباقون يتبعثرون فرادى أو في أزواج، محاولين الهرب من القطاع من غير أن يلحظهم أحد. وعلى هذا النحو البطيء المتحدي، بدأت بقايا المقاومة البريطانية تنتهي.

واتجه الميجور غاو الى محطة توزيع

المياه القريبة، آملا في الاختباء والراحة بعض الوقت، لكي يتخذ طريقه بعد ذلك غربا نحو القوات الرئيسية التي يقودها الجنرال أوركوهارت. وأمام محطة المياه تناهت الى سمعه أصوات ألمانية، فأسرع نحو كومة خشب وحاول أن يختفي تحتها. لكن كعب حذائه ظل بارزا من طرفها، فرآه أحد الالمان وأمسك به وسحب غاو خارجا. ويقول غاو: "كان التعب قد بلغ مني مداه، فاكتفيت بالنظر اليهم وانفجرت ضاحكا". وقاده الالمان أسيراً.

وفي غرفة مليئة بالاسرى الآخرين، أرسل ميجور الماني في طلب غاو. وعندما جيء بالضابط البريطاني، حياه الرائد الالماني تحية هتلرية وقال له: "اعتقد أنك قائد هذه القوة". فنظر اليه غاو بحذر وقال: "نعم". فقال الالماني: "أود ان أهنئك أنت ورجالك لانكم جنود أشاوس. لقد سبق أن حاربت في ستالينغراد. ولكن من الواضح أنكم، أيها البريطانيون، تملكون مقدارا كبيرا من الخبرة في قتال الشوارع". فحملق غاو في وجه الضابط الالماني وقال: "كلا. لقد كانت هذه اول محاولة لنا. وسنكون أفضل كثيرا المرة المقبلة".

وفي لحظة ما من هذه الساعات الاخيرة، أرسل أحدهم من قرب الجسر رسالة أخيرة بالراديو لم تلتقطها قيادة أوركوهارت ولا قيادة الجيش الثاني البريطاني. لكنها وصلت واضحة الى وحدة الاستماع التي يقودها اللفتنانت كولونيل فالتر هارتسر في قيادة فرقة الصدام المدرعة "س - س" التاسعة. وبعد انقضاء سنوات طويلة على الواقعة، لم يستطع هارتسر ان يتذكر الرسالة بأكملها، وان يكن قد لفتته منها الجملتان الاخيرتان فظل يذكرهما، وهما: "نفدت الذخيرة. حفظ الله الملك".

على مرمى البصر

في الساعة ١٠،٤٠ من صباح الخميس (٢١ سبتمبر (ايلول)، أبلغ النقيب رولاند لانغتون من قوة الحرس الايرلندي ان على سريته الرقم ١ أن تندفع خارجة من رأس الجسر الذي تم الاستيلاء عليه حديثا في نيجميغين كي تصل الى آرنهيم. وقال له الليفتنانت كولونيل جو فاندلير ان ساعة الصفر ستكون الحادية عشرة صباح اليوم نفسه.

وعلى رغم أن فاندلير لم يكشف عن مشاعره للكابتن لانغتون، الا أنه كان متشائما في ما يتعلق بنتيجة هذا الهجوم. فقد سبق له أن قام مع آخرين، من بينهم ابن عمه اللفتنانت كولونيل جايلز فاندلير، بعبور جسر نيجميغين لدراسة الطريق الرئيسي المتجه شمالا نحو آرنهيم. وكان الطريق في ذلك الموضع يمتد على ارتفاع ٢٥٠ سنتيمترا حتى ٣٥٠ سنتيمترا فوق أرض لينة مستصلحة من البحر على كلا الجانبين، مما جعل الامر يبدو لهؤلاء الضباط غير مبشر بأي خير. وكان أول من علق على ذلك الميجور دنيس فيتزجيرالد، الذي يلي جو فاندلير في القيادة، فقال: "سيدي، اننا لن نتمكن من التقدم مترا واحدا فوق هذا الطريق اللعين". ووافقه على كلامه جايلز فاندلير،

فقال معقبا: "انه مكان لا يعقل ان يحاول أحد تسيير الدبابات فوقه".

وكان التقدم على طول الممر المراد فتحه يجري حتى تلك اللحظة في جبهة عرضها دبابة واحدة. الا انه كان من الممكن دائما اجراء المناورات والتحرك على جانبي الطريق الرئيسي. أما الموضع الذي بلغوه، فيتذكر جايلز فاندلير انه "لم يكن يتيح اي فرصة للخروج عن الطريق. فرصيف السد الذي يعلوه طريق رئيسي يوفر امكانات ممتازة للدفاع، لكنه مكان غير مناسب مطلقا للدبابات.

والتفت جايلز الى الضباط الآخرين وقال: "يمكنني أن أتخيل الالمان وهم جالسون هناك يفركون أيديهم ابتهاجا وهم يروننا قادمين". وحملق جو فاندلير في المنظر صامتا، ثم قال: "على رغم ذلك، علينا أن نحاول، مجربين حظنا مع هذا الطريق اللعين".

وفي تمام الحادية عشرة صباحا، أمسك الكابتن لانغتون بالميكروفون في سيارة الاستطلاع التي يركبها وأذاع الرسالة الآتية على وحداته بالراديو: "انطلقوا! انطلقوا! انطلقوا! لا تتوقفوا لاي سبب". وأخذت دباباته تهدر أمام مكتب بريد بلدة لينت متجهة الى الطريق الرئيسي. وقال لانغتون لنفسه وهو يستسلم للاقدار: "إما أن نحقق ذلك الان واما لا نحققه أبداً". وبعد فترة ١٥ أو ٢٠ دقيقة بدأ يتنفس بحرية أكثر، اذ لم تصدر اي حركة من العدو. وأحس لانغتون "بشيء من الخجل لما انتابه قبل من قلق شديد".

ومضت دبابات الحرس الايرلندي تزحف باطراد. وكان النقيب لانغتون في سيارة الاستطلاع التي يستقلها يسمع صوت الملازم طوني ساموبلسون، قائد الدبابات المتقدمة، وهو يعلن أن أول عربة مصفحة تقترب الان من مشارف بلدة ايلست. ولكن عندما بلغ الحرس الايرلندي منتصف الطريق الى آرنهيم سمع لانغتون انفجارا عنيفا عن يمينه. فالتفت ورأى "عجلة دبابة شيرمان ترتفع بكسل في الهواء فوق قمم بعض الاشجار القائمة على مقربة منا". وأدرك حالا أن احدى الدبابات المتقدمة أصيبت. ولم يلبث الملازم ساموبلسون، الذي كان على مقربة من الدبابات، أن أكد حقيقة ذلك.

وتوقف الطابور فجأة. واضطربت الاقوال في رواية ما حدث، وأصبحت الاصوات التي ينقلها الراديو مشوهة ومختلطة بعدما نشبت المعركة. ويتذكر جايلز فاندلير الامر قائلا: "بدا أن هناك مقدارا كبيرا من الصياح. فأعلمت جو بأنه يحسن بي الذهاب الى الامام لارى ما يحدث".

وكان الكابتن لانغتون اتخذ طريقه نحو الامام فعلا، وهو يمر في سيارته ببطء الى جانب المدرعات الواقفة حتى بلغ منحنى على الطريق. فرأى أمامه دبابات الطليعة الاربع وقد أصيبت جميعا، بما فيها دبابة الملازم ساموبلسون وكانت تتصاعد من بعضها ألسنة النار. وكانت القذائف تأتي من مدفع ذاتي الحركة بين الاشجار الى اليسار، قرب ايلست. وما كاد جايلز فاندلير يصل حتى حاول أن يبلغ ابن عمه جو. لكن

هذا كان قد بدأ يصدر أوامره فعلا. فطلب بالراديو دعما من المدفعية، ثم رأى طائرات تيفون فوق رأسه فأمرها بالتدخل. غير ان ذلك لم يسفر عن أي نتيجة. وتبين أن جهاز الراديو معطل.

عندئذ اتخذ جو فاندلير سبيله الى الامام على الفور. وهو يسترجع الامر قائلا: "كانت الحال هناك في غاية الارتباك. وبذلنا كل المحاولات الممكنة، ولكن لم يكن هناك أي سبيل لازاحة الدبابات من الطريق والقائها على الجانب المنحدر لذلك السد اللعين. وكان دعم المدفعية الوحيد الذي استطعت الحصول عليه يتمثل في بطارية ميدان واحدة ذات بطء شديد في التصويب على الاهداف".

وقال لانغتون: "لا شك في أننا نستطيع الحصول على الدعم من مكان ما!" فهز فاندلير رأسه وقال: "أخشى أن يكون ذلك غير صحيح". فألح لانغتون بقوله: "اننا نستطيع أن نصل الى هناك، وفي امكاننا التقدم اذا حصلنا على دعم". لكن فاندلير هز رأسه مرة أخرى وقال: "آسف. عليك أن تبقى هنا حتى تبلغك أوامر أخرى".

اتضح لفاندلير أنه لا يمكن استئناف الهجوم قبل وصول وحدات جديدة من المشاة لمعاونة الحرس الايرلندي. والى أن يحدث ذلك، ستظل دبابات فاندلير منتشرة وحدها فوق الطريق العالي المكشوف.

وبذلك تمكن مدفع الماني واحد ذاتي الحركة، مصوب على الطريق العالي، من وقف طابور دبابات الاغاثة بأكمله على مسافة تقل عن عشرة كيلومترات من آرنهيم.

وفي موضع خلفي من طابور الدبابات، أمام بيت زجاجي للنبات قرب ايلست ظلت معظم نوافذه سليمة بمعجزة ما، أخذ الملازم جون غورمان يحدق بغضب الى الطريق الممتد أمامه. فقد كان غورمان، مذ بدأ طابور المدرعات تقدمه من الحدود البلجيكية، يشعر بحافز ملح على التحرك بسرعة أكبر. وقال: "لقد قطعنا المسافة كلها من النورماندي، واستولينا على بروكسل، وشققنا طريقنا بالقتال عبر نصف هولندا، وعبرنا جسر نيجميغين، وكانت آرنهيم ورجال المظلات المشتبكون فيها مع العدو على مرمى حجر منا. ومع ذلك فقد توقفنا، وها نحن على وشك أن نبلغ مرمى البصر من ذلك الجسر الاخير الدامي! انني لم أشعر قط بمثل ما انتابني آنئذ من يأس عميق".

مرجل الساحرات

كان مركز القتال قد انتقل الى بلدة أوستربيك، مقر قيادة أوركوهارت، فتلاشى هدوء البلدة الرصين وحل محله منظر ينتشر فيه الخراب وحفر القنابل وندوب الخنادق، وتنتثر في أرجائه شظايا الخشب والصلب، وتخيم عليه غمامة من تراب الطوب الاحمر والرماد. وكانت الطرق مسدودة بسيارات الجيب المحترقة وغيرها من المركبات المهشمة، وبالاشجار والابواب وأكياس الرمل وقطع الأثاث، وكذلك بأحواض الاستحمام وأجهزة البيانو. وخلف المنازل نصف المهدمة والحظائر، وعلى جوانب الشوارع وفي الحدائق المخربة، كانت تتمدد جثث الجنود

والمدنيين جنبا الى جنب. أما الفنادق التي كان يؤمها الناس للراحة والاستجمام فتحولت الى مستشفيات تقوم وسط متنزهات تتناثر فيها قطع الأثاث واللوحات الفنية والمصابيح المحطمة. وأما المظلات الملونة بالأشرطة الزاهية والتي كانت تغطي الشرفات الواسعة، فكانت تتدلى في أشرطة ممزقة قذرة.

ووسط محيط الخراب هذا، الذي أصبح الالمان يطلقون عليه اسم "مرجل الساحرات"، كان الهولنديون الذين يراوح عددهم بين ٨٠٠٠ و١٠٠٠٠ رجل وامرأة وطفل، يكافحون للبقاء على قيد الحياة، فيزدحمون في الاقبية من دون غاز ولا ماء ولا كهرباء، وحتى من دون طعام تقريبا، مثلهم في ذلك مثل الجنود في قطاعات كثيرة. وكان هؤلاء المدنيون الهولنديون يعالجون الجرحى من المدافعين البريطانيين، ومن قاهريهم الالمان اذا دعت الحاجة ايضا.

وفي فندق شونرود، الذي استحال محطة رئيسية للعناية بالمصابين بحكم موقعه على الخط الامامي مباشرة، كتبت هندريكا فان دير فليست، ابنة صاحب الفندق، في مذكراتها:

"لم نعد نخاف، بل تجاوزنا ذلك كله. الجرحى يرقدون حولنا في كل مكان،وبعضهم يحتضر فلماذا لا نفعل مثلهم اذا طلب منا ذلك؟ لقد ضاعت كل ممتلكاتنا، لكننا لا نفكر في ذلك لحظة واحدة. واذا قدر لهذا الصراع أن يكلفنا حياتنا مثل البريطانيين، فسوف نقدم أنفسنا طوعا".

وعلى طول الطرق الصغيرة بين المزارع، وفي الحقول، وفوق السطوح، وخلف النوافذ المسدودة بالحواجز في أنقاض المنازل، وقرب الكنيسة في أسفل بلدة أوستربيك، كان جنود المظلات يلازمون مواقعهم بأعين غائرة وأعصاب متوترة. وكما يقول الكابتن بنيامين كليغ من كتيبة المظلات العاشرة: "ان ما أتذكره أكثر من أي أمر آخر هو ذلك الاحساس بالارهاق الشديد، الى حد أصبح معه الموت مرغوبا".

وكان الرجال في جميع أنحاء القطاع يقاتلون في معركة شرسة بالغة الارتباك، تختلط فيها معدات المهاجمين والمدافعين وقواتهم وتتداخل على نحو مجنون. وكثيرا ما كان الجنود البريطانيون يجدون أنفسهم يستخدمون الذخيرة والاسلحة الالمانية المستولى عليها، والدبابات الالمانية تتعرض للتدمير بفعل الالغام الالمانية، والالمان يقودون سيارات الجيب البريطانية ويشدون من عزائمهم بما استولوا عليه من مؤن كان يراد ايصالها الى المظليين البريطانيين. ويتذكر الكولونيل هارتسر الامر بقوله: "كانت تلك أرخص معركة حاربناها، اذ توفر لنا فيها مجانا كل ما احتجنا اليه من غذاء وسجائر وذخائر". وكان كل من الجانبين يعيد الاستيلاء على مواقع الآخر مرارا، بحيث أصبح متعذرا على العديد من الرجال أن يعرفوا على وجه التحقيق هوية القوة التي تشغل الموقع المجاور بين ساعة وأخرى.

وكان الالمان يرون أن التسليم هو السبيل الوحيد المعقول الذي يمكن ان



شاحنة امداد بريطانية وقد اصيبت مباشرة.

يسلكه البريطانيون، وهو ما اكتشفه الميجور ريتشارد ستيوارت من لواء المظليين الاول. فقد أسر الالمان ستيوارت واكتشفوا أنه يتكلم الالمانية بطلاقة، فساقوه الى مقر قيادة كبير. ويتذكر ستيورات القائد الذي قابله بوضوح تام. فقد كان الجنرال بيتريتش "رجلا طويل القامة نحيفا، في أوائل العقد الخامس أو منتصفه، يرتدي معطفا طويلا من الجلد الاسود وقبعة عسكرية". ولم يتول بيتريش استجواب ستيوارت، "بل أخبرني ببساطة أنه يريدني ان أذهب الى قائدي وأقنعه بالتسليم لانقاذ الفرقة من الابادة". ورفض ستيوارت المهمة بأدب، فألقى الجنرال الالماني "خطبة طويلة، قال لي فيها ان في امكاني انقاذ زهرة شباب الامة". فكرّر ستيوارت القول انه لا يستطيع ذلك فيما كرر بيتريتش حثه على قبول المهمة. وسأله ستيوارت: "سيدي، لو كان كل منا مكان الآخر، فماذا يكون ردك؟" فهز القائد الالماني رأسه ببطء وأجاب: "كنت سأرفض". فقال ستيورات: "وذلك هو ردي ايضا".

غير أن الحال كانت تختلف في مقر قيادة أوركوهارت في فندق هارتنستاين الذي كان مبناه قد تهدم وشاع فيه الارتجاج من أثر سقوط

القذائف بالقرب منه. وكان أوركوهارت يتساءل كم من الوقت يمكنهم أن يصمدوا أمام فرقة مدرعات الصدام "س - س" التاسعة التي يقودها هارتسر، مع ما يدعمها من وحدات الجنرال هانز فون تيتاو ومن رماة المدرعات بقيادة الرائد سيب كرافت. وكان العدد الكلي الاصلي للقوات المظلية البريطانية يبلغ ١٠٠٠٥ من الرجال، وهم ٨٩٠٥ من الفرقة و١١٠٠ من طياري الطائرات الشراعية، هبطوا جميعهم في مناطق الانزال عند آرنهيم. لكن تقديرات أوركوهارت أفادت بأن عدد الرجال الباقين لديه من هذه القوات لا يزيد على الثلاثة آلاف، أي انه خسر ثلثي قوة فرقته في أقل من خمسة أيام.

"ما سبب هذه الحرب؟"

تكرر بذل المحاولات لاغاثة قوة أوركوهارت، لكن النجاح فاتها جميعا. وأوفد اللواء البولوني الاول بقيادة الجنرال ستانيسلاف سوسابوفسكي، فهبط جنوده بالمظلات في المنطقة يوم ٢١ سبتمبر (ايلول)، بعدما تأخروا منذ يوم ١٩ بسبب رداءة الطقس. وكان الالمان على أتم استعداد، فلم يمكن حصر أكثر من ٧٥٠ من الجنود الالف البولونيين بعد انزالهم. وتجمع هؤلاء الرجال في بلدة دريل على ضفة الراين الجنوبية. وكانوا قد اخبروا ان هناك قاربا يمكن أن يحملهم عبر النهر الى مواقع أوركوهارت مباشرة، لكنهم لم يجدوا له أثرا. فبذلوا خلال الليلتين التاليتين جهودا مستميتة لعبور النهر في قوارب صغيرة، وأسفر ذلك عن نتائج أليمة، اذ أن عدد الذين استطاعوا الوصول الى قطاع أوستربيك منهم لم يزد على ٢٥٠ رجلا، بلغوا غايتهم تحت وابل من نار الالمان القاتلة.

وعلى هذا النسق مضت الى نهايتها المحتومة عملية "ماركت - غاردن" التي كان مونتغومري يعلق عليها الامل في انهاء الحرب سريعا. وبقي الرجال على مسافة ١٠٠ كيلومتر رهيبة متشبثين بالجسور، يقاتلون بلا هوادة من أجل طريق واحد هو "الممر". واختفت الروح التي كانت سائدة قبل أسبوع نتيجة الاعتقاد ان الحرب على وشك الانتهاء. وتكرر ظهور وحدات من قوات العدو كان يُظن انها صفيت أو أبيدت. وبدا أن آلة الحرب النازية قد بعثت بمعجزة، بعدما كان الرأي السائد في الاسبوع الاول من سبتمبر (ايلول) هو انها تترنح على وشك الانهيار.

وتشتت سير المعركة فأصبحت اشتباكات متناثرة لا يشبه واحد منها الآخر. وفي فندق شونورد كانت هندريكا فان دير فليست تنام بكامل ملابسها بضع ساعات كل يوم، وتنهض بعدها لمعاونة الاطباء والممرضين على العناية بالمصابين الجدد الذين لا ينقطع سيلهم. وذات مرة حملت الى أحد الجنود البريطانيين الجرحى نصيبه الضئيل من الحساء والخبز الجاف، وهو الوجبة الوحيدة التي كان المستشفى يستطيع تقديمها. لكنه أشار الى مصاب آخر حُمل لتوّه وقال لها: "اعطيه هذه الوجبة". وأزاحت هندريكا الغطاء عن المصاب الجديد فانكشفت ملابسه



جريح يحمل الى ملجأ فندق هارتنستاين في آخر ايام القتال.

العسكرية الالمانية، فقال لها الجندي البريطاني: "أهو الماني؟" فهزت هندريكا رأسها ايجابا، فقال البريطاني: "أعطيه الطعام على أي حال، فقد أكلت البارحة". عندئذ حملقت هندريكا في وجهه وتساءلت: "ما سبب هذه الحرب اذاً؟".

وحدثت لجندي الاشارة كينيث بيرس واقعة لن ينساها أبدا، كما لن ينسى الرجل الذي تطوع لمعاونته فيها. فقد كان بيرس مسؤولا عن بطاريات التخزين الثقيلة التي تزن كل منها نحو ١٢ كيلوغراما وتمد أجهزة الاشارة لديه بطاقة التشغيل. وذات مساء في وقت متقدم، كان بيرس يكافح لنقل بطارية جديدة من خندق عميق، فسمع شخصا فوق رأسه يقول: "دعني أساعدك". فطلب بيرس من صاحب الصوت ان يمسك بأحد مقبضي البطارية ويجذبها الى أعلى، ثم تعاون الاثنان على جر صندوق البطارية الضخم الى خندق قيادة الموقع.

وقال بيرس: "هناك بطارية أخرى". فرد الرجل: "هيا نأتي بها". وقام الرجلان برحلتهما الثانية. ولدى عودتهما الى خندق القيادة وثب بيرس داخله بينما دلّى الرجل الآخر الصندوقين، واحدا بعد الآخر، وهو يحمل ثقلهما بقوة عضلاته حتى تلقاهما بيرس. وعندما انصرف الرجلان من الخندق لاحظ بيرس فجأة أن الرجل يحمل على ياقتيه شارات أركان الحرب الحمراء. فجمد في مكانه وقال متلعثما: "اشكرك جزيل الشكر يا سيدي". فرد عليه الجنرال أوركوهارت: "لا بأس يا بني".

وفي قلب الميدان، أخرج المدفعي

جيمس جونز من حقيبته الشيء الوحيد غير العسكري الذي حمله معه، وهو ناي كان يعزف عليه وهو فتى. ويتذكر جونز الامر بقوله: "كنت أريد أن أعزف على ذلك الناي مرة أخرى. وكانت السماء تمطر قذائف مدفعية طوال ثلاثة أيام أو أربعة دونما انقطاع، وكنت خائفا الى أبعد حد، فأخرجت الناي وبدأت أعزف عليه".

وكان الملازم جيمس وودز على مقربة، فطرأت له فكرة نفذها حالا، اذ ضم اليه جنديين آخرين من جنود المدفعية. وخرج الثلاثة من خنادقهم وأخذوا يسيرون وراء جونز دائرين بمواقع المدفعية، فيما كان جونز يعزف على نايه والملازم وودز يغني، وقد خلع جنديا المدفعية خوذتيهما وأخذا ينقران عليها بالعصي. وسمع الرجال المرهقون في المواقع أنغام أغنية "الرماة البريطانيين" وأغنية "اسكوتلندا الجسورة" تتسرب اليهم رقيقة في أنحاء القطاع، فبدأوا بدورهم يغنون، بصوت خافت في البداية. وعندما رفع وودز صوته الى أعلى طبقاته، تفجر الغناء عاليا من حناجر الرجال في جميع مواقع المدفعية.

وعبر الشارع، تركت كيت تير هورست أطفالها الخمسة والمدنيين الاحد عشر المختبئين في قبو منزلها الذي لا تزيد مساحته على الامتار الثلاثة طولا والمترين عرضا، واتخذت طريقها عبر الجرحى في الطابق الاعلى. وكان بيتها ذو الاربع عشرة حجرة، الذي يبلغ عمره ٢٠٠ سنة، قد طمست معالمه تماما. فقد اختفت النوافذ، "وملأ الجرحى كل شبر في القاعة الرئيسية وقاعة الطعام وغرفة المكتب وغرفة الحديقة وغرف النوم والممرات والمطبخ والمستوقد"، كما تتذكر السيدة هورست. بل كان هناك جرحى يرقدون في مرأب السيارات وتحت السلم. وكان عددهم في البيت والارض الملحقة به يزيد على الثلاثمئة، ينضم اليهم مصابون جدد كل دقيقة.

ورأت كيت تير هورست خارج البيت سحابة معلقة فوق ميدان القتال. وكتبت في مذكراتها: "السماء صفراء، وهناك سحب قاتمة ترتفع كالخرق المبتلة. وقد انشق جوف الارض". ورأت في الارض المحيطة بالبيت "الموتى، موتانا، وقد أشبعتهم الامطار بللا وتصلبت أجسادهم. وهم مستلقون على وجوههم، تماما كما كانوا البارحة وقبل البارحة، وبينهم ذلك الرجل ذو اللحية المشعثة والآخر ذو الوجه القاتم، وكثيرون سواهما". وانتهى الامر بدفن ٥٧ رجلا في حديقة البيت.

أما أسرة فان مانين - التي تتألف من أنجي وأخيها بول وعمتهما - فكانت تعمل طوال النهار والليل في فندق تافلبيرغ في اشراف والد أنجي، الطبيب غيريت فان مانين. ويتذكر بول، الذي كان وقتذاك طالب طب، "أن يوم الاحد كان رهيبا، اذ أخذت القذائف تصيب المبنى طول الوقت. وتذكرت أن من واجبنا عدم اظهار الخوف أمام مرضانا، ولكن كنت على استعداد لان أقفز خارج الغرفة صارخا. غير اني لم أفعل ذلك، لان الجرحى ظلوا متمالكين أنفسهم في هدوء تام". ويتذكر بول أنه بينما كان المصابون ينقلون من غرفة أتلفتها القذائف الى أخرى، "بدأنا نغني:

فغنينا للبريطانيين وللالمان ولانفسنا وبدا أن الجميع شاركوا في الغناء، كان بعضهم يتوقف لاختناقه بالدموع المنبثقة من عواطفه الجائشة. لكنهم لا يلبثون أن يواصلوا الغناء".

وأخيرا، يوم الاحد ٢٤ سبتمبر (ايلول) عقدت هدنة موقتة. وعلى مدى ساعتين - بين الثالثة والخامسة مساء - تم اجلاء الجرحى البريطانيين الى مستشفى ميداني يديره الالمان في آرنهيم. وبعد ذلك، كما يقول المدفعي بيرسي باركس، "انطلقت حمم الجحيم مرة أخرى".

وفي الوقت نفسه تقريبا، في موضع متأخر من الممر عند بلدة سانت أودينرودي، التقى رجال ثلاثة: الجنرال بريان هوروكس قائد الفيلق الثلاثين، والجنرال فريدريك براونينغ قائد المظليين، والجنرال مايلز ديمبسي قائد الجيش الثاني. وكانت لدى هوروكس خطة جديدة لعملية برمائية واسعة النطاق لعبور الراين عند بلدة دريل، لكن ديمبسي رفضها قائلا: "كلا، أخرجهم من هناك". ثم التفت الى براونينغ وسأله: "هل توافق على ذلك؟" فهز براونينغ رأسه موافقا في صمت حزين. وفي الساعة ٦،٤٥ من صباح ٢٥ سبتمبر (ايلول) تبلّغ الجنرال أوركوهارت أمر الانسحاب.

كان اوركوهارت عند تخطيط عملية آرنهيم تلقى وعداً بان تصله قوات العون خلال ٤٨ ساعة. وكان الجنرال براونينغ يتوقع من فرقة المظليين الأولى ان تصمد بمفردها مدة لا تتجاوز الايام الاربعة في اقصى التقديرات. لكن الفرقة قامت بعمل عسكري لم يسبق له مثيل، اذ صمدت وحدها فترة تفوق ضعفي تلك المدة القصوى. وكان الانسحاب امراً مريراً بالنسبة الى الاسكوتلندي الشجاع (اوركوهارت)، لكنه كان يعلم ان ذلك هو الطريق الوحيد، لأن عدد رجاله انخفض من عشرة آلاف الى أقل من ٢٥٠٠، ولم يعد يمكنه ان يطلب منهم المزيد من الصمود. فالوقت كان قد ازف حقاً لاخراج ابطال آرنهيم من جحيمهم.

ومن سخرية القدر ان عملية الجلاء هذه اطلق عليها اسم "عملية برلين"!

الانسحاب

لم يكن هناك سوى سبيل واحد للانسحاب، هو عبور مسافة الاربعمئة متر الرهيبة، وهي عرض الراين عند بلدة دريل. وقد قال اوركوهارت لاحقاً: "وضعت خطة للانسحاب شبيهة بانطباق كيس ورق. وهي تقضي بان تتمركز جماعات صغيرة في مواضع استراتيجية لتعطي انطباعاً باننا لا نزال موجودين، مع مواصلة الانسحاب في الوقت نفسه على طول كل جانب".

وكان على قادة الطائرات الشراعية ان يؤدوا دور الادلاء ويوجهوا الرجال على طول طريق الانسحاب المميز في بعض المناطق باشرطة بيضاء، حتى يبلغوا ضفة النهر. وهناك يتولى المشرفون تنظيم صعودهم الى اسطول الاجلاء الذي يتألف من ١٤ زورقاً من ذوات المحركات تديرها فصيلتان من سلاح المهندسين الكندي، ويتسع كل منها لاربعة عشر رجلا، اضافة الى عدد من الزوارق الاصغر حجما التي بقيت من عمليات العبور السابقة.

وكان اوركوهارت يقامر على ان الالمان سيفترضون ان الرجال يحاولون الانتقال بالزوارق الى داخل القطاع وليس الى خارجه. لكنه لم يتوقع ان تجري عملية الاجلاء من غير محاولة للتدخل من جانب العدو. وعلى رغم ان كل مدفع صالح للعمل لدى الفيلق الثلاثين سيؤدي مهمته لحماية رجاله، الا ان اوركوهارت كان يتوقع ان ينجح الالمان في ايقاع خسائر كبيرة برجاله. وكان الوقت واحداً من اعدائه، لان اتمام عملية الجلاء سيستغرق ساعات طويلة.

وفي ملجأ فندق هارتنستاين، اعلن اوركوهارت النبأ لضباطهالمحيطين به قائلا: "سنخرج من هنا الليلة"، وشرح لهم المعالم الرئيسية لخطته. ولم يكن النبأ مثار دهشة، لأن الموقف كان قد بلغ مرحلة ميئوساً منها تماما منذ وقت طويل.

وكان الالمان، طوال ذلك اليوم، قد تابعوا هجماتهم بعنف في محاولات متكررة لاجتياح المواقع. وبدأ خبر الانسحاب ينتشر بينهم بعيد الثامنة مساء. وتملك الرقيب ستانلي ساليفان غضب شديد حين بلغه النبأ: "كنت موقناً من اننا خسرنا المعركة على اي حال. فمن الأفضل لنا ان نسقط ونحن نقاتل". وكان موقع ساليفان في مدرسة، كما يقول، "الصغار يحاولون فيها ان يتعلموا. وجزعت لما قد يصيب اولئك الاطفال كلهم اذا انسحبنا. ووجدت لزاماً علي ان اجعلهم يعرفون، هم والألمان ايضاً، حقيقة مشاعرنا". واتجه ساليفان الى اللوح في حجرة الدراسة التي كان يدافع عنها، وكتب باحرف كبيرة العبارة الآتية: "نحن عائدون" (*)، ووضع تحتها بضعة خطوط.

وفي تمام التاسعة مساء، شق سماء الليل الحالكة بريق مدافع الفيلق الثلاثين وقد انطلقت كلها مجتمعة، واندلعت النار في جميع انحاء القطاع نتيجة لوابل القذائف الذي انهمر على المواقع الألمانية. وبعد ٤٥ دقيقة بدأ رجال اوركوهارت انسحابهم، واعانهم على ذلك سوء حال الطقس الذي منع وصول القوات والامدادات اليهم في الوقت المناسب طوال الاسبوع. وبدأ الانسحاب في احوال جوية شبه عاصفة، ساعدت مع ضجيج القذف على تغطيته.

وفي غمار الريح العنيفة والمطر المنهمر، تجمع الأحياء الباقون من فرقة المظليين الأولى بوجوه قاتمة، وقد ربطوا معداتهم ولفوا احذيتهم بالقماش لئلا تحدث صوتاً، واصطفوا ليتخذوا سبيلهم الحذر الى ضفة النهر. وكان الظلام والجو العاصف يجعلان الرؤية الى أبعد من مترين أمراً مستحيلا. فشكّل الجنود سلسلة حية، ممسكين بعضهم بأيدي بعض او بطرف سترة التعمية التي يرتديها الزميل السائر أمام كل منهم.

وفي فندق هارتنستاين ختمت مذكرات الحرب واحرقت الأوراق. ثم قام هانكوك، جندي المراسلة الذي يتولى خدمة الجنرال، بلف حذاء اوركوهارت باشرطة منتزعة من

(*) لم يقدر للاطفال أن يقرأوا تلك العبارة أبداً، لان الالمان، في معرض انتقامهم من الهولنديين، أمروا في ٢٧ سبتمبر (ايلول) باخلاء منطقة آرنهيم بأكملها. وظلت بلدة آرنهيم والقرى المحيطة بها خالية من السكان حتى الايام الاخيرة من الحرب.

الستائر، وركع الجميع امام قسيس الفرقة الذي تلا الصلاة. وتذكر اوركوهارت زجاجة ويسكي كان مراسله وضعها في متاعه يوم بدء الهجوم، "فأدرتها على الحاضرين، وتناول كل منهم رشفة". وهبط اوركوهارت أخيرا الى الملجأ لتفقد الجرحى "في ضماداتهم الدامية وجبائرهم الخشنة"، وحيّاهم مودعاً.

وعند ضفة النهر كانت عمليات العبور قد بدأت. وكان المشرفون يدفعون الرجال الى القوارب فور وصولهم. وعلى رغم ان الالمان لم يكونوا قد ادركوا بعد ان هناك انسحابا يجري، الا انهم تمكنوا من رؤية التنقلات عبر النهر في ضوء المشاعل. فبدأت القذائف المدفعية تسقط على القوارب لتثقبها وتغرقها. وارتفعت صرخات الرجال الذين يكافحون في الماء طالبين النجدة، بينما حمل التيار زملاءهم الموتى بعيداً. وتعلق الجرحى بحطام القوارب واخذوا يحاولون السباحة الى ضفة النهر الجنوبية. ولم تكد تمضي ساعة واحدة حتى كان نصف اسطول الاجلاء قد دمر. لكن عمليات النقل لم تتوقف.

وعلى طول ضفة الراين وفي المروج والغابات الواقعة خلفها، كان مئات الرجال ينتظرون. لكن غرق نصف الأسطول وتعرض بقيته لنار المدافع الرشاشة الكثيفة اديا الى الانحصار في عنق الزجاجة الذي كان اوركوهارت يخشى وقوعه. وحدث ارتباك في الصفوف. ومع ان الامر لم يبلغ حد الفزع والفوضى، الا ان كثيرين من الرجال حاولوا الاندفاع الى الامام، بينما حاول ضباطهم ورقباؤهم ضبطهم والسيطرة عليهم. ويتذكر العريف توماس هاريس، من الكتيبة الأولى، الموقف بقوله: "كان هناك مئات ومئات ينتظرون العبور. وكانت القوارب ترزح تحت ثقل الرجال الذين يحاولون ركوبها". وبدأت القذائف المدفعية تسقط في منطقة التجمع بعد توصل الالمان الى التصويب الصحيح. وقرر هاريس، كما قرر كثيرون سواه، ان يعبر النهر سباحة، فخلع ملابس الميدان والحذاء وغطس في الماء... ووجد، لدهشته، انه نجح في عبور النهر.

اما الجندي الفريد دلفورس، من الكتيبة العاشرة، فقد سبح الى ضفة النهر الجنوبية عارياً تماماً. وهناك وجد امرأتين تقفان على الضفة مع بعض الجنود، فانتابه حرج شديد، وشعر بحافز يدفعه على العودة الى الماء". لكن احدى المرأتين نادته وناولته رداء نسائياً "من غير ان تطرف لها عين ازاء جسدي العاري"، كما يذكر، "واهابت بي الا اقلق، لانهما تقفان على الضفة لمعاونة الرجال الذين يعبرون". ومضى الجندي دلفورس وهو يرتدي رداء نسائياً يبلغ ركبتيه وقبقاباً خشبياً، واقتيد الى شاحنة بريطانية تحمل المنسحبين الى تيجميغين.

ومع بزوغ الفجر كان معظم اسطول الاجلاء قد دمر. غير ان المهندسين الكنديين والبريطانيين ظلوا يتحدون القذائف المدفعية ونار الرشاشات الثقيلة، وينقلون الرجال في القوارب الباقية.

وذهب الجنرال اوركوهارت، بعد

عبوره النهر، الى منزل يقع على المشارف الجنوبية لبلدة نيجميغين. "وقادنا الرائد هاري كاثور، مساعد الجنرال براونينغ، الى احدى الغرف، واقترح علينا ان نغير ملابسنا المبتلة". لكن الاسكوتلندي الشامخ رفض - "لأني اردت ان يرانا براونينغ كما نحن، وكما كنا في المعركة". وبعد ذلك بفترة، في غرفة النوم التي خصصت له، وجد اوركوهارت ان النوم الذي كان يتوق اليه منذ فترة طويلة عز عليه تماما، "اذ كان عقلي وضميري مثقلين بامور كثيرة جدا".

وكان هناك فعلا كثير من المسائل التي تستحق التفكير، لأن فرقة المظليين الاولى ضحّي بها وتعرضت لمذبحة كاملة، فلم يرجع من رجالها عبر الراين سوى ٢١٦٣ رجلا من قوتها الاصلية التي كانت تبلغ ١٠٠٠٥. وسقط منها خلال تسعة أيام نحو ١٢٠٠ قتيل وبلغ عدد المفقودين والاسرى والجرحى ٦٦٤٢ أسير. وتبين في وقت لاحق ان الالمان تعرضوا هم ايضا لخسائر كبيرة، وبلغ عدد اصاباتهم ٣٣٠٠، منهم ١١٠٠ قتيل.

وطبقاً للحساب الاجمالي، خسرت قوات الحلفاء في عملية "ماركت - غاردن" اكثر مما خسرته في عملية غزو النورماندي الجبارة، اذ يتفق معظم المؤرخين على ان مجموع خسائر الحلفاء خلال فترة الاربع والعشرين الساعة ليوم الغزو ٦ يونيو (حزيران ١٩٤٤)، يراوح بين عشرة آلاف و١٢ الف اصابة، في حين ان مجموع الخسائر خلال الايام التسعة لعملية "ماركت - غاردن" في القوات المظلية والارضية معاً، زاد على ١٧ الف رجل بين قتيل وجريح ومفقود.

الناقوس

انتهت مغامرة آرنهيم، ولم يبق سوى التراجع وتوطيد المراكز. اما الحرب فقد قدر لها ان تستمر حتى شهر مايو (ايار) ١٩٤٥. وكتب احد المؤرخين عن ذلك: "على هذا النحو باءت اضخم العمليات المظلية في الحرب كلها بالاخفاق. وعلى رغم تأكيدات مونتغومري ان العملية نجحت بنسبة ٩٠ في المئة، الا ان ذلك لا يمثل اكثر من عزاء لفظي. صحيح ان جميع الاهداف المنشودة تم الاستيلاء عليها باستثناء آرنهيم. الا ان كل هذه الاهداف لم تكن ذات قيمة تذكر من دون آرنهيم. وتمخضت كل معجزات الشجاعة وجبال التضحيات التي تحملتها القوات عن الاستيلاء على نتوء دفاعي داخل المناطق التي يسيطر عليها العدو، يبلغ طوله ٨٠ كيلومترا ولا يؤدي الى مكان".

وبينما اخذ الرجال يتدفقون عائدين، وقف احد الضباط ساعات طويلة تحت المطر وهو يتأمل وجوه العائدين واحداً واحداً. كان ذلك الكابتن اريك ماكاي، الذي صمد مع الكولونيل فروست ذلك الصمود الاسطوري عند جسر آرنهيم. وقد قبض عليه الالمان اسيراً، لكنه تمكن من الهرب وبلوغ نيجميغين، حيث وقف يبحث عن اعضاء سربه في صفوف جنود فرقة المظليين الخارجين من اوستربيك. وقال يصفهم بعد ذلك: "كان اسوأ ما رأيته وجوههم التي كانت ترتسم عليها من الارهاق والعياء تعابير لا تصدق".

وظل ماكاي واقفاً الى جانب الطريق طوال تلك الليلة حتى طلع الفجر. "ولم الق وجهاً واحداً اعرفه. وتملكتني كراهية للجميع وانا اواصل المراقبة، وكرهت المسؤول عما حدث اياً يكن شخصه، وفكرت في اهدار حياة الرجال على هذا النحو السفيه وفي فرقة رائعة القيت باكملها في بالوعة... لماذا؟" وكان الضوء قد انتشر في السماء حين عاد ماكاي الى نيجميغين. وهناك بدأ عملية المراجعة والحصر عند نقاط التجمع والايواء، وقد صمم على ان يعثر على رجاله. وتبين في النهاية ان سرب المهندسين الذي ينتمي اليه لم يعد من رجاله المئتين سوى خمسة فحسب، منهم ماكاي نفسه.

وبقي على الجانب الآخر من النهر الجنود والمدنيون الذين اقتضت اعمالهم او اصاباتهم ان يتخلفوا. كما تخلفت مجموعات صغيرة من الرجال الذين وصلوا الى نقاط العبور متأخرين، فقبعوا في الخنادق التي اصبحت غير محمية. ولم يكن لدى هؤلاء المتخلفين اي امل باق، فظلوا في القطاع الذي صبغه سواد الحرائق ينتظرون مصيرهم.

وفي فندق شونورد، في القاعة الكبرى حيث كان معظم الجرحى لا يزالون يحتمون، بدأ احد الجنود يعزف على البيانو خليطاً من الاغاني الشعبية، والرجال يصاحبونه بغنائهم.

ويقول القسيس ج. ا. بير: "بدا الأمر غريباً بعد جحيم الأيام القليلة السابقة. وهو امر لم يستطع الالمان فهمه، وان يكن تفسيره بسيطاً. ذلك ان التوتر واحساس الرجال بانهم تركوا وحدهم احدث لديهم رد فعل هائلا، ولم يبق لديهم ما يفعلونه سوى الغناء". وفي ما بعد، بينما كانت هندريكا فان ديرفليست وسائر المدنيين الهولنديين يستعدون للرحيل لمعاونة الجرحى في المستشفيات الالمانية، لوح لهم القسيس بير بيده مودعا وقد تملكه الأسف: "لقد قاسوا معنا وتحملوا الجوع والعطش، ومع ذلك فانهم لم يفكروا في انفسهم". وبينما كانت آخر سيارات الاسعاف تختفي، تولى القسيس بير وافراد الخدمة الطبية تحميل ممتلكاتهم القليلة في شاحنة المانية. وهو يتذكر الأمر بقوله: "لقد ساعدنا الألمان. وكان الجو خالياً من العداء على نحو غريب. ولم يكن لدى احد منا ما يقوله".

وعبر الشارع من الكنيسة، كانت كيت تير هورست قد ودعت الجرحى الذين اصبحوا جميعهم اسرى حرب. ومضت تجر عربة يدوية بصحبة أطفالها الخمسة متجهة الى بلدة آبلدورن. وبعدما قطعت مسافة قصيرة، توقفت ونظرت خلفها الى المنزل القديم الذي كان بيتها. وكتبت عن ذلك: "كان هناك شعاع من الشمس يلمع على مظلة هبوط فاقعة الصفرة تتدلى من السقف. كانت صفرتها فاقعة... تحية من المظليين... وداعاً ايها الاصدقاء... بارك الله فيكم".

اما الفتاة آنجي فان مانين، التي اتخذت طريقها الى بلدة آبلدورن كذلك، فقد ظلت تبحث عن ابيها وسط سيارات الصليب الأحمر ومحفاته

المارة بها وهي تحمل الجرحى من فندق تافلبيرغ. وكانت آنجي مع عمتها وأخيها تحملق في الوجوه المألوفة التي عرفتها طوال الاسبوع. ثم رأت اباها في احدى الشاحنات التي كانت مارة بها، فصرخت وانطلقت راكضة. وتوقفت الشاحنة وهبط منها الدكتور فان مانين ليحيي اسرته. وعانق الثلاثة وقال: "اننا لم نبلغ من قبل هذا الحد من الفقر ومن الثراء في آن: لقد فقدنا قريتنا وبيتنا وممتلكاتنا، لكننا نمتلك بعضنا بعضاً، ولا نزال أحياء". وعاد الدكتور فان مانين الى ركوب الشاحنة كي يعنى بالجرحى، بعدما رتب الأمر بحيث يلتقي اسرته في آبلدورن.


وسارت انجي بين مئات اللاجئين الآخرين، ثم التفتت الى الوراء. وكتبت بعد ذلك تصف ما رأته: "كانت السماء ذات لون قرمزي، مثل دماء المظليين الذين بذلوا حياتهم من اجلنا. وكنا نحن الاربعة أحياء. لكن المعركة، في نهاية اسبوع القتال اليائس ذاك، تركت في اعماق نفسي اثراً لا يمحى... المجد لكل اعزائنا الجنود البريطانيين الشجعان ولكل من قدم حياته لاعانة الآخرين".

وفي بلدة دريل، استيقظت متطوعة الصليب الأحمر كورا بالتوش على صمت غريب. كان الوقت منتصف نهار الثلثاء ٢٦ سبتمبر (ايلول). واحست بما اصاب جسدها من تصلب نتيجة الشظايا التي اخترقته، وبالحيرة ازاء هذا الصمت غير المألوف. فذهبت تعرج ببطء الى الخارج، لتجد سحب الدخان تتصاعد من وسط البلدة ومن بلدة اوستربيك الواقعة عبر النهر. لكن اصوات المعركة كانت قد اختفت تماما. وسحبت كورا دراجتها ومضت بها على مهل صوب البلدة، فوجدت الشوارع مهجورة والجنود اختفوا، ورأت على بعد آخر السيارات في قافلة تتجه جنوباً نحو نيجميغين، ثم رأت بالقرب من احدى كنائس دريل المحطمة عدداً قليلا من الجنود يتكئون على بعض سيارات الجيب.

وللحال ادركت كورا ان البريطانيين والبولونيين ينسحبون. فقد انتهى القتال،ولن يلبث الالمان ان يعودوا. واذ بدأت تسير نحو جماعة صغيرة من الجنود، اخذ الجرس المعلق في برج الكنيسة يدق عالياً. ونظرت كورا الى اعلى فرأت احد المظليين جالساً في قبة الجرس وحول رأسه ضمادة كبيرة، فصاحت تسأله: "ماذا حدث؟" واجابها: "لقد انسحبنا، ونحن اخر مجموعة". وحدقت كورا اليه وعادت تسأله: "ولماذا تقرع الجرس؟" فرفس الجندي الجرس مرة اخرى، فارتفع رنينه يردد اصداءه فوق القرية الهولندية التي يبلغ عمرها الف عام قبل ان يخفت ويتلاشى. ثم نظر الجندي الى اسفل صوب كورا وقال: "لقد بدا ان هذا هو اليق ما يمكن عمله".

■ كورنيليوس ريان

الحظ العاثر كالسكين: تفيدنا اذا امسكناها من المقبض وتجرحنا اذا امسكناها من النصل.



زلزال ١٩٢٩

قصة الانهيار الاقتصادي الك

الذي مهد للحروب العالمية الث





زلزال ١٩٢٩

قصّة الانهيار الاقتصادي الكبير الذي مهّد للحرب العالمية الثانية

في مستهل شهر (اكتوبر) تشرين الاول ١٩٢٩، دهمت بورصة نيويورك عمليات ارتفاع مذهل في الاسعار كانت من اغرب ما عرفته السوق المالية الامريكية منذ تأسيسها. فقد استولت حمى جنونية من الكسب السريع على مئات الالوف من صغار المستثمرين فاستسلموا لها وراحوا يصبون جميع مواردهم المالية في وول ستريت (السوق المالية الامريكية).

وأطلت على هؤلاء في عتمة الكواليس، وجوه عمالقة الاموال: من جهة، فئة كبار المضاربين على الصعود الذين يستثمرون الملايين من الدولارات، ومن اخرى، فئة المقامرين الذين يلعبون بمصير الاسهم فيصعدون قيمها من اجل مصالحهم الخاصة، ومن جهة ثالثة، فئة المضاربين على الهبوط الذين يتقنون فن الانقضاض على السوق كلما بدت فيها ثغرة تبشر بتدهور في الاسعار.

في كتاب شائق، كثير الرواج، كتبه غوردون توماس وماكس مورغان - ويتس انك تحس برعشة الحياة تنساب الى جسم هذه القصة المدهشة التي تروي تفاصيل تلك الايام العصيبة وقصة الانهيار المريع الذي لحق بسوق نيويورك فقصفها قصفاً مخيفاً.

في الساعات الخمس الاخيرة من النهار، تدفق على بورصة نيويورك سيل جارف من الزائرين توافدوا اليها ليشهدوا اغرب حدث اقتصادي ضج بد تاريخ امريكا، حدث الهستيريا التي بلغت ذروتها في سوق الاسهم.

يوماً بعد يوم، تصاعدت حرارة السوق المالية الى اقصى حدودها، فقفزت اسهم "راديو كوربوريشن اوف اميركا من ٨٥ نقطة الى ٤٢٠ خلال الاشهر الاثني عشر الاخيرة. ورابط مايكل ميهان، مدير عمليات هذه الشركة، في المركز الرقم ١٢ من البورصة يحركها فيجعل من زبائنه، ومن نفسه ايضاً، اصحاب ملايين بين ليلة وضحاها.

في الثالثة من بعد ظهر الاثنين ٣١ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٢٨، نهض احد مديري ردهة البورصة، كعادته، وضرب الجرس بمطرقته الخشبية، معلناً نهاية يوم آخر من ايام السوق. وعلى الفور، باشرت اوركسترا مؤلفة من خمس قطع عزف انغامها في احد اطراف رواق الزائرين، بينما اخذ الخدم في مطعم البورصة يتنقلون بين المدعوين، حاملين الاطباق الفضية مع كوكتيل عصير البطلينوس (السمك الصدفي) مشروب السماسرة المفضل منذ عشرين سنة - يوزعونه كمقبل لمناسبة حفلة رأس السنة التقليدية.

وفي صحن ردهة البورصة كان جمع من الرجال والنساء يدور على ذاته كما في دوامة، فينهمك بعضهم بالرقص، ويشد البعض الآخر عزائمه بواسطة بطحات مسطحة متحايلا على قانون تحريم الكحول، وهو القانون الذي سن في الولايات المتحدة في ١٩٢٠ واستمر حتى العام ١٩٣٣، فحظر صنع المشروبات الكحولية ونقلها وبيعها وامتلاكها..

وفي مكان آخر جلس المحررون في مكاتب صحيفة "نيويورك تايمس" يعدون مقالات لنهاية السنة. وقد اهتمت الاخبار الواردة من الخارج بأهالي لندن المجمهرين خارج القصر الملكي والقلقين على صحة ملكهم جورج الخامس الذي يعاني مرضاً خبيثاً. وتحدثت الاخبار ايضاً عن الترتيبات التي يعدها اهالي برلين لاستقبال السنة الجديدة ١٩٢٩، في اجواء من الابتهاج الصاخب المعهود، حيث يحتسون ما يقدر بخمسمئة الف غالون (الغالون ٣،٧ ليترات) من البيرة ويحرقون عشرات الملايين من الاسهم النارية. القى المحرر المالي الكسندر دانا نويس نظرة على نسخة من صفحته في الجريدة وتبين له ان سوق العملة اقفلت ابوابها على بوادر من الامل المنعش، بينما سجلت الاسواق الاجنبية، خصوصاً في برلين ولندن، ارباحاً متواضعة. وكان نويس تنبأ، على مرحلتين متتاليتين خلال سنة ١٩٢٨، بأن السوق المضاربة على الصعود لا بد من ان تتوقف وتنهار. وعلى رغم ان الاحداث خيبته، فقد اصر على تأكيد صحة تنبؤاته قائلاً: "ان شيئاً ما سيفرط وينهار حتماً، كما هي الحال في الهزات الارضية. فبمقدار ما انت بعيد عن الهزة الاولى فأنك تجد نفسك، بالمقدار ذاته، قريباً من الهزة اللاحقة". وظل حدسه هذا يوحي اليه باستمرار بأن الانهيار في السوق واقع حتماً، وبأنه اذا ما وقع فسيمسح وول ستريت عن بكرة

ابيهـا. ويـكـون ذاك الـيـوم يـوم الكارثة...

وعلـى بعـد قـرابـة خمسـة آلاف كيلومتر من نيويورك، في المنطقة الشمالية في ولاية كاليفورنيا، هبطت سيارة "رولز رويس" بخريرها الناعم الشارع الرئيسي في احدى المدن الصغرى. وكان صاحبها اماديوبيتر جيانيني تاجـر خضـر وفواكـه فـي ١٩٠١. وهو ترك هذه التجارة عام ١٩٠٤ ليؤسس المصرف الشعبي الاول في امريكا. وقد نظر اليه المصرفيون في سان فرنسيسكو نظرة الدخيل عليهم، الا ان ذلك لم يمنعه من ان يملك، بالاضافـة الـى "بـنـك اوف اميركا" ذي الشهرة العالمية، ٢٨٦ فرعاً من مصرف "بنك اوف ايطالي" في شهر مارس (آذار) من عام ١٩٢٨. وادرك جيانيني ان العدو متربص به على عتبة بابه، بسبب هذا النجاح. والعدو متجسد، في نظره، في المراهنيـن العامليـن فـي وول ستريت. فقد عمد هؤلاء الى رفع اسعار سعر اسهم مصرفه الى مستوى يفوق قيمتها الحقيقية، وذلك طمعاً في الربح. وفي شهر (فبراير) شباط ١٩٢٨، حذر جيانيني المستثمرين من النتائج السيئة لهذا السلوك ودعاهم الى الامتناع عن شراء اسهم مصرفه. لكن عمليات المضاربة لم تتوقف عند حد. "ان الثور الكبير في وول ستريت هو داخل الحظيرة وان الجميع يحاولون ركوبه". هكذا بدت الصورة لجوغارسيا، سائق سيارة جيانيني.

وفي شهر (ابريل) نيسان ١٩٢٨، قام جيانينـي برحلـة الـى البلـدان الاوروبية، وفي الحادي عشر من (يونيو) حزيران تسلم وهو في روما برقية تخبره بأن اسعار اسهم "بنـك اوف ايطالـي" هبطـت ٧٣ عـلامـة، واسهم "بنك اوف اميركا" ٧٠ علامة واسهم "بانش ايطالي كوربوريشن" ٤٢ علامة. وعلق غارسيا على ذلك بالآتي: "لقد تمكن المضاربون من تحقيق اهدافهم، تاركين اماديو بيتر جيانيني ينزف حتى الموت.

وفي الخامس من سبتمبر (ايلول) من السنة ذاتها، عاد جيانيني من رحلتـه، فوجـد اولـى كلماتـه الـى غارسيا: "من الان فصاعداً، لن نسمح لابناء الحـرام هـؤلاء بـأن يعيـدوا الكرة". وفي الحادي عشر من اكتوبر (تشرين الاول). اعلن، وسط دهشة الاوساط المالية، انه صمم على تثبيت اركـان مؤسستـه المتعـددة الفـروع وجمعها تحت مظلة واحدة محكمة الاجزاء. وقال انه سيجعل منها اوسع شركة قابضة في العالم، تكون في مأمن من شراسة المراهنين في وول ستريت. وفـي الخامـس عشـر مـن نوفمبـر (تشريـن الثانـي) سـجـل مؤسستـه هـذه فـي بـورصـة سـان فرنسيسكو وسماها "ترانس اميركا كوربوريشن".

لم يكن جيانيني في طبيعة حاله ميالا الى الترف، لكنه شاء ان يدلل نفسه بصرعتين اضافهما الى سيارته الرولز رويس. فمن جهة، ركب ضوءاً للاطفائية على سطح غطاء محرك السيارة الانيق، ومن جهة اخرى، علق صفارة انذار داخل السيارة. وعندما سأله احدهـم: مـا هـذا النـوع مـن سيارات الاطفائية؟" أجاب: "انه نوع خاص يقينا نيران المضاربات".

في ذلك المساء، وفي مدينة نيويورك ادلى جون جاكوب راسكوب بتصريح جاء نقيض موقف جيانيني. وراسكوب هذا مليونير في التاسعة والاربعين. ولد في احد احياء نيويورك المتخلفة، فجاهد وكدّ حتى توصل الى وضع يده على شركة "جنرال موتورز" وسعى الى تطويرها. هذا الرجل كان له حلم كتمه طويلا وشاء في هذه الليلة ان يبوح به الى وليم لامب احد المهندسين المشهورين الكبار الذين بدلوا سماء مانهاتن، المنطقة الوسطى من المدينة.

سار الرجلان في اتجاه فندق "والدورف اوف استوريا" القائم على زاوية الشارع الخامس (فيفث افينيو) - الشارع ٣٤. فالقى راسكوب نظرة خاطفة على الفندق وقال لصديقه: "ان هذا الفندق هو في طريق الانحطاط، واتمنى عليك ان تهتم بشأنه. كما انني اطلب منك ان تخطط لتشييد اعلى بناء على سطح الارض". وقال ان هذا البناء سيحمل اسم "امباير ستايت بلدينغ"، ويريده نصباً تذكارياً يرمز الى "النهج الامريكي في الحياة" حيث استطاع ولد فقير مثله جمع ثروة طائلة.

تعددت السيارات الكبيرة الفخمة في وول ستريت وبدت كأنها مجموعة من الحرس امام البناء الواسع المنخفض المتربع كالحصن، ووقف الى جانبها السائقون ببزاتهم الرسمية يترقبون نهاية الطقوس الجليلة التي تتم في الداخل. فلا الجدران الخارجية ولا الابواب التي علق عليها الرقم ٢٣ من الشارع تحمل اي اشارة تدل على انه من هنا، من "هاوس اوف مورغان". تنطلق عمليات تمويل الحكومات في العالم والمصالح التجارية فيه، وذلك منذ سنة التأسيس ١٩١٤.

في هذه الليلة، جلس جون بير بونت مورغان الابن، كعادته في كل ليلة، يحسب الارباح المتراكمة خلال الاثني عشر شهراً، من اوروبا واليابان وافريقيا الجنوبية ومن اوستراليا وكل مكان آخر ومن اي انسان ساهم "هاوس اوف مورغان" في تمويله السنة الفائتة. ووردت على مورغان طوال النهار تفاصيل الفوائد ولوائح المدفوعات المستحقة فجمعها. وحسب العادة المتبعة في الدار، حفظ لنفسه خمسين في المئة من الارباح الصافية ووزع الخمسين الباقية على مجمل شركائه.

انهى الرجل حساباته بكاملها ثم نهض من مكتبه حاملا في يده قبضة من الغلافات واخذ يتجول بين المكاتب الاخرى، يناول كلا من الشركاء غلافاً خاصاً به يحوي علاوة اضافية على ارباح السنة لا تقل عن مليون دولار.

على اثر ذلك تباعدت السيارات الفخمة تاركة وول ستريت في حراسة شرطي واحد، يقرصه برد الثلوج الموسمية الاولى.

اما في شأن الاوضاع عبر الاطلسي، فقد ساد شعور لدى الشعب البريطاني بأن السنة الجديدة ستحمل، لا محالة، تحسناً ملموساً بالنسبة الى ١٩٢٨، فقد خيبت الاخيرة آمالهم اذ ترقبوا فيها بشائر العودة الى العافية.

وفي لندن، اعد كلارنس تشارلز هاتري، الخبير المالي المتقلب الاطوار، لصفقة مالية شاءها ان تكون صفقة العمر الاخيرة والاكبر حجماً في حياته. وقد شملت خبرة هاتري عمليات مضاربة مكثفة، ونشأ لديه حس مميز دفعه الى عمليات كبرى تهدف الى ادماج الشركات. وخطط هذا الرجل الاربعيني لدفع ٨ ملايين جنيه استرليني في عملية تهدف الى وضع يده على اسهم شركة "يونايتد ستيل كونبانيز ليمتد" المسيطرة على قسم واسع من صناعة الحديد والصلب في بريطانيا. وجاء توقيته موفقاً، لان اسهم صناعة الحديد كانت بلغت درجة مكشوفة من الانخفاض. الا ان مشروعه الطموح كان ينقصه امر واحد، الا وهو حاجته الماسة الى السيولة الكافية، فغياب السيولة قد يصيبه بضربة قاضية.

وعلى مسافة ١٥٠٠ كيلومتر شرق لندن، جلس لويس بول لوخز، المحرر المالي في احد مكاتب "اسوشييتد برس" في برلين، وقد قادته تحاليله الى النتيجة الآتية : بالنسبة الى ما يحدث لسوق السندات المالية في امريكا. وقفت الدول الاوروبية موقفاً واحداً من اثنين، عدم التفهم من جهة او عدم الاكتراث من جهة اخرى. لم تأت هذه النتيجة ملائمة لما توخاه منه رؤساؤه في نيويورك، فبرقياتهم له في هذا الشأن كانت واضحة: جمع ردات فعل اوروبية تدل على ان العالم القديم متلهف الى كل ما يحدث في العالم الجديد. وقد تميزت كل من سويسرا وفرنسا بموازنة متعادلة وفائض في ميزان التجارة الخارجية وقضاء تام على البطالة، مما سمح لهما بتجاهل ما يحدث في وول ستريت. وتخبطت بقية الدول الاوروبية في مشاكلها الداخلية من دون الالتفات الى الخارج: فروسيا التي دخلت خطتها الاقتصادية الجديدة التي رسمها لها ستالين، سنتها الثامنة لم يعد انتاجها الى مستوى ايام ما قبل الثورة. واستولى الشلل على اسبانيا من جراء جمودها السياسي. ووقعت يوغوسلافيا تحت رحمة ازمة دستورية اخرى، اذ ان الملك الكسندر كان على وشك تنصيب نفسه ديكتاتوراً، ودخلت الصناعة والزراعة في ايطاليا، في ظل موسوليني، مرحلة من الكساد المالي. أما النمسا فقد مزقتها الازمات السياسية واسلمت امرها الى عصابات مسلحة تسرح وتمرح في البلاد...

تبقى المانيا. فهذه الدولة على اثر جهد مدهش قامت به بعد الحرب من اجل بعث نموها الاقتصادي، تمكنت من ان تصبح واحدة من اعظم الامم الصناعية في العالم، وساحة مختارة لاستثمار الاموال الاجنبية. ان تدفقاً لا سابق له، معظمه من الولايات المتحدة، دفع بالشركات الالمانية الى بناء المصانع الجديدة. لكن الديون الخارجية على الدولة الالمانية تفاقمت وبلغت ستة مليارات دولار، علماً بأن القسم الوافر منها كان لاجل قصير وقائماً على قروض ذات فوائد مرتفعة. فراحت المانيا، كي تفي بديونها هذه، تفتش عن المزيد من الاموال في الخارج.

هذه الدلائل كانت بمثابة انذار واضح لوول ستريت.

اطلت كلار جيانيني من نافذة الطابق الثاني في مبنى "بنك اوف اميركا" ولاحظت ان شارع وول ستريت" قصير جداً لا يزيد طوله على ثمانية صفوف من المباني المتلاصقة. فبدت لها نقطة الانطلاق عند شارع برودواي من الجهة اليمنى، وظهرت "كنيسة الثالوث الاقدس وكأنها ضائعة في سماء شباط الرصاصية في الساعات الباكرة من النهار. وتمنت كلار لو انها كانت في تلك اللحظة في مدينة سان فرنسيسكو فاستحال عليها الامر لان والدها لم ينه اشغاله هنا في الضفة الشرقية من البلاد مع مجلس الاحتياط الاتحادي ومجلس الاحتياط لمدينة نيويورك، ومع ج.ب مورغان وشركائه المستشارين القانونيين لامبراطورية جيانيني.

الممر الضيق

ثم نزلت كلار الى المنطقة المالية تجول فيها وتتعرف عن كثب على هذا المسرح الذي اختاره والدها ساحة للقتال. تخرجت كلار بتفوق في علم التاريخ فتكدست لديها معلومات يجهلها الكثيرون حول شبكة هذه الشوارع ذات الممرات المعقدة التي جمعتها المصادفات والتي ما زالت تحمل اسماء عهدها ابناء الجاليات الاميركية الاولى امثال مايدن لان، ناشر، بيفرستريت وغيرها...

في الزمن الذي سبق رص الطرق بالحجار السوداء سيج المستعمرون الهولنديون المنطقة للحفاظ عليها كمرعى ولمنع مواشيهم من الشرود في ذاك الممر القريب الذي سيصبح يوماً برودواي. ثم ابدلوا السياج بجدار من اجل حراسة مستعمرتهم.

ولما تهدم الجدار نهائياً، سمي المعبر الذي امتد على طوله باسم "شارع الجدار" (وول ستريت). وحدث ذلك عام ١٧٩٢. واخذ الشارع يحاذي صفاً متلاصقاً من بيوت السكن والمحلات التجارية الى ان قرر عدد من السماسرة، ٢٤ منهم بالضبط، وضع حجر الاساس لبناء البورصة في هذا الموضع بالذات في ظل شجرة جميز. اما اليوم فلم يبق الا الزهيد من آثار نيويورك القديمة، بالاضافة الى اسماء الشوارع، وتتألف المنطقة الان من سلسلة من الممرات الضيقة، وتقوم على الاسمنت وتحيط بها ارصفة هي امتداد لجدران المكاتب الشاهقة.

ادركت كلار في سريرتها ان بال والدها مرتبك بسبب استمرار الاسعار في الصعود وكانت الاسعار في هذه السوق شهدت في شهر يناير (كانون الثاني) هبوطاً مخيفاً للمرة الثالثة خلال سبعة اشهر، وخسرت بعض الاصدارات عشرات العلامات في نهار واحد.

لماذا حدث هذا الهبوط؟ وكيف استعادت السوق عافيتها بسرعة؟ وما هي الدوافع الخفية؟

هذه الاسئلة غابت عن بال الكثيرين. لكن جيانيني اهتم بدرسها وبتحليل هذه الفترة الوجيزة من التقلب ثم شرح لابنته استنتاجاته: "هناك جماعات صغيرة توظف مالا تفترضه من سماسرتها وقد انقلبت السوق عليها فجأة في واحدة من نوباتها العصبية المعتادة، على اثر ازدياد عدد طلبات الضمانات الاضافية ولما لم يتمكن هؤلاء من

الحصول على المزيد من السيولة اللازمة فقد اضطروا الى عرض اسهم هذهالجماعات في السوق من اجل استرداد قيم القروض. فنتج من ذلك هبوط سريع في الاسعار". وتابع جيانيني كلامه منذراً: "سيأتي يوم تعجزالقدرة الشرائية في السوق عن اداء اي منفعة، والله وحده عليم بوخيم العاقبة".

يطيب لجيسي ليفرمور (٥٥سنة)، المتباهي امام عشيقاته الموزعات في دور خاصة حول العالم بأنه على اطلاع على ما يحدث في السوق المالية، وهو يخصص سجلا لكل موضوع. فلديه مثلا سجل للوضع العام في السوق، وآخر لحالات الصعود والهبوط في اسعار الاسهم المفضلة. وثالث يضم آراءه الشخصية في مثل هذه التقلبات. لم تحظ تصرفاته برضا الجمهور الذي كان يعتبره واحداً من "الدببة" (المضاربين على الهبوط) في عالم يعج "بالثيران" (المضاربين على الصعود) فيشد باسعار السندات المالية نحو الهبوط عن طريق البيع لاجل قصير، طمعاً في زيادة ثروته الخاصة. فاذا ما لمس "الدب" ان الاسعار في السوق المالية هي على وشك التدهور، يبدأ ببيع اسهم لا يملكها بعد لكنه يعرف ان في وسعه استعارتها من احد السماسرة لاجل معين وفي مقابل رسم محدود، ثم يسلم هذه الاسهم المستعارة الى احد المشترين فيقبض ثمنها نقداً. ويقف متربصاً اللحظة التي تنهار فيها الاسعار فعلا، عندئذ يبدأ بشراء الاسهم بالاسعار المنخفضة ويسلمها بعد ذلك الى السمسار لتحل محل الاسهم التي استعارها منه، فيكون ربحه هنا الفارق بين السعر الذي باع به الاسهم المستعارة والسعر الذي دفعه ثمناً للاسهم المستبدلة.

انتاب ليفرمور هاجس المال، مع انه اصبح صاحب ملايين، فلم يكن له هم آخر في الدنيا. وبدت علاقاته الاجتماعية خشنة واعرب بوضوح عن احتقاره لكل مظاهر التحضر الانساني. وتروى عنه حكاية، يرفقها دوماً بقهقهة صاخبة غليظة الوقع، ان احد التجار سأله يوماً عن رأيه في الاديب الفرنسي، بلزاك، فأجابه: "انني ارفض التعامل مع هذه الشركة".

تلمس ليفرمور، على غرار جيانيني، عصبية السوق تنتفض كالفرس غير المروضة. فجلس وحده يتدارس الوضع في مكتبه القائم في "فيفث افنيو" والمعزول عن غرفة المواصلات التي تربطه باستمرار مع شيكاغو وسان فرنسيسكو ولندن وباريس وبرلين وميلانو.

وتردد لون شعر رأسه بين الاشقر والرمادي واحمرت خداه وارتسمت تقاسيم وجهه حادةفارغة، فبدا وكأنه اصغر سناً مما هو. وداوم على تدخين السيجار الهافاني الضخم الملفوف خصيصاً على اسمه في كوبا، فجاءت الثلاثمئة التي يدخنها في الشهر دليلا على التوترات التي تمزقه.

اخوة اهل المصارف

سار القطار "فولفرين" يهدر بسرعة ٩٠ كيلومتراً في الساعة متجهاً نحو مدينة ديترويت، وشلحت عرباته "البرلمان" من مسحة الخضرة على طبيعة ميتشيغان المكسوة بالثلوج.

نظر الركاب، من داخل العربات المقتربة من المدينة، الى ذلك المبنى الرمادي الضخم الذي تملكه شركة "جنرال موتورز"، من دون ان تسمح لهم المسافة الفاصلة بينهم وبينه من ان يتبينوا الحجار الصغيرة التي تزين سفح المبنى، ولمع امام اعينهم حرف D البارز المحفور في صدر كل حجر منها.

ان حامل الاسم الذي يبدأ بهذا الحرف، وليم كرابو دورانت، كان غارقاً منذ ١٤ ساعة في احد اجتماعاته الطويلة، بين جدران مقصورة فخمة في القطار الجاد في قعقعته. ولولا هذا الرجل لما كان هناك جنرال موتورز ولا شفروليه ولا بويك ولا بونتياك. فكل هذه السيارات هي وليد عبقريته. ولكن عندما دهمته الازمة المالية انقض عليه رجال المصارف وانتزعوا الشركة من قبضته، فقاده تحرره من اعباء ادارة شركة بهذه الضخامة الى سوق السندات المالية. وقدرت ارباحه في الشهر الاول بمليون دولار، وقفزت في الشهر الثاني الى عشرة ملايين، ووصلت الى خمسين مليوناً بعد ثلاثة اشهر، وهو الذي لم يحمل معه، لدى تركه جنرال موتورز، سوى كرسي حلاقة نقالة خاصة به، ترافقه في كل تنقلاته. وها هي الكرسي تتوسط الآن المقصورة الفخمة.

ترجل دورانت من القطار في ديترويت، وعلى وجهه بوادر الغضب. ان اتصالاته الهاتفية بنيويورك جاءت مبهمة، والنذر القليل الذي طرق اذنيه منها لم يساعد ابداً على تهدئة غضبه. انه سمع تشارلز ادوين ميتشل، رئيس "ناشونال سيتي بنك" اضخم المصارف الامريكية، يصرح ان القرار الذي اتخذه مجلس الاحتياط الاتحادي بدأ يعطي مفعوله. لقد توجه المجلس في هذا القرار الى جميع المصارف الامريكية طالباً منها الحد من القروض المعطاة للسماسرة، فقفزت قيمة القروض الى حين الطلب، خلال ٤٨ ساعة، ٣،٥ في المئة وواصلت ارتفاعها حتى بلغت ١٠ في المئة، هذا النهار، اي في السادس عشر من شهر فبراير (شباط).

والسؤال الآن: من يجرؤ على مواجهة هربرت هوفر، رئيس الجمهورية المنتخب، ويصارحه القول فيدرك هذا ان عافية الامة المالية انما تقوم على قانون الاعتمادات وان مجلس الاحتياط الاتحادي قتل بقراره الدجاجة التي تبيض ذهباً؟.

علم ميتشل بأن دورانت، في مقابلات صحافية سابقة عرفت انتشاراً واسعاً، ادلى بتصاريح عدة ردد فيها هذا القول واقتنع ضمناً بأن دورانت يتمنى محاورة هوفر.

وفي غرفة الاجتماع المكسوة جدرانها بخشب السنديان، وهي الغرفة الخاصة بمجلس ادارة مصرف "يونيون اندستريال بنك" في مدينة فلنت ميتشيغان تحلق ١٥ رجلا حول الطاولة المصقولة، يعلو رؤوسهم رسم تشارلز ستيوارت موت، رئيس مجلس الادارة ان هذا الرجل لم يدع الى الاجتماع، لانه اذا علم بما يدور فيه لطالب بزج المجتمعين في السجون. لقد كان هؤلاء موظفين عنده وامناء صندوق في مصرفه، لكنهم كانوا، في الوقت نفسه، مختلسين فيه.

نظر كرمبيت بيتت، احد نائبي رئيس المصرف، الى الاختلاس الذي يمارسه كأنه "مجرد قرض مالي من دون موافقة". مع ذلك، بدأ خطر افتضاح امره ينغص عيشه ويقض عليه مضجعه فلا يعرف للنوم سبيلا. وهو قلق على وضع زوجته نانسي واولاده في حال افتضاح امره وزجه في السجن.

وتعمد هارولد مور، نائب الرئيس الآخر، ابعاد نفسه عن مثل هذه الهواجس. وهو ايضاً رب عائلة، زوجته ديان مريضة، واولاده في مقتبل العمر. وقد ردد عليه الطبيب مرارا ان صحة زوجته "هشة" وان الاعتناء بها سيطول والتكاليف الطبية ستتضخم. وقد دفعته رغبته في الحصول على كميات اضافية من المال الى الانضمام الى هذه العصابة.

اما مساعد امين الصندوق، روجير مايز، فقد مارس الاختلاس لكي يحافظ على مستوى معين من المعيشة، لا يسمح له به راتبه الشهري المؤلف من ٣٧٥ دولاراً. وهو افتتح عمليات الاختلاس في مستهل ١٩٢٨، فاستخدم مال المصرف للمراهنة في السندات المالية النيويوركية. فقام بعملياته الاولى منفرداً، الى ان تبين له تدريجاً في بحر السنة، ان الآخرين يمارسون اللعبة ذاتها. فتجمع شملهم وازداد الارتياح لديهم مع ارتفاع عددهم فالفوا هذه العصابة. وبرز مايز بينهم قائداً مسلماً به، يبيع ويشتري السندات بواسطة الهاتف الخاص الذي يربط مكتبه بوول ستريت.

زادت كمية المال المختلس من المصرف على مليوني دولار، فوجد المختلسون انفسهم غارقين في الديون وتبين لهم ان السوق راكدة وان استثمارهم للمال لم يكن موفقاً. كما وجدوا انفسهم في مسيس الحاجة الى صفقة رابحة تساعدهم على استرجاع المال المختلس وتبرير ساحتهم بالتالي.

شاء روجير مايز ان يختم الاجتماع ببارقة امل، فأكد لرفاقه انهم سيخرجون عاجلا من هذا المأزق وان الثروات ستنهال على كل منهم. وقال: "ان السندات المالية مقبلة على قفزة تنطح بها القمر".

التجمع التجاري

في مساء الثامن والعشرين من شهر فبراير (شباط)، خلص مايكل ميهان والخبير في شركة "راديو كوربوريشن اوف امريكا" في البورصة الى الاعتقاد بأنه لا بد له من ايجاد تجمع تجاري ضخم انطلاقاً من اسهم الشركة. ففكر ملياً في اسماء الذين ينوي دعوتهم الى الاشتراك معه في هذا التجمع. وقرر بأن تتألف نواة المشروع من برسي روكفلر وجون راسكون وبللي دورانت الذين يعتمد عليهم.

وتبادر الى ذهنه اسم شريك آخر هو زوجته. ان قوانين البورصة تمنع عليه ان يكون شريكاً في التجمعات التجارية التي يتسلم ادارتها. لكن القوانين لا تحرم على زوجته اليزابيت المضاربة في اسهم شركة "آر. سي. آي" فقد سبق ان تعاطت هذا النشاط في الماضي.

لم يفاجأ ميهان لما بلغه ان السوق تدهورت، في الرابع من شهر مارس

(آذار) اي يوم تسلم الرئيس هوفر الحكم. وفي اليومين التاليين قفزت الاموال المسلفة الى حين الطلب الى ١٣ في المئة. وهذا المؤشر ٤ علامات اخرى حسب المؤشر الموحد لجريدة "نيويورك تايمس".

وفي السابع من الشهر، استجمعت السوق قواها فارتفعت قيمة اسهم الراديو (آر. سي. آي) من ٧٤ الى ٩١. ٣/٤ وفي هذا النهار كذلك، وزع ميهان بياناً سرياً وخاصاً حدد فيه اسس تجمعه التجاري. فتجاوب مع عرضه ستة وثمانون مستثمراً، وتعهد راسكون بتقديم مليون دولار، وتعهد والتر كرايزلر بنصف مليون، وسجلت اليزابيت ميهان تعهداً بمليون دولار. وبلغت قيمة التعهدات النهائية ١٢٦٨٣٠٠٠ دولار.

نهار الاثنين الواقع فيه الحادي عشر من مارس (آذار) ظهر في جريدة "دايلي نيوز" النيويوركية مقطع يقول فيه كاتبه - وهو احد الصحافيين القابلين للرشوة - ان اسهم "الراديو" ستقفز الى المئة في "القريب العاجل وان شراءها نهار الثلاثاء يعتبر صفقة موفقة". وهكذا، قبل ان يخف طنين المطرقة التي اعلنت افتتاح السوق صباح الثلثاء، اخذت اسهم "الراديو" تتحرك. فتوجه السماسرة الى جناح الشركة في المركز الرقم ١٢ وقدموا طلباتهم الاولى. لم تكن هذه ذات حجم كبير، ولكن لم تطل الحال حتى انضم اليها عدد من الطلبات الاخرى الواردة من انحاء عدة في البلاد، جاء بعضها نتيجة اكيدة للمقطع الذي ورد في جريدة "دايلي نيوز" وفي غيرها من الصحف التي تنشر في آن مقال الكاتب المذكور.

ولاحظ ميهان ان اسهم "الراديو" سلكت طريق الصعود بالنسبة الى سعر البارحة الذي بلغ ٩١/٨، وادرك انه خلال لحظات سيحمل الهاتف كلمة السر هذه يبثها السماسرة المحليون الى زبائنهم قائلين: "هذا هو الظرف الملائم لشراء "الراديو". فتنفس الصعداء وتأكد انه خلال ايام قليلة ستنهال عليه الطلبات من كل جهة.

تسلم مديرو التجمع التجاري طلبهم الاول الكبير قرابة الساعة العاشرة والنصف صباحاً والبالغ خمسة آلاف سهم. وبعد ثوان، نقل التلغراف الخبر. وللحال تدفقت الطلبات من بعيد، من سان فرنسيسكو وسياتل وفلوريدا ومن هاواي كذلك. واعلن المراسلون الماليون في "اسوشييتدبرس" و"يونايتدبرس" ان اسهم "الراديو" تتحرك صعداً. ورددت الاذاعات هذه الاخبار وادرجتها في نشراتها الاخبارية اللاحقة واضافها محررو الصحف الى طبعاتهم الاخيرة. وفي الساعة الحادية عشرة، تتابعت نقرات التلغراف تعلن صعوداً شبه متواصل في سوق اسهم "الراديو".

وقبع بللي دورانت في مكتبه في مانهاتان يراقب جهاز التلغراف، ولاحظ ان الاربعمئة الف دولار التي استثمرها في عملية التجمع بدت رابحة. ثم حول انتباهه الى مفكرته وانعزل في مكتبه فاحكم اقفاله وقطعه عن العالم الخارجي، لانه كان يعتقد ان الهواء الطلق يجر معه تلوثات قد تضر بصحته. وتميز

دورانت ايضاً بصفة اخرى تتم تفاصيلها ساعة الظهر· في هذا الوقت، دخل عليه الطاهي الشخصي القائم على خدمته، فانتهك حرمة المكتب المعزول وهو يجر عربة تضم فرناً نقالا طبخ فيه غداء دورانت· ويقطع الطاهي يومياً ثلاثين شارعاً في المدينة في سيارة سيده لكي يقدم اليه الطعام، لان هذا لا يثق بطهاة نيويورك لتحضير طعام خال من الجراثيم·

وكان سماسرة سان فرنسيسكو تلقوا سيلا من الطلبات لشراء اسهم "الراديو"· وظهرت في بورصات بوسطن وبلتمور وهرتفورد صعوبات متزايدة للحصول على هذه الاسهم وعلت الصرخة ذاتها من ٢٢ بورصة اخرى المنتشرة بين سانت لويس ولوس انجيلوس، ووردت على وول ستريت طلبات تلغرافية، وبعضها الـ ١٠ اسهم او ٥٠ او ٧٥ سهماً·

وصلت اصداء هذا الاقبال على اسهم "الراديو" الى مسامع كرمت بيتت في فلنت، فبث النبأ الى رفاقه المتآمرين معه، ودارت على الاثر مناقشة في ما بينهم حول امكان "وضع اليد" على كميات اخرى من اموال المصرف لاستثمارها في "عملية بدت وكأنها ربح اكيد"· لكن بيتت اقترح التريث ومراقبة تطورات الاحداث، فنزل الآخرون عند رغبته·

وادرك مايك ميهان ان تجمعه التجاري قد انطلق باجمل الوعود· ولاحظ أنه، خلال ما لا يزيد على خمس ساعات من النشاط المحموم، سلم السماسرة شركته طلبات لـ ٣٩٢٦٠٠ سهم، بينما باعت الشركة في الوقت نفسه ٢٦٤٠٠٠ سهم· وارتفعت اسعار الاسهم في ختام النهار الى ٥/٨ ٩١، ثم قفزت الى ٢/١ ١٠٩، لما اقفلت البورصة ابوابها عند منتصف نهار السبت الواقع فيه السادس عشر من مارس (آذار) كانت اسعار اسهم "الراديو" بلغت ذروتها· وهذا الامر لم يكن يعرفه سوى المسؤولين عن اللعبة· فاجتمع هؤلاء سراً نهار الاحد وتشاوروا وقرروا في النهاية ان "يفرطوها" في اليوم التالي·

وفي هذا النهار انزلوا بحذر الى السوق ٢٣٨٦٠٠ سهم، فاخذت اسعار "الراديو" طريق الهبوط التدريجي حتى وصلت الى ١٠١· عند هذا الحد، قرر "حلف الافندية" في مصرف "يونيون اندستريال بنك" في فلنت المجازفة مرة اخرى، فاستخدموا ودائع مختلسة لشراء اسهم "الراديو"·

وفي الايام الثلاثة اللاحقة، هبط سعر سهم "الراديو" الى ٢/١ ٩٢، بعدما تمكن اركان التجمع من انجاز عمليتهم المدمرة· فارتأت جماعة فلنت ان وقت الانسحاب قد حان، فباع اعضاؤها حصصهم في "الراديو" بـ ٤/١ ٧٨، وتكبدوا بذلك خسارة كبرى اخرى ووجدوا انفسهم في ورطة مالية اسوأ من الورطات السابقة· اما الحال لدى شركاء ميهان فلم تكن على هذا الشكل· فقد اسفرت عمليتهم عن نجاح هائل واعطتهم ارباحاً صافية توازي ٤٩٢٤٠٧٨ دولاراً· وهكذا استعاد راسكوب مليونه وربح ما معدله ٢٩١٧١٠ دولارات وكسب دورانت ١٤٥٨٥٥ دولاراً، وميهان وزوجته ٦٥٢٧٨٣ دولاراً· أما مؤسسة ميهان ذاتها فقد بلغت حصة عمولتها

وحدها ٥٨٠٠٠٠ دولار. وجاءت حصيلة هذه الايام القليلة مرضية.

وتمت كل العمليات حسب الاصول المرعية في السوق، اي في ظل القوانين والانظمة الصادرة عن بورصة مدينة نيويورك وبالاتفاق التام معها.

مواجهة رئيس الجمهورية

وفي كل واحدة من محطات القطار "اوفرلند ليمتد" المتوجه من شيكاغو الى كاليفورنيا، كان يؤتى بآخر طبعات الصحف الى مقصورة جيانيني الخاصة فيتبين له منها ان اسهم شركته "ترانس اميركا" ما زالت تتبع خطاً معتدلا، لكن المسلك الاجمالي المسيطر عليها اقلقه، فبدا له ان هناك مؤامرة ترمي خلق وهم في عقول الناس بانهم عثروا للمرة الاولى في التاريخ على مفتاح سحري يفتح لهم ابواب سوق دائمة الصعود.

فرفض جيانيني بشدة اخبار الصحف وتقاريرها الماضية في قولها ان هناك سبيلا واحداً امام السوق، الا وهو الصعود. وتفاقم كرهه لهؤلاء الصحافيين المرتشين الذين يخدعون قراءهم لمصلحة اسهم مشبوه بها.

وبلغه في ساعة متقدمة من بعد ظهر الاثنين ٢٥ مارس (آذار) ان الاموال المقترضة الى حين الطلب قفزت الى ١٤ في المئة، وهي اعلى القفزات التي عرفتها منذ شهر يوليو (تموز) ١٩٢٠، فتدهورت اسهم "ترانس اميركا" وهبطت معها غالبية الاسهم. وسجل هبوط "ترانس اميركا" خمس علامات بينما ٩٠ شركة اخرى هوت الى اقصى الدرجات المعروفة خلال هذه السنة.

اما التلغراف، فقد تأخرت اخباره في ذاك النهار خمسين دقيقة عن موعدها. وفي هذا النهار كذلك انقض جيسي ليفرمور فجأة على السوق وضرب بشدة لم ينتظرها احد. وهو كان امضى صباحه مترقباً الاخبار عله يجد فيها الخبر الذي ينتظره، اي تصريحاً صادراً عن مجلس الاحتياط الاتحادي يعلن رفع معدل الفائدة الرئيسية او معدل الحسم او اعادة الحسم.

وعلم الجميع في وول ستريت ان المجلس منعقد منذ ايام وراء ابواب مغلقة في واشنطن. وكان في ظن ليفرمور ان السوق مقبلة على انهيار حتمي ناتج عن الغموض المنتشر في الاجواء. فهرع الى مكتبه في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وما ان اعلن جرس البورصة افتتاح السوق حتى اندفع يغذيها بسلسلة محيرة من طلبات البيع والشراء من دون ان يدرك احد مقصده. وراح يبيع باسعار متدنية مستعيراً الاسهم التي يبيعها، فورد عليه للحال سيل من الطلبات المرعية الاصول من كل انحاء البلاد.

افتتحت السوق في الصباح التالي وبلغت الاموال المسلفة الى حين الطلب ٢٠٪، فيما مجلس الاحتياط الاتحادي صامت لا يحرك ساكناً. وتراكمت طلبات البيع في السوق فسجلت في ختام النهار رقما قياسياً، اذ تم تداول ٨ ٢٤٦ ٧٤٠ سهماً، وهو اضخم حجم في تاريخ البورصة. عندها عاد ليفرمور فشن غارة جديدة على السوق وبدأ يبيع باسعار تدهور هبوطها الى القاع. وتبين في ما بعد ان ارباحه في هذين اليومين بلغت ٢٠٠ ٠٠٠ دولار.

ورصد تشارلز ميتشل، رئيس مصرف "ناشونال سيتي بنك" هذا التدهور الجدي المبشر بنهاية قاصفة تلحق بسوق الشراء التصاعدية، واخذ يدلي بتصريحات صحافية معلناً ان مصرفه على اتم الاستعداد لوضع كميات ضخمة من المال في تصرف المستدينين لاستخدامها على النحو الذي يشاؤون. وانتشرت اخبار هذا العرض في وول ستريت فتبخرت الغيوم السود فيها واخذ المال المسلف الى حين الطلب ينهال مجدداً على السوق وبدأت اسعار الاسهم تستجمع قواها مرة اخرى. وعند ساعة الاقفال في ذاك النهار بلغ هبوط المال المسلف الى حين الطلب الى ١٥ في المئة وكان فضل الفرج فيه عائدا الى تشارلز ميشتل. واتخذ هذا التدابير اللازمة في مصرفه للوفاء بوعده، وفي صباح الاربعاء ٢٧ مارس (اذار) طلب قرضاً بعشرين مليونا من مجلس الاحتياط الاتحادي في نيويورك، متحدياً بذلك مجلس الاحتياط الاتحادي في واشنطن، فلبى مجلس نيويورك طلبه بينما امتنع مجلس واشنطن عن التعليق، علماً أن الاموال ستوجه نحو تغذية السوق المالية. وهكذا عادت سوق الصعود الى صخبها المعهود.

وجلس الرئيس هوفر في واشنطن يصغي الى بللي دورانت. فحذره هذا من ان انهياراً مالياً واقع حتماً ما لم تكف يد مجلس الاحتياط الاتحادي وقال ان محاولات المجلس التحكم بالقروض المقدمة الى العملاء وبسندات الاعتماد هي السبب في ذلك. وتحدث دورانت باتزان مركزاً على الاحداث وساردا تفاصيلها كما يراها هو، الى ان انهى كلامه قائلا: "والآن الامر بين يديك". لم يعلق الرئيس على الحديث، لكن دورانت خرج من عنده مقتنعاً بان مهمته كانت ناجحة.

ويوم الخميس ٣٠ مايو (ايار)، توجه البريطانيون الى صناديق الاقتراع في انتخابات عامة، وتجمهر الناس امام واجهة الرقم ١٠ من "داونينغ ستريت" مقر رئاسة الحكومة يراقبون النتائج ويتكهنون بمصير الحكومة المقبلة: هل ستأتي حكومة جديدة ام يمدد لحكم المحافظين بقيادة ستانلي بلدوين؟ اما وزير المال في ذلك الوقت، ونستون تشرشل المشرف على الخامسة والخمسين من عمره، فقد صمم على زيارة امريكا في حال فشله في هذه الانتخابات. فتشرشل يملك اسهما امريكية ويحب الاطلاع المباشر على الاوضاع هناك. كذلك ان وجوده في امريكا يساعده بلا شك على التأكد من حقيقة المخاوف التي ابداها مونتاغو نورمان، حاكم "بنك اوف انغلند" اي البنك المركزي الانكليزي.

وفي النهار التالي، علم تشرشل بان حزب المحافظين خسر المعركة الانتخابية لمصلحة حزب العمال، وانه هو احتفظ بمقعده في المجلس. فاخذ يفكر جديا في السفر الى امريكا وباشر الاعداد لهذا الحدث.

وانعكس فوز العمال على بورصة لندن، فتدهورت اسعار الاسهم فيها وسعت المصارف البريطانية الكبرى الى سد الثغرات المالية.

وتنوعت ردود الفعل في اوروبا.

فعودة العمال الى الحكم بعد اقل من خمس سنوات، رافقتها لامبالاة في فرنسا وقلق في المانيا؛ ودهشة في ايطاليا وبلجيكا وهولندا. اما بورصات الولايات المتحدة فلم يحدث الخبر فيها اي تموج.

الغيوم المتلبدة

راح جيسي ليفرمور يفكر في وول ستريت من اعالي وكره الشاهق في "فيفث افنيو" فبدا له في ذاك اليوم الجميل من ايام الصيف، الثلثاء ١١ يونيو (حزيران)، وكأنه "مضخة عملاقة ماصة تستنزف رأس مال العالم بلا هوادة فيولد" هذا الاستنزاف السريع فراغاً في البلدان الاوروبية.

وكان عملاؤه اجروا، خلال الاسبوع الماضي، حملة جس نبض للسوق المالية في اوروبا وكندا بحثاً عن مؤشر يسمح بشن غارة اخرى على السوق. فتبين لهم ان الولايات المتحدة تبتلع الرساميل الاوروبية على نحو لا مثيل له، وان هذا الابتلاع جعل من وول ستريت، على حد" قول احدى المجلات الاسبوعية الانكليزية، "العاصمة المالية للعالم اجمع".

وعزا ليفرمور هروب رؤوس الاموال الى "ضعف الطاقة التجارية المتلبدة كالغيوم السود في سماء بورصات اوروبا"، وقد وجدت الاموال جاذباً في الاجواء الامريكية.

اكب ليفرمور مطولا على درس التقارير التي عرضها عليه معاونوه وانتهى منها مداعباً نفسه، على غير عادته، قائلا: "يسير التيار المائي الساخن في اتجاه واحد عبر الاطلسي، لكن التيار البارد يسير في الاتجاه المعاكس".

وفي المنازل طغت الاخبار والتقارير المالية على ما عداها من الصباح حتى المساء. واصبحت هذه الاخبار الرفيق الملازم لملايين الناس في امريكا الشمالية كما اضحت جزءاً لا يتجزأ من روتين حياتهم اليومية. وخصصت الصحف مجالات واسعة لجداول الاسهم ولوائح السوق الموزعة على مجموعات الصحافة المالية الموحدة.

بدا هذا كله، في نظر ليفرمور، طعماً للسمكات الصغيرة موجها الى صغار المستثمرين الذين "يجهلون تماماً لماذا يشترون ولماذا يبيعون". على كل، يظهر ان السمك الصغير لا يرفض الطعم على ما ورد في تقارير عملاء ليفرمور النشطين. فهم كدسوا جبالا من المقتطفات الصحافية التي تبين ان السوق نجحت في اغراء ابعد الناس عنها.

ويروي ان طاهية في احد منازل "فيفث افنيو" تركت عملها لان ارباب المنزل رفضوا تجهيز المطبخ بتلغراف خاص. وندبت احدى الارامل الثريات حظها لان سائق سيارتها تمنع عن خدمتها قبل ان تقفل السوق ابوابها. على ان ليفرمور اقتنع في سريرة نفسه بالمثل الشعبي السائر الذي يقول:"اشتر مما هب" ودب" تربح""، فجمع موظفيه وامرهم بأن يحللوا اوضاع السوق من خلال وجهة نظر جديدة. كما طلب منعهم ان يقارنوا اسعار البورصة الحالية في نيويورك باسعار المرحلة الاولى من السنة ذاتها، فاكتشفوا خسائر ضخمة تعرض لها عدد من ابرز الاسهم في السوق المالية، ووجدوا

كذلك ان اسعار اسهم شركتي "يو. اس. ستيل" و"دوبون" قد فقدت ٢٠ علامة خلال الشهرين الاخيرين ورأوا ان ما يزيد على ستين في المئة من ١٠٠٢ نوع من الاسهم مسجلة في جدول بورصة نيويورك تدهورت الى ما دون المستوى الذي كانت عليه في شهر ديسمبر (كانون الاول).

وبرز عامل آخر هو ان مجموع حسابات التوفير في انحاء البلاد مال نحو الانحدار، وذلك بعد ١٩ سنة من الازدهار. ان السحب المتزايد من الودائع، في اعتقاد صحيفة "كومرشيال اند فاينانشل كرونكل"، يعود، في معظمه، الى اغراءات الكسب في البورصة.

وتأكد لليفرمور، في ختام يومه، الظن الذي كان يخامره، وهو ان هذا الشكل الجديد من المقامرة قد امتدت عدواه بسرعة الى امريكا بكاملها.. وأوحى اليه حسه الغريزي بأن انقلاباً مفاجئاً في السوق بات اقرب مما كان سابقاً، ويعود ذلك الى وجود هذا الجمهور من الناس الذين انضموا الى اللعبة من دون توجيه او تهيئة. "فالسمك الصغير" هذا، تنقصه المزايا الاساسية التي تساعد المقامر المحترف على الصمود: اعصاب باردة وبراعة في استقراء الاحداث وقدرة على ضبط النفس "ساعة يهب الباقون هائمين كالمجانين في كل اتجاه". اما "السمك الصغير" فيرعبه اي تبديل في السوق.

وفي مستهل شهر يونيو (حزيران)، عوض المختلسون في فلنت، معظم خسائرهم وذلك على اثر المشتريات المتأخرة التي قاموا بها خلال شهر مارس (آذار). وهم انتقلوا من استثمار ناجح الى استثمار آخر مثيل به، عن طريق تدوير قسم من الاموال المستعارة في صناعة الطيران والسيارات. وكسب هؤلاء، في ايام معدودة، ٢٠٠٠٠٠ دولار.

ونهار الاربعاء في ٩ يونيو (حزيران) تسربت الى احدهم، هارولد مور، كلمة سرّ مغرية، فوظف للحال قسماً من ماله في اسهم شركات المأكولات. وبعد يومين من هذا التوظيف، ذاع خبر مؤداه ان ج.ب مورغان وشركاه اعلنوا تأييدهم لعملية دمج قريبة بين عدد من الماركات المتزعمة صناعة المأكولات، فارتفعت للحال اسعار الاسهم التي اشتراها مور بنحو ٣٠ علامة. وهكذا، في نهاية الشهر، تمكنت جماعة فلنت من تعويض نصف قيمة المليونين ونصف المليون من الدولارات المختلسة. وادرك هؤلاء ان الطريق امامهم لا تزال شاقة، لكنهم رأوا ان استعادة مليون دولار ونيف، في سوق تستمر في الصعود، ليس بالامر المستعصي عليهم. فصرّح كرمت بيتت، وهو حذر في طبعه: "ان يوم الفرج آت لامحالة خلال شهر واحد او ثلاثة في اصعب الحالات".

اللعبة مفتوحة للجميع

جدّ شارلتون ماك فيغ، وهو احد المصرفيين العاملين في خدمة مورغان، مسرعاً، في اتجاه الباب الرقم ٢٣ في وول ستريت قبل ان يسبقه اليه احد من شركاء سيده. وبينما هو يعبر الشارع من رصيف الى آخر، وقعت عينه على جوزف كينيدي واقفاً في ظل كنيسة الثالوث الاقدس

وظهرت على الايرلندي ملامح انسان لزعته شمس حارة فبدا نحيف الجسم، رشيقاً يتمتع بحال من الارتياح بعيدة عن تلك التي وجده فيها ماك فيغ ذات صباح سابق على اثر الذل الذي انزله به معلمه جاك مورغان.

كان كينيدي أحد ابناء رجل اعمال وزعيم سياسي كاثوليكي في مدينة بوسطن، وقد جمع ثروة لا يستهان بها من الاعمال المصرفية، والانتاج السينمائي. ثم زاد على ثروته مالا فوق مال البورصة. لكن احداث بداية ١٩٢٩ اقلقته فقرر بيع اسهمه والانسحاب من البورصة. وقبل ان ينفذ قراره هذا، شاء مفاتحة مورغان في الامر. لكن مورغان رفض استقباله، مدفوعاً بعامل التعصب للمقاييس البروتستانتية التي تركزت عليها اركان مؤسسته.

اما اليوم فقد بدت دلائل العافية على وجه كينيدي معززة الاشاعات الرائجة في الاوساط المالية ومؤادها ان ابن بوسطن استسلم في الاونة الاخيرة لحياة اللهو والترف.

ان الرجل، على رغم حداثة نعمته، لا يزال منجذباً بالمراكز العليا والسلطة. وهو يدرك ان هذا لن يتم له ما لم يضع يده على ثروة ضخمة. وهو قصد وول ستريت صباح هذا الاربعاء ١٧ يوليو (تموز) وفي نفسه حاجة. قصده لكي يجس نبض سوق السندات المالية بعناية ويطلع بنفسه من دون وسيط، على الاوضاع ويصغي الى وجهات نظر ابرز المتحرفين القدامى هناك. وقد تنبه الى وجود مايكل ليفين الثري الكبير وصاحب اعرق مؤسسة للخدمات في المنطقة، فرآه يعبر دار "مورغان هاوس" من دون ان يعيرها اي انتباه، فلم يعجب للامر بل ردد في نفسه: "عاملوه في هذه الدار معاملة سيئة وليس كينيدي من الناس الذين يتناسون الاهانات بسهولة".

اظهر انداد كينيدي كرهاً مكشوفاً له، اذ انهم طالما وقعوا في فخ سحره من دون ان يدركوا ان وراء مداعباته يختفي انسان "له قلب لا يرحم وعقل ماض كحد الموسى" كما جاء على لسان جون. ج. راسكوب.

وراسكوب واحد من الذين غضوا النظر عن النهج العنيف التهجمي الذي يتبعه كينيدي في اعماله، فراح يردد ان هذا الايرلندي هو حصيلة البيئة التي عاش فيها. واسرّ ذات يوم للمصرفي جايمس ريوردان: "ان كينيدي يخفي وراء كلامه المعسول نفسية انسان ايرلندي من عامة الشعب". فابتسم ريوردان واعترض على هذا الكلام قائلا: "لو انه جاء على لسان شخص آخر غير راسكوب لكان صرعه ارضاً، اذ ان ريوردان من اصل ايرلندي كذلك وهو فخور بهذا الاصل".

استقبل الرجلان جو كينيدي بحرارة في احد مكاتب وول ستريت الذي يخص صديقاً لراسكوب يدعى ارتوركوتن. وظهر هذا كأحد ابرز المضاربين المستترين في وول ستريت. فنذر ان تظهر له صورة في الصحف او يؤخذ منه تصريح. وهو باح يوماً لجيانيني: "ان ذكر اسمك في الصحف لا يرد عليك مالا".

عقد الاجتماع الرباعي في جوّ من الارتياح والبساطة. فتح الحديث

راسكوب ثم تبعه ريوردان فكوتن. وعرض الثلاثة امام كينيدي احداثاً ليست غريبة عنه واظهروا تفاؤلهم بالنسبة الى الوضع العام. لكنهم لم يقنعوا كينيدي، فبدا له ان وجهة نظرهم التي تمثل وجهة نظر وول ستريت بالذات، ضيقة المدى وقد تكون ضحية الدعايات التي يخلقونها هم انفسهم. فتركهم وشأنهم وراح ينتقل من دار سمسرة الى اخرى، طارحاً الاسئلة ومصغياً الى الاجوبة عنها. فسمع الكلام نفسه الذي ردده عليه الرجال الثلاثة. وقيل له ان اسهم "دوبون" في ارتفاع، واسهم "يو.اس.ستيل" في ارتفاع ايضاً واسهم "كونسوليتداتد غاز" هي كذلك. وشعر بالتفاؤل يغمره من كل صوب.

وعند الظهر، وجد نفسه من جديد على رصيف وول ستريت. فتوقف امام الرقم ٦٠ واخذ يتأمل ماسح الاحذية بات بولونيا وهو مستغرق في قراءة "وول ستريت جورنال". فتسلق كرسيه المرتفعة وجلس فيها، ثم سأل الماسح: "كيف حال السوق يا بات؟" فأجاب: "انها مزدهرة، يا سيدي، مزدهرة جداً. هل انت في حاجة الى كلمة سر؟". فابتسم كينيدي وهز رأسه ايجاباً فتابع ماسح الاحذية: "اشتر اسهم البترول والقطارات الحديد. ان اسعارها ستنطح السحاب. مرّ علي اليوم احد المطلعين على الامور من الداخل واخبرني".

ناول كينيدي الماسح ربع دولار وابتعد.

في تلك الليلة اسرّ جوزف كينيدي في اذن زوجته روز: "ان سوقاً مفتوحة لجميع الناس، يتنبأ بها ماسح الاحذية، ليست سوقاً مناسبة لجوزف كينيدي".

قنبلة بابسون

عند اقفال البورصة نهار الخميس ٨ اغسطس (آب) انتشر الخبر بأن مجلس الاحتياط الاتحادي سمح اخيراً لمصرف الاحتياط في نيويورك برفع معدل الحسم علامة واحدة، فأصبحت ٦ في المئة. وقد اجتاحت وول ستريت، على الاثر، موجة من "العويل والرعب" دامت حتى الجمعة حين لوحظ حدوث هبوط واسع في الودائع. لكن السوق استعادت جزءاً من عافيتها في صباح السبت. الا ان الناس ظلوا يتخبطون في حيرة متسائلين عن مصير السوق: وهل هي حقاً في انحدار. وراح الناس يتوافدون على وول ستريت من كل انحاء امريكا ليشهدوا ماذا سيحدث نهار الاثنين.

وفي الثامنة من صباح الاثنين، ١٢ اغسطس (آب)، توجه الى وول ستريت احد مديري ردهة البورصة وليم كراوفورد، وهو قدم الى الساحة ساعة قبل موعده، فلاحظ بعينه الخبيرة الحشود حواليه. وكان تجمهر في وول ستريت وحده آنذاك ما لا يقل عن الف شخص. وتوزع مثلهم في الشوارع القريبة مثل "ناسو" و"برود" و"وليم". ووقف حشد آخر بصبر وجلد امام الرقم ٥٥، على ابواب مصرف "ناشيونال سيتي بنك"، بينما توزع آخرون امام المصارف الباقية مثل "بنك اوف مونتريال"، و"بنك اوف يونايتد ستايتس". وقدر كراوفورد هذه الحشود كلها بخمسة آلاف شخص.

وفي التاسعة، وقف احد السماسرة توم براغ عند طرف الشارع برفقة يو. اي هوتون ميللر، المعروف بـ"هوت" بين اصحابه. وقف الرجلان امام دار السمسرة الشهيرة" يو. اي. هوتون" وشركاه التي اسسها جدّ "هوت". فاجال هذا بنظره في الشارع المكتظ بالناس ثم مال الى براغ سائلا: "ما رأيك لو نقلنا البورصة الى "يانكي ستاديوم (اكبر ملاعب نيويورك الرياضية)؟".

اخذ مايكل ليفين طريقه الى مكتبه، حيث يشرف على ادارة جيش من السعاة مؤلف من الفي شخص. فبدا له ان هذا النهار سيكون انشط يوم عرفه في حياته. ولفتته خصوصاً نوعية الناس المحتشدين في الساحة: ليس فيهم ما يدّل على انهم من اهل المال.

قضى ليفين نهاية اسبوعه يتدارس، على غرار سواه من محترفي السوق، الخطوة التي سيقدم عليها مجلس الاحتياط الاتحادي ويتساءل عن مدى مفعولها بالنسبة الى سوق الشراء التصاعدية. وبعد ساعة من النشاط، تبين له انه لا مجال الى القلق. ان رفع معدل الحسم، بعد جدل طال منذ شهر شباط، لن يولد اكثر من الحازوقة التي استولت على السوق خلال نهار الجمعة. وان الامور ستعود الى مجراها السابق، لا بل ستتحسن.

وفي الثالث والعشرين من يونيو (حزيران)، توصل كلارنس هاتري في لندن الى جمع قرابة ٩٠ في المئة من الاموال التي يحتاج اليها لشراء اسهم "يونايتد ستيل". ولكن ظلت تنقصه قيمة تقل عن مليون دولار، او، كما جاء على لسانه في ما بعد، "تلك الحصة الاخيرة المشؤومة". لقد استنفد جميع الموارد التي كانت في متناوله وتورط في عمليات لا تليق بأمثاله وهي من عادة المحتالين. ووقف وراء خطةمن الاحتيال تقضي باصدار "شهادات علاوة" وهي كناية عن ايصالات في شكل سندات، تشير الى مال مقبوض، كانت تستبدل لاحقاً في الظروف الطبيعية بسندات صحيحة. وهذه الشهادات التي تتناول كميات ضخمة من المال، حملها عملاء هاتري الى المصارف واستودعوها اياها في شكل ضمانات تسليف. وهكذا اصدروا خلال ستة اسابيع ما توازي قيمته مليون جنيه استرليني.

وادرك هاتري ان الوقت لن يطول حتى يبدي اصحاب المصارف شكوكهم في شهاداته الوهمية. فحاول في بداية الامر التعامل مع وول ستريت من اجل سدّ عجزه المالي، فرفض الامريكيون الذين اتصل بهم التسليف الفوري للمال المطلوب، اذ انهم كانوا يراقبون حزب العمال وتصرفاته في معالجة شؤون الاقتصاد البريطاني المتراخي. فاضطر هاتري للتوجه الى كبرى دور المال في اوروبا. واستمرت محاولاته الاوروبية حتى ٣١ سبتمر (ايلول). وقد واجه تردداً في التعاون مع بلاد لم يصدر عنها الا النذر القليل من اشارات الانتعاش في ظلّ الاشتراكية. فعزم هاتري القيام بخطوة جريئة فلجأ الى مونتاغو نورمان، حاكم "بنك اوف انغلند"، الرجل الوحيد في عرفه القادر على انتشاله من ورطته. فاستقبله نورمان بلطف، وقال له،

بعدما استمع اليه: : "اني آسف للمشاكل التي تعترضك، واني اعتقد انك دفعت ثمناً غالياً لشركات الحديد التي تنوي شراءها". فأكد له هاتري ان الدمج الذي يقوم به "يلاقي الدعم الكامل والدعم التام من سلطات مدينة لندن".

فأجاب مونتاغو: "من الواضح ان واقع الامور يناقض قولك، والا لما كنت هنا الآن". فسأله هاتري: "هل هذا يعني انك لن تمد الي يد المساعدة". فأجاب مونتاغو جازماً: "اجل لن اساعدك". فخرج هاتري من "بنك اوف انغلند" شارد الافكار معقود اللسان.

وفي السادس والعشرين من اغسطس (آب) اشترى مختلسو "يونيون اندستريال بنك" في فلنت، اسهما للقطار الحديد بقيمة عشرة آلاف دولار، ثم بعد يومين باعوها بربح ملحوظ، ولم يعد ينقصهم لاستعادة المليونين ونصف مليون من الدولارات "المستقرضة" من مصرفهم سوى ٦٠٠٠٠ دولار، فبدا لهم ان ازمتهم هي في طريق الانفراج.

قبع جيسي ليفرمور في مكتبه في الطابق الثامن عشر من "فيفث افنيو"، مستسلماً لحسه الخاص الذي كان ينبئه بأن الاحداث تسير نحو "مرحلة حاسمة". ثم استدعى موظفيه ووعدهم بمكافآت اضافية اذا هم تمكنوا من تقديم البراهين الملموسة لحدسه هذا.

قنبلة الانذار الاولى وردت من وراء الاطلسي وتفجرت في مكتبه. فبعد ظهر الاربعاء ١٤ سبتمبر (ايلول). روت الاخبار ان مسؤولا كبيراً في "بنك اوف انغلند" نشر اشاعات معينة حول محاولة يقوم بها مونتاغو نورمان، حاكم المصرف لايجاد المبررات اللازمة لرفع معدل الفائدة قبل نهاية الشهر. فاذا صدقت هذه الاشاعات، فذلك يعني ان الاموال المخصصة لسوق وول ستريت ستتحول في طبيعة الحال الى لندن، تاركة وراءها تأثيراً سيئاً على السوق الامريكية.

وجاء في الاخبار مقطع آخر جدير بالتأمل والاعتبار، يقول ان كلارنس هاتري في ورطة جدية مع ادارة الضرائب.

عاد ليفرمور الى مكتبه باكراً في الصباح التالي، قبل ان يعود موظفوه المنهكون الى حساباتهم المعهودة. وفي الساعة الثامنة، تحدث الى احد مراجعه في بوسطن فذكره هذا بأن الجمعية الوطنية للتجار تقيم في هذا النهار مأدبة غدائها السنوية وبأن خطيب هذه الحفلة سيكون روجير بابسون الاقتصادي الذي كانت له نظرة متشائمة الى السوق، خلال السنتين الاخيرتين.

عند الظهر، وضع ليفرمور اللمسة النهائية على مخططه واستعان بثلاثين وسيطاً فقط للمحافظة على سرية المخطط ثم شن غارة من البيع المخفض الاسعار باسهم تساوي ٣٠٠٠٠٠ دولار.

وفي الثانية عشرة والنصف، نقلت "اسوشييتدبرس"، على آلاتها المنتشرة في انحاء البلاد، خبراً خاطفاً يتعلق بخطاب بابسون. قال الخبر: اقتصادي يتنبأ بانهيار في

سوق السندات المالية يراوح بين ٦٠ و٨٠ علامة"٠ وفي تلك اللحظة، تأهب وليم هوتون ميللر لتلبية دعوة متأخرة للطعام، فسقط الخبر كالقنبلة على مكاتب شركته، واخذت المكالمات التلفونية، تنهال عليه من الزبائن المطالبين بالبيع٠

اقفل جون راسكوب باب مكتبه في "بارك افينو"، ثم القى نظرة على الحجرة التي تضم آلة التلغراف وما ان استقرت عيناه على شريطها الاخباري حتى هرع نحو مكتبه من جديد٠

وفي الثانية من بعد الظهر، اصدر البروفسور في جامعة "يال" ارفنغ فيشر، ردا معتدلا على قنبلة بابسون، نقلته صفحات "الهارولد تريبيون" واستبعد فيه حصول انهيار مرتقب، فانتقل الخبر الجديد بدوره الى خطوط التلغراف٠

تابع ليفرمور عملياته في البيع باسعار مخفضة حتى ساعة اقفال البورصة٠ فهبطت ارقام مؤشر جريدة "نيويورك تايمس" عشر علامات، وتدهور عدد وافر من الاسهم الفردية بنسبة اكبر٠ فبلغ عدد الاسهم المتداولة ذاك النهار،٢٨٠ ٥٦٥ ٥ سهماً٠

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر، اخذ رد البروفسور فيشر يزداد انتشاراً في البلاد، فادرك ليفرمور ان السوق ستعود لتجمع قواها في اليوم التالي٠ فدعا موظفيه واحاطهم علما بأنه سيعمل، في الساعات الاولى من الصباح، على تغطية موقفه في البيع باسعار منخفضة٠

كان ليفرمور على صواب٠ فقد سلكت الاسهم طريق الربح، منذ الساعة الاولى من نهار الجمعة ٦ سبتمبر (ايلول) واستعادت غالبية الخسائر التي لحقت بها بالامس٠ "وعاد كل شيء الى حاله السابقة" كما جاء على لسان بات بولونيا، ماسح الاحذية المتفائل، خلال النهار اللاحق، اي السبت وهو النهار نفسه الذي وصل فيه ونستون تشرشل الى الولايات المتحدة٠

وصباح الخميس ١٩ سبتمبر (ايلول)، دخل كلارنس هاتري برفقة ثلاثة من مديري امبراطوريته المكتب الفسيح الذي يملكه السيد غيلبرت غارنسي، احد ابرع المحاسبين القانونيين في لندن٠ وكانت ادارة "لويدز بنك" كلفت غارنسي التحقيق في قدرة شركات هاتري على توفير ضمانات اعتمادية٠ وكان هاتري اتصل في اليومين الاخيرين بـ "لويدز" في محاولة اخيرة يائسة للحصول على الاموال الضرورية لشراء "يونايتد ستيل" بغية الحفاظ على مصداقيته بين الناس ورد الخطر عن امبراطوريته الواسعة٠ لكن محاولاته قوبلت بالرفض، عندها فهم هاتري ان ساعة نهايته قد دقت٠

جلس غارنسي يستمع الى اعترافات هاتري وكأن على رأسه الطير٠ فاقرّ هاتري بانه ارتكب جرائم فادحة وان الديون المتراكمة على شركاته بلغت ١٩ مليون جنيه استرليني، بينما اصولها لا توازي اربعة ملايين٠

وفي ختام حديثه، وعده غارنسي بأنه سيتوجه تواً الى "بنك اوف انغلند" لمقابلة مونتاغو نورمان،علـه يجد معه وسيلة لتجنب الكارثة٠ لكنه

لم يلبث ان عاد متجهم الوجه وصرح ان وساطته قد فشلت. ثم اضاف، موجهاً كلامه الى هاتري وشركاه، "ايها السادة، لي نصيحة واحدة اعرضها عليكم. سلموا انفسكم الى العدالة".

في اليوم التالي، دخل جميعهم السجن.

هزة مالية

في التاسع عشر من شهر سبتمبر (ايلول)، تواعد مختلسو فلنت على الاجتماع في قاعة المجلس ليلا. فقد نزلت عليهم "قنبلة بابسون" كالصاعقة، وقفزت بخسارتهم من ٦٠٠٠٠ دولار الى ٣٠٠ ٠٠٠ دولار. وسبق ان حدث انهيار قاطع في السوق في العاشر من الشهر ذاته، فضربوا به وخسروا قرابة ٤٠٠ ٠٠٠ دولار.

قامت القيامة في صفوفهم تلك الليلة، واستولى "الرعب الشديد" عليهم جميعاً، فلم يعد كرمت بيتت يذكر تماماً ما جاء على لسان رفاقه، لكنه يعلم ان كل ما قالوه كان مجرد هذيان. واستقر رأيهم، قبل ان يتفرقوا على ان لا مفر من متابعة العمليات الاحتيالية.

في هذا النهار اتهم كلارنس هاتري في لندن بالاحتيال بمبلغ ٢٧ مليون دولار.

ومساء الاحد ٢٢ سبتمبر (ايلول)، فتح ليفرمور صفحات مخطوط لكتاب جد في تأليفه واخذ يقرأ على مسامع زوجته: "العلة والمعلول يتفاعلان انطلاقاً من الاقتصاد الى السندات المالية، وليس العكس. ان اقتصاداً متقلباًتهزدكل الاحداث "المتنوعة والتي تبدو في ظاهرها وكأنها غريبة عنه". ثم اضاف: "ان انهيار امبراطورية هاتري يدخل في اطار هذه النوعية، فاذا صدق ان التملك المضلل تناول كميات ضخمةمن المال، فان ذلك قد يسبب موجة من التصفيات قادرة على ان تزعزع ليس فقط بورصة لندن وغيرها من اسواق السندات المالية المتأثرة بها، امثال شانغاي وجوهانسبورغ وسيدني ومونتريال وتورنتو، بل كذلك بورصة نيويورك بالذات.

ترقب شارلتون ماك فيغ انفضاض الاجتماع الباكر الذي عقده شركاء مورغان، فطال الاجتماع اكثر من المعتاد. وعلم شارلتون، كما علم غيره من الموظفين، ان الشركاء جاؤوا خصيصاً في ساعة مبكرة للتجمع حول مكتب توماس لامونت. وشاع خبر بأن رسالة خطيرة وصلت المجتمعين من جاك مورغان، الموجود حاليا في لندن لدرس وتقويم ردات الفعل الممكنة لسقوط هاتري. اما حقيقة الامر فلن يدري بها احد سوى الحلقة الانيقة من الرجال الملتفين في هذه اللحظة حول توماس لامونت، ولن يطلع احد غيرهم على تفاصيل جلستهم هذه، لان السياسة المتبعة في "مورغان هاوس" تمنع تدوين محاضر لمثل هذه الجلسات. بقي امر واحد وثق الجميع به، كما يدعي جاك مورغان في وقت لاحق، وهو ان سقوط هاتري اثر تأثيراً مباشراً على جميع الاحداث التي جرت هنا.

صباح الثلثاء ٢٤ سبتمتبر (ايلول)، قاد جو غارسيا سيارة معلمه، محاطا بصمت نادر. فأخذت السيارة طريقها

بين سان ماتيو وسان فرنسيسكو، فقبع فيها اي· بي· جيانيني متحدباً بقربه، وجلست ابنته كلار صامتة في المقعد الخلفي من "الرولز رويس"·

ان الضربتين اللتين اصابتا السوق في بداية الشهر اقلقتا جيانيني· وقد تحدث هذا الى اخيه اتيليو ـ المعروف بـ "الدوك" بين افراد العائلة ـ في نيويورك، حسب عادته، فاخبره "الدوك" بأن عدداً من التجار المضاربين على الهبوط ظهر في الساحة وان بعضهم اخذ يشيع عن حدوث "هزة" قريبة في السوق·

ولما وصل جيانيني الى فرع "بنك اوف امريكا" في الحي الصيني في سان فرنسيسكو تلقى مخابرة اخرى من "الدوك" في نيويورك يقول فيها: "لقد حدث تزعزع مفاجىء في السوق· اننا نغرق"·

ان السرعة التي تم بها هذا التزعزع اخذ جيسي ليفرمور على حين غرة· فاذا بالسوق تعلو لحظة، ثم تتدهور في الاخرى· فجمد في مكانه يتفرس في تلغرافه يسجل مراحل هذا التقلب، فالانهيار· وعزا ليفرمور ما حدث الى ازمة هاتري· لكنه لبث مقتنعا بوجود "قوى" اساسية اكثر خطورة من هاتري تتمخض كأنها في اجهاد شبيه باجهاد الهزات الارضية· فكل العلامات، في نظره، اشارت فعلا الى ان هزة مالية هائلة، على مثال الهزة الارضية، ستحدث في القريب العاجل·

اشاع هذا التزعزع جواً من الكآبة في اجواء المختلسين الخمسة عشر في "يونيون اندستريال بنك" في مدينة فلنت· فخلال اقل من شهر، انهم "اقترضوا" وخسروا معا مبلغ مليون ونصف مليون دولار·

ان ازمة كلارنس هاتري لم تترك لبعض المضاربين الكبار في السوق سوى مخرجين، اما الانسحاب التام من اللعبة، واما البيع باسعار مخفضة ففي مساء الثلثاء، بدأ الخبير المالي برنارد باروخ "يبيع كل ما وقعت عليه يده"· وتشبه به ابنه، وهو من الوسطاء الشبان الطالعين، فتخلص من اسهمه· وتنازل السمسار القديم العهد ميشال سي· بوفييه، وهو في الثانية والثمانين من عمره، عن جميع الاسهم العادية التي ضمتها حقيبته· وضاهاه ابن اخيه جاك بوفييه، الاختصاصي في المركز الرقم ١١ من البورصة ووالد طفلة ولدت قبل شهرين، فحول معظم اسهمه الى اموال نقدية·

اما جوزف كينيدي فقد ظل راسخاً في موقفه متربصا ساعته·

وصباح الاربعاء ٢٥ سبتمبر (ايلول)، قبل افتتاح السوق النيويوركية، نقلت البرقيات خبر الاجتماع الذي ينوي عقده حكام "بنك اوف انغلند" وقالت مصادر موثوق بها "ان الحكام قرروا التذرع بسقوط هاتري وبتدني احتياط الذهب، لرفع معدل الحسم· في الساعتين الاولى والثانية من السوق، تدفقت طلبات ملحة للبيع· ثم وصلت اخبار اخرى سيئة من لندن: قيمة الجنيه الاسترليني ترتفع مما دل على ان الرساميل ستهجر بقية البلدان، بما فيها الولايات المتحدة، وتتوجه نحو لندن طمعا في الفوائد المرتفعة المرتقب دفعها في بريطانيا· فتدهورت للحال اسعار الاسهم·

وفي اليوم التالي، رفع "بنك اوف انغلند" معدل الحسم الى ٢/١ ٦ في المئة، اي بزيادة نصف علامة على معدل نيويورك. فلم يصدر على هذا القرار اي تعليق رسمي من بورصة نيويورك او غيرها من البورصات في الولايات المتحدة، على ان السوق بقيت على حالها طوال النهار وارتفعت اسعار بعض الاسهم بنسبة معتدلة. لكن المصارف المركزية في النمسا والدانمرك واسوج والنروج وايرلندا،لم تنتظر اكثر من ٤٨ ساعة كي ترفع هي ايضا معدلات الحسم لديها.

البداية

لم يكف جون راسكوب، المتفائل الدائم، عن الحديث مع ضيوف الغداء عن الاسباب التي تحمله على التمسك بالمضاربة على الصعود.ومالت عيناه من طرف المائدة الى طرفها الآخر وتنقلت من بللي دورانت الى ارتوركوتن فالى جامس ريوردان وبرسي روكفلر والاخوة دوبون واوريس ومانتس فان سوارنفن، اصحاب امبراطورية شركة ضمان القطار الحديد حتى استقرتا في النهاية على وليم لامب المهندس المختار لبناء "امباير ستايت بلدينغ".

وقال راسكوب: "ان عوامل قوية تتحرك، وتنظر الى وول ستريت" نظرة غير ودية، مما يؤثر مباشرة على مسلك السوق. فالخطأ كل الخطأ ان نتجاهل، من جهة هذه "العوامل" ومن جهة اخرى، هذه النظرة. ان الموقف الصحيح يقوم على مواجهة الاثنين وعلى محض السوق "ثقة ايجابية".

ثم اشار الى وليم لامب، فغادر الاثنان الغرفة ثم عادا حاملين نموذجا يمثل "امباير ستايت بلدينغ". فقال راسكوب: "ايها السادة، اليكم صورة عن رهاني، نصباً للمستقبل". واوضح ان: "ناطحة السحاب ترمز الى امريكاالتي اؤمن بها - هذه البلاد التي نطحت السحاب في حين حافظت على اقدامها في الارض". المشروع ضخم وتكاليفه باهظة، لكن تحقيقه ممكن "لان الايمان بالمستقبل، المنعكس في السندات المالية، سهّل علينا مهمة جمع المال له من دون صعوبة".

وعاد لامب الى الكلام فذكر ان طلبات البناء قد وجهت الى كل المصانع في مدينة بيتسبورغ من اجل الحصول على ٦٠٠٠٠ طن من الحديد، اي ما يوازي مدّ خط حديد يربط نيويورك بمدينة بلتيمور. وستزين البناء ٦٥٠٠ نافذة، وترفعه عن الارض عشر ملايين قرميدة يكسوها ٥٥٠٠ متر مكعب من الكلس. وبدأت المعامل، قبل اشهر من موعد التسليم، تجدل ١٥٠٠ كيلومتر من القضبان الحديد الضرورية لحمل ٧٣ مصعداً كهربائياً تقوم على ممرات رأسية لا يقل طولها عن ١١ كيلومتراً.

هزّ الضيوف رؤوسهم باعجاب وقد اعتاد معظمهم المشاريع الضخمة. وانتصب راسكوب واقفاً الى جانب النموذج وقال: "ايها السادة، ان الوطن الذي يستطيع ان يوفر الرؤيا والمال والشعب لبناء نصب على هذه الشاكلة، لا يحق لنا ان ندعه ينهار بسبب غياب دعم امثالنا له".

وقد لاقى كلامه آذاناً صاغية.

وفي التاسع عشر من اكتوبر (تشرين الاول)، بدأت السوق تتزعزع بعد دقائق من افتتاحها، وخلال ساعتين من النشاط، شهد بعض الاسهم هبوطاً بنحو اربعين دولاراً. وما ان تسقطت آذان مختلسي "يونيون اندستريال بنك" هذه الاخبار حتى استولى عليهم الرعب مرة اخرى فراحوا يرفعون الصلوات الى رب السماء كي يشفق عليهم ويقوم حركة السوق. لقد ادركوا الآن ان ثرواتهم وثروات العديدين غيرهم من الناس عالقة بهذا الامر.

وبعد اربعة ايام، تدهورت الاسعار مجدداً وسجلت الاسهم هبوطاً مفجعاً. فهبط سعر سهم شركة "ادامس اكسبرس" ٩٦ دولاراً و"كومرشال سولفانتش" ٧٠ دولاراً و"مصاعد اوتيس" ٤٣ دولاراً و"وستنغهاوس" ٣٥ دولاراً و"جنرال الكتريك" ٢٠ دولاراً. وارتفع عدد الاسهم المبيعة حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر الى ٩٦٠ ٣٧٤ ٦ سهماً، مسجلا الرقم القياسي الثاني في تاريخ البورصة.

كانت هذه البداية.

الخميس الاسود

عصا النوم على جفن كرمت بيتت فهجر فراشه ودقت الساعة السادسة والنصف من صباح الخميس ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول). وبقي هذا التاريخ محفوراً الى الابد في ذاكرة كرمت. خارج منزله، تكدست الثلوج التي تركتها وراءها عاصفة مرت على المدينة. وتعطلت الخطوط التلفونية فقطعت فلنت عن العالم.

وكانت الاذاعات الثلاث كرست في الليلة السابقة، وقتا طويلا من برامجها لاخبار الهبوط الذي دهم السوق خلال النهار، وحققت اذاعات ديترويت تغطية واسعة واوردت تفاصيل انهيار اسهم صناعة السيارات. وجاء في هذه الاخبار ان "جنرال موتورز"، وهي الشركة الصلبة كالصخر، لم تخل من التزعزع على اثر الصدمة. ان المكالمات التي انهالت على بيتت حول اوضاع "جنرال موتورز" هي التي حرمته النوم تلك الليلة. والسبب انه هو ورفاقه وظفوا "جبلا من المال" في هذه الشركة، قبل هبوط نهار الاربعاء بفترة قصيرة. وعاد الى ذاكرته الذعر الشديد الذي لمسه في اصوات رفاقه الثلاثة - ابوت بريد وروجير مايز وايريك تومسون، الوحيدين الذين يملكون في منازلهم خطاً تلفونيا، فعلت هذه الاصوات الى حد الهستيريا. وصرخ بريد من جهته: "انها الكارثة" وردد تومسون: "اننا ندفع ثمن خطايانا".

قفل هوتون - ميللر راجعاً الى وول ستريت في الساعة السابعة والنصف من الصباح، بعد ست ساعات فقط من مغادرته له، واكب من جديد على العمل الشاق الذي اضطره الارهاق الى وقفه في ساعات السحر من يوم الخميس هذا. وهو في طريقه الى مكتبه، لفتته الجموع المحتشدة امام ابواب المصارف وغرف العمليات الخاصة بالزبائن. انها صفوف طويلة من البشر لم يشهد لها مثيلا. وكان هناك حشد من الرجال والنساء يسد مدخل دار "هوتون". وعندما بان "هوت" لاحد الحرس اخذه هذا بيده وقاده الى الداخل. وهنا تصاعدت

صيحات غضبه وتذمر وقال هوتون: "انني امثل واحداً من هؤلاء الذين يعملون على تحطيم احلامهم".

الساعة ٩،٤٥ صباحاً، وقف جون راسكوب الى جانب جهاز التلغراف وردد في نفسه: "انني غارق حتى رأسي في السوق، ان حياتي وحياة عائلتي، ان مستقبلي ومستقبلها... كلنا تحت رحمة ما تطل به علينا هذه الآلة من اخبار".

ونهيأ لبات بولونيا، ماسح الاحذية، ان الصمت في اجواء وول ستريت ينطوي على ترقب كبير. فقال: "جمد الناس في ارضهم وانظارهم عالقة بالبورصة. فجاء صمتهم شبيهاباللحظةالتي تسبق الانطلاق في السباق الكبير. بقيت الدقيقة الثالثة بعد العاشرة مشدودة الى بال "هوت" اذ سمع فيها صوتاً هائجاً يسقط كالصاعقة بين جدران الشركة ويصرخ: "السوق تبيع وتشتري بضخامة وانتعاش".

وهذا ما حدث فعلا، ففتحت السوق ابوابها بانتفاضة خاطفة.

عادت اسهم "كينكت كوبر" فارتفعت اسعارها ١١ دولاراً في عملية تناولت ٢٠٠٠٠ سهم، بعدما كانت عرفت سقوطاً قبل اقفال نهار امس. وسجل سهم "سنكلير اويل" ربحاً مقداره نصف دولار في عملية تناولت ١٥٠٠٠ سهم واستعادت "ستاندارد برانذز" ٤٠ سنتا في السهم الواحد. فتوجه "هوت" الى طاولة العمليات، ذاك المكتب الضخم المغطى بآلات الهاتف، ودار عملاؤه حوله في عجز ازاء تفاقم المخابرات غير المنقطعة.

والح العديد من الزبائن على تمديد مواعيد التسديد، بعدما اظهرت السوق بوادر العافية. وفي الدقيقة العاشرة من الساعة العاشرة جاء طلب بيع يتناول ١٣٠٠٠سهملشركة "باكارد موتورز"، فتضاعفت الآمال بهذه العافية المستعادة. وصمدت الاسعار خلال الخمس عشرة دقيقة التالية.

وفي العاشرة والنصف تقريباً، عادت الخسارة فظهرت لدى "جنرال موتورز" بنسبة ثمانين سنتاً للسهم وتناولت هذه العملية ٢٠٠٠٠ سهم. وبعد اربع دقائق تناول "هوت" هاتفاً بقربه فطرق سمعه صوت يائس يطلب القبول بالبيع باي سعر معروض، ويردد باعلى حنجرته كلاماً تناهى الى اسماع سائر دور السمسرة: "بيعوا، بيعوا بسعر السوق".

وفي الحادية عشرة والنصف، ضاعت الطاسة بين الموظفين العاملين في البورصة فالقوا جانباً المراسم التقليدية المفروضة عليهم. فالاصول المرعية تحرّم عليهم "ان يركضوا او يشتموا او يتدافعوا او يتنقلوا من دون ستراتهم". فاخذ معظمهم في تلك الفترة يركض ويشتم ويتدافع ويتنقل بدون سترات. واستولى الرعب على الردهة وتفاقمت الفوضى مع ورود اخبار الشؤم على شريط التلغراف.

تسمر وسطاء المركز الرقم ١ حول منضدة العمل تضغط عليهم حشود تمكن منها انفعال شديد. واحاط باوليفر بريدجمان، الاختصاصي بشركة "يو. أس. ستيل" جمع صاخب يلوّح بأيديه مهدداً.

وفي هذه الفترة، اطل ونستون

تشرشل على الردهة من شرفة الزائرين. وهو كان قدم الى وول ستريت في الساعة التي عرف هذا الشارع ذروة الرعب. وشاء ان يراقب "حركة فيه من هذا المكان المفضل. واستيقظت فيه للحال نفسية المراسل الصحافي، الذي يسجل كل ما تقع عليه عيناه من معلومات شائقة فيجمعها في سلسلة من المقالات نوى ان يخص بها صحيفة "الدايلي تلغراف" اللندنية. فراح يراقب مسرح الاحداث باعصاب هادئة، وقد الفت نفسه مواجهة المواقف العصيبة، فتبين له "ان ما يراه يدل على هدوء عجيب وانضباطية (...) يراهم هنا يعرضون على بعضهم البعض جبالا ضخمة من السندات باسعار توازي ثلث اسعارها السابقة ونصف قيمتها الحاضرة ويقفون منتظرين دقائق طويلة فلا يجدون من تميز بالمناعة الكافية للاستيلاء على ثروات اكيدة فرض بيعها".

عاد ونستون تشرشل من زيارته الى وول ستريت من دون ان يتصدع ايمانه بامريكا. فمهما كانت الانطباعات التي حملها معه في شأن تدهور السندات المالية الامريكية، فانه صمم على كبتها.

وفي الثانية عشرة والدقيقة العشرين، كتّف شارلتون ماك فيغ يديه وتوقف عن العمل عاجزاً، وانصرف مع رفاقه لمراقبة تسلسل الاحداث خارج "مورغان هاوس"، اذ لم تعد الجدران الغليظة التي تصون حرمة هذه الدار قادرة على تغطية الضجة الناقمة المتصاعدة من الحشود المزدحمة على ابواب البورصة.

دخل تشارلز ميتشل، الرئيس الجديد "لناشونال ستي بنك" على "مورغان هاوس" من دون سترته، فاستغرب الوسطاء الشبان الامر المناقض للاصول ورأوا في ذلك دليلا قاطعاً على "ان الاوضاع لا بد انها اصبحت سيئة حقاً". وتفاقم استغرابهم لما اطل عليهم غيره من الشخصيات المالية المرموقة التي توافدت على مكتب توماس لامونت. وكتبت الـ"نيويورك تايمس" في وقت لاحق ان هذه المجموعة البارزة من اهل المال "كانت تمثل ما يفوق ٦ مليارات دولار من الموارد المصرفية الموحدة"، ولا تدخل فيها الثروة الطائلة التي يحتويها "هاوس اوف مورغان".

وتسرب الخبر بان لامونت وزملاؤه اسسوا، على اثر تداولهم، تجمعاً تجارياً لشركاتهم اودعوا صندوقه المشترك ملايين الدولارات، فشاؤوا بذلك "ان يوفروا للسوق حالا من الاستقرار". اما حجم الودائع التي دخلت الصندوق المشترك فكان يتبدل لدى انتقال اخباره من شفة الى شفة ومن مكتب الى آخر. لكن قيمتها الفعلية دارت حول رقم الخمسين مليوناً الذي وضع حالا قيد الانفاق.

وفي الاولى والنصف، دخل الردهة نائب رئيسها ريتشارد ويتني فتوقف امام المركز الرقم ٢ وهو نزل الى الردهة بصفة الوسيط الموفد من التجمع التجاري الجديد. فرفع صوته عالياً وسأل بريدجمان عن الثمن الاخير المعروض لسهم "ستيل" فاجاب هذا: "١٩٥". فقال ويتني: "سجل طلبا بعشرة آلاف دولار بسعر

٢٠٥"، وللحال خيم صمت على الردهة ثم تفجرت الحناجر ابتهاجاً حول الرجل. وواصل ويتني تنقله من مركز الى آخر يسجل الطلبات الكبيرة ويرافقها بابتسامة عريضة انارت وجهه ونقلت عدوى الثقة الى قلوب الاخرين، فظلت الاسعار محافظة على ثباتها. وكان ويتني في تلك الاثناء ينفذ التوصيات التي تلقاها من التجمع المؤسس بدعوة من لامونت بالذات. وهو انفق ملايين من الدولارات في دقائق معدودة.

وفي الثانية بعد الظهر، تبين لكرمت بيتت ولرفاقه ان خسائرهم تقدر بمليوني دولار وان المخارج كلها سدت في وجوههم. ورأى كرمت ان الوقت حان له ولرفاقه لوضع حد نهائي لعملياتهم. وطالبهم بذلك ملجأ فرفضوا التجاوب معه هازئين به.

وفي السابعة والدقيقة الثامنة مساء، اي بعد ٢٤٨ دقيقة من ذلك، توقفت آلة التلغراف عن تسجيل اخبار النهار وجاء فيها ان الوسطاء تداولوا يومها ٩٧٤ صنفاً من الاسهم خلال فترة من الانهيار ضربت رقماً قياسياً في عدد الاسهم البالغ ١٢٨٩٤٦٥٠ سهماً، وانقلبت فيها خسائر الصباح الى تحسن ملموس في الساعات المتقدمة واقفلت السوق في جو من الارتياح.

وسجلت الآلة الاسعار الاخيرة، ثم الحقتها بخبر وجيز مؤداه ان ممثلي ٣٥ من اضخم شركات وول ستريت اصدروا بياناً مشتركا جاء فيه: "ان السوق متينة في اساسها وانها، من الناحية الفنية، في حال افضل من اي



حال سابقة"· وانتهى البيان بكلمات ظلت عالقة في البال: "ان الاسوأ قد زال"·

نذير شؤم·

وفي التاسعة والنصف من اليوم التالي تجمع الناس في صف طويل امام مدخل البورصة حيث توافد السماسرة، فبدوا في نظر احد الصحافيين الحاضرين كأنهم "جنود قتال جددوا عزيمتهم وتأهبوا للعودة الى الخط الامامي من المعركة، مدركين انهم لن يخرجوا جميعاً سالمين منها وعازمين على البقاء احياء مهما كلفهم الامر· فكما ان الحروب تكسب في النفوس اولا، هكذا هي الحال في مناسبات الذعر المالي"·

وفي دقائق قليلة حل الارتياح محل التوتر، اذ ظهرت الاسعار الاولى تشير الى ارباح فورية - وان تكن زهيدة - في عدد كبير من الاسهم· فكانت بادرة خير للنهار، وهي حملت العاملين في البورصة على الايحاء بأن الازمة روضت بنجاح·

في الساعات الاخيرة من مساء الجمعة أكب "هوت" وموظفوه على درس الخسائر· فخلصوا الى النتيجة القاضية باقفال مئات الحسابات، بعضها كبير ومعظمها ضئيل· وبدأ هؤلاء الموظفون اتصالاتهم بالزبائن يطلعونهم على الوضع فيسمعون منهم الشتائم لانهم لم يبيعوا اسهمهم في الوقت المناسب· فكانت تلك المهمة جحيماً بالنسبة اليهم· وادرك "هوت" الطيب القلب ان " هذه الاتصالات ستترك وراءها سحابة طويلة من البؤس البشري"· لكن اشغاله الكثيرة والارهاق الذي تملكه لم يسمحا له



بالتوقف عند مثل هذه الاعتبارات الانسانية. فانهى ليلته الثانية على فراش بارد في غرفة فندق كئيبة.

وقبل ان تفتح السوق ابوابها صباح السبت حملت الصحف الى قرائها مزيداً من اخبار الارتياح التي صدرت عن رجال المال البارزين في البلاد. وظلت السوق باهتة، لا جديد فيها، خلال الفترة الوجيزة من نشاط السبت، وسجلت الاسعار هبوطاً طفيفاً.

واقبل نهار الاثنين في ٢٨ اكتوبر (تشرين الاول) يلف المنطقة المالية بجو من التفاؤل. وتوجه الآف القادمين الجدد والمتفرجين الى وول ستريت، وقد حمل بعضهم مالا للاستثمار. وكثرت الاشاعات بأن جبالا من طلبات البيع تكدست فوق مكاتب الوسطاء خلال نهاية الاسبوع.

غير ان مايك ميهان رفض المشاركة في هذه الحماسة. انه لا يدري الى اي حد ينوي رجال المصارف تزويد السوق بالمال، انما يدري ان الوضع في خطر اذا ما توقفوا عن ذلك. فصرف همه الى شؤون شركة "الراديو".

وتفجر الوضع في اللحظة التي توقف طنين مطرقة وليم كراوفورد على جرس البورصة معلناً بداية النهار. اذ افتتحت "يو.اس. ستيل" سوقها بسعر ٢٠٢،٢٥ دولار للسهم، اي بأقل من ١،٢٥ دولار عن سعر السبت. وخسرت "انترناشونال تل اندتل" ٣ دولارات و"جنرال الكتريك" ٧،٥٠ دولارات في السهم الواحد. وتأخر التلغراف في اخباره، فبدت الدلائل تشير الى ان شبح "الخميس الاسود" يطل من جديد.

وفي العاشرة والنصف انهارت اسهم "ستيل" وتعدت الحد الاسطوري ٢٠٠. ولحق بها عدد من السندات الزرق في موجة من البيع دفعت الاسعار الى ادنى الدركات.

وفي الاولى بعد الظهر بلغ التأخر في التلغراف ٥٨ دقيقة، وازداد البيع الحاحاً كلما تقدم النهار، فتداولت الايدي في الساعة الاخيرة نحو ثلاثة ملايين سهم. وفي الظروف الطبيعية بعيداً عن الاجواء الحاضرة، يعتبر هذا من الارقام الجيدة بالنسبة الى يوم واحد.

ولما ضرب كراوفورد ضربة الاقفال على جرسه القرصي، بلغ الرقم الاجمالي للاسهم المتداولة ٩،٢١٢،٨٠٠ وهو ادنى قليلا من رقم "الخميس الاسود". فالفارق بين الفترتين ان هبوط الاسعار جاء اشد قساوة هذه المرة، اذ هبط المؤشر الموحد في جريدة "النيويورك تايمس" ٣٩ علامة، وهو حد لم يعرفه تاريخ البورصة.

وبلغ انهيار السندات في النهاية ١٤ مليار دولار.

وانهمك المحرر المالي في "النيويورك تايمس" في وضع الصيغة النهائية لسلسلة احداث النهار في مكتبه المشرف على "تايمس سكوار" فعزا "الانحدار" الى عوامل مختلفة، منها غياب الدعم الكافي واستنفاد الاحتياط، "ومنها البيع الذي صدر عن عدد وافر من مالكي الاسهم المتخوفين، ومنها اخيراً بعث موجة الذعر التي اكتسحت الاسواق في الاسبوع الماضي".

ونجا جيسي ليفرمور بريشه مرة اخرى من دون ان يتكبد خسارة

كبرى. وانكب هو وموظفوه على تحليل جديد للاوضاع، فوجدوا في الارقام ما يدل على ان السوق استنزفت "مرونتها" وهذا امر يدعو الى الشؤم. ووجدوا دليلا آخر اكثر شؤماً هو ان الضرر في غالبيته حصل في اللحظات الاخيرة من عمليات التبادل. وهذا يشير الى اسوأ العواقب في اليوم التالي.

يوم الكارثة

في التاسعة صباحاً غطى رذاذ المطر المنطقة بحجاب قاتم. لكنه لم يوهن عزيمة جيسي ليفرمور الخلاقة. فهو قضى معظم ليله يتأهب للعودة الى الهجوم، يدعمه فريق من الموظفين اضناهم التعب وتملكتهم الحماسة في آن.

وداخل ردهة البورصة تبدل مسار العمل على نحو مثير حول مركز عمليات "الراديو" منذ تسلم ادارته مايك ميهان وفريقه. ووصل هذا الايرلندي الموهوب والغريب الاطوار لابساً بذلة انيقة ذات لون ازرق قاتم، يتلاءم معها لمعان حذائه. فكان "في مظهره هذا، يوحي بأحدى صورتين: أما صورة صاحب ثروة طائلة واما صورة متأهب لحضور جنازة".

وعلا الضجيج في صحن الردهة قبل ان يرفع كراوفورد مطرقته، وتحول تدريجاً الى "نباح" ضاع فيه طنين الضربة الافتتاحية على الجرس القرصي..

وتعالى الصراخ من كل جهة:
"عشرون الفاً بسعر السوق"
"ثلاثون الفاً. بيعوا!"
خمسون الفاً. بيعوا بسعر السوق!"
وأجفلت ضربات المطارق اللواء اوليفر بريدجمان، الاختصاصي في شركة "يو.اس.ستيل" التي لحقها التهشيم في هذه المعركة، فتدهورت على نحو مفجع في ختام نهار البارحة وخسر سهمها ١٨٦ دولاراً بسبب هبوط اسعار ٦٥٠ الف سهم في الدقائق الثلاث الاولى من البيع. وولد هذا الانهيار ذعراً مروعاً. وراح الناس يشتمون ويتلاطمون ويضربون بعضهم بعضاً، فالتجأ بريدجمان الى المركز ٢ يحتمي داخله.

وحاول احد السعاة ان يشق طريقه بين الحشود المتراصة فوجد نفسه فجأة مرفوعاً فوق الارض ومحمولا بشعر رأسه، بينما الرجل الذي قبض عليه يقول صارخاً: "لقد خسرت كل شيء! لقد خسرت كل شيء!". وتمكن الشاب المذعور من النجاة بعد جهد تاركاً في قبضة الذي يمسك به خصلا من شعره، وأدار الساعي ظهره للبورصة من غير رجعة.

ترك الساعي وراءه مسرحاً من الجنون المتصاعد بعد ان تناول التدهور كتلا ضخمة من الاسهم في مراكز البورصة السبعة عشر، وبعد ان وضح تدريجاً ان هذا "سيكون النهار الذي تتم فيه مجزرة اصحاب الملايين".

لم ينس وليم كراوفورد ابداً كيف هام في البورصة يتلاطمه هذا التيار البشري الهائج. وتذكر الناس "وهم يصرخون ويزأرون ويفرزون انيابهم بعضهم في رقاب بعض، كأنهم زمرة من الوحوش المفترسة".

وفي المركز ٦ انهال موظفان بالسياط يضربان بها واحدهما الآخر، كأنهما فقدا في هذا الظرف حاسة الشعور بالالم. فاسرع الاختصاصي

في شركة "جنرال الكتريك" يفصل بينهما، ثم عاد الى ساحة القتال حيث راح ينظر بلوعة الى اسهمه وهي تنهار بمعدل دولار واحد كل عشر ثوان خلال الدقائق الست من بداية السوق.

أما في المركز ١٥، المخصص لشركات أكثر ضخامة، فقد انهالت الضربات على "وستنغهاوس" التي تدهورت اسعار اسهمها بمعدل دولارين في الدقيقة الواحدة، منذ لحظة الافتتاح حتى العاشرة والربع، وعند الظهر تخسر الشركة حتماً كل قيمة لها اذا ظلت سالكة الطريق. وبلغ عدد الاسهم المتداولة في ٣٠ دقيقة ٣،٢٥٩،٨٠٠ وتجاوز مجموع الخسائر الملياري دولار.

وفي السابعة والنصف بتوقيت سان فرنسيسكو ارغم جانيني نفسه على الاقرار بأن احلامه تحطمت، واقتنع بأن شركته "ترانس اميركا"، التي تمتعت بمناعة من العسير انتهاكها، تغرق بمعدل ٤،٥٠ دولاراً بالسهم وتعرض نفسها للبيع بسعر ٢٠،٢٥ فلا تجد من يشتري.

الخطوط الهاتفية مشغولة باستمرار عند جيسي ليفرمور. ويحاول موظفوه تتبع مجرى الاحداث في وول ستريت وغيرها من المناطق البعيدة، ودار ليفرمور على ذاته داخل مكتبه "كأنه واحد من الدراويش" على حد قول احد موظفيه، وهو يغزو السوق بطلباته المتلاحقة تارة للبيع وطوراً للشراء.

وظل شبح الذعر مهيمناً منذ الصباح حتى الفترات الاولى من بعد الظهر. الحديد والفحم والقطارات والسيارات - هذه كلها وغيرها من عمالقة الصناعة - قصمت قصماً، وذرف الناس دموعاً سخية في صحن البورصة، والتجأ بعضهم الى الصلاة فسجدوا على الارض في تضرعات مرتجلة. وانتقل كثيرون الى كنيسة الثالوث الاقدس القريبة فغصت بهم لما دقت ساعة الخدمة الالهية ظهراً، وظلت تعج بهم حتى نهاية النهار.

وفي الاولى بعد الظهر ارتفعت ارقام البيع الجنوني الى ١٢،٦٥٤،٠٠٠ سهم.

وقبيل الساعة الثانية عزم كرمت بتيت اخيراً على اتخاذ خطوته النهائية. فقصد الى مكتب رئيس المصرف "واين تشابمان"، وطلب الاختلاء به. فقاده هذا الى غرفة مجلس الادارة حيث عقدت اجتماعات "عصبة الافندية" خلال اشهر طويلة لوضع مخططات عملياتهم. وبدأ بتيت اعترافه. وما ان لفظ كلمة "اختلاس" حتى اوقفه تشابمان وخرج حالا الى ردهة المصرف فأنجز بسرعة اعمال الزبائن القلائل وأقفل الابواب. ووقف متجهماً في رواق المصرف الكبير وامر جميع الذين لهم يد في الاختلاس ان يتوجهوا الى مجلس الادارة. ثم انضم الى بتيت وجلسا معاً يراقبان الباب المغلق في صمت رهيب.

وقرع هارولد مور الباب متردداً ثم دخل شاحب الوجه. وتبعه قرع آخر تلاه دخول تشارلز تايلور واريك طومسون، ولحق بهما جمع مؤلف من ثمانية امناء صندوق. ودخل الغرفة روجر مايز وابوت بريد من دون ان يقرعا الباب. وظل المختلسون في حال انتظار صامت ومتوتر. وأخيراً قرع الباب وظهر على عتبته جون تشابمان، ابن الرئيس وأمين

الصندوق في المصرف والخليفة المنتظر لابيه. وفغر تشابمان الاب فاهه وهتف: "حتى انت يا جون؟" فطأطأ هذا رأسه واغرورقت عيناه بالدموع.

اما الاموال التي اختلسها هؤلاء من مصرفهم فبلغت ٣،٥٩٢،٠٠٠ دولار.

وفي الخامسة والدقيقة الثانية والثلاثين سجلت اجهزة التلغراف، في بلاد خدرتها البورصة، التسعيرة الاخيرة. وختم العامل الميكانيكي شريطه بالنص الآتي: "بلغ مجموع المبادلات اليوم ١٦،٣٨٣،٧٠٠ سهم. تصبحون على خير".

مثلت هذه الملايين خسارة تقدر بعشرة مليارات دولار في بورصة نيويورك وحدها. في ذاك الوقت كان هذا المبلغ يوازي ضعف الكتلة النقدية المتداولة في البلاد كلها.

اما الخسارة الكلية خلال هذه المرحلة الجنونية التي هزت السوق المالية فيمكن تقديرها بمبلغ صاعق تعدى الـ٧٤ مليار دولار.

ذيول الكارثة

بلغ عدد المتضررين من الانهيار مليون امريكي في اقل تعديل، وهناك من يرفع هذا العدد الى ثلاثة ملايين، تكبد قسم منهم اضراراً فورية مباشرة وضرب قسم آخر ضربة قاضية افقدته كل ما يملك.

وشهدت الاسابيع التالية تدهوراً مستمراً في انتاج الحديد وصناعة السيارات وفي حمولات الشحن. وعملت الحكومة على اعادة الثقة الى النفوس. فأصدرت مرسوماً بتخفيف ضريبة الدخل، فجاءت بادرتها موضوع سخرية. فالرجل الذي يعول زوجته، مثلاً، بدخل سنوي يبلغ اربعة آلاف دولار لحقته منحة ٣،٧٥ دولارات. ورفعت الحكومة موازنة الاشغال العامة الى ٧٠٠ مليون دولار لسنة ١٩٣٠، فعجزت هذه الموازنة عن كبح تزايد جيش العاطلين عن العمل.

ومع ذلك اصر اركان البورصة على التصرف كأن امراً لم يحدث فطلبوا من وليم كراوفورد ان يعد العدة لاضخم وأصخب حفلة تمكن اقامتها عشية رأس السنة، الثلثاء ٣١ ديسمبر (كانون الاول).

صباح ذلك النهار ذهب كراوفورد بنفسه، قبل افتتاح البورصة، يراقب الاعمال الجارية لاقامة منصة الفرقة الموسيقية في صدر الردهة. وفي الواحدة والنصف بعد الظهر اعتلت المنصة الفرقة التابعة لفوج المشاة ٣٦٩ في الجيش، واخذت تعزف الحاناً شعبية ومختارات رائجة من صميم العشرينات الصاخبة. وتطايرت في بهو البورصة آلاف القصاصات الورقية الملونة.

وبدت التكهنات حول السنة الجديدة براقة، والسوق اظهرت اشارات صعود اكيد. وفي واشنطن اعلنت وزارة العمل ان ١٩٣٠ ستكون "سنة رائعة يتم فيها القضاء التام على البطالة".

وانتهت حفلة تلك الليلة من دون ان ينتهي عهد الاوهام. ففي ١٩٣٠ لمس الناس تمرساً في الكساد ليس هناك من هو قادر على استئصاله. وعزم جون راسكوب على تشييد بناء "امباير ستايت بلدينغ" ليكون رمزاً للامل في زمن مضطرب قاتم. وهلل الناس ابتهاجاً لما شاهدوا ٥٧ الف

طن من الهياكل الحديد وهي تستوي منتصبة خلال ٢٣ اسبوعاً من العمل، اي قبل الموعد المضروب باثني عشر يوماً، فسجل بذلك رقماً قياسياً هو الاول في سلسلة من الارقام اللاحقة التي ستتحطم في عالم البناء. وازداد تهليل الناس وابتهاجهم عندما انصرف ما يزيد على ثلاثة آلاف عامل الى رفع البناء، طابقاً فوق طابق، بمعدل ٤،٥ طوابق في الاسبوع.

وفي الاول من مايو (ايار) ١٩٣١ احتفل بتدشين البناء رسمياً في رعاية هربرت هوفر، رئيس الولايات المتحدة آنذاك. واعلن راسكوب ان هذا التدشين علامة ظاهرة تشير الى عودة "ايام الخير". لكن العودة طالت من غير ان ينغص هذا التأخير على راسكوب عيشه. ان ما تبقى من ثروته الطائلة وفر له جميع اسباب الرخاء حتى ايامه الاخيرة.

وهشم الانهيار بيلي دورانت على نحو مفجع فقدرت خسائره بأربعين مليوناً على ما جاء في بعض التقارير. وأعلن افلاسه عام ١٩٣٦ مسجلا ديونا بقيمة ٩١٤،٢٣١ دولاراً. اما ممتلكاته فثياب لم تتجاوز قيمتها الـ ٢٥٠ دولاراً.

وثابر جيسي ليفرمور على العمل وجمع المال في سوق مترددة خلال ١٩٣٠. فتدهورت احواله في السنة التالية وبدأ يخسر الى ان تبخر نصف ثروته في نهاية السنة. ثم خسر معظم النصف الثاني في سلسلة من الصفقات التجارية جاءت قصيرة النظر درساً وتخطيطاً. وبدد ليفرمور خلال هاتين السنتين ثلاثين مليوناً، حسب التخمينات. وفي ٤ مارس (آذار) ١٩٣٤ اعلن افلاسه بدوره، فبلغت ديونه ٢،٢٥٩،٢١٢ دولاراً وممتلكاته، ومعظمها مشكوك فيه، ١٨٤ الف دولار.

وذات يوم من ايام الخريف، بعد ست سنوات من الافلاس، قصد ليفرمور الى مقهى فندق "شيري نذرلاند" حيث ابتلع قدحين من المارتيني. ثم تناول قلماً وورقة كتب عليها بخط عريض: "حياتي مخفقة! حياتي مخفقة!" ونهض عن كرسيه المرتفع وتوجه نحو مرحاض الرجال فتناول مسدساً من جيبه وصوبه الى جبهته وأطلق الرصاص منتحراً في الثالثة والستين من عمره (★).

ويروى عن مايكل ميهان انه، في اشد ساعات ازمة الانهيار، صرح الى احد زملائه مداعباً: "يبدو اني على عتبة الافلاس. ما رأيك لو وهبنا جميع موظفي المكتب منحة اسبوعي عمل لاثبات هذ الافلاس". وهكذا كان، فتعززت بذلك حيوية شخصيته الايرلندية الشهيرة. وكلفه الانهيار غالياً من دون ان يدري احد ما هي القيمة بالضبط، اذ انها بلغت "عشرات الملايين" كما جاء على لسان ابنه وليم.

وأصبح "بنك اوف امريكا"، الارث الذي تركه جيانيني، من اضخم المصارف في العالم. وواظبت ابنته كلار، بعد وفاته عام ١٩٤٨ عن ٧٩

(★) خلافاً للاشاعات لم تتفاقم حوادث الانتحار في اعقاب الكارثة. وتشير ارقام شركات التأمين الى ارتفاع طفيف في المعدل المرتقب لهذه الحوادث. الا ان العديد من اصحاب الاسهم وضعوا حداً لحياتهم بسبب الكارثة.

سنة، على العمل الفعلي فيه. وهي لا تزال حتى اليوم تقصد الى مكتبها فيه بانتظام فتبدو، وهي في الخامسة والسبعين، سيدة جذابة او فخورة بوالدها.

اما جوزف كينيدي فقد خرج من ازمة الانهيار سالماً، فأمن لنفسه ولعائلته مستقبلا باهراً. وفي ١٩٣٠ وما بعدها من السنوات وسع ثروته على اثر سلسلة من الصفقات الجريئة والخالية غالباً من الشفقة. انه عرف كيف يختار الصفقات الرابحة التي فرضتها ازمة الكساد. وفي يوليو (تموز) ١٩٣٤ عين كينيدي رئيساً للجنة المبادلات القائمة حديثاً، فساهم وجوده في وضع حد للتلاعب والمناورات في البورصة وتعزيز القوانين الجديدة المتعلقة باصدار السندات. وفي ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٩، اسلم جو كينيدي روحه وسط عائلته، مدركاً انه ترك سلالة حاكمة في عالم السياسة. وكان آنذاك في الحادية والثمانين.

الشرارة الاولى

ترددت اصداء الانهيار في العالم، فسببت لالمانيا تدهوراً سريعاً في الازمة الاقتصادية المتخبطة فيها، وارتفع عدد العاطلين عن العمل الى مليونين في نهاية نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٩. ودخل ادولف هتلر الساحة الالمانية التي شهدت فراغاً شبه كامل في الحقول السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ووعد الشعب بأنه سيجعل من المانيا دولة قوية مكتفية. وعدهم، ببسيط الكلام، بأنه لن يسمح مرة اخرى لانهيار خارجي بأن يؤثر على شؤون بلادهم الداخلية. فتلقى الالمان وعوده بلهفة، وامتدت شعبيته وتفاقمت سطوته. هكذا مهد الانهيار في امريكا السبيل الى الحرب العالمية الثانية على نحو غير مباشر.

وهز الانهيار بورصة لندن التي كانت لا تزال تعاني ذيول فضيحة هاتري. وكانت لندن من اضخم الاسواق بالنسبة الى الاسهم الامريكية. فجاءت نتيجة الانهيار فيها تعلن ارتخاء سريعاً في قيمة الاسهم وارتفاعاً في الفوائد على القروض وفرض شروط اقسى على الاعتمادات. وفي نهاية السنة بدأ النشاط التجاري انحداره نحو ما هو معروف بـ "السقوط".

وأنقذ رجال الحكم البريطاني في الهند ما استطاعوا من استثماراتهم المالية في وول ستريت، فحولوها الى بورصة شنغهاي.

وكانت اوستراليا، كالولايات المتحدة، تتمتع بازدهار ساعد على انتشاره اكتشاف منجم الفضة والرصاص في جبل ايسا عام ١٩٣٢. لكن الحكومات الاوسترالية المتعاقبة تصرفت بطيش على مثال المضاربين في وول ستريت، فاستلفت ما استطاعت من الاموال طمعاً بارباح يلوح بها المستقبل. الا ان الانهيار قصف هذه الاحلام. وكان اقتصاد البلاد يعتمد على قروض تأتيها عبر البحار، وعلى التصدير. فالقروض والتصدير هبطت على نحو ساحق في الجزء الاخير من ١٩٢٩. وحل سقوط الاسعار العالمية للقمح والصوف كالكارثة على اوستراليا، فغرقت في نوع من الكساد الخاص بها.

واحتاجت كندا الى التصدير كي تبقى حية، غير ان القدرة على الشراء تضاءلت في الدول الاوروبية، باستثناء فرنسا حيث تلقت البورصة الفرنسية رساميل عائمة خسرتها وول ستريت. وأقفل الانهيار في وجه كندا ابواب الاسواق الامريكية القريبة والمربحة. فأطلت على كندا تلك الايام المعروفة بـ "ثلاثينات الجوع".

لماذا حدث هذا الانهيار؟

تحدث الناس طويلا عن البورصة ووجهوا اليها اصابع الاتهام. قالوا انها الوكر الانسب لجماعات المقامرين وانها ابرز الامثلة العصرية عن الضغط النفسي على الجماهير البشرية واستغلالها، وأخيراً انها ثمرة مرحلة معينة من التاريخ، فريدة من نوعها ومعروفة بالعشرينات الصاخبة.

ووجه الناس انتقاداتهم كذلك الى مجلس الاحتياط الاتحادي، يتهمونه بأنه هو الذي زج البلاد في الكارثة، عندما خفض معدل الفائدة وسهل عمليات التسليف في اواسط ١٩٢٨. والجميع يتفقون على القول ان هذا المجلس فقد فرصته الذهبية لمنع "الانهيار" يوم اصدر قرار الانذار والمطالبة بخفض كميات السيولة المخصصة للمضاربات من دون ان يرفق قراره هذا بمواقف عملية فعالة. فواصلت التصرفات الشاذة طريقها في غياب المراقبة اللازمة.

وانحى خبراء البورصة باللائمة على عاتق بعض الافراد او بعض الاحداث الفردية. فوجهوا اللوم الى ميتشل لانه لم يتقيد بموقف مجلس الاحتياط الاتحادي في مارس (آذار) ١٩٢٩، فجعل المال في متناول الناس في وقت كان المجلس يطالب بالحد منه. ولاموا ايضاً الرئيس هوفر، وكلارنس هاتري، وعمليات التجمع التجاري، والمراهنات على اسعار الاسهم، والبيع بالسعر المخفض، وأخيراً وسائل الاعلام.

ويستحيل حقاً استفراد اي انسان او حدث معين واتهامه بأنه كان السبب الوحيد لـ"الانهيار" الشهير.


هل يعقل ان يتكرر "الانهيار" يوماً؟

اذا حدث ذلك فلن يكون للاسباب ذاتها. فمن النتائج المباشرة للانهيار في وول ستريت اقرار مجموعة كبرى من القوانين لضبط زمام الامور وأقفال الابواب في وجه الاخطار والمفاجآت ولكن من السذاجة ايضاً تجاهل امكان حدوث عوامل ومناسبات جديدة تتجمع فتسبب انهياراً آخر.

ونجد في وول ستريت نفسها فريقاً من الخبراء المتمرسين الذين يؤكدون تأكيداً لا تردد فيه ان انهياراً ثانياً آت حتماً، كما نجد فريقاً آخر منهم يتمتعون بالمكانة ذاتها ويعتبرون ان الحديث عن انهيار آخر انما هو وليد تكهنات مغرضة. انهم يؤمنون باميركا وبأن السوق مشرفة على "اضخم واقوى ازدهار اقتصادي في التاريخ".

ان المقلق في هذا الكلام هو انه دار على الالسن في زمن سابق، عشية اليوم الذي تفجر كل شيء... يوم الكارثة.

■ **غوردون توماس**
وماكس مورغان ـ ويتس


سيدتي
الطبيبة الجراحة

قصة إمرأة اقتحمت عالم الرجا

الجراحة مهنة قاسية تتحدى حتى أكثر ممارسيها مهارة وترهقهم جسدياً. وهي تتم غالباً في حالات الطوارىء وفي مواقف فاصلة بين الحياة والموت.

ومهنة الجراحة، حتى العقد الاخير، كانت وقفاً على الرجال، ولم تجذب سوى القليل من النساء، فمعظمهن فضلن الطب عليها.

لكن هذا الواقع بدأ يتغير في أواخر الستينات. وكانت اليزابيت مورغان من طليعة فتيات جيلها اللواتي تخصصن في الجراحة بعد دراسة الطب.

وبعد ١١ سنة من الدراسة والاختصاص، افتتحت الدكتورة مورغان عيادة خاصة في العاصمة الامريكية واشنطن.

ووضعت كتاباً شائقاً، تصف فيه اعدادها الطبي وما رافقه من عمل كادح وارهاق وخيبات أمل، مع تركيز خاص على العملية البطيئة التي يكتسب الجرّاح خلالها المهارات الضرورية لانقاذ حياة الناس.

سيدتي الطبيبة الجراحة

المبضع الى غرفة العمليات

إن أكثر ما يخيف طالب الطب بادىء الأمر هو فكرة التشريح. وقد بدأ طلاب صفي في جامعة ييل في نيوهيفن (ولاية كونتيكت الامريكية) يروون النوادر بعصبية حول ذلك الموضوع منذ يوم التسجيل الاول عام ١٩٦٧. وظننت انه سيُغمى عليّ أو تجتاحني الكوابيس المرعبة لدى مواجهتي تلك التجربة. وهذه الظنون راودت سواي كذلك.

كانت غرف التشريح الثلاث ذات بلاط أخضر ومليئة بالطاولات. وعلى كل طاولة وُضعت قبة من الالمنيوم تشبه غطاء ضخماً لوعاء خضر. وتحت تلك القبب كانت الجثث ملفوفة بالنايلون، وقد اوكل أمر كل منها الى طالبين أو ثلاثة. واتفق رأيي ورأي كاتي فلين (★)، إحدى الفتيات القلائل في صفنا، على أن جامعة ييل، اذا كانت تكترث لحالنا، يجب ان تدع الفتيات يعملن معاً على تشريح جثث انثوية.

إلا ان ييل لم تفعل شيئاً من هذا؛ وكان زميلي في التشريح هنري باكس. وقرأنا على غطاء الالمنيوم أن حصتنا كانت جثة ذكر. وجلس الى الطاولة المجاورة روي ماك غريغور وليني تورنر وآرت ليبشيتز يعملون على جثة انثى.

والتفت روي اليّ وقال: "هذا لا يطاق. انه محرج. ان امي تتبعني أينما ذهبت".

لكن أحداً من الصف لم يُصَب بالاغماء أو يصرخ. فما ان بدأنا حتى بدا كل شيء علمياً وواقعياً. وكان جلد الجثة جافاً وبنياً وكثيفاً. وكانت تتصاعد منها رائحة زيت الغلطيرة القوية الذي تطلى به الجثث لحفظها من الفساد. وتسربت الرائحة الى شعرنا وثيابنا، وفي نهاية ثلاث ساعات من التشريح تشبعت أيدينا برائحة الزيت.

وبعد تلك الحصة الاولى اشترينا جميعاً ثياباً خاصة بالتشريح. وكنا نشرّح قبل الظهر، ثلاثة أيام في الاسبوع. وعلى رغم اننا كنا نغتسل ونبدل ثيابنا قبل التوجه الى قاعة الطعام، الا ان طلاب الطب المتقدمين هناك كانوا يتذمرون علناً من رائحتنا. وحين أتممنا تلك المادة أقمنا حفلة أحرقنا فيها ثياب التشريح.

والحق أن تشريح الجثث ليس بالأمر السهل، لان الانسجة تضعف بفعل المواد الحافظة وتسقط اذا لم تعالج بحذر. يضاف الى هذا أن علم التشريح معقد على نحو غير عادي.

وأكثر من أخافنا من أساتذة التشريح كان الدكتور كارتر. فهو يقف الى جانبك وأنت تشرّح،

(★) جميع الاسماء، ما عدا اسم المؤلفة، مستعارة.

Condensed from «The Making of a Woman Surgeon», copyright 1980 by Elizabeth Morgan, M.D., published by G.P. Putnam's Sons, New York, N.Y. Photos, Bob Adelman and Steve Kaplan.

ويراقبك بصمت مدة خمس دقائق. وفجأة يقول: "ما هذا؟"، مشيراً الى عصب سهوت عنه ولم تتمكن من معرفته. ثم يضيف: "انه المجموع العصبي السمبتاوي (الودي)، وهو مهم جداً. ويجدر بك ان تدرس. فالتشريح، يا بني، شاق".

الى التشريح، كان بين موضوعات السنة الاولى الكيمياء الاحيائية وعلم الاجنة وعلم وظائف الاعضاء. وكان طلاب السنة الفائتة اشتكوا من كون الموضوعات نظرية جداً، وطالبوا بزيادة التدريس العيادي التطبيقي. وهكذا نظمت الادارة جولات اختيارية نرافق فيها القسم العيادي الى المستشفيات.

وكنت في مجموعة تتلاقى في الخامسة والنصف عصر كل ثلثاء في اشراف الدكتور فينسنزو. وفي اللقاء الثالث أخذنا الى وحدة "العناية الفائقة" المؤسسة حديثاً. ويقتضي دخول الوحدة ان نضع فوق ثيابنا رداء معقماً طويلاً حتى الأرض. وقال الدكتور فينسنزو وهو يرتدي ثوبه: "هذا لن يرد الاصابات... لكنه تفكير الجراحين التبسيطي". وانطلقنا لعيادة فتى في التاسعة عشرة من عمره. وقال فينسنزو:

"هذا الفتى، طوني، بدأ تعاطي الهيروين والكوكايين وكل مخدر آخر أمكنه شراؤه، وهو في الرابعة عشرة. وكان ان اشترى مخدراً بخس الثمن من نيويورك، فتكت جراثيمه بصمام الوتين (الشريان الاورطي) في قلبه. وأنقذ أحد جراحي القلب حياته بابدال الصمام الطبيعي بآخر من البلاستيك. لكن أي اصابة جديدة تشكل خطراً على حياته لانها، اذا استقرت حول الصمام الجديد، نزعته من مكانه وأدت الى وفاة الفتى. ولو وقع هذا الحادث قبل سنوات لما أمكن انقاذه لأن هذا النوع من جراحة القلب لم يكن ابتكر بعد. فأنتم ترون الآن حدثاً مثيراً".

كان طوني فتى طويلا ناحلا، قصر عنه سرير المستشفى الى حد ان قدميه تجاوزتا حدود السرير. ورأيت دوائر تحت عينيه الكبيرتين السوداوين، وكان من النحول بحيث نتأت ضلوعه من جانبيه. ونظر الينا على جانب سريره وقال بصوت أجش: "هل يمكنكم ان تصدقوا، يا دكاترة، اني كنت عضواً في فريق كرة القدم في مدرستي الثانوية العام الماضي".

وكنا نسمع ضرباً ضعيفاً متواصلا، عرفت بعد برهة أن مصدره قلب الفتى. فقد كان الصمام الاصطناعي يرجّع دقات قلبه من داخل الغلاف الفولاذي الذي يحفظ الصمام في مكانه.

وبقينا نقوم بجولات الثلثاء على المستشفيات مع الدكتور فينسنزو خلال الاشهر الستة اللاحقة. وفي اليوم الاخير سألته اذا كان طوني لا يزال في المستشفى، فقال: "هذه نهاية قاسية للاشهر الستة التي قضيناها معاً. لقد عاد طوني الى وحدة العناية الفائقة. وكان، بعد الجراحة الاولى التي اجريت له ومكث على أثرها شهراً في المستشفى، قد رجع الى منزله وعاش مع والده واكتسب قوة مكنته من جز العشب في الحديقة.

"لكنه حُمل الى المستشفى الاثنين

لماضي في سيارة اسعاف، وكان قلبه خرير تمكنت من سماعه باذني لمجردة، كما كان دمه مختلطاً بالجراثيم. لقد عاودته الاصابة وكانت تفتك بعضلة القلب حول الصمام الاصطناعي. وأبدل الجرّاح الصمام، لكن الاصابة لم تترك مكاناً يمكنه تثبيت ذلك الجهاز اليه. ان طوني الآن ينازع. والاصابة انتشرت حتى دماغه ورئتيه وأحاطت بالصمام الجديد. وليس في إمكاننا ان نفعل له شيئاً".

ودخلنا لرؤية طوني. كان هناك انبوب في قصبته الهوائية وجهاز للتنفس الاصطناعي. وأشار جهاز مراقبة القلب فوق سريره الى ان سرعة نبضه كانت مضاعفة. ووصلت مثانته بانبوب يحمل البول الى وعاء. لكن قلبه لم يضخ المقدار الكافي من الدم لدر البول. لذلك كان الوعاء شبه فارغ.

ولدى مغادرتنا قال الدكتور فينسنزو: "هذا هو الطب. ولكن، لحسن الحظ، ليس كله هكذا".

وفيما كنا عائدين الى مخادعنا بصمت، قال ليني تورنر انه صمم نهائياً على التخصص في الطب النفسي. الا ان ذلك حيرني. فأنا لم أكن أرى جاذباً الا في الجراحة. لقد فتنتني الجراحة، ولا أدري بالضبط مصدر ذلك الرأي. ولكن بعدما رأيت وحدة العناية الفائقة، راقتني فكرة الجراحة أكثر من أي وقت مضى.

ولم يكن بين طلاب الاختصاص أو المدرّسين في قسم الجراحة في جامعة ييل أي فتاة، كما لم تكن هناك أي جراحة بين جراحي مدينة نيوهيفن. وباستثناء اثنيين تمارسان الجراحة التجميلية وتكبرانني بسنوات كثيرة، لم أسمع عن فتيات درسْنَ الجراحة إلاّ وقتَ درستُها. ومن الفتيات الستّ في صَفي، هناك ثلاث، بينهنّ أنا، أصبحْن جرّاحات. وبدا واضحاً أنّ جنسنا لم يعد يكتفي بالاعجاب بالجراحة من بعيد، بل أصبح واثقاً من أنّ في امكانه ممارستها. وتلك كانت مرحلة جديدة.

غرفة العمليات

في نهاية سنتي الثانية لم آخذ عطلة صيفية، بل بدأتُ دورتي العيادية الاولى في الجراحة، ودامت عشرة أسابيع. كنتُ لا أزال عازمة على ان أُصبح جرّاحة على رغم التحذيرات التي سمعتُها من أنّ الجراحين الرجال لا يرحبون بالنساء في ذلك الحقل، وانّ النساء تنقصهنّ القدرة على الاحتمال التي تقتضيها الجراحة. وحذَّرنا طلاب السنة الثالثة من ان التمرين في حقل الجراحة هو أكثر التمارين خشونة، خصوصاً عندما يكون في قسم الطوارئ في وحدة نيوهيفن حيث تم تسجيلي لذلك الموضوع.

وقال لي طالب في السنة النهائية: "الحق أنهم سيضايقونك لأنك فتاة". ولكن ما هَمّ؟ اذا كانَ مستحيلا عليّ تحقيق هدفي، فيجب أن أكتشف ذلك الآن.

وصلت الى جناح المستشفى المعروف بجناح "لاركينز – ٥" في الثامنة صباحاً. وهناك ضعت وسط عدد صاخب من المرضى والممرضين والمساعدين الاجتماعيين والخدَم

وأطباق الطعام٠ ولكن لم يكن هناك أطباء٠

ونظرت اليّ رئيسة الممرضات وسألت بتعجّب: "إذاً أنت القادم الجديد؟ لم أكن أدري أنه فتاة٠ إنّ لباسك هذا الأنيق لا يسمح لك بالعمل في جناح "لاركينز - ٥"٠ إنها حديقة حيوانات هنا٠ والأطباء كلهم في غرفة العمليات، ما عدا الدكتور كالاهان الذي يمكنك العثور عليه في الكافيتيريا"٠

وناداني ديك كالاهان باسمي فيما كنتُ أتنقل على غير هدى في أرجاء الكافيتيريا: "تعالي الى هنا٠ لقد قيل لي ان ابحث عن طالبة طبّ ضائعة٠ تفضلي واجلسي"٠

وجلستُ طائعة وقد أخافني، من ناحية، أنه رجل ظننته غاضباً عليّ، ومن ناحية ثانية أنه طبيب متمرن مقيم في المستشفى٠ وهذه وظيفة بالغة الأهمية في نظر طلاب الطبّ٠ فالمقيم طبيب، وإن يكن الطبيب الذي يتابع اختصاصه أعلى منه رتبة٠ والأطباء المقيمون يصدرون الأوامر الى الممرضين ويجرون العمليات الجراحية ويعرفون كيف يعالجون الحالات الطارئة٠ وعندما أصبحت طبيبة مقيمة بعد سنتين أدركت أنيّ لا أزال أجهل اموراً كثيرة٠ وهذه حال كلّ متمرن مقيم٠ لكني لم أكن أعرف هذا حين قابلْتُ ديك٠

وقال لي بانفعال: "لماذا تأخرت؟ انّ زيارة المرضى تبدأ في السادسة والنصف صباحاً وسَحْب الدم في الخامسة والنصف"٠ وقد أراد ديك ان يذكرني بأنّ سحب الدم في المستشفى يجب ان يجريه طبيب٠

ولم أشأ التفكير في ذلك الواقع آنذاك٠ ولكن سرعان ما تراءى لي أنّ جميع المقيمين والمتخصصين وطلاب الطبّ كانوا وما زالوا يسخرون (في المستشفيات) لتأدية مثل هذه المهمات الصغيرة٠ وهذا من أخطاء تدريس الجراحة٠ فنحن، في رأي الكبار، لم نوجد لنعلّم، ولكن لنؤدي أعمالا آلية براتب ضئيل جداً أو من غير راتب٠

وأخبرني ديك أنه عليّ ان اتوقع العمل الشاقّ الملازم لدراسة الجراحة وممارستها: "ولن يسهل الأمر عليك أنك فتاة"٠ وأضاف ببعض اليأس أنه يحتاج الى مساعدتي٠ فقد انقضت عليه عشرة أيام كمقيم، قضى ليلتين منها بلا نوم٠

وبعد الفطور جاءت مرشدة صارمة الملامح ودلتني على الغرفة التي ابدل فيها ملابسي بثياب غرفة العمليات، وهي قميص فضفاض من القطن الرمادي اللون وقبعة بيضاء٠ ثم اخذتني عبر ممر يفضي الى غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة العمليات الرقم ٠٥ وكان في الغرفة الصغيرة أربع مغاسل من الفولاذ٠ وهناك تعلمت كيف اغسل يدي استعداداً للجراحة٠

أما الغاية من التنظيف الجراحي فكانت تعقيم اليدين عن طريق فركهما بفُرشة وصابون معقمَيْن٠ لكن هذا، في الواقع، غير ممكن، لأن الماء الذي تُغسَل به اليدان ليس معقماً، ولأنّ الجراثيم التي تعيش في التجاويف الشعرية الصغيرة يثيرها حك اليدين فتظهر الى سطح الجلد٠ غير ان طقوس التنظيف الجراحي مستمرة على حالها٠

وقد أرتني احدى الممرضات كيف انظف أظافري أولا، ثم اصابعي، وبعد ذلك ظاهر يديّ صعوداً حتى المعصمين، على أن ابقي يديّ مرفوعتين لئلا ينحدر ماء المعصمين "المتسخ" على اليدين "النظيفتين".

وبعد عشر دقائق من الفرك شعرت بالألم في يديّ. وأسرعت الى غرفة العمليات ويداي فوق رأسي. وكان ذلك مضحكاً، لكنه كان الطريقة المتّبعة. ورأيت ثلاثة رجال مقنّعين ومرتدين ثياباً فضفاضة من القطن الأخضر ينحنون فوق طاولة عليها كتلة مغطاة بملاءة قطنية خضراء.

حين دخلت التفت اليّ أحد الرجال الثلاثة، وغمزني من فوق قناعه قائلا: "أنا الدكتور تشيس. تعالي شاركينا اللهو. لقد وصلنا الى البطن. وأنا احاول تعليم مات كيف يجري جراحة ويتخلى عن العادات السيئة التي اكتسبها من الجراحين الآخرين. مات مانينغ هو رئيس المتخصصين. والممرضة المسؤولة عن التنظيف الجراحي هي نانسي. وكبير المتخصصين هو جين فيردي، وسيصبح في العام المقبل رئيسهم. ولن اقدّمك الى المسؤول عن التخدير لأنه سيغريك بالتخصص بحقله. أما أنا فاريدك أن تكوني جراحة، لأننا نحتاج الى نساء أكثر في هذا الحقل. فالرجال بالغو الخشونة... ناولي الدكتورة مورغان ثوب الجراحة يا نانسي. وأنت يا مات، اخرج الطحال. لقد دلّلته ما يكفي".

وأعطتني نانسي قفازين وثوباً معقّماً فضفاضاً من القطن الأخضر لأرتديه فوق القميص البني الطويل. وهكذا غدوت عضواً في الفريق.

وقال لي الدكتور تشيس: "اليزابيت، اريد ان تقفي بجانبي: أن تدني وتضعي يديك هنا، قريباً مني. هنا، تحت الملاءة، رجل السيد هومر، فلا تتكئي عليها لئلا يصحو ورجله تؤلمه. انه مضطجع على طاولة العمليات. وكل ما تحت الطاولة غير معقّم، فلا تلمسيه".

واستدار الطبيب لمساعدة مات. وبدأتُ أشعر بالحرارة تحت أنوار غرفة العمليات، وأحسست بميل الى حكّ أنفي. ورفعت يدي لاثبت قناعي في مكانه. إلا أنّ نانسي زعقت وانتزعت يدي قائلة بقسوة: "وجهك ليس معقّماً! ويجب ألاّ تنسي القاعدة: لا يلمس المعقّم سوى المعقّم".

وصرخ بها مات: "اسكتي! كم مرة يجب ان اكرر ذلك؟ ساعديني! اني اجري جراحة. وفي امكانك أن تعلميها لاحقاً". وغمزتني نانسي بعينها ثم وضعت آلة صلبة في يد مات بعنف جعلها تنزلق الى الأرض.

ولم أذق طعم النوم في الأيام الثلاثة اللاحقة. وعلى رغم انها صادفت عطلة عيد الاستقلال، إلاّ أننا قضينا معظم الأيام الثلاثة في غرفة العمليات.

لقد احببت ذلك كله!

جرذان وفئران

فرغتُ من دورة الجراحة في نهاية اغسطس (آب). وأمضيت اسبوعاً في البيت محاولة تعويض ما فاتني من نوم. وأخبرت أهلي

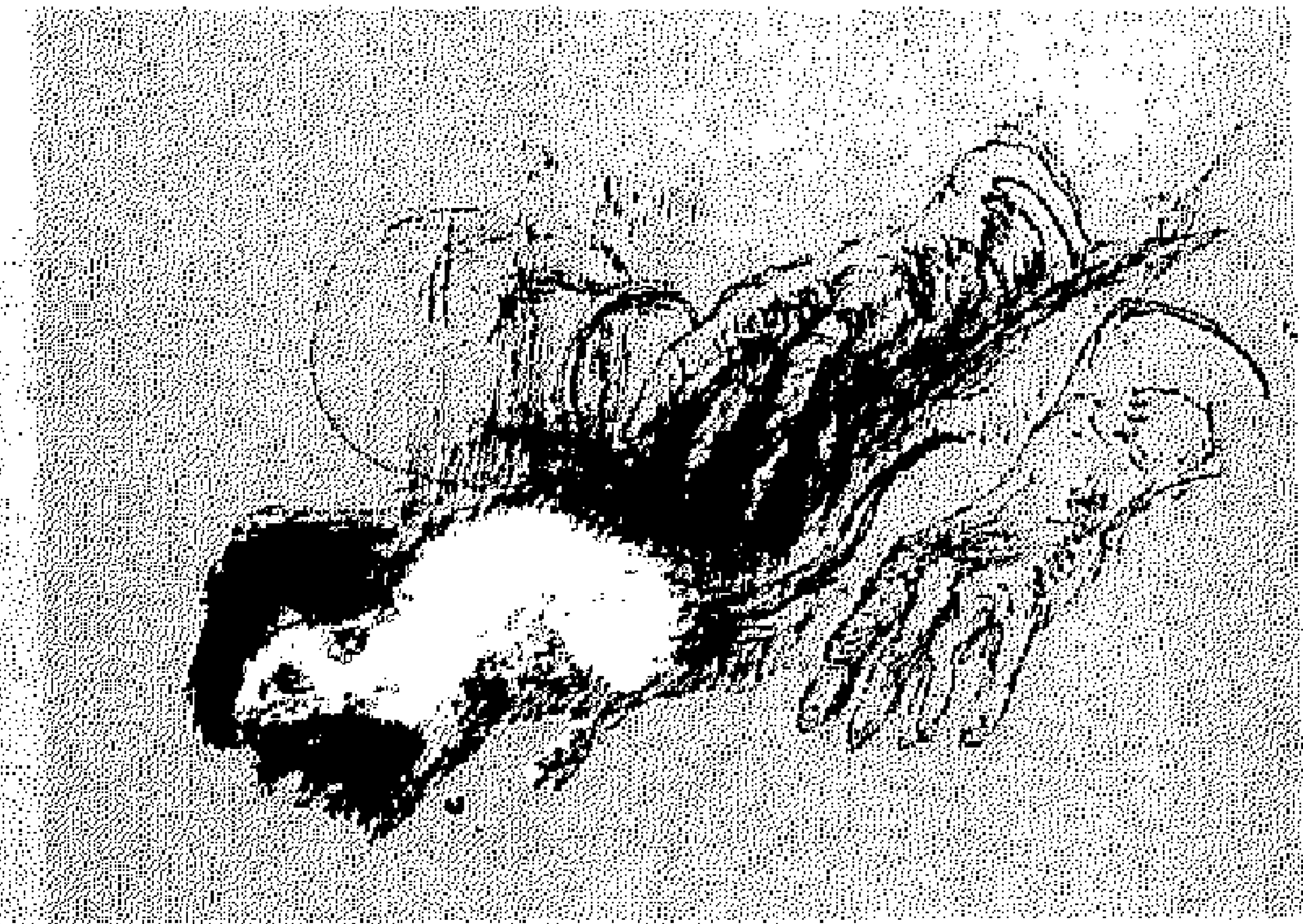
بتجربتي ذلك الصيف. وكانت الادارة وافقت على برنامج دراستي للسنة المقبلة، وهو دورة من ١٢ اسبوعاً في الطب الداخلي ودورة من ثلاثة أسابيع في طب الاطفال ودورة من ثلاثة أسابيع في الطب النفسي. هذا في الفصل الأول. وبين منتصف يناير (كانون الثاني) وسبتمبر (أيلول)، سأعمل على بحث مع الاستاذ ارشيبالد هنتر، وهو رئيس أطباء سابق في جامعة ييل. وقد سمح لي هنتر العمل في مختبره، شرط ان أتفرغ تسعة اشهر على الأقل لبحث كان يجريه على الايوسينوفيل، وهو نوع من خلايا الدم البيضاء التي تقاوم عدوى الطفيليات. وطلب هنتر مني التحري عما اذا كان التلوث المزدوج الناتج من الطفيليات والجراثيم يزيد أو ينقص عدد هذه الخلايا في الجرذان والفئران. وكنت ادون الملاحظات وهو يرسم خطة عملي. وبدا كل شيء غاية في البساطة.

كان عليّ تلويث الفئران والجرذان بدودة "الترخينة" التي تسبب داء الشعرية (من اعراضه الحمى والغثيان والاسهال وآلام العضلات) وترفع نسبة خلايا الدم البيضاء المقاومة للطفيليات. وعليّ بعد ذلك تلويث بعض الفئران والجرذان بالجراثيم لتصاب بذات الرئة والشعرية معاً، ثم أقتل تلك الحيوانات وأفحص دمها ونخاعها العظمي لأرى ما إذا كان مرض ذات الرئة يمنع تسلل خلايا الدم المذكورة من النخاع العظمي.

وعيّن الاستاذ هنتر الطالب المتخرج جون ميلر ليساعدني. وبجدية بالغة دلني جون على وعاء مادة الاتير لتخدير الجرذان. وبعد تخديرها ادخلنا انبوباً الى معدة كل منها لتلويثها بدود الترخينة الصغير. ثم حقنا الجراثيم تحت الجلد عبر وريد طويل في الذيل. وكان بعض الجرذان ربّي حاملا دودة الترخينة. وكلما احتجنا الى تلك الدودة كان علينا ان نقتل جرذاً منها بقطع رأسه وسلخ جلده ثم وضعه في آلة فرم كانت هناك لتلك الغاية.

وقال جون: "انه عمل قذر. ولكن ستتعودين عليه. والأفضل ان تضعي ثوب المختبر فوق لباسك".

وكانت هناك ثمانية أقفاص من البلاستيك وضعت في تصرفي. وكان في بعضها جرذان أو ثلاثة وفي البعض الآخر عشرة فئران او عشرون



فأراً. وذكرتني الفئران بالفأر المدلل "سنافي" الذي رباه اخي، ولم ترقني فكرة سلخ حيوان يشبه "سنافي" ثم وضعه في آلة لفرم اللحم. لكنني أدركت أنّ الطالب لا يمكنه ان يصير طبيباً جامعياً ناجحاً ما لم يجر بعض البحوث. واذا أوقفت بحثي بدافع من هذا الشبه فانني لن أصل الى مكان.

وجمعت عشرة جرذان في سلة، كانت قوارض قبيحة الهيئة، ولم يبدُ لي أنّ قتلها سيزعجني إطلاقاً. وحملت جرذ الترخينة وقتلته بالاتير، ثم سلخته وقطعته فتصاعدت منه رائحة كريهة، ووضعته في آلة الفرم. وأخيراً حصلت على كوب من لحم الجرذ المفروم. ووضعت اللحم في محلول استنباتي لاستخراج دود الترخينة منه.

ووضعت الجرذان العشرة السليمة، واحداً بعد الآخر، في وعاء الاتير. تخبط الأول وارتمى مخدّراً، فانتزعته من الوعاء ووضعت آخر محله. وأقحمت انبوباً في معدة الجرذ الاول وحقنته بمحلول الترخينة. وتذكرت اني لم احضر قفصاً للجرذان المحقونة. وكان الاول لا يزال مخدّراً، فوضعته على الطاولة، وسحبت الجرذ الثاني من الاتير وهو على وشك ان يموت.

ووضعت الجرذ الثالث في الاتير، وحقنت الثاني بالترخينة. وسحبت الثالث لأضع الرابع محله وأحقنه. في تلك الأثناء مات الجرذ الثاني، في حين تحرّك الاول الى حافة الطاولة وسقط أرضاً، فأخذته بيدي، ولكن لم يكن هناك قفص أضعه فيه.

وأسرعت خارج الغرفة مغلقة الباب ورائي، وذهبت أبحث عن قفص آخر. ولدى عودتي وجدت ان الجرذ الرابع ات لأني نسيته في وعاء الاتير، وان لثالث تحرك عن الطاولة وهو الآن حت المغسلة، يحاول ان يجد طريقه الى قارورة فارغة. وتبعته بانفعال حول الوعاء وقبضت عليه من مؤخّر عنقه ووضعته في القفص.

وعند غياب الشمس كنت لا أزال أضع الجرذان البيض في وعاء الاتير، ثم أحقنها بالطفيليات قبل حجزها في القفص. وكانت الساعة نحو السابعة. وأعدت الجرذان الى غرفتها الخاصة المضبوطة الحرارة والنور، وغسلت يدي مرات عدة، من غير ان يفارقني الاحساس بأني أعبق برائحة الجرذان.

وقضيت الاشهُر اللاحقة أعمل مع الجرذان والفئران. وكان الاستاذ هنتر مهتماً بنتائج اختباراتي، ولكن اظنّ انه اكتشف باكراً انه لا موهبة لديّ للبحوث المخبرية. وقد حيره ذلك، لكنه، عندما عرف اني سأختص في الجراحة، زال عجبه وأشرق محياه، فهو لم يتوقع ان يكون الجراحون قادرين على التفكير أو ان يكون لديهم نزوع الى البحث. الا انه اصر على نشر النتائج. وقد راودتني مشاعر الشهرة حين ظهر المقال القصير في مجلة طبية بقلم مورغان وهنتر.

الغلطة الاولى

خلال الدورة الاولى في الفصل التالي، بدأ يراودني القلق بالنسبة الى التمرين بعد التخرج، وكنت وزملائي نتكلم باستمرار عما يجب ان نطمح اليه: راتب مرتفع؟ تعليم جيد؟ مستشفى مرموق؟ عمليات كثيرة؟ وأراد زملاء كثيرون الالتحاق بمستشفيات في الساحل الغربي. أما أنا فاضطربت جداً وتساءلت عما اذا كانت الجراحة حقلي الصحيح. وأخيراً أرسلت طلبي الى الدائرة التي تفرز طلبات جميع متخرجي الطب الجدد

في الولايات المتحدة وتعين لكل منهم المستشفى الذي يقضي فيه فترة اقامته التمرينية. وذكرتُ في الطلب اني اريد البقاء في منطقة نيو انغلاند (القطاع الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة).

وكانت الطلبات ترسَل الى عمداء كليات الطب التي يختارها الطلاب. وقبلتني المؤسسة التي وقع عليها اختياري الاول، وهي مستشفى جامعي - تعليمي مرموق. وقُبل زملائي جميعهم في مؤسسات اختاروها، وان لم تكن دائماً الاختيار الأول لكل منهم. ورحنا نهنيء بعضنا بعضاً ونقول ان السنوات الأربع مرت بسرعة.

بدأت فترة اقامتي التمرينية في السابعة من صباح ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩٧١. وكانت الحرارة بلغت ٣٠ درجة مئوية فيما تجمع ١٨ جراحاً من المقيمين الجدد في قاعة اجتماعات المستشفى. وأعطي الرجال الستة عشر سراويل وسترات بيضاء، بينما أُعطيت الفتاتان - وأنا احداهما - تنورتين بيضاوين بدلا من السراويل. وكانت التنورة واسعة جداً عند الخصر وضيقة عند الردفين، وهي تتدلى حتى ثمانية سنتيمترات فوق الكاحلين. وفي نهاية الاسبوع كان كرهي لتلك التنورة بلغ حداً جعلني ارسلها الى التنظيف من غير ان استردها على الاطلاق. وكنتُ افضل العمل في الثياب اليومية.

أثار هذا الامر احتجاج عدد من الجراحين. وقال احدهم: "عليك ان تلبسي الثوب الأبيض أو لن يعرف أحد انك طبيبة". ومرّ بجانبي الدكتور غوردون، وهو يعمل في الجراحة العامة، وقال: "هذا رائع. انك تبدين كانثى من جديد يا اليزابيت. لا تدعي هؤلاء الاغبياء يفرضون عليك اللباس".

- ولكني لا أظهر كجراحة هكذا.

"هذا خطأ يا عزيزتي. أنت، طبعاً، لا تظهرين كجراح ذكَر. ولكن ليست هناك اناث في هذه المهنة كي تقتدي بهن. وفي امكانك ارتداء أي شيء يروقك".

أيامي الاولى في الاقامة الطبية قضيتها أقرأ جداول المرضى وأدخل المرضى الجدد. وكان عليّ تدوين



التاريخ الصحي لكل منهم ونتيجة الكشف الطبي، وارسال عينات الدم الى المختبر لتحليلها، وطلب تخطيط للقلب وفحص شعاعي للصدر. وقضيت اكثر من ساعة على كل مريض. وغاية هذه الفحوص التحري عن الامراض "الصامتة" التي تقتل المريض خلال الجراحة، ومنها النوبات القلبية الحديثة وذات الرئة والسكري وفقر الدم.

وكان أحد المرضى الجدد ينتظر استئصال البروستات في اليوم التالي. وعلى رغم كونه مصاباً بمرض خطير في القلب وذبحة صدرية متكررة، إلا أن تخطيط قلبه ذلك اليوم لم يكشف عن أيّ اصابة قلبية جديدة. واستُدعيت في الثالثة فجراً لأنه كان يعاني نوبة صدرية حادة. وأرادت الممرضة ان اكتب وصفة لاحضار النيتروغليسيرين (مادة زيتية كثيفة تستخدم في الطب) له. ولدى استدعائي كنت لا أزال غارقة في عمل النهار: أتولى حَقْن الدم وأسأل المرضى ان يوقعوا اوراقهم قبل أربع ساعات فقط من بدء الجراحة الصباحية.

وطلبت النيتروغليسيرين وفحصت المريض الذي قال ان حاله حسنة، ثم عدت الى العمل. وكان علي ان أسحب الدم وأفحص المرضى الذين يعانون ارتفاعاً في الحرارة وانهي تدوين الاوراق. ولم اكن تغديت او تعشيت في اليوم السابق، بل اقتصرت على التهام بعض الشوكولاتة من علبة على طاولة الممرضات تركها أحد المرضى تعبيراً عن امتنانه. وكان افضل لي، كما تبين في ما بعد، لو طرحت جانباً عملي الروتيني وانصرفت الى تخطيط قلب المريض الذي يعاني الماً في صدره.

وفي اليوم التالي تناهى الى سمعي حديث جراحين في غرفة الطوارىء:

"لقد توقف قلبه وهو على طاولة العمليات. فقد أعطاه طبيب التخدير جرعة "بنتوثال" وراح يصل الانبوب بقصبته الهوائية. وفجأة نظرت الى المرقاب لاجد خطاً مستقيماً يعني أن قلبه توقف عن الخفقان. وتولينا انعاشه حالا، لكنه لن يخرج من هنا الا في نعش. لقد اصيب بنوبة قلبية حادة الليلة الماضية وكذلك بألم في الصدر. الا أن تلك المقيمة البلهاء تجاهلت ذلك".

وأجلت النظر حولي فأيقنت أني أنا المقصودة. وفي تلك اللحظة أردت الانسحاب من المهنة، لكني دعيت الى المساعدة في جراحة. بعد ذلك أخذني كبير المقيمين جانباً وقال:

"ذلك الرجل، يا اليزابيت، كان يصارع الموت من جراء مرض القلب قبل دخوله المستشفى. كما كان مصاباً بذبحة صدرية شبه دائمة. ولم تكن أيامه الباقية كثيرة. وأنت، كمقيمة، لا بد من أن ترتكبي أخطاء كثيرة لانك ستكونين دائماً مرهقة من العمل. ولكن تذكري هذا الامر: ان نسبة الوفاة لدى الذين يعطون البنج من غير اجراء تخطيط للقلب في أعقاب نوبة حديثة تراوح بين ٥٠ و٨٠ في المئة. وكل شخص يشكو الماً صدرياً يجب أن تعتبريه مصاباً بنوبة قلبية حتى اثبات العكس".

بعد أيام قليلة مات ذلك الرجل، ولم أنسه قط. الا أني لم أنسحب من

المهنة. ولو فعلت لقال الزملاء الرجال: "هكذا يكون التصرف الانثوي الهستيري". وأنا لم أشأ أن ابهجهم بذلك التعليق.

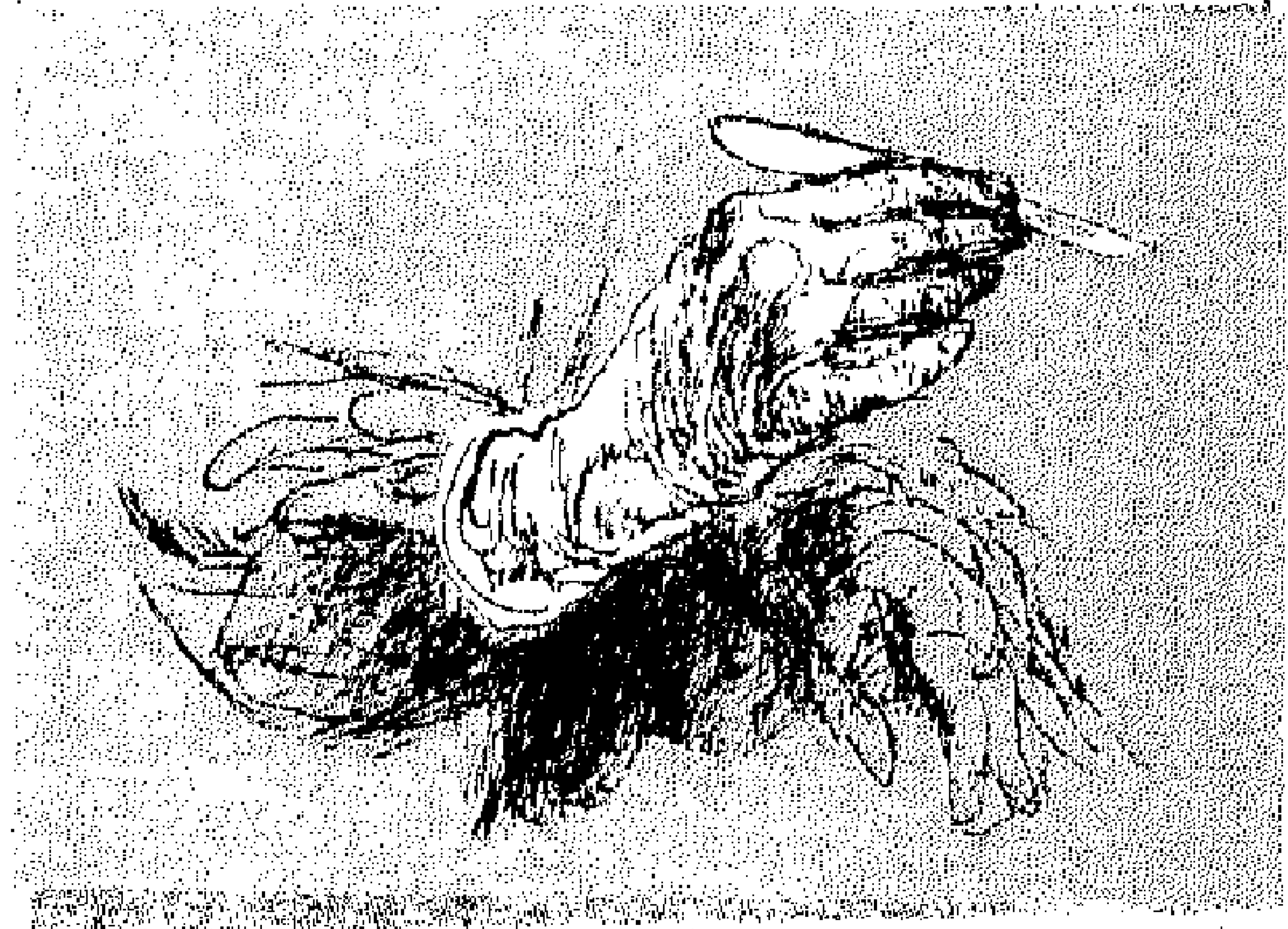
"سنة حلوة..."

خلال الاسبوعين التاليين عملت ١٢ يوماً ونصف يوم، بما فيها سبعة أيام من دون أي نوم تقريباً. كانت الجراحة تجربة آسرة، وان تكن شاقة. وتعلمت كثيراً عن العناية بالمرضى وتشخيص المرض.

وفي صباح أحد الايام كنت اعقم يدي لمساعدة الدكتور غوردون في استئصال مرارة. فسأل: "هل مارست القص؟"

- نادراً.

"ألم تقطعي حتى الزائدة الدودية؟ ألم تصلي الى مكان الفتق؟ اسمعي. لا يسعني ان اسمح لك باستئصال



مرارة هذا المريض، فذلك في منهاج السنة المقبلة. ولكن اريد أن تفتحي الجرح في بطنه. اني اراهن على انك لم تحملي مبضعاً قبل اليوم".

صحيح أني لم أكن حملت المبضع، الا أني فعلت ذلك يومئذ. ووقفت الى الجانب الايمن، وهو ناحية العملية، وكنت على وشك أن اصبح جراحة حقيقية.

وقلت: "المبضع!"

فقال الدكتور غوردون: "حسناً. ناولوا الآنسة سكيناً".

وحين اخذته قال: "احمليه كما لو كان قلماً".

وبلغ انفعالي حداً نسيت معه كيف يحمل القلم. فأخذ غوردون يدي وثبت أصابعي حول المبضع كما ينبغي. وبدأت امرره فوق المساحة التي خططها بحبر الجراحة الازرق على بطن المريض. وقصصت جزءاً من مليمتر عبر الجلد.

وعلق الدكتور غوردون: "على هذا المنوال سنبقى هنا الى الغد. يجب أن تتكئي على هذا المشرط وتحفري عميقاً. ولا تدعي الافكار الجميلة تمر في رأسك. بل فكري في الامور القبيحة والقاسية". ووضعت ثقلي فوق المبضع وتابعت القص. وقال الدكتور غوردون: "ثبتي النصل ليشكل زاوية قائمة (٩٠ درجة) مع الجلد. ولا تميلي طرف النصل لئلا يكون رتق الجرح صعباً". ووضع اسفنجة جراحية، تشبه المنشفة، على جانبي الجرح لامتصاص الدم. وقال: "انسي النزف، واتركي هذا الامر لي"، فيما كان ممسكاً بملزمة في كل يد. ووصلت عميقاً الى العضلات، وأجفلت حين اصطدمت بأحد الشرايين. فقال آمراً: "اقطعي! اقطعي! ان قليلا من النزف لا يؤذي أحداً قط". وتابعت القطع.

- مهلا! توقفي. انك على وشك الوصول الى البطن. وقد قلت لك ان عليك الانتظار حتى العام المقبل...

أعطيناها سنتيمتراً فذهبت كيلو متراً! انها جراحة حقيقية.

وكان ذلك الكلام أفضل اطراء.

وحل التاسع من يوليو (تموز)، وهو عيد ميلادي، بعد اسبوعين ونصف اسبوع من بدء اقامتي. وأصبح عمري ٢٤ سنة. اني احب كعكة العيد والحلويات وبعض اهتمام يثار حولي. لكني كنت أدري أن ذلك غير ممكن اذا كان المرء مقيماً في مستشفى.



وتمنت لي الممرضات عيداً سعيداً لدى دخولي الجناح في السادسة صباحاً. وقضيت بقية اليوم، من السابعة صباحاً حتى الرابعة عصراً، في غرفة العمليات. لم أتناول الغداء وكانت رجلاي تؤلمانني وأنا مكبة على عملية استئصال الدوالي (الاوردة المنتفخة) من رجلي امرأة سمينة في الاربعين. ولم تكن الدوالي تسبب لها ألماً، لكنها أرادت استئصالها لاسباب جمالية.

بدأنا العملية في التاسعة صباحاً. وما ان حل الظهر حتى شعرت بكره لتينك الرجلين. وشعرت بارهاق لم أتمكن معه من ترك عيني شاخصتين. ولكن كان أمامنا ثلاث ساعات على الاقل. وانحنينا، الجراح وأنا، كل واحد على رجل، نشق ونثقب ونحاول استئصال كل عرق صغير منتفخ. وكنت امسك العرق وأهز رأسي لاصحو ثم اسحبه وأطرف بعيني لابصر جيداً ثم امسك عرقاً آخر وأسحبه، وهكذا دواليك. واذا بالوريد الذي كنت امسكه ينشق لان أفكاري كانت شاردة.

عند ذاك صرخ الجراح: "لن تصبحي جراحة على الاطلاق اذا كان هذا خير ما تستطيعين. استمري في العمل ولا تتوقفي".

واعتذرت وهززت رأسي لاصحو. فقال: "لا تفعلي هذا لانه يهز الطاولة".

وانحنت كتفاي من فرط الارهاق. وعندئذ قال: "اجلسي مستقيمة، فأن رأسك يحجب النور".

وصررت أسناني وتراجعت علني أقوى على تركيز نظري. ثم تنهدت وتابعت العمل. ولم أنفك عن القول في نفسي بغيظ: "سمينة... سمينة".

لقد شعرت بالتعاسة. وعلى رغم أن الجراحين المقيمين لا يحزنون اطلاقاً لحالهم، الا أني حزنت، مدركة أن ذلك ضعف مني. وبدا أنه من القسوة أن أعمل طوال الوقت وبلا اطراء يوم عيد ميلادي. ولم يكن الجراح عالماً بتلك المناسبة. غير أني كنت متأكدة من أن تصرفه لن يتبدل اذا هو علم.

وانتزعنا العرق الاخير في الثالثة والربع بعد الظهر، وفي الرابعة كتبت بسرعة متطلبات العناية اللاحقة للجراحة، وبدلت ملابسي ورحت أجر الخطى نحو جناح المستشفى لارى أي عمل كان في انتظاري وما الكوارث التي حلت منذ السابعة صباحاً.

ونادتني رئيسة الممرضات الآنسة ليبي: "دكتورة مورغان، هل يمكن أن أراك لحظة واحدة؟ يجب أن نجتمع في غرفة الممرضات لان الامر خاص".

وتساءلت بانزعاج ويأس: "والآن ماذا فعلت؟ لماذا تريد الآنسة ليبي أن تزعجني في هذا اليوم بالذات من دون بقية الايام؟"

وكانت أنوار الردهة مطفأة، وفي وسطها طاولة تتصدّرها كعكة عيد كبيرة أضاءتها ٢٤ شمعة. وراحت الممرضات يغنين: "سنة حلوة..." ووقفت عاجزة عن وصف امتناني لهنّ على تلك البادرة الرائعة.

أبطال كرة القدم

بعد عشرة أشهر كمقيمة أصبحت متعبة وسريعة الانفعال، كما أصبحتُ أكثر ثقة بنفسي. وتبخرت المخاوف التي كانت لديّ في كلية الطبّ من أني لن أتمكن من المتابعة. فها أني صمدت، وكنت أتعلم اجراء الجراحات.

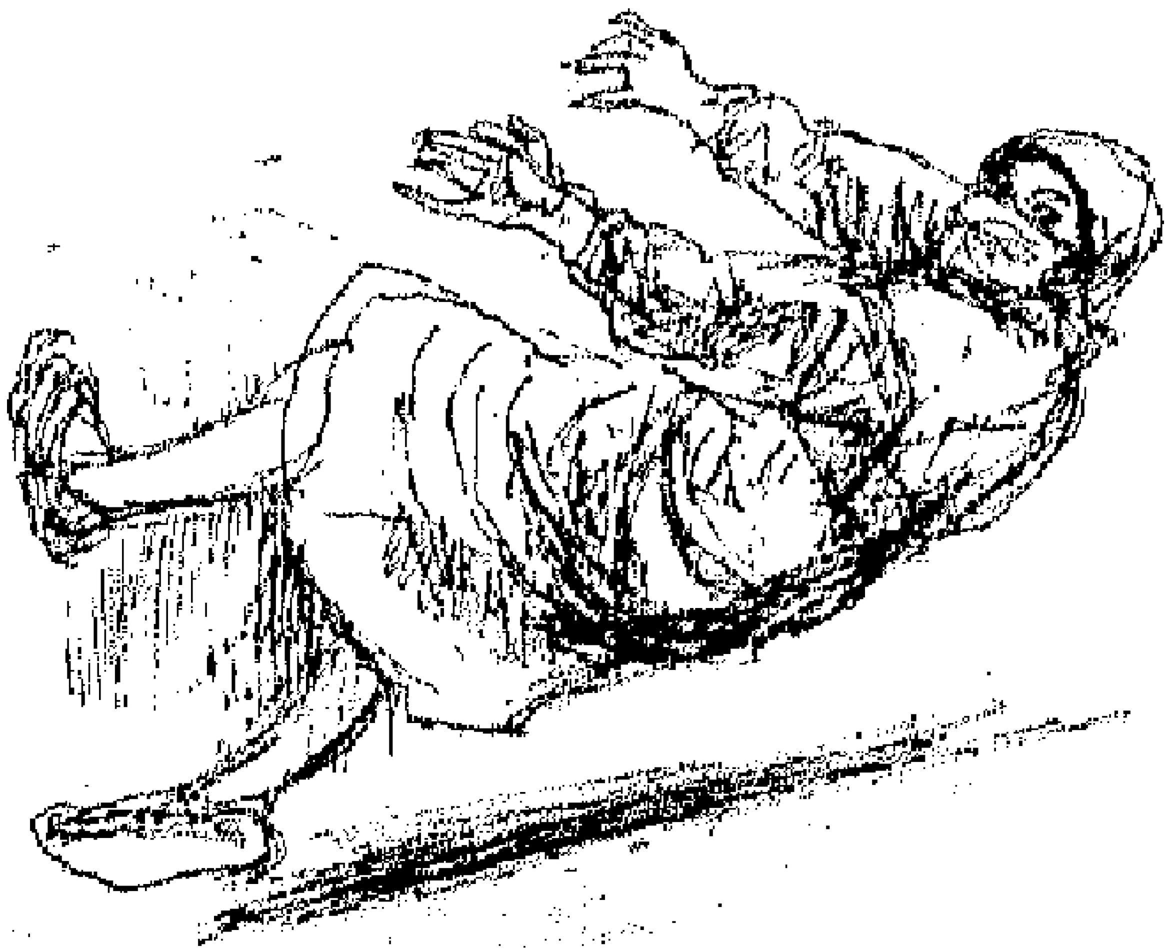
وكانت دورتي التمرينية التالية في جراحة الأطفال، انتقلتُ بعدها الى مستشفى للمحاربين القدامى حيث أجريتُ أول عملية بتر، ثم انتقلت الى جراحة تقويم الاعضاء، أي التجبير المتعلق بالعظام والمفاصل.

وفي أحد الايام قال رئيس المتخصصين المسؤول عني: "نريدك في غرفة العمليات هذا الصباح. افطري جيداً إذ ينبغي أن تكوني قوية".

كانت المريضة امرأة سمينة في الخمسين، تعاني نوبة حادة من التهاب المفاصل. وكان ركبها سيُبدل بمفصل معدني لتستطيع المشي من جديد. وانتظرت بفارغ الصبر لأُشاهد العملية، وهي نوع جديد من الجراحة آنذاك.

نظر السيّ رئيس المتخصصين صعوداً ونزولاً، معبراً عن شكه وعدم ثقته، لدى بدء العملية. وقال: "أرجو أن تكوني أقوى مما تظهرين". أما هو فكان وزنه ١١٣ كيلوغراماً، وكان افضل ظهير في فرق كرة القدم الجامعية في الولايات المتحدة.

وقال المتخصص المساعد، وهو سابقاً افضل ظهير معاون في كرة القدم الجامعية ووزنه ١٠٠ كيلو غرام: "ان اليزابيت ستفعل حسناً. المسألة كلها قائمة على الموقع الذي نأخذه، ولا تقتضي قوة جسدية. المطلوب تناول الركبة ورفع الرجل. وعندما نقول: "اسحبي"، عليكِ أن تسحبي



حتى يخرج الورك من تجويفه".

ورفعت الرجل، فوجدتها ثقيلة. وأحسست بألم في كتفي، لكني أبقيت الرجل مرفوعة.

وبعد ثلاثين دقيقة قال رئيس المتخصصين الذي كان مكباً على العملية: "الآن اسحبي الرجل الى أعلى. أسحبي أكثر!" ونظر الي فرآني على الأرض. لقد سحبت بقوة فقدت معها توازني ووقعت أرضاً.

عندئذ قال رئيس المتخصصين: "أظن أننا نطلب الكثير". وأمسك بورك المريضة بينما تناول الطبيب المقيم فخذها.

وقال رئيس المتخصصين: "واحد، اثنان، ثلاثة: اسحب!" وصرخ اختصاصي التخدير: "على مهل! انكما تكادان تسحبانها خارج الطاولة". وأعاداها الى الوضع الصحيح.

وقال المتخصص المساعد: "ساعديني يا اليزابيت". وكنت أبدلت ثوبي وقفازي بعد سقوطي على الارض.

وخاطبني رئيس المتخصصين: "اسحبي. ها هو الورك يخرج من تجويفه. كلا، ليس تماماً. اسحبي بعد... استرخي... علينا أن نعيد الكرة".

وأسرع جراح التجبير ليساعدني. وقال لي: "ألست أنت المقيمة الجديدة؟ كل ما أطلبه منك أن تقفي جانباً". وتناول الرجل مع المتخصص المساعد، وأخذ يقول: "واحد، اثنان، ثلاثة: اسحب. بهدوء وثبات. هيا يا شباب! تابعوا السحب. ها هو الورك يخرج. اسحب. اسحب أكثر. قف. انه الورك خرج من المفصل. حسناً فعلتم أيها الرجال!".

وخاطبني وهو يتنفس بثقل وجبينه يرشح عرقاً: "الآن يمكنك أن تعودي. ارفعي الرجل هكذا من الركبة. سنسمح لك بالقاء نظرة عندما يحين الجزء الشائق من العمل".

ورحت افكر في محدودياتي الجسدية. ان لكل امرأة القوة الكافية لإجراء أي جراحة سوى تلك المتعلقة بالكتفين والورك ومفصل الركبة لدى شخص بالغ. وهي، في هذه الحالات، تحتاج الى مساعدة رجلين أو ثلاثة. والرجل نفسه يحتاج الى مساعدة رجال آخرين، لكن حاجة المرأة الى هذه المساعدة أكبر. أعرف جراحتين ناجحتين في حقل التجبير، وهما أقوى مني جسدياً. لكنهما تعرفان تماماً متى تحتاجان الى طلب العون ممن يفوقهما قوة.

أرجل مكسورة وعضات كلاب

في الرابع والعشرين من يونيو (حزيران)، انتهت سنة الاقامة التي اكتشفت خلالها ان في امكاني تحمّل الارهاق والضغط أكثر مما كنت أظن قبل سنة. كنت أكتسب الخشونة.

وعندما عدت الى المستشفى كطبيبة متخصصة، بدأت عملي في غرفة الطوارىء. وكان على أطباء السنة الاولى في التخصّص أن يقضوا أربعة أشهر على الاقل في غرفة الطوارىء، عاملين يومين كل خمسة أيام، على مدى ٢٤ ساعة في اليوم. وكان معي مارك ليمان الذي أمضى سنة اقامته في الوقت الذي فعلت انا. وفي صباح اليوم الاول دخلنا غرفة الطوارىء وأجلنا النظر في البرنامج المطلوب.

وقال مارك: "جاءني خبر سيء يا ليزي: ستكون هنا في الرابع من يوليو (تموز)، عيد الاستقلال. هل تعلمين ما يعني هذا؟ انه يعني جروحاً وحوادث سير بالعشرات".

يومنا الاول في غرفة الطوارىء كان الثاني من يوليو (تموز). وعملنا، مارك وأنا، من السابعة صباحاً حتى السابعة من صباح اليوم التالي، باستمرار وبلا جلوس. وقد أحضرت لنا الممرضات البيتزا للغداء والهمبرغر للعشاء. فأكلنا ونحن واقفان نكتب الوصفات والتعليمات.

وبدأ الرابع من يوليو (تموز) كالثاني منه. استهللنا العمل في الثامنة صباحاً. وفي العاشرة كان هناك عشرون مريضاً ينتظرون، بأرجل مكسورة وأيد وأقدام مجروحة وعضات كلاب. حتى اذا حلت الساعة الثانية كان هناك أربعون مريضاً. ورحنا نقطب جروحهم وهم لا يزالون على النقالات في اروقة المستشفى.

في الخامسة بعد الظهر زار كبير المقيمين الجراحيين غرفة الطوارىء. وسأل بدهشة: "هل تفقدتما غرفة الانتظار؟ ماذا فعلتما؟ هل نشرتما إعلاناً في صحيفة؟".

وقالت ساندي، احدى الممرضات: "انهما عالجا ١٨٠ مريضاً في الساعات التسع الماضية". وأضافت بعد أن رمت كومة أوراق أمامنا: "عندما تنتهيان، انظرا الى هذه الاوراق التي ينتظر أصحابها منذ الظهر".

وبعدما ألفنا غرفة الطوارىء، وضعنا نحن الاثنين صيغة للعمل المشترك: طعام الغداء لا نتناوله أبداً. مساء يخرج كلّ منا ١٥ دقيقة للعشاء. في منتصف الليل، اذا فرغنا من معاينة جميع المرضى، توزعنا الساعات السبع الباقية بحيث ينام كل منا ثلاث ساعات ونصف ساعة.

في سبتمبر (أيلول) أنهينا الدورة الاولى في غرفة الطوارىء، وعدتُ الى جراحة التجبير. الاّ أنّ هناك مشكلة كانت تنتظر جميع متخصصي السنة الاولى في ديسمبر (كانون الاول) اللاحق. فقد أراد ثلاثة عشر شخصا منا التخصص بالجراحة العامة، في حين أنّ دائرة الجراحة لا يمكنها أن تستوعب سوى خمسة. وفي اكتوبر (تشرين الاول) بلغنا قرار الدائرة. وكنا، مارك وأنا، غير مقبولين.

ولحسن الحظ، قُبِلْنا في أحد مستشفيات بوسطن، وهو مكان ممتاز للتمرين. وهناك واجهت صعوبة في جعل الناس يصدّقون أني جرّاحة متخصصة، لأني، من ناحية، ما زلت أرفض أرتداء السترة البيضاء المقيتة. فقد أردت أن أشعر بأني انثى واني أختلف عن الجرّاحين الرّجال. أضف الى هذا أنّ تلك السترات البيضاء الطويلة كانت دائماً واسعة جداً.

وذات يوم، بينما كنت أقرأ في سجل مريض، انقضت عليّ ممرضة وصاحت: "من أنت ؟ لا يجوز أن تكوني هنا".

فأجبتها بغضب: "بل هذا هو مكاني. انني من الاطباء الجدد".

– طبيبة؟ لم أعرف أنهم يقبلون طبيبات هنا، إذ لم يكن لدينا طبيبة إطلاقاً.

وفي أسابيع قليلة تعودت الممرضات رؤيتي، ولكن ذات صباح ألفيت الجراحة المقرَّرة، فجلست مع شون ستيوارت، أحد الأطباء المقيمين، على طاولة السكرتيرة، ندوّن الملاحظات على أوراق المرضى ونطلب من بعضهم فحوصاً مخبرية. وكانت السكرتيرة خرجت لتناول قهوتها الصباحية. وتقدم نحوي طبيب متخصص بالطب الداخلي وانتزع بغيظ الورقة التي كنت أقرأها، ورماها على الطاولة ثم انتزع ورقة اخرى. وبعدما انتزع الاوراق الخمس التي كانت أمامي ورماها، قال بازدراء: "انه جناح بال حقاً. لماذا لا تحفظين الاوراق في الحامل الخاص بها لكي يتمكن الأطباء من استعمالها؟" وأقحم رأسه نحوي وتابع: "لقد دعوتني هذا الصباح وطلبت مني أن آتي فوراً لمعاينة جراحية. وها أنا أتيت، لكني لا أرى تلك الورقة اللعينة. ناوليني ورقة المريض كلاركسون وأحضري فوراً نتائج فحوصه الأخيرة. ليس لديّ وقت اضيعه".

كانت الورقة المطلوبة في يد شون الذي نهض وقال: "اسمح لي بأن اقدم اليك ورقة السيد كركسون. واسمح لي، كذلك، بأن اقدم الدكتور مورغان، انها رئيسة اختصاصيي الجراحة المعاونة في المستشفى (★)".

وراح الطبيب يفتش عن "الدكتور مورغان" فقال شون: "الدكتور اليزابيت مورغان. انها رئيسة المتخصصين المعاونة الجديدة".

وللحال أدرك الطبيب المعاين أني أنا المقصودة. فتراجع مرتعباً وقال: "دكتورة مورغان، أني متأسف كثيراً. لقد ظننت أنك السكرتيرة. هل لديك وقت لتخبريني عن المريض كلاركسون؟".

وبعدما انصرف، نظر شون اليّ قائلا: "انا ايضاً يؤلمني ان تُذلي". وشعرنا نحن الاثنين بأسى لحال السكرتيرة. تلك كانت الطريقة التي اعتمدها كثيرون من الأطباء الرجال لمخاطبة أي موظفة مجهولة، سواء أكانت ممرضة أو سكرتيرة، بغضّ النظر عن حسن طويتها.

المنافسات

في الليل كان أطباء الأمراض الداخلية المقيمون مخولين استدعاء المتخصصين الجرّاحين من دون استشارة المتخصص بالطب الداخلي. وقد نال أحد اولئك المقيمين سمعة سيئة من جراء استشاراته المتكررة حول مسائل تافهة. ومرةً استدعاني في الاولى بعد منتصف الليل لاستشارة طارئة حول مريضة عانت امساكاً معتدلا طوال السنوات العشرين الماضية. وهو ظنّ أنّ المريضة مصابة بسرطان في المعي المستقيم وأراد أن أجري لها جراحة. وزاد الموقف غرابةً أنّ تلك المريضة كانت اصيبت بنوبة قلبية خلال النهار، ولم يكن ممكناً فحص معيها المستقيم قبل مرور أيام.

وقد أتفقتُ ومارك ليمان على تصنيف ذلك المقيم في خانة المحدودي الذكاء، وانتهت المسألة عند ذاك الحد. أما كارل كبنغسلي، وكنا ندعوه "كينغ" اي

(★) في الانكليزية Doctor تقال للذكر والانثى.

"الملك"، فكانت حاله أسوأ. ففي ليلته الثانية في الاختصاص، استدعاه المقيم نفسه عند منتصف الليل، طالباً منه أن يفحص "نزفاً طفيفاً في المعدة"، كما أخبرني "الملك" في اليوم التالي. وتابع "الملك":

"كان صاحبنا مغموراً حتى الكاحلين بملاءات مشبعة دماً. وكانت المرأة المسكينة تتقيأ الدم عبر انبوب رفيع موصول بالمعدة وخارجه. فتراجعتُ مذهولا وقلت: "ان مريضتك مصابة بنزف قوي. وعليك أن تفرغ معدتها ثم تستدعي مخططي الذبحة الصدرية واختصاصيي المعدة والأمعاء. وعليكم فحص معدتها وتصويرها على الأشعة لمعرفة مصدر النزف، ثم حقنها بالفازوبريسين (هرمون يعمل على تقليص الشرايين لرفع ضغط الدم) قبل أن تقضي نزفاً".

"واكتفى الأبله بجوابه الآتي: "اني آخذ قراراتي بنفسي. شكراً على نصيحتك، لكني اخترت ألا أتقيد بها".

"وتقيأت المريضة ملء وعاء آخر من الدم. ولم أتمكن من الوقوف هناك ومشاهدتها تموت. فأمسكت المقيم المسؤول عنها بقميصه ورفعته عن الارض. وحملته هكذا خارج الغرفة وسمرته على جدار في المدخل وقلت: افعل ما آمرك به أيها الصرصور، والا أوسعتك ضرباً حتى يرسلوك الى المختبر في قنينة.

"وأخيراً وافق على ما قلت له أن يفعله. وتحت تأثير العقار توقفت المرأة عن النزف، وان تكن أُعطيت ۲۰ وحدة دم بعد ذلك".

كان كارل كينغسلي فخوراً بأنه أنقذ المرأة من الموت. ولكن عرفنا أن الادارة ستغتاظ مما حصل. وفي اليوم نفسه عُقد اجتماع طويل حضره الدكتور آنجو رئيس قسم الجراحة والدكتور بلس رئيس قسم الطب، انضم اليهما بعد ذلك محامي الطبيب المقيم الذي أراد أن يغرم كارل لاهانته وضربه.

وفي الاسبوع اللاحق، بينما كان بعض متخصصي الجراحة يتناولون القهوة والحلوى بين عملية وأخرى، راحوا يهمسون بالاشاعة الاخيرة، وهي ان الدكتور آنجو قرر طرد كينغسلي من المستشفى. وقبل بدء جولة العيادات الطويلة صباح السبت، طلب آنجو من الجميع أن يبقوا "لسماع كلمة صغيرة".

كان ذلك حديثاً من طرف واحد، ولم يتكلم خلاله سوى أنجو:

"لقد اخترت الجراحة لأني أردتُ أن أكون جراحاً جيداً. وارجو أن تكونوا اخترتموها للغايةنفسها. كذلك مارست رياضة كرة القدم وأنا في كلية الطب، غير أن كرة القدم امر والجراحة امر آخر. وانه ليوم كئيب في حياتي عندما يعجز جراح يعمل في أشرافي عن مخاطبة أحد المقيمين حول مريض ويلجأ الى القوة الجسدية لحمله على العناية بمريضه. واذا لجأ أي متخصص يعمل في اشرافي الى هذه الطريقة بعد اليوم، فمصيره الطرد. فهذا تصرف غير قانوني وغير خُلُقي، وهو مشين. واذا لم يتمكن أحد المتخصصين العاملين في عهدتي من معالجة أمر متخصص بالامراض الداخلية

(صمت)... أو مقيم (صمت أطول)... - وإن يكن هذا يهمل مصلحة المريض عمداً - فيجب استدعائي فوراً. أنتم، أيها الشباب، تنضحون رجولة واندفاعاً. ولكن من العار استعمال القوّة الجسدية ضدّ طبيب آخر. لقد كان هذا الاسبوع كئيباً بالنسبة اليّ، وأتمنى أن يكون هكذا بالنسبة اليكم جميعاً".

وخرج الدكتور آنجو، فيما شعرنا كلنا بالخجل وغادرنا قاعة الاجتماعات بصمت لعيادة المرضى.

وبينما كنا نصعد السلم، قال لي "الملك": "هل تعرفين؟ ان العجوز على صواب. كان يجب الاّ أفعل ما فعلت. والافضل ان اعطي سواي فرصة لابداء رأيه. اني متأكد من انك لم تضربي مقيماً يا ليزي. هل فعلت؟ الامر سهل بالنسبة اليك: تبتسمين بعذوبة وتسألين مقيماً أن يفعل شيئاً، فينطلق حالا للتنفيذ. وهذا ليس عادلا".

الى حد ما، كان كارل على حق. فأنا، مثله، لم يكن في امكاني النظر الى المقيم وهو يدع مريضته تنزف حتى الموت. ولكن اذا لم اتمكن من حمله على تنفيذ اوامري كما اريد، فاني أستدعي فوراً أحداً لا يمكن إلاّ أن يطيعه، مثل رئيس قسم الجراحة او كبير المتخصصين. وقد كانت هناك حالات رُفضت فيها اوامري كما رفضت اوامر باتسي غلوفر، المتخصصة الجراحية الاخرى، من قبل المتخصصين بالامراض الداخلية. إلاّ أننا لم نأخذ المسألة على صعيد شخصي او كدعوة الى الخصام. ولا نحن اثرنا في الاطباء الآخرين دافعاً الى محاربتنا. واذا عارضني طبيب آخر، ففي امكانه أن يقول ذلك علناً، من غير أن يظن اني اتحداه. ثم اني، كانثى، لم أكن مضطرة الى استعمال القوة الجسدية لتأكيد ذاتي. أنّ الاثر الانثوي اللطيف كان، في رأيي، فضيلة جديدة في عالم الجراحة.

طُرَق النساء

لم تكن الخصومات العارضة مصدر الخلاف الوحيد في قسم الجراحة تلك السنة. المصدر الآخر كان باتسيغلوفر. كانت باتسي تتذمر من كلّ شيء تقريباً، وكان المتخصصون يتندّرون برواياتها. وفي حين انّ معظم المتخصصين، رجالا ونساء، تقسّيهم فترة التخصص، إلاّ أنّ باتسي بدت على العكس، لا يمكنها الصمود بل هي تلجأ الى شهامة الرجال الذين كانت تستنجد بهم كلما أعياها العمل.

وفي أحد الايام، سألني مارك ليمان على الغداء: "ليز، هل سبق ان بكيت؟".

- طبعاً.

"أعني خلال العمل، كجراحة".

- أبداً.

"أذاً لماذا تبكي باتسي؟ كلّ مرة يبقى لديها عمل بعد الخامسة، تخشى أن تتأخر عن زوجها وتسألني ان اتولى العمل عوضاً عنها. واذا كنت منشغلا فهي تأخذ بالبكاء".

- هذا لم يحصل إطلاقاً بين باتسي وبيني، إذ لم تسألني قطّ أن أقوم بعملها. إلاّ أنّ الدكتور ملفيني طلبمني أمس أن اعاين مرضاها عنها، فرفضت.

وفي اليوم التالي وجدتُ ثلاث اوراق موجهة الى باتسي موضوعة على طاولتي. فظننت أنّ في الامر خطأ، وأعدت الاوراق الى طاولتها. ولكن في المساء وجدت الاوراق من جديد على طاولتي. وبما أني كنتُ في الخدمة، افترضت ان الادارة وجهت اليها خطأ. الا انني عندما عدت المرضى الثلاثة، وجدتُ أنّ باتسي عادتهم وعالجتهم جميعاً في اليوم السابق. ولم يكن احد منهم يحتاج الى جراحة، لكنهم كانوا يحتاجون الى جراح يتفقدهم كلّ يوم او يومين خلال وجودهم في المستشفى، وهم كانوا مرضى باتسي.

وفي الصباح التالي أعدتُ الاوراق الثلاث الى باتسي قائلة: "لقد عدتُ هؤلاء عنك الليلة الماضية. لكنهم مرضاك".

فسألت: "ألا يمكنك أن تتابعي معاينتهم عوضاً عني؟ فأنا منشغلة جداً، وقد تأخرتُ البارحة عن موعد العشاء في البيت".

فقلت بدهشة: "اني لا افعل هذا على الاطلاق يا باتسي. أنا أهتم بمرضاي، ويمكنك الاهتمام بمرضاك".

عندئذ قطبت أساريرها وغادرت الغرفة. وبقيت، طوال الاسبوعين اللاحقين، تضع اوراق مرضاها على طاولتي واعيدها الى طاولتها. وفي نهاية الاسبوعين وجدتُ كومة من تلك الاوراق على طاولتي، مع ملاحظة من الدكتور ملفيني تقول: "تفقدي هؤلاء المرضى!"

وذهبت الى مكتب الدكتور ملفيني وسألته: "ماذا تعني بهذه الملاحظة؟ هؤلاء مرضى باتسي".

- لقد اخبرتني أنك ومارك لم تعاملاها بلطف.

وخفض صوته وتابع: "اليزابيت، لقد دخلت علي باتسي الليلة الماضية والدمع يملأ عينيها. انّ قسمنا غاصّ بالعمل. وهي كانت منصرفة الى بيتها للعشاء في ساعة متقدمة، من غير أن تستطيع شراء حاجاتها وتنظيف المنزل. ووعدتُها بأنك ستربن مرضاها".

- أتقصد ان علي العمل باندفاع في دائرتك، بينما تنسحب باتسي عندما تجد أنّ العمل صعب، فآتي أنا لأنفذ عملها؟

وأجاب الدكتور ملفيني بحدة: "لا تخاطبيني هكذا"

عندئذ أغلقت الباب وعدت لمواجهته. وكنت على استعداد حتى لقتله، ولكن سرّاً! ورميت الأوراق الخاصة بمرضى باتسي على طاولته، وقلت:

"لقد اخترتُ الجراحة لأني كنتُ واثقة من أنيّ مؤهلة لها كأي رجلٍ مؤهّل. وأنا جراحة جيدة، فخورة بمهنتي، وفي إمكاني التصدي لمتطلباتها. واني لم احقق نجاحي عن طريق البكاء أمام الامور الشاقة. وأنا أيضاً لا وقت لدي للقيام بالمهمات المنزلية، كما لا وقت لدى اي جراح لهذه الامور. غير أني لا أطلب من باتسي أن تتولى هي أعمالي كي يمكنني الذهاب الى البيت باكراً من أجل تنظيف الارض. اني لا اكترث لارتفاع عدد مرضاي، لكني لا افعل أعمال الآخرين اذا كان

مزاجهم لا يطيقها. أن" احداً من الجراحين الرجال لم يطلب مني قط" أن اعمل عنه. وأنا خجولة من أن تكون امرأة طلبت هذا".

وبعد صمت طويل، قال الذكتور ملفيني: "أظن أني فهمت".

ذلك كان كل" ما قيل حول تلك المسألة. وبعد ذاك أصبحت باتسي، تعتني هي بمرضاها. ولكن بعد اسبوع أخذني جورج فالد، الزميل الالماني، جانباً وقال: "اليزابيت، أود أن اكلمك في امر مهم. لقد أتت باتسي الي" اليوم وسألتني مرافقتها الى الدكتور أنجو لنطلب منه طردك من المستشفى".

وحدقت اليه بذهول. الطرد؟ لماذا؟ وانتابني خوف شديد: اذا كان الدكتور ملفيني وراء هذه المسألة، فالطرد ممكن.

وأضاف فالد: "قالت انك تهملين مرضاك وانها تأخذ العمل عنك".

- هذا غير صحيح!

"دعيني أنهي كلامي. ان ما أخبرتني اياه لا ينطبق على اليزابيت التي أعرفها، ورفضتُ أن اصدق كلمة منه. ولكن أظن أنه أفضل لك ان تحصني موقعك الدفاعي. صحيح انك مثابرة على عملك وانك تعنين بمرضاك وتتفقين مع اكثر الناس. إلا" انك بدأت تصبحين قاسية ونافدة الصبر وانتقادية، وتلك امور من شأنها أن تؤذيك".

لم أنفك عن التفكير خلال الايام التالية، في ما قاله جورج. وفي نهاية الاسبوع اتصلتُ هاتفياً بأمي، وسألتها: "أصحيح اني اخذتُ اصبح قاسية ونافدة الصبر وانتقادية؟"

وترددت امي في الجواب، فتابعت: "اريد ان أعرف الحقيقة يا امي".

- اذاً، الجواب هو: نعم.

وللمرة الاولى منذ وقت طويل، طويل، اجهشتُ بالبكاء. وحين امكنني الكلام من جديد، اخبرتها عن باتسي والدكتور ملفيني وجورج وامكان طردي.

- اني واثقة من انك لن تطردي. ولكن يجدر ان تقفي وتفكري في نفسك. أن تكوني فتاة جراحة أصعب كثيراً مما تريدين الاعتراف به. لقد كيفت باتسي نفسها بطريقة سلمية عبر استدرار شفقة الرجال. أما انت فكيفت نفسك بتعقيد الامور الى ابعد حد" ممكن حتى بات الآخرون ينظرون اليك كفتاة قاسية لا تريد مد" يد العون حتى الى أصدقائها.

"لكن كارل أيضاً لا يعمل عن باتسي، وهو لا يواجه عقبات".

- انه ليس انثى. ألا تدركين أن باتسي ألبت الناس ضدك؟ أنها تتصرف كما يتوقعون أن تفعل الانثى. لذلك عندما تأخذين عليها عدم تصرفها كأي جراح آخر، كما تفعلين أنت، فهم يقفون الى جانبها.

كانت امي محقة. ففي اصراري على ان أكون قاسية كأي جراح آخر، نسيت كيف انسجم مع الناس، وفقدتُ جانباً كبيراً من حس" المرح لدي. وكان من العسير جداً علي" أن الين، ولكني حاولت. وعندما قدمتُ اعتذاري الى الدكتور ملفيني، قبله بابتسام. وكانت باتسي سعيدة حين اخذت عنها بعض عملها. أما "الملك" فسألني لماذا غيرتُ رأيي، فأجبت:

"لمَ لا؟ نحن إناث نمارس الجراحة، وينبغي أن تساعد احدانا الاخرى".

الجراحة التقويمية

في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٤ قُبِلتُ للتخصص في الجراحة التقويمية (او التجميلية) للعام ١٩٧٦. وقد وقع اختياري على هذا الاختصاص لاني أردت أن أتعلم طرق الجراحة الخاصة باليد وسرطان الوجه واعادة تركيب الاعضاء. وبما اني لم اتمكن من تعلم ذلك كله خلال خمس سنوات من التخصص بالجراحة العامة، فقد قررت تمديد تخصصي سنتين اخريين.

في نهاية السنة أقام الدكتور آنجو حفلة وداعية للمتخصصين الاربعة الذين عملوا في إشرافه. ولم اصدّق أنّ أطول صراع مررت به انتهى. وعرفت أني سأتحسر على تلك الرفقة والصداقة الحميمة التي تميز التخصص الجراحي العام. (وقد قيل لي ان هذا النوع من الرفقة والصداقة يختبره كذلك الجنود وهم يتعرضون لقصف العدو).

ها أنا الآن متخصصة مبتدئة من جديد، ولكن هذه المرة بالجراحة التقويمية.

في اليوم الاول تفقدتُ الجناح في رفقة هلن بل، المتخصصة المسؤولة عنه التي كانت ستنصرف قريباً. وقالت لي هلن: "اذا صمدت هنا، فإنك ستذهلينني. اني اترك في عهدتك ستين مريضاً، بينهم ستة مصابون بحروق خطرة وموضوعون في وحدة العناية الفائقة. ولديك ثلاث عيادات اسبوعياً، تعودين في كل منها بين ثلاثين وخمسين مريضاً. وعليك أن تعملي طوال النهار على الحالات المقررة سابقاً وطوال الليل على الحالات الطارئة. ولن تجدي احداً من المتخصصين بالجراحة العامة يهتم بالوجه واليد والعنق او بأي نوع من الجروح. لذلك عليك معالجة كل جرح وخدش في الوجه واليد يُعْرض عليك في غرفة الطوارىء. واعلمي أنّ الاطباء الملازمين لا يهتمون بالتعليم ولا يحبون النساء... حظاً سعيداً".

- من يعمل في فريقي؟

"أنت وحدك الفريق، وهناك طبيب مقيم".

خلال الاسبوع الاول راقتني الجراحة. لكني لم انم معظم الليل طوال الاشهر الثلاثة اللاحقة بكلّ لياليها. وكان هناك اربعة او خمسة أطباء ملازمين لم يرضهم عملي، واخبروني بأني سريعة الغضب وكسول لكنّ الحقيقة اني لم اثابر على العمل من قبل كما فعلت آنذاك.

وقالت لي هلن: "المسألة مسألة ترفيه بالنسبة الى الاطباء الملازمين. وهم يريدون ان يعرفوا اذا كان في امكانهم أن يهزموك. لقد حاولوا اللعبة نفسها معي. وكل ما يمكنك فعله هو الصمود".

كل ليلة كنتُ ادعى فيها الى المعاينة، كنتُ اتمنى ان تدهسني سيارة لادخل المستشفى مريضة ويتسنى لي النوم. وكانت الدورة الاخيرة خلال السنة تغييرا نحو الافضل. فقد انتقلت الى قسم العيادات الخاصة حيث كان اربعة اطباء تقويم آخرين. وهم كانوا

غيورين على تعليمي، واروني كيف اصحح عاهات الاطفال واعيد تركيب الاجزاء التي اتى عليها السرطان واعالج جروح الرأس والعنق. اولئك الرجال لم يعلموني فحسب، بل اعترفوا بي كجراحة.

أما سنتي الثانية في جراحة التقويم فكانت كالعودة الى المنزل. وراقتني لأن نتائجها كانت ملموسة، بمعنى أن المرء، اذا انجز عملا جيداً أو رديئاً، ففي إمكانه أن يراه ويتعلم كيف يحقق افضل منه في المرة التالية.

وكنت أنتظر بفارغ صبر ان اجري جراحات على عاهات الاطفال الخلقية. وكانت اولاها مع الدكتور غودفري، وهو جراح تقويم للاطفال. ولم يتجاوز عمر الطفل المريض السنة ونصف السنة، وهو ولد بشق حلقي (ثقب في سقف الحلق يصله بالانف، ويجب أن يُسدّ). وعلى رغم اني كنت أعرف طريقة اجراء العملية، الا ان الامر بدا غير معقول حين وقفت أمام الطفل. فقد ظهر فمه صغيراً جداً، بينما بدا المبضع كبيراً وغير ملائم في آن.

"باشري العمل"، قال الدكتور غودفري. ورحت أقطع عبر الحلق حتى وصلت الى العظم، وبات في الامكان قطب النسيج الحلقي. وقبل الجراحة، كان المرء يستطيع ان ينظر الى الشق في حلق الطفل فيرى داخل انفه مباشرة. أما الآن فقد سُدّ الشق واعيد تكوين الحلق. كان ذلك معجزة!

وكان علي أن اتمرن في فرع من الجراحة التقويمية هو جراحة التجميل، فأتعلم اموراً مثل ازالة تجعدات الوجه وجراحات الانف وتكبير الصدر وتصغيره، وتقرير ما اذا كانت الجراحة ضرورية في حال هذا المريض او ذاك.

تظن النساء، بناء على ما يقرأنه في الصحف، أنّ رفع الوجه يظهرهن أصغر سناً وجراحةالصدر تضفي عليهن مسحة اغراء وجراحة الانف تجعلهن اجمل. وما ينساه الناس ان هذا النوع من الجراحة - وان هو نجح في تغيير الشكل - ليس ذلك السحر الذي يحول الشخصية. هناك صعوبات ملازمة لجراحة التجميل، وهي جراحة مكلفة.

ووجدت أن نساء كثيرات من اللواتي استشرنني في شأن جراحة التجميل تخلين عن تلك الفكرة بعدما صرفت وقتاً اشجعهن على الكلام عن امور أخرى في حياتهن. ومن اولئك النساء واحدة لم تأخذ اجازة خلال عشرين عاماً من العمل. وهي لم تكن في حاجة الى ازالة تجعدات وجهها لتبدو مرتاحة وفتية، بل كانت في حاجة الى اجازة وقد نجحت في اقناعها.

الا ان النساء لم يكنّ جميعاً على استعداد للاصغاء الى النصائح. واحداهن، السيدة كينيث، سألتني أن ازيل تجعدات وجهها. وبدت شديدة الاضطراب، وكانت تحدق عبر النافذة من غير أن تنظر الي ابداً.

وسألتها: "لماذا تريدين هذه الجراحة؟"

- اود ان ابدو افضل. فبعدما صممتُ على التقاعد، عجز زوجي فجأة عن العمل. لذلك علي ان ابقى في عملي.

"ما سبب توقف زوجك عن العمل؟"

- زوجي ليس سبب المشكلة. اني

اريد شد وجهي. وهذا من اختصاص جراحة التجميل. اليس كذلك؟

وقلت لها اني اوافق على دراسة امكان تلك الجراحة اذا وافقت هي على ان تأتي مرة اخرى لنتكلم في الامر. وكنت واثقة جداً من أن تلك المرأة تعاني مشكلة نفسية اخطر كثيراً من مشكلة وجهها. وظننت أن زوجها توفي وانها ارادت شد وجهها لطمس حزنها والتغلب عليه. ويعلم ذوو المهنة انه ليس من الحكمة اجراء جراحة تجميلية لشخص يعاني اضطراباً نفسياً لانها قد تزيد حاله سوءاً.

وعادت المرأة الي، لكنها لم تتجاوب مع ما قلته لها، فرفضت اجراء الجراحة. واعطيتها اسماء بضعة أطباء ذوي سمعة ممتازة في الجراحة التقويمية قد لا تكون لديهم المحاذير نفسها التي كانت لدي.

وبعد اسبوعين كنت ازور مستشفى، فوجدت جراحاً آخر يشرب القهوة مع الممرضات. وعندما رآني قال: "لقد مررت بتجربة مخيفة الاسبوع الماضي... مسكينة السيدة كينيث".

ـ وماذا حدث؟

"كنت في وسط عملية لشد وجهها حين أخذت تتقيأ. وقالت ان العملية تجعلها مضطربة. وكدت اعجز عن انهاء الجراحة. لكنها، لحسن الحظ، شفيت من العارض. وحين عادت لفك القطب، اخبرت الممرضة انها ارسلت زوجها الى مؤسسة لرعاية العاجزين. ويبدو انه مصاب بادمان الكحول الى حد لا شفاء معه".

اذاً هذا هو السر الذي اخفته عني. وربما اعطاها شد الوجه القوة على التخلص من زوجها. لكنها لو ذهبت الى طبيب نفسي، وليس الى جراح تقويمي، لكان ذلك أقل كلفة واكثر عوناً لها.

طبيبة حقيقية

في يوم اربعاء من اواخر شهر مايو (ايار) ١٩٧٨، تسلمت الرسالة الآتية:

"عزيزتي الدكتورة مورغان،

"لقد تسلمنا طلبك الخاص بالامتحان ووافقنا عليه. واضفنا اسمك الى اسماء سائر المرشحين للقسم الاول من امتحان عضوية هيئة الجراحة التقويمية للعام الحالي".

آه كم هو عظيم ان اكون مؤهلة لعضوية هيئة الجراحة التقويمية! ان فترة تخصصي ستنتهي في الاول من يوليو (تموز). وكنت أشك في أن تكون سنتا التخصص كافيتين. لذلك كنت اجريت المعاملات اللازمة للعمل سنة أخرى في اشراف الدكتور بيرينسون، احد أساتذتي في الجراحة التقويمية. إن سنة من العمل معه لعظيمة حقاً. غير اني كنت قلقة على وضعي: اذا عملت معه كطالبة اختصاص، فهذا يجعلني غير مؤهلة لامتحان الهيئة وعضويتها.

وتفهم الدكتور بيرينسون وضعي فوراً. وقال: "لقد تخصصت طوال سبع سنوات، وهذا يكفي. وها هو الوقت حان كي تطيري من هذا العش يا اليزابيت. أنت جراحة تقويمية ذات جدارة. وأود أن اراك خارج هذه المدينة عندما يحين يوليو (تموز)".

وتراجعت وقد تملكني شعور طاغ: انه لامر مفاجىء أن أبدأ عملي الخاص،

"لا يمكن ان تبقي طالبة اختصاص كل عمرك، ولن أدعك تؤجلين الانطلاق الى عملك الخاص ابداً".

وقال معاونه، الدكتور سيتون: "انه مصيب كلياً. فأنت تبقين طالبة اختصاص مدة طويلة حتى ليبدو انه لا يمكنك فعل اي امر آخر. اذهبي الى البيت. ادرسي لامتحان الهيئة. افتحي عيادة. الا يغريك هذا؟".

وأضاف الدكتور بيرينسون: "الا ترين أننا جميعاً متحمسون لارسالك خارج المدينة؟ ان البرهان الاكيد على كونك جراحة تقويمية جيدة هو أن يحاول جميع الزملاء التخلص منك".

أما الآن، وقد حصلت على ما أريد، فكنت خائفة. لقد اربكتني فكرة فتح عيادة والعيش منها.

وقال الدكتور فيتزهيو، رئيس برنامج التخصص المسؤول عني: "الامر سهل. وهذا ما تفعلينه: تختارين المكان الذي تريدين العمل فيه، ثم تعلمين مستشفيات المنطقة بوجودك لتحصلي على امتيازات العمل فيها. ان الاوراق والتوصيات التي تحملينها ممتازة. ويجب الا تواجهي مصاعب".

وقررت أن أمارس مهنتي في العاصمة واشنطن، بلدة والديّ. وقبل أن اغادر بوسطن، اتصل الدكتور بيرينسون بالجراحين التقويميين الذين يعرفهم في واشنطن، طالباً منهم مساعدتي. وفعل الدكتور فيتزهيو مثله، كما وجه رسائل توصية الى المستشفيات.

وتركتُ بوسطن في الاول من يوليو (تموز)، ودرست شهرين لامتحان الهيئة الكتابي الذي اجتزته. أما الامتحان الشفوي بالنسبة الى الجراح الذي يملك عيادة خاصة فيتبع بعد سنة او اثنتين.

وذات عصر كنت لا ازال اهيىء عيادتي حين رن الهاتف في مكتبي الموقت ليقول المتكلم على الخط الآخر: "دكتورة مورغان، هنا المستشفى القومي. لدينا مريض مهشم الوجه. كم يلزمك من الوقت للوصول الى هنا؟"

"لا أفهم ماذا تقصد!"

- ان اسمك كجراحة تقويمية موضوع على لائحة الطوارىء لدينا.

"انهم لم يخبروني. ولذلك تكلمتُ بتعجب".

- هل يمكنك أن تأتي؟

"طبعاً سآتي. لكنها ساعة ازدحام السير. هلا امكنك ان تخبر المريض اني آتية، وان تأخرت قليلا؟"

- بلا شك. اني انتظر وصولك. مع السلامة.

وقمتُ بسرعة، آخذة الاوراق الخاصة بالوصفات وحقيبتي الطبية وبعض الآلات. وانطلقت الى المستشفى

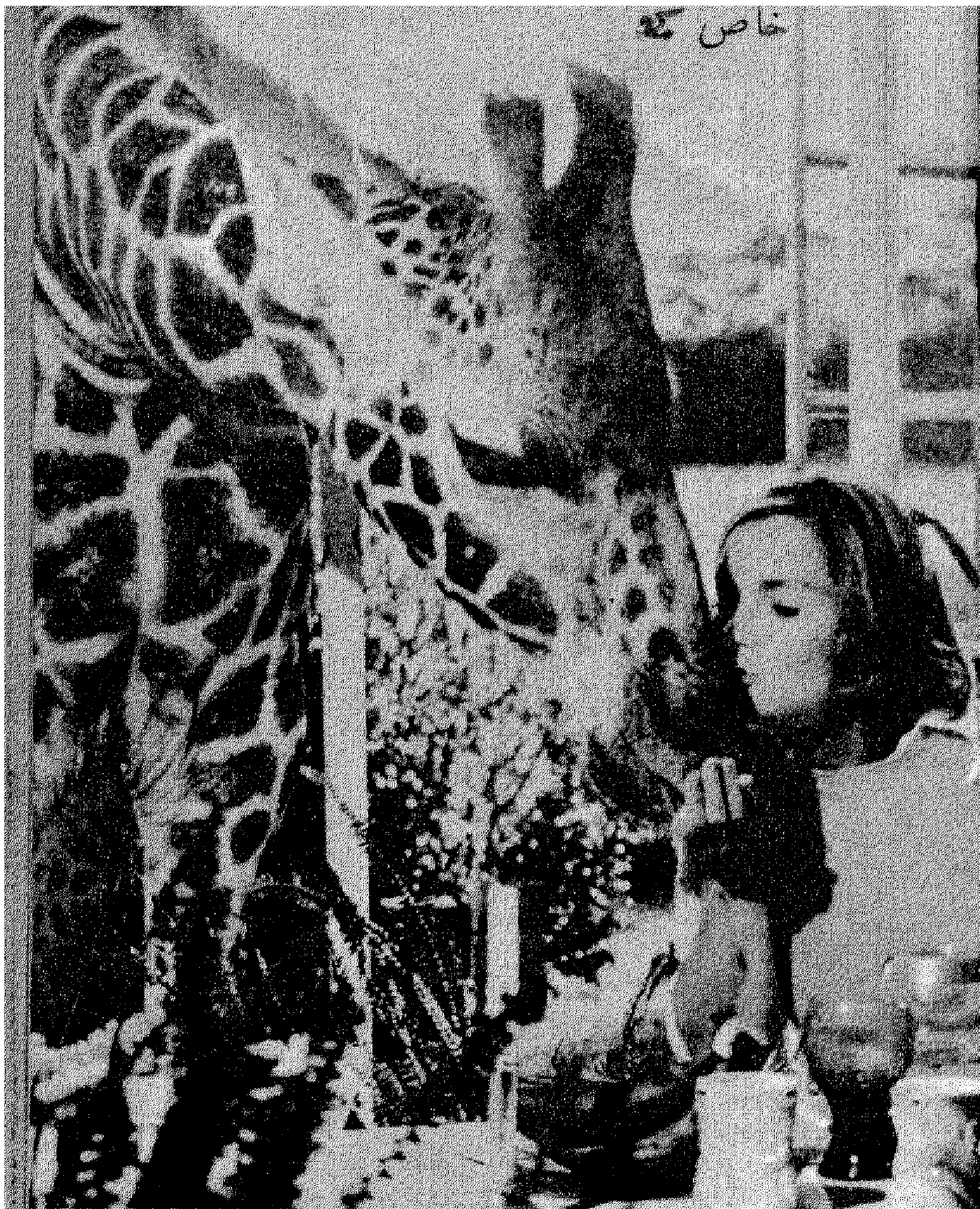
لقد اصبحت طبيبةً حقيقية!

■ **اليزابيت مورغان**

مقياس العلم والجهل

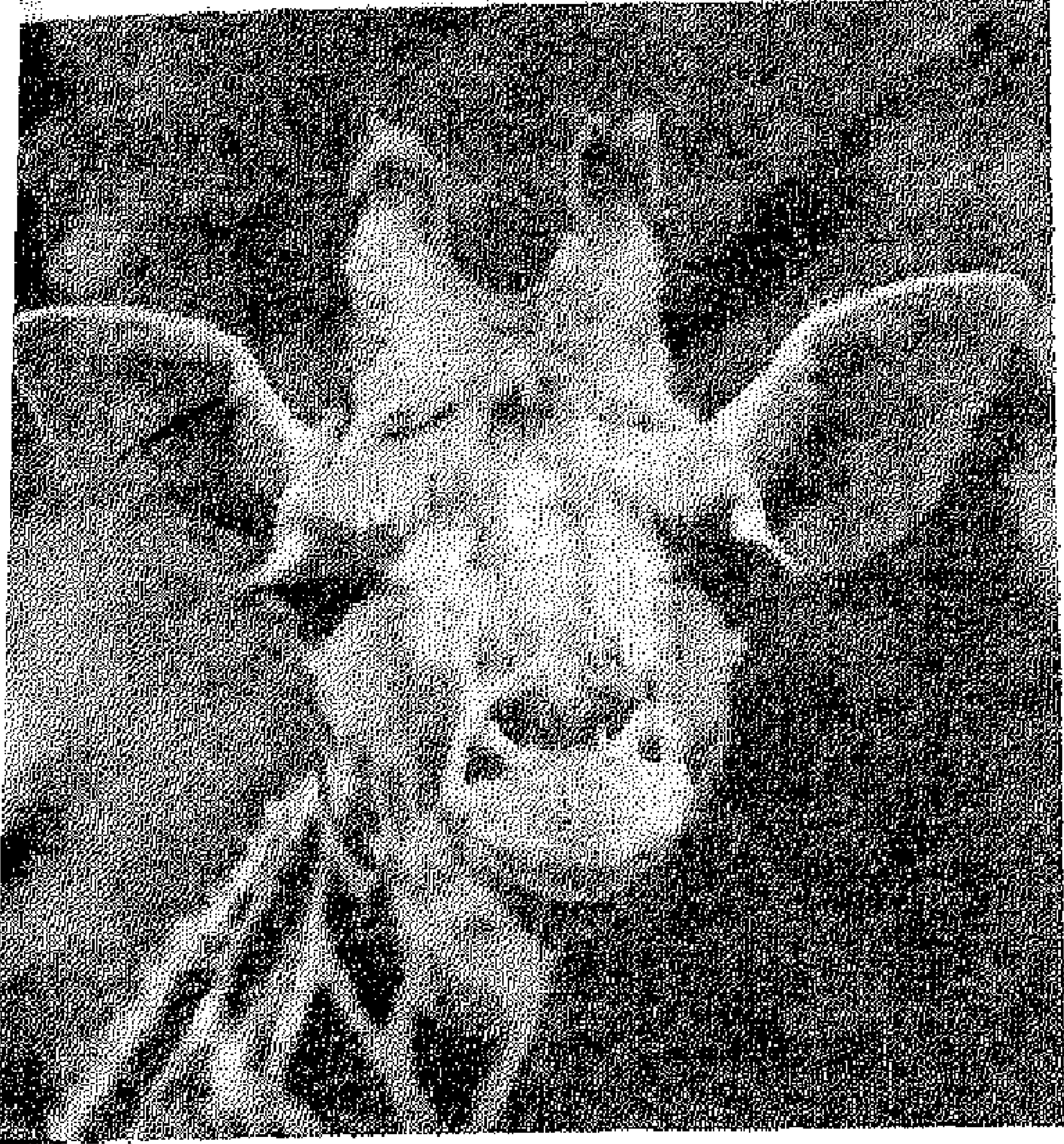
اذا مرّ يوم لم نشعر فيه بأننا اكثر جهلا من الامس، فهذا دليل على اننا كففنا عن طلب العلم.

و.د.ت.



الزرافة الحبيبة

بقلم بيتي وجولف ملفيل



الزرافة الحبيبة



عندما اخبرت بيتي ملفيل وزوجها جوك اصدقاءهما بأنهما مزمعان على تربية زرافة على أرضهما قرب نيروبي، عاصمة كينيا، نبهوهما الى أخطار تلك المغامرة. فالزرافة قد تكبر حتى يبلغ وزنها ١٣٥٠ كيلوغراماً. وعلى رغم نعومتها والدلال الذي تحيط نفسها به، الا أن لها رفسة قاتلة اذا هي اثيرت. لكن بيتي وزوجها وقعا في حب زرافتهما بلا مقدمات. واقتنعا بأن ذلك الحب من شأنه التغلب على جميع المصاعب

راح قطيع من اربعين زرافة يرعى تحت شمس نوفمبر (تشرين الثاني) في ريف كينيا الساحر. وحين اقترب رذرفورد على صهوة جواده، اشرعت الزرافات سيقانها وانطلقت بسرعة ٥٠ كيلومتراً في الساعة عبر السهل الفسيح. لكنّ حجمها الكبير جعل خطواتها تبدو بطيئة وجليلة، علماً أن طول بعضها بلغ خمسة أمتار ونصف متر. وبدا الحصان المطارد مثل نملة تسرع وراءها.

أما صديقنا رذرفورد، الذي كان سابقاً حارس غابات، فهو يدير الآن مزرعة كريغ في وادي ريفت، وتبلغ مساحتها ٥٦٠٠ هكتار. وهذا الوادي يضم ما تبقى من فصيلة نادرة من الزراف الذي تتهدده التطورات الزراعية الحديثة. وكان رذرفورد يستعد للقبض بأي ثمن، على زرافة حديثة الولادة أردنا أن نأخذها الى مزرعتنا الصغيرة قرب نيروبي.

وخفقت قلوبنا ونحن ننظر الى رذرفورد يشق طريقه بجهد وسط القطيع الشارد كي يصل الى صغاره. واختفى هنيهة خلف الغبار، ثم ظهر في مقدم القطيع واختطف زرافة

صغيرة. وتقدم مساعده كيبور لمنع الزرافة من العودة الى القطيع، فيما ادخل رذرفورد حبلا معقوداً في رأسها. لكن الزرافة اهتزت بعنف متحررة من وثاقها، واختفت وراء تلة صغيرة. واسرع رذرفورد ثانية في اثرها وطوق عنقها بذراعه. فثبت حصانه المدرب حوافره في الارض، وتولى كيبور طرح تلك الصغيرة المحمومة، التي تزن ٢٠٠ كيلوغرام. وهكذا انتهت المطاردة.

ولدى وصولنا الى المكان قال رذرفورد: "انها انثى". وكانت زرافتنا الطفلة، وارتفاعها متران ونصفمتر، مضطجعة على الارض وقد مددها كيبور وحاول بشق النفس، ان يبقي عنقها مرفوعاً. ومعروف ان الزراف، اذا اراد الشرب، يحني عنقه وقتاً قصيراً. ولكن اذا طال الوقت فهو قد يتقيأ ويختنق بعد انسداد القصبة الهوائية.

وكنا - كعادة الازواج الذين ينتظرون مولوداً - اخترنا اسم "ديزي"، فاطلقناه على زرافتنا. وحدقت عيناها البنيتان الواسعتان الينا بخوف وحنق. ولمسناها فاذا وبرها ناعم كالحرير. واشرأب من رأسها قرنان صغيران مثل فرشتي دهان سوداويْن. وكان عرفها بنياً فاتحاً بلون الذهب، وقد ازدان عنقها بثلاث بقع بنية تشبه الفراش. لقد احببنا ديزي من النظرة الاولى، أما هي فكرهتنا.

وربطنا حبلا حول عنقها لئلا تهرب. ثم وقفت على قوائمها وبدأ الصراع. وراحت، كجواد حرون غير مروض او كثور على حلبة المصارعة، تقفز عن الارض. فكانت قائمتاها الخلفيتان ترتفعان الى الوراء ثم تهويان جانبياً كحركة المنجل، وتتقوس قائمتاها الاماميتان بسرعة هائلة. وأمسك كلٌّ منا بالحبل. أما هي فظلت تصارع. وكانت تتقدم بضع خطوات وتقف قليلا قبل معاودة صراعها. وكان حبي لها يزداد كل دقيقة.

والقاها رذرفورد أرضاً مرة أخرى وهي تقاوم وترفس وتصيح. وحملها ستة رجال الى شاحنتنا الصغيرة التي ازحنا مقعدها الاوسط. وبقي ثلاثة منهم ممسكين بها في الشاحنة، بينما قبض كيبور على رأسها. وانطلقنا جميعاً نحو الاسطبلات التابعة لمزرعة كريغ. وادركت ديزي انها وحيدة ومسلوبة القوة ونحن نقتادها الى مربط مليء برزم التبن الضخمة. وتركناها هناك للتأكد من ان حالها ستتحسن.

كانت ديزي اكبر حجماً، وبالتالي اكبر سناً، مما توقع رذرفورد. واذا قُبض على زرافة صغيرة جداً، فهي قد تموت لافتقارها الى حليب امها. أما الزرافة البالغة فقد يقتلها الارهاق الذي يعقب المطاردة. وكان عمر ديزي ١٢ اسبوعاً، وليس مستبعداً ان يكون الركض اعياها. وقال رذرفورد ان حظها في البقاء حتى الصباح يبلغ ٣٠ في المئة. واذا اصبحت وهي حية، فلديها ٦٠ في المئة من الحظ في البقاء خلال الساعات الثماني والاربعين اللاحقة التي تشكل الفترة الحرجة.

ولم أكن ادري ان حظها في البقاء ليس مكفولا. وكنت اصحو من وقت

الى آخر خلال الليل، واصلي كي تكتب الحياة لديزي، محاولة تبرير العذاب الذي سببناه لها ٠ وكان عزائي الوحيد ان ديزي، لو بقيت مع القطيع، لكان حظها في الحياة أقل من ٣٠ في المئة.

"الأم" جوك

ان عمل زوجي جوك هو تنظيم رحلات "سفاري" سياحية يتاح فيها التقاط صور للحيوانات٠ ويقع منزلنا في لانغاتا، احدى ضواحي نيروبي، ضمن ١٢٠ هكتاراً من الغابات الافريقية العذراء٠ وقد امكننا شراء ستة هكتارات من تلك الارض٠ أما المساحة الباقية فلم يشترها احد ولا دنا منها انسان٠ وكان يقوم وراءها سهل كيتنفيلا الفسيح الذي تسرح فيه الحيوانات البرية٠

وعندما انتقلنا الى ذلك المنزل عام ١٩٧٥، وجدنا ثلاث زرافات تعيش على ارضه، هي: توم وديك وهاري٠ وادهشتنا رؤية تلك الحيوانات المرقطة تتنزه على طريق بيتنا وتقضم الشجر الذي يعجبها او تراقبنا في الحديقة٠ لكن تلك الذكور الثلاثة كانت تشيخ٠وحين رآها احد ضيوفنا يوماً، قال: "لماذا لا تأتيان بزرافة صغيرة من تلك الفصيلة النادرة في مزرعة كريغ؟"

ان فصيلة ديزي من الاصناف النادرة في افريقيا الشرقية، ولا يتجاوز عدد افرادها المئة والثمانين٠ وهي جميعاً تعيش في مزرعة ديفيد وديليا كريغ في بلدة ليوا داونز٠ لكن الارض كانت فرزت للزراعة، وقسمت مزرعة كريغ اقساماً صغيرة تبلغ مساحة الواحد منها اربعة هكتارات٠

ولم يكن المزارعون يكترثون للحفاظ على الحيوانات البرية النادرة، بل كانوا يقتلونها حماية لقطعانهم٠

واتصلنا هاتفياً بديفيد كريغ وزوجته اللذين رحبا بفكرة تربيتنا زرافة صغيرة٠ ووعدنا رذرفورد بأن يطارد واحدة منها ويقيدها لنا٠ وهو كان خبيراً في تقييد الزراف من أجل نقله الى أماكن آمنة٠وكان ربى زرافة سماها "سوزانا" اعتادت أن تطال الصابون من غرفة الحمام في الطبقة الثانية من منزله٠ واضطر الى وضع عصا الى جانب المغطس ليضربها كلما مدت رأسها من النافذة٠ كما كانت تأكل الثياب عن حبل الغسيل، وتركض الى سيارته ليقبلها عند عودته الى المنزل في المساء٠

لذلك هوّن رذرفورد الامر علينا ٠ولكن لم نكن ندري أننا سنتعلم اموراً كثيرة٠

ارسلت مصلحة المحافظة على البيئة البرية في كينيا طبيباً بيطرياً وعالماً في شؤون البيئة للتأكد من أن مزرعتنا صالحة للزراف٠ ولم ينس الخبيران ان يفحصانا نحن أيضاً، اذ أن للزراف حساسية خاصة تجاه الاضطراب النفسي والعاطفي٠ ورحنا نسأل جميع المعنيين، وبينهم مسؤولو روضة الحيوان في نيروبي، عن الامر، علهم يرشدوننا بنصحهم٠ واجمعوا على تنبيهنا الى أن تربية الزراف تتطلب براعة وحذراً كبيرين٠ واخبرنا صديقنا ديفيد هوبكرافت، وهو عالم حيوان، أن العنصر الاهم في تربية الزراف هو ـ في حال العناية الطبية المثالية والتغذية المدروسة ـ الحب والعطف٠

وما كاد أول فجر يلوح بعد القبض على ديزي حتى هرعنا الى الاسطبل، ورأيناها واقفة في المكان نفسه والخوف لم يفارق نظراتها. وقضينا ذلك اليوم بطوله نتناوب على حمل وعاء الحليب الساخن لتشرب منه ديزي. الا انها اكتفت بالنظر الينا بخوف ورفض.

ولكن حين ذهبنا فجر اليوم التالي وجدنا فروها الصقيل طرياً وهي فاترة الهمة. ودنوت منها فرأيت دمعة في عينها... دمعة حقيقية. وتأكد لي أنها اختارت الموت. ولم تنفع وسائلنا في حثها على الاقتراب من الحليب، وبقيت جالسة وقتاً طويلا.

وتناولت وزوجي الغداء في جو حزين، ثم عدنا الى الاسطبل لالقاء نظرة يائسة اخيرة. وعندما فتحنا الجزء الاعلى من الباب، انهمرت دمعة اكبر من الاولى من عين ديزي. ورمقتنا بنظرة ذهبت بعدها الى الوعاء وشربت منه بعض الحليب. وراحت تشرب وتشرب الى ان أتت على قسم كبير منه. ومدت لسانها الى شفتيها وانفها ونظرت حولها. وبعد ذلك انحنت وقبلت جوك. ومنذ تلك اللحظة اصبح جوك "والدة "ديزي".

وبعد اربع ساعات مدت ديزي رأسها ثانية الى الوعاء، وراحت تتجرع الحليب الساخن بلذة الجائع الذي يقدم اليه الطعام. ثم اعطيناها بعض اغصان من شجر السنط (الاكاسيا)، وهي عنصر رئيسي تغتذي عليه الزرافات. وراحت تقضم الزهر، بعد أن تمد لسانها الاحمر القاني بين الورق والشوك لتقطفها بحذر شديد.

وبعد أيام قليلة أخذناها الى بيتنا في نيروبي. وقاد جوك السيارة مسافة ٣٦٠ كيلومتراً بلا توقف. وكانت ديزي مستلقية على القش ومربوطة بحبل، وهي في عهدة كيبور وابننا ريك البالغ من العمر ٢٧ عاماً. وكنا بنينا لها مربطاً خاصاً خارج اسطبل الحظيرة مؤلفاً من ثلاثة جوانب مضلعة. وكان الجانب الرابع باباً. وغطينا السقف حتى نصفه، تاركين النصف الآخر مفتوحاً لتستمتع ديزي بالشمس.

وكانت ديزي مفعمة بالترقب، تقف في مربطها وعنقها متقوس واذناها منتصبتان الى الامام، ثم تنعم النظر الى منزلنا والجياد والسيارات المارة واولاد حيّنا الذين اتوا لرؤيتها. واسعدنا ان نرى انها كانت تميزنا من بين الآخرين وتأتي لتقبلنا من خلال القضبان كلما اقتربنا من مربطها.

والحق ان اسم "ديزي" (زهرة الربيع بالانكليزية) يناسبها كثيراً. فعيناها الكبيرتان محددتان باطار من الرموش يرتفع خمسة سنتيمترات، ورائحة نفسها جميلة الى حد يفوق الوصف، كأن في داخلها "كيساً من الورد والطيوب" على حدّ تعبير العطارين. وربما انزلت يوماً الى الاسواق نوعاً من العطر سميته "نفس الزرافة".

وبقينا نقدم الحليب الى ديزي من الخارج حتى قرر جوك ذات صباح ان يدخل المربط والوعاء في يده. واستغرقت ديزي في الشرب ولم تلاحظ وقوفه الى جانبها. واعاد الكرة بنجاح. وفي الصباح التالي دخلت معه

وانزويت فوق كومة من التبن. وجاءت ديزي وشمت سروالي وحذائي ويدي وشعري. وهكذا، في اسبوع، بتنا ندخل مربطها ونخرج منه بانتظام.

ان الزرافة، بقوائمها الطويلة وارتفاعها، تجد مشقة في الانحناء والنهوض. ومعرفتها ذلك تجعلها تتأهب للنهوض لدى احساسها بأي خطر. ولكم كان فرحنا كبيراً عندما كنا ندخل الى ديزي بعد انقضاء ذلك الاسبوع فتبقى جالسة. لقد باتت تشعر بالامان. وهكذا نحن.

وقت الاستعراض

اني وزوجي نعارض تربية الحيوانات البرية، حتى بقصد اطلاقها الى القفر لاحقاً. ومعظم اطفال الحيوان تُسقط نفسها على شخص بشري تجد فيه صورة الام. وهي تتكيف بالظرف الذي تجد نفسها فيه. واذا اعتقت فجأة، فقد لا تكون مؤهلة للانسجام مع واقعها الجديد، مما يولد لديها حساً بأنها متروكة.

الا ان الحال بدت مختلفة بالنسبة الى ديزي. فقد كان بيتنا متاخماً لمنطقة برية يمكنها العيش فيها لاحقاً. وهي حرة في انشاء روابط جديدة مع الذكور الثلاثة توم وديك وهاري ومع اي زرافة اخرى، كما يمكنها التنقل كما يحلو لها. لكن مربطها سيبقى هناك، وسيؤمن طعامها دائماً. وهي حرة في البقاء او الانطلاق الى الغابة.

واقمنا لها أمام المربط زريبة طولها ٣٠ متراً وعرضها عشرة امتار، وغرسنا مجموعة اشجار في الوسط لترعى عليها. وكان يمكنها أن تطول الاشجار والجنبات على حدود الغابة القريبة. ونظرت ديزي الى الباب المفتوح والينا قبل ان تخرج على رؤوس اصابعها. وعطست لمرأى اشجار الغابة فهي كانت تكرهها. لكنها استطابت اشجار السنط التي غرسناها واطبقت فكيها عليها. وسرعان ما أتت على تلك الاشجار، فاضطررنا الى ارسال البستاني ليسرق بعض الاغصان من الحديقة المجاورة. ونقر" خجلين بأن هذا الامر لا يزال يحصل.

وكان لنا في كل" امسية عرض تؤدي ديزي بطولته، اذ تختلس النظر من وراء الستار المشمع الذي يقيها الريح، ثم تتوارى خلفه وتعود لتمد رأسها من جديد. وبعد ذلك تسرع الى الخارج وترفس الارض بحركات انيقة، وتدور بسرعة حول الزريبة قبل أن تعود الى الداخل لتختبىء. وكنا نحييها مصفقين، فتعيد الحركات نفسها قبل ان تشرب الحليب وتخلد الى النوم.

ان ديزي تتصف بمزاج متقلب. فهي تقطب جبينها وتبتسم (تبتسم حقاً!) وتمرح وتنتيء شفتيها استياء. كما تبدو احياناً منتشية وواثقةمن نفسها، واحياناً اخرى مضطربة لا تشعر بالامان. وفي احد الايام لمست ابهام جوك برفق. وحين رفعه اخذته الى فمها وراحت "تمضغه" نحو ثلاثين ثانية. واعادت الكرة بعد فاصل من الشرب. وما لبث مص الابهام ان اصبح جزءاً مهماً من نشاطها اليومي.

كانت أيام ديزي الاولى في لانغاتا

رائعة. وكنا نقدم اليها حليب البقر الطازج ممزوجاً بفوسفات الكلسيوم، ووقعة من العظام، ونقاطاً من مختلف انواع الفيتامين، واملاحاً معدنية متعددة. وزيت كبد السمك، والغلوكوز. وكنا نضع هذه في وعاء معقم.

الا ان ديزي لم تلبث ان مرضت. وتبين من تحليل روثها انها مصابة بالزحار (الاسهال) وهو من امراض الحيوان الشائعة التي تؤدي غالباً الى وفاة صغاره. وراحت ديزي تتمدد على الارض اكثر من عادتها، وتنظر الي بعينين رفيقتين حزينتين، كأنها تقول: "ساعديني!" ولكن لم تجد وسائلنا، بما فيها الجزر طعامها المفضل.

واشار رذرفورد علينا بأن نتجنب حليب المزارع الذي يعقل ان يحمل الجراثيم، مقترحاً ان نخفف كمية الحليب الذي نعطيها اياه. واضاف ان الزرافة الام لا تنتج كمية الحليب التي اعتدنا تقديمها الى ديزي. وبدأنا نعطيها نوعاً واحداً من الحليب المعقم، منقصين الكمية الى النصف. وهذا جعل ديزي تتحسن. وادركنا انها استعادت صحتها بعد ايام حين اكلت الجزر الذي قدمناه اليها واصرت على كمية اخرى، معبرة عن ذلك بقفزات متكررة، كما يفعل الطفل المدلل عندما تصيبه نوبة غضب.

باب الحرية

كنت وجوك نعد العدة للذهاب الى الولايات المتحدة في جولة محاضرات تستغرق نحو ثلاثة اشهر. وكتب ابننا ريك يخبرنا ان ديزي قطبت جبينها وقتاً طويلا بعد ذهابنا وكانت ترفس الناس. وعدنا الى كينيا بأسرع ما يمكن.وكان ارتفاع ديزي زاد بمقدار ثلاثين سنتيمتراً. وحين رأتنا هرعت الينا وطبعت على خد" كل منا قبلة كبيرة سال لها لعابها. لكننا وجدنا ان تصرفها لم يكن طبيعياً، فمنحناها عناية أكبر. وكان فورانها يهدأ يوماً بعد يوم حتى عادت كما عهدناها.

وقر رأينا على اعتاق ديزي بعد اربعة اشهر. وعندما حان ذلك اليوم فتحنا باب الحظيرة وانشدنا لها احد أناشيد الحرية. الا أن ديزي بقيت في مكانها. وحاولنا اغراءها ببعض الجزر. وحين ادركت انها حرة، جمدت حيث هي كعفريت في علبة، ثم قوست جيدها بنشوة. وراحت تستكشف المكان بحذر، وكانت تشم وتذوق كل شجرة وجنبةوزهرة. غير انها ظلت ملتصقة بنا، وتبعتنا الى المنزل وقت الغداء. واخذت تنظر الينا عبر النوافذ وعلى وجهها امارات الضياع والاضطراب. ولم نفارق ديزي طوال ذلك اليوم الذي كانت تتفحص فيه كل الاشياء المحيطة بالمنزل. وعند الخامسة عصراً احست بالارهاق، كما أحسسنا به نحن. وسار جوك في اتجاه الحظيرة وهي تتبعه بصبر نافد للعودة الى بيتها.

ومرت الايام التالية على المنوال نفسه. وكانت الاشجار حول بيتنا تتقلص يوماً بعد يوم. ولم تبد ديزي اي اهتمام باكتشاف الغابة المتاخمة. وكان جوك يقودها ويشير الى احدى اشجار الغابة قائلا: "كلي من تلك الشجرة يا ديزي". وتروح ديزي تعلك الاوراق وجوك واقف الى جانبها،

ولكن ما ان يتحرك على رؤوس اصابعه مبتعداً عنها حتى تعدو وراءه بأقصى سرعتها • وكانت، اذا لم تجده، تقف بلا حراك في نقطة من ذلك المرج خصت نفسها بها، وتنتظر• وهي بذلك كانت تتحبب الينا، لكن ذلك يبعدها عن الاعتماد على نفسها•

وفي صباح باكر اتى البستاني الى جوك واخبره انه شاهد توم وديك وهاري على مقربة من الحظيرة عند الفجر، وان ذكور الزراف الثلاثة لا تزال في ناحية قريبة من الغابة• واقتاد جوك ديزي الى تلك الناحية• وفجأة برز رأس ديك من وراء شجرة، ثم ظهر توم وهاري وسط الحقل• وحان الوقت الذي يعرف اذا كانت الذكور الثلاثة ستقبل ديزي او ترفضها•

ومرت دقيقتان او ثلاث من غير ان يحصل شيء• وراح ديك يجتر كما لو فقد اعصابه، وراحت ديزي تقطف الورق•وتقدمت ببطء نحو الذكر الهرم الذي وقف يراقبها عن كثب• وكان ارتفاعه ضعفي ارتفاعها،وحنى رأسه ليشمها، ثم راح يمشي الهوينا•

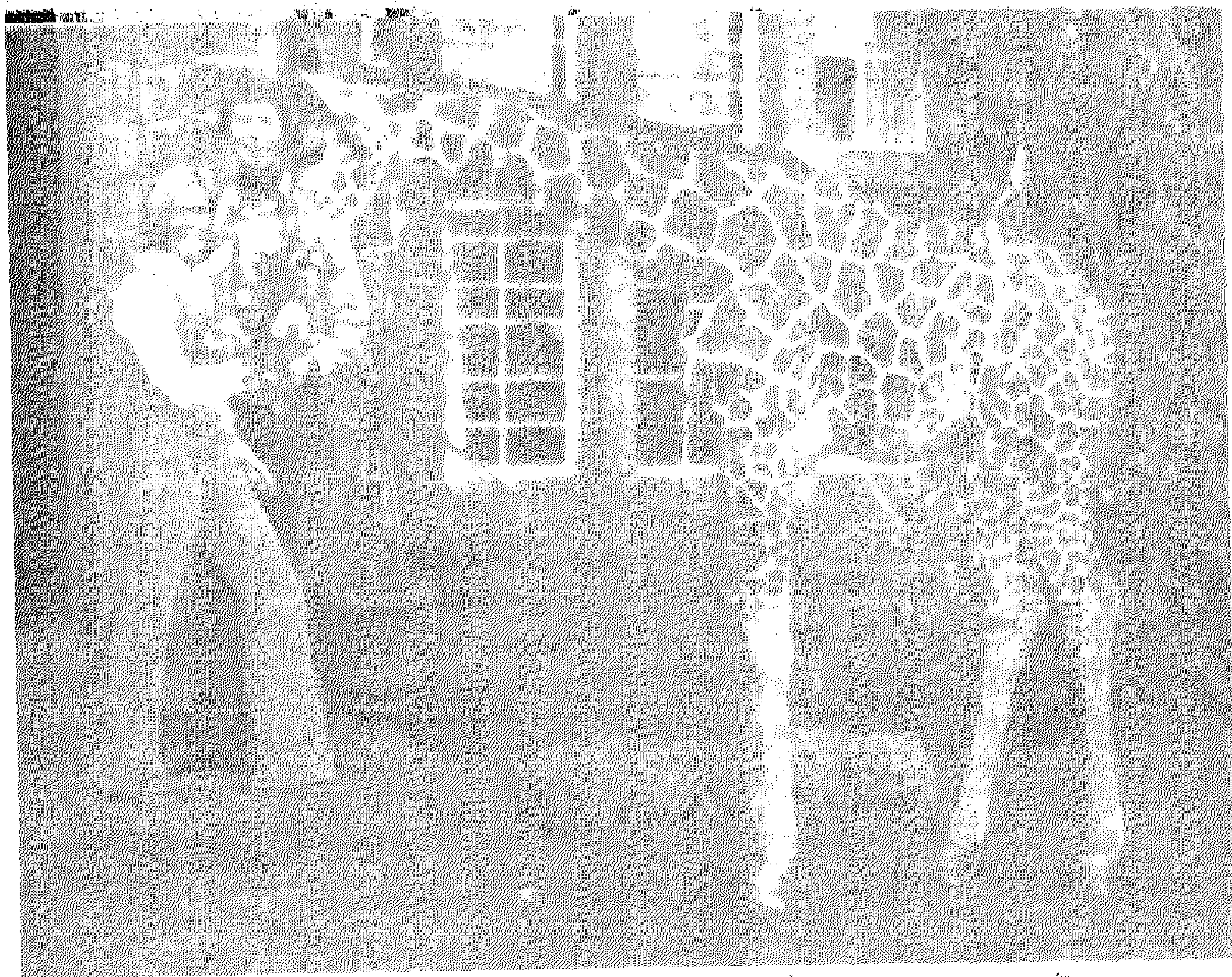
بعد ذلك تقدم هاري• وكانت ديزي اقصر من ان يصل رأسها الى صدره• ترى هل يدفع احد حوافره الضخمة بعنف ويطرحها ارضاً؟ ووقف هاري هناك نحو ١٥ ثانية• وما لبث ان حك انفه عليها برفق• وما هي الا دقيقة حتى استدار عائداً نحو توم•

وكان أمام ديزي الآن خياران: اما أن تذهب الى الغابة لتعيش مع جنسها واما ان تعود الينا• وحدقت الفحول الثلاثة اليها كأنها تقول: "هل تأتين معنا؟" لكن ديزي نظرت اليها بضع ثوان، ثم ركضت واختبأت وراء جوك•

"المحبوبة"، "الظريفة"

كانت عادتنا كل مساء ان نتنزه في الغابة مع كلبتنا السوداء شيرلي براون من فصيلة اللبرادور• ومنذ اطلاقها بدأت ديزي ترافقنا هي الاخرى• وبما أن الالفة تولد الامان، فهي لم يعد يروقها السير وراءنا• واصبحت تنتظر ان نتقدم عنها نحو خمسين خطوة لتعدو وراءنا بحماسة، ولكن بخطى هائلة، وتجبرنا على أن نلوذ وراء شجرة لئلا تسحقنا• ثم تنتظر ان نتقدم خمسين خطوة اخرى قبل ان تعيد الكرة وتضطرنا الى الاحتماء من جديد• لقد كان ذلك، بالنسبة اليها، من قبيل اللهو• أما نحن فلم نكن نجهل ان ضربة موجهة جيداً من تلك الحوافر الضخمة قد تكون مميتة، وان الحيوانات المفترسة، ومنها الاسود، كانت تحترس من الزراف•

وفي احدى الامسيات القمتني ديزي رفسة من حوافرها كانت ـ لحسن الحظ ـ خفيفة، قبل ان أتمكن من الاحتماء وراء شجرة• لذلك حاولنا في اليوم التالي ان نتسلل خارج المنزل من غير أن تدري بنا• ومشينا قرب الحظيرة على رؤوس اصابعنا ونحن ننظر وراءنا بحذر• غير ان ديزي عاينتنا• ومعروف ان للزراف اقوى حاسة نظر بين المخلوقات• وقفزت بمرح قفزة قصيرة، ثم اسرعت في اثرنا وقوائمها تنبش الجحيم من باطن الارض•



بفضولها الذي لا يرتوي تتفحص ديزي باقة الزهر في ايدي بيتي وجوك ملفيل.

وتحدثنا هاتفياً مع رذرفورد ليسدي الينا النصح. فقال انه يصعب على ديزي ان تخفف سرعتها، واقترح ان نقف مكاننا ثم نقفز جانباً قبيل وصولها الينا. وقبل جوك تلك الفكرة واعتبرها "خطة طوارىء". أما أنا فرفضت التقيد بها واقلعت عن النزهة المسائية.

وفي أحد الايام اتى رذرفورد الينا. ورأته ديزي من بعيد، ولما اقترب استعدت للانقضاض عليه. ووقف في مكانه. وحين وصلت اليه ديزي جمدت هي أيضاً. وربما تذكرت انه هو الذي قبض عليها، وان المزاح لا يمكن معه.

وعلى رغم ان رفستها مميتة، الا أن احد علماء الحيوان يقول ان اهم وسيلة تعتمدها الزرافة للدفاع عن نفسها هي اليقظة والانتباه. (وجدير بالذكر أن رسم الزرافة في الكتابة المصرية الهيروغليفية كان يرمز الى القدرة على التوقع والتنبوء). وليس مستبعداً أن تنصب ديزي اذنيها الى الامام ونحن نتحدث اليها او نطعمها، بعد أن تسدد انظارها الى اتجاه معين. ذلك أنه من غير الممكن ان يتحرك شيء ضمن نطاق رؤيتها الواسع من غير أن يلفتها. ويبدو أنها تتحسس، قبل أي كائن آخر، دنو أحد منها.

إن اسم "الزرافة" عربي. وهو يعني، من بين أشياء اخرى

"الرشيقة" او "المحبوبة". وخلال بلايين السنين عاشت تلك الكائنات المحبوبة في بطاح افريقيا التي اصبحت، على مرّ الحقب، صحارى. ثم اضمحلت من ذلك المكان مع اختفاء الزراعة. وكان الناس يصيدونها بالقسيّ والفخاخ كما تشهد على ذلك الرسوم الحجرية. ولا تزال تلك الفخاخ تستعمل في انحاء من افريقيا حتى اليوم.

وفي أمكنة كثيرة، لم يقتصر صيد الزراف على الافادة من لحمه وجلده القاسي الذي كانت تصنع منه الدلاء الفاخرة واوعية الماء والاحذية بل كانت بعض القبائل تصنع من الاذيال شارات رسمية لقادتها وملوكها. ولا يزال شعر الذيل الاسود الطويل مادة مفضلة لصنع الاساور. ومنذ وقت غير بعيد شاهدنا زرافة ميتة. ويبدو ان احداً رماها في الوحل من أجل الحصول على شعرها. لكنّ حكومة كينيا اليوم - لحسن الحظ - تراقب صيدالزراف والحيوانات البرية الاخرى.

ان مرحلة البلوغ والتزاوج لدى الزراف تبدأ في السنة الرابعة. ويدوم الحمل ١٥ شهراً، يولد بعدها الطفل بارتفاع ١٨٠ سنتيمتراً ووزن ٥٥ كيلوغراماً على الاقل. وليس هناك زرافة مطابقة للاخرى من حيث تكوينها. والعلامة التي تميز زرافة عن اخرى هي غرز حوافرها. ويمكننا، جوك وأنا، تمييز ديزي عن اي زرافة سواها بالنقاط التي تشبه الفراش على عنقها.

يقال ان الزراف هو الحيوان الاكثر ذكاء بين ذوات الحوافر. ولا شك في أن ديزي سريعة الادراك، إلاّ أن عقلها نسيج وحده. فهي تستجيب لنا وتستطيب حضورنا، لكنها لا تعرف معنى الطاعة ولا تسعى الى نيل رضانا كما تفعل الكلاب والدببة والسعادين.

وقد استغرقت تربية ديزي من وقتي اطول مما استغرقته تربية اي من اطفالي الثلاثة. وكنت ابقى الىجانبها فترات طويلة لئلا تشعر بالوحدة، وأذهب كل نصف ساعة الى النافذة واناديها باسمها. ثم الوح لها بيدي واخاطبها ببضع كلمات ودودة حفاظاً على صداقتنا،

لكنها كانت تبدو مستوحشة هناك، من دون أحد تلهو معه سوى جوك وأنا. ولم يكن أمامنا الا أن نأتي بزرافة اخرى.

ادخل يا مارلون

وافق رذرفورد فوراً حين طلبنا اليه القبض على زرافة اخرى. وذهبنا من جديد الى بلدة ليوا داونز. وحذّرنا رذرفورد من أن الزرافات في حال اهتياج لأن المزارعين الجدد لا يقونها شر رصاصهم.

وفي الصباح الذي تلا وصولنا شاهدنا زرافة اماً ترعى مع وليدها أجمات شوكية على بعد مئة متر من القطيع. وانطلق رذرفورد وكيبور على حصانيهما وحاصرا الزرافتين قبل ان تتمكنا من العودة الى القطيع. وبعد قليل اختفت الزرافتان وراء أجمة كثيفة والحصانان في اثرهما. وأخيراً عاد رذرفورد منهكاً وهو يقول: "انه ذكَر". وأخَذَنا الى أجمة حيث رأينا طفلا صغيراً في الأسابيع الاولى من عمره. وكان أفتح لوناً من ديزي،

وله وجه شرقي وعينان مائلتان متباعدتان. وكان جلده أملس كالصفصاف. وقبّلته بملء شفتيّ وأحببته من النظرة الاولى.

ولم تكن هناك حاجة الى العنف كما في حال ديزي. وحمل أربعة رجال ذلك الطفل كما لو كان كلباً كبيراً، ووضعوه في السيارة. وحين وضعناه في مربطه وقف يحدّق الى الجدار ويرفض النظر الينا.

وفي الليلة الاولى ضرب الصغير الأرض بحوافره ورقق وعاء للماء وفرّق التبن الذي كدسناه له بجانب جدران المربط. لكننا في الصباح وجدناه واقفاً هناك بمرح ويقظة وترقّب. وعندما حملت وعاء الحليب تحت انفه، وضع رأسه فيه ليرى ما هو. ووقع معظم الحليب على أنفه ووجهه. ولكن بعد بضع محاولات تمكن من شرب مقدار ضئيل منه. ووقف يحدّق الى الجدار مرة اخرى. لقد كان مصاباً بداء الترقّب. وبعد قليل تقدم من الباب وسمح لي بأن ألمسه. وفيما كنت امرر يدي على أنفه الأزغب الناعم، اندفع بقوة عبر النصف الاعلى المفتوح من الباب. وحين دفعناه الى الداخل نظر الينا بمكر وحاول مرة اخرى. ثم تغاضى عن الأمر علنا نغضّ الطرف عنه قليلا فيحاول كسر باب السجن من جديد. انه ممثل بارع حقاً! وأطلقنا عليه اسم مارلون (تيمناً بالممثل مارلون براندو).

وعلى رغم محاولاته المتكررة للهرب وكسره عارضتين من مربطه، الا ان القبض عليه لم يؤلمه كما حصل بالنسبة الى ديزي. ومددت اليه غصن سنط في رأسه بعض رقاقات الجزر، فأخذ يدنو منه ليتفحصه. وبعد قليل راح يتفحص أصابعي. وكانت رغبته في أن ألمسه تزداد. ولم يستغرق تحوله من حيوان بري الى حيوان أليف أكثر من ٤٨ ساعة. وبدا مارلون عازماً على الاستمتاع بالحياة.

ولا انسى، حين وصل مارلون الى لانفاتا وأنزلناه من السيارة، كيف تهادى الى الزريبة كما لو كان ثملا من عناء الطريق. وبدا سعيداً حقاً لرؤية ديزي. الا أن ديزي المسكينة المستوحشة، التي عانينا من أجلها كل تلك المشقة، دنت من مارلون الصغير ورفسته بقوة.

وكنا بنينا له مربطاً صغيراً مضلعاً الى جانب مربط ديزي. وبقي مارلون يحاول النظر اليها من بين القضبان. وعندما فتحنا له الباب صباح اليوم التالي، ركض منتشياً الى ديزي وحاول ان يرضع. لكنها رفسته ومضت في طريقها. غير ان ذلك لم يثبط عزمه، واستمر يرمقها بنظرات غرامية ويحاول لمسها طوال الأيام اللاحقة، خصوصاً وقت الأكل. ولم يبد اهتماماً بالطعام الذي قدمته اليه، واقتصر أكله على جرعات قليلة من الحليب الساخن الذي تناوله ببرود.

وبعد مضي اسبوع على مجيئه، وضع مارلون أنفه على نحو مفاجئ في وعاء الحليب الذي كنت أحمله وراح يشرب منه بتلذذ الى أن أتى عليه. ثم خفض رأسه وقبلني في عيني.

ولم ينفك مارلون عن مراقبة ديزي، ولكن بدافع الفضول وليس بدافع الحاجة. وكنت أنا الأم بالنسبة

ليه، وكنت أعني له الطعام. وبرزت اطفته بقوة، وكان يلحس اصبعي قتاً طويلا ويعلك شعري وحزامي. كنت أقف الى جانبه وننظر معاً الى ا يجري خارج الحظيرة. فيحك عنقه ظهري ويقبلني، ويغتاظ لأني لا عرف أن أحك عنقي بظهره كما يفعل لزراف.

وذات صباح أخرجنا مارلون الى لحظيرة حيث كانت ديزي. فنظرت ليه، وتقدم أحدهما من الآخر لامساً أنفه. وقوّس كل منهما جيده وبقي نحو عشر ثوان واضعاً جبينه على جبين الآخر. وأخيراً رفعت ديزي رأسها عالياً ورفست مارلون بقائمتيها الخلفيتين رفسة خفيفة كأنها قبلة عجلى يمليها الواجب، ثم عادت الى الشجرة التي كانت تقضم أوراقها. ولم يعد خافياً أنّ ديزي كانت تغار من مارلون.

خارج الحظيرة

بعد سبعة أسابيع في الزريبة، حان الوقت لاطلاق مارلون. وفتحنا الباب، فمكث حيث هو كما فعلت ديزي من قبل. وقفز قفزة صغيرة وأخذ يركض ضمن دائرة محدودة. وألقت ديزي نظرة عليه، ثم عادت تراقب قطيع الخنازير البرية. لكنها عادت ونظرت اليّ والى جوك بقلق، وقد ارتسم على وجهها سؤال: "من أخرج الطفل من حظيرته؟" وطمأناها الى أن الأمر كان على ما يرام.

وبدأ مارلون يتذوق الأوراق والاغصان والازهار ويكتشف ما حوله. فاذا بديزي، التي اكتنز جسمها واستدار ردفاها واكتست فرواً لماعاً، تراقبه بحنو أمّ وتأخذه الى كل شجرة وجنبة في الحديقة وتتبعه حيثما ذهب. وأطلقنا صيحة رضا، لكن ذلك لم يدم طويلا.

كان ابننا ريك مدّ سياجاً من الاسلاك الشائكة خلف الحديقة ليستعمل الأرض المسورة كحقل لترويض الخيل. واندفع مارلون في ذلك الاتجاه بأقصى سرعته واصطدم بالسياج، فسقطت عليه بعض الأسلاك والدعائم. ونجح، بعد لأي، في النهوض على قوائمه واندفع نحو الغابة. وحين وصلنا اليه وجدناه واقفاً بلا حراك في فسحة مقطوعة الشجر، وهو يرتجف وقد امتد ذيله بين ساقيه ولامس معدته. وحاولت أنا وجوك عبثاً ان نهدئ روعه، لكنه ثبت حوافره في الأرض كأنما أراد أن يبقى هناك الى الابد.

وكانت ديزي، في الوقت نفسه، قد هرعت الى السياج لتبصر ما حدث. فاصطدمت بالأسلاك ووقعت رأساً على عقب. الا ان الجروح التي أصابتها كانت طفيفة.

وعدت الى المنزل لأرى ما حل بها، ثم اتجهت مرة اخرى نحو الحديقة لأرى، بعد قليل، أن ديزي تبعتني بسرعة جنونية لم أعهدها من قبل. واندفعت الى داخل الأجمة. أما هي فانتصبت على قائمتيها الخلفيتين ودفعت القائمتين الأماميتين بسرعة البرق المتتابع. غير أنها أخطأتني بمسافة قصيرة جداً. وبعد ذلك مشت باضطراب نحو الغابة. واوهنني الخوف، فوجدت بقعة صغيرة ارتميت فوقها.

وبعد عشرين دقيقة أبصر جوك

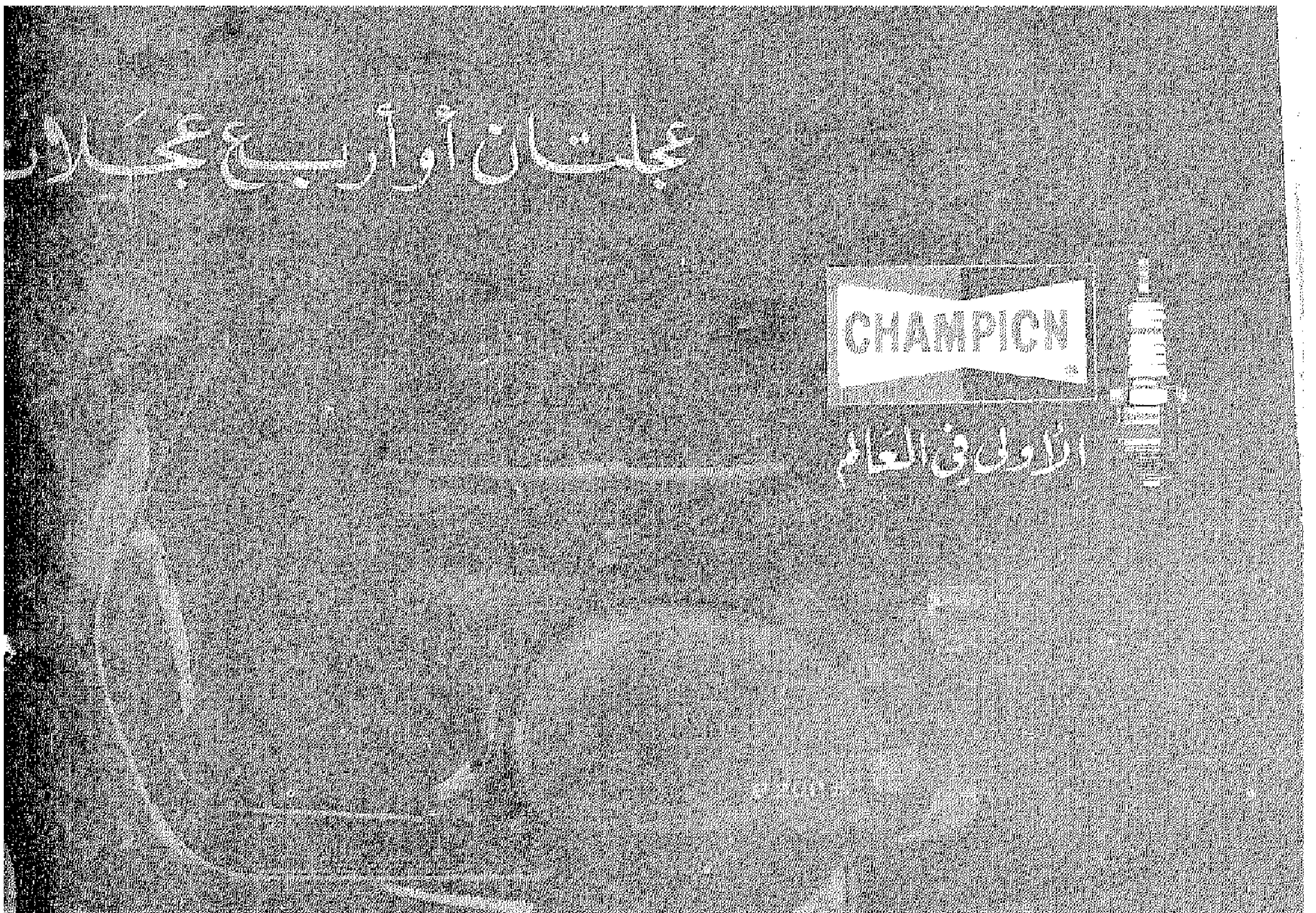
ديزي تأكل الاوراق بهدوء - وهذا مثل آخر على مزاجها المتقلب. وتبعته بوداعة الى حيث كان مارلون يتابع مشهده المسرحي. ووقف الاثنان مكانهما بلا حراك. الا ان الكلبة شيرلي براون، التي كانت شاهدة على ما حدث، خرجت من بين الاشجار وهي تتنفس بصوت مسموع، ووقفت تحت قوائمهما. وعندما تأهب جوك للانصراف، تبعته شيرلي. واطمأنت ديزي الى ذلك فسارت في لحاقهما ووراءها مارلون. وانطلقت المسيرة من الغابة الى الزريبة مباشرة.

وكانت الساعة لم تتجاوز الثالثة عصراً. غير أني قدمت اليهما طعام العشاء، قائلة لهما ان وقت النوم حان، وان عليهما البقاء في الزريبة طوال اليوم التالي وربما على الدوام!

وأردت غسل يدي من أثر الزراف، فدخلت المنزل صافعة الباب ورائي.

وبعد نصف ساعة عدت الى ديزي ومارلون لاعطيهما حصة اضافية من الحليب الساخن. وتذكرت ما قاله الطبيب البيطري من أن الزرافة تضطرب اذا رأتنا مضطربين. لذلك بذلت جهداً عامداً لاهدىء من روعي.

ان الخوف الذي سببته مطاردة ديزي لي واندفاعها نحوي بقوة لن أنساه أبداً. ولئن اكن أنا وجوك نصر على ان الزرافة حيوان يمكن توقع سلوكه، الا أني - حين افكر في ما حصل - يزيّن لي أن ديزي لم تكن تود مهاجمتي بمقدار ما كانت تسعى الى ان اطمئنها بعد خبرة رهيبة. وعندما ركضت بعصبية واضطراب، لحقت بي وحاولت ضربي كما يفعل



طفل مذعور بأمه. لكنني لن أنسى أن الزرافتين في حظيرتنا تستطيعان القتل.

رقصة الزرافة

بعد انقضاء أيام على ذلك الحادث، حاولنا مرة اخرى اطلاق مارلون. وكانت المحاولة ناجحة تماماً. فقد مشى هو وديزي خارج الزريبة. وراحت هي تأكل ما تبقى من شجرة سنط كنا غرسناها السنة الفائتة، أما هو فراح يجري بعض تمارين الركض. وفي المساء عاد الاثنان، باحترام لواجبهما، الى الزريبة قبل ثلاث دقائق من موعد العشاء. وبعد ذلك ظلا يذهبان الى النوم في مربطيهما ليلا حتى ارتأينا أنهما بلغا سناً يمكنهما معها النوم في الخلاء. وها هما اليوم ينامان في الفسحة الخضراء خارج المنزل.

وعلى رغم أن لهما حرية الذهاب الى حيث يريدان، إلا أن ديزي ومارلون لا يتجاوزان عادة مساحة اربعة هكتارات حول المنزل. وأحياناً يلعبان لعبة المطاردة، فيعدو أحدهما وراء الآخر بسرعة جنونية. ويقفان ويلهثان دقيقة، ثم يأخذ الواحد دور الآخر ويركضان من جديد. وهناك لعبة اخرى هي أن يصدم أحدهما بصدره الجزء الخلفي من جسد الآخر، وهما قسمان مليئان بالعضلات التي تخفف من حدة الصدمة. لكن المشكلة أنهما يحاولان، من وقت الى آخر، ممارسة هذه اللعبة مع جوك ومعي، وهذا يغرينا كثيراً، من غير ان ننسى أنهما وحوافرهما يفوقاننا حجماً.

وذات مساء قصدنا المستنقع الذي نصطاد فيه السمك. وكان معنا

صديق أدار آلة تسجيل على شريط يحمل موسيقى اوفنباخ "أقاصيص هوفمان". وما ان سمعت ديزي ومارلون تلك الموسيقى حتى تسمرا في مكانيهما منصتين. وأخذا يرقصان بين الاشجار حيث كنا، ويدوران على قدم واحدة كمن يرقص الباليه، ثم يغزلان بسرعة ويعيدان الكرة. وحين أرسلت الشمس حرابها الذهبية الأخيرة عبر أشجار الغابة ومنها الى ماء البحيرة، غدونا نحن مركز المسرح والزرافتان تؤديان حولنا رقصة باليه رائعة.

وتجدر الاشارة الى أني اكتشفت، قبل وقت ليس بطويل، أن أحد اقدم الوقائع في تاريخ كينيا المدوّن كان إرسال زرافة من بلدة ماليندي الكينية الى بكين، عاصمة الصين، عام ١٤١٥. وعندما استقبلها الامبراطور في قاعة قصره الضخمة، أثارت حركاتها لدى الحاضرين أحاسيس جعلتهم يشبّهونها بحيوان من أساطيرهم يدعى "كيلين". وغدت الزرافة، بالنسبة الى الصينيين، رمز السلام الكامل والانسجام والفضيلة. والحق أني لا استغرب هذا الأمر بعدما عرفت ديزي ومارلون اللذين يجعلان قلوبنا تغني كل يوم.

■ **بيتي وجوك ملفيل**

منذ نشر المؤلفان قصة ديزي ومارلون، أسفرت حملتهما لانقاذ ذلك الصنف المهدد من الزراف عن نقل ٢٣ زرافة اخرى من مزرعة كريغ الى حديقة وادي ريفت الوطنية. وهناك وُلدت خمس زرافات أو ست جديدة. ورصد اعتماد مالي لنقل خمسين زرافة اضافية من مزرعة كريغ الى مكان أكثر أمانا.

اغنية العشاق

عندما فرغنا من بناء منزل احلامنا، جعلنا له سطحاً من الواح التنك المموج. وارتأى بعض الاصدقاء اني وزوجي فقدنا رزانتنا، في حين قال آخرون بخفة: "كم هو طريف".

ومنهم من سألنا عن سبب اختيارنا هذا النوع من السطوح. فأوضحنا لهم اننا امضينا السنوات الاولى من حياتنا الزوجية في منطقة تهب عليها الريح ويملأها الغبار، وان المطر كان ذا اهمية خاصة بالنسبة الينا، بحيث بتنا نودّ أن نراه ونحسّ به ونشمه، وخصوصاً ان نسمع صوته. وقد بدا سطح بيتنا المصنوع من الواح التنك مشهداً غريباً اول الامر. وكان في استطاعتنا ان نراه من الطريق فوق ... ن بعد ثمانية كيلومترات. وقال لنا احد السائقين انه لم يبصر قطّ من قبل سطحاً فضياً مرصعاً بالماس. لكن السطح، مع الوقت، اكتسى لوناً رصاصياً منسجماً مع لون السماء.

وعلى اي حال، فان سطح بيتنا لا يزال يغني. وفي أحد فصول الربيع الماطرة أنشد اغنية طويلة بينما كان المطر ينهمر عليه. فخيل الينا اننا نعيش وسط فرقة موسيقية، وان عازفاً بارعاً يحل ضيفاً علينا.

ان المطر الذي يسقط بعد جفاف طويل ينزل مفرقعاً كأنه موسيقى الأفلاك. إذ ذاك، أنت تصغي وتحدّق الى سواقي الماء الفضية تسقط على التنك ثم على الارض. وتشم لهاث الارض القوي وقد تشبعت بالماء بعدما كانت يابسة.

وها نحن نقول للذين يعيشون تحت سقوف من خشب او حصى او قرميد: "نرجوكم ان تقبلوا تعازينا الحارة. ان سقوف بيوتكم ملاجىء. اما سقف بيتنا فهو اغنية العشاق".

ب.١٠.

كتاب الشهر

يوم أمطرت السماء سما

CMESA

ملخص من كتاب بقلم جون فولر

يوم أمطرت السماء سماً

"كانت هناك بلدة تتناغم فيها جميع أشكال الحياة مع البيئة المحيطة، وما لبثت أن حلت بها آفة، فأصيبت فراخ الدجاج بعلل غريبة، ومرضت الماشية والخراف ونفقت، وخيّم ظلّ الموت على كلّ مكان، وسرت بين المزارعين أخبار عن امراض كثيرة ضربت أفراد عائلاتهم، وازدادت حيرة الاطباء الذين واجهوا انواعاً من المرض لم يعهدوها من قبل،

"وفي المجاري وبين الواح الخشب التي تكسو السقوف، ظهرت بقايا مسحوق أبيض كانت حبيباته تساقطت قبل أسابيع كالنفناف على سطوح المنازل والمروج المعشبة وغطت الحقول والسواقي،

"وعلى رغم أن هذه البلدة لا توجد في الواقع ، إلاّ اني لم اسمع بأي منطقة عانت الويلات التي اصفها هنا"،

... حين سجلت الكاتبة راشيل كارسون، المعنية بشؤون البيئة، هذه الكلمات عام ١٩٦٢ في روايتها "الربيع الصامت"، لم تكن تدري أن مأساتها الخيالية ستتحول حقيقة مرة بعد زمن ليس بطويل!

تمتد طريق ميلانو - كومو العصرية شمالا نحو جبال الالب والبحيرات الايطالية التي تغنى بها الناس منذ فجر التاريخ. وفي منتصف الطريق، على فسحة خضراء ناعمة تغطي وادي ـو، وُضعت علامة تحمل اسم سيفيزو، وهي بلدة تقطنها ١٧ الف نسمة. وتكتظّ على امتداد الطريق مصانع حديثة هي جزء من ميلانو الصناعية. ولكن لا تزال هناك حقول من القمح والذرة وبساتين فاكهة مخضرّة وصفوف طويلة من شجر التوت وفيلات صغيرة بناها أصحابها بأيديهم وعرق جباههم.

وبين تلك الفيلات يشرئب منزل جينو زورزي الذي شيده صاحبه في عطلة نهاية الاسبوع والفرص الاخرى خلال عشرين سنة. وكان كلّ شيء في ذلك المنزل متقناً: أرضيته المكسوة بالخشب المزخرف، انواره الخافتة، جدرانه المتينة التي ترد حرّ الصيف وبرد الشتاء الآتي من جبال الالب، سطحه القوي الذي يعلوه قرميد أحمر. والى جانبه في شارع كارلو بورتا كانت هناك منازل اخرى بناها اصحابها بعناية مماثلة، ومعظمها تتصدره جنائن خضر مخصبة.

وكان يوم السبت ١٠ يوليو (تموز) ١٩٧٦ مناسَبة خاصة لآل زورزي جميعاً، إذ كانت الابنة جوليانا مزمعة على الاحتفال بعيد ميلادها الثامن عشر على شرفة المنزل ذلك المساء. وكانت والدتها عند الظهر منهمكة في تزيين الطاولة الموضوعة على الشرفة. وفي الثانية عشرة والنصف دخلت لتناوُل طعام الغداء مع زوجها في المطبخ. وما ان اصبحت في الداخل حتى علا صوت ناعب مشؤوم لم يسمعا مثله من قبل.

وفي منزل قريب في شارع كارلو بورتا، كانت السيدة ليشيو كاسيو تتناول الغداء مع افراد عائلتها، وهم ابنتاها إلدا (١٣ سنة) وباولا (١٠ سنين) وابنها كارلو (٢٠ سنة) الذي كان عاد لتوّه من المكتبة، حاملا بعض الكتب في الهندسة المعمارية التي يدرسها في جامعة ميلانو. وكانت الى جانبه قطتاه السياميتان ليلي وفاني. وسبق لكارلو ان أفاد من موهبته الهندسية لمساعدة والده في تصميم المنزل الذي بناه آل كاسيو، على غرار آل زورزي، خلال فترة من الزمن.

وكانت السيدة كاسيو على وشك إنهاء طعامها حين أجفلت من صوت مرعب. وكانت الساعة على الجدار تشير الى الثانية عشرة والدقيقة السابعة والثلاثين.

قبيل الثانية عشرة والنصف من ظهر ذلك السبت في يوليو (تموز)، كان فيرو روماني، احد فنيي مصنع ايكميزا الكيميائي الواقع على مقربة من سيفيزو الى الشمال، على وشك إنهاء غدائه هو الآخر. ولم يكن ذلك اليوم يوم إنتاج كبير في المصنع. فقد انتهى العمل في السادسة صباحاً، ولم يبق إلاّ عشرة من أصل ١٦٣ (★) موظفاً، كان عليهم إجراء

(★)وفي يوليو (تموز) ١٩٧٦ امرت السلطات الايطالية باقفال المصنع مما ادى الى تعطل موظفيه الـ١٦٣ عن العمل الا ان هؤلاء ما لبثوا ان وجدوا اعمالا اخرى في المنطقة في آخر العالم التالي.

بعض الصيانة والتنظيف. وكان المصنع ينتج، إضافة الى المواد الاولية التي تصنع منها العطور ومواد التجميل، مادة "تريكلوروفينول" يصنع منها سائل كيميائي يستعمل لابادة الاعشاب الضارة، ومادة أخرى مبيدة للجراثيم تدعى "هيكسا كلوروفين".

ولم يكن مصنع ايكميزا ينتج هاتين المادتين لحسابه الخاص. فهو كان يصنع التريكلوروفينول، المعروف باسم "ت.ك.ف" (TCP) للشركة السويسرية الأم جيفودان التي هي، بدورها، فرع من "هوفمان - لاروش"، احدى أكبر الشركات الصيدلية في العالم. وكانت شركة جيفودان تستعمل الـ"ت.ك.ف" لصناعة الهيكسا كلوروفين، وهو العنصر الفعال في كثير من أنواع الصابون المعقم.

وكان المفاعل الكيميائي الذي يصنع مادة "ت.ك.ف" أغلق صباح ذلك اليوم. وبعد الغداء توجه فيرو - الذي لا يعمل في ذلك القسم - مع عدد من زملائه الى مقهى المصنع. وقبل ان يتناول القهوة، ذُهل لسماع صوت غير عادي، فقفز هو والآخرون في المقهى. وتلا ذلك الصوت صفير منحسر. وخرج فيرو وزملاؤه ركضاً. لقد كانت هناك غيمة رمادية ضخمة تخرج بفعل الضغط الكاسح من صمام الامان في المفاعل الكيميائي. وبعد دقائق رأوا حبيبات دقيقة تشبه الرمل والغبار تتساقط وتملأ المكان حولهم. وما لبثت ان لفتهم غمامة بيضاء كثيفة تتصاعد منها رائحة الدواء والكلورين.



واسرع فيرو عائداً الى المصنع ليرى كبير العمال يقتحم غرفة المفاعل وعلى وجهه قناع للوقاية، وادار هذا صماماً يحمل الماء الى جهاز التبريد التابع للمفاعل لإخماد الحرارة المتراكمة. وانقضت أكثر من خمس دقائق من غير أن يحصل شيء. واستحالت الغيمة كتلة ضخمة راحت تزحف بقوة لا تُرَدّ في اتجاه ميلانو نحو الجنوب، مخيمة على جزء من سيفيزو. وفي وقت قصير قطعت ما يزيد على الخمسة كيلومترات، وكانت حبيباتها البيضاء تنهمر بهدوء فوق سطوح المنازل والحقول. ولم يدر أحد آنذاك أنّ تلك الحبيبات كانت تحمل سماً زعافاً هو افتك ما عرفه الانسان.

عمل عادي

عندما سمع جينو وملينا زورزي الصدى الصافر الذي أعقب الانفجار: هرعا الى شرفة منزلهما. هناك كانت الغيمة الكثيفة تغطي السماء وراء المنازل المجاورة على بعد لا يتجاوز

لكيلو متر، وتزحف في اتجاههم. كانت تلك الكتلة الضخمة بنية اللون في البداية، ثم اخذت تتقلب من لون الى آخر. وبعد هنيهة عبرت فوق رأسيهما واتجهت ببطء نحو الجنوب.

وانفصلت عن الغيمة الكبيرة غمائم بارقة استقرت في كل مكان، على الشجر والعشب والطرق، وكذلك على الزينة التي فرشتها ملينا على الطاولة. وغطت وجهها بمنديل محكم الربط وأخذت تنقل الصحون عن الطاولة.

وخاطبت زوجها قائلة: "كم هو مؤسف أن يحصل هذا الأمر المزعج يوم عيد جوليانا!"

وسعل جينو زورزي وحكّ عينيه بعدما احس بوخْز فيهما، وهرع يغلق النوافذ ومصاريعها.

وفي منزل آل كاسيو خرجت السيدة كاسيو واولادها لمشاهدة ذلك الذيل العملاق الزاحف نحوهم. ولكن حين سقطت الحبيبات الرطبة عليها، أدخلت اولادها بسرعة الى المنزل وأغلقت مصاريع النوافذ.

وقصد أبنها كارلو منزل صديق مجاوراً بعدما شعر بالخطر. وكانت هناك امرأة متقدمة في السنّ أغمي عليها لضعف في قلبها. فتعاون كارلو وصديقه على تنشيطها، ثم استدعيا الشرطة المحلية.

وعلم كارلو أن الغيمة تسربت من مصنع ايكميزا المجاور على اثر حادث. لكن ذلك لم يشف غليله، فقرّر أن يذهب وصديقه الى المصنع. وهناك قيل لهما ان لا داعي الى القلق لأن الامور ستعود الى طبيعتها بعد أن تنجلي الغمامة. وحين رجعا الى شارع كارلو بورتا، سمعا بعض الجيران يتذمرون من ألم في رؤوسهم وإحساس بالحريق في جلدهم وأعينهم. لكنّ ذلك لم يكن أمراً جديداً، وإن زاد حدة عن آثار التلوّث التي عهدوها من المصانع الكثيرة في منطقتهم.

في تلك الأثناء كانت ملينا زورزي مكبة على تنظيف الشرفة المطلة على الحديقة استعداداً للاحتفال بعيد ابنتها جوليانا، ونظفت الطاولات بعناية، رافعة عنها الغبار الابيض. ثم تناولت بعض ثمار الخوخ والدراق والمشمش الفاخر ووضعتها في أوعية لتتوسط الطاولات. وعلى رغم الرائحة اللاذعة، كانت حفلة عيد ميلاد جوليانا مفعمة بالحيوية واستمرت حتى ساعة متقدمة من الليل.

وصباح اليوم التالي نظف آل زورزي الشرفة ثم ركبوا حافلة أخذتهم في وقت باكر الى منطقة البحيرات حيث كان ابنهم الصغير فابيو (٨ سنوات) مخيماً مع رفقاء له. ولاحظت السيدة ايتاليا برونو، شقيقة ملينا زورزي، أن الغبار الناعم الذي تساقط في اليوم السابق غاب ليحلّ مكانه غلاف زيتي لماع غطى الشجر والنبات والحقول والحدائق ولم يترك شيئاً.

وفي منزل آل كاسيو، أفاقت السيدة كاسيو على صداع جعل جسمها يرتجف فيما كانت عيناها متورمتين. وقررتأن تزور عيادة الطبيب في اليوم التالي اذا استمرت تلك الاعراض.

وكان محافظ سيفيزو، فرنشيسكو روكا، يطالع كتاباً في منزله ذلك

الأحد حين قصده اثنان من فنيي مصنع ايكميزا، وأعلماه أنّ مادة كيميائية - يُظنّ أنها مادّة "ت.ك.ف" المهيجة ولكن غير الفتاكة - تسرّبت من المصنع. ووعدا بتسليمه تقريراً مسهباً يوم الاثنين بعد فتح المصنع. وأخبراه انه تم إرسال عينات من المادة المتسربة الى سويسرا، وانه، حتى ظهور نتائج تحليل تلك المادة، يجدر به نصح أهالي المنطقة بعدم تناول الفاكهة والخضر من حدائقهم. وأخذ المحافظ بتلك النصيحة، وابلغ السلطات الصحية المحلية التي باشرت تحقيقاً حول الأمر.

وانصرف الاحداث في شارع كارلو بورتا والشوارع المجاورة الى نشاطاتهم المعهودة أيام الآحاد. وكان ذلك الاحد دافئاً ومشمساً، والبركة في مركز التسلية تغري بالسباحة على رغم رائحة الدواء المنبعثة منها. وكان الأحداث في ملعب البيسبول المنحرف الشكل يمارسون اللعب بحماسة، فيما كان الاولاد الأصغر سناً يتقلبون ويتمرغون على العشب. وكان بعضهم يقطف ثمار الدراق والمشمش والخوخ عن الشجر، بينما راح اهلهم يقطفون الخضر من حدائقهم كعادتهم أيام الاحد.

وصباح الاثنين بدا أن الامور عادت الى نصابها في مصنع ايكميزا. وبقي كلّ شيء في مكانه باستثناء مفاعل "ت.ك.ف" والآلات المجاورة. وتشاور العمال في ما بينهم حول ما قدروا انه حصل. فهم كانوا يعلمون أنّ المفاعل يعمل بحرارة تراوح عادة بين ١٤٠و١٧٠ درجة مئوية ولا يمكن أن يكون صمام الامان انفجر ما لم تتجاوز الحرارة الـ ٢٤٠ درجة مئوية، وهو ارتفاع هائل غير متوقع. لكنهم لاحظوا أن الريح التي هبت يوم الأحد،لحسن الحظ، بددت الغيمة ودفعتها مسافة أبعد في اتجاه الجنوب.

وتبين للسلطات الصحية المحلية أن الحادث لم يترك أثراً سلبياً في موظفي المصنع. وفي ضوء هذه النتيجة، حمل مسؤولو المصنع تقريراً متفائلا الى المحافظ.

وانطلق فنيو المصنع خارج حدوده يجمعون عينات اخرى من اوراق الشجر والعشب والتراب لشحنها الى سويسرا. وهم انجزوا عملهم بهدوء من غير ان يدري به أحد.

قلق متزايد

ذهبت السيدة كاسيو الى طبيب العائلة صباح الاثنين، وكانت تشكو انتفاخاً في بطنها وعينيها وألماً في ظهرها وصداعاً مستمراً في رأسها. وجلّ ما قاله الطبيب لها أن تلك الاعراض يجب ان تكون ردّ فعل قوياً على شيء ما. لكنه لم يدر إذا كانت الغيمة او سواها السبب.

وكان قلق السيدة كاسيو المبهم يزداد على نحو لا يُرَدّ. وأخبرها حدسها أنّ الغبار المتساقط من الغيمة سيصيب افراد عائلتها الآخرين حتماً. وتأكدت مخاوفها صباح اليوم التالي، الثلثاء، حين رأت وجه طفلها مغطى بطفرة جلدية كثيفة.

وما ان حلّ صباح الاربعاء ١٤ يوليو (تموز)، وهو اليوم الرابع الذي تلا حادث مصنع ايكميزا، حتىّ كان

لاطباء قد أغرقوا بحالات مشابهة حال ابن كاسيو، وأخذوا يقارنون النتائج، وباتوا على قناعة أن الغيمة هي سبب المرض، لكنهم كانوا عاجزين عن اتخاذ خطوة حاسمة لأنهم جهلوا طبيعة التلوث وبالتالي العلاج الملائم. ولم تكن نتيجة التحليل قد وردت من سويسرا،وأعلن مسؤولو ايكميزا ان كل ما يعرفونه هو أن الـ "ت.ك.ف" مادة مهيجة. وعلى رغم ان الاعراض كانت معتدلة، إلا أن انتشارها على نطاق واسع ولد خوفاً عاماً لدى أهالي سيفيزو الذين يسكنون في دائرة المصنع. وتحول الطفح الجلدي القبيح على أرجل الاطفال ووجوههم وأذرعهم من سيىء الى أسوأ. وكان القدر يخبىء لهم شيئاً آخر.

قبل موعد العشاء يوم الأربعاء، كان ليشيو كاسيو ينظر من غرفة الجلوس في منزله عبر الشرفة وهو قلِقٌ على زوجته وأولاده. فالسيدة كاسيو تلازم الفراش منذ يومين من دون تحسّن في حالها وحال أولادها. ورأى كاسيو أن المنزل والأرض لا يزالان على حالهما، وإن يكن بعض ورق الاشجار قد اصفرّ. وكانت السماء زرقاء وشمس المساء تضرب أشجار الحديقة مخلفة القاً وردياً بهيجاً.

وشاهد كاسيو أبا حنّاء يحوّم منفرداً في الخارج، لكنه كان يحلق على نحو شاذ في أتجاه شرفة المنزل. وبعدثوان معدودات هوى ابو الحناء على حافة الشرفة مثل وزّة ذاوية ثم دخل عبر الباب المفتوح وسقط بجانب كاسيو شلواً هامداً.

وتقدّم كاسيو من العصفور الذي كان على الرمق الأخير، وحمله الى الشرفة محاولا بث الحياة فيه عن طريق حرارة يديه. غير انه بقي على حاله. وحمله فوق حافة الشرفة بيديه الاثنتين ظناً انه سيطير من جديد، لكنه لم يفعل، بل سقط عمودياً على الأرض تحت الشرفة.

وفي وقت لاحق، بينما كان كارلو كاسيو يدرس في غرفته ومعه قطتاه السياميتان ليلي وفاني لاحظ أن ليلي تمددت على الأرض بصعوبة غير معهودة، ثم وقعت على جنبها. أما فاني فراحت تمشي في الغرفة بترنّح كما لو كانت ثملة. وأخذت الاثنتان تبكيان بأنين غريب عميق.

ودُهش جينو زورزي حين رأى، وهو في نزهته المسائية، كلب صديقه يدنو منه وهو يتهادى ويرتجف على غير عادة الكلاب الحيوية الحركة.



فريق لمكافحة التلوث، تابع لمعمل ايكميزا، اثناء العمل.

عد ذلك مباشرة شاهد جينو بضعة يور تحوّم فوق رأسه بحركة واهنة، سقط اثنان منها أرضاً.

وانقضى ذلك الاربعاء من غير ان يصل المحافظ روكا على معلومات فية عن الموضوع. وكان قلق الأطباء لعائلات يزداد. وفي مصنع ايكميزا لغ امتعاض العمال حداً بعيداً حين شعروا بأن المسؤولين في الشركة حجبوا عنهم جزءاً من الحقيقة.

وخرجت السيدة زورزي ظهر لخميس الى حديقة منزلها لاختيار جاجتين للعشاء. ولكن أذهلها ان ترى نبتات البندورة (الطماطم) شبه محترقة واوراقها ذاوية وسهلة التفتيت. ومرّت بجانب قن الارانب، وصُعقت حين رأت الدم ينزف من أذان الحيوانات وأعينُها. ثم ركضت بحذر نحو قنّ الدجاج وفتحت بابه لترى جميع الفراخ نافقة. وعلى الفور تذكرت أنها وأفراد عائلتها لم يكفوا عن أكل الحيوانات والخضر من حديقتهم منذ ظهور الغيمة المشؤومة قبل خمسة أيام. فما ترى سيحل بهم؟ فجمدها الخوف مكانها.

وبقي انتشار الخبر محدوداً لأنه لم يلقَ أي اهتمام من الصحافة والاذاعة. وانتقلت أخبار الطيور والحيوانات من فم الى آخر. أما الأعراض التي ظهرت على الناس فظُنّ أنها مجرّد اضطراب في المعدة او طفرة في الجلد تستدعي الصبر. وكان فقدان المعلومات بالنسبة الى الأطباء مثاراً للانزعاج أكثر منه مثاراً للخوف. وعلى رغم تفشي الاستياء في المصنع، إلا ان عدم الاكتراث بقي هو السائد.

ونُظر الى الأخبار التي تناقلها الناس كاشاعات، واعتُبرت التحذيرات التي وُجهت من مكتب المحافظ مسألة محلية محصورة في نطاق المصنع.

وكان بعد ظهر الجمعة أن حُمل طفل ذو سنتين الى المستشفى وعلى جسمه قروح مبثوثة. وفي اليوم نفسه اجتمع محافظا سيفيزو وميدا المجاورة بمسؤولين عن مصنع ايكميزا، غير أن كل ما سمعاه منهم كان أنهم يحثون الشركة الام في سويسرا على الاسراع في تحديد طبيعة السم. لكنهم أضافوا انهم لا يرون حاجة الى مزيد من التدابير الوقائية، بل يرتأون دعم التدابير السابقة بملصقّات حول الموضوع.

الرعب المحدق

صباح السبت كان مكتب المحافظ قد أُغرق بالطلبات والشكاوى، وهو لما يزل ينتظر المعلومات من شركتي جيفودان وهوفمان - لاروش. وبينما هو ينتظر، ورده مزيد من الاخبار المشؤومة. فقد أُدخل ١٨ طفلا آخر المستشفى والقروح الكبيرة تغطي أجسادهم. كما أُدخل بعض البالغين الذين أُصيبوا بالغثيان والتقيّؤ، وبينهم السيدة كاسيو التي ساءت حالها على نحو ملحوظ.

وكانت الطيور تتساقط من السماء باعداد كبيرة وتقع نافقة في الحقول. وأخذت القطط والكلاب تسير مترنحة في الشوارع ويسقط بعضها جثثاً هامدة. وراحت الأرانب والدجاج تنزف بأعداد أكبر. واستمر الألم يبرّح بالقطتين السياميتين ليلي وفاني اللتين تخصان كارلو كاسيو.


طفل مصاب بالتآكل الجلدي قيد العلاج.

ولم يعد أنينهما يطاق. وحملهما كارلو الى الطبيب البيطري عله يسكن ألمهما.

واستقبل الطبيب البيطري مواطنه كارلو بهدوء في عيادته التي غصت بحيوانات لم يُجْدِ ها العلاج لأن ذلك المرض المهلك كان لغزاً. وفحص الطبيب ليلي وفاني وأصدر حكمه على الفور: انهما منتهيتان. ووافقه كارلو على أنه يجب تخليص القطتين من عذابهما.

في تلك الأثناء كان الاهتمام محصوراً في سيفيزو. واعتبر سكان القرى المجاورة أنفسهم محظوظين لأنهم كانوا أبعد منها عن المصنع. والواقع ان سكان بلدة سيزانو ماديرنو، الواقعة على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب ايكميزا، اعتبروا أن الروايات المتسربة من سيفيزو اشاعات تنقصها البراهين.

ولكن في العشرين من يوليو (تموز)، أي بعد انقضاء عشرة أيام على الحادث، سمع طبيب سيفيزو البيطري من زميله في سيزانو ماديرنو ان الدجاج والبط والأرانب كانت تنفق كذلك في البلدة الاخرى... لقد زحف التلوّث بصمت خارج حدود سيفيزو.

وفي ميلانو علم مراسلو الصحف، متأخّرين، أن حادث الغيمة السامة قد يكون ذا أبعاد خَطِرَة. وكان احدهم، برونو امبروزي، يعمل في قسم الاخبار في التلفزيون. وخوّلته معلوماته الكيميائية ان يعرف، بعد الاطلاع على تقرير موجز حول الموضوع، أن الحادث ربما تجاوز كونه حادثاً صناعياً عادياً.

وبعد مقابلته محافظ سيفيزو، تبين له ان الجميع كانوا غير واثقين من تركيب الغيمة. وتعجب من كونهم لم يتصلوا بمعهد ماريو نيغري في ميلانو، وهو مؤسسة ذات شهرة في بحوث الكيمياء الطبية.

وتناول امبروزي هاتف المحافظ واتصل بالدكتور لوشيانو منارا، رئيس مختبر البحوث الأيضية في المعهد. ومن مختبره وجد منارا أن مادة "ت.ك.ف"، حين تتجاوز حرارتها الـ ٢٠٠ درجة مئوية، تنشأ عنها مادة "ديوكسين". ولا بد من ان تكون الحرارة تجاوزت ذلك الحد بما أن صمام الأمان فُتح خلال الحادث.

وانتابت الدكتور منارا قشعريرة بعدما قرأ الشرح المتعلق بالديوكسين. فسم الديوكسين يفوق

سم الـ "ت.ك.ف" مليوني مرة، علماً ن مقدار نصف غرام من الـ "ت.ك.ف" يكفي لاهلاك نصف الحيوانات التي تتناوله كما بينت الاختبارات. وبين المقالات التي راجعها منارا عن الديوكسين واحد جاء فيه انه "أقوى سم جُزيئي معروف حتى اليوم". وأشار الى أن سميته تحجب مفعول الزرنيخ والاستركنين.

أما أثر الديوكسين على الناس فليس بأقل منه على الحيوانات. فهو قد يصيب الكبد والكليتين على نحو جاد، وقد ينتج منه مرض جلدي فتاك بعد فترة أقصاها أربعة أشهر من التعرض له. وظهر من الفحوص التي أُجريت على حيوانات مخبرية أن تعرضاً خفيفاً للديوكسين كاف لاحداث خلل وراثي ان لم يكن لاحداث تغيُّر في الخصائص الوراثية يؤدي الى السرطان.

وأخبر الدكتور منارا صديقاً له أن الدقائق التي قضاها في مطالعة المادة المكتوبة حول الديوكسين كانت "أشد عشر دقائق هولا عشتها في حياتي. فلا أنا ولا أهالي سيفيزو كانت لنا أي فكرة عن ذلك السم الفتاك. ولم أشأ ان أقضّ مضجع السكان، ولكن كان علي ان أخبرهم الحقيقة".

وحين اتصل امبروزي مرة اخرى بعد عشر دقائق، نقل منارا اليه الخبر الأليم، قارئاً عليه خصائص الديوكسين. وتضخم أثر ذلك التقرير في اليوم نفسه حين اتصل الخبراء بالمحافظ من سويسرا، مؤكدين احتواء عينات التراب والنبات والحيوان التي أُرسلت اليهم على مادة الديوكسين.

وفي الخارج بدأت السماء تمطر، مع عواصف رعد قوية. وأخذت الأنوار تشتعل بتقطُّع بينما شعر المحافظ روكا كأن نوبة هذيان انتابته. فهو كاد لا يصدق ما نُقل اليه. وأحس برأسه يخفق فيما كان الرعد والأنوار المترجرجة تزيد الوضع رعباً.

ما الفعل؟

في الأيام العشرة التي أعقبت تسرب السم، لم يقف العلماء السويسريون مكتوفي الأيدي. فهم كانوا على علم ببضعة حوادث صناعية سابقة تسربت فيها مادة الـ"ت.ك.ف" من مصانع في انكلترا وألمانيا وهولندا والولايات المتحدة، وأدت الى تكوّن الديوكسين من غير قصد. وعلى رغم ان التلوث انحصر في المصانع، الا ان العواقب كانت أليمة. فقد توفي عدد من العمال على نحو بطيء، وظُنّ أن بلايا عدة انتشرت، منها السرطان وأمراض الكبد والكلى الحادة والتسمم العام وتفسخ الجلد. وكانت نتائج تلك الأمراض تظهر ببطء، على امتداد أسابيع وأشهر وحتى سنوات.

غير أن الأدهى من هذه جميعاً هو ثبات الديوكسين. فهو لا ينحل في الماء. واذا حل في مكان فقد يبقى فيه سنوات. والمصنع الذي تسربت منه تلك المادة في.هولندا فُكك حجراً حجراً وكُسي بالاسمنت وأُلقي في قاع البحر. أما في انكلترا فقد نُظف المصنع الملوث بعناية فائقة. ولكن بعد أشهُر ثمانية وُجد الديوكسين في بعض أجزاء المبنى.

من هنا كان أمام العلماء المعنيين بحادث ايكميزا أن يقرروا ما اذا كانت الغيمة تحتوي على الديوكسين وبأي مقدار. ومن سوء التقادير أن يكون تحري الديوكسين معقداً وبطيئاً.

وبيّن تحليل اولى عينات التراب والغبار المرسلة من ايكميزا أن هناك كميات هائلة من الديوكسين في غرفة المفاعل. وأُعطيت أوامر بجمع عينات اخرى من مناطق تبعد أكثر فأكثر عن المصنع لتقرير نطاق انتشار السم. واذا ظهر ان الديوكسين تسرب الى المناطق السكنية والزراعية والتجارية بمقادير كبيرة، فمعنى ذلك ان هناك حلا واحداً ممكناً، وهو اخلاء المنطقة الشامل وعزلها التام عن بقية المناطق.

وتبين من تحليل العينات التي أُرسلت خلال الاسبوع الاول أن نسبة السم لم تهبط. ولدى حلول اليوم العاشر - وكانت الفحوص أكدت نوع السم - اتُّخذ قرار فوري باعلام السلطات الايطالية بوجود مادة الديوكسين، على رغم أن نطاق التلوّث لم يكن حدد بعد.

فتحركت السلطات بسرعة، فأمرت باقامة مركز طوارىء في مدرسة ابتدائية حديثة في سيفيزو، ودعت الهيئات الطبية المحلية والمجاورة الى تزويده بالموظفين والمعدات. وأُنذرت قرى الجوار، وهي سيزانو ماديرنو وميدا وديزيو، بأن التلوث قد يصيبها جزئياً. وأُعلنت حال طوارىء فيها. وفجأة لاحت في الافق احدى أشد المشكلات الاجتماعية والطبية تعقيداً، وهي مشكلة لم يواجه الرسميون والعلماء والأطباء والأهالي مثيلا لها.

ترى أي برنامج طبي يمكن انشاؤه لفحص جميع الناس في سيفيزو والمناطق المحيطة؟

وعند أي نقطة خارج حدود المصنع ينتهي هلاك الحيوانات وتلوث المزروعات والأعشاب؟

وأي المنازل والمكاتب والمصانع تجب تخليتها؟

وأين يمكن ايواء السكان؟

وماذا عن السيارات والشاحنات التي كانت تثير الغبار وتحمل الديوكسين معها؟

وكم من الديوكسين انتقل الى أجسام البالغين الذين يعيشون في المنطقة عبر الخضر والحيوانات التي أكلوها؟

وماذا عن الأطفال الذين - اضافة الى تناول الطعام الملوّث - لعبوا فوق العشب؟

ربما بلغ عدد الذين أُصيبوا الآلاف. وهم لم يكونوا مضطربين فحسب، بل كانوا يقاسون أسوأ الظروف والضغوط. ولم يشأ الرسميون ان يتكلموا حول الأمر قبل اخلاء المنطقة تجنّباً للذعر الذي يخلفه ذلك. وحملت الأمطار معها وعداً كاذباً بأنها ستذيب الديوكسين وتنظف الأرض من آثاره. ولكن سرعان ما تبين ان ذلك مستحيل، وأن الديوكسين باق.

القطاع "أ"

اتُّخذت تدابير كثيرة وُضعت كلها موضع التنفيذ في آن. فجُمعت الحيوانات النافقة وحُدّدت مواضعها

لمعرفة مدى انتشار الديوكسين. وأجرى الدكتور كارلو بيناغي، مدير المعهد الاقليمي للطب البيطري في ميلانو، مجموعة من التشريحات لتحديد سبب الوفاة وضخامة التلف الداخلي الذي أصاب تلك الحيوانات.

وما ان شرّح الدكتور بيناغي الحيوان الأول، وهو أرنب، حتى أجفل ولم يصدق ما رأى. فقد كانت الأنسجة تحت الجلدية منتفخة على نحو غير طبيعي. وكانت القصبة الهوائية تعرضت لنزف كبير وأصيب الكبد والكليتان بأذى جسيم. وقال بيناغي لزميل له: "لم اشاهد في حياتي المهنية تلفاً داخلياً بهذا الحجم".

وعلى جبهة اخرى، راح الدكتور جيوفاني غالي والدكتور فلامينيو كاتابيني من معهد ميلانو للعلوم الصيدلية يحللان عينات من النبات والتراب في محاولة لمعرفة القطاعات الملوّثة. ووضع المختبر الصيدلي نفسه في حال طوارىء، مجنداً نحو مئة فني لاجراء ٤٠٠ اختبار في الاسبوع. والديوكسين فعال بحيث أن جزءاً من المليون منه ينطوي على سم زعاف. وتبين من تحليل العينات الاولى، وهي الأكثر تلوثاً، أنها أقوى من ذلك بـ ٣٠٠ الى ٤٠٠ مرة.

وفي الوقت نفسه أخذ فيتوريو ريفولتا، وزير الصحة في مقاطعة لومباردي، يقارن نتائج تحليل التراب والنبات مع نتائج تحليل العينات الحيوانية. وعلّقت نتيجة المقارنة على خريطة كبيرة في مكتبه، مع ذكر جميع التفاصيل والامور الصغيرة. ووُضعت على الخريطة فوق مقاطعات سيفيزو وميدا وسيزانو ماديرنو اشارات حمراء صغيرة في أماكن وجود الحيوانات النافقة. وظهر ان التلوث ضرب الطريق الممتدة من كومو الى ميلانو على الجانبين، حتى مسافة ١٥٠٠ متر جنوب المصنع. وعُلق تحذير لأصحاب السيارات والسائقين يقول: "منطقة ملوثة. اغلق النوافذ. لا تتوقف. اقطع الطريق على مهل".

ووُضعت الاشارات الحمراء على الخريطة حول المنازل في شارع كارلو بورتا والشوارع المجاورة، وغصت بها الأماكن مثل ملعب البيسبول ومركز التسلية وبركة السباحة والمقبرة ومركز سيفيزو التجاري، كورسو ايسونزو. وهال ريفولتا ان يرى أن معدّل الحيوانات النافقة في هذا القطاع بلغ ٩٠ في المئة.

كما أُلصقت على الخريطة اشارات خضراء تعين وجود حيوانات مصابة وهالكة في منطقتين معزولتين شرق القطاع الرئيسي وغربه، على مسافة ١٥٠٠ متر من معمل ايكميزا، في الجزء الجنوبي من سيفيزو. والمنطقتان تقعان في بلدة سيزانو ماديرنو، حيث راح الطبيب البيطري يحصي الحيوانات النافقة والتي هي على وشك الهلاك. وبين فحص هذه الحيوانات أنها مصابة بأذى وتلف في أنسجتها تحت الجلدية، وفي الكبد والكلية كذلك، وهي الظواهر التي اخافت الدكتور بيناغي. وأخيراً علّقت لافتات صفراء فوق الأماكن الخالية من الاصابات بين الحيوانات.

ولدى التدقيق في الأوراق الملصقة على خريطته، سرّ ريفولتا ان يرى

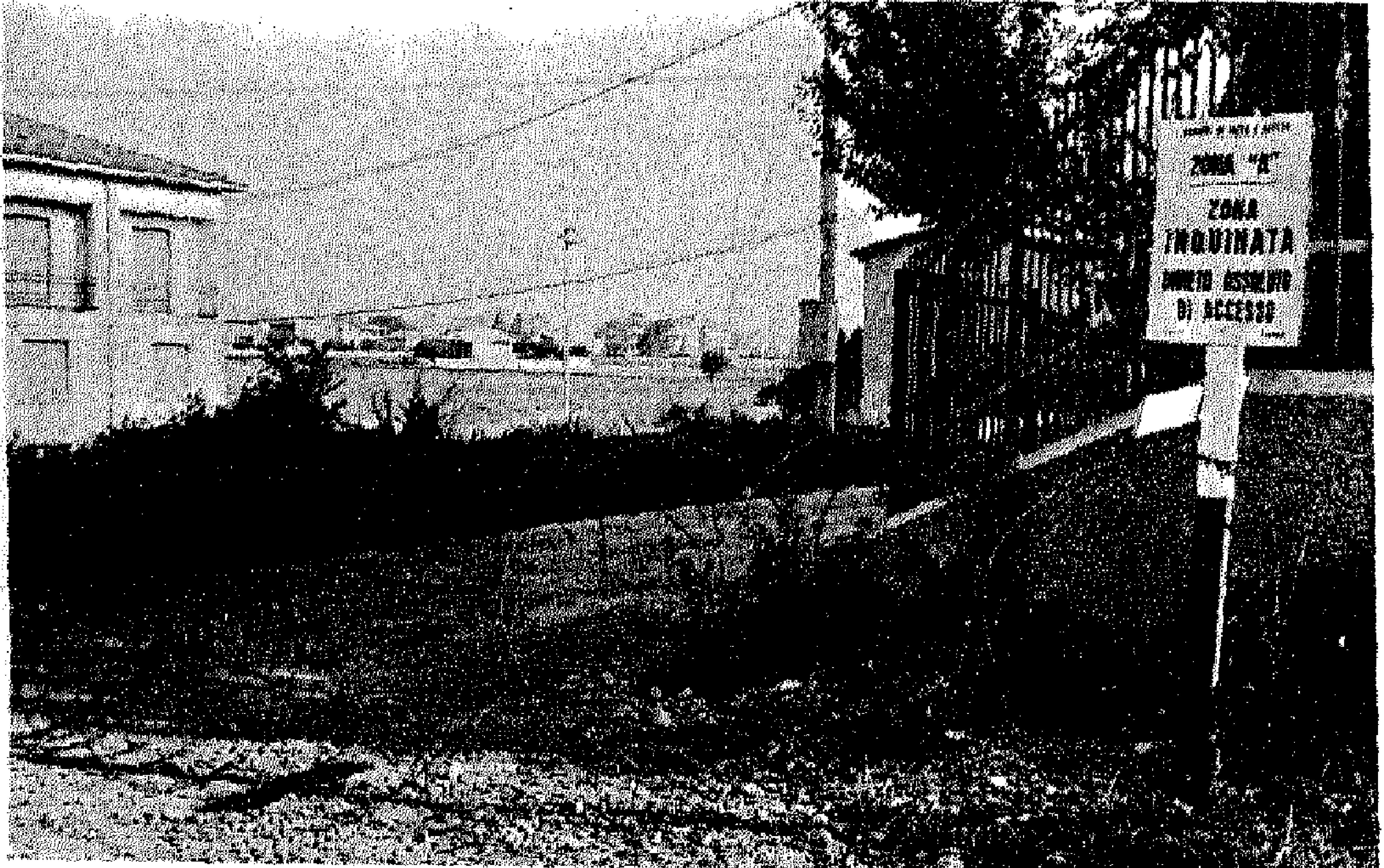
ان الغيمة المشؤومة لم تضرب ذاك الجزء من سيفيزو الذي يسكنه أكبر عدد من الناس. الا ان الجزء المصاب كان كافياً، إذ بلغ طوله كيلومترين وعرضه نصف كيلومتر.

هذه المنطقة التي رُمز اليها باللون الأحمر سُميت "القطاع أ". والمنطقة ذات اللون الأخضر سُميت "القطاع ب". وهناك منطقة يشترك فيها الأصفر والأخضر وقليل من الأحمر لم يقرَّر وضعها نهائياً، وقد سُميت "القطاع ر". وبعد استشارة السلطات المحلية والاقليمية والقومية، أصدر ريفولتا أوامره على مضض باخلاء "القطاع أ" يوم السبت ٢٤ يوليو (تموز). وكان على أكثر من ٢٠٠ شخص أن يغادروا المكان بعد انقضاء اسبوعين على الكارثة، وبينهم آل زورزي وآل كاسيو والعائلات الاخرى في شارع كارلو بورتا.

وجاء أمر الاخلاء مفاجئاً بحيث ان المهيأين له كانوا قلة. وأخذ آل زورزي وآل كاسيو وجيرانهم ينظرون الى رجال الشرطة المحلية والشرطة العسكرية القومية يقتربون بانكسار. وقادوا الناس برفق بالغ الى السيارات والحافلات. ولم يُسْمَح لهم بأخذ قطع أثاث أو أدوات منزلية. واقتصر كل منهم على حقيبة ثياب.

"اذا كان ضرورياً، فالى الأبد"

بُعيد الاخلاء الاول، بدأت فرقة عسكرية تمد شريطاً من الأسلاك الشائكة حول "القطاع أ"، بلغ طوله عشرة كيلومترات. وعُلقت لافتات لابعاد الناس عن المكان. ولم يُسْمَح بدخول القطاع الا للاطباء البيطريين والمتطوعين الذين راحوا يقتلون كل حيوان يصادفونه، وكانوا جميعاً يرتدون ثياباً خاصة ويضعون



خلف الاسلاك الشائكة تقع "مدينة الاشباح" في القطاع "أ".

أقنعة، ورُفعت متاريس تشير الى "القطاع ب"، وأُمر بقتل جميع الحيوانات في هذا القطاع أيضاً وفي "القطاع ر" كذلك.

ولم يكن ذلك بالعمل الجميل. فقد دخل الرجال مدينة أشباح ترافقهم حراسة مسلحة، وراحوا يتعقبون الدجاج داخل حظائره المسيجة ويقبضون على الأرانب في زرائبها ويقتلونها بهدوء ثم يضعونها في أكياس نايلون سوداء لارسالها الى المختبر البيطري في ميلانو حيث سيتم فحصها. وقُضي على قرابة تسعين ألف حيوان وطير بهذه الطريقة وذلك لتجنُّب انتشار التلوث وتحديد المناطق الواجب اخلاؤها. وكان على الرجال تعقُّب البط والخراف والماعز وبقية الحيوانات في تلك المنطقة وذبحها، كما كان عليهم اتلاف البيض والجبن والحليب. وأُمر الصيادون بعدم أكل صيدهم بل ارساله الى السلطات الصحية. وأُتلفت قفران النحل وعسلها على امتداد خمسة كيلومترات من المنطقة الملوثة.

وفي "القطاع ب" حيث كانت العائلات لا تزال في منازلها، نفذ الرجال مهمتهم الشاقة على مضض ولم يلقوا اعتراضاً من الأهالي الذين ران على وجوههم الحزن واليأس. وهناك عدد كبير منهم اشترك في عملية الذبح، وفي ذهنه سؤال صامت: هل سيحين دورنا لاخلاء منازلنا؟

ولم يكن سؤالهم غير ذي بال. فالخريطة في مكتب ريفولتا كانت تُظهر زيادة في عدد الحيوانات النافقة في "القطاع ب"، فضلا عن احتواء النبات والتراب على كميات كبيرة من الديوكسين. وكان ريفولتا يمقت فكرة الاضطرار الى اصدار اوامره الى عدد آخر من الناس باخلاء منازلهم. ولكن تبين له في ٢٩ يوليو (تموز) ان لا بد من توسيع "القطاع أ". وهذه المرة أُمر نحو ٦٠٠ شخص بمغادرة بيوتهم.

ومد أفراد الجيش مزيداً من الأسلاك الشائكة، وكبرت مدينة الأشباح. ولكن لم يتعد الخراب الملموس وجود جثة قط هنا وشلو طائر هناك. وبقيت المنازل داخل الأسلاك الشائكة سالمة من الأذى وستائرها مغلقة كما تركها أصحابها. وبدت البلدة جثة ضخمة ممددة على الأرض. لكن العشب كان لا يزال أخضر وأشجار الفاكهة محملة بالثمار. ووقف مراسلو الصحف، الذين فرغوا أخيراً من تغطية أخبار هزة أرضية هائلة حلت بالجزء الشمالي الشرقي من ايطاليا، مشدوهين أمام تلك الكارثة الجديدة التي لم يسبق لها مثيل. فهي كانت مخيفة وخفية ومن صنع الانسان، وقد حصلت بهدوء ومن غير مقدمات.

ولم يكن من أقل واجبات الوزير ريفولتا معرفة ما يجب فعله لوقف تلوّث الأرض والمنازل. فهذا النوع من الجهود لم يسفر الا عن نتائج ضئيلة في الأحداث السابقة. ففي حادث المصنع الهولندي، أُصيب العمال الذين كانوا ينظفون المنطقة الملوّثة بتفسُّخ في الجلد. وتقول احدى ربات البيوت: "كان ذلك مرعباً، ولم ابصر في حياتي ما يشبهه. وقد ظهرت على وجوه الرجال بقع سوداء كبيرة".

واستشار ريفولتا عدداً من خبراء وقف التلوث، لكن أياً منهم لم يزوّده بحل مباشر. واقترح الخبراء الايطاليون احضار وحدة كيميائية عسكرية مزوّدة بخراطيم تقذف النار على العشب وأوراق الشجر. لكن ذلك من شأنه احداث مشكلات فورية، إذ أن الديوكسين لا تقضي عليه تلك الحرارة، بل يحمله الدخان واللهب الى مسافات بعيدة. ولا يمكن اتلاف الديوكسين الا بتعريضه لحرارة تتجاوز الألف درجة مئوية، وهذا يقتضي جهاز ترميد يبنى خصوصاً لتلك الغاية.

وقد أتفقت الدكتورة آن ووكر، وهي اختصاصية في أمراض الجلد كانت عالجت العمال في أعقاب حادث المصنع الانكليزي، مع علماء آخرين على ان آثار الديوكسين في المدى الطويل قد لا تظهر قبل عشر سنين أو ١٥ سنة. وفي حديث قاس وصريح الى الصحافة، قالت ما يأتي: "أرى أن يخلي جميع الناس منازلهم في الأجزاء المتضررة من سيفيزو، مع عدم السماح لهم بأخذ أي شيء معهم، حتى ثيابهم. ثم يجب اغلاق المنطقة وهجرها الى الأبد اذا اقتضى الأمر. وهذا وحده يكفل عدم توسيع رقعة التلوّث".

وارتأى خبير من وزارة الصحة الأمريكية، بين تدابير اخرى، هدم جميع البنايات وتعرية الأشجار في "القطاع أ"، فضلا عن إقامة حفرة تحرق فيها جميع الأوراق والأماليد والأغصان الملوّثة تحت حرارة تبلغ ١٢٠٠ درجة مئوية.

أما النصائح التي أسداها الخبراء حول الامور التي لا يجوز فعلها فلم تكن أقل أهمية. فالى الأخطار الناجمة عن احراق المواد الملوثة تحت درجة حرارة دنيا، يُخْشى حفر التراب إذ لا مكان يمكن القاؤه فيه.

وقرّ رأي معظم الخبراء على أنه يجدر رش المنطقة بسائل زيت الزيتون الذي قد يخفف قليلا من مقدار الديوكسين حين تضربه أشعة الشمس. وكانت شركة جيفودان تُعد اختصاصيين وتجهيزات لتنفيذ ذلك العمل. غير ان السلطات الايطالية ارتأت ان الصدوع والشقوق في الأرض وسطوح البنايات لن تنال ما يكفي من أشعة الشمس.

وأجمل ريفولتا المسألة بيأس من وراء مكتبه الذي اغرقته الطلبات والتوسلات الداعية الى العمل السريع: "لا احد يملك فكرة واضحة عن طريقة وقف تلوث المنطقة أو الوقت الذي يستغرقه ذلك".

العذاب البشري

إن عدم معرفة الدواء القاضي على سم الديوكسين ولد مشكلة قائمة في ذاتها. فقد كانت الاسعافات الأولية للتخفيف من عواقب الاصابة بال "ت.ك.ف" بسيطة نسبياً. أما آثار الديوكسين في المدى البعيد فبقيت مجهولة، مما سبب الخوف والقلق.

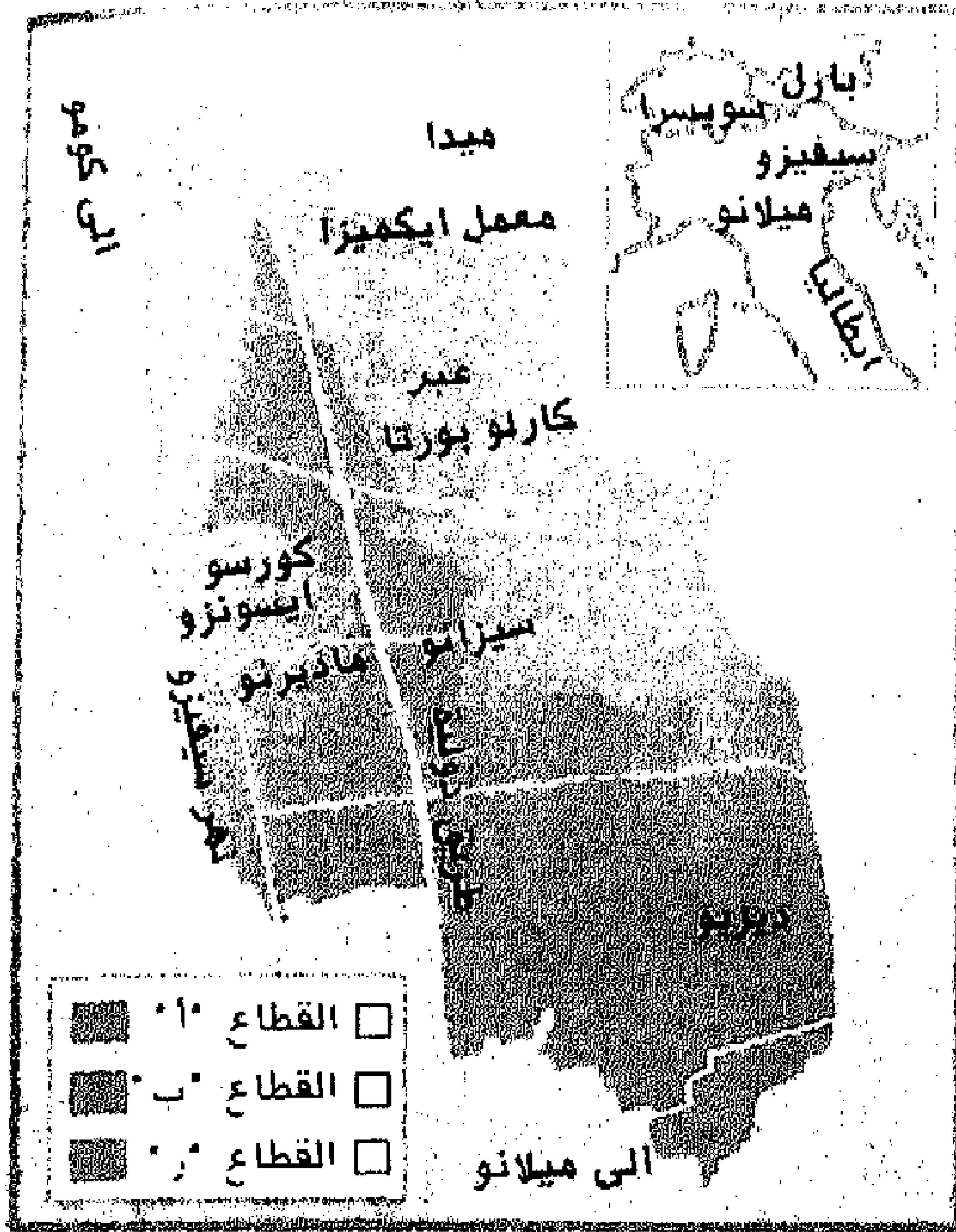
وقد أُصيب نحو ٥٠٠ شخص بشقوق جلدية مؤلمة وخلل في الكبد والكليتين. ولم يكن من السهل معالجة هؤلاء وسواهم من المرضى. وكان العلاج يتطلب اجراء اكثر من ٢٠ اختبارا لكل شخص، فضلا عن اعتماد أكثر وسائل التشخيص تطوراً. وغص مركز الطوارئ المقام في مدرسة

سيفيزو الابتدائية بآلاف السكان الذين قصدوه لاجراء فحوص دم·

وجُمع عدد كبير من الأنابيب من مئات المرضى الذين تسنى سحب عينات من دمهم في الأيام القليلة الاولى· وفي ٢٨ يوليو (تموز)، كان قد أُجري نحو ٣٠ ألف تحليل دم لـ ١٥٧٧ شخصاً· وكان هدف برنامج الطوارىء الرئيسي تتبُّع ٨٠٠٠ شخص تعرّضوا لاصابات قوية· وهناك اكثر من ٢٠٠ ألف شخص آخر حول المنطقة المصابة سيقدّم اليهم أفراد الفريق الطبي علاجاً أخفّ·

وكانت هناك تدابير وقائية ملازمة للبرنامج الطبي· فكان سكان "القطاع ب" الذين سيطلب منهم اخلاء منازلهم اذا كشفت الفحوص عن اصابات خطيرة، يذكرون دائماً بعدم لمس الأرض أو الشجر وبعدم أكل مزروعاتهم ودواجنهم وبارسال أولادهم خارج القطاع ليلعبوا في أماكن خُصصت لهم·

ومن أخطر الامور على الاطلاق ما واجهته النساء الحبالى من امكان وضعهن أطفالا مشوّهين، علماً أن الاجهاض في ايطاليا جريمة يعاقب عليها القانون· ولكن بُعيد حادث مصنع ايكميزا، اتخذ وزير الصحة الايطالي الجديد، وهو من الحزب الديموقراطي المسيحي، تدابير لتسهيل عمليات الاجهاض في المنطقة المصابة· إلا أن الكنيسة الكاثوليكية بقيت متصلبة في موقفها التاريخي المعروف من الاجهاض، وان يكن احد المسؤولين صرّح بأن الكنيسة لن تصدر أحكاماً ضد النساء اللواتي يقررن الاجهاض·



وقصدت أكثر من مئة امرأة حبلى المراكز الطبية في المنطقة طلباً للمشورة· وواجههن الأطباء بالحقيقة كما هي: ما من شك في ان الحيوانات المخبرية أظهرت تشوّهاً جنينياً على أثر حقنها بنسبة ٠،٠٥ في المليون من الديوكسين· أما الأثر بالنسبة الى الجنين البشري فلا يزال مجهولا· وتُرك القرار لصاحبة العلاقة التي وقفت حائرة أمام قوى ثلاث: ضميرها وعقيدة الكنيسة والقوانين الايطالية الغامضة حول هذا الموضوع· ولم يكن يسيراً اتخاذ ذلك القرار، وقد اختارت ٣٣ امرأة حاملا الاجهاض·

من المحتاج؟

حين أخذت معالم الكارثة تتضح تدريجاً، خصصت الحكومة الايطالية اعتماداً قيمته ٤٠،٤ مليار لير ايطالي (نحو ٤٨ مليون دولار) لمواجهة برنامج الطوارىء الصحي والاسكاني

وقد رفع هذا المبلغ، في ما بعد، الى ١١٥ مليارا. وفي الوقت نفسه أعلن ادولف جان من مدينة بازل السويسرية - وهو رئيس مجلس ادارة "هوفمان - لاروش"، أن الشركة ستعوّض جميع الخسائر المادية الناجمة عن الحادث (دفعت لاحقاً ١١ مليوناً و٥٠٠ ألف دولار وفتحت اعتماداً آخر في ميلانو) وتتعاون مع الحكومة الايطالية لوقف أثر الديوكسين. (★★)

إلا أن الشركة اتّهمت بالابطاء في الاعلان عن حقيقة الكارثة واصدار التحذيرات الضرورية. ويرد غي فالدفوغل، رئيس شركة جيفودان، على ذلك بالآتي: "لم يُذكر الديوكسين منذ البداية لأننا لم نتأكد من وجوده قبل ٢٣ يوليو (تموز). وفي اليوم نفسه سلمنا النتيجة للسلطات الايطالية".

ولكن هل كان محتماً صنع صمام الأمان بحيث تتسرب محتويات المفاعل الى الجو لدى فتح الصمام عوضاً عن انصرافها الى برميل نفايات أو وعاء خاص؟

كان جواب فالدفوغل عن هذا السؤال مقتضباً: "لا نستطيع التعليق فعلا على هذا الأمر. وجل ما نعرفه أننا لا نملك حتى الآن تفسيراً صحيحاً لما حصل، وان أمكننا القول ان الحادث نجم عن اجتماع خلل فني وخطأ بشري".

في تلك الأثناء كان الاهالي المهجّرون يقيمون في فنادق مخصصة لهم. ولئن تكن ظروف اقامتهم مريحة، الا ان المقتطع المفاجىء الذي حل بحياتهم شل حركتهم وأربكهم. فهم اشتاقوا الى جميع مقتنياتهم الخاصة وقضت مضجعهم فكرة الأمراض التي يمكن ان تصيب أولادهم.

وارتسم على وجوههم سؤال كبير بلا جواب، وهو: كيف يمكن أي شركة، مهما بلغ حجمها، تعويض خسارتهم؟

صحيح ان الخراب المادي كان كبيراً، ولكن كان متعذراً تقدير الألم والعذاب والدمار النفسي والتهجير وفقد الوظائف والخسائر المادية المباشرة وغير المباشرة.

والى ذلك، كانت هناك مسائل اخرى تسترعي الانتباه. وقد كانت الصحيفة البريطانية المرموقة "العالم الحديث" من الصحف الاولى التي أقامت موازنة بين المنافع والأضرار الناجمة عن مشاريع كيميائية من هذا النوع. وجاء في أحد مقالاتها: "لقد تبخرت أهداف مصنع سيفيزو (والمصانع المماثلة) لدى اعادة النظر في الأخطار الهائلة التي سببها". واقترح المقال ابدال الهيكسا كلوروفين (المطهر الجراحي) و"٢،٤،٥ - ت" (مبيد الحشرات الضارة) بمواد اخرى مأمونة.

وكان لذلك الرأي ما يدعمه. فقد تبين أن مادة الهيكسا كلوروفين، وهي من مخلفات الـ "ت.ك.ف"، أدت الى وفاة ٣٧ طفلا في فرنسا من جراء استعمال مسحوق يحتوي على نسبة ٦ في المئة من تلك المادة عوضاً عن

(★★) في خريف ١٩٧٢ خصصت مجموعة لاروش - جيفودان مبلغ عشرة مليارات ليرة وزعت على المتضررين، أفراداً ومؤسسات، حصلت السلطات الايطالية على جزء منها. وقد فتح في ميلانو مكتب خاص لتوزيع هذه المساعدات.

نسبة الـ ١٠٪ أو الـ ٢٠٪ في المئة المألوفة. كما وُجد أن كثيراً من المواد التي تزيل رائحة العرق تخلف رواسب خطرة في مجرى الدم اذا انطوت على واحد في المئة فقط من الهيكسا كلوروفين.

واستمر الانتظار المقلق بالنسبة الى الأهالي المهجَّرين. ومع حلول شهر سبتمبر (أيلول)، أي بعد شهرين من الحادث، ازداد التذمر من الآلام الداخلية، ولاحظ بعضهم امتزاج الدم ببوله. وبقيت القروح الجلدية الكبيرة من غير شفاء. غير أن تآكل الجلد، وهو العلامة الأكيدة على التسمم بالديوكسين، لم يكن ظهر بعد. ومعلوم أن أعراضه لا تظهر قبل أربعة أشهر من الاصابة به.

وبرز السؤال الآتي: مَن الأكثر تعاسة - عائلات "القطاع أ" المحصورون ضمن فنادقهم أم عائلات "القطاع ب" الذين تحوّلت منازلهم الى شبه سجون؟ فقد كان عليهم تنظيف أحذيتهم قبل دخول المنزل. ولكن ماذا عن أجسامهم؟ وكيف يمكنهم التخلص من الخرق والمناديل الورقية التي يستعملونها للتنظيف؟

وواظبوا على إرسال حيواناتهم النافقة الى قاعة المدرسة المحلية في أكياس ورق. وكانوا يحملونها كما يحملون أكياس التبضّع، ويرمونها على الطاولة بتجهّم، ثم يغادرون الباب صامتين. وكان الأطباء البيطريون يرقمون الجثث ويحصونها بعناية، ثم يرمونها بقسوة في ثلاجتين استعداداً لنقلها الى مختبر ميلانو. وران على المكان جو من الهدوء اليائس.

واتسعت رقعة "القطاع ب" من ٥٠ هكتاراً الى مئة هكتار، ولكن لم تُطلَب تخلية منازل اضافية. وبعد تمحيص الأمر، ارتأى الوزير ريفولتا أن الضغط النفسي الذي ينشأ عن التهجير يفوق الأخطار المادية الملازمة للبقاء.

مستقبل مجهول

كان ذلك اليوم في مطلع الخريف، والأولاد في فندق ليوناردو دا فينشي القريب من سيفيزو يلهون بين الكنبات والكراسي، غير عابئين بالآثار السوداء والحمراء التي خلفتها القروح على وجوههم، فيما كان الأهالي الأكبر سناً يجيبون عن أسئلة الصحافيين الذين تحلقوا بأعداد كبيرة حولهم.

واغتاظ آل كاسيو وآل زورزي حين تذكروا الأيام الخوالي التي صرفوها بسعادة في شارع كارلو بورتا بالمقارنة مع خمولهم القسري في ذلك الفندق. وقالت السيدة كاسيو: "اننا نحاول تجاهل الأمر كله. لقد أخبرنا الأطباء أن الديوكسين تراكم داخل أجسادنا وأن وضعنا خطر. اننا نريد منازل. لقد قمنا بأعمالنا ولم نزعج أحداً. واذا شئنا بيْع منازلنا اليوم فلن يشتريها أحد. لقد تحول "القطاع أ" صحراء مقصورة على الفئران".

وقال جينو زورزي: "علينا الضحك على أنفسنا، فحاولوا أن تضحكوا معنا. اننا لا نبغي تضخيم الامور، لكننا نريد الاستمرار في حياتنا".

وتملّك الاهالي شوق جامح الى رؤية بيوتهم الخاصة. ورضخت السلطات لذلك الالحاح، سامحة لعدد

من العائلات باحضار بعض الأغراض التي تركوها في حجرات صغيرة وخزائن مقفلة ظنّ أن الديوكسين لم يصل اليها.

وكان آل كاسيو من الذين دخلوا "القطاع أ" عبر الأسلاك الشائكة. وأمرهم الحراس بلبس بزات بيضاء كالتي يلبسها رواد الفضاء، وبوضع أقنعة وقفازات وأحذية خاصة. واقتيدوا الى منازلهم برفقة مسلّحة. وما ان وطئوا عتبة الدار حتى انفجرت السيدة كاسيو بالبكاء. وطلبت من زوجها أن يسرع إذ هي لم تتحمل البقاء طويلا. وذهب الى خزانة أنزل منها حقائب ثقيلة تحوي الثياب الشتوية. وهز الجنود رؤوسهم بالموافقة. وانطلقت السيدة كاسيو لاحضار كتب كارلو المدرسية التي ووفق على اخراجها لأنها كانت ضمن خزانة مقفلة.

وألقيا نظرة على خشب الأرضية المزركش الذي بقي نظيفاً كما تُرك، وعلى أثاث غرفة الجلوس والمطبخ الخالي من العيوب والحمام المكسو بالبلاط. وكان كل شيء على حاله. وانفجرت السيدة كاسيو مرة اخرى بالبكاء. وللتو غادرا المنزل. ومرا على دائرة الحراسة حيث أُدخلا خياماً خاصة لنزع البزات البيضاء واحراقها. ونظف رجال الشرطة الأغراض التي حملاها كما نظفوا سيارتهما.

وعلى رغم هذه التسهيلات التي منحتها السلطات الايطالية، إلا أنّ الضغط في الفنادق التي احتلها المهجّرون بلغ حدّاً لا يُطاق. فقد تحلق أفراد عائلات "القطاع أ" في المطاعم بوجوه كالحة وأصوات ملجومة. وكانت أحاديثهم تدور حول موضوع واحد: لقد بدا لهم أنّ عملية وقف التلوّث أخفقت ولم تسفر عن نتائج ايجابية. وخشوا أن يكون الديوكسين تغلغل في كل شق ومكان نافذ وورقة ولحاء شجرة وثمرة وعشبة وحبة تبن وتراب. وتساءلوا اذا كان ممكناً تفتت السم كلياً. وبات وقف التلوث الآن مقتصراً على منع السم من تجاوز حدود صحراء "القطاع أ" الشقية.

ولكن لم يعلم أحد بدّقة المواقع التي يمكن أن يكون الديوكسين بلغها او استقر فيها. لقد ابتهجت الطيور التي تغتذي على الجيف بأكل الجيف المصابة بالسمّ فطارت بعيداً. فهي لا تحترم الحدود المصطنعة. وأثارت الشاحنات والآليات العسكرية الغبار بعجلاتها. وحملت الريح الآتية من جبال الألب التراب والذرات الصغيرة الى أمكنة غير معروفة، ربما كانت على بعد عشرات آلاف الأمتار. وانتقلت الطيور والحيوانات البرية والفئران من المناطق المصابة الى أجزاء لا يعرفها أحد.

ولم يكن ممكناً إنجاز جهاز الترميد الذي يعمل بحرارة ۱۲۰۰ درجة مئوية ويكلف الملايين قبل سنتين. ووُضعت الجثث في أكياس نايلون، بعضها فوق بعض، خلف جدار المقبرة، من غير أن تكون هناك طريقة للتخلّص منها. وكان على المسؤولين رشّ أوراق الخريف الساقطة بصمغ كيميائي يغطي السم ورميها بحذر. وما لبث أن تبين ان المطر الغزير ساعد الديوكسين على اختراق التراب

حين ظهرت مقادير منه في الترسبّات النهرية.

وبعد انقضاء ثلاثة اشهُر على الحادث، أخذت أعراض التآكل الجلدي طريقها الى الظهور، فنتأت أكياس صغيرة بلون القش" الى جانب بثور وحبوب ودوائر كبيرة ذات رؤوس سوداء، اضافة الى الاعراض الاولى التي كانت مادة "ت.ك.ف" سبباً لها. وارتفعت الاصابات الى ١٨٧ في آخر ١٩٧٧، وكان بين المصابين السيدة زورزي وآل كاسيو.

وجُرّبت دهون ومراهم كثيرة. واستعمل مرهم الكورتيزون في بعض الحالات، وغُطيت وجوه المصابين بأقنعة لم يظهر منها سوى الفم والعينين. وأجري زرع جلد لبعضهم.

ومع حلول العاشر من اكتوبر (تشرين الاول)، لم يعد أهالي سيفيزو المهجرون يطيقون لجم مشاعرهم، فعبروا عنها بصراحة، طارحين المنطق جانباً. وصادروا حافلتين مع سائقيهما اللذين انطلقا بالمحتجين عبر الطريق الرئيسية في اتجاه بلدتهم. وانطلقت وراء الحافلتين قافلة من السيارات حملت نحو ٥٠٠ مواطن يائس.

وفي الثامنة والنصف صباحاً بلغت الحافلتان المصادرتان المفرق المؤدي الى سيفيزو. وهناك صدهما خفيران مسلحان. وتوقفت الحافلة الاولى ونزل منها الأولادالذين كانت تحمل عدداً كبيراً منهم. وتوجهوا نحو الخفيرين يتقدمهم بعض الرجال. ولم تصدر عن الخفيرين اي مقاومة، بل تراجعا. وازاح المتظاهرون المتاريس بلطف ووضعوها على جانب الطريق. وبعد قليل تجمعت السيارات على طريق ميلانو - كومو على امتداد كيلومترات.

واخترقت الحافلتان وقافلة السيارات التي تتبعهما "القطاع أ"، متوجهة الى دار البلدية. وخرج المحافظ روكا لملاقاتهم، آمراً رجال الشرطة بالتراجُع وهو يقول لهم: "لا أريد استعمال العنف ضد" مواطني الذين لاقوا من العذاب ما يكفي".

وفي وقت لاحق وصل المسؤولون الاقليميون من ميلانو. ورجا وزير الصحة ريفولتا الناس ان يعودوا الى فنادقهم. وحذرهم مسؤول آخر من الاخطار التي ينطوي عليها دخول "القطاع أ". وحصلت بعض الصدامات وطرح السكان عدداً من المطالب. ووعد المسؤولون بتحقيق بعض الامور التي يستحيل تحقيقها حتى وان تكن لديهم الرغبة في ذلك.

وبدأ بعض المتظاهرين يتحركون داخل "القطاع أ". وفجأة توقفت السيارات وانطلق ركابها كالسيل العارم فوق الطبقةالعليا من الارض التي تحمل الديوكسين في اتجاه منازلهم، من غير ان يضع أحد منهم الثياب الواقية. ولم يكن ذلك جزءاً من خطة مدروسة، بل كان تعبيراً عن الخيبة والكآبة العميقتين.

واعتصم عدد منهم داخل المنازل. ووقف زوجان خارج منزلهما ينظران اليه بصمت. وذهبا نحو مرآب السيارة، ووجدا في طريقهما مفك براغيّ وآلة لجز العشب. وشاهدا داخل المرآب كيس بطاطا موضوعاً على رف" والبراعم قد افرخت منه. ولم يتغير شيء منذ تركهما المكان.

وحمل بعضهم معه سلالا خاصة بالنزهات وأكلوا بمرح يقارب الجنون على طاولات منازلهم. وأخذ الجيران يزورون بعضهم بعضاً كسابق عهدهم، كأن شيئاً لم يحدث خلال الايام الـ٩٣١ الماضية. لكنّ فرحهم أخذ يخبو تدريجاً وهم يعودون الى فنادقهم على غير نظام- جماعة يهيمن عليها الخوف واليأس وينتظرها مصير مجهول.

الربيع الصامت

في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧، وُلد ستة أطفال لأمهات من المنطقة المنكوبة. وظهر أول الأمر انهم لا يعانون أي مشكلة، الى أن حمل احدهم على جناح السرعة الى مستشفى في بلدة بافيا. واظهرت الجراحة أن الوليد مصاب بخلل بالغ في جهازه المعوي. ترى هل يكون الديوكسين السبب؟ لم يكن لدى أي طبيب جواب شاف عن ذلك السؤال. وجدير بالذكر أنّ العلماء اجروا آلاف التحليلات طوال اربع سنوات قبل اكتشاف العلاقة بين مادة الثاليدوميد والتشوه لدى الولادة. لذلك كان على امهات سيفيزو الانتظار قبل الحصول على نتائج مثبتة احصائياً.

وفي شهر فبراير (شباط)، توفيت جينوفيفا سينو، وهي في السادسة والخمسين، من جراء سرطان في الكبد وكانت تعيش وعائلتها في "القطاع أ" قرب آل زورزي وآل كاسيو. وكان لديها حفيدان تعرضا لأسوأ اصابة جلدية، وملأتهما البثور حتى غطّي وجهاهما ورأساهما بخوذة ضخمة من البلاستيك الأبيض... ترى هل كشف تشريح جثة جينوفيفا وجود الديوكسين فيها؟

وكانت هناك علامات شؤم أخرى. فقد انفجر مرض تآكل الجلد كأن له ثأراً على سكان سيفيزو. وسُجلت ١٣٠ إصابة أكيدة تجاوزت أطفال المناطق المنكوبة الى أطفال من مناطق اخرى.

وأمر باغلاق جميع مدارس سيفيزو ليتم تنظيفها بدقة. ووجدت كميات من الديوكسين في موقعين. وقُدّر أن يكون التلاميذ الذين يعيشون بالقرب من القطاعين "أ" و "ب" حملوا الديوكسين في نعال أحذيتهم.

وفي مطلع مارس (آذار) رَشَحَ خبر سيء آخر. فقد بين تشريح جثة جينوفيفا سينو وجود الديوكسين في كبدها، من غير ان يكون ذلك سبب وفاتها.

وحين أطلّ الربيع على إقليم لومباردي وبدأت براعم التوت والتين تتفتح، ظلت بهجة الربيع بعيدة عن سيفيزو. ووجدت عائلات مهجرة كثيرة شققاً سكنية في سيزانو ماديرنو وسواها من القرى المحيطة، من دون أن يكون للعديد من هؤلاء، وبينهم آل زورزي وآل كاسيو، كبير أمل في العودة الى البيوت التي بنتها ايديهم. وفي "القطاع أ" المهجور، خلف الأسلاك الشائكة، حمل الفنيون المتشحون البياض مكانس كهربائية وراحوا يكشطون طبقة التراب العليا التي تغطي الحدائق وساحات البيوت. واستعملوا آلات اصغر لتطهير المنازل. وأرسل الغبار والتراب وعينات اخرى الى المختبرات لتحليلها. لكن عدم ورود نتائج التحاليل أغاظ المواطنين. كما اغتاظ المسؤولون الذين تأرجحوا بين

رغبتهم في قول الحقيقة والحاجة الى تطويق الذعر ·

وفي منتصف ابريل (نيسان)، اكتشف الديوكسين على حين غرة في ١٥ مصنعاً في "القطاع ب" في بلدة سيزانو ماديرنو· واغلقت المصانع فوراً لمدة عشرة أيام بغية تنظيفها· وفي مايو (أيار) وجدت كميات هائلة من الديوكسين في ميداء شمال المناطق التي اعتبرت ملوثة· وصدرت اوامر فورية بتنقية المنطقة· ولكن ترى هل باءت جميع المحاولات بالفشل·

وفي خريف ١٩٧٧ انجزت السلطات الايطالية تنظيف ثلث "القطاع أ"، متيحة لثلث العائلات المهجرة العودة الى منازلها·

في آخر يوليو (تموز) ١٩٨٠ اي بعد مرور اربع سنوات على الحادث، لا تزال مساحة ٥٠ هتكاراً ملاصقة للمصنع معتبرة منطقة محرمة (منذ يوليو ١٩٧٦)· الا ان اعمال التنظيف لم تتوقف في هذه المنطقة وتأمل السلطات بانهاء هذه المهمة خلال السنوات الثلاث المقبلة· وثمة خطط لاقامة متنزه فوق المنطقة التي ستدفن فيها الفضلات السامة· وقد اعيد اسكان اربعين عائلة مهجرة في منازل شيدت على نفقة شركة جيفودان· وشفي المصابون الـ١٨٧ بالتآكل الجلدي وعاد النشاط الزراعي والصناعي والحياتي الى القطاعين "ب" و"ر" البعيدين عن المصنع· وتم الاتفاق بين مجموعة هوفمان ـ لاروش /جيفودان والسلطات الايطالية على قيمة التعويضات التي ستدفعها المجموعة الى المتضررين والتي قدرت بـ١٠٠ مليار ليرة· وصرح لويجي نو، العضو السابق في مجلس الشيوخ الايطالي والذي اشرف على تنسيق عملية اعادة السكان المهجرين من سيفيزو: "مع تحسن الوضع، هناك خطر بدأ سكان سيفيزو والمسؤولون الايطاليون نسيانه كما لم يعد ثمة داع الى اتخاذ اي احتياطات لازمة لمواجهته· ان همنا الرئيسي يجب ان يركز على تسريع عملية تنظيف المناطق المصابة"·

■ جون فولر



قيل في الزكام

في هذا الوقت من السنة، يمتلىء الهواء بعطس الناس وزكامهم وسعالهم· فان أصابك الزكام الموسمي، فاتخذ من مآسي الآخرين وحكمهم عبرة وعزاء:

إنّ للحاكم المستبد سلطاناً على الارض اكثر من اي شخص آخر· ولكن لا يمكنه ان يوقف عطسة·

مارك توين

الزكام في ذاته ليس مزعجاً لولا نصائح الاصدقاء·


ك·هـ·

بعض الناس لا يعرف الراحة الا اذا اكتشف مصدر زكامه·

ج·ا·س·

اذا داويت زكامك فأنت تشفى في اسبوع· أما اذا تركته وشأنه، فهو يزول في سبعة ايام·

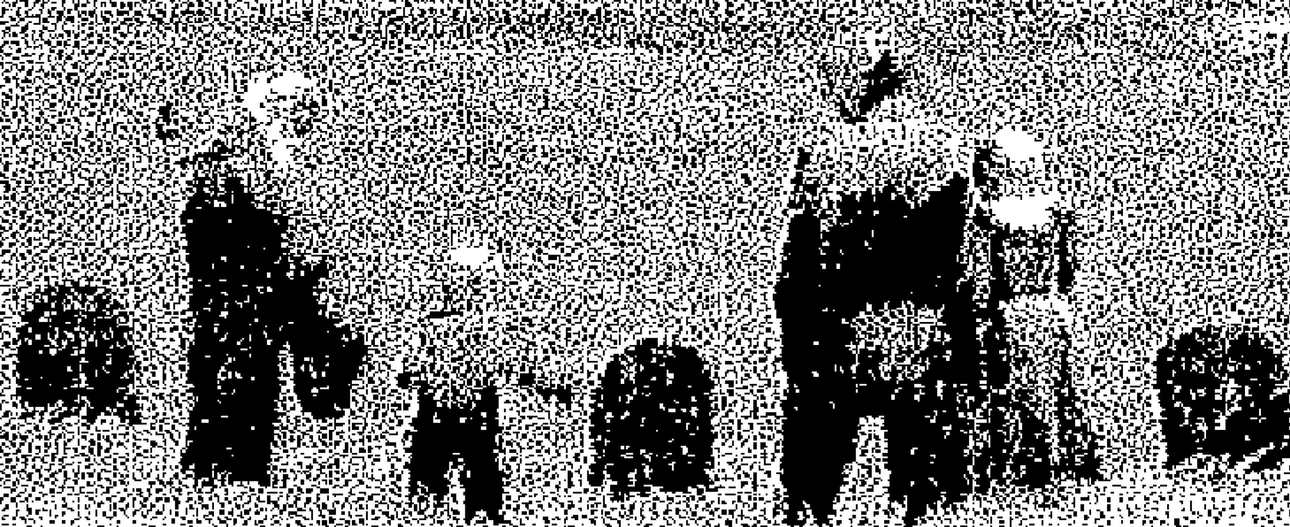
ا·غ·



كتاب الشهر

حماة الميثاق

ملخص من كتاب بقلم جيمس ميتشنر



حماة الميثاق

ان كتب جيمس ميتشنر - هاواي ، العيد المئوي ، ايبيريا ، تشيزابيك ، وكثيراً سواها - تباع بالملايين . وهي حوّلت أفلاماً سينمائية ومسرحيات غنائية وتلفزيونية . والى تأليف الروايات ، مارَس ميتشنر نشاطات في حقول السياحة والرياضة والسياسة والشؤون الدولية .

وخلال السنتين الماضيتين ، كرّس هذا الكاتب الاميركي الغزير الانتاج وقته لدراسة جمهورية جنوب افريقيا . وسكب دراسته في رواية صدرت هذا الخريف بعنوان "الميثاق" . وتصوّر القصة حياة جنوب افريقيا ، من مناجم الذهب القديمة في زيمبابوي الى رأس الرجاء الصالح الذي تعصف به الأعاصير ، كاشفة حياة أجيال من الزنوج والانكليز والهولنديين . لكن موضوع الرواية هو عائلة خيالية باسم فان دورن ، والمزارع التي كانت تملكها على شاطىء فريمير (بحيرة الحرية) خارج بلدة فنلو .

وصل آل فان دورن الى الكيب (رأس الرجاء الصالح) عام ١٦٥٤ ، قائدين رحلة بني قومهم في عربات تجرّها الثيران شرقاً عبر المرج المعشب . وكانوا رواداً أشاوس ، يُلهب حماستهم ايمانهم بأن الله أقام عهداً معهم ، مختاراً إياهم ليأخذوا تلك الأرض ويصدّوا عنها كل عدوان . لكن عقبات ضخمة اعترضت طموحهم أواخر القرن الثامن عشر : فقد اصطدم توسّع الافريقانيين (كما بدأ الهولنديون يسمون أنفسهم) شرقاً بالأمم السوداء القوية . وفي العام ١٧٩٥ احتلت انكلترا الكيب .

وكان ذلك بداية قرن كامل من العنف . فقد قام البيض ضدّ السود في بلاوكرانتز ونهر الدم ، كما قام السود ضد السود عندما أعلن شاكا ، مؤسس أمة الزولو ، حرباً قضت على الألوف . وأخيراً

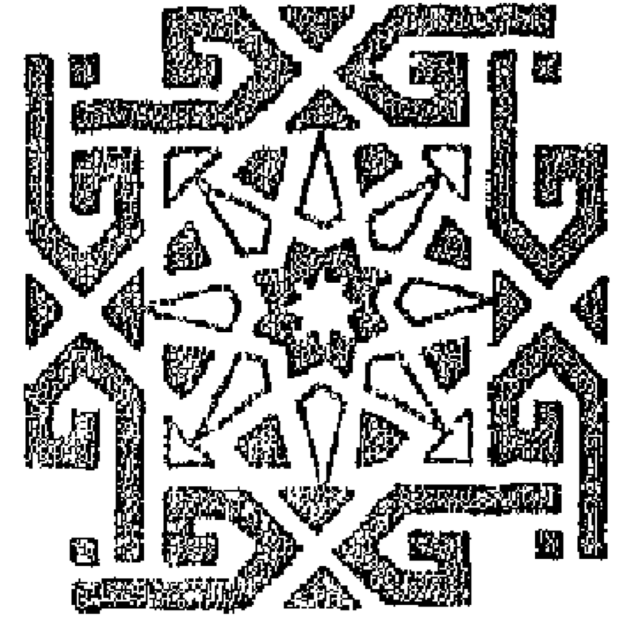
قصة الصراع بين السود والبيض في جنوب افريقيا

قام الافريقانيون ضد الانكليز في حرب البوير (١٨٩٩ ــ ١٩٠٢) .

واحتل البريطانيون ، المتفوّقون عدداً ، مدن الافريقانيين الرئيسية . إلاّ أنّ هؤلاء أبوا الاستسلام ، ونظموا أنفسهم في فرق صغيرة دعوها "المغاوير" ، راحت تغزو المناطق الريفية وتضايق البريطانيين بهجماتها المتكررة . وكانت فرقة مغاوير فنلو في إمرة الجنرال باولوس دو غروت ، وبين فرسانها ياكوبوس فان دورن ، وهو من الجيل الثامن لعائلته في افريقيا .

أما الانكليز فردّوا على الغزو بضرب المزارع التي عاش المغاوير على خيراتها ، مضرمين النار في الحقول والمباني ، وحاملين النساء والأطفال والزنوج الذين خلّفوهم بلا مأوى الى مخيّمات اعتقال لقي فيها ٢٦ ألفاً (من البيض فقط) حتفهم بفعل المرض وسوء التغذية . وفي مخيّم كريسيبيسمير فقد ياكوبوس فان دورن زوجته واثنتين من بناته . وعقد أمله كله على ابنه الصّغير دتليف .

في التلخيص الآتي يعطينا جيمس ميتشنر صورة خيالية لحياة دتليف فان دورن وأثر الحرب في طفولته ، ثم تربيته والايمان الصارم الذي استمدّه من الكنيسة الهولندية المتجدّدة ونتائج هذا كله في شؤون جنوب افريقيا . ويغدو دتليف تجسيداً للجيل الذي أعطى بلاده شكلها في القرن الحالي ، وهو جيل محتشم ومتدين أساساً ، لكنه يحمل في جوارحه جرحاً من الماضي وخوفاً تجاه المستقبل . وفي صياغة المبادىء التي اقاموا عليها حكومتهم ، توّصل أبناء هذا الجيل الى مجموعة قوانين عرقية عُرفت باسم "التمييز العنصري" ، وجاءت صفعة للحرية التي طالما تغنوا بها وخطراً على الأمة التي خلقوها بتضحيات لا تُقدّر .



بدأ عهد الدراسة الفعلية في حياة دتليف فان دورن يوم ارتقى التلة مع شقيقته، آتياً من مخيم الاعتقال في كريسييسمير لرؤية الخراب الذي حل بمنزله. وكان والده ياكوبوس والجنرال العجوز باولوس دو غروت ينتظران في الخرائب. وبعد تحية قصيرة اقتاداه الى منحدر معشب حيث رأى ثلاث شاهدات ضرائح تنتأ من الأرض على مسافات متساوية وتحمل أسماء امه واثنتين من شقيقاته.

وقال له الجنرال: "إياك أن تنسى أنّ النسوة هؤلاء قُتلْن على أيدي الانكليز".

كان دتليف في السابعة من عمره، وحصل ذلك عام ١٩٠٢.

وسألت اخته يوانا: "أين سنمكث؟" ولم يكن لديها من متاع الدنيا سوى الثياب التي تسْترها. وهذا ما كان يملكه دتليف أيضاً.

وأجاب والدها: "لقد سوينا العربة القديمة". وأخذ ولديه الى تلك العربة الأثرية الصغيرة التي حمل والده تجارت فان دورن عائلته فيها عبر دراكنسبرغ الى ليمبوبو، ثم رجوعاً الى فريمير. وكان ياكوبوس فان دورن والجنرال باولوس أقفلا عجلات العربة الكبيرة وصمماها بحيث تستعمل للنوم. ولكن يستحيل عليها أن تستوعب يوانا وأخاها ورجُلين بالغين. وعندما رأى دو غروت نظرات ابنته الحائرة، ضحك وقال: "أنت وأخوك تنامان فوق، داخل العربة، ونحن الاثنين ننام تحتها". وهذا يعني أنّ والدها والجنرال العجوز ينامان على الأرض تحت العربة.

وسأل دتليف: "أبي، ماذا تفعلان اذا هطل المطر؟"

فأجاب دو غروت على الفور: "لن تمطر". وهي لم تمطر فعلا في الاسابيع الأربعة التي استغرقها بناء سقف فوق غرفة واحدة من منزلهم الريفي المتهدم.

وفي الاسبوع التالي أوقفوا العمل حين صرخ دتليف: "هناك اناس يتقدمون!". ونظروا بعيداً عبر المرج فرأوا رتلا من الناس يتقدم نحوهم. وتناول ياكوبوس بندقيته وقال: "انهم الكَفِيريون" (الشعوب الناطقة لغة البانتو في جنوب افريقيا).

انّ مجموعات من السود الذين وجدوا أنفسهم بلا مأوى وغذاء أخذوا يغيرون على مزارع البوير في تلك المقاطعة وسط الفوضى التي أعقبت الحرب، ونهبوا كلّ ما وقعت عليه أيديهم، معاملين بخشونة كلّ مزارع حاول الاحتجاج. لكنّ تلك الجماعة بالذات لم تشكل خطراً. وما لبث دتليف أن صاح: "انه ميكا!".

وعندما شاهد ميكا نكسومالو ثلاثة أفراد من آل فان دورن وواحداً من آل دو غروت، انهمرت الدموع من عينيه. فهو كان يعرف أنّ غياب أفراد العائلتين الآخرين يعني أمراً واحداً. ذلك أنه كان عائداً لتوه من معسكر اعتقال حيث لم يبقَ له سوى اثنتين من زوجاته الأربع وثلاثة من أولاده التسعة.

وما ان علم دو غروت بمحنة نكسومالو حتى تملكته الكآبة. ورفع ذراعيه بمحبة بالغة نحو صديقه

الفارس وضمه الى صدره وقال: "يا أخي الكفيري"، طالما بقي رب في السماء فلن ننسى ما حل" بنا معاً. ابق قريباً منا وسنمتطي جيادنا يوماً".

وهكذا عاد نكسومالو وقومه الى أكواخهم في فريمير. وباشروا عملهم صباح اليوم التالي من غير أن يوجهوا أي سؤال حول شروط استخدامهم. لقد استأنفوا العمل كما في الماضي.

وأخذ الجنرال دو غروت يتردد على مزرعة فان دورن لا سعياً الى طعام أو رفقة، ولكن للاشراف على تعليم الفتى دتليف. ومرة قال له: "يجب ألا" تنسى أن" جد" أبيك، وهو من أفضل الرجال الذين ظهروا على وجه البسيطة، اقتيد يوماً الى محكمة انكليزية حين سُمح لشخص كفيري" بأن يشهد ضده". وكان دو غروت، ليلة بعد ليلة، يعرض أمام دتليف الأخطاء التي ارتكبها الانكليز. ولم ينفك عن تكرار العبارة الآتية: "اياك ان تثق بانكليزي. إن" هؤلاء القوم نهبوا بلدك".

وكان تعليم دتليف شديد الفعالية، معطياً الثمار التي رجاها دو غروت. ومما قاله له: "لقد خضنا، أبوك وأنا، معاركنا معاً، وخسرناها. وأنت ستخوض معارك اخرى، ولكن ستكسبها".

فأجاب دتليف: "أنني اجيد الرماية. ويمكنني أن أصيب انكليزياً". عندئذ ضمه العجوز الى صدره وقال: "لا أحوَجك الله الى هذا. انك ستكسب معاركك بطرق أفضل".

ـ ما هي هذه الطرق؟

ولمس دو غروت جبين الفتى برفق وقال: "حروبك ستكسبها بالعلم. أن" الانكليز يعرفون اموراً نجهلها نحن: الكتب، الرسوم، الأفكار الكبيرة. وما عليك إلا" الذهاب الى مدرسة انكليزية وكشف أسرارهم". وهز" دتليف رأسه، فتابع الرجل العجوز: "ستكون ألمع فتى رآه المعلم. وعليك بتعلّم اللغة الانكليزية بأسرع ما يمكن، لأنها المفتاح الى أسرارهم".

وأخرج دو غروت صحيفة"" من جيبه نشرت تقريراً للمندوب السامي الانكليزي ينطبق، من غير قصد، على طبيعة الحرب التي يواجهها البوير الآن:

"اذا كان عدد الانكليز، بعد عشر سنين، هو ثلاثة في مقابل كل" اثنين من الهولنديين، فسيكون هذا البلد آمناً ومزدهراً. أما اذا عُكست الآية فسنواجه مشكلات لا تنتهي".

وانطلق دو غروت الماكر يشرح بهدوء الخطوة العملية الآتية: "ان الانكليز يبذلون قصارى جهدهم لاستقدام اكبر عدد من بني قومهم واغراقنا في خضم من الكتب الانكليزية والمسرحيات الانكليزية والتربية الانكليزية".

ـ ولكن ألم تطلب مني أن أدرس اللغة الانكليزية؟

"أجل، أُريد أن تتعلم كل" شيء. وحبذا لو أخذت" اللغة الانكليزية بعقلك وحفظت الهولندية في قلبك. لانه اذا جعلك أحد الغزاة يوماً تقبل لغته، فهو يجعلك عبداً له. وهكذا نُهْزَم".

وما ان تفوّه دو غروت بهذه الكلمات المرعبة حتى نهض من مكانه وأخذ يذرع الغرفة الصغيرة ويقول: "لقد هُزمنا، أبوك وأنا". وبصوت

الأسد الجريح تابع: "لكنّ الحرب الآتية سننتصر فيها. أنها حرب الأفكار. وسنشهد، أنت وأنا، اليوم الذي ستغدو الهولندية اللغة الوحيدة في هذه البلاد. ولن يُسْمَع صدى للانكليزية حين يجتمع ذوو السلطان". واشرأبّ فوق دتليف قائلا: "وإنك ستكون مسؤولاً عن ذلك".

طبقات الهلام

غالباً ما نقع في سيَر العظام، من رجال ونساء، على جملة كالآتية: "كما ينبثق النور، سقطت عليها الفكرة التي نفخت فيها روح الحياة". أما في حال دتليف فان دورن فقد استحال هذا المجاز حقيقة.

وهو أصبح كذلك بفضل علبة من مسحوق الهلام (الجيلاتين) من اوروبا. وعلمت يوانا بوصول الهلام الى محلّ في بلدة فنلو المجاورة، فابتاعت قليلا منه وصنعت للرجال حلوى لها مذاق البرتقال والليمون الحامض. وذات يوم خطر للفتاة ان تضع قليلا من الهلام في كلّ كوب وتدعه يجمد، ثم تصبّ فوقه هلاماً من لون آخر فآخر حتى تحصل على خليط يرضي الذوق والنظر معاً. ونجحت محاولتها نجاحاً باهراً، اذ وضعت في أسفل الكوب طبقة من مسحوق العنب الأسود، وفوقها طبقة تفاح بنية تلتها طبقة حمراء فطبقة برتقالية وطبقة أخيرة صفراء. وجاءت أكواب الهلام عملاً فنياً بديعاً.

وحين دخل دتليف المطبخ، رأى الأكواب موضوعة على حافة النافذة. وكان هناك كوب منفرد ضربته الشمس، فتألقت ألوانه وبدا كلّ منها كأجمل ما يكون.

ونادى الجنرال ووالده وقال لهما: "انظرا كيف يحافظ كل لون على كيانه من غير أن يلوث اللون الآخر. انه يومض كلؤلؤة". وأشار بإصبعه موضحاً طبيعة الجنس البشري كما قضى بها الله: "في الطبقة الدنيا يأتي السود، يليهم السمر ثمّ الهنود..." لقد ترجم الألوان الى أعراق بشرية: "وفوق ذلك اللون البرتقالي الذي يمثل الانكليز. وفوقها جميعاً الانسان الافريقاني، وهو الاصفى و...".

وقال دو غروت: "هكذا يجب أن تكون الامور".

انّ المعلم الأوّل الذي تتلمذ عليه دتليف في فنلو كان انكليزياً. لكنّ معلماً آخر برز الآن، وهو شاب ذو طابع مختلف تماماً. انه بيت كراوس الذي صرح، في اليوم الأوّل لتسلمه وظيفته، بأنّ عهد التربية الانكليزية انتهى عهده.

وامتطى كراوس صهوة جواده وخرج من فنلو للقاء ابناء شعب فريمير الذين خاطبهم قائلا: "ينبغي أن نقضي على جميع المناطق التي نحن فيها خاضعون. ولن نبقي من اللغة الانكليزية ألاّ على ما يقضي به القانون". وكان يتكلم بقوة جعلت يوانا فان دورن تصغي اليه بجذل، لأنّ كلامه كان عين ما اعتقدته.

ودعت المعلم الجديد ثلاث مرات الى فريمير للحديث معه طويلا. وبعد عودته في إحدى الليالي الى فنلو، قال دتليف مازحاً: "أظنّ أنّ كراوس خسر المعركة". ولم تكترث يوانا لمزاح أخيها الذي سحرته شخصية كراوس خلال زيارته اللاحقة.

وصاح كراوس بحماسة متزايدة: "ما نحتاج اليه في هذا البلد هو نظام ثابت يكون فيه الهنود والملوّنون

والسود كل في مكانه، يطيعون القوانين التي نشترعها نحن. وسيكون الانكليز أنفسهم خاضعين للقانون، ويكون الافريقانيون صانعي القرار".

ولم يتعجب دتليف حين دخل كراوس بعد خمسة أسابيع المطبخ وخاطب الرجال بحدة: "أني ويوانا قررنا الزواج. هناك عمل علينا تحقيقه، وأنا أطلب موافقتكم على اقتراحي". ووافق الجنرال ووالد يوانا، كما وافق أخوها بحماسة فائقة.

وغدت فنلو نموذجاً مصغراً للمجتمع الافريقاني. ووجدت في الجنرال دو غروت بطلا من حروبها الماضية، وفي كراوس معلماً متحمساً أراد إعادة تكوين العالم، وفي دتليف فان دورن مثال الفتى الذي يجسد آمال المستقبل. وبدا، من وقت الى آخر، أنّ جميع قوى ذلك المجتمع تضافرت لتجعل هذا الغلام أشدّ ذكاء والتزاماً لقضايا بلاده.

وكان بيت كراوس صاحب النفوذ الاقوى في قلب دتليف الذي رأى المجتمع من خلال عيني ذلك الشاب المتقدتين. ورأى كراوس أنّ واجبه الرئيسي هو الحفاظ على المزرعة وبلدة فنلو. وحمل الجميع على متابعة الامور بأشدّ انتباه، وكان على استعداد دائم لتفسير ما يحدث. وفي اليوم التاريخي من العام ١٩١٠، الذي شهد اتحاد المستعمرات الأربع: كيب وناتال الانكليزيتين وفري ستيت وترانسفال الافريقانيتين، تحت قيادة حاكم عامّ ورئيس وزراء ومجلس نيابي، أعلن كراوس بابتهاج: "ها نحن وقفنا على طريقنا. فافرحوا أيها الفِتية، لأنّ أحدكم قد يصبح رئيس وزراء لبلد نال حريته التامة".

وذات صباح فاجأ كراوس تلاميذه حين أعلن لهم: "على كل منكم أن يأتي بوالديه وعربته، وسنذهب الى ووترفال - بوفن لنرى مشهداً رائعاً". ولم يفصح عن ذلك المشهد. الاّ أنه جمع التلاميذ والأهالي كلهم عند الثالثة عصر ذلك اليوم في محطة السكة الحديد في بلدة ووترفال - بوفن. ولدى ظهور القطار الآتي من بريتوريا، حمل وزوجته الأولاد على التصفيق والهتاف بحرارة.

وتوقفت ١٥ عربة غير مسقوفة، مخصصة لشحن الماشية، للرد على التحية. وأخذ التلامذة يحدّقون مندهشين الى وجوه مئات الصينيين الصفر، وهم البقية الباقية من العمال الذين استقدموا من الصين عام ١٩٠٤.

وكان المسؤولون الحكوميون والانكليز الذين أداروا مناجم الذهب ظنوا أنه من الممكن حمل ٥٠ ألف عامل مندفع، كلهم دون الثلاثين، على العمل في أعماق المناجم، من غير ترفيه أو اختلاط بالنساء، لمدة تراوح بين عشر سنين وعشرين سنة. وما لبث اولئك العمال الأحداث أن بدأوا يقامرون، مما روع الكنيسة الهولندية. وعندما أخذوا يقيمون علاقات مع نساء من صفوف السود والملونين والطبقات الوضيعة، صاح الوعاظ من أعلى منابرهم قائلين ان الله سوف يصبّ جام غضبه على الارض.

ثم طلب من جميع الصينيين مغادرة البلاد. وظنّ أنّ افريقيا الجنوبية ستنفض عنها تلك الشائبة حين يغادرها ذلك القطار الى موزامبيق.

وأوضح كراوس الأمر بالآتي: "لكلّ امرىء على الأرض مكانه الذي ينتمي إليه وفيه يجب أن يبقى. لقد أعدنا الصينيين الى الصين، وعلينا إعادة الهنود الى الهند، والانكليز يجب أن يعودوا الى انكلترا، فهذه الارض ملك للافريقانيين".

- وماذا عن الكفيريين؟

"انهم جزء من افريقيا كما نحن جزء منها، غير أنهم أطفال، وواجبنا حمايتهم وحثهم على إطاعة قوانيننا. إنّ الكفيريين سيبقون معنا دائماً، وعلينا معاملتهم باحترام وحزم في آن".

وكان دتليف كلما سمع وعظاً من هذا القبيل، عادت به الذاكرة الى كوب الهلام بطبقاته الملونة، حيث وُضع كلّ لون في مكانه الملائم.

الوقفة الأخيرة

ذات مساء من اغسطس (آب) ١٩١٤، بعد تناول طعام العشاء، أزاح ياكوبوس فان دورن صحنه ونظر الى ابنه، وقال له بلهجة جافة: "لقد حان وقت اتخاذ القرار. دعنا نذهب لرؤية دو غروت".

وسارا الى المزرعة المجاورة حيث وجدا الجنرال العجوز في سريره. وهو كان رجلا متعباً في الحادية والثمانين، تأطّر وجهه الضامر لحية بيضاء طويلة. وكان أحدهم حمل إليه أخباراً مثيرة. وعندما رأى الجنرال العجوز الفتى دتليف يتبع أباه داخل الكوخ، أحس بالحياة تسري في أوصاله من جديد، وقال: "أذاً أنت ذاهب الى الحرب. أني فخور بك حقاً".

وسأل دتليف: "ماذا يقول؟"

- يقول انّ الحرب أُعلنت في اوروبا، وانّ المانيا، والحمد لله، تحارب انكترا. ولا شكّ في أننا سنهبّ لنصرة المانيا أنا وأنت يا دتليف.

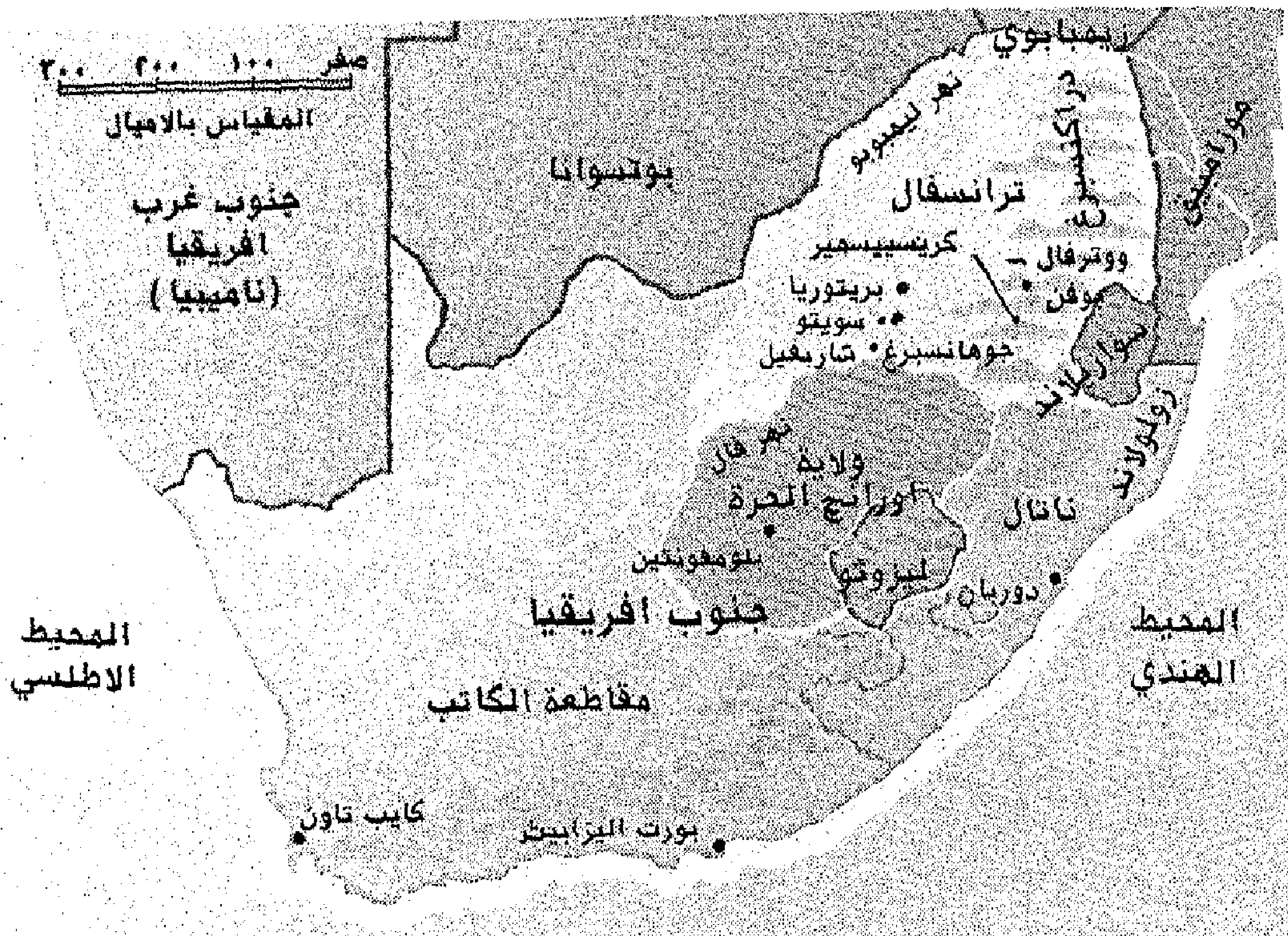
وقال الجنرال محذراً: "الرجل الذي يجدر بنا أن نهابه هو ذاك المدعو جان كريستيان سماتس. انه يريد أن يحملنا على خوض الحرب الى جانب الانكليز. فهو يحبّ كلّ ما هو انكليزي: البزات الرسمية، والملك، والناس الذين ينحنون إجلالا له. ويجب أن نبقي أعيننا مفتوحة تجاهه".

وقضوا شطراً كبيراً من الليل يبحثون في الخطط الواجب اتخاذها لضمان وقوف جنوب افريقيا الى جانب المانيا وتصور ما ينبغي فعله بعد أن يحرّرهم النصر الالماني من العبودية.

وكان دتليف قلقاً حيال تلك المسألة، ففي اعتقاده أنّ جان كريستيان سماتس، أحد قادة حرب البوير الذي يحتلّ الآن منصباً رفيعاً في الحكومة، رجل ذكيّ يمكنه تنفيذ الأوامر الملكية بجدارة. ولكن اذا لم يعلن الافريقانيون ثورتهم اليوم، فقد لا يكون في إمكانهم كسب حريتهم على الاطلاق.

وكان الزوار يترددون على الجنرال دو غروت في الامسيات. وهناك تعرف دتليف على زعماء قومه: الجنرال كريستيان دو ويت، الجنرال كوس دولا ري، الجنرال كريستيان بايرز، الزعيم الصارم ماني ماريتز. لكن القائد الذي أحدث أقوى أثر في نفسه كان كريستوفل ستين لما أظهره من بأس لا يلين وأحكام رزينة.

وحمل الاسبوعان الأولان من سبتمبر (أيلول) ١٩١٤ أحداثاً محمومة



باهرة. فقد أرسل باولوس دو غروت سعاة الى المغاوير، طالباً منهم أن يهبوا الى الحرب ساعة يعلن الجنرالات الوقوف الى جانب المانيا. ووضع بيت كراوس كتبه جانباً وانتظر بصبر نافذ بدء القتال. وصعد دتليف، وهو في التاسعة عشرة، الى تلال فريمير، وأخذ يتدرب على استعمال المدفع الرشاش.

وفي ١٢ سبتمبر (ايلول) استهل دو غروت سلسلة اجتماعات بحضور ممثل للقوات الالمانية المسلحة في جنوب غرب افريقيا، أكد فيها للزعماء المحليين أن "كل" شيء تم" إعداده. وباتت الانتفاضة وشيكة. وعهد الى ماني ماريتز في قيادة مغاويره عبر حدود جنوب غرب افريقيا الى المنطقة الالمانية. وطلب من الجنرال بايرز الاستقالة من منصبه الحكومي بعد اصدار ادانة شديدة اللهجة ضد" سماتس. أما الجنرال دو غروت فكان عليه جمع الرجال شمال شرق مقاطعة ترانسفال. وقرر الاستيلاء على بريتوريا والسلطات الحكومية فيها، وبسط سيطرة الالمان من المحيط الاطلسي غرباً الى المحيط الهندي في طنجنيقا (تانزانيا).

وفي ليل ١٤ سبتمبر (ايلول)، اعتلى دتليف صهوة جواده واتجه شرقاً الى فنلو حيث كان صهره جمع ٢٢ رجلا من المغاوير المحليين. وقادوا جيادهم طوال الليل في اتجاه نقطة قرروا اللقاء عندها لبدء الانتفاضة. ومع حلول الصباح، رأى دتليف الرجال حشوداً استعدت للمحاربة من جديد كي تقيم جمهورية في جنوب افريقيا. وصرخ الى كراوس قائلا: "لن يوقفنا شيء بعد الآن!".

وأخذت الضربات تنهال واحدة بعد اخرى. فالجنرال الذي عقدوا عليه أمل قيادتهم، وهو كوس دو لاري، مات برصاصة نابية. وبعد مدة حاول الجنرال بايرز، الذي كان مقيضاً لهأن يخلف دو لاري، الفرار عبر نهر فال فغرق ومات. وأجبر ماني ماريتز على اتخاذ موقف الحياد بعد عبوره الحدود. أما الجنرال دو ويت فطوق مع رجاله وارغم على الاستسلام.

ولم يصدر عن سماتس ادنى خطأ. وحملت القوة الالمانية المغيرة من جنوب غرب افريقيا على التراجع، فيما شلّت حركة الالمان في طنجنيقا. ولم يبق في الساحة سوى باولوس دو غروت وكريستوفل ستين، ضمن مساحة صغيرة في ترانسفال.

وذات ليلة من نوفمبر (تشرين الثاني)، بعد رحلة مضنية عبر المروج، خاطب دو غروت ياكوبوس ودتليف قائلا: "اني أشعر بالتعب". وصُنع سرير للرجل العجوز، كان الاول الذي ينام فيه منذ عشرة أيام. وحاول أن يتفوه بكلمة، لكنه سقط الى الوراء مفارقاً الحياة. وبوفاته بدأت آخر فرقة مغاوير تنحسر. وبذل كريستوفل ستين محاولة باسلة لابقاء الرجال معاً، وهدد بيت كراوس بقتل كل من يحاول الانسحاب.

وقال كراوس: "ان معركة اخرى واحدة، نصراً كبيراً واحداً، كافيان لحمل الالمان على الخروج من موزامبيق والهبوب لنجدتنا".

وأجاب ياكوبوس فان دورن: "ليس فيموزامبيق ألمان". الا أن عناد كراوسجعله ينظم الرجال في وضع لا يستطيعون معه الفرار من غير أن يصابوا بأذى. وفي تلك المناورة أصيب ياكوبوس برصاصة قاتلة. وبعدما صلى دتليف على ضريح والده، قال: "أظن يا بيت انه خير لنا ان نعود الى البيت".

وكان ذلك من حسن حظهم. ففي اليومالتالي طوقت قوات الحكومة فلول المغاوير واعتقلت كريستوفل ستين. وكان هذا، في اعقاب حرب البوير، قبل وظيفة في جيش جنوب افريقيا وبقي فيها منذ ذلك الحين. لذلك عد خائناً. وفي حين عومل مئات الثائرين الآخرين باللين، الا أن سماتس أصر على احالة ذلك الضابط على المحكمة. وفي يوم مشؤوم من ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٤، قضت المحكمة باعدام ستين. واطلق الافريقانيون، ومنهم كثيرون لم يؤيدوا الانتفاضة، صيحة ذعر مطالبين بحياة ذلك البطل القومي. الا أن سماتس لم يذعن لتوسلاتهم.

وكتب دتليف الى ماريا ستين، ابنة الثائر، رسالة جاء فيها:

"لقد حاربتُ الى جانب والدكِ، ورأيته في أنبل مواقفه. وستبقى ذكراه حية في خاطري. لقد نُفذ فيه الحكم على نحو خال من العدالة. واذا شاهدتُ جان كريستيان سماتس يوماً، فسأفرغ رصاصة في رأسه".

والحق ان ذكرى ستين ستبقى حية ليس في ذهن ابنته فحسب، بل في ذهن شعب بأكمله يتوق الى أبطال. ان سماتس جعل من ستين شهيداً وفتح جرحاً لا يندمل في قلب الامة الافريقانية.

أحبب قريبك

كانت عودة دتليف الى المزرعة

تعني عودة الى العلم. وبتوصية من القس بارند برونغيرزما، واعظ فنلو، قبل دتليف في جامعة ستيلنبوش. وكانت تلك الجامعة المرموقة مركزاً للغة الافريقانية تزدهر فيه حماسة دينية متقدة ونظريات قوية حول شؤون جنوب افريقيا السياسية.

ومع نهاية الحرب في اوروبا، أعلنت الجامعة عن سلسلة من أربع محاضرات تتناول المرتكزات الخلقية التي يجب أن تقوم عليها اي حكومة في جنوب افريقيا. واهتم دتليف بالمحاضرات، خصوصاً لأن المحاضر كان القس برونغيرزما.

وفي افتتاح محاضرته الاولى، قال برونغيرزما ان مستقبل الامة يعتمد على الطريقة التي تنظم علاقاتها بالفئات العرقية المختلفة. وعرض المعلومات الآتية:

	عدد السكان الحالي	العدد المقدر للعام ١٩٥٠
ـ البيض	١،٤٥٤،٠٠٠	٢،٧٠٠،٠٠٠
ـ الملونون	٥٥٣،٠٠٠	١،٢٠٠،٠٠٠
ـ الهنود	١٦٤،٠٠٠	٣٦٦،٠٠٠
ـ البانتو (★)	٤،٥٩٨،٠٠٠	٨،٦٠٠،٠٠٠

ومن دون تعليق على قوة كل من الفئات الاربع بالنسبة الى الاخرى، طفق المحاضر يعرض موقف الكنيسة الهولندية المتجددة من مسألة العرقية خلال القرنين ونصف القرن الماضيين:

"تحت هداية جان فان ريبيك، مؤسس هذه الامة، مارس البيض والسود العبادة معاً. وهو أمر معقول اذ لم يكن له بديل. وبدأت المشكلات تبرز حين رفض العديد من البيض المناولة من الكأس نفسها التي يتقدم اليها السود. لكن طرقاً متعددة ابتكرت لتجنب تلك المشكلة.

"وفي المجمع المنعقد عام ١٨٥٧، أكد قادة كنيستنا على أن يسوع المسيح (عيسى عليه السلام) شاء ان يؤدي المؤمنون به فروض عبادتهم كجماعة واحدة. "ولكن اذا كان ضعف البعض يقتضي انفصال الجماعة، فليذهب القوم الآخرون الى مكان منفصل ومؤسسة مستقلة".

"ونتيجة لهذه الضغوط التي دامت قرنين، نشأت خطة تقضي بأن تكون هناك مبان ومؤسسات كنسية مختلفة، بعدد الفئات العرقية. واصبح للملونين والبانتو كنائس خاصة بهم تمكنهم ادارتها كما ترتضي اذواقهم، لكنها كانت متحدة جميعاً في أخوة المسيح".

ووردت في محاضرته معلومات وآراء كثيرة اخرى، لكنها خلفت انطباعاً بأن الكنيسة المسيحية واحدة وغير منقسمة، وأن الملونين والبانتو فضلوا ان تكون لهم كنيسة خاصة، وأن انقسام الكنيسة الراهن امر قضاه الله تعالى وباركه المسيح، وهو قابل للتطبيق على نحو بارز في مجتمع تعددي.

واقتصر الجزء الاكبر من محاضرة القس برونغيرزما الثانية على تعاليم العهد الجديد وطبيعة كنيسة المسيح على الارض. واستهلها بالآتي: "اذا كنا نعيش على أرض متعددة الاقوام: فان كل مسألة نواجهها تثير مشكلات يمكن ان تتجاوزها الامم الاكثر تجانساً. أما نحن فلا يمكننا تجاوزها. وان معالجتنا لهذه المشكلات العرقية تقرر طبيعة وجودنا". ثم قرأ مقطعاً من انجيل متى:

(★) تجنب معظم سكان جنوب افريقيا المثقفين عبارة "كفيري" السلبية، وأبدلوها بعبارة "بانتو" الغامضة التي تصف لغة، لا قبيلة او قوماً.

"يا معلم، اي وصية هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع: "تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الاولى والعظمى. والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك".

(متى ٢٢: ٣٦ - ٣٩).

وانطلق برونغيرزما من هنا الى مقطع شريف آخر قال انه مفتاح جميع محاضراته، وعليه ينبغي ان تتبنّى امة تخاف الله:

"جسد واحد وروح واحد كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد. رب واحد، ايمان واحد، معمودية واحدة. اله وآب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم" (أفسس٤: ٤ - ٦).

وقال برونغيرزما: "ان روح يسوع المسيح تسكن في قلب كل رجل وامرأة وطفل في هذه البلاد، من غير تمييز بين أبيض واسود، ملون وهندي، امرأة ورجل، انكليزي وافريقاني. كلنا واحد في يسوع الذي يحبنا بمساواة ويرعانا بعدالة".

وأبدى المستمعون تململا حيال هذه العقيدة المتطرفة. وحين انهى برونغيرزما محاضرته مصراً على ان المسيحية تحث اتباعها على تطبيق هذه المبادىء الاساسية في حياتهم الخاصة والعامة، وخصوصاً في تنظيم مجتمعهم، قامت بين المستمعين جلبة تدل على عدم الرضا. لكنه غادر المنصة ببطء وشموخ ودونما اكتراث.

نظام ام حرية؟

بعدما اعتلى القس برونغيرزما المنبر بجرأة لالقاء محاضرته الثالثة، لم يلبث ان خاطب المستمعين بالآتي: "لنحكم حسناً يجب أن نحكم بعدل، ولنحكم بعدل يجب ان نحكم بحكمة، ترى ماذا يطلب منا المسيح؟" واختار مقطعاً غامضاً وعشوائياً يستعصي فهم مناسبته على شخص من خارج جنوب افريقيا:

"ولما حضر يوم الخمسين، كان الجميع معاً بنفس واحدة. وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة، وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم السنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدأوا يتكلمون بألسنة اخرى كما اعطاهم الروح أن ينطقوا. وكان يهود اتقياء، من كل أمة تحت السماء، ساكنين في اورشليم. فلما صار هذا الصوت اجتمع الجمهور وتحير، وكل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته (أعمال الرسل ٢: ١ - ٦).

ترى كيف تمكن اقامة سياسة أمة على هذا؟ واوضح برونغيرزما النص بالآتي: ان الله خلق الناس اخوة، لكنه سرعان ما قسمهم جماعات متميزة، مرسلا كل فرد الى قومه ومانحاً كل امة كياناً مستقلا. وهنا اطلق برونغيرزما صوتاً كهزيم الرعد، قارئاً المقطع الآتي:

"فرتيون وماديون وعيلاميون، وساكنو ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وآسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان، ورومانيون مستوطنون وكريتيون وعرب، نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله" (أعمال الرسل ٢:٩ - ١١).

لقد شاء الله ان يكون الناس اقواماً مختلفة ليحتفظ كل قوم بخصائصه المميزة. وقال برونغيرزما أنه لو وجدت جنوب افريقيا زمن كتابة سفر "اعمال الرسل" لانتهى المقطع كالآتي: "كريتيون وعرب،

فريقانيون وانكليز، ملونون وآسيويون،خوشا وزولو ـ كلّ منهم يتكلم لغته".

وعندما سمع دتليف هذا المقطع اطبق فكيه بدهشة. لقد وردت الاسماء المحلية في السياق نفسه الذي ظهر في كوب الهلام الملون، دالة على عالم خاضع للنظام، حيث الاقوام مختلفة ومستقلة، ولكل منها مكانه الخاص.

وفي محاضرته الاخيرة، قرأ الواعظ مقاطع مدهشة من العهد القديم، مذكراً بني قومه الافريقانيين بواجباتهم نحو الله، مفتتحاً الكلام بأن جماعته الافريقانيين هم من مختاري الله لأن الله تعالى يقول هذا:

"فالآن ان سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب، فان لي كلّ الارض" (خروج ١٩:٥).

وسأل برونغيرزما: "ماذا يعني أن تكونوا خاصة الله؟" وأعطى الجواب من مقطع مدوّ في سفر اللاويين:

"وقلت لكم ترثون انتم أرضهم وأنا أعطيكم اياها لترثوها أرضاً تفيض لبناً وعسلاً، أنا الرب الحكم الذي ميزكم من الشعوب" (لاويين ٢٠:٢٤).

وقال برونغيرزما: "انه لحق أن تتميزوا، اذ ان لكم مهمات خاصة تؤدونها، وهي أن تحكموا بالعدل بين الناس". ولكن هل كان يجدر بكنيسة البيض أن تمنع السود من ممارسة شعائر العبادة فيها؟ أجاب برونغيرزما أن الكنيسة كانت على حق، مؤيداً رأيه بسفر "تثنية الاشتراع": "حين قسم العليّ للامم، حين فرّق بني آدم، نصب تخوماً لشعوب" (تثنية ٣٢: ٨). وأضاف: "وفي ذلك اليوم لا يكون بعد كنعاني في بيت ربّ الجنود" (زكريا ١٤: ٢١). وقال: "اننا متميزون. ان كلاً منا عظيم على طريقته. لقد اعطى الله كلا منا مكانه المناسب وواجباته الصحيحة، وعلينا أن نكون كما شاء الله لنا. ولكن سأنهي حديثي بكلمات يسوع المسيح التي بها افتتحت: "تحبّ الربّ الهك، وتحت قريبك كنفسك".

في تلك المحاضرات الاربع، وهي من أهم المحاضرات التي ألقيت في جامعة ستيلنبوش، افصح برونغيرزما عن التحدي الذي يواجه اي دولة دينية: كيف يمكن بناء مجتمع يجسد نظام العهد القديم وحرية العهد الجديد؟ أما دتليف فان دورن فلم يسمع سوى الشق الاول من هذا السؤال.

طريقة أفضل

في صفحة الكتاب المقدس البيضاء المخصصة للتواريخ العائلية، سجل آل فان دورن ما يأتي: "ان دتليف فان دورن وماريا ستين، ولدي اثنين من أبطالنا، تزوجا في ١٤ مارس (آذار) ١٩١٩".

لم تكن ماريا ستين، ابنة القائد الذي أعدم على يد سماتس، فتاة جميلة، بل كانت سمينة مثل والدها، وكان شعرها مشدوداً الى الوراء على الطراز القديم. لكن اخلاقها الفاضلة كانت تنتشر في كل الجهات، وهذا جعل دتليف يهيم بها. وقال له القس برونغيرزما: "انها شابة صالحة... انها بطلة في ذاتها".

في العام ١٩٢١ بلغ دتليف السادسة

والعشرين، وأصبح والداً لصبي قوي وسيداً على مزرعة نامية. وحين نشرت صورته في صحيفة، اظهرت مزارعاً ممتلىء الجسم بقدمين متباعدتين وحبل ملفوف حول بطنه الواسع، من غير ان يكون له عنق اطلاقاً. لم يكن هناك فاصل بين أسفل اذنيه وكتفيه. وحين كان يقف الى جانب ثيرانه الثقيلة، كان يبدو مشابهاً لها.

وفي تلك الاثناء، كان بيت كراوس حصل على وظيفة حكومية في جوهانسبورغ، هي الاشراف على العمال في مناجم الذهب. ولدى عودته الى فنلو زائراً، لاحظ دتليف حماسته حيال مهماته الجديدة.

وفي سيل عنيف من الكلمات، اوضح كراوس كيف غدت المدينة النامية مركزاً رئيسياً للبلاد: "ان المعارك الحقيقية تخاض هناك". واصر على أن يعود دتليف معه ليشهد بنفسه صراع العامل الافريقاني ضد ربّ العمل الانكليزي والرأسمالي، وخصوصاً ضد عمال البانتو.

وكانت تربية دتليف حتى ذلك الوقت رومنطيقية: الجنرالات القدامى يخوضون معارك خاسرة. لكن تربيته الواقعية باتت وشيكة. وهو اكتسبها اول الامر في ذلك القطاع من جوهانسبورغ المسمى فريديدورب، حيث تجمع آلاف المزارعين الافريقانيين على اثر طاعون حل بماشيتهم وقحط شديد. وتوقف الزوار عند بيت صغير تحتله عائلة تروكسل: رجل طويل ناحل يفضل العودة الى المرج وزوجة عجفاء مهملة وأطفال جياع.

وقال بيت: "غداً نرى ما هو وراء الجوع". وفي اليوم التالي أخذ دتليف الى قاعة للعمال حيث قامت جلبة قوية حول القوانين الجديدة التي أعلنتها مصلحة المناجم. وقال أحد المحرضين: "انهم خفضوا نسبة العمال البيض". وكانت العادة في حقول الذهب أن يؤخذ عامل أبيض واحد بين ثمانية عمال من البانتو. "أما الآن فيريدون أخذ عامل ابيض ني م بل عشرة عمال بانتو. وهذا يعني اضطهاد الافريقانيين".

وكانت بلدة فوردسبورغ، وهي مقاطعة بالقرب من فريديدورب تسكنها طبقة عمالية، حصناً قوياً للمضربين. وهناك أخذ دتليف الى سقيفة مخفية كان مزمعاً أن ينعقد فيها مؤتمر للعمال. وتمّ اجتماع بين الافريقانيين المتطرفين والعمال الذين استقدموا من مقاطعة كورنوول الانكليزية للقيام بأعمال وضيعة في قاع المناجم، بحضور ثلاثة من اليساريين الانكليز "هذه المرة سيسيل الدم. فهل ستؤازروننا؟"

تلك الليلة لم يذق دتليف طعم النوم، بل كان يرى تلك الوجوه الضئيلة ماثلة أمامه. فهو كان يدرك معنى المجاعة. وفجأة اخبر بيت ويوانا أنه قرر العودة الى البيت. وعندما اتهماه بأنه يرفض شعبه، قال لهما مؤكداً: "انني عائد الى هنا".

وهو عاد فعلا مع ثلاث عربات محملة بالطعام الفائض الذي امكنه الحصول عليه من فنلو. وقاد العربة الامامية بنفسه، بينما قاد ميكا نكسومالو العربة الوسطى وموسى، ابن ميكا، العربة الخلفية. وحملوا

الطعام الى وسط فريديدورب حيث وزعوه. وكاد أن ينشأ شغب في صفوف الناس.

وكان لتلك الزيارة نتيجة جانبية لم يقصدها دتليف ولا بيت. ذلك أن ميكا الذي تركت العربات الثلاث الفارغة في عهدته، أخذها الى قطاع من جوهانسبورغ يدعى سوفيا تاون احتشد فيه بنو قومه. وحين عاد ميكا ليخبر دتليف عن المكان الذي ذهب اليه، قرر هذا ان يرافقه ليرى كيف يعيش المزارعون السود.

وكانت سوفيا تاون ظهرت الى الوجود قبل عشرين سنة. وهي صممت أساساً كضاحية للبيض، لكن هؤلاء رفضوا بشدة الانتقال اليها بعد انشاء شبكة مجار قربها. وكانت الرحلة الى سوفياتاون، بالنسبة الى دتليف، اشبه برحلة الى الجحيم. فلم يكن في البلدة شوارع ومياه جارية، وكان عدد المنازل الصالحة قليلا جداً. وكان سكان البلدة خليطاً من البغايا وقطاع الطرق الاحداث والامهات المحتشمات اللواتي يحاولن حماية منازلهن في وجه الكوارث الطبيعية فيما ازواجهن يعملون بين عشر ساعات و١٢ ساعة يومياً ليحصل الواحد منهم على اجر بخس لا يتجاوز العشرين بنساً.

ونظر دتليف الى سوفياتاون فرآها بمثابة قرح كالح خبيث يهدد بالانتشار الى الجزء الابيض النظيف من المدينة، ممتداً في جسد المجموعة الافريقانية. وصعق حين عرف انه في امكان السود امتلاك الارض هناك، مما يعني انهم يستطيعون الاستقرار في المنطقة اذا شاؤوا. وقال في نفسه: "انه دمل مستور يجب أن يُفْقَأ".

وغادر دتليف سوفياتاون مدركاً ان السود كانوا متعطشين الى رفع شأنهم، وأن ذلك لا يتم الا على حساب الافريقانيين البيض. ووجد ان تروكسل وسواه من عمال المناجم البيض على استعداد للتعبير عن قضيتهم بقوة، وهي تقول بتفوق الانسان الابيض: "لقد شئنا أن تكون هذه الامة بيضاء يديرها البيض، لا سوداء يديرها السود".

ولم يستطع دتليف ان يصور لنفسه أن تلك الحشود السوداء في سوفياتاون قادرة على ادارة اي شيء. وحين أعلن اصحاب المناجم العتاة قوانين جديدة من شأنها طرد ٢٠٠٠ موظف ابيض من عملهم، عرف دتليف ان الامر لن يمرّ من غير اضراب.

وأدى ذلك التدبير الى معركة اعظم من انتفاضة ١٩١٤ المؤيدة للالمان وقف فيها العمال البيض يحاربون من أجل البقاء وأصحاب العمل يحاربون من أجل وضع ايديهم على الشؤون المالية، بينما وقفت الحكومة، بقيادة جان كريستيان سماتس، تحارب من أجل استمرار النظام الاجتماعي.

تلك كانت معركة حقيقية. وفي أحد المنعطفات شاهد دتليف ١٦ مدنياً وقد حصدهم مدفع رشاش. ونسف مبنى حكومي وقتل ١٤ جندياً. وفي يوم رهيب حلق تشكيل من الطائرات فوق المدينة والقى قنابل على العمال المحتشدين.

وبلغ عدد الوفيات ٥٠، ثم ١٠٠، ثم ١٥٣، فيما كان الطعام يتناقص والمباني تحرق عمداً. وسرت أخبار عن قطع المياه، وكان الاطفال في

الشوارع يسقطون بالرصاص الطائش.

وسأل دتليف: "لماذا يقتل الافريقانيون بعضهم بعضاً؟" وأجاب تروكسل مدمدماً: "لأن الافريقانيين شاؤوا أن تبقى هذه الامة بيضاء".

كان تروكسل رجلا باسلا. وحين انذر الجنرال سماتس الاهالي بأنه سيقصف فوردسبورغ، رفض تروكسل اجلاء عائلته. وتمتم قائلا: "الرصاص ليس بشيء". ولكن حين بدأت شظايا المدافع تنهمر كي تدك الحصون، أخذ تروكسل يرتجف. وراح دتليف يهدىء من روع اطفاله من غير ان يصدق ان الحكومة كانت تفعل ذلك. وجعله استمرار القصف يقول في نفسه: "هذا هو الجنون. يجب ان تكون هناك طريق أكثر تعقلا".

الأخوة

عام ١٩٢٣، انضم دتليف الى الـ"برويدربوند" (الاخوة)، وهو تنظيم سري يهدف الى تحقيق تفوق الشعب الافريقاني. وبعد ثلاث سنوات من العمل الدؤوب، أراحه ان يرى أن جميع المدرسين في قطاع واسع من البلاد اصبحوا من الافريقانيين. وعين مئة موظف جديد في مصلحة السكك الحديد كانوا كلهم افريقانيين. وقدم بيت كراوس اقتراحاً أمام اجتماع شامل لمنظمة "بروبدربوند" في بريتوريا يدعو الى انتهاج سياسة للسيطرة الافريقانية على جميع مرافق البلاد الرئيسية.

ومما جاء في تقرير كراوس: "دعوا الانكليز يتسلمون المراكز الامامية الكبيرة، وسنأخذ نحن الوظائف غير المنظورة وغير الجذابة وذات الرواتب الضئيلة". ومن عناصر هذه الخطة الرئيسية اكثار المراكز الادارية الصغيرة: "حيث تكون حاجة الى رجل واحد، دعونا نعين ثلاثة. وسواء أكانت هناك حاجة الى موظف او لم تكن، فلنخلق وظائف اكثر ونضع بين شروط التوظيف العبارة الآتية: "على المرشح أن يعرف لغتين". وهكذا نطوقهم بجماعتنا الى حد الاختناق".

وبانتهاء الثلاثينات، بات موقف كراوس السياسي اكثر تطرفاً. وبعد رحلة الى المانيا صرح بتبني سياسة هتلر العنصرية. وعلى رغم أن جنوب افريقيا صوتت على نحو محدود للانضمام الى الحلفاء، الا أن كروس لجأ الى العنف والارهاب خفية عن الشرطة، ونظم فرقاً ارهابية شنت هجمات سرية على الجيش ومنشآته ومخيمات التدريب. وهوجم الموالون للحلفاء وقتل بعضهم، ولا سيما الشباب الافريقانيين الذين عدوا خونة. وعلى رغم صيحات التحذير وعدم الرضا التي اطلقها القس برونغيرزما، فان كراوس استمر في اعماله وقتل في احدى المعارك. وقد بقيت يوانا كراوس، شقيقة دتليف، تعين زوجها حتى النهاية.

من ناحية أخرى، كانت ماريا ستين فان دورن ترى، ككثيرات من بنات قومها، استحالة قيام مصالحة مع الانكليز. لقد اهلك افراد عائلتها في مخيمات الاعتقال وقتل والدها بتهمة الخيانة. غير أنها لم تشجع دتليف على الاشتراك في النزاع المحلي. وكانت صلواتها موجهة ليس من أجل انتصار الالمان بل من أجل انكسار الانكليز، متمنية أن يصاب جان كريستيان سماتس بسوء بالغ.

ووقف آل نكسومالو مرتبكين. ولم يتغير رد فعلهم كثيراً عما كان خلال حرب البوير. وأذهلهم أن يكون سكان جنوب افريقيا البيض لجأوا الى العنف بعضهم ضد بعض دونما اكتراث الى ان غالبية الناس المعنيين هم من السود. لكنهم وقفوا موقف استسلام بالنسبة الى النتيجة، يعبر عنه قول ميكا العجوز في نهاية حياته الطويلة: "أيا يكن الرابح، فنحن خاسرون".

وفي العام ١٩٤٦، حين عاد دتليف وماريا مزارعين هانئين في فريمير، منحت الـ"برويدربوند" دتليف وظيفة في لجنة الشؤون العنصرية. وكانت اللجنة آنذاك منظمة تافهة الى حد "أن" دتليف تسلم منصبه من غير ان يشار الى ذلك في اي صحيفة.

وبعد سنتين أخفق جان كريستيان سماتس في الانتخابات، بينما حقق الرجال الذين اعتقلوا خلال الحرب لتأييدهم هتلر نجاحاً باهراً. واستقل دتليف وماريا القطار الى كيب تاون حيث قررا مباشرة العمل الشاق، الى جانب اكثرية في مجلس النواب، من أجل اعادة تنظيم البلاد.

وكان اول ما فعله دتليف تنغيص حياة الموظف الذي يعلوه رتبة، وهو أمين عام لجنة الشؤون العنصرية، الى حد حمله على الاستقالة. وبعد بضعة أسابيع استقال الموظف الانكليزي، وكان ذلك بداية للنزف الذي طهرت بعده دوائر الدولة حتى غدت افريقانية برجالها وعقليتها.

وبتولي دتليف ذلك المنصب، اصبحت اللجنة على استعداد لتطويع جميع عناصر المجتمع بالقوة. وكان على فان دورن وضع الخطوط الاولية لتلك الخطة ومن ثم تحويلها الى مبادىء عملية ثابتة. وعمل بلا كلل في هذا النطاق. وكان بادىء الامر موظفاً مغموراً. ولكن ما ان ظهرت انجازاته حتى غدا بطلا قومياً مرموقاً في مجال حماية شعبه.

وعلى غرار جماعة "المتطهرين" المتزمتين اينما وجدوا، بدأ دتليف عمله الاصلاحي في نطاق الجنس. وجاء مبدأه الاول بسيطاً: "لا يحق لاي شخص ابيض، ذكراً كان ام انثى وبغض النظر عن مركزه، الزواج بشخص غير أبيض". واذا حاول أن يفعل ذلك القي في السجن. واذا تزوج فعلا على هذا النحو عد زواجه باطلا.

وانطلق دتليف من هذا المبدأ الى احياء قانون قديم ينص على اعتبار العلاقات الجنسية بين شخصين من اي لونين مختلفين جريمة. وانتقل بعد ذلك الى اشتراع قوانين تحظر الاختلاط بين البيض وغير البيض في الامكنة العامة مثل المراحيض والمطاعم والحافلات وسيارات الاجرةوالمصاعد ومكاتب البريد وارصفة المحطات وحتى مقاعد الحدائق العامة. وطلب ذكر اسماء الفئات التي يمكنها استعمال كل من هذه المنافع. وانتشرت في البلاد لوحات وعلامات تقول: "للبيض فقط".

وأعان دتليف انصاره في مجلس النواب على المصادقة على قانون يمكن الحكومة من تقسيم البلاد، وخصوصاً كل مدينة بمفردها، قطاعات يخصص كل منها لفئة. واقتضى الامر اجلاء السكان غير البيض عن الاوساط الصناعية وقصرها

"رحلة طيبة جدًا على طول الطريق."

هذا تقرير حقيقي ومعتمد لأحد الركاب



Lufthansa

الخطوط الجوية الالمانية

على البيض، ومنها مساحات كبيرة في كيب تاون كان يحتلها الملونون الذين اجبروا على النزوح الى قطع ارض خصصت للبناء في منطقة كيب فلاتس المعرضة للريح. وقرر حصر البانتو في أماكن واسعة خارج حدود المدن المخصصة للبيض، شرط أن يكون بقاؤهم هناك مرتبطاً بالخدمات التي يقدمونها الى البيض.

وكان هناك عدد كبير من النواب، خصوصاً بين صفوف المعارضة، لم يدروا بوجود دتليف لانه لم يظهر قط في الواجهة. لكن الضغوط الدائمة واحتفاظه بوظيفته في حين فقد الآخرون وظائفهم جعلته يكسب، مع الوقت، نفوذاً أقوى مما يسمح به مركزه.

انتفاضات

في العام ١٩٥١ توصل دتليف الى حل" للعقدة المزعجة التي كانت تلازم الملونين. فهم لم يكونوا ينتمون الى عرق واحد: الابيض او الاسود او الملايي او الهندي او الهوتنتوتي، ولا الى دين واحد. فبعضهم كان مسلماً. ولم تكن لهم ارض خاصة، بل عاشوا في كل مكان. ولذا كانوا غير محددين فلا يجوز تجاهلهم.

وقالت يوانا: "انهم هُجناء (آباؤهم وامهاتهم من اعراق مختلفة). واتمنى أن يكون في وسعنا تطهير البلاد منهم كما طهرناها من الصينيين".

ووافق دتليف قائلا: "انهم حقاً اولاد الخطيئة. وهم يشكلون عثرة بالنسبة الى الذين يخافون الله، ويذكروننا بتجاوزات آبائنا".

وعلقت ماريا: "ليس بخطايا آبائنا... فالذين توقفوا هنا كانوا بحارة نزلوا من سفنهم".

وردد دتليف: "أجل، انهم البحارة". وعقد العزم على أن يفعل شيئاً وهو يفكر في تلك اللطخة على جبين امته.

حين اسست بريطانيا الاتحاد عام ١٩١٠، ضمنت الدستور مادتين مهمتين لا يمكن تعديلهما الا بموافقة ثلثي الاعضاء في مجلسي النواب: المادة ١٣٧ أعلنت اللغتين الانكليزية والهولندية (الافريقانية لاحقاً) لغتين رسميتين متساويتين من حيث المرتبة، والمادة ٣٥ منحت الملونين حقاً دائماً في التصويت في مقاطعة الكيب.

وعلى رغم القانون المقيت الذي يحرم الملونين حق ترشيح انفسهم للانتخابات النيابية، الا انهم كانوا يصوتون الى جانب البيض. وفي العام ١٩٤٨، انصبت اصواتهم، وعددها خمسون الفاً، تأييداً لحزب سماتس. وفي سبع دورات حاسمة، شكلت اصواتهم هزيمة للمعارضة. لقد اصبحوا قوة متعاظمة، وبات ضرورياً حرمانهم حق التصويت.

وكانت تلك الخطوة شاقة، اذ لا اجماع عليها، وشغلت اهتمام دتليف طوال خمس سنوات. واصدر مشروع قانون لتجريد الملونين من حقوقهم. واخفقت المحاولة الاولى لتحويله الى قانون بعدما رفضته المحكمة العليا بحجة انه غير دستوري. عندئذ لجأ دتليف الى وسائل اخرى. وفي العام ١٩٥٦، بعد احداث مقاعد جديدة في مجلس الشيوخ ومضاعفة عدد اعضاء المحكمة العليا، اقر ذلك القانون.

ولم يكن غريباً ان تظهر بوادر

استنكار لتلك التدابير. وفي العام ١٩٦٠ اصبحت البلاد على وشك الانقسام حين اطلق رجال الشرطة وابلا من الرصاص على شاربنفيل، وهي مدينة يسكنها السود بالقرب من نهر فال.

وتضخمت حملة الاحتجاج التي قادها السود ضد القوانين المقيدة لحريتهم، كما ازداد القمع من جانب البيض. ووضع البرت لوثولي - الذي منح جائزة نوبل للسلام بعيد ذلك - خمس سنوات في الاقامة الجبرية داخل مقاطعته. وانقض رجال الشرطة بهراواتهم على النساء السود اللواتي كنّ يمشين في تظاهرات احتجاج. وفي ترانسكي وناتال، اسفرت الانتفاضات الشعبية عن عشرات القتلى والجرحى.

وفي مدينة شاربفيل قرر السود التعبير عن احتجاجهم بطريقة مسالمة،وهي اعادة الهويات التي تذكر عرقهم، وتسليم انفسهم للاعتقال، لانهم اعتبروا ذكر العرق على الهوية أمراً مهينا داخل بلادهم. وتجمع ١٥ الفاً منهم أمام دائرة الشرطة. فما كان من رجال الشرطة الا ان اطلقوا النار بغزارة من غير انذار، واوقعوا ٦٧ قتيلا واكثر من ١٨٠ جريحاً في صفوف المتظاهرين، وبينهم رجال ونساء واولاد.

وعندما أعلم دتليف بما حصل، قال: "لم يكن بدّ من ذلك. أننا نعمل لمصلحة البلاد، وهم يرفضون التعاون".

وفي العام نفسه اطلقت النار على رأس هندريك فيرفويرد، رئيس الوزراء، من مسدس يحمله شخص مسعور اقلقته التغيرات التي طرأت على الحياة القومية. لكن فيرفويرد نجا بأعجوبة. وفي اكتوبر (تشرين الاول) أجري استفتاء خول الحكومة فك جميع الارتباطات بالتاج الانكليزي واعلان البلاد جمهورية.

وبعد خمس سنوات تلقى فيرفويرد طعنة قاتلة من مجرم خلاسي (نصف اسود ونصف ابيض) دنا منه في زي خادم.

وقال دتليف لزوجته: "ما يجب فعله هو اصدار قوانين اشد وفرضها بطريقة افضل".

موت حي

ان ذاك النسيج الذي صاغه دتليف فان دورن من تقاليد قديمة وقوانين جديدة اصبح يعرف باسم "التمييز العنصري". ولنعرض احداثاً يومية من حياة المواطنين العاديين يبرز فيها أثر هذه السياسة.

في فنلو نشأت مدرسة بنات ذات سمعة حسنة في تخريج فتيات متفوقات في اللغة الافريقانية وفي الدراسة الجامعية اللاحقة. وكان رئيس المدرسة رولف ستيرك يفخر، على نحو خاص، بفتاتين هما بترا البرتين (٩ سنوات) ومينا فان فالك (١٠ سنين).

وانطلقت المشكلة من صف الحساب. فقد تمتعت الطفلة بترا بقدرة خارقة في ذلك الموضوع ونالت فيه أعلى العلامات، متفوقة على رفيقتها مينا. لكن هذا لم يزعج مينا التي قالت لامها: "اني لا أحبّ الارقام في اي حال، ولم احقق نجاحاً في ذلك النطاق".

الا أن السيدة فان فالك لم ترض بذلك، وارادت ان ترى الطفلة التي

تفوقت على ابنتها. ووافق الدكتور ستيرك على ذلك. وفي ما بعد، حين قدم شهادته أمام مجلس التصنيف العنصري، قال: "ما ان شاهدت السيدة فان فالك التلميذة بترا البرتين حتى ارتخى فكها وتجمدت اوصالها. ولاحظت ذلك التصرف الغريب لدى حدوثه، غير أني لم ادرك له سبباً".

ولم تتفوه السيدة فان فالك بكلمة، بل اكتفت بالتحديق الى بترا، ثم غادرت المدرسة مسرعة الى زوجها، وقالت له: "يا ليوبولد، هناك فتاة ملونة في مدرسة مينا".

ولم ينم فان فالك وزوجته معظم تلك الليلة بل سهرا يبحثان الخطوة الواجب اتخاذها. فالمساواة بين طفل ملون وطفل أبيض مسألة خطرة تعارض الاخلاق والقوانين.

وقررا وضع المسألة على عاتق ستيرك لما عرفاه عنه من جدارة وعناد في الدفاع عن الحقوق الافريقانية.

وان شكوى من هذا النوع في جنوب افريقيا تختلف عن شكوى في المجر تقول: "أظن ان لازلو روماني"، او أخرى في غرب انكلترا تقول: "اذا محصتم الامر لوجدتم ان ماسترسون ايرلندي فعلا". ففي البلدان الطبيعية لا تعدو هذه الاقاويل كونها احكاماً اجتماعية. لكنها، في جنوب افريقيا، تقرر الحياة، وأحياناً الموت.

وتحركت ادارة المدرسة على مضض وقامت باستجوابات لم تسفر عن نتيجة، فيما ارتأى ستيرك ان يسحب آل البرتين ابنتهم بترا ارادياً من المدرسة تفادياً للمشاكل. لكن عائلة البرتين رفضت ذلك الاقتراح.

واعلمت عائلة فان فالك بالامر، فرفعت دعويين تشرحان القضية بالتفصيل، ووجهتهما الى مدير دائرة النفوس في بريتوريا.

وحين التأم مجلس التصنيف العنصري، في احدى محكمتي فنلو، امضى الايام الاولى مستمعاً الى كل من أراد الادلاء بشهادته. وكان الهدف معرفة ما اذا كان أصدقاء عائلة البرتين وسواهم يصنفون العائلة في عداد البيض. واجمعت الشهادات على أن الامر هو كذلك.

غير أن الشهادة الحاسمة جاءت في اليوم الثالث حين حمل السيد البرتين وزوجته واثنان من اولاده الكبار في سيارة لاستجوابهم أمام ثلاثة من أعضاء المحكمة. ولم تكن بترا معهم. ووجهت اليهم الاسئلة الآتية: من هم اجدادكم؟ هل لديكم أصدقاء ملونون؟ اتقتصر كنيستكم على البيض؟

ودام الاستجواب ثلاث ساعات، فهم على اثرها أن عائلة البرتين، كأي عائلة أخرى في جنوب افريقيا، يطغى عليها النسب الهولندي، مع عنصر الماني قوي، وربما هوغونوتي (بروتستانتي فرنسي)، يرقى الى زمن بعيد. والمرجح انه لا يخالطهم عنصر ملايي او هوتنتوتي أو بانتي.

بعد ذلك باشر اعضاء اللجنة الكشف عن اجسام افراد عائلة البرتين. وكان لكل عضو - رجلا كان ام امرأة - طريقته في التحري عن الدم الملون استمدها من الخرافات المحلية.

وعلمت السيدة فان فالك زوجها ان يبحث عن الادلة في النمش الجلدي وشحمة الاذن، قائلة له: "النمش يظهر على البيض، لا على الملونين".

وبعد معاينة آل البرتين، وجد السيدة البرتين وواحداً من ابنائها خاليين من النمش، بينما وجد نمشاً وافراً في جلد السيد البرتين والابن الآخر. وقال فان فالك: "الآن يأتي دور الآذان". وأعلن أمام جميع من في القاعة: "في الاذن البيضاء هناك فجوة، أما الاذن الملونة فلا فجوة فيها". وفي هذه الحال ايضاً، قسم آل البرتين نصفين معاكسين للقسمة الاولى.

لكن رئيس اللجنة، دتليف فان دورن، لم يكن يثق الا بالدليل الذي يقدمه الشعر. وطلب قلما وقال للحاضرين: "يُحْمَل القلم ويُلَفّ به الشعر الذي يأتي فوق الاذن مباشرة. فاذا كان الشخص ابيض، انحلّ شعره فور سحب القلم. لكن شعر السود، كما تعلمون، يبقى جعداً".

وحان الوقت لفحص الفتاة الصغيرة نفسها. واقتيدت بترا الى المحققين الثلاثة الذين راحوا يتفحصون يديها بدقة. فلم يعثروا فيهما على نمش، ويدققون في شكل الاهلة التي في اظافرها ويختبرون شعرها.

وقال لها السيد فان فالك: "امشي يا بترا الى آخر القاعة ثم عودي". وفعلت، فاتضح له أنها تمشي مشية الملونين.

وخاطبها السيد فان فالك بلهجة استرضاء: "الآن نأتي الى الامتحان الحاسم يا بترا". وطرح عليها السؤال الذي يعتقد بعضهم ان البرهان القاطع هو في الاجابة عنه: "اخلعي ملابسك".

ونزعت الصغيرة ملابسها بحياء، ولكن من غير ارتباك. وعندما شدت التنورة الى خصرها، لاحظ اعضاء اللجنة بوضوح المثلث الصغير في أسفل عمودها الفقري. وكان السيد فان فالك أكد لهم الآتي: "اذا كانت تلك النقطة سوداء، امكنكم أن تثقوا بأن دم البانتو يجري في عروقها". وبعد ذلك طلب من آل البرتين الانصراف.

وقبل مباشرة التصويت، دخل محقق من وزارة الداخلية وسلم فان دورن، رئيس اللجنة، تقريراً وضع بناء على توصيته، وفرغ من اعداده حالا. وكان هذا المحقق، مع اربعة معاونين من بريتوريا، قضوا الاسابيع الثلاثة الاخيرة يمحصون تاريخ آل البرتين الذي خرجوا منه بنتيجة مذهلة. لقد تبين لهم أن العائلة تحمل دماً ملوناً في عروقها.

وكان في العام ١٦٩٤ ان بترونيلا فان دورن، وهي من اجداد دتليف، شوهت سمعة عائلتها لدى زواجها برجل ذي نسب ملايي – هوتنتوتي. وكان هذا النوع من الزواج معروفاً في تلك الايام الغابرة حين لم تكن نشأت بعد طبقة الاكابر من الناس، ولم تكن تحذيرات العهد القديم اتخذت شكل عقيدة اجتماعية متطرفة.

وافلحت اجيال فان دورن المتعاقبة في اخفاء تلك الفضيحة، علماً أن فرع دتليف لا يمت بنسب مباشر الى بترونيلا. وطوال الجيلين اللاحقين، لم تحمل ذرية بترونيلا وزوجها اسم عائلة، ثم اندمجت بالطبقة الدنيا متخذة اسماً آخر. وتزوجت احدى حفيدات بترونيلا شخصاً من آل البرتين، وكان لون جلدها فاتحاً مثلهم. وبذلك طمست سيرة بترونيلا، ولكن ليس نهائياً. فمنذ ١٦٩٤، العام الذي حصلت فيه الفضيحة، حفظ بعض المدافعين الغيورين على النقاء

العنصري سجلا عن ذرية بترونيلا المتعاقبة. وهكذا كشف امر آل البرتين.

وكانت النتيجة سريعة وقاسية. وعلى اثرها حرم آل البرتين البقاء في المكان الذي سكنوه طوال السنوات الاربعين الماضية. فهم ملونون، وعليهم الانتقال الى احد الامكنة المخصصة لجماعتهم. واذ لم يكن هناك مكان من هذا النوع في فنلو، فقد اقتلعوا عائلتهم وانتقلوا الى كيب تاون حيث تعيش اكثرية من الملونين.

ولم يجدوا من مأوى سوى اكواخ ذات ثلاث طبقات بنيت اصلا كمخيمات انتقالية للعسكر. وغدت تلك المساكن، بالعائلات المكتظة بين جدرانها المهلهلة، من مظاهر العار في جنوب افريقيا.

واستأنفت بترا دراستها في مؤسسة اكبر من الاولى، يشرف عليها رجال ونساء ملونون التزموا قضايا قومهم. وفي اجتماع ضم الاهل والمدرسين، أخذ رئيس المدرسة والد بترا جانباً وقال له: "لقد اخبرني المدرسون يا البرتين ان ابنتك بترا تكاد تكون في عداد العباقرة. فعليك ان تفكر جدياً في مستقبلها".

– وماذا يمكن ملوناً فعله في هذه البلاد؟

"يجب الا ينتهي افقك عند حدود هذه البلاد. ان ابنتي ذهبت الى كندا، وهي تقول ان الجامعات هناك خصصت منحاً مالية كثيرة لطلاب مثل



بترا. وهناك اماكن مماثلة في اوستراليا، وحتى في لندن".

وكانت تلك الافكار تتجاوز امكانات البرتين ومعرفته، لكنه ادرك ان عليه التمسك بها لأن رئيس المدرسة قال له: "ان ابقاء فتاة مثل بترا في هذه البلاد يعني الحكم عليها بالموت".

المنزيل الموقت

كان بلوك نجيكا في الرابعة والخمسين حين ألقى سلسلة محاضرات في مبنى تشستون في جوهانسبورغ، لكنه بدا أكبر سناً. وكان في سني شبابه مارس أعمالا شاقة في مجال الصناعة أكسبته مهارات كثيرة من شأنها ايصاله الى مراكز متقدمة حرمه أياها لون بشرته الأسود.

وبعد تعرضه لحادث في مسبك للمعادن خلف عاهةً في قدميه، أسعده جداً الحصول على وظيفة تقتضي توزيع الاوراق الرسمية باليد. وعلى رغم أن الراتب كان ضئيلا والتنقل بين البيت والعمل يستغرق وقتاً طويلا ومملا، الا ّ أنه لم يجرؤ على الاستقالة. ذلك أنه كان يسْمَح للشخص الأسود بالبقاء في جوهانسبورغ والسكن في سوويتو أذا مارس وظيفة واحدة مدة عشر سنين. أما اذا استقال أو طرد من عمله فهو يخسر هذا الحقّ، كما يخسر منزله وحقّ الاقامة في جوهانسبورغ. من هنا كان الاسود كعبد من القرون الوسطى، مقيداً لا الى أرض بل الى مهنة. وهذا يعني أن في أمكان سيده أن يعطيه راتباً ضئيلا، من غير أن يتمتع بحقّ الاعتراض.

وذات يوم نزل بلوك عن الرصيف في شارع كوميشونر، حيث مرت شاحنة وقتلته. ولم تكن تلك الصدمة قاتلة بالضرورة. الا ّ أنّ سيارة الاسعاف الاولى التي مرت من هناك كانت "للبيض فقط". وبقي بلوك ممدداً على الرصيف نصف ساعة قبل أن تصل سيارة اسعاف يمكنها نقله الى مستشفى. وما أن وصل الى قسم الطوارىء الخاصّ بغير البيض في أحد المستشفيات حتى أُعلن أنه توفي.

وفي اليوم الثالث بعد دفنه، استُدعيت زوجته ميريام الى مكتب مدير شرطة سوويتو حيث كان منزل نجيكا. وهناك أخبرها المدير أنها لم تعد زوجة عامل تحقّ له الاقامة في سوويتو، بل أضحت، على حدّ التعبير الشائع، "زائدة من دون فائدة"، فخسرت بالتالي حقّ البقاء في جوهانسبورغ.

وقال لها المدير: "يمكنك البقاء هنا لجمع متاعك. وعليك، بعد ذلك، التوجه الى سوتغروند".

– اني لم أذهب قطّ الى ذلك المكان، وأجهل حتى موقعه.

"لكنك من الخوشا كما تشهد هويتك".

– لقد ولدتُ في بلومفونتين، ولم امكث في منطقة الخوشا او أذهب إليها.

"القانون يقول أنك الآن نزيلة موقتة..."

ولم يأت طرد ماريا نتيجةً لسوء تصرف زوجها بماله. فقد قصد بلوك المدير وسأله اذا كان في وسعه شراء البيت الذي يسكنه. لكنّ القانون كان صريحاً هنا: "لا يحقّ لشخص غير

أبيض امتلاك أرض في سوويتو". وبما أنه لم يكن يحق لسكان جوهانسبورغ غير البيض العيش الا في سوويتو، لذلك لم يكن في استطاعتهم امتلاك منازلهم.

وبعد مرور بضعة أيام، اجتمع بعض النسوة مساء في مطبخ ميريام نجيكا لتعزيتها ووداعها. وخيم على الجمع جو من الرهبة لان النسوة عرفن أنه، في حال وفاة أزواجهن، عليهن الانتقال الى مكان بعيد مخصص للسود لم يسبق أن رأينه من قبل أو شعرن برابطة تجاهه... لكنه القانون.

وبعد أيام جاء مدير الشرطة ومعه شاحنة حكومية. ووضعت مقتنيات ميريام في الشاحنة ونقلت الى محطة السكة الحديد في جوهانسبورغ. وكانت الرحلة جنوباً متعبة في عربة الدرجة الثالثة المخصصة للسود والتي غصت بنساء من مدن مختلفة فقدن أزواجهن وأرسلن الى مواطن جديدة لم تبصرها عيونهن من قبل. كما كان في العربة شبان أخفقت أعمالهم في جوهانسبورغ.

وتوقف القطار عصر اليوم التالي في محطة صغيرة اسمها هيلاري سايدينغ في مقاطعة الكيب، حيث وزعت النساء على شاحنات. وأخيراً بلغن قرية مؤلفة من ٢٠٠ مسكن رديء أقيمت حديثاً على أرض متآكلة خالية من الشجر والعشب والحدائق. وكان هناك مخزن أضيء بمصابيح الكاز وبداية طريقين موحلتين. وتجمع المهجرون الذين حملوا الى هناك خلال السنتين الماضيتين ليسددوا نظرة ترحيب وعزاء الى الوافدين الجدد ويشجعوهم ما استطاعوا. وقال موظف حكومي للسيدة نجيكا: "ان نصيبك هو الرقم ٢٣٤". وأشار بيده الى احدى الطريقين الموحلتين وأضاف: "هناك تجدين لوحة تحمل الرقم".

وكانت اللوحة كل ما وجدته في ذلك المكان. فالرقم ٢٣٤ كان قطعة أرض خالية.

وقال لها الدليل: "هكذا بدأ الآخرون قبلك: حصلوا على حصصهم وباشروا العمل".

وكان لدى الحكومة خطة تقضي باستقدام ثلاثة ملايين و٨٠٠ ألف نسمة الى ذلك المكان. وهي نسبة واحد الى ستة من السكان. واذا ما قورن هذا بالولايات المتحدة، فهو يعني اقتلاع ٤٠ مليون شخص من بيوت جيدة ونقلهم الى بيوت رديئة... لكنه القانون.

مكتب الأمن القومي

على رغم ضروب الحرمان التي جاءت عن طريق سياسة التمييز العنصري، الا أن مواطني جنوب افريقيا السود لم يفقدوا جرأتهم. وكانوا يحلمون بقيامة يصبحون معها أحراراً من جديد، علماً أنه يجب تمييز طبيعة هذا الحلم بعد العام ١٩٧٥ (الذي حصلت فيه أعمال الشغب في سوويتو) وقبله. ويمكن إبراز هذا التغيير الحاسم عبر المقارنة بين حياة شخصين من منطقة فريمير، هما دانيال نكسومالو، حفيد ميكا الذي خدم آل فان دورن سنوات طويلة، وماتيو ماغوبين الذي عمل والده في مزرعة مجاورة.

أظهر دانيال نكسومالو في طفولته وعداً بمستقبل باهر. وأرسل باكراً

الى مدرسة السود في فورت هير التي أدارها مدرسون سود كانوا يطمحون الى تحقيق يقظة بين شعبهم. وابتكر كل منهم طريقة كلام يخاطب بها طلابه الاذكياء: "الشرطة تمنعني من الاستمرار في كلامي، ولكن اسألوا أنفسكم اذا كان نابوليون قضى على الطموح القومي في أيٍ من البلدان التي احتلها الى حين". وهكذا أدرك الطلاب النجباء في فورت هير أنّ ما حدث في أجزاء اخرى من العالم يمكن أن يحدث في جنوب افريقيا.

واكتسب دانيال نكسومالو من دراسته مبدأين قررا خط حياته: هناك واجب لمعرفة ما يحدث للسّود في أماكن اخرى من العالم. لكنّ هذا يجب أن يحدث من غير أن يثير انتباه مكتب الأمن القومي المعروف باسم "بوس". وكان المبدأ الاول أدعى الى التنفيذ من الثاني. فكلما ازدادت معرفته بافريقيا واوروبا، كان يدنو أكثر الى نقطة الخطر.

ولم يكن من السهل أن يبقى باحث أسود ملتزم بعيداً عن أنظار "بوس". وحين أنهى دانيال نكسومالو دراسته في فورت هير، كان اسمه حُفظ في سجلات "بوس" في أربع مناسبات:

١ – في تقرير قدمه أحد الجواسيس عن تجمّع طالبي، جاء أنّ نكسومالو ألقى خطاباً هادفاً حول السكان السود في البرازيل، وضمنه مقارنات بالحال في جنوب افريقيا.

٢ – في مؤتمر يقلد الامم المتحدة، أسند الى نكسومالو دور اندريه غروميكو، وزير الخارجية السوفياتي. وهو لم يسعَ الى تمثيل ذلك الدّور، لكنه قبله لملء مركز المندوب الروسي.

٣ – في مباراة كريكيت جرت في بورت اليزابيث، لاحظ أعوان "بوس" أنّ نكسومالو هتف ليس لفريق جنوب افريقيا بل لفريق انكلترا.

٤ – في مناسبات عدة، سُمع يغني نشيد الحرية الشائع في صفوف الطلاب، وذلك "بحماسة تتجاوز المطلوب".

وبدا واضحاً جداً أن المتاعب كانت تقف لدانيال نكسومالو بالمرصاد. وحين تقدم بطلب الى جامعة ويتووترزراند للدراسات العليا، عُهد به الى استاذ أبيض استدعاه يوماً الى مكتبه وصاح في وجهه: "أيها الاحمق! كيف تمكنك ممارسة أيّ نفوذ اذا كنت في السجن؟ انّ مهمتك هي أن تتعلم، ثمّ تعلم الآخرين".

وبعد نيله درجة الدكتوراه باجتهاد بالغ، أصبح نكسومالو رجلا مثقفاً يحدوه تصميم جارف على تحقيق تغيير جذري في بلاده من غير الوقوع في شرك "بوس". وفي السنة نفسها تخرج آخرون في جامعات مثل هارفارد واوكسفورد، حملوا أنفسهم تبعات جسيمة.

في تلك الأثناء كان ماتيو ماغوبين في مطلع عهده الدراسي، لكنه لم يبشر بمستقبل زاهر. فهو كان فتى ممتلىء الجسم، غليظ العنق، مقاوماً للنظام. وكان ممكناً أن يترك المدرسة وهو في الرابعة عشرة لو لم يكن والده، الذي يعرف آل نكسومالو، طلب من دانيال، وهو يحضر شهادة الدكتوراه، أن يتكلم مع ابنه.

وبتشجيع من دانيال، أكمل ماغوبين دراسته الثانوية ودخل جامعة زولولاند، وهي مؤسسة سوداء كان

نكسومالو استاذاً فيها . لكنّ ماغوبين كان يفضل على دروسه معشر الطلاب الثوريين الذين اعتادوا اللقاء حول طاولات المطعم. وأوقعه اشتراكه معهم في حبال "بوس". وبدأت المشكلة خلال رحلة في القطار الى دوربان، حين قاد ماتيو مجموعة من الطلاب الصاخبين الذين أنشدوا مختارات من أغانٍ ثورية:

ثمة شمس في الشرق
تعلو علواً،
ثمة قمر في الغرب
يسقط سقوطاً.
اني أتبع الشمس
مهما بلغت حدتها.
ها هو القمر يسقط في ظلام الليل.
مباركةٌ أنتِ أيتها الشمس!

وقبل نهاية الفصل الثاني قبضت شرطة "بوس" السرية على ماغوبين وأحالته على مركز للاستجواب في بلدة هملسدورب النائية حيث أُجريت سلسلة من التحقيقات الشائنة في إشراف كونراد كراوس، ابن بيت كراوس، الذي كان مصمماً على سحْق أقل بادرة عصيان أسود.

وما أن أُغلق الباب بعد دخول ماغوبين حتى قال كراوس لمعاونه الرقيب: "احمله الى هنا". ورفع الرقيب يده اليمنى وانهال بضربة قوية على ظهر ماغوبين دفعته الى الأمام. وبينما كان الثائر الأسْوَد يهوي على طاولة كراوس، ألقمه هذا ضربة من قبضة يده اليمنى سحقت وجهه. وسقط ماغوبين أرضاً، فوقف كراوس ومعاونه فوقه يوسعانه نخساً ورفساً حتى أُغمي عليه.

إن التحقيقات المتعلقة بشؤون الأمن، في أي جزء من جنوب افريقيا، مسألة تكتسي طابعاً مهيباً. فخلال سنوات مات نحو خمسين رجلا قيل انهم سقطوا عن غير عمد من الطبقة الثامنة في بناية أو شنقوا أنفسهم بملاءات الأسرة. لكن التحقيق في هملسدورب كان ضرباً من الفن ابتُعد فيه عن أخطاء من هذا النوع. وبعدما استعاد ماغوبين وعيه، وجد الرقيب يواجهه بمنخس كهربائي. وقال له: "اخلع ثيابك".

وأظهر بعض تردد جعل الرقيب يستدعي معاونَين جرّدا ماتيو من ملابسه. ووقف عارياً، فوجهوا المنخس الى أعضائه التناسلية وراحوا يراقبونه بارتياح وهو يقفز لتجنُّب العذاب.

"شمس في الشرق"

ظلّ ماغوبين يُرفَس ويُنْخَس ويعذَّب طوال الأيام الثلاثة اللاحقة. وأُطعم وسُقي وسُمح له بالخروج الى المرحاض كلما طلب ذلك، لكن تعذيبه لم ينقطع. وراح الضباط يغنون نشيد الحرية:

"ثمة شمس في الشرق،
تعلو علواً".

وسألوه: "ماذا تعني بالشمس في الشرق"؟

وكانوا ينهالون عليه بالضرب بعد كل إجابة.

وفي اليوم السابع وُجهت اليه التهمة الرئيسية الثانية: "يقول الناس انك أحد العاملين الناشطين لقضية السُّود".

- أجل، إني أعمل من أجل نصرة السود. (لكمة على فكه).

"انك واحد من البانتو: كفيريّ أبله لا سلطان له على الاطلاق".

ــ نعم، أيها البوير، انني افريقي. (ضربة على فمه).

لم تكن "بوس" من القسوة بحيث تصمم عملية اغتيال. وكل ما رمت اليه كان التهويل على مثيري الشغب. وكان الخطر آتياً من أن المتهم الأسود يخسر حريته بعد تسعة أيام أو عشرة مليئة بالتحقيق معه. ويأتي تقرير المحكمة كالآتي: "المتهم الرقم ٥١: مات وهو يحاول الهرب".

ولم يكن هذا المصير بعيداً عن ماغوبين إلا بفضل رجل خارج السجن لم يكن يعرف ماغوبين على الاطلاق. كان ذلك الرجل اندريه مالان، وهو أبيض في التاسعة والعشرين من عمره عمل مراسلا لصحيفة "الغازيت" التي تصدر في دوربان. ويوم اعتقال ماغوبين، دخل مكتب مالان رجلان أسودان يحفزهما هاجس بأن ماغوبين هو مثال الشاب الأسود الذي يكشف عن عناد يحمل كراوس على نسيان التعليمات القائلة بعدم التمادي في العنف. وحذر الرجلانِ مالان بقولهما: "راقب ما يحصل".

وعلى أثر تلك الزيارة بدأ مالان سلسلة مقالات حول اعتقال ماغوبين، مطالباً الشرطة باصدار تقارير عن حاله الصحية.

وكان في جنوب افريقيا قانون يقول بأن في إمكان "بوس" اقتحام مركز أي كاتب، في أي وقت ومن دون تبرير. فاذا وُجدت أي ملاحظات أو مواد أو رسوم من شأنها ان تستعمل لكتابة مقال قد يسيء الى الحكومة، حق للسلطات اعتقال الكاتب أجلا غير محدود ومن غير تهمة محدَّدة.

وذات صباح اقتحمت جماعة مسلحة من "بوس" شقة مالان. وكان هذا أتلف معظم أوراقه، لكنهم وجدوا تقريراً واحداً نشره مجلس الكنائس العالمي في جنيف، وهو منظّمة مناوئة للتمييز العنصري. ووجدوا في هذا التقرير مسوّغاً لاقتياد مالان الى السجن.

وكان في وسع الشرطة الاستمرار في تحرياتها لحياة مالان ومعتقداته، لكن عنصراً جديداً برز. ففي مزرعة قريبة من فريمير كان يعيش شاب أسود ثائر اسمه جوناثان نكسومالو، وهو شقيق دانيال. وظلّ جوناثان يتابع أخبار اعتقال ماغوبين في الصحف حتى جاء يوم استنتج أن ماغوبين كان على وشك ان يُقتَل. وجمع أربعة من أصدقائه قائلا لهم: "كم رجلا يلزم لانقاذ ماغوبين ثم الهرب الى موزامبيق؟"

وعاد دانيال الى البيت في العطلة الدراسية. وكانت الجماعة تريد نصيحته، وأرسلت اناساً يستدعونه. ولدى وقوفه في باب الغرفة الصغيرة حيث اجتمعوا، أدرك أن خطوة واحدة داخل الغرفة تجعله عضواً في حركة ثورية مع امكان رميه في السجن مدى الحياة أو قتله. لكنه دخل الغرفة.

وقال: "أتمنى أن يمكنكم تحقيق ذلك من غير أسلحة".

فأجاب جوناثان: "هذا عام البندقية. واذا بلغنا موزامبيق، فماذا ينبغي فعله في رأيك؟"

وشعر الاستاذ نكسومالو بأنه هَرِم وغريب عن ذلك المكان. وكالعديد من المدرِّسين، كان تلقى إنذاراً بأن تعليمه يؤدي الى نتائج غير مرغوبة، لكنه قبل التحدي بعمق.

"عند بلوغكم موزامبيق، اتحدوا. ولا تتخذوا أي خطوة حتى يصير في إمكانكم اعتماد النجدة من جميع الحدود: ناميبيا، زيمبابوي، بوتسوانا، موزامبيق. ثم تحركوا ببراعة وحذر: خطوة الى الأمام وأخرى الى الوراء. وفي عشر سنين - بعد أن يأتيكم العون من روسيا والمانيا الشرقية وكوبا - سينهار الطاغوت".

وذهب الرجال الخمسة الى هملسدورب، متخذين طرقاً مختلفة. وهناك تلاقوا وساروا بعزم الى مركز الشرطة واحتلوا مدخله، ثم أسرعوا الى الداخل مفتشين الغرف بحثاً عن ماغوبين حتى وجدوه.

وسألهم من خلال شفتين متورمتين: "ماذا يحدث؟"

- هيا بنا الى موزامبيق!

وانطلقوا خارج الثكنة من غير حاجة الى اطلاق رصاصة واحدة، وأخفوا مسدساتهم واتجهوا نحو منفاهم الاختياري.

الفصل الأخير

من أبهج الأيام في حياة دتليف فان دورن يوم ١٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٦، الذي دُعي فيه الى إلقاء الخطاب الرئيسي في احتفالات "يوم الميثاق"، وذلك في المجمّع السكني الجديد الذي أُقيم في اشرافه فوق بلدة سوفياتاون السوداء بعد إزالتها بالجرافات. وقد أُطلق على المكان اسم "تريومف" (النصر)، واحتلته عائلات بيضاء حافظت على نظافة بيوتها وتألّق الأزهار في حدائقها.

وجاء خطاب دتليف، من نواح عدة، تلخيصاً لرأيه في مستقبل قومه. وهذه مقاطع مهمة منه:

"إياكم أن تنسوا أن هذه الأرض لنا نحن الافريقانيين الذين دفعنا ثمنها بدمنا وحفظناها بايماننا. ان مؤسس هذه الأمة، جان فان ريبيك، عندما وطىء هذه البلاد للمرة الاولى عام ١٦٥٢، وجدها خالية من الخوشا والزولو الذين لم يكونوا عبروا غرب



ليمبوبو بعد. أما وقد أصبحوا هنا، فواجبنا أن نرعاهم وننظم شؤونهم ونحكمهم.

"ولكي نصون ما أعطانا الله في عهده معنا، خضنا معارك كثيرة وربحناها. وسنبقى دائماً على استعداد للذهاب من جديد الى معسكراتنا الدفاعية المحمية بسياج من عربات رداً لأي اعتداء علينا. ان الدفاع عن أنفسنا واجب لأن الله وضعنا هنا كي نعمل أعماله.

"أبنائي وبناتي! كونوا مستعدين جسدياً وروحياً لصد هجمات اعدائنا. صونوا هويتكم. لا تسمحوا للانظمة الارهابية بأن تقوم على هذا التراب: لا دعاية شيوعية، لا ضعف ليبرالي، لا مطارنة انكليكان ينشرون الاكاذيب. ومتى حاربتم فاعرفوا أنكم تنفذون ارادة الله الذي قضى بأن تكونوا هنا. هذه هي ساعة النصر الافريقاني".

وما أن نزل دتليف عن المنصة حتى أحس بألم في صدره. وأخذ يمشي مترنحاً حتى بلغ مقعده وجلس عليه. وما لبثت الآلام أن هاجمته بعنف مرة اخرى، مصحوبة بثقل في صدره أدرك أنه أمر خطير. وحُمل سريعاً الى جناح خاص في مستشفى جوهانسبورغ، واستُدعيت عائلته من فريمير.

وكعادة المتقدمين في السن، مدّ دتليف يده المرتجفة الى حفيدته سوزانا ذات الشعر التبني الشاحب ـ وقد أُطلق عليها اسم شقيقته التي قُتلت في كريسييسمير ـ وتمتم: "اقتربي أكثر يا ساني". وحين قبل يدها ـ وهو أمر غريب جداً من جانبه ـ أدرك الآخرون أن موته بات وشيكاً.

وقال لها دتليف: "ساني، يجب ان تفعلي دائماً، ما هو صواب لبلادك". وقد كان المبدأ الذي انتهجه لحياته العمل الشريف والفعل العادل. وكان على قناعة بأن التشكيك في مبادىء الرجال ذوي الارادة الصالحة يشكل خطراً على الوطن.

وبعد انقضاء العصر أخذت تعبر مخيلته صُور الاعداء الذين هددوا أرضه. وتلا طلبة سريعة من اللعنات ختمها بذلك الاسم المشؤوم: "كريسييسمير"! ومد يده مرة اخرى نحو حفيدته. وعندما رأى وجهها المشرق، قال بصوت خافت: "ساني، اياك ان تنسي ما فعلوه بنا في كريسييسمير".

ونهض على ذراعه وأخذ يصيح: "نسقوا العربات بشكل دائرة! ساني، قولي للسائقين أن ينطلقوا..." وسقط الى الوراء، لافظاً أنفاسه الاخيرة وهو يقول: "نبهوا أبناءكم... كل شخص يجب ان يبقى في المكان المعدّ له".

■ **جيمس ميتشنر**

> في العدد المقبل
>
> **نجمة الحرية**



الانصاف انواع

أن يكون الحق كله الى جانبك نصف الوقت خير من ان يكون نصف الحق الى جانبك كل الوقت.

م.ف.

كتاب الشهر

فوق ذرى حملايا

أروع مغامرة لتسلق "سطح العالم"



هبت عاصفة هوجاء من أعالي هضبة التيبت الصينية، ترددت اصداؤها في أذني تشارلز ماسترز وهو على ارتفاع ٤٩٠٠ متر في منطقة افرست من جبال حملايا. وبينما كان يجهد لالتقاط أنفاسه من هواء المرتفعات الرقيق، حيث تتدنى نسبة الاوكسيجين، راح ينظر الى القمم المتوهجة حوله، فأغرته بارتقائها.

وكان ذلك الشاب الكندي أعطى نفسه اجازة سنة من الجامعة، أوصله تجواله خلالها الى مملكة نيبال في الشرق الاقصى. وهناك اتخذ قراراً جريئاً: أن يصعد الى سطح العالم!

فوق ذرى حملايا



بقلم تشارلز ماسترز

بالاشتراك مع روبرت كولينز

بدأتُ مغامرتي المرتجَلة في ليلة من يناير (كانون الثاني) ١٩٧٣ في غرفة رديئة الحال من أحد فنادق بانكوك عاصمة تايلاند. وكانت ليلة رطبة حارة، رحتُ احتسي فيها الشراب التايلاندي الرخيص مع صديقين كنديين هما أول من صادفتُ من مواطني خلال أسابيع، واسمهما رون ماكلين وغوردي كيفل. الأول من بلدتي كالغاري في مقاطعة البرتا، والثاني زميلي وشريك غرفتي في جامعة اونتاريو. وكنا جميعاً أخذنا فرصة سنة من الجامعة لنذهب في سياحة حول العالم. وتم لقاؤنا هناك عن طريق المصادفة المحضة. وقررنا ان نسافر بعض الوقت معاً.

وكان اجتماع شملنا بهيجاً، صممنا خلاله رحلة من شأنها ان تثير الحَسَد في نفوس زملاء صفنا القدامى. هل تكون غايتنا أفغانستان؟ كلا، فهناك قطاع طرق على طول تلك الطريق. بورما والهند؟ نعم، بالتأكيد. فيتنام؟ كلا... على رغم أني اتصلتُ بوالدي هاتفياً من سايغون - وهو دفع كلفة المكالمة - لأبث القلق في رأسه بتلك الفكرة. وأخيراً قلتُ: "لماذا لا نذهب الى نيبال؟ ربما تسنى لنا ان نقف عند جبل افرست".

وتألقت عينا ماكلين وهو يقول: "تعني ان نتسلق جبل افرست؟".

فأجبته من غير تحفظ: "أجل، سنتسلق جبل افرست!" وقرعنا كؤوسنا بعضها ببعض ونحن نقهقه على أثر تلك الفكرة الجريئة.

ولم تبارح صورة نيبال مخيلتي ونحن في طريقنا الى بورما والهند. فأنا أعشق تسلق الجبال، وقد قرأتُ الكثير عن متسلقي جبال حملايا، وهم صنف نادر من المتسلقين. والحقّ أنه لا يمكنني بلوغ قمة افرست. ولكن هل يعني هذا ان أحرم نفسي مشاهدة ذلك الجبل؟ ترى كيف لي ان أدنو منه وأقف أمام جَلاله؟.

إنني شاب من امريكا الشمالية، أشبه بني قومي في كثير من الخصائص المميزة. وكابن رجل ناجح في حقله، وهو علم طبقات الأرض الخاصة بالنفط، لم تعرف الصعوبات والتحديات سبيلا الى حياتي. وفي السابعة عشرة التحقتُ بجامعة كوينز في كينغستون (اونتاريو) استعداداً لدراسة الطبّ. وفي نهاية السنة الثانية، اجتزتُ الامتحانات بشقّ النفس. لذلك قررتُ أخذ اجازة سنة، أسافر فيها بحثاً عن ذاتي.

وأمضيتُ أول الأمر ثمانية أشهر في اوستراليا، أعمل في شركة مناجم مساعداً لأحد الجيولوجيين. وكان العمل شاقاً، لكنه أتاح لي توفير مبلغ خمسة آلاف دولار، وهو أكثر من كاف لسياحة حول الشرق الأقصى. وهكذا وجدتُ نفسي في تايلاند التي دخلتُها عن طريق سنغافورة.

والآن، بدا لي ان السفر برفقة

Photos: Charles Masters

صديقي رون وغوردي شائق وأكثر أماناً. فالمسافر وحده عليه ان يحمي نفسه ليلا ونهاراً من النشالين وصغار اللصوص. لكنني بت أشد تبرماً بالمسافرين الآخرين على تلك الطريق، وجلهم شباب مثلنا يتنقلون من بلد الى آخر ويقضون معظم أوقاتهم معاً.

وفي ظني أننا نحن "الهيبيين" - وهذه عبارة غامضة تطلق غالباً على الشباب الغربيين الذين يسيحون بالطرق الرخيصة - نبدو لسكان الشرق الأقصى أطفالا مزعجين بشعورنا الطويلة وملابسنا غير الرسمية وجرأتنا ونقودنا.

وبلغنا بلدة سيليغوري الهندية في أواخر فبراير (شباط) بعد رحلة مرهقة في القطار والحافلة. وهدّني الضنى الى حد تمنيتُ معه، للمرة الاولى منذ اشهر عدة، ان أكون في بلدي. واستأجرتُ غرفة حقيرة، ولكن نظيفة، في محطة القطار، كانت تحوي سريراً وحماماً وباباً يمكن اقفاله. وكان المتسولون والمنبوذون في الخارج يضطجعون على الرصيف بأسمالهم، ويقضون حياتهم هكذا. وقد اشتريتُ لنفسي تلك الواحة من السلام والطمأنينة بسبع روبيات، أي أقل من دولار واحد، في الليلة، وهو مبلغ يفوق مئة مرة ما يملكه معظم اولئك البائسين.

وسجلتُ في مفكرتي ما يأتي: "ليس هذا عدلا. لكن الاوراق وُزعت على هذا النحو. وللمرة الاولى في حياتي أدركتُ أنني محظوظ جداً...".

ودفعني ذلك الحادث الى التساؤل عن رحلات زملائي التي لا طائل وراءها، وعن دوافعي أنا أيضاً. وكتبتُ في المفكرة: "اكبر قليلا يا تشاك ماسترز!".

ولكن مهما يكن الأمر، فقد كانت لديّ حاجة الى الاتيان بأمر عظيم يتجاوز المألوف، وذلك لتأكيد قيمتي في نظر نفسي.

وصادف اني رحتُ أكثر التفكير في جبال بلادي ومقدار حُبي لها وشوقي اليها. كنتُ في السادسة حين بدأتُ أتسلق مرتفعات روكي (سلسلة جبال في غرب امريكا الشمالية). ولدى بلوغي الرابعة عشرة أرسلني والدي الى مدرسة للتسلق قرب بانف في مقاطعة البرتا. وأمضيتُ عدداً من فصول الصيف متسلقاً تلك الحبال. وعلى رغم اني لم أصبح خبيراً في التسلق، الا أني وجدتُ متعة بالغة في التحدي الذي يواجهني به التسلّق.

ولم يسبق ان تسلقتُ أكثر من ٣٦٠٠ متر أو أن طرقتُ مكاناً منعزلا. كما لم يسبق لي التسلّق بمفردي. ولم تراودني، وأنا في الوطن، فكرة التسلّق في نيبال. أما الآن، فلماذا لا أُقدِم على هذا الأمر؟ وعبر في ذهني القول المأثور الآتي:

"ان الشجاعة نار، اذا أردت بها أمراً فبادرهُ، ان الدهر مطفئُها!".

حشيش ومهووسون

في ٣ مارس (آذار)، حَشَرنا نحن الثلاثة أنفسنا في صندوق شاحنة انطلقت بنا الى نيبال، هذه المملكة الضيقة التي ترتع كالشطيرة بين الهند والتبيت. كان الهواء نقياً

ومنشطاً، وعند الافق البعيد الى الشمال الشرقي انتصبت جبال حملايا العظيمة. وذهبنا في طريق متعرجة جنوباً نحو العاصمة كتمندو، وهي مدينة تضم أكثر من ١٥٠ ألف نسمة وتقع في واد دائري.

ووجدنا غُرَفاً جيدة لاقامتنا، تبلغ كلفة الواحدة منها نحو دولار واحد في الليلة. وكان ثمن الوقعة الفاخرة المؤلفة من خضر صينية مع شريحة من لحم جاموس الماء نحو ثلاثة أرباع الدولار. وبعد ذلك خرجنا لاستكشاف كتمندو التي ذكرتنا، من ناحية، بأيام الرحالة الايطالي، ماركو بولو. وهبت على حواسنا أنسامُ حضارة قديمة بمشاهدها وأصواتها وروائحها الغريبة. وكانت المعابد الهندوسية والبوذية منتشرة في كل مكان. وكان بعضها مقبباً والبعض يشبه الباغودا (هيكل او معبد متعدد الطوابق)، فيما كان عدد آخر محاطاً بصفوف من العجلات التي تستخدم في الصلاة.

ورأينا تماثيل مذهبة ومنحوتات بالحجر والخشب صنعت بدقة مذهلة. وسمعنا رنيناً متواصلا منبعثاً من الأجراس والنواقيس. وشممنا رائحة زكية من الكري والتوابل. وتوقفنا في السوق المركزية الكبيرة وسَط المدينة. هناك شاهدنا الأبقار المقدسة تطوف الشوارع الضيقة من غير ان يصدها أحد، متشاركة في المكان مع رهبان التيبت ورجال الهندوس الأتقياء وبائعي الزهر وأبناء البلد الذين كانوا يجرّون الخطى تحت أحمال ثقيلة من الحطب المثبت فوق رؤوسهم.

لكننا هنا أيضاً، لم يكن لنا مفر من بني قومنا. وكان الحشيش والماريوانا غير محظرين قانونياً، وتحلق الشبان الاوروبيون والامريكيون الشماليون في "دكاكين الحشيش" لتعاطيهما. وفاق عدد تلك الدكاكين العشرة، وقد أنشأها لاجئون من التيبت تلبية لطلب السياح الغربيين. وفي الامكان شراء أفضل أنواع الحشيش في كَتمندو وتعاطيه على أنغام الموسيقى المرتفعة وتراتيل الهندوس الدينية.

لقد سحرتني تلك المدينة الدافئة المريحة، لكنها أثارت انفعالي في الوقت نفسه. وكتبتُ الآتي: "ان الجلوس في أحد مقاهي كتمندو مع حفنة من المهووسين بالحشيش ليس ما أسعى اليه". وكانت جميع أفكاري وقواي منصبة آنذاك على جبال حملايا. وقر رأيي رون وغوردي، اللذين لم يسبق لهما تسلّق الجبال قط، على العودة الى الهند:

وذهبتُ الى مؤسسة "آنغ كامي شيربا" المختصة ببيع عدة التسلّق. واشتريتُ حبلين من النايلون يبلغ طول الواحد منهما ٣٦ متراً، وبراغي للجليد ورزات صخرية وخفّين مسماريين لتغليف الحذاءين ومشابك معدنية كبيرة ذات زنبرك، تستعمل لتثبيت الحبال. وأضفتُ الى تلك العدة قميصاً وسروالا داخليين كثيفين وخيمة خضراء من النايلون وفأسين للثلج وحذاءين واقيين. وبلغ ثمن هذه التجهيزات كلها نحو ٢٥٠ دولاراً، وهو عشرون في المئة فقط من كلفة المعدات نفسها في بلادي. وهكذا تجهزتُ بما يكفي لبرنامج التسلّق المتواضع الذي رسمتُ خطته.

وكان منظمو برامج التسلّق الثلاثة عشر في نيبال ذلك الربيع قد سحبوا جميع الخرائط الصالحة لمنطقة افرست. واشتريتُ من "آنغ كامي شيربا" خريطة بسيطة تظهر فيها الطرق الوعرة والقرى والقمم الرئيسية، ولكن تختفي منها الأوصاف الدقيقة للأماكن. وقرأتُ عليها الملاحظة الآتية: "ان رسوم الجسور والمعابر النهرية قد لا تظهر في بعض المواضع".

واتضح أنه من الحماقة ان أشرع في مغامرة كهذه من غير دليل. ولكن تبين لي ان حملات التسلّق الثلاث عشرة استوعبت جميع أدلاء نيبال المتمرسين من جماعة الشيربا. ويبلغ عدد أفراد هذه الجماعة نحو ٨٥ ألفاً. وهم أصلا من التيبت، لكنهم يعيشون اليوم في نيبال، خصوصاً في جبال حملايا. وقد اكسبتهم حملات تسلّق افرست بعد الحرب العالمية الثانية شهرة عالمية. وليس هناك من يعرف تلك الجبال أفضل منهم، كما أنه ليس لأحد استعداد جَسَدي أفضل للتسلّق. فأجسادهم اعتادت تأدية وظائفها في المرتفعات الشاهقة الى حَدّ جعل المتسلقين الآخرين يشيرون، على سبيل المزاح، الى "الرئة الثالثة" التي يتمتعون بها. وبحثتُ في كتمندو عبثاً عن أحد اولئك الأدلاء. وأخيراً حمل اليّ آنغ كامي شيربا خبراً طيباً: "سيدي! لديّ شخص يقول انه تسلق الجبل مع هيلاري". وكان السير ادموند هيلاري أول من تسلق قمة افرست عام ١٩٥٣.

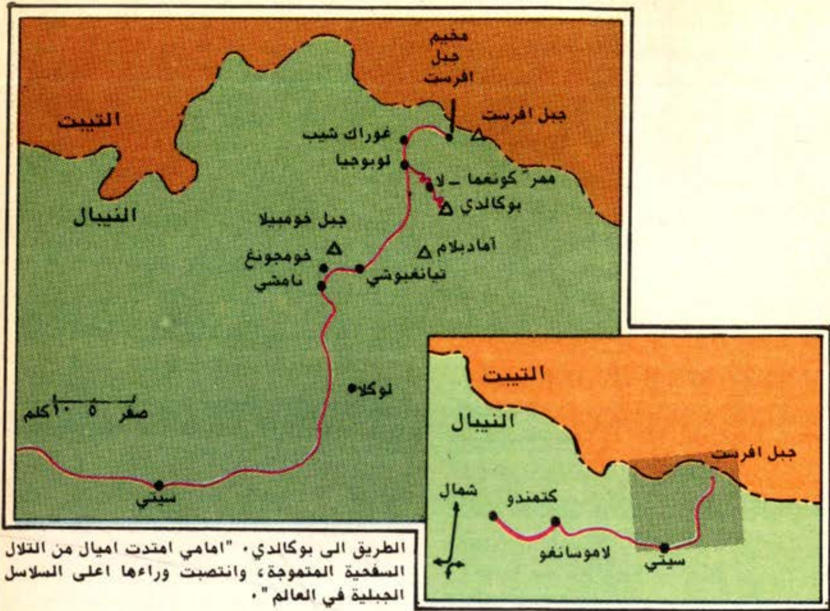
وهكذا التقيتُ نيما تنزي شيربا، وهو شاب وسيم هادىء في الثامنة والعشرين، قصير القامة لكنه قوي البنية كمعظم بني قومه. ولم يكن لديه أيّ برهان على أنه تسلق سابقاً، الا اني اخذتُ ما قاله آنغ كامي على محمل الجد.

وقلتُ لنيما: "أهلا وسهلا"، ومددت له يدي. فصافحني بحياء وعيناه مسمَّرتان أرضاً. ترى أيكون صاحبنا معقود اللسان؟ ثم راودتني هذه الفكرة: انه لا يتكلم الانكليزية على الاطلاق.

ولكن كنتُ أمام خيارين: نيما أو لا احد. واتفقتُ معه على ١٥ روبية (نحو دولار ونصف دولار) يومياً، على ان أزوده بالطعام. ثم ابتعتُ قاموساً نيبالياً - انكليزياً مع كتاب لقواعد اللغة يحوي مبادىء اللفظ. واخذتُ أدرس كلمات ضرورية مثل "اباتي" (خَطَر) و"اوكلانو" (أَتسلق). ومنذ ذلك الوقت بدأتُ أدرس تلك اللغة كما لم أدرس أي شيء آخر في حياتي. ففي تسلّق الجبال تكون حياتك، بكلّ ما في الكلمة من معنى، في يد الآخر وحياته في يدك، بحيث يؤدي أبسط سوء تفاهم الى مقتل أحدكما.

واكتريتُ حمالا من الشيربا في الثالثة والعشرين، اسمه بورتمبا. وكان قوياً على رغم نحوله. ولم يكن يعرف الانكليزية، الاّ أنّ بسمته الدائمة كانت خير برهان على حسن معشره. وأعطيته عشر روبيات يومياً، على أن يؤمن هو طعامه كما هي الحال بالنسبة الى الحمالين.

وكان القانون الحكومي ينص على ان يحدد الترخيص نوع التسلق. وهناك نوعان منه: واحد خفيف يعني



الطريق الى بوكالدي. "امامي امتدت اميال من التلال السفحية المتموجة، وانتصبت وراءها اعلى السلاسل الجبلية في العالم".

السير في الممرات المطروقة، وآخر شاق يتناول الطرق الوعرة والجبال المحظرة على غير المتمرسين. لكن الرسوم والشروط المتعلقة بالنوع الثاني كانت فوق طاقتي. ولذا حصلت على ترخيص بالنوع الاول في مقابل ٢٠ روبية. وكانت تأشيرة الدخول التي منحتني اياها السلطات المحلية صالحة لمدة ستة أسابيع، وهذا كاف لبلوغ مرتفعات افرست القريبة والعودة منها بعد تمضية بضعة أيام هناك.

وحملتُ من الأغذية الرئيسية الرز والبطاطا والدال، وهو عَدس مطبوخ مع الزعفران والملح، وكيساً كبيراً من الحلوى والبن والشاي والسكر والبسكويت، وزيتاً للقلي وخمسة

كيلوغرامات جبناً. وفي الامكان شراء مواد اخرى على الطريق. وبما ان الشيكات السياحية لا يمكن صَرفها عبر ممرات الجبال الوعرة، فقد حشوتُ جيوب سترتي قطعاً نقدية صغيرة بلغت قيمتها خمسة آلاف روبية. وهذا جعلني قلقاً، وكان عليّ ان أنام بسترتي أو أحملها على ظهري طوال الوقت.

في ١٠ مارس (آذار) قفل صديقاي رون وغوردي عائدَين الى الهند، بينما ذهبتُ ومرافقيّ الى بلدة لاموسانغو في رحلة قاسية بالحافلة استغرقت أربع ساعات. ومن هناك انطلقنا الى مسالك جبل افرست. وشاهدتُ أمامي تلالا متموجة تمتد مسافة كيلومترات، اشرأبت وراءها

أعلى سلسلة جبلية على الأرض، وفيها خمس وعشرون قمة يزيد ارتفاع الواحدة منها على ٧٦٠٠ متر.

أما هناك في كالغاري، فكان أهلي يجهلون ما أفعله تلك اللحظة. كنتُ منفصلا تماماً عن عائلتي وشاعراً بسعادة لم اختبرها من قبل.

بلد الابتسام

لقد كنتُ "الصاحب"، اي السيد المتقدم، بين ذينك الرفيقين. لذلك كان حملي هو الأخف، ووزنه نحو ٢٣ كيلوغراماً. وحَمَل نيما ٣٠ كيلوغراماً. أما بورتمبا الناحل، الذي اختفى تحت حمل يزن ٣٦ كيلوغراماً، فلم يظهر عليه أثر للعياء. ومشينا في طقس منعش بلغت حرارته ٢١ درجة مئوية. وكان رفيقاي يرتديان قميصين وسروالين قصيرين من القطن، فيما ارتديتُ أنا سترة قصيرة حمراء ووضعتُ كيساً أحمر على ظهري.

وبينما كنا نتغدى خارج منزل على جانب الطريق، رحتُ اسجل الافكار البهيجة الاولى في مفكرتي، فيما جلس الى جانبي رجل يحوك حصْراً من القشّ ووقف طفل أسود الشعر ينظر مندهشاً الى لون بشرتي الفاتح وشعري البني ولحيتي التي استحالت شقراء بعد تعرضها للشمس طوال أسابيع. ورحتُ احدّق الى جبال حملايا المتلألئة تحت أشعة الشمس، ولفتني واد عظيم يضيق تدريجاً حتى يتلاقى جانباه. ان الصوَر لا تفي هذه الجبال حقها. والعين المجردة وحدها يمكنها الوقوف أمام روعتها.

وسجّلْتُ بعجلة ما يأتي: "ستكون رحلة العمر! ان عواطفي تجيش في صدري بعنف فلا يمكنني التعبير عنها بالكلام".

وكان هدفنا الأخير يبعد ١٩٠ كيلومتراً شرقاً على خط مستقيم. الا ان المنعطفات والمرتفعات والمنخفضات من شأنها مضاعفة المسافة. وقطعنا أودية يمر فيها عدد من الأنهُر العظيمة متجهاً جنوب حملايا، ثم تسلقنا مرتفعات تتجاوز الـ١٨٠٠ متر.

في اليوم الثاني استقر برنامجنا على خطة معينة. فكنا نستيقظ في السادسة صباحاً تحت سماء صافية كالبلور ونتناول فطوراً من الشاي والبسكويت. ونتسلق بعد ذلك عبر أجمات من الصنوبر والنباتات شبه الاستوائية والأزهار البرية والتلال المتراصة. ويملك بعض النيباليين هناك مزارع صغيرة تقل مساحة الواحدة منها عن نصف هكتار، ويزرعون فيها الرز والقمح والشعير والبطاطا والذرة.

وكنا كل يوم نخلف وراءنا قريتين او ثلاثاً حيث المنازل متصلة وقد بُنيت بالخشب أو الحجر او الطين وطلي بعضها بالكلس الأبيض. لكن نوافذ معظمها خالية من الزجاج. والمزارعون هناك يحرثون حقولهم بأدوات بدائية. وكان الجبليون العُتاة يمرون أمامنا بأحمال الحطب وقرَب الماء. وكان بعضهم يتجاهلنا، أما العديد منهم فيبشّ لنا ويلاقينا بعبارة "ناماستي" التي تعني حرفياً: "اني أُحيّي جميع الخصال الالهية فيك". والحق ان نيبال هي بلد الابتسام.

وفي قرابة العاشرة صباحاً كنا نتوقف لتناول وقعة رئيسية، وهي دجاجة نأتي بها من أقرب مزارع أو سمكة نشتريها من بائع متجول، ثم نشويها او نحشوها ونطبخها على نار نوقدها لتلك الغاية.

وعلى رغم اني كنتُ أُعقم ماء الشرب دائماً، الا ان نوبة من الاسهال الشديد جعلتني أخرج من كيس النوم الى المطر المتجلد مرة بعد اخرى في الليلة الثانية. لكن معدتي تعوّدت هذا النمط الجديد من الحياة مع الوقت، وكذلك عضلاتي.

وبينما كان نيما وبورتمبا يعدان وقعة الظهر، كنتُ أنا أدرس في كتاب القواعد. وتعلمتُ كلمات عملية من نوع "دليل"، "عسر هضم"، "مستحيل"، "ملجأ"، "هدَف"، "كثير"، محاولا اجادة لفظها. وكنا، وقد انعشَنا الغداء، نتابع السير حتى الغسَق.

وفي وقت متقدم من عصر اليوم الثاني، قطعنا مُنْحَدراً بعمق ١٨٠٠ متر ووقفنا عند جدار واد حجب عنا المنظر الشمالي. الا اننا تابعنا السير وراء الجدار. وهناك، على بعد ٤٠ كيلومتراً، لاحت لنا قمة غوري سانكار التي تعلو ٧١٤٤ متراً. وانتصبت كملك متوّج ومجلبب بالأزرق الرمادي والأبيض.

وقفتُ هناك مشدوهاً وانا ارى الجبل العظيم عن قرب للمرة الاولى. ان ماونت لوغان، اعلى جبال كندا، يرتفع ٦٠٥٠ متراً. أما اعظم جبال امريكا الشمالية، وهو ماونت ماكنلي في الاسكا، فيعلو عنه ١٤٣ متراً.

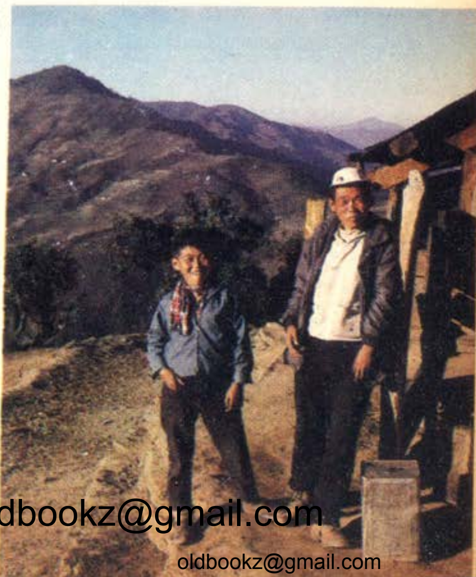
لكن ما أعانيه الآن ليس الارتفاع المحض... انه الجلال! وكان غوري سانكار مكللا بذروتين تشمخان نحو السماء مثل فكين عملاقين ينفثان أمواجاً من السحاب الأبيض كالثلج. وكانت السحابة ترتفع عالياً قبل ان تنجرف شمالا نحو الصين. وغابت الشمس رويداً رويداً، فأمسى الجبل كتلة وهاجة برتقالية اللون واستحالت سُحُبه الرقيقة ناراً.

وتسمرتُ في مكاني مسحوراً. ثم أدركتُ أن الظلام بدأ زحفه. فانحدرتُ في الممرات الوعرة على مضض وأنا ما زلتُ أُحدّق الى تلك القمة الالهية. وتعثرتُ مراراً، لكني لم استطع ان اشيح بنظري عن غوري سانكار الى ان حجبته الأشجار عني.

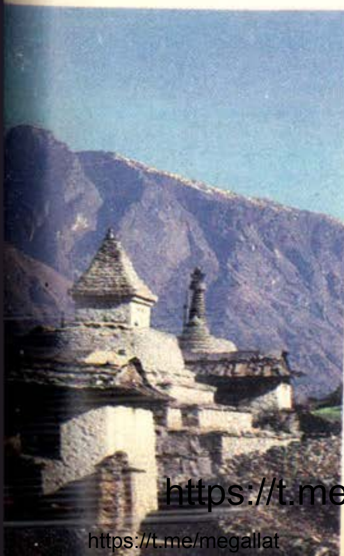
وللمرة الاولى في ليال عدة، نمنا في منزل عائلة نيبالية يقوم على تلة عالية. ودفعنا ثلاث روبيات (نحو ٣٠ سنتاً) في مقابل مبيتنا وتناوُلنا الطعام. وكان ذلك المنزل، كمعظم المنازل هناك، مؤلفاً من طبقتين: العليا للعائلة والسفلى للماشية والعلف ومعدات الزراعة. وفرشتُ كيس النوم في ركن من الغرفة الكبيرة التي تضم موقداً مفتوحاً يتصاعد منه الدخان. وراح اصحاب المنزل يثرثرون ويأكلون ويشربون حتى ساعة متقدمة من الليل. وبال الأولاد الصغار في زوايا تلك الغرفة، مما أضاف الى مزيج الروائح. أما انا فقد هدّني التعب الى حدّ تغاضيتُ معه عن التفاصيل.

ودوّنْتُ الآتي: "١٨٠٠ متر تسلقناها بمشقة البارحة. انني لم أهبط قَطّ منحدراً بعمق ١٨٠٠ متر عبر ممرات ضيقة ومحفوفة بالأخطار،

"لا يصدق!" ذلك كان انطباع ماسترز الاول لدى رؤيته جبال حملايا. وهنا، مثل قزم صغير امام قمتي سيركو وكانغتيغا، يجتاز بورتمبا الحمال جذع شجرة متجمداً لعبور جدول جليدي.



فو دورجي وابنه نورو. "انه رجل عظيم" كتب ماسترز في مذكراته عن هذا الدليل من جماعة الشيربا الذي وصل الى ارتفاع ٨٥٠٠ متر في جبل افرست من دون جهاز اوكسيجين.

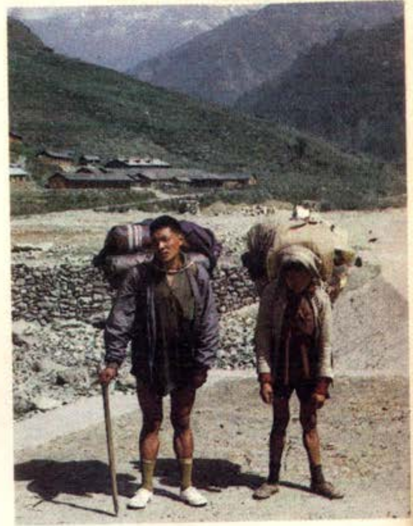


احد بيوت "الشيربا" ومعبد بوذي في وادي دوز كوسي "نهر الحليب".

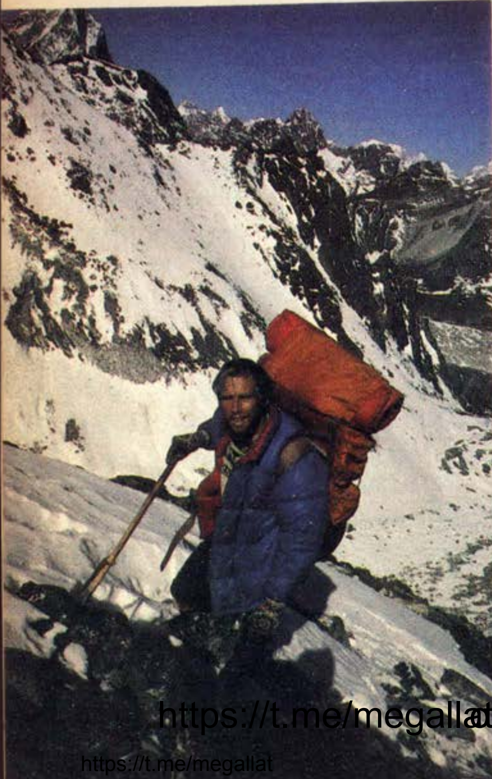
المجد للجوهرة التي في زهرة اللوتس ،
حفرت هذه العبارة البوذية على جدار صلاة
لجماعة الشيربا .

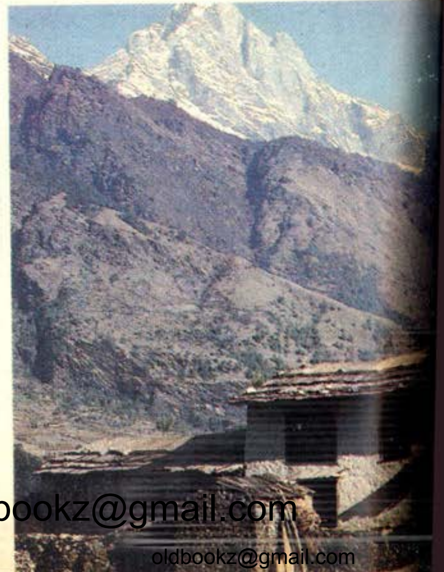


نيما تنزي (الى اليسار) وبورتمبا في
لاموسانغو في اليوم الاول من الرحلة .



ماسترر فوق كونغما ـ لا خلال تسلق جبل
بوكالدي . "ازداد الانحدار شدة والهواء
رقة . لم يعد هناك وقت للضحك" .





قَطَعْنا بعضها زحفاً على الرُكَب. وكانت رجلاي ترتجفان وكدتُ الا أقوى على الوقوف.

"لقد اعتاد هؤلاء القوم الحياة القاسية حتى كدتُ ان ابكي وأنا اقارن حالي بحالهم. ووقفتُ في ثيابي الزاهية وخفيَّ الثقيلين أراقب رفيقيَّ القويين وهما يحملان أكثر مني ويقطعان تلك الممرات الصخرية الضيقة صعوداً ونزولا ومن غير احذية احياناً. ترى هل يأكلون المسامير في الصباح؟".

بين يدي مبتدىء

كنتُ أنام بعض الليالي في خيمتي التي أنصبها بعيداً عن نيما وبورتمبا اذا احسست لديهما ميلا الى التباري في الشراب مع السكان المحليين. وجماعة الشيربا ينهضون من النوم غالباً نحو الثانية فجراً، ويبدأون تجرع ال"تشانغ"، وهو بيرة مصنوعة من الشعير أو الذرة او الرز، كذلك ال"راكشي"، وهو شراب قوي مخمَّر من الرز.

وكنتُ استغلّ كلّ مساء وكل فترة راحة لدراسة اللغة بجد، موسعاً مفرداتي بممارسة الالعاب اللغوية مع النيباليين الذين كنا نصادفهم. وكانوا يضحكون عالياً بينما اومىء بالسير والشرب والتسلّق وأسألهم عند كل اشارة: "ماذا أفعل؟" حتى اذا أجابوني دَوَّنْتُ ذلك في دفتري، فيما كانت عشرات الأعْيُن ترتفع خلف ظهري لتنعم النظر في تلك الكتابة الغريبة.

وبات في امكاني محادثة نيما الى حد معقول. لكن ذلك لم يؤدِّ الى راحة بالي. فهو لم يكن ذا مبادرة، حتى في مراقي الجبال الوعرة. ومرة سألتُه: "ما هي الجبال التي سبق ان تسلقْتَها يا نيما؟"

فتجنب النظر اليّ. لكنه رفع عينيه الى سلسلة الجبال الوسطى، وقال بعد تفكير: "لم اتسلق الجبال العالية".

- وأيّ الجبال الصغيرة تسلقتَ؟

"الجبال الصغيرة جداً".

ولم أجرؤ على طرح ايّ سؤال آخر. ترى هل أكون تائهاً في نيبال بين يدي مبتدىء؟

وكنا نقطع يومياً نحو ٢٥ كيلومتراً، صعوداً وهبوطاً على "تلال" ترتفع كل منها ٢٥٠٠ متر. ورأينا السيول الهادرة تتدفق من ثغر صدع عميق وتندفع عبر أودية خضراء فسيحة تضيق حتى تتلاقى. وبدت جدران الاودية المتراصة مثل سلَّم ترقى الى السماء. وكنت أقف عند قنة كلّ تلّ صغير، محدّقاً الى قمم التيبت بثلوجها المتلألئة فوق سطح العالم.

لكن تمتُّعي بتلك العظمة كلها خالَطَهُ بعضُ ألم. فمنذ اليوم الرابع، بدأت كتفاي تلتمعان باستمرار وأحسستُ بالقروح تملأ قدميّ. وعلى رغم حداثة سني ونشاطي، فقد وجدتُ نفسي غير مؤهل لتسلُّق جبال حملايا، وجدير بالذكر ان معظم المتسلقين المتمرسين يعوّدون رئاتهم وعضلاتهم تدريجاً على ذلك المكان. أما أنا فلم يكن لديّ وقت أضيعه. وهذا سلبني الراحة.

وبينما كنتُ جالساً على صخرة ذات عصر، أتوجَّع وأحاول استجماع

قوة تعينني على النهوض، انحدر شخص ذو وجه بني باسم عن احدى التلال، ووقف أمامي مطلقاً ضحكة حادة وهو يقول: "مرحباً يا سيدي! هل أنت مُتْعَب؟".

كان اسم ذلك الشخص فو دورجي، وهو شاب قصير وممتلىء الجسم من الشيربا، في أواخر الثلاثينات من عمره. وكان من أفضل ادلاء نيبال وقد رافق حملات تسلُّق كثيرة. ومرة بلغ نقطة في جبل افرست ترتفع ٨٥٠٠ متر. اما الآن فهو يرافق زوجين اوروبيين الى دير ثيانغبوك الشهير قرب افرست. وكانت تلك المهمة سهلة بالنسبة الى متسلق قديم، وربما كان فو دورجي يشعر بالسأم. الا انه أبدى اهتمامه بي، مما جعل نهاري سعيداً.

وكان فو دورجي يتكلم الانكليزية على نحو متوسط الجودة. أما ابنه الذكي نورو الذي كان يرافقه، وعمره ١٢ سنة، فكان يتكلم الانكليزية بطلاقة. وكلما تلاقينا خلال الايام القليلة التالية، كان فو دورجي أو ابنه يسير الى جانبي أو يشرب معي فنجاناً من الشاي في آخر النهار:

واقتصر كلامنا على الجبال والتسلُّق وقطاع الطرق الذين كانوا يكمنون أحياناً هناك، لكنني لم أُصادف أياً منهم. كما تكلمنا عن أخطار الطقس والمرتفعات. ولكم كان ممتعاً ان أتحدث بسهولة من جديد ومع شخص يملك الأجوبة عن جميع اسئلتي حول جبال حملايا. وأصبح نورو الصغير استاذي في اللغة النيبالية فأعطيتُه، في المقابل، القاموس النيبالي ـ الانكليزي.

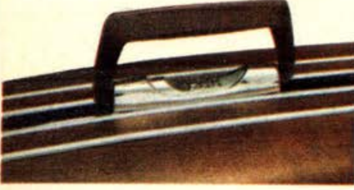
وكان للاثنين، فو وابنه، الفضل في رفع معنوياتي الضعيفة. وتقرحت قدماي وسال منهما الدم. وكنتُ كلما عاودتُ السير بعد استراحة تعثرتُ قليلا قبل ان اعتاد الألم. أما الأمر الذي لم يعد يجوز تجاهله فكان: اتناسبني الأمكنة المرتفعة؟

ان التسلُّق يولد في الجسم عدداً من التغيُّرات. ويصاب بعض المتسلقين بالاستسقاء الرئوي، وهي حال يتراكم معها السائل في الرئتين، ويصبح المصاب ضمن حلقة مفرغة اذ يعوق السائل انتقالَ الاوكسيجين مما يؤدي الى ازدياد الافراز، وهكذا. واذا لم يعطَ المصاب الاوكسيجين حالا ويُنْقَل الى ارتفاع أدنى، فهو قد ينهار ويفقد الوعي ويموت غرَقاً في السائل المتدفق من جسده.

لقد عانى والدي الاستسقاء الرئوي مرتين، وكاد ان يموت وهو على ارتفاع ٣٦٠٠ متر المرة الاولى و٢٧٠٠ متر المرة الثانية. أتكون هذه الحال وراثية؟ لا احد يدري.

وعلى سبيل الاحتياط، طلبتُ الى نورو ان يصف لمرافقي نيما الأعراض التي ينطوي عليها ذلك الداء، ومنها السعال المشْبَع بالرّطوبة والتنفُّس السريع ودقات القلب المتسارعة. وكان على نيما ان ينقلني الى ارتفاع ادنى اذا ظهرت عليّ تلك الأعراض. وكنتُ مزمعاً على صرف بضعة أيام في تكييف نفسي عند بلوغنا ارتفاع ٣٩٠٠ متر، وذلك بالقرب من احد المستشفيات التي أقامها السير ادموند هيلاري في تلك الجبال لتكون عوناً للمتسلقين في حالات الطوارىء.

كيفما تسافر...



سيلويت ٢٠٠ - حقائب السفر العصريّة

مجموعة "سيلويت ٢٠٠" هي الجواب المثالي لحاجات كل مسافر عصري ، إنها أنيقة وجذابة من الخارج ، فاخرة من الداخل ، عملية ومتينة . تتمتّع "سيلوت ٢٠٠" بعدّة مزايا ، أبرزها: اقفالها المزدوجة الفريدة من نوعها ، ضمان أكيد لمحتوياتها ، عجلاتها المخفية تجعل اثقل الاحمال خفيفة بالاضافة الى عتلتها اليدوية القوية لتسهيل نقلها والعمل على راحتك .



اما حقيبة جمبو XL الجديده التي تتسع لخمس بدلات ، فهي اكبر حقائب سامسونايت ، ومزوّدة بأربعة عجلات صغيرة كي تسير برفق ودون عناء .

هنالك أيضاً حقيبة يدوية صمّمت خصّيصاً لتوضع تحت مقعد الطائرة .

هذه المجموعة متوفرة بأحجام والوان مختلفة .

كيفما تسافر - انك تسافر على الطريقة العصرية مع "سيلويت ٢٠٠"





إنها أصليّة - إنها سامسونايت



سامسونايت® Samsonite®

حقائب سامسونايت الأصليّة - مصنوعة في الولايات المتحدة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

في الليلة السابعة خيمت جماعة فو دورجي وجماعتي في قرية سيتي تحت طريق لامجورا، وهي أعلى طريق يعبرها المرء قبل ولوجه منطقة افرست. وفي حديثنا الذي اعقب الغداء، اخبرتُ فو عن شكوكي المتعلقة بدليلي نيما.

وقال فو بانكليزيته المحلية: "سيدي، كان يجب ان اخبرك من قبل عن نيما هذا... انه جديد في المهنة. وأنا لم أشأ اثارة قلقك، ولكن يجدر ان تعرف ان نيما تنزي لم يفعل شيئاً من قبل".

وسألْتُه ان يستجوب نيما، ففعل بلغة نيبالية سريعة كالنار. وتبين ان نيما لم يتسلق قمم الجبال قبل الآن. وهو رافق احدى حملات هيلاري، ولكن ليس كمتسلق. ولم يسبق له ان استعمل حبلا او وضع في قدميه خفيْن مسماريَّيْن.

وفار الدم في عروقي. لقد كان نصيبي حَمالا ماهراً أُطلق عليه اسم دليل! وبدا لي ان حلمي الكبير انهار. كيف لي ان أتسلق في تلك الأرض القاسية من غير مساعدة دليل متمرّس؟.

واستيقظتُ صباح اليوم التالي بمزاج نكد. وكان جسمي لا يزال كومة من الأوجاع. وأحببتُ الابتعاد عن نيما وبورتمبا. وقلت لهما: "لاقياني هذه الليلة في جونبيسي"، وهي قرية على الجانب الآخر من الطريق. وبعد الفطور انطلقتُ في طريقي وحيداً وأنا أفكر.

الا ان معنوياتي ارتفعت بعدما اجتزتُ مسافة طويلة تخللتها بقع من الثلج على ارتفاع ٣٠٠٠ متر، ثم عندما زاد الثلج عمقاً على ارتفاع ٣٦٠٠ متر. وكان الثلج عنصراً أليفاً هدّأ خاطري وذكرني بجبال روكي. وهبت الريح لدى بلوغي القمة. وتدفق فيّ النشاط الذي يعرفه المتسلقون عند وصولهم الى الهدف.

وجلستُ على صخرة دهرية رحتُ أنظر منها ورائي الى سلاسل الجبال التي ارتقيتُها والى السلاسل التي ما زالت أمامي مغلفة بالضباب الرقيق. ان أياماً اخرى من التعب تنتظرني. ترى كيف لي ان أَقهرها؟.

وعاودتني الكآبة على رغم زرقة السماء وحدّة الشمس فيما بدأتُ أنحدر عن احدى التلال. ووقفتُ عند جدار من الحجر يستعمَل للصلاة - وهناك عدد كبير مثله في تلك الشّعاب - وانزلت حملي عن ظهري. واقتلعتُ عشبة من الأرض رحتُ أمضغ جذرها وأمشي الهوينا وأنا مكتئب. وفجأة سمعتُ صوتاً يقول: "سيدي، أأنتَ مريض؟".

ولاح لي وجه فو دورجي المرح وابتسامته المشرقة. وكان قد ترك الزوجين الاوروبيين ينحدران عن التلة في عهدة ابنه نورو وحمال، وعاد هو للاستفسار عني. وارتفعت معنوياتي لدى مشاهدته.

وقال: "انهض يا سيدي، فالشمس شارفت الغروب".

فأجبته: "لماذا لا تستريح قليلا؟" وناولْتُه عشبة ليمضغها مثلي. فتردد أولا، لكنه ما لبث ان اخذها بابتسامة عريضة. وجلسنا نقضم العشب كجاموسَي ماء. وأخيراً قفز فو وقال: "دعنا نذهب من هنا".

وحاولتُ تنشيط نفسي متحدياً

الألم. وكانت مفاصل رجليّ تؤلمني وكتفاي حمراوين كاللحم النيء، وفي وركي اليمنى عصب موجع. وأعدتُ تنشيط عضلاتي المتوترة وأنا أقول لنفسي: "اذا كان الامر كذلك، أريد ان أعيش بعد الأربعين!".

واجتزنا التلة انحداراً نحن الاثنين. وعلى الطريق برز لنا جبل نومبور بملء جلاله، وهو يرتفع ٦٨٥٥ متراً بعيداً الى الشمال. وتوقفنا هنيهة راح فو دورجي خلالها يشير الى القمم الأقل ارتفاعاً. وقلتُ لنفسي: "هذه الجبال عند مرمى يدي، وهذا صديق طيب الى جانبي. رحلتي، اذاً، كانت جديرة بهذا العناء، ولسوف اتذكرها يوماً وأشعر بالسعادة".

وبينما كنا نجر الخطى نحو جونبيسي، هرع الينا الفتية الصغار وهم ينشدون: "شوكولاته! شوكولاته! اننا نأخذ الشوكولاته". وكان ذلك مقطع اغنية أليفاً لديهم. وأعطيتهم بعض الحلوى وأنا اراقب سرورهم بجَذَل. ولكن ما عتم اولئك الأحداث ان بدأوا يثيرون اعصابي. وراحوا يتحلقون حولي ليلا ويشدّون شعري ويلعبون بأزرار ملابسي البراقة. ووجدتُ في الحلوى السبيل الوحيد لشراء راحتي منهم.

وفي الصباح تبخر مزاجي الكئيب. وانتعلْتُ خفَّيْن للرياضة جعلا قدميّ ترتاحان بعد ألم طويل. واندفعتُ بقوة مخلفاً ورائي نيما وبورتمبا، كذلك فو دورجي والزوجين الاوروبيين، كما تجاوزت جماعة من اليابانيين ووقفتُ أمام أروع مشهد رأيتُه حتى ذلك الوقت. ها هي أعظم جبال الأرض تنتصب أمام عينيّ بجلال. فهناك جبل تامسيركو، وهو قزم بالنسبة الى تلك المجموعة إذ يبلغ ارتفاعه ٦٦٢٣ متراً، لكنه يَشُدّه الأنظار ويفوق ارتفاع أيّ جبل في اوروبا وافريقيا وامريكا الشمالية. وهناك جبل بارونتسي الذي يعلو ٦١٠ أمتار عن تامسيركو، كذلك تشاملانغ، وهو أعلى من هذا وذاك. أما جبل نوبتسي فهو بمثابة جدار صخري يرتفع ٧٨٨٠ متراً. لكن افرست هو الملك بين تلك الجبال جميعاً، اذ يبلغ ارتفاعه ٨٩٢٤ متراً. ولكن من الغريب ان منظره لا يبدو مؤثراً عن ذلك البُعْد. أيكون فو دورجي مخطئاً؟ أمن المعقول ان يكون هذا الجبل غير افرست؟ كلا! انه افرست عينه، وقد انتصب بصلابته وسواده وارتفعت فوقه سحابة من الغيم.

وأمضيتُ تلك الليلة في منزل قرويّ، وفي النور المتسرب من النافذة كتبت ما يأتي: "كلّ ما عليّ فعله لرؤية جبال حملايا هو ان أقطع زاوية مقدارها ١٨٠ درجة! ان آلاف الكيلومترات تفصلني عن الامتحانات النهائية في الجامعة. أحياناً يخيل اليّ أني في كينغستون، أكدّ وأعرق وأفقد صوابي، متمنياً ان أكون في نيبال. ثم أفتح عينيّ وأجد نفسي... هنا!".

وقت القرار

مكثنا ليلتين في منزل نيما لزيارة زوجته الحسناء وولديه. وفي اليوم الثاني عشر من بدء الرحلة استأنفنا التسلّق. وكان ذلك اليوم ٢١ مارس (آذار)، عيد ميلاد امي. ترى أيثير اعتزازها أن ترى ما أفعل الآن؟

التقيتُ اليوم طبيباً متجولا من نيوزيلندة كان يقضي بضعةأشهر في جبال حملايا معالجاً قاطني التلال والمرضى في مستشفيات هيلاري المختلفة على طول الطريق. وبينما كان يتسلق مع دليله، رحتُ اراقبه بحَسَد وأقول: اني سأغدو مثل هذا الطبيب يوماً.

وكان الطقس بارداً حتى التجمُّد. وسرنا في طريق نهر دوذكوسي الذي كان يرغي ويزبد بالطمي الجليدي الأبيض، برهاناً على صحة اسمه: "نهر الحليب". وكانت جلاميده تتألق تحت الشمس لاحتوائها على مادة الميكا الزجاجية. وأحاطت بنا القمم من جميع الجهات ونحن ننطلق الى قلب جبال حملايا.واقترب وقتُ اتخاذ القرار: أأتسلق ام لا اتسلق؟ واذا عقدتُ العزم على المضيّ قدماً، فأيّ قمة اتسلق؟ ومع مَن؟.

وتركنا الوادي وتسلقنا تلة ترتفع ٩٠٠ متر عبر طريق متعرّجة أفضت بنا الى سوق بلدة نامكي. وحتى العام ١٩٥١، عندما حصل تغيير حكومي فتح نيبال للزوار من الخارج بعدما أُغلقت مدة تربو على القرن، لم يَعُدْ ذلك المكان كونه أثراً من القرون الوسطى. أما اليوم فقد أصبحت نامكي العاصمة غير الرسمية لتلك المقاطعة، "أرض الرعاة"، والمحطة الرئيسية التي يتوقف عندها المتسلقون للتزود بما يحتاجون اليه. لكنها، على رغم ذلك، ليست سوى قرية تضم عدداً من الحوانيت التي تبيع الأغذية ومعبداً صغيراً جاثماً قرب جدول ماء وسوقاً يحاك فيها السجاد من صوف الياك الطويل وهو ثور التيبت الضخم. والياك حيوان أليف في هذه البقاع، يشبه جاموساً يحمل كومة تبن. انه حيوان لجميع المواسم والغايات.

ذلك المساء توجهتُ الى مكتب الشرطة المحلي كما هو واجب حاملي الرّخَص. وقيل لي انه في وسعي الذهاب الى ايّ مكان بموجب الترخيص الذي أحمله.

واشتريت حاجتي من الرز والبطاطا ورحتُ أبحثُ سراً عن دليل آخر. لكني وجدتُ أنه لا بديل من نيما.

وفي ٢٣ مارس (آذار) سرنا شمالا حتى بلغنا خومجونغ. وعلى مسافة ثمانية كيلومترات الى يميني، لاح لي "العملاق" الصغير تامسيركو، كذلك رفيقه كانغتيغا، وعلى هامتيهما أثلام من الثلج. وبعيداً الى الشمال الشرقي أرتفع جبلان آخران هما توبتسي ولوتسي من خلال الضباب الرقيق، وبدا خلفهما افرست بشكله العابس. وجدير بالذكر ان بعض الغربيين يطير مباشرة الى نامكي لالقاء نظرة على تلك الجبال قبل العودة الى كتمندو. والحقّ أنهم يخسرون كثيراً بعدم قطع الطريق الى الحملايا على الأقدام.

وكانت قرية خومجونغ التي توقفنا فيها مثال القرية النيبالية التقليدية. فهي ملأى بالصخور والمنازل المتداعية والكلاب النابحة والأولاد الصاخبين وأصداء النوّاقيس. لكنها، الى ذلك، كانت بلدة فو دورجي الذي انتظرني ليرحب بي.

وخاطبني قائلا: "سيدي، انــي أدعوك الى منزلي. ويمكنك ان تمكث معي ما طاب لك البقاء".

وكنتُ أحتاج الى تمضية ثلاثة أيام هناك، قريباً من مستشفى هيلاري، لأرى اذا كان تسلُّق الذرى الشاهقة يلائمني. وأسعدني كثيراً ان أمكث في منزل فو دورجي، وهو أفضل افراد جماعة الشيربا الذين عرفتهم. وكان بيته في حجم منزل كندي صغير، وهو مطليّ بالكلس الأبيض، وفيه طبقة عليا للعائلة وطبقة سفلى للماشية. كما انه نظيف، لا ترتفع رائحة البول من زواياه. وكان هناك وعاء نحاسيّ فيه حساء لذيذ، يبقبق باستمرار على موقده.

وكتبتُ عن فو دورجي تلك الليلة: "انه شخص عظيم حقاً. وهو أحد اولئك الناس الذين تصادفهم مرة واحدة في حياتك، لكنك تحبهم فوراً وعلى الدوام".

وفي اليوم التالي أخبرتُه عن سبب خوفي من الأماكن المرتفعة. فقال بثقة: "سيدي، اني أنظر اليك فأرى ان المرتفَعات لن تؤذي صحتك". فرمقْتُه بنظرة تشكيكية وأنا أقول في نفسي ان ما تفوّه به ليس غريباً على شخص وقف على ارتفاع ٨٥٠٠ متر في جبل افرست حيث تقلّ كمية الاوكسيجين كثيراً.

وأضاف فو دورجي: "ذات يوم مرض والدي وهو في التيبت على ارتفاع ٥٧٩١ متراً. وأخذ يتقيأ ويتفّ دماً، وما لبث ان مات".

أما فو دورجي نفسه فقد ارتفع ٢٧٠٠ متر زيادة على ما فعله والده، ولكن لم يصبه ايّ اذى. اذاً، ربما لم يكن الأمر وراثياً.

خلال تلك الأيام الثلاثة تسلقتُ مرتينِ وأخذتُ عدداً كبيراً من الصُّوَر. ورحت أُمتِّع النظر بما بدا لي أجمل جبل على الأرض - آما دابلام. انه لؤلؤة من الصخر والثلج لا تشوبها شائبة. وهو اشد اثارة من افرست وماكالو، على رغم انه ينخفض عنهما ١٥٠٠ متر. وقد ابلت احدى حملات هيلاري عام ١٩٦١ بلاء حسناً في تسلُّقه بعدما ظُنَّ لوقت طويل أنه يستحيل طَرقُه.

وفي أحد الأيام تسلَّقتُ الى ارتفاع ٤٢٠٠ متر. ونظرتُ الى وادي دوذكوسي الذي كان يرتع تحتي بجَلال الى ان يلفه الغيم في الشمال الشرقي. وكنتُ أتنفس ببعض صعوبة، لكني لم أعانِ سوى دوار قليل. وربما كان الاستسقاء الرئوي بعيداً عني.

وهكذا، عقدتُ العزم على متابعة التسلُّق!

خائبان

في خومجونغ استعرتُ خريطة لائقة ودرستُ تفاصيل المنطقة. ووقع اختياري على ثلاث من القمم الصغيرة التي يمكنني تسلُّق إحداها بموجب رخصتي.

غير اني لم ألْقَ تشجيعاً من فو دورجي الذي حذّرني من وجود الثلج، بطبقات متفاوتة، على الطرق المؤدية الى تلك القمم. وهذا أمر عسير بالنسبة الى شخص قليل الخبرة. وأدركتُ عندئذ انه يستحيل على المرء ان يقحم نفسه في جبال حملايا ويتخذ قراراً متسرعاً بالتسلُّق. وربما اخفقْتُ في مهمتي. لكن المهم اني لن أتراجع عن المحاولة.

وحذفْتُ "قمة الجزيرة"، وهي

إحدى القمم الثلاث، من قائمتي بعدما قال فو دورجي الذي تسلقها، ان عدتي لا تكفي لاقتحامها. كما حملني على حذف قمة كانغ تشو من القائمة. وهو لم يتسلقها. لكنه، بعدما ألقى نظرة على نيما وعليّ، قال بلباقة: "سيدي، لا أظن هذا ممكناً".

ولم يبقَ لي سوى بوكالدي، أدنى تلك القمم، إذ يبلغ ارتفاعها ٥٨٠٥ أمتار. وهي تجثم عند نهاية سلسلة تشرف على تقاطُع أربعة أودية. وكان أفرست مختبئاً وراءها عبر نوبتسي ولوتسي. إلا انه في الامكان مشاهدة قمّتين عظيمتين على حافة التيبت، هما ماكالو (١٠٦٧٠ متراً) وتشو - اويو (١٠٢١٠ أمتار). إذاً، لأذهب الى بوكالدي.

ولم ينقطع رفيقاي عن إثارة أعصابي. ذلك ان بورتمبا، الذي تعهَّد تأمين مأكله وملبسه، تبين انه لا يملك أياً من الاثنين. ولم يكن لديه ثياب دافئة على الاطلاق، وان يكن ينتعل حذاءين جديدين. أما الطعام فلم يكن لديه شيء منه. وأعرتُه سروالي الداخلي لارتدائه خلال الليل اذ لم يحمل كيساً للنوم. وها هو الآن يحتاج الى كيس نوم وأحتاج أنا الى سروالي الداخلي!

وكاد بورتمبا ان يبكي حين قلتُ له: "عليّ ان أجد حمّالا آخر لديه ثياب دافئة". ثمّ راودتني فكرة أفضل، وهي أن أنصْب خيمة سفحية أترك فيها بورتمبا مع الاحمال الثقيلة، وأحاول تسلّق بوكالدي مع نيما وأحمالنا الخفيفة نسبياً.

ولم ألبث ان وجدت ان نيما لا يحمل قفازين ولا نظارتين شمسيتين، ولا حتى قبّعة دافئة. تباً لهما من خائبين! وجنّ جنوني لاني سلمتهما أمري. إلا ان فو دورجي هبّ مرة أخرى لنجدتي، فباعني عدداً من المعدات وأعارني عدداً آخر.

"وكنتُ اجتزتُ ٣٢٠ كيلومتراً بمشقة. وعلى رغم ان قدمي وكتفي تكيّفت مع تلك الصّعاب، الا ان ركبتي ظلتا تؤلمانني، وأظن ان قلة الاوكسيجين أثّرت في وضعي الجسَديّ عموماً، وهو أمر يعرفه جيداً متسلقو المرتفعات. وكان كلّ شيء يغيظني، من صغار البدو الى خريطة آنغ كامي شيربا الرّديئة. وفي ٢٥ مارس (آذار)، خسرتُ آخر معين لي إذ عاد فو دورجي أدراجه.

وقال وهو يغادر: "وداعاً يا سيدي".

فأجبْتُه: "رافقتك السلامة يا فو دورجي... شكراً لك على كل شيء". وراقبتُه وهو يهبط عبر المسالك الوعرة حتى غاب عن بصري. وأدركتُ أننا، نحن الثلاثة، بتْنا وحدنا.

وفي اليوم التالي غادرتُ القرية، ونصَبْت خيمتي تلك الليلة بالقرب من نهر ايمجا. وكان قد عيل صبري. لكني، لحسن الحظ، كنتُ واثقاً من ان معرفتي بالنيبالية تكفي لمخاطبة رفيقيّ. فسألتُ بورتمبا: "ألديك ما يكفي من الطعام؟" إلا انه وضع يده وراء أُذنه ونظر اليّ بارتباك. فأعدتُ السؤال مرة بعد أخرى. وفجأة قال: "نعم"، وكأنّ التكرار جعله يفهم عن طريق السحْر.

وطلبتُ منه ان يريني ذلك

الطعام. وإذ لم يستجب قلتُ له: "حَسَناً، سأحسم ثمن الطعام من راتبك". وكان لديّ من المؤن ما يكفي لاطعامه، ولكن ليس على حسابي.

وأخذ يحدق الى النار مذهولا. ولم أتابع بحث المسألة معه. فالامر الذي كان يقضّ مضجعي أكثر من سواه هو عدم تمكُّني من الاعتماد على ذينك الرجُلين. وهما لم يستغلا سذاجتي فحسْب، بل كانا يعرضان حياتي ورحلتي للخطر.

غير اني لم أستطع البقاء على ذاك المزاج في اليوم التالي، اذ كان الهدف المنشود يدنو أكثر فأكثر. وقطعنا الوادي بمشقة حتى بلغنا أسفل نهر خومبا الجليدي، ثم انطلقنا في محاذاة ممره المتجمد الى لوبوجيا، وهي محطة على الطريق ذات منزلين على ارتفاع ٤٨٠٠ متر. وكانت الحرارة سبع درجات تحت الصفر. وهبَّت ريحٌ من التيبت جمَّدت يديّ ووجهي. وشعرتُ بخفّة في الرأس وبعض دوار، لا غير. ومن ذلك المكان رأيتُ بوضوح الطريق التي تؤدي الى قمة بوكالدي، وهي الى الجنوب الشرقي عن يميني.

وحاولتُ ان ألجم حماستي. وقلتُ لنفسي: "كل شيء سيتحقَّق في أوانه". ولسوف أدور حول بوكالدي شمالا بحثاً عن المنظر الافضل، ثم أقضي وقتاً أطول للتكيُّف. وأخيراً سأخصِّص يومين للتسلُّق الفعلي. وبما ان الغيم يغطي هذا الجزء من جبال حملايا في فترة بعد الظهر الباكر، تحتَّم عليّ بلوغ القمة قبل ذلك الوقت لالتقاط بعض الصوَر.

وسأخيِّم في الليلة الاولى في سفح كونغما - لا، وهو نقطة قريبة من بوكالدي ترتفع ٥٥٠٠ متر. ومن هناك أنطلق باكراً صباح اليوم التالي لاقتحام الغيم الذي يكلِّل القمَّة.

ومن خبرتي في جبال روكي، عرفتُ انّ بوكالدي سهل المنال نسبياً. لكني لم أجرؤ على اقتحامه بمفردي. ترى أيكون نيما عَوناً لي؟

"إنه يفوق التصديق"

كان كيس النوم الذي اقتنيه من نوع جيد، الا انه ليس دافئاً بما فيه الكفاية في تلك المرتفعات. ووضعتُ رأسي داخله متنفِّساً الهواء الساخن، لكني كنت أخرج رأسي كل ساعة لتنشُّق الهواء النظيف. ومن العسير ان ينام المرء بملء عينيه في هواء المرتفعات الرقيق البارد، إذ يصحو باستمرار شاهقاً للتنفُّس.

وفي الصباح كان كلّ شيء، من الاحذية حتى قنينة الماء، متجمداً. وكان كيس النوم وجوانب الخيمة الداخلية مكسوة بالجليد. ورحنا نضرب الارض بأقدامنا ونرتشف الشاي الساخن ونحن نطرق الممرات الوعرة. وليس أفضل من تسلُّق الجبال لحفز الدم على الحركة داخل الجسم.

وبعد ثلاث ساعات من السير الهيِّن وصلنا الى المنزلين الخاليَيْن في تلك البقعة. ها أنا الآن شمال بوكالدي وأمامي منظر شامل لقمم أفرست. ونصبت خيمتي فوق المنزلين وجلست تحت أشعة الشمس على ارتفاع ٥٢٠٠ متر. وراقني التمتُّع بالدفء قبل حلول الظلام وصقيعه. الا ان الامور الصغيرة ما

برحت ترهق أعصابي. وحصلت مشاحنة طويلة، ولكن تافهة، بيني وبين نيما على كمية السكر التي يحسن وضعها مع الشاي. وانتهينا بعدم استعمال السكر.

ولكن ما من شيء يمكن ان يفسد عليّ روعة تلك الجبال. ورحت اتمتم مرّة بعد اخرى: "مستحيل! انه يفوق التصديق!" وكتبْت في مفكرتي: "اذا كانت كلية الطب تلهب حماستي كما تفعل هذه الجبال، فشهادة الطب تصبح شيئاً مضموناً".

وفي اليومين التاليين أكسبني التسلّق الخفيف قوّة في العضلات والرئتين. وانتابتني رعشة كبرياء وأنا أنظر من جانب أحَد الجبال لأرى طائرة هليكوبتر من بعثة افرست الايطالية تحلق على ارتفاع يقل بـ٣٠٠٠ متر عن النقطة التي كنتُ فيها، وقد وضع طيّاروها كمامات الاوكسيجين بعد مغادرتهم كتمندو! أما انا فقد اعتادت اوعيتي الدموية هواء تلك المرتفعات.

ووجدتُ ان شهيّتي للطعام تتضاءل. وكنت أتناول الطعام، كالعادة، في أوقاته المعهودة، لكني كنتُ أشبع سريعاً. ونقص وزني، فأصبح ٥٩ كيلوغراماً بعدما كان ٦٩ كيلوغراماً في العادة. وذلك جعلني أبدو هزيلا نظراً الى طول جسمي الذي يبلغ ١٨٠ سنتيمتراً. وعلى رغم أني كنتُ أشعر بالعافية الجسدية، الا ان ذلك النحول جعلني أظنّ ان لدي نقصاً في الاوكسيجين داخل الانسجة. وربما دنوتُ من الارتفاع الذي لا يمكنني تجاوُزه.

وتسلّقتُ مع نيما عصر ٢٩ مارس (آذار) الى المخيَّم الواقع عند سفح افرست، وبلغناه خلال ساعتين. وهناك شربنا الشاي مع حمالين آخرين من جماعة الشيربا. وحدّقتُ عالياً الى قمة أفرست التي ترتفع ٣٦٠٠ متر عن ذلك المكان، مفكراً في اولئك الذين حاولوا تسلّقها، فأفلح بعضهم وقضى بعضهم الآخر. وربما تسنّى لي يوماً ان أقف فوق تلك القمة! أما الآن فحسبي الوصول الى قمة بوكالدي.

وكتبت في مفكرتي وقد يبست أصابع يدي من شدة الصقيع: "آه لو كان معي آلة تسجيل! لكم هو جَميل ان أتذكر اصوات هذه الرحلة بعد عودتي الى الوطن: أصوات الريح وسقوط الثلج وثرثرة جماعة الشيربا ونخير ثيران الياك ورنين أجراس المعابد".

وعدنا الى حيث بورتمبا لنراه يجمع رَوث الياك ويضعه في سلّة طعامنا استعداداً للاستدفاء بناره تلك الليلة. ولم أشعر برغبة في تناوُل العشاء.

وبحلول يوم الجمعة الواقع فيه الثلاثون من مارس (آذار)، انقضت ثلاثة أسابيع على انطلاقنا من كتمندو. وشققنا طريقنا عَصْراً عبر الضباب الكثيف والثلج المتساقط، عائدين الى لوبوجيا التي سننطلق منها نحو بوكالدي في اليوم التالي. وانتابني القلق اذ كنتُ أخشى هبوب عاصفة ثلجية عنيفة. واذا حصل هذا، فسيغدو تسلّقنا محفوفاً بالاخطار ان لم يكن مستحيلا.

أما نيما الذي لم يكن متحمساً لتسلّق الجبل فقد غمرته النشوة.

وصرخ وهو يشير الى عنقه: "أيها الصاحب، ان الثلج سيغمرنا حتى هذا الحدّ". والحقّ انه كان يتمنى الا يكون ذلك الثلج أكثر من غبار لئلا يخنقه.

ورفضْت ان يجتاحني الخوف. وكنتُ قد لاحظتُ ان قشرة الثلج التي تغطي الناحية الشمالية لا تذوب الا بعد الظهر الباكر، حتى في الايام الدافئة. وأحياناً قليلة يمر المتسلق عبر أكوام من الثلج تغمره حتى الركبتين او أعلى قليلا.

وما انفك نيما، وهو يسير ورائي، يتمتم كلمات تنذر بأسوأ العواقب: "ثلج كثير جداً... ممرات وعرة".

لكني تجاهلتُ ما يقول، إذ كنتُ مستغرقاً في روعة ما أبصر الى حدّ لم أصدّق ما يحْدث. وكنتُ أشعر بالنشاط ولم أحس بالدوار اطلاقاً. ودونْت ثلاث ملاحظات في مفكرتي ذلك اليوم، كانت أخيرتها في المخيَّم عند السابعة والدقيقة العاشرة مساء. والمعجزة الكبرى ان الثلج توقَّف عن السقوط في ذلك الوقت. فكتبتُ الآتي: "انني سعيد جداً. واذا بقي الطقس على حاله فان تحقيق غايتي يكون مضموناً. أما اذا ساء الطقس، فلديّ من الطعام والوقود ما يتيح لي الانتظار خمسة أيام او ستة. اني أريد بوكالدي!".

وفي ٣١ مارس (آذار) أفقتُ في الخامسة والنصف صباحاً لارى السماء صافية ونيما نائماً. ولم يكن لاي شيء ان يفسد عليّ مرَحي ذلك اليوم. وضحكتُ وأنا أدوس أضلاع نيما برفق. وقلتُ له: "انهض يا نيما".

وارتديتُ سروالي الداخلي الأحمر وقبعة الصوف وسترة الفرو الزرقاء والنظارتين الواقيتين من الشمس. وانطلقتُ أنا ونيما في السادسة والدقيقة العاشرة وقد أنعشنا الشاي، مخلفين بورتمبا والامتعة الثقيلة في الخيمة. ان جبلي كان ينتظرني... فهل تراني أهلا له؟

وعبرنا كتلة من الركام الجليدي بدأنا بعدها الصعود. ولم يكن هناك صدوع عميقة. لكني غرقتُ حتى الخصر أحياناً في كتل ليّنة من الثلج بجانب الصخور الشاهقة. وكنتُ أتعثر من حين الى آخر، فيطلق نيما ضحكة صاخبة. وأنتظره ليسقط هو الآخر، فأضجّ بضحكة أقوى. الا ان ضحكنا كان يعوزه المرح الصحيح.

واشتد انحدار الارض وقلَّت كثافة الهواء. وتابعنا مسيرنا ببطء ونحن ننزلق احياناً فوق القشور الثلجية. وكنتُ، بعد كلّ سقطة، ارتاح قليلا لاسترجاع قوتي قبل الانطلاق من جديد. وتوقَّف كلانا عن الضحك إذ لم يعد في استطاعتنا ان نفرّط بأنفاسنا في ذلك الهواء الرقيق.

وكنت أسير، كالعادة، في المقدّم، بحثاً عن أرض صلبة. ولدى بلوغنا ارتفاع ٥٥٠٠ متر، كنتُ أتوقف بعد كلّ ثماني خطوات او عشر، ثم أتكىء على فأسي الثلجية لاهثاً مثل كَلْب.

وبعد ساعات بتنا قريبَيْن، كما بدا لي، من الحَيْد الجبلي تحت كونغما - لا الذي قررتُ نصب الخيمة عنده. والواقع ان المسافة التي تفصلنا عن ذلك المكان لم تكن

تتجاوز الامتار القليلة. الا ان الوصول اليه لم يكن سهلا بالنسبة الى ما بقي لي من قوة. عندئذ بدا لي ان كونغما - لا يرجع القهقرى. وأخذت أفكاري الواعية تتراجع معه هي الأخرى. ورحت أحثّ الخطى من دون تفكير.

الخطوة الأخيرة

أخيراً بلغتُ حافة الجبل حيث كنتُ مزمعاً على نصب الخيمة، وألقيتُ الحمل عن ظهري وارتميت فوق الجليد. وتحرّك شيء الى جانبي فجأة. لكن ذهني، الذي كان يعمل ببلاده، لم يُدهَش له كثيراً. ونظرتُ لأرى نيما وكان وجوده غاب عن بالي. وجلسنا صامتَيْن بضع دقائق، نشقّ النفس لتنشُّق الهواء الذي كنا في حاجة ماسَّة اليه. وبعد ذلك نظرتُ الى ساعتي. ولكم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت أنها لم تتجاوز التاسعة والربع صباحاً. لقد قطعنا مسافة طويلة في وقت قصير جداً.

وفجأة بدّلتُ الخطة التي وضعْتُها أساساً. فالطقس ما زال صاحياً والقمة تعلو ٣٠٠٠ متر. فلماذا لا ننجز تسلُّقنا اليوم، مهما يكن الأمر صعباً؟ وفي امكاننا تمضية الليل في الخيمة هنا، والعودة غداً الى حيث تركنا بورتمبا.

ووافق نيما على اقتراحي. فهو شاء ان ينتهي من هذا الجبل في أسرع ما يمكن. ورحتُ، بسرعة ونشاط متجدّد، أضع الكيس على ظهري وفيه عدة التصوير وصحنان وبعض الطعام. وربطتُ نيما بحبلي، لافاً ما بقي من الحبل على كتفه. وزوّدتُ الحبل بعقدة للوتد ومشابك، ملقناً نيما درساً سريعاً في طريقة استعمال فأس الثلج لتثبيت نفسه في حال تعرضه للسقوط. وبعد ذلك انطلقنا في طريقنا الى فوق.

كانت الطريق أصعب مما توقعت، والثلجُ رخواً وعميقاً. وفي ٤٥ دقيقة قطعتُ مئة خطوة فقط. ووقفتُ هناك لا أقوى على التقدم.

ولكن لِمَ العجلة؟ ان يوماً آخر على ذلك الارتفاع من شأنه ان ينشطني ويزيد حظي في بلوغ القمة. ثم ان خطتي الأساسية كانت تقضي بأن أتسلق الجبل في يومين.

وتمتمتُ لنفسي: "عد أدراجك أيها المغفّل!" لكني حين هممتُ بالنزول وفكرتُ في الحملين الثقيلين اللذين تركناهما على بعد مئة خطوة تحت - وهي مسافة اقتضى قطعُها نحو الساعة - قلت لنفسي مؤنباً: "ليس لمثْلي ان يضيع انجازاً كهذا!".

واستدرتُ من جديد نحو بوكالدي، واستأنفت طريقي صعوداً وأنا خافض العينين. ذلك اني خشيتُ التفكير في بُعْدي عن القمة.

وبدأ رأسي يؤلمني وتصلبت أطرافي كالرَّصاص، وتسارع نبضي بعنف. ترى أيزحف المرض الي؟ وتوقفتُ ملتقطاً أنفاسي، وغمرني بعد ذلك شعور أفضل. وتابعتُ سيري مقلداً الحركة البطيئة على الشاشة، فكنتُ أقطع كلّ خطوة في ثلاث ثوان أو أربع، أشهق خلالها وأزفر خمس مرات أو ستاً. وكان عليّ، حتى مع تلك الحركة البطيئة، ان أتوقف بعد كل عشر خطوات أو أكثر قليلا لأتنفس الهواء النقي. وكان

ذلك عذاباً جسدياً لم اختبره قَبْلا.

إلا ان الألم والجهد لم يتجاوزا طاقتي على الاحتمال أو يستنفداها، على رغم ان جسدي أخذ يئن كما لو كان ينازع الموت. وبات في امكاني ان أتسلق الى نقطة أعلى بعدما اجتزتُ الخطوة الاولى، منتزعاً السدادة عن ذلك المخزون الذي نمتلكه جميعاً ولكن لا نستخدمه الا نادراً. ولئن يكن انتزاع السدادة أليماً، الا انه يتيح لنا ان نزيح الجبال أو... نتسلقها!.

كان الوقت يقترب من الظهر والغيوم آخذة بالالتفاف خلف ماكالو الذي يبعد ٢٥ كيلومتراً شرقاً ولوتسي الذي يبعد ١٢ كيلومتراً. والتقطتُ بضع صور على عجل، مصداقاً لوجودي عالياً في ذلك المكان، ورحتُ ابتهل كي تبقى الغيوم بعيدة حتى أبلغ القمة. فقد كنتُ مزمعاً على بلوغها.

ووقفتُ عند سفح مرتفَع سحيق كي انتعل الخفين المسماريَّيْن. وكان نيما نسي تعليماتي بحيث بات لزاماً عليّ ان أُلبسه خفيه بنفسي. واستغرقت تلك المهمة البسيطة وقتاً طويلا حتى الملل ونحن على ارتفاع ٥٨٠٠ متر. وكنتُ أشدّ عقدة أو اثنتين كلّ مرة، وأتوقف بعد ذلك للتنفُّس العميق. ثمّ أنحني من جديد لأرى أن أحد الخفَّيْن سقط. فألتقطه وأُعيد الكرّة.

وأخيراً أنجزتُ ذلك العمل. وتقدمتُ ببطء، لكن ناراً كانت تلهب كلّ عضلة وعَصَب في جسمي. وكنتُ صافي الذهن، وجسدي تحرّكه الغريزة لا المنطق.

وبينما كنتُ اساعد نيما على تثبيت قدميه في أحد الأمكنة الوعرة، صاح فجأة: "إني لن أذهب!".

ووقف عند شعْب (ممر) صغير يرتفع عني متراً ونصف متر، وكان عليه ان ينحدر ليصل اليّ. والانحدار في الجبال ينطوي على صعوبة لأن المتسلق لا يمكنه ان يرى غالباً ما يقع تحت قدميه. أما في تلك الحال فلم يكن هناك اي خطر يتهدد نيما، على رغم وجود هوّة في أحد الجوانب تنحدر بضع مئات من الأمتار. فقد كان نيما موثَقاً الي بالحبل وكنت أنا مثبتاً قدميّ على أرض صلبة.

لعنة الله عليه! كيف لم يختر سوى ذلك الوقت ليفارقني. ووقفت أنظر اليه. كان يفوقني كثيراً من حيث القوة الجسدية وقد ورث عن قومه الشيربا طاقة لا تقدَّر على تحمُّل الطقس في تلك الأعالي. لكنّ التعب هدّني بحيث لم أقْوَ على مجادلته. وانتصبتُ وأمسكتُ برجله وأنا أصرخ: "هنا!".

واستدار نحوي مذهولا. وقبل ان يعلم بما يجري، نقلت قدميه الى شق في تلك الطريق. وهكذا وصل اليّ وهو مسرور بانجازه. وقال جَذِلا: "انه أمر سَهْل!".

وازداد الممر انحداراً، وهو كان أصعب مرحلة في رحلتنا. لكن نيما اجتازه حَسَناً. ورحنا نتحرّك كالانسان الآلي. فنتوقف بعد كل متر ونصف متر لنرتاح قليلا، ثم نبدأ من جديد...

وأخيراً لم يعد بيننا وبين القمة سوى ثلاثة أمتار، منها مسافة عمودية من متر ونصف متر محفوفة بالخطر، تليها نقطة للعبور الى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الجانب الآخر، وبعدها خطوة طويلة واحدة الى القمة. غير اني لم أكن متعجلا تلك الخطوة لأني أردتُ أن أتذوق حلاوة اللحظة وقتاً أطول.

وقدتُ نيما الى الجانب الآخر، وهناك جلسنا نعبّ الجلال المحيط بنا. وكان آما دابلام العظيم يحدّق اليّ من غير ان تشوبه شائبة من الغيم. ونظرتُ شرقاً لأرى لوتسي بهيكله الضخم، وهو الجبل الرابع على الأرض من حيث الارتفاع اذ يعلو ١٠٦٩٥ متراً. وشعرتُ أمامه كالنملة.

وأخرجتُ علماً كندياً صغيراً من حقيبتي ورحتُ ألفه حول الفأس. ثم خطوتُ خطوتي الأخيرة، ببطء وابتهاج، الى القمة، رافعاً يدي في الهواء الرقيق المتجلد اشارة الى الانتصار.

الى أسْفَلْ

بقيتُ على القمة نحو ساعة. لقد كان بوكالدي اختياراً رائعاً، وربما كان أفضل موقع في تلك المنطقة لاشرافه الملائم على الجبال الكبيرة. وغمرني شعور بالسلام مع نفسي ومع العالم حولي.

وبفضل انحسار الغيوم، التقطتُ مزيداً من الصور. وبعد ذلك لم يبقَ لي سوى الهبوط من الرفيع الى الوضيع. ونظرتُ الى صرّتي التي تركتُها تحت، على بُعْد ٣٠٠ متر، فاذا بحالي النفسية والجسدية تهبط فجأة. واجتمعت العناصر كلها، من ارتفاع المكان الى الارهاق الى الفتور النفسي، ضدّي.

وانتابني صداع ساحق تبعه دوار عنيف. وكنتُ أرسلتُ نيما أمامي ليثبت قدميه في الأرض، لكنّ الحبل ظلّ يرتخي. ورحت أقفز فوق بعض الحافات الصغيرة وأنزلق عبر مهاو يغطيها الجليد من دون ان أعي مغبة أفعالي. الا ان ثبات قدمي كان يحيرني. ويبدو ان جزءاً مني عرف ما يفعل، أما الجزء الآخر فلم يكترث لشيء. وكل ما أردته كان الوصول الى أسفل.

وبلغنا المنطقة الثلجية مرة اخرى. وهالني أن أضع الخفّين المسماريين من جديد، لكن سلامة ذهني كانت رادعاً لي عن الانتحار. واستغرق لبس الأحذية الثلجية ٤٥ دقيقة، لم انقطع خلالها عن التذمّر والدمدمة على غرار السكارى.

وانزلقنا عبر الممر. وكنتُ، طوال الطريق، اشجع نفسي بعبارات متلاحقة: "انك تنحدر الى أسفل، الى أسفل! اياك ان تتوقّف للراحة. انك تنحدر الى أسفل". وأخذت تراودني أحلام الطعام والشراب، كأن أتناول فطيرة التفاح مع اللبن في كتمندو.

وغرقتُ مراراً في الثلج الذي غمرني حتى الخصر. وكلّ مرة كان عقلي يقول: "انك لن تنهض من هذه الورطة". أما جسدي فكان يتقدم متخبطاً.

وفجأة وجدنا انفسنا عند المخيم. وكانت الساعة الثالثة عصراً. وشعرتُ بضعف شديد. أما نيما فكان لديه النشاط لاعداد القهوة والعضيدة (حبوب مطبوخة)، وهي أول طعام ساخن نتناوله منذ الصباح. ثم نصب نيما الخيمة فوق أرض صخرية منبسطة. وكلما رفع حجراً كنتُ أحسّ بأن رأسي يوشك ان ينفلع.

ولكن ما ان حلّ المساء حتى عاودني نشاطي وصفاء ذهني.

ودوّنتُ في مفكرتي ما يأتي: "انني راض كل الرضا عن هذه الرحلة! صحيح ان نيما لم يكن متسلقاً، لكنه أفلح في التسلق. لقد اختبرتُ جبال الحملايا بما فيه الكفاية. والآن سأعود الى بلدي. ان سنتي كانت رائعة حقاً!".

وبعد ثلاثة أيام بلغنا بلدة لوكلا عبر نامكي. وفي تلك البلدة مهبط طائرات صغير، يمتد مسافة ٣٣٥ متراً بين الجبال الشاهقة. هناك ودّعتُ نيما وبورتمبا. وفي اليوم التالي، وهو الرابع من ابريل (نيسان)، عدتُ الى كتمندو على متن طائرة ركاب صغيرة في مقابل ٣٠ دولاراً. وقد بلغت تكاليف رحلتي كلها نحو ٥٠٠ دولار، وهو مبلغ ضئيل جداً بالنسبة الى ما انجزته. وفي السنوات الثلاث المقبلة سأتحقق من أهمية تلك الرحلة وما تعنيه لي.

فمن ناحية، سأعود الى بلدي وقد أصبحتُ طالباً أفضل من قبل الى حد لا يُقدَّر. اني تحررتُ من الاستياء وبرهنتُ لنفسي عن مقدرتي. وفي جامعة كوينز كنتُ من بين الأوائل الذين قُبلوا في كلية الطب. وتخرجتُ عام ١٩٧٨ وأنهيتُ تدرجي الطبي بعد سنة في فيكتوريا التابعة لمقاطعة كولومبيا البريطانية (في كندا).

ومن ناحية اخرى، كنتُ عائداً الى الوطن وأمامي هدَف معيَّن، وهو ان أقصد الشرق الأقصى من جديد، ربما لأتسلق مرة ثانية (تراني أتسلق جبل افُرست؟) ولكن حتماً لأضع الطب الذي درستُه في خدمة اناس هم في حاجة ماسة اليه. وأريد ان أكون، في فترة من مهنتي، مثل ذلك الطبيب النيوزيلندي الذي صادفْتُه.

تلك الأفكار جميعاً تمخض بها ذهني ذلك اليوم من ابريل (نيسان) في لوكلا. وحشرتُ نفسي في تلك الطائرة الصغيرة الى جانب كومة من الحمولة، تشبَّثْتُ بها فيما كانت الطائرة تشق طريقها بسرعة. وارتفعت بعيداً عن جبال حملايا وأنا أقول لها: "وداعاً يا أصدقائي الأحباء". وفي دقائق قطعنا الممرات والشعاب التي تسلقتُها بمشقة يوماً بعد يوم. وأدركتُ أنيّ بت أعرف تلك الأرض جيداً.

ومثل شريط سينمائي يُعْرَض بسرعة بدءاً من آخره، التمع أمامي ذلك الشهر الثمين من حياتي بأحداثه النادرة. انه جزء من صيرورتي. ورحت، عبر طريق عودتي الى الأرض، اذرف الدمع من غير خَجَل.

■ **تشارلز ماسترز**



البحث عن الحقيقة

انّ البحث عن الحقيقة ينشط كلّ عالم وساع الى الله. لكنّ الحكمة القديمة ما زالت صالحة: "اذا حمل الله تعالى كلّ الحقيقة في يده اليمنى وفي اليسرى البحث عنها، فسأختار اليد اليُسْرى".

و.ل.ف.

خاص

أغنية حب



ملخص من كتاب

بقلم بولا دارسي



Condensed from « Song For Sarah : A young Mother's Journey Through Grief And Beyond»,

أغنية حب

هذه الرسائل الى ابنتي ساره بعض من اليوميات التي بدأت تدوينها عام ١٩٧٣ عندما علمت أني حبلى. ولم يدر في خلدي آنذاك انها ستغدو مذكرات مفصلة لايام وحياة اختطفت من غير شفقة.

الا ان هجوم الموت الشرس، بما خلفه من ألم، حمل إلي فهماً عميقاً للامور حتى غدت هذه الكلمات الى ساره اغنية، لا بكاء.

أما فكرة هذه اليوميات فقد جاءت من زوجي بمقدار ما جاءت مني. لذلك يجب ألا أرفع هذه الاغنية وحدي، بل يجدر ان نرفعها نحن الاثنين. انها اغنية حب وانشودة عائلة كانت، في وقت ما، لنا وحدنا.

ووترتاون، كونيتيكت، فبراير (شباط) ١٩٧٣.

عزيزي الطفل الجنين،

حقاً انك ذكر، وسأدعوك اندرو. والحق أني حبلى، وما من شك في ذلك. ان الفحص الذي اجراه لي طبيب النساء بدل حياتي كلها. أهلا بك يا أصغر طفل. ليكن نموك قوياً داخل أحشائي.

مارس (آذار) ١٩٧٣،

عزيزي اندرو،

يصعب ان أصدق ان هناك كائناً صغيراً حياً ينمو في داخلي. والارجح ان والدك لا يفكر فيك طوال الوقت كما أفعل أنا. الا ان تكوينك يتم في هذا الجسد، لا في جسد والدك. لكني أراقبه دائماً وهو يخبر الناس اننا "نتوقع" مولوداً. انه فخور جداً، ويكاد احياناً لا يصدق انك هناك.

إن والدك ينظر الينا، كما ينظر الى كل شيء، كجزء من حركة الحياة. وذهنه لا ينفك يبحث عن أجوبة حول المبادىء التي تسير التاريخ البشري، هذا التاريخ العسير الادراك. وفي حين أقدر شخصياً الاسئلة التي يطرحها، الا ان الحقيقة بالنسبة الي هي ما يوجد هنا والآن، وليس ما وجد قبل ألف سنة فوق سهوب الشمال البعيدة. ان ما

يسيرني هو جسدي، هذا الجسد الذي يتبدل قليلا ليستوعب حياة انسانية أخرى.

ويراودني شعور بأني لا احتاج كثيراً الى الكتاب الذي يطالعه والدك يومياً. فهو يتكلم عن أحداث ضاربة في القدم، في حين يبدو لي ان كنه الحياة هو في الزمن الحاضر.

ابريل (نيسان) ١٩٧٣،

عزيزي اندرو،

بدأ والدك يرش بذار الفلفل الأخضر في حوض النبات خارج نافذة غرفة الطعام. ترى هل سيتسنى لي ان آكل بعضاً من ثمره ذات مساء في الشتاء المقبل وأنا أضمك بين يدي؟

إننا سنحب هذا الثمر عندما تأتي. انك لست فكرة أبيك ولا فكرتي، لكنك فكرتنا نحن الاثنين. ولا يمكن ان نفكر فيك بانفصال عنا. اننا عائلة.


روي دارسي

يونيو (حزيران) ١٩٧٣،

عزيزي اندرو،

كنت كمن يجرب القدر حين اشتريت لك بعض الملابس هذا اليوم. وقد اخترتها كلها زرقاء، علك تأتينا أنت بالذات.

إن والدك يعتني عناية فائقة بالحديقة التي يزرعها خضراً للمرة الاولى. وهو يدون جميع التفاصيل حول البذار التي يزرعها للموسم المقبل، تماماً كما أدون انطباعاتي الاولى عنك. غير اني لا أتمتع بالصبر الذي له. ففي داخلي شيء يدفعني الى الحركة الدائمة. وفي الاول من يونيو (حزيران)، كتب في سجل الحديقة ما يأتي: "الصبر نبات آخر ينمو في الحديقة، والى جانبه العزم. والقوة لا تنبت الا في أوانها".

انني لا أتمكن من السيطرة على هذه الحدة التي تلازمني. لكن الطبيعة ستقول كلمتها ويأخذ الزمن مجراه.

اغسطس (آب) ١٩٧٣

عزيزي اندرو،

كيف ينتابني شعور بالشيء ونقيضه في الوقت نفسه؟ اني اريد لهذا الحمل ان يستمر ولا ينقطع. فأنا أحب الحياة بالقرب منك. ولكن متى سينتهي الحمل؟ اني متعبة كثيراً وأحس ان بطني كان منتفخاً طوال سني حياتي الماضية.

ان الحديقة ملأى بالمزروعات التي تحتاج الى عنايتي. لكنك تقف في طريقي وتعوقني عن تأدية واجباتي اليومية. ان كل شيء ينمو ويكبر سريعاً، وهكذا أنت!

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣،
عزيزي اندرو،
اني أخيط هذا اللحاف الاحمر الصغير لك، من غير ان أستطيع التركيز. ذلك ان نوبات المغص الحاد تلاحقني. وأفكر: لقد حان الوقت. ترى هل حان فعلا؟ من الافضل ان أخابر الطبيب. اني اشكر الله على ان المرة الاولى تأتي مرة واحدة.

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣،
عزيزي اندرو،
انك سارة، لا اندرو! لقد ضحكنا اولا، ثم بكينا. اننا لا نستطيع تصديق ذلك. لقد صحّ تشخيصي للمخاض، ولم يكن لديّ وقت أضيعه. وجاءت النهاية سريعة جداً: أنتِ تلحين في الخروج وأنا هلعة. ثم أتيتِ: عشر أصابع في اليدين وعشر أصابع في القدمين... وطفلة صغيرة، ولكن تامة.

ورحتُ أنظر اليك وأنت تشقّين طريقك الى هذا العالم. وتلك لعمري كانت أكبر متعة اختبرها. لقد كانت متعة كاملة لم أعرف في حياتي سعادة حقيقية مثلها. ولسوف أحمل صرختك الاولى بين ضلوعي اينما ذهبْتُ.

ها أنت الآن ترضعين بهدوء من صدري وأنا أغني لك التهاويد كي تنامي. آه كم أنا أُحبّكِ.

نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٣،
عزيزتي ساره،
لماذا أنتِ تبكين؟ كنتُ أظنّ انّ دموعك لا تهزّني ولا تسلبني قوتي. ولكن انظري اليّ. من كان يدري ان الامومة ليست بالامر السهل؟ انكِ تقلبين حياتي رأساً على عقب.

عندما كنتُ في المستشفى، بدت لي الامومة مغامرة مثيرة. ولكن ما ان عدت الى المنزل حتى سلبني الارهاق تلك الافكار الشعرية. وفي بعض الايام أشعر ان هناك مسابقة في البكاء بينكِ وبيني. آه كم نحن محظوظتان لانّ أباكِ لا يتذمّر.

فبراير (شباط) ١٩٧٤،
عزيزتي ساره،
ان تلك الايام الاولى الملأى بالقلق تبدو الآن أبعد فأبعد. فأنتِ ووالدكِ وأنا غدونا فريقاً جميلا. وهل لاحد انْ يطمح الى أكثر من حياتنا البسيطة التي لا مكان فيها لشيء آخر؟ لقد بلغ حبنا لهذا البيت مبلغاً جعلنا نفكّر في عمادكِ في غرفة جلوسنا. انّ تكريسك سيتم في الغرفة نفسها حيث نأكل ونضحك ونستقبل اصدقاءنا.

من الصعب، يا ساره، أن يعيش المرء حياة متنكسة. فالعالم خلف هذه الجدران البسيطة يتحرك بسرعة مذهلة. وأملي الا تنظري الى الامر بخفة عندما نصلّي وإياكِ أو عندما نضعك على النافذة لتراقبي العصافير والسناجب.

مارس (آذار) ١٩٧٤،
عزيزتي ساره،
اليوم أمضينا ساعتين ونحن جالستان الى الطاولة الحمراء ننفخ فقاعات الصابون. قبل عام كان التوتر يمنعني عن الجلوس وممارسة ألعاب كهذه. ثم جئتِ لتساعديني

كثيراً في التغلّب على ذلك الشعور.

وها أنا الآن اعامل كلا منا بعناية كما لو كنا البذار التي نريد غرسها في الحديقة، وخفّ قلقي على الامور التافهة،وبتّ اشد اهتماماً بالامور التي تترك أثراً في الناس. وصرتُ أحكم على قيمة الإشياء بالسؤال الآتي: "هل لهذا الشيء أثر في حياتي كلها؟" وهذا يعينني على طرح كثير من التوافه جانباً.

يوليو (تموز) ١٩٧٤،

عزيزتي ساره،

أنا جالسة الآن امام نافذة غرفة الجلوس، أنظر الى قبعتك الصغيرة تختفي في الشارع وأنت على ظهر والدك. ان قلبي يؤلمني لانك كبرت وغدوت مستقلة عني. الا انَ حبّي لك يملأني ويمنحني السرور.

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٤،

عزيزتي ساره،

بعد يومين يصبح عمرك سنة. ان رؤيتك تكبرين خلال السنة الاولى من حياتك كانت أعظم مكافأة على كلّ عمل شاق انجزتُه. وقد ترك لديّ هذا العام أحبّ الذكريات، ومنها نزهاتنا الشتوية معاً وأنت في العربة تحت الاغطية، من دون ان يظهر منك سوى رأس انفك الصغير، والنظر اليك وأنت تسبحين وتبرزين فجأة من الماء، وتلك الكتب التي اشتريناها لك.

سلمْتِ لي أنت وكتبك. اني قصيرة الصبر في العادة. ولكن اذا رغبت في ان أقرأ عليك القصة الواحدة خمس مرات متتالية،فاني لا احجم عن ذلك، ولو أهملتُ غسل الصحون الى حين. ان في داخلي شعوراً يخبرني انني لن أستطيع تحقيق رغباتك بهذه السهولة.

ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٤،

عزيزتي ساره،

الجوّ هادئ هذا المساء. أبوك يدرس في كتبه وأنت مستغرقة في الاحلام. وبعد قليل سنجلس أنا ووالدك لنناقش الافكار التي يريد تدوينها في اطروحته عن تولستوي.

من المضحك انّنا ننظر الى الامور بطريقتين مختلفتين تماماً، فأنا أتساءل دائماً عن الناس: ما الذي يلهمهم ويحرك أفعالهم ويدفعهم الى الكره والحبّ. أما والدك فيربط افعالهم بالحياة والتاريخ ككل. غير ان نظرتينا تتسعان اذا جمعنا احداهما الى الاخرى. وأمنيتي ان نجلس دائماً ونتحدث.

فبراير (شباط) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

هل ستتساءلين على الاطلاق كيف كنت في شهرك السادس عشر؟ حسناً، لقد رقصنا اليوم كثيراً على أنغام الموسيقى وضحكنا بملء قلبينا.

- اني أحملك كل مساء قبل أن تنامي، واغني لك: "طابت ليلتك أيتها الطفلة". وانك لن تعرفي كيف كنت أشعر ورأسك ذو الشعر المعقوص يستريح الى صدري. ثمّ تشاركينني في الغناء. نغماتك، أيتها الطفلة، تعانق هواء الليل، وهي عذبة فوق ما أستطيع تذكّره.

يونيو (حزيران) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
اطروحة والدك مهمة جداً بالنسبة اليه. ولقد تجاوزت كونها عملا دراسياً محضاً غايته الحصول على درجة جامعية عليا. فهو بات يحب تولستوي بعدما قضى وقتاً طويلا يتأمل في أفكاره.
وبينما يجلس أبوك مستغرقاً في دروسه، نلعب نحن الاثنين لعبة "الفئران". ترى أيمكننا البقاء هادئتين كيما يتسنى لأبيك التفكير؟
لقد رآنا هذا اليوم نخرج الى نزهتنا الصباحية. وقال: "كلا، لا أستطيع الذهاب معكما لأن لدي أعمالا كثيرة". لكني لم أكن غادرت باحة المنزل حين أمسك بيدي وجاء معنا. وربما تذكر العهد القديم الذي قطعناه على انفسنا، وهو أن سعينا سيكون لا الى الغنى أو المجد، بل الى أن نبقى جنباً الى جنب. واذا لم تحل العائلة دائماً في المقام الاول، فنحن قد نفقد هذه النعمة. ترى هل سيسعفنا الحظ على ألا ننسى هذا العهد؟

يوليو (تموز) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
الآن نعلم علم اليقين أننا نعيش في ووترتاون (بلدة الماء). لقد أتى المطر بطوفانه على حديقتنا وخرب مزروعاتها، مما جعلنا نذرف دمعاً غزيراً عليها. الا أن أباك يتقبل ما تأتي به الطبيعة. أصغي الى ما دونه في السجل الخاص بالحديقة: "هذه ظروف تتجاوز سيطرة الانسان. والحكمة تقضي بأن نعمل بحماسة ودقة، من غير أن نرفض النظام الكوني". أما أنا فمن الشاق أن أسلم بهذه الآراء.
لقد سهرنا هذه الليلة نتكلم عن صديقك الصغير الذي أصابته حمى قوية. وقلت لوالدك اني لا افهم كيف يتحمل والداه ذلك. اذا كنت مريضة الى ذلك الحد، فاني لن أقوى على الاحتمال. وخوفي الا أستطيع قبول ما لا تمكنني السيطرة عليه.

يوليو (تموز) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
اننا نزور جديك باستمرار. وقد أفضيت اليهما بالسر الذي أبهج أيامنا كثيراً: "ماما تحمل طفلا في بطنها". ان عائلتنا المؤلفة من ثلاثة أفراد على وشك أن تصبح أربعة. آه كم هي الحياة طيبة!
صحيح أننا لا نحصل على أي مال اضافي. وأحياناً أحار في امر مصروفنا: هل سيمكننا دفع كل ما علينا؟ لكن والدك يقرأ لنا مقاطع من الكتاب الذي لا يفارقه. وعندما أكون حزينة يقرأ علي الشعر. وهكذا تنقضي لحظات الهم. ان حياتنا غنية بمعنى آخر.

اغسطس (آب) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
هذا الصيف يحمل الينا هنيهات سعيدة. فنحن نمشي معاً كل صباح نستكشف الاعشاب وننحني فوق الزهر. اني أشعر بالطمأنينة والرضا. لقد بدأ الطفل الجديد يتكون داخلي، وأنت، طفلتنا البكر، تكبرين في الحب. وننظر اليك باعتزاز

وأنت تتعلمين اموراً كثيرة. انك تدهشين أباك اذ تركضين بين أثلام الحديقة صارخة: "بندورة (طماطم)، كرفس، خس..." لم يدر في خلدنا أنّ هناك طفلة صغيرة ستعرف حديقتنا وتحبها هي الاخرى.

سنأخذك مرة اخرى الى جديك لتمضية بعض أيام. أنت التي تبهرك أصغر الكنوز، ترى كيف ستنظرين الى البحر العظيم؟

اغسطس (آب) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

كنا عائدين في السيارة من عند جدتك. ورأسك كما يخيل اليّ، كان مليئاً بالذكريات عن الرمل والثقوب الكثيرة التي رحت تملأينها أنت ووالدك بماء البحر. كانت أياماً سعيدة حقاً. إلا أنّ العودة الى البيت هي دائماً أجمل الاشياء.

فجأة مدّ والدك يده وشدّ على يدي. وكنا على وشك الوصول الى البيت. وأحسست بك تتلوين، فسألتك: "أتريدين قطعة حلوى؟" ولم أدر، وأنا احاول الوصول اليك، الا أن سيارة بيضاء كانت تتجه نحونا... يا الهي!

والآن يقول لي كلّ من يراني: "اني متأسف". وأنظر فلا أرى سوى أعين ملؤها الشفقة والاهتمام. ويبدو لي أني تصرفت حسناً اذ اسمعهم يتهامسون: "انها شجاعة حقاً". وأقول لهم ألا يقلقوا عليّ. ولكن لماذا لساني معقود هكذا؟ لقد أصيب زوجي وابنتي بجروح بالغة. انهما يموتان.

هذا يجب أن يكون حلماً. انّ خوفاً كهذا لا يمكنه أن يجد طريقاً اليّ. اني لا أصدق شيئاً.

اغسطس (آب) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

الحلم ما زال مستمراً. انه لا يبارحني. لكنّ الزمن سيمضي، معي أو بدوني. وككلّ يوم آخر، يحملون اليّ ثلاث وقعات. انهم يظنون أنّ شؤون العالم ما زالت تسير كما كانت.

لقد وضعوك في مستشفى آخر. أنت تموتين وحدك، بعيدة عني. انه أمر لا يمكنني استيعابه. اني أبكي، لكنّ الدموع ليست دموعي. فأنا لم أعد أنا.

اغسطس (آب) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

يقولون لي: "من الصعب طرح هذا السؤال... ولكن اذا ماتت، أتوافقين على أن تذهب كليتاها الى..." لماذا أنا مريضة في هذه الغرفة، وحولي هؤلاء الناس يطرحون هذه الاسئلة عليّ؟ أكاد أجنّ، ولا اريد الاجابة عن اسئلتهم.

اغسطس (آب) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

لقد مزقني الهمّ قليلا، لكنّ الامور حسنة الآن. انك ستتعافين وتعودين كما كنت، وأنا سأساعدك. وسيكون كلّ منا خارج مستشفاه قريباً. كلّ ما في الامر أنهم فصلوك عن والدك وعني. لكنّ هذا لن يطول. وسيصحو والدك من غيبوبته ويعنيني على الاعتناء بك. فنحن الثلاثة عائلة.

هلا ذهب أحد اليكما وأخبركما اني احبكما ؟

اغسطس (آب) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

قالوا ان ساره ماتت هذا الصباح. ماذا يعنون بقولهم: "ساره ماتت هذا الصباح"؟ يقولون ذلك كما لو كنت شخصاً منفصلا عني. فأنت لاَ تموتين. واذا مت ، فأنا أموت معك أيضاً. ان والدك سيصحو من الغيبوبة ويجن لهول ما حصل، ولن نستطيع تحمل الامر والاستمرار.

اغسطس (آب) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

لا يمكنني الاكتراث بعد الآن لما يقولونه حين يدخلون علي. ان شعوري تلاشى. لقد قهروني. انتصروا علي. قالوا ان أباك مات. نعم، أبوك مات هو الآخر. لقد انتزعوا عالمي كله مني. اني لا أنتظر حقائق بعد الآن، فالحقيقة كلها توارت.

لماذا فعل الله هذا؟ لماذا أخذكما وأبقاني وحدي؟ ألم أكن صالحة بما فيه الكفاية لأموت معكما؟ ترى هل أُعاقب؟ لقد كنتُ حمقاء في أحيان كثيرة ولم يكن حبي صادقاً. وها أنا أدفع الثمن. انك مت لانك كنت لي ولم أكن استحقك . ولكن هل يعقل لاله صالح أن يكون قاسياً الى هذا الحد؟

يجب أن أعود الى حديقتنا أو اعد الحلوى للعشاء. غير أني قابعة في هذا المستشفى، ارسل الاقارب لشراء ثياب الدفن، قائلة لكل منهم اني بخير. لكني لست بخير. فلماذا مت ؟ انك لم تكوني سوى طفلة. غير أنّ الحزن لن يجد طريقاً اليك بعد الآن. وأنا لا أُريد أن تعرفي ما حل بي.

سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

أنا الآن أعيش مع جديك. لقد غادرتُ بيتنا وغرفنا الحبيبة وحديقتنا. الكل يقول أني لن احتمل البقاء هناك الآن. لذلك فعلتُ ما أشاروا علي به.

لكني لا اطيق الحياة حتى هنا. اني في غرفتي القديمة بين الاشياء التي ألفْتُها. لكنه ليس بيتي. فأنا لم أعد الشخص نفسه الذي عاش في هذا المكان. ولم أعد ما كنت قبل شهر واحد. كل ما لدي هو ذكرى عن ذاك الشخص، لكني لا أعرف كيف أستعيده. أما شخصي الجديد فلا طاقة لديه على فعل أي شيء سوى العيش والكف عن النواح.

سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

عزائي الوحيد أنه لا شيء لدي أندم عليه. فلم يكن في وسعي أن احبكما أنتما الاثنين أكثر مما فعلت. لقد بددت اشياء كثيرة في حياتي. لكني أحمد الله على أني عرفتُ النعمة التي كانت لي عندما حصلتُ عليك. غير أني لم أدر قط انك تستطيعين مفارقتي.

اني ازعج كل الناس حولي، ولا أحد يعرف كيف يعاملني. وقد اختبأت اليوم في زاوية محل عندما شاهدتُ صديقة قديمة تدخل، لاني

لم أشأ النظر اليها وهي تقف مرتبكة أمامي. وكلما دخلتُ مكاناً خُيل اليّ أن الجميع يقولون بصمت: "يا للمأساة".

سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

ذهبتُ الاسبوع الماضي الى البيت حيث اعانني الأصدقاء والأهل على تفريغ منزلنا. وبدا ذلك كما لو كنتُ أهدم كلّ ما بنيناه وانكر كل ما كان قائماً هناك. لقد انتهى كلّ شيء الآن ـ الهموم والاهتمامات والمناسبات. فهي ذات يوم تستحيل ثياباً وأحذية مهجورة في خزانة. وهذه تجعل كلّ همّ وطموح يبدو تافهاً.



اذا قلقنا على حياتنا، اذا صنعنا الثياب وانشأنا المنازل وسعينا الى الامور العظيمة، فان آمالنا تخيب آخر الأمر. ففي النهاية تبدو هذه الأشياء وقتية. ثمة شيء آخر كان يجب تحقيقه. لكنه فاتني. لقد وضعتُ أملي في الغد وفيكما أنتما الاثنين، وغفلتُ عن السؤال المتعلق بالأمر المهم حقاً، بالشيء الذي يعطي الحياة معنى. ذلك اني كنتُ دائماً منهمكة.

وها أنا الآن، ولديّ متسع من الوقت، ألمس برنس الحمام الذي كان والدك يستعمله، وأحمل لعبتك الطنانة المحشوة. وسأحتفظ بهما. اريد ان اتذكر الشيء الذي يبقى بعد غياب صاحبه حتى اكتشف ذلك الشيء الذي لا يبقى.

سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

ذهبتُ الى عيادة الدكتور اودت، الطبيب الذي اشرف على عملية ولادتك. وكانت الغصة تسدّ حلقي. وقد رأيتُ فيه البرهان على انَّ حياتي انقطعت، إذ راح يتذكر أنكِ جئت الى العالم وكنت حقيقة.

وطلبتُ اليه تحويل الملفّ الخاصّ بي الى حيث يقيم جداك. فأجاب بلطف انه سيرسل نسخة واحدة، وتابع: "اذا قررتِ العودة الى هنا، فستكون لديّ نسخة اخرى فيها جميع المعلومات". لكن هذه الفكرة تطلق دموعي من جديد. فأنا اريده ان يشرف على ولادة الجنين الذي أحمله. لكني أُقصيتُ عن هذا المكان، ولن تمكنني العودة اليه.

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
انظري الى هذه البطاقات والرسائل. أكاد لا أُصدِّق أن عددها بلغ المئات. آه كم أنا محظوظة بهذه النعمة، نعمة المحبة التي تحيطني.
لقد كتب اليّ طلاب والدكِ في الجامعة. وقال أحدهم عنه: "انه اعانني على اكتشاف ذاتي..." وقال آخرون انه كان يتكلم عنكِ وعني كثيراً في صفوفه ويقول انّ عائلته أعزّ من الحياة نفسها بالنسبة اليه، وانه لم يكن ليختار في حياته غير زواجنا وولادتكِ.
وطالما راقبتُ أباكِ وهو ينظر اليكِ. كانت لديه نظرةَ خاصة بكِ وحدكِ يا ساره. ولكم كان يبتهج بكِ وبحبنا. أتراه يعتني بكِ بعْدُ؟

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
كنتُ افكر اليوم في الدكتور اودت. لقد انقضت أسابيع منذ ما رأيته للمرة الأخيرة. الا ان بعض كلماته يتردد في ذهني بالحاح: "اذا قررتِ العودة الى هنا..." هذه هي المرة الاولى التي تراودني فكرة الخيار. ففي امكاني العودة اذا قرّرتُ ذلك. وفي إمكاني الذهاب حيثما اريد.
ان لديّ خيارات. وحياتي ما زالت ملكاً لي. كيف غاب ذاك عن ذهني؟ وأين تراني كنت؟

نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
يومياً أملأ طلبات التأمين. والجميع يسألني عن قرار المحكمة والرجل الذي قتلكِ. انهم يريدون ان يعاقب. ولكن ما معنى ذلك؟ فلا المال ولا الثأر يمكنهما ان يرداك. وانتصاري لا يحصل في قاعات المحاكم.
انني في حاجة الى الكلام. وأراني اكرّر العبارة الآتية: "لقد حصل لنا اصطدام مروع توفي على أثره زوجي وابنتي". وأحياناً أقول هذه الكلمات أمام غُرباء من غير تفكير. ان الآخرين لا يحاولون ان يقاسموني المي. واريد ان أحبس مشاعري عن كل شخص يعرفني.
أيمكنك ادراك هذا الأمر؟
إن مشاعري هي كل ما بقي لي مما نملكه نحن الثلاثة. وهذه الدموع هي كلّ ما تبقى منا.

نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥،
عزيزتي ساره،
هناك برنامج جديد على التلفزيون وأنت لا تعرفين شيئاً عنه. وأحياناً أقرأ خبراً في الصحيفة من شأنه ان يثير اهتمام والدكِ، ولكن لا يمكنني ابلاغه اياه. كلّ يوم تحصل امور جديدة أعلم بها وأنتما لا تعلمان.
لقد بت أنظر الى الامور على نحو مختلف عن الماضي. ففي الأمس كنتُ واثقة بمستقبلي. أما اليوم فكلمات والدك تتبعني أينما حللت: "ليس من ضمانات لهذه الحياة". لا ضمان لشيء بعد هذه اللحظة التي نعيشها. واذا لم نستعمل "اليوم" كما يجب، فاننا نخدع أنفسنا.
فكري لحظة في أبيك. كان في الثالثة والثلاثين فقط، لكنه طرح على

نفسه عدداً كبيراً من الأسئلة الخطيرة المتعلقة بالحياة. وتساءل عن الحقيقة المطلقة. وكان يجلس يومياً متأملاً، ساعياً الى فهم أعمق لهذه المسائل. وتسنى له ان يقبض على زمام حياته، مبتعداً عن الثرثرة حول التوافه. ولم يسمح لأيّ عمل بأن يثنيه عن الصلاة والقراءة اليوميين.

ترى ما كان حدث لو أجل التفكير في الله الى وقت لاحق؟ لو فعل ذلك، لكان فاته الوقت. ومن الذي يخطر في باله ان الثالثة والثلاثين هي سن متقدمة؟ هذا هو ضلالنا الكبير.

نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

اليوم أخذتُ القرار. لا يمكنني ان أبقى بعد الآن في مكان أرى جميع الأشياء مقلوبة على اعقابها. فهنا طبيب نساء جديد، وطبيب أطفال جديد، ومحلات جديدة. لقد غدا ظاهر حياتي غريباً كباطنها. وانيّ اتوق كثيراً الى أشيائي الأليفة.

لقد رحت أبكي اليوم في المحلّ لأني لم أتمكن من العثور على زبدة الفستق. ثمّ عرفت الجواب: سأذهب من هنا. سأعود الى البيت.

ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

انا وبطني المنتفخ محشوران في مقعد يوجه ذكرياتنا الى هذا البيت الجديد. صحيح ان الغُرَف جديدة، كلها جديدة، لكنّ الأرض والشوارع والأصدقاء هم جميعاً بيتي، وطبيبي العزيز هنا أيضاً. واذا ذهبتُ الى محل الأغذية الآن، ففي امكاني العثور على زبدة الفستق بسهولة. وفي هذا أجِدُ انتصاري. يا لجنوني!

هل لاحظتِ اني لم أكتب اليكِ البتة عن الطفل الجديد؟ ربما أمكنني الانصراف الى التفكير فيه بعد ان يرتاح جسدي في هذا المكان. أعرف أني لم أكن عادلة. فأنا لم استمتع بوجوده في أحشائي كما استمتعتُ بوجودكِ أنتِ. حتى أني لا أدري اذا كان في وسعي ان أُحبّ شخصاً جديداً. الا ان الطبيعة تحفظ مواعيدها رغماً عنيّ. ولكن ماذا يحدث اذا أحببتُ الطفل الجديد بكل كياني ثم توارى هو ايضاً؟

ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٥،

عزيزتي ساره،

انه عيد الميلاد. الطفل الالهي وُلد. الله، جلّ جلاله، يحرّك العالم، ووحده لا يتحرك. لقد أحبّ اللهُ العالم. وفي لحظة الصفاء هذه يخيل اليّ أنه يحبني أنا أيضاً. اني جزء من العالم. والله لم يكفل ابقاء شيء ثابتاً سوى محبته.

اني افكر في مريم، عليها السلام، وبيت لحم. لقد فقدتُ أعز ما كان لي، ولكن ليس من الضروري ان تفقد حياتي معناها. هناك حس في داخلي يقول ان الحزن كان انتصر عليّ لولا عجيبة بيت لحم.

يناير (كانون الثاني) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

سنة جديدة. لكني لا اريد شيئاً جديداً، بل أريد ان يعود أحدنا الى الآخر كما كنا. ان ذهني يضج في داخلي أكثر فأكثر. ترى ألم يكن في

وسعنا ألا نتوقف لبضع دقائق عند محطة الوقود تلك؟ وهل كان ليحدث ما حدث لو لم أمدّ اليك يدي بقطعة الحلوى وتندفعي الى الأمام؟

هل كان ما حدث ضرورياً؟ هل مت في سن باكرة تحقيقاً لغاية لا ادركها؟ هل يوجه الله كلّ نَفَس من أنفاسنا؟ أم أننا أسياد مصائرنا، وبالتالي نحن مسؤولون عن الظروف التي قادتنا الى تلك النقطة من الطريق في الوقت غير المناسب؟ اذا كان لم يتسنّ للحزن ان يخرجني عن طوري، فهذه الاسئلة تقودني الى حافة الجنون.

اتظنين أني تركتك وحدك في ذلك المستشفى؟ هناك فكرة تبرّح بي، وهي أنك كنت تحتاجين اليّ وتنادين "ماما" وأنا بعيدة عنك.

هذه الأفكار لا تنفكّ تراودني، ولا استطيع مقاومة الألم الذي تتركه فيّ. أما كان يجب ان تنقضي اسوأ مرحلة قبل اشهر؟ اني خائفة. ايمكنني الاستمرار يوماً بعد يوم في هذه الحال؟

في ظني ان أفكار الناس عني خاطئة. فهم يظنون ان حزني انقضى لان زمناً كافياً مرّ عليه. ويحاولون، ما استطاعوا، "اشغالي" من جديد. لكن محاولاتهم كلها تبوء بالاخفاق. فأنا لست انا. ان كياني يتصدّع.

كلّ يوم انزع شريط الهاتف من مكانه وأقفل الباب وأبكي. وتنهمر دموعي ساعة وراء ساعة. اني أريدك، احتاج اليك، ولا يمكنني النسيان.

آه لو أعطي كلّ شيء وتعودين، واذا عدت مريضة، فأنا على استعداد لتمريضك مئة سنة. اني أقبلك حتى وان كنت في غيبوبة دائمة. أقبل ان اراك حتى وان كنت ستغيبين ثانية. ولكن تعالي اليّ ولو مرة واحدة.

فبراير (شباط) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

صديقتي تذهب معي الى الدروس الخاصة بتدريب الحوامل على الولادة. كل امرأة هناك لها زوجها، كما يجب ان تكون الحال. أما انا فأجلس الى جانب صديقتي. واني امقت هذا. ويسألونني: "أهذا طفلك الاول؟".

ـ كلا، بل هو الثاني.

"وكم عمر الاول؟"

وتكرّ هذه الاسئلة دونما انقطاع.

فبراير (شباط) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

كم كان سهلا عليّ ان أضع ثقتي في حياتنا القديمة يوم كانت جدراننا مشبعة بالحب وغدنا مليئاً بالوعود. ذلك كان سهلا سهولة الحب الذي نمحضه شخصاً آخر لمجرد كونه لطيفاً وطيباً. غير اني لا أقوى على هذا النوع من الايمان اليوم. ويشقّ عليّ كثيراً ان أصدّق اني لستُ وحيدة مع هذا الاسى كله. كما يصعب عليّ ان أصدق، ان هناك انتصاراً على الجانب الآخر من هذه الدموع. ولكن هذا هو الوعد الذي أعطانا اياه الله. وأصلي كي أجد طريقاً خارج هذه الاحزان. اني أريد تجاوُزها كلها.

فبراير (شباط) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

أمس تناولتُ العشاء مع صديقتي

وعائلتها وحاولت أن أتحدث بمرح الى اولادها • وهذا الصباح قام ابنها، ذو السنين العشر، بفعل لا يُصَدَّق • فهو ذهب الى رجل الدين وطلب اليه رؤية صديقة يظن انها تحتاج الى بعض العون • وتلك الصديقة كانت أنا •

وقد سرّني ذلك في داخلي • فأنا لم أعد احتمل الضغط الذي يخلفه بقائي معك طوال الوقت • اني لا أريد ان أصبح مجنونة • لذلك لا تحنقي اذا قررتُ ان اتكلم عنا جميعاً • وربما كان علينا ان نفترق • وأنا لم أكن أعرف ان الامور ستنتهي هكذا • ولكن ربما كانت هذه النتيجة استجابة لصلاتي •

فبراير (شباط) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

قد لا تصدقين ما أقول، لكنّ رجل الدين أخبرني اني طبيعية كما أنا، اي ان هذا الجنون كله طبيعي • ربما كان هذا صحيحاً، وربما أمكنني ان أكون نفسي في أحد الايام • أعرف الآن ان هذا فكرة محض، لكنها فكرة قوية وايجابية •

أرجوك الا تستائي من عودتي كما كنتُ، معافاة • لا تستائي اذا كنت أريد المولود الجديد بكل جوارحي • فأنا أظنّ أني اجرؤ على الحبّ من جديد •

مارس (آذار) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

لقد عشتُ عمري مع التساؤلات • لكن بعض الاجوبة آخذ طريقه ببطء اليّ •

وأظن انّ جزءاً من الجواب عن سبب الحادث راجع الى كون جميع الناس أحراراً • انهم احرار كي يفكروا ويعملوا ويتخذوا قراراتهم • والقرارات كلها تصدر عنها نتائج تطول حياة الآخرين •

الانسان ليس كاملا • واختياره الحر قد يكون حَسَناً او سيئاً • وهذا يعطيه طاقة ضخمة، ولكن مخيفة • فهي قد تكون معبراً للنور او للظلام •

ترى الى ايّ حدّ أنا مذنبة؟ ما الذي سبّبَتْه أفعالي غير المدروسة؟ وكم من مرّة كان قعودي عن العمل مَنْفَذاً للظلمة؟ آه كم هو الانسان مسؤول عن هذه الحياة •

والله... أين هو؟ انه لا يغير شيئاً من أحداث الطبيعة او افعال الانسان • فنحن نبقى أحراراً، ومع هذه الحرية الرهيبة نحيا • الا اننا حين نختار النور ونفضّله على الظلمة، يجعلنا الله نبصر على نحو آخر ما كان هناك طوال الوقت • فما كان لا يتغير، وانما نحن الذين نتغير •

مارس (آذار) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

ان لك الآن اختاً صغيرة سمّيتها بيث - ستار • هل ترينها نائمة هنا؟

لقد تمنى مئات الاشخاص لنا نحن الاثنين الصحة والسعادة، وربما ظنوا ان الامور الآن تسير على خير ما يُشْتَهى • وفي ودّي لو كان الامر على هذه السهولة • الا ان شقيقتك تذكرني بك، من رأسها حتى أخمص قدميها • انها تذكّرني بالطريقة التي شعرنا بها أنا ووالدك بأنك لنا • وأنظرُ الآن، فلا أجد عائلة حوليَ •

لم أدرك قبل اليوم ان سواي حزن

ايضاً. وكيف كان لي ان أعرف ذلك؟ فهناك أصدقاؤنا وأقرباؤنا. أجل، هناك كثيرون شعروا بالخسارة. ان والدي أبيك فقدا ولدا كذلك. لكن هذه الامور غابت عن ذهني الذي كان شارداً في البعيد.

مارس (آذار) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

لقد كان أبوك على حق. فالحياة أعمق كثيراً من الوجود الفردي. أما انا فكنت عمياء آنذاك. ولم أدر ان التاريخ أعاد تمثيل روايتي آلاف المرات. وعلى رغم ان الافراح والاحزان القصيرة الاجل مهمة في حياة الافراد، الا انها خالية من المعاني البعيدة. ولو لم تكن كذلك لتغلب الالم على الانسان.

ان كل ما يبقى من كل ما كناه هو الحب. نور العالم هو المحبة. والسؤال الذي ينبغي ان يطرحه المرء على نفسه يومياً ليس الآتي: ما الذي يسعدني؟ او: من أرضي؟ او: ماذا يمكنني ان افعل او احقق؟ السؤال، بالاحرى، هو هذا: كيف أحب؟

انني متأكدة من أمر واحد يا صغيرتي، وهو ان الفراغ يحيطنا. ولكن اذا اختار المرء ان يسعى الى الله، فهو لن يبقى فارغاً. ولن تظل حياته كما كانت. الله أعطانا ذلك الوعد. ولا مفر لنا من اتخاذ ذلك القرار، لان التجاهل هو في ذاته قرار.

ابريل (نيسان) ١٩٧٦،

عزيزتي ساره،

قليلا قليلا تعود الي قدرتي على مواجهة الذكريات، ذكرياتي عنك وعن والدك.

يؤسفني انك لن تعرفيني أفضل مما عرفت أو تنظري الي الا كأم جديدة مضطربة وزوجة شابة. لو بقيت حية لكانت نفوسنا جميعاً تكشفت عما هو أجمل. آه كم كنت أود ان تريني مع والدك ودراجته النارية التي كان فخوراً باقتنائها. لقد ذهبنا في رحلات كثيرة على تلك الدراجة. ولكم كنت أحب ان أطوق والدك بذراعي بينما الاشجار والجبال تعبر سراعاً.

آلاف الاحلام راودتني آنذاك ونحن نقطع المسافات، وكنت أسر بها الى الريح. كما كنت أضم والدك واحب حريتنا والشمس وهروبنا الى الربيع. ولم يبق لي سوى الالم لعجزنا عن الابحار في الريح والمدى بعد الآن. والالم يولده الحب، ذلك الحب، الذي سلب منا.



الكاتبة بولا دارسي مع طفلتها الثانية بيث ـ ستار.

يوليو (تموز) ١٩٧٦،
عزيزتي ساره،
انني اتقدم نحو الافضل، على رغم ان موتك ما زال قائماً هناك. فأنا لم أعد واقفة خارج الحياة، أنظر اليها من بـعْـد . انك الآن، ومنذ مدة غير قصيرة، رَفيقة افكاري الدائمة. لكني اليوم أقبل هذا وأمضي.

كنتُ أفكر في الآتي: الا تشتاقين الى يوم تمكنني الكتابة اليك كما كنت أفعل سابقاً، عن ذكريات النعمة والخير؟ ولكن يدور في خلدي انه اذا حان ذلك اليوم فلن تكون هناك رسائل، أو بالاحرى لن تكون هناك رسالة اليك. هل تفهمين ذلك؟

اغسطس (آب) ١٩٧٦،
عزيزتي ساره،
جلستُ على شرفة المنزل اليوم وأنا أشعر بالوحشة.

انني لن أكون قطّ كما كنتُ من قبل بالتمام. لكني أعرف انّ لديّ استعداداً للاستمرار. ولئن يكن حبّنا يتجاوز جميع المقابر، الا اني أحيا هنا من غير ان تكوني معي. لقد غدوت بذرة لبداية جديدة في مكان عليّ اكتشافه. انا ما زلت أذرف الدمع عليك وعلى أبيك، وربما بقيتُ هكذا على الدوام. ثمة أيام وأوقات ستحمل اليّ الدموع كلما جاءت. وأنا أفهم هذا الامر وأقبله كجزء من الحبّ. ولكن اتعرفين ما أحاول قوله؟ انني أقول: "وداعاً".

هل تذكرين حين ذهبنا الى البحر كيف كان الماء يحتضن شمس الصباح؟ انه كان يحتويها من غير ان يمتلكها. ولسوف احتضنك أبداً كما البحر يحتضن الشمس. سأحتضن التهويدة التي غنيناها معاً. لذلك صلي من أجلي بينما أصلي انا من أجلك. ثم دعيني أذهب.

يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩،
عزيزتي ساره،
اليوم زرتك في المقبرة. لم أزر ساره الحقيقية، بل ساره التي في قلبي.

عندما أفكّر فيك أحياناً وتهيج الذكريات، ازور ترابك وأترك لك البنفسج: باقة منه لذكرياتنا البهيجة، للاوقات التي ستبقى باسمة.

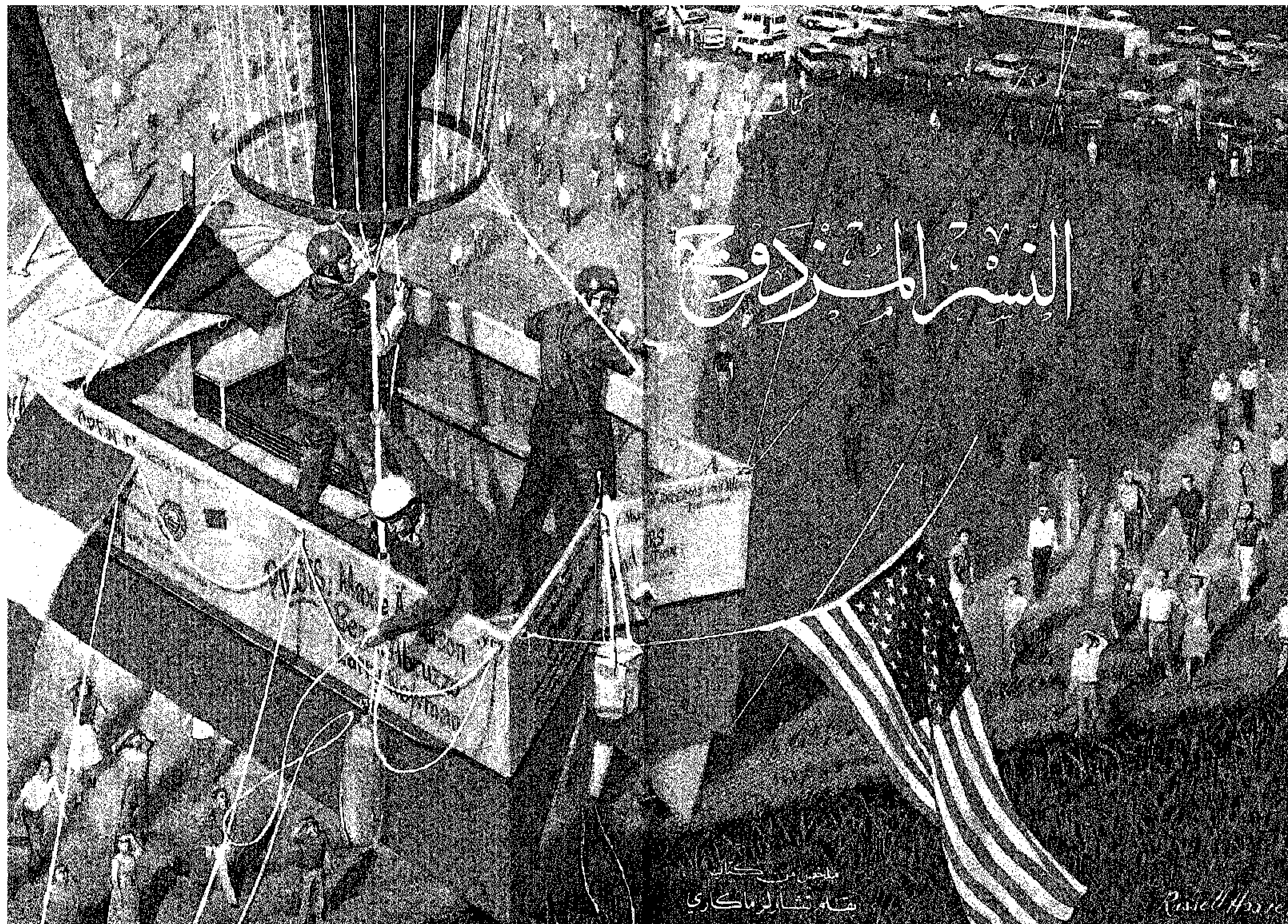
وأنظر الى ما كتبتُه على شاهدة ضريحك: "الربّ راعي فلا يعوزني شيء". الآن ادرك تماماً صحة هذا القول. انّ يد الربّ هي فوق الجميع. وهو كان لي دائماً هناك، في كل لحظة، حين خُيّل اليّ اني وحيدة. ولم يكن حضوره يحتاج الى شعوري به او الى مدى ايماني. لقد كان الله هناك وكفى.

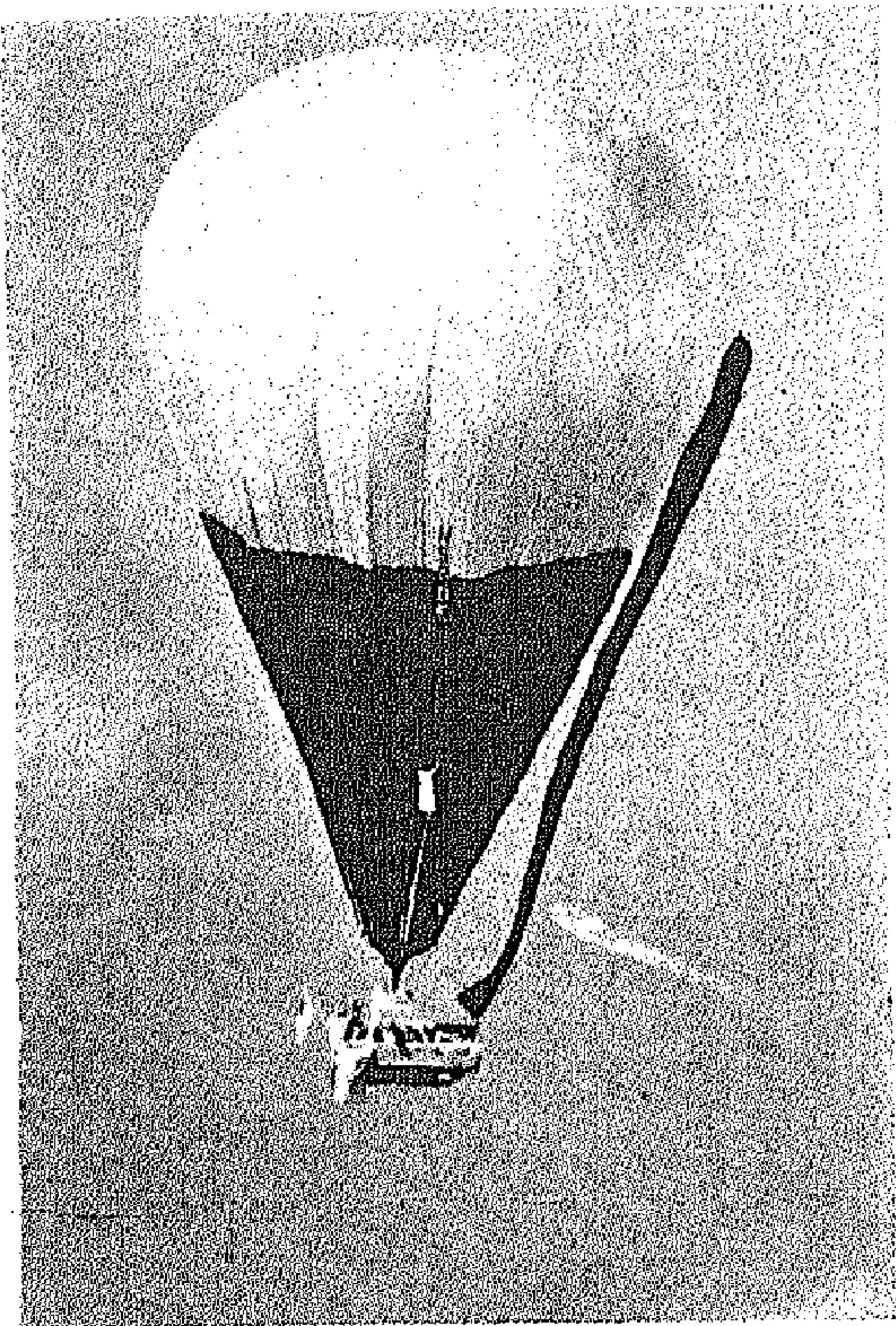
اني توجعتُ واكتأبتُ كثيراً لفقدك، لكن الالم، في النهاية، لم تكن له الكلمة الاخيرة. لذلك لم يكن ما حدث خسارة، بل انتصاراً.

■ بولا دارسي

الحبّ كأس تتحطم اذا حملتها بكثير من الشدة أو كثير من الرخاوة.

مثل روسي


النسر المزدوج
ملخص من كتاب
تأليف تشارلز ماكاري



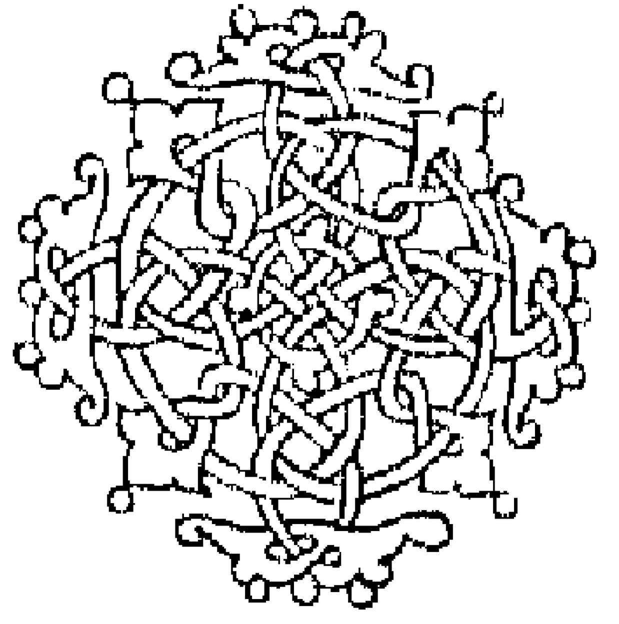
أول عبور للأطلسي بمنطاد ١١ - ١٧ أغسطس (آب) عام ١٩٧٨

النسر المزدوج

ان سعي الناس الى المغامرة يتخذ اشكالا عدة. فبعضهم يمشي على سطح القمر، وبعض يقهر الجبال الشاهقة، وآخرون يذللون أعمق البحار وأشدها عتواً.

وهذه قصة الرجال الاول – والوحيدون حتى اليوم – الذين عبروا المحيط الاطلسي بمنطاد. ولئن لم يكن التحليق بالمناطيد فناً محدثاً، الا أن ماكسي اندرسون وبن أبروزو ولاري نيومن جعلوا منه علماً. وجاء انتصارهم، في النهاية، ثمرة عزمهم وجرأتهم، على رغم الاساليب التكنولوجية المتعددة التي اعتمدوها في رحلتهم الملحمية

Condensed from «Double Eagle,» by Charls McCarry With Ben L. Abruzzo, Maxie L. Anderson and Larry Newman.



في شتاء ١٩٧٧، أحسّ ماكسي أندرسون، من مدينة آلبوكيرك في ولاية نيومكسيكو الامريكية، غماً وانقباضاً في الصدر. ولم يكن، في ظاهر حياته المتألق، ما يفسر عدم رضاه. فثروته تقدر بالملايين، وهو يستثمرها في الاورانيوم والرصاص والذهب والفضة. وكان تزوج، قبل ٢٥ سنة، أمرأة جميلة وأنجبا أربعة اولاد نُجباء. كما كان يملك شركة خاصة للتنقيب عن المعادن ومنزلا أنيقاً واسطبلا يحوي جياداً عربية أصيلة وأرضاً للتزلّج على الجليد، اضافة الى عدد من السيارات والطائرات والمراكب الشراعية.

لكنه، على رغم هذا النعيم كله، ظلّ يشعر بعدم الاكتفاء. وكان، ذلك الشتاء، بلغ عامه الثاني والاربعين. وهو رجُل وسيم له ملامح ولد تفضحها خصلة من الشعر الاشقر القاتم أُسدلت فوق جبينه، ويحمل وجهه سمات اسكندينافية واضحة ورثها عن أسلافه.

والحقّ أن ما عاناه ماكسي يعانيه العديد من الرجال الناجحين لدى تجاوزهم الاربعين. فهو أنجز كلّ ما كان يُتوقّع منه، لكنّ قلبه ظلّ يحرضه على الاتيان بالعمل الذي يحبه. وقال لنفسه: "ربما كنتُ طوال السنوات الماضية منهمكاً في بناء شركتي وتحصيل المال ومساعدة زوجتي في تربية اولادنا. لكني رأيتُ حلمي القديم المستحيل يسقط عليّ فجأة ليستحوذ على أفكاري من جديد".

كان ماكسي هادئاً على الدوام. الا أنه بدا أكثر هدوءاً ذلك الوقت كما يقول أصدقاؤه. وعلى رغم ذلك، فهو لم يفقد خصاله الرفيعة وسلوكه اللطيف. جلّ ما في الامر أنه انطوى قليلا على نفسه. والكثيرون لاحظوا انكفاءه، ولاسيما زوجته باتي اندرسون التي تقول: "لم يعد ماكسي ينام. وهذا يحصل عندما يواجه قرارات حاسمة. وهو، في ذلك الوقت، كان يسهر ليالي عدة في الاسبوع، وليس ليلة واحدة".

وراح ماكسي، في ليلة من فبراير (شباط)، يدقق في الصحف التي تركها في مكتبه من غير أن يقرأها. وفجأة لفته عدد من مجلة "ناشونال جيوغرافيك"، يحمل غلافه رسماً لمنطاد يطيرُ بغاز الهيليوم الخفيف. وهو عبارة عن قبة فضية كروية مرتكزة على مخروط فاحم السواد، وتحتهما المحيط الاطلسي بزرقته اللامتناهية. كان اسم المنطاد "الذئب الفضي" أما بانيه وملاحه فهو اد يوست من بلدة سو فولز في ولاية داكوتا الجنوبية، وكان يظهر في المنصة المتدلية.

واحتوت المجلة على وصف لمحاولة يوست عبور المحيط الاطلسي وهو يقود "الذئب الفضي" بمفرده. لكن المحاولة أخفقت، كبقية المحاولات الاحدى عشرة منذ العام ١٩٥٨. وهبط المنطاد في المحيط الاطلسي، على بعد ١١٠٠ كيلومتر من ساحل البرتغال.

وبعد قراءة المقال، راود ماكسي شعور عميق تعجز الكلمات عن وصفه كلياً، لكن مؤداه أنه وجد حلا للكآبة

التي يعانيها • فهو ليس الوحيد الذي جنى الملايين من عمله، ولا الوحيد الذي علق الاوسمة والغنائم في مكتبه• الا أن أحداً لم يفلح في عبور المحيط الاطلسي بمنطاد• وقد بلغ عدد المحاولات المخفقة أربع عشرة، لقي خمسة من أصحابها حتفهم•

وكان ماكسي طياراً متمرساً برفع المناطيد بالهواء الساخن• وهو سجل، وحده ومع مليونير عصامي آخر اسمه بن ابروزو، مئات ساعات الطيران بالمناطيد التي يملكانها شراكة• ولكن لا ماكسي ولا بن سبق أن حلّقا في منطاد يطير بالهيليوم، علماً ان عبور المحيط بمنطاد لا يمكن ان يتم الا اذا كان مسيراً بهذا الغاز•

وقرر ماكسي، في الاسبوع الثاني من فبراير (شباط)، انه يجب أن يكلم أحداً في شأن خطته• واختار رجلا من أصدقائه القريبين هو جيمس ميتشل، الذي يعمل خبيراً في حقل العلاقات العامة في آلبوكيرك•

ويصف ميتشل ذلك اللقاء بقوله: "بينما كنا أنا وماكسي نتكلم، انتقل فجأة الى موضوع آخر من غير أن تتبدّل لهجته• وسألني: "أتدري ما أنا مزمع أن أفعل؟ "فأجبت: "كلا"• فقال: "سأعبر الاطلسي بمنطاد"•

ولم يشكّ ميتشل اطلاقاً في صحة الكلام الذي سمعه من ماكسي• لكنه سأله: "وهل ستحلق وحدك؟" فأجاب: "كلا، بل سأسأل بن أبروزو أن يرافقني• انه أكثر الناس حظاً من بين الذين أعرفهم"•

والحقّ أن بن أبروزو يبزّ ماكسي اندرسون في خوض الاهوال• وهو أنجز ثلاثة آلاف ساعة من الطيران الخفيف في مختلف الاحوال الجوية كما قاد طائرات شراعية واخرى مروحية• واختبر الاصطدام فيها جميعاً، باستثناء المروحية منها• ويلخّص مبدأه في الطيران بتركيز الانتباه في حال الخطر واستنفاد جميع الوسائل الممكنة• ومرة شردت طائرة شراعية كان يحلق بها واخترقت منزل جار له• وأبقى بن عينيه مفتوحتين خلال الاصطدام، فرأى جدار المنزل والجزء الذي نفذت منه الطائرة والرفوف الخشبية داخل المنزل والمسامير المغروزة فيها• وتداعت الطائرة وطارت بعض أجزائها فيما رأى بن ذلك كله يحدث• "وأخيراً"، يقول بن، "لم أرَ سوى قطعة خشب صغيرة على مسافة سنتيمترين فقط من أنفي• وهناك توقفت ورحت أتأرجح داخل الطائرة••• من غير أن يصيبني أذى"•

وتلقى بن مخابرة هاتفية من ماكسي بعد يومين أو ثلاثة من حديثه مع جيم ميتشل• وسأله ماكسي: "هل قرأت القصة عن اد يوست في مجلة "ناشونال جيوغرافيك"؟

ـ أجل، لقد قرأتُها•

" حسناً! ما رأيك في أن نعبر الاطلسي معاً في منطاد؟"

ـ أني موافق•

سرّ النجاح

صادفت مغامرة بن وماكسي الذكرى الخمسين لعبور تشارلز لبندبرغ المحيط الاطلسي• لذلك قرّ رأيهما على تسجيل المنطاد تحت اسم "النسر المزدوج ـ ٥٠"• أما الرقم ٥٠

فاشارة الى اليوبيل الذهبي لرحلة لندبرغ البطولية. وأما "النسر المزدوج" فمستمد من لقب لندبرغ، وهو "النسر المنفرد".

ومنذ اليوم الاول، وقع اختيار الاثنين على باريس كمكان لهبوط المنطاد، من دون أن يبحث أحدهما الفكرة مع الآخر. فقد كانت باريس المكان الذي هبط فيه لندبرغ أيضاً.

ولم يكن في الولايات المتحدة كلها سوى شخص واحد يعمل في بناء المناطيد العابرة المحيط، وهو اد يوست نفسه. وبعد اتصالات أولية على الهاتف في ابريل (نيسان) ١٩٧٧، توجه بن وماكسي الى مصنع يوست في سو فولز.

وهناك نوع واحد من المناطيد يبنيه يوست، هو النوع الذي أراده بن وماكسي لرحلتهما. ومناطيده متعددة الاحجام، لكن شكلها جميعاً يشبه شكل منطاده "الذئب الفضي": قمع مخروطي تعلوه قبة مستديرة.

ويستعمل يوست لصنع مناطيده قماشة من النايلون تكسوها طبقة مطاط اصطناعي (نيوبرين). وتوضع القماشة على طاولات منحرفة يبلغ طول بعضها ثلاثين متراً وتقطع بمقصات. وتبدو القطع كأضلاع برتقالة. وتجمع بعضها الى بعض ثم تلصق، علماً أن أصغر ثقب فيها قد يؤدي الى أخطار جسيمة. وهذا العمل متعب وممل حقاً، ولا بد تنفيذه يدوياً.

وقد صنع "الذئب الفضي" بحيث يمكنه استيعاب ١٧٠٠ متر مكعب من الهيليوم. أما "النسر المزدوج"، الذي سيحمل رجلين، فينبغي أن يستوعب ٢٤٠٠ متر مكعب من هذا الغاز العديم اللون. وسيكون الجزء الاعلى فضياً والادنى أسود، على غرار مركبة يوست. ووظيفة الطلاء الفضي عكس أشعة الشمس للحد من تمدد الهيليوم في حر النهار. أما الطلاء الاسود فيؤدي وظيفة عكسية، وهي امتصاص الحرارة في أول الصباح وآخر العصر عندما تكون زاوية الشمس منخفضة.

وصمم الجزء الاسفل على هيئة طوف بحري وصنع من أنابيب الفولاذ المكسوة بطبقة من الزجاج. وكان مزمعاً تزويده بأشرعة وصوار وبوصلة وأثقال موازنة ووقاء ضد البحر الهائج ومرحاض ومرابط حبال. وذلك كله يكلف ٥٠ ألف دولار.

وطلب ماكسي من يوست تعليمهما طريقة تسيير المنطاد. فوافق على تعليمهما تشغيل مركبة اختبارية أصغر، لكنها تعمل بالمبدأ نفسه، في مقابل ثلاثة آلاف دولار. وانطلاقاً من كونهما خبيرين في تشغيل المناطيد بالهواء الساخن، قدر يوست أنه يمكن تلقينهما مبادىء رفع المناطيد بالغاز في وقت قصير.

وعاد بن وماكسي الى آلبوكيرك ليطلبا من دوك ويلي، وهو متقاعد من سلاح الطيران، ان يتولى تدريبهما على الارض. والى كونه طياراً متمرساً، كان دوك ويلي منطادياً بارعاً.

ويقول ماكسي: "كان يعرف كل ما ينبغي لنا حيازته: فنحن نحتاج الى الطعام والدفء وعدم التبلل بالمطر، كذلك الى وسيلة الاتصال بالارض وجهاز لتعيين المكان الذي نحلق فوقه".

وما انفك ماكسي يكبّ على المعلومات المتفرقة حول مغامرة اد يوست . فهو لم يرتفع أكثر من ٤٤٥٠ متراً علماً أنه بقي، معظم الوقت، على ارتفاع أدنى كثيراً محاولا وضع منطاده في مجرى هوائي يحمله الى اوروبا . لكنه لم يعثر على الرياح التي كان ينشدها . وهذا زاد قناعة ماكسي بأنّ سرّ نجاح الرحلة هو وضع خطة مدروسة تعتمد علاقة صحيحة بين الارتفاع والطقس والريح .

ولكن من هُم الخبراء المتقدمون في هذه المسائل؟

انّ الاتصالات التي أجراها ماكسي في واشنطن العاصمة وفي كولورادو أفضت كلها الى نتيجة واحدة، وهي أن روبرت برايس، من شركة "الخدمات الجوية" الخاصة في مدينة بدفورد (ولاية ماساتشوستس)، هو أفضل خبير في هذه الشؤون . واتفق الاثنان على اللقاء في بوسطن التي طار اليها ماكسي .

وهناك قابل رايس، وهو رجل ذو شعر أشقر ضارب الى الشيب، ويضع نظارتين على عينيه . وأعطاه رايس شرحاً دقيقاً للطريقة التي يظنّ أن "النسر المزدوج" يمكن أن يطير بها من الولايات المتحدة الى اوروبا فوق الاطلسي، قائلا ان الامر كله متعلق بالمحافظة على ارتفاع معين . ويجب اطلاق المنطاد قبيل هبوب ريح ذات ضغط مرتفع، وحفْظُه في الوضع الصحيح عند كل مرحلة .

وأضاف رايس: "عليكما التحليق عالياً جداً طوال الرحلة . واذا شبهنا الطقس بموجة ضخمة، أمكن القول انه ينبغي العوم فوقها" .

وما أن سمع ماكسي اندرسون هذا الكلام حتى أيقن أنه وجد عالم المناخ الذي كان يسعى اليه . فالامر لا يقتصر على ركوبه المنطاد مع بن والانطلاق به، بل يتعدى ذلك الى ضبط حركته في الاوقات المناسبة . وهذا يعني أن يسيطرا على الاحوال الجوية بدلا من ان تسيطر هي عليهما .

وقال رايس: "من الضروري جداً ان تبلغا أقصى ارتفاع ممكن بعد الانطلاق مباشرة . ويرتفع المنطاد يوماً بعد يوم حتى تصبحا، في اليوم الثالث، عند نقطة الامان، أي على ارتفاع ٥٥٠٠ متر" .

وانبرى ماكسي قائلا: "هذا يعني أننا نحتاج الى كمامات الاوكسجين نصف الوقت الذي تستغرقه الرحلة" . والمتفق عليه أن الرحلة تقتضي خمسة ايام أو ستة . وفي رأي يوست أن المنطادي الذي لا ينجز رحلته خلال هذا الوقت لن ينجزها اطلاقاً .

ووجه رايس تحذيراً الى ماكسي من الاخطار، وأحدُّها أنه يستحيل التنبؤ بالاحوال الجوية قبل خمسة أيام او ستة . وهناك عنصر مهم غير التحليق عالياً، وهو أن الرحلة يجب ان تتم في أواخر الصيف او مطلع الخريف لتجنب أسوأ العواصف التي تهبّ على المحيط الاطلسي .

ولما عاد ماكسي الى آلبوكيرك، جلس يبحث مع بن في نظريات رايس . وقررا أن يوكلا الى شركة "الخدمات الجوية" الجانب من رحلتهما المتعلق بالطقس . وضمنا العقد الذي وقعاه مع الشركة المذكورة بنداً يشترط عليها ألا تمد أي رحلة

اخرى بالمنطاد عبر الاطلسي بمعلومات عن الطقس اذا جرت تلك الرحلة في الوقت نفسه. وما حدا ماكسي على ادخال ذلك البند هو احساسه انه يمتلك سرّ النجاح وانه يريد الاحتفاظ به لنفسه.

شبح غير مرئي

مع اقتراب موعد التدريب، كان توق ماكسي وبن يزداد الى التحليق. ولم يكن يوست تكلم سوى القليل عن مبادىء الطيران بمنطاد الغاز. ولم يقع الاثنان على معظم ما أرادا معرفته في الكتب التي ابتاعاها. فالكتابات التقنية حول التحليق بالمناطيد كانت قليلة جداً.

وأدرك بن وماكسي أنهما يحتاجان الى خبير في الموضوع. ووجدا ذلك الخبير في شخص ريتشارد شوبل، وهو عالم فيزيائي كان قبل عشرين سنة يعمل مهندساً لدى الحكومة الامريكية ضمن برنامج لصنع المناطيد الخاصة بالارتفاع العالي واختبارها.

وفي اللقاء الاول الذي تم بين الثلاثة، قال شوبل كلاماً علق في ذاكرة بن وماكسي: "السؤال الحاسم هو: كم غروب شمس يمكن المنطاد ان يصمد؟"

ومعروف ان الهيليوم داخل المنطاد يسخن ويتمدد تحت أشعة الشمس، مما يؤدي الى ارتفاعه. وبينما هو يرتفع، يمكن طرد بعض الغاز منه لئلا ينفجر. ومع غروب الشمس يبرد الهيليوم ويتقلص، مما يؤدي الى هبوط المنطاد. وهنا ينبغي رمي الاثقال لوقف الهبوط. وعند كل غروب، يجب طرح ١٥ في المئة من حمولة "النسر المزدوج" لتحقيق توازنه.

ورمي الاثقال عن ظهر المركبة شبيه برمي الوقت. فكلما زادت الاثقال المطروحة تضاءل الوقت الذي يبقى فيه المنطاد مرتفعاً. كما ان تضاؤل الهيليوم يؤدي الى النتيجة نفسها.

واظهر شوبل قلقه بالنسبة الى العوامل غير الثابتة. فالرياح قد تكون ابطأ من المتوقع، وقد يعجز المنطاد عن تحقيق الارتفاع المثالي. وهذا يحتم تصميم المنطاد بحيث يمكنه البقاء في الجو ستة أيام أو سبعة اذا دعت الحاجة. ونبههما شوبل الى ان يسألا يوست زيادة حجم "النسر المزدوج" بحيث يصبح ٢٨٠٠ متر مكعب.

وفي يونيو (حزيران)، ذهب بن وماكسي الى اماريلو (ولاية تكساس) لمباشرة تمارين الطيران. وكان اد يوست جهز لتلك الغاية منطاداً بحجم ٤٥٠ متراً مكعباً، مصنوعاً من مادة بلاستيكية خالصة. وبعد نفخ المنطاد بالهيليوم، بدا لعيني بن كأنه كيس هائل لحفظ الطعام، وفي داخله قوس قزح يظهر حين تضربه الشمس بحرابها.

وانطلقوا بالمركبة بعد غروب الشمس وحلقوا طوال الليل فوق سهول متموجة خالية من الشجر. وراح بن وماكسي يراقبان يوست بصمت ويتعلمان طرقه، وهو طيار من الطراز الأول. ودُهش بن للطريقة التي يستجيب بها المنطاد لأقل سيطرة عليه. فان مقدار كوب صغير من الرمل

الموضوع في أكياس يكفي لرفعه اذا ألقي الى البحر، كما تكفي أدنى حركة لخفضه. ولم يكن بن يدري ان منطاداً صغيراً كهذا يمكن تسييره على هذا النحو الدقيق.

وارتفع المنطاد الى علو ٣٠٠٠ متر. ولدى هبوطه، اختبر بن وماكسي أمراً ظل يثير دهشتهما في رحلاتهما اللاحقة. ففي امكانهما، وهما في الجو، ان يسمعا جميع الأصوات تحتهما على الأرض، ومنها نباح الكلاب وخوار البقر. وتناهى الى سمع ماكسي رنين حاجز معدني وهو يَفْتَح ويُغلق، ثم سمع وقع أقدام على مدخل خشبي، تلاها انطلاق محرك شاحنة. وأمكنه تمييز الصوت الذي احدثه تغيير السرعة وانتقال العجلات من جانب الطريق الى الطريق المعبّدة.

وتدرّبا على الهبوط مراراً فوق سهول جرداء. وأراهما يوست كيف يستعملان الحبل لتأمين هبوط هادىء. والحبل، في منطاد من هذا النوع، اهم شيء بعد الهيليوم والرمل. وهذا الحبل، الذي يبلغ طوله عادة خمسين متراً، يُربط الى طرف الجزء الأسفل من المنطاد، حتى اذا دنا من الأرض او البحر دُلّي الحبل وأصبح يؤدي مهمة الدفة بالنسبة الى السفينة، وهي ضبط الهبوط.

ويستعمل في المناطيد الضخمة أكثر من حبل واحد. أما في حال "النسر المزدوج"، فستكون هناك خمسة حبال.

واستغرق الطيران التدريبي ١٢ ساعة، قرّر ماكسي وبن بعدها ان يفاتحا يوست بأمر تعديل حجم المنطاد. فقال لهما: "حسناً. اذا كنتما تريدان هذا، فسأفعله". كما وافق على انجازه قبل سبتمبر (أيلول) كي يتم الطيران في ذلك الحين.

وبينما كان ماكسي يقود طائرته الخاصة في طريق العودة الى آلبوكيرك، بحث مع بن ما يجدر فعله بالمنطاد الذي صنعه يوست بعدما طلبا منه صنع منطاد آخر يكبره حجماً. فطمأنه بن الى ان لا داعي الى القلق. غير ان ماكسي لم ينقطع عن التفكير طوال الليل. وهو قال لاحقاً: "كل شخص يحاول عبور المحيط يلاحقه شبح خفيّ، وهو خشيته ان يَسْرِق سواه الحلم ويسبقه. وهذا روّعني وبثّ الهول في نفسي".

الانطلاق

رسم ماكسي وبن خطة لرحلتهما قررا بموجبها ان يكون المنطاد وجميع المعدات الضرورية عند نقطة الانطلاق في الاول من سبتمبر (أيلول)، على ان يتم الانطلاق لدى هبوب أول عاصفة ذات ضغط مرتفع من منطقة القطب الشمالي.

وكان بوب رايس يفضل الاقلاع من نيوفاوند لاند، في كندا، لأنها أقصر طريق. أما بن وماكسي فآثرا الانطلاق من أرض امريكية بما أنهما كانا يطيران بمنطاد امريكي وضعا فوقه علماً أمريكياً.

وبمعاونة شويل، وضع بن حساباً لأثر الشمس. وتبين ان ارتفاع حرارة الهيليوم نصف درجة مئوية يعادل رمي سبعة كيلوغرامات من الرمل في بداية الرحلة. والنقيض صحيح:

فهبوط حرارة الغاز نصف درجة يعادل اضافة سبعة كيلوغرامات الى المركبة. وهذا يؤدي الى انحدار المنطاد حتى يُرمى منه وزن مماثل. وكان بن سجل وزن كل الأشياء الموضوعة في الجزء الأسفل من المنطاد، كما وزن ذلك الجزء نفسه. وطلب الى دوك وضع فأس بين المعدات، "حتى اذا لم يبقَ هناك ما نرميه، قطعتُ الجزء الأسفل كله ورميته. وهذا يُنقِص أكثر من ٣٥٠ كيلوغراماً من وزن المنطاد... وهكذا نصل الى فرنسا".

ثم ركب ماكسي وبوب رايس الطائرة وحلقا فوق ساحل مساتشوستس بحثاً عن مكان ملائم للانطلاق. ووقع اختيار ماكسي على حفرة كبيرة يملأها الحصى ويبلغ عمقها ١٥ متراً وتحيطها أشجار ضخمة تحجب عنها رياح الشاطئ، وهي في بلدة مارشفيلد التي تبعد ٢٥ كيلومتراً عن بلايموث. وذلك أغرى ماكسي لأنه يعني الانطلاق من المكان الذي أسس فيه المهاجرون البريطانيون أول مستوطنة ثابتة لهم على التراب الامريكي.

وفي الاول من يوليو (تموز)، توجه بن وماكسي الى كولورادو للاشتراك في مسابقة للمناطيد المرفوعة بالهواء الساخن. وهناك تحقق ماكسي من ان الشبح الخفي الذي كان يطارده استحال حقيقة منظورة باسم ديوي راينهارد. فقد علم بن وماكسي ان راينهارد ايضاً كان يحاول احراز الأولية في عبور الأطلسي بمنطاد.

وسلم يوست المنطاد بجزئيه الى شركة بيريني في بلدة فارمينغهام (مساتشوستس) من أجل تجهيزهما بالمعدات اللازمة خلال شهر اغسطس (آب). وفي الوقت نفسه، شرب دوك ويلي خبراً الى ماكسي مفاده ان راينهارد يشارف الطور الأخير من استعداده، وانه قد ينطلق في اي لحظة.

وفي ٧ سبتمبر (أيلول)، تلقى بن وماكسي مخابرة هاتفية من رايس وهما في أحد فنادق بوسطن. وقال لهما ان الطقس الذي ينتظرانه لاستهلال الرحلة بات وشيكاً فوق الساحل الكندي. وفي الامكان الانطلاق بعيد الغروب عصر الجمعة ٩ سبتمبر (أيلول). لكن ثمة اخطاراً ملازمة، منها ان سرعة العاصفة التي تهب من منطقة البحيرات الكبرى قد تقذف الرياح ذات الضغط المرتفع بعيداً عن الشاطئ قبل ان يبلغ المنطاد ساحل لبرادور. لذلك كان التوقيت عنصراً حاسماً. وأضاف رايس: "اذا تأخر انطلاقكما من مارشفيلد، فستكونان وسط العاصفة".

وقال بن: "بالنسبة اليّ، سيتم الاقلاع كما هو مقرر".

وراح دوك ويلي يسرد ما ينبغي فعله: يجب نقل المنطاد الى نقطة الانطلاق، كما يجب ان يكتب على كل شيء اسمه ويوضع في مكانه في الجزء الأسفل. وهناك مئات الأشياء الصغيرة. كذلك يجب الفراغ من تركيب جهاز الارسال.

وأضاف دوك: "أرى انه يستحيل انجاز هذه الامور كلها وفحص المركبة في الوقت الباقي لدينا، وهو أقلّ من ٤٨ ساعة".

وانبرى بن قائلا: "يجب ان ننطلق، سواء أنفـذنـا هـذه الامـور أو لـم ننفذها".

وأدرك دوك ويلي أنه لا جدوى من النقاش. فقـد حـزم بـن وماكسـي أمرهما، ولا بد من تسهيل عملهما ما استطاع هو الى ذلك سبيلا.

وكان مقرراً ان يصل اد يوست يوم الجمعة ليجهز المنطاد، قبل ساعات من موعد الانطلاق.

ونُقل المنطاد الى موقع الاطلاق مساء الخميس. وظهر اليوم التالي كانت المنطقة تعج بمراسلي الصحافة والمصورين. ولم تكن الحبال رُكبت بعد. ووقفت الحشود تتساءل كيف سيتم الانطلاق، وتنظر باعجاب الى المركبة الجاثمة فوق الحصى.

وانهمك أولاد اندرسون وابروزو في ملء أكياس الرمل وترتيب الأشياء التي سينقلها المنطاد قبل وضعها في الجزء الأسفل منه. وكان ريتشارد شوبل ودوك ويلي أعدّا قائمة دقيقة بالأشياء الواجب تحميلها وأمكنة وضعها لتسهيل الحصول على الشيء المناسب في الوقت المناسب. وتولت بات ابروزو وباتي اندرسون وزن كل غرض وتصنيفه، مما حوّل افكارهما عن أخطار تلك المغامرة.

أما والدة باتي التي ذاع صيتها بين أفراد العائلة في اعداد المآكل، فقد اعدّت قالب حلوى كبيراً وأرسلته الى ماكسي لمناسبة عيد ميلاده الثالث والأربعين الواقع في العاشر من سبتمبر (أيلول)، يوم بدء الرحلة.

ووصل يوست نحو الساعة الثالثة عصراً. وبينما كان يلقي نظرة على الأشياء المضطربة، أخبره دوك ويلي ان اطلاق "النسر المزدوج" سيتم في أول لحظة ملائمة بعد الغروب.

وعلق اد يوست على ذلك بقوله: "أأنت متأكد من هذا؟"

وروى دوك لاحقاً ان اد لم يصدّق ما سمعه، وانه هز كتفيه وانصرف مباشرة الى العمل.

وأخيراً حان الوقت لوصل "الحبال بالمنطاد. لكن يوست لم يجد العدة اللازمة لذلك لأنها نُسيت في مخزن شركة بيريني الذي يستغرق الوصول اليه ٤٥ دقيقة. وهذا جعل المنطاد يُطلق بعد ساعتين من الموعد المقرّر. وعندما أزفت ساعة الاقلاع، بدا المنطاد جميلا وهو يرتفع ٣٠ متراً وسط الظلام وتغرقه آلات التصوير التلفزيونية بأنوارها الساطعة.

وسأل رايس فنيي شركته هاتفياً عن الاحوال الجوية فأخبروه ان اطلاق "النسر المزدوج" بعد التاسعة مساء يعني أنه سيكون وراء الريح المرتفعة الضغط، أي وسط عواصف الرعد.

وقال بن: "هيا ننطلق".

وراح ماكسي يقبّل أولاده واحداً واحداً، وتبعه بن معانقاً اولاده هو الآخر. واحتضنت بات ابروزو زوجها وهي تبكي.

وسلمت باتي زوجها ماكسي قالب الحلوى، ثم هرعت الى مكبر الصوت الذي ركبه دوك وأنشدت عليه: "سنة حلوة". وبدأ صوتها ضعيفاً ثم ارتفع، وما لبث الجمهور ان اشترك معها في الغناء.

ووقف يوست يقطع أكياس الرمل المتدلية، فيما اخذ المنطاد يرتفع رويداً رويداً. وكانت الساعة الثامنة والدقيقة السادسة عشرة. وركضت

بات ابروزو تحت المركبة وهي تنظر الى فوق. ومن غير ان تدري ما اذا كان بن يسمعها، جعلت تصرخ: "ليكن الله معكما. سأراكما في فرنسا".

وقالت بات في ما بعد: "أذكر أني خشيت ألا أرى بن مرة اخرى، لكني لم آسف لذهابه في تلك الرحلة. فقد كنتُ أحسده وأودّ لو يتسنى لي الذهاب انا ايضاً. ولكن كيف استطيع هذا ولديّ أربعة أولاد؟ لكني أظن ان بن أقدم على فعله لأنه مغامر، ولأنه يثق بقدرتي كأم".

وفيما كان "النسر المزدوج" يغيب عن الأبصار، وقفت باتي اندرسون وبات ابروزو تعانق احداهما الاخرى.

أزمات متلاحقة

كان الليل حالكاً لولا ضوء القمر الفضيّ الباهت الذي انتشر على الأفق. وأخذ بن يطرح أكياس الرمل تبعاً للحسابات الدقيقة، فاستجاب المنطاد تماماً حتى أصبح على ارتفاع ٦٠٠ متر، كما أصبح وزنه بمحتوياته، بعدما رمى بن الأكياس التي تزن ١٣٥ كيلوغراماً، نحو ٣٠٠٠ كيلوغرام. وأحسّ بن وماكسي ان المنطاد يسبح مع الريح، كذلك هما. وهذا منحهما شعوراً بالحريّة التامّة.

ان المنطاد، خلال طيرانه، يسبح بهدوء بالغ. فهو يكون ضمن الريح وجزءاً منها. واذا وُضعت قصاصة ورق على ظهر منطاد يتحرك مع الريح بسرعة ٥٠ عقدة (٩٣ كيلومتراً في الساعة) فهي لن تهتزّ البتّة.

وانصرف الرجلان الى عملهما، ونصبا الهوائي الطويل المتصل بمنارة الارشاد اللاسلكي في أدنى المركبة، وباشرا الحسابات. ثمّ سحب ماكسي كيس النوم وانسلّ داخله.

وقرّر بن إيقاظ ماكسي نحو الثانية فجر السبت، بعدما واجهته الازمة الاولى خلال الرحلة. ذلك ان "النسر المزدوج" كان يحلق على ارتفاع ٨٠٠ متر، متجهاً نحو جبل كاتادين الذي يرتفع ١٦٠٦ أمتار. وكان ريتشارد شوبل خابر مرصد بانغور في ولاية مين وتحادث مع بن عبر الموظف المسؤول. وقدر شوبل ان التيارات الهوائية ستدور بالمنطاد حول الجبل. لكنه لم يكن تأكد من نظريّته بعد ليلة العاشر من سبتمبر (أيلول). وفي الثالثة صباحاً أدرك بن وماكسي انّهما تجاوزا الجبل. وحصل ذلك كله من غير ان يبصرا أثراً للجبل الذي كان يلفه الظلام والغيم.

وفي العاشرة والدقيقة العشرين صباحاً بتوقيت غرينيتش، عبر "النسر المزدوج" نهر سانت جون بالقرب من غراند آيل شمال شرق ولاية مين. وهيّأ ماكسي العلم الكندي لرفعه. وفي تلك اللحظة وجّه اليهما أقرب مركز كندي للاتصالات الجوية رسالة من بوب رايس يقدر فيها سرعة الريح على ارتفاع ٢٠٠٠ متر أو ٢٥٠٠ متر بخمسين عقدة. وأضاف ريتشارد شوبل: "الزيادة التي يشهدها ارتفاع المنطاد مع شروق الشمس ستكون كافية، دونما حاجة الى رمي المزيد من الاثقال".

ولكن مع تقدّم المنطاد الى الشمال الشرقي عبر مقاطعة برونسفيك، خُيّل الى بن أنه انحرف عن الخطة المرسومة. وأسرع الى ميزان الحرارة ليجد انها ارتفعت نحو درجة ونصف

درجة مئوية عن المطلوب. وهذا يعني ان المنطاد على وشك التحليق عالياً. ولكن في الحادية عشرة والدقيقة الخامسة، لم يكن ارتفع أكثر من ستين متراً فوق ما كان.

وفي الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين، مرّ المنطاد فوق بلدة كامبلتاون في مقاطعة نيو برونسفيك. وبعد قليل أصبح على ارتفاع ١١٠٠ متر. ثم هبط فجأة.

وقال بن بهدوء: "إنّنا ننحدر". وكان المنطاد يهوي بمعدّل مئة متر في الدقيقة، وهذا يعني انه سيصطدم بالارض بعد خمس دقائق. ونظر بن الى أسفل ليرى الاشجار "ترتفع" نحوهما. وتذكر، فيما كانت تفاصيلها تنجلي أكثر فأكثر، الحادث الذي حصل له حينَ اخترقت طائرته الشراعية منزل جاره. فهو الآن يبصر الاغصان والاوراق ولحاء الاشجار. وكان لا بدّ من ان يهوي المنطاد بهما.

وقطع بن كيساً من الرمل، سمع الرجلان دوي انفجاره وهو يصدم الاشجار. وكان المنطاد هبط ٦٠٠ متر وأصبح بين سلسلتين جبليّتين وعرتي المسالك، فوق وادٍ ضيّق شديد الانحدار.

وأخذ المنطاد يرتفع بعد هبوطه حتى أصبح على علو ١٢٠٠ متر. وحافظ على ذلك الارتفاع نحو ١٥ دقيقة، تراءى لهما بعدها الساحل الشمالي لشبه جزيرة غاسبي. لكن "النسر المزدوج" ما لبث ان عاد الى الهبوط بمعدل ١٥٠ متراً في الدقيقة. وراح ماكسي وبن يرميان أكياس الرمل بحرص هذه المرة، وقد أصبحا على بعد ثمانية كيلومترات من البحر عند خليج سانت لورنس.

وعاد "النسر المزدوج" الى الارتفاع، وصار فوق البحر وهو على ارتفاع ٣٠٠ متر. لكنه عاد ينحدر مرة بعد أخرى على رغم القاء وزن كبير فوق البحر. وأيقن الرجُلان انهما على وشك الهبوط في الخليج. وتوقّف المنطاد على ارتفاع ٣٥ متراً فوق الماء. وسمع ماكسي وبن بعد ذلك ضرباً خفيفاً خارج المركبة. وكان ذلك صوت الرذاذ الذي بدأ يتساقط. وارتدى ماكسي معطفه الواقي من المطر وقلنسوة من فرو الغنم. وكان بن يرتدي سترة فراء داخلية.

واشتد المطر وهما يحاولان تركيب الثوب الواقي من المطر في سقف الحجرة. وبقيا يصارعان ساعة ونصف ساعة تحت المطر قبل ان يهتديا الى طريقة تركيب ذاك الثوب على هيئة خيمة. وكانت ملابس ماكسي خير واق له. أما بن فقد تبلّلت ثيابه وانتابه برد شديد.

وكانت كمية الرمل التي حملاها تزن ١٥٥٠ كيلوغراماً وتكفي، نظرياً، سبعة أيام بلياليها. الا انهما طرحا ٤٠ في المئة من تلك الكمية خلال ١٥ ساعة من التحليق وقبل انقضاء غروب واحد. وهذا معناه ان المسافة بين شبه جزيرة غاسبي وخليج سانت لورنس كلفتهما ما ينبغي استهلاكه في ثلاثة أيام لو كانت الظروف طبيعية.

وقال ماكسي: "اذا لم نعد ادراجنا قبل الغروب، فسيكون الوضع سيئاً".

في الأولى الا عشر دقائق فجراً، عبر المنطاد ساحل لبرادور حتى أصبح

فوق المحيط الاطلسي. وقبع بن تحت الخيمة الواقية وسجل بعض انطباعاته على شريط وهو يلهث ويتكلم بصوت يعصره الارهاق:

"لقد أمضينا ليلة مخيفة. السماء لم تنقطع عن المطر طوال الساعات السبع الماضية. اني ارتدي معطفي الواقي وحذائي المسخّن وثيابي الداخلية. الحرارة تبلغ عشر درجات مئوية، والماء يبللنا.

"اننا قررنا، قبل ثلاث ساعات، ان نمضي قدماً. وها نحن لا نستطيع التراجُع بعدما تركنا الساحل وراءنا. المنطاد يحلق على ارتفاع ١٦٠٠ متر، اي اعلى قليلا من النقطة التي اردنا ان نكون عندها لاجتناب التجلّد. وقد جعلنا بعض ماء المطر يتسرب الى الداخل لنرميه عند الحاجة. وأخيراً استقر المنطاد بعد فترة من الارتفاع والانخفاض عندما كنا فوق اليابسة".

"لقد ظننتني مائتاً"

في الرابعة والنصف صباحاً انبلجت خيوط النور الاولى. وأشعل ماكسي السخانة لتحضير كوبين من الشوكولاتة الساخنة وقلي بعض شرائح اللحم. وتناول بن الطعام والشراب بجهد. وفي السادسة والنصف رفع ماكسي الخيمة قليلا ونظر خارجاً، فرأى الغيوم تنقشع.

وما ان ضربت الشمسُ المنطادَ حتى بدأ يرتفع. ودُهش ماكسي لسرعة الارتفاع. ففي وقت قصير جداً، أصبح "النسر المزدوج" على علوّ ٢٥٠٠ متر بعدما كان علوه ١٥٠٠ متر. وهذا يعني ان الامور المتوقّعة بدأت تصحّ أخيراً. ولكن مع ارتفاع المنطاد، أخذت درجة الحرارة تهبط وتجاوزت حد التجمّد قليلا عندما أصبح الارتفاع ٢٦٠٠ متر. ونظر ماكسي الى رفيقه ليجده مرتعداً من البرد. وللمرة الاولى انتابه شعور بالقلق. وحين رأى ملابس بن التي بللها المطر قال له: "يحسن بك ان تبدل ثيابك يا بن". وراح بن ينقب داخل حقيبته حتى عثر على منشفة. وهي الشيء الوحيد - اضافة الى كيس النوم - الذي لم يخترقه الماء.

وعاد المطر الى السقوط، خارج المنطاد وداخله. وقال بن لاحقاً: "كنتُ أصطكّ من البرد الى حدّ ظَنَنْتُني مائتاً".

واقتنع بن تلك الليلة بأن المنطاد كان يتحرّك في اتجاه غير صحيح. والحقّ ان اعصاراً محلياً كان يحمل المنطاد نحو مضيق الدنمارك بالقرب من ساحل غرينلاند الشرقي.

وكان المطر يرشق أجهزة الراديو ساعات بلا انقطاع. وأخيراً غطياها بأكياس النايلون. وقُبيل الحادية عشرة والنصف ليلا، تلقى "النسر المزدوج" آخر مخابرة من الارض قبل انقطاع الاتصال كلياً.

وفي منتصف ليل الاحد - الاثنين، جلس ماكسي مسترخياً في مقعده فيما كان بن غافياً منذ عشرين دقيقة. وكان المنطاد على علوّ ١٥٠٠ متر. وفجأة لاحظ ماكسي انه انخفض الى علو ١٤٥٠ متراً ليرتفع من جديد الى علو ١٦٠٠ متر. وتكرر هذا الامر. وأحسّ ماكسي رعشة خفيفة ظنّ جسمه مصدرها.

وانقضت عشر دقائق هبط المنطاد

بعدها قليلا. وسرّب ماكسي منه بعض الماء، لكنه اهتز فجأة. وخُيِّل الى ماكسي ان يداً جبارة هزت المركبة بعنف. وتكرر الامر بعد هنيهة. لكن ماكسي ايقظ بن.

ونظرا الى آلة قياس الارتفاع وهما لا يصدقان ما يريان. كانت المركبة تنحدر بمعدل ٤٥٠ متراً او أكثر في الدقيقة، لان ذلك كان أقصى ما يمكن الابرة تسجيله. وقفز الاثنان عفوياً الى ناحية الجزء الاسفل من المنطاد ليبلغاه في وقت واحد. وهناك أخذا يرميان الاثقال بوفرة.

وعندما وصل المنطاد الى علو ٧٥٠ متراً، توقف عن الهبوط وأخذ يرتفع. ولما وصل الى ارتفاع ١٠٥٠ متراً، راح المطر المتجلد يرشقه بقوة. وعاد الى الهبوط نحو البحر مرة أخرى.

وظنّ ماكسي ان المنطاد سيصطدم بالماء هذه المرة، مما جعله يرمي قوارير الاوكسيجين المعلقة على حافة المنطاد. وارتفع "النسر المزدوج" من جديد حتى وصل الى علو ٦٥٠ متراً.

وقال ماكسي: "ما ترانا نفعل وسط هذا الاضطراب؟"

ولم يكن لديهما وقت للتفكير. فقد عاد "النسر المزدوج" الى الهبوط. وطرحا كل شيء خارجاً ما عدا ماء الشرب وأكياس الرمل والرصاص وهي أشياء كانا يحتاجان اليها في حال الهبوط. وانحدر بهما المنطاد من بلاد الجليد الى بلاد المطر. وظل ينحدر حتى أصبح على ارتفاع ١١٨ متراً، وهي النقطة الدنيا التي تتوقف عندها ابرة الجهاز. واتفق الاثنان على ان الرقم يجب ان يكون أقل، وتوقع بن انه خمسون متراً.

ووقف المنطاد هنيهة فوق بحار يغطيها الجليد، ثم عاد يرتفع. وأدار بن مفتاح جهاز الارسال الذي راح يبث صفيراً متواصلا.

وكانت أخبار "النسر المزدوج" انقطعت في الساعات السبع الاخيرة عن مركز المراقبة في بدفورد بعد تعطّل جهاز الارسال. ولكن في الثالثة صباحاً، بثّ مركز غودارد للتحليق الفضائي اشارة ملاحية تدل على ان "النسر المزدوج" كان لا يزال يحلق ضمن دائرة يبلغ قطرها ٢٤٠ كيلومتراً ويقع مركزها على بعد ٢٩٠ كيلومتراً جنوب غرينلاند. وكما خشي بوب رايس وأدرك بن وماكسي، علق المنطاد وسط عاصفة منخفضة الضغط هبّت من مضيق ديفيس، راحت تقذفه في دورات عكسية.

وتعاون ريتشارد شوبل وبوب رايس على انجاز الحسابات الضرورية كي يسلمها دوك ويلي الى فرق الانقاذ البحرية والجوية.

منطاد أم دمية؟

دُهِش ماكسي عندما سمع، قُبيل الظهر، صوتاً يخاطب المركبة. وما هي الا دقائق حتى ظهرت طائرة تابعة للبحرية ذات أربعة محركات. وأعلمتهما الطائرة بمكان وجودهما. عندئذ سجل ماكسي ذلك وقال: "ان أفضل تقديراتي، يا بن، تشير الى ان في امكاننا بلوغ ريكيافيك (عاصمة ايسلندا) اذا ارتفع المنطاد الى علو ٤٦٠٠ متر، أو يمكننا بلوغ النروج نحو الثالثة من صباح غد".

لكنّ بن كان يدري ان ٤٦٠٠ متر تعني التجمّد، كذلك الاختناق، اذ لم

يبقَ لديهما اي كمية من الاوكسيجين بعد رمي القوارير كلها. ونظر الى ماكسي بينما كان هذا يتحفص الخريطة التي نشرها عند مقدم المنطاد ويحسب بعض الارقام والقياسات ويرفع رأسه للتأمّل. وقال بن فجأة: "قل لهم ان يُعدّوا سفينة انقاذ".

ونظر ماكسي مشدوهاً الى بن، فوجد شفتيه مزرقتين وقد انتابته رعشة وسعال، وبدا وجهه المغطى بالشعر كوجه عجوز يختلف كثيراً عن ذلك الرجُل المقدام الذي لم يمضِ على اقلاعه من مارشفيلد سوى ستين ساعة.

وقال له: "ماذا دَهاك يا بن؟"

فأجاب: "ان البرد يكاد يقتلني، وقد عجزتُ عن تدفئة نفسي".

وخلع ماكسي معطفه الازرق الثقيل الذي بلله الماء، وأعطاه اياه قائلا: "لا أدري ان كان هذا يكفي، ولكن خُذه".

وخاطب ماكسي الطائرة العسكرية مرة أخرى، سائلا عن الوقت الذي يستغرقه ارسال طائرة مروحية لانقاذهما. فأتاه الجواب ان ذلك يتطلب ثلاث ساعات.

وقال بن: "اذا بقينا على هذا المنوال حتى الثالثة أو الرابعة عصراً، فسيُقْضى علينا، لاننا سنسقط في البحر".

فأجابه ماكسي: "حسنا، اذاً، دعنا نبقى هكذا ثم نهبط فوق سطح الماء. أما ارتفاعنا فيعني..."

وأدرك بن ان ماكسي ما زال يريد التحليق عالياً لان ذلك، في رأيه، يوصلهما الى النروج. فقال له: "افعل ما تشاء. ان البرد ينخر عظامي، ولن أستطيع الصمود مهما حصل. أمضِ في تنفيذ أفكارك وخذ قياد هذه المركبة اللعينة".

ونظر ماكسي الى صديقه وأدرك انه على وشك الهلاك. فخابر الطائرة العسكرية من جديد وقال: "ارسلوا الطائرة المروحية. لقد قررنا الهبوط بالمنطاد".

في تلك الاثناء كان "النسر المزدوج" يحلق على ارتفاع ٣٠٠٠ متر في جو ادفأ من قبل. وأرخى بن وماكسي اثنين من حبال المركبة بعد وصلهما ليصبح طولهما ٦٥ متراً. ولاحت لهما طائرة مروحية خضراء تابعة لسلاح الجوّ.

وراح بن، وقد استعاد رشاقته، يعدّ كل شيء للهبوط. وكانت وظيفة ماكسي فصل جزءي المركبة عندما تحين الحاجة. وأخذت المركبة تهبط والامواج ترتفع. وقد بلغ علو الموج سبعة أمتار او ثمانية. وهبط بن بالمنطاد حتى غرقت الحبال في الماء، ناقلة حركة الامواج الى المركبة.

وخُيّل الى ماكسي انهما لامسا الماء. وفجأة صاح بن: "اياك ان تفصل جزءي المنطاد الآن". ذلك ان المنطاد ارتفع على حين غرة حتى أصبح على علو ٢٥٠ متراً ولفه الغيم. وعاد بن يهبط به من جديد. وما ان دنا المنطاد من الماء حتى سحب كل من بن وماكسي مقبضه، فارتفع الجزء الاعلى الى الفضاء، واختفى بعد قليل بين الغيوم. وظنّ ماكسي انه يرى دمية طائرة، واستعاد بعضاً من مباهج طفولته عندما كان يرخي

البالونات من يده لتطير في الهواء.

وحلقت الطائرة المروحية فوقهما وعلى بابها رقيب عسكري دلّى جهاز الانقاذ. وأمسك الاثنان به، ثم صعد ماكسي اولا وهو يحمل مقتنياتهما الثمينة، وتبعه بن.

وبعد دقائق من دخول الطائرة، تفاقمت حال بن. فقد انتابه برد شديد وغاب عن الوعي، وبدا وجهه شاحباً بلون الرماد. وتولى الطبيب والممرّض على الطائرة تبديل ملابسه، ووضعاه في كيس النوم.

لقد أمضى ماكسي وبن ٦٥ ساعة و١٤ دقيقة في الجو، علماً انهما أمضيا ٤٠ ساعة من هذا الوقت تحت المطر. وعرفا لاحقاً انهما قطعا مسافة ٣٩٢٥ كيلومتراً وهبطا عند نقطة تبعد خمسة كيلومترات عن ساحل آيسلندا، وان اد يوست وحده سجل مسافة أطول.

"النسر المزدوج - ٢"

بعد هبوط طائرة الانقاذ في آيسلندا، قال بن ابروزو لمراسلي الصحافة: "لقد كانت رحلة شائقة حقاً، لكني لن أُعيدها البتّة".

وكان بن يعرج في مشيته، وازداد عرَجُه في المساء. وأحسّ تلك الليلة ألماً في قدَمه اليسْرى لم يعد يقوى عليه مع الثالثة صباحاً. وخابر دوك ويلي قائلا: "لقد أصابني الم لا استطيع احتماله، وأعتبر اني هُزِمْتُ".

وللحال توقع دوك ان يكون بن أصيب بقَرصة صقيع. وصحّ ظنه عندما أكد طبيب آيسلندي ذلك في الصباح. ولم يكن ثمة علاج الا اراحة القدم اليسرى وعدم تعريضها للبرد. وقال له الطبيب: "لقد كنت على وشك فقد أصابع قدمك، وربما قدمك كلها. وهي لن تبرأ تماماً بعد الآن".

ولدى عودته الى آلبوكيرك، استشار بن طبيباً مختصاً بأوعية القلب. وبعد اجراء الفحوص الضرورية، جاء رأي الطبيب المحلي مطابقاً لرأي زميله الآيسلندي، وهو ان قدم بن اليسرى لن تبرأ كلياً، وان عليه الا يصدمها مرة أخرى كي لا تتعرض للخطر.

ولازم بن سريره شهراً كاملا، وبقي شهراً آخر على كرسي ذي عجلات، وشهرين، بعد ذلك، يسير بمساعدة عكازين. ولم يستطع وضع حذاء في قدمه اليسرى الا بعد انقضاء ثلاثة أشهر على الحادث. وانتابته كآبة شديدة ظن انه لن يخرج منها.

أما زوجته بات فقد تراءى لها انّ الرجلين، بعد محاولتهما المخْفقة، انتابهما شعور قوي بالاحباط. وقالت في ما بعد: "انهما ادركا جيداً ما حلّ بهما. لكن ذلك لا قيمة له بالنسبة الى رجال من نوع بن وماكسي. أما بن فحسبه من مغامرته تصفيق الناس وتقديرهم. وأنا لا أمانع في ذلك، لكنه أمر مؤسف".

وما ان انقضى يومان على الانقاذ حتى بدأ ماكسي يخطط لرحلة ثانية. وكان ينهض في الليل ويجلس وسط الظلام وهو يفكر في الجهاز كله من حيث ابتكار طرق أفضل لحماية الملاحين من أخطار الطبيعة واعتماد اجهزة ارسال وعدة ملاحة أفضَل. ويصف ماكسي تلك الفترة بالآتي: "كانت هناك قوة خارج ارادتي

تدفعني الى تنفيذ العمل بعد اقتناعي بأن تنفيذه ممكن وواجب. واستحوذت تلك الافكار علي"".

وبعد شهر، فاتح بن بالامر، فلم يجد حماسة لديه. الا ان ماكسي رفض التحليق مع شخص آخر. وفي فبراير (شباط) أمضى آل اندرسون وابروزو معاً احدى عطل نهاية الاسبوع في التزلج على الثلج في آسبن. وبحث ماكسي خطته الجديدة بالتفصيل مع بن، قائلا ان ذلك الشهر مصيري"، بمعنى ان القرار يجب ان يتخذ خلاله اذا كان الطيران سيتم آخر الصيف.

وتساءل بن ان كان في استطاعته تحقيق ذلك هو وماكسي وحدهما، من غير معاونة شخص ثالث. وفي رأيه ان الملاح الاضافي يقلل من عنصر الارهاق، وانه ينبغي اختيار طيار تكون له حسنات ليست لهما. لكن حديثهما انتهى من دون قرار نهائي.

في مطلع الربيع بثت احدى محطات التلفزيون برنامجاً خاصاً بمغامرتي "النسر المزدوج" و"النسر"، المركبة التي اطلقها ديوي راينهارد وهبط بها عند ساحل مقاطعة نوفا سكوتيا الكندية، بعدما قطع بضع مئات من الكيلومترات.

وبعد مشاهدة الشريط، قر رأي بن على التحليق من جديد، وظهر هو وماكسي على شاشة التلفزيون بعيد ذلك الوقت، ليعلنا، بعزم وتصميم، عن رحلة "النسر المزدوج - ٢"، دونما اشارة الى احتمال اضافة شخص ثالث الى الطاقم، وان يكن ماكسي قرر البحث عن طيار اضافي.

ذلك الطيار كان لاري نيومن. وهو شخص في الثلاثين، قاد طائرة للمرة الاولى عندما كان في السابعة وأبوه معه، ثم قادها منفرداً وهو في الثانية عشرة. ولدى بلوغه الحادية والعشرين، كان سجل أكثر من ٤٠٠٠ ساعة طيران.

وأضاف نيومن الطائرات الشراعية الى هواياته، وجذبه نحو آلبوكيرك علو جبالها. وهناك استأجر مكاناً في احدى البنايات التي يملكها بن، أقام فيه شركة "الكترا فلاير" لصنع الطائرات الشراعية. وازدهرت الشركة بعد تنفيذها عدداً من التصاميم الجديد. وبحلول العام ١٩٧٧، كان دخلها السنوي زاد على المليون دولار.

وما ان دعي نيومن للانضمام الى طاقم "النسر المزدوج - ٢" حتى اقترح ادخال تعديل غريب، وهو تعليق طائرة شراعية تحت الجزء الادنى من المنطاد، حتى اذا شارف نهاية الرحلة، أمكن لاري انزاله الى الارض بواسطة الطائرة الشراعية.

وقرر ان يتم الانطلاق في العاشر من يونيو (حزيران) ١٩٧٨. وفي مطلع ذلك الشهر طار ماكسي وبن ولاري الى ولاية مين لاختيار الموقع المناسب، فوجدوه في حقل برسيم منحدر في مدينة بريسك آيل التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن حدود نيو برونسفيك. وانطلاقهم من هناك يعني بلوغ الغاية قبل ليلة مما كان مقرراً لرحلة العام الماضي.

وتم التخطيط للرحلة الثانية على نحو أكثر منهجية. وأصر شوبل على ان يحمي الطيارون انفسهم ضد البرد والمطر، وذلك بملابس صوفية

ومعاطف واقية وسترات وأكياس نوم محشوة شعراً لان ذلك أكثر مقاومة للماء، وعدل سيدني باركس شبكة الاتصالات السابقة لتصبح أفضل. وأعدّ شوبل دليلا للطيران يشمل جميع تفاصيل الرحلة، كالارتفاع اليومي ومواعيد رمي الاثقال ومقدرة الهيليوم على رفع المركبة من يوم الى يوم وموجات الراديو وطريقة استعماله.

وانتهى التخطيط للرحلة في آخر يونيو (حزيران)، وبمساعدة دوك ويلي، أحضر بن معظم المعدات بما في ذلك الجوارب الكهربائية. وكانت شبكة الاتصالات التي انجزها سيدني باركس على وشك التركيب. وفرغ لاري من التعديلات التي ادخلها على جزء المركبة الاسفل، وهي انجاز لا يستهان به. وكان هو ومعاونوه في شركة "الكترا فلاير" ابتكروا واقياً اصفر عازلا مزوداً بنوافذ بلاستيكية عديمة اللون ومقاومة للمطر ايضاً. وأضيفت كوّة عازلة لوضع جهاز الراديو، كذلك مكان محميّ من المطر لنوم الملاحين.

وفي يوليو (حزيران)، بدأت الاشباح الخفية تطارد طياري "النسر المزدوج - ٢" من جديد. فقد صمم منطاديّان بريطانيان، هما الميجور كريستوفر ديفي من فرقة الدبابات الملكية ودون كاميرون، على عبور الاطلسي من نيوفاوندلاند. وكان كاميرون الذي تعرّف ماكسي وبن اليه خلال مناسبات التحليق في آلبوكيرك، طياراً بارعاً.

وأقلع كاميرون وديفي بمنطادهما في ٢٦ يوليو (تموز)، وظهر شقّ في كيس الهيليوم بعد وصولهما فوق المحيط، اضطرهما الى الهبوط في البحر على بعد ١٨٠ كيلومتراً من الساحل الفرنسي بعد ٩٦ ساعة و٢٤ دقيقة من الطيران. وهكذا كسرت محاولتهما الرقم القياسي على رغم اخفاقها.

وأرسل ماكسي وبن، اللذان كانا على دراية بالاخطار التي ينطوي عليها الهبوط في الاطلسي، البرقية الآتية الى ديفي وكاميرون:

"نهنئكما على رحلتكما البطولية. وسواء انجحت رحلتنا او اخفقت، فنحن لن نتمكن من مجاراة شجاعتكما وعزمكما. الى اللقاء في اغسطس (آب) في فندق سافوي، وستكونان ضيفينا على العشاء".

"قد يكون هناك ثقب"

في ١٠ اغسطس (آب)، كان "النسر المزدوج - ٢" في موقع الانطلاق. وبعد نفخه بالهواء، بدا أطول من مبنى ذي عشر طبقات.

وفُتحت فيه نافذة لمراقبة الاحوال الجوية. وكان بوب رايس أخبر ماكسي ان هناك ريحاً مرتفعة الضغط تتجه شرقاً من منطقة البحيرات الكبرى، وانها ستمر فوق الساحل مساء الجمعة، ١١ اغسطس (آب). وحذّره من اي تأخُّر بعد السادسة مساء بالتوقيت المحلي.

ولكن على رغم ذلك، كانت الساعة الثامنة والدقيقة الحادية والاربعين بالتوقيت المحلي لدى انطلاقهم مساء الجمعة في الحادي عشر من ذلك الشهر. فهم تأخّروا ثلاث ساعات عن الموعد المحدد، ولم يكن كيس الهيليوم مليئاً لدى انطلاقهم.

وسرعان ما هبط المنطاد ولامست الطائرة الشراعية الارض. غير انه عاد يرتفع، وحملته الريح الى ارتفاع ١٧٠٠ متر نحو الشمال الشرقي.

وراح بن يطرح أكياس الرمل وهو يدري ان النقص في الغاز سيعني يوماً اضافياً من الطيران. ونظر الى ساعته ليجد انه انقضت دقيقتان على اقلاعهم.

وأدار لاري جهاز الارسال، محاولا الاتصال بمحطة لورينغ للمراقبة التابعة لسلاح الجو. وبعد محادثة استغرقت دقيقتين او ثلاثاً، أخبره موظّف المحطّة انه لا يمكن سماعه بوضوح، وان في وسع المركبة تلقي المخابرات ولكن يتعذر عليها ارسالها.

وكان ماكسي، وهو يراقب هبوط المنطاد غير المبرر، ازداد اقتناعاً بوجود ثقب في غلافه الخارجي. وجاء تعطّل جهاز الارسال ليزيد من تشاؤمه. والى هذا وذاك، كانت المركبة تتحرك ببطء شديد. ففي ساعة كاملة من الطيران، لم تتجاوز المسافة التي قطعتها الـ٢٥ كيلومتراً.

وفي الصباح، عندما أصبح المنطاد فوق خليج سانت لورنس، بدأ يهبط عوضاً عن الارتفاع. فالنظرية تقول انه منذ قبل الظهر وحتى منتصف العصر، أي وقت اشتداد حرّ الشمس، يجب ان يسخن الغاز ويتمدد ويرفع المركبة الى علوّ ٣٠٠٠ متر. والواقع ان ارتفاع المركبة كان الفي متر، مما حدا بن وماكسي على رمي ٣٠ كيلوغراماً من الرمل في الساعة لتجنّب الهبوط الحاد.

ولم يجد ماكسي تفسيراً لذلك الهبوط سوى نظريته القائلة بوجود ثقب في غلاف المنطاد. وأخيراً قال: "أظنّ ان هناك شقاً في المنطاد يا بن".

فأجابه بن: "كلاّ، ليس هناك شيء من هذا".

لكن ماكسي ظلّ على اقتناع برأيه.

فقال له بن: "حسناً، سأمرّر نظري على غلاف المركبة كله لأتحرّى صحة رأيك".

ووقف بن على كتفي ماكسي وتفحّص المنطاد. وكان يدري ان اي ثقب صغير في غلافه من شأنه تسريب اشعة الشمس على نحو منظور، لان الداخل كان مظلماً. واستدار ماكسي على زاوية مقدارها ٣٦٠ درجة ليمكن بن من رؤية الجزء الاعلى من المنطاد بكل جوانبه.

وعاد بن الى ارضية الحجرة السفلى ليقول: "ليس هناك ايّ ثقب".

ولكن في الساعة ١٧،٥٠ عصراً (غرينيتش)، ارتفع المنطاد الى علوّ ٣٠٠٠ متر. غير انه بقي من العسير المحافظة على ارتفاع ثابت. ووجّه شوبل رسالة الى بن، عبر مركز المراقبة في مونكتون (مقاطعة نيو برونسفيك)، ينصحه فيها برمي بعض الاثقال فور غروب الشمس لابقاء المنطاد على ارتفاع ٣٠٠٠ متر.

وقبل انبلاج صباح اليوم التالي، عبر "النسر المزدوج - ٢" ساحل نيوفاوندلاند. ووقعت عينا لاري على مناظر اخّاذة. فهو شاهد تحته خلجان بلاسنتيا المترافصة في نور الصباح والغابات البرية التي تملأ

ارض الخلاء الشمالي، وكان ذلك النهار صافياً ودافئاً ومشمساً والارض رائعة، وبعد قليل نظروا الى أسفل ليروا المحيط الاطلسي بمياهه الخطرة اللامتناهية، وقال لاري لنفسه: "هذا المنظر الرتيب لن يتبدل حتى نهاية الرحلة".

وأفاق لاري صباح اليوم التالي على صداع مبرح، وللحال أدرك السبب، انه الارتفاع، فالمنطاد، الذي رفعته الحرارة الشديدة، كان يحلّق على ارتفاع ٤٥٠٠ متر وهو على بعد ٦٥٠ كيلومتراً عن الشاطىء، وهذه المرة الاولى، خلال الرحلة، يجدون انفسهم وسط الهواء الرقيق، ونظر لاري الى اصابع يديه ليرى اذا كانت زرقاء، كما تأمل مزاجه ليرى اذا كان يتصف بالابتهاج والخفة، والأمران كلاهما اشارتان الى نقص الاوكسيجين، ولكن تبين له ان حاله مقبولة، وهكذا كانت حال ماكسي وبن،

بعد ذلك تفحّص لاري جهاز الراديو، وأمضى خمس ساعات يصل البطاريات ويفصلها ويختبر الفولتية (القوة الكهربائية بالفولت) والهوائي ويربط الاسلاك من جديد، قبل ان يصل الجهاز بهوائي من شأنه تأمين الطاقة القصوى، وعمل بدقة فترة اضافية حتى امكنه التقاط جهاز هاو في انكلترا، وصله بمقرّ ريتشارد شوبل عبر هاو آخر في مساتشوستس، ونقل شوبل أخباراً طيبة اليهما، وهي ان المنطاد كان يقترب من الريح ذات الضغط المرتفع، لكنه كان بعيداً عن العواصف المرافقة لها،

وبعد ساعتين عرف شوبل، بمساعدة قمر اصطناعي لرصد الاحوال الجوية، ان المنطاد كان يحلق فوق طرف غرينلاند المستدقّ، ويتجه شرقاً بفعل ريح منخفضة الضغط خارجة من آيسلندا، ولكن بدا ان المنطاد يتجه شمالا في الوقت نفسه، وتذكر جميع الذين كانوا في محطة المراقبة ماذا حصل العام الفائت عندما اتجه بن وماكسي من غرينلاند شمالا،

وخشيت بات ابروزو ان يكون المنطاد عائداً نحو أمريكا الشمالية، وقالت: "أفضّل ان يهبطوا مرة أخرى فوق الماء على ان يرجعوا من حيث انطلقوا، لقد اضطربت حين أخبرت بانحراف المركبة شمالا، فان رجالا كهؤلاء لا يمكنهم الاقرار بالهزيمة".

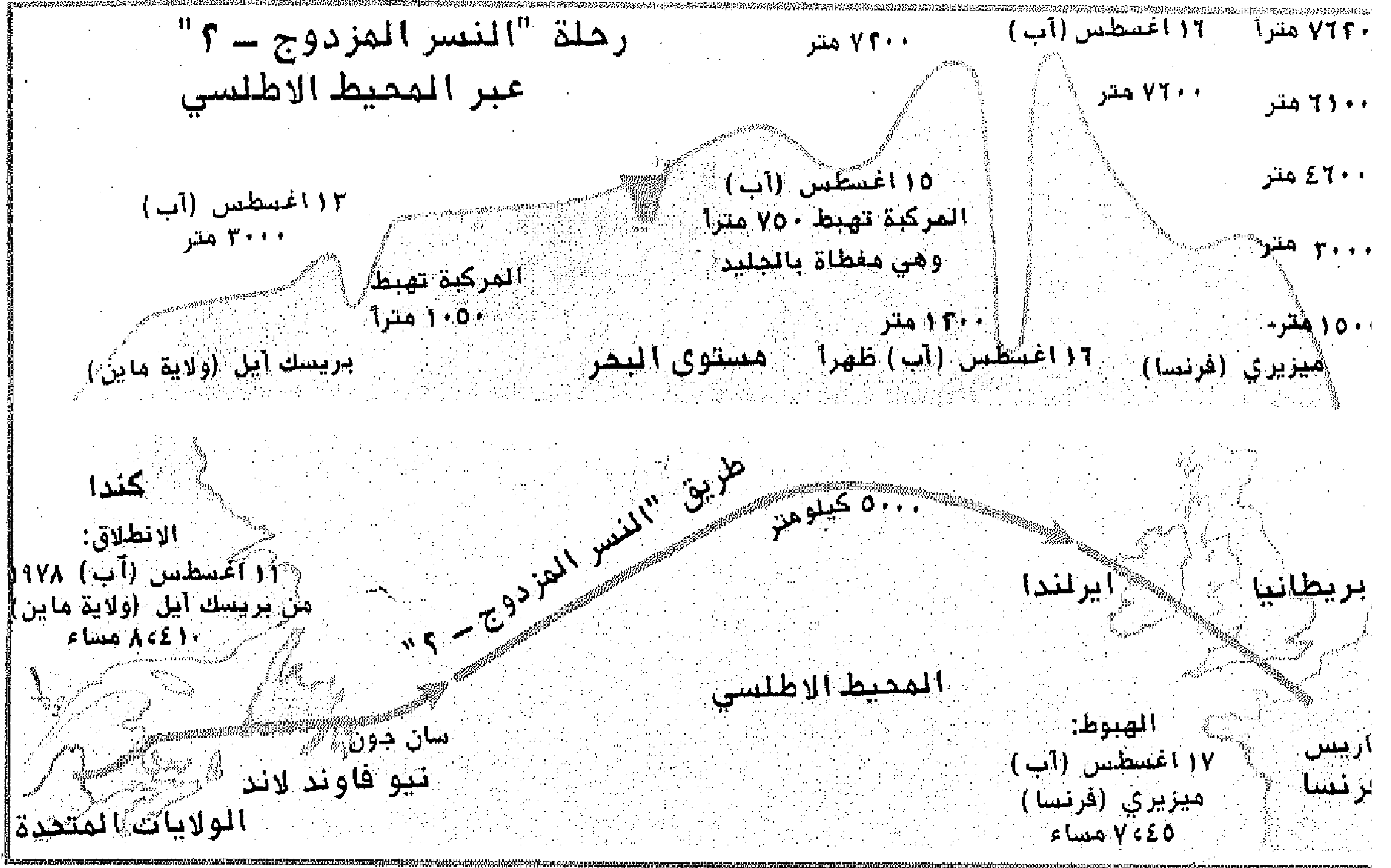
أما افكار باتي اندرسون فكانت في مكان آخر، ذلك ان كلماتها الاخيرة لزوجها ماكسي وهي تعانقه كانت: "اذا لم تحقق حلمك هذه المرة فلا ضير في محاولة ثالثة".

ليلتان اخريان

كان الجوّ بارداً داخل "النسر المزدوج - ٢" لانه كان يحلق على ارتفاع ٤٢٠٠ متر، لكن هذا الارتفاع كان ادنى مما طمح شوبل اليه،

ونصب الرجال الثلاثة الخيمة الواقعية وأشعلوا سخانة الغاز، وكان بن قلقاً على قدميه منذ دهمه البرد، لذلك صرف وقتاً طويلا يبدل البطاريات داخل جوربيه ويتفحصها، ليرى اذا كانت تعمل جيداً،

وكان ماكسي قشر وقلى كمية من البطاطا للعشاء تلك الليلة بعدما أخذها من أحد كيسين عُلّقا داخل الحجرة وطرح وزنها من قائمة حساباته الدقيقة،



وفي تلك الاثناء كان الثلاثة يضعون على وجوههم اقنعة الاوكسيجين التي جهزها دوك ويلي بصمامات حتمت عليهم التنشق طويلا للحصول على الكمية الملائمة من الاوكسيجين. وراح الثلاثة يشهقون كما لو كانوا رجالا بُدناء يرتقون تلة مرتفعة.

وبعد تبديل نوبة الحراسة، افاق ماكسي من سباته على صوت غريب. وما لبث ان علم ان بن كان يطرق على لوح معدني.

وكان الوقت قريباً من نصف الليل. وكان بن، بعيد مباشرة مناوبته، لاحظ ان المنطاد ينحدر بهدوء، بمعدل ١٥ متراً في الدقيقة. ففتح مديته وطعن أحد أكياس الرمل. لكن شفرة المدية انزلقت عن الكيس.

ونظر بن ليرى ان الرمل داخله استحال جليداً.

عندئذ تناول مطرقة من بين العدة وجعل يضرب بها أكياس الرمل. غير ان المنطاد تابع انحداره. ورمى بن نحو ١٤ كيلوغراماً من الرمل في الساعة. وحافظ بدقة على ذلك المعدل. لكن افكاره كانت مشوشة بحيث ظلّ يطرح الرمل ساعة بعد ساعة من غير ان يفكر في ما يحصل.

وكان يعلو المركبة ضباب رقيق. وأخذ ضوء القمر يخترق ذلك الضباب ليكون دوائر بهية على هيئة خواتم. وبعد تفكير عميق، استنتج بن انّ ذلك الضباب الرقيق غير قادر على تكوين ما يكفي من الرطوبة ليستحيل جليداً يغطي خارج المركبة.

وفي نحو الثانية والنصف فجراً شعر

بن بالارهاق، فأخذ يقرع على قاعدة الفراش المعدنية لايقاظ ماكسي. ولما أفاق هذا اخبره بما هو حاصل.

فقال ماكسي مندهشاً: "اربعة عشر كيلوغراماً في الساعة؟"وعاوده ظنه في ان يكون المنطاد مثقوباً. وسأل بن ان يصف له الانحدار. وبعد معرفته انه يحصل ببطء وبالتدريج، عاد يؤكد ان ثمة ثقباً في أحد جوانب المنطاد.

وعندما لاحت تباشير النور الاولى، نهض الثلاثة من النوم. ولم يبصر ماكسي جليداً على المنطاد، كذلك بن الذي قدّر، خلال نوبة عمله ليلا، ان يكون التجلّد هو العلة التي أصابت المنطاد.

وطلع الصباح صافياً وخالياً من الغيم. وبثت الشمس الدفء في المنطاد. وفجأة بدأ الثلج يتساقط على المركبة ومن حولها، وأخذت حباته تكبر. ومع زيادة حدة الشمس، استحال الثلج مطراً ثم سحاباً رقيقاً.

وحدق الرجال الثلاثة نحو الشمس، فرأوا، عبر ذلك السديم، الوان قوس القزح السبعة منتصبة في وجه الصباح الطالع.

أما في بدفورد، فكان بوب رايس يجتاز أطول يوم في حياته. ذلك ان العاصفة التي كانت تجرّ "النسر المزدوج - ٢" راحت تعظم باطراد. واذا قلّ علوّ المنطاد عن ٣٦٠٠ متر في اي وقت بين منتصف الليل والساعة السادسة عصر الثلثاء ١٥ اغسطس (آب)، فالراجح ان يعلق ضمن العاصفة. والنتيجة؟ اعصارٌ آخر، واخفاقٌ آخر!

ودخل دوك ويلي غرفة لا يتسرب صوته منها الى رجال الصحافة. وجلس هناك يخابر فرقة الانقاذ العسكرية من جديد، ويحيطها علماً بمكان "النسر المزدوج - ٢" ووجهته.

غير ان المنطاد، بعدما تحرر من الجليد الذي كان يغطيه، اخذ يرتفع بتأثير شمس الصباح. ونظر بن الى جهاز قياس الارتفاع، وراوده شعور بالرضا والخيبة في آن. فهم على وشك التحليق الى علوّ يتجاوز المطلوب، وعليهم ان يحرروا بعض الهيليوم تعويضاً لذلك. وهذا، بدوره، يعني تبديد المزيد من أكياس الرمل عند الغروب من اجل المحافظة على خط الرحلة.

وأدار ماكسي نظره نحو أمريكا، فرأى العاصفة. وكانت على هيئة برج تنتأ منه اصابع طويلة من الغيم، كأنما هي يد جبارة تمتد نحو المنطاد. وقدر لاري انها لا تبعد عنهم أكثر من ١١٠ كيلومترات. وكان المنطاد يتحرك بسرعة ٣٠ كيلومتراً في الساعة. وهذا يعني ان الكارثة تقف لهم بالمرصاد، الا اذا بدلت العاصفة اتجاهها او ارتفع المنطاد فوقها.

ووقع نظر لاري على جهاز تعيين المكان، لكنه كان متعطلا. فرفسه وكسر زجاجه، وأراد ان يطرحه خارجاً. الا أن بن نصحه بأن ينتظر حتى الغروب، ثم يرميه كما يشاء.

وأخذ المنطاد يرتفع بسرعة حتى وصل الى علو ٦٠٠٠ متر. وانطلق لاري يفكّ بعض الاجهزة للتخلّص منها. وفجأة انحرف قناع الاوكسيجين عن وجهه، فسقط على أرضية الحجرة فاقداً الوعي. وأسرع بن وماكسي الى قارورة اوكسيجين وغطيا انفه وفمه

بقناع. واستعاد لاري وعيه بعد ثوان، ثمّ نهض وحمل جهاز التنفّس وبدأ يشهق ويزفر عبره.

ولم ينتظر لاري دقائق حتى استأنف عمله، وكان حان وقت الاتصال بمحطة المراقبة في بدفورد. وظل يبحث عن رينشارد شوبل على الراديو حتى عثر عليه في التاسعة والربع صباحاً.

وحذرهم شوبل بصوت هادىء، عبر محطة للهواة في ميشيغان، من العاصفة التي شاهدوها، قائلا ان الغيوم المنبعثة منها ستصل الى ارتفاع ٥٥٠٠ متر. لكن "النسر" في أمان منها لانه فوقها.

وأضاف شوبل: "حافظوا على ارتفاع ٦١٠٠ متر، وابقوا فوق السحاب الرقيق".

وأخبره بن أنهم استهلكوا ١٧٠٠ كيلوغرام من الرمل، وبقي لديهم ١١٠٠ كيلوغرام منه. فقال له شوبل: "احتفظوا بالرمل هذا المساء. وانّ مقداراً قليلا منه يكفي للنهوض بالمنطاد. وتذكر، يا بن، أنّ هناك ليلتين اخريين فقط لبلوغ الغاية".

الثقب الازرق

في الاولى والدقيقة الخمسين فجر اليوم الخامس، اتصل شوبل بالمركبة بعد وصله جهازاً للارسال بآلة هاتف. وأخبره بن أنه بقي لديهم ٤٥٠ كيلوغراماً من الرمل، أي حاجة ليلة واحدة.

فأجاب شوبل: "أتمنى ان تجتازوا النهار من غير استهلاك للرمل".

وسجل ماكسي تلك الملاحظة بعدما رأى أنّ حسابات بن التي بدأت غاية في الدقة، باتت مضطربة.

وفي السابعة والدقيقة العشرين ذلك الصباح، تناهى الى سمع لاري أزيز طائرة "لوكهيد هـ س ـ ١٣٠"، وهي طائرة انقاذ تابعة لسلاح الجوّ الاميركي، زودت الطيارين الثلاثة بمعلومات موثوقة حول مكان وجودهم تلك اللحظة. فهم كانوا على بعد ٨٠٠ كيلومتر شمال غرب ايرلندا، وكانت مركبتهم تتحرّك بسرعة ٧٠ كيلومتراً في الساعة.

وفتح ماكسي حديثاً مع بن حول طرح الاشياء الثقيلة خارجاً. وهم كانوا رموا بعضاً من أجهزة الراديو وعدداً كبيراً من الافلام غير المستعملة مع علبها. وأدرك ماكسي أنهم سيضطرون الى رمي الطائرة الشراعية ومركب النجاة ومعظم ما بقي لديهم من طعام عند الغروب.

وكان الاثنان متوترَيْن. وعلم بن بشكوك ماكسي حول دقة حساباته الخاصة بالاثقال. وراح يعدّ على أصابعه الاشياء التي بقيت مع أوزانها التقريبية. فقال له ماكسي: "انك لم تذكر قوارير غاز التسخين". وتلا ذلك جدل دام بضع دقائق.

وأخيراً انفجر بن قائلا: "لستُ مستعداً لفقد قدمي لانك تريد رمي قوارير الغاز".

وللمرّة الاولى خلال صداقتهما الطويلة، اغتاظ ماكسي من بن. ووقف لاري يراقب، وخشي أن يتطور ذلك النقاش الى ما هو أسوأ. وكان ماكسي غفل عن وضع بن الخاصّ. فلما تطرّق هذا الى قدمه، شعر ماكسي بخجل شديد وتراجع قائلا: "أن يحصل سوء لقدمك هذه المرة أيضاً؟ لا سمح الله..." لكنّ ماكسي أضاف أن شيئاً قد يحصل لقفاه. وهو

كان يخشى حدوث أمر من هذا القبيل اذا اضطروا الى الهبوط فوق سطح الماء وثُقب الجزء الاسفل من المركبة. واذا تمّ هذا، فهم لن يصمدوا الا ساعات قليلة وسط امواج الاطلسي العاتية حتى في شهر اغسطس (آب) وعلى رغم ارتدائهم سترات النجاة.

وفي قرابة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، أخذ الهيليوم يتسرّب خارج المنطاد بعدما بلغ ارتفاعه الاقصى. وقال لاري: "اننا ننحدر". وقرر بن وماكسي أن يدعا المنطاد ينحدر بحجة أنّ الحرارة المرتفعة بعد الظهر سترفعه من جديد. لكنه هبط عمودياً مقدار ٤٥٠٠ متر، من غير اشارة الى أنه سيتوقف عن الهبوط.

وسأل ماكسي: "الى أيّ حدّ تريده أن يهبط؟"

فقال بن: "الى البحر، اذا اضطررنا الى ذلك". وهزّ ماكسي رأسه، ناسياً الكلمات القاسية التي تبادلاها صباحاً.

ونظر لاري من جانب المركبة ليرى، على مسافة آلاف الامتار تحته، ثقباً أزرق ضخماً بين الغيوم. وقال ماكسي: "لا يمكننا الهبوط تحت هذه الغيوم، والا ابتعدنا عن الشمس وأُرغمنا على النزول".

وأخذ بن وماكسي يبحثان الاحتمالات، فيما وقف لاري فاغراً فمه. وقال بن: "الحلّ هو الاّ نرمي الاثقال الاّ بحذر شديد، ثمّ ننتظر حتى اللحظة الاخيرة".

وكان المنطاد على ارتفاع ٢٤٠٠ متر، مما يعني انه هبط ٤٥٠٠ متر في أقلّ من ساعة. وهو الآن يحلق وسط تيار هوائيّ هادر.

ونظر لاري من خلال الثقب الازرق، فأمكنه سماع هدير المحيط ورؤيته أيضاً. ولما وجد ان ارتفاع المنطاد أصبح ١٢٠٠ متر، قال: "يبدو أننا سنخسر هذه الرحلة على رغم المكاسب التي حققناها".

فأجابه بن: "كلا! لن نخسر شيئاً".

وارتفع المنطاد بسرعة، مضيفاً الفي متر، لكنه ما لبث أن هبط نحو ١٤٠٠ متر. فقال لاري: "اننا لن نصعد بعد الآن". لكنّ بن انبرى قائلا: "اطرد هذه الفكرة من ذهنك يا لاري! فنحن صاعدون من جديد".

وقال لاري: "اراهنك بمئة دولار على اننا لن نعود الى ارتفاع ٣٨٠٠ متر".

غير أنّ بن وماكسي كليهما رفضا المراهنة، فيما أصرّ لاري عليها. وأخيراً قال له ماكسي: "حسناً، سأُراهنك بعشرة دولارات". فأجاب لاري: "اجعلها مئة". وهزّ ماكسي رأسه بالموافقة.

وظلت الشمس مشرقة، فسخنت المركبة وتمدد الغاز... وعاد "النسر المزدوج - ٢" الى الصعود. وكان لاري يراقب جهاز الارتفاع، فرأى الابرة تستقرّ على ٣٨٠٠ متر. فقال: "انه أفضل رهان خسرته في حياتي".

وتابع المنطاد ارتفاعه وسط الهواء الرقيق حتى وصل الى علوّ ٧٦٠٠ متر. لكنه عاد الى الهبوط مع برودة الجوّ عصْراً.

وراح الرجال الثلاثة، بلا كلل، يعدون الاثقال لطرحها عند المساء، وهم يتنشقون الهواء بمشقة عبر أقنعة الاوكسيجين. وبعد تجميع الاشياء كلها عند باب الحجرة، خُيل الى بن أنه يرى أكبر عشّ فئران في

العالم وهو ينظر الى الاسلاك والالواح المكسَّرة والاجهزة المختلفة. وأجرى لاري حساباً ذهنياً لقيمة تلك المعدات، فاذا هي ستة آلاف دولار للنثريات، وألفان للمجلات المصورة، وعشرون ألفاً لاجهزة الراديو.

وقال ماكسي: "سنحتاج الى ١٦٠ كيلوغراماً غداً".

فأجاب بن: "لقد حققنا النجاح يا ماكسي، وأنا لا أشكّ في ذلك. وانّ لدينا من الاثقال ما يكفي اليوم والغد.

وعند الغروب طرح لاري الطائرة الشراعية. فارتفعت ثلاث مرات ثمّ اخذت تهبط ببطء، من غير أن يتحوّل نظره عنها.

ومع حلول الليل، كان المنطاد على ارتفاع ٤٠٠٠ متر. وخلع الثلاثة أقنعة الاوكسيجين وحافظوا على توازن المركبة التي لم يبقَ فيها من آلات سوى جهاز راديو واحد. واستطاع لاري، بأعجوبة، أن يتصل بمحطة للرادار أعلمتهم انهم على مسافة ٣٠ كيلومتراً، ثم ٢٥ كيلومتراً، من الشاطىء.

وصاح لاري: "بن! بن! اني أُبصر أنواراً".

ووقف بن وماكسي ليسمعا وقع أقدامهما على أرضية الحجرة الخالية. ونظرا، فشاهدا في البعيد أنوار المصابيح تتلألأ من نوافذ البيوت الريفية.

وخاطبتهم محطة شانون الايرلندية مرة اخرى لتقول: "لقد عبر منطادكم الساحل الايرلندي لتوّه".

فأجاب لاري: "شكراً جزيلا لك يا رودجر".

أما الرجال الثلاثة - وهم أول من يعبر المحيط الاطلسي بمنطاد - فوقفوا مندهشين من غير أن يقول أحدهم شيئاً للآخر. وكانت الساعة العاشرة والدقيقة الثانية من ليل الاربعاء ١٦ اغسطس (آب) ١٩٧٨.

ابتسامة النّصر

مع ارتفاع الشمس، كان المنطاد فوق ساحل ويلز المسنّن. وتسللت الحرارة اليه ببطء، وأخذ يرتفع أخيراً. وسحب لاري حبلين. ولم يعد في استطاعة المنطاد أن يرتفع أكثر من ٦٠٠٠ متر بسبب التصريف التلقائي للهيليوم.

وارتفع "النسر المزدوج - ٢" الى علوّ ٤١٠٠ متر وبدأ يعبر قناة بريستول التي تفصل مقاطعة ويلز البريطانية عن محافظتي ديفون وسومرسيت في انكلترا. وكان الصباح في أوجه، وقد أخذت الطائرات العادية والمروحية تحوم حول المنطاد. وكان ماكسي يخشى أخطار القناة الانكليزية (بحر المانش)، فطرح على زميله فكرة الهبوط في انكلترا. الا أنّ بن ولاري أصرا على متابعة الرحلة والهبوط في فرنسا.

ورأى المغامرون الثلاثة تحتهم انعكاس آلاف المرايا. فقد هرع الناس في قرى الجنوب الانكليزي ومدنه خارج منازلهم لتحية طياري "النسر المزدوج - ٢" الذي ردّ التحية بمرآته الصغيرة، وتابع طريقه فوق المروج المتألقة تحت شمس الصباح.

ونقلت سفارة الولايات المتحدة الامريكية في باريس رسالة الى الطيارين من معهد سميثسونيان العلمي في واشنطن، تسألهم اذا كانوا يوافقون على تقديم "النسر

المزدوج - ٢" الى متحف الهواء والفضاء التابع للمعهد، لضمه الى طائرة تشارلز لندبرغ الاسطورية "روح سانت لويس" وسواها من المركبات التي يؤويها المتحف. فوافق الثلاثة من غير تردد، قائلين ان ذلك يشرّفهم.

وعبر "النسر المزدوج - ٢" الساحل الفرنسي في الثانية والربع بعد الظهر بالتوقيت المحلي، مجتازاً ثغر نهر السين ومدينة الهافر حيث تجمهر الوف الناس في الشوارع من دون أن يراهم الطيارون.

وكان المنطاد، منذ بلوغه فرنسا، يطير على ارتفاع ٤٢٠٠ متر وينحدر بواسطة السيطرة اليدوية. ووضعه الثلاثة ضمن مجرى هوائي حمله مباشرة في اتجاه باريس. ونقل اليهم جهاز الراديو التهنئات المتلاحقة باللغتين الفرنسية والانكليزية، وجاء بعضها بمزيج من الاثنتين. وكان بن وماكسي ولاري يأملون في الهبوط فوق مطار لو بورجيه، حيث هبط لندبرغ قبل احدى وخمسين سنة.

وقال ماكسي: "هل يمكننا اختراق هذه الغيوم اللعينة يا بن؟ الدينا ما يكفي من الاثقال؟"

فأجاب بن: "هذا ممكن اذا حققنا فصلا ملائماً وهبوطاً صحيحاً".

الا أنّ لاري لم يفهم كلياً ما كان زميلاه يتحدثان عنه. فقال له بن موضحاً: "يجب أن تحافظ على مقدار من السرعة. وهذا يعني أن تضرب قمة الغيم وأنت تهبط بمعدل ٧٥ متراً في الدقيقة. أما اذا قلت السرعة عن ذلك، فالحرارة التي تعكسها الغيوم لا بدّ من أن تعيدك الى فوق. ومتى بلغت أسفل الغيم، يجب أن ترمي الاثقال - ربما جميع الاثقال التي بقيت في حوزتك - لئلا تصدم الارض كصخرة صماء".

ومع تقدم العصر، أدرك الثلاثة أنه لا وقت كافياً لديهم للوصول الى باريس. فالشمس كانت تغيب خلفهم وقد أخذت برودة المساء مجراها وانزاح الغيم عن الارض تحتهم.

ووجد ماكسي أنه لم يبقَ سوى ٣٥ دقيقة من ضوء النهار، فقرر الهبوط في حقل على حدود احدى القرى. وكاد ان يقلع عن فكرته عندما رأى اسلاكاً كهربائية على طرفي الحقل، لكنه تجاهلها لانّ موقع ذلك الحقل على حدود طريق رئيسية يعني سهولة الوصول اليهم. ووافقه بن قائلا: "حسناً، سنهبط هنا".

وكان بن ولاري وضعا الحبال قرب الباب استعداداً للهبوط. وقرروا الهبوط دفعة واحدة، على ان يتولى بن السيطرة على الاجهزة اليدوية ويطرح ماكسي الاثقال ويرخي لاري الحبال.

وانحدر "النسر المزدوج - ٢" بسرعة ٦٠ متراً في الدقيقة، محافظاً على السرعة والزاوية اللتين ارتآهما بن. وهبط بالقرب من قرية ميزيري، في حقل مليء بالشعير الاصفر الذي كان ناضجاً للحصاد. وللمرة الاولى ابصروا الطريق الرئيسية مزدحمة بالسيارات. ونظر ماكسي الى تحت فرأى مئات الاشخاص يقفزون من سياراتهم ويتراكضون نحو الحقل. وكانت السماء تعج بالطائرات العادية والشراعية. وعبرت المركبة فوق الاسلاك الكهربائية، فصاح بن: "لنُرخ الحبال".

ودلى لاري حبلين وناوله بن حبلا ثالثاً، ثم أنزل لاري الحبل الرابع بمهارة فائقة جعلت ماكسي يهز رأسه اعجاباً، ومع بلوغ الحبال الاربعة الارض، لامست المركبة الزرع. لكنّ ماكسي الذي لم يشأ اتلاف الشعير البالغ، رمى بعضاً من الرمل، ليستقر "النسر المزدوج - ٢" فوقه. غير انه نهض الى أعلى كحصان نُخس بمهماز.

عندئذ صرخ ماكسي: "لنشقّ الغلاف". ونظر الى بن ليرى حجاب المركبة استقرّ فوقه. فضحك عالياً اذ خُيل اليه انّ بن فرغ لتوه من حمام بالمعجّنات. ومع سحب الحجاب، أخذ الهيليوم يتدفّق من فتحة المنطاد.

وقفز بن خارجاً وفي ذهنه فكرة واحدة: أن يحمي المركبة من عبث الفضوليين. وكان الرجال والنساء والاطفال تحلقوا حول الغلاف الساكن وراحوا يخدشونه بغية أخذ قطعة منه كتذكار.

ووقف لاري في الحجرة السفلية يبتسم لعدسات التلفزيون. وازداد عدد الناس الذين تجمهروا حول المنطاد. وبقي بن حيث هو، وحوله الوف المتفرجين يضحكون جذلا ويتدفقون بسرعة وسط الزروع. وراود بن شعوران: أحدهما حزنه لانتهاء الرحلة والآخر أسفه لانّ ثلاثة رجال في منطاد تمكنوا من تذليل المحيط الاطلسي.

وكان ماكسي لا يزال في الحجرة. وخرج منها بمشقة لانها غصت بالفرنسيين الذين راحوا يرقصون حول لاري. وأخذ ماكسي يبحث عن بن، لكنه لم يعثر عليه. ووجد انه من الصعب تفريق الحشود، على رغم محاولة رجال الشرطة السيطرة على الموقف.

وقفل ماكسي عائداً الى الحجرة ليجد ان قنينة شراب فُتحت وأُريق بعض مائها على رأس لاري، فوقف يراقب بابتهاج. وفجأة برز بن من بين الجموع، وتوجه نحو الحجرة لانقاذ قوائم الحسابات والافلام وبعض الاشياء الخاصة.

وازداد غيظ رجال الشرطة وطلبوا من الطيارين الثلاثة مغادرة المكان بسرعة. وأخذ لاري وماكسي الى طائرة مروحية، لكنهما لم يستطيعا ردّ الحشود حتى بعدما أصبحا داخلها.

وأخذ بن الى طائرة اخرى ليجتمع شمل الثلاثة في ما بعد. ووقفت السيارات المتألقة تنتظرهم في شارع "فوبور سانت اونوريه" الفخم في باريس، الذي غصّ بحشود اخرى كانت تنتظر لتحيتهم، وبينها جميع فنانات مربع "الليدو" الباريسي الشهير وفنانيه وقد اصطفوا بملابسهم المسرحية. وشقّ بن وماكسي طريقهما وسط الجماهير ليصل كلّ منهما الى زوجته.

وبعدما اخترق الثلاثة صفين من رجال الامن وبلغا درج الجناح السكني التابع لسفارة الولايات المتحدة، برزت امرأة ناحلة من بين الناس ولمست يد بن.

وخاطبته بالانكليزية قائلة: "اسمي جاكلين سيتروين. انا الفتاة الصغيرة عينها التي سلمت تشارلز لندبرغ أول باقة ورد بعد هبوطه في لو بورجيه. وقد شئتُ ان اعيد الكرة معكم".

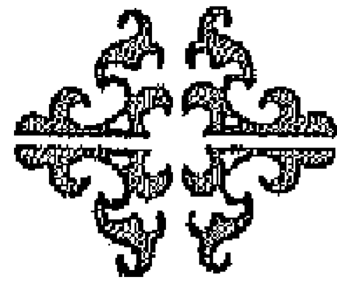
وسألت بن وماكسي ولاري ان يرافقوها وزوجاتهم الى منزل ابنها

الكونت اندريه دو سان ـ سوفير، نائب رئيس الاتحاد المنطادي الفرنسي، للاحتفال بانتصارهم.

وذهبوا كما كانوا، من غير استحمام او حلاقة. وكان بن وماكسي يرتديان جهاز التحليق بينما كان لاري يرتدي قميصاً أعطاه اياه والده. وتراءى لهم أنّ باريس كلها، من أهلها الانيقين الى صحافييها الصاخبين، كانوا معهم في منزل آل سان ـ سوفير.

وراود ماكسي اندرسون، وهو جالس الى جانب بن ولاري، شعور يقينيّ بأنه سبق ان جلس في ذلك المكان وفي ظرف مماثل خلال حياة ماضية. وهو شعور لم يراوده قطّ من قبل. وأحسّ يد زوجته باتي تضغط يده، فتلاشت تلك الافكار من ذهنه، ووجد نفسه من جديد وسط تلك القاعة التي بدت له، على ضجيج اناسها والتماع آلات التصوير، أشبه بفردوس صامت. وجلس ماكسي في مكانه يبتسم بلا انقطاع.

■ **تشارلز ماكاري**



حساب فرنسي

ـ كم يكلفني قضاء اسبوعين مع زوجتي في باريس خلال عطلة الميلاد؟

"يجب ان تخصص ٢٠٠٠ دولار لهذه الغاية".

ـ هذا كثير. الافضل ان أذهب وحدي.

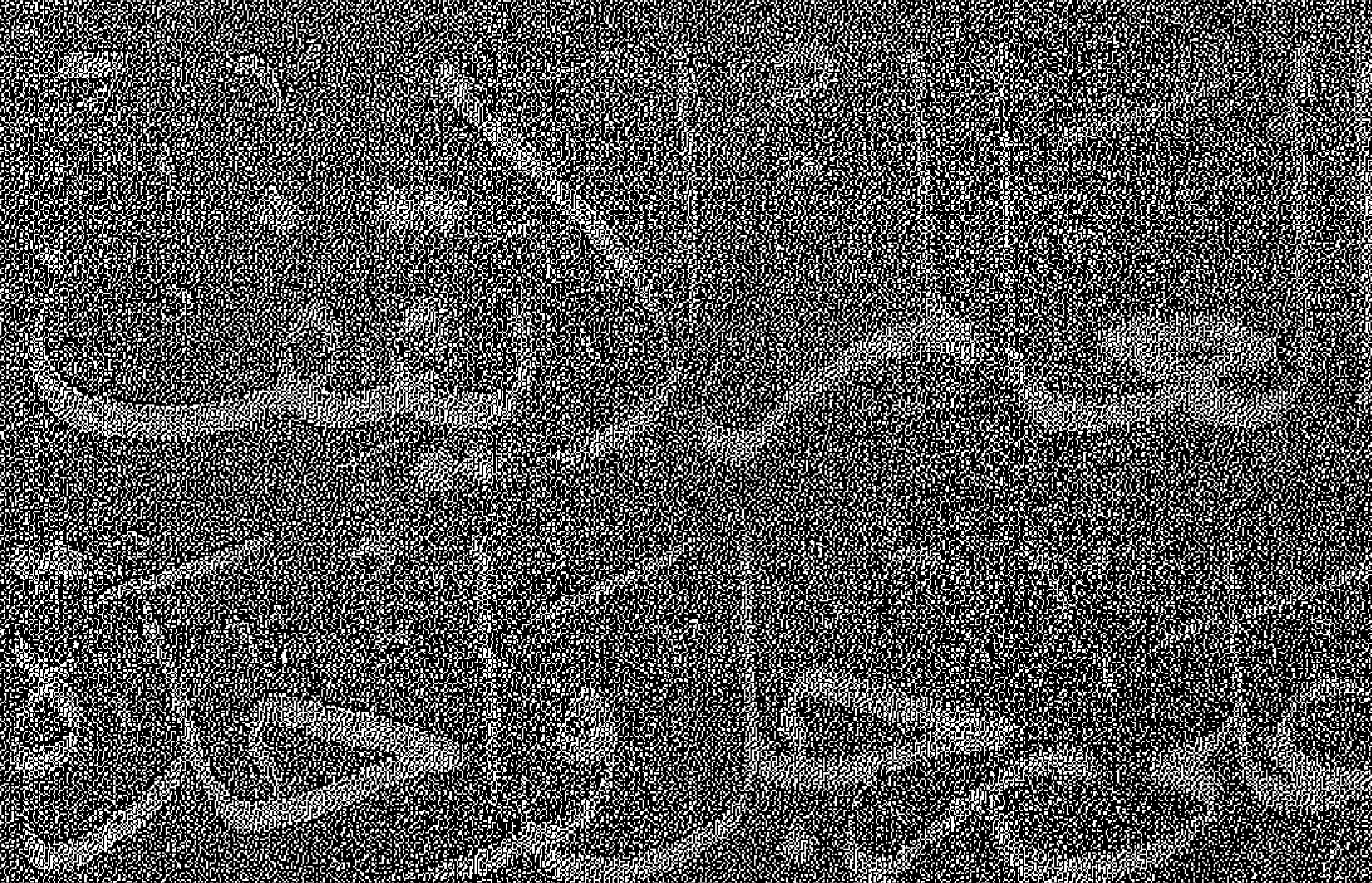
"في هذه الحال ستحتاج الى ضعفي هذا المبلغ".

مجلة "شتيرن"، المانيا

الآباء والبنون

غالباً ما التبس على الناس أمر الروائي جوليان هوثورن ووالده المؤلف الشهير نثانيال هوثورن. ومرة عرّف جوليان على امرأة، فقالت له بحماسة: "سيدي، لقد فرغتُ لتوي من قراءة "الرسالة الفاسقة" (لنثانيال) وأظن انها من روائع الادب. ولم تكن لديّ فكرة عن هذه الموهبة العظيمة التي تتمتع بها". فهزّ جوليان كتفيه باستنكار وقال: "آه! أجل، لقد نشرتُ عندما كنتُ في الرابعة من عمري".

كتاب الشهر





ملخص من كتاب
بقلم لي ويل

العالم لا يقف على رجل واحدة

قصة صراع مع الألم استمر ٦ سنوات



من اليمين: طوني ووليم بار ·

بُترت رجل بيل بار على أثر انفجار قنبلة في سيارته · وبقيت الجريمة غامضة · الا ان العناصر التي جعلت من بار هدفاً للاغتيال – وهي تكريس حياته السياسية والمهنية والشخصية لكل ما يعدّه حقاً وعدلا – حوّلت مأساته انتصاراً ·

أما بطولة هذه الرواية فلا تقتصر على بار، بل يشترك فيها آخرون، أهمهم ابنه واثنان من عائلة ستوكوزا هما رجل وولده · وتتداخل مصائر هؤلاء بعضها ببعض لتسفر عن قصة انسانية نبيلة وعميقة ومثيرة

الثاني من يونيو (حزيران) ١٩٧٠ · كان الصباح هادئاً في حيّ السُّود في مدينة جولييت من أعمال ولاية ايلينوي الامريكية، وهو مجمّع سكني مختلط الاعراق نفذه المليونير وليم بار، متعهد البناء وعضو مجلس نواب الولاية · ولم يكن ذلك الاختلاط مألوفاً في جولييت · وقد اتخذ بار مسكناً له في تلك المنطقة، وشاهد الصلبان الخشبية يحرقها المتمردون في حديقة منزله في ثلاث مناسبات · وكان، في تلك الاثناء، ينهي معاملات الطلاق من زوجته ويعيش منفرداً ·

ذلك الصباح تأخر بيل (وليم) في نومه · ولما أعدّ نفسه توجه نحو سيارته الكاديلاك الخضراء · وفتح باب السيارة وجلس وراء عجلة القيادة، تاركاً رجله اليسرى على الرصيف، كعادته وهو يدير المحرك ·

وكانت رزمة ديناميت ثبتت الى غطاء المحرك ووصلت بجهاز الاشعال مباشرة · وهذا عمل لا يجيده سوى خبير متمرّس في هذه الامور · وما ان وضع بيل المفتاح في مكانه وأداره حتى انطلق دويّ اهتزت له النوافذ في عشرات المنازل المجاورة، وطار سقف السيارة من موضعه واستقرّ على بعد ١٥ متراً · وتناثرت قطع المعدن والزجاج على مسافة ستين متراً · وخُيّل الى بيل ان قوة رفعته فوق الارض · ثم انتابه الم شديد واستحال وجهه قناعاً احمر · وتمزّقت رجله اليمنى وغدا فخذه بركة دم لا ينقطع دفقها ·

وفي المستشفى لُفّ بيل بالعصابات، ولم يظهر منه سوى عينيه وجانب وجهه الايسر · وأُدخلت في جسمه شبكة أنابيب موصولة بأكياس من السوائل عُلّقت فوق رأسه · ووُضعت اجهزة لتسجيل عمل قلبه وبقية وظائفه الحيوية · ومدّ بيل يده ليتحسس رجله اليمنى، فلم يجد شيئاً هناك ·

وراحت ممرضة تدخل افراد عائلته واحداً بعد الآخر · وكان اول الداخلين ابنه طوني، وهو صورة نحيفة عن أبيه عندما كان في سنه · وكان بيل، قبل أيام، حضر حفلة تخرّج ولده في جامعة فلوريدا · وبعد ذلك أدخلت ابنته روبين · أما ابنته الصغرى، كاتي، فلم يُسْمَح لها بزيارة والدها · وأخيراً جاء دور شقيقه وشقيقته · وكان بيل يحدّق الى ذويه من غير ان يسمع ما يقولون · فقد كانت الصدمة قوية بحيث رمته في متاهة من الوجوم ·

وكان في مدينة آن آربور في ولاية ميشيغان رجل اسمه ولتر ستوكوزا، وقع ضحية انفجار من نوع آخر · وهو رجل في الخمسين من عمره، يعمل في ميدان الجراحة الترقيعية (١) · وكان، في احدى الليالي، يعمل في ساعة متقدمة عندما تعطلت ابرة قياس في فرن للصهر · واشتعل خليط من اللدائن المعدّة لتركيب ساق اصطناعية، وللحال امتلأت غرفة المختبر بدُخان كثيف أسود ·

وبدا الحادث بسيطاً للوهلة الاولى · الا ان الدخان كوّن طعماً مراً لم يبارح

(١) اضافة عضو اصطناعي الى الجسم البشري ·

فم ولتر، وبدأت، داخل جسمه، سلسلة تفاعلات هدّدت حياته. ودخل المستشفى في مايو (أيار) ١٩٧٠ بعدما شلّ الخدر أصابع يديه ورجليه فأخذت تتكوّر الى داخل. وبعد شهر وُضع على كرسي ذي عجلات فيما تخلفت يداه وقدماه على نحو سريع.

ان العامل في الجراحة الترقيعية يحتاج الى جمع من المهارات التي يتميز بها العالم والطبيب والحرفي. وكان ولتر ستوكوزا، الحرفي، يموت ببطء مع تلاشي يديه. لكنه، كلّ نهار خميس، كان يزحف من سريره الى الكرسي ويأخذ المصعد الى الطبقة الاولى حيث يقيّد نفسه ضمن غرفة للعلاج الفيزيائي. وهو واصل عمله، على رغم حاله الجسدية المتدهورة. وكان الخميس، بالنسبة اليه، يوماً للراحة والمراقبة. ففي ذلك اليوم كانت عيادة "زرع" الأعضاء تمتلىء بالخبراء والمرضى.

وكان جرّاح، مع اثنين من المجبرين المبتدئين، يجلسون حول طاولة ويفحصون المرضى، مقدمين ارشاداتهم حول اعضائهم المبتورة. وكان ولتر يقرّب كرسيه ويصغي، فاتحاً عينيه على كل شاردة. وكلما تكلم المجبر الأصغر سناً، وهو في اوائل العشرينات، كان وجه ولتر يتقد ويصغي بكل جوارحه ليبدي نقده عندما يجد ذلك ضرورياً.

أما ذاك الشاب، جان ستوكوزا، فلم يكن سوى ابنه. وكان جان على علم تام بأن أباه يراقب بدقة ما يجري أمامه، لكن ذلك لم يؤخر عمله. لقد كانت عين والده النقادة دائمة الحضور فيه. وجان مجبّر محترم، احتل المرتبة الاولى في صفه في جامعة نورث - وسترن متخصصاً بالجراحة الترقيعية. وكان تسلم عمل والده قبل عام من الحادث، لكي يتفرّغ ولتر للبحث.

وكان جان يصغي الى كلّ مريض باهتمام بالغ، وعيناه ويداه تتحرّك تبعاً لما يسمعه. ولم يكن يتردد او يرتد اذا برزت له جدعة كالهراوة من ذراع أو ساق، وفي الوقت نفسه لم يواجه عمله ببرودة او لامبالاة. وبلغ حُبّه لعمله حدّ الاجلال، وانتقل ذلك الشعور الى مرضاه.

ولكن لم يَخْفَ على المراقب النبيه ان هناك خطأ ما في حال جان، يمكن تحسّسه كما تمكن رؤيته. وعلى رغم انه انغمس في مهنته حتى الكمال وأكبّ عليها على نحو عجيب، الا ان عينيه نمتا عن سرّ دفين، اذ اختبأ خلفهما توق الى الانعتاق. واذا أنعم المرء النظر، أدرك ان ما تخبئه عينا ذلك الشاب لا يختلف عما هو مختبىء وراء عيني الرجُل المكبّل في كرسيه، والده.

أما في المستشفى حيث كان بيل بار، فما ان دخل جون هوليهان الرواق حتى عرفه بيل من وقع خطاه. وراح هوليهان يرفع ساقه الاصطناعية بيده ويدفعها الى الأمام مع كل خطوة. وهو كان نائباً عن الحزب الديموقراطي في مجلس ولايته في حين كان بار نائباً عن الحزب الجمهوري.

ودخل هوليهان غرفة بار وبادره بقوله: "كنتُ افكر فيك. لقد كان في وسعك ان تعيش حياة سهلة. الا أنك



جان سنوكورا يزود مريضا برجل جديدة.

اخترت الطريق الصعب، وشققته بجرأة ونشاط".

وكان بيل، بعد عودته من الحرب العالمية الثانية التي شارك فيها، رفض التسهيلات الممنوحة له كونه ابن السناتور ريتشارد بار، عضو مجلس الشيوخ. واتخذ لنفسه وظيفة مفتش في مكتب مراقبة الايجارات. ورُقي ست مرات في تسع سنوات حتى أصبح مدير المكتب العام في واشنطن، وكان يرفع تقريره مباشرة الى الرئيس هاري ترومان. وبعد اغلاق المكتب عام ١٩٥٣، تولى بيل اعمالا تجارية عدة. وفي مطلع الستينات أصبح مليونيراً. وفي العام ١٩٦٦ انتخب نائباً في مجلس ولاية ايلينوي.

وأضاف هوليهان: "سأريك شيئاً يا بيل، وان لم يكن جميلا". وأرخى سرواله، كاشفاً عن ساق خشبية قُيدت بحزام الى الخصر. وتابع هوليهان: "كما ترى، ليس هناك جدعة، مما يعني انه عليّ البقاء ضمن هذا الدلو". قال هذا وهو يمرر يده على القوس الذي يطوق حوضه... "انه يؤلمني قليلا. لكني بقيت احدى عشرة سنة، بعد اصابتي في الحرب، اسير بمساعدة عكازين. في تلك الأيام، كان من العسير تركيب رجل اصطناعية من غير تركيزها على جدعة. أما اليوم فباتوا يفعلون العجائب. واذا تذكرت ان جدعتك ما زالت في مكانها، وجب ان يزول خوفك".

وقبل ان يخفت وقع خطى هوليهان في مدخل المستشفى، كان بيل عقد العزم على ما يبغي فعله. لقد انقضت الأيام الاولى التي أعقبت الحادث، وهي أيام ملأى بالقلق واليأس، وبدأ المستقبل يتخذ شكلا في مخيلته.

رجل جديدة ـ حياة جديدة

كانت الأيام القليلة التالية حافلة بالزوار من اهل وأصدقاء وسياسيين. ووسط هذه الدوامة، وصلت دوجنا. وكان بيل قابلها قبل ستة اشهر فانطبعت صورتها في ذهنه، بعينيها السوداوين وشعرها الأسود الناعم وبشرتها البيضاء وقسماتها الصغيرة. وأخبرته بصوت رقيق عن بلدها الام يوغوسلافيا، وأضافت انها مديرة قسم الطب النفسي للأطفال

والمراهقين في أحد مستشفيات شيكاغو. وبعد تلك المقابلة خابرها بيل، طالباً ان يراها مرة اخرى. لكنها رفضت بحجة ان طلاقه من زوجته لم يكن تمّ بعد. ولما أصرّ على رؤيتها، وافقت على موافاته برفقة صديقة. ونمت العلاقة بينهما سريعاً، على رغم حضور الصديقة جميع تلك اللقاءات. ولم ينقض وقت طويل حتى عرض عليها الزواج.

ولدى دخولها غرفته في المستشفى، تناولت من حقيبتها مرهماً خاصاً وراحت تدلكه برفق حول عينيه. ولم يَقْوَ بيل على النظر اليها.

وسألته: "ألِسَبَب ساقك لا تنظر اليّ؟" وصمت بيل طويلا، ثم أجاب: "أظنّ اني أستطيع العيش بلا ساق. ولكن كيف لي ان اعيش من دونكِ؟"

- لا أفهم ما تقول!

"لقد وافقت، يا دوجنا، على ان تتزوجي رجُلا تاماً. وهذا تبدّل الآن".

وظهر الغضب في عيني دوجنا وهي تقول: "لا تلجأ اليّ كعذر يا بيل. واذا كنت تود التراجع عن وعدك، فقل هذا صراحة. هل أنتَ تريدني؟"

وهزّ بيل رأسه، فيما أخذت دوجنا تبكي بهدوء.

وقالت وهي تدلك عينيه بالمرهم من جديد: "اني سعيدة". ولم يُشح بنظره عنها هذه المرة. لقد اكتسى الغدُ وجهاً الآن.

بعد سبعة عشر يوماً من الانفجار، حُمل بيل على كرسي الى قاعة المحاضرات التابعة للمستشفى حيث كان ينتظره حشد من الصحافيين ومصوري التلفزيون فبادرهم قائلا: "طالما سمعتم ان طموحي يتجاوز المجلس الاشتراعي، وانّي اسعى الى مركز سياسيّ يخوّلني ان أؤثر على نحو اقوى في مجرى الامور. وهذا صحيح كما توقع العديد منكم. فانيّ سأُرشح نفسي لمنصب محافظ مدينة جوليبيت. وهذا الحادث لن يثنيني عن عزمي".

وفي المستشفى سارت الامور بسرعة. وبدأ بيل يتعلم المشي بمساعدة عكازين خلال الاسبوع الثاني لوجوده هناك، كما تعلم صعود السلم بها. وحذره المعالجون الفيزيائيون من مغبة السرعة، لكنه لم يرتدع. وظلّ يسأل عن موعد "الحصول على ساق" حتى حدد له الجراح موعداً في شيكاغو في نهاية ذلك الشهر.

وشعر بيل بأن الحظ يسعفه، وان حياته الشخصية لم تكن يوماً افضل مما هي اليوم. وكان طلاقه جَرَّ بعض الجفاء على علاقته بابنه طوني. ولكن يبدو ان الحادث الاخير كسر الحواجز بينهما. وهكذا بات بيل يمضي وقتاً طويلا في المستشفى وهو يتكلم مع ابنه. ومرة سأله بيل: "لقد كثر الحديث عنيّ في الآونة الأخيرة. ولكن ماذا عنك انت يا بنيّ؟ ما هي مشاريعك؟"

فأجاب طوني: "أودّ ان امارس هواية القفز من الطائرة مع اصدقائي في اجزاء مختلفة من البلاد". وكان طوني مظلياً متمرساً انجز ما يزيد على مئة قفزة.

- وبعد ذلك؟

"أحصل على وظيفة في فلوريدا، واتابع هوايتي".

- يبدو ان القفز بالمظلة أمر مهم بالنسبة اليك.

"أجل".

- الم تفكر في العمل السياسي؟

"كلا! هذا شأنك يا أبي، لا شأني".

عندئذ قال بيل: "طوني، اني مزمع على الزواج مرة اخرى، من دوجنا. وهذه المرة اعرف ان زواجي سيكون ناجحاً. وأود ان تقف لي اشبيناً" (٢).

وأجاب طوني بهدوء: "هذا يسعدني".

وفي ٢٥ يونيو (حزيران)، بعد ستة أيام من مؤتمره الصحافي، غادر بيل المستشفى. وفي اليوم التالي تمّ زواجه من دوجنا في مراسم هادئة في شقته. ووقف الى جانبه ابنه طوني وابنته روبين.

جلس بيل على كرسيّ في مركز اعادة التأهيل الجسدي في شيكاغو، منتظراً دوره مع عدد كبير من الأشخاص الذين فقد كل منهم احد اطرافه.

وأخيراً جاء دور بيل. وانتزع المعالج الضمادة عن جدعته. وقال له الجراح بعدما تحسّسها بيده: "انّ جدعتك ليست جاهزة بعد. وسيرشدك المعالج الى طريقة ربطها بضمادة مطاطة كيما تتخذ شكلا يسهل لصوق الرجل الاصطناعية بها. وينبغي ان تعود الينا بعد اسبوعَيْن".

واستمد بيل قوته، خلال فترة الانتظار تلك، من افراد عائلته. وكان طوني ينقله بالسيارة ويسيّر شؤون مكتبه العقاري.

وبصفته نائباً في مجلس الولاية، تحتم على بيل ان يقضي ساعات طويلة على الهاتف وان يذهب الى سبرينغفيلد، عاصمة ايلينوي، كلما كان هناك قرار خطير برسم التصويت. واستهل حملته الانتخابية لمنصب محافظ باجتماع غير رسمي مع ناخبي المحلة. وعقد الاجتماع في مقهى مجاور قصد اليه على عكازيه.

وفي نهاية الاسبوعين عاد بيل الى مركز اعادة التأهيل وحصل على اذن بتركيب الرجل الاصطناعية. واذ ذاك توجه الى جرّاح التجبير ظناً منه أنه سيرى عيادة طبية عصرية. لكنه، عوضاً عن ذلك، وجد نفسه في بناء تجاري حقير وسط قطاع متقوّض من المدينة. وكان في الداخل غرفة انتظار مكتظة، وخلفها ثلاث غرف صغيرة أو أربع للمعاينة والتركيب، فضلا عن مشغل صاخب.

ووقف بيل متكئاً على عمود فيما كان قالب من الجصّ يركب فوق جدعته. وكان ذلك القالب خاصاً بالقسم الأعلى من رجله الاصطناعية. واخذت القياسات اللازمة وانتُزع القالب بعد عشر دقائق، ثم اعطي بيل موعداً لجلسة تركيب أولية.

وبعد ثلاثة أسابيع رُكبت الرجل الاصطناعية. وقد صُنعت من الخشب وجُعل لها مفصل متحرّك عند الركبة. وكان على بيل ان يفتح المفصل ويقفله مع كل خطوة، مما جعله يبدو كدمية تمثل جندياً. وكان هناك تجويف بين الرجل والجدعة، مع صمام معدني صغير لتخفيف الضغط عن الجدعة.

(٢) احد شاهدي الزواج لدى الطوائف المسيحية.

وفي الأسابيع الأربعة اللاحقة، تعلم بيل ان يمشي من غير مساعدة. وهو سقط مراراً ونهض ثم تعثر من جديد. وبدأ لون جدعته يتغير. ولما سأل عن ذلك، قيل له انه امر طبيعي. وقد شعر بالألم وهو يمشي، لكن قدرته على الحركة منحته مقداراً كبيراً من السعادة.

سعي الى الكمال

شب ولتر ستوكوزا في ديترويت، ولاية ميشيغان. وكشاب لا يحمل شهادة الدراسة الثانوية، اضطر الى قبول سلسلة من الوظائف الوضيعة. ووجد في التزحلق على الطرق وسيلته الاولى للتغلّب على محدوديته.

وعندما بلغ السابعة عشرة انضم الى ناد للتزلج الفني وأظهر تفوقاً في ممارسة هوايته. وكان ينهض في الرابعة صباحاً ويقضي ساعتين في التمرين قبل الذهاب الى عمله في مصنع للسيارات. وكان، بعد الدوام، يذهب الى النادي ويثابر على التدريب حتى تُقفل الحلبة. وفي ثلاث سنوات حاز ثلاث جوائز وطنية وتوقع ان يمثل بلده في المباريات الدولية. الا ان الحرب العالمية الثانية بدّلت خططه.

وخلال خدمته العسكرية، عهدت اليه اعمال لحام. وكان تعلم تلك الحرفة بالحماسة عينها التي جعلت منه بطلا وطنياً في التزلّج الفني. وبعد الحرب كان عليه اعالة زوجته وولده جان الذي رُزق بعده بابنة. وهكذا عاد الى ديترويت للعمل من جديد في أحد المصانع. لكن كلاماً اتفاقياً أعتقه من تلك الوظيفة التي لم يحبها. فهو سمع احدهم يقول انه في حاجة الى لحام بارع لأداء مهمة دقيقة في مجال صناعة المعدات الخاصة بتقويم الأعضاء. واخذ ولتر الوظيفة، وكان يعمل دواماً تاماً ثم يعود الى المصنع بعد الظهر. وفي أوقات فراغه، كان يطالع الكتب الطبية والمجلات المختصة بالتجبير. وكان سعْيُه الحقيقي، كعهده دائماً، الى الكمال.

وحضر ولتر مدرسة مسائية لنيل شهادة الدراسة الثانوية التي اتبعها بشهادة في التجبير والجراحة الترقيعية. وبعد ذلك ساهم في تأسيس دائرة تقويم الأعضاء ومعدات التجبير في جامعة ميشيغان في آن آربور. ثم باشر عمله الخاص.

ولدى بلوغ ابنه جان السابعة، اخذ ولتر يلقنه مبادىء التشريح والخصائص الفيزيائية للأخشاب والأصماغ والمعادن واللدائن. وكان ولتر معلماً قاسياً، وطالما عيل صبره وضرب جان حين لم يجد لديه الاستعداد الكافي. وذات يوم حمل عصا وانهال بها على كلب جان، وهو من فصيلة الاسكيمو، حتى قتله. ووقف جان، ذو الأحد عشر عاماً، ينظر الى العصا تهوي على كلبه مرة بعد اخرى. وانتابه شعور بالكره تجاه والده، يخالطه بعض الخوف.

الا انّ شعور جان تجاه والده كان اعمق من الكره والخوف. فهو كان ينظر الى الذين تعوزهم حماسة ابيه كأناس سطحيين. ونشأ رابط قويّ بين الاثنين هو سَعْيٌ مشترك الى الكمال.

وكان جان، بعيد فراغه من

المدرسة الثانوية، باشر رياضة الجودو وتقدم فيها سريعاً. وكانت الجروح التي تصيب ركبتيه من جراء تمارين الجودو تبرد همته معظم الأحيان وترده الى التجبير. لكنه سرعان ما كان يعود الى الجودو بعد شفاء ركبتيه.

وبحلول العام ١٩٧٠، كان جان احرز عشرين انتصاراً متتالياً في الجودو حققت له "الحزام الأسود"، اعلى درجة في تلك الرياضة، مما اهله للاشتراك في الألعاب الاولمبية.

أما الحادث الذي حصل مع ولتر فلم يثنِ جان عن عزمه. بل انه انغمس في الجودو اكثر من قبل. وكان ينهض في الرابعة لممارسة هوايته قبل الذهاب الى العمل. وفي المساء كان يركض مسافة ١٥ كيلومتراً، يمارس بعدها تمارين الجودو في احد النوادي. وكان، في نهاية الاسبوع، يقصد الى أماكن اخرى للاشتراك في المباريات. لكن ولتر ادرك، من خبرته في التزلج الفني، ان جان لجأ الى الجودو هرباً من عالمه، ذلك العالم الذي ارتضاه له ولتر وبناه بنفسه.

وحدث في ليلة من فبراير (شباط) ١٩٧٠ أن أفاق جان مجفلا على رنين الهاتف. وبلغه صوت امه المستغيث: "تعال فوراً".

لقد مات ولتر...

وحُدد موعد الدفن بعد ثلاثة أيام. وكان جان، في تلك الأيام، يجلس قرب النعش وللمرة الاولى في حياته، امكنه ان يخبر ولتر عن مقدار حبه واحترامه له، وعن مقدار كرهه له كذلك. وتذكر عملية تجبير اختلف مع أبيه حولها. وكان ان حمل ولتر فجأة عصا من حديد وراح يزعق ويأمر جان بأن يغادر الغرفة قبل ان يقتله. وفي اليوم التالي عاد الاثنان الى العمل بهدوء.

وحان وقت الدفن. وكأن ضبابة سدلت على عيني جان. فهو جلس بجانب امه واخته كأنه في عالم آخر. وكان مزمعاً على الذهاب قريباً الى اليابان لمتابعة تمارينه في الجودو. ووضع نصب عينيه الانتساب الى الفريق الامريكي الاولمبي. لقد انطوت صفحة من حياته. وقرر الا يعود الى مزاولة الجراحة التقويمية.

الهزيمة

كل صباح، كان بيل بار يلتقي الناخبين عند أبواب المصانع والمتاجر. وكان، على الغداء، يتحدث الى رجال الأعمال، وفي المساء يتبادل الأحاديث في المقاهي. وفي دورة الانتخابات التمهيدية في يناير (كانون الثاني) ١٩٧١، تفوق على المحافظ المرشح وعلى تسعة مرشحين آخرين.

لكن رجله كانت تسوء باطراد. وفي نهاية كل يوم، كان ينظر الى جدعته فيراها في لون الخوخ، ولا يقوى على لمسها لفرط الألم. وحثته دوجنا على زيارة طبيب، لكنه عجز عن ذلك في خضم حملته الانتخابية. وبعد شهر زاد الألم ولم يعد بيل يقوى على النوم الطبيعي. وأخيراً، بعدما استحالت عيناه بركتي دم، وافق على العمل بمشورة دوجنا.

وكان الجراح الذي انجز عملية البتر قد تقاعد. لكن طبيباً آخر أخبر بيل

ان زوال اللون واشتداد الألم ظاهرتان طبيعيتان خلال طور التكيف. واعطى بيل حبوباً منومة ودواء لتنقية عينيه، الا ان الألم لازمه، بل ازداد حدة.

وأفاق بيل من نومه ذات ليلة وهو يتصبب عرقاً. وعرف لتوه أنه كان يمسك جدعته بكلتا يديه ويتلوى في السرير. وبات الألم في جدعته مبرحاً وامتد الى الجزء الأسفل من ظهره. وكان الصباح وشيكاً، مما شدده على احتمال الألم. واعانته الحملة الانتخابية على نسيان آلامه موقتاً، غير أنه كان يحسب حساباً لليالي. وبات يتناول كميات كبيرة من الحبوب المنومة. وفي ابريل (نيسان)، وهو شهر الانتخابات، اصبح يرى بقعاً من الدم داخل تجويف رجله في آخر النهار، كما كان يبدّل ثياب النوم ثلاث مرات في الليلة الواحدة.

وما ان حان يوم الانتخابات حتى كان وجه بيل هزيلا ولونه أبيض كالشمع. وكان الألم في رجله لا ينقطع، وهو لا يقوى على النوم سوى دقائق معدودة يستيقظ بعدها في بُحران من الأرق لينام مرة اخرى ثم يفيق. وكانت الحملة السياسية ضده قاسية لا تلين. وهذه الامور ارهقته كما ارهقت دوجنا التي ابتكرت طريقة تسعفه نفسياً خلال الساعات الست عشرة التي كان يصرفها يومياً استعداداً للانتخابات، محاولا تعويض ما حرمه اياه فقد رجله.

وكانت دوجنا معه في مركز الحملة الانتخابية حين بلغته الأنباء. ووضع بيل سماعة الهاتف. وقرأت زوجته في وجهه انه خسر المعركة.

عندئذ قالت له: "انيّ متأسفة يا بيل".

فهز رأسه وأجاب: "هذا حَسَن، اذ كيف لي ان أكون محافظاً وأؤدي واجبي في هذه الظروف؟"

وكان بيل اكتشف سبباً ممكناً لألمه من خلال محادثاته مع سواه ممن بترت أطرافهم. فربما كانت جدعة رجله تتبدل حجماً وشكلا من جراء الافراط في استخدامها في تلك المرحلة الباكرة من تركيب الرجل الاصطناعية، او لأنها لم تُعصَّب جيداً بعد البتر.

ووافق جراح التقويم على اجراء بعض التعديلات على الرجل الاصطناعية. فأبدل المفصل عند الركبة بكباس تسهيلا للمشي، كما أعاد صبّ الرجل وابدل التجويف بآخر جديد. وجرّب بيل الرجل الجديدة أسابيع عدة، لكن الألم بقي مبرحاً ومتواصلا كما كان. ووصف له الطبيب مزيداً من الحبوب المنوّمة.

وبعد انقضاء عام كامل على التفجير الذي قطع رجله، جلس بيل يفكر في وضعه. فهو كان مقعداً والألم يقهره، من غير أن يتمكن أحد من مساعدته.

وبالحاح من دوجنا، قصد جراحاً شهيراً بابتكار الحلول للمشاكل الصعبة. ووصف له الجراح حقن "كورتيزون" في جدعة رجله. وأعانه الكورتيزون على تخفيف الألم في البداية، لكن أثره ما لبث أن تضاءل حتى انعدم. وبعد أسابيع تحقق الطبيب من عدم جدوى ذلك العلاج وأمر بوقْفه.

وأمضى بيل مزيداً من الوقت في

شقته، وكان يتناول الحبوب المنومة في الصباح أيضاً لاطالة فترة الوعي الجزئي. وفي المكتب كان معاونوه يقصون عليه الامور نفسها مراراً قبل ان يستوعبها. وفي أسوأ حالاته كان يقرأ المذكرة الواحدة طوال النهار من غير أن يفهم شيئاً.

وبدأ بيل ودوجنا يقصدان الى مجموعة من الاطباء، وكانت آمالهما ترتفع ثم تهبط. وقال له أحد الجراحين صراحة: "ان مشكلتك، يا سيدي، تقف عند تقاطع طرق. فهناك الجراحة التقويمية والعلاج الفيزيائي والطب العادي. فالطبيب يرسم لجراح التقويم عمله. ولكن ما الذي يعرفه هذا؟ أنا نفسي لا أعرف شيئاً عن هذه الرجل المشؤومة التي ترتديها.

"اننا نشاهد الانجازات الحديثة على شاشة التلفزيون، ونقرأ عن الاشياء الرائعة التي يؤديها بعض المبتوري الاطراف. ولكن ما هي نسبة هؤلاء؟ ربما كان هناك عشرون في المئة من ذوي الاطراف المبتورة في مثل حالك. ولكن أود ان تفهم من أين تبدأ".

وقدر ذلك الطبيب أن مصدر الالم هو في الدورة الدموية، واقترح اجراء جراحة لتحسين حركة الدم في جدعة بيل. كما اقترح تحويل الندوب الصغيرة المتفرقة ندباً كبيراً واحداً. وشدد على أن تشخيصه لا يتجاوز كونه ضرباً من التكهن، وأن نجاح العملية بالتالي غير مضمون. ووافق بيل على الخضوع للجراحة. الا أنه لم يشعر بأي تحسن بعد انقضاء ثلاثة أيام عليها، بل بقي يعاني الالتهاب والالم في جدعته. وكحل أخير، نصحه الجراح بالتوجه الى "عيادة مايو" الشهيرة.

ورأت دوجنا الأمل من جديد في وجه زوجها. لكنها أحست دافعاً ملحاً يحملها على تحذيره من أن تلك العيادة، على رغم شهرتها الذائعة، لا تجترح المعجزات، وانه ليس هناك ضمان أكيد له في ذلك المكان.

ووجد جراح أعصاب في عيادة مايو أن أحد أعصاب الجدعة أخذ في التكون من جديد. وقال: "لقد نما هذا العصب حتى أصبح في حجم كرة صغيرة وبات يسبب الألم". وبعد يومين أستأصله جراحياً، ومكث بيل ثلاثة أيام اخرى هناك، عاد بعدها الى جولييت.

لكنه أفاق صباح اليوم التالي وهو يصيح من الالم. لقد انتفخ مؤخر جدعته وغدا أحمر قانياً. ونظرت دوجنا الى الجدعة لتدرك حقيقة الامر، وهي الاصابة بورم دموي من جراء النزف في أنسجة الجدعة الداخلية. وفي اليوم نفسه عادا الى عيادة مايو.

وعولج الورم الدموي ووصف لبيل ساق اصطناعية اخرى. وقال له الطبيب بعد تركيبها: "دعني أكلمك صراحة. انك، كما يبدو لي، لم تقبل التسليم على الاطلاق بأن هذه الرجل اصطناعية، وأنها لا يمكن أن تنوب عن رجل طبيعية. ولئن تكن رجلاً ثرياً اعتاد أن تجري الامور كما يريد، الا أنه ينبغي لك التسليم باستحالة اعادة رجلك الى طبيعتها. والى أن تقبل هذه الحقيقة، لا أظن أن أحداً تمكنه مساعدتك. والآن، يجب أن تتعلم

كيف تستخدم هذه الرجل كذلك كيف تعيش مع بعض الالم.

"لقد وضعت اسمك على قائمة المرضى الذين يحضرون جلسات العلاج الفيزيائي في دائرتنا. وهناك سيلقنونك كيف تستعمل رجلك، أما الباقي فهو رهن ارادتك. وقد أشرت عليهم بأن يحثوك على المشي حتى تجيده".

وثابر بيل على جلسات العلاج الفيزيائي. وكان يسير جيئة وذهاباً بين القضبان المتوازية ويصغي بدقة الى تعليمات المعالجين. كما تسلق درجات السلم التدريبية صعوداً ونزولا، وتعلم أن يجلس وينهض كما لو كان أبتر جديداً. ولم ترقه البرودة والتعالي، وهما خصلتان وقع عليهما في المعالجين الذين بدوا له مناظرين أكثر منهم معلمين. ولكن ربما كان الطبيب يريد له ذاك النوع من العلاج.

وفي اليوم التالي ازداد الالم في جدعته. وخرج بيل من غرفة التمرين وأزاح رجله الاصطناعية. وهاله أن يرى التجويف مليئاً بالدم.

وأدرك أنه لم يعد يحتمل أكثر من ذلك. وما ان برئت جدعته حتى عاد ودوجنا ادراجهما. وبلغا جولييت من غير أن يتفوها بكلمة واحدة طوال الطريق.

القشّة الاخيرة

اخذت دوجنا تنتحب.

كان جسد بيل ممدداً على السرير بلا حراك. ونظرت لترى علبة الحبوب المنومة فارغة على الطاولة بجانبه بعدما كانت، قبل يوم واحد، تحوي أكثر من النصف. وأخذت دوجنا سماعة الهاتف. وبعد ساعة كانت تجلس في غرفة الانتظار في المستشفى فيما حُمل بيل بعيداً عنها، ربما الى الابد.

ووقف طبيب، وهو زميل تعرفه جيداً، يقول لها: "لن نعرف حاله قبل انقضاء وقت. والافضل أن تذهبي الى المنزل وتأخذي قسطاً من الراحة، لانك تحتاجين الى نشاطك لاحقاً".

وعندما بلغت دوجنا المنزل، كان جرس الهاتف يرنّ. وأيقنت أنّ مصدر المخابرة لم يكن المستشفى، اذ لم ينقض وقت طويل على مغادرتها. وتجاهلت الهاتف الذي بقي يرنّ. ثمّ قالت لنفسها: "ربما كان ذلك أحد الاولاد. ربما حدث شيء". وركضت نحو الهاتف.

في الصباح استعاد بيل وعيه. لكنه أفاق على عالم باهت ولم يُسرّ اذ وجد نفسه حياً. ولم يخالجه أيّ شعور آخر، فقد تعطلت ينابيع احساسه. غير أنّ الالم في رجله لم ينقطع، وهو كان الشيء الوحيد الذي يربطه بالعالم الخارجي. وتذكر كيف تناول الحبوب المنومة واحدة واحدة وهو جالس على طرف السرير. وراوده القلق بالنسبة الى دوجنا. لكنها، في تلك اللحظة، وقفت أمامه. وبدت ساعات الانتظار مرسومة على وجهها. لكنّ عينيها كانتا هادئتين، وأخبرتاه أنها فهمت ما حصل.

وقالت له: "ثمة أمر أُخبرك أياه يا بيل. أنّ حادثاً أصاب طوني، وستُبْتر قدمه".

وتراجع بيل من هول الصدمة وشعر بدوار وغثيان. ثم مدّ يده فأخذتها دوجنا.

في تلك الاثناء كان جان ستوكوزا عاد الى الولايات المتحدة واتجه جنوباً. فهو قطع تدربه على الجودو في اليابان بعد تلقيه اصابة في ركبته. وذهب الى ميشيغان للمعالجة. وسأله الجراح عما يودّ فعله. فاذا شاء متابعة الجودو، وجب عليه اخضاع ركبته لجراحة. أما اذا شاء مزاولة عمل "طبيعي"، فلا داعي الى الجراحة، ويمكن أن تبرأ ركبته من تلقائها. واختار جان الامر الثاني.

وكانت رياضة الجودو وسيلة هرب بالنسبة اليه. فهو اختارها كملاذ يفيء اليه هرباً من الحياة التي صممها ولتر له. وبعد وفاة ولتر، عاد الى الجودو لملء فراغه. والحقّ انه مارس تلك الرياضة بدقة بالغة، ولكن من غير متعة او التزام. وهذا الافتقار الى لالتزام جعله يزدري الجودو. فهو لم يتصور عملا ينقصه الالتزام. وقضى على نفسه بالتجوال من مكان الى آخر كعقاب ذاتي.

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧١، ذهب جان الى ولاية جورجيا، ثمّ الى دايتون بيتش في فلوريدا. وعندما نفدت مدّخراته لجأ الى أعمال كالطهو وضَخّ الغاز. وراودته فكرة بيع سيارته والتنقّل في سيارات الآخرين، في ايّ سيارة عابرة تقف له.

أما طوني بار فكان قابعاً في سريره في المستشفى من غير حراك، ووجهه خال من التعبير. وكان قبل اسبوع، في ١٥ يونيو (حزيران) ١٩٧٢، واقفاً مع أصدقاء له على رصيف محطة للسكة الحديد. واندفع قطار صدم أحد مقابضه ذراع طوني.

وغزل الشاب في مكانه ثم علقت قدمه اليسرى تحت القطار، وفي لمحة بصر قُطع جزء منها.

وعندما أفاق من غيبوبته، وجد نفسه في المستشفى وقد بتر ذلك الجزء من قدمه. وأخبره أحد الاطباء أنّ عقب قدمه مع جزء صغير من القوس الذي يلي الرسغ أُنْقِذا. ولفت ذراعه بقالب وقُطّب وجهه في مواضع عدة.

وحين بلغ بيل ودوجنا المستشفى، وجدا طوني على تلك الحال.

وفي الاشهر الباقية من ذلك الصيف، خضع طوني لأربع مراجعات جراحية على قدمه المبتورة. وكان، من وسطه الى أسفل، مقيداً بقالب، وقد وُصلت قدمه اليسرى بربلة (بطة) ساقه اليمنى علّ الجلد ينمو فوق الجرح. ولم يستطع مغادرة السرير حتى بعد انتزاع القالب. ولم تبرأ ذراعهُ المكسورة على نحو صحيح، مما أخّر استخدام العكازيْن.

وفي نهاية الاسبوع، كان طوني يراقب من نافذته المظلات تفتح قببها ذات الالوان الزاهية وتنحدر من السماء. فقد كان هناك مركز للهبوط المظلي يبعد عنه بضعة كيلومترات.

وانتابت طوني حيرة حول مستقبله. لقد أخبره الجراح أنه سيتمكن من استئناف نشاطه المعتاد على نحو تامّ: "احشر لفافة من ورق الجرائد في مقدّم حذائك، وستكون لك حياة جديدة". ولكم ودّ أن يأخذ هذا الكلام على محمل الجدّ. وتذكر حديثاً جرى بينه وبين أبيه أمدّه بأمل كبير. فقد قطع بيل أمامه عهداً

ـ وصوته تخنقه العبرات ـ بأنه سيلجأ الى كلّ وسيلة ممكنة على الارض ليعود كلّ منها رجلا تاماً.

وكان النشاط الذي بذله بيل في مدينته جولييت منقطع النظير. والآن جاءت محنة ولده لتعيد اليه الدافع الذي افتقده، على رغم أنّ عذابه الجسدي لم ينقطع ابداً. وأدرك الآن أنّ مشكلته إن هي الا جزءاً من مشكلة أكبر جداً. وكان جرب عدداً كبيراً من العلاجات وضروب العناية، لكنّ أياً منها لم يفلح. واذا كانت الحال هكذا بالنسبة اليه، هو الثري، فما عساها تكون بالنسبة الى سواه ممن يعانون محناً مماثلة؟ ووسع العهد الذي قطعه على نفسه ليشمل اولئك الآخرين اضافة اليه والى ولده.

وكان بيل أمضى سنتين على تلك الحال، أنفق خلالهما أكثر من مئة ألف دولار. وعرف الاخطار التي تتهدده معرفة أفضل، ولم يعد يجبهها على نحو نزق، بل استحال مخططاً بارعاً يستعدّ لمعركة طويلة الأمد.

وأعد بيل ودوجنا لائحة بأسماء الأطباء وجراحي التقويم والمجبرين الذين وجدا فيهم بارقة أمل. وانطلق بيل يزورهم واحداً واحداً، يحدوه ايمان بأنه لا بدّ من أن يعثر على واحد بينهم يدرك سرّ محنته.

الشيطان المطرود

خرج جان ستوكوزا من غرفته في دايتون بيتش وسار نحو الشاطىء. وكانت الامواج المتكسرة مختلطة البياض والزرقة تحت شمس الصيف. وتذكر أنه لدى زيارته والدته في ميشيغان قبل أشهر، وكان ذلك في أواخر فبراير (شباط) ١٩٧٢، تسلم رسالة من بيل ستيلر أحد مرضى ولتر القدامى عبر فيها عن رغبته في أن يرافقه جان الى عيادة لمبتوري الاطراف في منتجع تزلّج شمال ميشيغان. وكان أحد المعلمين هناك، وهو شخص مرموق اسمه هال اوليري، يشرح طريقته الثلاثية في المعالجة القائمة على استخدام قاعدة وذراعين. وقال ان كلّ أبتر له حاله الخاصة، ولكن ما من مشكلة يستعصي علاجها. وكانت مراقبة اوليري وهو يعمل مع مرضاه بمثابة ثورة في نظر جان. وأصبحت لديه قناعة بأنّ اوليري هو أحد أعظم المعلمين الذين عرفهم.

وسأله ستيلر: "هل يذكرك هال اوليري بأحد؟"

فصمت جان هنيهة ولم يتمكن من الاجابة. عندئذ أضاف ستيلر: "انه يشبه ولتر ستوكوزا".

وعندما سمع جان هذا، بدا الاندهاش واضحاً على وجهه. وتذكر كيف التقى ستيلر للمرة الاولى وهو في الخامسة عشرة. وكان ولتر، بعد تركيب ساق او ذراع اصطناعية لبعض مرضاه، يسمح لابنه جان بأن يصنع للمريض قطعة اخرى مماثلة لاستخدامها وقت الحاجة.

وقال ستيلر: "لا أنسى كيف كان يراقبك وأنت تعمل، فيصحح أخطاءك ويلفتك الى الامور الدقيقة. لكنّ ولتر كان قاسياً في نقده، في حين أن هال رقيق. أما وجه الشبه بين الاثنين فهو نتيجة العمل. هل تدري أن والدك بكى حين أخبرته أن الرجل التي صنعتها لي لم تقل جودة عن تلك التي

صنعها هو؟ وحاول أن يخفي دموعه، لكنها ملأت عينيه"،

ولما عاد الى فلوريدا ذلك الصيف، كان جان يركض على الشاطىء كل صباح، وكان، خلال النهار، يعمل في مشروع للبناء، وفي المساء يمارس رياضة رفع الاثقال، ساعياً كعادته، الى الكمال، وكانت تلك الرياضة أيضاً وسيلة هرب بالنسبة اليه،

ومع حلول الخريف، أبدل جان رياضة رفع الاثقال باخرى هي البولينغ، وكان في تلك الاثناء يجتمع بعدد كبير من الناس، لكنه في أعماقه ظلّ يشعر بالوحدة، ولم يعد يقوى على احتمال ذلك النوع من الحياة الذي يفتقر الى هدف، وتوقف عن العمل، كذلك عن الركض على الشاطىء، حتى ذقنه لم يعد يحلقها، وكان يرتدي الثياب نفسها مدة طويلة، وشعر بالضياع، وبأنه سيزول قريباً هو والفراغ الذي يعانيه،

وللمرة الاولى أخرج الصور التي التقطها لأبيه قبل دفنه وصفها على سريره، وظلّ يفعل ذلك يوماً بعد يوم، تاركاً للذكريات والعواطف أن تجتاحه، ومنها شعوره بالحبّ والكره الذي برز من جديد ثمّ انطوى، ولم تلبث تلك العواطف القوية ان تلاشت وعاد اليه هدوؤه، ورجع يحلق ذقنه ويرتدي الملابس النظيفة، وأحسّ أن تململه شيطان طُرد،

وسار جان على الشاطىء للأمسية الاخيرة، وأراد أن يقول "وداعاً" لشيء، لكنه لم يتأكد من ذلك الشيء، وفي الصباح قاد سيارته شمالا، وفي ذهنه وجهة غامضة هي ميشيغان، ولكن قبل أن تنقضي ٤٨ ساعة، كان قد طلب وظيفة في مشغل صغير للجراحة التقويمية شمال فلوريدا،

حس بالانتماء

اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٢،

بعد احدى عشرة عملية، غادر طوني بار المستشفى الى منزل والدته في فورت لودرديل (ولاية فلوريدا)، ومع عيد الميلاد، بات في وسعه ان يمشي ساعة أو اثنتين يومياً على عكازين، لكنه لم يستطع، حتى بداية السنة الجديدة، أن يسير وحده من غير مساعدة، وذلك بعد مرور ستة أشهر على الحادث،

وحشا مقدّم حذائه بأوراق من صحيفة ووقف، لكنه تمايل قليلا ووقع، وكرر المحاولة، لكنّ قدمه اليسرى ظلت تخذله، وأخيراً وجد أنه، بارتكازه على تلك القدم، يمكنه مدّ القدم اليمنى الى الامام ليخطو خطوة واحدة، وبعد ذلك يعيد الكرة، الا ان قدمه اليسرى كانت ضعيفة وبطيئة الحركة، وظلت تؤلمه كثيراً،

وفي مارس (آذار)، أخذ موعداً من جراح شهير، بعدما أصبح الارتكاز على جدعته عسيراً، وأخذ الجرح ينز سائلا، ثم دماً،

وقال له الجراح: "انّ جدعة قدمك ملوية الى أسفل، وهذا يعني أنها تلامس الارض على نحو خاطىء"، وأشار الجراح بقبضته الى الطريقة المخطئة، حيث تكون الاصابع مضمومة الى داخل، والى الطريقة الصحيحة التي تكون القدم فيها مسطحة، وأضاف: "ثمة طريقة جراحية لتصحيح الخطأ، وهي مدّ وتر

العرقوب الواقع في الجزء الخلفي من عقب القدم، وهذا يتيح لقدمك أن تحمل ثقلا أكبر. وقد تحدثتُ عن هذا الامر مع عدد من اختصاصيي التقويم الذين قالوا انه يمكن تركيب قدم اصطناعية في حال تسطيح الجدعة. وربما كان هذا الحلّ موقتاً. لكنّ اللجوء الى الطريقة التقليدية يعني بتْر قدمك من فوق الرسغ".

وعندما سمع طوني هذا، لفته غمامة من الدوار والغثيان. فهو لم يشأ أن يخسر رسغه.

وحُدد موعد الجراحة في مطلع يونيو (حزيران). وقَرر وضع قدمه ضمن قالب مدة ستة أشهُر، وبعد ذلك يُعْرف ما اذا كانت الجراحة ناجحة.

وقبل ثلاثة أيام من الجراحة، أفاق طوني ليلا وهو يشعر بجفاف في حلْقه ولا يقوى على التنفس بسهولة. وخُيل اليه ان عذاباً رهيباً يقف له بالمرصاد. ونهض من سريره وسار الى شرفة المنزل. وهناك عبرت في ذهنه صور المظلة والقفز من الطائرة.

وقاد سيارته ذلك السبت الى موقع القفز المظلي بالقرب من شاطىء ديلراي وجهز العدة المظلية. وأحسّ نذراً بهيجاً في أعصابه لمجرد كونه هناك.

وعرفه عدد كبير من الاشخاص الذي كانوا في الموقع. وطلب أن يكون الشخص الرابع في قفزة النجمة، وهي الوضع الذي يتخذه أفضل مظلي في التشكيلة. ولم يأتِ أحد على ذكر الحادث الذي تعرض لهَ ولا احد يسأله عن قدمه، اذ بدا لهم جميعاً أنّ طوني حزم أمره على تلك الخطوة.

وفي أقلّ من ربع ساعة، حلقت الطائرة الى ارتفاع ٢٢٠٠ متر. وعند تلك النقطة، تأهب الثلاثة الآخرون، وهما شاب وشابة، عند فتحة الطائرة. واشار احدهم الى الربان لتخفيف السرعة. وبعدئذ أخذوا يقفزون واحداً بعد الآخر، وتبعهم طوني.

وفجأة وجد نفسه يقظاً على نحو غير معهود. فقد ارتفعت نسبة الادرينالين (٣) في دمه، مما عزز انتباهه للتفاصيل وخلق لديه انطباعات لا يعرفها الاشخاص المقيدون الى الارض. وأمكنه أن يسمع دقات قلبه ويستشعر وخزاً خفيفاً خلفه الهواء في رؤوس أصابعه. والتمع في ذهنه شعور سريع غاب عنه تماماً بعد بتر قدمه.

وأمسك كل من المظليين الثلاثة تحته بمعصم الآخر، فاقتربت أجسادهم أحدها الى الآخر. وقوس طوني ظهره ومدّ ذراعيه وساقيه لابطاء حركته. ثمّ سحب ذراعيه تدريجاً وانضم الى الآخرين لتكتمل النجمة. ونزل الاربعة معاً، واتجه كل منهم الى ناحية. ثمّ انفتحت مظلاتهم وانساقت الى أسفل.

وجفل طوني فيما كانت جدعة قدمه اليسرى على وشك الاصطدام بالارض. وارتكز على قدمه اليمنى لتلقي الجزء الاكبر من الصدمة، لكنّ ذلك لم يمنع اصطدام قدمه اليسرى بقوة أيضاً. وشَقّ مؤخر جدعته، الا

---

(٣) هرمون تفرزه الغدة الكظرية.

أن ذلك لم يكن بأسوأ مما حصل له سابقاً من جراء السير طويلا٠ وتدفق الدم بغزارة داخل حذائه٠ وأحس ّ ألماً شديداً، لكنه تغلب عليه ووقف يرد تحيات الاصدقاء الذين تحلقوا حوله يهنئونه على قفزته الرائعة٠

صوت من الداخل

عندما طلب جان ستوكوزا وظيفة في عيادة التقويم في فلوريدا، لم يخبر ربّ العمل شيئاً عن ماضيه المهني٠ لذلك قبله على أساس اختباري٠ وكان عمل جان بسيطاً بالنسبة الى امكاناته٠ ذلك أن بارنز، صاحب المحلّ (الاسم مستعار)، كان يرسل بالبريد قالب جصّ صُبّ فوق الجدعة الى مختبر في كاليفورنيا٠ وهناك كان يحوّل تجويفاً من بلاستيك وتضاف اليه عناصر الرجل أو اليد الاخرى٠

ولدى تسلم الطرف الاصطناعي، كان بارنز يختبره على جدعة المريض، ثمّ يضع عليه جان اللمسات الاخيرة في المشغل٠ الاّ أنّ طريقة صنع التجويف لم ترق جان، لان ذلك كان يتمّ من غير اكتراث للخصائص الفردية، كالنموّ العضلي الاستثنائي وتركيب العظام الرئيسية والشعور بالالم في مواضع معينة٠ وذلك الاهمال جعل تجاويف الاطراف الاصطناعية غير ملائمة ومسببة للألم٠

ولم يكن المرضى على دراية بمستحدثات تلك المهنة، كالتجاويف اللاصقة والركب المائية٠ وشكّ جان في ان يكون بارنز نفسه مطلعاً على تلك الامور بعدما بدت طريقته مختلفة تماماً عن طريقة جان وأبيه ولتر٠

وصحّ ظنّ جان في أن بارنز لم يكن مجازاً في ذلك الحقل٠ وهو اكتسب المهنة عن طريق العمل في عيادة اخرى٠ ثم فتح عيادته الخاصة٠ ولم يكن ذلك خرقاً للقانون٠ غير أنّ جان ما فتىء يسمع صوت ولتر قائلا: "المرء يحتاج الى رخصة كي ينظف الاسنان ويركب النظارات، وحتى كي يصطاد السمك٠ لكنه يحقّ لاي كان أن يمارس الجراحة التقويمية"٠

وكانت لدى جان أفكار كثيرة من أجل تطوير عيادة بارنز٠ واقترح عليه أولا أن يوضع مخطط الرجل الاصطناعية عبر مخطط الرجل الصحيحة ثم قلب الرسم٠ ويمكن اللجوء الى هذه الطريقة لصنع أيّ عضو بديل٠

الا أنّ بارنز لم ترقه الفكرة٠ فهي تقتضي وقتاً أطول، وهذا يعني كلفة أكثر وربحاً أقلّ٠ وكظم جان غيظه واستأنف العمل٠ وما انفكّ يقدم اقتراحات من هذا النوع بين وقت وآخر، لكنها آلت كلها الى الاخفاق٠ وهذا عزز العداوة بينه وبين بارنز٠ لكنّ جان بقي حيث هو٠ وبدا أنّ تلك الخبرة كانت تعلمه درساً ثميناً٠

غير أنّ تلك العداوة بلغت نهايتها المحتومة بعد خلاف نشب بين الاثنين حول جندي شاب لم يستطع الوقوف على رجله الاصطناعية سوى وقت قصير٠ فهي كانت ركيكة ومؤلمة٠ وقرر جان ان يعطي رأيه في المسألة٠ لكنه ما أن فعل حتى ثار بارنز وصاح به: "من تظنّ نفسك حتى تعلمني كيف ادير تجارتي؟"

فأجابه جان على الفور: "انها

ليست تجارة، بل مهنة. ويبدو أنك لا تعرف سوى القليل القليل عنها".

وقبل أن يقول بارنز شيئاً، أضاف جان: "لا تضطرب، فأني سأترك العمل معك".

وكانت طريق العودة الى ميشيغان فرصة للتأمّل. وأخذ جان يستعيد ذكريات حياته المهنية المتعددة الوجوه. فقد تسنى له أن يرى أطرافاً اصطناعية سيئة الصنع، وكان دائماً يحاول تصحيح الخطأ الماثل أمامه. ولكن لم يخطر له قبل الآن أن تلك الادوات الرديئة ما هي سوى مظهر محدود من مشكلة كبرى تدل على رداءة المهنة ككلّ والافتقار الى الموهبة والالتزام.

لكنه تعلم من أبيه - من جملة ما تعلمه - الا يتكلم بالسوء عن تلك المهنة أو ممارسيها. وكان ولتر، في دائرته الخاصة، وجه نقداً عنيفاً الى الطرق التي تمارس بها مهنته، لكنه كان يستر تلك الاخطاء في العلن.

الا أنّ جان أحسّ حاجة الى تطوير مهنته ومواجهة مشاكلها. وفكر في عيادة منتجع التزلّج واكتسبت معنى جديداً في ذهنه. وأخذ يقود السيارة بسرعة أكبر. لقد كانت هناك مسائل كثيرة تتطلب حلولا. ولكن ماذا يستطيع شخص واحد أن يفعل؟

وجاءه صوت من الداخل يقول: "...كلّ ما يمكنه فعله".

وأدرك أنّ ذلك الصوت كان صوت ولتر.

كابوس مزدوج

في الثالث من اغسطس (آب)، عاد طوني بار الى المستشفى للاستماع الى حكم الجراح في شأن عمليته.

وقال له الطبيب: "مما لا شكّ فيه ان زاوية الجدعة أفضل كثيراً. ولكن هل هذا كل شيء؟ ليس في وسعي الاجابة عن هذا السؤال. وعلينا ان نترك الجواب لجراحي التقويم".

وبعد خمسة أسابيع جُهِّزت رجل طوني اليسرى بحذاء بلاستيكي أبيض مزود بقطعة مطاط عند الاصابع. وأُعطي خفّيْن أسودين ثقيلين، كان أحدهما، وهو الايسر، أكبر من الآخر. ووقف طوني بين القضبان المتوازية واستطاع ان يمشي. وعلى رغم ان خطواته لم تكن متوازنة والالم بقي مبرحاً، الا انه قدر ان التمرين سيسعفه للتغلّب على المصاعب. وظلت قدمه اليسرى تضرب الارض عند مؤخّر الجدعة، لكن الوضع تحسن قليلا.

وفي اليوم الخامس كسر المجبر القالب عند عقب القدم وصبّ قالباً آخر من البلاستيك المقوى. وسار طوني على رجله فبدأت تنزف. لقد التهبت الجدعة وكُسِر القالب من جديد. وأجمع الاطباء والمجبرون على ان طوني يحتاج الى بتر الرجل من تحت الركبة مباشرة لكي يُلْقى عبء الرجل الاصطناعية على عظام الفخذ الصلبة بدلا من عظام القدم النحيفة.

وقال طوني لنفسه: "لماذا أصدّق ما يقولون؟ لماذا أعاني عذاب البتر مرة أخرى وتبقى رجلي على حالها ان لم تصبح أسوأ؟"

في منزل آل بار في جولييت رنّ جرس الهاتف. ونهض بيل عن كرسيه وراح يظلع برجله الاصطناعية المؤلمة

الى الحجرة الصغيرة حيث الهاتف. وحملت تحيته الى طوني قوة لم يكن يشعر بها هو نفسه. وراح يصغي الى قصة ابنه ويذرف الدمع لمحنتهما هما الاثنين. وبدا له ان كابوساً مزدوجاً يغلف حياتهما.

ولم ينقطع بيل عن مساعيه خلال محنة ولده. وجرّب ضروباً عدة من العلاج، بينها التنويم المغناطيسي ووخز الابر والتدليك وصبّ الفيتامين على الجدعة. وزاد عدد الاطباء الذين استشارهم والارجل الاصطناعية التي أعدّت له. وكان آنذاك يستخدم الرجل السادسة. وقصد الى اطباء مرموقين في جامعات ديوك وواشنطن وايلينوي. كما استشار معالجين يدويين للعمود الفقري ومقومي عظام وأطباء نفسيين وخبراء في التغذية الحيوية. لكن ذلك كله لم يسفر عن نتيجة. ونعته أحد الاطباء باختراع الامراض وهدد بتحذير زملائه منه.

وها هو طوني الآن يخابره.

وكان بيل مترعاً بمشاعر العجز والغمّ. الا انه لم يفقد عزمه وحماسته الملتهبة. ولم ينقطع عن مراجعة الاطباء، ولكن بقصد التوصل الى فهم أفضل لوضعه. ولم يعد يجلس باستسلام ليصغي الى ما يصفون له. وأكسبته تلك الصراحة معلومات مذهلة.

وأسرّ له أحد الجراحين بالآتي: "في المدرسة حيث درستُ الطبّ، لم يأتِ أحدٌ على ذكر الجراحة التقويمية". وأوضح آخر: "في الولايات المتحدة، ثمة ٧٠ الف عملية بتر تجري سنوياً. وهناك، حالياً، نحو مليون أبتر... انه عدد ضئيل جداً".

فأجابه بيل: "انك لن تقول هذا اذا كنت واحداً من هؤلاء".

وبات بيل على قناعة بأن حل مشكلته يكمن في مجال الجراحة التقويمية. الا ان المجبرين عجزوا عن ادراك مصدر المه وأحالوه من جديد على أطباء الصحة. وهكذا وجد نفسه في حيرة بين أرباب المهنتين. وكانت كل فئة تلوم الاخرى لعدم معرفة الاسباب.

ووصف الدكتور هوارد كورلاند، وهو طبيب أعصاب واختصاصي بحالات الالم، مشكلة بيل بايجاز بليغ اذ قال: "لقد اعتقتُك موقتاً من ألمك. لكنك لا تنفكّ عن ايذاء جدعتك. وما تحتاج اليه حقاً رجل يلتصق تجويفها بالجدعة على نحو ملائم. لكن معرفتي الضئيلة بالجراحة التقويمية لا تخولني احالتك على اي من ممارسي هذه المهنة". ومهما يكن الامر، فقد جاء حكم الدكتور كورلاند مطابقاً لرأي بيل، وهو ان مصدر الالم هو الرجل نفسها، لا مخيلته.

وقطع بيل العهد الآتي على نفسه: "اني سأجد الرجل الذي يستطيع ان يصنع لي رجلا مناسبة. وعندما يتمّ صنعها، سأخبر العالم كله عنه".

وأمضى بيل سنتين ونصف سنة وهو ينتقل من مجبّر الى آخر ويبدل رجلا اصطناعية بأخرى في طول الولايات المتحدة وعرضها، حتى نسي عدد المجبرين وعدد الارجل التي صنعوها له. وفي اواسط العام ١٩٧٦، وجد نفسه في منطقة شيكاغو يبحث عن "ألماني عجوز عبقري" أعان عدداً كبيراً من مبتوري الاطراف. ولما لم يعثر عليه، قدّر انه مات. وأشار عليه

أحدهم بالذهاب الى عيادة "دريبهر - جويت" للمعدات التقويمية في الطرف الشمالي من المدينة. وهناك رأى روبرت هرينكو، وهو متمرن شاب كان يركّب تجويفاً على قالب من الجص يحمل خطوطاً من قلم أزرق تفوق ما شاهده بيل من قبل.

ولما سأله عن ذلك، أجاب هرينكو: "انها طرق جديدة اتلقنها من مستشار لدينا اسمه ستوكوزا".

الرّهان

كانت وظيفة جان الاستشارية تدعم عمله الخاص وعمله في عيادة منتجع التزلّج، وكلاهما يعانيان صعوبات مالية دائمة. ولدى عودته الى ميشيغان عام ١٩٧٤، شعر بأنه لم يعد ذلك المهني المراعي لرغبات الآخرين كما شاءه استاذه ولتر. وراح يدعو الى ان يقضي جراحو التقويم وقتاً أطول في التدريب ويخضعوا لامتحان صارم ينالون بموجبه درجة لائقة قبل ان تحقّ لهم ممارسة المهنة. ونبه المواطنين الى خطأ القانون الذي يحدد فترة التدريب الاختصاصي بثمانية عشر شهراً، قائلا ان شروط هذه المهنة يجب الا تختلف عن شروط المهن الاخرى. كما قال ان جراحي التقويم يجب الا ينقطعوا عن حضور المؤتمرات كي يتسنى لهم استيعاب الامور المستجدة في حقلهم.

وانتقد جان "نظام التجميع" السائد في تلك المصلحة، وهذا يعني ان ينجز كل حرفيّ جزءاً من الطرف الاصطناعي، ثم تركّب هذه الاطراف لتغدو يداً او رجلا. وقال ان كل يد او رجل اصطناعية هي كيان خاصّ ينتمي الى شخص معين وينبغي ان يلائمه وينسجم مع اسلوب حياته.

وعزا جان طريقة التجميع الخاطئة الى الوكالات الحكومية وبعض شركات التأمين. فهو أدرك، من خبرته، ان هذه الوكالات والشركات تدفع ٩٠ في المئة من كلفة الاطراف الاصطناعية، وتبذل قصارى جهدها لخفض التكاليف او ابقائها على حالها. وفي حالات كثيرة، رفضت تلك المؤسسات ان تدفع ثمن المعدات المتطورة وفرضت ثمناً موحداً بغضّ النظر عن الحالات والحاجات الفردية. وأوضح جان ان هذه الخطة أجبرت اختصاصيي التقويم على اعتماد أرخص الطرق والادوات، وانتاج الاطراف الاصطناعية من دون مراعاة لكل حال بمفردها.

لكن جان دُهش عندما رأى العداوة تواجهه من كل جانب نتيجة لصراحته.

وكان قد عمل مستشاراً في عيادة تركيب الاطراف الاصطناعية لقدامى المحاربين التابعة لمستشفى آن آربور في ميشيغان. الا ان تلك المؤسسة انهت خدماته عام ١٩٧٥ بسببُ هذه الفصاحة في الكلام. وبدا له ان الاهداف التي رسمها لمهنته ما زالت بعيدة المنال.

عندما وصل جان الى عيادة "دريبهر - جويت" لممارسة عمله الاستشاري، كان بيل هناك. وكان انطباعه الاول عن جان انه صغير السن، فهو توقع ان يرى رجُلا عجوزاً.

وتولى هرينكو تعريف أحدهما بالآخر، ثم باشر جان فحص صُوَر بيل الشعاعية وجذعه ورجله

الاصطناعية. وراح بيل يسرد قصته منذ الحادث، فيما جلس جان يصغي من غير ان تبدو على وجهه اي اشارة.

وأنجز هرينكو تجويفاً اختبارياً لجدعة بيل، يمكن وصله بأجزاء الرجل الوقتية. وخطا بيل بضع خطوات وجان جالس على الارض يراقبه. وأدخل بعض التعديلات عند الركبة. وبعد عدد من الخطوات الاضافية، أُزيل التجويف. واختفى جان وقتاً قصيراً، عاد بعده يحمل تجويفاً مليئاً بالثقوب. ووُصل التجويف بالجدعة مرة أخرى، وراح جان يختبره بادخال قضيب خيزران في كل ثقب.

ودُهش بيل لما يراه، وسأل: "هل هناك أحد سواك يصنع تجاويف اختبارية؟"

ـ حتماً، هناك آخرون.

"اذاً لماذا لم أصادف أياً منهم قبل الآن؟"

ولم يجب جان عن ذاك السؤال، بل بقي يحرك التجويف من جانب الى آخر مع ادخال قضيب الخيزران في كل ثقب على حدة.

وبدأ بيل يلاحظ انه أمام شخص غير عادي. والملاحظة نفسها كونها جان عن بيل.

وانقضت ساعات قبل ان يدرك جان سبب الالم. وأخيراً تبين له ان الجدعة جُرحت جرحاً بالغاً من جراء ضغط الرجل الرديئة الصنع. وهذه الرجل جعلت بيل يمشي بطريقة خاطئة زادت الوضع خَطَراً. واضافة الى هذه العوامل، كانت هناك مشكلتان رئيسيتان.

أولى هاتين المشكلتين ان هناك فراغاً في حجم أصبع بين أسفل الجدعة وأعلى التجويف، يسبب "ضغطاً سلبياً" ويؤثر في توزيع الدم. والمشكلة الثانية ان في فخذ بيل عضلة تنحرف عن موضعها عند كل خطوة. وقدر جان ان تكون حادت عن مكانها لدى الانفجار لتلتحم من جديد في مكان آخر. وليس مستبعداً ان يكون الجراحون لاحظوا هذا الامر، لكنهم لم يدركوا أهميته التجبيرية.

وأفصح جان عن أفكاره على الغداء، وأخبر بيل ان هناك حاجة الى جراحة تقويمية. لكن جان أضاف انه لا يعرف أحداً يمكنه اجراؤها، "ولكن ينبغي ان تتم بأسرع وقت. وبعد ذلك نصنع تجويفاً جديداً. فهذه وحدها الطريقة الصحيحة".

وقال بيل: "اذاً لنبدأ". وعرض على جان ان يدفع له ضعفي ثمن الرجل الاختبارية اذا بدأ العمل فوراً. لكن جان رفض بحجة ان هناك مرضى آخرين على لائحة الانتظار.

وسأله بيل: "كم تكلف هذه الرجل، في اي حال؟"

فأجاب جان: "انها ليست للبيع". قال هذا كأنه يحذر من شيء. لكنه فهم لهفة بيل بعد ستّ سنوات من العذاب والالم. وسرعان ما انتابه الندم على جوابه الجاف، وأردف: "حسناً! سأصنع لك هذه الرجْل سريعاً. لكنّ هذا يعني ان علينا العمل ليلاً. أما الثمن فلا يتبدل".

وأجاب بيل: "لكني تعهدتُ بدفع ثمن مضاعف. واذا كنتَ لا تريد المال لنفسك، فلماذا لا تهبه لقضية تؤمن بها؟"

فابتسم جان وقال: "انني مهتم كثيراً لعيادة تخصّ منتجعاً للتزلّج، وهي تعاني ضائقة مالية".

- وما هو المبلغ الذي تحتاج اليه العيادة؟

"خمسة آلاف دولار".

- اصنع هذه الرجل في اسبوع، وأنا أعطي عيادتك هذا المبلغ اضافة الى أتعابك.

وصوّب جان نظره الى عيني بيل وقال: "موافق! لكني لن أتقاضى بدل أتعابي".

فابتسم بيل وقال: "لقد تمّ الرهان".

رجلٌ حقيقية

في اليوم التالي طار بيل الى لانسينغ في ولاية ميشيغان، حيث عيادة جان الخاصة. ووجد لافتة صغيرة خارج منزل قديم وسط المدينة تقول: "خدمات تجبيرية". وقد قسم المنزل غرفاً للصبّ والتركيب، مع مسافة واسعة بين القضبان المتوازية ومرآة ضخمة. وكان المشغل في الطبقة السفلية. وعلى رغم ان المكان كان خليطاً من المعدات، الا انه اتصف بالنظافة والرصانة.

وراح جان يصنع رجل بيل في أوقات فراغه وفي الليل بعد الدوام، كذلك في عطلة نهاية الاسبوع. وكان بيل يتكيء على عكازيه ويتبعه من مكان الى آخر في طبقتي المنزل، ويراقبه وهو يعمل ويطرح عليه الاسئلة.

وقدّم بيل صورة سلبية عن صناعة التجبير في الولايات المتحدة قائمة على خبرته الشخصية. ووافق جان على ذلك، ولكن على مضض. فهو، منذ خبرته في فلوريدا، دفع ثمناً غالياً في مقابل نقده العنيف لسوء استعمال المهنة. وها هو الآن في حضرة مريض يؤكد آراءه ويحثه على الافصاح عنها من جديد.

لكنّ جان أحسّ ان لديه واجباً للدفاع عن مهنته. ان بيل بار شخص ثريّ ومكتف، وهو لن يفعل شيئاً في هذا المجال. غير ان جان، في الوقت نفسه، قدر صراحة بيل وذكاءه والطريقة التي عالج بها ألمه.

وفي اليوم الاول أوقف جان العمل قبيل منتصف الليل، وطلب من بيل ان يربط جدعته. وبينما كان بيل يفعل ذلك بارتباك، أرشده جان الى الطريقة الصحيحة لوصل عصابتين معاً وشدهما حول خصره اولا.

وللمرة العاشرة سأله بيل: "قل لي، لماذا لم يعلمني أحد هذه الطريقة قبل الآن؟" لكن جان لم يكن مستعداً للاجابة.

وبعد اربعة أيام، خطا بيل خطواته الاولى بالرجل الجديدة التي كانت تحوي تجويفاً بلاستيكياً ملاصقاً للجدعة وركبة مائية خفيفة، فضلا عن دوّار عند الرسغ يتيح للقدم حركة جانبية. وكان هناك زرّ لتثبيت الرجل في موضعها لدى الوقوف طويلا وآخر لاعادة الحركة اليها.

لكن الرواية الحقيقية ليست الكلام، بل الفعل.

وبعد قطعه المسافة بين القضبان المتوازية، قال بيل: "انها خفيفة".

فأجابه جان: "بل هي ملائمة. والحقّ ان وزنها يفوق وزن الرجل السابقة".

وتابع بيل المشي وهو يشعر بالراحة في جدعته، وأخذ الالم يتضاءل. وانتابه شعور لا يوصف بأن



جان وبيل وطوني ودوجنا.

هذه الرجل هي الرجل التي كان ينشدها.

وتفرس جان في وجه بيل، وابتسم.

وقال له بيل: "انظر يا ستوكوزا! لا تقف هكذا. لقد زودتني برجل حقيقية. فلماذا لا تطلب مني أن أرقص؟ لماذا لا تقترب وتعانقني؟ لماذا لا تتحرك؟"

ذلك المساء عاد بيل الى الفندق وخابر ابنه طوني. وكان جان نبهه الى انه ربما لم يستطع فعل شيء بالنسبة الى ابنه، لكن بيل أيقن ان ذلك مستطاع على يد جان.

وأصغى طوني طويلا ثم قال: "يبدو انه كُتب لي الا أعود الى حياتي السابقة".

وبقي بيل في لانسينغ لاجراء تعديلات طفيفة على رجله. وذات ليلة كان يجلس مع جان في المشغل وهو يأكل قطعة بيتزا فضلت عنه. وخاطب جان قائلا: "أتدري يا ستوكوزا أنك أفضل مجبر في الولايات المتحدة؟ لكن الطعام هنا رديء".

وقال جان بلهجة جدية: "في ودي، يا بيل، ان أبدأ الاجابة عن تساؤلاتك السابقة".

وانقضت ساعات وهما يبحثان في موضوع الجراحة التقويمية والتجبير، بما في ذلك التدريب والشهادات والاطباء ومعنى ذلك كله للمرضى. وللمرة الاولى، بدأ بيل يدرك الاسباب الكاملة التي حرمته العثور على مساعدة حقة من قبل.

الانتصار الآخَر

صباح يوم سبت من نوفمبر (تشرين الثاني)، كان جان وبيل ودوجنا في السيارة متوجهين لاستقبال طوني في مطار اوهار الدولي في شيكاغو. وكانت هناك خشية مكتومة بالنسبة الى احتمال عَدَم مجيئه.

لقد ظل طوني مشككاً حيال قدرة جان على مساعدته. وكان عوّد نفسه اراحة قدمه اليسرى اطول وقت ممكن بعدم استخدامها. فهو تولى ادارة عمله العقاري من مكتبه وسيارته، دونما تفكير كبير في الهبوط المظلي. الا ان بيل وجد في ذلك الاسلوب هرباً من مواجهة الواقع، لا تكيّفاً معه. واراد ان يحمل طوني سريعاً على ابدال قدمه الاصطناعية، حتى اذا نجحت تلك المحاولة كانت انتصاراً للأب، لا للابن.

وكان بيل كلم ابنه بوضوح قائلا: "اظن أنه في امكان ستوكوزا مساعدتك. وسأحدد لك موعداً لمقابلته، ولكن لا تأتِ من أجلي. وان تكن لا تريد المجيء من تلقائك، فلا تأت على الاطلاق".

وأثار هذا الكلام الغيظ في نفس طوني - على والده أولا، وعلى نفسه ثانياً، وعلى الأطباء والمجبرين اخيراً. ذلك ان كلمات بيل كسرت قوقعته ومنحته الأمل من جديد.

وارتعشت ركبتا الشاب وهو يمشي قفزاً على ارض المطار، وظهر الألم في وجهه. وحياه بيل ودوجنا بحرارة، واطلقا بعضاً من قلقهما الحبيس عليه.

واستمع جان الى قصة طوني الكاملة خلال الغداء في منزل آل بار. ثم تفحص الأقدام الست التي صُنعت له، وأجال نظره في الصور بالأشعة.

وسأله جان: "هل لي ان أنظر الى قدمك الآن؟"

وما ان فعل حتى اتضح له الأمر. فمن أجل تسطيح الجدعة، ينبغي رفع مقدّمها الملتوي من غير التسبب في انحراف جانبي عند الرسغ أو الركبة. وهذه مسألة صعبة ودقيقة.

وسأله جان: "أأنت ضدّ الجراحة التعديلية كلياً؟"

فهز طوني رأسه. وانقضت عشرون دقيقة قبل ان يقول جان: "اني مستعد لاجراء العملية، لكني لا اضمن النتيجة. ذلك ان ما يجول في ذهني لم افعله قَطّ من قبل".

وصمت طوني هنيهة، ثم هز رأسه بالايجاب. وفي ذلك المساء توجه هو وجان الى لانسينغ.

وأمضى جان أكثر من اسبوع لانجاز القدم الاصطناعية الجديدة. وكانت عبارة عن غلاف بلاستيكي خفيف يلف قدمه ويرتفع قريباً من ركبته. وهذا يرفع جدعته ويتيح له خطوة طبيعية. أما الصعوبة التي تكلم عنها جان فكانت متعلقة بمسائل فيزيائية تتناول العلاقات بين الأجزاء والضغوط الأفقية والعمودية والدائرية. وبعد انجاز العمل، وجه جان شكراً صامتاً الى ولتر الذي لقنه رياضيات التشريح.

وخابر بيل وقال له: "أظن أننا نجحنا".

وصرخ بيل: "ما معنى هذا؟"

فأجاب جان: "معناه ان طوني عاد الى الحركة الطبيعية من جديد و..."

لكن بيل قاطعه بقوله: "أين طوني؟"

- انه يركض خارجاً في موقف السيارات.

"يركض؟ أنت تجعلني أتكلم كأحمق يا ستوكوزا. لكني احبك".

واستقل طوني الطائرة الصباحية الى شيكاغو. وراح يمشي على أرض

المطار بخطى واثقة. ولدى مروره أمام كشك الصحف، تذكر اليوم الذي مرّ في ذلك المكان عينه ـ كأنما كان قبل دهر ـ وكانت العناوين تدور على حادث الانفجار الذي تعرّض له والده وتقول ان بيل بار على وشك الوفاة. وفجأة عاد الى الحاضر ووجد والده يطوقه بذراعيه. ووقف الاثنان يبكيان فرحاً.

ومع حلول العام ١٩٧٧، كان طوني استأنف القفز المظلي في عطل نهاية الاسبوع. وكان يسقط على قدميه الاثنتين من غير ان يشعر بالألم. وأمكنه ان يركض كما كان يفعل من قبل، وان يلعب كرة المضرب ايضاً.

في حياة بيل أيضاً بدأت مرحلة جديدة. فالألم توقف عن كونه محور حياته. وراح هو ودوجنا يصممان منزلا جديداً ويقضيان وقتاً أطول مع الأنسباء والأصدقاء؛ وعرف ان لغز الانفجار سوف يبقى من غير حل، لكنه لم يكترث لذلك.

أما اللغز الذي شغله حقاً فكان الآتي: لماذا استغرق صنع رجل ملائمة له ست سنوات؟ لماذا تعذب طوني طويلا وهو في غنى عن ذلك؟

وجاء فبراير (شباط) ١٩٧٧. وكان بيل يجلس قبالة جان في أحد مطاعم لانسينغ الأنيقة ويعبر عن افكاره بصوت عال: "بعض الأطباء يكتفي بقطع الأرجل والايدي من غير ان يعرف أبسط مبادىء التجبير. والحقّ

ان عملية البتر التي يقوم بها الطبيب هي التي ترسم للمجبر عمله. ومن ناحية اخرى، نجد مجبرين يجهلون التسهيلات المتوافرة لهم. والنتيجة، في النهاية، يتحملها المرضى".

وأضاف جان: "ثمة حاجة الى المزيد من الثقافة والتمرين، لكن هذا وقف على عيادات التجبير. فالتجبير مهنة مستقلة، وصناعة الادوات التقويمية عمل آخر. أما وظيفة المعالج الفيزيائي فتقع في الوسط. فكيف يمكنه انجاز عمله كما يجب اذا كان الطبيب والمجبر لا ينجزان عملهما على خير وجه؟"

ودعا جان الى امتحان متشدد يقوم به طرف ثالث، ويقرر على أثره منح شهادة وترخيص كما هي الحال في حقول العناية الصحية الاخرى. فهذه المقاييس الصارمة ترفع شأن المهنة وتجتذب ذوي المواهب والالتزام. وهكذا تزول المقاييس التجارية والنفعية ويغدو التجبير مهنة مترابطة الاجزاء تعتمد افضل ما توصلت اليه التكنولوجيا.

وراح بيل يرسم تشريعاً للمهنة بالنسبة الى ولايته ايلينوي، مقترحاً ان يصير ذلك نموذجاً تحتذيه بقية الولايات. وأضاف: "هذا مشروع للمستقبل، لأن اقرار القوانين يستغرق وقتاً طويلاً. ولكن علينا ان نفعل شيئاً الآن وفي نيتي انشاء مؤسسة غير تجارية لمعالجة المرضى واجراء الابحاث وتدريب المجبرين".

– لكن البناء وحده يكلف مليون دولار يا بيل.

"ولم لا؟"

عندئذ قال جان: "ليت والدي هنا". وطفحت عيناه بالدمع.

وفي مارس (آذار) ١٩٧٨، فتح "معهد تقدم الجراحة التقويمية" أبوابه في لانسينغ، كواحد من احدث المؤسسات من نوعه في العالم وأفضلها تجهيزاً. وتولى جان ستوكوزا ادارة المعهد وبيل بار رئاسة مجلس الادارة. وفي سنته الاولى، عالج المعهد نحو ٣٠٠ مريض من الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وانكلترا. كما تلقى طلبات من الشرق الاوسط والاتحاد السوفييتي وأماكن اخرى.

وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩، التقى جان وبيل في ميامي (ولاية فلوريدا) ممثلين عن الجمعية الامريكية لجراحة التقويم ومعداتها. وعلى أثر ذلك الاجتماع، تبنت الجمعية قراراً يدعو كل ولاية الى فرض شروط لائقة بالنسبة الى ممارسة المهنة.

ثم انطلق جان وبيل يبحثان جدياً عن جراح ينجز الجراحة التعديلية على جدعة بيل. وكانت تقف دون ذلك عقبات جمّة. فالجراحة التي ارتأى جان ضرورتها أنجزت في المجر عام ١٩٢٠ على يد الدكتور جون ايرتل. لكنه لم يسمع أن احداً أنجز مثلها في الولايات المتحدة.

وصادف ان مريضاً من ايلينوي قصد الى المعهد في اكتوبر (تشرين الاول) وفي يده وصفة تحمل اسم جون ايرتل... ايحتمل ان يكون في الامر سخرية يديرها احدهم؟ واذا كان ايرتل في العشرينات من عمره عندما حقق عمله الرائد، فهو اليوم تجاوز الثمانين ان كان حياً على الاطلاق. ثم

طرأت فكرة على رأس جان: يجب ان يكون هذا احد أبناء ايرتل!

والواقع أنه كان للطبيب المجري ابنان: جون الابن ووليم، والاثنان تدربا على والدهما في المجر. وهاجر الثلاثة الى الولايات المتحدة عام ١٩٥١، لكن جون ايرتل الأب لقي حتفه بعد ستة أسابيع. وأقام ولداه عيادة في هينسديل (ايلينوي)، يستغرق الوصول اليها نحو ساعة.

وقصد اليهما بيل حالا. ونشأت الفة فورية بينه وبينهما. ولم يترددا في الموافقة على اجراء البتر من فوق الركبة واعادة تكوين الجدعة حسب طريقة ايرتل. وفي نوفمبر (تشرين الثاني)، دخل بيل مستشفى في هينسديل وتبعه جان ستوكوزا الى غرفة العمليات. وتكللت العملية بالنجاح، وبعد أيام تضاءل الألم.

أما اليوم فان بيل أكثر اندفاعاً وتعلقاً بالحياة من اي وقت مضى، كما يقول اصدقاؤه. وهم يسمون ما حدث له معجزة. الا ان بيل بار عرف جيداً من يستأهل الشكر بالاضافة الى جان. وقبل وقت ليس ببعيد، أوصى بنحت تمثال نصفي من البرونز يمثل ولتر ستوكوزا، ووضعه في بهو المعهد وتحته لوحة تحمل الآتي:

"ولتر ج. ستوكوزا كرّس حياته، على نحو لم يسبق له مثيل، لقضية الجراحة التقويمية. وهو نَشَد الكمال في جوانب مهنته التي مارسها. وكان مجبراً وباحثاً في آن. مات في العام ١٩٧١ على أثر تنشّقه الدخان المنبعث من احد المصاهر في مختبره. وان معهد تقدّم الجراحة التقويمية يكرّس وجوده لذكراه".

■ لي ويبل



اذا شئت عيادة مريض، فأول ما يجب حمله اليه هو الحديث الجميل.

ج.ب.

درس في علم الامراض

كان استاذ علم الامراض استهلّ محاضرته حين دخل طالب متأخر القاعة الكبيرة على نحو مزعج، اذ كان يمتطي دراجته الهوائية. وتقدم حتى بلغ المنصة، وهناك أوقف الدراجة بهدوء الى جانب الحائط وسار الى مؤخر القاعة حيث جلس على المقعد الخلفي وأخذ يضع أغراضه على الطاولة أمامه.

ومن غير أن يتفوه بكلمة، أخذ الاستاذ قطعة طبشور وكتب على اللوح موضوع المحاضرة: "التجلّط الدموي". ثم استدار نحو الطلاب وقال: "كما رأيتم، الجلطة تنتقل من مكان الى آخر بطرق مختلفة".

ب.ب.

كتاب الشهر

حيث تحلق النسور



ملخص من كتاب بقلم دان سترو

المحومّين. وفجأة طوى الذكر جناحيه وأطبق على صقر أحمر الذنب يسبح تحته في الهواء عبر حافة الوادي.

وذكرني انقضاض النسر بحادث وقع لي عندما كنت صبياً في المدرسة الابتدائية. فقد حملت ذات عصر طيارة الورق التي صنعتها بنفسي وأطلقت لها العنان. وما أن حلقت عالياً حتى هوى عليها نسر وأنشب أظافره في خشبها وورقها. ودهش أترابي وجيراني وأمي لما حصل، أما أنا فبت شغوفاً بتحري طبائع النسور. ولكن بعد ثلاثة أيام رجعت عائلتنا من الريف الى المدينة.

والآن، ها هو ذا النسر السابح فوق حافة الوادي ينشب براثنه في ريش الصقر الاحمر. الا ان الصقر تملص منه برشاقة وغير طريقه صعداً. وبعد محاولة يائسة للحاق به، حول النسر خطه هو الآخر واتجه نحو الانثى.

ونظرت الى حيث كانت الظباء، فاذا بها غابت عن مرمى البصر. عندئذ تأهبت للعودة الى المكان الذي تقوم فيه ادارة مزرعة كاري. وانعطفت في طريق جبلي متعرج، هو واحد من خمسة طرق يكاد فيها جدار الوادي وأرضه يصبحان واحداً. والطريق هذا مكسو بالجلاميد التي يبلغ الواحد منها حجم سيارة، كذلك بأشجار الصنوبر والشوح والسنديان والاجمات القصيرة والاعشاب. وأدركت، وأنا ألج تلك الارض العذراء، أن حبي لها خلال الاسبوعين الاخيرين بلغ حداً كبيراً. انها أرض من الحرية اللامحدودة والجمال الصاخب.

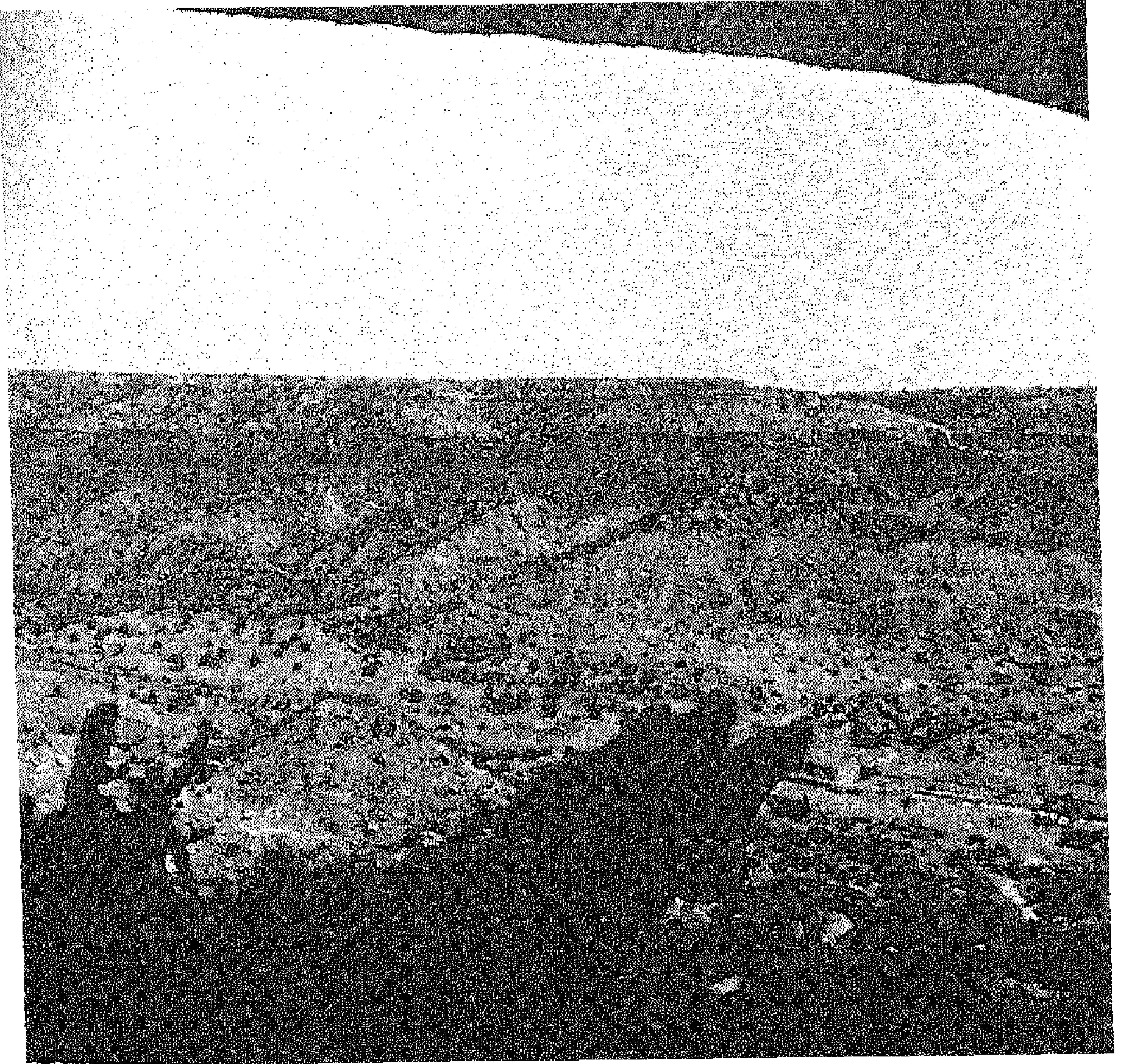
وعندما بلغت منزل المزرعة الرئيسي ذا الطبقة الواحدة والمشيد بالحجر سمعت هاتفي يرن. وكان على الخط الآخر دوغلاس غرايسون ذو التسعة عشر عاماً، من بلدة وايت دير في ولاية تكساس التي تبعد ٦٩ كيلومتراً شمال شرق اماريلو. وكنت قد سمعت باسمه خلال أسفاري عبر لسان تكساس، كخبير في الصيد بالصقور. ولهذا السبب نفرت منه على رغم أننا لم نتلاقَ البتة. فقد كنت أمقت الاعتداد بالنفس الذي يستمده الصائدون بالصقور من رياضتهم، وهي تقوم على تحويل غريزة تلك الطيور المفترسة عن طبيعتها وتوجيهها الى القتل كغاية في ذاته.

وقال دوغلاس، على الهاتف، انه معجب ببرنامجي التلفزيوني عن الطبيعة. وأضاف أنه يخابرني في صدد أمر معين. فهو على وشك الالتحاق بالخدمة العسكرية ويود أن يعرف ما اذا كنت على استعداد لمساعدته كي يطلق النسر الذي يقتنيه ويعيده الى الاجواء الفسيحة.

وأثار طلبه اهتمامي. وجلست ذلك المساء أتأمل في الفرصة التي سنحت لي كي أكتشف النسور بعدما تجاوزت السادسة والاربعين من عمري.

أساليب النسور

ما أن صافحت دوغلاس صباح اليوم التالي حتى أيقنت أني أسأت الحكم عليه. فهو كان شاباً حيياً، مهذباً، قريباً الى القلب، ذا عينين زرقاوين وشعر أشقر. ومن دون اضاعة وقت، سألني: "أتحب أن تتعرف الى نسري ساندوز؟"



مشهد لوادي بالو دورو من وكر النسور.

وطوق يده بقفاز جلدي محكم، ثم وضع وقاء من فرو الخروف يصل معصمه بمفصل ذراعه. ووضع النسر المغمى برفق على ظاهر يده. وبعدئذ راح يتكلم اليه بصوت مهدىء ويقيد أصابعه بخيوط جلدية.

ولما تأكد من حسن ما صنع، انتزع دوغلاس الغماء برشاقة عن النسر. فهز ساندوز رأسه وأخذ ينظر حوله. وكانت عيناه اليقظتان تلتمعان كالذهب الضارب الى الحمرة، يتوسطهما بؤبؤان أسودان.

وخاطبه دوغلاس قائلا: "أترى شيئاً هناك؟" وأشار الي وأضاف: "ان عينيه أقوى من أعيننا بمقدار ضعفين الى أربعة أضعاف".

وحمله دوغلاس عالياً. فوقف ساندوز ناشراً جناحين جليلين هما من آيات الطبيعة حقاً. وقلت: "يا للروعة! كم هي المسافة بين

جناحيه؟" فأجاب دوغلاس: "أنها ١٨٨ سنتيمتراً". وأنزل يده وجثا أرضاً، ثم وضع ذراعه على ركبته.

ـ وما هو وزنه؟

"انه يزن ٣٠٥٠ غراماً. وأنا أحرص على ابقاء وزنه ثابتاً لكي يبقى صالحاً للصيد. لكني أود اطلاقه. فهل لديك وقت لمساعدتي؟"

فهززت رأسي ايجاباً. وأخبرت دوغلاس، ونحن في طريقنا عبر الشعاب، عن النسرين اللذين شاهدتهما يوم أمس يصطادان، وسألته عن المسافة التي يجدر أن تفصلنا عن حافة الوادي كي نتجنبهما. فقال: "لقد بينت الدراسات في مراعي مونتانا أن الذكر وانثاه من فصيلة النسور الذهبية يحومان ضمن مساحة تبلغ ٣٦ كيلومتراً مربعاً".

وكانت تفصلنا عن حافة الوادي خمسة كيلومترات عندما شاهدنا أرنباً أبيض الذيل يقفز من العشب عند نبتة مسكيت شائكة. وأوقفنا السيارة بهدوء ومشينا نحو الاجمة. وما أن فر الارنب خارجاً حتى اطلق دوغلاس النسر. وكانت أربطة ساندوز تمتد في خط مستقيم وهو يزيد سرعة. وبدا أنه ينحرف قليلا الى يمين الارنب كيما يرغمه على تحويل اتجاهه الى اليسار. وأصبح ساندوز على مسافة ملائمة للانقضاض وهو لم يزل مائلا يميناً. لكنه، في أقل من لمحة بصر، حول مسراه الى اليسار. وانحرف الارنب يساراً حتى بات في متناوله. بعد ذلك تم الهجوم بسهولة، وأعجبت بخطة ساندوز البارعة.

وعندما دنونا من النسر، أخرج دوغلاس قطعة لحم من جعبته، وراح يتكلم برفق اليه ويغريه بقطعة اللحم لتحويل انتباهه اليه. وفي الوقت نفسه وضع يده المطوقة تحت النسر. وألقمه اللحم وهو يحكم ربط قيوده ويرفع براثنه عن الضحية ليضعها على القفاز.

في قبضة النسر

لدى عودتنا الى المزرعة، وضع دوغلاس النسر في حظيرة للدجاج، رحنا نغطيها للحماية. وقرر أن تكون تلك الحظيرة مكاناً انتقالياً بالنسبة الى ساندوز قبل اعتاقه.

ووقف النسر ينظر الى ما حوله، وبدا مهتماً لحافة الجبل وراءنا. واستدار دوغلاس نحوي وقال: "هل أترك لك قفازي ووقاء ذراعي؟ فمن المتوقع أن يأتي ساندوز اليك في الايام المقبلة".

وقلت لنفسي: "ولمَ لا؟" وعلى رغم أني لم اشأ أن اصبح صائداً بالصقور، الا أنني لم أمانع في التظاهر بهذا الامر خلال يوم أو اثنين من حياتي.

وأضاف دوغلاس: "سأريك طريقة استخدام هاتين الدرعين".

ولبست القفاز والوقاء. وأعطاني دوغلاس قطعة لحم وعلمني أن اغوي بها النسر. وهكذا حط ساندوز على ظاهر يدي ولامس جانحه خدي. وأسرع دوغلاس الى ربط قيود النسر بموضع أصابعي من القفاز. وحذرني قائلا: "أحكم ربط قيوده قبل ان يتحكم به ويؤذيك".

وكانت كتف ساندوز البنية قريبة من كتفي، وبدا أن منقاره المغمى

يكاد يلاصق عيني. وقال دوغلاس: "لا تخشَ هذا المنقار، فهو لا يستخدمه سلاحاً الا عندما يلتهم ما تحمله براثنه". وأشار بيده الى براثن النسر وأضاف: "هذا مصدر قوته الذي يجعل منقاره قوياً أيضاً. ويكفي أن ينشب هذه البراثن في احدى أصابعي ليفصلها كليا عن يدي".

وشعرت بثقل ساندوز على يدي. فتوجهت نحو قائمة باقية من جذع شجرة وجعلته ينتقل اليها برفق، وهي مجثمه العادي.

وسألت دوغلاس: "كم مرة يجب أن أطعمه كل يوم؟"

فابتسم وأجاب: "انه يأكل أرنباً قطني الذنب أو نصف أرنب طويل القوائم كل ست وثلاثين ساعة. ولا بد، وأنت تذهب الى البلدة أو تعود منها، من أن يقع نظرك على أرانب قضت تحت عجلات السيارات. وسوف تجد، وأنت تلتقط هذه الارانب، أن الناس ينظرون اليك باستغراب، لكنك لن تلبث أن تعتاد ذلك".

وابتعد دوغلاس بسرعة عن حظيرة الدجاج. وخلته، وهو يعدو نحو سيارته، مثل أم تأخذ ولدها البكر الى المدرسة لليوم الاول.

وأثار ساندوز اهتمام النسور في الجوار عصر ذلك اليوم. وراحت ذوات الاجنحة المفترسة تناديه باهتياج، وجثم أحدها أرضاً بالقرب من حظيرته. ورحت أصور لنفسي الاستقبال الذي سيلقاه لدى اطلاقه الى الجواء الفسيحة.

وقطعت، عصر الاثنين، مقداراً صغيراً من اللحم النيء، ووضعت القفاز والوقاء في يدي وخرجت لترويض ساندوز. وللحال قفز الي وقد أغراه اللحم. ورحت أعقد قيوده بأصابعي وأنا ألقمه الطعام، ولكن من غير أن احكم العقد. وبعدما أكل، بدا أنه يود العودة الى مجثمه. فحررت قيوده فطار.

وفي ذلك المساء، لدى رجوعي من برنامج الساعة العاشرة الذي أقدمه على التلفزيون، وجدت أرنباً قطني الذيل قتل لتوه. وفرحت كطفل يعثر على شيء يحبه. وحملت الارنب وعدت به الى المزرعة.

ولما جاء صباح الثلثاء، مثلت دور المروض مرة اخرى. لكن ساندوز بدا، هذه المرة، أقل اهتماماً بالمجيء الي. وظننت ذلك دليلا على حسن سير الامور. واتضح في اليوم التالي أنه بات أقل اهتماماً.

ثم جاء يوم الخميس. وكان الجو حاراً، فارتديت قميصاً بكمين قصيرين. ووقفت خارج حظيرة الدجاج ووضعت القفاز والوقاء في يدي اليسرى، وحملت قطعة لحم نيء بيدي اليمنى الطليقة ودخلت الحظيرة. وبدا ساندوز مغتاظاً، فمددت يدي نحوه من غير تفكير كبير في الامر. وأجفل فجأة، فرحت ألاطفه. لكن تملقي لم يجدِ فبقي النسر على مجثمه. عندئذ رفعت يدي اليمنى ملوحاً بقطعة اللحم. وأبدى اهتماماً فاتراً وهو في مكانه. وأخذت قطعة اللحم بين سبابتي المغلفة بالجلد وابهامي، وكنت أفعل ذلك للمرة الاولى. وللحال قفز النسر الى يدي اليسرى المطوقة.

وسعيت الى ربط قيوده، لكنها كانت عالقة تحت قدمه اليمنى. وقبل

أن تصل أصابعي الى قدمه اليسرى، كان قد التهم قطعة اللحم وراح يتفرس في القفاز الملطخ بالدم. وأنشب براثنه في وقاء ذراعي وضرب الجلد الذي يغطي ابهامي بمنقاره. وهززت ذراعي بخفة وهمست في أذنه: "لا تفعل هذا ياساندوز". وجعله ارتجاف يدي ينقل براثنه الى معصمي ويتشبث به كأنما يريد قتلي. وللحال ادركت أني لم أحسن التصرف.

وأصابني الم حاد في معصمي، وصعد العرق الى جبهتي كبيراً كحبات البرد، وشعرت بالهشاشة في فمي وحلقي. ورفعت ذراعي في محاولة يائسة للتملص من ساندوز. وللحال غرز قدمه اليمنى في ذراعي العارية فوق الوقاء وراحت براثنه تحفر في لحمي. فجمدت في مكاني هنيهة وقد أحالني الهلع يباساً. وأرخى النسر قبضته قليلا وشق القفاز المدمى بمنقاره. وأطبقت أصابعي بشدة، فأعاد الضغط على معصمي وذراعي وهو يريد أن يصيب مني مقتلا.

وكنت، اذا حركت ذراعي، حاول ساندوز أن "يقتله" ظنا انه طريدة. أما اذا أبقيته بلا حراك، فكان يفترضه "ميتاً" ويحاول التهامه. وراودني شعور بأني عاجز وأحمق. ثم فكرت في استخدام يدي الاخرى لاقصيه عني، ولم ألبث أن تذكرت أنها عارية. وقلت لنفسي: "آه لو كان لدي شيء يشغله عني". وفجأة التمعت في ذهني فكرة.

ومددت يدي اليمنى الطليقة الى جيب صغير في سروالي وتناولت منه منديلا أبيض. ولوحت بالمنديل ثم رميته بعيداً داخل الحظيرة. وفي اللحظة ذاتها طار النسر عن ذراعي وأجهز على المنديل. أما أنا فهرعت خارجاً وأقفلت باب الحظيرة. ثم اتكأت على السياج ورحت ارتجف. وبعد قليل تفحصت ذراعي، فوجدت بقعتين حمراوين مثلمتين تعلوان مرفقي. لكن الجلد، لحسن الحظ، لم يكن معطوباً. ونظرت الى النسر وقلت له: "لقد ولت أيام الترويض يا ساندوز". ومنذ تلك اللحظة وجهت اهتمامي الى نسور الوادي البرية.

وكر النسور

من أجل مراقبة النسر وانثاه اللذين كانا في منطقتي، كان علي اتخاذ نقطة ملائمة في ذلك الجزء من وادي بالو دورو الذي جعلاه مرعى ومرتعاً لهما. وعلقت منظاري بعنقي وانحدرت الى الوادي. وعند مسافة ٢٥٠٠ متر من منزلي، شاهدت تلة صخرية مرصعة بأشجار العرعر، وهي ترتفع جنوب الساقية حتى نصف حافة الوادي. ومن قمة التلة شاهدت منظراً بديعاً للوادي يمتد ثلاثة كيلومترات نحو أعلى الساقية وثمانية كيلومترات في اتجاه مجراها. وأخذت معي لوح خشب للجلوس عليه وأنا أنتظر. الا أن انتظاري لم يدم طويلا.

لم أشاهد، أول الامر، سوى النسر الذكر يأتي من علو ١٥ متراً فوق حافة الوادي. ورفعت منظاري فرأيت النسر قابضاً على أرنب قطني الذيل. وفي أقصى المنظار لاحت لي الانثى. وتلاقى النسران وحلقا عالياً في الفضاء. وعلى علو قرابة تسعين متراً، تضاءلت بينهما المسافة حتى تلاصقت رؤوس أجنحتهما. وتناولت

الانثى الارنب بين براثنها بخفة واستدارت نحو الوادي٠

وحلقت فوق الناحية اليسرى من ثغر مضيق متفرع من الوادي٠وما أن أصبحت على بعد امتار من صخر ناتيء من ثغر المضيق حتى حطت٠ ووضعت المنظار جيداً فوق عيني لارى انثى النسر واقفة على كومة من القضبان التـي جمعتهـا عـنـد كوة رمادية الجدران داخل صخرة٠ وكان عرض الكوة مترين وارتفاعها متراً٠

وأزحت المـنظار ووقفـت أعايـن طريقاً من شأنها ان تفضي بي الى مكان ملائـم لمراقـبة الـوكر وبنـاء قاعدة محجوبة للتصوير٠ ومن أجل بلوغ ذلك المكان، كان علي العودة الى المنزل والذهاب بالسيارة نحو الحافة الجنوبية للوادي٠ وهكذا كان٠ وعندمـا شارفـت المضيـق، أوقفـت السيارة بعيداً عن الهاوية، ورحت أبحث عن مكان أعبر منه٠ وبعد قليل وجدت شعباً ضيقاً اخترقته بحذر الى الجانب الآخر وتابعت طريقي في اتجاه الوكر٠ وأخيراً توقفت عند شجرة أرز ضخمة وجدت فيها مكمني المنشود٠ وحملت منظاري ووضعته في فتحة بين أغصان الشجرة٠

ورأيت انثـى النسـر جاثـمة فـي وكرها٠ وكان عرض العش المبني بالقضبان يبلغ مترين وعمقه متراً اما كثافته فكانت نصف متر٠ ورأيت الارنب ممدداً في ناحية من العش، وبت متشوقاً لاعرف عدد الفراخ التي كانت تستريح تحت دفء جناحيها٠ ونظرت الى ساعة يدي٠ وبعد ربع ساعة حط الذكر وأخذ يجيل رأسه في هذه الناحية وتلك٠ ثم نهض وطار٠

ولما وصل الى حافة الوادي، ارتفع فوقها نحواً من ١٥ متراً،وراح يحـوم فوق شجرة أرز نصف بالغة ومدورة القمة٠ وغاص بثقله ضمن فروعها العليا اللدنة، ثم فتح منقاره وأطبقه على عسلوج لا يتجاوز طوله العشرين سنتيمتراً٠ وعاد الى الوكر ليلقي ذاك الغصن الصغير أمام أنثاه٠ وحلق من جديد وقد أكمل مهمته٠

في تلك اللحظة أطلقت على النسر الذكر اسم "السير غالاهاد"٠ ورحت أتساءل عن الغاية التي حمل العسلوج من أجلها، لكني لم أحصل على جواب من الانثى التي بقيت بلا حراك، مكتفية باغماضة قصيرة٠

وكنت على وشك مغادرة المكان في الثانية والنصف عصراً عندما برز رأسـان مـن تحـت الانثـى وأخـذا يضغطان على ريش صدرها٠ وأمكنني أن أسمع زقاء خافتاً ينبعث منهما٠ ورفع أحـد الفرخيـن رأسه بـمشـقة وأطلق صوتاً ضعيفاً٠ أما رأس الفرخ الآخر فكان أكثر ثباتاً وصوته أقوى٠ وتقدمت الام نحو الارنب وانتزعت الفرو عن صدره٠ وغرزت منقارها في قفصه الصدري واستخرجت منه قطعة لحم صغيرة مغلفة بالدم٠

ورفع الفرخ الاكبر والاقوى رأسه عالياً وهو واثق من نفسه٠ أما الصغير فكان رأسه يـتأرجح ولا يسـتـقـر٠ والتهم الفرخ الكبير الطعام من منقار أمه وازدرده، فيما ضرب الصغير رأسه بأرض العش وهو يزقو٠

وتابع الفرخ الاكبر التهام الطعام حتى أتى على القطع السبع اللاحـقة، مما أسفر عن انتفاخ حوصلته٠ وبدا أنه شبع، فعاد الى العش التماساً

للدفء. لكن الفرخ الصغير، الذي سبقه الى هناك، لم يستطع ابقاء رأسه مرفوعاً. وانحنت امه عليه وأعطته لقمة صغيرة. فأخذ يهز رأسه من جانب الى آخر وهو يحاول عبثاً اخذ الطعام. ولما أفلح، بعد لأي، في تناول تلك اللقمة حملت الام قطعة صغيرة من كبد الارنب ومدتها اليه بمنقارها. ورفع الفرخ الاكبر رأسه وهو يراقب ما يجري.

وابتلع الصغير القطعة وتابع الزقو، فيما رفع الكبير رأسه أكثر فأكثر. وتناولت الام قطعة اخرى من الارنب ومدتها نحو فرخها الصغير. لكن الكبير بقي يرفع رأسه، ثم طرف عينه قبل أن يضرب عين أخيه بمنقاره. وراح هذا يصيح والدم يسيل من تحت جفنه.

وأخذت الام قطعة اخرى بمنقارها، فالتفت الفرخان اليها. لكن الاكبر التهمها وقبض عليها من غير أن يأكلها. وأبقى منقاره مطبقاً عليها وهو يرفع رأسه. ثم تمدد وسط العش طلباً للدفء، ولم تزل قطعة اللحم في منقاره. وكان الصغير قد ارتمى وسط العش كأنما لم يعد في وسعه الوقوف. وهكذا أعادت الام النظام الى بيتها الذي بدا هادئاً من جديد.

ورحت، وأنا أقود سيارتي عبر المراعي، افكر في حلول ممكنة لمحنة الفرخ الاصغر، ومنها حمله خارج العش أو تشذيب منقار أخيه.

ولما بلغت المنزل، حلقت ذقني وارتديت الملابس الملائمة لبرنامجي التلفزيوني. ورن الهاتف وأنا أهم بالانصراف. وعلى الخط الآخر كان دوغلاس الذي قال: "لقد حان الوقت، يا دان، لاطلاق ساندوز... أراك صباحاً".

الحرية

بعد تقديم برنامجي، عدت الى المزرعة وبدلت ثيابي. ثم أتيت بحقيبة الظهر وملأتها بالمعدات، وبينها معزقة لقلب التراب ورفش ومنجل ومقص وكماشة وبعض الاسلاك وكيسان من الخيش. وكان الليل شارف الانتصاف عندما ركبت السيارة نحو مضيق الوادي لاقامة حجرة مستوردة للمراقبة والتصوير.

واخترت شجرة أرز قبالة العش لابني عندها حجرتي. ومددت ألواحاً على الارض ودليت الاسلاك من بعض الاغصان الخفيضة، فأصبحت هيكلا اعلق به كيسي القنب، وقطعت أغصاناً من أشجار مجاورة جعلتها سقيفة للحجرة. وقطعت شقاً أفقياً في الخيش ليكون منفذاً لآلة التصوير. واستخدمت مقصاً كبيراً حفرت به قناة داخل الشجرة طولها ١٥ سنتيمتراً، تمتد مباشرة نحو وكر النسور.

وكان الصباح التالي غائماً، ولكن دافئاً. ووقفت أغسل الاواني المطبخية عندما دخل دوغلاس علي. وأخبرته عن وكر النسور الذي وجدته وعن الفرخين داخله. فعبر عن رغبته في أن يراه.

وأخذت دوغلاس الى الحجرة التي أقمتها، وجهزت آلة التصوير، ثم أعنته على قطع شق آخر في الخيش. وما أن انتهينا حتى عادت الام الى الوكر. وأفاق الفرخ الاصغر ورفع رأسه عالياً وهو يزقو، فيما أخذت أمه



الفرخ الذكر يستريح واخته ترمق آلة التصوير بحذر٠

تطعمه دونما تردد٠ وبعد اللقمة الثالثة أفاق الفرخ الاكبر ودنا من أمه ليلتهم اللقمات الثماني التالية٠ وشعر بالامتلاء، فتوجه الى وسط العش وخفض رأسه٠ لكنه أبقى عينيه مفتوحتين ووقف يراقب٠ وأطعمت الام صغيرها لقمتين اخريين٠ وعندما أخذ اللقمة الثالثة، هجم عليه أخوه وعضه عضة كبيرة، مقتلعاً زغبه٠ وزعق المسكين زعقات متكررة٠

عندئذ انبرى دوغلاس قائلا: "هذه الظاهرة تعترف بالصراع بين قايين (قابيل) وهابيل٠ واذا كان الاكبر، أي قايين، ذكراً، والاصغر انثى، فالراجح أن هذه ستكتسب قوة مساوية له٠ أما اذا كان الامر نقيض ذلك، فينتظر أن يموت الفرخ الاصغر، أي هابيل، في خلال يومين، متأثراً بجروحه وبسوء التغذية"٠

ـ ولماذا لا تأخذ الفرخ الصغير خارج العش؟

"ان هذا يشكل خرقاً للقانون، وغرامته مقدارها خمسة آلاف دولار"٠

ونظرت الى العش وقلت: "لكن القانون هذا ليس في مصلحة النسور"٠ وقررت، في تلك اللحظة، أن أفعل شيئاً من أجل هابيل٠

ورجعنا الى المزرعة، وأطعمنا ساندوز ارنباً قطنياً قتل على قارعة

الطريق. وهز دوغلاس رأسه وهو يقول بأسى: "لقد حان وقت اطلاقه".

وحمل النسر، وهو يصفق بجناحيه، رأساً على عقب وأخرج من جيبه قطعة المنيوم مرقمة وكماشة. وأعنته على ربط السوار بكاحل الطائر. ثم قصصنا بعض الريش من وسط ذنبه ووضعناه أرضاً. وفي لحظات قليلة راح نسر آخر يحوم فوق المكان.

وانقضى وقت قبل أن يكتشف ساندوز أنه بات طليقاً. وما أن عرف ذلك حتى نهض ناشراً جناحيه، واتجه نحو الجنوب. وفجأة دنا النسر المحوم منه وأخذه الى صحبته، وانطلق الاثنان نحو حافة الوادي الجنوبية وغابا عن الابصار. ووقف دوغلاس يتمتم: "رافقتك السلامة يا ساندوز".

رحلة الى العش

في الصباح التالي قدت سيارتي الى حجرة التصوير. هناك كانت الام تطعم فرخيها وهي واقفة بأبهة ملكية جعلتني أدعوها "صاحبة الجلالة". وفي التاسعة والنصف صورت النسر الذكر وهو ينزل نحو الوكر حاملا أرنباً هزيلا طويل القوائم. ولم ينتظر لحظة، لكنه رفع ما بقي من أرنب البارحة وطار به بعيداً قبل أن يرميه فوق الوادي متخلصاً منه. وعاد حاملا غصن أرز صغيراً بمنقاره. وانحنى بشهامة أمام انثاه، وهناك وضع العسلوج الاخضر. ورحت اكرر الاسم الذي أعطيته اياه: "السير غالاهاد". وأعددت الآلة للتصوير وأنا أتساءل عن السبب الذي من أجله فعل ما فعل.

في العاشرة والنصف أطعمت الام فرخيها. وحصل الصغير على مقدار من اللحم أكبر من ذي قبل، ولكن بدا واضحاً أنه ما فتىء يقتات بالفضلة. ولم يطل الامر بقايين حتى انهال على أخيه الضعيف الذي راح يزعق ويرف جناحيه ويتحرك بخطى قصيرة مترنحة. وأجهز قايين عليه من الوراء. وللمرة الاولى لاحظت انتفاخاً مليئاً بالماء في ظهر الصغير الذي أخذ يجر خطاه بوهن حتى وصل الى مؤخر الوكر وقبع بلا حراك.

وسمعت صوتاً خلفي. ونظرت لارى دوغلاس معلقاً بكتفيه حبلين من حبال التسلق.

وكنت، في تلك اللحظة، منزعجاً لعدم جواز فصل الفرخ الصغير عن أمه. فقلت لدوغلاس: "لو ذهب أحدنا الى الوكر وشذب منقار قايين بمبرد، أفلا تظن أننا نفعل خيراً بالنسبة الى هابيل؟"

وخفض دوغلاس منظاره وأجاب: "انه أمر جدير بالتجربة". وأخرج من جيبه انبوباً فيه مرهم للجروح، وأعطاني اياه قائلا: "هذا المكان سيجعل منك طبيباً للنسور، لا مصوراً فحسب". وأخرج من جيبه الآخر ميزاناً، وأضاف: "لماذا لا تزن الفرخين أيضاً؟"

وخرجنا من الحجرة ورتبنا الحبلين. وبعد نصف ساعة شاهدت السير غالاهاد وصاحبة الجلالة يحومان معاً عبر الوادي، فعدت أدراجي الى الوكر. وعالجت جروح الفرخ الصغير، ثم وضعته على الميزان، فاذا به يزن ١٧٠ غراماً. أما وزن قايين فكان ٣٦٧ غراماً. ثم سلخت لحماً عن أرنب وأدنيته من هابيل. فالتهم الصغير

اللحم وأخذ فوقه سبع لقمات اخرى. وراودني شعور بالابوة وأنا أضع الصغير وسط العش. وبعد ذلك رفعت قايين الذي راح يختلج باستياء، وحملت المبرد وشذبت منقاره بتؤدة. ولما انتهيت وقفت أربت الاثنين، وهمست في اذن قايين أن يرفق بأخيه الضعيف، ثم انطلقت الى أسفل الوادي.

واستمر الصراع بين قايين وهابيل في اليومين التاليين، ولكن من غير أن يحل أذى كبير بهابيل. وبعد اسبوع برئت جروحه ونما الزغب فوقها من جديد.

وفي نهاية الاسبوع التالي ـ وكان دوغلاس قد التحق بالخدمة العسكرية ـ ذهبت الى البلدة لشراء بعض الحاجيات. وكان الظلام يرخي سدوله وأنا أقترب من المزرعة. وعلى بعد ١٥٠٠ متر من المدخل الشمالي، هبط أمامي حجاب من الغيم الاسود، وسقط الثلج على حين غرة ممتزجاً بالمطر. وقبل أن الج البوابة، لاحظت شيئاً وراءها، تراءى لي أنه نسر قتيل وتجمدت أوصالي.

ورأيت سلكاً صدئاً يخترق جانحي النسر ويتوسطه رأس ضعيف. وكان صدره مبقعاً بالدم، مما يدل على أنه قتل ببندقية. وبلعت ريقي وأنا أتفرس فيه جيداً: انه السير غالاهاد.

وعاينت الثلج بحثاً عن آثار أقدام، فشاهدت طبعات نعال اختلطت بخطاي. ورحت أتساءل عمن تسول له نفسه أن يقتل نسراً ويفخر بالجرم على هذا النحو السافر.

وانتزعت السلك من جسد النسر الذي كان متيبساً، ووضعته في السيارة وتابعت طريقي نحو المنزل وقلبي يضطرب في داخلي.

الارملة الباسلة

جاء المساء التالي حاملا معه بعض الغيوم المتناثرة. وألقيت نظرة متفحصة على حافة الوادي، ولكن مرت أربعون دقيقة من غير أن أبصر شيئاً. وأخيراً لمحت طيفاً في البعيد. ورفعت المنظار لارى صاحبة الجلالة تحمل أرنباً قطني الذيل. وعلت وجهي ابتسامة. ثم شاهدت في طرف المنظار صقراً أحمر الذنب بدا أنه يضايق صاحبة الجلالة باستمرار لكي تتخلى عن الارنب. وبعد قليل انضم صقر آخر الى الاول. ونشرت الانثى جناحيها على سعتهما وأسرعت عبر الوادي. وعزز الصقران هجومهما، فألقت الارنب وبدلت اتجاهها. وأسرع الصقران نحو الارنب الهاوي. عندئذ صوبت المنظار نحو انثى النسر، فشاهدت بومة ذات قرنين تسبقها في اتجاه الوكر. وأدرت آلة التصوير نحو الانثى، وكانت سرعتها نحو مئتي كيلومتر في الساعة وهي تحاول الاطباق على البومة.

وطوت الملكة قدميها على عظمة الجناح الرئيسية، فأحالت البومة نتيفة. وعاينت بومة اخرى، فبدأت هجوماً عليها. لكن البومة انحدرت بقوة وحطت ضمن أجمة متراصة من أشجار الارز القصيرة.

وللحال نزلت الملكة في اثرها. وما أن توقفت البومة عن الارتعاش حتى سحقتها بقدم واحدة وأسرعت نحو العش. أما أنا فأدرت المنظار الى هناك، لكني لم أجد أثراً للفرخين.

ولم أصدق ما أرى، فجلست مريحاً ذراعي على ركبتي من فرط الاضطراب، وشددت النظر، وللمرة الثانية وجدت العش خاليا، وعلى رغم أني لم أبصر البومتين تفتكان بالنسرين الصغيرين، الا أني أظن أنهما فعلتا ذلك.

الشرك

في الايام القليلة التالية، كانت الانثى المترملة والثاكلة تجثم ليلا فوق الجرف الكلسي الاصفر او على صخرة رمادية على حافة الوادي. وبدا ان تحركاتها كانت رهناً باتجاه الريح. وعجبت ذات يوم اذ رأيتها جالسة على الصخر القاتم. فتلك كانت المرة الاولى التي أراها في ذلك الوضع. أتراها أصيبت بجرح هي الاخرى؟ وأنعمت النظر اليها، فوجدت ريشها أشعث على نحو غير معهود.

وسمعت صوتاً ورائي. ونظرت لارى دوغلاس يتسلق التلة نحوي وذراعه اليمنى يكسوها قالب من الجص. ورفع تلك الذراع عالياً وهو يبتسم. وقال: "لقد حصل لي حادث غريب وأنا أقفز فوق الحواجز". وسأل وهو يلقي نظرة على الوادي: "كيف حال النسور؟"

وقصصت عليه ما حصل منذ مغادرته، وأخبرته عن اهتمامي بحال صاحبة الجلالة. فأخذ المنظار ووجهه نحو النقطة التي أشرت اليها، وقال: "ربما كنت على حق. وينبغي أن نقبض عليها لنرى اذا كانت جريحة".

وسألته: "كيف تفعل ذلك؟"

فأجاب: "ان القبض عليها يتم عند كاحليها. ولتحقيق ذلك، ينبغي أن أطمرك في الرمل، بالقرب من الساقية".

وأدار ظهره وباشر النزول عن التلة. وتبعته. وتابع قائلا: "سأذهب الى البلد وأشتري حمامة. وبعد أن أطمرك في الرمل، أضع عارضة خشب عند كل من جانبي معدتك. وكل ما عليك فعله بعد ذلك هو القبض على صاحبة الجلالة من كاحليها عندما تحط لالتقاط الحمامة. ولكن عليك ان تتحلى بالصبر".

وبعد ساعة عاد دوغلاس ومعه حمامة في قفص صغير. وبحثنا عن مرتفع رملي ملائم، وجدت نفسي ضمنه بعد نصف ساعة. ثم وضع دوغلاس سلة على رأسي غطاها بأغصان الارز وجعل فيها فتحة أمامية تمكنني من الرؤية الى حد ما. وأمسكت بالوتدين وهو يركزهما على جانبي معدتي. ثم وصلهما بسلك ربط فيه الحمامة ووضعها فوق صرتي المغطات بالرمل.

ومنحني ذلك شعوراً بالغرابة. وسألت دوغلاس: "هل سبق لك أن قبضت على نسر بهذه الطريقة؟"

فأجاب: "هذه طريقة الهنود في القبض على النسور".

ولم تشجعني مراوغته على طرح المزيد من الاسئلة. وراح يغرف الرمل ويذروه على ذراعي ويدي ومعدتي فيما كانت الحمامة تتلوى في مكانها.

وأحضر دوغلاس وعاء أخضر من البلاستيك وضعه فوق الحمامة كيما يثبتها في مكانها. وفتح ثقباً في

الوعاء مد منه خيطاً أسود من خيوط صيد السمك، وتحرك وهو يجر الخيط وراءه، وعلى رغم أني لم اتمكن من رؤيته، الا أني سمعت وقع خطاه.

وكلمني من بعيد قائلا: "سأختبىء في شجرة أرز هناك عند الضفة، وحين أرى الملكة تحوم فوقك، سأسحب الخيط رافعاً الغطاء عن الحمامة. وعليك، عندئذ، أن تحث الحمامة على الحركة. وبعد ان تنقض الملكة عليها، احرص على أن تعد الى العشرة قبل ان تقبض على كاحليها، واحرص، كذلك، على أن تمسك بالكاحلين في الوقت نفسه، والا رميت نفسك في مأزق كبير".

وبعد لحظات رحت افكر في حالي وأنا متعجب كيف قبلت بذلك الدور الذي يجعل مني شخصاً أحمق مدفوناً في الرمل وعلى رأسه ووجهه سلة مغطاة بالاغصان وفوق بطنه وتدان وحمامة.

وانقضت ساعة كاملة، أحسست بعدها ألماً في جسمي كله. وكان رأسي يوجعني وعنقي ترتجف اجهاداً. ثم خيل الي أني أسمع صوتاً قصياً. وللحال انزلق الوعاء الاخضر عن بطني. وراحت الحمامة تتحرك بقوة وهي ترش الرمل على وجهي. وسح الدمع فوق خدي وسدل غشاء على عيني. وهززت رأسي اتقاء الرمل. وفجأة خفق جانحا الحمامة وهي تقفز محمومة فوق بطني. وفي أقل من لمح البصر اسود الفضاء الذي كان يظهر من فتحة السلة فوق عيني. وفي الوقت نفسه سقط على جسم رمادي.

وبدأت أعد: واحد... الحمامة تحاول التملص من قبضة الملكة. اثنان... أنفض الدمع عن عيني وأبحث عن قدم انثى النسر الاخرى. ثلاثة أربعة. خمسة. ستة... قدم الملكة على الرمل تحت، ولا أستطيع بلوغها سبعة... الذعر ينتابني. ثمانية... الوقت يفر مني. واذا لم أقبض على الملكة سريعاً، فعلي اعادة الكرة عداً. دمعة اخرى على عيني. أنفضها، فترفع الملكة قدمها الى الرمل فوق بطني لتعصر الحمامة بكلتا قدميها. وأخيراً.. ها هو الكاحل بلاصق الكاحل الآخر. تسعة... أنفض دمعة اخرى تغشي بصري، وأقبض على صاحبة الجلالة كما علمني دوغلاس.

وراحت الانثى تهز رجليها وتصفق بجناحيها وتزعق بصوت متقطع.

وناداني دوغلاس قائلا: "ابقَ كما انت يا دان. اني آت اليك. وركض ورجلا سرواله تهتزان كما يهتز كل شيء هناك. وسقطت السلة عن وجهي. وطرفت عيني وأنا أنظر الى السماء المتوهجة. ومد دوغلاس كيساً من الخيش أقحم فيه رأس الملكة وقال: "ابقَ قابضاً على قدميها بيد واحدة، واقبض على الجناحين باليد الاخرى بينما أضعها في الكيس".

وفعلت كما أمرني. واستخدم دوغلاس يده السليمة ليضع الملكة داخل الكيس. ورفعت جسدي المتألم من الرمل وعقدت قدمي الملكة عند الكاحلين. وهكذا أصبحت داخل الكيس، فيما تمدد جسد الحمامة الناحل فوق الرمل. وطفح وجه دوغلاس حبوراً وقال: "طريقة حسنة! أليس كذلك يا دان؟".

وأخرج من جيبه لوحة معدنية وكماشة وجثا قرب الملكة. وفجأة توقف وقال: "هذه الانثى مطوقة. وراح يتلمس قدميها. ثم نظرنا الى ذنبها، ويا لهول المفاجأة! هذه ليست صاحبة الجلالة، بل ساندوز بالذات!

وانتابتنا نوبة ضحك، انحنى بعدها دوغلاس على ساندوز وفك قيوده وهو يهمس الكلام على مسمعه. وبعد قليل أطلقه. وبقي النسر لحظة بلا حراك، وهو لا يدري أنه بات عتيقاً من جديد. ثم نهض على قدميه ودب قليلا وطار الى الفضاء. وبينما كان ساندوز يحلق عالياً وينأى عنا، صرخ دوغلاس قائلا: "الى اللقاء أيها الصديق القديم".

غزل النسور

حلق النسر بسرعة نحو حافة الوادي. ولم نلبث أن شاهدنا الملكة المترملة في شكل حسن، تحوم هناك كأنها تنتظر أحداً. وعلى بعد مئتي متر عنها، فتح ساندوز جناحيه وراح ينظر اليها. وبدا أن كلا من النسرين كان يتفحص الآخر.

وبانت ضحكة خافتة على وجه دوغلاس وقال: "ربما بدا لها أن ساندوز بالغ بما فيه الكفاية للحياة التناسلية".

وكان ظن دوغلاس في محله. وفي الايام القليلة التالية، رحنا نراقب المرحلة الاولى من عهد الغرام بين النسرين، التي تميزت بضرب من الرقص المجنح في الفضاء. وأسدلت الانثى جناحيها على جسمها وغطست بوطأتها تحت حافة الوادي. ثم فتحت جناحيها نصف فتحة وعادت



المؤلف داخل الخباء الذي أقامه للمراقبة والتصوير.

تحلق عالياً. وحومت جنباً الى جنب مع ساندوز قبل أن تهبط من جديد. لكن ساندوز، هذه المرة، أطبق جناحيه وتبعها.

وعادت الانثى ترتفع وتهبط، ثم حطت على الارض وراحت تسوي ريشها بمنقارها. ومن دون أي تردد، هبط ساندوز في اثرها ووقف على بعد مترين منها. وما هي الا لحظات حتى أخذ كل من النسرين يسوي ريش الآخر.

وفي اليوم التالي ذهبا الى الصيد

معاً. وعندما اسفرت جهودهما المشتركة عن اصطياد أرنب قطني الذيل وجه ساندوز اليه الضربة القاتلة، رفض أن يشارك رفيقته في أكله.

وانبرى دوغلاس قائلا: "اذا لم تتحسن طباع ساندوز، فان صاحبة الجلالة ستتخلى عنه فور مجيء نسر آخر أكثر نضجاً الى هذه الاجواء".

وبعدما أكل كل من النسرين على حدة، انضم أحدهما الى الآخر. وقال دوغلاس: "يبدو لي أن الملكة تمتحن مقدار التعاون لدى ساندوز لترى ما اذا كان يصلح زوجاً لها".

والتقطت الملكة حجراً بحجم كرة المضرب بين براثن قدمها اليمنى وحلقت حتى ارتفاع قرابة تسعين متراً فوق حافة الوادي. وللحال تبعها الذكر وجعل يقترب منها وهي تراقبه.

وفتحت الملكة براثنها وأفلتت الحجر. وبقي ساندوز بجانبها فيما سقط الحجر الى الوادي وطوت جناحيها سريعاً وانحدرت. والتقطت قضيباً من حافة الوادي وعادت نحو ساندوز. وأرخت القضيب من بين براثنها، لكن ساندوز لم يبد حراكاً. وقال دوغلاس: "يبدو أنه ما زال صغيراً جداً".

وفي اليوم التالي أعادت الملكة الدور نفسه مع ساندوز. لكنه لم يلتقط القضيب ببراثنه، بل تركه يسقط كما فعل من قبل.

ولم يتبدل برنامج صاحبة الجلالة وساندوز الا قليلا طوال الصيف. وبقي يصطاد واياها، ولكن من غير أن يشارك في أكل الغنائم التي يجنيها هو. وكان ادراكه الضئيل يزعجني، وأظن أنه أزعج الملكة أيضا.

وفي يوم من أواسط ديسمبر (كانون الاول)، حصل تغير. ذلك أن ساندوز، للمرة الاولى منذ بدئه الصيد مع الملكة، سمح لها بأن تقتل الطريدة بنفسها، وكانت أرنباً.

ثم اقترب منها وأخذ يسوي ريشها بمنقاره وهي تفعل له الشيء نفسه. وما أن فرغا من ذلك حتى طارت الملكة. ولم أفهم معنى لذلك، اذ انها لم تكن تطير وحوصلتها ملأى بالطعام. وعلى ارتفاع نحو تسعين متراً وقفت تحوم في مكانها حتى تبعها ساندوز. ثم طوت جناحيها وانحدرت الى حافة الوادي. ومن هناك التقطت حجراً بحجم كرة المضرب عادت به الى فوق. وعندما دنت من ساندوز، أفلتت الحجر وهي تنظر اليه. أما هو فوقف يراقب. لكنه ما لبث أن طوى جناحيه ونزل في اثر الحجر. الا أنه سبقه الى الارض.

ومن دون تردد، عادت الملكة الى الحافة وحملت معها غصناً صغيراً هذه المرة. ولما دنت من ساندوز، أخذ يحدق الى العود العالق بين براثن رفيقته. وفتحت قدمها فسقط العود. وللحال غطس ساندوز في اثره والتقطه قبيل بلوغه الارض، وعاد به الى فوق. وتردد قليلا، ثم رمق رفيقته وأرخى قدمه. وانقضت صاحبة الجلالة بقوة، وتلقت القضيب وهو على ارتفاع أربعين متراً عن الارض. وعادت به لتلقيه مرة اخرى. وتبعه ساندوز هذه المرة والتقطه بسهولة.

وعاد به وهو يبدو أنه بات مدركاً ما يفعل. ولما وصل الى رفيقته أرخى

براثنه. وهكذا تطور اللعب الى الافضل. غير أني اضطررت الى مغادرة المكان والنسران في أوج المرح والحماسة.

وفي اليوم التالي أخذت صاحبة الجلالة ساندوز الى أرزة غريبة مسطحة الذؤابة، بالقرب من تخوم الارض التي كانت تحوم فوقها. وهناك تجامع الاثنان للمرة الاولى. وبعد ذلك نشرت جناحيها وتقدمت ساندوز عبر الوادي. وحطت من جديد على أرزة ذاوية عند حافة الوادي. وهناك تجامعا مرة أخرى.

ونهضت عن الشجرة وطارت وهي تتقدم رفيقها هذه المرة أيضاً. وبعدما قطعا بضعة كيلومترات، حطت مرة ثالثة على أرزة كثيرة العقد بالقرب من ذلك الخط الوهمي الذي يفصل عالمها عن العالم الخارجي. وحوم فوقهما نسران، ذكر وانثى، من الجوار. واذ ذاك أكب ساندوز على قدميه وهو على استعداد كي يرد عن انثاه أي طارىء. وأخذ النسر الآخر يحوم كما لو أراد شراً. الا ان ساندوز لم يتراجع عن موقفه الدفاعي. وأخيراً بدل النسر الواغل وجهته وطار بعيداً. بعد ذلك هبطت الملكة فوق الارزة، وكان لهما جماع ثالث هناك أيضاً.

ترى أكانت صاحبة الجلالة تحاول ان تدل ساندوز على حدود أرضها؟ اذا كان الامر هكذا، فهي، لا محالة، افلحت في نقل الرسالة اليه.

البيضتان

ذات سبت من شهر فبراير (شباط)، جلس النسران على صخر ناتىء يهضمان الطعام ويسويان ريش أحدهما الآخر. وفي نحو الرابعة عصراً طارا. وتراءى لي أن الملكة كانت تسعى الى ذلك المضيق من الوادي الذي أقامت فيه وكرها قبل سنة.

وهكذا كان. لكن العش استحال كومة من القضبان المشوشة التي غيرت الطبيعة شكلها ولونها. وحدقت الملكة الى ذلك المكان ثم ابتعدت عنه. وزارت سبعة اعشاش قديمة اخرى، حتى اذا بلغت العش الثامن تخيرته من بينها جميعاً. وطارت بخفة عبر الوادي وحملت قضيباً، يبلغ طوله نحو المتر، من أحد طرفيه، وعادت به وهي تتقدم رفيقها. وما أن أدنى ساندوز رأسه ليتفحص العود حتى أرخت الملكة براثنها. وبعد انتظار قليل، غطس ساندوز وراء العود وعاد به. وعندما لاصق رفيقته جعل العود يهوي. وأسرعت الملكة في اثر العود، ولما أطبقت عليه ذهبت به عبر الوادي في اتجاه الوكر.

وحطت صاحبة الجلالة رحالها في وسط الوكر، حيث ألقت العود وراحت تسوي به العش الخرب. ثم انحنت والتقطت بمنقارها غصناً صغيراً من الداخل وأسقطته فجأة في موضعه. وقلدها ساندوز، فحمل هو الآخر غصناً صغيراً وألقاه في المكان المناسب. وبعد ذلك توجه الى منفذ الوكر ونهض محلقاً عبر الوادي.

وحط على حافة الوادي الشمالية ورفع قضيباً ببراثنه وأسرع به نحو الوكر. وراح النسران يعملان بلا كلل لاعادة بناء العش. وكانا يحملان الاغصان الكبيرة بأقدامهما والعساليج بمنقاريهما. وفي اسبوع، استحالت

كومة العيدان الذاوية عشاً جديداً يضحك للصباح. وأضافا اليه أماليد اخرى وعشباً أخضر. ورتب ساندوز العشب ثم جلس فوقه. وراح يستدير من ناحية الى اخرى، ثم وضع قدميه تحت جسده. وكان ينهض من وقت الى آخر مبدلاجلستهووجهته الهجومية ليعود الى العشب ويسويه من جديد. وأخيرا نهض ليظهر تحته وعاء للبيض مخطط بالعشب في حجم صحن للحساء.

أما أنا فقد حتم علي الوكر الجديد اقامة خباء جديد للمراقبة والتصوير، استغرق ساعتين من وقتي تلك الليلة.

ومع نهاية شهر فبراير (شباط)، زاد وزن صاحبة الجلالة وغدا طيرانها أكثر اجهاداً. وذلك حداني على الذهاب الى المكتبة العمومية لاستطلاع الكتب حول الموضوع. ووجدت، في أحد المراجع، أن البيضة التي تضعها انثى النسر تزن بين ١١٣ غراماً و١٢٨ غراماً. وفي ٦٦ في المئة من الحالات، تضع الانثى بيضتين، وفي ١٤ في المئة من الحالات تضع ثلاث بيضات. ونادرة هي اناث النسور التي تضع أربع بيضات. أما الامور الاخرى المتعلقة بحضانة البيض والتفقيس فلم تجمع آراء المراجع حولها. وقد جاء في أحدها أن "بيض النسور الذهبية يكون مبقعاً باللون البني"، وفي آخر أنه "خالص البياض". وعن الحضانة، ذكر أحد

المراجع أنها تستغرق ثلاثين يوماً، في حين قال آخر ان عدد الايام ستة وأربعون، وجعلها ثالث خمسة وثلاثين.

وما أن جلست في خبائي للمرة الاولى حتى أخذت مفكرة وقلماً ودونت الآتي، في تاريخ ٢٥ فبراير (شباط): "أنا في الخباء، والساعة الآن السادسة الا خمس دقائق صباحاً. صاحبة الجلالة تسوي العش".

ومع مرور ذلك النهار، وجدت ان مراقبة أعشاش النسور تشبه مراقبة العشب وهو ينمو. وبقي ساندوز طوال فترة الصباح يحرس المكان، فيما قبعت الملكة داخلا. وفي الرابعة والنصف عصراً، نهضت قليلا ووضعت رأسها تحت صدرها. وأمكنني أن أرى وراءها بيضة أخذت تقلبها. ومنعني ظلها من تعيين لون البيضة بوضوح: هل هو أبيض خالص أم منقط؟

ثم طارت صاحبة الجلالة وأخذ ساندوز مكانها. وغطى البيضة ببطنه على نحو متردد، وراح يجمع الاعشاب والاغصان الصغيرة من كل ناحية لتعينه على الثبات في مكانه. وتجدر الاشارة الى أن العش الناقص البناء يكون البيض فيه عرضة للخطر خلال الايام الباردة والقوية الرياح عندما يحين دور الذكر للحضانة.

وبقي ساندوز فوق البيضة نحواً من ١٥ دقيقة، قفز بعدها الى فتحة الوكر وطار، لتعود الملكة بعد قليل. وفي ذلك الوقت القصير دنوت من العش لمراقبة البيضة عن كثب، فوجدت لونها أصفر باهتاً. وولدت لدي تلك المراقبة حساً بالاكتفاء تجاه ما فعلته ذلك اليوم. فأخذت سيارتي وعدت الى المنزل. وبعد أيام من وضع البيضة الاولى، وضعت صاحبة الجلالة بيضة اخرى ملطخة بالبقع البنية الضاربة الى الحمرة.

من ثقب الباب

أخذت الايام تكتسي نوراً بهياً فيما كان الربيع ينشر ملاءته فوق الوادي. وانطلقت الطيور، وبينها الحمائم والحساسين، تغرد بأنغامها الشجية. ومع نهاية كل يوم، كنت أفكر في الطريقة التي تمكنني من معرفة موعد فقس البيضتين. وبانتهاء شهر مارس (آذار)، قر رأيي على وضع لاقط صوتي صغير تحت البيضتين ووصل شريط التسجيل بآلة لضبط الوقت. وهكذا أعرف الوقت الذي خرج فيه الفرخ من البيضة عبر سقسقته.

واخترت يوماً دافئاً لتركيب الجهاز فيه. وبعدما روعت الملكة وحملتها على التحليق، وقفت أسوي آلة التسجيل بأسرع ما يمكن. وعندما فرغت من ذلك، لم يبقَ لي سوى الانتظار.

وفي صباح الرابع من ابريل (نيسان)، أصغيت الى شريط التسجيل، فسمعت وقع أقدام النسرين في أرض الوكر، مختلطاً بهديل الحمام وزقو العصافير. كما سمعت ضرب المناقر على البيض وأزيز طائرة عابرة وعواء ذئب من فصيلة القيّوط. وأعدت الشريط الى أوله وانتظرت من جديد.

في الساعة العاشرة والدقيقة الثانية والاربعين نهضت صاحبة الجلالة، وأدارت مؤخرها نحو الوادي

ثم تغوطت ·وسقط البراز الابيض على الصخر تحت العش · وتلك كانت المرة الاولى التي تتغوط فيها من داخل العش منذ وضعها البيضة الاولى قبل ٣٩ يوماً · وبدا واضحاً أنها لم تشأ مغادرة المكان ·

وبعد ساعة ونصف ساعة حط ساندوز · وبقيت صاحبة الجلالة دونما حراك · ورفع ساندوز رأسه نحوها يميناً ويساراً ، ثم استدار وطار ·وعاد ، بعد خمس دقائق ، وفي منقاره عسلوج أرز أخضر · وانحنى ووضع الغصن عند صدر الملكة · وبسرعة أعدت الشريط الى أوله ورحت أصغي ·

وتناهى الى سمعي ، هذه المرة أيضاً ، وقع أقدام النسرين داخل الوكر · وربما كان ذلك آتياً من الملكة حين نهضت لتتغوط · ولكن ما هذا الذي أسمعه مختلطاً بالاصوات الاخرى ؟ أليس هو زقواً ضعيفاً ؟ وأخذت أصابعي ترتجف وأنا اعيد الشريط الى أوله لسماعه من جديد ·

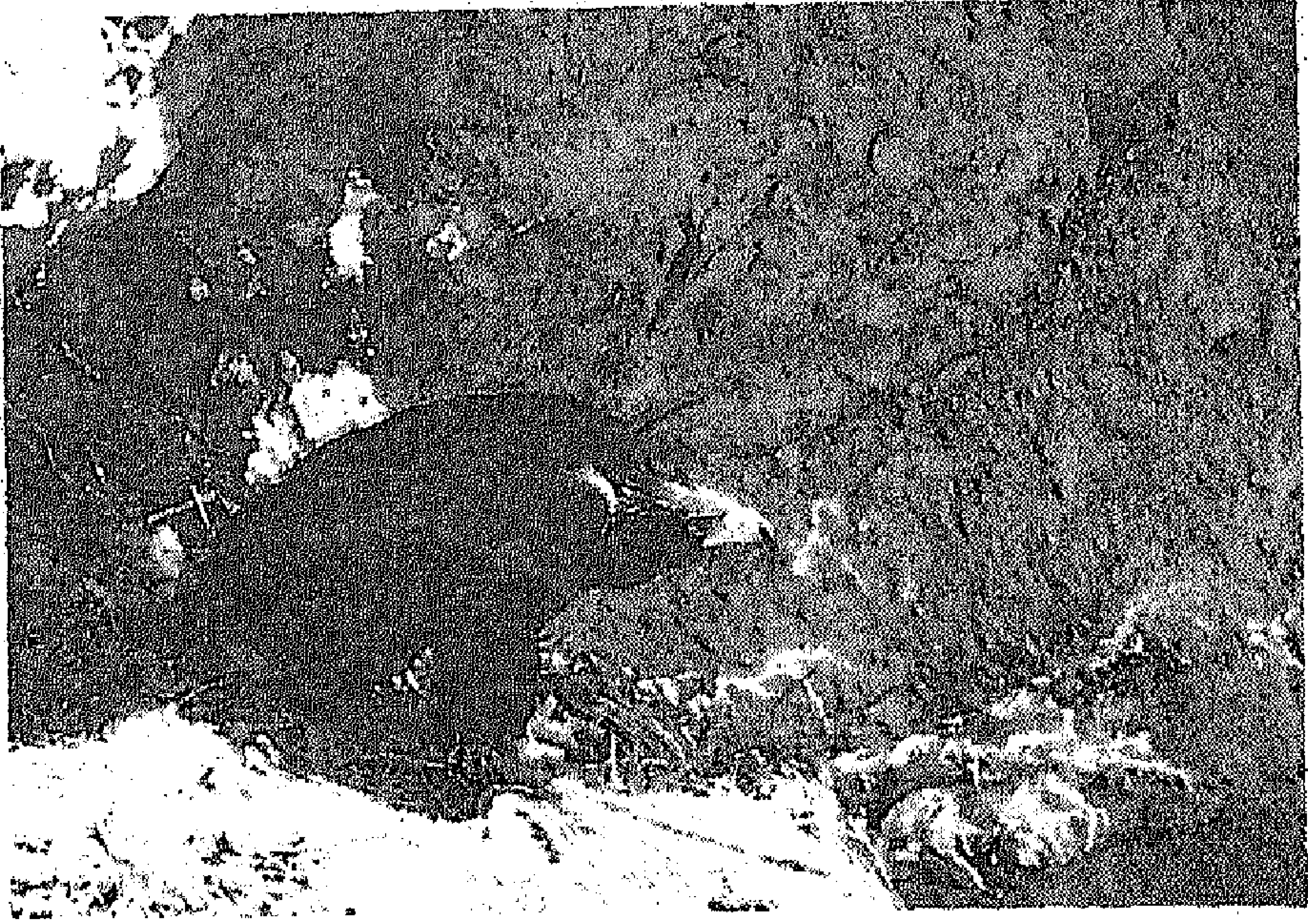
وما هي الا دقائق حتى عاد ساندوز حاملا أرنباً قطنياً · وأمال رأسه نحو رفيقته مرة اخرى ، وأصغى قليلا وطار · وبعد قليل عاد وهو يحمل عسلوجاً أخضر آخر · وبعد ذلك نهضت الملكة ورفعت وعاء البيض بحذر ، ووضعته أمام الارنب وأخذت ترفع اللحم منه وتطعم وكانت المرة الاولى أراها تطعم · وقربت عدسة آلة التصوير المكبرة الى عيني وأنعمت النظر ، لكني لم أجد أي فرخ ، كما لم أقع على ثقب في أي من البيضتين ·

وبعد ساعة سمعت صوتاً جديداً ، تبعه صوت رقيق · وربما كانت صاحبة الجلالة تهدىء من روع الفرخ ·

في اليوم التالي كان الضحى صافياً ومنعشاً · الا أن الملكة انتظرت ساعة ونصف ساعة قبل أن تنهض وتقلب البيضتين · ولم تكن أي منهما مثقوبة · وحط ساندوز وانتظر قليلا ، ثم طار وعاد بغصن أخضر جديد · وفي الاولى والدقيقة الثامنة بعد الظهر ، وقفت الملكة وتغوطت · وجاء ساندوز بأرنب جديد ، وحمل فضلة البارحة وطار بها · ونظرت الى ساعتي · وكان علي الذهاب بعد خمس دقائق · وأبقيت عيني على العش ، فشاهدت رأساً أزغب في حجم كرة صغيرة يشق طريقه من تحت صدر الملكة وهو يفتح فمه الصغير ويطبقه ·وتناهى صوته الضعيف الى خبائي · وابتسمت ودونت في مفكرتي ما يأتي: "اليوم الحادي والاربعون · البيضة الصفراء خرج منها فرخ " ·

وفي الصباح التالي فرخ آخر من البيضة المنقطة ، وذلك بعد ٣٦ ساعة من خروج الاول · وفي ثلاثة أيام ، بدأ الصراع بين قايين وهابيل · وشذبت منقار الفرخ الاكبر · وعلى رغم أنه لم ينقطع عن محاولات الهجوم ، الا ان هجماته خفت بعد أيام ·

وكان وزن الفرخ الاكبر ، في نهاية الاسبوع الرابع ، ١٦٦٧ غراماً ، ووزن الآخر ٢٢٦ غراماً · وظهر صف من البقع السود فوق الطرف الخلفي من جناحي الفرخ الاكبر علامة على وشوك نمو الريش الذي يستطيع به التحليق · وكانت براثن الفرخين في هذه المرحلة من القوة بحيث تمكنهما من التقاط الطعام · وبات في وسعهما الوقوف ، ولكن من غير ثبات ، فكانا يرتكزان على رؤوس ريشهما ·



النسر الصغير على مدخل الوكر، يستجمع قواه ليطير.

ولما انقضت ثمانية أسابيع، بدا الفرخان مكتملي الريش. وكان زغبهما بنياً قاتماً حتى السواد وأطراف أجنحتهما مخططة بلون أبيض وعند مفاصلهما خطوط بيضاء، كذلك عند حوصلتيهما. واتضح لي أن الفرخ الاكبر انثى، لان حجمه كان أكبر كثيراً.

أما الفرخ الاصغر فكان ذكراً. وكان يبدو أملس وأكثر صفاء من اخته. وأمضى معظم الوقت يسوي ريشه وينظفه بمنقاره، فيما بقيت اخته مضطجعة داخل العش. ومرة عبرت نسمة هواء صاعدة من الوادي ووجدت طريقاً الى الوكر بينما كان الفرخ الصغير يسوي ريشه. ففتح الهواء أحد جانحيه. واذ ذاك توقف عن تدليل نفسه وفتح الجانحين. ووقف بضع دقائق وهو يشعر بالخفة في جانحيه المفتوحين. ثم سكتت الريح وانطوى الجانحان، فعاد الى تسويتهما بمنقاره.

الى الفضاء

في يومه الرابع والستين، وهو الثامن من يونيو (حزيران)، قفز الفرخ الصغير بحذر الى فتحة الوكر ومنها الى الوادي. وكان، في الايام التالية، يقضي الساعات الطويلة مدرباً جناحيه على الطيران. وأحياناً كانت هبة ريح تحمله خارج العش رغماً عنه. لكنه، مرة، تحدى الريح، فطوى جناحيه وتشبث بالعيدان داخل العش.

وفي صبيحة الحادي عشر من يونيو (حزيران)، وهو يومه السابع والستون، نهض الفرخ الصغير باكراً وبدأ يسوي ريشه. ووقف طوال الساعة ونصف الساعة التالية عند فتحة الوكر متفحصاً الوادي. وبدا أنه يدرس

جلموداً عن يساره يرتفع تسعين متراً وتبلغ قوة انحداره ٢٥ درجة.

وركز الصغير عينيه على ذلك الصخر الاصم، وانحنى قليلا وجناحاه نصف مفتوحين.ثم اطبقهما ليعيد الكرة مرتين أو ثلاثاً قبل أن يخضفهما ويعود الى وكره. لكنه ما لبث ان امضى نصف ساعة محاولا الانطلاق من جديد، وكانت كل محاولة خيراً من سابقتها. وأخيراً نشر جانحيه واندفع بأقصى قوته. ورفعت اخته رأسها وهي تتبعه بنظراتها. وراح يصفق بجناحيه وهو يسعى الى الصخرة عند حافة الوادي. ولكن قبل أن يبلغ الصخرة، أخذ يدور حول نفسه وباشر الهبوط بعدما ضاعف سرعته. وهذا جعله يهوي على صدره وذقنه. ثم انتصب ذنبه وأوقف حركته بسرعة.

وأمضى النسر الصغير بقية النهار والليل التالي بطوله على الصخرة وهو ينشر جناحيه ويطويهما ويسوي ريشه بمنقاره. وبعيد العاشرة من صباح اليوم التالي، طار مرة اخرى وهو يصفق بجناحيه عبر الوادي ويضرب رؤوس الاشجار في طريقه. وصفرت شوحة، وهي من الجوارح، فوقه، كأنما أرادت ان تقول: "يا للعجب! نسر صغير يضع جناحيه موضع التجربة. تعالوا، أيها الاولاد، تعالوا وانظروا". ومالت الشوحة نحو فرخ النسر وهي تعلوه قليلا. وانضمت اليها شوحة اخرى، ثم اندفع الطائران في اتجاهه.

وظل النسر الصغير ينحدر حتى بات على علو خفيض من الارض. وسدل الطائران المطاردان براثنهما وهما يسرعان في أثره.وبلغ مرتفعاً اضطر عنده الى الهبوط من غير أن يخطط لذلك. وضربته ريح جعلته يقفز وهو مائل حفاظاً على توازنه. وبعد ذلك جعل يقفز وهو يدعم قدميه بعشب المرعى.وأخيراً حط على الارض، ساقطاً على بطنه، وجناحاه منشوران فوق العشب. وعبرت شوحة فوقه وضربت رأسه بشدة.

وفي اللحظة المناسبة نهض ساندوز من مكانه وحلق فوق حافة الوادي، فابتعدت الشوحتان وعادتا الى مطاردة الجراد والحشرات الاخرى. أما النسر الصغير فراح يحلق عبر الوادي، واخته تحلق هي الاخرى. وبعد قليل أخذ يقفز على القدمين في اتجاه حافة الوادي الشمالية.وظل يمشي خمساً وأربعين دقيقة وهو يستريح قليلا. ولدى بلوغه المرتفع عند أدنى الحافة، انحنى قليلا وهو يباشر صعوده. وتقاطعت رؤوس جناحيه عند ز مكه. فبدا مثل كهل أنيق يتأهب للخروج في نزهة سيراً على القدمين.ولما بلغ ناحية صخرة في حجم بيت، راح يعدو على نحو بين القفز والطيران. واستراح قليلا، ثم تابع الصعود حتى قمة الصخرة.ووقف هناك يسوي ريشه، فيما جثم ساندوز على صخرة أعلى يراقب ما يجري.

وما أن انتهى النسر الصغير من تسوية ريشه حتى نهض ونشر جناحيه وطار. وراح يختبر كيف يسيطر على جناحيه وذنبه بحيث لا تقذفه الريح الى الصخور وبحيث يحافظ، في الوقت نفسه، على ارتفاعه. وما أن أصبح على قاب قوسين من الصخور حتى بذل جهداً للحفاظ على ثباته.

وظل يرتفع الى أن تجاوز حافة الوادي من غير أن يعوقه عائق.

وفجأة برز ساندوز الى جانبه، فأخذ الفرخ يزقو. وبعد قليل ظهرت صاحبة الجلالة، وكف الفرخ عن الزقاء، ثم استأنف تمارينه في التحليق. وظهر، بادىء الامر، أنه ينساق مع التيار، لكنه ما لبث ان اكتسب مهارة لم تكن له من قبل.

وبعد نصف ساعة من التحليق مع أبويه، اتجه النسر الصغير نحو حافة الوادي كي يستريح. ولم يكن سيطر على حركة الريح بعد، الا أنه حط بجلال على صخرة وتشبث بها بعضاً من الوقت. لكنه، قبيل الغروب، نشر جناحيه وطار من جديد. وكان الهواء بارداً ومنعشاً. وحلق الفرخ عالياً، ثم نزل ليعود الى الاعالي. وبدا أنه يحاول التحويم في دائرة من غير أن يفلح. وبعد محاولتين أو ثلاث، اكتسب ثقة بالنفس جعلته يحوم على نحو أفضل.

ومع الغروب، راح ينطلق مسرعاً عبر الوادي، ثم يحوم قليلا فوق الحافة قبل أن يعود من حيث أتى. وهذا جعله يبدو كطفل يلهو بلعبته قبل الخلود الى النوم.

وفيما كان الظلام يزداد قتاماً ويجعل التحليق مستحيلا، كان الفرخ يحط قرب الارزة التي يفيء اليها عند اشتداد الشمس ثم يتهادى تحتها باحثاً عن مأوى يقضي الليل فيه. وهكذا تراءى لي أن النسر الصغير تعلم مبادىء الطيران. وسررت له وابتسمت.

الموت والحياة

كان عمر انثى النسر الصغيرة تسعة وسبعين يوماً عندما باشرت تمارينها على الطيران. وكان اليوم الثالث من هذه المرحلة في حياتها، وهو ٢٣ يونيو (حزيران)، بارداً، وقد هبت فيه ريح شمالية معتدلة. وبعد قليل من حلول الظهر، قفزت الى فتحة الوكر وترددت قليلا قبل ان تنشر جناحيها. وللحال حملها الهواء عالياً. وشاهدت قدميها متدليتين تحتها، وأدركت أن طيرانها حصل عرضاً. وهبت الريح من جديد، فحملتها الى حافة الوادي حيث كانت على وشك الاصطدام بالصخور.

الا انها أبقت جناحيها منثورين ورفعت قدميها، فحملتها الريح عالياً حتى باتت على ارتفاع ثلاثين مترا فوق حافة الوادي. وبعد ثوان تضاعف ارتفاعها مرتين ثم ثلاثاً. وفجأة ظهر ساندوز من حيث لا أحد يدري وانضم اليها. وبعد برهة جاءت صاحبة الجلالة. وراح الاثنان يحلقان بجلال كما لو أرادا تلقين الصغيرة مبادىء التحليق.

واتجهت النسور الثلاثة عبر الوادي الى فوق. وترددت صاحبة الجلالة اول الامر، لكنها ما لبثت أن رضخت وتبعت زوجها. وانقض ساندوز على طائر على بعد نصف كيلومتر من الحافة. وفجأة انحرفت الصغيرة وهوت بسرعة تفوق طاقتها. وعلى بعد مئات الامتار من ساندوز، حاولت تخفيف سرعتها، لكنها لم تفلح كثيراً. ولما أنعمت النظر اليها، توجست شراً.

وأصبحت الصغيرة على بعد مئة متر من ساندوز، لكن سرعتها لم تخف. وعلى بعد خمسين متراً، اتضح أنها



الملكة تتأهب للانقضاض على طريدتها وانشاب براثنها فيها.

تواجه خطراً كبيراً. ولكن أنى لها أن تعرف ذلك؟ وراحت تنحدر أكثر فأكثر. وعندما اقتربت من ساندوز، كانت تنهب الارض نهباً، مما جعل ساندوز يبتعد قليلا لدى عبورها من جانبه.

وفي اللحظة الاخيرة الممكنة، حاولت الصغيرة أن تحرك قدميها الى الامام. الا ان ذلك لم يعد مجدياً. وهوت بثقلها أرضاً وراء ساندوز، وأخذت تتقلب فوق الارض في دوامة من الغبار والريش. وأسرعت اليها، لكنني وجدتها نفقت.

أما الفرخ الذكر فتعلم صيد الطرائد بنفسه في أواسط شهر يوليو (تموز). وخلال احدى رحلاته الافرادية، شرد وراء الخط الذي يفصل أرضه عن أرض سواه. ولقنته تلك التجربة درساً في المحافظة على حدوده. لكنه، في الوقت نفسه، اكتشف وجود انثى من فصيلته في الجوار.

وفي شهر اغسطس (آب)، تقلصت النزعة الانعزالية لدى النسور وباتت أشد حماسة لمعاشرة بعضها بعضاً. وما هي الا أيام حتى بدأ النسر اليافع ورفيقته يذهبان الى الصيد معاً، آناً في مملكة الذكر وآناً في مملكة الانثى، من غير أن يتدخل ذووهما في شؤونهما. ولم أستطع التأكد مما اذا كان الصغيران يأكلان الطرائد معاً. لكنني رأيتهما يوماً يلعبان في الفضاء، اذ يلقي أحدهما غصناً فيتلقاه الآخر.

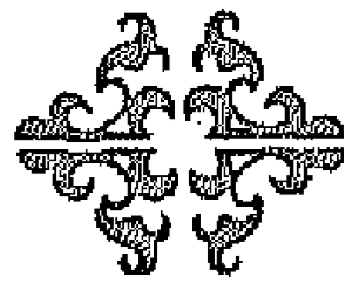
واستحال شجر الحور القطني الذي

يملأ الوادي أصفر كالذهب. وفي تلك الاثناء راح النسران الصغيران يطرحان عنهما زغب الطفولة. وفي أواخر نوفمبر (تشرين الثاني)، عادت غريزة الامومة الى الظهور لدى صاحبة الجلالة. وذات عصر تعقبت هي وساندوز نسرهما الصغير البالغ وأقصياه، على نحو لائق، وراء شجرة أرز قريبة من حدود مملكتهما. وكلما حاول الصغير العودة، كان أبواه يستخدمان أبرع الحيل لابعاده من جديد. وارتبك بادىء الامر لما يحصل وكانت محاولاته للعودة تخالطها حركات تنم عن شعور بالذنب. غير ان ارادة النسرين الكبيرين لم تكن دون ارادة الصغير الذي ما لبث. بعد أن رضخ.

وبعد وقت سمح ساندوز وصاحبة الجلالة لنسرهما البالغ بأن يعود الى ارض مولده، شرط ان يحلق على ارتفاع كبير. لكنهما منعاه كلياً من الصيد او التلبث في مكان واحد. وما أن حل شهر يناير (كانون الثاني) حتى أغلقا حدود مملكتهما تماماً. وفي ذلك الوقت، كان النسر اليافع ورفيقته أصبحا إلفي صيد كاملين وزوجين على وشك تأسيس ذرية جديدة. واذا ابتسم لهما الحظ، فسيقضيان أعواماً طويلة معاً.

وهكذا تدور الحياة.

■ دان ترو



كتاب للملايين

الناشر للمؤلف: "آسف يا سيدي. لكن لدينا كتباً كثيرة عن كيف تصبح من أصحاب الملايين. أتظن انه في امكانك وضع كتاب عن طريقة تحصيل معيشتك؟"

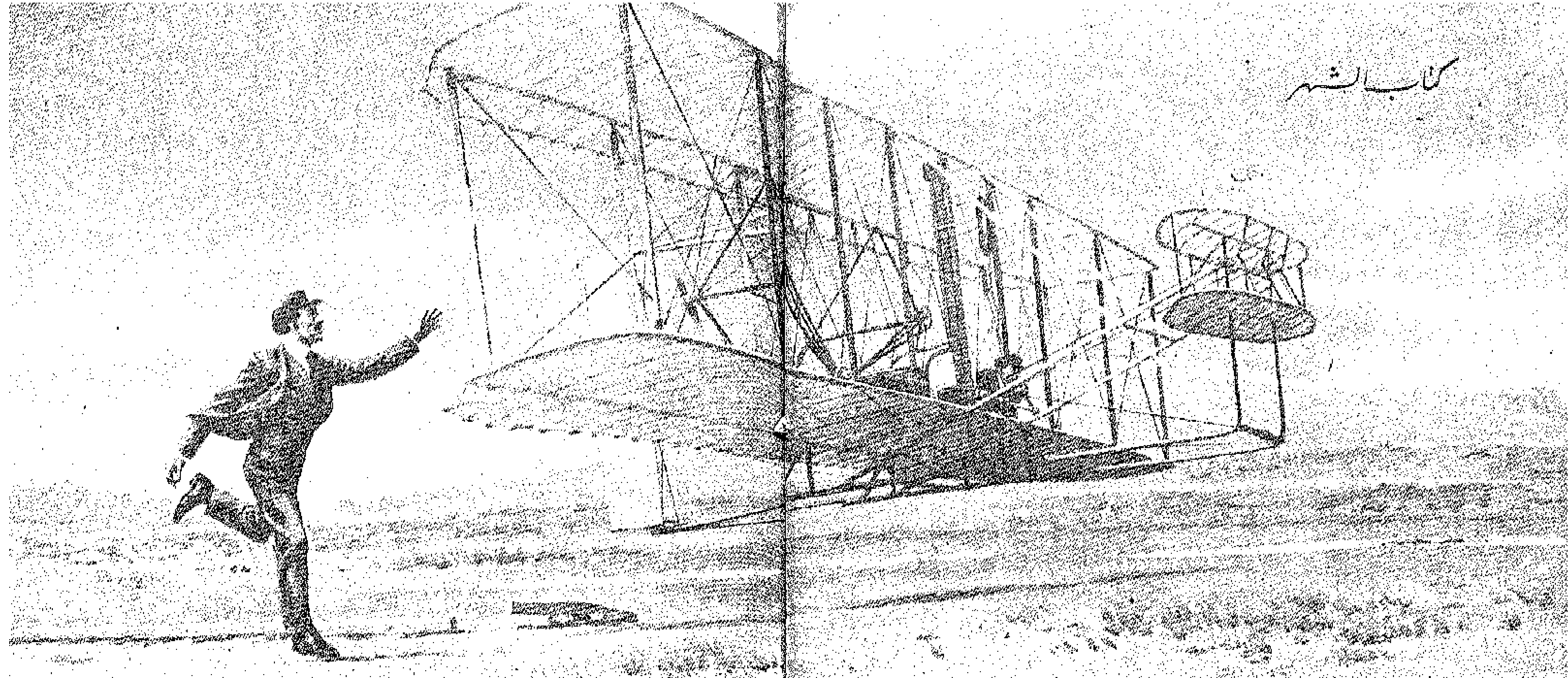
ك. ف.

معجزة الطبيعة

أليست ذرة الهيدروجين البسيطة عنصراً رئيسياً من عناصر الكون؟ ألا يُحْدِث التغيُّر الطفيف في طاقتها وتفاعل أجزائها تغيُّراً هائلاً في الموجودات؟ أنّ التناغم بين أجزاء هذه الذرة يفسر وجود الطائر الصداح وعقل ارسطوطاليس وعبقرية اينشتاين وموسيقى هاندل ومسرحيات شكسبير وروائع الطبيعة وأعمال مايكل أنجلو ومآثر العظام جميعاً. واذا تأملنا في هذه الامور، أيقنا ان ما يستحقّ أن يُسمى معجزة هو النظام الطبيعي والنفس البشرية.

جون اوستن بيكر

كتاب الشهر



ملك الفضاء

ملخص من كتاب بقلم جون ايفانجيليست والش

الأحداث الملحمية التي رافقت اختراع الطائرة بقيت نحواً من ٧٥ سنة في الظل، من غير أن يستطيع الناس التمييز بين الأخوين ويلبور واورفيل رايت اللذين أنجزا أحد أعظم الاختراعات في تاريخ البشرية.

هنا يعيد الكاتب جون ايفانجيليست والش صياغة هذه الأحداث المثيرة بعدما أمضى ثماني سنوات يجمع الوثائق والتفاصيل. وروايته من الحيوية بحيث تجعلنا نعيش تلك اللحظات الحاسمة ونقف وقفة إكبار أمام مثابرة الانسان وقوة فكره.

ملك الفضاء

صعد ويلبور رايت، بجسمه الناحل وأنفه الطويل المعقوف، قطاراً في مدينة دايتون من أعمال ولاية اوهايو الامريكية، ومعه صندوق كبير. وكان في الصندوق عدد من اللوازم المعدنية ونحو خمسين قضيباً خشبياً دقيقاً وبضع بكرات من الاسلاك وقطع من قماش الساتان الفرنسي الابيض، وهو قماش قطني صقيل. وقد شاء أن يستعمل هذه جميعاً لصنع "آلة طائرة" هي عبارة عن طائرة شراعية بلا محرك.

كان ذلك في السادس من سبتمبر (أيلول) ١٩٠٠. وكان ويلبور متجهاً، من غير رفقة أحد، الى كيتي هوك، وهي قرية صغيرة منعزلة تقع ضمن سلسلة الجزر الرملية بالقرب من ساحل ولاية كارولينا الشمالية. وقد وقع اختياره على تلك البقعة بعدما عرف أن سرعة الريح فيها تلائم أهدافه.

وكان وليم تيت، مدير مكتب البريد هناك، كتب إليه قائلا: "إنه مكان مناسب، والرياح فيه تحافظ على سرعة تراوح بين ١٥ كيلومتراً و٣٠ كيلومتراً في الساعة".

ولما وصل ويلبور الى اليزابيت سيتي القريبة من مضيق آلبيمارل، استأجر مركباً شراعياً صغيراً ليحمله مسافة ٦٥ كيلومتراً عبر مجموعة الجزر المعروفة باسم "آوتر بانكس" (الضفاف الخارجية). وما أن استقل المركب حتى وجد الاشرعة ممزقة والحبال بالية والدفة متهرئة. إلا أن النهار كان مشمساً وقد لطفته أنسام عليلة، مما جعل ويلبور يقدر أن خمس ساعات أو ستاً من الابحار فوق المياه الرائقة من شأنها أن تفضي به الى غايته من غير أن تجهد المركب المتداعي.

في منتصف العصر كان المركب وسط مياه استطالت أمامه على مد النظر بحيث لم يظهر أثر لليابسة. ومع سقوط الظلام، أخذ الطقس يسوء باطراد وينهك المركب الذي راح مقدمه يغوص ثم يعلو وظهرت فيه الثقوب. وعند انتصاف الليل استحال النسيم ريحاً هوجاء.



ويلبور رايت



اورفيل رايت

وفجأة انفصل الشراع الامامي عن قاعدته وأخذ يصطفق بقوة على الصاري٠ عندئذ نهض ويلبور وتقدم، برفقة بحار يافع، على ظهر السفينة المائل، الى مكان الشراع وأعادا ربطه٠ لكن الحال لم تدم دقائق حتى اقتلع الشراع الرئيسي محدثاً صوتاً هائلا٠ ولم يبقَ ثمة إلا شراع صغير هو شراع السارية الامامية٠ وانحرافه عن موضعه يعني شرود السفينة في عرض البحر٠

ولم يجد صاحب السفينة من خيار أمامه سوى ادارة مؤخرها نحو الريح، وهو يصلي لئلا تؤدي تلك الحركة العنيفة الى قلب السفينة رأساً على عقب٠ غير أنها جنحت ولم تنقلب، محدثة صوتاً قوياً وهي تندفع شمالا أمام الريح٠ وبعد الاولى فجراً، نزلت الجماعة المرهقة على شاطىء تحتمي به٠

وبقي المركب واقفاً حتى عصر الثاني عشر من سبتمبر (أيلول)٠ ورممت الاشرعة على عجل، وانتظرت الجماعة هبوب ريح خفيفة قبل استئناف الرحلة٠ ومع الغسق أمكن ويلبور أن يرى طيفاً من أرض يتوّج الأفق٠ وفي التاسعة ليلا دخل المركب خليج كيتي هوك٠

أمضى ويلبور ليلته في المركب، وفي الصباح انطلق الى منزل مدير البريد، صديقه وليم تيت٠ وعلى مقربة من المنزل، نصب خيمة منحدرة السطح استخدمها ملجأ ومشغلا لتجميع آلته الطائرة٠

والحق أن الحظ أسعفه فلم يلتهمه خليج آلبيمارل هو وأمتعته٠ ولو وقع ذلك، لقال البحارة القدماء إن هبوب العاصفة في ذلك الوقت لم يكن مصادفة، وان إله الرياح غاظه أن يبصر بشرياً يحاول مشاركته في السيطرة على الجو٠ ولكن، من ناحية اخرى، كانت تلك النجاة طالعاً حسناً، لأن ويلبور وأخاه اورفيل سيحققان حلماً راود الانسان منذ القدم، ألا وهو تذليل الفضاء٠

من الغريب أن الناس باتوا يخلطون

بين الأخوين رايت - ويلبور واورفيل - خلطاً يعسر معه تمييز أحدهما عن الآخر.

اورفيل كان الاصغر بين الاثنين، وهو ذو شاربين وحديث مسهب وودي وغير متحفظ. وكان سريعاً الى كسب الاصدقاء، وقد لقيت قدرته على تشغيل الآلات والطائرات تقديراً كبيراً. غير أن التقدير المباشر كان من نصيب شقيقه.

كان ويلبور يمقت نوافل الكلام ويتحفظ في علاقاته الشخصية الى حد ظن معه الآخرون أنه بارد. وعزز ذلك الظن تنوّقه الكلام المقتضب. وكان وجهه القاتم الحليق طويلا وناحلا حتى الضمور، مما أضفى عليه، عن جدارة، هيئة مفكر.

إن الدافع العنيد الذي لا يعرف الكلل الى حل معضلة الطيران كان من مزايا ويلبور وحده، وإن يكن أخوه أعانه كثيراً. وواضح أن ذاك الدافع لم يكن بالامر العادي ولا بالرغبة العابرة، بل كان اندفاعاً متقداً وجد فيه ويلبور معنى حياته، وطالما خشي أن يولي من غير أن يحققه.

عندما كان ويلبور في الصف الثانوي الرابع، وذلك في العام ١٨٨٥، تلقى ضربة على وجهه من عصا خاصة برياضة الهوكي، وهي لعبة بالكرة تمارس على ظهور الخيل. وكانت الضربة عنيفة، فهشمت أسنانه وأحالت فمه كتلة دم. وبفضل العناية الطبية والاسنان المستعارة، استعاد وجهه شكله الطبيعي. ولكن ما هو إلا قليل حتى ظهر ألم حاد في معدته، مصحوب باضطرابات قلبية. ومما قاله كاتب معاصر: "بدا لكل واحد أن قدرة الصبي تعطلت مدى الحياة".

وانقضت ثماني سنوات لم يجد ويلبور خلالها من يمنحه وظيفة مجدية، حتى بلغ السادسة والعشرين. وانتزع من ذهنه فكرة إعداد نفسه للرعاية الدينية، من غير أن يفكر في بديل منها. وملأ أيامه بالقراءة والعمل حول المنزل، ولم يلبث أن طغت عليه فكرة قاتمة مؤداها أنه سيموت في سن مبكرة. وجاء في رسالة كتبها شقيق أكبر له الى اخته: "ماذا يفعل ويلبور؟ أما زال يطبخ ويرتب الغرف؟"

لكن ومضة من الالهام نزلت على الشاب عام ١٨٩٤، بعد سنتين من افتتاحه وأخاه اورفيل محلا صغيراً لبيع الدراجات واصلاحها في بلدة دايتون. وقد انطلقت تلك الشرارة من مقال في مجلة "ماكلور" يتحدث عن أعمال اوتو ليلينثال، وهو مهندس الماني في السادسة والاربعين. فباستعماله جناحين صلبين يشبهان جناحي الخفاش، استطاع ليلينثال أن يصنع طائرة شراعية حقيقية، وأن يعيد صنعها مئات المرات بنجاح.

لكن موضوع التحليق بأجسام تفوق وزن الهواء لم يحرك ساكناً لدى الجمهور ذلك الحين. وكانت الصحف الشائعة تنشر، من وقت الى آخر، تقريراً يحوي توقعات حول ذلك الامر، فيقابله القراء بفتور. ونادرة هي الحالات التي أحدث فيها موضوع الطيران اهتماماً غير عادي، خصوصاً اذا نُشر مقال يتحدث عن تصاميم ذات أجنحة تعمل يدوياً أو بواسطة محرك. وفي السنوات العشرين التي

سبقت اهتمام ويلبور بالامر، لم يُصنع سوى أربع آلات طائرة استخدمت فيها الاجنحة الثابتة والقوة الدافعة. لكن المحاولات الاربع مُنيت كلها بالاخفاق.

ويمكن أن يكون ويلبور اطلع على إحداها، وهي محاولة مذهلة قام بها الانكليزي حيرام مكسيم، مصمم أول بندقية آلية ناجحة. وقد أطال مكسيم التفكير في مسألة الطيران، فبدا له أن القوة الدافعة هي الشرط الرئيسي. وهكذا بنى آلة ضخمة لا يقل وزنها عن أربعة أطنان، تحملها العجلات وتبلغ قوة محركها البخاري ٣٠٠ حصان. وكان المحرك يدير أكبر مروحتين دافعتين تُصنعان حتى اليوم، إذ بلغ طول الواحدة منهما خمسة أمتار ونصف متر.

وارتفعت الآلة بضعة سنتيمترات عن الارض لدى إطلاقها. لكنها كادت أن تشرد بعد قطعها مسافة قصيرة، مما اضطر مكسيم الى وقف المحرك. وتحطمت الآلة الى حد بات معه اصلاحها عسيراً. وبعد بذله محاولات اخرى، أقلع مكسيم عن فكرة الطيران.

من ناحية اخرى، كان اوتو ليلينتال باشر دراسة مفصلة جداً عن تحليق الطيور. وجاء في مقال مجلة "ماكلور" أن العنصر الرئيسي لنجاح طائرات ليلينتال الشراعية هو "الانحراف الضئيل" في سطح الجناح الاعلى المتدرج من الامام الى الوراء. وتابع المقال أن ليلينتال أخذ ذلك عن الطيور، وأنه هو العنصر الذي يحمل الجناح على النهوض بالطائرة. ولم يستطع ليلينتال أن يحدد سبب ذلك.

وأُعجب ويلبور بجرأة المكتشف الالماني، لكنه أدرك أن طريقته للسيطرة على الطائرة لم تكن ملائمة. ذلك أن الجناحين لا يحافظان على مستوى واحد، بل يميلان مع كل هبة ريح. وكان ليلينتال يجلس في مكان خاص تحت الجناحين، وكلما انحرفت الطائرة الى ناحية أمال رجليه الى الناحية الاخرى كي يعيد إليها توازنها. وأدرك ويلبور أن تلك الطريقة لا تصلح إلا للاجنحة الصغيرة. أما الاجنحة الكبيرة فلا تجدي معها هذه الطريقة، خصوصاً اذا كان الانحراف مفاجئاً أو عنيفاً.

كان ويلبور مستغرقاً في تلك المسألة عندما ظهرت صحة نظرته على نحو موجع. ففي أوائل اغسطس (آب) ١٨٩٦، كان ليلينتال يحلّق عالياً عندما انقلبت طائرته، على رغم اعتماده طريقته المعهودة، وسقطت أرضاً. وفي اليوم التالي مات ذاك الطيار الباسل.

هبوط الوحي

خلال السنتين التاليتين،لم يتصدّ ويلبور لموضوع الطيران إلا عبر مطالعة الكتابات القليلة التي استطاع أن يجدها حوله. وأمضى ساعات فراغه يراقب الطيور. وفي ربيع ١٨٩٩، كتب الى معهد سميثسونيان في واشنطن يسأل عن معلومات إضافية. وهكذا استهل مرحلة من الدراسة والتجربة المكثفتين. وكان، كما وصف نفسه، "وحيداً ومن دون عون".

وجاءه جواب المعهد العلمي في يونيو (حزيران)، ومعه أربعة كتيبات

وقائمة تحمل عناوين كتب، وجاءت نتيجة الدراسة التي أجراها ويلبور تقنعه بأنه، في الحقيقة، ليس هناك شيء اسمه "علم" الطيران.

وكتب الآتي: "في ذلك الوقت لم يكن هناك فن طيران بالمعنى الحقيقي للكلمة بل كل ما كان هناك هو مشكلة الطيران. لقد سبق أن فكر آلاف الناس في آلات لها القدرة على التحليق، لكن قلة منهم صنعت ما سمته آلات طائرة. والحق أن آلاتهم تلك كانت لها جميع المزايا ما عدا مزيّة الطيران. كما أن ألوف الصفحات كتبت حول ما دُعي علم الطيران، إلا أن الافكار التي عرضت لم تكن بأكثر حظاً من التصاميم، والراجح أن ٩٠ في المئة منها خطأ".

لكن ويلبور رايت استطاع بعد ثلاثة أسابيع فقط من بدئه الدراسة الصارمة، أن يجعل من الفوضى نظاماً ويقبض على السر الذي كان مقيضاً له أن يخلق الطائرة مع الوقت.

ذلك السر كان متعلقاً بالسيطرة الجانبية على الطائرة، وهي نقطة الضعف التي تحرّاها ويلبور في طائرة ليلينتال الشراعية. وقد طرأت الفكرة على ذهنه، كما كتب لاحقاً، وهو يراقب طيران الحمام. ووجد أن خفق أجنحة الطيور يحصل بسرعة غير الاعتيادية لا يمكن تفسيرها برفع الجسد. وأضاف: "ثمة قوة فاعلة بالاضافة الى الجاذبية".

ولكن ما عساها تلك القوة تكون؟ إن ذلك شغل ويلبور طويلا قبل أن يأتيه الجواب: "اذا ارتفع الطرف الخلفي للجناح الايمن وانخفض طرف الجناح الايسر، لاستحال الطائر طاحونة هواء حية. وهو يحافظ على توازنه حتى وإن مال إلى حد كاد معه أن ينقلب. وهذا أمر شاهدته بعيني مراراً". وأقنعته المراقبات والدراسات التالية بأنه وحده يملك السر. وما عليه إلا أن يصنع آلة تجسّد ذلك المبدأ. وبعد ستة أسابيع ظهر الحل تلقائياً، على نحو مفاجىء وتام.

وكان ويلبور وحده في محل الدراجات. فدخل المحل زبون يجر دراجة ذات عجلة مثقوبة. وبعدما أبدل ويلبور العجلة الداخلية المثقوبة باخرى جديدة، انصرف الزبون.

وهمّ ويلبور برمي العلبة الصغيرة التي كانت العجلة الداخلية الجديدة فيها، لكنه تريّث بعدما لاحظ علاقة بين ملمسها والاجنحة التي حلم بها طويلا خلال الاشهر الاخيرة. وهكذا هبط عليه وحي بدت فيه العلبة نموذجاً خالصاً لجناحي الطائرة عوضاً عن أن تكون علبة مستطيلة فارغة.

وجلس الى طاولته ورسم على جوانب العلبة خطوطاً عمودية من فوق الى تحت بدت على هيئة دعائم. وضغطها بأصابع يده اليسرى حتى فقد الورق المقوّى بعض صلابته وانحدرت حافة العلبة الخلفية قليلا. وفي الوقت نفسه، ضغط باليد الاخرى الناحية اليمنى، ولكن بطريقة عكسية ارتفعت معها الحافة الخلفية قليلا. وللحال بدا له أن هذا الالتواء الذي أحدثته أصابعه للعلبة يمكن أن تحدثه للطائرة مجموعة أسلاك يرخيها من بكرات توضع بين سطحي الطائرة.

وظل ويلبور يعمل حتى ساعة متقدمة من كل ليلة إلى أن أنجز

نموذجاً ضخماً فرغ منه في ٢٧ يوليو (تموز)، قبل انقضاء اسبوع على تأمله في العلبة التي كانت تضم العجلة. وبلغ امتداد الجناحين متراً ونصف متر، والمسافة بين مقدم كل جناح ومؤخره ثلاثين سنتيمتراً. وقد جعل الجناحان ملتويين قليلا على غرار أجنحة ليلينثال. وكان ويلبور مزمعاً على اطلاق النموذج كما تطير لعبة ورقية، ويسيطر على الانعطاف بأسلاك يصلها بيديه وهو على الارض.

وقد وصف لاحقاً ما حصل بالآتي: "لقد أطلقت ذلك النموذج في أواخر يوليو (تموز) ١٨٩٩ في حقل غرب بلدة دايتون. والحقل اليوم جزء من المدينة. لكنه، آنذاك، كان مكاناً منعزلا لم أظن أن أحداً سوف يطأه". ولم يحضر اورفيل عملية الاطلاق. واقتصر الحضور على تلميذي مدرسة أو ثلاثة راحوا يسيرون الهوينا لتتبع ما يحصل. وبرهنت التجربة عن نجاحها التام.

"أنزلاني!"

الغاية الرئيسية لرحلة ويلبور الى كيتي هوك في السنة التالية كانت اختبار طريقته على طائرة شراعية عادية تحمل رجلا. وكان على قناعة بأن التواء الاجنحة هو المبدأ الوحيد الذي يفسر توازن الطائرة من ناحية الى اخرى. ولكن من أجل تحقيق التوازن الطولي، من مقدم الطائرة الى مؤخرها، قرر ويلبور استخدام آلة رفع أفقية صغيرة بوضعها في الامام، لا في الوراء. ولم تكن تلك الرافعة بدعة في عالم الطيران، لكن أحداً لم يعرف وظيفتها الحقيقية.

وكان ويلبور يعرف حق المعرفة المعضلة التي أربكت رواد الطيران كلهم. فقد كان هناك دافع قوي يحدوهم على اختراع الطائرة والتحليق بها، وهو دافع زيادة أمكنة مجهولة. لكن أقل خطأ في أحد هذين الامرين قد يعني الاصابات البالغة أو الموت المفاجىء.

وارتأى ويلبور أن يتصدى للمسألة خطوة خطوة. وقر رأيه على الانطلاق بالطائرة الشراعية باديء الامر وهي مشدودة الى برج خشبي صغير، على أن يرخي الحبل كلما ابتعد قليلا. وهذا يتيح له أن يقضي ساعات في الفضاء يومياً، مختبراً طريقته في السيطرة على الطائرة وممتحناً مقدرته، على أن يتخلى عن البرج ويمارس الطيران الحر تدريجاً بعد تقوية مهارته.

وبعد نحو عشرة أيام من العمل داخل الخيمة التي نصبها بالقرب من منزل تيت، أنجز ويلبور بناء الجناحين، وكانت المسافة بين طرفيهما خمسة أمتار. ولم يصنع ذيلا للطائرة إذ تبين له، من خبرات الآخرين، عدم جدواه. واضطره تعديل حجم الجناحين الى اعادة تفصيل قماش الساتان الذي حمله معه كي يلائم القياس الجديد. وأنجز هذا العمل في بيت مدير البريد، مستخدماً آلة الخياطة التي تملكها زوجته، فيما كانت السيدة تيت تروح وتجيء متأسفة على ذاك القماش الفاخر الذي يذهب سدى. وفي تلك الاثناء تلقى ويلبور رسالة من شقيقه اورفيل الذي بقي في محل الدراجات في دايتون، يقول فيها ان العمل خفيف في

المحل، وانه سينضم الى أخيه. وقد وصل فعلا في ٢٨ سبتمبر (أيلول)، حاملا معه خيمة كبيرة. وقرر الاثنان أن يعيشا ويعملا في الخيمة التي يمكن أن تؤوي الطائرة في الوقت نفسه.

وفي ٦ اكتوبر (تشرين الاول)، أنجزت الطائرة الشراعية والبرج الخشبي. وهبت ريح في ذلك اليوم بسرعة أربعين كيلومتراً في الساعة. وكان قد ترك مجال ضيق وسط الجناح الاسفل، بعرض ٤٥ سنتيمتراً، لجلوس الطيار ووجهه الى أسفل، على أن يريح ساعديه على حافتي الجناح ويلقي عجزه على درجة خشبية ويمد رجليه الى الرافعة التي صُنعت لامالة الجناحين.

وبعدما تناوب اورفيل وتيت على شد الحبال عند رأسي الجناحين، جلس ويلبور في مكانه فيما أرخيت الحبال قليلا قليلا. وارتفعت الطائرة مع الريح الى علو أربعة أمتار ونصف متر. ولكن ما هو إلا قليل حتى بدأت تخفق ويترجّح مقدمها وهي تميل بشدة من ناحية الى اخرى. وجاء صوت ويلبور يقول: "أنزلاني! أنزلاني". وشد الرجلان الحبال فيما دب ويلبور خارجاً. وسأله أخوه: "ما الامر؟" فوقف يتمتم: "لقد قطعت عهداً على أبي بألا أجازف بحياتي".

وصعد الى الطائرة مرة اخرى وأخذ يتدرب عليها وهي على الارض، مستخدماً الرافعة برجليه. وأحسّ أنها تلبيه هذه المرة. وبعد نصف ساعة من التمرين، عبر عن رغبته في العودة الى البرج.

وأخذ ويلبور مكانه بينما وقف اورفيل وتيت يرخيان الحبل الغليظ الذي يصل وسط الجناح الادنى بالبرج. وارتفعت الطائرة حتى استقرت على مستوى البرج تقريباً، وهو أربعة أمتار ونصف متر. وأخذ الحبل يطول والارض تتراقص تحت عيني ويلبور. غير أن ابتهاجه لم يدم طويلا، إذ سرعان ما تبين له أن في الامر خطأ ما.

إن السيطرة على الجناحين لم تتم كما كان متوقعاً، بحيث يظلان موازيين للارض. لكنهما اتجها بحدة الى فوق حتى باتت الطائرة تحلق على زاوية بمقدار عشرين درجة مع الافق، وهذا وضع سيىء، بل مستحيل، للطيران، لانه يحبط السيطرة على الطائرة.

وبقي ويلبور نحو ثلاث ساعات داخل طائرته وهي على قمة البرج قبل أن يطلب من معاونيه إنزاله وقلبه يتفطر غماً. وتبين له أن الخطأ في الجناحين. وأظهرت الاختبارات اللاحقة أنه اثقل طائرته بضعفي الوزن الذي يمكنها حمله.

ولكن عند أي نقطة من الجناحين يكمن الخطأ؟ أتراه يكون في انحراف الجناحين، أي ما عُرف آنذاك بالعارضة المحدودبة؟ أم هو قماش الساتان الذي يغلفهما؟ أم أنه الحجم؟ لقد بنى ويلبور الجناحين على غرار القياسات المتبعة آنذاك، وكان موقناً أنه نقل بدقة ما جاء في القوائم الحسابية. إذاً، هل يمكن أن يكون الخطأ في القوائم التي وضعها ليلينثال وسواه على مرّ سنين؟

وعندما استأنف ويلبور العمل، تبين له أن الساعات الطويلة التي حلم بأن

يصرفها في الجو كانت مستحيلة. فهو كان يحتاج الى إبقاء الطائرة على ارتفاع ثابت وسط ريح تراوح سرعتها بين ٥٥ كيلومتراً و٦٥ كيلومتراً في الساعة. ولكن أنى له تحقيق ذلك بما لديه من خبرة ضئيلة؟

ولم ينفك ويلبور واورفيل عن اجراء الاختبارات طوال الاسبوعين التاليين. ومرة أطلقا الطائرة من دون طيار، إلا أن ذلك كله لم يفتح أمام ويلبور السر الخفي. وسجل اورفيل في مفكرته ما يأتي: "عندما كنا وسط تلك الاختبارات، كانت أفكار ويلبور مضطربة بحيث لم يتمكن من العثور على أي نظرية". وفي ٢٣ اكتوبر (تشرين الاول)، ودّع الأخوان آل تيت واستقلا مركباً حملهما الى اليابسة.

ولئن تكن الاسابيع الستة التي أمضاها ويلبور على الجزيرة أثبتت صحة طريقته في السيطرة على الطائرة، إلا أنها لم تمكنه من الطيران الناجح. وتبين له أن الخطأ يكمن في الجناحين أكثر مما في الرافعة التي ابتكرها للسيطرة على حركتها.

ووهب الطائرة الشراعية لآل تيت. وسرعان ما انتقلت الروافد والدعائم والاعضاء التي صنعتها يدا ويلبور بعناية فائقة الى موقد المطبخ. وراحت ابنة تيت الصغيرة تتخطّر على الدروب الرملية وهي متّشحة برداء من الساتان الفرنسي.

عنصر جديد

بعد عودته الى دايتون، أحضر ويلبور لوحي خشب ووصلهما على هيئة الرقم ٧، جاعلا نقطة السبعة السفلية ترتكز على محور يتيح للشكل أن يتحرك يميناً أو يساراً. ثم صنع عدداً من الاجنحة الخشبية الصغيرة المختلفة من حيث الحجم ودرجة الانحراف. وامتحن كل زوج من الاجنحة على حدَة بتركيز كل جناح على إحدى ناحيَتي السبعة وتعريض الجهاز للريح.

وعلى رغم إقراره ببدائية تلك الآلة، إلا أن ويلبور لم يتخلّ عن قناعته ببطلان قوائم ليلينثال الحسابية وبأن هناك حاجة الى زيادة مساحة الجناحين. وشرع في بناء جناحين جديدين، يزيد عرض الواحد منهما على المترين. وبلغ وزن الطائرة الجديدة ٤٤٫٥ كيلوغراماً، أي ضعفي وزن الطائرة السابقة.

وعاد الشقيقان الى منطقة الجزر في يوليو (تموز) ١٩٠١، ونصبا خيمة في جوار كيل ديفيل هيل، وهي كثيب رملي يرتفع ثلاثين متراً ويبعد نحو ستة كيلومترات ونصف كيلومتر عن منزل آل تيت. وقد اختارا ذلك الموقع لاطلاق الطائرة عن قمته. لكن تجارب اليوم الاول، وهي عبارة عن عشرين تحليقاً قام بها ويلبور، أسفرت عن خيبة مريرة. ذلك أن الضابط الطولي، أي جهاز الرفع، أخفق في وظيفته، فارتفعت الطائرة مرتين الى حد يشكل خطراً عليها. وهذا بيّن أن ثمة حاجة الى حل مسألة الارتفاع.

وأمضى ويلبور الايام العشرة التالية مطيّراً الآلة كدمية ورقيّة، حتى قرّ رأيه على خفض انحراف الجناحين ومساحة الرافعة. ووجد أن ذلك يحسّن الضبط الطولي. وفي الثامن من اغسطس (آب)، حلّق ١٣ مرة عن

قمة كيل ديفيل هيل. وكان ذلك أول يوم يعرف فيه الرضا الخالص عن عمله، على رغم أن مشكلة الارتفاع بقيت من غير حل. وقرر أن ينجز دورة خلال طيرانه في اليوم التالي.

لقد ظن جميع المعنيين بالطيران، خلال ما يزيد على نصف قرن، أن انعطاف المركبة الجوية يمكن أن يتم على غرار انعطاف المركبة البحرية، وذلك باستخدام دفة موجهة لئلا يختل مستوى الجانبين أو الجانحين. غير أن معظمهم لاحظ أن ذلك لا يحاكي الطيور التي تنعطف بخفض أحد الجناحين ورفع الآخر. وظنوا أن الانسان لن يستطيع تقليد الطيور تماماً، لكنهم وجدوا في ذلك سبقاً للانسان الذي يمكنه أن يحافظ على وضع مستقيم وهو ينعطف خلال الطيران.

أما متى بدأ ويلبور يفكر في تقليد انعطاف الطيور، فلا أحد يعرف بالضبط. ولكن ليس مستغرباً أن تكون الفكرة طرأت له كنتيجة طبيعية لمبدأ انعطاف الطائرة جانبياً بواسطة إمالة الجناحين.

وفي التاسع من اغسطس (آب)، أطلقت الطائرة عن قمة الكثيب. وما أن شعر ويلبور بأنه يسيطر على الآلة حتى شغل الاسلاك الحارفة. فاستجاب الجناحان وانعطفت الطائرة يساراً. وبعد مضي عشر ثوان اضطربت الطائرة قليلاً، فأعادها ويلبور الى وضعها الطبيعي وأنزلها أرضاً.

وحلّق ثلاث مرات اخرى من غير انعطاف. وفي المرة الخامسة، بينما كانت الطائرة مائلة جانبياً، لامس أسفل الجناح الايسر الارض وهوت الطائرة في وابل من الرمل. واصطدم رأس ويلبور بالآلة الرافعة ونجا بأعجوبة، لكنه اصيب بخدوش في أنفه وعينه. ولم يقوَ على التحليق من جديد قبل الرابع عشر من اغسطس (آب).

وفي الايام الثلاثة التالية أجرى محاولات عدة، أخفق في ست منها على الاقل. وفي السادس عشر من ذلك الشهر، تبين له أن ميلان الطيور ينطوي على عنصر مجهول. وكتب الآتي: "ان انعطاف طائرتنا لا يتم، في جميع الظروف، نحو الجناح الأدنى. وهذه الحقيقة الجديدة من شأنها قلب نظرياتنا السابقة". وبدا له أنه بات يعرف الخطأ، وأن التواء الجناحين يخلق مشاكل للطائرة، وإن أدى الى انعطافها. وفي حين ظل الجناح الادنى محافظاً على سرعته، فإن سرعة الجناح الاعلى كانت تنقص باطراد، مما يحمل الطائرة عكس الوجهة المنشودة ويجعل حركتها شبيهة بحركة طائر كسير الجناح.

وكان ذلك الاخفاق خيبة كبيرة بالنسبة الى ويلبور. وكتب لاحقاً: "لدى مغادرتنا كيتي هوك في نهاية العام ١٩٠١، كنا نشك في أننا سنستأنف تجاربنا". وفي القطار الى دايتون، جلس ساهماً وهو يتكلم أقل من المعتاد. وقطع تأملاته لحظة ليقول بإصرار إنه اذا تسنى للانسان أن يطير على الاطلاق، "فهذا لن يتم خلال حياتنا... وهو لن يحصل قبل ألف سنة!"

آلة جديدة

إن شعور ويلبور المرير بالخيبة لم

يلطفه مرور الايام والاسابيع · وبقيت أمامه مجموعة مسائل شائكة تفضي إحداها الى الاخرى، ومعظمها لم يدر في خلد روّاد الطيران السابقين أو المعاصرين· وكانت أعظم المسائل تلك المتعلقة بطول الجناح وعرضه ودرجة التوائه·

أما الفكرة التي كان لها فعل طرد هذا القنوط أخيراً فلم تهبط عليه بالسرعة المرجوّة· لكنها بدأت برسالة تلقاها من رائد آخر اسمه اوكتاف شانوت، يعود اهتمامه بالطيران الى أربعين سنة خلت· وكان كتاب شانوت "تطور الآلات الطائرة" الذي صدر عام ١٨٩٤، أوّل معالجة تاريخية شاملة للموضوع· وكان ويلبور قد كتب إليه في أعقاب الرحلة الاولى الى كيتي هوك، وقام شانوت بزيارة الاخوين رايت هناك خلال الصيف الفائت· وها هو الآن يدعو ويلبور الى إلقاء محاضرة أمام الجمعية الغربية للمهندسين التي كان يرئسها، وأُلقيت المحاضرة في ١٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٠١ في شيكاغو، وسرعان ما أضحت علامة بارزة في علم الطيران·

وعرض ويلبور صوّراً فوتوغرافية وتصاميم عدة على شاشة كبيرة، مستخدماً إياها لوصف اختباراته، بما في ذلك سر ميلان الجناحين· وأقر بأن أعظم خيبة واجهها كانت العثور على خلل في قوائم ليلينثال التي تلاقي أوسع قبول من المعنيين بالامر·

وعبّر شانوت الذي راقه الحديث، عن رغبته في نشر المحاضرة في مجلة الجمعية· غير أن ويلبور تردد حيال ذلك، بحجة أنه يؤثر التريّث كيما يقوم بالمزيد من الاختبارات للتأكد من مدى الخطأ الذي تنطوي عليه حسابات ليلينثال· فهو لم يشأ أن يدحض بخفة نتائج عالم مرموق·

ولدى عودته الى دايتون، صنع ويلبور جهازاً اختبارياً شبيهاً بجهازه الخشبي الذي جعله على هيئة الرقم ٧ خلال الصيف السابق والذي لم يسفر عن نتائج طيبة· وصنع ويلبور جهازه الجديد على غرار آلة شائعة آنذاك، وهي الدوارة التي يُستَدَل بها على اتجاه الريح· وركز عليها جناحين صغيرين، مثبتاً أحدهما بحيث يميله ضغط الهواء يميناً والآخر بحيث يميله الضغط يساراً·

وللحصول على ظروف ملائمة، وضع تلك الآلة على طرف وعاء صنعه من علبة قديمة، ووضع على الطرف الآخر مروحة لتوليد تيار هواء ثابت· وأجرى بعض الحسابات على زوايا الجناحين، متعلقة بقدرتهما على النهوض بالطائرة· وبعد يوم واحد من الاختبار كتب الى شانوت مؤكداً أن "قوائم ليلينثال تنطوي على خطأ أساسي"·

ومع هذه النتيجة، اتت نتيجة اخرى، من دون توقّع· فقد تبين لويلبور أن القمع الهوائي الذي أهملته الدوائر العلمية في أعقاب استعماله الاول قبل ثلاثين سنة ونيف، من شأنه إحالة موضوع تصميم الاجنحة المعقّد رياضيات بسيطة·

وبرهنت آلة القياس، التي صنعها ويلبور من أجزاء جمعها من محل الدراجات، عن أهليتها طرح مبادىء أساسية لم يتوصل إليها أحد قط من قبل، إضافة الى وفرة من التفاصيل

الدقيقة حول خصائص الأجنحة وطريقة عملها. وبواسطة تلك الآلة، سجّل ويلبور أكثر من ألف معادلة. وبعد امتحانها جميعاً، كتب الى شانوت رسالة جريئة يقول فيها ان الطائرة العملية التي يدفعها محرك هي في الافق القريب، ولا يفصلنا عنها إلا "سنوات قليلة جداً".

وصمّمت طائرة ذلك الشتاء كانت أفضل من سابقاتها، مع الافادة من ثلاثة أجنحة اختبارية أو أربعة. أما أبرز تعديل فكان في المسافة بين الجناحين التي بلغت تسعة أمتار وثمانين سنتيمتراً. ولم يسجل وزن الطائرة الجديدة، وهو (٥ كيلوغراماً، زيادة ملحوظة على وزن سابقتها. وجُعل احديداب الرافدة مسطّحاً أكثر من أي مرة، وعُدّلت السيطرة على التواء الجناحين. وأُضيف الى الطائرة الجديدة تجويف لجلوس الطيار بحيث يمكنه حرف الطائرة يميناً أو يساراً عند الضرورة.

ثمة مظهر واحد كان جديداً كل الجدة، وهو الذيل. وكان مروحة ضيقة ذات ريشتين ثبتت على سارية تمتد أكثر من متر وراء الجناحين. وهي مروحة ثابتة كان يأمل ويلبور أن يحل بواسطتها مشكلة الانعطاف.

السر الأخير

عاد الأخوان الى كيتي هوك في أواخر صيف العام ١٩٠٢. وفي ٢٠ سبتمبر (أيلول)، حملا الطائرة الجديدة، بمساعدة تيت، الى كيل ديفيل هيل. وباشر ويلبور تمارينه بالتحليق مرة بعد مرة في خط مستقيم. وكاد، في احدى تلك المرات، أن يهوي وآلته أرضاً، لكنه عزا الخطأ الى نفسه. ووجد في الطائرة الجديدة جل ما كان يتوخاه من حيث القدرة على الارتفاع وضبط التوازن.

وحان الوقت كي يبدأ اورفيل تدرّبه. وفي ٢٣ سبتمبر (أيلول)، ذهب الأخوان في معيّة تيت الى تلة صغيرة غرب الكثيب الرئيسي. وبرهن اورفيل عن قابليته، مظهراً موهبة للاتيان بالحركات الصحيحة. وعند العصر عاد الثلاثة الى الكثيب الكبير.

هناك استهل اورفيل الطيران، ثم استقل ويلبور الطائرة وارتفع بها ستين متراً. إلا أنه تحسس خطأ ما بعدما انحرفت الطائرة، خمس مرات أو ستاً، "من ناحية الى اخرى". لكن هذا لم يثنِه عن السماح لأخيه اورفيل بالتحليق من جديد.

وانطلق اورفيل من نقطة منخفضة في التلة وهو يقبض حسناً على زمام الطائرة. وهبت ريح حرفت الجناحين، فعمد الى طريقة الامالة علّها تعيد التوازن. غير أن ذلك لم يحصل، بل تابع الجناح المرتفع ارتفاعه، كذلك مقدم الطائرة. ووجد اورفيل نفسه ينزلق الى الوراء. وأخذت الطائرة تدور على نفسها قبل أن يلامس رأس جناحها الارض وتهوي بقوة فوق الرمل. وقال اورفيل لأخيه ان سبب الاخفاق كان، على ما يظن، عدم استخدامه ضابط الانحراف في الوقت الملائم.

وأخذ ويلبور الطائرة وحلّق بها مرتين وهو ينعطف يساراً ثم يميناً. واستقل بعده اورفيل الطائرة، متمنياً أن يبلي حسناً هذه المرة. ولكن ما

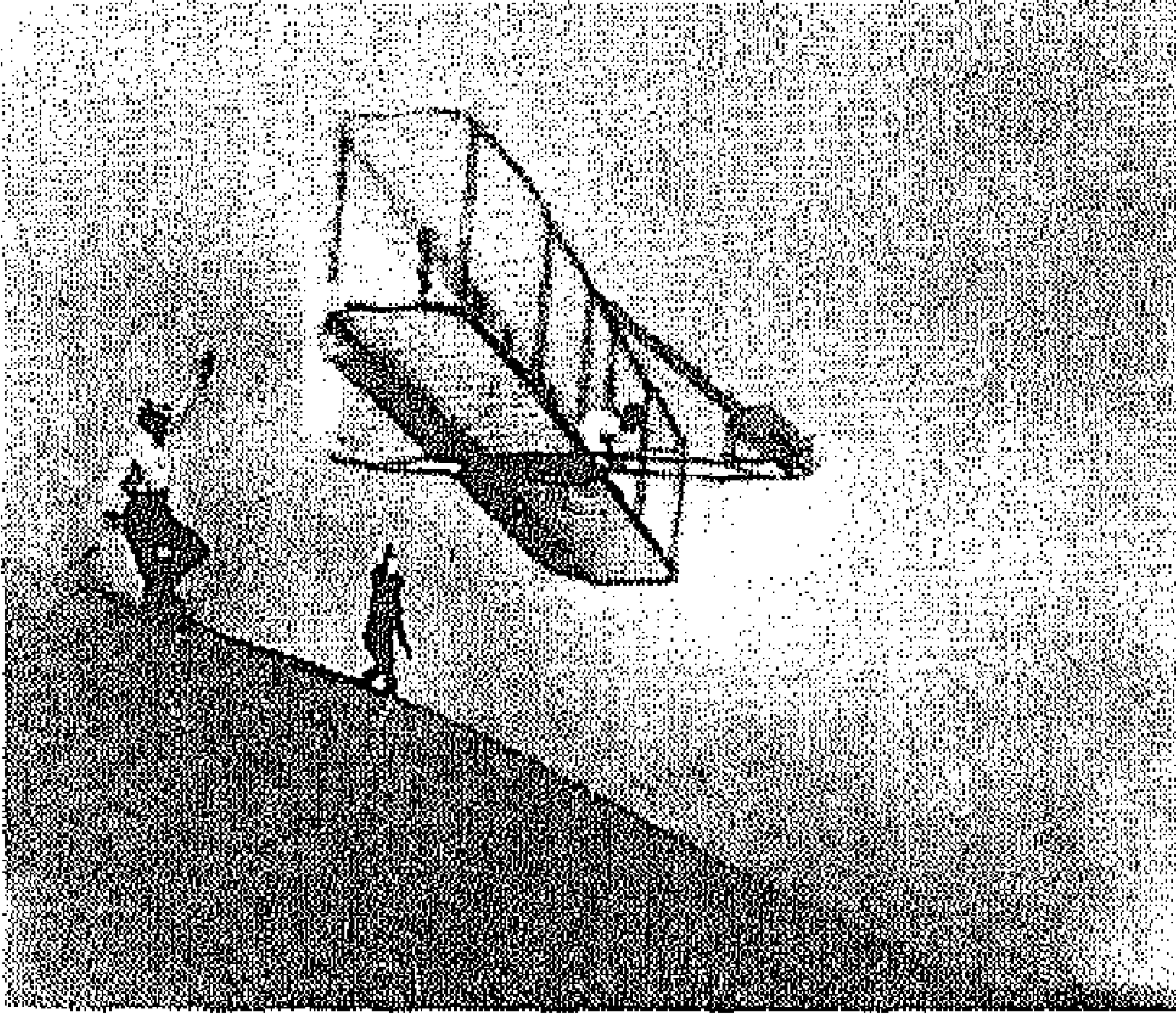
كاد ينطلق حتى واجهته المصاعب.

فهو كان يحلق على ارتفاع تسعة أمتار عندما تبين له أن "أحد الجناحين آخذ بالارتفاع فيما الطائرة تنحرف في الاتجاه المعاكس". ونهض بجسمه قليلا للقبض على ضابط الانحراف وإعادة الجناح الى وضعه. لكن الجناح الأعلى ارتفع على حين غرّة وتبعه مقدّم الطائرة كما حصل قبل، بينما انعطفت الآلة الى ناحية واحدة وبات مستحيلا السيطرة عليها. وخفت سرعتها واستقرت قليلا وسط الريح العنيفة التي ما لبثت أن قذفتها الى الوراء نحو التلة. ولم يبقَ من مجال أمام اورفيل سوى القاء نظرة رعب خاطفة خلفه قبل اصطدام الطائرة بالأرض.

وبعدما هوت على التلة تدحرجت بضعة أمتار حتى استقرت متكومة على نفسها وقد تصدّعت هنا وهناك. وأسرع ويلبور وتيت نحو اورفيل، وشاهداه خارجاً من بين الحطام وقد أرعبه ما حصل من غير أن يصيبه بأذى.

ورُمّمت الطائرة قبل إعادتها الى الكثيب الكبير في ٢٩ سبتمبر (ايلول). وحلّق الأخوان بها مرة بعد مرة من دون حادث يُذكَر، سوى أنهما لاحظا عطلا غريباً في الجناح الأدنى يجعل الطائرة تهبط لولبياً. ولكن لم يتمكنا من تحري هذا العطل لعدم انتظامه: فما الذي يفسّر تحليق الطائرة مرّة على أتم وجه، ثم ظهور هذا العطل فجأة بين مرة واخرى، على رغم ثبات الظروف كما تدل الاشارات؟

وفي اليومين التاليين، أنجز



ويلبور، في العام ١٩٠٢، أمام أجهزة ضبط طائرته الشراعية الجديدة التي صنع لها ذيلا متحركاً.

الأخوان نحو أربعين تحليقاً مناصفة. وكادت الطائرة أن تصدم الارض غير مرة عند الهبوط، الى حد أن ويلبور قال: "من حسن حظنا أننا نجونا". إلا أن ذلك لم يثبط عزمهما، بل ثابرا بعناد لتحقيق الهدف.

وأخيراً قدم الحل نفسه الى ويلبور عندما افترض أن الخطأ في الذيل الذي كان ضغط الهواء يضربه، أحياناً، في الموضع غير الملائم. وهو كتب الآتي: "اذا كان هذا التفسير صحيحاً، وجب أن نجعل الريشة العمودية متحركة".

وكان المفهوم جديداً برمته. فالذين سبقوه الى تصميم ذيل متحرك شاؤوا إدارة الآلة به. غير أن أحداً منهم لم يضع تصميمه موضع التنفيذ. وان هو فعل، لتبين له سريعاً استحالة استخدام الذيل كعمود إدارة. أما ويلبور فقد أراد هذا الجهاز المتحرك لحفظ التوازن، على أن يمال الجناحان بقصد الانعطاف. (وقد تطور مبدأ إمالة الجناحين حتى بات هذا العمل يتم بواسطة جنيّحات، وهي أجزاء

متحرّكة من جناحي الطائرة غايتها حفظ التوازن الجانبي عند الانعطاف). وكان اكتشاف الأخوين المبدأ الاساسي للطيران.

وبعد ستة أيام أُدخل التعديل على الذيل. وأنجز الاثنان نحو ثلاثين تحليقاً دونما عثرة أو ميلان جانبي أو هبوط لولبي. وكان للعمود المتحرّك فعل السحر في تطويع الجناحين العنيدين اللذين حولا الطائرة آلة سهلة القياد. ولم يكن ثمة شك، كما أصرّ ويلبور منذ البداية، في أن الطائرة الشراعية التي تمكن السيطرة عليها في جميع الظروف تستطيع، متى حملت قوتها الدافعة، أن تحلق باستمرار الى أقصى الاماكن.

منافسة

استغرق بناء المحرك والمراوح الشتاء بطوله، وكان الفراغ منه في يونيو (حزيران) ١٩٠٣. وبعد ذلك باشر الأخوان صنع الآلة نفسها التي سمياها "الطائرة". وكانا وسط العمل الدؤوب حين بلغهما، في يوليو (تموز)، خبر باعث على الغم، مؤداه أن هناك منافساً يسعى الى التحليق قبلهما بطائرته الآلية.

ذلك المنافس كان الاستاذ ساموبل لانغلي، الفيزيائي الفضائي ذو الشهرة العالمية ورئيس معهد سميثسونيان العلمي. وكان لانغلي دُهش بتحليق الطيور منذ طفولته وبدأ، في العام ١٨٨٦، سلسلة اختبارات على الآلات التي تفوق الهواء وزناً. لكن ما جناه طوال عشر سنين، بمساعدة علماء آخرين، لم يتعدّ كونه سلسلة خيبات وصفها لانغلي نفسه بأنها "تاريخ كارثة".

لكن العام ١٨٩٦، الذي شهد وفاة ليلينثال، كان انتصاراً بالنسبة الى لانغلي. فهو صنع نموذجاً ضخماً سماه "الطريق الجوية". وأطلقه، وهو يزن ١٣ كيلوغراماً ونصف كيلوغرام، من مركب معد للسكن على ضفة نهر بوتوماك. وارتفعت تلك المركبة غير الآهلة، التي تضم محركاً بخارياً صغيراً، نحو ٧٥٠ متراً ثم استقرت على الماء من غير أن يلحق بها أذى. ولم تكن تحوي من الضوابط سوى ذيل بدائي. لكنها لقيت اهتماماً واسعاً كونها النموذج الاول الذي يطير فعلا.

وأُبرم اتفاق سري مع وزارة الحرب الامريكية، مُنح لانغلي بموجبه مبلغ خمسين ألف دولار وكل ما يلزم من عون لصنع طائرة كبيرة تامة. وفي منتصف يوليو (تموز) ١٩٠٣، أُعلن أن منزل لانغلي العائم زُوّد بآلة متطورة لاطلاق الطائرة التي أصبحت أجزاؤها على سطحه برسم التجميع.

وفي ٨ اغسطس (آب)، سُحبت الطائرة نحو جهاز الاطلاق. وقد جعل لانغلي حجمها ربع حجم النموذج السابق، الامر الذي يتيح له اختبار نظرياته. وأُطلقت، غير آهلة، من المكان المعد لها، لكنها أخفقت. وحملت صحيفة "نيويورك تايمس" العنوان الآتي حول الحادث: "مركبة فضائية تشبه الغواصة: خلل في عمود الادارة يرسلها تحت الماء".

وعلى رغم ذلك الاخفاق، أصر لانغلي على أن آلته الطائرة كانت مستوفية كل الشروط. واذا كان هذا صحيحاً، فهو يعني أن لانغلي على

وشك تحقيق الخطوة الجبارة. لكن الاخوين رايت كانا يشكان في صحة هذا الامر.

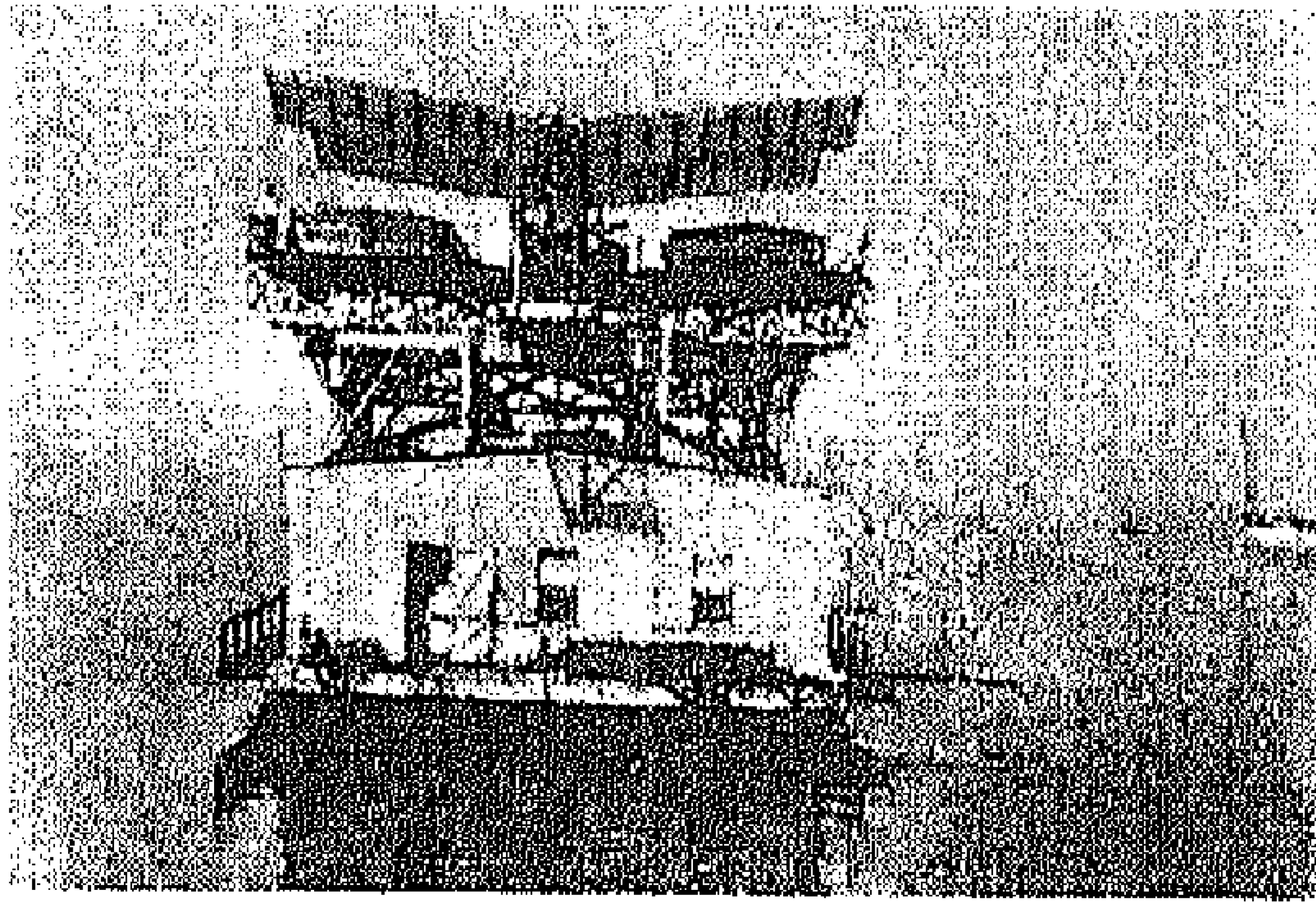
بيد أن اختبارات لانغلي لم تحملهما على الانكفاء. وبما أنه كانت هناك حاجة الى إجراء مزيد من الاختبارات الآلية، فقد قرر ويلبور إقامة حظيرة اخرى على أرض الجزيرة لاستخدامها مشغلا ومأوى للطائرات. هناك سيتعاون وأخاه على تجميع أجزاء الطائرة، ويختبرانها كطائرة شراعية قبل تركيب المحرك. وهذا من باب الاحتياط اللازم. واذا تم كل شيء كما يرام، فسوف يقوم أحدهما بالمحاولة الفعلية الاولى في يوم صاف. ولكن بدا واضحاً أن لانغلي سيسبقهما الى ذلك.

"لقد حان دَورُنا"

عاد الأخوان الى كيتي هوك في شهر سبتمبر (أيلول). واستأنفا التمرين على الطائرة الشراعية التي صنعاها عام ١٩٠٢، طوال الفترة التي صرفاها في بناء الحظيرة الجديدة. وفي ٧ اكتوبر (تشرين الأوّل)، اقتصر نشاطهما، كما جاء في مفكرتهما، على ادخال تعديلات طفيفة على الآلة السابقة. ولم يعرفا أن لانغلي قام بمحاولة اخرى في اليوم نفسه، من غير إعلام أحد.

وكتبت صحيفة "نيويورك تايمس"، تحت عنوان "الآلة الطائرة: إخفاق تام"، ما يأتي: "انطلقت المركبة الفضائية الضخمة بسرعة عن منصة طولها عشرون متراً، ثم تقدمت، بفعل قوتها الدافعة، نحواً من مئة متر قبل أن تهوي الى نهر بوتوماك وتغدو حُطاماً. ولم يكن، في حركتها، ما يشبه التحليق".

ويُرَجَّح أن يكون الأخوان رايت سمعا بالحادث بعد يوم أو اثنين من وقوعه. لكن تعليقهما الوحيد الذي بلغنا حملته رسالة كتبها ويلبور الى شانوت، وفيها الآتي: "أرى أن لانغلي قال كلمته ومشى. ويبدو أن دورنا قد حان، وإني لأتساءل عن حظنا في النجاح".



طائرة سامويل لانغلي على البيت العائم في نهر بوتوماك عام ١٩٠٣.

في ٩ أكتوبر (تشرين الأول)، بدأ تركيب الآلة. وكان جورج سبرات، أحد معاوني شانوت، وصل الى الموقع، تحدوه رغبته في مشاهدة التجربة الاولى. وكتب شانوت يعبّر عن رغبته في الحضور هو أيضاً. وتسلم الأخوان رسالته في الأول من نوفمبر (تشرين الثاني) ومعها قصاصة صحيفة جاء فيها أن الاستاذ لانغلي، على رغم الخيبة التي مُني بها، ألح على قيادة الجيش منحه فرصة اخرى لاختبار آلته. وقُرّر أن يلتئم مجلس القيادة في ٨ نوفمبر (تشرين الثاني). وهذا يعني أن

لانغلي - إذا أفلح في اقناع المسؤولين بموقفه - قد يكون على استعداد لاستئناف المحاولة بعد أيام. والمرجح أنه باشر إصلاح الآلة.

أما آلة الأخوين رايت فقد بلغت المسافة بين جناحيها ١٢ متراً. وكان عليهما تجميع الذيل وتركيبه. وبعد ذلك، ربما كان من الأجدى التحليق بها بضع مرات كطائرة شراعية قبل إطلاقها مع المحرك. حتى اذا فرغا من هذا الاختبار، بقي عليهما تركيب المحرك واختباره على الارض، وهذا يستغرق اسبوعاً. وإذا تم كل شيء على ما يُرام، فستكون الطائرة على استعداد للاطلاق في حدود ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني).

واتخذ ويلبور، ذلك المساء، قراراً هو أجرأ قرار يتخذه في حياته، وأرعنه في الوقت نفسه. وقد وافقه عليه اورفيل. والقرار يقضي بإلغاء أحد البنود الاختبارية، وهو اختبار طيران الآلة قبل تركيب المحرك. إضافة الى هذا، قُرّر تركيب المحرك والمروحتين الدافعتين صباح اليوم التالي، خلال وضع الذيل في مكانه. وهذا يعني أن ثلاثة أيام أو أربعة من العمل المتواصل قد تكون كافية. وكانت خطتهما الأساسية تقضي بإطلاق الآلة عندما تكون سرعة الريح ٢٥ كيلومتراً في الساعة. لكنهما قررا إطلاقها في اليوم الخامس او السادس من ذلك الشهر، مهما يكن وضع الريح.

وباشر الأخوان تنفيذ برنامجهما صباح اليوم التالي. وفي الرابع من ذلك الشهر، دوّن اورفيل في مفكرته ما يأتي: "لم يزل أمامنا نصف يوم لانجاز الآلة".

لكنهما اضطرا الى وقف العمل في اليوم التالي بعد ظهور خلل في أحد الأجزاء. ذلك أن المحور في كل من المروحتين كان قد أُجهد خلال تجربة سابقة استُخدم فيها محرّك اختباري، الى حد انحرفت مع ماسورة المروحة وبات لزاماً إعادتها الى دايتون. وصدف أن سبرات كان راجعاً، فعرض حمل الماسورتين الى حيث هو ذاهب.

في تلك الاثناء وصل شانوت. ولكن ما كاد ينقضي اسبوع حتى أجبره الطقس الرديء، ببرده ومطره، فضلا عن حياة المخيم القاسية، على العودة من حيث أتى، وكانت الأغذية التي حملها الأخوان معهما شارفت النفاد، وباتا يعيشان "على النزر اليسير"، كما كتب اورفيل الى شقيقته، فيتناولان "الحليب والكعك عشاء، والقهوة والحلوى فطوراً".

إلى هذا، لم تكن عدة النوم مجلبة للراحة. وغالباً ما كان البرد القارص يقتضي، على حد تعبير ويلبور، استخدام "خمسة حرامات ولحافين، والخوف من أن يأتي وقت يضطرنا الى النوم بملابسنا وأحذيتنا وقبّعتينا وحتى معطفينا".

وما أن أصبحا على استعداد لاطلاق الآلة في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) حتى برز لهما خلل جديد، وهو أن إحدى الماسورتين اللتين أُعيد صنعهما كانت تحتوي على صدع مشعّر. وتقرّر أن يذهب اورفيل نفسه الى دايتون لصنع ماسورتين جديدتين، على أن يكونا من الفولاذ هذه المرة. وهكذا ترك أخاه في ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني)، على أنه

يوافيه بعد اسبوعين. وهذا يعني أن لانغلي سيسبقهما الى النجاح إذا شاء أن يطلق طائرته في تلك السنة.

وهذا حصل فعلا. فعندما عاد اورفيل في ١١ ديسمبر (كانون الاول)، حمل معه خبراً لا يقل روعة عن الماسورتين الجديدتين، مؤداه أن لانغلي أخفق، قبل ثلاثة أيام، على نحو أسوأ من ذي قبل. فما أن ارتفعت طائرته عن منصة الاطلاق حتى انهار جناحاها. وحملت صحيفة "واشنطن بوست" العنوان الآتي: "الصقر يغدو حطاماً". وجاء في صحيفة اخرى أن الطائرة "هوت الى المياه كقذيفة مدفع".

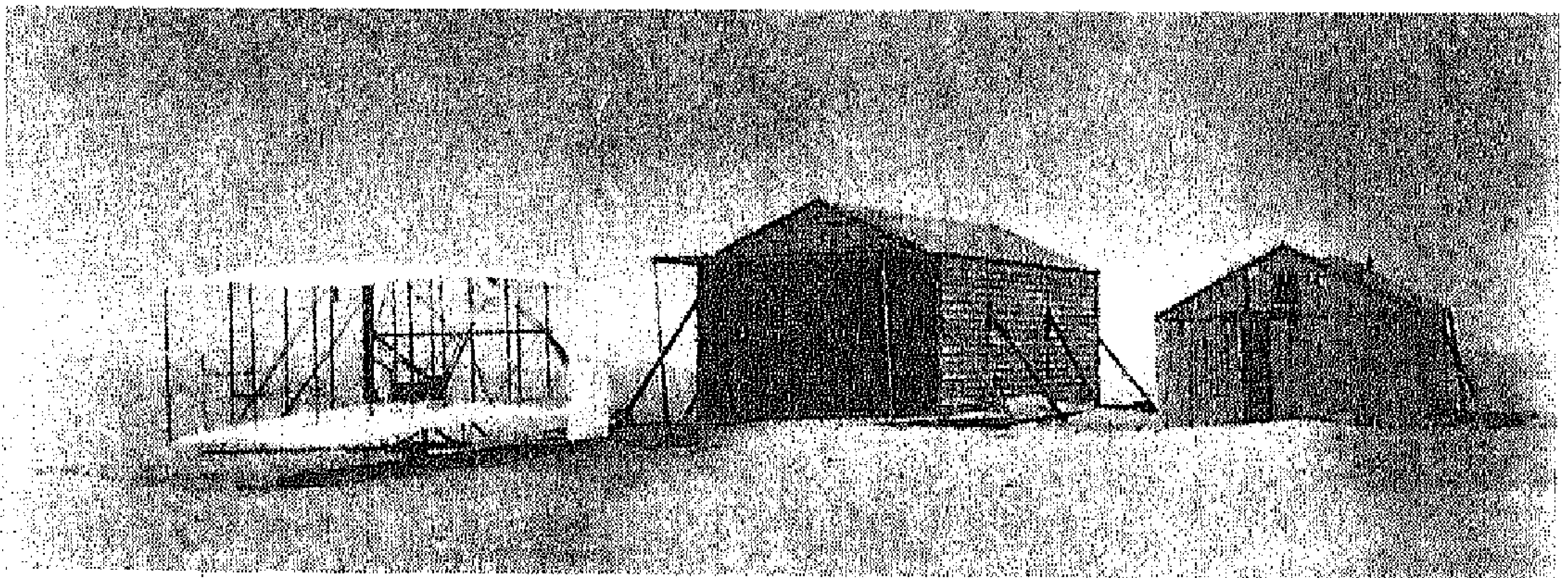
تلك كانت نهاية لانغلي. وقد جاء إخفاقه ليقضي على أكثر ما بقي من ثقة لدى الناس بالآلة الطائرة. وبات جمهور كبير، في الولايات المتحدة وحول العالم، على استعداد للتسليم بصحة القول القديم وهو أن الخالق، عزّ وجلّ، لو شاء للانسان أن يطير لجعل له، قبل وقت طويل، جناحين.

أربعة تحليقات تاريخية

كان الثالث عشر من ديسمبر (كانون الأول) يوماً مشمساً وصافياً، وقد بلغت سرعة الريح فيه نحو ٣٥ كيلومتراً في الساعة. لكنه كان يوم أحد. ولم يشأ الأخوان - حتى وإن يكن الأمر لا يقل عن أول تحليق في التاريخ - أن يحنثا الوعد الذي قطعاه لأبيهما، وهو أن يحفظا يوم الربّ مقدّساً.

وكان يوم الاثنين صافياً أيضاً، لكنه ضعيف الرياح. وقرّرا التوجه عَصْراً نحو كيل ديفيل هيل للقيام بالمحاولة. وهكذا ذهبا في الاولى والنصف ووضعا علماً على التلة، إشارة الى محطة الانقاذ التابعة لتلك المنطقة لكي تضع نفسها على اهبة الاستعداد. وما لبث أن انضم الى الأخوين رايت خمسة مشاهدين.

وراح الأخوان يجرّان الآلة الخالية من العجلات على عربة خشبية مصفحة بالحديد يبلغ طولها ١٨ متراً، وهما قرّرا استخدامها منصة إطلاق. وثبّتا الطرَف الأعلى للمنصة في الرمل، عند نقطة ترتفع ٤٥ متراً، وهناك وضعا الآلة. وأدارا المحرك ووقفا يستمعان الى هديره وهما يضعان اللمسات الأخيرة على



مخيم كيتي هوك في بداية شتاء ١٩٠٣ القاسي. الطائرة ذات المحرك جاثمة الى يسار الحظيرة الجديدة. الى اليمين: المأوى الصغير الذي استخدمه الأخوان للأكل والنوم.

المروحتين. ثم أرادا أن يقرّرا من يصعد الى الطائرة. فأخرج ويلبور قطعة نقود من جيبه وسأل أخاه أن يختار الوجه الذي يفضّله، ففعل. وقذف ويلبور القطعة عالياً لتستقر على الوجه الذي بقي له بعد اختيار اورفيل.

وخفض ويلبور طرف قبّعته وهو يزحف داخل الطائرة. وانحنى قليلا ليفك سلكاً يقيّد الآلة، ثم انطلق بسرعة قليلة ما لبثت أن قويت.

وكان الاثنان يطمحان الى إبقاء الطائرة في الفضاء حتى نفاد الوقود الذي كان كافياً لقطع مسافة ١٣ كيلومتراً. إلا أن طيران ويلبور انتهى بعد أربع ثوان من الانطلاق، قطع خلالها ٣٢ متراً. وهو عزا ذلك الى خطأ في الانطلاق. ولم يعدّ أي من الاخوين ذلك التحليق شرعياً. فمدّته كانت قصيرة جداً، وهو تم بفعل الجاذبية.

وأمضيا معظم اليومين التاليين يصلحان مزلقتي الهبوط. وساء الطقس فجأة صباح السابع عشر من ديسمبر (كانون الأول). وبدا ضوء النهار، هنا وهناك، كئيباً فوق برك المطر المتجمد. وخطا ويلبور خارج الحظيرة ليجد أن سرعة الريح تقارب الأربعين كيلومتراً في الساعة. وهذا يعني أن عليهما الانتظار.

وبعد ساعتين، والاثنان ما زالا يستدفئان أمام الموقد، اقترح أحدهما ـ ولا نعرف أيهما ـ إعادة الكرّة.

وأُعطي الدور لاورفيل الذي بقي الحادث حياً في ذهنه بعد مرور عشر سنين عليه، إذ تذكره قائلا: "إني أستبعد أن أطير اليوم في آلة غريبة ووسط ريح سرعتها ٤٣ كيلومتراً في الساعة، حتى وإن حلّق أحدهم قبلي وعاد بالطائرة سالماً".

وفي العاشرة صباحاً رُفع علم الاشارة. وباشر الاثنان تركيز منصة الاطلاق، ولكن هذه المرة على أرض مسطحة عند سفح التلة. وكان الطقس من البرودة بحيث ركضا، مرة بعد اخرى خلال العمل، الى الموقد يستدفئان. وتحلّق خمسة مشاهدين حولهما، على رغم رداءة الأحوال الجوية، عارضين المساعدة اذا اقتضى الأمر.

وبعدما أصبح كل شيء جاهزاً، سار ويلبور واورفيل أمام الآخرين. ويتذكر جون دانيلز، أحد الخمسة، ذلك المشهد قائلا: "بعد برهة تصافحا، ولاحظنا كلنا كيف شد أحدهما يد الآخر كأنما هو لا يريد مفارقته".

وفيما دخل اورفيل الطائرة، نظر ويلبور الى الخمسة وقال: "يجب ألا نبدو مكتئبين، بل أن نبتسم ونهتف مشجعين. وعندما ينطلق اورفيل بالطائرة، لنصفق له بالأيدي كي نقويه". وأطاعه النظارة، متظاهرين بأنهم يشتركون في مسيرة صاخبة.

وارتفع صوت اورفيل ايذاناً بالاستعداد، متجاوزاً صوت المحرك. وانتزع السلك الذي يقيّد الآلة بالأرض، فباشرت انزلاقها فوق المنصة فيما قبض ويلبور على أسلاك الجناح الأيمن لحفظ التوازن. وقُبيل بلوغه آخر المنصة، حرّك اورفيل جهاز الرّفْع، فارتفعت الطائرة مع قليل من الاضطراب.

وأخذت تتوازن وهي ترتفع حتى أصبحت على علو ثلاثة أمتار. وراحت تهبط آناً ثم تعلو على نحو مفاجىء.

وما أن أصبحت على بعد ثلاثين متراً من نقطة انطلاقها حتى هبطت مرة أخيرة، قاطعة ستة أمتار اضافية قبل اصطدامها بالأرض.

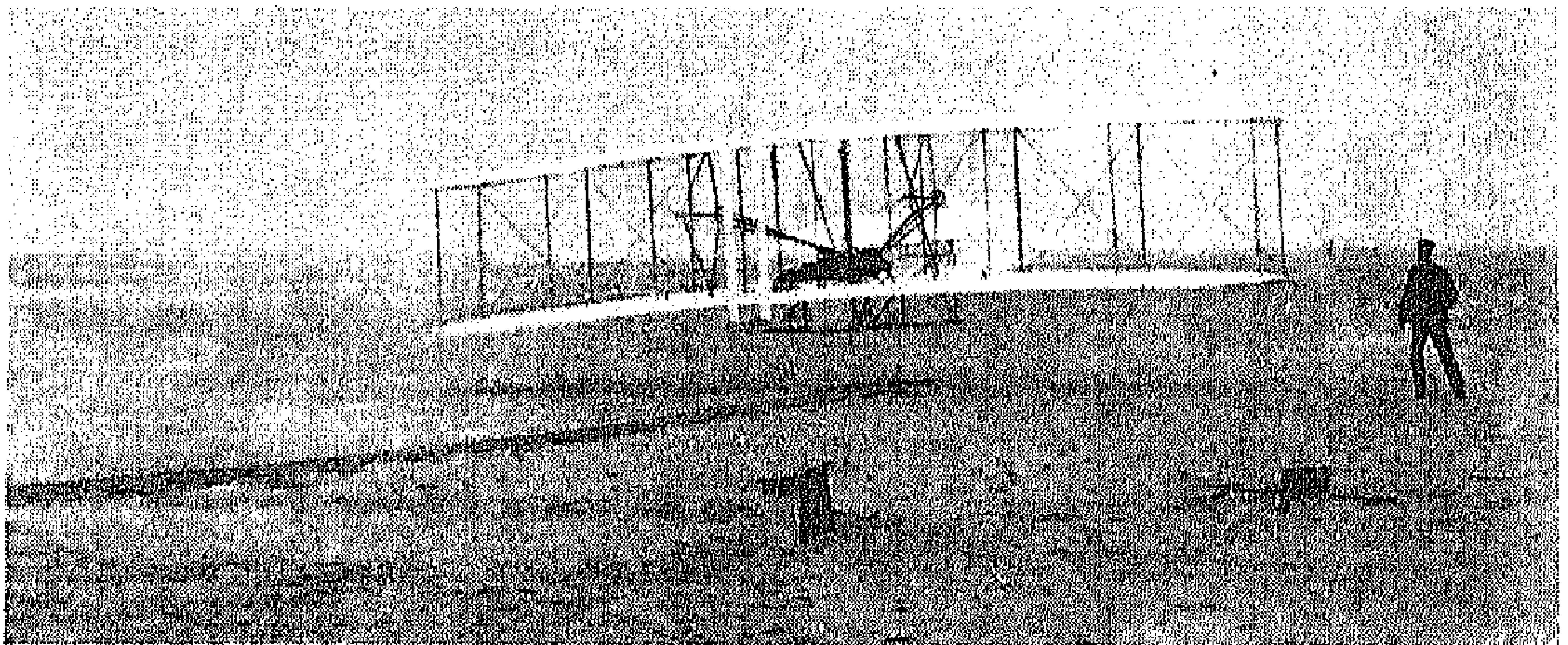
وهبّ ويلبور والآخرون الى اورفيل يهنئونه. وأدرك ويلبور أن أمراً خطيراً حُقّق. والحقّ أن ذلك التحليق الذي حمل اورفيل ٣٦ متراً ونصف متر خلال ١٢ ثانية يُعدّ اليوم، بلا محالة، فاتحة تاريخ الطيران. إلا أن أياً من الأخوين لم ينظر الى المسألة من تلك الزاوية ذلك اليوم الواقع فيه السابع عشر من ديسمبر (كانون الأول) وهما يقومان بالمحاولة في كيتي هوك. ذلك أن مدة التحليق كانت قصيرة جداً.

وبمعاونة المشاهدين، حُملت الطائرة التي تزن ٢٧٠ كيلوغراماً الى التلة، ودخلها ويلبور هذه المرة. وانطلق بها حتى بلغ النقطة التي هبط أخوه عندها، ومن هناك قطع مسافة ١٥ متراً اخرى قبل أن يهبط بدوره. وتم ذلك في ١٣ ثانية.

وسُحبت الطائرة بمشقة الى منصة الانطلاق من جديد. وحملها اورفيل مسافة ستين متراً في ١٥ ثانية.

وعند الظهر، استهل ويلبور التجربة الرابعة. وبدا أن ثمة خطأ في الانطلاق جعل الطائرة تتموج. لكن ويلبور أكب عليها يعيد توازنها، حتى أفلح وقد قطعت الطائرة تسعين متراً. وباتت تحلّق على ارتفاع ثلاثة أمتار فوق الرّمل وهي تجري مع الرّيح. وكانت، كلما ابتعدت عن الأنظار، تقلص ظل جناحيها على الرمل وتضاءل صوت محرّكها. وبعدما قطعت مسافة ٢٤٠ متراً، عادت حركتها تضطرب، الى أن هبطت وقد قطعت ٢٥٩،٧ متراً في دقيقة إلا ثانية واحدة.

وأُخذت الآلة الى المخيم فيما تحلق الجميع حولها يتحادثون. وفجأة صرخ أحدهم. ذلك أن الريح حملت الطائرة وأخذت تدفعها بعيداً. وقفز ويلبور من مكانه، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً. وتبعه أخوه اورفيل وجون



في ١٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٣: التحليق الأول من بين أربعة تحليقات أنجزت ذلك اليوم التاريخي، حيث يظهر اورفيل عند أجهزة الضبط وويلبور واقفاً الى اليمين. وعلى رغم ان هذا التحليق يُعدّ الأول بلا منازع في تاريخ الطيران، إلا أن الأخوين اعتبراه قصيراً جداً. أما التحليق الرابع لذلك اليوم، وهو يشكل الصورة التي ترافق عنوان الكتاب، فكان أفضل كثيراً في نظر الأخوين، إذ تم خلاله قطع ٢٦٠ متراً في ٥٩ ثانية.

دانيلز فيما تابعت الريح لي الجناحين حتى باتا "كمظلة قُعِّر تقويبُها". وعلق دانيلز بين الأسلاك.

وقال في ما بعد يصف ذلك: ". لا أدري كيف نجوتُ. إلا أني وجدت نفسي عالقاً وسط الأسلاك بينما راحت الطائرة تنقلب وأنا أنقلب معها. وما أن توقفت تلك الآلة هنيهة حتى أنقذت نفسي من أسلاكها وتحرّرتُ منها".

وطلع دانيلز من الحادث وقد مُزّقت ثيابه وأصابته خدوش كثيرة دونما أذية تُذكَر. غير أن الطائرة قُضي عليها بعدما هُشِّم محرّكها وكُسِرت الدعامات والوصلات، ممّا ألغى إمكان القيام بالمزيد من التحليق في ما بقي من ذلك الفصل.

وبعد اعادة الطائرة الى الحظيرة ووضعها في مرآبها، انطلق الأخوان عند منتصف العصر نحو محطة الرصد الجوي التابعة للمنطقة بغية إرسال برقية الى والدهما. وأخطأت محطة البرق في ذكر الوقت الذي استغرقه التحليق الأخير، وهو ٥٩ ثانية، فجاءت الرسالة كما يأتي: "لقد نجحنا في التحليقات الأربعة صباح الخميس وسط ريح سرعتها ٣٣ كيلومتراً في الساعة. وقد تمّ الانطلاق والتحليق بقوّة المحرّك وحده، وبلغ معدّل سرعة الطائرة ٥١،٧ كيلومتراً في السّاعة. ودام أطول تحليق ٥٧ ثانية. نرجو إبلاغ الصحافة. سنكون عندكم في عيد الميلاد".

وحمل شقيقهما لورين التقرير الى صحيفة "دايتون جورنال" مساء ذلك اليوم. غير أنّ رئيس التحرير، وهو موظّف قديم في الصحيفة يدعى فرانك تيونيسون لم يأبه للأمر، بل قال هازئاً: "سبع وخمسون ثانية؟ لو كان ذلك سبعاً وخمسين دقيقة، لكان جديراً بالاهتمام".

الى مرج هوفمان

ثمّة قناعة شبه تامّة حول كون الصحافة الأمريكيّة أخفقت كلياً في فهم ما أنجزه الأخوان رايت وعرضه للقراء. ولكن على رغم الزلّة العابرة التي سقط فيها تيونيسون، يبقى أن الصحف كانت توّاقة الى نشر القصّة في مختلف جوانبها. غير أن ويلبور لم يشأ الافصاح عن تفاصيل التجربة.

وطُلب الى الشهود الخمسة عدم البوح بما شاهدوه خلال التحليقات الأربعة الناجحة، والاكتفاء بالقول انهم رأوا الطائرة تحلّق فعلاً. كما سُئل شانوت وسبرات عدم إعطاء تفاصيل حول تركيب الطائرة. وأصرّ ويلبور على الاحتفاظ بجميع الصور الفوتوغرافية التي أُخذت للآلة، وهي نحو اثنتي عشرة صورة.

إلا أن كاتبين نشطين من صحيفة "طيّار فرجينيا" ما لبثا أن وضعا تقريراً مفصلا حول الرواية، نُشر في ١٨ ديسمبر (كانون الأول) تحت عنوان رئيسي كبير احتل عرض الصفحة الاولى. وبالرغم من احتوائه بعض الأخطاء، إلا أنه لم يترك أي شك لدى القراء في أن الأخوين رايت حلقا فعلا بطائرتهما ذات المحرّك. وهناك صحيفتان أُخريان نشرتا خبر ذلك الحادث في اليوم نفسه. ولكن ما أن حل المساء حتى أخذ مراسلو الصحافة يتوافدون الى منزل آل رايت في دايتون. وبين الثامن عشر من

ديسمبر (كانون الاول) والثاني والعشرين منه، كانت الصحف الامريكية كلها قد نشرت ما رشح من أخبار حول ذاك الحادث التاريخي.

ولدى وصول الأخوين الى منزلهما الوالدي في الثالث والعشرين من ذلك الشهر، كان في انتظارهما حفنة من مراسلي الصحف. لكنهما رفضا الاجابة عن أسئلتهم. ولم يكن أكثر حظاً الصحافيون الذين طرقوا الباب في اليوم التالي.

إلا أن الأخوين انتظرا مرور عيد رأس السنة حتى يوضحا بعض الأخطاء التي شاعت حول تحليقهما، من غير الكشف عن شيء جديد. وصدر إيضاحهما في بيان حمل المقطع الأخير منه غاية ما أراداه: "بما أن جميع التجارب التي أجريناها تمّت على نفقتنا الخاصة، فإننا لا نودّ الآن إعطاء أي صور أو تفاصيل عن الآلة". وهكذا كفت حشود الصحافيين عن ملاحقتهما. وكانا على قناعة بأن حقيقة الأمر لن تلبث أن تفصح عن ذاتها في الوقت المناسب. فمن غير المعقول استخدام طائرة أو إجراء تجارب حولها في السرّ.

أما الفكرة التي التمعت في ذهن ويلبور فكانت تطوير الآلة حتى يغدو صنعها على نطاق تجاري ممكناً، وبعد ذلك تسليمها مع أسرارها الى منفذين تجاريين "يتحمّلون وحدهم مسؤوليتها التسويقية والتجارية". وهذا، بدوره، يدر عليه أرباحاً تريحه مادياً مدى الحياة.

وكان في اواخر ابريل (نيسان) ١٩٠٤ أن توقفت حافلة كهربائية من سلسلة الحافلات التي تربط بين مدن جنوب ولاية اوهايو، ونزل منها الأخوان رايت. وكان ذلك عند محطة "سيمز" النائية التي تبعد نحو ١٣ كيلومتراً شرق دايتون. وامتدت أمامهما أراض زراعية لا تنتهي.

وخطا الاثنان الى حقل عبراه حتى بلغا حظيرة واسعة. وانتزعا معطفيهما وأخذا يفتحان الصناديق ويُخرجان منها العناصر التي سيصنعان منها "الطائرة الرقم٢". وتكررت رحلتهما يومياً ما عدا الآحاد. وبعد شهر من مباشرتهما العمل، فرغا من تركيب الطائرة الجديدة في أواسط شهر مايو (أيار). وتم عملهما من غير عائق. وجاء في رسالة كتبها ويلبور: "أظن أن المراسلين لا يعرفون ما يجري".

وكان الحقل الذي عملا فيه جزءاً من مزرعة أبقار يملكها تورنس هوفمان، وهو رئيس مصرف في دايتون. وكان ذلك المرعى الذي تحده الاشجار السامقة من ناحيتين، واسعاً جداً للتحليق. وهو يقوم وسط منطقة ذات منازل قليلة. ولم يكن يهدد خصوصية ذلك الموقع سوى الحافلة الكهربائية التي تتوقف، كل نصف ساعة، عند محطة "سيمز". لكن ويلبور كان يقصد المحطة قبل مرور الحافلة لئلا تُعرف الوجهة التي أتى منها.

ولم يكن ممكناً إنجاز أي تحليق، مهما قَصُرَ، في نطاق من السرية التامة. لذلك فكر ويلبور في خدعة يواجه بها رجال الصحافة والجمهور لكي يتركوهما وشأنهما. وهكذا، لبى دعوته أكثر من عشرة صحافيين من دايتون وسنسيناتي، أتوا الى مزرعة

هوفمان عصر الخامس والعشرين من مايو (أيار) لمشاهدة الطائرة، شرط ألا يلتقطوا أي صورة لها.

وسُحبت الآلة الى المنصة وصعد ويلبور إليها. وما أن بلغت طرف المنصة حتى هوت الى الارض بدلا من التحليق في الجو، وأخذت تقفز فوق العشب. وقال ويلبور للصحافيين إن هناك عطلا في المحرّك، داعياً إياهم الى الحضور عصر اليوم التالي.

وفي اليوم اللاحق تحلق جمهور أقل عدداً. وأعيدت الكرة، لكن النتيجة جاءت هي عينها. واعتذر ويلبور قائلا إن المحرك ما زال على حاله وإن الريح خفيفة جداً. وأضاف أنه غير متأكد من موعد الاختبار اللاحق.

ووضع صحافيو دايتون والمدن المجاورة مواد تلك الرواية في أدراجهم في انتظار حصول تطورات ايجابية. وبدا لهم أن عصر الطيران ما زال بعيداً، على رغم ما أُشيع من تجربة الأخوين رايت الناجحة في كيتي هوك. أما ويلبور فكان له ما يشتهي من تلك الخدعة. وبعد سنوات نظر إليها كوسيلة ناجحة "لابعاد الصحافيين عنا طوال الفصلين اللذين اختبرنا الطائرة الجديدة خلالهما بالقرب من محطة سيمز".

وباشر الأخوان الطيران بعد أيام قليلة. إلا أن ويلبور لم يحطم رقمه القياسي في كيتي هوك إلا في ١٣ اغسطس (آب)، قاطعاً مسافة تتجاوز الثلاثمئة متر. وفي ٧ سبتمبر (أيلول) استُخدمت آلة دافعة لاطلاق الطائرة في وقت قصير. وكان أن قطع ويلبور مسافة ٤٢٥ متراً. وفي العشرين من ذلك الشهر، أنجز دورة تامة بالطائرة للمرة الاولى. وأعاد اورفيل الكرة في ١٤ اكتوبر (تشرين الاول). وأخيراً، في التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني)، حلّق ويلبور أكثر من خمس دقائق، دائراً حول المرعى أربع مرات وقاطعاً مسافة خمسة كيلومترات.

وفي السنة التالية، كان الأخوان على استعداد لانجاز الحلقة الأخيرة من الاختبارات. وأجمع ثلاثون صديقاً لهما على تزويد الصحف بما يشاهدونه، من دون أن يصفوا الطائرة نفسها. وفي اليوم الأول حلق اورفيل مسافة ٢٥ كيلومتراً حول الحقل، أتبعها بمسافة ١٥ كيلومتراً في اليوم الثاني و٣٠ كيلومتراً في اليوم الثالث. وفي الخامس من اكتوبر (تشرين الأول)، قطع ويلبور مسافة ٣٩ كيلومتراً وهو يدور مرة بعد اخرى حول الحقل.

والحق أن الأخوين لم يدركا أهمية العنصر الذي أضافاه الى الخبرة البشرية إلا خلال تلك التحليقات الأخيرة. وقد قال ويلبور: "الشعور الذي يطغى على سواه، وأنت تحلق، هو شعور بالسلام التام، يخالطه اختلاج يشد كل عصب لديك".

لا نظارة، لا تصفيق

وبعد إنجاز التحليق الآخير في ٥ اكتوبر (تشرين الأول)، فُكّكت الطائرة وحُفظت أجزاؤها في المرأب. وكان الأخوان على وشك الذهاب حين نشرت صحيفة "دايتون ديلي نيوز" تقريراً موجزاً حول تلك "التحليقات المثيرة". وفي اليوم التالي أُعيد نشر الرواية في صحيفة صادرة في سنسيناتي، فاندفع عدد

ثانية إنما هو حقيقي. غير أن سانتوس - دومونت لم يتورّع عن إعلان نفسه أول إنسان ينجح في التحليق. وعندما سئل عن الأخوين رايت، أجاب بفظاظة ان لا قيمة لهما وان لا أحد في فرنسا كلها يعتقد أنهما حققا شيئاً.

أما الأخوان ويلبور واورفيل فقد أصغيا هذه المرة، لا خوفاً من أن يسبقهما سانتوس - دومونت الى صنع الطائرة العملية، إذ أن آلته كانت دمية تنقصها وسائل السيطرة الصحيحة والانعطاف، بل بسبب اهتمام الناس المتزايد بالطيران. وكتب ويلبور حول ذلك: "يخيفني هذا الهاجس كأنما هو حقيقة ملموسة".

واستؤنفت المفاوضات بين الأخوين رايت وعدد من الشركات. وفي العام ١٩٠٧، أمضيا ستة أشهر في فرنسا يستشيران ذوي القانون ويعيدان صياغة العقود الطويلة، على رغم الروح العدائية التي أظهرتها صحافة فرنسا حيالهما إذ لم تنفك عن نعتهما بـ"المحتالَين".

ولم تسفر الاتصالات في فرنسا عن نتيجة. ولكن ما أن عاد ويلبور الى الولايات المتحدة حتى اتصلت به قيادة الجيش الاميركي. وبعد اجتماعين عقدهما الجانبان في واشنطن، تم الاتفاق على شروط شراء الطائرة وعلى مباشرة الاختبارات في شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٠٨، على أن يسبق ذلك تحسين المحرك وتوسيع الهيكل بحيث تستوعب شخصين في وضع الجلوس الطبيعي. وقرر الأخوان اختبار النموذج الجديد في كيتي هوك سراً في الربيع.

وتم التوقيع على الاتفاق مع قيادة الجيش في مطلع فبراير (شباط) ١٩٠٨. وبعد ثلاثة أشهر، وقع ممثل الاخوين رايت في فرنسا اتفاقاً مماثلا مع شركة فرنسية أرادت صنع الطائرة على نطاق تجاري. وتقرر بدء الاختبارات في فرنسا في الخريف أيضاً.

وعندما بوشرت الاختبارات في كيتي هوك، لم يكن لها شيء من السرّيّة التي تمناها الأخوان. فقد تمكن بعض الصحافيين من مراقبة العمليات والكتابة عنها. ومما كتبه أحدهم: "ثمة عنصر غريب لازم تلك الاختبارات. فهنا، على هذا الشاطىء المهجور، وقف الانسان يحقق أعظم اختراع شهدته العصور، ولكن في غياب النظارة وهتافهم... وحده هدير الامواج المتكسرة كان يملأ المكان، ومعه صرخات طيور البحر المهتاجة".

إنه وصف صادق. فالتحليقات التي قام بها الأخوان رايت في كيتي هوك خلال ثمانية أيام، وعددها اثنان وعشرون، تناقلت الصحف أخبارها على أفضل وجه، ولكن كانت تنقصها جميعاً الحماسة الضرورية التي يخلقها النظارة. وتجدر الاشارة الى أن هواة الطيران الآخرين، في اوروبا والولايات المتحدة، كانوا يتقدمون يوماً بعد يوم في المسافات التي يقطعونها محلقين، وتهتم الجماهير بهم فتصفق وتبتهج. وقد قلد بعضهم وسائل السيطرة التي ابتكرها الأخوان رايت، مما أتاح لهم تحليقات أطول. ومن هؤلاء ليون ديلاغرانج الذي قطع مسافة ١١ كيلومتراً في ميلانو، ولوي بليريو الذي قطع عشرة أمتار في بلدة

"ايسي – لي – مولينو" الفرنسية. وفي الموقع عينه سجل هنري فارمان رقماً قياسياً محلياً حين بقي عشرين دقيقة في الفضاء.

فـي ضـوء تلك العروض العلـنـيـة الصاخبة، فقد سر الأخوين رايت حلاوته.

"أطفال بالنسبة إليهم"

تم الاتفاق على أن يؤدي اورفيل الاختبارات لحساب الجيش الامريكي، في حين يسافر ويلبور الى فرنسا. وهو وصل فعلا في أواخر مايو (أيار) ١٩٠٨، حيث كان، مرة اخرى، موضوع سخرية الصحافة المحلية التي عزت فضل ابتكار الطيران الى الفرنسيين. وذهب ويلبور، في الشهر التالي، الى منطقة "لومان" حيث كان يقوم ميدان لسبـاق الخيـل تـقـرر اسـتـخـدامه للاختبارات. وسمح له ليون بولي، الذي يملك شركة لصنع السيارات، باستخدام مصنعه القريب لتركيب أجزاء الطائرة.

وباشر ويلبـور العمـل وهـو مرتـد سروالا أزرق من قطعة واحدة على غرار عمال بولي. وكمثلهم أيضاً، كان يعمل عشر ساعات يومياً ويتناول الغداء وإياهم. وهذا بدا غريباً للعمال أنفسهـم الذيـن بلغتهـم الاخـبـار المتناقلة عن سانتوس – دومونت من أنه لا يعمل بيديه ولا يخالط سوى أترابه.

وتضافر غير سبب واحد على تأخير العمل، ومنها حرق عنيف أصاب ذراع ويلبـور اليسـرى علـى أثـر انـفجار خرطوم ماء ساخن في المحرك. ولكن في الرابع من اغسطس (آب)، نُقلت الطائرة سراً من المصنع الى حظيرة في ميدان السباق. وفي احدى زوايا الحظيرة، وضع ويلبور سريراً نقالا وكرسياً وحوضاً للاستحمام وسخاناً صغيراً على الغاز. وهناك مكث طوال الاشهر الخمسة اللاحقة.

إلا أن صبره كان يزيد نفاداً. وفي تلك الاثناء ذهب هنري فارمان الى الولايات المتحدة للاشتراك في عروض للطيران في مدن مختلفة: في مقابل ٢٥ ألف دولار. وسرت أخبار مؤداها ان الآلاف قصدوا حقلا في لونغ آيلاند ووقفوا يحدقون مشدوهين الى فارمان وهو يؤدي سلسلة من التحليقات في خط مستقيم. وعيل صبر ويلبور إزاء هذه الانباء. وفي ٧ اغسطس (آب)، أعلن عزمه على التحليق في اليوم التالي اذا كان الطقس ملائماً.

وفي السابعة مـن صبـاح اليـوم التالي، نهـض ويلبـور مـن سريـره وارتدى سروال العمل. وبعدما أحضر لنفسه قليلا من القهوة، وقف يتفحص الطائرة ربما للمرة المئة. وتمكن مراسلو الصحافة الذين قصدوا المكان باكراً من الاصغاء اليه وهو "يهمهم ويطرّق الآلة هنا وهناك". وما هي إلا ساعة حتى بدأ العمال إعداد منصة الانطلاق والآلة الدّافعة. وفي العاشرة غصّ الـمكان بالـنظارة الذيـن لـم يُفْرَض عليهم رسم دخول. وكان العديد منهم على استعداد لتمضية النهار كله هناك.

وسُحـبـت الطائـرة علـى عجلات ورُفعت الـى المنصة وجنـاحـاهـا يلتـمعان تحـت الشمـس. واختفـى ويلبور قليلا ليعود بعد ذلك في بذلة رمادية مع قميص رسمي وربطة عنق

وقبعة أدار طرفها الى الوراء. ولم يخطر في بال أي طيار آنذاك أن يحلق في عرض وهو يرتدي زيّ عامل.

وأُدير المحرّك ودخل ويلبور الطائرة. وبقي ثواني عدة دونما حراك، وأصابعه على أجهزة الضبط عند ركبتيه. وبعد ذلك، تم كل شيء على نحو رشيق أذهلت عفويته وعظمته الناس. وقال أحد المشاهدين: "انطلقت الطائرة في لمحة بصر، حاملة السيد رايت الى الفضاء، فيما التقط الناس أنفاسهم مذهولين".

وكانت الطائرة، بعد انزلاق سريع فوق المنصة، حُملت الى الفضاء وارتفعت تسعة أمتار. وكان الناس في اوروبا يشاهدون هذا النوع من الارتفاع السريع للمرة الاولى، إذ اعتادوا أن يروا طياريهم يحلقون بعد استعداد طويل على المنصة من غير أن تنجح محاولاتهم الاولى أحياناً.

وأطلق الجمهور عاصفة من الهتاف. وبعد ثوان انحدر جناح الطائرة الايسر على نحو حاد. ولم يكن الناس يتوقعون ذلك، فظنوا أن الطائرة على وشك الانقلاب. ووقف الرجال يصرخون والنسوة يزعقن ويغطين عيونهن أمام انحراف الجناحين الرهيب هذا، الذي لم يسبق أن شاهده أحد في اوروبا أو فهمه. فجميع الذين حلقوا في اوروبا أو شاهدوا طائرات تحلق، لم يختبروا الانعطاف إلا بطيئاً جداً ومضجراً. ولكن ها هو ويلبور رايت أمام أنظارهم ينعطف بطائرته سريعاً كما الطائر، محققاً جمال الطيران وجلاله وملؤه الثقة بالنفس.

وبعدما أكمل ويلبور دورته، مر أمام المنصة الرئيسية وسط تصفيق وتهليل. وأعاد الكرة، فاستحالت صرخات الخوف السابقة صيحات إكبار لا تنتهي. وبعد نحو دقيقتين في الفضاء، هبط بطائرته برفق قرب منصة الانطلاق. وقبل أن يوقف المحرك، تدافع النظارة عبر الحقل يلوحون بأيديهم وقبعاتهم ويهتفون مهنئين وهم يقتربون من ويلبور لمصافحته.

وكان مع الحضور اثنان أو ثلاثة من رواد الطيران الفرنسيين، بينهم لوي بليريو. وحمله أحد الصحافيين على إبداء رأيه، فصرح بالآتي: "أعتقد أن مرحلة جديدة من الطيران بدأت الآن، بالنسبة إلينا في فرنسا وفي كل مكان". وتلعثم قليلاً وهو يحاول اختيار العبارات المناسبة، ثم أضاف: "لا أجدُني رابط الجأش تماماً بعد الذي حدث بحيث أستطيع الافصاح عن رأيي بدقة".

وكان في الموقع طيار آخر، هو رينه غانييه، عبَّر عن رأيه بالآتي: "إننا لا نزال أطفالا بالنسبة الى الأخوين رايت".

ملك الفضاء

بعد ويلبور، جاء دور اورفيل. ففي ٩ سبتمبر (أيلول)، حلّق فوق حقل يملكه الجيش في فورت ماير (ولاية فرجينيا) طوال ٥٧ دقيقة، وذلك على ارتفاع ٣٣،٥ متراً. وفي عصر اليوم نفسه حلق مدة ساعة ونيف. ثم تجاوز الساعة في كل من الايام الثلاثة التالية، وفي اليوم الأخير حلق على ارتفاع ستين متراً على مدى ساعة و١٤ دقيقة.

ذلك كان إنجازاً رائعاً يحققه الأخ الأصغر. وقد بلغت أخباره اوروبا كما البرق، مجددة الحماسة التي أثارها إنجاز ويلبور.

وكان أن تسلم ويلبور برقية صباح ٨ سبتمبر (أيلول) وهو يستعد للتحليق، جاء فيها أن اورفيل هوى بطائرته عن ارتفاع ثلاثين متراً ومعه شخص آخر.

وكان الراكب ضابطاً شاباً في الجيش يدعى توماس سلفريدج. وقد أصيب بجروح في رأسه ومات بعد ساعة. أما اورفيل فكُسرت ساقه ووركه وبعض أضلاعه. وعلى رغم أن حاله لم تكن خطرة، إلاّ أن شفاءه استغرق طويلا. وكان سبب الحادث شعراً ضئيلا في إحدى المروحتين تولدت عنه ذبذبة جعلت ريشة المروحة تقطع أحد الأسلاك.

وألغى ويلبور خطة الطيران ذلك اليوم احتراماً لذكرى الملازم سلفريدج، أول ضحية في تاريخ الطيران، وأمضى يومه مستغرقاً في التأمل. وكتب الى أخيه: "لو كنت هناك، لما حصل ذلك".

وبعد ثلاثة أيام استأنف ويلبور التحليق، وهو ما زال في فرنسا. وأنجز نحو مئة تحليق خلال الأشهر الثلاثة التالية. وفي اليوم الأخير من العام ١٩٠٨، جعل يدور حول الحقل حتى قطع أكثر من ١٤٥ كيلومتراً في ساعتين وعشرين دقيقة، مسجلا بذلك رقماً قياسياً لم يُكسَر إلا بعد ستة أشهر.

أما التحليق العلني الأخير الذي أداه ويلبور فقد حصل بعد عودته الى الولايات المتحدة. وهو كان تحليقاً مذهلا وفذاً.

وكان مركب هنري هدسون، واسمه "هاف مون"، دخل مرفأ نيويورك قبل ثلاثمئة سنة خلال رحلته الاستكشافية. وزُيّنت المدينة كلها بالأعلام ونُظّمت المهرجانات والمآدب استعداداً للاحتفال بتلك الذكرى. وتوقعت الصحف أن يبلغ عدد المراكب المشاركة في المناسبة أكثر من ألف تملأ الجزء الأدنى من نهر هدسون، وأن تُقام الحواجز الخشبية القديمة وتشارك في الاحتفال سُفُن حربية من سبع دُول، بما فيها سفينة "لوزيتانيا"، فتنة البحر العصرية. لكن أهم حدث خُصَّت به المناسبة كان عرض أعظم معجزات العصر، ألا وهي الطائرة، يقودها ويلبور رايت نفسه.

وتقرر أن يشمل التحليق الرئيسي مسافة ١٥ كيلومتراً. وفي ٢٩ سبتمبر (أيلول)، ذهب ويلبور الى جزيرة عند طرف منهاتن للقيام ببعض التمارين.

وبعدما دار حول جزيرة الحكام، اتجه شمالا نحو رأس منهاتن المثلم وقد زادت الطائرة ارتفاعاً. واستدار، على نحو غير متوقع، نحو تمثال الحرية.

واتجهت الطائرة رأساً نحو النصب الجبار. ودار ويلبور حوله وهو يرتفع فجأة، وبسرعة كبيرة، ستة أمتار فوق الستارة المعدنية التي تطوق الخصر. وبرز من جديد تحت المشعل والذراع المنتصبة. وما لبث أن دار مرة اخرى حول التمثال، مكرراً الحركات نفسها.

بعد ذلك نظر تحته ليرى "لوزيتانيا" ذات الجلال وهي تنساق بتؤدة مع الريح. واندفع كالسهم فوق مداخنها الاربع الضخمة. وللحال ملأ



ويلبور رايت محلقاً بطائرته فوق مدينة نيويورك، (عام ١٩٠٩)، يوم قطع مسافة ٣٠ كيلومتراً من جزيرة الحكام الى ضريح يوليسيس غرانت ذهاباً وإياباً، وكان ذلك آخر تحليق علني يقوم به الرجل الذي سُمي "ملك الفضاء".

المرفأ دوي هائل جاء تحية، كما قال أحد المراسلين، "من ملكة البحر الى ملك الجو".

وفيما كان ويلبور يترجل من طائرته بعد دقيقتين، تحلق حوله حشد من الصحافيين وقد أخذ منهم ذلك التحليق البطولي الرائع أيّما مأخذ. وأوّل ما لاحظوه الهدوء التام الذي خيم على ويلبور، على نقيض الجذل الذي يبدو على سواه من الطيارين بعد إنجاز تحليق ناجح. إلا أن ابتسامة خفيفة ظهرت على شفتي ويلبور المطبقتين هذه المرة وهو "يضع يديه في جيبي سرواله ويبدو سعيداً الى حد".

وبعد خمسة أيام أنجز تحليقه الرسمي، فطار شمالا الى ضريح يوليسيس غرانت ثم عاد أدراجه، قاطعاً مسافة ثلاثين كيلومتراً. ولم يبقَ مكان على الشاطىء أو على سطوح المنازل، مهما ضاق، إلا وغصّ بالمشاهدين الذين وقفوا يلوّحون بالأيدي ويهتفون.

وكان أمام ويلبور رايت ثلاث سنوات يعيشها قبل أن يقضي عليه داء التيفوئيد وهو في الخامسة والأربعين. وقد أمضى الجزء الأكبر من تلك السنوات يلاحق القضايا التجارية المتعلقة باكتشافه.

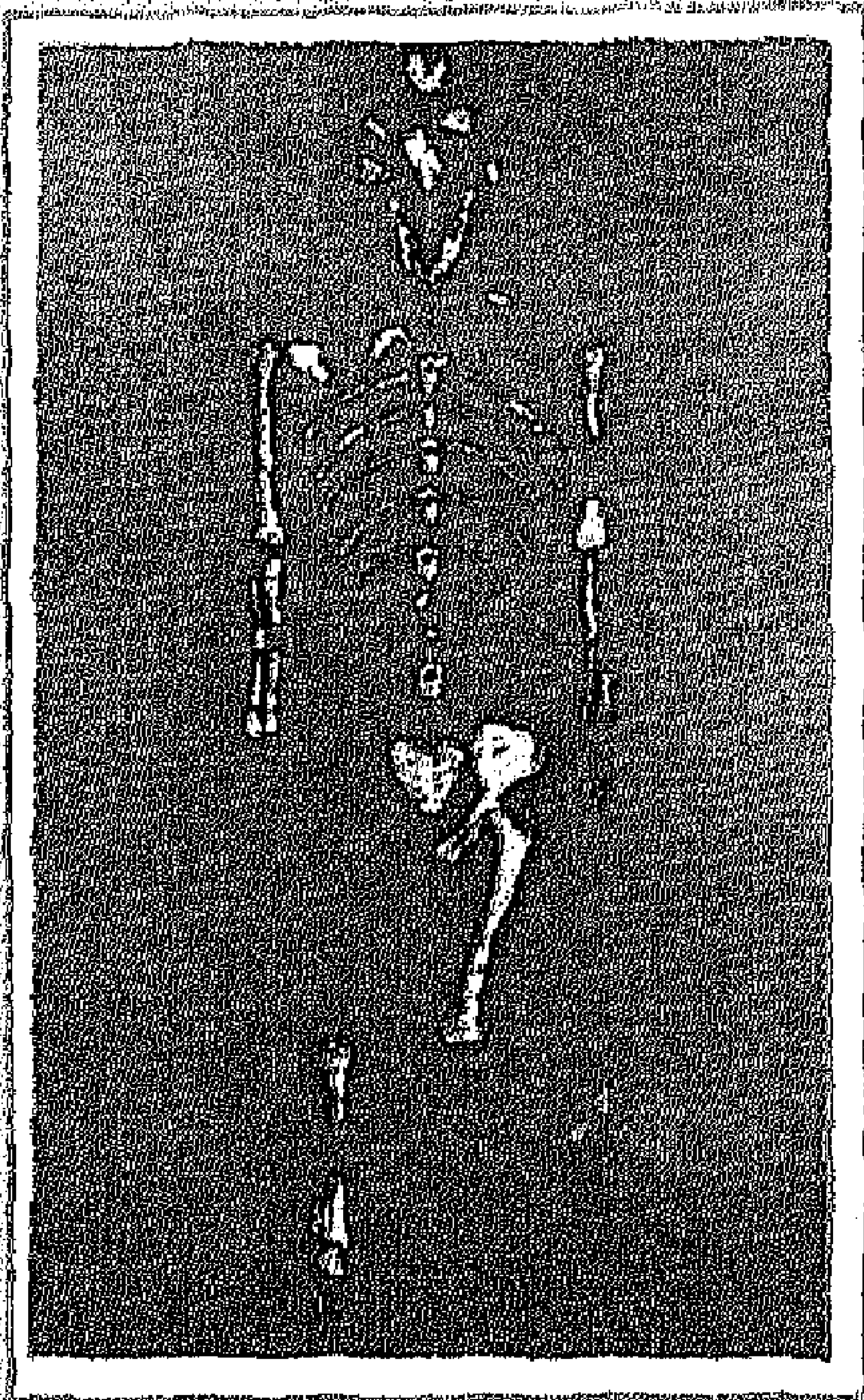
لكن ذلك اليوم التذكاري كان يوم انتصاره. وما أن بدأ هبوطه نحو جزيرة الحكام حتى دوّت المراكب الألف الصغيرة تحته بسيل هائل من التحيات وشخصت عيون مليون مشاهد الى تلك الآلة المستحمة بالشمس.

حقاً أن ويلبور رايت كان ملك الفضاء!

■ جون ايفانجيليست والش

كتاب الشهر

لوسي



الحلقة المفقودة في أصل الإنسان

ملخص من كتاب بقلم دونالد جوهانسون وميتلاند إيدي

لوسي

الحلقة المفقودة في أصل الانسان

"لوسي" هو الاسم الذي أعطي اقدم هيكل عظمي بشري وأكمله تم اكتشافه حتى اليوم. وهو ينتمي الى كائن عاش قبل نحو أربعة ملايين سنة وكان يسير منتصباً على رجليه، هو من أسلاف الجنس البشري.

وتكوّن قصة لوسي نقطة انطلاق لهذه السيرة الطريفة التي يرويها المكتشف نفسه، الانتروبولوجي الامريكي دونالد جوهانسون الذي يعود اليه ضمير المتكلم في الصفحات اللاحقة، بالاشتراك مع ميتلاند ايدي، وهو مؤلف وضع كتابين آخرين ومجموعة مقالات في حقل المتحجرات القديمة



دونالد جوهانسون في الموقع ٣٣٣ قرب هدار (اثيوبيا) يحمل متحجرات بشرية نبشت حديثاً

استيقظت، كعادتي وأنا في رحلة استكشاف، مع انبلاج النهار. وكان مخيمنا آنذاك في اثيوبيا، على ضفة نهر اواش الصغير الموحل في هدار التي تبعد ٢٤٠ كيلومتراً شمال شرق العاصمة اديس ابابا. وكنت أحد قائدين لمجموعة علماء قصدت ذلك المكان بحثاً عن المتحجرات، وقد انقضت بضعة أسابيع منذ وصولي الى هناك.

قفزت خارج الخيمة ونظرت الى العلاء: إنه يوم آخر خلت سماؤه من الغيوم. وبعد قليل جاءني توم غراي لنشرب القهوة معاً، وهو طالب امريكي يحضر دراساته الجامعية العالية وقد قصد المنطقة لدراسة متحجراتها الحيوانية والنباتية. أما غايتي فكانت العثور على بقايا كائنات بشرية أو شبيهة بالبشر.

وبادرت توم بقولي: "ماذا أعددت لهذا اليوم؟" فأجاب أنه منهمك في وضع علامات على خريطة تشير الى أماكن وجود المتحجرات.

وتابعت: "متى تضع اشارة على الموقع ١٦٢؟"

فقال: "لست متأكداً بعد من مكانه".

لكني وعدته بأن أدله على المكان، على رغم ان أعمالي الكتابية الكثيرة كانت تحتم علي البقاء في المخيم. فقد كان لديّ حس باطني يدفعني الى مرافقة توم. وأطعتُ ذلك الحس، ودوّنتُ في مفكرتي الآتي: "٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٤. انطلقت مع غراي صباحاً نحو الموقع ١٦٢، يخالجني شعور حسَن".

ولا بد من القول اني، كعالم انتروبولوجي (١) يدرس البقايا البشرية الطاعنة في القِدَم، او من بالخرافات. والعديد مِن زملائي يشاركني في هذا الايمان لأن عملنا، في جانب منه كبير، يقوم على الحظ. فالعظام التي ندرسها نادرة جداً. وثمة علماء انتروبولوجيا مرموقون عاشوا وماتوا من غير أن يعثروا على قطعة قديمة واحدة. أما أنا فكنت أقوى حظاً من هؤلاء. فهذه هي السنة الثانية التي أعمل ضمن الحقل في هدار. ومع هذا فاني عثرت على عظام عدة. لذلك دوّنتُ في مفكرتي أن شعوراً حسناً يراودني. والحق أني، منذ ما أفقت ذلك الصباح، أفاق معي هذا الحس الجميل.

وصعدتُ مع غراي الى سيارة الجيب التي راحت ترتج بنا ونحن متجهان نحو الموقع ١٦٢. وتقع هدار وسط صحراء عفار، وهي بحيرة قديمة جفت مع الوقت وملأتها الترسبات الغنية ببقايا الازمنة الغابرة، وبينها حمم بركانية هامدة وتلال من الطمي الذي جرفته المياه من جبال قَصيّة. وفي الاخاديد ومجاري الانهار تبدو هذه البقايا كالطبقات المرصوصة في قالب حلوى.

أوقفنا السيارة عند أحد تلك الاخاديد وبقينا ساعتين نتفحّص المكان. ولما اقترب الظهر وبلغت الحرارة ٤٣ درجة مئوية، من غير أن نعثر على شيء، قلت لرفيقي: "دعنا نتفحّص أسفل ذلك الاخدود". فعلى رغم معرفتي بأن سواي نقّب المكان نفسه مرّتين على الأقل من

---

(١) الانتروبولوجيا علم يبحث في اصل الجنس البشري وتطوره وعاداته.

دون جدوى، فأني ارتأيت اعطاءه فرصة أخيرة. وبعد تفتيش عقيم هممنا بالانصراف لكني نظرت ورائي فشاهدت "شيئاً ما" على أرض منحدرة.

وما أن بلغتُ ذلك الشيء حتى قلت: "إنه كسرة من عظم ذراع بشرية". فاوضح غراي انه "لا يعقل أن يكون هكذا. ان صغر حجمه يدل على أنه عظم سعدان".

وركعنا نتفحَّص العظمة، فلاحظ غراي إنها صغيرة جداً.

لكني هززت رأسي قائلا: "إنها عظمة بشرية".

ـ وما الذي يؤكد رأيك؟

"تلك القطعة الاخرى القريبة من يدك. إنها عظمٌ بشري أيضاً".

وقال غراي وهو يرفع القطعة: "يا إلهي! ما هذا؟" لقد كانت جزءاً من مؤخر جمجمة صغيرة. وعلى مسافة متر منها كانت عظمة فخذ. وظهرت لنا قطع اخرى على ذلك المنحدر، وبينها عظمتان فقاريتان وجزء من حوض، وكلها بشرية.

وعبرت رأسي فكرة غريبة ولكن جميلة: "ماذا لو أمكن جمع هذه القطع لتشكل كلا واحداً؟ أيعقل أن تكون هذه العظام أجزاء جمجمة بدائية؟" إن أحداً لم يعثر على جمجمة من هذا النوع في أي مكان.

وانبرى غراي قائلا: "انظر الى هذه القطع: إنها أضلاع".

أيكون هذا هيكلا لانسان واحد؟

وقلت: "اني لا أُصَدّق! لقد وقعنا على شيء عظيم... عظيم". وأخذ صوته يرتفع وهو يتابع الكلام. ووقفنا نقفز ونرقص وندور حول المكان ويهنيء أحدُنا الآخر وسط الحر الشديد، حتى قلت: "يحسن بنا أن نكف عن هذا المزاح. هب أننا وجدنا رجلين يسريين: ألا يعني هذا أن في المكان أكثر من هيكل فرد واحد؟ ألا يعقل أن تكون هذه الاجزاء مختلطة بعضها ببعض؟ دعنا نبرد أعصابنا قليلا".

ووقعنا على بعض قطع من عظم الفك، ثم وضعنا إشارة عند الموقع للعودة إليه وانطلقنا نحو السيارة التي كانت تغلي كالنار، وبها ذهبنا الى المخيم. وعلى الطريق صعد معنا عالمان من جماعتنا.

ولم ينفك زميلي عن القول: "شيء عظيم! شيء عظيم". فقلت له: "هدىء أعصابك". وما أن أصبحنا على مسافة نصف كيلومتر من المخيم حتى عادت أعصاب غراي تفور في داخله. فوضع يده على نفير السيارة ولم يرفعها حتى خرج نحونا حشد من زملائنا الذين كانوا يستحمون في النهر. وصرخ غراي: "لقد وجدناه! وجدنا الهيكل كله!"

وذهبنا جميعاً بعد الظهر الى الموقع، حيث عملنا طوال ثلاثة أسابيع على جمع القطع التي أصبح لدينا منها بضع مئات تكون نحو ٤٠ في المئة من هيكل كائن واحد. وصح توقعي وتوقع توم أننا لن نعثر على قطعتين متطابقتين. إنه اكتشاف لم يسبقنا أحدٌ الى مثله.

وفي الليلة الاولى التي تلت الاكتشاف كان المخيم يضج بالأصوات. ولم يذهب أحد منا الى النوم، بل بقينا نتحدث ونمرح حتى الصباح. وكان لدينا آلة تسجيل

وشريط يحمل اغنية للبيتلز بعنوان: "لوسي في السماء ومعها الماس". وظل الشريط يدور طوال الليل والاغنية تتردد، بأعلى صوت، في السماء الحالكة. وفي لحظة من تلك الليلة المشهودة، أعطي اكتشافنا اسم "لوسي" الذي بقي محتفظاً به.

ما هي؟

"هي؟"

هذا هو السؤال الذي بقيت أسمعه من كل من يسألني عن الاكتشاف. وكان علي أن أجيب: "أجل، إنها انثى. فقد عثرنا على حوضها وعجزها كاملين. وفتحة الحوض لدى الانثى أكبر منها لدى الذكر تسهيلا للولادة. وهكذا يمكننا التمييز بين هيكل الذكر وهيكل الانثى".

لكن العنصر الذي أدهشنا أكثر من سواه كان حجمها. فلم يكن رأسها يتجاوز حجم كرة صغيرة، وكان طولها ١٠٧ سنتيمترات على رغم بلوغها التام. أما البلوغ فيمكن استنتاجه من أضراس العقل التي كانت كلها نامية وقد بلاها الاستعمال.

ولكن ما هي الميزة الخاصة التي تمتعت بها لوسي التي ألهبت خيالنا طوال أشهر؟

الحق أن هناك ثلاث ميزات.

أولا: ما هي لوسي، وما ليست هي. إنها مختلفة عن كل ما وجد وسمي سابقاً. فهي لا تقع في أي من الخانات المعروفة.

ثانيا: إنها تامة. وهذا لا يعني انعدام الهياكل العظمية القديمة قبل لوسي. لقد وجدت بقايا بشرية قديمة جداً، لكنها لم تتعدَ كونها أجزاء متفرقة: هنا سن، وهناك جزء من فك، وما الى ذلك، حتى اذا جُمعت تلك الأجزاء بعضُها الى بعض كان على العالم أن يتساءل: "هل تشكل كائناً واحداً؟" أما في حال لوسي فلم تكن ثمة حاجة الى طرح السؤال.

ثالثا: هناك مسألة السن. إن عهد لوسي يعود الى ثلاثة ملايين ونصف مليون سنة خلت. وهذا يعني أنها أقدم وأتم هيكل لكائن بشري يمشي على رجلين.

ومهما يكن من أمر تميُّز لوسي وفرادتها، تبقَ هناك حاجة ملحة الى تقرير مكانها في سلسلة التطور البشري التي عمل مئات العلماء من أنحاء الأرض على كشفها بالمنطق العلمي طوال ما يزيد على مئة سنة. وتضافرت اكتشافاتهم وآراؤهم النفاذة الملهمة على إعطاء صورة واضحة وغنية عن تسلسل الانسان. وهي رواية بدأت في نهايات القرن العشرين تكتسب مصداقية بين الناس.

وكان تشارلز داروين، في العام ١٨٥٧، أوّل من تحدى الرواية القائلة بأن الانسان خُلق في العام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، مقترحاً أن الانسان تحدر من القرود وتطور حتى أضحى كما هو. والحق أن داروين، عندما ألقى قنبلته هذه، كان كمن يتحكم بها عن بُعد. ذلك أنه كان رجلا شديد الحياء، ولم يشأ أن يقاوم ردود الفعل التي توقّع أن تثيرها الاوساط الدينية والسياسية في عصره حيال نظريته.

ومن حسن الطالع أن يكون لداروين تلميذ ذو خيال علمي خصب اسمه

توماس هكسلي. هذا لم يجد مانعاً من التصريح بأن الانسان سليل القرد، كاشفاً عن نقاط الشبه الجمة بين الانسان وأقرب الحيوانات اليه، وهي الغوريلا والشمبانزي. وهذا جعله يستنتج أن للثلاثة أصلا واحداً. وبما أن الغوريلا والشمبانزي لم توجد حية إلا في افريقيا، فقد توقع هكسلي أن توجد بقايا الاصل المشترك في تلك القارة.

إلا أنه لم يُعْرَف بوجود متحجرات في افريقيا حتى ذلك الحين. والواقع أنه لم يكن هناك سوى جزء من هيكل واحد يُسْتَدَل منه على أُصول الانسان، وهو بعض من جمجمة ومن عظم الأطراف وُجد في كهف في وادي نياندر الالماني قُبيل نشر تحفة داروين "نشوء الأنواع عبر الاختيار الطبيعي".

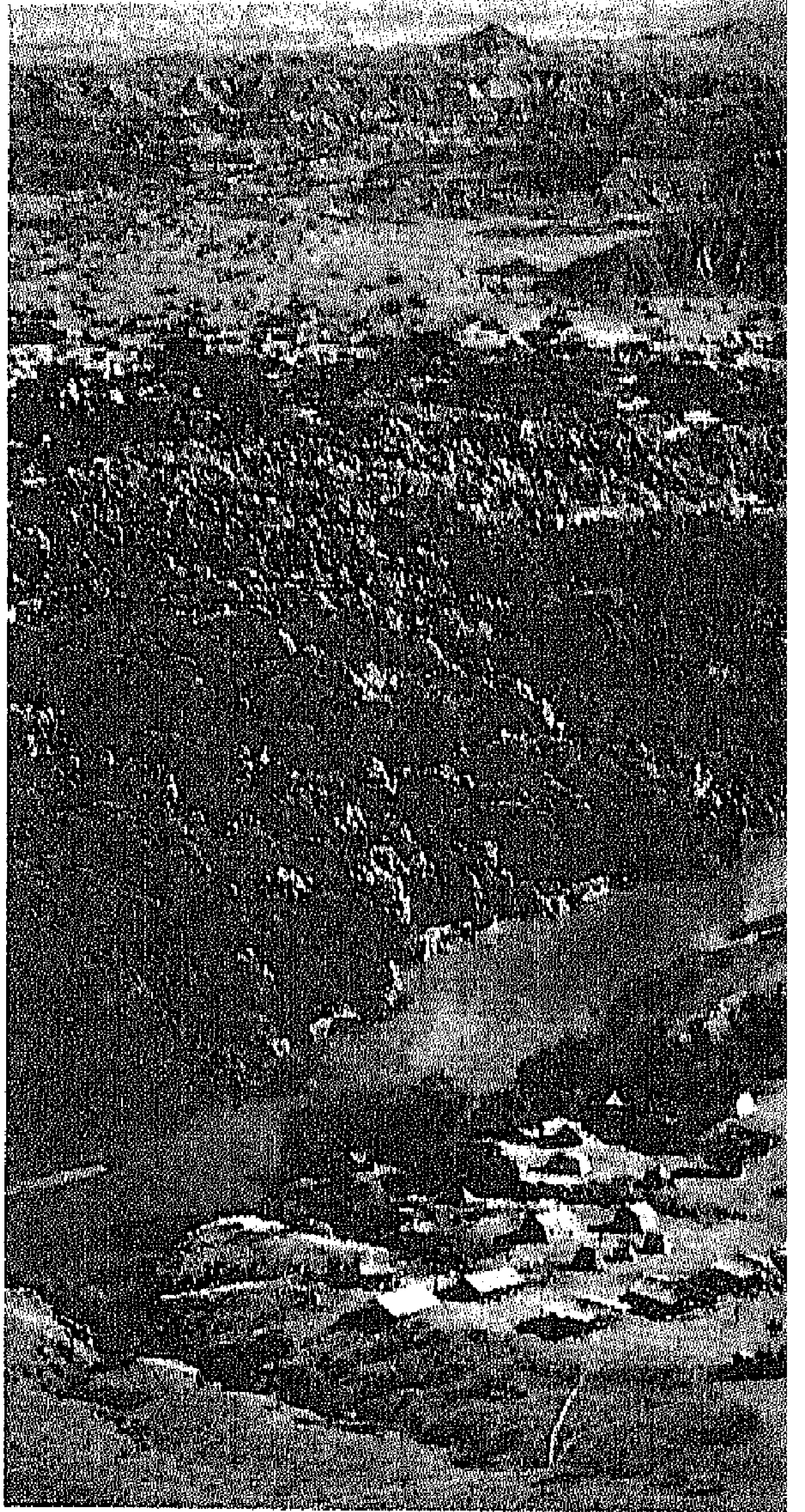
أما تلك البقايا التي عُرفت باسم "الانسان النياندرتالي" فقد خبت الضجة التي أُثيرت حولها أولا ولم يكن لها أي أثر علمي يُذكر. وربما كان بعض السبب راجعاً الى أن عقل الانسان في القرن التاسع عشر لم يتعود التمييز بين هياكل بشرية مختلفة، وبالتالي لم يجد في ذلك الهيكل البدائي ما يحفزه على إشباعه درساً والنظر إليه كنقطة انطلاق. وهكذا ابقي الانسان النياندرتالي في الظل.

غير أن طلاب التاريخ البشري ما فتئوا يحفرون الكهوف ومجاري الأنهار القديمة. وهم عثروا على ما سموه "إنسان كرو - مانيون"، نسبة الى مقاطعة في جنوب فرنسا حيث وُجد النموذج الأول منه. وعُثر على هياكل كثيرة يعسر تمييزها عن إنسان اليوم. ولما أثير السؤال عن عمرها اضطر العلماء أنفسهم الى ابتكار طريقة لحل تلك المسألة. وفي نهاية القرن التاسع عشر، توصل بعضهم الى ابتكار طريقة، أولية ولكن نافعة، دلت على أن انسان كرو - مانيون عاش في الكهوف قبل أربعين ألف سنة أو خمسين ألفاً.

وهذا أظهر حقيقة الانسان النياندرتالي الذي وُجد أنه أقدم من إنسان كرو - مانيون، إذ يعود الى خمسين ألف سنة أو مئة ألف، وربما الى مئتي الف. وهذا بدوره شاهد على صحة النظرة القائلة بتطور الجنس البشري.

وكان العالم الهولندي اوجين دوبوا اعلن في العام ١٨٩٣ وجود هيكل بشري يشبه القرد في جاوه (اندونيسيا) بعدما عثر على ضرس طاحنة كبيرة وقمة جمجمة لأحد الثدييات الرئيسية (وهي تشمل الانسان والقرد). لكنها كانت قصيرة وثقيلة جداً، مما يبعد إمكان كونها جمجمة إنسان. ومما وجده دوبوا أيضاً عظمة عليا لرجل تكاد تكون مطابقة للرجل البشرية المعروفة اليوم. وأرسل برقية الى اوروبا مفعمة بنشوة الانتصار، يعلن فيها أنه عثر على "الحلقة المفقودة"، وهي هيكل كائن يأتي بين الانسان والقرد.

غير أن الاوساط العلمية قابلت اكتشاف دوبوا بالنقد العنيف. فقد ظن بعضهم أنه جمع، عن خطأ، جمجمة قرد الى رجل انسان جاء بعده بزمن طويل. لكن هذا لم يَثْنِ دوبوا عن رأيه. وهكذا حمل القطع التي وجدها



المخيم على ضفة نهر اواش في هدار.

الى انكلترا وعرضها على السير ولتر كيث، أهم دارس للمتحجرات القديمة في عصره، الذي اخضعها لفحص دقيق شامل. وخرج كيث مقتنعاً بأن ما عثر عليه دوبوا يمثل انساناً قديماً وليس حلقة بين القرد والانسان.

في تلك الاثناء كانت الشواهد تتلاحق. فاكتُشف في ألمانيا ما سُمي "إنسان هيدلبرغ"، وهو جمجمة ذات فك قردي وأسنان بشرية. ووجد بعده "إنسان بكين" على أثر عشر سنين من التنقيب في كهوف تشوكوتيان الصينية. وما لبثت الاكتشافات الثلاثة، وهي إنسان جاوه وإنسان هيدلبرغ وإنسان بكين، أن أُعطيت اسماً مشتركاً هو "هومو اريكتوس"، أي الانسان المنتصب الذي يمشي على رجلين. وكانت جميع تلك الموجودات بشرية، وإن تكن تختلف قليلا عن إنسان اليوم بصغر دماغها وكثافة جمجمتها وبروز حواجب أعيُنها وثقل عظمها.

هذا الوصف السريع هو ثمرة أعمال مضنية استمرت أربعين أو خمسين سنة. ووجد أن إنسان جاوه أقدمها جميعاً، اذ يعود الى ٥٠٠ ألف سنة، وان يكن تصديق ذلك عسيراً على سواد الناس. وهذا يعني أنه يفوق الانسان النياندرتالي خمسة أضعاف من حيث القِدَم. أما لوسي فتفوق الانسان ـ القرد الذي وجده دوبوا في جاوه بستة أضعاف. وطالما تساءلت عما تكون لوسي، لكني بقيت بلا جواب.

الجواب عن السؤال الذي طرحته نجده في الاكتشافات التي تلت "الانسان المنتصب"، خصوصاً في محطتين حاسمتين في تاريخ الباليونتولوجيا (٢) تعودان الى خمسينات القرن الحالي. واولى هاتين المحطتين متعلقة باسم جديد بالغ الأهمية هو "اوسترالوبيثيسين" أو "اوسترالوبيثيكوس".

(٢) الباليونتولوجيا هي علم الاحاثة الذي يبحث في اشكال الحياة عبر العصور الجيولوجية.

تلك الكائنات كانت شبيهة بالبشر، لكنها لم تكن بشراً بالتمام. فهي ظهرت في افريقيا، قبل مليوني سنة، ككائنات بدائية تمشي على رجلين ولها أسنان غريبة وأدمغة صغيرة جداً بحيث يُستبْعَد أن تُسَمَّى أناساً. أما السؤال الكبير المتعلق بهذه الكائنات فهو الآتي: أهي اسلاف انحدر منها البشر، أم تكون سلالة اخرى من الكائنات؟ وهو سؤال شغل الأوساط العلمية طويلاً. ومما زاد المسألة تعقيداً ظهور نوعين أو ثلاثة من تلك الكائنات.

ووقف العلماء حائرين امام تلك المسألة. وبدأت الحيرة عام ١٩٢٤ بعدما تسلم الدكتور رايموند دارت، وكان آنذاك استاذاً في جامعة ويتووترزراند في جوهانسبورغ (جنوب افريقيا)، قطعاً أرسلها إليه صاحب مقلع كلسي في تاوونغ، وهي جزء من محمية بتشوانالاند الافريقية (بوتسوانا حالياً). ووقعت عينا دارت على قطعة مدورة بين تلك الكتل المسننة، وجد فيها قالباً داخلياً لجمجمة قديمة ملأها الكلس. وقد زالت الجمجمة مع الوقت وبقي القالب الكلسي الذي يحدد شكلها وحجمها.

ووقف دارت مشدوهاً أمام ذلك الحجر الكلسي الذي ما لبث أن وجد فيه جمجمة لطفل في السادسة مع أسنان طفل كاملة ومجموعة طواحن في أول ظهورها. وأيقن أن ما يراه ليس جزءاً من هيكل ربّاح (سعدان ضخم) أو شمبانزي. وللحال راوده شعور شبيه بذلك الذي راود دوبوا قبله، وهو أنه عثر على حلقة مفقودة بين القرد والانسان.

وكتب دارت مقالا لمجلة "الطبيعة"، وهي دورية انكليزية كانت تَنْشُر أهم المقالات العلمية آنذاك. وقبلت المجلة مقال دارت الذي واجه القراء للمرة الاولى بالفرضية القائلة بأن كائناً يسير على رجليه عاش قبل عشرات الوف السنين، وأن دماغه لم يتجاوز دماغ القرد حجماً. وللمرة الاولى أيضاً اطلع القراء على عبارة "اوسترالوبيثيكوس" التي اختارها دارت اسماً لذلك الكائن.

وجاء رد فعل الأوساط العلمية على ذلك المقال حذراً كما هو متوقع. وقبل السير آرثر كيث أول الأمر اكتشاف دارت، لكنه لم يلبث أن رفضه بحجة أنه لا يمثل فصيلة الشمبانزي والغوريلا على الاطلاق.

والدعم الوحيد الذي حصل عليه دارت في العشرينات جاء من روبرت بروم، وهو عالم مختص بتصنيف بقايا الثدييات والزواحف. إلا أن كيث لم يتراجع عن موقفه وهكذا بقي اكتشاف دارت، وقد سُمّي "طفل تاوونغ"، في الظل. ومن أسباب ذلك أن الجمجمة كانت لطفل، وأنها لا تمثل إنساناً بالغاً.

ثم كان في العام ١٩٣٦ أن سمع بروم بوجود بقايا عظام في كهف كلسي في ستيركفونتاين. وكان هناك رجل اسمه باولو يعمل مشرفاً على عمال المقلع ويبيع تلك البقايا الى السياح. وقصد بروم المكان وتمكن، بعد غوص في الركام، من العثور على أجزاء تكوّن جمجمة شبه تامة. وبعد تنظيف تلك القطع وجمعها أدرك أنها تنتمي الى فرد من

فصيلة "اوسترالوبيثيسين"، ووجدت أجزاء اخرى تكوّن ما يشبه "طفل تاوونغ" لكنها تنتمي الى فرد بالغ، إلا أن ذلك لم يثْنِ كيث عن رأيه، فبقي يحجب صفة البشرية عن تلك القطع وينعتها بكونها "دارتيّة".

واستمر الاختلاط حتى العام ١٩٥٠، عندما نُشر مقال بقلم ويلفريد لوغرو كلارك الذي خلف كيث كعميد لعلماء التشريح الانكليز، وبعد زيارة قام بها كلارك الى جنوب افريقيا، أنجز تحليلا دقيقاً لجميع الأسنان التي يحتوي عليها فك القرد، متبعاً ذلك بتحليل مماثل للأسنان البشرية، وكانت النتيجة لائحة تنطوي على نحو اثني عشر فارقاً جوهرياً، وهي فوارق واضحة وقائمة على عدد كبير من النماذج بحيث لا تقبل الجدل:

بعد ذلك درس كلارك جميع البقايا التي تنتمي الى فصيلة "اوسترالوبيثيسين" بالمقارنة مع لائحته، فوجد أنها تشبه النموذج البشري لا النموذج القردي، وهذا يعني أن "اوسترالوبيثيكوس" هو أحد أسلاف الانسان المعاصر، وهكذا تبين، بعد ربع قرن، أن رايموند دارت كان على حق.

وجُعلت تلك الفصيلة قسمين، أحدهما ناحل ورشيق والآخر ممتلىء وبدائي، وأُعطي اسم "اوسترالوبيثيكوس افريكانوس" للفئة الاولى، ومنها طفل تاوونغ، أما الفئة الثانية فكان أفرادها من النوع نفسه مع اختلاف بسيط، فهم يمشون على رجلين ويشبهون القرد والانسان في الوقت نفسه، وكان الحل رد أفراد الفئتين الى جنس واحد، مع قسمتهم نوعين، وهكذا أُطلق على الفئة الثانية اسم "اوسترالوبيثيكوس روباستوس".

حلوى خاصة

الحدث العظيم الآخر في الخمسينات حصل عام ١٩٥٩، وكان بطله العالم الانتروبولوجي لويس ليكي.

وُلد ليكي في كينيا عام ١٩٠٣ لمبشر انكليزي وزوجته، وأُرسل في فتوّته الى مدرسة في انكلترا، ولكن تبين أنه يؤثر غابات افريقيا على مجتمع أهله الأصلي، وكان معتداً بذاته يصرح بآرائه من غير تحفظ، مما أكسبه عداء أترابه في المدرسة، إلا أنه استطاع الدخول الى جامعة كامبريدج وتخرّج فيها بدرجة مشرّفة جداً، والواقع أنه كان شاباً لامعاً، يملك موهبة خارقة على التمييز وحيوية دفّاقة.

ومعلوم أن أبناء المبشرين يكونون، في العادة، فقراء، وقد كان لويس من أفقرهم طراً، وأمضى سنوات عدة يحاول شق طريقه بصعوبة، فيحاضر في هذه المؤسسة أو تلك ويضع مقالا أو كتاباً في مقابل أجور زهيدة، وكانت مشكلته أنه شُغف، منذ حداثته، بدراسة ظواهر ما قبل التاريخ في افريقيا، لكن تحرّي هذه الهواية في كينيا لا يتيح له حياة مادية مشرفة، غير أنه ثابر على هوايته، وكان يعطي الخيّاط عصيّاً مصنوعة من خشب الأبنوس الافريقي في مقابل البذلات التي يخيطها له، كما استغل خبرته في تحليل الخط لكشف الوثائق المزورة.



وواجه لويس صعوبات جمة في ذلك الوقت، صحية ومهنية ومادية، لكنه مهد لنفسه الطريق التي من شأنها أن تقوده الى الشهرة العالمية. ذلك أنه وقع على مكان في تانزانيا يحوي متحجرات قديمة. وفي ذلك المكان من مضيق اولدوفاي أمضى لويس سنوات طويلة يعمل بمعاونة زوجته ماري.

والذي قادهما الى هناك كان أدوات حجرية بدائية يستحيل أن تعني شيئاً لغير المتمرس في هذه الأمور. وبقي لويس وماري يترددان على اولدوفاي بحجة أن صانعي تلك الآلات قوم بدائيون، وأنه لا بد، عاجلا أم آجلا، من وجود بقايا لهم في ذلك الوادي.

ولم يعثرا على شيء مما تمنياه طوال ثلاثين سنة. إلا أن لويس ليكي أوجد لنفسه مكانة علمية مرموقة على أثر دراساته المفصلة لطبقات الأرض والحيوانات في ذلك المكان. وذات يوم زاره انتروبولوجي امريكي شاب اسمه كلارك هاويل، وهو أحد الذين تتلمذت عليهم لاحقاً. وغدا الاثنان صديقين. وبمساعدة ليكي، تمكن هاويل من مباشرة حفرياته جنوب اولدوفاي.

وبمساعدة اخرى من ليكي استطاع هاويل مباشرة دراسة عام ١٩٥٩ لجنوب اثيوبيا. ولدى عودته الى نيروبي (كينيا) دعاه ليكي الى العشاء. وبعد الأكل قال ليكي انه أعد حلوى خاصة لضيفه.

وأخبرني هاويل لاحقا ما يأتي: "حمل ليكي علبة بسكويت كبيرة الى الطاولة وعلى وجهه ابتسامة ماكرة. ووقف ينظر إلي وأنا أنزع الغطاء عنها. وما أن فعلت حتى رأيت داخلها جمجمة ضخمة".

وصُعِقَ كلارك هاويل من هول المشهد. وهو كان يعرف جيداً الفرق بين صنفي "اوسترالوبيثيكوس". وتبين له أن الجمجمة التي تحدق اليه من العلبة كانت من نوع "روباستوس"، وهي أتم نموذج يُعثَر عليه حتى ذلك الوقت.

وانبرى لويس قائلا: "حسناً! لقد وجدنا أخيراً شيئاً ذا قيمة".

والواقع أن ماري ليكي هي التي وقعت على الجمجمة في نهاية موسم ١٩٥٩، بعدما قررت الذهاب بمفردها الى الموقع لأن لويس كان طريح الفراش على أثر زكام قوي.

ووجد لويس أن أسنان الجمجمة كانت أكبر كثيراً من أسنان فئة "روباستوس"، مما جعله يفكر في اعطائها اسماً خاصاً هو "زنجانثروبوس بويسي". لكن ذلك الاسم لم يدم طويلا. فبعدما لاحظ علماء آخرون الشبه الكبير بين الجمجمة والصنوف البدائية، اقترحوا تسميتها "اوسترالوبيثيكوس بويسي". ومهما يكن الامر، فان "انسان الزنج" ذاك منح لويس ليكي شهرة عالمية واسعة بين ليلة وضحاها.

بيد أن الرواية لا تنتهي عند هذا الحد. فبعد سنة من ذلك الحين تناهت الى هاويل أخبار حول طريقة فذة استحدثها علماء إيطاليون لتحديد عمر ترسبات الحمم البركانية بالقرب من العاصمة روما. والطريقة تقوم على قياس مقدار الانحلال الذي

تحدثه عينة إشعاعية من عنصر البوتاسيوم في عنصر آخر هو الآرغون· وهذه الطريقة أحدثت ثورة في علمي طبقات الأرض والاحاثة إذ منحت المعنيين وسيلة أكيدة لتحديد عمر البقايا البشرية والشبيهة بها·

وطُبقت الطريقة مرة بعد اخرى لدراسة الترسبات البركانية في جوف وادي اولدوفاي· وجاءت النتيجة كل مرة مطابقة للاخرى· ووجد أن انسان الزنج يعود الى مليون و٨٠٠ ألف سنة· وهذا يعني أنه أقدم نموذج يُكتشف حتى ذلك الوقت والأول الذي أُعطي تاريخاً محدداً·

أعمال الحفر

كنت في المدرسة الثانوية عندما قرأت عن انسان الزنج في مجلة "ناشونال جيوغرافيك"· وكان اسم "اولدوفاي" بمثابة جرس يقرع في اذني منبهاً· وبدأت أتجه في أفكاري أكثر فأكثر نحو الانتروبولوجيا· واتخذت من تجربة ليكي برهاناً على أن العالم الانتروبولوجي يمكن أن يكسب عيشه عن طريق استخراج المتحجرات من الأرض·

ودخلت الجامعة حيث كان عمل ليكي حافزاً لي مرة اخرى· فقد ورد تقرير في العام ١٩٦٢ يقول انه عثر على جمجمة اخرى في اولدوفاي تمثل إنساناً حقيقياً· والمذهل في هذه الرواية عمر هذا الانسان، وهو مليون و٧٥٠ ألف سنة، وهذا قريب جداً الى عمر الزنج· وهذا يعني أن ليكي ومعاونيه، بضربة معول واحدة، جعلوا عمر الجنس البشري طاعناً في القِدَم ثلاثة أشعاف ما كان سابقاً·

وأُطلق على الاكتشاف الجديد اسم "هومو هابيليس" أي الانسان الماهر أو البارع في استخدام يديه· فهو بيديه صنع الآلات التي وجدت سابقاً في الوادي· ويُستبعد أن يكون الزنج صانعها·

غير أن حجة ليكي للدفاع عن اكتشافه الجديد لم تكن قوية· وهذا راجع الى أن الكسر الأربع التي عُثر عليها لم تكن مترابطة على نحو بارز· لكن ليكي أصر على صفة "هابيليس" وعلى كونه أقدم انسان اكتشف حتى ذلك الوقت· وقال آخرون انه من فئة اوسترالوبيثيكوس" الاولى· إلا أن اجماعاً نشأ بين المعنيين على الحاجة الى نماذج أكثر وأقدم من شأنها تقوية حجة ليكي· لكن المعاول التي كانت تحفر عمق اولدوفاي لم تقتلع شيئاً يعود مليوني سنة الى الوراء·

وهناك شبه اجماع على أن العصر البليستوسيني (العصر الحديث الاقرب) بدأ قبل مليوني سنة· وأصبح ذلك التاريخ، بالنسبة الى علماء الانتروبولوجيا، بمثابة نافذة ينظرون منها الى ما يقبع وراءها، وهو العصر البليوسيني (العصر الحديث القريب) الذي يعود الى ثلاثة ملايين سنة· ولا بد من أن يحتوي هذا العصر على بقايا تلقي ضوءاً على النماذج المختلفة من فصيلة "اوسترالوبيثيكوس" وعلاقتها بعضها ببعض، وهذا بدوره قد يوضح هوية "هوموهابيليس"· وربما عُثر على بقايا كائن سار منتصباً على قدمين قبل ثلاثة ملايين سنة أو أكثر··· إنها أفكار جريئة حقاً· ولكن من لا يبصر ما هو وراء التلة يتصور ما طاب له·

والواقع أن ليكي، عندما ساعد كلارك هاويل على مسح المناطق الواقعة غرب بحيرة توركانا وشمالها عام ١٩٥٩، كان على علم بوجود بقايا من العصرين البليستوسيني والبليوسيني على ضفتي البحيرة، وحتى عبر كينيا الى اثيوبيا، وخصوصاً على امتداد نهر اومو.

لكن أسباباً سياسية منعت استهلال بعثة اومو قبل العام ١٩٦٧. في تلك الاثناء كان ليكي يعاني آلاما مبرحة في الظهر منعته عن المشي، مما جعله يرسل ابنه الأصغر ريتشارد لمرافقة البعثة، وكان آنذاك في الثالثة والعشرين.

وعندما انضممت الى صف هاويل كطالب للدراسات العليا في جامعة شيكاغو، كان اسم "اومو" على كل شفة ولسان. وكان هناك طوفان من الشواهد، على هيئة خرائط واحصاءات ومتحجرات، ينهال على المختبر، يرافق ذلك كله نظريات حول طريقة تفسير تلك الشواهد.

وقررت ان أكتب اطروحة (رسالة) الدكتوراه حول مراحل ظهور الاسنان ونموها لدى الشمبانزي، واجري فيها مسحاً شاملا لهذا الحقل. وأكسبتني دراساتي معرفة واسعة بأسنان الشمبانزي. وعندما بدأت مقارنتها مع أسنان القردة الاخرى، خصوصاً الغوريلا والاوران، ثم مع الاسنان البشرية ونماذج من أسنان فئة "اوسترالوبيثيكوس"، تكون لدي مفهوم حول ماهية القرد وماهية الاوسترالوبيثيكوس وماهية الانسان.

وعندما درست الاسنان التي وجدت على ضفاف اومو والتي قال هاويل إنها كانت لبشر، وجدت حاجة الى تعميق معرفتي. وطلبت الى استاذي كلارك هاويل أن يعينني في الحصول على منحة لدراسة مجموعتين اوروبيتين من جماجم الشمبانزي، ولمتابعة دراستي بعد ذلك في نيروبي واومو. وكانت النتيجة أني عملت في اومو خلال ثلاثة فصول صيفية.

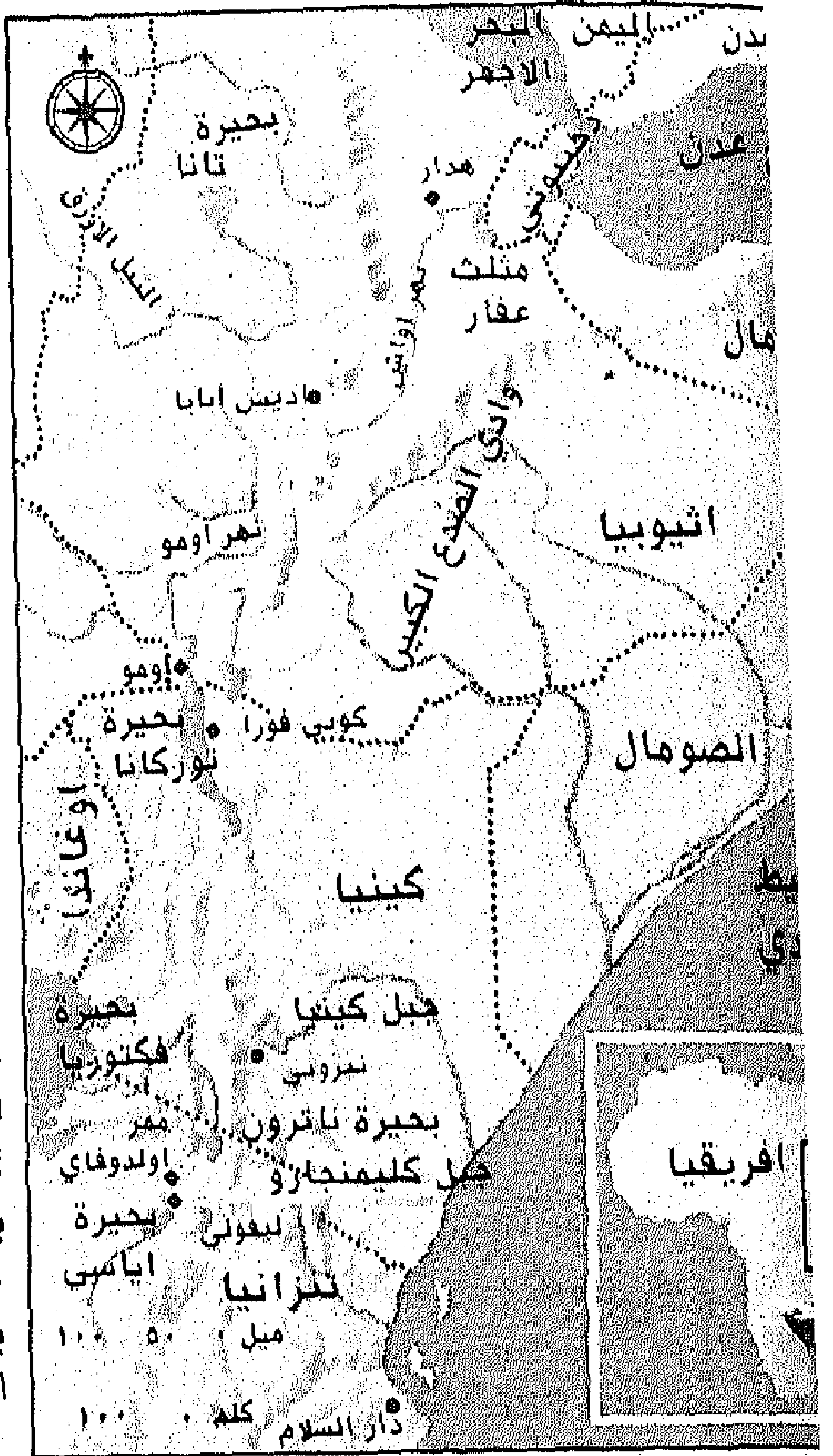
ومن اومو ذهبت الى نيروبي. وهناك التقيت ماري ليكي وجددت معرفتي السابقة بابنها ريتشارد الذي اكتسب شهرة عالمية وأصبح حديث الصحافة. وكان عاد لتوه من موقع في كوبي فلورا على ضفاف بحيرة توركانا، ومعه بقايا مهمة تنتمي الى النوع الثاني من فصيلة "اوسترالوبثيكوس". ودُهشتُ وأنا أنظر الى تلك البقايا العظمية التي لم يكن خبرها ذاع بعد.

وتكونت لدي معرفة دقيقة بالثدييات التي تعود الى العصرين البليوسيني والبليستوسيني في نهاية موسم العمل الثاني الذي أمضيته على ضفاف اومو. واكتسبت خبرة ممتازة في الحفر وعثرت على متحجرتين من الفئة الشبيهة بالبشر.

وكانت بعثة اومو تضم علماء متعددي الجنسية. وأصبح لدي أصدقاء فرنسيون. ولدى عودتي من افريقيا عبر باريس توقفت في العاصمة الفرنسية واتصلت ببعضهم. وتم تعريفي الى جيولوجي شاب اسمه موريس طايب، سره أن يعرف أني عدت لتوي من جنوب اثيوبيا.

وقال طايب: "إنني أتردد على اثيوبيا أيضاً، وقد زرت مثلث عفار الواقع شمال شرق اديس ابابا. وأنا

أقمنا مخيمنا الاول في هدار عام ١٩٧٣، على جرف عال يشرف على نهر أواش. وللحال أعطى طايب نفسه مهمة شاقة هي تحليل طبقات الارض في المنطقة. هذه الطبقات جعلها الانجراف والتآكل على هيئة أخاديد، وكان على طايب تحليلها ووضع صورة شاملة لها.



اكتشاف نادر

وانطلق أفراد الفريق الانتروبولوجي للعمل. وكانوا كلما وجدوا قطعة قديمة أعلنوا موقعها منطقة جديدة وأعطوه رقماً كانوا يحفرونه على احد الصخور. وكانوا في النهاية يسجلون هذه المواقع على خريطة كبيرة واحدة.

وانقضى نصف الموسم من دون العثور على قطعة واحدة تنتمي الى العائلة البشرية. والحق أني لم أعد المؤسسة العلمية التي مولت البعثة بالحصول على بقايا من هذا النوع، علما أن عدم حصولي على بقايا بشرية يضعف موقفي ويحجب عني المساعدة.

وكانت تلك الافكار تملأ رأسي وأنا أحفر في وقت متقدم من عصر أحد الأيام حين وقعت عيناي على ما يشبه عظمة فرس ناتئة في الرمل. وتبين أن تلك القطعة كانت الجزء الاعلى من عظم الساق الاكبر، وانها تعود الى كائن بدائي، قرد أو انسان.

وحملتها وقلت لنفسي انها عظمة سعدان. وسجلت في مفكرتي مكان وجودها وأعطيته رقماً. ثم لاحظت عظمة اخرى على بعد أمتار، وهي عظمة فخذ دنيا، صغيرة جداً كالاولى

أدرس التطور الجيولوجي في وادي نهر اواش. وفي ذلك المكان متحجرات مدهشة، لكني لا أعرف شيئاً عنها. ويجدر ذهابك معي".

وكان وضعي الشخصي معقداً. فأنا لم أفرغ من رسالة الدكتوراه، ولم تكن لدي وظيفة تعليمية ولا مال. لكن تلك المتحجرات أغرتني.

وقلت لموريس طايب: "حسناً، سأذهب". وهكذا كونا بعثة.

ولم يبقَ من ناحية مفصلها سوى نتوء واحد. ووجدت النتوء الآخر في الرمل بالقرب منها. وجمعت المفصلين أحدهما الى الآخر، ثم جمعت الاثنين الى عظمة الساق، فبدا أن الثلاثة تكون كلا واحداً... انه اكتشاف نادر حقاً.

بعد ذلك تبين لي أن عظمة الفخذ وعظمة الساق تكونان زاوية عند المفصل. ولم أكن أفعل ذلك عن عمد، لكن العظمتين اجتمعتا هكذا على نحو طبيعي. وتبادر الى ذهني أن عظمة الفخذ وعظمة الساق لدى السعدان لا تتلاقيان الا في خط مستقيم. وعلى نحو غير ارادي ارتسمت في ذهني صورة لهيكل انسان وللانحراف الناشيء عن التقاء عظمتي الفخذ والساق فيه، الأمر الذي لا يتحقق الا لدى الكائنات التي تسير على رجلين.

وحاولت إعادة تركيب العظام كي تجتمع عند خط مستقيم كما هي الحال لدى السعادين، فلم أستطع. وهكذا أقنعت نفسي بأن ما وجدته هو جزء من كائن بشري أو من أسلاف البشر الأقدمين.

ورأيت توم غراي آتياً نحوي. فرفعت اليه عظمة الساق وسألته: "ماذا تقول؟"

- إنه سعدان. أو هل تظنه انساناً بدائياً؟ إن عظمة الساق بمفردها لا تفيدنا كثيراً.

عندئذ أريته القطعتين الاخريين من عظمة الفخذ وقلت: "ماذا لو جمعت القطع معاً؟" ومددتها على الرمل، فظهرت الزاوية بوضوح عند ملتقى العظام.

وحدّق توم الى العظام ثم نظر اليّ قائلا: "أتكون هذه بقايا واحد من تلك الكائنات؟"

وهززت رأسي إيجاباً وأنا أُدرك ضخامة المسؤولية الملقاة عليّ الآن. وللحال شعرت بسعادة لا توصف، وفي الوقت نفسه لم أُصدّق أن ضربة الحظ هذه أصابتني أنا بالذات. ذلك أنه لم يسبق أن عثر أحد في تاريخ الانتروبولوجيا على مفصل ركبة بشري يعود الى ثلاثة ملايين سنة. واذا كان ظني صحيحاً، فهو يعني أن تلك القطع هي الوحيدة من نوعها في العالم حتى الآن. فهل يعقل أن أكون أنا مكتشف هذا الكنز النادر؟

في اليوم التالي بدأت تساورني الشكوك. فقد فكرت ليلا في أن هذا المفصل الملتوي يعني أن القطع تنتمي الى كائن سار على رجلين، وأنها بالتالي أول دليل حسي على وجود كائن من هذا النوع قبل ثلاثة ملايين سنة.

وبعد يوم قلت لزميلي توم غراي: "اننا نحتاج الى شيء آخر نقارن هذه القطع في ضوئه. فأنا لا أثق كل الثقة بمعرفتي التشريحية. وفي ودي الحصول على مفصل ركبة بشرية".

وعند العصر طلبت الى غراي أن يرافقني الى حافة التلة القريبة، وقلت له: "تلك الهضبة يستخدمها سكان منطقة عفار لدفن موتاهم".

- رويدك يا هذا! أتريد أن نفسد علاقتنا الطيبة بهؤلاء القوم فنسرق جثة لأحد موتاهم؟

"جلّ ما أُريده هو النظر إليها".

- لا أنصحك بهذا. أنسيت الزيارة التي قام بها أكابرهم إلينا؟

والحق أني كنت نسيت تلك الزيارة

التي قصد فيها وفد من متقدمي القبائل مخيمنا بعد اسبوع من إقامته، وجلسوا القرفصاء بينما وقف بعض فتيانهم وراءهم ممتشقين السلاح. وقالوا لنا، عبر ترجمان، انهم يريدون أن نرحل، لأن الأجانب لا يحملون معهم سوى المشاكل.

ولم يكن أهل عفار شاهدوا من سكان العالم الخارجي سوى بعض أعوان حكومتهم الذين قصدوا المكان لمسح الأراضي ومصادرة بعضها لاقامة السدود، مما شكل اضطراباً في نمط حياتهم البدوية.

وأمضيت وزميلي موريس طايب معظم النهار نتحدث الى زعماء القبائل بتؤدة، موضحين لهم أن غايتنا واحدة وهي جمع العظام والحجار القديمة من تلك المنطقة. والواقع أنهم لم يصدقوا كلمة مما قلناه، لكنهم سمحوا لنا بالبقاء بعد تبادل عدد من الهدايا الصغيرة.

وعاد غراي يقول: "انهم سيرموننا بنيرانهم أو يسرقوننا ان حاولنا نحن الاغارة على مقابرهم".

– ولكن ينبغي أن أحصل على ركبة انسان بأي ثمن!

وكانت المقبرة حيزاً مصنوعاً بجلاميد الصخور. ونظرت من بين صخرتين، فوقعت عيناي على ما أبتغيه. ولم يكن أحد قرب المكان، فالتقط توم العظمة ووضعها في قميصه، وذهب بها الى المخيم. وجلستُ تلك الليلة أدرس البقايا المتحجرة، فوجدت أن النوعين متطابقان إلا من حيث الحجم.

وطرت الى الولايات المتحدة، وتوجهت أولا الى "كنت" (ولاية اوهايو) حيث كان صديقي اوين لفجوي، وهو حجة عالمية في موضوع التنقل البشري، يحاضر في دائرة الانتروبولوجيا في جامعة كنت الحكومية. وفي أثناء حديثنا، فتحت العلبة التي وضعتُ فيها العظام الثلاث وقلت: "ماذا تعني لك هذه القطع يا اوين؟"

وبعدما تفحصها بدقة، قال: "إنها عظام بالغة. لكنها صغيرة جداً".

– هذا صحيح.

"وكم تظن عمرها؟"

– ثلاثة ملايين سنة.

"هذا مستحيل. فمفصل الركبة يبدو شبيهاً بمفصل انسان اليوم. ويبدو لي أن هذا الكائن القزم كان يسير على رجليه".

– لقد تبين لي، بعد مقارنة هذه القطع بالمتحجرات الاخرى، أنها تعود الى ثلاثة ملايين سنة. واني مزمع على فحصها بمادة البوتاسيوم خلال أسابيع.

ورفع لفجوي رأسه وأطلق ضحكة تشبه النهيق. فسألته: "ما الخطأ في الأمر؟".

– ما الخطأ؟ الأمر كله خطأ. فربما مشى هذا الكائن على رجليه الخلفيتين، وربما كان يعدو عدواً. لكني اراهن على أن دماغه لم يكن أكبر من حبة فستق.

"أصحيح ما تقول؟"

– أجل! هل وجد زملاؤك مكاناً في شجرة العائلة البشرية لكائن من هذا النوع؟ انه قرد صغير لا يتجاوز طوله المتر، وهو كان يعدو على قائمتيه الخلفيتين... ترى في أي مكان يضعونه؟

"لا أدري".

- انهم لن يصدقوك. والأفضل أن تعود وتعثر على هيكل تام.

...وفي السنة التالية وجدنا لوسي!

ما عمرها؟

بعد استئناف العمل في مخيم أواش عام ١٩٧٤، كان علينا أن ننظف القطع الكثيرة التي وقعنا عليها ثم نصنفها بالنسبة الى العصور الجيولوجية قبل أن نصفها قطعة قطعة. وهي مهمة شاقة حقاً. فالوصف يستغرق طويلا، وهو يقتضي اجراء قياسات آلية دقيقة وتدوينها في دفاتر خاصة. وهذا كله يجب إنجازه قبل محاولة طرح أي فرضية علمية حول كائنات هدار التي تنتمي الى العائلة البشرية. وأهم نقطة نظرية هي تلك التي تتناول أعمار تلك الكائنات، إذ ينبغي أن ترتكز على قواعد علمية صارمة لا تحتمل الجدل.

وكان طايب عثر على طبقة بازلت بركانية وعلى طبقة بركانية اخرى من الغبار. وبما أن الحمم والغبار تفيد في تعيين التواريخ، فقد أخذت عينات منها في العام الماضي وأُرسلت الى مختبر البوتاسيوم والآرغون في كليفلاند حيث تولى تحليلها جيمس آرونسون، وهو خبير من جامعة "كيس وسترن ريزيرف". وتبين أن عمر البازلت ثلاثة ملايين سنة، مع احتمال الخطأ بمئتي ألف سنة زائدة أو ناقصة.

وتجدر الاشارة الى أن أخذ العينات من بقايا الحمم البركانية مسألة معقدة. فهذه البقايا، ومنها الصخور، تنطوي على كميات ضئيلة من مادة "بوتاسيوم - ٤٠" ذات الفاعلية الاشعاعية. وانحلال البوتاسيوم يتولد عنه الآرغون، وهو غاز هامد. وقد وصف آرونسون طريقته بالآتي: "فصلت الآرغون وأجريت عليه القياس. وبما أني أعرف كمية البوتاسيوم الأساسية، كذلك معدل الانحلال، ففي امكاني استنتاج عمر العينة بالطرق الحسابية التقليدية".

لكن آرونسون لم ترقه النتيجة. فبعد فحص جميع عينات البازلت تحت المجهر، وجد أنها تنطوي، حتى في أفضلها، على دلائل صغيرة تشير الى تعرّضها للتغيُّر. وربما رشح منها شيء من الآرغون. ولكن اذا كان هذا صحيحاً فهو يعني أن عمر البازلت يفوق الثلاثة ملايين سنة. إلا أنه لم يتمكن من تحديد التاريخ بالضبط، واقترح أن نجري اختباراً مغناطيسياً للعينات.

إن الأرض عبارة عن قطعة مغناطيس هائلة. وهذا يعني أنها تحتوي على قطب موجب وآخر سالب. والجزء الموجب هو حالياً عند القطب الشمالي، وهذا هو مكانه "الطبيعي". أما الجزء السالب فهو عند القطب الجنوبي. ولكن بفعل حركة المواد المغناطيسية المصهورة في جوف الأرض، يطرأ تبدّل على خصائص القطبين من وقت الى آخر بحيث تنعكس "طبيعتهما"، فيصبح القطب الشمالي سالباً والجنوبي موجباً.

وتولى عالم جيولوجي جمع ٤٠٠ عينة حجرية متدرجة القدم. وأُخضعت هذه العينات للفحص المغناطيسي، فتبين أن البازلت تكون

خلال فترة كانت خصائص القطبين معكوسة. ولكن ما عساها تكون تلك الحقبة؟ أهي ما يُدعى الآن "حقبة ماموث" التي تعود الى ثلاثة ملايين سنة أو ثلاثة ملايين ومئة ألف سنة؟ أم هل تكون "حقبة غيلبرت" التي يراوح عمرها بين ثلاثة ملايين و٤٠٠ ألف سنة وثلاثة ملايين و٦٠٠ ألف سنة؟ وجدير بالذكر أنه ليس هناك إمكان ثالث، لأن الارض عرفت قطبية "طبيعية" طوال الحقبة الأخيرة المؤلفة من ثلاثة ملايين سنة.

ومن أجل إعطاء زمن أكثر دقة للبازلت، استقدم آرونسون شاباً خبيراً بالبراكين اسمه بوب ولتر، جمع عدداً من العينات البركانية وحملها الى كليفلاند لتحليلها بطريقة تقوم على تحري معدن الاورانيوم في بلورات دقيقة تُدعى الزّركون.

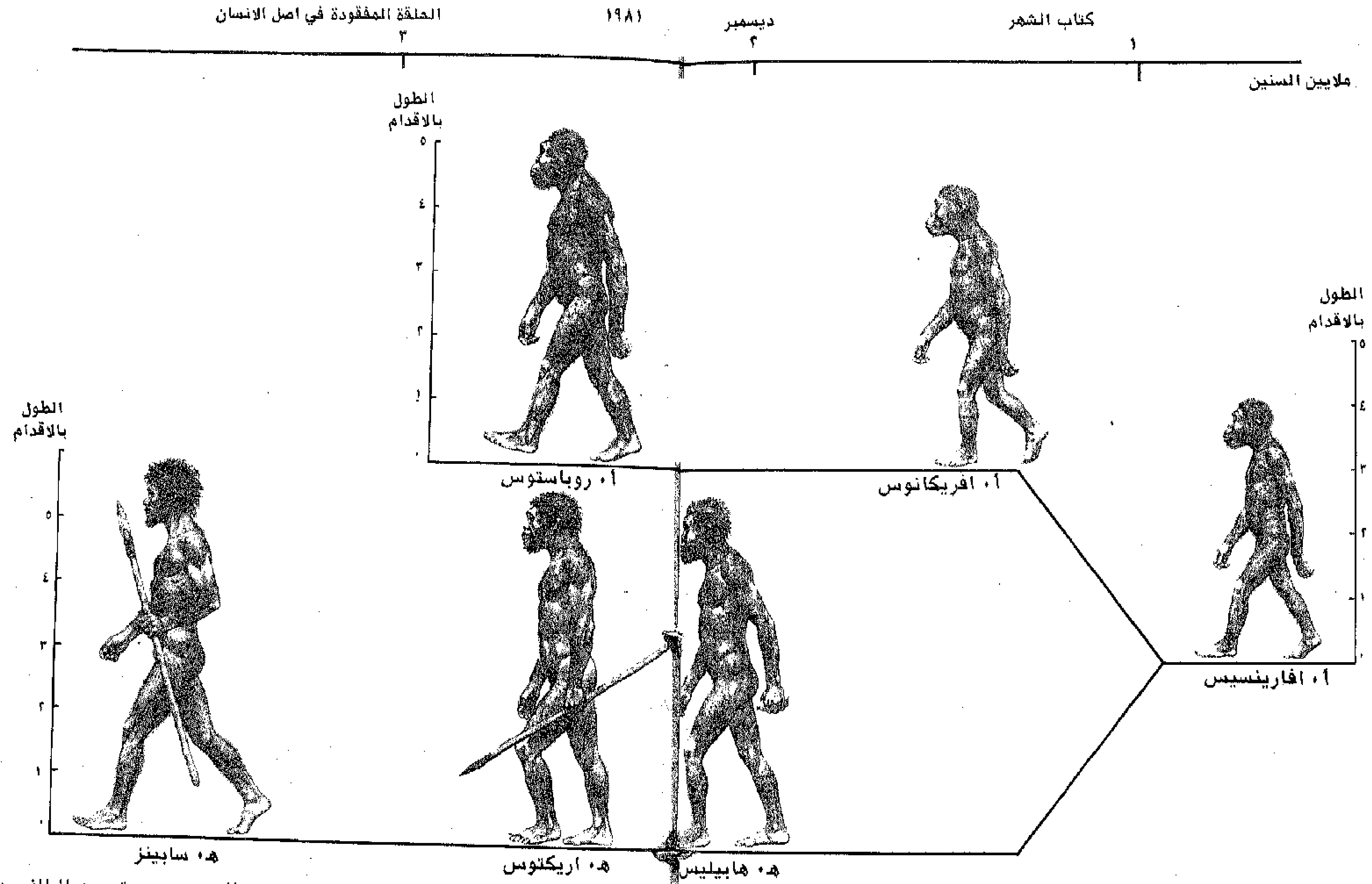
و"الاورانيوم - ٢٣٨" مادة إشعاعية تنحل ببطء ليتكون منها الرصاص، كما يتكون الآرغون من مادة "البوتاسيوم - ٤٠". والفرق أن تحول البوتاسيوم آرغوناً يتم بهدوء، في حين أن تحول الاورانيوم رصاصاً يصاحبه تكون بسيط للطاقة. وهذه الطاقة تتسرب من أطراف الزركون محدثة تغيراً في ذراته. والنتيجة شبيهة بما يحدثه عبور إنسان حقلا من الحنطة، إذ يخلف خطاً على طول موطىء قدميه. أما الخط الذي يخلفه تسرب الطاقة من الزركون فيُسمّى انفلاقاً أو خطاً انشطارياً. وتمكن رؤيته تحت المجهر بعد مسحه بمادة كيميائية لتوسيعه قليلا. وكثرة الخطوط الانشطارية في الزركون دليل على قِدَمه.

إلا أن تحديد عمر العينات عن طريق تحري هذه الخطوط فهو أقل دقة من فحص البوتاسيوم والآرغون، لكنه ملائم بنوع خاص لتحديد عمر العينات التي بدّلتها العوامل الجوية أو تعرضت للتلوث بحيث لم يعد يصلح معها الاختبار الآخر. وفي نظر آرونسون أنه اذا أُجري الاختباران وجاءت النتيجة مطابقة، فهذا يقوي الموقف لا محالة. والواقع أن هذا هو ما حصل فعلا.

وعندما أنهى آرونسون وولتر مهمتهما، تبين في ضوء الاختبارين كليهما أن طبقة الرماد البركاني تعود الى مليونين و٦٠٠ ألف سنة خلت، وأن طبقة البازلت التي وُجدت تحتها تعود الى ثلاثة ملايين سنة. وفي طبقة بين الاثنتين كانت لوسي التي يُظن أن عمرها مليونان و٩٠٠ ألف سنة.

ما هي لوسي؟

أُرسلت بعثتان اخريان الى هدار، الاولى عام ١٩٧٥ والثانية عام ١٩٧٦. وفي العام ١٩٧٥، أي خلال موسم عملنا الثالث، وقعنا على اكتشاف لا يُصَدّق. فعلى جانب تلة أطلقنا عليها لاحقاً اسم "الموقع ٣٣٣"، عثرنا على كنز ثمين من المتحجرات التي تنتمي الى العائلة البشرية. وأمضينا بقية الموسم ومعظم السنة التالية نعمل عليها. وفي النهاية بلغ عدد القطع المجموعة نحواً من مئتين، بينها أسنان وعظام اخرى. وتبين أن تلك القطع تنتمي الى ١٣ فرداً على الأقل من رجال ونساء وأربعة أطفال.



وفي فبراير (شباط) ١٩٧٧ عدت الى متحف كليفلاند للتاريخ الطبيعي الذي كنتُ أميناً له٠ وكانت في حوزتي، للمرة الاولى، مجموعة هدار الكاملة: مفصل الركبة ولوسي وجميع القطع التي استخرجت من الموقع ٣٣٣ والمعروفة اليوم باسم "العائلة البشرية الاولى"٠وألقيت نظرة على

Diagram From «the emergence of man, the missing link».
Illustration by Jay Matternes. (C) Time-Life books, publisher.

تلك القطع معاً، فبدا لي أنها لا تقل عن معجزة تضافر على خلقها الظرف الملائم والحظ السعيد والمثابرة٠

هنا أكثر من ٣٥٠ قطعة منفصلة تنتمي الى مجموعة من البالغين والأحداث بين اناث وذكور٠ وثمة فوارق بين اولئك الافراد تشير الى أنهم ينتمون الى أجيال وعصور

مختلفة. وان دراسة دقيقة لتلك الموجودات من شأنها كشف طبيعتها: أهي من عائلة "اوسترالوبيثيكوس" أم من عائلة بشرية محضة، أم تراها من فصيلة لا هي هذه ولا تلك؟ إن مسؤولية الاجابة عن هذه التساؤلات ملقاة على عاتقي.

وكنتُ وحيداً في مكتبي، ذات ليلة، في الطبقة السفلية من المتحف، حين تناولت جميع القطع الفكية ووضعتها على الطاولة. ورحت أعربها ابتداء بالأسنان الرمادية المتلألئة. وخُيِّل إليّ أن تلك الفكوك تهزأ مني قائلة: "أخبرنا من نحن! قل لنا ماذا ستدعونا".

وازداد الأمر تعقيداً بعد عثور ماري ليكي على قطع جديدة في موقع "ليتولي" في تانزانيا، وهي آثار أقدام بشرية حُفظت، على نحو عجيب، في طبقة من الرماد البركاني. وكان في ليتولي ذلك الوقت انتروبولوجي امريكي شاب اسمه تيم وايت، سبق أن تعاون مع ريتشارد ليكي. واشترك وايت في حفظ تلك المتحجرات النادرة ودون الأوصاف الضرورية حولها. وعندما عرضت عليه متحجرات هدار، وجد شبهاً صارخاً بينها وبين القطع التي عثرت عليها ماري ليكي في ليتولي.

أما العنصر الذي زاد المسألة تعقيداً فهو أن ليتولي تبعد ١٦٠٠ كيلومتر عن هدار، وأن عمر متحجراتها يعود الى ثلاثة ملايين و٧٥٠ ألف سنة، مما يعني أنها أكبر من لوسي بـ٨٠٠ ألف سنة. وقررت أن أقوم بدراسة دقيقة للمجموعتين مع تيم وايت.

وهكذا طلبت إليه أن يحمل القوالب التي صبها لبعض قطع ليتولي ويأتي بها الى كليفلاند لاجراء المقارنة. وكان ظني أني سأجد فوارق غير قليلة بين المجموعتين مما يجعل التمييز بينهما جلياً.

وما أن بدأ تيم وضع القوالب على الطاولة حتى وجدتها هزيلة بالمقارنة مع متحجرات هدار. وكان هناك فك واحد، وهو فك سفلي، في حال جيدة، فضلا عن ١٣ قطعة اخرى. ولكن مهما يكن الأمر فقط ظهر أن القطع متشابهة على نحو لا يقبل الشك، خصوصاً الكبيرة منها.

وقضينا أياماً نقارن عينات المجموعتين بدقة بالغة، واضعين سناً على سن وتاجاً فوق تاج. وكان ذلك اختباراً خارقاً قلت في نهايته: "ان قطع مجموعتي الكبيرة مشابهة للقطع الكبيرة في مجموعة ماري".

- هذا ما قُلْتُه لك!

"لكن هذا لا ينطبق على لوسي! إنها شيء آخر".

- أجل! إنها مختلفة قليلا لأنها انثى. فهي أصغر وفكُّها على هيئة الرقم ٧. لكنها لا تختلف في الامور الاخرى.

ونظرتُ من جديد الى لوسي، فبدت لي مختلفة. وكانت لدي قناعة بأن هناك فصيلتين مختلفتين في هدار: فصيلة أفرادها كبيرة، وهي تشبه ما وجدته ماري ليكي في ليتولي، واخرى صغيرة تنتمي اليها لوسي. وكان ريتشارد ليكي وأُمّه - في زيارة الى هدار - أعربا لي عن ظنهما أن الأفراد الكبيرة هي من العائلة البشرية. ووافقتُهما الرأي

في حينه. وكان ريتشارد توصل الى طريقة مقنعة لتصنيف البقايا التي عثر عليها عند بحيرة توركانا، إذ جعلها في مجموعتين، واضعاً الأفراد ذوي الفكوك والطواحن الضخمة تحت فصيلة "اوسترالوبيثيكوس" وذوي الفكوك والطواحن الأصغر تحت الفصيلة البشرية. وعندما وصل الى هدار ووجد أفراداً ذوي أسنان صغيرة تشبه أفراد مجموعة توركانا، كان من الطبيعي أن ينميها الى العائلة البشرية.

غير أن لوسي لم تنسجم مع تلك الفصيلة، على رغم صغر أسنانها. فهي كانت من الغرابة بحيث تعسر تسميتها بشراً. وشاركني تيم وايت في الرأي الى حد، من غير أن يفصح أحدنا عن رأيه للآخر. وذات يوم وضعنا أفراد "العائلة الاولى" التي استخرجت من الموقع ٣٣٣ على الطاولة، وبينها جزء من جمجمة بالغة أعطيناها علامة "ال٣٣٣ - ٤٥". وكانت كائناً صغيراً ذا عضلات في مؤخر الجمجمة شبيهة جداً بعضلات القرود. ونظر إليها تيم طويلا ثم قال: "إنها قطعة غريبة. ولكن قل لي، بربك، هل ستحاول نسبتها الى الفصيلة البشرية؟"

لكني سألته بدوري: "وهل تريد أن تطلق عليها صفة اوسترالوبيثيكوس؟"

وكانت تصنيفات ليكي بدت لنا ملائمة حتى ذلك الوقت. ولكن ظهر فجأة أنه يستحيل وضع "ال٣٣٣ - ٤٥" في ضوئها.

وقال تيم: "ألا تكون القطعة من فئة ثالثة؟"

ووقعنا في حيرة من أمرنا، وأخذت الأفكار تتلاحق لدينا. ولم أعد أذكر أي واحد منا اقترح مراجعة مقال لو غرو كلارك الشهير، ولكن ما أن طُرحت الفكرة حتى تأكدنا من أننا واقعون على حل للمسألة في القائمة التي أعدها كلارك بعناية والتي تحوي ١١ فارقاً بين أسنان القردة واسنان البشر.

وفي منتصف صيف ١٩٧٧ كنا على استعداد لاجراء المقارنة. وكانت لدينا نماذج من الشمبانزي والغوريلا ومجموعة لائقة من بقايا الاوسترالوبيثيكوس، فضلا عن تصنيفنا مواد ليتولي وهدار على نحو يسهل مباشرة العمل. وكان علينا التصدي للمسألة من ثلاث زوايا:

١. هل في حوزتنا أشياء جديدة لم يظهر مثيل لها من قبل؟

٢. إذا صح أن ما لدينا جديد، فما نسبته الى الاشياء التي وجدت قبلا؟ بكلام آخر، الى أي شجرة عائلة هو ينتمي؟

٣. ما الاسم الذي ينبغي اطلاقه على هذه الأشياء؟

وكنا نعلم أن قائمة كلارك سوف تعيننا في الاجابة عن السؤالين الأولين. أما الثالث فمتروك لوسائلنا الخاصة.

اسم عَلَم

هناك طاولة مرتفعة تتوسط المختبر في كليفلاند. وكنا كل مساء، بعد انصراف الموظفين، نذهب اليها أنا وتيم ويسحب كل منا كرسياً عالياً يضع عليه لوائح المقارنة ويتحرى القطع بتفاصيلها جميعاً.

وسرعان ما صدمني التحليل، لا لأن الفكوك التي كانت موضوع دراستنا قديمة، إذ كنتُ أتوقع هذا الأمر، بل لأنها كانت طاعنة في القدم. وبدلا من كونها بشراً تشبه القرود، بدت لي قروداً تشبه البشر. والأمر الذي بدا جلياً الى حد لا يحمل الشك كان أن متحجرات ليتولي وهدار تنتمي الى منزلة بين الاثنتين، من غير أن تكون هذه ولا تلك.

وتجدر الاشارة الى أن هذا الاستنتاج قائم ليس على قطعة واحدة أو ميزة واحدة معينة، لكنه ثمرة الدراسة المستفيضة والمقارنة. وفي نهاية الصيف كنا قد دونا عدداً من الفوارق كافيا للبرهان على أن متحجرات ليتولي - هدار مختلفة عن القرود وعن البشر اللاحقين كذلك.

ومختصر القول أن مقارنتنا الدقيقة أجابت عن السؤال الأول. فقد عثرنا، بالتأكيد، على أشياء جديدة. والمشكلة التي بقيت بلا جواب هي الآتية: أهو شيء واحد جديد أم شيئان؟ وكانت قناعتي أن لدينا شيئين جديدين، في حين اكتفى توم بشيء واحد. ووافقني رأيي بيل كيمبل، وهو اليوم معاوني في المختبر، وقد ساعدنا آنذاك في بعض التحاليل والمقارنات. لكن تيم لم ينقطع عن القول: "أتَدَّعي أن لوسي مختلفة؟ تعال يا كيمبل، دعنا نخرج ما لدينا من شمبانزي ونقارن بهدوء بين لوسي وبينها عوضاً عن التبجّح طوال الوقت". وجاء تيم في اليوم التالي الى المختبر ليقول: "انهما واحد، واحد". فرددنا عليه أنا وبيل: "لا بل اثنان، اثنان".

ولم يكن رأينا مبنياً على صغر حجم لوسي بمقدار ما هو قائم على شكل الرقم ٧ عند فكها. وأخيراً رتب تيم مجموعة متحجرات على الطاولة، هي عبارة عن فِكاك تتدرج من حيث حجمها. وعند وضع فك لوسي في آخر الصف، بدا واضحاً أنها في مكانها الطبيعي. وكان الاختلاف الوحيد صغر فكها الأمامي. وكانت لها أسنان بدائية مشابهة لبقية أفراد المجموعة، مما حدانا نحن الثلاثة، بعد أشهر من التفكير ملياً في الأمر، على الاقرار بأن تلك القطع كلها تنتمي الى عائلة واحدة. وهكذا زال تميز لوسي من أذهاننا.

وبعدما تأكد لنا أننا نعمل على أفراد من عائلة بشرية بدائية، بدأنا التصدي للسؤال الثاني، وهو الآتي: ما علاقتها بالأفراد البشرية الاخرى؟ وللثالث: ماذا نسميها؟ ترى ما نسبتها الى "هومو هابيليس" و"اوسترالوبيثيكوس افريكانوس" و"اوسترالوبيثيكوس روباستوس"؟

وقررنا، كخطوة اولى، تصنيف جميع البشريات الافريقية في قائمة تتناول عمرها وصنفها والموقع الذي وجدت فيه، حتى اذا فرغنا من ذلك تناسينا الموقع وركزنا على الصنف. وهذا من شأنه اعطاء قائمة بسيطة لكنها، في الوقت نفسه، تمثل الفوارق الرئيسية. وهي قائمة تبين استنتاجنا بوضوح، وهو أن مجموعة ليتولي - هدار تمثل صنفاً أقدم من "اوسترالوبيثيكوس" و"هوموهابيليس" لكنه سلف للاثنين، كما تبين أن تطور الجنس البشري بدأ قبل ثلاثة ملايين

سنة، وأن "افريكانوس" سبق "روباستوس"، وهو بالتالي لم يكن سلفاً مباشراً للانسان.

وفي اعتقادنا أن الجنس البشري نشأ قبل نحو ثلاثة ملايين سنة، وأنه بات صنفاً خالصاً قبل مليوني سنة. ففي ذلك الوقت كانت هناك مخلوقات من فصيلة "هومو" تمشي على الارض. وكانت معها أيضاً مخلوقات من فصيلة "روباستوس" المشابهة التي رافقتها نحواً من مليون سنة، لكنها زالت بعد ذلك وانقرضت.

هذه النتائج، التي خرجت بها أنا وتيم بعد سنتين من العمل كانت جواباً كافياً عن سؤالنا الثاني. وبقيت أمامنا مشكلة الاسم. واقترحت "اوسترالوبيثيكوس ليتولنسيس" بحجة أن هذا يرضي ماري ليكي.

لكن تيم قال: "لا أظن الاسم موفقاً. ذلك أن المجموعة الرئيسية التي تضم أفضل العينات هي مجموعتك أنت لا مجموعة ماري. والأجدر أن تعطيها اسمك".

ـ أتعني "جوهانسونينسيس"؟ هذا مضحك!

"كلا، بل أعني أن تطلق عليها اسم المكان الذي وجدت فيه: "هدارينسيس".

غير أن الفكرة لم ترقني. فأنا أفضل استعمال اسم المنطقة كلها: مثلث عفار.

وانبرى تيم وايت قائلا: "حسناً، إذاً.. لنسمها "افارينسيس". ما رأيك؟".

وهكذا اعتمدنا اسم "اوسترالوبيثيكوس افارينسيس".

كان علينا، بعد ذلك، أن نكتب مقالا نصف فيه الاكتشاف وما تلاه من تحقيق وتدقيق ومقارنة واستنتاج. وأدركنا، انا وتيم، أن ذلك المقال سيكون خطأ فاصلا في تاريخ الانتروبولوجيا وعلم المتحجرات، وانه سيبدل نظرة الانسان الى نفسه وأصوله. وهذا يشير الى مسؤوليتنا الجسيمة تجاه انفسنا وتجاه العلم ككل.

إفشاء السر

وفي شهر مايو (أيار) ١٩٧٨ سلمنا المقال الى مجلة "العلم" (ساينس) وهي أهم مطبوعة علمية في الولايات المتحدة. ولم يكن أحدنا يتوقع الاهتمام الواسع الذي كشفه إفشاء سر "افارينسيس". ونشرت صحيفة "نيويورك تايمس" مقالا على صفحتها الاولى يحمل رسماً لجمجمة "افارينسيس". وفي الأيام التالية ظهرت مقالات حول الموضوع في مجلتي "تايم" و"نيوزويك" وفي صحف ومجلات اخرى. ودُعيتُ الى حلقات تلفزيونية عدة. إلا أن عنوان "نيويورك تايمس" عبر عن الأمر برمته إذ قال: "اكتشاف نوع جديد من الكائنات يبدل النظرة الى التطور البشري". وجاء المقال تحت العنوان تلخيصاً بليغاً لنقاط مقالنا البارزة:

"هناك كائن مجهول كان سلفاً للانسان وعاش في افريقيا قبل ثلاثة ملايين سنة حتى أربعة ملايين سنة. وهو يجمع جمعاً غريباً بين رأس صغير الدماغ يشبه رأس القرد وجسم منتصب تماماً. وقد عثر عليه عالما انتروبولوجيا امريكيان.

"وهذا هو النوع البشري الأول الذي تتم تسميته خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة.

وهو يتحدى النظرة السائدة التي تقول بأن الكائنات المنتصبة، التي كان سيرها على القدمين يخولها استخدام اليدين لصنع الآلات، ظهرت، الواحد بعد الآخر، بأدمغة كبيرة".

الهجوم الأول على مقالنا وصل في ٧ مارس (آذار) ١٩٨٠. فقد أرسلت إلينا مجلة "العلم" نقداً بإمضاء ريتشارد ليكي وآلن ووكر، وهو حالياً استاذ تشريح في جامعة جونز هوبكنز الامريكية. كما أرسلت الينا المجلة نقداً آخر ممهوراً بتوقيع ماري ليكي وخبيري تشريح من مستشفى سان توماس في لندن، هما مايكل داي وتود اولسون.

وكان اعتراضنا على مقال ليكي - ووكر أنه يكتفي بانتقاد تصنيفنا لأفراد العائلة البشرية من غير أن يقترح بديلا. وهذا خيب أملنا إذ لم يقدم أي نقطة ملموسة يمكن الرد عليها.

أما نقد ماري ليكي فكان أكثر مدعاة الى الخيبة. وكانت هي صرحت في مقابلة سابقة باستحالة الربط بين مكتشفات ليتولي ومكتشفات هدار لبعد المسافة التي تفصل بينهما وللفارق الزمني الذي قالت انه ٧٥٠ ألف سنة. وكنت أود تحدي نقطتيها معاً، فأذكرها مثلا بأن "هومو اريكتوس" (الانسان المنتصب) بقي من دون تغير زمناً أطول، وذلك في أجزاء مختلفة من العالم يبعد أحدها عن الآخر أكثر من بعد ليتولي عن هدار.

انسجام تام

إن إعلاننا عن "اوسترالوبيثيكوس افارينسيس" هو من قبيل التصريح بغرائب الأمور. فهو بمثابة وصف سلف للانسان كان مجهولا حتى الآن واعادة تكوين لشجرة العائلة البشرية. وهذا، كما أظن، ما حدا ريتشارد ليكي وامه الى الوقوف ذلك الموقف من مقالنا... إنه يتحدى نظرة آل ليكي القائلة بتميز صنف "هومو" عن سواه.

وكان لويس ليكي أول من نادى بتلك النظرية. فهو لم يتوانَ عن دراسة كل قطعة حسنة المظهر من فصيلة "هومو" على حساب أفراد "اوسترالوبيثيكوس" وحتى "هومو اريكتوس" والانسان النياندرتالي. ووقفت ماري وريتشارد موقف لويس حتى بات خطهم العلمي خطاً "عائلياً". وكمثل والده، بدا أن ريتشارد يؤثر إلغاء الفوارق من أجل الحفاظ على سلامة نظرته. وهكذا اقتنع بأن كل ما ليس "هومو" لا يمكن أن يكون سلفاً للانسان.

وقد تطرقت في مقالي الى السبب الذي جعلني أتبنى هذه النظرة قبل سنوات، وهو المعرفة السائدة حول المتحجرات المكتشفة حتى ذلك الوقت والاستنتاجات المثيرة التي أعلنها ريتشارد حول الانسان البدائي بناء على أن احدى جماجم ليتولي - وقد أعطيت اسم "١٤٧٠" - تعود الى ثلاثة ملايين سنة. واقتناعاً مني بصحة التاريخ الذي أعطاه ريتشارد لتلك القطعة الغريبة، قررتُ أنه يحسن بنا البحث عن المرحلة السابقة للانسان، والتي منها تفرع الانسان، في تاريخ سابق. وبما أنه لم تظهر حتى ذلك الوقت متحجرات من فصيلة "اوسترالوبيثيكوس" أقدم زمناً من

"١٤٧٠"، فهذا جعلني اوافق ريتشارد على عدم اعتبار أفراد تلك الفصيلة من أسلاف الانسان٠

والواقع أن شهرة ريتشارد ليكي العالمية جاءت بفضل "١٤٧٠"٠ وتلك القطعة عززت آراءه حول تطور الجنس البشري٠ ولكن عندما ظهرت شواهد تبين خطأه التاريخي، ظل ريتشارد يمتنع عن الاقرار بخطأه ويدافع عن موقفه حتى تراجع عنه في النهاية٠ أما الحفاظ على رأيه في التسلسل البشري فبات يحتاج الى اكتشاف أفراد من فصيلة "١٤٧٠" تكون أقدم زمناً، أو الى البرهان على أقدمية بعض القطع التي في حوزته٠

إلا أن "افارينسيس" يغلق الباب على تلك المحاولة٠ واذا قبل ليكي بهذا الكائن الشبيه بالقرد سلفاً للانسان الذي يعود الى ثلاثة ملايين سنة، فإن "هومو" الآخر، الذي يعود الى مليونين و٩٠٠ ألف سنة يصبح خارج الصورة٠

ولا تمكن اطالة الحقبة التي يتصورها ليكي الا بإعادة تفسير موجودات ليتولي وهدار على أساس انتمائها الى فصيلة "هومو"٠ وهذا من شأنه رد الفصيلة البشرية الى ثلاثة ملايين و٧٠٠ ألف سنة٠ ولهذا السبب نجد ريتشارد وماري ليكي يكتفيان بالتركيز على بقايا ليتولي وهدار التي تشبه الفصيلة البشرية، غافلين عن القطع البدائية التي لا تعزز موقفهما٠

وحدث أمر غير متوقع صيف ١٩٧٩٠ وكنت وتيم اعتمدنا التاريخ الذي أعطاه جيمس آرونسون بناء على تحليل البازلت المستخرج من هدار، وهو ثلاثة ملايين سنة، فقلنا ان هذا هو عمر المتحجرات أيضاً٠ غير أن آرونسون أعلمنا في شهر اغسطس (آب) بأن ذلك التاريخ سيُعدَّل٠ فقد ظهرت أدلة جديدة تبين أن عمر البازلت هو ثلاثة ملايين و٧٥٠ ألف سنة، مع امكان الخطأ بمئة ألف سنة زائدة أو ناقصة٠

ومعروف أن التعديلات الزمنية تعقد الامور في هذا الحقل٠ أما هذا التعديل فقد سهل أمورنا٠ وهكذا ظهر فجأة أن متحجرات هدار، اضافة الى كونها شبيهة جداً بمتحجرات ليتولي، تنتمي واياها الى زمن واحد٠

لكن هذا الاكتشاف الجديد، على روعته، أحدث ثغرة في شجرة العائلة التي رسمناها، اذ ترك فترة مليون سنة من غير بقايا تمثلها٠ فما تراه يكون في تلك الحقبة؟

اذا كانت القائمة التي وضعناها صحيحة، فهذا يعني أن أي متحجرات تظهر من تلك الحقبة الطويلة من شأنها ان تظهر تطوراً في أحد اتجاهين: من "افارينسيس" نزولا الى "هومو"، أو منه صعوداً الى الصنوف المتطورة من "اوسترالوبيثيكوس"٠ أما اذا اكتشف شيء لا ينتمي الى هذا أو الى ذاك، فمن شأنه تعقيد الامور الى حد يحتم علينا العودة الى البداية٠

ولم أظن أن شيئاً من هذا سيحدث٠ فالانسجام بين المتحجرات كان حسناً٠ والفترة الزمنية المجهولة، وهي مليون سنة، كانت كافية لتفسير التطور في أحد الاتجاهين٠ فهناك زمن كاف للتحول من "افارينسيس" الى "هومو هابيليس"٠ وهناك زمن

كاف أيضاً لتفسير التحول من فصيلة "اوسترالوبيثيكوس" الى فصيلة "افارينسيس" عبر "افريكانوس" و"روباستوس". واذا شاء ريتشارد ليكي أن يطيل مدة "هومو"، ففي امكانه فعل ذلك، شرط ألا يذهب أبعد من "أفارينسيس" الذي تشير جميع الدلائل الحالية الى أنه كان سلف الجنس البشري.

أسئلة متلاحقة

في ٢٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠ ذهبت وموريس طايب الى المتحف الوطني في أديس أبابا. وهنا، في احتفال كبير، سلمنا مجموعة هدار الكاملة التي كنا نحتفظ بها، وهي أكثر من ٣٥٠ قطعة، الى مامو تيسيما أمين المتحف.

وفي لحظة التخلي عن تلك الملكية انتابني شعور بالضياع. فقد كانت لوسي لي طوال خمس سنوات، وكتبت حولها المقالات وألقيت المحاضرات وظهرت على شاشة التلفزيون، وعرضتها باعتزاز أمام حشود العلماء من جميع أطراف العالم. وأنا أعرف تماماً أنها هي التي رفعتني من الظل العلمي الى أضواء الشهرة. وها أنا، أخيراً، أتخلى عنها وعن جميع العظام الاخرى التي جعلتني أطرح تفسيراً جديداً لتطور الجنس البشري. وفيما كنت واقفاً في المتحف أصغي الى خطاب القبول، شعرت كأني أب يعطي فلذة كبده لمؤسسة تبن. وشعرت بأني كئيب ووحيد وأنا أصافح أرتال المهنئين.

إلا أن هذا الشعور لم يدم طويلا. فقد فتح لنا الاثيوبيون الباب مجدداً وأبدوا استعداداً لاستقبال مجموعة جديدة منا في خريف ١٩٨١. ان هدفنا واحد هو البحث عن بقايا بشرية اخرى. وفي ودنا العثور على نماذج اخرى من فصيلة "افارينسيس" في هدار وعلى نماذج من فصيلة "هومو اريكتوس" في موقع آخر.

وعلى رغم انتشار "هومو اريكتوس" في اوروبا وآسيا وافريقيا - وهو يصغر بقايا هدار بمليوني سنة - إلا أنه غير معروف، من زاوية تشريحية، كأفراد الفصائل الاخرى. والنماذج الموجودة منه لا تتعدى بعض الجماجم هنا وهناك وعدداً من الأسنان.

ومعظم ما نعرفه عن "هومو اريكتوس" أمور حضارية. فهو كان يأكل ويطهو طعامه ويصنع الألبسة. ونعرف أيضاً أنه كان صائداً ماهراً للحيوانات الضخمة، وأنه صنع أدوات حجرية. لكننا لا نعرف اذا كان متحدراً من "هومو هابيليس" وكيف تم ذلك وأين.

ترى كيف لنا أن نفسر القفزة المفاجئة من "هومو هابيليس" الى "هومو اريكتوس"؟ أتراها كانت مفاجئة حقاً؟ ولماذا حصلت؟ أم تراها ثمرة تطور سريع ترادفي في اتجاه حضارة آلية أفضل؟ واذا كان الامر هكذا، فأين نشأت الحضارة الجديدة وكيف؟

وهناك سؤال اكثر اثارة هو الآتي: لماذا همدت تلك الحضارة، والانسان الذي أبدعها، مليون سنة اخرى؟ والواضح أن ظهور "هومو اريكتوس" لم يكن خلال تلك الحقبة الطويلة. ثم قفزت الانسانية قفزة مفاجئة اخرى

إذ حصلت، قبل مئتي ألف سنة، ثورة آلية اخرى برز منها الانسان الذي ندعوه "هومو سابينز". وأهمية منطقة أواش أنها قد تزودنا بالجواب عن السؤالين كليهما.

في هذه الاثناء سيحاول الجيولوجيون استخراج نماذج من صحراء عفار تعود الى مدة تراوح بين أربعة ملايين وسبعة ملايين سنة، وذلك في موقع يبعد ١٦٠ كيلومتراً عن هدار. وربما أسفرت اكتشافاتنا عن تعديل جميع نظرياتنا.

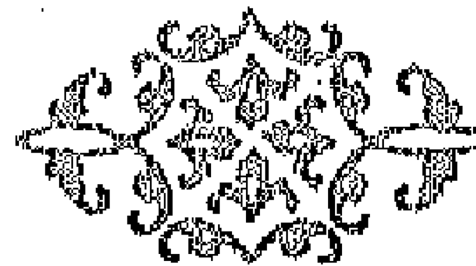
ويبدو أن "أفارينسيس" قريب العهد نسبياً الى الفصيلة البشرية. ولكن ما عسانا نقول اذا عثرنا على رجل عمرها ستة ملايين سنة أو حوض عمره سبعة ملايين؟ ان هذه الاسئلة تهيمن علي، وهي ستظل تلاحقني حتى يظهر الجواب عنها.

واعتقادي أن منطقة عفار تحمل ذلك الجواب. واني لموقن أن عظامها ستجعل من اثيوبيا قبلة الارض بالنسبة الى المتحجرات البشرية. ومن هناك ستعاد رواية التاريخ الانساني. والراجح أن نحصل على كائن بين القرد ولوسي، عمره ستة ملايين سنة. ثم تأتي لوسي، وعمرها بين ثلاثة ملايين سنة وأربعة ملايين. وبعد ذلك تأتي كائنات من فصيلة "أفارينسيس"، بعضها يشير الى "هومو" والبعض الى "افريكانوس". وأخيراً تأتي كائنات بشرية من فئة "اريكتوس".

وعندما بحثت بتوقعاتي هذه لزميلي تيم وايت الدائم التشكيك، قال: "ولكن عليك أن تجد المتحجرات أولا".

فأجبته: "هل تشك في أننا سنعثر عليها؟ لا بد من أن تكون في هذا المكان اذا كانت موجودة على الاطلاق. واذا كانت هنا، فإننا سنجدها".

■ دونالد جوهانسون
مع ميتلاند ايدي

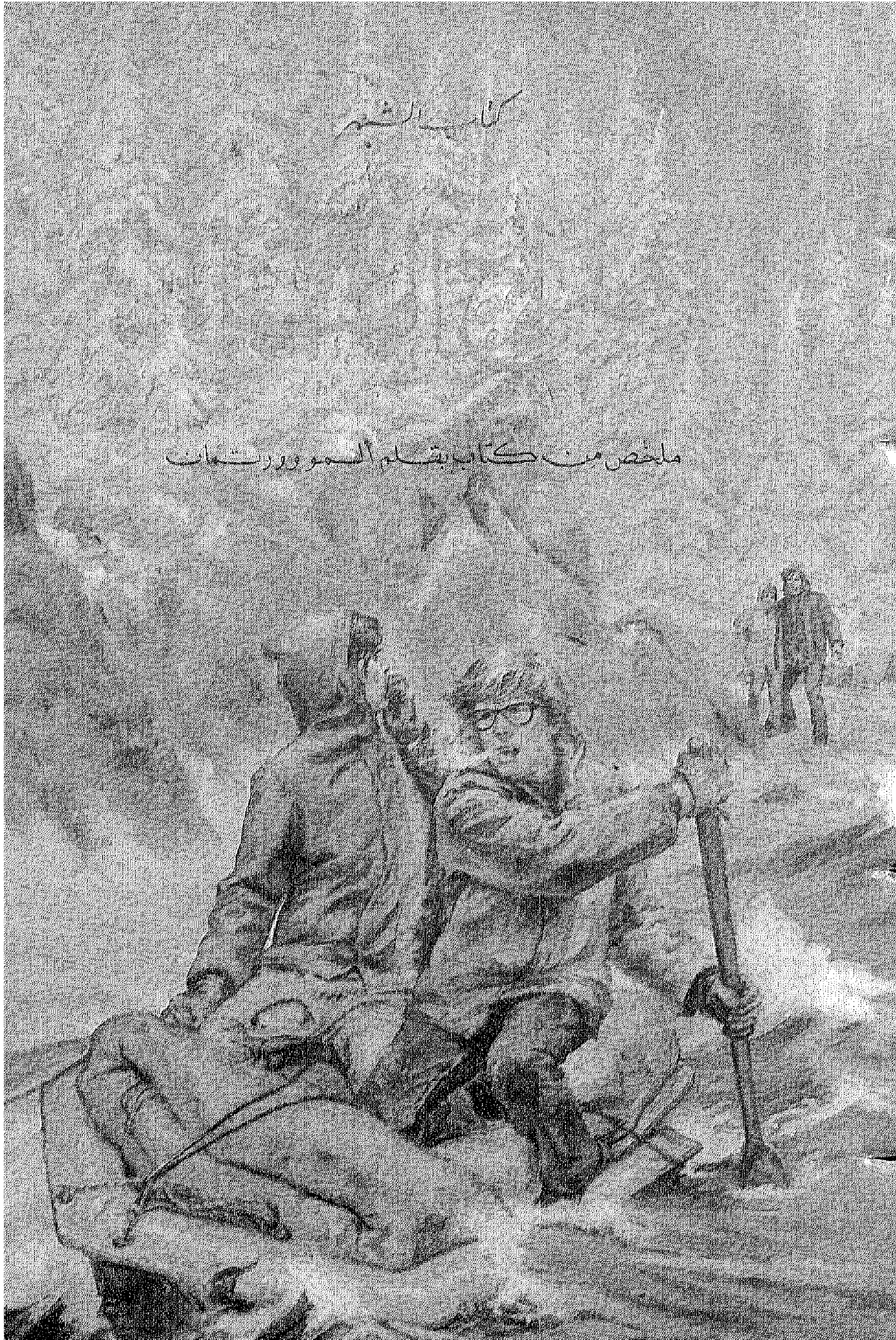


. حواء لا تتغير

ابدت سيدة رغبتها في الحصول على لوحة تمثلها، فاستقدم زوجها أفضل رسام أمكنه العثور عليه. وفي احدى الجلسات طلبت المرأة الى الفنان أن يجعل لعنقها عقداً ولرأسها عصابة ولاذنيها قرطين، كلها من الماس، على رغم أنها لم يكن لديها اي منها.

وبعد الفراغ من عمله، سألها الفنان: "ما الذي جعلك تطلبين اضافة الحلى؟" فأجابت: "اذا حدث أن مت قبل زوجي، فأنا اعرف أنه سيتخذ لنفسه زوجة اخرى على الفور. لذلك دعها تبحث عن هذه الجواهر".

م.م.


كتاب الشهر
ملخص من كتاب بقلم السو وورتسمان

صراع البقاء

ذلك الفصل المأسوي في سيرة آل وورتمن كان مرحلة واحدة من حياة مفعمة بالخطر والقدرة على الاحتمال، حتى بالنسبة الى مقاييس ألاسكا الصّارمة.

فبعد انقطاعهم عن المدنيّة وقتاً طويلا، وجد المؤلف وأولاده الأربعة في الطبيعة مصدر بقائهم الرئيسي. لكن الطبيعة، على كرمها، يمكن أن تدير نحونا وجهاً قاسياً لا يعرف الرحمة.

وعندما تحطّم قارب العائلة في يوم من شتاء ١٩٧٩ على شاطىء مهجور، امتشق الوالد والأولاد سلاح الصبر من جديد.

وهنا، في كلمات المو وورتمن نفسه، وصف مسهب لذلك العذاب



من اليسار الى اليمين: جينا ـ نين، المو (الأب)، راندي، سيندي.

Condensed from «Almost Too Late», copyright (c) 1981 by Elmo Wortman), published by Random House, New York, N.Y. Photo: (c) Kirk Peterson

لم نكن نرغب في أن تطول رحلتنا البحرية. لكن الطبيعة الأم، وهي عاتية لا ترحم، طالما خذلت المرء، خصوصاً اذا كان في مكان شبيه بمياه مضيق ديكسون المضطربة التي لا تفلت من غضبها حتى الزوارق الكبيرة المجهزة أكثر من قاربنا المتواضع الذي يبلغ طوله عشرة أمتار.

ومما يزيد الأمور تعقيداً أن الخط الفاصل بين ولاية ألاسكا الامريكية ومقاطعة كولومبيا البريطانية التابعة لكندا يمتد على طول ذلك المضيق. وهذا يجعل الحصول على تقرير مفصّل عن الأحوال الجويّة من كندا أو من الولايات المتحدة أمراً عسيراً. لذلك لم نجد بُدّاً من الابحار نحو مضيق ديكسون للتأكّد من أحوال الطقس بأنفسنا.

وكان قاربنا، واسمه "هوم" أي "البيت"، صغيراً بالنسبة الى تلك المياه الجائحة، لكنّه كان قوياً. وكنت بنيته أنا وأولادي الأربعة - مارجري وسيندي وراندي وجينا - لين - وأبحرنا فيه نحواً من أربع سنوات على طول الساحل الشمالي الغربي بين كندا وألاسكا.

وأود إيضاح السبّب الذي جعلنا نلج ميناء برنس روبرت في كولومبيا البريطانية عصر ذلك اليوم من فصل الشتاء.

اسمي المو وورثمن وعمري ٥٥ سنة. وقد طلّقت زوجتي ولي أربعة أولاد منها بقوا في عهدتي. وكنت تركت البحريّة الأمريكية وزاولت مهنة النجارة التي أوقفتني عنها حالي الصحية قبل سنوات. فقد أصابني داء القسط (التهاب الفقرات)، وهو تصلّب في مفاصل الظهر والعنق والذراعين والكتفين. وأصدر الأطباء الحكم الآتي: "إنه مرض لا شفاء منه. والأفضل أن تلازم المنزل وتعتني بأولادك من غير أن تبذل جهداً جسدياً".

كنت في الثامنة والأربعين فقط عندما كُتب لي هذا النّصيب. وفي ذلك الوقت كانت أعمار الأولاد، حسب تسلسل أسمائهم السابق، ١٣ و١١ و١٠ و٨. وكنا نعيش في ولاية واشنطن. وظننت آنذاك أن بضعة أشهر من الراحة كفيلة بتحسين صحتي. وهكذا قصدت المدارس التي يتعلم فيها الأولاد، طالباً تزويدهم بالكتب الضرورية لاجازة طويلة. وحملنا كل ما نملكه على ظهر "بيتنا" العائم وانطلقنا به نحو ٨٠٠ كيلومتر الى الشمال.

وجعلنا العيش بعيداً عن المراكز السكنية نعتاد حياة القفار بما تقدمه لنا. ولم يكن لدينا من المال ما يذكر، لكننا جنينا الغذاء الوفير من الشواطىء والأراضي التي تأتي عليها حركة المدّ والجزر. أما صراع البقاء فلم يكن رواية نطالعها في الكتب، بل واقع نعيشه يوماً بعد يوم. وقد أحب الأولاد هذا الواقع، وفضّلته أنا على الهبات والمساعدات المالية الحكومية التي كنا نتلقاها في المدينة.

ومن أجل الحصول على فسحة أكبر مما يعطينا بيتنا العائم، أقمت كوخاً على دعائم، بطول عشرة أمتار وعرض ثلاثة أمتار ونصف متر، فوق أحد الشواطىء المهجورة. وفي شهر

ابريل (نيسان) ١٩٧٥، أحطنا أسفل الكوخ بألواح من خشب الصنوبر لنجعلها في مأمن من المد والجزر. ومنذ ذلك الحين، غدا ذلك الكوخ مأوانا الرئيسي الذي كنا ننطلق منه الى البحر ثم نؤوب اليه.

وملأنا قسائم خاصة بالضمان الاجتماعي، وبدأنا نتسلم حوالة شهرية بدت لنا من قبيل البحبوحة بالنسبة الى وضعنا طبعاً. وهذا حداني على التفكير في أمور كنت أتغاضى عنها سابقاً. فقد كان راندي وجينا، واكثر منهما سيندي، في حاجة الى تقويم أسنانهم. كما انقطع الأولاد عن المدارس مدة سنتين. يُضاف الى هذا وذاك أننا كنا أغراباً في كندا، وكان الأفضل لنا أن نعود الى الولايات المتحدة لاستئناف حياتنا هناك.

انطلاقا من هنا، اقترحتُ الابحار عبر الساحل الى جنوب كاليفورنيا. لكن الاولاد صوّتوا ضدي وارتأوا التوجه جنوب شرق ألاسكا، مسافة ٨٠٠ كيلومتر اخرى.

وهكذا ربطنا الكوخ الذي بنيناه بالقارب الذي كان مزوداً بمحرك ديزل صغير. وبعد ٢١ يوماً ألقينا المرساة قريباً من مدينة كريغ في ألاسكا، على الجانب الغربي لجزيرة أمير ويلز. ومن هناك التحقت مارجري وسيندي بالمدرسة الثانوية في كريغ، فيما ذهب راندي وجينا الى المدرسة الابتدائية في بلدة كلاووك الصغيرة.

وباشرنا التردد على طبيب الاسنان. لكن الوصول الى عيادته كان عسيراً، اذ كانت كل زيارة تعني الابحار ٢٩٠ كيلومتراً في أعتى مياه امريكا الشمالية للوصول الى مدينة برنس روبرت، ومن هناك قطْع مسافة ١٥٥ كيلومتراً في السيارة الى عيادة الطبيب في تيراس، ثم العودة بالطريقة نفسها من حيث انطلقنا.

وحملنا مأوانا الى شاطىء بورت ريفوريو، وهو أقرب قليلا الى برنس روبرت. وانتقلت ابنتي الكبرى مارجري، وهي الوحيدة بين أولادي التي لا تحتاج الى تقويم أسنان، للعيش مع عائلة في كلاووك. ومن هناك كانت تأخذ الحافلة الى المدرسة الثانوية في كريغ. وكنتُ أزورها اسبوعياً كلما ذهبت الى المدينة، وأحياناً أصحبها لتمضية عطلة نهاية الاسبوع على الشاطىء، ثم أحملها صباح الاثنين بالقارب الى مدرستها.

وبقينا على تلك الحال قرابة سنة، كان خلالها العمل يتقدم بالنسبة الى تقويم أسنان الأولاد. غير أننا وجدنا مشقة في رحلاتنا الى عيادة الطبيب خلال فصل الشتاء. وفي الرحلة التي شهدت بداية مشاكلنا، تركنا القارب في برنس روبرت وأخذنا السيارة الى تيراس. وغادرنا العيادة الى برنس روبرت حيث اشترينا بعض ما نحتاج اليه، وجهزنا القارب لرحلة الاياب.

ذلك اليوم كان الثالث عشر من فبراير (شباط) ١٩٧٩. وفي الساعة الرابعة عصراً انطلقنا من الميناء على أمل أن تستغرق الرحلة، كعادتها، يومين أو ثلاثة. لكنها، هذه المرة، دامت طويلا جدا.

العاصفة

سألني راندي: "هل سجّلتَ عودتنا لدى الجمارك؟" فأجبتُ:

"كلا. فقد نسيتُ تسجيل الاسماء لدى دخولنا، وقدّرتُ أن التسجيل عند الخروج من شأنه تعقيد المسألة".

وتجدر الاشارة الى أن ابني راندي كان صديقي وساعدي الايمن. وهو كان في الخامسة عشرة ونموه لم يكتمل بعد، لكنه كان قوياً ومقداماً. واعتمدتُ حكْمه الصائب على الامور بمقدار اعتمادي قوّته الجسديّة وخفّته في الحركة. وكان في استطاعته تسيير القارب ساعات طويلة، حتى في أحلك الليالي، مسْتدلا بحركة الماء والقارب على صحة الطريق.

وكانت سيندي مبدعة الأحلام في العائلة. وهي، في السادسة عشرة، نحيفة البنية وجميلة وذات عينين زرقاوين واسعتين ومشعّتَيْن. واذا استعصى عليها الجواب عن سؤال فلسفي بالخبرة أو بالمنطق، فهي كانت تلجأ الى حدسها وبديهتها. لكنها، متى تسلمت دفة المركب، كانت تشرد حركتها كما تشرد أفكارها.

أما جينا - لين، وكان لها من العمر ١٢ سنة، فهي أصغر أفراد العائلة. والحق أن هذا يشكل ظلماً لها لأنها تتمتع بموهبة قيادية فطرية. لكن أخاها واختيها كانوا يلْجمونها كلما حاولت الهيمنة. وهذا حملها على الانكفاء الى عالم خاص، لحْمتُه الكُتُبُ الأدبية.

ولدى دخولنا خليج تشاتام الواقع خلف برنس روبرت مباشرة، انفتح البحر أمامنا على مد البصر. فرفعنا الشراع الامامي وانطلقنا متهللين في عرض اليم. ولم يظهر في الشمال أو الغرب أي أثَر لعاصفة، علماً أن طريقنا كانت من هناك، عبر مضيق ديكسون الى الجانب الغربي لجزيرة أمير ويلز.

وكان الأولاد الثلاثة يتناوبون على قيادة الدفة. ومع تقدم الليل كان كل منهم يسيّر القارب ساعة كاملة ثم يرتاح ساعتين. ونادراً ما كنتُ أقوم بهذا العمل لأنه يزيد أوجاع المفاصل لدي. واكتفيتُ بالأمور التي تقتضي جهداً جسدياً خفيفاً، كاعداد الطعام ومراقبة المحرك وتزويده بالوقود وتخطيط طريق الرحلة.

وكنتُ مضطجعاً في سريري حين لاحظتُ ازدياد حركة القارب. وعزَوتُ ذلك الى وجودنا في عرض البحر، لكنني لم ألبث أن سمعتُ جينا تنادي أخاها في العنبر: "هلا صعدت يا راندي وأخذت الدفة عني؟"

وصعدنا معاً. وكانت الريحُ قد اشتدت وأخذ غبارُ الثلج يتجمع حول زجاج قمرة القيادة. وكان الشراع الامامي الذي رفعناه يُجْهد حبال الأشرعة والصّواري. وارتفعت الأمواج حتى راح القارب يعلوها ثم يهبط باضطراب شديد.

وجلس راندي عند الدفة واقترح انزال الشراع. لكنني رفضتُ ذلك لأن الوقت كان ليلا والجو مثلجاً، والبحارة ليسوا سوى أولاد.

وانتابني دوار كان الأول من نوعه خلال السنوات الخمس عشرة التي أمضيتها في البحر في مختلف الظروف. ترى ما الذي يحدث ويجعلني أفقد السيطرة على نفسي وعلى القارب؟

وقال راندي والقلق يملأ صوته:

"أبي، إن الجليد يتراكم ويحجب عني الرؤية تماماً".

وكان الثلج يهب علينا أفقياً، ومجال الرؤية يقل عن مئة متر. وراحت الأمواج المزبدة تنهال علينا من خلال ذلك الحجاب الأبيض. ودعوتُ ابنتي الى قمرة القيادة، وشرحتُ لأولادي الثلاثة خطورة الوضع وعدم تمكّننا من الصمود وسط ذلك الجو العاتي، خصوصاً لأنه لم تكن لدينا مرساة بحرية. ومن أجل ابطاء الحركة الأمامية، أنزلنا الشراع الرئيسي الى البحر لاستخدامه كمرساة. لكنه، لسوء الحظ، لم يوازن مقدم القارب كما كنتُ أتوقع. إلا أن الدوار منعني عن فعل أي امر آخر. وهكذا شرد القارب وسط الأنواء.

وجاء الصباح من غير أن يحمل جديداً. وظل الجليد يتساقط بقوة ويحْجب عنا الرؤية، والريحُ تعوّل وتحيل الأمواج سلاسل جبال مخدّدَة.

وكان اصطدام القارب بالموج شديداً، مما جعلنا نهرع، أنا وراندي، مراراً الى قمرة القيادة ذلك النهار، ظناً أن القارب صدم حَيْداً بحرياً قرب الشاطىء. إلا أننا لم نجد أثراً للصخور، وكان عمق الماء أكثر مما نستطيع سبره. وهذا جعلني أُقدّر أننا نعوم فوق مياه يزيد عمقها على ١٨٠ متراً.

وعند الظهر ظنَنْتُ أننا في مكان ما بالقرب من ثغر مضيق ديكسون، بين رأس موزن شمالا وجزيرة لانغارا جنوباً. واذا صحّ ظنّي، فهو يعني أننا سنكون في عرض المحيط الهادىء عند حلول الليل.

مع المساء زادت الأمواج عُتُوّاً، ممّا جعل القارب يترجح باضطراب. ولم تلبث تلك السفينة الصغيرة أن انحرفت بقوة، رافعة جميع محتوياتها، ونحن معها، في الهواء. وقُذِفْتُ من سريري الى طاولة المطبخ، وأصابني جرحٌ بالغ في جبهتي فوق عيني اليُسرى من جراء اصطدامي بحافة ناتئة. وقُذفت جينا مسافة مترين ونصف متر، من سريرها العالي الى سرير سيندي، فاصيبت رضفة ركبتها (الصابونة) بضربة أليمة. ووجد راندي نفسه محشوراً وسط الرفوف المقابلة لسريره. وبقي هكذا حتى استقر القارب الذي غدا أشبه بمستشفى للمجانين.

وحاولنا استجماع قوانا فيما ظل القارب يعلو ويهبط وسط الامواج الضخمة. ومع حلول الظلام، كنتُ أدري أنه ينبغي علي السهر لمراقبة ما يجري واتخاذ الخطوة المنقذة في الوقت المناسب. الا أني كنت من الضعف الى حد جعل عقلي يقف عن التفكير.

وأخبرت الأولاد أن العاصفة ستهدأ مع الصباح، وبعد ذلك نبحر بسلام الى بيتنا. وسألوني عما اذا كانت هناك حاجة الى مراقبة البحر أمامنا، فقلت: "نحن وسط المحيط الهادىء. ولا يمكنني أن أتصور صخوراً أو قطعة من اليابسة أمامنا، أو أي شيء يمكننا القاء رحالنا عليه". وطلبت اليهم البقاء في أسرتهم لأخذ بعض الراحة قبل طلوع الصباح.

وكنتُ، طوال النهار، حاولت معرفة وجهة الريح. واقلقني أن الريح الشرقية كانت تنحرف قليلا نحو

الشمال. واذا كانت الريح شمالية ـ شرقية حقاً، فمن شأنها أن تُفْضي بنا الى سلسلة الصخور المحيطة بجزيرة لانغارا. ولكن كان ينبغي، والرّيح على تلك الشدة، أن نبلغ الجزيرة قبل الثانية عَصْراً. إلا أن الريح كانت تهبّ ببطء شديد نحو الشمال الشرقي، وقد انقضت ساعات طويلة على الوقت الذي توقّعْتُ أن نبلغ لانغارا. ولا شك في أننا خلّفْنا مضيق ديكسون وراءنا قبل وقت طويل.

ولم تنم سيندي على الاطلاق، بل ظلت تراقب الوضع بقلق ظاهر. وفيما كان القارب يترجّح والماء يغمر النافذة، أمكنها أن ترى أولا السماء الغائمة ثم الثلج المنهمر، وبعد ذلك الأمواج المزبدة التي تتقاذفها الأنواء. وما هي إلا ثوان حتى لم تعد تبصر إلا الماء. وراحت تراقب الأحداث نفسها، ولكن في سياق معكوس، عندما أخذ القارب ينقلب في الاتجاه الآخر.

وبقيت سيندي ساعات في مكانها، تنظر وتنتظر. وقُبيل منتصف الليل، لاح لها جسم أشد قتاماً وسط صحراء من السماء والماء. وبعد انحسار الموجة صرخت: "أبي! إني أرى اليابسة! نعم، أنها اليابسة".

الى البحر

من قمرة القيادة أمكنني أن أُدرك هول المشهد الذي لم تتبيّنه سيندي على حقيقته. فقد كانت الأمواج تتكسّر على الصخور على بعد ١٥ متراً من القارب. وفوق الصخور رأيتُ غابة ترتفع أكثر من مئة متر وتسدّ الأُفق تماماً. وبدا أننا نتقدمُ نحو هلاك محتوم.

لم يبقَ لدينا وقت لرَفْع الشراع الامامي. واذا انتظرنا الموجة الآتية، فهي قد تحطم قاربنا الصغير على ذلك الجرف والأولاد ما زالوا في العنبر غير مستعدين.

وأدَرتُ المحرّك، معدلا حركته عند النصف. وأدرك راندي كم نحن قريبون من الشاطىء، لكن صوت المحرك أثار لديه خوفاً أكبر. فإذا علق أي شيء بمروحته، أوقفه عن العمل ورمانا في هلاك محقّق. واعترف راندي في ما بعد بأنه أراد، في تلك اللحظة، أن يصرخ قائلا: "أوقف المحرّك! أوقفه". ولكن ما أن تسلّق السلم حتى خمد المحرك من تلقائه.

وناديتُ بأعلى صوتي: "دعنا نرخي المراسي". وأطاعني راندي على الفور. غير أني لم أكن أعتقد أن المرساتين سيكون لهما أثَر في تلك المياه التي يبلغ عمقها ستة أمتار. وكان أملنا الوحيد أن نكتسب الوقت.

وراح راندي يعمل بسرعة على فكّ طوف النجاة الصغير المصنوع من البلاستيك البرتقالي والمربوط بسطح القارب. وحملنا الطوف الذي يبلغ طوله مترين، وأنزلناه الى الماء ونحن نصله بحافة القارب. وكان الطوف يتسع لشخصين، لكنه لم يكن يخدم كزورق نجاة صحيح. وقرّ رأينا على تحميله بالطعام والمعدّات.

وأسرعتُ الى العنبر وأنا أصرخ بسيندي وجينا: "إننا على وشك أن نخسر القارب. لذلك اصعدا بسرعة، إذ لم يبقَ لنا سوى عشر دقائق".

وكانتا قد لبستا، فأخذتا تضعان الأكل والثياب في أكياس البلاستيك المخصّصة للقمامة. وبعدما مُلئت الأكياس، حملها راندي وأسرع بها الى الطوف الذي انهار مقدّمه وغاص تحت أثقال المياه.

ورحنا نضع معدات النجاة في غرفة القيادة بعدما وسعها راندي برمي أكوام من قطع البلاستيك في البحر. وظن الأولاد أن تلك القطع ستسبقنا الى الشاطىء بعد غرق المركب.

واقتصر التفاهم في ما بيننا على الاشارة والايماء ونحن نستعد لمواجهة معركة فاصلة سيُقرّر فيها مصيرنا. وكان كل منا، في تلك المعركة، متروكاً لقوّته الفرديّة ومحدوديّاته. ولم يكن في وسع أحدنا مساعدة الآخر كما تعوّدنا أن نفعل في جميع أمورنا.

وكنتُ في العنبر أضعُ عيدان الثقاب ضمن علب جافة لاستخدامها عند الحاجة عندما اصطدم القارب بصخرة كبيرة وانقلب حتى استقر على زاوية قائمة. ووجدتُ مقبض الباب، لكن المياه أخذت تتدفّق وانقلبت محتويات قمرة القيادة على أرض القارب.

واستطعتُ، بعد جهد، أن أقف على رجلي لأجد الماء يغمرني حتى الركبتين ويرتفع باطراد. ووقفت سيندي تنادي: "القارب يغوص يا أبي! أسرع الى فوق، أسرع، اننا نغرق".

ووضعتُ علبة ثقاب داخل ثيابي وأعطيتُ الاخرى لراندي، ثمّ أوعزتُ الى الأولاد بالخروج من قمرة القيادة. وكانت أرض السفينة مغمورة بالماء، فتوجهنا نحو مؤخرها ودلينا أقدامنا على جانبها.

وقلتُ للأولاد: "لن نتمكّن من مساعدة بعضنا بعضاً. ان كلا منا متروك لنفسه، وعليكم أن تتشبثوا بالصخور وتزحفوا من صخر الى آخر للوصول الى الشاطىء. ولكن لا تدعوا المياه تحملكم ثانية الى البحر، وإلا هلكْتم.

"كونوا على استعداد للقفْز حين آمركم بذلك... الآن! هيّا، اقفزوا".

قلتُ هذا وأنا أرى موجة كبيرة تعبر أمامنا نحو الشاطىء.

إلا أن أحداً من الأولاد لم يتحرك. وعندما عبرت الموجة اللاحقة، نظرت إليّ سيندي بغضب ولوم وهي تصيح: "الآن؟"

فقلتُ لها: "أجل، الآن".

فقفزت سيندي الى الماء وتبعتها جينا.

أما راندي وأنا، فلم تدع لنا الموجة اللاحقة وقتاً لاتخاذ قرار، بل رمتنا من القارب الى البحر الجليدي حيث سبقتنا ابنتاي.

بعد ذلك اختفى القارب الى الأبد.

على الجرف

ما أن ارتمينا وسط التيار حتى بدونا أجساماً متمايلة تعلو مع الماء وتنخفض، كل منها يطوف في مكان. وكان الأولاد يبتعدون عني بسرعة، ربما لأن أجسامهم أخف من جسمي أو لأنهم يسبحون بسرعة أكبر.

وكانت الموجة الاولى تنقلب بي حين زلت من قدمي احدى فردتي حذائي. وابتعلتُ جرعة من الماء

المالح، لكني بَصَقْتُها قبل أن تنقضّ عليّ الموجة الثانية العملاقة وتهدد بانتزاع فردة حذائي الاخرى. ورحتُ ألهث طالباً الهواء وأنا أتقلّب وسط الأمواج العاتية.

وما هي إلا ثوان حتى اصطدم وجهي بجرف، ثم ضربتني موجة ضخمة على صخوره. وحاولتُ التشبُّث بيدي ورجليّ، لكن الموجة المنحسرة خذلتني وأعادتني الى الماء. وكرّرتُ المحاولة مراراً، ولكن من غير جَدوى.

أخيراً امكنني أن أمشي قليلا فوق الصخور قبل انكسار الموجة التالية التي لم تبلغْني. وتسلّقتُ الى مكان أعلى، علّي أصل الى الأشجار. غير أني علقْتُ بين الصخور العمودية والرؤوس الناتئة منها.

وأبطأت عن الحركة تلقائياً. لقد تركتني معركتي ضد أمواج المحيط ضعيفاً جداً، أشعر بالاجهاد والألم في كل عصب ومفصل في جسدي. وأذكرُ أني أقحمتُ ركبتي وذراعي اليسْرييْن في شق صخري ضيق لئلا أهوي مرة اخرى الى المياه الجائحة. وبعد ذلك فَقَدتُ الوعي.

وفتحتُ عيني على ضوء النهار. وبقيتُ وقتاً طويلا في مكاني، أُحاول معرفة ما يجري حولي. وراحت الأشياء تفصح عن نفسها، ولكن على نحو غير منتظم. فالمد كان منحسراً والريحُ خفيفة، والأمواج لم تعد ترغي وتزبد. ورقت قشرة الجليد على الصخور وداخل طيات معطفي.

وعبرت صورة الأولاد في ذهني. وناديتهم واحداً واحداً وانتظرتُ. ولما لم أحصل على جواب، ناديتهم مرة اخرى. أتراني أُناديهم في اليقظة أم في المنام؟ وكرّرتُ مناداتي بصوت أعلى، ولكن دونما جواب.

أيعقل أن أكون أنا حيا وهم هلكوا؟ أنهم أقوى مني في خوض البحار، وأجسادهم صغيرة ومطواعة. اذاً، يستحيل ألا يكون واحد منهم، على الأقل، بلغ الشاطىء حياً... أم أن ثمة شكاً في كوني حياً أنا بالذات؟ الحق أني لم أتمكن من الاجابة عن ذاك السؤال، وكل شيء بدا متهافتاً حولي.

ثم نظرتُ الى قَدَميّ، فرأيتُ في اليسرى جورباً ممزقاً يغطيه الدم، بينما كانت قدمي اليمنى عارية وبيضاء على نحو غير طبيعي. ووجدت على الارض تحت قدمي بركة صغيرة اختلط فيها الدمُ القاني بالوَحْل. ولكن بدا أن تلك البركة تحوي من الدم ما لا يستوعبه جَسَدُ إنسان. إذاً، ينبغي أن أكون مائتاً.

والتمعت في ذهني صورة عيدان الثقاب التي وضعتُها في مأمن من البلل. وتحسّسْتُ مكانها داخل ثيابي، لكنها لم تكن هناك. وألقيتُ نظرة على المعطف الذي وقاني شر الانزلاق مرة اخرى الليلة الماضية، ثم نظرتُ الى المنحدرات الصخرية السحيقة والى قدميّ المجلّدَتَيْن الدّاميتين. ها أنا وحدي، ولا ثقاب، والأولاد اختفوا. ولم أستطع النهوض على قَدَميّ، فانتزعتُ فكرة المشي من رأسي. ولم أكن أعرف أين أنا. وإذا لم أكن ميتاً الآن، فلا محالة أن موتي وشيك.

وبما أن الموت كان يحيطني من كل

جانب، فلماذا أتركه يأتي على مهل؟ وهكذا فتحتُ معطفي، معرّضاً ثيابي الداخلية المبللة للرّيح. لكن الجليد لفحني الى حد لم أحتمله. وهكذا أحجمتُ عن فكرة تسريع موتي، ووضعتُ المعطف علي من جديد.

الشاطىء

"هذا أبي! إنه هناك".

سمعتُ راندي يقول هذا الكلام الذي بدا كأنه آتٍ من عالم غريب.

وبعد قليل ظهرت سيندي فوق الصخر الذي حشرتُ نفسي في صدعه. لقد مشّطا الشاطىء بحثاً عني حتى وصلا أخيراً، في طريق عودتهم، الى المكان الذي احتميتُ به.

ورفعاني من ذلك الصّدع لأقف على قدميّ وأمشي. لكني قلتُ لهما: "قدماي مجلّدتان، ولا أستطيع المشي". وسألتُ راندي: أرأيتما جينا؟"

ـ نعم، إنها على بعد خطوات من هنا، حيثُ باشرنا إقامة خيمة. وهي في حال جيدة، لكنها أضاعت حذاءها وسروالها بين الأمواج.

وحملت إليّ سيندي سترة صوف كبيرة وفردة حذاء وجدتهما على الشاطىء. وبحرص شديد، أدخلت فردة الحذاء في قدمي اليسرى ولفت القدم اليمنى العارية بالكنزة. ورفعتني هي وأخوها من مكاني وأنزلاني بحذر عن الصخور السحيقة نحو الكهف الذي أمضوا فيه الليلة الفائتة.

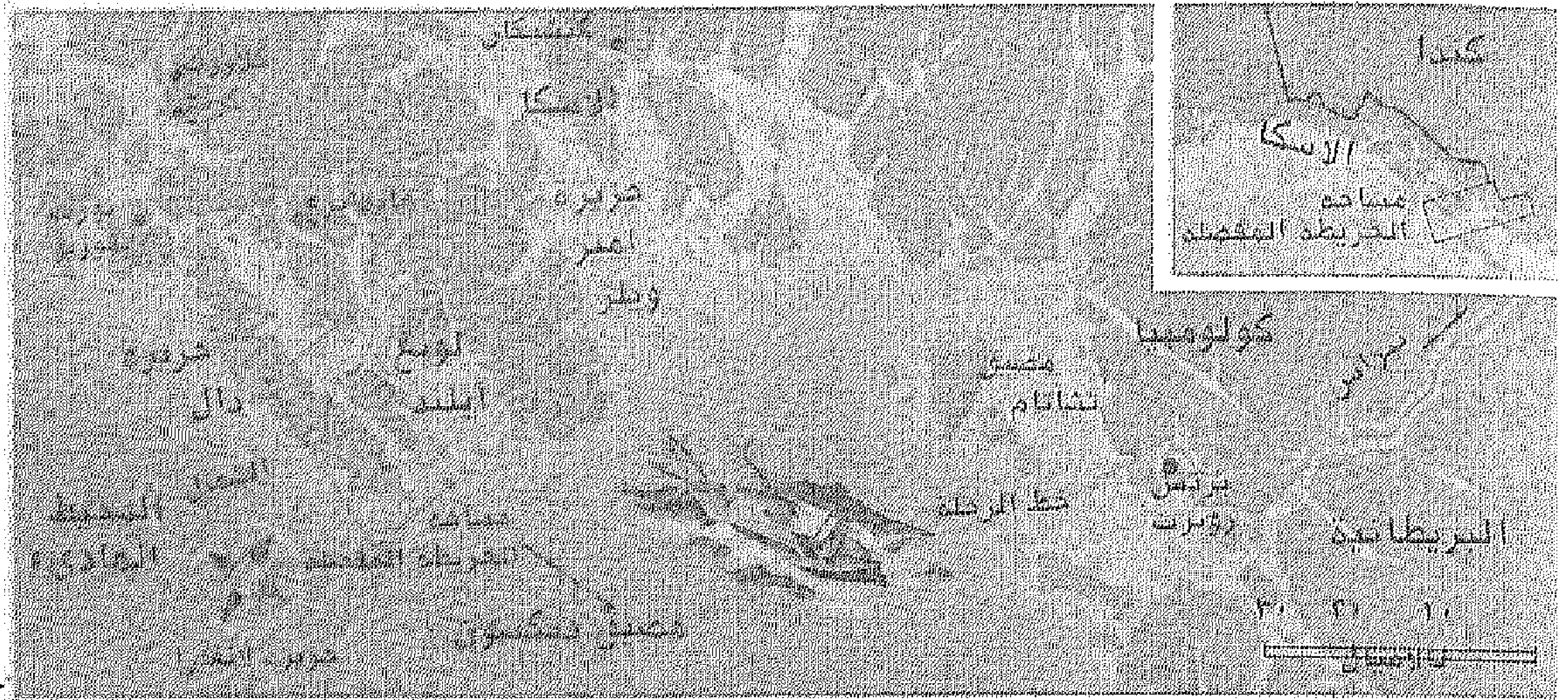
وكانت عيدان الثقاب التي أعطيتُها لراندي على حالها، فجمع بعض الأخشاب المنجرفة لنتدفأ على نارها. وحملت سيندي قارورة صغيرة من البنزين الأبيض كانت في القارب كوقود إضافي للمصباح. ورش راندي محتويات القارورة على الخشب الرطب قبل اشعال النار. وارتفع اللهيب سريعاً عندما رمى عود الثقاب، فيما جلستُ وابنتي جينا، ألوذُ بها وهي بي.

ومرّت دقائق وأنا احدّق مذهولاً الى رجليها العاريتين. ثم رفعتُ سترة الصوف عن قدمي وقلتُ لها: "جينا! خذي هذه السرة وأدخلي قدَميْكِ في كمّيْها".

وعثرت سيندي على حبل صغير ربطته حول خصر جينا كي يبقي السترة التي حوّلت سروالا مرفوعة، قبل أن تخرج وأخاها لاستئناف تمشيط الشاطىء. ووقعت على فردة حذاء تكمل تلك التي حملتها إلي، وعلى فردة اخرى عالية تكمل فردة كانت جينا قد عثرت عليها. وعاد راندي يجر الطوف البرتقالي المهشم الذي أطلقناه أمس نحو الشاطىء، مع أحد الأشرعة وثلاث قطع من البلاستيك الطافي.

وكان ضعفي يمنعني عن المساعدة الفعلية، لكني وجّهتُ الأولاد الى طريقة بناء مأوى لنا عند صخرتين مرتفعتين بالقرب من الشاطىء. فقلتُ لراندي أن يضع عارضتين خشبيتين أفقياً فوق الصخرتين ويلقي الشراع فوقهما، تاركاً منه قطعة كافية لتغطية مؤخر الملجأ وأرضه، على أن تبقى فتحة الملجأ مواجهة للنار.

وكانت سيندي وراندي وجدا ست



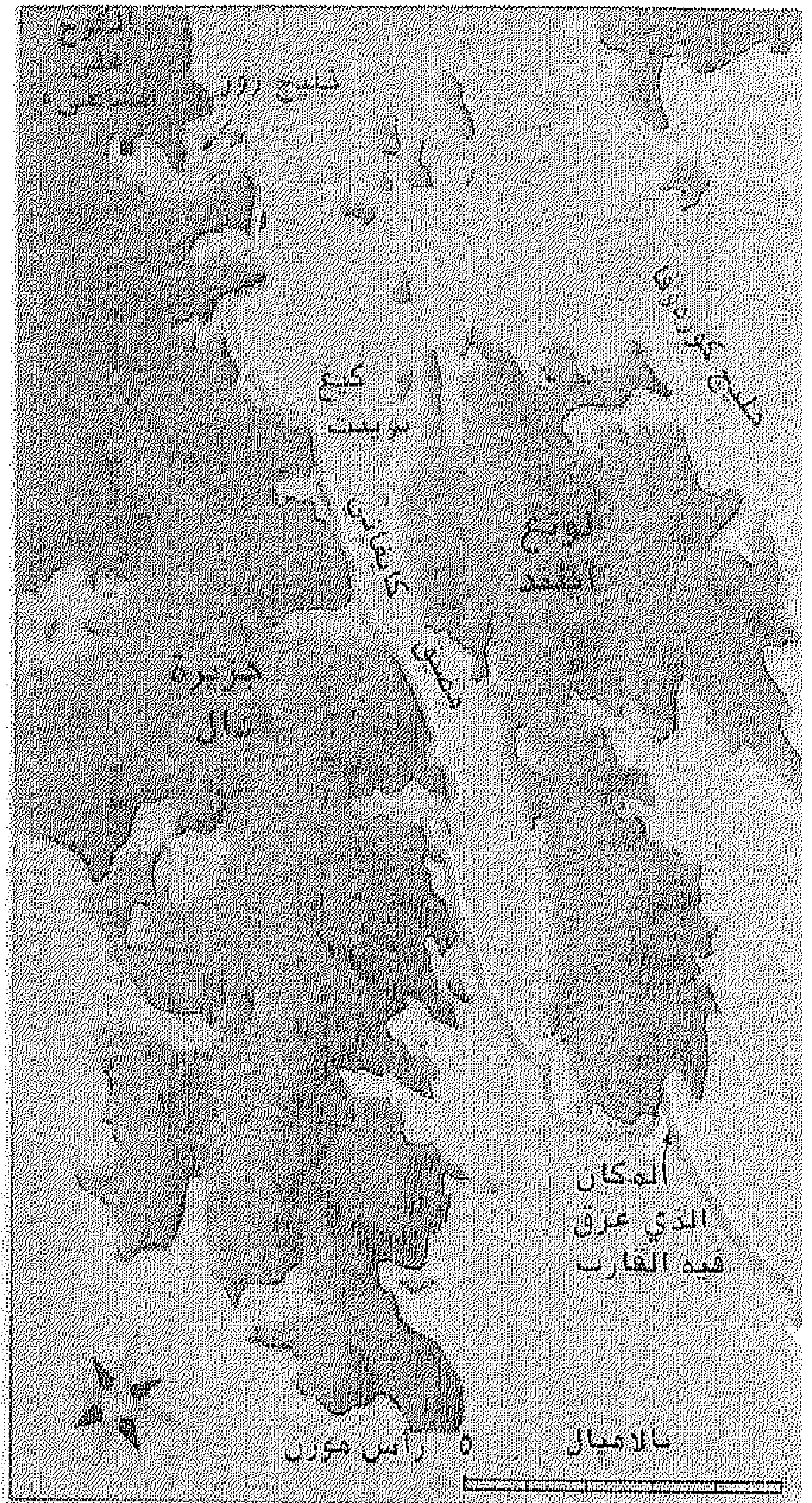
نفاحات وثلاث بصلات قبل عثورهما علي. لكنهما وجدا، بعد ذلك، أشياء اخرى مما كنا نحمله على القارب، ومنها حوض فارغ ووعاء مليء بزيت الذرة وبعض مسحوق عصير البرتقال وكمية صغيرة من الجبن. هذا كل ما وجدناه تقريباً من مؤونة شهر كامل حملناها معنا على ظهر القارب.

وفي وقت متقدم من العصر، عاد راندي الى الملجأ حاملا المحار بكلتا يديه، فاستخدمتُ الحوض الفارغ لاعدادها. ولم أستطع أن آكل شيئاً، لكن الأولاد أكلوا ما حضرتُه بشهية، وإن لم يكن كافياً لسد رمقهم. ووجدتُ أن في امكاني تناول جرعة صغيرة من الماء.

وعند حلول الظلام جلسنا نحدّق الى النار. وقلتُ للأولاد: "اعلموا أنه علينا أولا أن نعرف المكان الذي نحن فيه، ثم نخرج من هنا سريعاً".

فأجابت سيندي: "أخي يظن أننا في رأس موزن".

وانبرى راندي قائلا: "لقد رأيتُ مجموعة من الجزر الصغيرة وأنا فوق، ولا أظن أننا في لانغارا".



وكنت، قبل ركوبنا البحر، قلتُ للاولاد اننا في الجزء الضحل من مياه لانغارا، الى الجنوب. أما رأس موزن فهو في الشمال. لذلك حيَّرني ما قاله راندي، وقرَّرتُ الانتظار حتى الصباح.

وانقضت الليلة من غير نوم، أو بالقليل منه. فقد تجمع الجليد فوق الشراع ولم ينقطع عن التسرب الى الداخل. وخرج راندي مرات عدة خلال الليل لاذكاء النار. وكنا، كل مرة ننظر الى الخارج، نرى راندي هناك، كأنما أراد أن يستمد قوة من النار.

وسرتُ في ضوء النهار على الشاطىء، وسرعان ما تحقّقتُ مما قاله راندي، وهو أننا لم نكن في جزيرة لانغارا. وتبيَّن لي أننا في الطرف الجنوبي لجزيرة لونغ آيلند، عند الجزء الشمالي لمضيق ديكسون في ألاسكا. والى الغرب، عبر خليج روز، بدت لي جزيرة دال وعليها منزل صغير قدَّرتُ أنه يبعد عنا حوالى أربعين كيلومتراً. وهو كان أقرب بناء الينا. واذا استطعنا الوصول الى هناك، تمكنا من الابحار الى بيتنا خلال ساعة، شرط أن تكون الأحوال الجوية مؤاتية. وبما أن وعورة الأجراف الساحلية تحول دوننا وقطع المسافة على الأقدام، كان أفضل حل أن نبني طوفاً نركبه الى تلك النقطة.

وناديتُ راندي قائلا: "احمل الطوف الى هنا يا راندي. أتظن أنه لا يمكن استعماله اطلاقاً؟".

وعلى الفور جر راندي الطوف الى الملجأ وقال: "إن قعره مهشم تماماً".

فسألته: "ما رايك في ان نسد منافذه بقطع البلاستيك التي جُمعت عن الشاطىء؟".

وللحال شرعنا نعمل على اصلاح الطوف حتى مُلئت جيوبه كلها.

وقلتُ للأولاد: "علينا الآن أن نكمل بناء هذا الطوف، ولكن خلف الصخور التي تحمينا من الريح".

ورحتُ أجمع بعض ما بقي من قطع، ومنها سلم من الحبال وسلك كهربائي وأنابيب مطاط، وسوى ذلك مما يمكن استخدامه.

الطوف

هبَّت ريح جنوبية شرقية باردة على الشاطىء فيما كنا، أنا وراندي، نسحب الطوف الى الماء. وقلتُ لراندي: "سأمشي مع سيندي على الشاطىء، وأود أن تجذّف بالطوف وتضعه في منأى عن الريح. اتركه في أول مكان ملائم تجده، وسوف نلتقي بعد ساعات قلائل".

وسألني راندي: "هل ستذهب جينا معي؟"

ـ أجل. فوجودها معك يسهل عليك التجذيف. ومن العسير أن تتمكن جينا من قطع الشاطىء بحذائها المرتفع.

وناديتُ جينا التي بقيت، منذ الصباح، متكئة على صخر داخل الملجأ خشية أن تضطر الى ركوب الماء. وذهبت سيندي اليها وكلَّمتْها بهدوء: "عليك أن تذهبي. فهذه هي السبيل الوحيدة لخروجنا من هنا".

وأمسكتْها بيدها نحو الماء وحملتْها الى الطوف الذي قبضتُ عليه جيداً بمساعدة سيندي بينما كان راندي يتسلقه. وما أن جلس الى جانب جينا حتى أمسك بأحد المجذافين وانطلق في سبيله.

ووقفتُ وسيندي نحدّق الى الطوف

حتى كاد ان يغيب عن أبصارنا ٠عندئذ أدرتُ ظهري قائلا : "لننطلق الآن، إذ علينا أن نقطع نحو ١٥٠٠ متر" ٠

لكن تلك المسافة "القصيرة" استغرقت الجزء الباقي من النهار ومعظم الليل٠ وبلغنا جرفاً تمتد منه ثلاث فجوات، كان علينا أن نعبرها كلها فوق الجليد والصخور التي ترتفع ثلاثين متراً على نحو شبه عمودي٠ ولم نستطع متابعة الطريق، فأشعلنا ناراً جلسنا نتدفأ بها حتى الفجر، قبل أن نستأنف طريقنا٠

وبعد عشر دقائق من رحلتنا الجديدة، وقعنا على جينا وراندي اللذين كانا قد نصبا خيمة على شاطىء من الحصى البني ينتهي عند أجراف عالية تكللها الغابات الكثيفة٠ وهذا يعني استحالة اكمال رحلتنا على الأقدام٠

ولم يكن لدينا تصميم سابق للطوف الجديد الذي يجب بناؤه لاستئناف الرحلة، إذ ان أي تصميم ممكن هو رهن الاشياء التي نعثر عليها٠ ووجدنا على طول الشاطىء قطعاً خشبية حملها المد، وهي مختلفة الأشكال والأحجام٠ وسرعان ما تذكرتُ أننا نحتاج الى طوف يمكننا تجذيفه، لا الى مركب آلي كبير٠

ومع انحسار المد عند الظهيرة، ظهر لنا حوض فسيح من الحصى ضمن حدود الشاطىء الذي كنا فيه٠ وكان ذلك اليوم الثالث الذي يتلو تحطّم قاربنا والرابع الذي ينقضي من دون أن يأكل أحدنا شيئاً سوى بعض التفاح والمحار٠ وبمساعدة قضيب طويل، وجد راندي بعض الاصداف الكبيرة٠ وللحال أشرق وجها سيندي وجينا، أما أنا فلم أكن أستطيع الأكل بَعْدُ٠

وبقي الثلج يسقط ويخبو طوال النهار، وترتفع الغيوم قليلا، كاشفة عن جزيرة دال عبر مضيق كايغاني٠ وخاب أملي إذ وجدتُ أن الريح انحرفت نحو الشمال وأخذت تهب مباشرة على المضيق٠ وكانت الريح الجنوبية ـ الشرقية الدافئة والعاصفة اختفت في الاسبوعين الأخيرين، وبات تبدل الطقس لمصلحتنا وشيكاً٠

وتركتُ النار لأسير على الشاطىء٠ وكنا ذلك الصباح شاهَدنا قطعة كبيرة من الخشب الرقيق المتعدد الطبقات٠ ولما وصلْتُ إليها رحتُ أُقلّبها بين يديّ، فتبيّن لي أنها جزء من جدار بيتنا العائم، لكن الزجاج الذي كان يسد النافذة في وسطه اختفى٠ وكانت قدماي تؤلمانني، فطلبتُ الى سيندي وراندي، اللذين تبعاني، أن يحملا لوح الخشب الى الخيمة٠

وفيما انطلقنا مُجْهَدَين، أخبراني عن حديث دار بينهما يتناول قلقهما على حالي الصحيّة التي كانت تسوء باطراد٠ وقد أراد راندي وسيندي ان يأخذا الطوف بحثاً عن نجدة٠ لكنهما، قبل أن ينطلقا، جمعا كومة كبيرة من الخشب والقشّ وأوقدا النار في بعضها، موكلين الى جينا تعهّدها٠ وقال راندي: "إنك لا تستطيع أن تأكل حتى من القليل الذي لدينا٠ وعلينا أن نفعل شيئاً لحل هذه المسألة سريعاً"٠

ولم أتفوّه بكلمة واحدة٠ ولا شك في أن راندي كان صاحب الفكرة، فهو مخطط عنيد٠ إلا أن فكرة السماح

لهما بالابحار في ذلك الطوف الضعيف بدت غير واردة على الاطلاق. فهما لن يقويا على تجذيف الطوف عبر مضيق كايغاني وقطع الطريق الطويلة الى خليج روز.

وبلغنا الخيمة مرهَقين، حيث وجدنا جينا في الداخل تلقم النار. وكانت سترة الصوف التي تدفىء رجليها قد حُلّت عند الخصر، وبات لزاماً أن تقبض عليها طوال الوقت وإلا تغلغل الهواء الجليدي الى ساقيها.

ومع انسدال الظلام عادت سيندي الى اثارة المشروع من جديد. فقلت: "علينا الآن أن نبقى معاً، لأن هذا هو الضمان الوحيد لسلامتنا، إذ فيوسعنا مساعدة بعضنا بعضاً". سمعت سيندي هذا فلم تقل شيئاً.

عندما أفقتُ من النوم وجدتُ أن الريح الشمالية ما زالت تضرب المضيق. لكن أفكاري كانت متجهة نحو الطّوف. ومددنا عارضتين طويلتين على الأرض التي انحسر عنها المد أمام المخيّم. وكان طول الواحدة منهما سبعة أمتار وقطرها ٢٥ سنتيمتراً عند الطرف. وثبتنا ألواحاً مغلفة بأنابيب مطاط في مواضع عدة من العارضتين، وركزنا فوقهما الطوف. ثم وضعنا اللوح الذي بقي من جدار الزورق عند مؤخّر الطوف، فأصبح منصة صالحة للجلوس.

ريح الشمال

ما أن عاد المد الى الشاطىء حتى طفقنا نزوّد الطوف بكل ما بقي لدينا. وفجأة حملته المياه، فصاحت سيندي: "إنه يطوف حقاً!".

وارتفعت معنوياتنا حين طرأت لنا فكرة رفع شراع صغير وانتظار هبوب الريح الجنوبية، مما يسهل ابحارنا عبر مضيق كايغاني ومنه الى خليج روز.

وبقينا نجذّف ساعات طويلة. ومع بلوغ المد ذروته خف التيار في المضيق. وهذا حتم علينا تدبر مكان نلجأ اليه قبل هبوب تيار مضاد.

ونزلنا على شاطىء في محاذاة جرف صخري عال. وللمرة الاولى منذ تحطم منزلنا العائم، استطعنا أن ننام ملء أَعْيُننا.

وأيقظتُ الأولاد في وقت باكر. وبعدما استدفأنا بالنار قرب الشاطىء، عدنا الى القارب الذي لم نجد صعوبة في تجذيفه أمس نحواً من ثلاثة كيلومترات. ولكن لم يكن بدّ لنا من عبور مضيق كايغاني الى جزيرة دال. وهذا يجب انجازه في أسرع وقت، لأن هبوب الريح الجنوبية يجعل طريقنا محفوفة بالأَخْطار.

ومع ابتعادنا عن المخيم قويت الرّيحُ الشمالية، ووجدنا أنفسنا وسط الأمواج والرياح. وضرب الصقيع وجوهنا فسال الدمع من أَعْيُننا. ومما زادنا بَرداً أن الموج كان يتكسر على الطوف ويبلل ثيابنا. وهكذا بدا أن الصقيع يلغي ما تفعله الريح لخيرنا.

ولم يكن أمامي سوى أمر واحد أصدره: "لنعد من حيث أتينا، إذ لا معنى لما نفعله الآن".

ولما بلغنا الشاطىء، جلسْتُ بالقرب من النار وأخذتُ نَفَساً طويلا أُنَقّي به أنفي من الاحتقان. وحملني تنشّق الهواء

البارد على التقيؤ. وقلتُ للأولاد وقد شعرتُ بالضعف يسري في أوصالي: "يا الهي! إني مصاب بزكام شديد أظن أنه سبب انقطاع شهيتي كل هذا الوقت".

وجلسنا نتحدث عن محنتنا. إن طريقة التنقل البدائية التي اعتمدناها للوصول الى عيادة طبيب الأسنان من شأنها ألا تشغل باله علينا. ولكن بعد ستة أيام من رحيلنا بدا الأمرُ مختلفاً. وكانت ابنتي مارجري تتوقّع أن أزورها يوم الجمعة الأول بعد إبحارنا في البيت العائم اذا سمح الطقس بذلك.

وقلتُ للأولاد: "هناك أربعة أيام قبل أن تقرع مارجري ناقوس الخطر".

فأجابت سيندي: "في ودي أن يحصل هذا، لكني لا أظن أن مارجري ستقرع أي ناقوس. فقد سبق ان تأخرنا عليها، فضلا عن أننا هذه المرة لم نسجل دخولنا وخروجنا لدى الجمارك".

وفي الليل قويت الريح الشمالية حتى جاء الصباح وقد غمرت الأمواج المزبدة المضيق. ولم يكن أمامنا سوى الانتظار. وكان ضعف سيندي وجينا قد ازداد، مما أبقاهما أمام النار. وبقي راندي وحده يطوف الشاطىء بحثاً عن محار للطعام وخشب للنار. وكانت تعذبه فكرة الانتظار على الشاطىء وهو يظن أن منزلنا لا يبعد أكثر من ٢٤ كيلومتراً عن ذلك المكان.

ومع اقتراب الغروب خفت الريح وهدأت القناة. وأخذ المد يرتفع، مما حتم علينا مغادرة المكان قبل الليل. وقدرت أن أفضل ما يمكننا فعله هو عبور المضيق في أقرب وقت، علنا نبلغ شاطىء جزيرة دال، وإن استمرت الريح الشمالية. وحسبنا أن ننزل على شاطىء الجزيرة التي تؤوي منزلنا.

وتعاونت سيندي وراندي على التجذيف. وكانت أيديهما ابيضت بفعل ملامسة الماء على الدوام، ورفضت قروحها الصغيرة أن تلتئم. وكانت حال سيندي تسوء باطراد، فاضطررت الى التجذيف مكانها أحياناً. لكني لم أكن أجذف بالطريقة العادية، بل كنت أنحني الى الامام فوق المجذافين، ثم أرفع جسدي الى الوراء.

وبلغنا الشاطىء البعيد مع عودة المد. وهذا يعني أننا جذفنا ست ساعات متواصلة. وعلى رغم أننا كنا نمخر اليم في خط مائل، إلا أننا قطعنا مسافة ثمانية كيلومترات كما تبين لي. وإذا أسعفنا الحظ، فسنبلغ خليج روز في المساء التالي.

غير أننا لم نجد مكاناً ننزل فيه، فبقينا في الطوف. وانقضى الليل ونحن لم ننم إلا قليلا.

ومع تباشير الضوء الاولى ضربتنا ريح شمالية قوية أخرت رحلتنا شمالا. فعدنا الى الشاطىء وانتظرنا ليلة اخرى ونهاراً آخر.

الشاطىء القاسي

جمع راندي بعض الاخشاب عن سطح الماء وعدداً من الاصداف من بين صخور الشاطىء. وأبقى الطوف عائماً بعد ارسائه، لنتمكن من العودة اليه في أي لحظة ملائمة. وكانت

جينا تنكفيء على ذاتها أكثر وأكثر وسيندي تغدو فاقدة الحس مثلها وهما قابعتان أمام النار، وبدأ جوعنا يتحول مجاعة! تباً لتلك الريح!

وكان النهار التالي كسابقه حتى وقت متقدم من العصر انحسرت معه الريح على نحو مفاجيء، ومع أشعة الشمس الاخيرة فوق تلال لونغ آيلند المكسوة بالجليد، حملنا الطوف وانطلقنا به من جديد.

وخاب تفاؤلي ببلوغ منزلنا لأن ريح الشمال عادت عاتية لا ترحم، ولم يدر في خلدي أن الجوع سيكون أحد عناصر العذاب الذي نعانيه، ولكن بعد تسعة أيام من الشرود في جو جليدي قاس أمكنني أن أتبين آثار الارهاق والجوع في الاولاد.

وأجهدتُ فكري لتصور مضيق كايغاني الذي لم أتعمق في دراسته على الخريطة كما فعلتُ بالنسبة الى المنطقة المحيطة، وبقي عالقاً في ذاكرتي أن خليج روز يقع غرب الرأس الشمالي للونغ آيلند، وأن هناك جزيرة أو أكثر على طريق الجزء الغربي من لونغ آيلند، أما خليج روز فلم تكن رؤيته الكلية ممكنة من الخارج إلا بعد عبور مجموعة جزر صغيرة عند ثغره.

وقلتُ لراندي: "باشر النظر الى بعض الجزر الصغيرة على الجانب الآخر، ولكن لا تدع لونغ آيلند تغيب عن بصرك، ومتى بلغنا طرفها الشمالي، أعلمني حالا".

وكنا في أضيق قطعة من القناة عندما قوي المد على نحو خطر، وأسرع الطوف كما لو كان في نهر دافق.

وذوت النجوم في قبة السماء مع الغيوم الزاحفة من الشمال، ولاجتناب الريح، بقينا في محاذاة شاطيء جزيرة دال، وانحرفنا قليلا عن مكاننا، فضربتنا الريح نحو الشاطيء، وقلتُ لراندي أن يطلق العنان للطوف، وكنتُ أظن أن حركة الجزر بدأت، مما يعني أن بقاءنا وسط الرياح والامواج سيقودنا الى هلاك محتوم.

ونزلنا من الطوف على شاطيء من الحصباء قليل الانحدار ضمن جدارين عاليين من الصخر الأسود، ووجدنا، وسط الشاطيء صخرة قائمة ذات قمة مستدقة ترتفع كالنصب وقد اكتست بطبقة ثلجية تزيد سماكتها على الخمسين سنتيمتراً.

وانطلق الاولاد فوراً لجمع الاخشاب، وكانت الشواطيء التي نزلنا عليها سابقاً معرضة لريح جنوبية تساعد نارنا على الاندلاع، نقيض هذا الشاطيء الشمالي الأجرد.

وما أن عادوا الى الخيمة حتى خرج راندي وعبر الشاطيء الى الناحية الاخرى من المضيق، فأبصر مجمعاً مائياً مفتوحاً وراء لونغ آيلند، من غير معرفة الزاوية التي ينظر منها.

ووصف لي ما رأى، فرفعتُ عينيّ من وراء النار لأرى الغيوم الكثيفة تواصل زحفها في غابات الليل الحالكة، وأخذ الجليد يهب علينا والنار تنطفيء مرة بعد اخرى.

وقلت: "حَسْبُنا أننا وصلنا الى مكان قريب من خليج روز".

وراحت سيندي ترتجف بجانبي وهي تقول: "حين كنا نبني الطوف وننتظر تحت الشمس، لم أكن خائفة

على الاطلاق، ظننا مني أن بقاءنا على ذلك الشاطىء الأمين يكفي. أما هذا الشاطىء، يا أبي، فهو قاس".

وكنا قد تجاوزنا الأمكنة الضيقة في قناة كايفاني وبعض الجزر الصغيرة على الجانب الآخر، كما كان راندي شاهد المياه المتسعة وراء الطرف الشمالي للونغ آيلند. يضاف الى هذا كله أننا جذفنا ست ساعات بين المد والجزر. فما هي المسافة التي بقيت أمامنا؟ وهل تستطيع سيندي وجينا الصمود أكثر؟

وراحت الافكار تتلو بعضها بعضاً في رأسي. ونمتُ وأنا أقول لنفسي: "ربما كان راندي وسيندي على حق! ربما كان على بعضنا أن يذهب ويبقى البعض الآخر".

وفي ضوء الصباح الرمادي، نهضتُ ونظرتُ من خلال الثلج الخفيف الذي ما زالت ريح الشمال تأتي به. ولم أكن قطعتُ مسافة قصيرة على الشاطىء حين برز راندي ورائي. ووقفتُ على صخرة ونظرت الى البحر، فوجدتُ مجموعة من الجزر الصغيرة على بعد كيلومتر ونصف كيلومتر.

وقلت بهدوء: "إنه خليج روز".

فأضاف راندي: "لا شك في أنه يبدو مثله تماماً".

– اذهب الى القارب وفك مراسيه، فاننا منطلقون.

"وماذا لو كان المكان خالياً؟".

أجل، ماذا؟

إنه أمر محتمل. وكنا، في طريقنا الى برنس روبرت، زرنا جيم كوستاليس وسوندرا هوتاري، وهما شابان يعيشان في كوخ على الشاطىء. وكان فصل الصيد لديهما قد انتهى وأزمعا على العودة الى المدنية. الا أنه كان مقرراً وصول شريكهما بات تولسون الى الكوخ قبل أن يغادرا. وفي حال عدم وصوله، لن يكون لدينا قارب هناك لاستعماله. ولكن كنا ندري أن جيم يقتني جهاز ارسال.

وقلتُ لراندي: "جيم وسوندرا لن يكونا هناك. واذا لم نجد تولسون أيضاً، ففي امكاننا استخدام جهاز الارسال طلباً للنجدة. لنذهب، اذاً، نحو اختيك ونخبرهما بالأمر".

وأكب راندي فوق الطوف يحل مراسيه فيما عدت الى سيندي وجينا. وبادرتهما قائلا: "ان خليج روز قريب جداً من هنا. وسأنطلق مع أخيكما في القارب ونعود في ثلاث ساعات".

وركبنا القارب وأنا أُلقي نظرة سريعة على سيندي وجينا اللتين وقفتا بلا حراك فوق الشاطىء. وطالما جاهدتُ لعدم انفصال أحدنا عن الآخرين، ولكن ها هو الامر الذي لا مناص منه يفرض نفسه علينا. أما راندي وأنا فقد حسدنا البنتين اللتين خلفناهما على الشاطىء عندما واجهنا الريح العاتية والجليد.

المنزل المهجور

بعد ثلاثين دقيقة بلغنا احدى الجزر الصغيرة. ونزلنا قليلا الى الشاطىء لنفرغ الماء الذي تجمع في الطوف قبل استئناف رحلتنا. ونظرت الى المياه المتسعة ليراودني شك في كون ذلك التجويف يخبىء ثغر خليج روز. ولدى انقشاع الغيوم قليلا نظرت لاتبين أني كنت مخطئاً في تقديري.

فقد أمكننا أن نرى ما هو وراء لونغ آيلند، لكن المكان المنشود كان خلف مرمى البصر.

وقلت لراندي: "أظن أنه يحسن بنا أن نتابع الطريق".

فسألني: "أليس أفضل أن نعود الى اختي ونحيطهما علماً؟"

- هذا سيستغرق طويلا. دعنا نمضي قدماً، وأنا موقن من أن المكان ليس بعيداً جداً.

قلت هذا وأنا أشير الى شبه الجزيرة الذي ينتأ من القناة ويقع على مسافة ثلاثة كيلومترات منا.

إلا أن تلك المسافة، التي بدت قصيرة، أخذت وقتاً طويلا. وكان الارهاق بلغ منا مبلغاً كبيراً لدى نزولنا في نقطة جنوب المكان. وأفرغنا الماء من الطوف مرة اخرى قبل أن نباشر المرحلة الاخيرة من الرحلة.

وهبطت معنوياتنا ونحن نجذف نحو ما حسبناه النقطة الاخيرة. وكانت الساعات الثلاث التي أعلنا أمام سيندي وجينا أننا سنعود خلالها ولت منذ وقت بعيد. وغاب الوقت من أفكارنا، وأصبحت المسافة تعني لنا كل شيء.

أخيراً خشينا الاستمرار في ذلك الجو العاصف، وذهبنا الى شاطىء سحبنا القارب فوقه نحواً من ٨٥٠ متراً. وبلغنا نقطة سحيقة تحت جرف عال لم نتمكن من المشي فوقها. فأعدنا القارب الى الماء وتابعنا التجذيف. وبعد قليل أبصرنا الجزر الثلاث التي أدركنا انها، لا محالة، تنتمي الى ثغر الخليج. وكانت النقطة المنشودة تبعد عنا ثلاثة كيلومترات فقط، إلا أن الظلام كان يزحف وبدا راندي مرهقاً تماماً.

وعلى بعد ٤٠٠ متر أمامنا، رأيت صخرة ضخمة على طرف آخر الجزر الثلاث. فقلت: "الى هناك يا راندي، وبعد ذلك تأخذ حصتك من الراحة". ولدى بلوغنا الصخرة قلت له: "تابع طريقك الى الجانب الآخر من القناة، فهذا أفضل". وما أن عبرنا الصخرة حتى تراءى لنا البستان الذي يحجب المنزل. وكان كل شيء هناك مغطى بالجليد، يلفه البياض والصمت. ولم يكن الدخان يتصاعد من المنزل.

كان المنزل خالياً.

وقلت وأنا أدخل: "هذا هو جهاز الارسال. وسنخابر أحداً من هايدابرغ كي يهب الى نجدة اختيك اللتين ستقضيان هذه الليلة بسلام".

وكان المنزل يقوم على تلة ترتفع قليلا فوق مستوى المد. ولم نكن غرباء هنا. لذلك أشعلت النار فوراً في الموقد بينما هرع راندي الى المطبخ. وكانت رفوف المطبخ ملأى بالحبوب والرز والمعجنات والطحين والمعلبات، وعلى أحدها كان جهاز الارسال. ووصلت الجهاز ببطارية سيارة وأدرته، فأحدث صوتاً غريباً وانطلقت منه شرارة اضاءت ركن الغرفة. وأطفأته على الفور خوفاً من تعطله، وآثرت الانتظار حتى الصباح.

واشعلت المدفأة فلفح الهواء الدافىء وجهينا. ولكن سرعان ما سرى الالم في أيدينا وأرغمنا على الابتعاد عن النار. وحملنا التعب الشديد على النوم فوراً.

وفي الصباح توجهت نحو جهاز الارسال، فوجدت أني أحرقت سلكاً

كهربائياً فيه الليلة الماضية. لكني أصلحته سريعاً باستخدام لفافة المنيوم.

ودخل راندي المطبخ قائلا: "وجدت خريطة في غرفة النوم تبين لي منها أن سيندي وجينا على شاطىء "كيغ بوينت".

وأدرت الجهاز وأنا أصرخ: "النجدة! النجدة! خليج روز يدعو أي محطة. الرجاء أن تهبوا لنجدتنا".

وانتظرت بضع دقائق وأعدت الكرة، لكني لم أحصل على جواب. ووضعت الابرة على الرقم ١٠، ثم على الرقم ٩، وأعدت الرسالة: "النجدة! النجدة! هل يسمعني احد؟"

وأمكنني سماع بعض كلمات من محادثات غير واضحة. وأدرت الجهاز الى أعلى مداه وتلوت رسالتي من جديد، الا أن أحداً لم يسمعني كما بدا لي. فأطفأت الجهاز وهرعت نحو راندي الذي كان عند الموقد.

الشعور بالذنب

كانت يداي تؤلمانني كثيراً وأطراف اظفاري اكتست بالسواد. أما قدماي فأخذتا تعودان الى الحياة بعدما ظلتا متحجرتين طوال اسبوعين. لكن ذلك حمل معه ألماً مبرحاً. ولاحظت أن راندي بدأ يمشي بمشقة، وهو يطوي عقبي قدميه الى الداخل لتخفيف الالم.

وتمددنا على الاريكة لنأخذ استراحة. وراح راندي يئن ويصرخ والالم يقض مضجعه. وكنا في أمس الحاجة الى مستوصف واسعافات أولية وعقاقير تخفف حدة آلامنا.

في الصباح التالي وجدت جهاز الارسال على حاله. وأدرت الابرة الى القناتين (١ و٢)، وبعد ذلك الى القناة ٤٠ قبل العودة الى القناة (١)، مكرراً رسالتي مرتين عبر كل قناة: "هناك طفلتان تائهتان على الشاطىء... هل في استطاعة أحد مساعدتهما؟"

وتركت الجهاز على الخط اللاقط عند القناة (١). وفيما كنت متوجهاً الى الموقد، وجدت أنه لا يمكنني المشي وحدي، فاتكأت على طاولة المطبخ. وكان راندي ينظر الي، فقال: "أهلا بك في النادي! ان حالك لا تقل سوءاً عن حالي".

فاجبته: "علينا أن ننقع أقدامنا في الماء طويلا يا راندي، والا تسرب الالتهاب اليها حاملا معه خطر الموت".

وكنا حاولنا نقع أقدامنا الليلة الفائتة، لكننا لم نتحمل حرارة الماء، علماً أن الماء نفسه بدا بارداً عند ملامسته أيدينا. وكانت هناك قنينة صغيرة تحوي مبيداً للجراثيم، فسكبنا قليلا منه فوق الماء. وقلت لراندي: "أعرف أن هذا الماء يحرق كالجحيم. لكن رفع الحرارة تدريجاً من شأنه قتل الجراثيم. وبعد ذلك دعنا ننقع أقدامنا مدة ساعة، مرتين يومياً على الأقل".

وشعرنا باليأس من الحصول على نجدة عبر جهاز الارسال. وشغلنا الالم المبرح في أقدامنا بعد تحررها من الخدر عن الامور الاخرى. وهكذا تشابكت الأيام والليالي التي لم تحمل الينا سوى الاوجاع، وان يكن النهار خيراً من الليل لان راندي كان يفيق من نومه نهاراً ونتكلم معاً. أما الليل فكان الجحيم بعينه.

وبتُّ أخشى السرير بل أمقته. وكنتُ أضطجع عندما اعيى عن الجلوس، وأنظر الى الساعة عل الوقت يمضي. وما أن أغمض عيني حتى تسقط علي الكوابيس، فأزحف من السرير وأنا أصرخ رعباً، لأنظر الى الساعة من جديد وأرى أن خمس دقائق اخرى ولت.

وفي يوم لم أعد أذكره، وضعت أفكاري في قالب من الكلام: "راندي، علينا أن نفعل شيئاً، اذ لا يجوز أن نبقى هنا وندع اختيك تموتان. إن الموت يدنو منهما يوماً بعد يوم".

لكن راندي صمت طويلا قبل أن يجيب: "انك عاجز عن السير في هذه الغرفة. واذا خرجتَ من هنا، فستزحف على الشاطىء حتى يدهمك الموت. فما الخير في هذا؟"

والحق أني لا أستطيع وصف الخيبة التي شعرت بها آنذاك. وقد شعر بها راندي أيضاً، وكان على حق. فليس في وسعنا أن نفعل شيئاً لانقاذ سيندي وجينا.

وبعد انقضاء ليلتنا الخامسة في ذلك المكان، قلت: "لا أظن، يا راندي، أن اختيك صمدتا حتى الآن، خصوصاً في الليلة الفائتة".

– أجل، لقد كنت صاحياً معظم الليل، وسمعت عصف الريح وأدركت مدى برودتها.

"ربما كان أقصى ما نشتهيه الآن هو أن تقضيا معاً في الليلة نفسها. وأقسى ما أتصوره هو أن تستيقظ احداهن لتجد اختها جثة هامدة".

ما من تبكيت في الحياة أعنف من تبكيت الضمير! وقد تبين لي أن صد الالتهاب عن قدمي وقدمي راندي يتم على حساب حياة ابنتي. وكان الذنب الذي شعرنا به نحن الاثنين أعظم من أن يوصف.

وانتفخت قدماي الى حد لم أعرف معه أنهما جزء مني. واسودت أصابعهما وانبسطت حتى بدا الرسغان في كل قدم مثل نملة على هضبة.

وعثرت على مبضع جرّاح في أحد الادراج. فشذبنا الجلد الميت من أقدامنا لنعرّض الطبقات الداخلية المتقرّحة للماء الساخن المعقم. وبلغنا العظم من غير أن يؤذينا ذلك جسدياً. لكن الأذى النفسي كان بالغاً.

وأخذت معدتي تتحسن ويخف الألم في قدمي. وبات في امكاني أن أغفو وقتاً أطول. وأخيراً ظهر تبدل في الأحوال الجوية، فارتفعت الحرارة الى ٣ أو ٤ درجات مئوية واستحالت الريح جنوبية شرقية وبدأ المطر يسقط، مذيباً الثلوج بين ليلة وضحاها. وظهرت الأشجار والصخور، وكل ما في الطبيعة، على هيئتها القديمة.

كيغ بوينت

كان جيم قد أخبر راندي، الذي يحب الزوارق كثيراً، أن هناك زورقاً قديماً على الشاطىء لم يستعمل منذ زمن. وسرعان ما وجدت الزورق، فرقعنا ثقوبه وزودناه بمجذافين. وعلى رغم أنه ظل يرشح من بعض المواضع، إلا أني تعهدت بطرح الماء منه.

وراح ابني يحمل المعدات الى القارب فيما جلست أكتب رسالة الى جيم وسوندرا وبات أشرح فيها ما حل بنا، من غير أن أتطرق الى سيندي وجينا. وتركت الورقة على الطاولة في الداخل وراء الباب.

بقيت سيندي وجينا جنباً الى جنب تحت الشراع حيث تركناهما ذلك الصباح. وكان الثلج يسقط بقوة وهما تسمعان حركة القارب فوق مياه الشاطىء. وبعد قليل لم يبقَ الا صفير الريح في الاشجار.

ولم يعد أمام البنتين سوى الانتظار، وانتظرتا بصمت مطبق، محاولتين الاحتفاظ بالطاقة التي لهما تحت دفء الشراع. وعند الظهر انقضت الساعات الثلاث التي وعدناهما بالعودة خلالها، فاختلست سيندي النظر من تحت الغطاء وقالت لاختها: "علينا أن نزيل الثلج عن الشراع". ثم نهضت وأزاحت الشراع عنها وعن اختها، وكانت الريح الباردة تلفح ثيابها المبللة على نحو لا يطاق.

وبعد ساعة أرغمتا على النهوض من تحت الشراع مرة اخرى. وكان المد أعلى كثيراً من الليلة الفائتة، مما حملهما على الابتعاد الى نقطة اخرى على الشاطىء، يكسوها الثلج بارتفاع متر.

هناك حطتا رحالهما والشراع فوقهما، فيما الامواج تدنو منهما. وأخيراً ارتفعت المياه، فغمرت سيندي حتى ركبتيها ومعها معظم الشراع. وصرخت جينا مذعورة والمياه تغطيها حتى الخصر. أما سيندي فهزت كتفيها مرارة، لا عجباً، إذ لا شيء عاد يدهشها الآن.

وظلتا وقتاً طويلا ترفعان الشراع عن الماء وتبتعدان عن المد، حتى وصلتا الى نقطة بقيتا عندها لأن الاشجار الكثيفة صدتهما.

وخلدتا الى النوم بعض الوقت في تلك الليلة، لكنه كان نوماً يقطعه البرد والتعب والخوف. ورأتنا سيندي في المنام: راندي وأنا. وكنت أقف على بعد أمتار منها قائلا: "خذي يوماً واحداً من الراحة بين وقت وآخر يا سيندي، وكفى". ثم رأتني أسير بعيداً.

بعد ذلك رأت راندي يوقد النار ويتدفأ بها. وتكرر الحلم نفسه في الليالي الثلاث التالية، اذ كانت سيندي تبصر راندي خارجاً، أمام النار.

ومع طلوع الضوء نزلت البنتان الى الشاطىء. وكان الجزء الشمالي منه منحدراً على نحو سحيق، حتى ان المد كان يأتي على الاشجار.

وتذكرت سيندي الرحلة التي قطعتها وإياها على الاقدام في اليوم الذي تلا تحطم القارب. لقد كانت أقوى آنذاك، وهي لا تستطيع القيام برحلة مشابهة الآن. ولم يبقَ لها من رفيق سوى جينا التي بلغ منها الضعف أيما مبلغ.

واستحال الثلج الخفيف مطراً غزيراً. وهرعت الاختان الى الشراع تحتميان به وهما ترتجفان برداً.

وسألت جينا: "ما الذي يبقيهما بعيدين كل هذا الوقت؟"

فأجابت سيندي: "ربما وجدا المنزل على الشاطىء خالياً".

ودنت سيندي الى جينا تستمد الدفء منها، وكل منهما تخشى الافصاح عن مخاوفها للاخرى. وكان كلامهما قليلا، وجلستا تنصتان لأي صوت عابر. ومع حلول الظلام استسلمتا لليلة اخرى تحت الشراع.

وفي الصباح اقترحت سيندي أن تذهبا الى الشاطىء بحثاً عن عشب بحري تأكلانه: "الناس يأكلون العشب

الطافي فوق ماء البحر، فهو يحفظ المعدة سليمة".

ومع فجر اليوم الرابع استحال المطر جليداً مرة اخرى. وسألت جينا: "ترى لماذا لم يعودا؟ أتظنين أن شراً حصل لهما؟"

وكانت سيندي طرحت جميع الاحتمالات على نفسها. وهي، في الأيام الاولى، قدرت أسوأ التقديرات، ولكن ما لبثت أن أقنعت نفسها بأننا نزلنا على الشاطىء لنجد المنزل خالياً، إلا أن ضعفنا الجسدي منعنا من العودة فوراً. فهي لاحظت، آخر مرة رأتنا، أننا نمشي بخطى ثقيلة.

وأفصحت عن هذه الفكرة المتفائلة لأختها، ثم أضافت: "لقد قدر لنا النصيب السهل من هذه المحنة، إذ كل ما نفعله هو الانتظار. ألا ترين أن أبي يتغلب على الصعاب دائماً؟ إنه سيأتي الينا قريباً. وها أنا ذاهبة للحصول على مقدار أكبر من غشب البحر".

وفي الايام التي تلت، كانت سيندي تلجأ الى النوم الخفيف بضع مرات خلال النهار. لكنها قالت لأختها: "ايقظيني كلما شئت الكلام". وكانت سيندي، كلما أفاقت، تؤثر الحديث على الصمت. لكن جينا تعكر مزاجها ولم يعد يروقها اي حديث. وظلت سيندي تبصر راندي في أحلامها، أما جينا فانتابتها كوابيس تأتي فيها الأمواج الضخمة على القارب وتقذفه بعنف الى الشاطىء.

وحدقت جينا الى وجه اختها تتفحص ملامحه، وتساءلت إن كان وجهها هي الاخرى يبدو ضامراً وأشبه بالجمجمة. وكان شعر رأسيهما يتساقط ولثتاهما تغوران وتوجعانهما. وبقيت جينا تتذمر من ألم قدميها المبرح، مما جعل سيندي تخشى أن تكون قضمة الصقيع في قدمي اختها أشد مما هي في قدميها.

ومع مرور الايام لم تعد سيندي قادرة على التمييز بين أحلامها ويقظتها. وهذا أخاف جينا. وفي احدى الليالي، وهي الثامنة بعد مغادرتنا اياهما، أكبت سيندي فوق السرير تجهزه لخمسة أشخاص، فيما جلست اختها تراقبها بهلع.

وبعدما فرغت سيندي من ترتيب السرير، بقيت طوال الليل تتكلم في نومها الى راندي ومارجري والي.

كانت الحاجة الى جينا ماسة. ذلك أن صحوها الذهني التام كان ضرورياً للتمييز بين الحلم والواقع لدى سيندي.

وقبيل الضحى الذي أعقب ليلتهما الثانية عشرة تحت الشراع، أبصرت سيندي أطرف أحلامها. فقدكان بيتنا العائم راسياً على الشاطىء هناك، بينما انصرفنا، انا ومارجري وراندي، الى اعداد الدجاج طعاماً. وكانت سيندي جائعة كثيراً، فانطلقت تواً في اتجاه القارب. ثم فكرت في اختها الصغيرة التي كانت تعاني الجوع هي أيضاً، فعادت الى الشراع تقول: "انهضي يا جينا - لين ألا تريدين أن تأكلي؟"

وكانت جينا مستيقظة، فأجابت اختها: "انهضي أنت ياسيندي! ليس هناك أي طعام".

إلا أن سيندي أبقت عينيها مطبقتين وحاولت أن تبكي. لكن

جسدها المفتقر الى الماء عجز عن ايصال الدمع الى عينيها والتنهد الى رئتيها.

ولكن ما أن فتحت عينيها على اليوم الثالث عشر على الشاطىء - وهو الرابع والعشرون منذ غرق القارب والخامس والعشرون منذ آخر وجبة طعام طبيعية - حتى راحت تهدىء من روع أختها ومن روعها وهي تقول: "حسناً، ان أبي وراندي عائدان هذا اليوم بالذات. اطمئني، يا جينا، ولا تخافي! إنهما عائدان اليوم".

وداعاً أيتها الليالي الباردة!

لم أتمكن من تقرير البقعة التي يجب أن تكون سيندي وجينا ماتتا فيها. واذا كانت جثتاهما تحت مستوى المد، فلا شك في أن الاسماك تقتات عليهما. أما اذا كانتا فوق الشاطىء من دون غطاء، فحيوانات البر وطيور الجو المفترسة ستلتهمهما. ولا ريب في أن ذلك المشهد من شأنه أن يرعب راندي ذا الخمس عشرة سنة الذي تحمل مشقات كثيرة حتى الآن.

وقلت له: "جذف حتى تلك الصخور يا راندي، بحثاً عن مكان نرفع القارب اليه كيما أتمكن من سد ثقوبه. لكني سأنطلق، أولا، بحثاً عن البنتين".

وارتقيت صخور الشاطىء وقلبي يضطرب في أحشائي. وسرعان ما وجدت هضبتين صغيرتين يعلوهما شراع. فقلت بصوت متهدج: "أيتها الفتاتان! لقدجئنا نأخذ كما".

لكني لم أسمع حركة ولا صوتاً. وانحنيت لرفع الشراع، فقفزت سيندي من تحته، ثم رأيت جسداً ناحلا عرفت أنه ابنتي الاخرى.

وقلت بدهشة: "سيندي! أما زلت حية؟" ورفعت الغطاء عن جينا، فاهتز رأسها قليلا فوق جسد عجزت عن تحريكه. وقلت لها: "وأنت كذلك يا جينا؟" واكتفت بهز رأسها، وبدا أن التعبير غاب عن وجهها.

وركعت وضممت الاثنتين الي وأنا أصيح: "يا طفلتي! يا ابنتي الحبيبتين... أما زالت لكما الحياة؟"

وراحت جينا تبكي وسيندي تصيح بفرح من غير أن تقوى على الضحك أو على البكاء.

وكانت تلك الجلبة قد تناهت الى راندي الذي أخذ يسرع على الشاطىء. وللحال صرخت قائلا: "راندي! راندي! انهما حيتان. أسرع بالقارب الى هنا".

ووصل راندي. فرفعنا جينا، لكنها لم تستطع الوقوف على قدميها. وحملناها الى القارب بينما كانت رجلاها وراءنا تهتزان كدمية من خرق. وعندما وضعناها في مقدم القارب، لم تتمكن من الجلوس بل ارتمت الى الوراء. ورفعت ثيابها قليلا فتصاعدت منها رائحة مئتنة. وكان جسدها الناحل يملأه الطفح الجلدي والقروح.

وقالت لي: "سيندي وأنا اصبحنا شبه متصلتين بعدما نمنا مرات عدة وخدانا متلاصقان".

تمتمت جينا هذه الكلمات كمن يعترف. فهي كانت، على الدوام، منكفئة ضمن عالمها الخاص الى حد لم تعرف معه السعادة التي تمنحها الشراكة. أما الشركة التي فرضتها

عليها المحنة فقد أضفت على حياتها بعداً جديداً لم تستطع أن تخفيه عني. وأدخلت جسدها العاري في كيس للنوم، ثم ذهبت لمساعدة سيندي.

وبادرتها قائلا: "أخبريني، يا سيندي،كيف استطعتما الصمود؟"

فأجابت: "لم تكن الحال سيئة جداً كما تظن. كنا نصلي. وفضلا عن ذلك، أما قلت إنك عائد الينا يا أبي؟ لقد قدرنا أنك وراندي تجتازان مرحلة عسيرة، وأدركنا أنه كتب لنا النصيب السهل، اذ لم يكن علينا سوى الانتظار".

وخطوت الى مؤخر القارب ورحت أنزح الماء من جديد، فيما قذف راندي القارب الى الماء وتسلقه ممسكاً بالمجذافين.وقررنا العودة الى خليج روز. ولم يكن هناك طعام لنا جميعاً في الكوخ، والفتاتان كانتا تحتاجان الى عناية خاصة.

وبلغنا المنزل بعد الظلام. وللحال تعاونت وراندي على اشعال النار وتجهيز الاسرة. وما أن اخترقت أشعة المصباح الكهربائي ظلمة المنزل حتى استقرت على كومة صغيرة وسط الغرفة.

وقلت لراندي: "انظر! انها أطعمة مختلفة". واسرعت نحو الطاولة التي تركت عليها الرسالة، لكن الرسالة لم تكن هناك.

وكان راندي أمضى ثلاث عشرة ساعة يجذف القارب، تخللتها ساعة واحدة من الراحة في كيغ بوينت. وكانت العظام تنتأ من قدميه العاريتين لشدة التعب والهزال. لكنه، على رغم ذلك، أسرع نحو جينا وحملها، ثم تسلق بها السلم العالية الى المنزل. ولكم شعرت بالحب والفخر نحو راندي، الذي بقينا نعول عليه حتى النهاية في محنتنا الطويلة.

ووضعنا جينا في السرير، ثم عدنا الى سيندي لنعيد الكرة.

وفي الثانية فجراً كنا كلنا مرهقين. غير أني لم أنم في ما تبقى من الليل. وتركت مصباح الكاز مشتعلا في المطبخ طوال الليل كيما تعوض سيندي الفترة التي عاشتاها في الظل والظلمة.

وفي الصباح التالي سمعنا الصوت الذي انتظرناه طويلا. وللحال صاح راندي: "انها طائرة هليكوبتر". وسرعان ما حومت أمام المنزل على مرأى منا جميعاً.

وعرفنا لاحقاً أن بات تولسون قلق لخلو المنزل فترة طويلة من الناس، وعاد اليه في العاشر من مارس (آذار). ووجد رسالتي على الطاولة وعليها تاريخ اليوم نفسه. وكانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر. وتحسس بات الموقد فوجده دافئاً.

وانطلقت مجموعة تبحث عنا يوم أمس، بالطائرة المروحية والقارب، على أساس أننا اتجهنا شمالا نحو هايدابرغ. وشاء الفريق الطائر أن يزود الطائرة المروحية بالوقود قبل انطلاقه الى كتشيكان لاستئناف البحث. لكنه ارتأى أن يتفقد المنزل على شاطىء خليج روز أولا.

وكان القارب الراسي دليلا على عودتنا.

خاتمة

من أقسى الخيبات التي اختبرناها في الاسابيع الاخيرة عدم تمكننا من

توجيه رسالة عبر الراديو. ولم أكن أدري أن المنطقة معروفة عنها صعوبة التقاط الموجات اللاسلكية. وعندما عرجنا على جيم وسوندرا في خليج روز في السابع من فبراير (شباط)، ذكر جيم أن لديه جهاز ارسال، وانه خاطب هايدابرغ عبره. لكنه نسي أن يقول لي انه فعل ذلك نحو العاشرة ليلا، وهو الوقت الوحيد الذي يعمل فيه الجهاز شرط أن تكون الاحوال الجوية ملائمة تماماً.

وكنت قد حسبت أن ذهابي مع راندي وتركنا سيندي وجينا على الشاطىء كان قراراً مخطئاً. غير أنني اليوم أرى أن ذلك القرار، وان يكن قائماً على خطأ في تقدير المسافة، ربما كان عنصراً رئيسياً في نجاتنا.

وبعد ثلاثة أيام من مغادرتنا اياهما، شعرت الفتاتان بضعف شديد منعهما عن المشي. وبقيت جينا منذ ذلك الحين تحت الشراع، فيما لم تتجاوز رحلات سيندي الثلاثين متراً. ولو بقينا معهما لكانت الحركة أرهقتنا حتى الهلاك. وربما كنا قضينا من غير أن يدري أحد بمكاننا.

وكان الصقيع بدأ يخف في أصابع قدمي راندي في ١٥ فبراير (شباط) وهو يشعل النار الليلية خارج الخيمة، وعلى رغم تجلدها مرة اخرى في الرابع والعشرين من الشهر نفسه ونحن في طريقنا الى خليج روز، الا انها تحررت سريعاً من الخدر. ولدى بلوغنا المستشفى في ١١ مارس (آذار)، كانت قدما راندي في وضع ملائم لتقبل الجراحة. ومكث في المستشفى أربعة أيام فقط، عاد بعدها الى كريغ للسكن مع أصدقاء والذهاب من هناك الى المدرسة.

وكانت جينا محظوظة اذ أمضت الليلة الاولى على الشاطىء وقدماها تحت معطف سيندي. هذا أبعد الخدر عن قدميها، ذلك الخدر الذي أصابنا نحن الثلاثة الآخرين. ووقاها تحريك قدميها المستمر طوال الاسابيع الثلاثة اللاحقة الحاجة الى بتر الاصابع أو زرع الجلد. وبقيت اسبوعين في المستشفى، برئت خلالهما من سوء التغذية قبل عودتها الى المدرسة.

وكانت قدما سيندي مجلدتين لدى دخولنا المستشفى. وفي ثلاثة اسابيع هناك، أُجريت لها جراحة في ثلاث أصابع في قدميها، رافقها زرع الجلد في القدمين وعلاج لسوء التغذية.

والأولاد الثلاثة جميعاً في صحة جيدة اليوم.

وفي السنة الاولى التي تلت محنتنا، فُقد أكثر من أربعين شخصاً، أعرفهم أو أعرف عنهم، في مياه مضيق ديكسون الصاخبة. وما من سبب واحد كان يمنع أن نكون، نحن الاربعة، في عداد هؤلاء.

أما بالنسبة إليّ، فإن سيندي وراندي حثاني على البقاء بعدما فقدت الامل في أعقاب تحطم القارب. وعندما تركنا سيندي وجينا وحدهما على الشاطىء تبعاً لحساباتي المخطئة، استطاعتا الصمود بالعون الذي استمدته احداهن من الاخرى. وهذا حقق التوازن في حياتي وجعلها ذات قيمة. واني أشكر الله تعالى على طاقم البحارة المثالي الذي زودني به لرحلة "البيت" الأخيرة.

■ المو ْوورتمن

كتاب الشهر



أيام موسوليني الأخيرة

ملخص من كتاب
بقلم ريتشارد كوليير

أيام موسوليني الأخيرة



في وقت من الاوقات، كان بنيتو موسوليني، أبو الفاشية، يقف على شرفة مقره في روما أمام الجماهير المحتشدة لتحيته. وبدا "الدوتشي"، أي "القائد" كما كانوا يحيونه، قيصر الأزمنة الحديثة في أعين كثيرين من أنصاره.
لكن تحالفه مع النازية جر الهزيمة على ايطاليا وجعله دمية في يدي هتلر.

هنا يعيد ريتشارد كوليير صياغة الأحداث المروعة التي شهدتها المرحلة الأخيرة من حياة موسوليني، اعتماداً على مئات المقابلات الشخصية. وهي أحداث تكشف النقاب عن مرحلة حاسمة من الحرب العالمية الثانية



في قصر فينيزيا، مقر الحكومة الايطالية في روما، اجتمع أعضاء المجلس الاعلى ومعظمهم على حس بالخطر الداهم. وكان أحدهم، دينو غراندي، صرف الساعات الاثنتين والسبعين الماضية يوزع عليهم جدول أعمال للجلسة. واذا أُقرّ هذا الجدول، فهذا يعني تجريد بنيتو موسوليني، حاكم ايطاليا الديكتاتوري طوال السنوات العشرين المنصرمة، من جميع سلطاته.

وإذ يتصرف المجلس على هذا النحو، وهو مؤلف من ٢٨ عضواً بينهم وزراء وفاشيون بارزون، فهو إنما يمارس حقاً منحه إياه دستور البلاد. هذا من ناحية نظرية. لكن موسوليني، في الواقع، طالما هيمن على المجلس وحمل اعضاءه على الاذعان. وحين أعلن الحرب على بريطانيا وفرنسا في يونيو (حزيران) ١٩٤٠ تأييداً لحليفه ادولف هتلر، فهو لم يستشر أحداً من أعضاء المجلس.

وفي ذلك الاجتماع الاخير الحاسم، راح أحدهم يختلس النظر الى الآخر وهو يتساءل عما اذا كان غراندي سيتجرأ على طرح جدول أعماله وكيف سيحاول موسوليني التغلب عليه. أما غراندي نفسه فقد دخل القاعة وهو على استعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات، إذ علق قنبلة يدوية بفخذه ليقتل نفسه في حال استدعاء أفراد الميليشيا للقبض عليه.

وانطلقت تحية "سالوتو آل دوتشي" فيما كان موسوليني يدخل القاعة مرتدياً بزة قائد الميليشيا الأعلى ذات النسيج المقصب على الكتفين. وبدا رأسه الكروي الحليق وفكه البارز كعهدهما، وإن يكن صدره الضخم ضمر قليلاً. وأدى الرجال التحية الرومانية الصارمة دونما تفكير في ما يفعلون، ثم أخذ كل مكانه حول طاولة نصف دائرية.

وكان محبو موسوليني والمتملقون له على السواء حذروه، طوال أشهر، من مكيدة يدبرها له أعضاء هذا المجلس. وقبل يوم واحد، قدم اليه قائد الشرطة ملفاً كاملاً حول اجتماعات سرية لهذا الغرض، لكن الدوتشي وضعه جانباً وهو يقول: "هؤلاء الرجال موجودون لأني أنا موجود، وهم يعيشون في ظل مجدي. ويكفي أن ألقي خطاباً واحداً كي أحملهم على الخضوع".

أجل! هذا كان يصح في الماضي. والحق أن قدرة موسوليني على الخطابة الحماسية ميزته عن سائر أترابه وهو حدث بعد. وذات يوم سمعته أمه ينطلق بحديث مسرحي صاخب وهو وحده في غرفة النوم، فظنته جن. إلا أن بنيتو الصغير هدأ من روعها قائلا: "اني أعد العدة ليوم تهتز ايطاليا كلها على صوت كلماتي".

وكان موسوليني عنيفاً بطبيعته، وقد طرد من المدرسة لأنه طعن رفيقاً له بسكين كما كان متعطشاً الى السلطة، واستغل الفوضى الاجتماعية التي سادت ايطاليا في أعقاب الحرب العالمية الاولى. وفي اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٢، زحف على رأس الميليشيا الفاشية الى روما، فارضاً حكومة من الفاشيست على الملك

فيتوريو ايمانويل الثالث. ومنذ ذلك الحين غدا لقب موسوليني "الدوتشي"، أي القائد، مما يعني عصمته عن الخطأ.

لكن الأمجاد الاولى، ومنها اخضاع اثيوبيا عام ١٩٣٦ واعلان "الامبراطورية الرومانية الثانية" وسط صيحات ٤٠٠ ألف محتشد: "يحيا الدوتشي"، ضاعت كلها الآن في فوضى الحرب العالمية الثانية. فقد مُني جيشه بهزيمة في شمال افريقيا، وهلك القسم الأكبر من قواته الجوية والبحرية، وباتت روما عرضة لقصف الطائرات. وقبل اسبوعين (التاسع من يوليو - تموز ١٩٤٣) أنزل الحلفاء عدداً من الجند في صقلية.

في اجتماع المجلس الاعلى ذاك، تكلم موسوليني نحواً من ساعتين بنبرة خطابية مملة، محاولا تبرير تحالفه مع المانيا وسياسته الحربية ومعززاً موقفه بالأرقام. فأشار الى الكميات الهائلةمن المواد الخام التي تم استيرادها من المانيا منذ ١٩٤٠، والاسلحة التي صُنعت محلياً في الأشهر الأحد والثلاثين الأخيرة. ولكن تبين من كلامه أن الجيش لم يبقَ فيه سوى فرقتين قويتين، وان عدد طائرات السلاح الجوي أصبح مئتين،وان البحرية لم تعد تجسر على القتال. إلا أنه تجنب الخوض في هذه الامور وانتقل الى مسائل غير ذات بال.

والحق أن وضع موسوليني النفسي كان مضطرباً في الآونة الأخيرة. وعندما استسلمت قوات المحور في افريقيا في ١٣ مايو (ايار)، ذهب الى منزله الصيفي حيث أمضى أياماً يجمع قصاصات من الصحف ويعلم بالحبر الازرق أو الاحمر تحت المقالات. وكان موسوليني ادارياً من الطراز الأول، لا يعرف الوهن سبيلا اليه. أما الآن فبات يتوانى أسابيع قبل اتخاذ قرار مهم.

وراح يذرع القاعة فيما أعضاء المجلس الاعلى يتهامسون. أما دينو غراندي فضاق ذرعاً بالانتظار. وكان قد استشار ١٤ شخصاً من أعضاء المجلس الثمانية والعشرين، فوافق اثنا عشر منهم على مشروعه. وأخيراً حان دوره للكلام. انها الفرصة الوحيدة لتحقيق غايته.

نهض غراندي واستهل الكلام: "ان الشعب الايطالي خانه موسوليني يوم بدأ جرمنة ايطاليا. هذا هو الرجل الذي قادنا الى أحضان هتلر وجرنا الى حرب تتحدى كرامة الشعب الايطالي ومصالحه ومشاعره".

وبدت القاعة الكبيرة أشبه بمسرح للموت. أيمكن رجلا أن يخبر موسوليني الحقيقة العارية ويبقى حياً؟ أما الدوتشي فغرق في مقعده على المنصة بلا حراك ويداه تحجبان عينيه.

وأضاف غراندي بنبرة حاقدة: "دعني أخبرك أن ايطاليا ضيعت ذاتها يوم وضعت شارة الماريشال على قبعتك. اخلع هذه الزينة المضحكة. انزع عنك هذه الرياش. كن زعيمنا نحن من جديد".

وجلس غراندي في مكانه بعدما دام حديثه ساعة كاملة. وتكلم آخرون، من غير مناقشة تُذكر. وفي منتصف الليل اقترح موسوليني تأجيل

الجلسة حتى اليوم التالي. لكن غراندي قاطعه قائلا: "كلا، كلا! يجب أن نتخذ قرارنا الليلة. لنبقَ هنا ونطرح القرار على التصويت".

ورفعت الجلسة ١٥ دقيقة حصل خلالها غراندي على تواقيع اضافية، بحيث أصبح مؤيدو مشروعه ١٩ عضواً.

ولما عاد الجميع الى مقاعدهم استأنف موسوليني كلامه، محاولا اثارة الشفقة هذه المرة. وأعلن مسؤوليته الكاملة عن الحرب وتكلم عن انجازاته طوال عشرين سنة، قائلا انه يحسن به "انهاء هذه المهمة الرائعة" وهو في الستين من عمره. لكنه ما لبث أن استعاد ثقته، فأضاف: "الا أني لن أقدم على هذا الأمر. فالملك معي، كذلك الشعب. وغداً سأخبر الملك عن هذا الاجتماع. واني لأتساءل ما الذي سيحدث غداً لاولئك الذين وقفوا ضدي هذه الليلة".

وصرخ غراندي: "يا لها من خديعة! انه يرغمنا على الاختيار بين ولائنا القديم لشخصه والولاء لايطاليا. ولكن، أيها السادة، لا يمكننا التردد: اننا نختار ايطاليا!"

وبدأ التصويت. وتحسس غراندي القنبلة على فخذه وتذكر مخاوفه الاولى: ان الدوتشي سيعتقلهم جميعاً.

وغلف الصمت القاعة بينما كانت الاصوات تفرز. وأخيراً أعلنت النتيجة: "تسعة عشر صوتاً مع الاقتراح، سبعة ضده، واحد ممتنع". (وكان أحد الاعضاء صوت على مشروع اقترحه شخصيا).

ورفع موسوليني رأسه قليلا وقال: "لقد أُقر مشروع غراندي وأقفلت الجلسة". وحدق الى غراندي بعينين حاقدتين وهو يقول: "لقد قتلت الفاشية".

"أصابته قذيفة مدفع"

عصر اليوم التالي انطلق سائق سيارة موسوليني عبر شوارع روما، حاملا الدوتشي الى فيلا سافويا، قصر الملك فيتوريو ايمانويل الذي يبعد نحو ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر عن وسط العاصمة ويقوم على أرض مساحتها ١٢١ هكتاراً.

واستعاد موسوليني تبجحه الديكتاتوري بعدما زال خوفه. وقال لقائد الميليشيا: "لقد كان الملك الى جانبي على الدوام". ورفض اعتقال المنشقين، قائلا لأحد مؤيدي غراندي: "ان قراركم لا أهمية له على الاطلاق. فالمجلس الاعلى يلتئم لابداء الرأي فقط. واني متأكد من هذا بعد مراجعة القوانين".

وللملك، كما للمجلس، حق المطالبة باقالة موسوليني. لكن الملك، كلما واجهه هذا الأمر، كان يغض النظر عنه محاولا انقاذ سلالة سافوي التي دام ملكها ألف سنة، ومتذرعاً بالآتي: "اني اقف مع موسوليني لأنه صاحب حظ، سواء أكان محقاً أم مخطئاً". وكان موسوليني، حفاظاً على الشكليات، يقصد القصر مرتين في الاسبوع حاملا الوثائق والمراسيم الى الملك لتوقيعها.

أما الملك فكان يعيش منعزلا في قصره الريفي، مما غربه عن الشعب. لكنه في التاسع عشر من يوليو (تموز)، اليوم الذي قصفت روما

• للمرة الاولى، زار المدينة، وانهال الناس عليه بعبارات الاحتجاج وهم يخرجون بمشقة من بين الركام. وشحب وجه فيتوريو ايمانويل من هول الصدمة. وفي تلك اللحظة أدرك أن موسوليني يجب ان يُنحى.

ولدى اقتراب سائق الدوتشي من قصر الملك أعطى اشارته المعهودة، وهي اطلاق نفير السيارة مرتين. وكالعادة أيضاً، بقيت سيارات الشرطة الثلاث المرافقة خارج البوابة بينما تابع السائق طريقه.

وكان النقيب في الشرطة، باولو فينيييري، سمع نفير السيارة وهو على بعد نصف كيلومتر في الناحية الشمالية من القصر. وتلك كانت الاشارة التي ينتظرها هو وأعوانه المؤلفون من خمسين شرطياً متخفين في أرجاء القصر مع ثلاثة رجال استخبارات في ثياب مدنية وسيارة اسعاف تابعة للصليب الاحمر.

وأسرع موسوليني الى ردهة القصر وهو يقول: "لا بد من أن تكون سمعت، يا صاحب الجلالة، بالمزحة الصبيانية التي جرت ليلة أمس".

لكن الملك قاطعه قائلا: "انها ليست مزحة صبيانية على الاطلاق". وأخذ يذرع الردهة باهتياج ويداه خلف ظهره. وكان الملك في الثالثة والسبعين، وقد تجعد وجهه. وأضاف بينما كان موسوليني يعطيه محضر الجلسة: "لا حاجة الى هذا! إني أعرف كل شيء".

وقال الدوتشي: "يا صاحب الجلالة! إن صوت المجلس الأعلى لا قيمة له اطلاقاً".

وقاطعه الملك مرة اخرى وهو يعتذر كثيراً لعدم مشاركته في الرأي: "لا تظنن أن قرار المجلس لا يعبر عن شعور البلاد حيالك. انك اليوم مكروه أكثر من أي انسان آخر في ايطاليا. ولا يمكنك الاعتماد على صديق سواي".

وحاول موسوليني أن يفهم مغزى هذا الكلام، ثم قال بجهد: "اذا كنت على حق يا صاحب الجلالة، فهذا يعني أن علي تقديم استقالتي".

- دعني اخبرك أني أقبلها من غير شرط.

وفجأة ترنح موسوليني، كما تذكر الملك لاحقاً، "كرجل أصابته قذيفة مدفع". وغرق في أحد المقاعد وهو يتمتم: "إذاً، إنها النهاية".

وفي الخارج ركب النقيب فينيييري سيارة الاسعاف. وراح يهبط التلة بهدوء الى أن توقف عند مدخل القصر.

وكان الملك استنكر بشدة أي اعتقال داخل حرم قصره: "لن يحصل هذا طالما بقي نفس في جسدي". ولكن قيل له ان اعتقال الدوتشي خارج القصر، على مرأى من حرسه، من شأنه احداث معركة دموية أو انقلاب فاشي مضاد، وربما أحدث حرباً أهلية. عندئذ لم يجب الملك بنعم أو لا، بل بسط يديه في حركة يائسة.

وتم الامر بسرعة. فبينما كان موسوليني وسكرتيره الخاص ينزلان السلم، اعترض النقيب فينيييري طريقهما على نحو متعمد وخاطب موسوليني: "سعادة الدوتشي! لقد أمرني صاحب الجلالة بحماية شخصك". ونظر اليه موسوليني وهو لا

يصدق ما يرى، وأجاب: "لا حاجة الى هذا". وتابع نظره نحو سيارته. لكن فينييري أصر على موقفه، ثم صد طريق موسوليني وقاده برفق، ولكن بصلابة، نحو سيارة الاسعاف.

وما هي إلا دقائق حتى دخلت السيارة ثكنة بودغورا للشرطة. واقتيد موسوليني الى قاعة صغيرة. وبدا أنه قبل بما كتب له من غير انفعال، الا ان سكرتيره سأل وهو يرغي ويزبد غضباً: "ماذا يحصل اذا شاء الدوتشي أن يغادر هذا المكان؟"

فأجاب فينييري: "لا يمكنه الخروج من هنا".

وتابع السكرتير: "واذا أراد استعمال الهاتف؟"

فهز فينييري رأسه. وبعد دقائق دخل ضابط يحمل مدية يدوية أمرّها ثلاثاً على شريط الهاتف فقطعه وهو على طاولة جانبية.

خطط هتلر السوداء

في العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين قبل الظهر، انطلق عبر الراديو صوت مذيع الاخبار معلناً بنبرات مثيرة: "أيها الايطاليون! ان صاحب الجلالة، الملك - الامبراطور، قبل استقالة بنيتو موسوليني، وعين على رأس الحكومة الماريشال بيترو بادوغليو" (بطل حرب اثيوبيا).

وانتشر النبأ كعاصفة من نار على تلال روما السبع. وأسرع الناس يخابرون أقرباءهم والاصدقاء أو يصيحون فرحاً من نوافذ منازلهم. وخرجوا الى الارصفة، وبعضهم ما زال في ثياب النوم، يعانق أحدهم الآخر وسط الضحك والبكاء.

وقال حارس في سجن "ريجينا كويلي" لمعتقل سياسي: "أسمعت؟ لقد ولى موسوليني وجاء بادوغليو". وأضاف بسرعة: "الحق أني لم أكن فاشياً قط".

وفجأة بدا أنه لم يبقَ من فاشي في أي مكان. وغدت طريق "فيا نومنتانا" الشمالية حصيرة من الشارات الفاشية التي رماها أصحابها. أما مياه نهر التيبر الصفراء فعلتها مئات القمصان السود - وهي سترة الفاشيين - التي جرت نحو البحر.

ان المواطنين فعلوا في تلك الليلة ما لم يجرؤوا عليه طوال عشرين سنة. وأسرع بعضهم باهتياج الى مكاتب الحزب الفرعية، وهناك وضعوا الطاولات والكراسي ورسوم موسوليني بعضها فوق بعض وأضرموا فيها النار. ورفعت السلالم الطويلة على البنايات لازالة الشعارات الفاشية المقيتة. وصاح أحدهم عن قمة سلمه: "انظروا! ان الدوتشي قادم". وللحال تفرّق الجمع مذعوراً. إلا أن ذلك المواطن الظريف سرعان ما رمى تمثالا نصفياً لموسوليني عن شرفة منزله.

وفي الصباح التالي وصل النبأ الى الجنرال دوايت ديفيد آيزنهاور، قائد القوات الحليفة الذي كان في شمال افريقيا. وهو كان، ساعة بلوغ الخبر، يتناول الفطور مع رجلين مدنيين هما روبرت مورفي، مستشار الرئيس الامريكي فرانكلين روزفلت، وهارولد ماكميلان، الناطق باسم رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل. وتوقع آيزنهاور أن ينسحب

الايطاليون من الحرب سريعاً محافظين على كرامتهم.

وأجمل ماكميلان الأمر بالآتي: "ربما كان صحيحاً أن الايطاليين ينشدون السلام. ولكن كيف لهم أن يحصلوا عليه؟"

وخاطبهما آيزنهاور كمن يقدم نصحاً: "بوب، هارولد! صدقا أن ما جرى يعني انهيار البنية كلها".

ولكن في مكان أبعد الى الشمال ذلك اليوم نفسه، كان يجري وضع خطط سوداء. ذلك أن هتلر، خشية أن تنسحب ايطاليا من المحور، راح يخطط لانقلاب مضاد. وكانت هناك ثماني فرق قتال المانية على اهبة الاستعداد فوق التراب الايطالي يوم سقوط موسوليني. ومع فجر اليوم التالي كانت ثلاث فرق اخرى تعبر جبال الالب جنوباً وقد اعتمر افرادها خوذاً فولاذية كتب عليها: "يحيا موسوليني". وقرر ارسال قوات اضافية من أجل انقاذ الدوتشي.

في تلك الليلة استدعي النقيب اوتو سكورزني الى مقر الفوهور (هتلر). وكانت مواصفاته مثالية لتنفيذ الخطة. وهو رجل يبلغ طوله ١٩٣ سنتيمتراً ووزنه ٩١ كيلوغراماً، وفي خده أثر جرح خلفه عراك منذ أيام الطفولة. وكان سكورزني مدير مدرسة سرية غايتها تدريب عملاء للنازية على مهارات شتى تراوح بين الدفاع عن الذات وشن الهجمات التخريبية.

وقال هتلر بانفعال: "ان موسوليني، رفيقي الحميم في السلاح، خانه مليكه يوم أمس واعتقله مواطنون له. وسأكون أميناً للعهد الذي قطعته معه، فأعمل سريعاً على انقاذه".

وللحال انطلق سكورزني يملأ برلين بالرسائل البرقية والمخابرات الهاتفية، سعياً الى استدعاء خمسين عميلا من مدرسته يجيدون اللغة الايطالية. وأوصى بتأمين سترات عسكرية خاصة وبذلات مدنية وأسلحة وغازات مثيرة للضحك والبكاء و٣٠ كيلوغراماً من المتفجرات اللدنة، اضافة الى أوراق نقدية بريطانية مزورة وجبتين من تلك التي يرتديها الكهنة اليسوعيون.

ولدى دخولهم ايطاليا، واجه سكورزني وأعوانه بعض المصاعب. فقد وردت أنباء على مكتب الملحق الشرطي الالماني في روما، يقول بعضها ان موسوليني أقدم على الانتحار، وبعضها انه يستشفي من ازمة قلبية في أحد المستوصفات، بينما تقول أنباء اخرى انه على الجبهة الصقلية متنكر في ثياب مستعارة.

ولمناسبة عيد ميلاد موسوليني الستين، في ٢٩ يوليو (تموز)، أرسل اليه هتلر المجموعة الكاملة للفيلسوف والشاعر الالماني نيتشه مجلدة على نحو فاخر. وشاء قائد القطاع الالماني الجنوبي أن يسلمه الهدية باليد، فاتصل بالملك ورئيس الوزراء الجديد لتلك الغاية. لكن طلبه رُفض بعدما أكد له أن موسوليني في حال جيدة وانه يتمتع بحماية الملك الخاصة. ووعد رئيس الوزراء بادوغليو بأنه سيسلم موسوليني هدية الفوهور في الوقت المناسب.

وانقضى شهر على تلك المسألة،

الى أن أصابت الملحق الشرطي الالماني ضربة حظ. فهو كان من هواة التصوير الفوتوغرافي، وقد اعتاد أن يخرج بسيارته في الصباح الباكر لالتقاط الصور ومقابلة مخبر من وزارة الداخلية الايطالية. وفي نحو الأول من سبتمبر (أيلول) أعطاه المخبر رسالة مرمزة وجهها الى الوزارة أحد مفتشي الشرطة، وفيها الآتي: "لقد نفذت الاحتياطات الامنية حول غران ساسو ايطاليا".

مخبأ في الاعالي

غران ساسو هذا جبل تنتأ منه انوف، أحدها مونتي كورنو الذي يرتفع ٢٧٤٣ متراً فوق سطح البحر مما يجعله أعلى قمة في جبال الابنين الايطالية. وهو متوج بالثلوج ومليء بالمسالك الوعرة. ويتوسطه سهل على ارتفاع (١٩٨١ متراً)، يقوم عليه فندق واحد يمكن بلوغه من الوادي تحته عبر سكة حديد. وقد أفادت المعلومات التي تلقاها سكورزني أن موسوليني يحتل الآن غرفة في ذلك الفندق المهجور وسط حراسة مشددة.

ووزع الخبير الالماني العمل على أعوانه الذين عرفوا ان العديد من افراد الشرطة الايطالية احتل بيوتاً ريفية حول قرية اسيرجي، في الوادي حيث ينطلق القطار، وأنهم أقاموا نقاط مراقبة على طول الطرق المؤدية الى فوق. وقد سُرّح موظفو الفندق من دون انذار، فيما مُنع طبيب الماني عسكري من ركوب القطار، تحت طائلة الاعتقال، ليرى ما اذا كان الفندق يصلح مركزاً للنقاهة يقصده مرضى الملاريا.

اذاً، موسوليني يجب أن يكون هناك. ولكن كيف الوصول اليه قبل نقله خلسة الى معتقل جديد.

واستبعدت فكرة شن هجوم أرضي على محطة القطار في الوادي لركوبه، اذ في امكان الشرطة تعطيل السكة بسهولة. كما استبعد الانزال المظلي لأن التيارات الهوائية العنيفة من شأنها طرح معظم المظليين في صدوع الجبل تحت القمة. ولم تبقَ سوى فكرة استخدام الطائرات الشراعية.

وصدر امر باعداد ١٢ طائرة شراعية مع ١٢ مركبة سحب، على أن تحمل كل طائرة عشرة رجال مسلحين من مظليين وأعوان للنقيب سكورزني. كما أوصي بتأمين طائرة استكشاف صغيرة من نوع "فيزلر - ستورتش"، وهي الطائرة الوحيدة، بعد الهليكوبتر، التي يمكن انزالها في مكان محصور. واذا تم كل شيء كما يرام، ففي استطاعة الطيار حمل "راكب مهم" معه في طريق العودة.

وفي ١٢ سبتمبر (أيلول) اقلعت الطائرات من مطار في احدى ضواحي روما، وبلغت حدود مونتي كورنو في الثانية عصراً. وكان سكورزني على متن الطائرة الامامية.

وأخذ الطيار يهبط وهو يتفحص الارض تحته بعصبية، وليست لديه معلومات سابقة عن المكان سوى رسوم فوتوغرافية تبلغ مساحة الواحدة منها ٣٩ سنتيمتراً مربعاً. وبدا الفندق الى يساره أشبه بضبابة قاتمة تنتأ منها، الى الجنوب، شرفة تشبه قشرة بيضاء. وبدت الاجزاء الاخرى من المكان جرداء كسطح القمر. ولكن ظهرت الى الغرب بقعة

كالمرج قرر الطيار أنها المكان الوحيد الصالح للهبوط.

وما هو الا قليل حتى بدأت تلك الضبابة السوداء تكتسي شكلا واضحاً. وظهر المبنى على هيئة حدوة حصان. وحلقت الطائرة فوقه على خط مائل وارتفاع ١٤٢ متراً، فيما كان الرجال كالنمال يدخلون ويخرجون من ابوابه الرئيسية. وفي تلك اللحظة أمكن جميع الطيارين أن يبصروا المرج المثلث بوضوح، وهو كان عبارة عن منحدر للتزلج.

"لا تطلقوا النار"

في تلك اللحظة أيضاً، في الغرفة ٢٠١ من الفندق، كان الدوتشي يتكىء على طاولة خضراء قبالة راعي غنم محلي اسمه الفونسو نيسي. وكان المسؤولون عن الامن، قبل أربعة أيام، طلبوا الى نيسي البقاء في رفقة الدوتشي. ووافق صاحب القطيع على الامر، متغافلا عن الانفعال والغم اللذين كان الدوتشي يعانيهما.

والحق أن الرجل الذي رآه نيسي قبالته، ببذلته الزرقاء البراقة وحذائه العالي، لم يكن أكثر من فلاح مهزوم يلعن الأقدار. وفي الليلة الفائتة، بعد سماعه خبراً على الراديو يقول ان بادوغليو يريد تسليمه للحلفاء، حاول أن يشق معصمه الايسر بشفرة حلاقة. لكنه ما لبث أن استدعى حارساً عالج جرحه بصبغة اليود.

وادعى نيسي أنه يتمتع بموهبة لقراءة الحظ. ومن أجل الترفيه عن موسوليني، وضع على الطاولة مجموعة من ورق اللعب (الشدّة) وأخذ يدرس معالمها. ومع اقتراب الطائرات تفوه بالآتي: "سيتم انقاذك في ظروف مثيرة".

وانفجر الدوتشي بنوبة غضب صبيانية، وصفع الاوراق بيده فرماها عن الطاولة. وراح يصرخ مغتاظاً وقد تغضن وجهه ونفرت عيناه السوداوان الكبيرتان من وجهه الشاحب غير الحليق: "اذهب عني أنت ونبوتك الكاذبة! أتظن أني ساذج؟".

أما في الخارج، فما أن دنا الطيار الذي كان يحمل سكورزني من الارض حتى ارتفعت طائرته فجأة وكاد ركابها ان يسقطوا من مقاعدهم. ثم ما لبثت أن هبطت بعنف على بعد ١٨ مترا عن شرفة الفندق.

وفي داخل المبنى توصل حراس موسوليني الى قرار. وكانت الاوامر التي وجهتها اليهم القيادة تقضي باطلاق النار على موسوليني عند أول محاولة لانقاذه. لكن الحكومة الايطالية وقعت، في الثالث من سبتمبر (أيلول)، قراراً بالاستسلام للحلفاء. وفي ضوء هذا الوضع السياسي المضطرب وردود الفعل الالمانية، أوصت قيادة الشرطة في روما بالتزام "الحكمة القصوى".

وكان المفتش العام جوسيبي غويلي يستسلم لقيلولة. لكنه قفز من سريره فور دخول الملازم البرتو فيولا عليه. وسأله هذا: "ماذا نفعل؟" فأجاب غويلي: "ألقوا سلاحكم من غير مقاومة". ووقف الاثنان على النافذة يصرخان بأعلى صوتهما: "لا تطلقوا النار! لا تطلقوا النار".

وكان موسوليني واقفاً على نافذة غرفته ورأسه الاصلع ظاهر للعيان. ورأى ضابطاً ايطالياً استقدمه

سكورزني كي يخدع الحرس، فصاح به: "لا تسفك دم أحد"،

وأخذت الطائرات تهبط واحدة بعد اخرى وأحذية الجند تقرقع على سلم الفندق الفولاذية، فيما كلاب الحراسة تنبح بجنون في مرابطها تحت المبنى، وما أن خرج الضابط من طائرته وشاهد موسوليني حتى بادر الى تحيته قائلا: "هايل دوتشي"، ثم زلت قدمه في حفرة وكسر رسغه،

وبلغ سكورزني المبنى الرئيسي، يتبعه ضابط صف قوي اسمه اوتو شفيرت، وأبصرا، عبر باب مفتوح، جندياً مكباً على جهاز ارسال، وللحال رفس شفيرت الجهاز بحذائه،وأتبع سكورزني تلك الرفسة باطلاق النار على الجهاز، فعزل الفندق عن العالم الخارجي،

وراح سكورزني يركض على الشرفة حتى وجد المدخل الرئيسي، وصدته مجموعة من رجال الشرطة الايطالية الذين كانوا يحاولون الهرب، وأطلق النار مرة اخرى ليشق طريقه وسطهم، وتبعه شفيرت وهو يصيح: "ارفعوا أيديكم"،

وصعد سكورزني الى الغرفة ٢٠١ واقتحم بابها، وألقى نظرة واحدة سريعة شاهد فيها غرفة صغيرة تحوي علاقة للقبعات وخزانة ثياب وحماماً ذا بلاط أصفر وسريراً مزدوجاً ومقعداً جلدياً ورسماً لابن موسوليني، برونو، الذي قتل في حادث طائرة عام ١٩٤١،ووسط الغرفة وقف ثلاثة رجال يحدقون اليه من غير أن يقووا على الكلام، وهم الضابطان الايطاليان غويلي وفيولا وموسوليني نفسه،

وقال سكورزني: "سعادة الدوتشي! لقد أرسلني الفوهرر لانقاذك! أنت الآن حر"، وطوقه موسوليني بذراعيه وقبله قائلا: "كنت أدري أن صديقي أدولف هتلر لن يخذلني"،

دافع التسلط

في الوقت الذي أغير على الفندق، نزل المظليون في اسيرجي واحتلوا محطة القطار، وهذا مكن الالمان من ركوب القطار برفقة أسراهم الايطاليين، لكنهم أحجموا عن أخذ موسوليني بتلك الطريقة عبر ١٦٠ كيلومتراً من أرض لا يعرفون عنها شيئاً، وكانت الطريقة الوحيدة لاخراجه من ذلك المكان حمله بطائرة الاستكشاف الصغيرة،

وكانت طائرة استكشاف اخرى حطت عند نهاية السكة الحديد لحمل سكورزني الى روما، على أن يذهب من هناك، ومعه الدوتشي، في راجمة قنابل من نوع "هنكل" تحملهما الى فيينا، الا ان الطيار خاطبه عبر الراديو قائلا ان عطلا طرأ على احدى عجلات طائرته،

واتخذ سكورزني قراراً سريعاً يقضي بأن يغادر المكان هو والدوتشي معاً، لكن الطيار، هنريخ غيرلاخ، رفض الاذعان لذلك الامر، فالطائرة تكاد تعجز عن حمل راكب واحد، فكيف بثلاثة بينهم سكورزني نفسه الذي يزن ٩١ كيلوغراماً؟ غير أن سكورزني أصر على موقفه،

وراح غيرلاخ، وقد ركبه الهم، يذرع المنحدر الضيق الذي أزال الجنود حجاره الضخمة، ونظر فوقه، فرأى قمة مونتي كورنو وقد اشرأبّت

في وجه السماء الخريفية. واذا شاء الاقلاع، فلا بد من أن يدرج بطائرته فوق سطح الارض مخلفاً وراءه ريح الشمال الغادرة، ويتجه مباشرة نحو ثغر الوادي الشديد الانحدار. واذا أسعفه الحظ، فان الطائرة ستكون ارتفعت لدى بلوغ الوادي. لكن هذا مستحيل اذا كان سكورزني على متنها. وعاد الى سكورزني غاضباً وشرح له المسألة. الا أن هذا لم يتراجع قيد شعرة عن موقفه. فمهما حل بالدوتشي يجب أن يحل به أيضاً. وان هتلر لن يرضى بغير هذا. وأخيراً صاح غيرلاخ قائلا: "بحق السماء، تقدما! لكنني لست مسؤولا عما يحدث".

وتسلق سكورزني الطائرة بمعطفه البالي وقلنسوته القاتمة، وجلس وراء مقعد القيادة. وتبعه موسوليني. وما أن تحركت الطائرة حتى أطلق المظليون تحية "يحيا الدوتشي" التي تلاشت وسط هدير المحرك. وانحدرت الطائرة بقوة نحو الوادي.

وعلى بعد خمسة أمتار من ثغر الوادي، حاول غيرلاخ رفع الطائرة، لكنه لم يستطع. واصطدمت العجلة اليمنى بصخرة محدثة دوياً هائلا، فيما انحدر الجناح الايسر على نحو مفاجيء. وبعد ذلك هبطت الطائرة نحو الوادي كمصعد تعسرت السيطرة عليه.

وصاح سكورزني بأعلى صوته. أما موسوليني فبقي صامتاً. وظل غيرلاخ يهبط بالطائرة حتى وصلت الى علو ٣٠ متراً عن الارض، وهي تسرع على غير هدى منقضة على المزارع والكروم.

وبدا أن موسوليني لم يضطرب البتة. ودهش سكورزني حين سمعه يتكلم دونما انقطاع، كدليل سياحي، وهو يشير الى الامكنة التي تعبرها الطائرة: "هذه اكيلا. هنا خاطبت حشداً كبيراً قبل عشرين سنة..."

وفي نحو الخامسة والنصف عصراً هبطت الطائرة في مكان قريب من روما وقد هدتها الرحلة وانهار جانبها الايمن.

ومد موسوليني يده الى غيرلاخ وصافحه بقوة، قائلا بالالمانية، وهي لغة سيحتاج الى اجادتها الآن: "أشكرك على حياتي".

"إنك طيب القلب"

وصل موسوليني الى راستنبورغ (المانيا) في ١٥ سبتمبر (أيلول)، وكان هتلر في لقائه. وكان اجتماع شمل الزعيمين الديكتاتورين حميماً. وسحت الدموع من عيني موسوليني وهو يهبط سلم الطائرة، وقال: "أخي الفوهرر! كيف لي أن أشكرك على كل ما فعلته من أجلي؟" وتأثر هتلر هو الآخر، وتقدم من موسوليني يصافحه بحرارة.

لكن الجو تبدل في غرفة هتلر الخاصة. فقد بادر موسوليني بالسؤال الآتي: "قل لي ما هي هذه الفاشية التي تذوب كما الجليد تحت الشمس؟" وراح موسوليني يصغي بصمت وقد هده الضنى. ولم تسمح له حاله السيئة بالبحث في المسألة الايطالية.

الا ان هتلر كان قد رسم خططه. وهي كانت تقضي بأن يعلن

موسوليني الغاء الملكية واحلال دولة فاشية ايطالية محلها تكون فيها جميع السلطات في يدي الدوتشي. وأضاف هتلر: "بهذا تكون أنجزت هدف التحالف الالماني - الايطالي".

وهز موسوليني رأسه بوهن. فهو كان يحتاج الى وقت للتأمل. لكن ذلك لم يكن يجدي، لأن هتلر حزم أمره.

وقدم الفوهرر شروطاً اخرى. فقد كان من أعضاء المجلس الايطالي الاعلى الكونت غيلياتسو شيانو، زوج ايدا ابنة موسوليني. وهو سياسي ماكر وصل سريعاً الى منصب وزير الخارجية وبذل الكثير من أجل رمي موسوليني في أحضان الالمان. الا أنه، في اجتماع المجلس الاعلى الحاسم، تنكر لهتلر ومخاتلته التي أوقعت ايطاليا في حرب شعواء.

وأصر هتلر على معاقبة أعضاء المجلس الاعلى الذين ما برحوا داخل البلاد، ولاسيما شيانو "الذي يفوقهم أربعة أضعاف من حيث الخيانة". وكان الالمان اعتقلوه ووضعوه في فيلا بالقرب من مدينة ميونيخ.

واعترض موسوليني بشدة: "هذا زوج ابنتي التي أعبدها. انه والد أحفادي".

وأجابه هتلر بنبرة حاقدة لا تعرف الصفح: "دوتشي! أنت طيب القلب كثيراً ولا يمكنك أن تكون ديكتاتوراً قط".



عند هذا الحد قطع هتلر الاجتماع. لكنه في اليوم التالي تكلم بحزم، ذاكراً البديل الذي سيلجأ اليه في حال عدم تحقيق شروطه. تكلم عن أسلحة جديدة "جهنمية" صُنعت لتدمير لندن، وأضاف وقد بلغ به الغضب: "أنت تقرر ما إذا كان استعمال هذه الاسلحة سيتم في لندن، أو في ميلانو وجنوا وتورينو. واذ ذاك ستحسد ايطاليا الشمالية مصير بولونيا. أما شيانو فلن نعطيك اياه، بل سيعلق هنا في المانيا".

وفي الثامن عشر من سبتمبر (ايلول) خاطب موسوليني الشعب الايطالي عبر الاذاعة داعياً اياه الى توحيد الصفوف تحت لوائه. وهكذا ظهرت الى الوجود "جمهورية سالو"، نسبة الى بلدة على بحيرة غاردا التي تبعد ٤٨٠ كيلومتراً عن روما، وهي البلدة التي جعل فيها موسوليني مقره الجديد. لكن تلك "الجمهورية" بدت مسخاً حتى في عيني هتلر الذي تكهن، بجملة واحدة، بالايام الـ٥٩٤ التي كان مقيضاً لموسوليني أن يقضيها في ولايته الجديدة، اذ قال لأحد معاونيه: "ان الدوتشي ليس له مستقبل سياسي عظيم".

نهاية دموية رهيبة

أعيد شيانو الى ايطاليا في ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) واحتجز في سجن فيرونا الذي يعود الى القرن السادس عشر. وسجن خمسة أعضاء آخرون من المجلس الاعلى في مراكز قريبة. وفي ١٤ نوفمبر (تشرين الثاني) اتخذ مؤتمر الحزب الفاشي قرارا اجماعيا باعدامهم.

واستغاثت ايدا شيانو بأبيها كي يطلق زوجها. لكن موسوليني أجابها ـ وهو يتكلم من موقف ضعف ـ أنه لا يمكنه التدخل من أجل مسألة عائلية. فالقانون فوق الجميع. وأضاف أنه صفح لصهره، أما الآخرون فلم يصفحوا. وكان هتلر على أحر من الجمر ليرى انكان حليفه سيستطيع المضي في هذا الامر. أما موسوليني فكان من الركاكة بحيث لم يتجاسر على اظهار العطف والرحمة.

وكانت راشيل، زوجة موسوليني، تعارض العفو هي أيضاً. وقد صرخت في وجه صهرها قبل اعتقاله: "أتظن أن الدوتشي قطعة أثاث تحيلها على القبو عندما تملها؟" ومنذ ما لحقت بزوجها على بحيرة غاردا، لم تنفك عن الاصرار على أن شيانو يجب أن يمثل أمام المحكمة.

وبدأت محاكمة أعضاء المجلس الاعلى الستة الحاضرين في ٨ يناير (كانون الثاني). وفي اليوم الثاني للمشاورات، مُلئت المقاعد الخلفية في المحكمة بذوي السترات السود الذين شهروا أسلحتهم ليسدوا مداخل القاعة. وقال أحدهم لمحام هناك: "اعذرونا على هذا الامر، وتأكدوا أنه لا شيء لدينا ضدكم. ولكن اذا برىء هؤلاء السادةمن الجرم، فان وظيفتنا انهاء المسألة بأنفسنا. وتذكر أنت وزملاؤك أن تخفضوا رؤوسكم وتتواروا في الوقت المناسب".

وجاءت النتيجة كما هو متوقع، إذ دين الرجال الستة وحكموا

بالاعدام.وأبدل حكم واحد بعدما استأنف صاحبه الدعوى، فأصبح ثلاثين سنة سجناً. أما الخمسة الآخرون، وبينهم شيانو، فأعدموا رمياً بالرصاص في ١١ يناير (كانون الثاني). وقد أطلقت النار عليهم فرقة مؤلفةمن ثلاثين رجلا وقفوا على بعد ١١ متراً وصوبوا بنادقهم على الرجال الموثقين... كانت نهاية دموية ومروعة حقاً.

وبعد أيام من الحادث، قام الاب جوسيبي شيوت، كاهن سجن فيرونا الذي أمضى مع المتهمين ليلتهم الاخيرة على الارض، بزيارة موسوليني.

وبادره موسوليني: "كيف مرت تلك المأساة؟"

فأجاب الكاهن: "كما أردتها". وقبل أن يترك للدوتشي مجالا للتنصل قال له انه خلط بين خيانة الفاشية وخيانة ايطاليا. وأضاف: "ان الشعب الايطالي، منذ زمن طويل، يميز بين الاثنتين".

ووضع موسوليني رأسه بين يديه وهو لا يحس أنه الدوتشي الآن. وتوسل الى الكاهن وهو يلعق شفتيه: "كيف أمضوا الليلة الاخيرة؟"

وأخبره الكاهن أنهم كانوا جميعاً قريبين الى الله. وقد اجتمعوا في زنزانة واحدة يتذاكرون حوار أفلاطون الشهير حول خلود الروح. أما شيانو فبقي حاقداً على عمه لأنه لم يلتفت الى طلب الرحمة. لكن واحداً من الاربعة الآخرين حثه على الغفران وهو يطوقه بذراعه ويذكره بأنهم سيتلاقون كلهم قريباً أمام عرش الله.

وأجابه شيانو: "إنك على حق. أجل، ان ريحاً واحدة تعصف بنا جميعاً". ثم قال للكاهن: "أخبر عائلتي أني اواجه موتي دونما حقد على أحد".

وقاطعه موسوليني وهو يرتجف: "أخبر عائلتي، قال لك؟".

ـ أجل! وهو يعنيك أنت أيضاً.

وحدق موسوليني الى الكاهن، ثم انفجر الحزن داخله كالنزف وانحنى بثقله وهو يشهق ويبكي.

والواقع أن موسوليني لم يرَ قط العريضة التي رفعها اليه السجناء. وكان انتظرها طوال الليل، لكن اولئك الذين استنكروا مبدأ العفو أخفوها عنه.

وقبض الدوتشي على يدي الكاهن وعيناه مبللتان بالدمع، وحاول أن يبتسم. وسأله متضرعاً: "لقد غفروا لي، أليس كذلك؟" وبعد هنيهة أضاف: "لا تخبر أحداً عما حصل هنا".

ونظر الاب شيوت الى موسوليني وهو يقول لنفسه: "انه يبتسم كطفل، تماماً كما فعل سجناء فيرونا في ساعاتهم الاخيرة".

الزوجة والعشيقة

ان موسوليني، الذي كان معجباً بالقوة النازية يوماً ما، رزح تحت عبئها الآن. فالالمان لم يكتفوا باختيار مكان اقامته على بحيرة غاردا، بل وضعوا ثلاثين رجلا لحراسته نهاراً وليلا. وأقيمت نقاط مراقبة عزلته عن العالم الخارجي الذي كان السبيل الوحيد لبلوغه خط الهاتف العسكري الالماني المراقب باستمرار.

وبات جيش موسوليني في وضع مشوش. وقد عادت ثلاثة ألوية جديدة من المانيا، ولكن من غير عتاد. وقال موسوليني متذمراً: "انهم يرفضون أن يكون لجمهوريتي جيشها الخاص". وفي سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣، قام سكان نابولي بانتفاضة علنية ضد سيطرة النازيين. واعتصم الالوف منهم بالجبال، وبينهم العديد من الشيوعيين والاشتراكيين، مكونين أول قوة غير نظامية من ٢٠٠ ألف رجل.

وكان منزل موسوليني في الماضي يمنحه السلام وسط بحر من الفوضى. وكانت زوجته راشيل تعنى بشؤون المنزل، حتى انها كانت ترتدي المئزر وتنجز أعمال المطبخ وتعتني بالدجاج في الحديقة الخلفية. لكن السكينة فارقت ربة المنزل لدى اكتشافها أن عشيقة زوجها، كلارا بيتاتشي، تقيم على بحيرة غاردا هي الاخرى.

وكانت كلارا هذه ابنة طبيب مرموق في حاضرة الفاتيكان، وهي أحبت الدوتشي طوال حياتها حتى العبادة. وطالما خلدت الى النوم في طفولتها وهي تضع صورته تحت وسادتها، وحفظت خطاباته عن ظهر قلب وأرسلت اليه القصائد ودعته الى عيد ميلادها الرابع عشر.

لكن لقاءهما الاول تم في العام ١٩٣٣، وهي في الحادية والعشرين. وفي الاشهر القليلة اللاحقة دعاها موسوليني الى القصر أكثر من عشر مرات. وتزوجت كلاريتا عام ١٩٣٤ ملازماً شاباً، لكنها ما لبثت أن انفصلت عنه بعد سنتين. وغدت زياراتها اليومية الى قصر فينيزيا حديث الألسن. الا أن راشيل لم تعرف حقيقة الأمر إلا بعد اعتقال موسوليني. وكانت على علم بوجود نساء عابرات في حياة الدوتشي. أما أن تكون هناك علاقة استمرت سبع سنوات فهي كانت تجهل ذلك تماماً.

واغتاظت راشيل لدى معرفتها بالأمر وأزمعت على المكاشفة. وارتدت لباساً أنيقاً وقصدت فيلا كلاريتا يرافقها وزير الداخلية وسيارة عسكرية تحمل خمسين شرطياً. وللحال اتصل فرانز شبوغلر، حارس كلاريتا الخاص، بموسوليني، وشرح له الموقف وهو يسمع لهاثه على الخط الآخر. لكن الدوتشي قال أخيراً بلهجة بطولية: "لا مانع لدي من أن تجتمع الاثنتان. ولكن اذا رفعت احداهن صوتها، فعليك أن تضع حداً لذلك".

ونظر شبوغلر خارجاً، فرأى راشيل تحاول تسلق البوابة الحديد التي ترتفع مترين وثلاثة أرباع المتر، في حين كان وزير الداخلية يصدها متوسلا: "انزلي يا صاحبة السعادة". وما لبث شبوغلر أن فتح لها الباب وأدخلها. وفي تلك الاثناء كان موسوليني قد خابر كلاريتا التي ارتدت أفضل ملابسها، مع معطف من الفرو وجواهر، لتثير الغيرة في نفس غريمتها. وقال شبوغلر لنفسه: "هذا من شأنه أن يقتل".

وهو لم يخطىء في ظنه. ذلك أن راشيل بادرته: "هكذا ترتدي الغانية التي يحتفظ بها سيد البلاط".

وما أن سمعت كلاريتا عبارة "غانية" حتى ثارت ثائرتها وصاحت: "انها مجنونة خطيرة. اطردها من

هنا". وللحال تلاشت وسقطت أرضاً.
ولم تأبه راشيل لما حصل. لكنها انتظرت ابلال كلاريتا قبل أن تستأنف هجومها، وطلبت اليها، من أجلها شخصيا ومن أجل ايطاليا، انهاء تلك العلاقة.

ودافعت المرأة الشابة عن موقفها، فالدوتشي يحتاج اليها ويستمد منها عوناً روحياً. وخابرت موسوليني وسألته أن يسمح لها بقراءة مقاطع من رسائله على راشيل. لكنه سألها وهو يتلعثم: "أهذا ضروري؟" فأجابت انه ضروري ولا غنى عنه.

وجلست راشيل تنتظر في "الغرفة الحمراء" في الفيلا والهم ينهشها، وهي كانت تشعر بوشوك الكارثة. فمنذ شهر اغسطس (آب)، عندما نفذ الالمان حكم الاعدام بخمسة عشر عضواً من القوات غير النظامية في سجن لوريتو في ميلانو، غدت الساحة الضيقة خارج السجن رمزاً قومياً وانهالت على أهل الحكم رسائل تهديد خالية من التوقيع. وكانت راشيل، صباح ذلك اليوم نفسه، تسلمت رسالة أثارت فيها غماً عميقاً. وقد جاء فيها: "سنأخذك الى سجن لوريتو".

وعندما دخلت كلاريتا الغرفة حاملة رسائل الدوتشي التي عقدتها بشريط قرنفلي، كان ذلك بمثابة رصاصة الرحمة في جسد راشيل. وراحت تقرأ عليها مقاطع مثل: "اني احتاج الى كلماتك"... "اليوم شعرت بغيابك كثيراً."... فسقطت عليها تلك الكلمات كالصاعقة. واقتربت راشيل من كلاريتا وانتشلت الرسائل من قبضتها. وللحال دخل شبوغلر الغرفة.

واستدارت راشيل نحوه بغيظ وأنشبت أظفارها في يده اليمنى، فبقي أثر الجرح فيها منذ ذلك الحين.

لكن راشيل رأت أن ما تفعله لا يجدي. ذلك أن شبوغلر، على رغم جرحه النازف، استعاد الرسائل منها. وبعد ساعتين استسلمت زوجة الدوتشي وأقرت بالهزيمة. وغادرت المنزل باهتياج شديد وهي لا تدري أن الكلام الذي تفوهت به سيكون ضرباً من النبوة. فهي خاطبت كلاريتا قائلة: "ان نهايتك مرة يا سيدة. انهم سيأخذونك أنت الى سجن لوريتو!"

الانفاس الاخيرة

في الرابع من يونيو (حزيران) ١٩٤٤، بدأت سيارات الحلفاء المسلحة زحفها على روما وبات الانتصار وشيكاً. لكن الدوتشي، بعد ستة أشهر، وذلك في ديسمبر (كانون الاول)، ذهب الى ميلانو وألقى خطاباً حماسياً حول أسلحة المانية سريةمن شأنها تحقيق نصر أكيد لقوات المحور. وفي مسرح ليريكو في ميلانو الذي يتسع لألفي مقعد، ألقى خطابه الحماسي الذي بثته مكبرات الصوت في الشوارع. ولدى مغادرته المسرح انطلقت النسوة وسط الحشود ينثرن عليه الزهر ويقبلنه تاركات على يديه آثار احمر الشفاه. وفي اليوم التالي سار أربعون ألف مواطن في الشوارع لتحيته.

أجل، انها الفاشية تلفظ أنفاسها الاخيرة. وكانت الخطط رسمت لمعركة بطولية أخيرة ضد القوات غير النظامية المعتصمة في أعالي الجبال،

وذلك انطلاقا من فالتيلينا التي تبعد نحو ٨٠ كيلومتراً شمال ميلانو. وكانت التحصينات من الحرب العالمية الاولى لا تزال تطوق الوادي الذي يبلغ طوله ٧٠ كيلومتراً. فهناك محطات لتوليد الكهرباء ومستشفيات ومعابر جبلية مباشرة الى المانيا وسويسرا. وكانت الخطة تقضي بشن هجوم ايطالي خالص، لا يد للالمان فيه. وأسر الدوتشي الى معاونيه بالآتي: "اني احب هذه الخطة كثيراً". ذلك أن الانتصار في فالتيلينا من شأنه أن يجعل منه اسطورة باقية.

غير أن كلاريتا بيتاتشي كانت لديها أفكار اخرى. فهي كانت تعرف منطقة تعلو ١٨٣٠ متراً يمكن أن تختبىء فيها هي والدوتشي. وكان شبوغلر أخذها مرتين الى ذلك المكان بمزلجة. وهناك صادفا عجوزاً وامرأته يقطنان كوخاً وسط غابة صنوبر. وعرفا منهما أن المرء يمكن أن يقضي حياته هناك من غير أن يدري به أحد.

وأقنعت سبوغلر بطرق الموضوع مع موسوليني. وحين سمع هذا بالأمر أصغى بانتباه ثم أجاب: "هذا جدير بالاهتمام". ووضعت كلاريتا خطة مفصلة للهرب، بما في ذلك الطرق والمعابر التي يجب طرقها. وجهز شبوغلر تأشيرتي مرور مزورتين لئلا تعوق الحواجز الالمانية طريق موسوليني وكلاريتا.

وكانت الامور تجري حسناً. وكان موسوليني يعول على الالمان لحماية الخط الذي يعبر نهر "بو" على بعد ٨٠ كيلومتراً جنوب شرق ميلانو. إلا أن بعض كبار الضباط الالمان كان قد أجرى محادثات سرية في شأن الاستسلام. وفي ٢١ ابريل (نيسان) استولى الحلفاء على بولونيا وزحفوا نحو الشمال الغربي. وبعد يومين عاد مساعد أرسله موسوليني الى الجبهة خائباً. وأعلن وهو يغص بكلماته: "انها كارثة! لم يبقَ لنا شيء".

وقال موسوليني باصرار: "لكن الالمان يحرسون خط البو".

فأجابه المساعد: "الالمان لا يفعلون شيئاً يا سعادة الدوتشي". ذلك أنه لم يبقَ لديهم سوى طائرة واحدة بعد انهيار مدفعيتهم كلها. وأضاف المساعد: "ينبغي أن تصدر أمراً بالانسحاب الفوري الى فالتيلينا".

وسأله موسوليني: "أصحيح ما يقال عن أن الناس في بولونيا يرمون القوات الحليفة بالزهر؟".

فأجابه بحزم: "للاسف، هذا صحيح! وهم على استعداد لتحية كل من يعيد اليهم السلام والهدوء".

"الفصل الاخير في كتابي"

بقي موسوليني مستلقياً على السياج من غير أن يتوصل الى قرار. ثم نظر الى خريطة فالتيلينا، لكنه تردد. فقد أشار عليه معاونوه بأن المنطقة تعج بالقوات الشيوعية.

وكانت كلاريتا لا تزال متمسكة برأيها وهي تخشى أن يقع الخيار على الانسحاب الى فالتيلينا. لكنها، في أي حال، لن تبارح موسوليني. وسألت صديقاً فاشياً أن يأتيها ببزة عسكرية نسائية تسهل لها مرافقة الدوتشي اذا قرر خوض المعركة. وأصرت على الصديق قائلة: "أرجوك أن تحضر هذه البزة سريعاً، إذ أنني اريد أن أموت معه".

وكان موسوليني على استعداد لمفاوضة القوات غير النظامية اذا اقتضى الامر ذلك. فهذا من شأنه ابعاد معركة عن ميلانو بين الفدائيين والفاشيين، قد تجر الويل على السكان. وشوارع المدينة الآن يخيم عليها جو كئيب، وقد أقفل عدد كبير من المتاجر. وأمام المباني الحكومية خلع معظم رجال الحرس بزاتهم الرسمية وارتدوا بذلات مدنية.

إلا أن القوات غير النظامية فرضت على الفاشيين استسلاماً غير مشروط. وتوقف موسوليني فجأة عند تلك النقطة، وهكذا فض اجتماع ٢٥ ابريل (نيسان) الذي جرى بين الطرفين من غير نتيجة. ورجع الدوتشي الى مقر قيادته، يتبعه معاونوه وقد أخذت منهم الحيرة أيما مأخذ. وارتأى أحد المتحمسين بينهم أنه لم يبقَ من حل سوى أخذ موسوليني عنوة الى فالتيلينا كيما يُتاح للفاشية "أن تموت ميتة جميلة". غير أن الدوتشي أظهر تبدلا مزاجياً مفاجئاً، اذ اقترح أن يتوجهوا كلهم الى بحيرة كومو على بعد ٤٨ كيلومتراً شمالا.

وتحرك الموكب في ثلاثين سيارة وناقلة جند. وما أن بلغوا كومو حتى أظهر الدوتشي تبدلا مزاجياً جديداً، تلاه تبدل آخر. ففي نقطة ما، اقترح الاسراع الى برينر للانضمام الى هتلر. لكنه ما لبث أن غير رأيه مقترحاً اللجوء الى سويسرا.

وأخيراً، وسط أنباء وردت عن سقوط ميلانو وغارات الفدائيين من الجبال المجاورة، كتب موسوليني رسالة وداعية الى راشيل جاء فيها: "لقد بلغت الفصل الاخير من حياتي، الصفحة الاخيرة من سيرتي. واني أسألك أن تغفري لي كل الأذى غير المتعمد الذي اقترفته نحوك. وأنت تعرفين أنك المرأة الوحيدة التي أحببتها حباً حقيقياً".

وبقيت كلاريتا الى جانبه في تلك المرحلة، كذلك كبار اعضاء الحزب الفاشي. الا ان أتباعاً كثيرين تنكروا له في اللحظة الاخيرة خوفاً من الفدائيين المعتصمين في الاعالي. وعمد مئات الشباب الى وضع مناديل المقاومة الحمراء حول اعناقهم. ولما سأل موسوليني عن عدد المرافقين جاءه الجواب: "اثنا عشر". وهكذا تبخر حلم فالتيلينا وبدا على حقيقته، فارغاً مثل العبارات المنمقة الطنانة التي كان الدوتشي يعتمدها في خطاباته.

وأخيراً أصدر القرار الآتي: "سنغادر هذا المكان في الخامسة عصراً، على أمل أن نبلغ السفارة الالمانية في ميرانو قبل حلول الظلام".

الدوتشي متنكراً

انطلق الموكب الايطالي - الالماني في أربعين سيارة، تتقدمها سيارة مصفحة يعلوها مدفع عيار ٢٠ مليمتراً وضع على جانبيه رشاشان صغيران. وكان موسوليني يقود سيارته الخاصة، من نوع "الفا - روميو"، وراء السيارة المصفحة التي ما لبث أن انتقل اليها. وكان مع القافلة مئتا جندي الماني من فرقة السلاح المضاد للطائرات وقد انسحبوا من مواقعهم.

وشقت السيارة المصفحة طريقها على الضفة الغربية المتعرجة لبحيرة

كومو. ولكن على بعد عشرة كيلومترات شمال ميناغيو ثقبت العجلة الخلفية اليمنى للسيارة بمسمار مثلث الرأس غرزه الفدائيون في الطريق. وتوقفت السيارة تحت مطر كان يسقط رذاذاً، وترجل منها ثلاثة جنود ألمان شاهدوا، على بعد ٤٥ متراً أمامهم، حاجزاً من جذوع الاشجار والصخور.

وتحركت من خلف الصخور ثلاثة مناديل بيضاء، ثم تقدم أصحابها، وهم من الفدائيين، نحو الوفد الالماني. وكان قائدهم يدعى بيير لويجي بليني، وهو فلورنسي ناحل ذو لحية سوداء، وضعت في امرته فرقة غاريبالدي الجبلية الثانية والخمسون. وكان عدد الفدائيين قليلا، كذلك عدتهم، ولم يكن لهم سوى الخداع يعتمدونه.

وتكلم الملازم هانز فالميير باسم الالمان قائلا ان الرتل في طريقه الى ميرانو ولا رغبة له في الاشتباك مع الايطاليين. وهز بليني رأسه موضحاً أن الاوامر التي تسلمها تمنعه من فتح الطريق لأي الماني. وتابع: "انكم مسلحون بالرشاشات، وفي امكاني ابادتكم في ربع ساعة".

ثم سأل بليني: "كم من الايطاليين معكم؟" فأجابه فالميير: "هناك مدنيون قلائل لا يهمني أمرهم، ولا يهمني سوى رجالي".

وقال بليني انه يحتاج الى تصريح من فرقته لفتح الطريق للوفد، طالباً من فالميير مرافقته الى مقر القيادة. وبعد أخذ ورد تحت المطر وافق فالميير على الاقتراح.

وأسرع بليني الى أحد رجاله موعزاً اليه في ارسال ساع يأمر الجنود بأخذ احتياطهم على جميع الطرق والتلال: "ولكن ليحرصوا على ارتداء اللون الاحمر والظهور مظهر المسلحين".

وفعلت الحيلة فعلها. وكان فالميير يراقب بمنظاره الطريق التي يبلغ طولها ٣٠ كيلومتراً والتي استغرق قطعها ساعة ونصف ساعة للوصول الى القيادة الفرعية، فلا يرى سوى المناديل الحمراء يحملها الرجال القابعون وراء الصخور. وهذا أقنعه بأنه يواجه قوة تفوق رجاله، فقر رأيه على أن يفرز الايطاليين ويبقي رجاله وحدهم. ولدى وصوله الى جماعته طلب الى الايطاليين ان يقفوا على حدة، على أن يبقى موسوليني مع رجاله متنكراً في زي جندي الماني.

ولدى سماعه هذا الاقتراح قال الدوتشي: "عندما اقابل الفوهرر وأقص عليه ما حصل، فاني سأشعر بالخجل ازاءه". فجاءه الجواب: "هذا هو الأمل الوحيد لعبورك الحاجز". لكنه جمجم قائلا: "سأفكر في هذا". فجاءه الجواب مرة اخرى: "ليس من وقت للتفكير يا سعادة الدوتشي. احزم أمرك الآن لأننا ذاهبون". عندئذ ركب موسوليني السيارة المصفحة وهو يرغي ويزبد وصفع الباب وراءه. لكن جندياً المانياً تبعه وألقى عليه سترة رقيب وخوذة.

وبعد دقائق ظهر موسوليني وقد اعتمر الخوذة خطأ وغطى معطفه الارض. وأصلح حراسه الوضع بتؤدة، وألبسوه نظارتين شمسيتين وأعطوه مسدساً آلياً من فئة "ب ـ ٣٨". لكنه أصر على أن يأتي وزراؤه أيضاً. فقيل له: "هذا مستحيل". وأضاف: "إذاً،

لتأتِ صديقتي على الاقل"• وأشار الى كلاريتا والدمع يسح من عينيها•

ـ هذا مستحيل أيضاً يا سعادة الدوتشي!

وكان الجنود الالمان يحيطونه من كل جانب عندما تسلق موسوليني السيارة الثالثة• وتحرك الوفد•

وفي الثالثة عصراً وصلت طليعة الجيش المتقهقر الى رصيف ميناء دونغو، حيث كانت تنتظرها فرقة من الفدائيين لتفتيشها• وكان قائد المجموعة، بيل لازارو، يدقق في أوراق أفراد السيارة الثانية حين اندفع نحوه زميله جيوسيبي نيغري• وكان نيغري هذا الذي عمل وراء مدفع على ظهر سفينة، قد شاهد موسوليني وجهاً لوجه على السفينة نفسها ولم ينسَ صورته قط منذ ذلك اليوم• وبادر لازارو قائلا: "بيل! لقد حصلنا على الخائن الكبير"•

توسلات كلاريتا

لم يقاوم موسوليني معتقليه• وقال بصوت هادىء وهو يترجل من السيارة: "لن أفعل أي شيء"• واقتيد الى دار بلدية دونغو حيث جلس كمن أصابته صدمة قوية•

ولم تكن لدى بليني، قائد الزمرة الفدائية، أي نية لايذاء موسوليني، الا أنه كان يخشى انقلاباً فاشياً مضاداً، ولم يثق بالقادمين الجدد



الذين كانوا يتدفقون بالمئات على مراكز الفدائيين، تحدوهم الرغبة في السلب والنهب. وفي السابعة مساء تولى بليني شخصياً نقل الدوتشي الى زنزانة داخل ثكنة في جيرماسينو، البلدة الجبلية التي تبعد ستة كيلومترات ونصف كيلومتر.

وما أن وجد موسوليني نفسه هناك حتى توسل الى بليني كي يرسل رجاله في أثر "السيدة المحتجزة في دار البلدية" (مع سائر الايطاليين الذين كانوا يرافقون الوفد الالماني)، قائلا ان اسمها السنيوره بيتاتشي. ولدى عودته الى دونغو، لم يجد بليني صعوبة في التعرف على تلك "الغانية" التي ذاع خبرها والتي جعلته الاخبار المتناقلة عنها يكن لها الكره الشديد.

لكن هم كلاريتا الوحيد كان الدوتشي نفسه. ولم تنفك تطرح على بليني السؤال الآتي: "كم من الوقت سيبقى محتجزاً لديكم؟" لكن بليني لم يعرف الجواب. وكان خبر القبض على موسوليني بلغ ميلانو عن طريق بليني الذي كان ينتظر التعليمات من القيادة الثورية العليا.

وتقدمت كلاريتا نحوه في نوبة مفاجئة من الاسى. وقالت وهي تبكي، وكأنها أدركت ما يجول في ذهن بليني من أنها احدى "محظيات البلاط": "كيف لي أن أقنعك بأني بقيت الى جانبه طوال هذه السنوات لا لشيء سوى أني أحبه؟ يجب أن تصدقني". ودفنت وجهها بيديها.

أما بليني فقد هزه المشهد، ووعدها بأنه سيفعل قصارى جهده كي يبعد عنها العذاب.

فأجابته كلاريتا باكية: "لم أكن أتصور أن اقابل عدواً طيباً مثلك، وهذا يشجعني كي أطلب منك أمراً، وهو أن تضعني معه. دعنا نكون معاً، إذ لا أذى لأحد في هذا الامر".

لكن بليني اعترض برفق، قائلا انه اذا حدث شيء لموسوليني فالخطر سوف يلحقها هي أيضاً اذا كانت معه. وللحال بادرته كلاريتا: "أتعني أنكم ستعدمونه؟"

- كلا! ليس ثمة شيء من هذا القبيل.

ثم رفعت كلاريتا يديها عن وجهها وراحت تمسح عينيها وأضافت: "عدني بأنه، اذا أعدم موسوليني، فاني سأكون معه حتى النهاية وأموت الى جانبه. هذا كل ما أطلبه منك: أن أموت معه".

وشعر الفدائي الشاب بالخجل لانه كان يزدري تلك الفتاة. وأجابها وقد هزته كلماتها: "سوف أبحث طلبك مع زملائي".

علامة الصليب الاسود

كانت هناك فئتان مضادتان تحاولان الوصول الى موسوليني: الشيوعيون، وهم يشكلون عدداً كبيراً من الفدائيين، يريدونه ميتاً، والحلفاء يريدونه حياً. وكان الامر وقفاً على من يصل اليه أولا.

وفي ٢٧ ابريل (نيسان) عبر الحدود السويسرية ضابط امريكي هو النقيب اميليو داداريو مع فرقة مؤلفة من ١٢ عميلا ايطالياً، بقصد العثور على الدوتشي. لكنهم كانوا يواجهون البلبلة أينما اتجهوا. ولدى بلوغه

ميلانو، وهو أول أمريكي يدخل المدينة المحاصرة، وجد داداريو نفسه مضطراً الى التنكر لاتقاء مذبحة، اذ ان الالمان كانوا يحتفظون بعدد من المواقع القوية داخل المدينة وحولها.

أما الفدائيون فكانوا يعرفون مكان وجود موسوليني. وهم عهدوا الى ولتر اوديسيو، وهو شيوعي في السادسة والثلاثين، في تنفيذ حكم الاعدام بالدوتشي. وكان اوديسيو معروفاً بلقب "الكولونيل فاليريو" أحد ضحايا الفاشية.

وحصل اوديسيو بالحيلة على تأشيرة مرور وقعها داداريو نفسه، تسمح له "بالتجول كما يشاء مع مرافقه المسلح" في منطقة كومو وجوارها. وفي ٢٨ ابريل (نيسان) توجه شمالا مع الدو لامبريدي، أحد أقسى عتاة الشيوعيين، وشاحنة محملة رجالا.

ولما وصل اوديسيو الى دونغو استقبله بليني على نحو لا يخلو من الريبة. لكنه لم يستطع أن يرده على أعقابه اذ كان يحمل جميع الاوراق الضرورية التي تخوله فرض ارادته.

وقال اوديسيو بانفعال: "اننا سنعدم كل الرؤوس الكبيرة، هذه هي الاوامر التي أحملها". وطلب لائحة بأسماء السجناء، ثم أخذ يضع خطوطا بالقلم الاسود تحت عدد منها، غير مكترث لاحتجاج بليني. ومن الاسماء التي حكم على أصحابها بالموت بنيتو موسوليني وكلاريتا بيتاتشي.

وكان بليني، الليلة الماضية، نقل موسوليني الى منزل ريفي عند سفح الجبل في قرية صغيرة اسمها غيولينو دي ميتسيغرا، خوفاً من أن يعرف أحد بمكانه. وسمح لكلاريتا بأن تنضم اليه. وكانت غرفتهما صغيرة وباردة، على غرار الغرفة التي ولد فيها موسوليني قبل ٦٢ سنة.

وحاول بليني أن يجد مخرجاً للمأزق الذي خلقه اوديسيو. واقترح أن يتولى بنفسه احضار الوزراء، كذلك موسوليني وكلاريتا، وارسالهم جميعاً الى دونغو حيث ينتظرهم اوديسيو، على أن يعاونه لويجي كانالي وميشال موريتي.

ولكن فات بليني ان رفيقه في السلاح موريتي هو شيوعي عنيد أيضاً، نظير اوديسيو. وأبى اوديسيو الا أن يذهب في سيارة موريتي لاحضار موسوليني.

وفي نحو الرابعة عصراً وصل الرجال في سيارة الى المزرعة التي أمضى فيها موسوليني وكلاريتا ليلتهما. والقى اوديسيو التحية على موسوليني وقال: "لقد جئت لاطلاقك". لكن الدوتشي أجاب بتهكم: "أحق ما تقول؟ ان هذه لبادرة طيبة منك". وطلب اليهما اوديسيو جمع أمتعتهما. ولما فعلا، قادهما الى السيارة وأجلسهما في المقعد الخلفي حيث قبضت كلاريتا بشدة على يد موسوليني. وقال السائق في ما بعد أن الاثنين ظهرا "في منتهى الهدوء". وانحدرت السيارة عن التلة ببطء كعربة موتى، وكان لامبريدي وموريتي واقفين على عتبتها الجانبية واوديسيو على العتبة المقابلة وهو يصوب مسدسه الى الداخل.

وبعد قطعها بضع مئات من الامتار، وصلت السيارة الى منعطف حاد. وهناك أمر اوديسيو السائق بالتوقف أمام بوابة "فيلا بيلمونتي" المحاطة بسياج حجري يحجبها عن القرية وراءها. وقفز اوديسيو من مكانه وأمر موسوليني وكلاريتا بالخروج من السيارة والتوجه نحو البوابة، فيما وقف الآخرون على اهبة الاستعداد لمنع أي عابر سبيل من التقدم.

وأعلن اوديسيو ما يأتي: "بأمر القيادة العليا للمتطوعين من أجل التحرير، أوكل الي احقاق حق الشعب الايطالي".

وفجأة غرقت كلماته وسط صياح كلاريتا وهي تقول: "كلا! كلا! يجب ألا تفعل هذا".

فأجابها بصوت خشن: "ابتعدي من هنا اذا شئت ألا تموتي". وتصبب العرق من وجهه وهو يقدح زناد المسدس ثلاثاً، ولكن من دون جدوى. ونزع المسدس من قرابه وهو يشتم، لكن ذلك لم ينفع أيضاً. عندئذ صرخ الى موريتي قائلا: "أعطني مسدسك". فأعطاه اياه على الفور.

وانتاب سائق السيارة تشنج في معدته وهو يرى موسوليني يفك أزرار سترته الخضراء القاتمة ويقول لقاتله الشيوعي بصوت واضح: "أطلق الرصاص هنا، على صدري". وتحركت كلاريتا محاولة التدخل، لكن اوديسيو، الذي وقف على بعد ثلاث خطوات، عاجل موسوليني بخمس طلقات وكلاريتا بأربع. وخر الاثنان. وقد اخترقت احدى الرصاصات قلب كلاريتا، وكانت تحمل في يدها نبتة خضراء. أما موسوليني فكان لا يزال ينبض على رغم الرصاصات الخمس. فتقدم اوديسيو اليه وصوب رصاصة الرحمة الى قلبه مباشرة.

"لقد مات الوحش"

حُملت الجثتان الى ميلانو في سيارة عسكرية مع ١٥ جثة اخرى للقادة الفاشيين الذين وقعوا في أيدي الثوار. وتحت جنح الظلام مُددت الجثث أمام سجن لوريتو، في الساحة التي كانت مسرحاً لاعدام الوطنيين الخمسة عشر بايعاز من الالمان.

وفي الصباح التالي بدأ الفضوليون يتوافدون الى المكان الذي وضعت فيه الجثث. وكان أحدهم ألقى سارية علم، بدت مثل صولجان، على يد موسوليني الذي اتكأ رأسه على قميص كلاريتا الابيض. ووقف رجال الصحافة هناك، وأدار بعض المصورين رأس موسوليني نحو الشمس، ساندا فكه بعقب بندقية ليبقى في وضع ملائم لالتقاط الصور.

وفجأة راحت الجماهير تفجر غيظها المكبوت، وسرت في الناس وحشية الغاب. ووثب رجل نحو موسوليني موجهاً رفسة الى رأسه. وأخذ الناس يرقصون ويهزجون حول الجثث. وأطلقت امرأة خمس طلقات علىجثة موسوليني، رمزاً لابنائها الخمسة الذين قتلوا في حرب الدوتشي. وانتزع أحدهم قميصه وأشعل فيها النار، محاولا رميها على رأس موسوليني.

وأصدر أحد قادة الفدائيين أمراً

لعشرة رجال كي يطلقوا النار في الهواء لتفريق الجموع. لكن ذلك لم يجدِ. وراح الناس يشتمون ويطأون الجثث، منفسين عن حقد دفنوه سنوات طويلة. وعجز رجال الشرطة، وعددهم ثلاثمئة، عن تفريق الجمع، فتراجعوا وقد تمزقت بزاتهم. ثم حاولت فرقة اطفاء بعثرة الناس بالماء، فأخفقت هي أيضاً في اخماد الحقد.

بعدئذ رفعت الجثث من أرجلها وعلقت على عوارض محطة وقود منسوفة.

وانطلقت اجراس ميلانو تجلجل بايقاع رتيب، من سان بيبيلا الى سان امبروغيو، معلنة موت الدوتشي واسترداد الحرية، وناقلة البشرى من ميلانو الى ايطاليا كلها، بل الى العالم بأسره.

وسمع ادولف هتلر بمصير حليفه عصر ذلك اليوم، وهو في غرفته المحصنة تحت الارض في برلين. ولم يكن مضى وقت طويل على زواجه بعشيقته ايفا براون. ولاحظ ملازموه أنه لم يكترث كثيراً للأمر. وكانت الدبابات السوفييتية على بعد كيلومتر أو أقل عن برلين. وقد أعلم هتلر أن أحد أقرب معاونيه، هنريخ هيملر، كان يتفاوض مع الحلفاء الغربيين. وفي تلك الليلة ودع جميع الذين كانوا معه في الغرفة استعداداً لموته المروع في اليوم التالي.



وكان ونستون تشرشل في منزله الريفي عندما بلغته الانباء عن وفاة موسوليني. فتهلل كثيراً لمصرع الطاغية وأسرع الى ضيوفه للعشاء يزف البشرى: "لقد مات الوحش الرهيب". لكنه، عندما قرأ عن كلاريتا، أمر باجراء تحقيق فوري حول ذلك "الفعل الخسيس".

أما الجنرال آيزنهاور فوردته الاخبار وهو في بلدة رانس الفرنسية، حيث المقر الاعلى لقوات الحلفاء فقال لقائد أركانه: "يا لها من نهاية مفجعة!" وكان الجنرال مارك كلارك في فلورنسا (ايطاليا) يؤيد رأي آيزنهاور، لكنه قال: "ان الشعب نفسه بات يكن لموسوليني الكره الشديد".

وكانت راشيل موسوليني اعتقلت وحملت الى جناح النساء في سجن كومو. ولم تعرفها سوى امرأة واحدة، لكن راشيل رجتها أن تبقى صامتة.

وفي ساحة السجن كان أحدهم يقرأ لائحة من الاسماء، وكلما قرأ اسماً سمع دوي الرصاص ثم صلصلة عجلات. لقد كانت الثورة الفاشية تلفظ أنفاسها الاخيرة مثلما ولدت ـ وسط الدم. وراحت النسوة يزعقن ويضربن حديد النوافذ بأيديهن. أما راشيل فلم تُبدِ حراكاً، بل كانت تمني النفس بلقاء ولديها الاصغرين سريعاً. وهي علمت بموت زوجها، لكنها بلغت الحد الذي لا يجدي عنده الغم. ولم تتذكر، حتى اليوم التالي، ما تنبأت به أمام كلاريتا: "انهم سيأخذونك أنت الى ساحة سجن لوريتو".

وكانت بالقرب من راشيل امرأة لاحظت هدوءها الغريب، لكنها لم تدرك معناه. وما لبثت أن سألتها: "وأنت يا جارة! لماذا لا تبكين؟ ألم تفقدي عزيزاً؟".

وفي الثانية من عصر ذلك اليوم، اتصل الكولونيل تشارلز بوليتي، من الجيش الامريكي، بقيادة الفدائيين في ميلانو. وبادره فيروتشيو باري، من حزب العمل الايطالي، باعلان اشمئزازه من المعاملة التي لقيتها كلاريتا ومن التمثيل بالجثث على الرصيف أمام السجن. وأضاف: "هذه البشاعة لا تليق بنا. انها ستخلف جرحاً بالغاً في جسد الحركة الفدائية".

فأجابه بوليتي مواسياً: "لقد حصل ما حصل. ومن الطبيعي أن تجيش الانفعالات وقت الحرب. لكني جئت أطلب اليكم نقل هذه الجثث من هنا ووقف البشاعة التي تشير اليها. هذه هي أوامري".

ووافق باري على الفور. لكنه أضاف: "ولكن ماذا نفعل بموسوليني؟ ان الجماهير قد تمزقه".

وبعد تفكير، أجاب بوليتي: "في الولايات المتحدة لدينا مكان نسميه براد الجثث، حيث توضع جثث الموتى ليتعرف عليها ذووها. هل لديكم شيء كهذا؟"

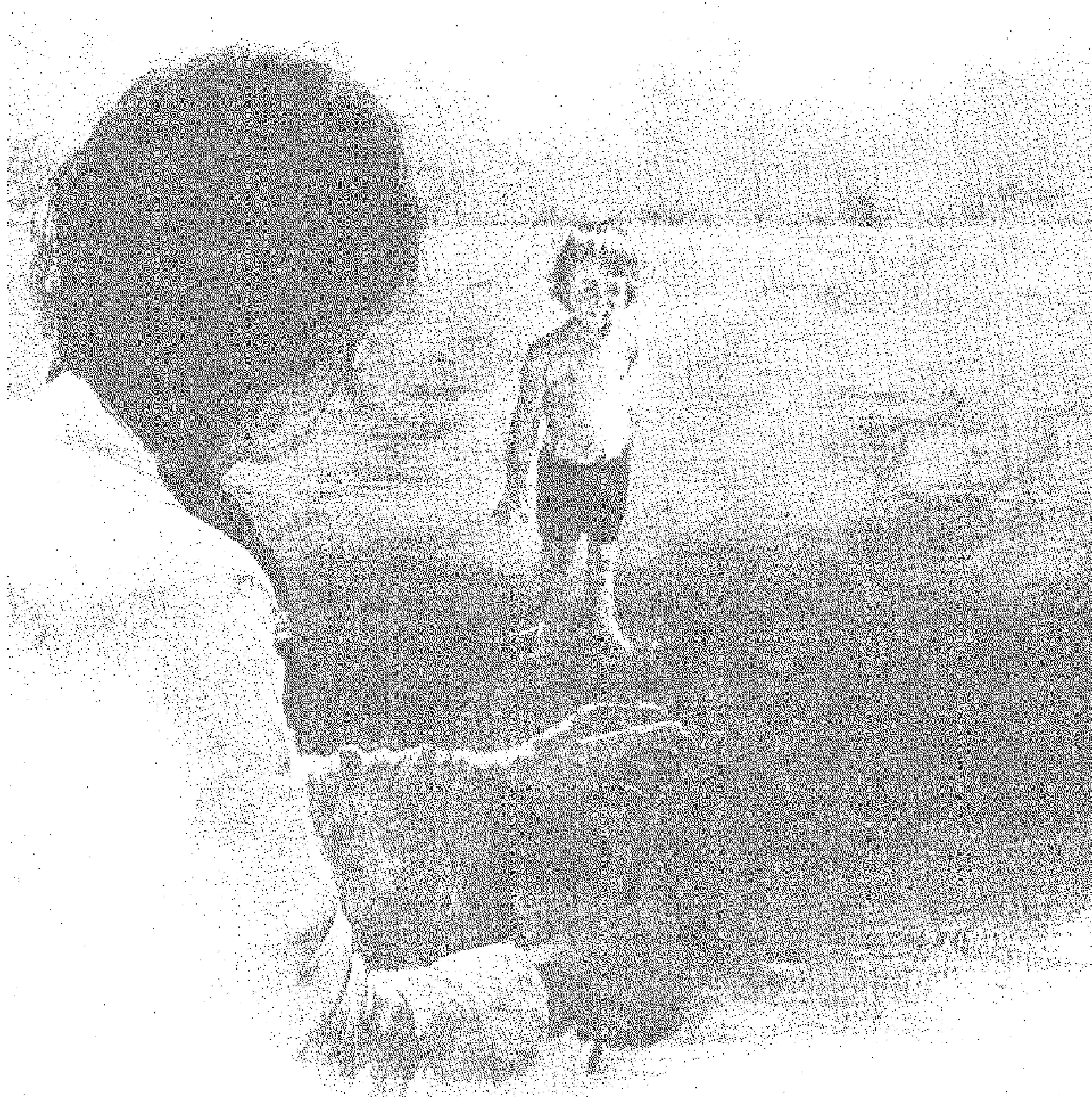
ـ أجل، ثمة ما يشبهه، لكنه مخصص للفقراء.

"حسناً، اذاً. خذوه الى هناك ولتحرسه جماعتكم. لقد لقي هذا الرجل من الأذى ما يكفيه. فأوقفوا الأذى عنه، أوقفوه!"

■ **ريتشارد كوليير**

كتاب الشهر

قِصة حب



ملخص من كتاب بقلم غابرييل رويي

قصة حب

ببشرتها القاتمة ووجهها الممتلىء وشعرها الكثيف الاسود، كانت تلك الشابة تجسد جمال الاسكيمو، والطفل "الابيض" كان ولدها، وهي وجدت نفسها تائهة بين عالمين متناقضين، وحاولت الرد على التحدي بتربية ابنها كما شاءت هي، بطريقتها الفذة.

هذه القصة، الملأى بالقسوة والمفعمة بالعاطفة، تسردها الروائية الكندية غابرييل روي.

غسق احدى أماسي شهر يوليو (تموز)، كانت السا كوماتشوك راجعة من دار السينما مع ثلاث فتيات أخريات من الاسكيمو، وكانت الارسالية الكاثوليكية في بلدة فور شيمو، التابعة لمقاطعة كيبيك الكندية، تعرض فيلماً سينمائياً مرتين في الاسبوع: مرة للسكان البيض واخرى للاسكيمو، والهدف من العرضين المختلفين للشريط نفسه هو تجنب الاختلاط، خصوصاً مع وجود كتيبة من الجيش الامريكي في تلك النقطة الصغيرة على طرف القطب المتجمد الشمالي.

وسارت فتيات الاسكيمو الاربع متشابكات الايدي على عرض الطريق المعبدة وهن يضحكن مما شاهدن في الفيلم، وغدت تلك الطريق العريضة التي شقها الجيش حديثاً لوصل ثكنته بحقل الطيران، متنزهاً لاهالي فور شيمو، ولاسيما فتياتها.

في تلك الامسية، كما في امسيات الصيف جميعاً، كانت السماء متشحة بالخيوط الذهبية بعد ساعات من غروب الشمس. في ذلك الوقت تكتسي الطبيعة سحراً لا يوصف. وبدت الفتيات الاربع أشباحاً متشابهة، يجمع بينها قصر القامة واستدارة الجسم. والذهاب الى "المدينة" ثم العودة منها حتّما عليهن ارتداء أفضل ما لديهن من ثياب، وهي ملابس قصيرة من القطن المزركش تعلوها كنزات واسعة تمجها الاناقة، وأحذية مطاطية مرتفعة على رغم انحباس المطر في ذلك الموسم. الا ان ذلك لم يخفِ مسحة جمال عن وجوه الفتيات المتهللة وخدودهن المدورة وضفائرهن القصيرة.

وكانت أكواخ الاسكيمو متناثرة على ضفتي نهر كوكسوك، وعند نقطة من الطريق انحرفت ثلاث من الفتيات يميناً نحو بيوتهن، في حين تابعت السا طريقها وحدها في اتجاه بيتها. وكانت حماستها للعودة الى البيت تعادل حماستها للذهاب الى السينما

التي تعلقت بها كحلم رائع. أما عالم الاسكيمو، بأكواخه المبعثرة المتداعية ومعابره الصغيرة على الشاطىء، وخصوصاً نهره الذي يشنف خريره الآذان، فكان يحمل اليها معنى كبيراً.

وفي منخفض على جانب الطريق تملأه الاشجار وقف جندي يلعن الحر والبعوض، وقد جاشت غريزته في داخله كما تجيش الحياة في الصيف القطبي القصير. وسمع أصوات صواحب إلسا تتلاشى. ولما اقتربت هي برز الى الطريق ومد يداً نحوها قائلا: "مرحباً يا حلوة". فأجابت بوداعة: "مرحباً ايها الجندي".

وقبل أن ينعطف نحو المعسكر، توقف برهة ولوح بيده في اتجاه إلسا التي رأته، تحت السماء المكفهرة، غامضاً مثل طيف.

وتوطدت العلاقة بين هذين الشخصين، ولكن من دون امل. ذلك ان قانون الجيش يحظر على الجندي الابيض الاقتران بامرأة من الاسكيمو.

ومرت الايام وكاد الا يبقى منها سوى ذكريات غامضة كالأخيلة التي تخلفها الافلام، لو لم يطرأ تغير على جسد إلسا. وبعد أشهر بدا هذا التبدل واضحاً. لكنه لم يحمل اليها أي معنى خاص من كآبة أو فرح.

"يا له من صبي جميل"

جاء الشتاء ولازمت عائلة كوماتشوك منزلها الصغير. ارشيبالد، والد إلسا، ترك اصلاح قارب الصيد لينصرف الى اصلاح الشبكة. أما والدتها، ويني، فحصلت على قطعة من قماش قطني زاهي الالوان، وجلست تخيط بها رداء لمهرجانات الشتاء. ولكم راقها أن تسكن منزلا حقيقياً عوضاً عن خيمة أو كوخ ثلجي كما يفعل الاسكيمو في ديارهم. واسترسلت تتأمل في تلك النعمة. وعلى صندوق حول طاولة، جلس لورنس، شقيق إلسا، يكتب فروضه المدرسية ويعيد قراءة دروس بدت له غريبة.

وكان العجوز تاديوس، جد إلسا، لا ينقطع عن نحت شخوص وتماثيل صغيرة بالحجر الصابوني، محتذياً صوراً علقت في ذهنه من الايام الخوالي. وكان أحياناً يستغرق في أفكار لا يبوح بها، كما أخذت إلسا تفعل في الآونة الاخيرة. ولفهما الصمت كحيوان من القوارض دخل في سبات الشتاء الطويل.

وعندما حان وقت الولادة سارت الى المدينة. وهناك، في المستشفى الصغير الذي تديره الممرضة بورغوان، ولدت من غير تذمر أو أنين.

وهتفت الآنسة بورغوان وهي ترمي المولود بين ذراعي إلسا: "انظري اليه! يا له من صبي جميل!"

ونظرت إلسا. وبدا وجهها مثل سماء بلادها التي، بعد خلوها طويلا، تأتي عليها الغيوم الرقيقة والنسيم العليل، ثم تفد اليها طلائع الطيور من الجنوب. وعادت روحها تلتمع في عينيها من جديد. واتسعت تينك العينان وملأتهما المحبة والدهشة.

وما أن نظرت الى ذلك الطفل الفاتح العينين والاشقر الشعر الذي نما في أحشائها وخرج منها، هي

القاتمة البشرة، حتى شعرت كأنها تغوص في عمق من المحبة لا قرار له. وعجزت عن وصف فرحها لدى بلوغه الاشهر الستة وظهور غمازتين في خديه المتوردين.

أما عيناه فكانتا في مثل زرقة السماء المطلة من غيوم ابريل (نيسان) الجليدية. وبدا شعره كالزغب على فراخ البط. وأمضت إلسا ساعات طويلة تداعب بأصابعها ذلك الحرير المائج، على غرار ما كانت تفعل السيدة بوليو زوجة رجل الشرطة حين كانت إلسا تخدمها.

أشعر هو، أم حرير وذهب؟

ومدت إلسا يدها الى شعرها الكث الذي بدا لها الآن قاسياً وثقيلاً، ثم أعادتها الى شعر طفلها، فالى وجهها لتنقل اليه النعومة وهي تبتسم بغبطة. ولم يكن الطفل ضاق ذرعاً ببشرة أمه الدكناء، بل كان يستسلم لها وهي تغسله وتمشط شعره على الدوام، وأحياناً يستجيب لضحكها وفرحها.

وأمدها كاهن البلدة بمبلغ ضئيل من المال ما لبثت أن أنفقته. كما أنفقت ما أعطاها إياه والداها وجدها تاديبوس الذي كان يأتيه بعض المال من بيع تماثيله. إلا أن إلسا كانت تفيق كل صباح وهي تمنّي النفس بشراء شيء جديد لطفلها جيمي. وهي الآن أرادت شراء بذلة زرقاء من النايلون لفصل الجليد، شاهدتها في واجهة محل انيق. وكانت كلما عبرت أمام المحل تبطىء الخطى وتعد النقود القليلة الباقية بعد اخراجها من جيب كنزتها المهلهلة، ثم تتابع طريقها بقلب كسير. وأخيراً قررت العودة الى خدمة السيدة بوليو التي ألحت عليها كثيراً كي تعود.

وكان قطاع السكان البيض في فور شيمو لا يتجاوز العشرين منزلاً. وهي منازل صغيرة بني بعضها متباعداً على الروابي والوهاد الصخرية. وذات يوم، بينما كانت السيدة بوليو واقفة على احدى نوافذ منزلها المؤلف من أربع غرف، لمحت طيف إلسا الصغير يملأ فراغ العالم الخارجي الممل. وخرجت لملاقاتها يدفعها فرح مكبوت. ففي ذلك الطرف القصي من الارض، حيث كان الضجر يرهق أعصابها، بدت رفقة إلسا لها ــ نعم، حتى رفقة إلسا ــ نعمة من السماء.

في البداية جرت الامور حسناً. وعلى رغم عدم السماح لها باصطحاب طفلها، إلا أن إلسا خدمت ولدي السيدة بوليو على خير وجه. لكنها باتت تدرك قيمة الوقت، فتضع منبه ساعتها عند وقت معين لئلا تتأخر على ابنها. وكانت تنظف منزل آل بوليو بهمة ونشاط، من غير أن تثبط عزيمتها فكرة الغد وما ينطوي عليه من تكرار للأمور. والحق أنها كانت تستمد بعض اقدامها من النظر الى ساعتها مرة كل خمس دقائق، علّ وقت العودة الى البيت يحين.

وذات يوم رأتها السيدة بوليو واقفة في النافذة، تمسح الغبار وتنظر الى اكواخ الاسكيمو. فقالت لها: "هل انت قلقة؟ لماذا، إذاً، لا تذهبين في زيارة قصيرة للتأكد من حسن سير الامور، على أن تعودي بسرعة لاستئناف عملك هنا؟".

وتبنت إلسا تلك الفكرة التي أصبحت خطتها اليومية. وكان جيمي

لدى بلوغها المنزل يرحب بقدومها، ولكن ليس بالفرح الذي تتوقعه أم من طفلها. فهو اعتاد البقاء طوال النهار مع جدتهويني وتاديوس، كما اعتاد الجلوس ساعات طويلة على ركبة العجوز من غير أن يأتي بحركة، بل يحدق الى المدى بقناعة واطمئنان.

كذلك اعتاد البقاء بين ذراعي ويني التي أرادته لها هي، وكان يمدها بالفرح. وجاء وقت لم يعد يبكي لدى مغادرة أمه صباحاً. واضطربت إلسا لذلك، وفكرت في وقف العمل خارج المنزل وتكريس وقتها لابنها.

ولكن ما أن تسلمت راتبها عن الشهر الاول حتى هرعت الى المخزن الانيق وصرفت النقود كلها من غير أن تدري. كما وقعت عيناها على أشياء كثيرة رغبت في اقتنائها للطفل. وهكذا تريثت في أمر ترك العمل.

نداء من القلب

بعد أشهر من قهر نفسها على حياة لا تلائم طبيعتها، أخذ التعب الشديد طريقه الى إلسا. ولم تكن ترفع نظرها عن الساعة وهي في منزل آل بوليو. ولكن ما أن تترك ذلك المنزل الفخم حتى تعي تماماً ما عليه كوخها من حقارة وفوضى. فتنهمك في تنظيفه وترتيبه كما كانت تفعل لدى مخدومتها.

وكانت ويني تحتج بسذاجة وهدوء قائلة: "لقد فرغت لتوي من تنظيف الكوخ. فلماذا تنظفينه مرة اخرى؟" لكن إلسا كانت تتجاهل ملاحظات والدتها. وبعد انهاء التنظيف تجلس للخياطة وترقيع الملابس. وكانت تدفعها رغبة قوية الى جعل ذلك الكوخ أشبه ما يكون بمنزل آل بوليو.

وصرفت راتبي الشهرين الثاني والثالث لشراء مشمع تستر به الارضية القذرة وحرامين من الصوف يحلان مكان جلود الحيوان القديمة التي تعج بالغبار والحشرات.

وسألها والدها: "ما الذي يجعلك تكرهين الجلود؟" فأجابته على نحو مقتضب وجاف: "انها غير قابلة للغسل". لكن والدها حار جواباً.

وجاء عيد ميلاد جيمي وهو في بداية عهده بالمشي. ومنذ ذلك الوقت باتت كل محتويات الكوخ المزدحم في متناوله، وبينها أشياء رأت إلسا أنها تشكل خطراً على الاطفال. ووجدت حل المسألة في شراء حظيرة لعب كتلك التي تأسر فيها السيدة بوليو طفلها الاصغر.

والواقع أن عائلات الاسكيمو لم تختبر من قبل هذا التقييد لحرية الاطفال. وكان جيمي، كلما رفعته أمه لتضعه ضمن القفص الذي زاد الغرفة اكتظاظاً، يطلق صيحات تمزق القلب ويمد ذراعيه علّ أحداً ينتشله من الهوة. وكان تاديوس يشيح بعينيه وهو يبدي استياءه بصمت جريح. أما ويني فلم تتردد في حمل الطفل على الانتقام.

وذات يوم قامت إلسا بزيارتها القصيرة الى الكوخ في وقت غير متوقع، فشاهدت الحظيرة مفككة وموضوعة في الخارج مع المهملات، ورأت جيمي ملطخ الوجه وهو يعبث بوعاء مليء بالسمك الفاسد. وكانت ويني تقتعد الارض للتظاهر بأنها

ترعى الطفل، وبدا وجهها مشققاً كصخور التوندرا (★) الطاعنة في القدم، وهي تدخن بسذاجة وتنظر الى نهر كوكسوك من شق الباب، وفي الخارج كان تاديوس متكئاً على كومة من براميل الزيت الفارغة، يدفىء جسمه تحت الشمس، فيما راح شقيق إلسا الصغير يقذف الحجار في الهواء.

وفجأة انفجرت إلسا بنوبة بكاء، وهي المرة الاولى التي يراها أحدهم تبكي، ولم يعرف أحد ما يفعل لها، وأشاح تاديوس بوجهه ونظر باستعطاف نحو الافق، علّ الجبال المتفتتة تعينه على فهم تلك الكآبة المرة التي لم يعرف سبباً لها.

ومن حسن الحظ أن بين أيام الاسبوع يوماً اسمه الأحد، هذا اليوم ما فتىء يجدد نفس إلسا، فهي كانت تقوم منتعشة في الصباح الباكر وتلبس رداءها القطني الوردي، ثم تنطلق الى الكنيسة حاملة طفلها وقد ألبسته أبهى الثياب، ولم تكن تحمله كثيراً على ظهرها، كعادة الاسكيمو، لكي يتمكن من رؤية العالم أمامه.

وعقب القداس كانت تأخذه الى طرف قصي على الشاطىء، وراء البيت الاخير من بيوت الاسكيمو، وبعد اجتيازها ذلك البيت، كانت إلسا تخلع حذاءها الجديد وتربطه بعنقها، وبعيداً عن الفوضى في بيت ذويها وتدليل الطفل على نحو غير معقول، كانت تجد أمامها على الشاطىء طفلا آخر أكثر انسجاماً ورغباتها، وغالباً ما كان يركض الى المياه لتفحصها والمقارنة بينها وبين السماء، ثم يعود الى امه مبتسماً كما لو أراد أن يقول انه سعيد جداً لوجوده معها هناك، وهي كانت تبتهج لذلك، لكنها في الوقت نفسه تشعر ببعض الخيبة لأنه ما من أحد سواها يعرف جيمي على حقيقته.

وبعد قليل من اللعب على الشاطىء كانت شهية الطفل تنفتح للأكل، فيتناولان الغداء في أقرب بقعة ملائمة وينظفان أيديهما بالرمل، وكانت إلسا تضع مئزراً فوق بذلة جيمي المخصصة ليوم الأحد لئلا تتسخ، لقد كانت تصرف كل ما تحصل عليه لشراء أفضل الثياب والالعاب لولدها، كما كانت تفعل السيدة بوليو بالنسبة الى ولديها، ولم يكن يؤلمها أنها الشاهدة الوحيدة على أناقته، بل كان ذلك يمدها بالسعادة الملازمة لنجاحها في تأدية واجبها.

وبعد الغداء كانت تجلس وتحدق الى نهر كوكسوك وتطلق العنان لتأملاتها، لقد كانت تلك النقطة الآمنة خير مكان ينقل اليها الراحة والوحدة اللتين تحتاج اليهما، وفي بعض الاحيان كان يأتي جيمي اليها وهو يغالب النعاس، فيستلقي على كتفها متوسلاً الدفء والامان، أما هي فتغمره بذراعيها وتهدهده وهي تنظر الى عينيه علها تجد فيهما أثراً لوالده، ولكن ما هو الا قليل حتى يغمض جيمي عينيه ويستسلم للنوم، فتنام هي أيضاً وقد تعانقا كغمامتي صيف بيضاوين.

وانقضت سنة اخرى، وذات أحد مر كاهن البلدة على الشاطىء حيث

(★) التوندرا سهول جرداء في منطقة القطب الشمالي.

كانت إلسا وطفلها، وجلس بجانبها، وأخذا ينظران الى جيمي وهو يركض ويقفز ويلعب. وأمكن الكاهن أن يقرأ على وجه إلسا ليس فخرها وفرحها بالطفل فحسب، بل مدى الارهاق الذي بلغته.

وقال لها: "جيمي، ابنك، يكبر".

– أجل، اليوم اصبح له من العمر ثلاث سنوات وخمسة أشهر ويومان.

"ألم تفكري قط في الزواج؟ لماذا لا تبحثين عن شاب خلوق من قومك يعتني بك وبالطفل؟"

وذهل الكاهن لدى رؤيته قسمات إلسا تتشدد وهي تقول: "أتزوج؟ هذا مستحيل! مستحيل".

وتركت عينيها تتبعان ابنها من مكان الى آخر والغبطة تملأها، وهي غبطة تعجز الكلمات عن وصفها. لكن المؤكد أن كيانها كان منشغلا بالطفل الى حد لم يبقَ معه مكان لوجود آخر. وهي منذ ولادة جيمي لم تجد الوقت الكافي له، لا في النهار ولا في الليل، فكيف باستيعاب شخص آخر؟

وقال لها الكاهن: "لقد كرست حياتك له كلياً. ولكن ماذا ستفعلين يوم يؤخذ منك في المستقبل؟"

المستقبل! لقد حاولت أن تدرك مغزى هذه الكلمة، إلا أن وجهها بقي متوتر العضلات وهي لا تفقه شيئاً. ثمة امور كثيرة تعلمتها من الناس البيض، لكنها لم تفهم اهتمامهم العجيب بالزمن الذي لم يأتِ بعد. الا أن كلام الكاهن جعلها تضطرب فجأة، وراحت تعبث بحصى الشاطىء.

من جهته، أخذ الكاهن يبسط لها الصعوبات التي ستعانيها قريباً لانفرادها في تربية الطفل، كما أنبها بلطف لارهاق نفسها. وتابع: "يخيفني أنك وضعت نفسك على طريق التبذير التي لا نهاية لها". قال هذا وهو يشير الى ملابس الطفل الجميلة وكرة المطاط الحمراء التي يلعب بها وحذائه الجلدي الناعم الذي وضعته إلسا على صخرة بعيدة عن الماء. وأضاف: "لماذا تلبسينه على هذا النحو الفاخر وتغدقين عليه الهدايا هذه كلها؟".

ورمقت محدثها باستغراب وهي لا تصدق ما تسمع، ثم أجابت: "لماذا؟ لأنه جيمي".

أما الكاهن فأفحمته تلك الحجة التي كانت نداء من القلب. لكنه، بعد برهة، تابع حديثه: "إن تربيتك لطفلك بعيداً عن قومك لا بد من أن تجعله يشعر بأنه لا ينتمي الى ويني أو الى تاديوس، ولا حتى إليك. إنك ستخسرينه قبل الأوان. لقد كنت في ما مضى، يا إلسا، خالية من الهم، لكنك اليوم عبدة للهموم. هلا أمكنك أن تعودي طفلة الأمس؟ ألا تستطيعين تربية طفلك ببساطة أكثر؟"

غير أن إلسا لم تفهم هذا كله. فبعد هذا الشقاء واستنزاف الذات، أين هو الخطأ الذي اقترفته؟ وفضلا عن هذا، وجدت تناقضاً في كلام الكاهن عن مسؤوليتها بالنسبة الى المستقبل وعن حثها على التحرر من الهم.

الى عالم آخر

ان الغمامة التي سقطت فوق حياة إلسا في ذلك اليوم الصيفي المشرق على نهر كوكسوك لن تنقشع كلياً بعد

الآن. فهي، عندما أدركت بعض الابعاد التي خلفها في نفسها كلام الكاهن، زاد اضطرابها وقويت همومها. واقتنعت بأن عليها الآن تبديل طريقتها في تربية الطفل، لأنها اذا استمرت على هذا المنوال فسيأتي يوم يصير جيمي ملكاً لجماعة البيض. لذلك قررت أن تحمله بعيداً عن ذلك المكان.

ولكن الى أين؟

بالنسبة اليها، لم يكن من خيار سوى الرجوع الى فور شيمو القديمة، بلدة الاسكيمو الاصلية التي قضت فيها طفولتها ثم نأت عنها. وهي على الضفة الاخرى لنهر كوكسوك، لكنها عالم آخر بالتمام.

وأخذت تستجوب أباها وجدها تاديوس عن الحياة هناك في الأيام الخوالي.

فأجاب جدها وهو ينحت هيئة حيوان في الحجر: "لقد كانت حياتنا هناك نعمة وسلاماً يا طفلتي. وكان مركب شركة "خليج هدسون" يأتينا مرة واحدة في السنة. واليوم يقال ان الشركة كانت تستغلنا آنذاك. لكن هذه النظرة منحازة. فالشركة كانت تشتري منا الفراء ونحن لا نشتري منها سوى الاشياء الضرورية. الطحين، مثلاً، كان نعمة من السماء ولا عيش لنا من دونه كما كنا نشتري منهم الشاي. وفي رحلاتنا وسط الصقيع، كان كوب الشاي الساخن والمحلى ينعشنا كثيراً ويتغلغل دفئه في أجسادنا وأرواحنا.

"والذي أفسد حياتنا كان الحرب، تلك الحرب التي وقعت على الطرف الآخر من المحيط. واشتركت الولايات المتحدة في الحرب، ثم أقامت مطاراً عسكرياً هنا ومحطة لتلقي رسائل مجهولة المصدر. واستأجر الامريكيون أولادنا للعمل على آلاتهم. وأتى يوم أوقفت مراكب الشركة رحلتها السنوية الى فور شيمو القديمة، مما جعلنا في حيرة من أمرنا. ثم اضطررنا الى النزوح حيث الشركة... إن تاريخ الاسكيمو وتاريخ الشركة واحد".

وقالت إلسا: "إلا أن بعضاً من أهالينا بقي في فور شيمو الاصلية".

ـ أجل! لقد بقي الذئب، وهو أعتى صديق قديم وأدهاه يمكن أن تتخيليه. كما بقي عازر وزوجته. وهناك عمك إيان الذي طالما وددت أخذ مكانه. فهو هناك حر كصقر على قمة جبل.

وذات مساء نطقت ويني بكلمتها: "الله يعيننا عليك وعلى حياة الماضي التي تنشدينها". ونظرت الى تاديوس وجمجمت: "أتعرف أن طفلين من ثلاثة كانا يقضيان هناك في أشهر حياتهما الاولى؟ اني لا أذكر كم من الاولاد فقدت أنا نفسي. وما عليك الا أن تعبر الى الضفة الاخرى وتنظر الى المقبرة القديمة. ترى كم تؤوي من الموتى الذين قضوا وهم في منتصف العمر؟ أجل! هذه هي الحياة الماضية التي تمتدحها".

وما أن فرغت ويني من ابداء رأيها حتى دعت جيمي الى اخذ قطعة حلوى من يدها مغافلة إلسا. وكانت ويني تحشو الطفل بالحلوى من الصباح حتى الليل. لقد أحبته حتى العبادة. ولولاه لراقها أن تبتعد عنها إلسا، تلك المجنونة المتقلبة الاطوار التي آثرت الجحيم على النعيم بعدما كان التمدّن يعني لها كل شيء.

وانقضت بقية ذلك الصيف سريعاً.

وفي السنة التالية، بعد ذوبان الثلج وعودة الطيور، قررت إلسا أن ترحل. وكان في وداعها ووداع الطفل جدها وامها وعدد من الجيران وكلابهم. وكان والدها ارشيبالد سينقلهما في قاربه الى الضفة الاخرى. وعلا صوت المحرك وارتج القارب مخلفاً وراءه خطاً من الماء المزبد عند مصب كوكسوك في خليج اونغافا. وكان جيمي يطفح حبوراً والنسيم يداعبه مع سرعة القارب. وانطفأ المحرك مرتين، بقي القارب فيهما تحت رحمة الامواج. وفي ساعة متقدمة من العصر رسا القارب عند خليج رملي مهجور.

وبدا الخليج في عيني ارشيبالد أكثر وحشة مما هو في الواقع، اذ تذكر أيام فور شيمو القديمة القاسية.



وكانت البلدة ما زالت مكانها، خلف الصخور الرمادية، بكنيستها الخشبية ومقر شركة "خليج هدسون" ونحو عشرة بيوت. لكن الموت كان يخيم على البلدة، وقد سُمّر معظم نوافذها ولم يبقَ من سكان في منازلها سوى قلة ضئيلة. أما ذلك المغفل ايان فهو يعيش على بعد ١٥٠٠ متر من المكان، في بقعة مهجورة على قمة تلة صخرية قرب شاطىء خطر لم يشأ ارشيبالد أن يوقف القارب عنده.

وأنزل أمتعة ابنته، وهي خيمة مطوية وكيس نوم وصرّة من الحاجيات وبندقية صغيرة، وهم بحملها جميعاً الى الكوخ الذي يسكنه ايان. إلا أن إلسا رأت من الحكمة أن تمتحن ترحيب عمها أولا. فقال لها أبوها أن تفعل ما تشاء، ونصحها بنصب الخيمة حيث هي واشعال نار تلك الليلة، علّ ايان يراها فيأتي اليها.

وتمنى ارشيبالد لابنته حظاً سعيداً وعاد الى قاربه. وهو كان ضد تلك المغامرة، لكنه لم يشأ التدخل في حرية ابنته. أما حريته هو فكانت تدفعه نحو "المدينة" في أسرع وقت.

وغاب الزورق في المدى. وأخذت إلسا طفلها بيده، وعلى ظهرها وظهره أخف أحمالهما، وصعدا الصخور الرمادية. ولدى بلوغهما أعلى السلسلة الثانية، شاهدا المقبرة القديمة. وكانت إلسا تتوقف هنا وهناك، محاولة فك ألغاز الكلمات القليلة التي لم تأتِ عليها الأيام. وعلى شاهدة متداعية أمكنها أن تقرأ اسم جيسيكا، جدتها التي ماتت في عز شبابها، وهذا أكد ما قالته لها امها: الحياة هناك كانت قصيرة جداً.

وتركت إلسا المقبرة بهدوء وكآبة، وقد عبر رأسها طيف من قسوة الماضي. ولدى شروعها في تسلق سلسلة اخرى من الصخور الجرداء، أحست ان مشية الطفولة عاودتها.

تعلم الطرق القديمة

وكان ايان مستلقياً على صخرة واطئة بالقرب من كوخه الحقير، وهو يصلح طوق كلب. وكانت كلابه الخمسة على مسافة منه، تحك انوفها بالأرض. ولاحظ ايان الظهور المفاجىء لامرأة معها طفل. لكنه أكب على عمله كأن شيئاً لم يكن.

وترددت إلسا أمام ايان. وأخيراً شدت على يد جيمي وقالت بعصبية: "مرحباً أيها العم إيان. اننا نحمل اليك تحيات العائلة وتحيات فور شيمو".

وتقاربت أهدابه الكثيفة كالطحلب وقال: "فور شيمو؟ ليس سوى فور شيمو واحدة، وهي هنا. ثم من أنت لتدعيني عماً؟"

– أنا إلسا، ابنة وينفريد وارشيبالد. وهذا ابني الصغير جيمي.

أخيراً رفع ايان عينيه. وبنظرة قصيرة أبصر شعر الفتى الاشقر. وقال وهو يحدق بعيداً الى المياه: "في الأيام القديمة كان البيض والاسكيمو يعيشون بانسجام ووفاق، ولكن من غير اختلاط".

– ما حدث قد حدث فلماذا نتكلم عنه الآن؟

وراح ايان يدرس ملامحها ويتفرس في وجهها الجامد. ثم سألها: "ما الذي تبغينه مني الآن؟"

ـ أريد أن تبقينا لديك أياماً... فترة قصيرة... أو ربما على الدوام أيها العم ايان.وفي ودي أن أحاول تعلم طرق حياتنا القديمة.

"تعالي، إذاً. وسوف نقرر ما نفعل".

ونُصبت خيمة إلسا وولدها قرب البيت، على أكمة تعطرها ريح البحر وصنوبرة يتيمة. وكلما خرج ايان لاصطياد الحيوانات أو الاسماك، كانت إلسا تتسلل الى كوخه فترتبه وتنظفه، محاولة ابقاء كل شيء في مكانه. كما كانت تغسل ثيابه وترقعها بقطب صغيرة أنيقة.

ولم يلاحظ ايان ما كان يجري، أو أنه شاء أن يغض الطرف. وكان كل يوم تقريباً يترك بعض الطرائد على مدخل الخيمة، فتعد إلسا طعاماً وتحمل قسماً منه الى عمها.وذات يوم أرسلت جيمي الى عمها ومعه الطعام، فلم يصده. وهكذا باتت ترسله يومياً.

وكان الطفل يقف في رواق الكوخ لكي تعتاد عيناه الظلمة. ذلك أن كوخ ايان البدائي كان مظلما حتى وأبوابه مفتوحة. وكان جيمي يجيل النظر الى الاشياء المبعثرة هناوهناك، وبينها وجه ايان الغامض.

بعد ذلك كان الطفل يتابع طريقه الى الداخل، من غير أن يلقى أي ترحيب أو رفض من العم ايان. وكان ذلك الوجه الجامد مصدر حيرة للطفل. وذات يوم تجرأ على الدنو منه لتفحصه. وبقي الرجل حيث هو من دون حراك. وأخيراً قال له جيمي: "ان وجهك أكثر الوجوه التي رأيتها سواداً، انه أحلك كثيراً حتى من وجه ارشيبالد".

فأجاب ايان بازدراء: "ومن هو ارشيبالد هذا؟ انه عبد تأسره العبودية".

وذهل الفتى اذ رأى عمه يتكلم معه أخيراً، لكنه لم يجد ما يضيفه سوى أن تابع تفحص عينيه اللتين ظلتا تتجنبانه. وفجأة قال جيمي بعجب: "انك مغتاظ! أنت دائماً مغتاظ".

وأغمض ايان عينيه كما لو كان يطري ذكاء الولد، وقال: "هذا صحيح! إني مغتاظ".

وهرع جيمي الى أمه يخبرها بفرح أن العم إيان كلّمه أخيراً.

غير أن ايان بقي يعبر امام الخيمة من غير أن يلتفت الى داخلها وذات مساء أقفل باب كوخه الخرب.وهذا التصرف، في ليلة صيفية لا ريح فيها ولا بعوض، هو غاية في عدم اللياقة. إلا أنه في وقت باكر من الصباح التالي وقف أمام الخيمة.وقال وهو يحدق الى الافق انه يمدد دعوته لالسا وابنها كي يبقيا معه على الدوام، واضاف: "سآخذ هذا الصغير معي لصيد السمك اليوم اذا كان قلبه ينفتح لذلك".

وكانت إلسا تعرف أن زورق ايان الجلدي لا يتحمل كثيراً، وأن معابر النهر ليست كلها آمنة. يضاف الى ذلك طبع ابنها النزق. وخانتها جرأتها، لكنها لم تجسر على الرفض وهي تنظر الى عيني عمها الثاقبتين.

وراقبتهما في ذهابهما نحو مربط القارب. ولدى وصولهما الى فسحة مكشوفة، شاهدت ابنها يضع يده في يد عمه من غير أن يصده هذا.

وكان الهم يعصر قلب إلسا طوال ذلك النهار وهي تقهر نفسها على

ملئه بالعمل. وفي مقتبل العصر بلغها صوت جيمي الجذل وهو آت من بعيد. وأخيراً ظهر الاثنان على قمة تلة. وكان ايان يحمل مقداراً كبيراً من الاسماك التي علقها على قضيب، وجيمي يحمل قضيباً أصغر. وراح الفتى يمشي بخطى واسعة ليجاري عمه، على رغم تعبه الشديد، وهو يروي أخباراً كان ايان يكتفي بهز رأسه رداً عليها.

ودخلت إلسا الخيمة، وجلست القرفصاء وهي تبتسم بملء فمها. وشعرت بالطمأنينة تسري في أوصالها للمرة الاولى منذ سنوات. وتراءى لها أنها تقلب الصفحة الأخيرة من كتاب معقد، على اغرائه، وتفتح الصفحة الاولى من كتاب آخر.

وفي الخريف انتقلت الى كوخ عمها، واضعة كيس النوم في احدى زواياه. وللحصول على دفء أكثر، غمرت الكيس بالفراء. وبناء على رأي ايان ومساعدته، صنعت إلسا لابنها لباساً من جلد الرنة، وهذا تقليد هجره أهالي فور شيمو الجديدة. كما صنعت له، من جلد ذلك الأيل الامريكي نفسه، حذاء عالياً للشتاء. وغمره الفرح ولم يشأ أن يخلع ثيابه الجديدة حتى وقت النوم. وبات أقل نظافة وترتيباً من ذي قبل، كما لاحظت أمه، لكن نوبات غضبه خفت عن السابق.

ان معظم الباقين من أهالي فور شيمو الاصلية كانوا يعيشون بالقرب من مقر الشركة والكنيسة المهجورين. وكانت غالبيتهم متقدمة في السن وقليلة الكلام. وهكذا لم يكن لدى جيمي من أصدقاء صغار سوى كلاب ايان، فنشأت بينه وبينها صداقة قوية.

وفي صباح صاف أعقب سقوط الثلج، وجد جيمي عند باب الكوخ عربة ثلج صغيرة صنعها ايان له. وتعلم أن يسيرها بطريقة الاسكيمو، وهو واقف في مؤخرها وقدماه مثبتتان الى جانبيها فيما كلباه المفضلان، "يابي" و"ستورمي"، يطيعان صيحاته. وكان يذهب وحده في رحلات تبتكرها مخيلته، والنصف الظاهر من وجهه المغطى بالفرو يشع في الصقيع.

وكانت تلك الحياة، على بساطتها، تدفع ايان وإلسا الى العمل لتحصيل العيش. وهكذا كان ايان يقضي أيامه في الصيد وملاحقة الاشراك التي حفرها، فيما تمشط إلسا الشاطىء بحثاً عن القش لاشعاله وقوداً.

وكانت في الكوخ كتب تسلمها والد ايان من مندوب سابق لشركة "خليج هدسون". وعندما لم يكن لالسا شيء ملح تفعله، في الامسيات أو في الايام العاصفة، كانت تجلس وتقرأ القصص بصوت عال. وبعد وقت قصير، تعلقت بتلك الكتب أكثر مما تعلقت بالسينما في حداثتها.

وذات مساء، صمتت قليلا بعد أحد المقاطع لتتأمل في معناه. وفي تلك اللحظة التفتت الى جيمي، فرأته ينظر اليها بشغف عبر ضوء المصباح. وكان يوماً بعد يوم يطلب المزيد من القصص. وقررت إلسا تلقينه القراءة.

ومنذ ذلك اليوم، أخذت تنظف الصندوق الذي استخدم كطاولة كل مساء، ثم تدني المصباح منه وتعلم ابنها أن يكتب اسمه بإزميل على لوح

حجر: "جيمي كوماتشوك". وكان يروقه النظر الى اسمه مكتوباً، فيلعق شفتيه علامة السرور.

لكن إلسا لم يسرها ألا يكون هناك سوى اللوح للكتابة. ألا سبيل الى الورق؟ أين الورق؟

كان ايان عنيداً في الاستجابة. وقال لها: "اليوم ورق، وغداً ماذا؟ ألا تعلمين أن اللوح أفضل من الورقة؟"

فأجابته إلسا: "اللوح لا يمكن ارساله بالبريد".

ورد عليها إيان بحجة معاكسة: "هل حاول أحد ذلك؟"

وأخيراً وعدها بأنه، حين يقطع النهر لشراء بعض اللوازم، لن ينسى أن يحمل معه بعض الورق.

وأضافت إلسا: "والاقلام أيضاً".

وأجابها ايان على نحو جاف. فالأقلام تأتي مع الورق، من غير حاجة الى ذكرها أو التذكير بها.

وعندما قوي الجليد على نهر كوكسوك وأصبح اجتيازه ممكناً، جهز ايان كلابه واستعد للانطلاق وهو يعتمر قبعته التي غطى الثلج حافتها. وأعلم إلسا أنه ذاهب الى فور شيمو الجديدة ليبيع ملابس الفرو في مقابل مؤونة العام، وسألها اذا كانت تود مرافقته. فأجابته أنها تؤثر البقاء، فهي لاحظت أنه لا يود أن ترافقه خشية أن تبقى هناك.

ذلك الصيف كان جميلا على نحو غير متوقع. ثم عاد الى الليالي صقيعها وثلجها. وذات يوم كانت إلسا تقف هي وابنها على قمة تلة مشرفة على نهر كوكسوك، فشاهدا قارباً ينطلق من الضفة المقابلة في اتجاه فور شيمو القديمة. ثم أدركت إلسا أن ذلك القارب هو للشرطة. وخفق قلبها، لكنها ما لبثت أن هدأت من روعها حين رأت أن الشرطي ما هو إلا السيد روش بوليو، زوج مخدومتها الرقيق والمهذب.

وسبقها جيمي الى سفح التلة وحيا الرجل الابيض بحماسة. ونظرت إلسا والسيد بوليو قليلا الى مياه النهر الجارية، ثم بدأ الحديث. وسألته عن السيدة بوليو وعما اذا خفت كآبتها التي طالما كانت تحملها على البكاء.

فأخبرها أن زوجته، للأسف، باتت أكثر قنوطاً. ومرة زارت مسقط رأسها في الجنوب، فتحسنت حالها سريعاً، ولكن ما أن عادت حتى لفتها الكآبة من جديد. ويبدو أن تلك المنطقة النائية، بقسوة حياتها، هي مصدر كآبتها وجزعها.

ونظر بوليو فجأة الى إلسا، فشاهد في عينيها ذلك اللمعان من الادراك الذي يبصره المرء أحياناً في أعين الكلاب.

وهز رأسه وأخبر إلسا أنه عبر النهر لسبب آخر، وسألها اذا كانت عرفته. فابتسمت وهزت رأسها بالنفي التام.

– المسألة متعلقة بابنك جيمي.

"إن جيمي لم يأتِ أي خطأ!".

– ألم يتبادر الى ذهنك أنه يجب أن يذهب الى المدرسة؟

وأجابته أنها تدرسه منذ مدة تزيد على السنة، فتعلمه أفضل ما تعلمته هي نفسها من كتابة وحساب وتاريخ وجغرافيا. وطلبت إليه أن يمتحن معلومات الولد.

إلا أن الشرطي ظل صارم الوجه. وأخيراً قال لها أن هناك قانوناً يحتم حضور المدرسة بدءاً من السن التي

بلغها جيمي، وهذا يعني أن عليها العودة الى ضفة كوكسوك المقابلة لارسال ولدها الى المدرسة.

وللحال تحول وجه إلسا، الطافح صداقة وبشراً، حجراً أصم.

وحاول بوليو مواجهتها بالحجج: "ألا تريدين أن يحصل جيمي العلوم التي تخوله يوماً ملء المركز اللائق به؟" ثم خاطبها بعطف: "يا إلسا، اني أتعهد بمساعدتك للحصول على عمل ومكان مريح للاقامة. ترى ما هي الحياة هنا لامرأة شابة مثلك؟ اني اعطيك مهلة ثلاثة اسابيع، أو أربعة في أبعد حد، كي تستعدي لمغادرة هذا المكان. وبعد ذلك، ساضطر الى المجيء بنفسي لأخذكما عنوة اذا لم تكوني سجلت جيمي في مدرسة".

ولم تردّ إلسا بأي كلمة، لكنها اكتفت بالوقوف والنظر الى بوليو وهو يعود بزورقه. وللمرة الاولى في حياتها، ظهرت أمارات القسوة على وجهها.

وكان جيمي متكئاً على المقعد المكسو بالفرو ذلك المساء حين سمع حديثاً يدور حوله هو وأحس جواً جديداً في الكوخ. وكانت امه تذرع الغرفة وهي تتكلم باهتياج. ولم تنفك عن ترديد الآتي: "لقد ذكر أنه سوف يعود ويأخذه بالقوة".

فأجابها ايان: "سنتدبر ذلك الأمر. إننا سنسبقه بثلاثة أيام أو أربعة والشتاء الى جانبنا، وإذ ذاك سيسعدني أن أراه يتراجع خائباً. وكل ما نحتاج اليه هو سقوط الثلج".

وتابع الاثنان حديثهما حول ما لديهما من شاي وسكر وطحين وخرطوش وعيدان ثقاب وسواها من امدادات.

وفي اليوم التالي سقط ثلج كثير. وبدا ايان متهللا وهو يباشر استعداداته باندفاع. وصر مقداراً كبيراً من اللحم المجلد والسمك. وترك بعض السمك المجفف على جانبي عربة الثلج طعاماً للكلاب. وأخيراً انطلقوا صبيحة يوم شديد البرد والكلاب وراءهم تصوت بحبور.

ولم يظهر من جيمي، المغطى بالفرو والجالس في أسفل العربة، سوى عينيه الضاحكتين وكانت ريح خفيفة تذرو الثلج، من وقت الى آخر، كالغبار تحت الشمس. وكان ايان يسير على بضع خطوات خلف العربة، جنباً الى جنب مع كلابه.

وأفضى بهم الشاطىء الى سهل أبيض على مدّ البصر. وهناك بدا لهم وجه الخليقة عارياً على حقيقته، من غير أن ينتأ فوق الثلج اللامتناهي أي عشب أخضر. وأوضح ايان لالسا وجيمي أن هذه هي التوندرا عينها، موطن الاسكيمو الحقيقي. كان يقول هذا بصوت ملؤه الحنان.

وبُعيد غروب الشمس الباكر وهبوب الصقيع الذي يحمل معه حساً بالوحشة والفراغ، اتخذ العم ايان قراراً بالوقوف. وامتشق خنجره العريض النّصْل وأخذ يقدّ به قطعاً متساوية من الجليد. وأعانته إلسا في وضع القطع بعضها فوق بعض. وسرعان ما شاهد جيمي بداية كوخ يتكون أمامه. وما انفك ينظر اليه وعلى وجهه وشفتيه علامات الاعجاب والفرح، حتى فرَغ من بنائه. وظل مسمراً عينيه فيه من دون أن يدري تماماً كيف صُنع.

ودخل الثلاثة من باب الكوخ

المنخفض، وكان النور الضئيل ينبعث من سراج الزيت المعلق في قبته. ومددت إلسا الفراء على الأرض لتكون لهم فرشاً دافئة.

وضحكت إلسا وايان طويلا لدى رؤيتهما جيمي مغتبطاً بحياة الاسكيمو العادية القديمة. ولا بد من أن تكون غبطته ذكرتهما بأيام طفولتهما، إذ جلس كل منهما يحدق الى المدى وهو مستغرق في أحلامه.

وفي الخارج هبت الريح وراحت تعول وهي تطوق الكوخ الثلجي المنعزل. أما جيمي فأعطاه صفير الريح شعوراً بالدفء والاطمئنان لوجوده في عهدة شخصين يثق بهما.

وفي ظهيرة اليوم الثالث أصاب جيمي ألم في حلقه من اثر الرحلة. وأتت عليه نوبة هذيان جعلته يظن أن الشخص الذي كان يسير الى جانبه فوق الجليد هو عملاق أسود. وأحياناً لم يدرك من الذي يضحك في اذنيه: العم ايان أم الريح المعولة؟

ولمست أمه جبهته وقالت: "ان لديه حُمّى".

وتجهّم وجه عمه أكثر وقال: "ينبغي، إذاً، أن نسرع الى الشاطىء. واذا لزم الأمر، فسنعبر الى جزيرة بافن".

وباشر الثلاثة رحلتهم، وكان جيمي على العربة. ولم يدر إلا وقد فتح عينيه في كوخ ثلجي آخر، وأمه تتوسل اليه لكي يتناول قليلا من الشاي الساخن. ومافتىء يحاول طرح الفراء الكثيرة التي غلفته بها أمه لكنه، في بعض الأحايين، كان يغريه جمال الشعلة المنبعثة من المصباح وقد ارتعشت في قبة الكوخ.

وفي احدى الليالي أفاق على جدل بين امه وعمه. وكانت امه تقول: "يجب أن نعود. انه الجنون بعينه أن نبقى هنا". وراحت تستعطف عمها بكل تواضع.

أما ايان فأجابها: "انك مثلهم جميعاً. أنتم مولودون للعبودية".

وانقضت أيام منذ بدئهم طريق العودة الى فور شيمو وهم لا يتوقفون للراحة. إلا أن جيمي لم ينتبه كثيراً لذلك وهو يعاني الوهن والحمى. وكان يفتح عينيه، من حين الى آخر، على نوبة سعال تمزق صدره. كما كان يرى ذراع ايان ترتفع وتهبط، ويسمع لسع السوط وأنين الكلاب التي أتى عليها الانهاك، فترتفع الدموع الى عينيه، ولكن سرعان ما تستحيل كحبات البرد الصغيرة.

ثم هبت عاصفة رفعت ايان من مكانه كما ترتفع غرسة صغيرة من التراب. وزحف كل شيء في الضباب: الكلاب والعربة وكتل الثلج.

وبلغوا النهر مع الظلام. ووضعوا الأحمال وجروا العربة على الثلج الساقط حديثاً، كذلك الزورق الجلدي. ولدى وصولهم الى الماء، تركوا العربة والكلاب على الشاطىء واستقلوا الزورق الذي ضرب الجليد حتى وصل الى عرض النهر. وأخيراً بلغ الثلاثة مستشفى فور شيمو. وهناك جاءت امرأة في لباس أبيض وأخذت الطفل من إلسا ووضعته في سرير.

تسلية وهزل

أفاق جيمي وهو يبكي لعدم وجود امه الى جانبه. وازداد بكاؤه حين

وجد نفسه وسط سرير لم يتعود مثله، وأحس كحيوان سقط في شرك.

غير أنه، في الأيام التي تلت، ألف السرير والممرضة الشابة الناحلة ذات الشعر الاشقر التي كانت توليه العناية. وذات صباح ابتسم لها. ووجد أنها تشبهه كثيراً وهو ينظر الى شعرها الناعم تداعبه أشعة الشمس.

وبعد ذلك ظهرت امه على باب الغرفة وهي تبتسم بحياء. وراح يتفحصها بفضول وينظر الى وجهها الجميل المضطرب وقد بدا بلون الفحم تحت النور الساطع. وظهر الاستغراب على وجه جيمي، ولم يستقبل أمه بترحيبه المعهود. ولدى اقترابها منه لتحك أنفها على أنفه كما يفعل الاسكيمو، نفر منها قليلا.

أما ايان فقد زار المستشفى قبل مغادرته فور شيمو الجديدة للمرة الاخيرة في حياته. وهناك جلس على كرسي جعله يشعر بتعب شديد، ولم يعرف كيف يخاطب الصبي الاشقر.

وأخيراً قال له: "لقد تعافيت إذاً! زال عنك الخطر، كما يقولون. ولم تعد تحتاج كثيراً الى عمك العجوز إيان. الآن سيكون لك معلمون أفضل علماً... حسناً! رافقتك السعادة يا ابن البشر". قال الرجل هذا الكلام وبدا أن جعدة اخرى ظهرت على وجهه المتغضن.

ولما اصبح خارجاً نظر الى المستشفى نظرة غيظ واحترام معاً. ثم استدار نحو نهر كوكسوك. لقد سره ابلال الطفل، ولكن لم ترقه الطريقة التي تم بها الشفاء، وهي اعطاؤه بعض الحقن في ذراعه الضعيفة. وفكر ايان في بني قومه الذين أخفقت طرائقهم الطبية على رغم صبرهم وصلاتهم ورقتهم والعلاجات التي استخدموها، في حين نجح الانسان الابيض بفضل عقار اسمه البنيسيلين، وبه حاول استعباد الاحرار.

وغابت عينا ايان على مرمى الجليد والثلج وهو يفكر في زوجته الاولى التي ماتت وهي في عشريناتها، وفي الثانية التي لم تعمر أكثر منها، وفي أولاده الذين لم يتمكن من انقاذ أحد منهم.

وصدرت عن ايان حركة كما لو كان يعتق نفسه من شبكة أو شرك. وترك الشاطىء بعزم وتصميم وحث الخطى فوق الجليد.

ولما حان الوقت كي تأخذ إلسا ابنها، وجدت أنه لم يعد يبتهج لحضورها، على رغم الهدايا التي كانت تحملها اليه.

وما أن أخرجته من المستشفى حتى استهلت حياة جديدة، مع السكان البيض أيضاً. وكان السيد بوليو طلب الانتقال الى الجنوب، وأهدى اليها آلة خياطة قبل مغادرته. واستخدمت الارسالية الكاثوليكية نفوذها كي تؤمن لالسا وابنها أحد المساكن الجاهزة التي شغلتها الحكومة سابقاً. وأمن لها الكاهن بعض قطع الاثاث، في حين أعطتها زوجة مدير شركة "خليج هدسون" حرامين من الصوف الصفيق. وهكذا غدت إلسا، بين ليلة وضحاها، صاحبة أجمل منزل في فور شيمو بالنسبة الى الاسكيمو.

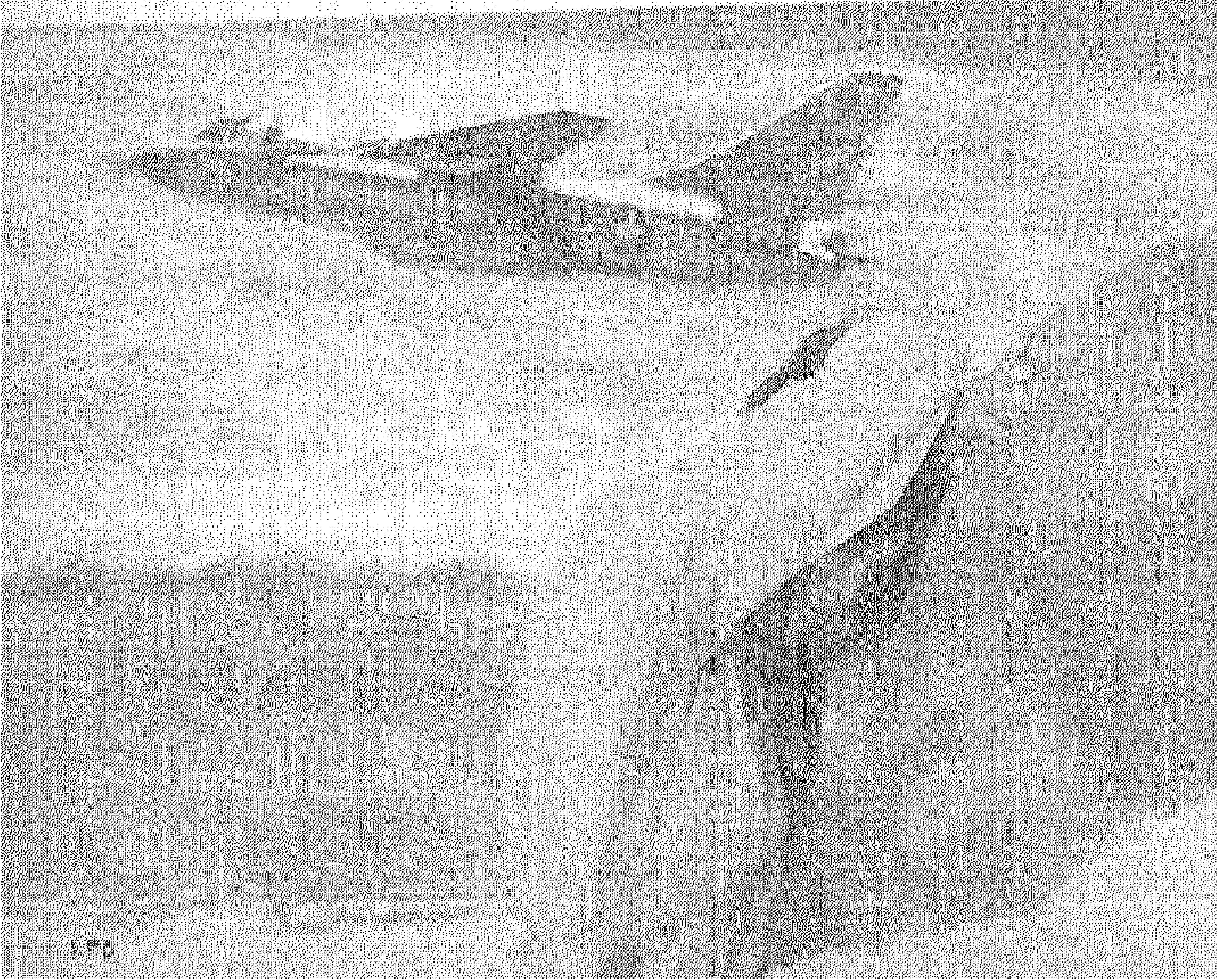
ولكن أين تركب قطع هذا المنزل؟ اذا تم ذلك في قطاع الاسكيمو، فهذا

يعني اقصاء إلسا عن كل شيء وتوليد الحسد في أعين بني قومها الذين لن يروقهم مسكنها الملوكي وسط أكواخهم الحقيرة. وأخيراً ركب المنزل في بقعة خالية وسط قطاع السكان البيض، تجنباً للحسد والعداوة. لكن هذا الحل أيضاً جعل المنزل منعزلاً.

وكانت إلسا تجلس عند نافذة المنزل وتعمل على آلة الخياطة، حيث يأتيها النور من الخارج. وكان كل عابر طريق يراها هناك، في أي ساعة مر، إذ كانت تقضي اليوم كله من الصباح الباكر حتى الليل تصنع أشغالا يدوية تحمل طابع الاسكيمو.

وكل صباح كانت تنهض باكراً وتأخذ جيمي الى المدرسة وهو في أجمل الثياب، بعدما خلعت عنه زي الاسكيمو نهائياً. وكانت بعد ذلك تباشر عملها. وفي السنوات اللاحقة صنعت الوف الشخوص الصغيرة بالصوف وجلد الفقمة، محاكية حيوانات التوندرا المختلفة، كما صنعت دمى كثيرة ذات ضفائر وخدود نافرة متوردة. واشترت منها الشركة تلك المصنوعات لبيعها في أماكن بعيدة. كذلك صنعت السترات الفرائية المقلنسة من البطانيات التي وزعتها الشركة. وقيل لها ان تلك السترات لقيت رواجاً منقطع النظير في الولايات المتحدة.

ودر عليها عملها مالا وفيراً. لكنها



كانت تسرف على جيمي الذي اقتضت عشرته لأترابه البيض أن يحذو حذوهم في جميع مشارب الحياة. وكانت شطائر الهمبرغر التي يكثر أكلها باهظة الثمن، ولم ينفك يطلب النقود من امه ليصرفها على تسليته وهزله.

وكان منزلهما جميلا وأنيساً، إلا أن ترتيبه ونظافته جعلا جماعة الاسكيمو لا تطيق زيارته أكثر من خمس دقائق. وكان افراد هذه الجماعات يتوقفون هناك في طريقهم الى الشركة أو منها، ويجلسون وهم ينظرون بفضول هنا وهناك. وبعد وقت قصير كانت إلسا تلاحظ التبرم على وجوههم ورغبتهم في أن يغادروا ذلك المكان الى سواه.

بيد أن إلسا كانت، حين تخلو الى جيمي كل مساء، تشعر بأنها لم تجانب الصواب في حياتها الجديدة. وكان جيمي يضع كتبه على الطاولة المكسوة بالقماش المشمع ويستهل دروسه. واذا تمكنت من مساعدته في تهجي الكلمات، بناء على طلبه، كانت أساريرها تشرق لأنها ما زالت تتذكر. وبعد أن يغفو، كانت تنظر الى وجهه الهادىء الجميل فتنسى غطرسته وعناده في النهار.

ولدى بلوغه الحادية عشرة اشترت له دراجة اسوة برفيقيه بوب وجولز ولدي ممثل المصالح الهندية، وبرفيقيه الآخرين جون واليستير ولدي مدير شركة "خليج هدسون". وكانوا ينطلقون بدراجاتهم على طريق الثكنة القديمة ويقرعون النفير، ثم يعودون من حيث انطلقوا. وكان جيمي، اذا أخذه السرور وهو يمر من أمام البيت، يلوح لأمه بيده ويناديها محيياً، فيرتفع الدم الى خديها وتكب على أشغالها وقد فارقها الارهاق.

وفي خريف تلك السنة ماتتويني. ووجدت جثة هامدة وهي متكئة على برميل زيت صدىء، وقد تدلت سيجارة من شفتيها واتجهت عيناها نحو نهر كوكسوك الذي أمضت جزءاً كبيراً من أيامها تراقبه. وكان ارشيبالد تركها قبل سنوات للعمل في اصلاح الطائرات لدى شركة "نوردير" في خليج فروبيشر.

وبالنسبة الى إلسا، كان دفن أمها مناسبة للبس الرداء القطني المزركش الذي صنعته بناء على نموذج من مجلة تلقتها بالبريد. كما انتعلت حذاء عالياً واعتمرت قبعة صغيرة غريبة الشكل تركتها لها السيدة بوليو. والى جانبها وقف جيمي في سرواله الطويل الأول وهو يتحرك ويدمدم دونما انقطاع. وآلمها أنه لم يعد يطيق الذهاب الى الكنيسة أو زيارة أنسبائه.

وحزنت إلسا كثيراً لموت امها، على رغم أنها لم تكترث لها في حياتها. وراحت تتصورها وهي تسير على الشاطىء ووراءها خيط رفيع من الدخان. لقد كانت السيجارة رفيقة وحدتها الدائمة.

وحاولت ويني يوماً أن توقف جيمي وهو على طريق الثكنة، ربما لتقبله أو تعطيه قطعة حلوى قديمة. إلا أنه أطلق النفير قوياً ومر أمامها كالسهم، مخلفاً وراءه غباراً كادت ريحه أن توقع العجوز الضعيفة أرضاً.

ولئن عشق جيمي الدراجة في أحد مواسم الصيف، ففي الصيف التالي شغفته رياضة "البيسبول". واشترت له

امه العدة اللازمة، وهي قفاز وقناع وكرة ومضرب. ولكن سرعان ما أرسل رفيقاه الى المدينة لمتابعة الدراسة، وبعد عام أرسل الرفيقان الآخران. وهكذا بات جيمي وحيداً. ولم يشأ أن يقيم علاقات مع أولاد الاسكيمو. وكان يغادر المدرسة فور انتهاء الدروس.

وظل ينمو بسرعة حتى استطالت ذراعاه ورجلاه وحمل عنقه الناحل رأساً أطول من رأس أمه. أما عيناه الزرقاوان اللتان طالما قرأت فيهما صفاء الجلد فباتتا تذكرانها أحياناً ببرودة الجليد. ومن ناحيتها أخذت السمنة طريقاً الى جسمها وأصبحت خطاها ثقيلة كخطى أمها.

ومع نموه، غدا جيمي كئيب النفس ومتقلب المزاج. وكان يقبع وراء المنزل ساعات طويلة وهو يقرأ أو يتظاهر بالقراءة، أو يخرج من المنزل طوال النهار من غير أن يعطي تفسيراً لذلك.

وذات يوم استدعت معلمة جيمي امه وأخبرتها أن الفتى بات يهمل واجباته المدرسية ويزعج صفه. ولم تعرف إلسا كيف تتصرف حيال تلك المشكلة. لكنها وعدت المعلمة بأنها ستبذل ما في وسعها لنهيه. وما أن انصرفت من المدرسة حتى شعرت أن الجبل الذي رفعته من دمى الاسكيمو، بعملها نهاراً وليلا، قد تقوض الآن.

وقالت لابنها في ما بعد: "لماذا تهرب من المدرسة؟ انها مدرسة جيدة، وهي كلفت الحكومة كثيراً".

لكنه رمقها بنظرة شفقة. انها ليست غير مدرسة للاسكيمو، وهو سئم تلك الوجوه العريضة! ولم تعد المدرسة تعني له شيئاً بعدما غادرها أصدقاؤه.

لم تقل إلسا شيئاً، لكنها انتظرت المساء لتعيد فتح الموضوع على العشاء. وسألته بهدوء عن السبب الذي يجعله ينفر من الاسكيمو الذين يحبونه ويقبلونه كواحد منهم. ولم تكد تنهي كلامها حتى أدركت عدم جدواه بعدما رأت ابنها، وهو الآن في الخامسة عشرة، يرمقها بنظرة باردة مرتابة كعادته في الآونة الأخيرة. لقد كان ينظر اليها كما لو كانت هي شخصاً غريباً. وأيقنت أن خجله من أن تكون هي أمه حمله على عدم التصديق أنها امه الحقيقية.

واقتنعت يوماً بأن الوقت حان لاخباره الحقيقة. وشبكت يديها وهي جالسة على آلة الخياطة وراحت تروي قصة العلاقة التي كانت تربط فتاة الاسكيمو بالجندي الامريكي الابيض، مروراً بقانون الجيش الذي يحرم على الجندي الزواج بفتاة من الاسكيمو.

وقاطعها جيمي فجأة، سائلا عن اسم الجندي. فغرقت في مقعدها وأجابت أنها لم تعد تتذكر لأن اسمه ليس سهلا للحفظ.

ولما أفاقت من ذهولها كان جيمي ترك المنزل. ونظرت من النافذة لتراه على دراجته فوق طريق الثكنة، علها تفضي به الى مكان ما.

وسمعته يبكي ليلا. وفكرت في مؤاساته واخباره أن الأحزان يمحوها الزمن. لكنها لم تجرؤ على ذلك، وراودها شعور بأنها لن تجرؤ البتة.

الهرب

مامن شيء أدهش جيمي واستحوذ عليه أكثر من الطائرات. وكان دائماً يذهب الى المطار، انتظاراً للطائرة التي تأتي الى فور شيمو ثلاث مرات اسبوعياً. لقد كان لديه شغف فطري

بالآليات. والساعات التي أمضاها في المطار يراقب الطاقم الارضي جعلت منه معاوناً غير رسمي لعمال الصيانة. وربما كانت موهبته مستمدة من جده ارشيبالد وخاله لورنس، والاثنان بارعان في الميكانيك. وغدت أسعد أوقاته تلك التي صرفها في حظيرة الصيانة. ولم يعد الى المنزل إلا للاغتسال وتبديل الملابس والنوم.

وذات مساء تخلف عن العودة. وبات جميع اهل الحي، ولم يبقَ من صوت لقدم على الطريق. وانتظرت إلسا والقلق ينهشها، وهي تحبس أنفاسها علها تسمع وقع خطى. وما أن طلع الصباح حتى ذهبت الى حقل الطيران تجوسه. غير أنها لم تعثر على جيمي. ولما نظر اليها الرجال مستفسرين، أسرعت خارجاً وهي خافضة الرأس يمزقها شعور بالذنب.

وبعد ليلة اخرى من القلق، تسلحت بالجرأة وقصدت مراقب حظيرة الصيانة. وتذكر أحد رجاله أنه شاهد جيمي، في المساء قبل الأخير، يستقل الطائرة المحلقة. ومن الممكن أن يكون تسلل بين أحمال الطائرة. واذا كان هذا ما حصل، فلا بد من أن يقبض عليه المسؤولون حيث تحط الطائرة ويعيدوه الى فور شيمو.

وفي المساء نفسه أرسلت شرطة روبرفال، وهي بلدة من أعمال كيبيك تبعد ١٠٠ ((كيلومتر جنوباً، خبراً بالعثور على جيمي وهو يمارس لعبة الكرة والدبابيس - وهي ضرب من المقامرة - مع فتيان من جيله في الشوارع.

وعادت إلسا الى المطار قبل ساعات من وصول الطائرة. ولما ظهر جيمي على سلم الطائرة، بدا أكبر من عمره بعشر سنين، ودلت تجاعيد جبهته ونتوء شفتيه على أنه أدرك أنه أعيد بالقوة بناء على وشاية أمه. أما هي فأدركت أنها أضاعته الى الابد، وأن فراره الأخير من بين يديها ما هو إلا مسألة وقت.

وبعد سنة، اختفى الى غير رجعة. والراجح أنه قصد مدينة كبيرة مثل مونريال يصعب فيها التفتيش عليه. ومرت أشهر من غير أن يعثر له على أثر. وكان قد ذكر، عن غير عمد، أن بغيته الولايات المتحدة هذه المرة.

وصورت إلسا لنفسها أن ابنها بلغ أخيراً موطن أبيه ليعيش بين أنظاره، حيث الرجال كلهم طوال القامة وأقوياء وسعداء. ثم أيقنت أنه دخل الجيش وصار جندياً كوالده.

وقليلا قليلا، عادت حياة إلسا الى ما كانت في أول عهدها: من دون هدف. وغرقت، مع الوقت، في أحلام يقظة لا تنتهي، لكن حبها لابنها لم يفارقها لحظة. وربما كان الخمول نزعة طبيعية لديها.

وهجرت الخياطة. وبعد أشهر لم يبقَ لها من المال ما يكفي لشراء الطعام، فباعت آلة الخياطة، وأتبعتها ببيع ملاءات الصوف والستائر.

وأخيراً تركت منزلها. وعلى الشاطىء في قطاع الاسكيمو وجدت كوخاً لم يسكنه أحد لسنوات. فأجرت فيه بعض التصليحات ثم انتقلت اليه. ولم يبقَ هناك من تحمل همه. لقد مات تاديوس، كما ماتت ويني. واختفى ايان من غير أن يعرف أحد اذا كان بلغ جزيرة بافن. أما ارشيبالد ولورنس فلم يرسلا الاخبار الا نادراً. وهكذا بدا أن تفكك العائلة البشرية أسهل من تشتت أسراب الطير.



ولم تكن إلسا تعاود العمل إلا بعد نفاد طعامها تماماً. وكانت، اذ ذاك، تعمل يومين أو ثلاثة في خدمة السكان البيض. وعندما ينفذ الطعام الذي ابتاعته بمالها، تعود الى الخدمة من جديد، ولكن ليس أكثر من يومين أو ثلاثة. لقد غدا عزاؤها الوحيد الجلوس أمام النهر، مطلقة العنان لخيالها، تماماً كما النهر.

صوت من السماء

لكي يفهم المرء ما حصل ذات يوم من اواخر الستينات، عندما كانت إلسا في الاربعين، يجب أن يعرف أن أهالي فور شيمو غالباً ما كانوا يلتقطون على أجهزة الراديو لديهم أصوات الطيارين من الفضاء. فالطائرات الصغيرة، وأحياناً الكبيرة، تعبر في فضاء المنطقة.

واذا كان الملاح يعرف أحداً في البلدة، أو اذا كان الطيار وحيداً وشعر بالوحشة، فهو يخاطب المنازل القليلة التي يبصرها تحته. لذلك لم يبدُ الحادث غريباً عندما حصل هذه المرة. لكن السكان ذهلوا لسماعهم عدداً كبيراً من الاسماء يذكره الطيار بلهجة أمريكية خالصة.

وبدأت الرسالة كالآتي: "تحية الى فور شيمو". وعبر تشويش فرضته العوامل الجوية، تابع الصوت يقول:

"تاديوس، أيها الشيخ الحبيب، أما زلت في هذا العالم تصنع الشخوص الصغيرة الجميلة؟"

"ايان! تحياتي إليك، يا صديقي القديم إيان. وتحياتي أيضاً الى الشركة والشرطة والهيئات الرسمية، وكذلك الى معلمة المدرسة".

وشعر المستمعون أن ذلك الصوت

يحط من شأنهم. لكنهم ما لبثوا أن سمعوا ضحكة بريئة من شاب أراد أن يسلي نفسه. وكان الصوت آتياً من طائرة استكشاف امريكية ظلت تحلق وقتاً فوق البلدة، وتنحدر كما لو شاء طيارها تبين المعالم بوضوح.

وكانت قلة من السكان البيض تملك جهاز راديو للارسال، ومنها كاهن البلدة. وفجأة قاطع الطيار ليقول: "من أنت كي تعرف جميع سكان البلدة؟"

وبعد صمت تبعه تشويش، جاء صوت من البعيد يقول: "ألست أنت الأب اوجين؟ كيف حالك يا أبت؟"

– على خير ما يرام. ولكن أنت، بالتأكيد...

"اني جندي امريكي أقصد السلام بعدما لقيت الامرين في حرب فيتنام. ولدي الآن مهمة في القطب الشمالي أوصلتني الى فضاء بلدتكم العزيزة".

واستمع الناس الى تنهد الشخصين. ثم قال الأب اوجين: "لقد فعل الموت فعله لدينا في الآونة الأخيرة. تاديوس توفي قبل سنوات. ويظن أن ايان توفي أيضاً. وهناك آخرون تقتلهم الوحشة. ألم تفكر اطلاقاً في كآبة الحياة ووحشتها هنا؟"

وحلقت الطائرة عالياً كأنها تغادر المكان. لكنها ما لبثت أن دنت من المنزل الذي كان لالسا وولدها في قطاع البيض.

وفجأة عاد الصوت يقول، بعبارات مازحة يخالطها الحنان: "مرحبا يا عزيزتي..." وتلا ذلك كلمتان أو ثلاث مشوشة، ثم تابع الصوت يقول: "يا امي العزيزة..." وسمع أحدهم الآتي: "سوف أراك يوماً". لكن الأب اوجين قال أن تلك الجملة كانت كما يأتي: "سوف تتبلغين أخباري يوماً".

هذا كان كل شيء. ولما ركض الناس خارج بيوتهم لينظروا الى الطائرة، كانت قد غابت عن البصر.

وتسارعوا من منزل الى آخر لنقل أخبار الحادث، وأخيراً قر رأي مجموعة من جيران إلسا القدامى على زيارتها وتهنئتها. وراح كل منهم يضيف شيئاً من قلبه وخياله الى الحقائق العارية التي اختلطت بالاوهام الى حد يتعذر معه فصل الواقع عن الخيال.

لكنهم لم يجدوها في الكوخ، على رغم أن بابه السحاب كان مفتوحاً. وكان فراشها غير مرتب وقد علقت أسمالها القذرة بمسمار وبدا الكوخ كله مضطرباً كأنما إلسا كانت تفارقه معظم الوقت. وما لبثوا أن وجدوها على الشاطىء، تحتمي من الريح وراء صخرة وقد خلا وجهها من أي تعبير وغلب عليها النعاس من فرط الساعات التي أمضتها مستسلمة لمنظر النهر. وقالت انها شاهدت الطائرة هي أيضاً، ولما دنت منها وضعت يديها على رأسها لتتقي هديرها.

وبعدما أخبروها ما حدث، قالت انها شعرت حضوراً أليفاً يلازم تلك الطائرة. ولم تكتفِ بتصديق كل ما رواه الجيران، بل ظنت أن الحقيقة تتجاوز رواياتهم كثيراً. ولم يصعقها الحادث. ذلك ان ابنها الذي سلبه الفضاء يوماً، عاد ليتحدث اليها من الفضاء، ومر من فوقها عبر الفضاء.

ومن تلك اللحظة أمضت معظم أوقاتها في سماع الحادث يروى عليها مرة بعدمرة بتفاصيله ودقائقه. وكانت تذهب من منزل الى آخر لتلك الغاية، عل أحدهم يضيف عنصراً جديداً.

وذات يوم تذكر أحدهم أن الصوت قال الآتي: "أنا جيمي كوماتشوك، واني اخاطب امي إلسا كوماتشوك". وما أن سمعت ذلك الخبر الجديد حتى فرت الى عزلتها على الشاطىء لتستمتع به وحدها. وظلت تسير ساعات على الشاطىء، لا يقر لها قرار ولا تتمكن من لجم عاطفتها الجائشة.

وما انفكت تطرح هذا السؤال: "هل بدا، من صوته، أنه سعيد؟"

وقال بعضهم وقد هزته عاطفة الأم، ان الصوت بدا لشاب لا يعرف الهم طريقاً اليه. وسُرّ هؤلاء للأثر الذي خلفه جوابهم في إلسا، إذ عاد الى وجهها بعض اشراقه القديم. غير أن الاب اوجين هز رأسه. فقد تبين له أن عرض العضلات في الفضاء، إن دل على شيء، فعلى أن جيمي بات مغروراً ومنحرفاً. وبعد ذلك لم تعد إلسا تقصده البتة ليخبرها الرواية.

أما الآخرون الذين ظلت تلاحقهم فقد طرحت عليهم الاسئلة الآتية: هل تأكدتم من أن المتكلم كان جيمي نفسه؟ هل ذكر أنه سيمر ثانية فوق البلدة؟

وهل سيهبط بالطائرة يوماً ما؟

ومع الأيام توصل الناس الى الاجابة عن أي سؤال تطرحه إلسا عليهم حول الأمر، وهم لا يقصدون سوى تهدئة روعها.

لكنها كانت تصر على التأكد من الخبر قبل تصديقه. ذلك أن عودة وحيدها تحتم عليها صرف الوقت كله استعداداً. وهذا يعني انتقالها الى المنزل السابق وترميمه والحصول على أثاث وصنع ستائر وخياطة رداء يليق بابنها وتعود الأحذية من جديد. وبعد استغراقها في تلك الافكار وصعوبة تحقيقها، كانت تنظر الى محدثيها علها تقرأ في أعينهم أن جيمي لا يعدو كونه حلماً... أو ليست عودته في الحلم أفضل منها في الواقع؟

وانقضت أشهر وبعدها سنون. ثم انقطع الكلام عن ذلك الحادث.

وسقطت معظم الاسنان من فم إلسا وتقوس ظهرها وغارت عيناها. وكانت، والسيجارة لا تبارح شفتيها، تهيم على شاطىء النهر مهما تكن حال الطقس. وبات الجميع، حتى جماعتها، يعدونها واحدة من البدو الرحل الذين لا سبيل الى تقويمهم. وكانت تقضي معظم الوقت خارج كوخها، ويرى بعضهم، من حين الى آخر، طيفها الضئيل تحت الشمس أو فوق الثلج أو وسط العواصف.

ومع عودة الصيف كانت تحث الخطى تحت السماء الفسيحة وإزاء سلسلة الجبال القديمة التي هي أجرد جبال المعمورة.

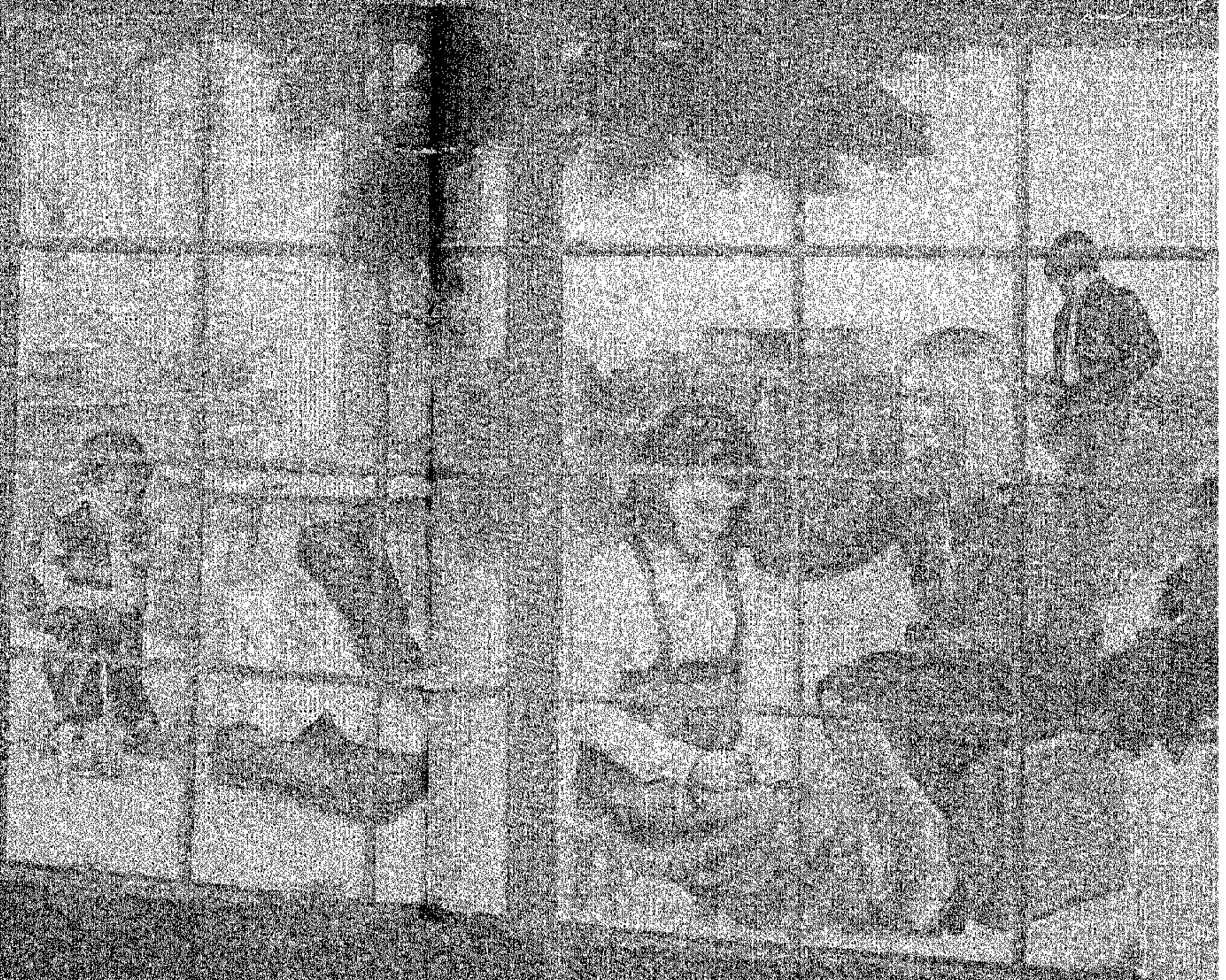
وعند الغسق كانت تقف. وتتلبث ثم تنظر الى الكون في أبهى أوقاته. ولا تلبث أن تنحني فوق الارض لتلتقط بعض الاشياء، ومنها حصاة ذات لمعان أزرق أو بيضة عصفور أو خيوط نباتية، علها اذا لمستها تلمس معها شعراً طفولياً ناعماً كالحرير. ثم تعيد تلك الاشياء لتتكاثر وتمتد.

لكنها، قبل ذلك، تفصلها خيطاً خيطاً وتنفخها في الريح، وقد ارتفعت من حطام وجهها بسمة أمل مع المساء.

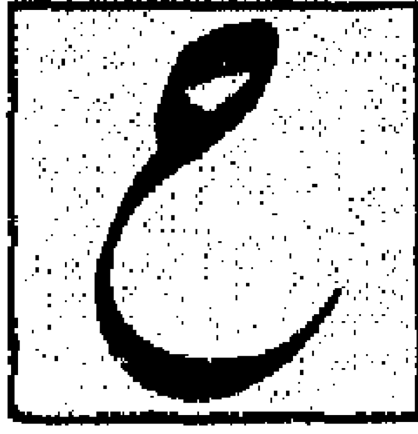
■ **غابرييل روي**

...والآخرون يرثون الجنة

[illegible]



...والآخرون يرثون الجنة



حقاً أن ذلك الصف أوجد نفسه بنفسه. ثمة قانون في الفيزياء يقول ان الطبيعة تكره الفراغ. ويبدو أن الطبيعة كانت على أشدها ذلك الخريف، تحاول أن تملأ فراغاً غاب عن أنظارنا. وفجأة كان هناك صف لم يخطط له أحد منا.

وكنت أمضيت أربع سنوات في تعليم الاولاد الذين يعانون اضطراباً نفسياً خطيراً. ثم أصدرت حكومة الولايات المتحدة قراراً يحمل الرقم "٩٤ ـ ١٤٢" عرف بـ"قرار التطبيع". وهو يقضي بوضع التلاميذ المتخلفين عقلياً أو جسدياً في صفوف التدريس العادية لرفع معنوياتهم وجعلهم جزءاً من المجتمع. وهذا القرار يلغي الصفوف المغلقة كتلك التي علمت فيها، حيث كان الاولاد المتخلفون يعزلون عن الآخرين ويتاح لهم التصرف كيفما شاؤوا. ومن شأن هذا القرار ازالة الفوارق الاجتماعية بين افراد "طبيعيين" وأفراد "متخلفين".

وهكذا نقل تلاميذي الى مدارس عادية، وأنا معهم. وكانت الادارة ترسل اليّ تلاميذ الصفوف الابتدائية الذين يعانون مشكلات في الاستيعاب لأدرس كلا منهم نصف ساعة يومياً، بمفرده أو مع واحد سواه. وكان علي أن أبذل غاية جهدي لمساعدة كل منهم في الحفاظ على مستوى صفه، خصوصاً في القراءة والحساب. وبما أن هذا يعني أني لم أكن مسؤولة عن صف واحد، فقد رأيت الفراغ يتكون حولي. وبينما كنت اتناول طعام الغداء في غرفة المعلمين ذات يوم، دخل بيرك جونز، المسؤول عن التربية

Condensed from «Somebody Else's Kids», copyright (c) 1981 by Tory L. Hayden,
published by G.P. Putnam's Sons, New York, N.Y.

الخاصة في المقاطعة، ووقف قبالتي وهو يدخن غليونه.

وقال بيرك: "لدي مشكلة صغيرة. ومشكلتي صبي في السابعة من عمره، أظن أنه من اولئك الانطوائيين الذين يهربون من الواقع ويسترسلون في التخيل. وهو دائم الحركة والدوران ومخاطبة نفسه. أما معلمة حديقة الاطفال المسؤولة عنه فقد طفح كيلها منه. وهذا حداني على التفكير في نقله الى صفك يا توري".

وصمت بيرك وهو ينتظر ما اذا كنت سأجيبه فوراً أم سأغص في الطعام. لكنه أضاف: "انه يحضر نصف النهار فقط. ألا يمكنك أن تعطيه دروساً خصوصية اسوة بالآخرين؟"

- لكن وضعي الراهن، يا بيرك، لا يخولني تدريب الاطفال الانطوائيين. وكل ما يمكنني فعله الآن هو اعطاء مواد مدرسية.

وهز بيرك كتفيه وهو يقول: "سنفعل شيئاً بالنسبة الى هذا الأمر".

وهكذا تقرر أن يأتي هذا الصبي يومياً في الاولى الا ثلثاً بعد الظهر، وينتظر في الغرفة حتى الثانية موعد انصراف الآخرين، ثم ادربه بمفرده ساعة ونصف ساعة وهو الوقت الباقي من الساعات المدرسية. ولم يكن بيرك يأبه لما قد يفعله الصبي بالغرفة، وان عبث بها كما عبث بروضة الاطفال. ومن حسن الحظ أنه كان لدي ما دعاه بيرك "الخبرة"، أي اني لم أكن ألجأ الى الاهتياج والصراخ.

وكان اسم الوافد الجديد بوث بيرني فرانكلين. وقد دعته امه "بوث بيرني" أما اخته ذات السنوات الثلاث فكانت تناديه "بو". وأعجبني هذا التصغير فتبنيته.

وبدا أن ثمة سحراً ملازماً لذلك الصبي، كما لمعظم الاولاد الذين أعلمهم. وكانت تعابير وجهه مزيجاً من الحقيقة والوهم على غرار ما يراه المرء في الاحلام. وكان شعره كتلة كبيرة من الخصل السوداء وعيناه خضراوين تنطويان على لغز. وكان لون بشرته كلون الشاي بالحليب، ذلك أن أحد والديه أسود والآخر أبيض.

ووقف دونما حراك عند فتحة الباب حيث تركته أمه. وانحنيت الى مستواه وقلت: "أهلا يا بو! اسمي توري، وأنا معلمتك الجديدة. من الآن فصاعداً ستأتي الى هذه الغرفة، غرفة صفك".

وكرر ما قلته باللهجة نفسها: "هذه الغرفة، غرفة صفك".

وتابعت: "تعال الى هنا. سأريك أين تعلق كنزتك".

وقال بصوت لا يرتفع عن الهمس: "سأريك أين تعلق كنزتك".

ونهضت ومددت يدي نحوه. غير أنه بقي بلا حراك. وراح يضرب أصابعه بنزق على جانبيه. وكان هناك ولدان آخران من الصف الابتدائي الرابع جلسا ينظران اليه مشدوهين.

ومن غير انذار سابق زعق بو بأعلى صوته كأرنب علق بين الأغصان، وسقط على الارض يتلوى ويداه فوق عينيه. ونهض قبل أن أصل اليه مطلقاً صوتاً كصفارة إنذار. وارتفعت ذراعاه فوق رأسه بحركات محمومة،



توري هايدن.

ثم وقع من جديد وراح يضرب رأسه بالأرض. وحاولت رفعه، لكنه كاد أن يكسر يدي. ودار باهتياج حول الغرفة قبل أن يخرج.

وعثرتُ عليه تحت طاولة في صف خال، صامتاً وجامداً كتمثال. وكان علي أن أحمله لأعيده الى الصف.

وانقضت الحصة الاولى. وكان بو أمضى الدقائق التسعين الاخيرة، بعد انصراف التلاميذ، تحت سجادة في الصف على اثر فورة مسعورة خلع فيها ملابسه كلها. وفي الثالثة والربع سحبته من مكانه لألبسه. ولم تصدر عنه أي حركة. وحدثته عن الغرفة وعما سنفعله معاً وعن الاولاد الذين سيقابلهم. وكنت، وأنا أتكلم، أراقب عينيه فلا أرى شيئاً.

وبدأ يقول شيئاً وأنا أتكلم. لكني إذ توقفت عن الكلام صمت هو أيضاً. فسألته: "ماذا قلتَ يا بو؟"

ـ الحرارة القصوى اليوم ستكون نحو ١٨ درجة مئوية، والحرارة الدنيا هذه الليلة بين ست درجات وثماني درجات. واحتمال سقوط المطر هو ٢٥ في المئة نهاراً و١٠ في المئة ليلاً. وغداً يرتفع هذا الاحتمال الى ٥٠ في المئة.

وبقي يتكلم وأنا أزرر قميصه، مكرراً ما قاله عن الطقس كلمة، كلمة، كالببغاء. واذا شاء أحد أن يعرف العبارة المستخدمة علمياً لوصف هذه الحالة، فهي "المصاداة المؤجلة"، أي الترديد المَرَضي لما يقوله الآخرون.

"اني أمقت القراءة"

يا لها من طفلة جميلة حقاً، لوري يواكيم! لقد بدت لي آتية من عالم الأحلام الجميل. فشعرها الطويل يصل الى خصرها. وهو، على كثافته، أملس لامع. وفمها واسع ولين وسريع الى الابتسام.

وكان السيد والسيدة يواكيم تبنياها وهي في الخامسة، مع شقيقتها التوأم ليبي. وكانت لوري لقيت سوء معاملة في بيتها الوالدي الأول. وكسرت جمجمتها على أثر ضربة مما حشر احدى العظام في الدماغ. وأظهرت صور الأشعة تصدعاً في تلك المنطقة من الرأس أدى مع الوقت الى الوقوع بداء الصرع. ومن عواقب ذلك التصدع أيضاً اعاقة الطفلة عن استيعاب الرموز المكتوبة. لكنها كانت عادية في المسائل التي لا تقتضي الكتابة، وكان مظهرها

الخارجي طبيعياً ولا ينم عن أي تخلف. ولهذا السبب كان الناس - وأنا بينهم - ينسون عاهتها.

وعلى رغم أن اسم لوري لم يكن مع أسماء تلاميذي لدى بدء المدرسة، إلا أنها ظهرت على بابي بعد اسبوع مع معلمة الصف الأول إدنا ثورسن. وأغلقت ادنا الباب وراءها وقالت لي ان هذه الفتاة بطيئة الاستيعاب وان الحروف لا تدخل رأسها حتى بالعنف!

وهكذا رحت أصرف نصف ساعة مع لوري عصر كل يوم، محاولة أن ألقنها كتابة الحروف الهجائية، بدءاً بحروف اسمها. واستهللت الدرس بحرف واحد هو "اللام". ورسمت هذا الحرف على عدد من البطاقات الملونة، وطلبت اليها أن ترسم حرفاً مماثلا. وجعلتها تقلد ذلك الحرف مراراً، ورسمته على كفها وذراعها وظهرها وأنا أقول طوال الوقت: "لام... لام... لام..." حتى ضج الرواق خارج الصف بصوتي وصوتها. ثم بدأت معها حرف "الواو" معتمدة الطريقة عينها.

وانقضت معظم أيامنا كالآتي: كنت أرفع بطاقة ملونة تحمل حرف "الواو"، وأسأل لوري: "ما هذا؟" فتصيح بمرح: "انه ميم".

- انظري الى شكله المدور. ما هو الحرف الذي يشبه الدائرة؟

"نعم، نعم! انه حرف الباء".

- تذكري، يا لوري، أننا نعمل على "اللام" و"الواو" فقط، فمن أين جئت بهذا الحرف؟

"أجل، أجل".

- انظري جيداً: انه مدور. ما هو الحرف المدور مثل فمك عندما تلفظينه؟

"سبعة؟"

- السبعة رقم! واني لا أبحث عن رقم بل عن حرف: عن "الواو" أو عن "اللام"!

وتدوِّر لوري شفتيها مثلي، وتدنو إلي وهي تقول: "ل... ل... لام". لكني أهمس: "ا... ا... او". فتصيح أخيراً: "نعم، نعم، انه حرف الواو". وأقول لها: "حسناً، حسناً أيتها الفتاة". وأرفع حرف "الواو" من جديد، لكنه أحمر عوضاً عن الازرق هذه المرة، فتقول لوري: "ثمانية".

وفي اليوم الذي تلا وصول بو الى الصف جاءت إلي لوري باكية، فسألتها: "ما الامر يا عزيزتي؟"

وجذبت كرسياً جلست عليه وهي ترتجف: "اني لم اجد وقتاً للراحة ولم أتمكن من كتابة فرضي كما ينبغي".

- لكنك تكتبين فرضك في هذه الغرفة، معي.

"السيدة ثورسن بدلت هذا الأمر. وجميع تلاميذها الآن ينجزون فروضهم قبل الاستراحة. واذا أنهى أحدهم عمله سريعاً، فهو يبدأ فرصته للحال خارج الصف، إلا أنا. فقد فرض علي أن يكون عملي صحيحاً قبل السماح لي بالخروج. وبذلت أقصى جهدي، لكن أجوبتي كانت خاطئة. لذلك فرض علي البقاء في الصف واعادة الفرض، بحيث لم يبقَ أي وقت أصرفه خارجاً".

وبعد الدوام ذهبت الى ادنا ثورسن لبحث الأمر معها. ونحن صديقتان على رغم عدم اقراري بجزء كبير من طرائقها ونظرياتها التربوية. إلا أنها، من ناحية اخرى، اوسع خبرة مني، وهي عرفت عدداً من التلاميذ

يفوق ما عرفته لذلك كنت أقدر آراءها.

وراحت إدنا تقول بصبر ورزانة: "هذا امر ينبغي أن تتعلميه: لا يمكن أن تشبعي رغبات هؤلاء الاولاد المختلفين عن سواهم، خصوصاً في الصف الابتدائي الاول. ويجب ان تعلميهم من هو القائد. ان لوري تحتاج الى تطبيع، وان لها من عقلها ما يجعل هذا ممكناً. فلا تدعيها تخدعك بمتطلباتها. والطريقة الوحيدة لحمل أمثال لوري على التكيف هي رسم حدود لهم".

وهكذا، في اليوم التالي أيضاً، أبقيت لوري في الصف خلال الاستراحة. ولم يكن اليوم اللاحق مختلفاً، ولا الذي بعده.

وما ان حل يوم الاثنين حتى كانت المسألة بلغت حدها. ولم تظهر لوري في الوقت المعين لها لدخول غرفتي. وتبين لي أنها أحيلت على الادارة لأنها رمت دفتر الفروض عبر غرفة الصف.

وذهبتُ الى الادارة وأنا أجر بو ورائي لأعود بالاثنين معاً. وأسرعت لوري الى طاولتها فيما أقفلت الباب ورائي بقفل صغير أحضرته لهذه الغاية.

وكان على طاولة لوري كتاب للمبتدئين أحضرته لتعليم الآخرين. وبعد القاء نظرة خاطفة على ذلك الكتاب رمته لوري عبر الغرفة بضربة قوية. لكنها أحضرته بنفسها وراحت تنظر الى رسومه وتقول: "اني أمقت هذا المكان. لا أريد أن أقرأ، فأنا أكره القراءة".

ورفعت الكتاب وأخذت تضربه على الطاولة بفورة غضب. وبعد انفصال الصفحات عن الغلاف راحت تصفقه على النافذة. وما لبثت أن استدارت وركضت نحو الباب، وسقطت أمامه إذ لم تكن تتوقع ان يكون مقفلا.

أما بو وأنا فوقفنا بلا حراك. ووسط ذلك الصمت المطبق كنت أسمع يدي بو تضربان جانبيه، اضافة الى بكاء لوري المر والخافت.

وهكذا اصبح لدي صف، وبت مسؤولة عن لوري وبو طوال بعد الظهر، ونقل التلميذان الآخران الى الفترة الصباحية. وهكذا بت أقضي مع لوري وبو ثلاث ساعات يومياً. أجل، اصبح لدي صف، في نظر الجميع، على رغم أني كنت مصنفة كمعلمة للحالات الخصوصية.

"هذا يجعلني أبكي"

كنت أحتاج الى مساعدة الأهل لتزويدي بالمعلومات الناقصة. وعقد لقاء بين الأهل والمدرسين في ٣١ اكتوبر (تشرين الأول). وفي سلسلة لقاءات مع السيد يواكيم، والد لوري بالتبني، فهمت اموراً عدة. إلا أن الحال كانت تختلف بالنسبة الى السيدة فرانكلين والدة بو. فعندما كانت تأتي به الى المدرسة، كانت تتركه على الباب وتغادر من غير أن تدخل. وكلما خابرتها في المنزل لم تجد وقتاً للكلام معي.

لكنها، في اللقاء المذكور، كسرت جدار الصمت وسألتني: "كيف ترين انجاز ابني؟ هل تمكنت من تلقينه الكلام؟"

— أظن أنه غير ناضج بعد لهذا الأمر.

"اني لا أريد أن يصنف في عداد المتخلفين. أما زوجي فيقول ان الادارة ستضع بوث بيرني مع ذوي العاهات اذا عجز عن الكلام في أسرع وقت".

وقلت للسيدة فرانكلين: "ان بو ليس متخلفاً. كل ما في الامر أنه مختلف عن سواه". لكن وساوس تلك الأم كانت كبيرة بحيث لم أستطع تهدئتها بسهولة. وتحدثنا سحابة من الوقت، وتسلل هواء الخريف المنعش من النوافذ نصف المفتوحة ليطرد الهواجس النفسية الملبدة. وجاء الغسق، واكفهر معه لون أوراق الخريف على الارض خارجاً، ونحن ما زلنا نتحدث.

إن بو بدا طبيعياً في أعين ذويه خلال الاشهر الاولى من حياته، على رغم بطئه في الجلوس والمشي. وهو تعلم أن يردد بضع كلمات ومقاطع من أغاني الأطفال. لكنه لم يقل "ماما" أو "بابا" مرة واحدة. ولدى بلوغه الشهر الثامن عشر ظهر تبدل في حياته، إذ راح يستغرق في نوبات بكاء طويلة. وكان يهتز في سريره ليلا ويضرب رأسه بالجدار. وكانت الأنوار والظلال وأصابع يديه هو تثيره أكثر مما يثيره الاشخاص الذين حوله. ثم انقطع عن الكلام.

ومنذ ذلك الوقت حتى وصول بو الى صفي، كانت حياة والديه مفعمة بالعذاب النفسي والمادي. ولقي السيد فرانكلين وزوجته الأمرين من أفراد عائلتيهما الذين عارضوا ذلك الزواج المختلط. وكان بو، كلما أرسل الى مدرسة، أصدر تصنيف جديد لحاله ووضع اللوم على ذويه. لكنهما شخصان بريئان لم يقترفا شراً، فلماذا جاء بو حاملا هذا العذاب؟ لماذا تصيب المحن من لا يستحقها؟

وقالت السيدة فرانكلين وهي تخفض أنظارها الى سطح الطاولة الصقيل: "ان وضعنا صعب جداً. وشقيقتي تكتب إلي دائماً عن ابنها الذي يصغر بو بأربعة أشهر وتخبرني ما يفعل. انه في سنته الابتدائية الثانية. وقد اختارته الجمعية الخيرية للغناء في جوقتها". ونظرت إلي وأضافت: "كل ما اريده هو أن يناديني بوث: ماما".

أما السيد يواكيم فعبر عن انشراحه بنقل لوري من الصف الأول الى صفي انا، نصف الوقت. فهي تحتاج الى عناية خصوصية، ولم تفته ملاحظة الاجهاد الذي تولد لديها بعدما أخفقت في تحقيق متطلبات ادنا ثورسن. وتابع: "اني قلق جداً على لوري: ليس على مستواها في القراءة، إذ لا أشك في أنها ستتعلم القراءة حين يراد لها ذلك، ولكن على تلك الاشياء الصغيرة التي تفعلها لتقنع نفسها بأن الاخفاق لا يهم. اني، وأنا وحدي ليلا، لا أنقطع عن التفكير فيها. واعذريني إذا أخبرتك أن هذا يبكيني أحياناً".

إن حياة السيد يواكيم مشبعة بالمآسي. وقد رزق وزوجته طفلة واحدة ماتت قبل سنوات. وبينما هما ينهيان معاملات تبني لوري وليبي، أصيبت السيدة يواكيم بالسرطان وتوفيت قبل بلوغ الطفلتين السادسة. وكانت حياة السيد يواكيم شاقة في السنة التي اعقبت وفاة زوجته. فقد وجد نفسه، وهو في الخامسة

والاربعين، المسؤول الوحيد عن تربية ولدين صغيرين. ومن حسن الحظ أن ليبي كانت طبيعية. ووجد نفسه مضطراً الى تبديل اقامته ليكون قريباً من بيت المربية. وترك وظيفته كرئيس للمهندسين في شركته، وبات يصرف معظم وقته في البيت - في منزل أصغر يلائم راتبه الجديد - منصرفاً الى تربية الطفلتين. وظهر الهم على وجهه وهو يقول انه طالما شك في صواب قراره الامتناع عن الزواج ثانية. لكنه أضاف: "انهما تحتاجان الي وأنا أحتاج اليهما، وهذا يقنعني بأني لم أجانب الصواب".

"أبي يهمه أمري!"

الولد الثالث كان توماسو. وقد جيء به الى الصف بعد مخابرة صباحية من بيرك جونز. ووقفنا يحدق أحدنا الى الآخر والباب يتوسطنا. وأخرج ذراعيه المهزولتين من كمي سترة نايلون سوداء، ونظر بعينين مغتاظتين يعلوهما رأس يتدلى منه شعر سَبط دبق. وأيقنت أنه من أبناء عمال المزارع الذين يهاجرون من مكان الى آخر مع المواسم. وكان، وهو في العاشرة، ذا يدين قاسيتين اختبرتا العمل في الحقول.

وسأل توماسو بصوت مرتفع: "ما هذا المكان الحقير؟"

وتفحصته لوري بنظراتها ثم قالت: "هذا هو صفنا".

وقال الفتى بالاسبانية: "ديبوس ميو!" أي: "يا إلهي!". وتابع: "لقد وضعوني في صف لعين للاطفال". والتمع الغيظ في عينيه القاتمتين كالشرر في الغصون الخضراء. ورمق بو وهو يقول: "دعوني خارجا! اني أرفض المكوث في مكان يحوي شخصاً أسود".

ودار توماسو حول المكان وانتزع كرسياً مرره حول رأسه ثم رماه عبر الغرفة. وأطلقت لوري صيحة حادة طويلة، فيما اختبأ بو تحت الطاولة. وبدا أن توماسو راقه رد الفعل ذاك. وراح يركض في الغرفة وهو يرمي الكتب عن الرفوف، ثم نظف طاولتي من الأوراق ومزق الغلاف الذي تضع فيه لوري أوراقها ونثره في الهواء. بعد ذلك استدار نحوي وقال: "إنك الآن تكرهينني حقاً! أليس كذلك؟".

وكان ذهني يعمل بسرعة علّه يجد حيلة يصد بها ذلك الفتى عن أفعاله والا عاث فساداً في الغرفة كلها. وما هو أدهى من هذا انه ربما آذى أحداً. ولم أتوقع أن تكون لدى ذلك الفتى القدرة على احتمال البقاء اذا تصرفت على نحو لا يروقه.

وقال بغضب: "ألا يمكنك الكلام؟ لماذا لا تثورين في وجهي؟ أأنت معلمة مجنونة؟".

وانتظرت من غير أن أتفوه بكلمة. وتراءى لي أن توماسو لا يريد أن ينصرف حقاً. وأعدت المقاعد الى وضعها والأوراق الى طاولتي، وانحنيت لأرفع بو من تحت الطاولة وناديت لوري باسمها. وبينما كنت احضر البطاقات الملونة التي تحمل حرفي "اللام" و"الواو"، اخذ بو يهتز الى الوراء والأمام ويحرك أصابعه فوق وجهه على نحو عابث.

وسألني توماسو: "هناك امر غريب حول هذا الولد! لماذا يحرك يديه هكذا؟"

ـ بو يفعل هذا عندما يدهمه خطر غير متوقع. وأظن أنه بذلك يستعيد ثقته.

"بو؟ يا له من اسم قبيح! لا عجب أن تكون حركاته شبيهة باسمه... وتلك الفتاة، ما مشكلتها؟"

وأجابت لوري وهو يشير اليها: "ليس هناك أمر غريب حولي. أخبرني كيف يسمح لك أبوك بأن تقول كلمات كهذه؟ إن أبي يوبخني اذا هو سمعني أتكلم مثلك".

ولم يكد توماسو يسمع ذلك الكلام حتى تبدلت ملامحه وقال: "سأسحق وجهك الصغير حالا اذا لم تطبقي فمك. إن أبي يهمه أمري. وهو الآن في تكساس. واذا عرف أنهم وضعوني في هذا المأوى الحقير بين أطفال سذج، فسيأتي ويأخذني فوراً".

وفي الاستراحة جاءت معلمتان وأخذتا الأولاد الثلاثة الى الملعب، فذهبت الى مكتب الادارة لألقي نظرة سريعة على سجل توماسو. وعرفت أنه واحد من مئات الاولاد المتنقلين الذين يؤمون هذه المنطقة مرة في السنة، وان تربيته المدرسية كانت متقطعة. لكن أهم ما يلفت في سجله، وضعه العائلي. فأمه توفيت وهو طفل صغير، وتزوج أبوه ثانية. وكان توماسو في الخامسة عندما سددت زوجة أبيه طلقات نارية قاتلة الى زوجها وولده الأكبر، على أثر مشادة عائلية وعلى مرأى من توماسو. وبعد ذلك تولى انسباء الطفل ارساله الى بيوت حضانة بلغ عددها العشرة. وقد رفضته كلها بسبب "شخصيته اللا ـ اجتماعية" و"عجزه عن مصادقة الآخرين". وهكذا وجد طريقه الى صفي.

ومر العصر ببطء مضجر بعدما رفض توماسو أن يفعل شيئاً، فيما بقيت لوري مغتاظة وغابت خيالات بو في عالم آخر.

وسألت لوري وأنا أرسم حرف "اللام": "ما هذا يا لوري؟"

وتحركت في مقعدها واختلست النظر الى توماسو لترى إن كان يراقبها ـ وهو كان يراقب ـ وقالت: "راء؟"

فصرخ توماسو: "راء؟ يا الهي! هذه الفتاة غبية. ألا يمكنك أن تقرأي؟ هذا الحرف ليس راء".

وصاحت لوري: "انك تخرجني عن طوري. ويبدو أنك تسعى الى أن يبغضك الناس".

وأخذ توماسو يقهقه ويقول: "راء".

بعد ذلك طلبت الى لوري وبو أن يحوكا بعض الاشغال على نول، وتوجهت الى توماسو لأبحث معه بعض المبادىء الأساسية. ولما رآني أقترب أسرع الى خزانة تحت المغسلة، تسلل اليها وأقفل الباب وراءه، وراح يصيح من الداخل: "عندما يكتشف والدي أنهم وضعوني في هذا الصف النتن، فسيأتي ويأخذني حالا لأعيش معه".

وقالت لوري بصوت هادىء: "اتدري؟ لقد كنتُ في بيت حضانة ذات مرة".

وسألها توماسو: "لماذا وضعتِ في بيت حضانة؟".

فأجابت: "لا أدري بالضبط. لكني أظن أن أهلي ضاقوا ذرعاً بي".

وخرج توماسو من مخبأه وسألها: "ألم تشتاقي الى ذويك؟"

فهزت لوري كتفيها وقالت: "كلا. ان لي عائلة اخرى الآن".

وأضاف توماسو: "وأنا أيضاً". وبعد دقائق من الحركة على غير هدى نظر الي وقال: "أيتها الآنسة، ألديك شريط للربط؟"

وأخبرته أين يجد الشريط، فقفز من مكانه وعاد في هنيهة. ووضع أوراق لوري في حضنها ثم ربطها معاً وقال: "اعذريني أيتها الفتاة على ما فعلت. إنك تبدين اسبانية، الست هكذا؟"

– لا أظن أني اسبانية. فأنا من بفالو في نيويورك.

"ادعيني توم"

إن اكثر ما يحزن في كوننا بشراً هو مقدار جهلنا. ولكن من السهل جداً، في تعاملنا مع طفل، أن نظن أننا من المعرفة بحيث لا نخطىء، في حين أن الحقيقة مغايرة لهذا الاعتقاد. ولقد حاولت أن أتذكر هذا الأمر، فأملأ ذهني بمواقف الحياة اليومية ولا أكتفي بمعطيات الكتب المدرسية المملة. ولم يكن هذا بالأمر الهين، اذ جعلني افتش عن حلول لتعقيدات الواقع.

ولم ينفك توماسو يتحداني. وكان مزاجه على تبدل دائم. فهو تارة هادىء ومطيع وطوراً غاضب ورافض. وظللت أسعى الى أجوبة عن دوافع أفعاله حتى عاودتني أوهامي بأني كلية المعرفة.

وذات يوم كنا نغرس بصل زنبق الياقوت كي يفتح قسراً في يناير (كانون الثاني) أو فبراير (شباط). وحول عملنا ارض الغرفة خطوطاً من التراب وملأها بالاوعية وأوراق الصحف والملاعق.

والتقط توماسو ملعقة لوح بها مهدداً: "اريد أن أغرس الياقوت في وعاءين، أحدهما لي والآخر لأبي".

فأجبته وأنا لا أدري كيف اعالج مسألة والده القتيل: "هذه الأوعية لنوافذ الصف، ولن نأخذها الى بيوتنا يا توم".

ونهض على قدميه بعدما أمطرني بوابل من الشتائم، وقال: "كلا، كلا، كلا! اني اريد حصتي من الأزهار أيتها اللعينة".

فقالت له لوري: "يمكنك أن تأخذ حصتي يا توماسو".

لكنه أجابها: "اذهبي الى الجحيم". ورفس الأوعية وحطمها وأضاف: "اني أكرهك".

ووقفت وضممته الى صدري، ولم احاول المقاومة وهو يدوس رجلي بقوة. وبعد قليل خمدت ثورته وانشرح، كعادته كل مرة. وعدنا نغرس بصل الياقوت في التراب، وتوماسو لا يقول شيئاً. وسألته: "كيف حالك يا توم؟"

– اسمي ليس توم. انه توماسو. وأنت تلفظينه كجماعتك من الرعاع.

وكان غيظه يقسي لهجته، ولم يعرف كيف يضع التراب حول الغرسات. فقذف الأوعية من جديد وقال: "لا اريد أن أفعل هذا، وانت المسؤولة عن اخفاق المهمة. ان والدي يعرف هذه الامور أفضل منك".

فنظرت اليه وقلت: "ان والدك يسبب لك الغيظ. أليس هكذا؟"

وسرعان ما أدركت أني تفوهت بحماقة ليس هذا مكانها، وان تكن عيادات، الاطباء النفسيين والكتب الاكاديمية ملأى بأمثالها.

وتجمدت أوصال توماسو وظهر الرعب في عينيه. وصفع اذنيه بيديه ووقع على جانبه كما لو أصابه ألم مبرح وأغمض عينيه. وراح يعول قائلا: "هذا المكان دائم الضجيج. انه يؤذي اذني، بل يقتلني. واني لأسمع الدم يجري في أذني... فأوقفيه".

وقبل أن أفعل شيئاً اندفع من مكانه وفتح الباب وفر خارجاً.

ورفع بو عينيه إلي، ووراء لونهما الأخضر عمق لا يدرك. واكتفى بقوله: "آه، آه، آه". وقلدته وأنا أشعر مثله.

وطفقت أبحث في الصفوف والخزائن حتى بلغت السيارات في موقفها. وأعدت التفتيش في الأمكنة نفسها وقد دار رأسي عندما تذكرت أني ساضطر الى مخابرة أولياء توماسو لاخبرهم أنه هرب.

ووجدته في ملعب المدرسة الخلفي مختبئاً تحت منصة وضعت عليها العدة المسرحية. ودببت على يدي ورجلي لأراه. ونظر الي بعينين سوداوين واسعتين ولم يقل شيئاً. أما أنا فبادرته: "اني آسفة يا توم، أو يا توماسو. ما كان يجب أن أتكلم كما فعلت. اعذرني لاثارة غيظك".

ـ ألا تستطيعين أن تطبقي فاك. ان كل ما تفعلينه هو الكلام، الكلام، الكلام. ألا يمكنك أن تصغي مرة واحدة؟

وجعلني كلامه أعي أنه ينطوي على بعض الصحة، فكففت عن الكلام. وراح أحدنا ينظر الى الآخر في ذلك القتام المغبر. وانقضت دقائق بدت مثل ساعات، أخذت خلالها المسافة بيننا تضيق.

وهمس توماسو: "لا تتركيني. اريد أن أقتل نفسي. لقد سئمت هذا العيش القاسي".

وزحفت حتى دنوت منه ما استطعت وأنا افكر في ما أقول. وأجبته وأنا غير متأكدة إن كنتُ سمعت كلماته بوضوح: "توماسو، ألا يمكنك أن تقبض على يدي؟ ادنُ مني قليلا".

ـ لقد مات أبي. وأنا اريد أن أموت أيضاً لأكون معه. اني ابن لا أحد. وكلهم يبغضونني.

"انا لا أبغضك يا توماسو. ولا أدري كيف اجعلك تصدقني. تعال لأضع ذراعي حولك".

لكنه لم يستجب لدعوتي. وانهمر الدمع من عينيه الى الأرض.

وقلت له: "اني أحتاج اليك يا توماسو. ادنُ مني كي أضمك بذراعي".

وأتى إلي وطوق عنقي وهو يقول: "لا تخبري الآخرين أني بكيت. فأنا كبير على البكاء".

ـ لا تكترث لهذا الأمر. اننا جميعا نحتاج الى البكاء في وقت أو آخر.

وأفلت مني ووقف يحدق إلي. ثم وضع يديه على خدي كما لو كنت طفلة يود إرضاءها. وابتسم كأنما يخفي لغزاً وقال: "سميني توم اذا شئت".

شهر المفاجآت

جاء شهر يناير (كانون الثاني) مليئاً بالمفاجآت، واولاها كلوديا التي رفعت عدد التلاميذ الى أربعة. وهي

دخلت الصف في اليوم الأول الذي تلا عطلة الميلاد، مع توصية من بيرك جونز أقل تحفظاً من توصيته التي رافقت توماسو.

أخبرني بيرك أن كلوديا في الثانية عشرة، وانها كانت الاولى في صفها وحسنة السلوك وفي السنة الابتدائية السادسة. وهي ابنة طبيب اسنان ومعلمة فنون. وكان سلوك كلوديا حسناً على الدوام حسب معلومات بيرك، ولا مشاكل في حياتها سوى مشكلة واحدة كبيرة،وهي أنها حبلى.

وقد زودتها مدرستها السابقة بجميع كتبها ودفاترها، وكان علي أن أدعها تجلس في صفي من غير أن يشعر بها أحد. وهذا جعلني احس أن غرفة الصف باتت مخبأ.

أصعب ما في الأمر كان شرح وضع كلوديا للتلاميذ الآخرين. ولما عرف توماسو بالأمر صاح: "حبلى؟ وتأتي الى هنا؟ ربما كان أفضل ألا تسمع لوري وبو بالأمر".

وبدت لوري ناقمة لأنها لم تفقه شيئاً من محادثة تنم على سمعها.

وشغلتنا كلوديا الى حد تبخرت معه جميع همومنا. وقد بلغ حياؤها مبلغاً جعلنا نحول أنظارنا عنها خلال الحديث إليها. وكان وجهها يحمر، ثم تعض شفتها وترفع كتفيها وتخبىء رأسها.

وكان بو مفاجأة الموسم الاخرى. وحاولت تكراراً حمله على الكلام. لكن وسائلي كلها لم تنفع. وبقي ينطق، كلما طاب له، كلمات خالية من المعنى. إلا أنه تعلم شيئاً ايجابياً، وهو الاصغاء وادراك ما يقوله الآخرون.

وذات يوم، بينما كان يؤدي دوراته المعهودة، مد يده فجأة نحو كلوديا وانتزع كتاباً كانت تحمله. وأخذت الكتاب منه وأرغمته على الجلوس وأنا أقول: "إنك ستجلب آخرتي يا بوث بيرني". فكرر ما قلته بصوت عال: "انك ستجلب آخرتي يا بوث بيرني".

وسألتني لوري: "هل اعطيه شيئاً يلعب به؟"

ـ كلا يا لوري. فهو محتاج كثيراً.

وأشرت الى بو كي يجلس، فركع على الارض وهو ينظر الي. وعدت أعمل مع لوري، فسمعت بو يتمتم. ولم أكترث لما يقول لأنه كان دائماً يتمتم. لكن لوري جلست تصغي اليه. وسألته لوري: "ماذا تقول يا بو؟"

فأجاب: "اترك هذا يا بوث. لقد قلت لك الف مرة أن تترك هذا. فلماذا لا تتركه؟"

وقلت للوري: "إنه يتفوه بكلماته المعهودة".

ورفع بو رأسه كأنه يتكلم الى شخص غير منظور، وراح يضرب جسمه بأصابعه ويردد دونما انقطاع: "انك ستجلب آخرتي يا بوث بيرني... اترك هذا حالا".

وصرخت لوري في وجهه كما في أذن أصم، وسألته: "اترك ماذا؟"

ومثل سائر خلال النوم، نهض بو ومشى ببطء أمامنا حتى بلغ موصلا كهربائياً وقف عنده ووضع اصبعاً فيه بحذر، وقال وهو ينظر الينا: "انتبه يا بوث! انه يعضك اذا وضعت اصبعك فيه".

وجعلني ذلك الحديث أجمد في مكاني. وظاهرة بوث هذه يدعوها المختصون "المصاداة الملطفة". إلا أن بو خاطبنا نحن، ولم يكتف بترديد الكلام لنفسه.

واستدار بو ملقياً ظهره على الجدار، ولوح باصابعه نحو مصدر النور فوقه. وقال: "النشرة الجوية تتوقع أن تكون معظم الأيام مشرقة في هذه المنطقة. ودرجة الحرارة القصوى في النهار صفر وفي الليل تراوح بين ستة وتسعة تحت الصفر. والأمكنة المنخفضة سيلفها الضباب".

"إني طفلة"

ظلت كلوديا لغزاً محيراً بالنسبة الي. وكان من غير الطبيعي أن أحملها على تركيب ثلاث جمل كاملة في اليوم. وعلى رغم أنها كانت تلميذة ممتازة، إلا أن خجلها أقام جداراً سميكاً بينها وبيننا.

وكانت كلوديا أكبر شقيقاتها الأربع. وفي ملفها وصفت عائلتها بأنها باردة ولكن بارزة في انجاز أفرادها. وكانت جميع تقارير الملف تشير الى الخجل كعنصر مكون لشخصية كلوديا.

والواقع أن اضطراب كلوديا النفسي لم يكن يقل عن اضطراب توماسو. والاثنان خلقا لي مشكلة. ولكن اذا كان الشخص المضطرب مصدراً دائماً للازعاج، فنحن نكتشف داءه ونبتكر له العلاج. أما اذا كان منغلقاً مثل كلوديا، فهو يقضي على نفسه من غير أن يدري به أحد.

وفي أحد الايام، بعد جرس الانصراف من المدرسة، بقيت كلوديا لتساعدني في ترتيب غرفة الصف. وكنا فرغنا لتونا من حصة رسم وتلوين بالأصابع.

وبادرتني بقولها: "أتعرفين؟ لا مانع لدي من الكلام عن الأمر".

وكان ذهني مشتتاً في مسائل اخرى، فسألتها: "عن أي أمر؟".

فأجابت: "عن الطفل".

وكانت خبرتي مع الذين باشروا طور البلوغ محدودة. لكن كلوديا أتعبتني لأنها تتصرف كالاطفال. وأردت أن أفهمها أني أكترث لها، لكني لم أدر كيف أنقل شعوري إليها. ووضعت ذراعَي حولها، فقالت: "اني خائفة... ماذا أفعل بالطفل؟ فأنا نفسي لست سوى طفلة".

أقلقتني كذلك التغيرات التي كانت تطرأ على لوري. ووعيت تلك التغيرات ونحن نمارس بعض الالعاب. وكنت أستخدم البطاقات الصغيرة الملونة لتعليمها القراءة، طالبة اليها أن تضع الحروف المتشابهة معاً.

في البداية كانت اللعبة مصدر تسلية لنا معاً. وكان يسرنا أن ننتظر لنرى من منا تبقى في يدها البطاقة الاخيرة من غير أن تجد شبهاً لها. وبما أن اللعبة تعتمد الحظ، فقد كان حظنا متساوياً. لكني كنت أخسر اللعبة عمداً كيما أتيح للوري ان تبتهج.

وهذا سرها كثيراً. وكانت تسجل أرقام كل منا على اللوح، وكان ذلك تمريناً جيداً لها. لكن اللعبة، على طرافتها، بدأت تحدث تغيراً لديها. ولم ادرك نوع هذا التغير باديء الأمر، الى أن نظرت الى اللوح عصر يوم فوجدت أن لوري ربحت اللعبة معظم المرات. وهذا أخافني.

وكنا قطعنا شوطاً في اللعب ذات مرة عندما نظرت اليها لأجدها مكبة على الاوراق وهي تحاول جمع ما تشابه منها بمشقة.

وقلت لها بهدوء، ولكن بصوت لا يخلو من السخرية: "أنا التي سأربح اللعبة هذه المرة".

فأجابت: "كلا، لن تربحي". ولم يكن في نبرتها أي نكتة.

ـ ولكن ماذا لو ربحت؟

وبعد صمت قصير رفعت لوري عينيها إلي، فقرأت فيهما ذلك التبدل الذي أتكلم عنه، وإن تكن حروفه خاطفة. ثم ابتسمت بلطفها المعهود وقالت: "الأفضل ألا تربحي".

وبقيتُ امارس تلك اللعبة معها. ويوماً بعد يوم ظللت أهددها بالربح واوقظ فيها ذلك الخوف الذي لا يسمى. لكنني كنت اغير فكري في اللحظة الأخيرة... الى أن كان يوم منعني وضع أوراقي عن تحاشي النجاح.

وما كادت لوري ترى ما حصل حتى ظهر على وجهها تعبير لا يوصف. وأخذ الصمت يكبر بيننا حتى نظر توم وكلوديا ليدركا ما حدث. وكان الدمع يغطي خدي لوري التي قالت لي: "كيف تفعلين هذا يا توري؟ كان ينبغي أن أربح أنا". واستحال ألمها غيظاً ورمت الاوراق عن الطاولة، وتابعت: "كيف يمكنك أن تكوني خسيسة معي الى هذا الحد؟ يجب أن تدعيني أربح". وأخذت تنتحب وهي خافضة الرأس وكتفاها ترتجفان. وأضافت: "ما حدث ليس عادلا. هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي ربحتُ فيه شيئاً، وها أنت تسلبينني ما ربحته". قالت هذا ورفست الطاولة.

والواقع أني كنت أدرك ما تعانيه لوري، لكني رفضت أن أدعها تستسلم للامور على نحو انفعالي. وكنت أود أن أرى ثمرة تعبي عليها ومحبتي لها، وأن أحملها على النجاح في القراءة. ولكن بدا لي في تلك اللحظة أن الجهد الذي كرسته لها ذهب هباء.

"جميل بالنسبة إلي"

سألت كلوديا بعد الدوام: "ماذا سيحدث عندما يولد الطفل؟"

ـ لا أدري.

"هل تبحثين هذه المسألة مع ذويك؟".

ـ هذا الأمر لا نتطرق اليه في البيت، بناء على طلب أبي، الا اني اريد الاحتفاظ به... أهذا ما أردت معرفته؟

"تريدين الاحتفاظ بالطفل؟ تقصدين أنك ستربينه بنفسك؟".

ـ نقتسم العمل انا وامي. أنا أطعمه واغير ملابسه، وهي تفعل الباقي.

"لكن امك، يا كلوديا، تعمل خارج المنزل طوال النهار. ألا نية لديك في اعطاء الطفل للتبني؟"

وظهر الرعب على وجهها وقالت: "كلا احتماً كلا! انه ولدي". وأخذت تشهق وتبكي ثم أضافت: "كيف يمكنك أن تقولي هذا لي؟ انك لا تعرفين تجربة الامومة. اني اريد هذا الطفل، وهو سيبدل أوضاعي". وبدت لي أكبر مما ظهرت في عين نفسي. فهي كانت تواجه مشاكل لا أعرف كيف أقف أمامها.

وقلت لها: "اني متأسفة يا كلوديا". وتوقفت عن الكلام إذ لم أعرف سبب تأسفي. وأظن السبب هو في اتخاذي موقف السلطة وأنا لا أملك الاجوبة المناسبة عن كل شيء.

وتغضنت جبهة كلوديا وقالت: "لماذا تهتمين بما أفعل؟ ان كلا منا هنا يأتي من عائلة مختلفة لا تخصك. فلماذا تكترثين؟" والتمعت الدموع في عينيها، لكنها لم تدعها تسقط.

وفي اليوم الذي تلا حديثي مع كلوديا كنت أجلس الى الطاولة أنهي غدائي. ودخلت لوري الصف وفي يدها ورقة، وقفزت الى حضني وهي تقول: "لقد حملت اليك شيئاً". ودلت رجليها عن جانبي وألقت ظهرها على صدري، فيما رفعت الورقة فوق رأسها لتطال أنفي.

وكانت الورقة تحمل رسم عصفور أزرق ذي جناحين أسودين وقدمين صفراوين. وبدا العصفور مترنحاً ككل ما كانت لوري تفعله بالورق. الا أن منقاره كان طافحاً بالسعادة. وقالت: "أظن أن هذا أفضل رسم أنجزته. وقد استخدمت له أفضل أقلامي الملونة ذات الرؤوس الحادة. ولم أتجاوز الخطوط هذه المرة. ألا توافقين على أن الرسم أفضل إنجاز لي من نوعه؟"

ـ آه يا لوري! انك على حق. هذا رسم يمكنك الافتخار به.

وأخذت لوري الرسم مني وحملته أمامها وهي تتفحصه بدقة. ثم قالت: "أتعرفين ماذا دار في خلدي وأنا أرسمه؟ لقد تبين لي أنه ليس في جودة صورة فوتوغرافية، لكني حاولت أن انجزه خالياً من كل عيب. إلا أنه، على هذا، ليس كاملاً".

ـ لا تقولي هذا يا لوري! فالرسم جميل، وهو أفضل من أي صورة فوتوغرافية قديمة.

"ليس هذا ما أقصده. وأنا أعني أنه لم يأت كاملاً بالنسبة الى تصميمي له. ولئن يكن الجزء الظاهر منه ناقصاً، فالجزء الخفي كامل كما أشاء. انه كامل في ذهني. لذلك لا يحزنني النظر اليه، فانا أعرف أنه كان ممكناً أن يأتي كاملا".

ونظرت الي مرة اخرى وقالت: "أتعرفين ما أقصد؟".

وهززت رأسي وقلت: "أجل، أظن أني أعرف".

ـ الاشياء ليست كاملة قط. ولكن اذا حاول المرء أن يراها هكذا داخله، فهي إذ ذاك كاملة. وهذا يجعل الامور جميلة بالنسبة إلي.

ولم يعلق رسم العصفور الازرق على لوح الصف، بل أخذته معي الى البيت وعلقته على الجدار فوق سريري ليذكرني، مرتين في اليوم على الأقل، بالكمال في عالم من النقصان.

"إنها حفلتي الاولى"

اقترب عيد ميلاد توماسو الحادي عشر. ترى كيف نحتفل به لنجعل منه ذكرى خاصة؟

من ناحية، كان توماسو يحب أن يكون محط الأنظار وأن يحبه الآخرون. ومن ناحية اخرى، كانت علامات الرجولة ظهرت عليه بحيث لم يعد يكترث لاهتمام الآخرين. وأخيراً قررت أن أقيم له احتفالا بسيطاً.

وسر توماسو بما أقيم له. وأخذ يذرع الغرفة وهو ينظر الى الزينة البسيطة التي ملأتها. وقال: "أهذا كله لي؟ انها الحفلة الاولى التي تقام على شرفي". والحق أنها المرة الاولى التي أرى شخصاً يقف مندهشاً أمام قالب حلوى وثمانية بالونات ولفافة من ورق الكريب الأصفر. وهنا جعلني أدرك مدى حرمانه.

وقالت له لوري: "أتعرف ماذا أيضاً؟ لقد أحضرت لك هدية".

وكانت هدية لوري ضمن علبة كبيرة حجمها نصف متر مربع، وعلى غلافها رسوم حيوانات صفراء وشريط مذهب.

وقال توماسو: "هذا لي؟" وجلس دقيقة وهو يحدق الى العلبة، ثم راح يفك الشريط بتؤدة.

وقلت له: "أتريد مقصاً يا توم؟" وذهبت الى طاولتي وأحضرت له مقصاً طويلاً لا أحمله عادة أمام الأولاد.

وناولته اياه قائلة: "خذ، هذا يفعل العجائب".

فأجاب: "حقاً انه هكذا". وقص الشريط وفتح العلبة وأخرج منها دباً كبيراً محشواً ومكسواً بالفرو البني. وحمله توماسو بعيداً عنه وراح ينظر اليه، فيما أطلقت لوري صيحات ابتهاج ونظرت الي كلوديا بابتسام. ولم يقوَ توماسو على الكلام، فجلس بلا حراك.

وسألته لوري: "حسناً، أتحب هذا؟ لقد اشتريته بمالي الخاص الذي ادخرته منذ يناير (كانون الثاني)".

وانفجر توماسو بالصراخ. ونهض على قدميه ورمى الورقة التي كانت تغلف العلبة بعد أن مزقها، وقال: "يا لها من هدية خرساء. أتظنين أني طفل ساذج؟" وارتفع صوته أكثر وهو يضيف: "لا عجب أن يكونوا أرسلوك الى هذا الصف! فأنت لا تعرفين شيئاً".

وتهدلت كتفا لوري وقد فاجأها ما تسمع، وانحدر الدمع على خديها وراحت تعول وتنتحب.

وقال توماسو: "انظري ماذا تعني لي هديتك الخرقاء". وغرز المقص في بطن الدب، وانتزع خيوطاً من الاسفنج.

وناديته قائلة: "توقف يا توماسو". وحشرته بين طاولتي والنافذة، فأخذ كرسياً شده على ساقي. وسقطت أرضاً وأنا أترنح من الألم.

وعندما نهضتُ رأيت توماسو يحمل المقص على بعد سنتيمترات من صدري وصرخ في: "ليس لك أن تأمريني بما أفعله. اخرسي والا أدخلت هذا المقص في معدتك".

ووقفت أتنفس على مهل كي أشعر بالاسترخاء. ووقف الآخرون مشدوهين. وأنقضت دقائق وجدت بعدها المقص قريباً من قميصي، أو ربما كانت يد توماسو ترتجف.

وسألني وصوته يكاد لا يسمع: "لماذا لا تتركينني وشأني؟ لكن أود أن أكرهك... لماذا لا تدعينني وحدي؟" ورفع المقص ورماه على الأرض، ثم خفض رأسه وغطى وجهه بيديه وراح يبكي.

وطغى سؤاله الحاسم على حواسي: أي حق لي في أن أجعله يكترث لعالم لا يكترث له؟ هذا السؤال يصح على توماسو كما على كل ولد أراه أو ألمسه. والأسى هو أن السؤال يأتي هكذا، من غير جواب.

وقلت له وقد سالت دموعي أنا ايضاً: "آه يا توم، يا تومي، اعذرني". ودنوت اليه وراح كل منا يهدىء الآخر. وانقضى نصف الساعة الأول بطيئاً، أما النصف الآخر فمضى سريعاً ونحن نعمل على اعادة ترتيب الغرفة. ونظرت الى توماسو لأراه مكباً على اللعبة يعيد الاسفنج الممزق الى أحشائها.

ولا أدري لماذا أثارت تلك اللعبة توماسو على ذلك النحو. لكن الحادث خلف أثراً باقياً في سلوك الفتى. فهو كف عن تهديدي وتهديد الآخرين. وعرفنا كيف نحافظ على حسن علاقتنا ونجنبها التقلبات.

"أتذكرين الياقوت؟"

بدأت أزمة القراءة الكبرى في مارس (آذار) عندما أسرعت لوري الى غرفتي ذات صباح واختبأت في الخزانة. وقبعت هناك طوال النهار وهي تنتحب، على رغم توسلاتي اليها كي تخرج من مكانها. وعرفت من ادنا ثورسن التي تبعت لوري الى غرفتي على الفور، أن الفتاة ما زالت عاجزة عن مجاراة أترابها في الصف الأول في القراءة. وما أن أنبتها إدنا حتى تقيأت الصغيرة و"خرجت من الباب وهي تصرخ كمجنونة".

وفي وقت متقدم من النهار أغريت لوري بالملاطفة لكي تخرج من عزلتها. لكنها انصرفت الى منزلها ولم ترجع حتى بعد انقضاء اسبوع. وفي نهاية اليوم الثاني من الاسبوع التالي، جاءت اختها ليبي لأخذ دفاتر الفروض المنزلية. ولما سألتها عن لوري قالت انها "لن تعود البتة". وجاءت ليبي مرة اخرى ذلك الاسبوع وأخبرتني حقيقة الأمر:

"لقد طلبت السيدة ثورسن من لوري أن تقف أمام جميع التلاميذ وتقرأ. وأعطتها كتباً كبيرة مجلدة كتلك التي أقرأ فيها أنا نفسي، علماً أني في أفضل مجموعة للقراءة. ولم تتمكن لوري من فك ألغاز تلك الكتب، فضحك جميعهم عليها. وراحت تلك المرأة العديمة الرحمة تعطيها كتباً أسهل وتلومها بعنف لعدم تمكنها من قراءتها. وبقي الكل يضحك على لوري، ووقفت هناك تبكي. لكن السيدة ثورسن لم تسمح لها بالجلوس، بحجة أنها تريد تلقينها درساً".

قبل أن أعرف هذه القصة كان لدي اجتماع مع إدنا واحدى مديرات المدرسة، وبدا لي خلاله أن ادنا قلقة جداً لعجز لوري عن انجاز واجباتها ولحركتها المفرطة.

ولئن يكن ما قالته إدنا صحيحاً، إلا أنه ليس لب المسألة. فاذا حاول المرء أن يفعل شيئاً طوال ثلاث سنوات، وكان غير قادر جسدياً على انجازه، فهل نسميه مجنوناً؟ لنتصور أن لوري عمياء أو صماء أو بلا ذراعين، فنحن نكون بلا شفقة إذا أرغمناها على عمل يجرها الى الانهيار. والآن، ها هي تلك الفتاة تخبىء عاهة جسدية غير منظورة خارجياً، فهل يجوز أن نحملها مسؤوليتها؟ أليس هذا هو الكفر بعينه؟ ألا يعني أننا نحاول أن نلعب دور الله تعالى؟

ولم تكن رواية ليبي للقصة بعيدةعن استنتاجي. لكني كنت على يقين من أن إدنا لم تجد أي خطأ في تصرفها. وهي قالت لي في حديث لاحق: "هذه مدرسة، وليست مأوى للمتخلفين عقلياً. ووظيفتنا أن نعلم، لا أن نفعل أي شيء آخر".

والحق أنه لو كان في مقاطعتنا برنامج لائق لذوي العاهات، لوقع الاختيار علي لتولي شؤون لوري الدراسية كلها. وفي النهاية تطوعت لنقل لوري الى صفي طوال النهار، مع

ابقاء اسمها على لائحة إدنا كتلميذة في السنة الابتدائية الاولى.

وهكذا عادت لوري الى المدرسة. وكان أول ما فعلته بعد عودتها رمي الكتب التي أعطتها إياها إدنا في سلة المهملات.

بعد ذلك جلست على كرسي وحملت لوري ووضعتها على ركبتي، وقلت لها: "أتذكرين أول الشتاء عندما غرسنا الياقوت؟" فهزت رأسها. وتابعتُ: "أتذكرين كيف وضعناها في الثلاجة أسابيع لنجعلها تنمو؟ وما حصل لها وهي في ذلك المكان؟".

وفكرت لوري قليلا، ثم أجابت: "أجل، لقد برزت لها جذور".

- وما كان حصل لو مددت أصابعك الى البصلة وقشرتها وانتزعت البرعم من داخلها الى الخارج؟

"لكانت ماتت بلا ريب".

- هذا صحيح. البصلة لم تكن على استعداد لانماء البرعم. ولو حاولنا اخراجه بالقوة لافسدنا كل شيء.

وما أن قلت هذا حتى راحت عينا لوري تتفحصانني. وأضفت: "الناس يشبهون بصل الياقوت. وكل ما يمكننا فعله هو تأمين الجو الملائم لنموهم. لكن كلا منهم مسؤول عن انماء ذاته في الوقت المناسب. واذا عبثنا بذلك الجو المعد لهم، فهذا لا يؤدي إلا الى الأذى. لذلك اريد أن تثقي يا لوري بأني أود أن أفسح لك وقتاً أطول للنمو. وتأكدي من أنك ستتوصلين الى القراءة، ولكن في الوقت الذي يناسبك".

وهزت رأسها برفق وقالت: "أجل! انك تريدين اعادتي الى الثلاجة لتصير لي جذور أكثر".

أصبحت لوري الشخص المسؤول عن شؤون الصف. فكانت تساعد بو في تنسيق بطاقاته وتسقي الازهار وتوزع الاوراق على أترابها ثم تجمعها منهم. وعينت توماسو مسؤولا عن الامور التي تقتضي القراءة. فكان يقرأ للوري كل ما تحتاج اليه ويكتب لها فروضها.

وتحمل توماسو مسؤوليته بكل رزانة، وهذا جعله أكثر هدوءاً وأسهل قياداً. وتخلى عن معظم عاداته المزعجة، ومنها الشتائم التي لم يكن ينقطع عنها.

أما مشكلة توماسو الوحيدة التي ظلت تقلقني فكانت اتكاله على والده الراحل. وأظن أنه عرف جيداً أن والده مات. لكنه كان، كل يوم، يشير اليه مرة أو مرتين كما لو كان حياً.

ومن جهة كلوديا، كان حملها يقلقني. فهناك احتمال كبير في أن يكون وليدها معاقاً نظراً الى حداثة سنها وغياب العناية اللائقة خلال أشهر الحمل الاولى. واذا جاء وليدها صحيحاً، فهناك احتمال كبير لأن ينمو في جو قاس ومعاد جداً.

وأخفقت جميع محاولاتي للبحث مع كلوديا في مستقبل طفلها. فهي رفضت التفكير في أي مشكلة، وكانت على يقين من أن وليدها سينمو في عالم كامل كعالم الاساطير، ومن أن الامور كلها ستكون على خير ما يرام بعد مجيئه.

من ناحية اخرى، كان هناك لغز في حياة كلوديا لا تتكلم عنه مطلقاً. لكني قرأت ذلك على وجهها وهي تقف وحدها في ملعب المدرسة متكئة الى الحائط ويداها على بطنها وهي

تنظر الى الاولاد الآخرين يلعبون. وكانت كلماتها أحياناً تقول شيئاً، بينما تفضح عيناها شيئاً آخر. ومرة أسرت إلي بذلك اللغز: "كيف سأستطيع الصمود بعد ولادة الطفل؟"

ولم أستطع الحصول على أي عون من والدي كلوديا. وكنت اقترحت عليهما منذ البداية اخضاعها لعلاج نفسي، فرفضا ذلك على نحو قاطع. وأخفقت جهودي في تأمين نوع مماثل من العلاج لها.

وأخذ وزن الفتاة يزداد بوضوح، مما حدا والديها على عزلها عن أترابها. وحذرها والدها من الخروج إلا عند الاضطرار. واقتصر عالمها على المدرسة والتلفزيون والكتب.

ومرت الاسابيع سراعاً، وحل شهر مايو (أيار). وفي أحد الأيام لم تأتِ كلوديا الى المدرسة. وقلقت عليها، وخابرت منزلها في اليوم التالي فلم أحصل على جواب. وظلت سكرتيرة المدرسة تخابر المنزل في الايام التالية، لكنها لم تجد أحداً هناك. وبدا أن العائلة غادرت المدينة.

وفي اليوم الأول من الاسبوع اللاحق عادت كلوديا الى المدرسة. وكانت بيضاء شاحبة، تخيف الناظر اليها بجلدها الشفاف والبقع السوداء تحت عينيها.

وسألتني: "أتعرفين ماذا؟ أني أذهب الى طبيب نفسي اسمه الدكتور فريدمان، وهو لطيف جداً".

ولم أجد وقتاً أختلي بها قبل آخر النهار، عندما كان الآخرون مستغرقين في أعمالهم. وسألتها: "كيف حالك يا كلوديا؟ ان المرء اذا غاب طويلا عن المدرسة، فهو يرغب في العودة اليها وان يكن لم يشفَ تماماً".

- اني لست مريضة، ولم أكن مريضة قط. والواقع أني كنت في المستشفى بعدما حاولت أن أقتل نفسي.

في الخارج كان المطر ينهمر. ووقفت أنظر من النافذة وأتأمل كيف تتحول مسائل الحياة الكبيرة أحاديث عابرة.

وتبعتني كلوديا وقالت بصوت طبيعي ذي نبرات واقعية: "لم أستطع تحمل الامور أكثر من ذلك. وأدخلوني المستشفى بعد الحادث. وها أنا الآن أذهب الى عيادة الدكتور فريدمان. انه حقاً لطيف. لكنه أعطاني حبوباً تجعلني أشعر بالتعب طوال الوقت".

ولم أشأ أن ادير وجهي نحو كلوديا، تلك الطفلة التي، وهي في الثانية عشرة، تنتظر مولوداً وتعيش على الحبوب المهدئة. فأنا أعجز أحياناً عن مواجهة وضع كهذا.

"حال بو ليست خطرة"

كنا نقضي الفرصة في الملعب تحت شمس مايو (أيار) المنعشة. وفجأة اندفعت لوري عبر الملعب وهي تصيح: "أسرعي يا توري. إن بو في وضع حرج".

وكانت كلوديا أخذته الى الحمام، حيث كان العمال تركوا مواد عازلة في سقف الغرفة، ومنها لوح زجاج كبير بقي ملقياً على الحائط. وكان الزجاج أعزل من جانب، ومن الجانب الآخر مغطى بغلاف. وألقى بو ظهره على الغلاف وأخذ يحرك يديه بنزق

كعادته، وكان رأسه يتحرك مع يديه، وقشر الغلاف وغرز الزجاج في اظفاره مما سبب له خدوشاً حمراء وسوداء.

وصحت فيه: "بو! بو"، فلم يجب، وكان ينظر الى هيئته في الزجاج، وبعد قليل رفع يديه الى شعره ونتف خصلة منه، ولما تقدمت لثنيه عن ذلك راح يزعق ويضرب رأسه بيديه، ويخبطه كما لو كان عنقه خالياً من العضلات.

وكنت قبل وقت قصير شديدة التفاؤل بالنسبة الى بو، لكن تفاؤلي زال في تلك اللحظة، وبقي الصبي يركض ويخدش وجهي باظفاره والدم يسيل على يديه، وانتزعته من ذراعه المدماة وشددته إلي، غير أنه قاومني بشدة وعض ذراعي، وأخيراً أحكمت قبضتي عليه فلم يتمكن من الحراك.

وجلسنا فيما التلاميذ الآخرون يراقبوننا، وكانت كلوديا ولوري تبكيان، وبدا توماسو شاحب الوجه، أما أنا فغرقت فيكآبة لا توصف، وأحسست أن جهدي طوال تلك الأشهر ذهب أدراج الريح، وعندما أتت والدة بو لأخذه حاولت أن اخبرها ما حصل بأفضل صيغة ممكنة، وغادرت والدمع يملأ عينيها.

وظلت كلوديا تبكي طوال بعد الظهر، ولم تنفك تخبرني عما فعلته لردع بو عن غيه، وتبين لي من خلال حديثي معها أنها تحب بو حباً عميقاً، وسألتني: "لماذا فعل هذا؟ لقد كان هادئاً جداً عندما أدخلته غرفة الحمام".

فهززت رأسي وقلت: "ثقي بأنك لست مسؤولة عما حصل، وعلى رغم أني لا أعرف بالتمام ما الذي دفعه الى ذلك، إلا أني أظن أن صورته في المرآة هي السبب".

ـ ألن تتحسن حاله؟

"لا أدري، ربما بقي كما هو".

وقالت: "يا له من أحمق". لكن نبرات صوتها كانت تنم عن تحبب، وأضافت: "لقد أخبرني أبي أن هذه الغرفة مخصصة للمتخلفين، أعني لنموهم، وبعد حصول هذا النمو، ينقلونهم الى مكان آخر".

ـ اذا شئت أن تنظري الى هذه الغرفة هكذا، فلست بعيدة عن الواقع.

"كنت دائماً أظن أن الاولاد المتخلفين اشرار، لكن بو ليس شريراً، والشيء نفسه أقوله عن توم ولوري".

ـ ليس هناك من طيب او شرير يا كلوديا، هاتان كلمتان فقط.

وانقضى ربع ساعة ولم تتفوه احدانا بكلمة، ثم كسرت الصمت بقولي: أتتذكرين أني كلمتك مرة عن طفلك؟ اني لا أريد له أن ينتهي في هذه الغرفة".

وأجابت وقد تغضن جبينها: "هذا لن يحصل".

ـ هذا ما تظنه جميع الامهات، ولكن طالما تعذب الصغار بعد أفلات أزمة الامور من أيدي كبارهم.

"هذا لن يحدث بالنسبة الي".

ـ هذا ما كان يظنه والدا لوري قبل أن تأتي الى هنا... فلا تنسي لوري، ولا تنسي توماسو وقصةوالده الميت، ولا تنسي ما فعله بو عصر هذا اليوم، اني لا اريد أن أرى طفلك هنا يا كلوديا، لكني كلما فكرت في وضعك انتابتني قشعريرة.

"كلا! لا تقلقي".
- هذا كل ما أريد قوله لك.

"يمكنني أن أقرأ!"

حان الوقت لتقرير مصير التلاميذ في السنة الدراسية المقبلة. ولم يكن هناك التباس بالنسبة الى كلوديا: فهي ستعود الى المدرسة العادية في الخريف. وتمنيت أن يستطيع توماسو أيضاً الالتحاق بصف عادي.

وكان أملي ضئيلا في حال بو، الى أن أخبرتني السيدة فرانكلين أنها سمعت ببرنامج خاص أحدثته احدى المدارس القريبة من مسكن العائلة للاولاد الانطوائيين، وانها قررت ارسال بو الى هناك.

ولم يبقَ لي سوى لوري. لكنها كانت على قائمة إدنا ثورسن ولم يكن لي الحق في تقرير صفها المقبل. وتوقعت أن تنقل الى الصف الابتدائي الثاني وترسل الى صفي كالمعتاد. لكنني علمت أنها ستعيد صفها الأول مع إدنا.

واحتججت على ذلك باعتبار أن لوري سبق أن أعادت صفها مرة، وان اعادته مرة اخرى من شأنها تحطيم معنوياتها. وكانت قامتها تنمو حتى أصبحت أطول من تلاميذ الصف الأول. لكن علتها أنها مازالت تجهل القراءة.

ولم تُخبَر لوري بالقرار. ورحت أفكر في طريقة نقله اليها وأنا أراها تنجز واجباتها اليومية معي بحبور. وأخيراً طرأت علي فكرة، فدعوت الفتاة إلي. وأدنت لوري كرسياً وجلست عليه، فقلت لها: "سنفعل شيئاً معاً، مختلفاً عما ألفناه. فهذا اليوم سنقرأ". واتسعت عيناها وقالت: "لا اريد القراءة، إذ أعرف أني سأخفق".

- لن أدعك تخفقين. وسأفعل كما لوكنت أعلمك ركوب دراجة: ابقي ممسكة بها حتى تتمكني من موازنتها بمفردك. واذا لم تستطيعي ذلك، فلن ارغمك عليه.

وكان عنوان الكتاب "ديك وجين"، وهو قصة مصورة مع قليل من الكلمات. وأخبرت لوري عن أبطال الرواية، وهم ديك وجين والطفلة سالي. وعلى الصفحة الاولى كانت سالي تخلع حذاءها الأبيض وتضع قدميها في جزمة والدها السوداء الضخمة. وكانت تحت الصورة كلمة "انظر". فأشرت اليها وقلت للوري: "انظر". فكررت العبارة نفسها.

وقلبت الصفحة التي كانت تحمل رسم سالي وديك. وكانت سالي تخوّض في بركة صغيرة وديك يرتدي سروالا قصيراً. وتحت الرسم كلمتان: "انظر، انظر". وقلت للوري: "الكلمة نفسها مكتوبة هنا. فهل تتذكرينها؟".

- انظر!

"أجل! لكنها مذكورة مرتين، لأن سالي تريد لفت أخيها ديك اليها وهي تمشي بجزمة والدها".

- انظري ما حل بها! لقد أفلتت الجزمة من قدميها، وهي على وشك أن تخوض في الماء حافية القدمين. ان والدها سيغضب عليها!

"يبدو أنك عرفت حقيقة الأمر. انظري ما تقول سالي: "آه، آه، آه". أيمكنك قراءة هذه الكلمة؟"

- آه، آه، آه!

"عظيم! لنرَ الآن ما يحدث عندما نقلب الصفحة. انها الصفحة الأخيرة من القصة. ينظر ديك الى اخته الصغيرة في محنتها، فيركب سيارته الحمراء ويذهب اليها. تصعد سالي الى السيارة فتنجو من الخطر. وتحت الرسم نجد الكلمات الآتية: "آه، آه، آه! انظر". والآن، يا طفلتي، دعينا نقرأ القصة من أولها".

وأخذنا نقول معاً وأنا أقلب الصفحات:

"انظر... انظر، انظر... آه، آه، آه... آه، آه، آه، انظر".

وقلت للوري: "الآن اريد أن تحاولي قراءة القصة بمفردك. انظري جيداً الى الكلمات: .

الكلمة الكبيرة هي "انظر" والقصيرة "آه". أأنت حاضرة؟"

وهزت لوري رأسها وحملت الكتاب. وأخذت نفساً عميقاً وصرخت: "انظر".

ـ عظيم! الصفحة الثانية.

"انظر، انظر". وترددت قليلا لدى بلوغها الصفحة التالية، فقلت لها: "انظري الى سالي، ماذا حل بها؟ وماذا قالت؟".

ـ آه!

"عظيم جداً! وكم مرة قالت تلك العبارة؟"

ـ آه، آه، آه!

فقلت لها: "رائع". وقلبت الصفحة الأخيرة فصرخت على الفور: "آه، آه... آه".

ـ وما هي الكلمة الأخيرة؟

"انظر! ... آه، آه، آه، انظر".

وأمسكتها من ذقنها وأدرت وجهها نحوي، وسألتها: "أتعرفين ماذا فعلت يا لوري يواكيم؟" واتسعت عيناها وهي تنتظر أن اخبرها ما فعلت، فقلت. "لقد قرأت تلك القصة! أليس كذلك؟" فابتسمت ابتسامة كبيرة بينما أضفت: "لقد قرأت القصة كلها بمفردك. لقد حملت الكتاب وقرأته كما يفعل أي شخص آخر".

وتمتمت وهي لا تصدق ما جرى: "لقد قرأت الكتاب". وقفزت عن حضني وصرخت على مسمع أترابها: "اسمع يا توماسو! اسمعي يا كلوديا! في امكاني الآن أن أقرأ. هيا الى هنا وانظرا! اني أقرأ". وركضت هي اليهما وقرأت القصة مرة بعد مرة.

ولئن لم يكن ذلك قراءة فعلية ـ لأن النص لا يتجاوز الكلمتين ولأن لوري حفظتهما غيباً على الارجح ـ إلا أني أردت أن أتيح لها خبرة جميلة، أن أمنحها حلماً رائعاً. وليس في امكان أحد بعد الآن أن يدعي أن لوري تجهل القراءة! واذا تجرأ أحد على تحديها، ففي امكان لوري أن تبرهن العكس. أجل، ان لوري يواكيم تقرأ الآن.

"أنت وأنا"

دخل توماسو وهو يصرخ بأعلى صوته: "اني ذاهب من هنا. ان خالي ياغو، شقيق امي، سيأخذني لأعيش معه في تكساس. وهناك ستكون لي عائلة حقيقية".

وعبرت لوري صراحة عن حزنها لذلك القرار، الا ان تعبيرها لم يزعج توماسو. لكنه في اليوم التالي حبس نفسه داخل الخزانة وأخذ يبكي. وتكلمت اليه من الخارج، فقال: "لا أريد أن أذهب وأتركك. ان كل ما

فعلته حببك الي، وها أنا أتمنى ألا أكون تعلقت بك، لأني مزمع أن أبتعد عنك".

وأخيراً خرج من مكانه أحمر العينين مكتئباً، وانتهى النهار بوداع توماسو، ورافقته الى الحافلة على الطريق، وهناك قال لي: "سيأتي أبي ويأخذني، وسنعيش معاً في اسبانيا حيث يملك منزلا وكل ما يلزم، وهناك ستكون لي غرفتي الخاصة، وسيعلمني أبي مصارعة الثيران لأصبح يوماً مصارعاً على الحلبة".

وحدق إلي بعينين صافيتين وقال: "ثوري! اني سأعيش مع أبي".

ونظرت اليه، فهمس: "كلا! بل سأعيش مع خالي ياغو، ولن أعيش مطلقاً مع والدي"، وأنزل أمتعته الى الارض وطوق خصري بيده.

في منتصف الاسبوع اللاحق أخبرتني كلوديا أن نوبة مغص أتتها الليلة الفائتة: "لقد أحضرت في ذهني أسماء كثيرة، واخترت اسم "ماتيو" اذا كان صبياً واسم "جيني" اذا كان فتاة".

ولم أبصر كلوديا البتة بعد ذلك، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ولدت فتاة تزن نحو كيلوغرامين، وذلك قبل الوقت المحدد لها.

وبعد وقت ليس بطويل، وذلك في مطلع يونيو (حزيران)، تلقيت مخابرة هاتفية: "هذه أنا، كلوديا، اني قلقة على جيني، انها صغيرة جداً يا ثوري، وقد أخرجت لتوها من بيت الزجاج".

قالت هذا وأخذت تبكي، وأضافت: "لقد قررت اعطاءها لعائلة، وهذا الصباح وقعت وثيقة التبني، ووقعت أمي معي، وقالت المسؤولة في الوكالة انها وجدت عائلة للطفلة، وان والدها ووالدتها الجديدين ينتظران وصولها سريعاً"، وتابعت بعد نوبة بكاء: "لقد انتظراها طويلا"، ثم استغرقت في بكائها من جديد.

— لقد فعلت الشيء الصحيح يا كلوديا! إني فخورة بك.

"لم أشأ أن تصبح جيني مثل بو، لم أشأ لها أي أذى".

تلك كانت النهاية.

وجاء اليوم الأخير من السنة المدرسية، وأقيمت الاحتفالات في جميع الصفوف، وطلبت لوري أن تصرف النهار مع تلاميذ الصف الأول للمشاركة في حفلتهم.

ورحت، بمساعدة بو، انظف الغرفة من بقايا العام الماضي، ولما انتهينا خرجنا الى حديقة قريبة من المدرسة، وعدنا لنجد السيدة فرانكلين في انتظارنا.

وقلتُ للطفل فيما همت امه بأخذه: "وداعاً يا بو"، فصرخ كما يصرخ مذيع نشرة الأحوال الجوية على التلفزيون للتحذير من سوء الطقس: "توقعوا إعصاراً! توقعوا إعصاراً"".

وابتسمت السيدة فرانكلين باعتذار، وتبادلنا كلمات قليلة ربتت بعدها كتفي وانصرفت، ووقفت اراقبها وهي تختفي مع بو في طريق فرعية، ومعه يختفي ذلك السحر الذي لازم وجهه الجميل طوال العام.

ولم يبقَ من المجموعة سوى لوري، وقد أخبروها بقرار إبقائها في الصف الأول، فقالت لي وهي ترمي دفتر علاماتها عبر الغرفة: "لقد أخفقت في صفي"، ووضعت يديها على ركبتيها

وجلست تبكي وتنتحب كمن حاول أفضل ما في وسعه. وقالت: "كنت أود أن أكون في الصف الثاني".

ـ أعرف هذا.

وكانت المدرسة حولنا غارقة في صمت رهيب. ولم نسمع سوى صيحات التلاميذ البعيدة، وقد أعتقوا من أسرهم.

ورفعت لوري ورقة عن الأرض، كانت رسماً أنجزته مع بو. وسألت: "هل ذهب بو؟"

ـ نعم.

"وهو لن يعود؟"

ـ لا، لن يعود.

"وماذا عن كلوديا؟"

ـ لن تعود هي أيضاً.

"ولن يعود تومي أيضاً. وحدي أنا سأعود. أنا وحدي".

ـ وأنا كذلك.

ونظرت لوري إلي وقالت: "أجل، أنت وأنا وحدنا سنعود".

وهكذا بقيت في المدرسة ورافقت لوري للمرة الثانية في صفها الأول.

وبعد ذلك غيرت العائلة محل اقامتها، ونقلت الفتاة الى مدرسة خاصة لتعليم المعاقين. لكنها لم تتعلم القراءة قط.

وبقي بو في البرنامج الخاص لتعليم الاولاد الانطوائيين. وسجل تقدماً محدوداً، وبات ينطق بعض الكلمات المترابطة. وهو الآن يقول: "ماما".

وعادت كلوديا الى مدرستها الاولى وظلت على رأس صفها.

وقبل وقت قصير قرأت خبراً في صحيفة عن فتى استطاع أن ينقذ أربعة أولاد من حريق شب في بناية، ثم عاد الى الداخل لانقاذ طفل صغير. ومع المقال نشر رسم وزعته وكالة "اسوشيتدبرس" للأنباء، يمثل العمدة وهو يسلم الصبي وسام الشرف تقديراً لشجاعته و"بذل ذاته من أجل الآخرين".

... ذلك الفتى كان توماسو.

■ توري هايدن

أجوبة أحاجي التفكير السليم (ص ٩١)

تنظيم المعلومات: سناء هي خبيرة العلاقات العامة، يمنى هي الاحصائية، هاني هو المحاسب، كامل هو خبير الشؤون الادارية.

تحطيم النماذج الذهنية: السائق الفائز هو أم الصبي.

اقتفاء الأثر: تأخذ منى الهرة الى السيارة اولا. بعد ذلك تأخذ احد الطفلين وتعيد الهرة معها. تترك الهرة في البيت وتنقل الطفل الثاني الى السيارة واخيراً تعود لتنقل الهرة.

الحلقة الجهنمية



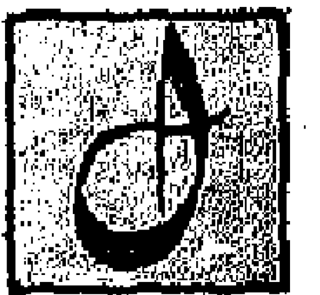
الحلقة الجهنمية

"الحلقة المجرية" هو الاسم الذي أطلق على جماعة من المحتالين الدوليين الذين ابتزوا، خلال ١٥ سنة، نحو ٣٠٠ مليون جنيه استرليني (٦٠٠ مليون دولار) من مصارف ومؤسسات وأفراد. وعندما مثل افراد هذه الجماعة أمام العدالة في لندن، تحدث المدعي العام كينيث ريتشاردسون عن "الاحتيال الذي، لو لم يتم كشفه، لانهار النظام المصرفي في العالم المتمدن قاطبة".

إلا أن هناك سؤالا مهماً ظل بلا جواب، هو المتعلق بهوية المخططين الرئيسيين. ولكن مما لا شك فيه أن افتضاح أمر الجماعة رفع عبئاً ثقيلا عن كاهل المصارف ودوائر الشرطة والحكومات حول العالم. ومن أهم الدلائل على هذا رسائل التهنئة التي انهالت على فرقة مكافحة الجريمة التابعة لمنظمة "اسكوتلنديارد" البريطانية، كاشفة الحلقة.

في ما يأتي قصة هذه العصابة

قصة بوليسية واقعية بقلم ديفيد مولر



لم يكن احد في اسكوتلنديارد(★) سمع بـ"الحلقة المجرية" عند بدء التحريات في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٥. ولم تكن المعلومات آنذاك تتجاوز الآتي: ان تاجر معادن صغيراً، ذا سجل اجرامي، جمع أموالا طائلة في وقت قصير. وقد ترك هذا التاجر بيته المتواضع في الطرف الشرقي للعاصمة البريطانية لندن، منتقلا الى منزل واسع أنيق يقوم وسط أرض خاصة في ضاحية صاري المزدهرة. وبات يتنقل بين مسكنه الجديد والمسكن القديم في سيارة "رولز رويس" فضية ثمنها ٤٩ ألف جنيه استرليني (٥٨ الف دولار).

واثار امر هذا الرجل اهتمام لين غيليرت، قائد احدى فرق اسكوتلنديارد الجنائية. وهو رجل ناحل في التاسعة والاربعين، ذو شعر

(★) شرطة لندن، خصوصا دائرة التحري فيها.

خفيف ويضع نظارتين مذهبتي الاطار. وقد اكتسب حديثاً سمعة اسطورية في اسكوتلنديارد على أثر اكتشافه صكوك تأمين مزورة ضد الحريق بقيمة مليون جنيه استرليني (مليوني دولار) وهو كان رئيس فرقة مكافحة الاجرام المنظم، ومكتبه يقوم في الطبقة الثانية من مركز الشرطة في شرق لندن.

وبعد تأمله في الغنى المفاجيء الذي أصاب تاجر الخردة، سأل غيليرت معاونيه: "كيف فعل ذلك؟ ما الذي أوصله الى هناك؟ من يعاشر هذه الايام؟"

للاجابة عن هذه الاسئلة، وكل غيليرت الى فرقته مهمة مراقبة الرجل. وكعادتها اعتبرت اسكوتلنديارد الرجل مجرماً محتملا وصنفته "هدفا". وتعمد المنظمة عادة الى ملاحقة "أهدافها" وكل من يتعامل معهم بغية التوصل الى نتائج أكيدة. وبهذه الطريقة افتضح أمر عصابات اجرامية منظمة، بينها "الاخوة كراي" و"عصابة ريتشاردسون"، ووضع افرادها خلف القضبان.

وسرعان ما تبين أن "الهدف" الجديد لفرقة مكافحة الاجرام رجل يحافظ على مواعيده فيشق طريقه ظهر كل يوم تقريباً وسط شارع واردور المتفرع من ساحة بيكاديلي الصاخبة.

هناك، في الطبقة الثالثة من احدى البنايات ووراء نافذة توسطتها لوحة كتب عليها: "برسم الايجار"، جلست المفتشة الجنائية هيلدا هاريس، وهي سوداء الشعر وفي اواسط الثلاثينات من عمرها، تراقب الشارع مع زميل يحمل آلة تصوير ذات عدسة تقرب المسافات. وفي الخامس من مارس (آذار) ١٩٧٦، بعد ثلاثة أشهر من بدء غيليرت تحرياته، عاينت هيلدا هاريس "الهدف" وهو يتحدث الى رجل قصير ممتلىء الجسم. ودخل الاثنان مقهى، فتبعتهما اليه. وهناك جلس رفيق "الهدف" يومىء بيديه ويتكلم الانكليزية بلكنة اوروبا الوسطى.

وحين عرف غيليرت بما رأته هيلدا قال لها: "اكشفي هويته". فهذا الوافد الجديد كان يمتاز بلياقة تميزه عن أتراب "الهدف" الآخرين.

وكان ثلاثة ضباط في سيارات مدنية ينتظرون تعليمات هيلدا هاريس وهم في أماكن مختلفة في منطقة "سوهو" المجاورة. وسرعان ما جاءتهم رسالتها: "الغريب يركب الآن سيارة اجرة، رقمها اوسكار روميو ويسكي ٢ - ٢ مايك. والسيارة تتجه نحو شارع واردور".

وللحال اتجه الضباط بسياراتهم نحو الشارع المذكور، متعقبين سيارة الاجرة من الوراء لئلا يشك الرجل الغريب في أمرهم. وانتهت الرحلة في حديقة "هولاند بارك" غرب لندن. وهناك تسلق الرجل سلم بناية حديثة مؤلفة من أربع طبقات وتحتل الرقم "واحد" في شارع كلارندون رود. وبعد تفتيش السجلات العقارية لتلك المحلة، تبين ان اسم مالك البيت ا.م.م. اوبرلاندر، وهو من الاسماء التي لا وجود لها في سجلات اسكوتلنديارد.

إلا أن الاوصاف المتعلقة بالرجل

كانت منطبقة تماماً على شخص آخر اسمه بدرو اورلاندر. وعندما عرض غيليرت الأمر على الانتربول(٢) تبين له أن اورلاندر كان ينتحل أسماء مستعارة منها لودفيغ بلوم وروبرت فايسر، وان هذا الاسم الأخير استخدمه للسفر وتزوير العملة والوثائق المصرفية. وظهر من رسم له أنه الشخص نفسه الذي تعقبه الشرطيون الثلاثة الى كلارندون رود.

ولم يكن هذا سوى هنري اوبرلاندر عينه. وهو رجل في التاسعة والاربعين، ولد في تشيكوسلوفاكيا وعاش في المجر (هنغاريا) حيث تزوج مجرية. وقد عرفته أوساط

(٢) International Police Organization او منظمة الشرطة الجنائية الدولية.

الانتربول باسم "فايسر" كعضو في منظمة غامضة تتعاطى التزوير على نطاق عالمي ولها علاقات في المجر، حتى ان الشرطة في فرنسا والمانيا الغربية أطلقت عليها اسم "الحلقة المجرية". الا أن الشرطة في أي بلد، كما لاحظ غيليرت، لم يسبق أن ساقت اعضاء الحلقة الى العدالة.

حرق الأصابع

كان على غيليرت أن يعرف ما اذا كان أعضاء "الحلقة المجرية" اتخذوا من لندن قاعدة لهم. وفي حال صحة هذه الفرضية، عليه أن يكتشف طريقة عمل الحلقة.

وهكذا أوعز الى فرقته تعزيز المراقبة على "الهدف" وأوبرلاندر.



وغدا اثنان من ضباط الفرقة عاملي دهان في مكان قريب من منزل "الهدف" بحيث يراقبان تحركاته، فكلما قابل اوبرلاندر أو سواه في الطريق كانت المقابلة تصور بعدسات مقربة لتحديد هويات الآخرين. ومن أجل الحصول على هذه المعلومات، تلبس الرقيب تريفور كلاولي (٣١ سنة) شخصيات سائح امريكي ومتسول وشرطي سير وشيخ عربي. وذات مساء كان واقفاً تحت شرفة أحد المشبوهين حين فتحت النافذة على نحو غير متوقع. فما كان منه الا أن راح ينشد بأعلى صوته اغنية ايرلندية. وقال لاحقاً: "لو بقيت هناك لا أقول شيئاً، لشك صاحبنا في أمري وعرف أن أحداً يلاحقه".

أما في مركز الشرطة شرق لندن، في غرفة العمليات التي يبلغ طولها ١٢ متراً وتقع في الطبقة الثالثة، فقد تجمع لدى غيليرت عدد من الصور الفوتوغرافية التي يظهر فيها المشبوهون معاً. وسرعان ما أصبح عددهم نحو اثني عشر شخصاً، معظمهم على صلة باوروبا الوسطى أو أمريكا الجنوبية. وكانت ترافق كل اسم جديد لائحة بأصحابه ونشاطاته وأسفاره.

وكان المشبوهون كثيري الترحال. ولكن اذا وجدوا على طائرة واحدة، كان واحدهم يجلس بعيداً عن الآخر بعد ان يأتوا متفرقين الى مطار هيثرو في لندن. وبمساعدة موظفي الجمارك، تبين لفريق غيليرت أن المشبوهين كانوا يغادرون لندن تحت أسماء مزورة ويعودون اليها بأسماء اخرى مزورة كذلك.

وفي مطلع مايو (أيار) جلس غيليرت ومعاونه المفتش جيم باركر يتابعان تطورات القضية، فقال غيليرت: "ماذا تقصد هذه الجماعة يا جيم؟ لماذا يسافر أفرادها سراً؟"

وجاءت الاجوبة جزئية عندما تعقبت الشرطة المشبوهين الى فرع وكالة توماس كوك للسفر في حي "مايفير" اللندني بعد عودتهم من بعض رحلاتهم. وهناك وجد أنهم يصرفون اموالا طائلة لشراء عملات أجنبية متنوعة. وبعد احدى رحلاته حول اوبرلاندر ١٥ ألف دولار امريكي الى جنيهات أسترلينية، علماً أن قيمة الجنيه كانت متدنية جداً بالنسبة الى الدولار. وعلق أحد رجال التحري بالآتي: "ان هذه الاوراق النقدية هي من الحرارة بحيث تحرق أصابعهم".

ولكن في ما عدا بعض التجاوزات التقنية الطفيفة بدا أن المشبوهين لم يقترفوا اي جرائم في بريطانيا. وكل ما جمعه غيليرت حولهم كان بعض معلومات من شأنها اتهامهم بتزوير وثائق السفر واخراج العملة من البلاد بكميات لا تسمح بها القوانين المحلية. لكن شعوره الباطني هو وأفراد فريقه المتمرسين كان يتوقع ظهور أدلة على جرم كبير.

وفجأة بدا أن لهذا الشعور ما يبرره. فقد أرسل ضابط كبير من اسكوتلنديارد الرقيب المفتش رودجر ديكسون من فرقة مكافحة التزوير لمقابلة غيليرت. وكان ديكسون سعى عبثاً، في الآونة الاخيرة، الى حل معضلة متعلقة بأوراق مصرفية يمكن ابدالها بعملة في المصارف وتستعمل عادة في المشاريع التجارية الدولية.

وقد صرفت ست من هذه الاوراق خارج البلاد بقيمة ٢١ ألف جنيه استرليني (٤٢ الف دولار)· وبعد وصولها الى مقر البنك البريطاني للشرق الاوسط في لندن، تبين أنها مزورة·

وسأل غيليرت: "من الذي صرف الاوراق؟"·

- يبدو أن اسمه ل·بلوم·

والتمعت عينا غيليرت حبوراً· ذلك أن أحد أسماء اوبرلاندر المستعارة، كما كشفها الانتربول، هو لودفيغ بلوم·

وأفضى ديكسون بمعلومات اخرى ذات علاقة بالقضية· فقبل أشهر اجتمع في طرف لندن الشرقي بمخبر سري شقه أنه لم يعط حصة عادلة من عملية تزوير· وسأله ديكسون: "من يدير العملية؟"

- المجري·

"أخبرني عنه"·

- المجري هو الشخص الذي يعرف كل شيء عن الأمر·

ولما طلب منه ديكسون معلومات اضافية، لاذ بالصمت·

الطريقة

وبعد تلك المقابلة انضم ديكسون الى فريق غيليرت بعدما تبين أن الاثنين يلاحقان طريدة واحدة· لكن المسألة ظلت معقدة· وعلى رغم أنهما وجدا الجناة، فقد بقي أن يكتشفا الجرائم· واذا صح أنهم نفذوا عملياتهم كلها خارج بريطانيا، فهل يمكن اقناع المحاكم المحلية بأن التخطيط لتلك العمليات حصل داخل بريطانيا؟

في يونيو (حزيران) كشفت شواهد اضافية· ذلك أن اوبرلاندر ومعاونه القديم اميل فليشمن، وهو مجري المولد في الخامسة والخمسين، طارا الى الشرق الأوسط· ولدى عودتهما الى لندن شوهدا يبيعان عملات لبنانية وقبرصية وعربية سعودية بقيمة تسعة آلاف جنيه استرليني (١٨ الف دولار)، وذلك في فرع مصرف توماس كوك في مايفير· واحتفظ الموظف بالعملة التي أخذها منهما، على أثر خبر تلقاه من الشرطة· وحصل غيليرت على اذن بشراء تلك العملة، على أساس أنها تحمل بصمات اوبرلاندر وفليشمن مما قد يدل على علاقتهما بالجريمة·

وبعد أيام تنكر اوبرلاندر بزي ديبلوماسي فنزويلي ودخل على سمسار بورصة له زبائن كثيرون من جنوب افريقيا· وعرض اوبرلاندر على الزبائن خطة تمكنهم من تهريب المال خارج بلادهم، على أن يعطيهم صكوكا مصرفية في مقابل عملتهم المحلية· لكن السمسار رفض الاشتراك في العملية·

وما أن سمع غيليرت باقتراح اوبرلاندر حتى أدرك الخطة· وأفضى الى جيم باركر بالآتي: "اذا كانت الصكوك مزورة، فلا بد من أن يقع مواطنو جنوب افريقيا في أيدي شرطة بلادهم"·

وكان غيليرت يعلم أن أفراد الحلقة المجرية لجأوا الى هذه الخطة سابقاً لاسكات ضحاياهم· وكشفت له الشرطة الالمانية النقاب عن عملية احتيال ذكية صممتها الحلقة ونفذتها في صناعي الماني من أصحاب الملايين، أقنعته بأنها

اكتشفت "الذهب النازي" الذي يقال انه دفن في شمال افريقيا خلال الحرب العالمية الثانية. وطلا أفراد المجموعة قطعة رصاص بالذهب، وختموها بالشارة النازية ثم عرضوها على المليونير الذي اقتطع قسماً صغيراً من رأسها لفحصه. وبعد التأكد من أن ذلك المعدن ذهب حقيقي، قبل الرجل العرض بحماسة بالغة، وطلب القطع كلها في مقابل مليوني جنيه (٤ ملايين دولار). وصدق روايتهم الى حد أنه دفع مليون جنيه سلفاً بعد ان قالوا له أنهم يحتاجون اليها للحصول على الذهب من شمال افريقيا. وعندما لم يحصل على طلبه قدموا اليه كفالة مصرفية هي عبارة عن صكوك امريكية بقيمة مليوني جنيه. أما القيمة الحقيقية لتلك الاوراق فكانت صفراً، اذ أنها زائفة. ولكن كيف يعرض الخاسر قضيته أمام الشرطة وهو شريك في صفقة غير شرعية؟

وهناك رجل أعمال سويسري وقع ضحية احتيال مماثل عام ١٩٦٣. فقد أكدت له الجماعة ان في امكانه الحصول على حصة من سرقة القطار الكبرى التي بلغت حصيلتها مليونين و٦٠٠ ألف جنيه استرليني (٥ ملايين و٢٠٠ الف دولار). وهكذا ابتزته ٥٧٠ألف فرنك سويسري (نحو ٢٠٠ الف دولار). ونقل في طائرة خاصة الى مطار مقفر حيث وجد سيارة "رولز رويس" في انتظاره. ولم يكن راوده أي شك في حقيقة ما يحصل. وما لبث صندوق السيارة أن فتح ليكشف عن علبة محشوة نقوداً. وأعيد الرجل الى الطائرة حيث وجد، وهو على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، أن محفظته أبدلت باخرى تحوي اوراقاً بيضاء تحت غطاء رقيق من النقود.

وأظهرت الشواهد التي جمعها فريق غيليزت أن أفراد الحلقة حولوا اهتمامهم الى المصارف العالمية. لكن المصارف، عموماً، لا تفصح عن خسائرها كما يفعل الافراد.

أما الرئيس الشكلي للحلقة فكان جورج غرونفلد، وهو روماني المولد، ارجنتيني الجنسية، يعيش في مبنى واحد مع اوبرلاندر في هولاند بارك. وقد سافر حول العالم واشترى صكوكا مصرفية شرعية حملتها العصابة الى مزور متمرس لينسخ منها الكميات المطلوبة. وبراعة هذا المزور تجلت في ستة صكوك من البنك البريطاني للشرق الاوسط حملها ديكسون الى غيليرت. ولم يخامر أقدم مسؤولي المصرف وأكثرهم حنكة اي شك في صحة تلك الصكوك.

وزود أفراد الحلقة بتلك الصكوك ـ وقيمة كل منها لا تتجاوز الستة آلاف جنيه منعاً للشك ـ وحملوها عبر أوروبا وامريكا الشمالية والشرق الاوسط مستخدمين جوازات سفر مزورة ورخص سوق سيارات ووثائق ميلاد مزورة هي أيضاً. وفي ثلاثة ايام حصلوا على مئات آلاف الجنيهات.

ولنقل ان التزوير كشف فوراً... ففي امكان افراد المجموعة مغادرة البلدان التي كانوا فيها قبل انذار المطارات بالأمر، أو بعد انذارها، باستخدام جوازات سفر اخرى. غير أن التزوير لم يكن يكتشف قبل ثلاثة أشهر، أي بعد وصول الصكوك الى مركز المصرف الرئيسي. وكانت

ادارات المصارف تغض النظر عن الأمر حفاظاً على سمعتها وثقة زبائنها، متحملة الخسارة كما تتحمل خسائرها التجارية الاخرى.

أما غيليبرت فكان على بينة من أنه، قبل تفتيش الامكنة المشبوهة بحثاً عن أدلة تثبت صحة اعتقاده، يجب أن يتوافر لديه عدد أكبر من المعلومات، لكنه كان موقناً من نجاح مهمته. وقد صرح مرة بالآتي: "اذا كان أفراد هذه الحلقة مكبين على عملهم كما يبدو، واذا لاحقناهم ليل نهار، فلا بد من أن يتحقق لنا ما نريد". وأظهرت الأيام صحة رأيه.

الدليل

مرة اخرى أسفرت مراقبة شارع واردور عن نتيجة ايجابية، وكان ذلك في ١٢ يوليو (تموز). ووجد غيليبرت على طاولته صورة فوتوغرافية أُخذت من نافذة الطبقة الثالثة المخصصة للمراقبة. وأظهرت الصورة ثلاثة رجال متحلقين حول باب سيارة مفتوح وهم يتفحصون خريطة. والرجال هم "الهدف" واوبرلاندر ولويس دو سوماريز تافنل، وهو مستشار تجاري فضيّ الشعر، متخرج في كلية ايتون اللندنية الشهيرة، وقد سبق لرسمه أن وجد طريقاً الى غرفة العمليات في مكتب الشرطة. وبعد تكبير الخريطة على نحو مضخم، تبين أنها تُظهر أرضاً في ملقه جنوب اسبانيا.

وبعد ستة أيام توجه تافنل الى مطار هيثرو قاصداً اسبانيا. ولم يتردد في تسليم حقيبته، بعدما رأى المسافرين أمامه يسلمون حقائبهم اليدوية للتفتيش. وهناك، في دقائق معدودة، تولى غيليبرت ومعاونوه تصوير الوثائق التي عثروا عليها حول صفقة ملقه، اضافة الى صكوك مصرفية بقيمة مليونين و٧٠٠ ألف دولار. وبلياقة بالغة، سلم تافنل حقيبته كاملة مع أسمى عبارات الشكر. أجل، انه شكر صادق. ذلك أن غيليبرت بات يعرف من يبيع الارض في ملقه.

وبعد رحلة استغرقت يومين، عاد تافنل الى لندن ليسافر اوبرلاندر الى اسبانيا ومعه فليشمن وموريسيو غاز، وهو ارجنتيني قاتم البشرة في السادسة والاربعين. ولدى رجوعهم في ٢٦ يوليو (تموز) تبين أن في حوزة غاز وثائق حول صفقة ملقه، في حين كان اوبرلاندر يحمل خريطة للأرض وثلاثة صكوك مصرفية بقيمة مليونين و٧٠٠ ألف دولار. وبعد ساعات قليلة اكتشف غيليبرت أن الصكوك مزورة. ومهما يكن من أمر الصفقة، فالظاهر أنها لم تنفذ بعد. وقرر غيليبرت أن يطير الى اسبانيا ليعرف ما حصل.

على حافة حوض للسباحة في دارة جميلة سمع غيليبرت الرواية كاملة من بيتر بيلدر، وهو جراح بيطري أصبح رجل أعمال يملك أراضي في ملقه. وكان تلقى مخابرة هاتفية في مطلع ذلك الشهر من شخص يدعى السيد بيرجر، أعلن أنه يود شراء قطعة أرض باسم امير عربي.

ونقل بيلدر السيد بيرجر ومرافقه السيد ميلر (وهما في الواقع فليشمن واوبرلاندر) من فندق ميليا الانيق الى مسكنه لبحث الشروط. وبعد جدل لطيف اتفق معهما على بيع الأرض

بمبلغ مليونين و٧٠٠ ألف دولار امريكي، بشرط أن يتولى مراقبة الأرض السيد تورنل، الموظف في خزانة "الامير".

ولم يكن تورنل هذا سوى تافنل الذي اكتسب احترام بيلدر وثقته. وهو أمضى يوماً في ملقه مع المحامين المسؤولين عن شؤون بيلدر، ثم عاد الى لندن وفي حوزته موافقة خطية على بيع الأرض.

وفي ٢٣ يوليو (تموز) ذهب اوبرلاندر الى ملقه، مقدماً الى بيلدر مستشار "الامير" الخاص واسمه حبش سليمان. ويظن ان غاز لعب هذا الدور. وقال اوبرلاندر ان سليمان لا يوافق على تسليم الصكوك المصرفية ما لم يدفع بيلدر اولا مبلغ ١٣٠ الف جنيه استرليني (١٦٠ الف دولار) عمولة له ولزميله فليشمن في مقابل أتعابهما.

ولا عجب أن يكون بيلدر أصر على صرف الصكوك قبل دفع العمولة. من هنا اقترح أن يحمل الجماعة بطائرته الخاصة ـ وهو طيار متمرس ـ الى مصرفه في سويسرا لسحب المبلغ فوراً. لكن اوبرلاندر هز رأسه بحجة أن اليوم التالي كان عطلة تقفل فيها المصارف. غير أن بيلدر طمأنه الى أن القائمين على المصرف لا بد من أن يلبوا طلبه، وان يكن ذلك يوم عطلة، نظراً الى ضخامة المبلغ. وأصر اوبرلاندر على رفضه، وهكذا فض الاجتماع من غير نتيجة حاسمة.



وفي المساء عينه تلقى بيلدر مخابرة هاتفية من اوبرلاندر الذي اقترح انهاء الصفقة في الاسبوع اللاحق. لكن بيلدر أعلمه أنه لا يود المضي فيها. وبعد اصغائه الى غيليرت، أدرك أن حذره كان في محله وان المزورين لفقوا تلك الرواية للحصول على العمولة المذكورة نقداً.

وما أن حصل غيليرت على شهادة بيلدر حتى عاد الى لندن لاتخاذ الاجراءات اللاحقة.

المشبوه الأخير

وظف غيليرت لتلك العملية التي انقضى على بدئها ثمانية أشهر، كثيراً من المعاونين بلغ عددهم نحواً من ستين ضابطاً. وكان عشرة منهم في مطار هيثرو كرّسوا وقتهم كله لملاحقة أفراد الحلقة. وبات غيليرت يتوقع نتائج ملموسة لجهوده. وفي حين رفض الاندفاع الى أي خطوة سريعة، كان يخشى أخطار الارجاء. ومرة قال: "اذا انتظرنا طويلا، فإن الطيور ستفر كلها لا محالة".

وخوفاً من حدوث هذا الأمر، أصدر الى معاونيه أوامر مشددة بمراقبة دائمة للمشبوهين، بينما لم ينقطع عن فحص التفاصيل التي بقيت تنهال عليه من رجاله. وكان بعض ضباطه يشاركونه الرأي في وجوب الانقضاض سريعاً على الحلقة. ولتحقيق ذلك الهدف كانوا يعملون عشرين ساعة يومياً. وتأكدوا في ما بعد من أهمية رفضهم الاستسلام، ذلك الرفض الذي جلب لهم الحظ السعيد، اذ حددوا في اللحظة الاخيرة هوية الرجل الذي لولاه لما تحركت الدائرة.

اسم الرجل فرنسيسكو فيوكا، وهو أرجنتيني في الثامنة والأربعين لا يلفت شخصه أي انتباه. وكان التعامل بينه وبين الحلقة يتم عبر شخص مجري ولد في البرازيل، اسمه اندريه بيرو وعمره خمسون سنة. وكان بيرو يدفع راتب فيوكا ويراقب أعماله. وكانت تعليمات فيوكا تقضي بعدم الاتصال المباشر بأعضاء الحلقة الآخرين. إلا أن فيوكا كسر ذلك المبدأ خلال ذهاب بيرو في اجازة الى جزر باربادوس في البحر الكاريبي. ففي أمسية شديدة الحر توجه الى منزل اوبرلاندر على أثر شعوره بالضجر والوحشة.

وقال أحد رجال التحري المرابطين هناك: "انه يبدو بريئاً جداً. ولكن من يدري؟ ولا بد من أن نتعقبه حين يمضي".

وتبع بعض الرجال فيوكا حتى مجمع من المساكن المتواضعة خلف محطة بادينغتون. وفي الليلة نفسها أضيف اسمه الى قائمة المشبوهين، كذلك عنوانه في "فير كورت". ولم يبقَ أمام غيليرت سوى توقيت الغارة على منازل المشبوهين. ورفع نظره الى مفكرة الحائط وأطلق ضحكة خافتة وهو يقول أمام كبار معاونيه: "الجمعة، ١٣ اغسطس (آب). انه يوم شؤم بالنسبة الى بعضهم".

الغارة

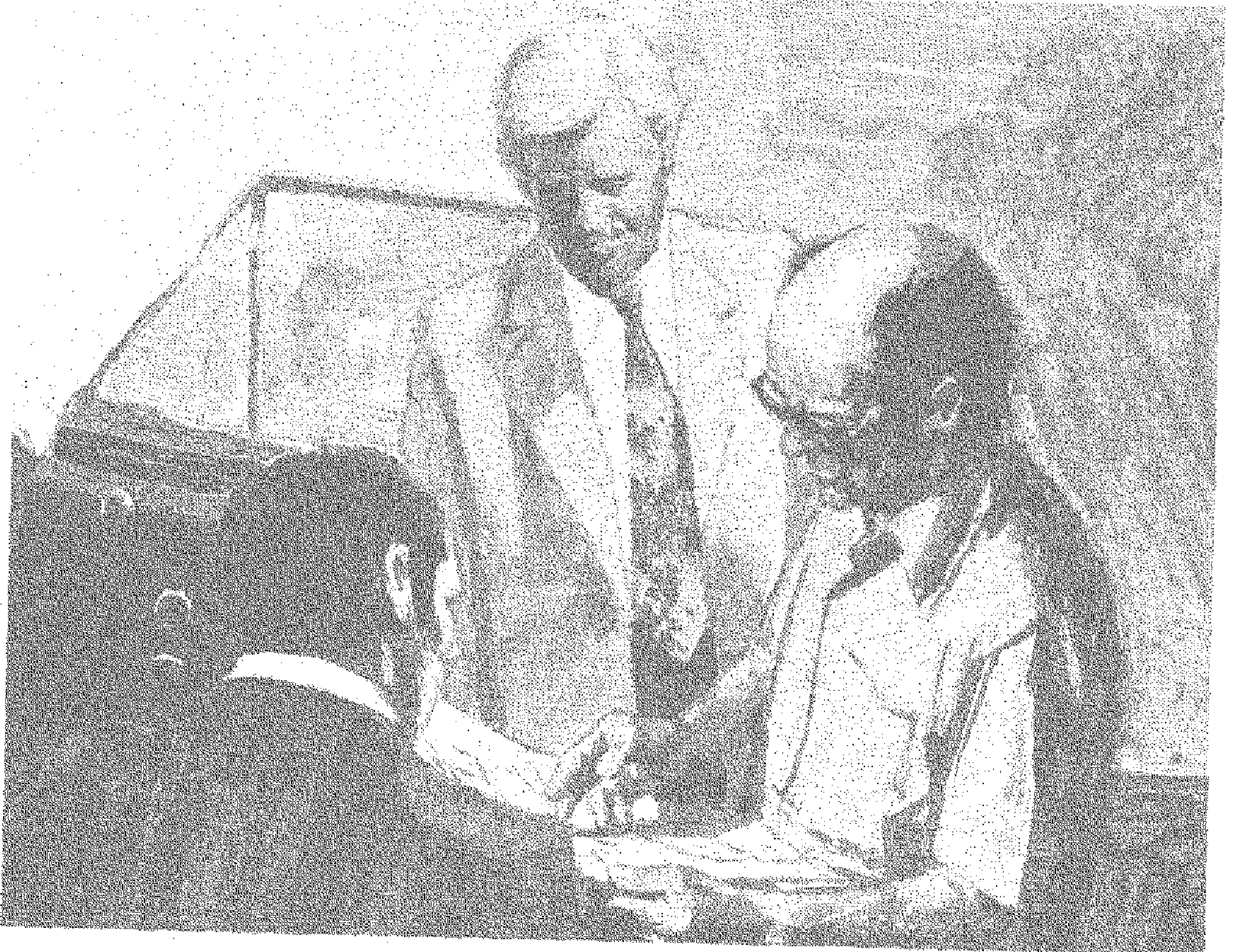
استيقظ غيليرت بعدما هزه أحدهم من كتفه. وكان نائماً على سرير وضعه وسط المكتب علّه يغفو ساعتين قبل مباشرة عملية الدهم. وكانت الساعة الثالثة فجراً وقد اتجهت

ثمانون سيارة للشرطة نحو مركزها في شرق لندن، وفيها ٢٥٠ عنصراً من فرق مكافحة الجريمة والتزوير وسواهما. وكان بعضهم مزوداً بمطارق ثقيلة ومُدى ورشاشات يدوية، استعداداً لمواجهة أي طارىء.

ووزع العناصر في ٣٦ فرقة، كل منها تحت إمرة قائد جرى تدريبه ١٢ ساعة في اليوم الفائت وأعطي معلومات دقيقة عن الموقع الذي ينبغي احتلاله وما يمكن أن يتوقعه هناك. ولضمان وجود المشبوهين في منازلهم، تمت مراقبة المنازل الستة والثلاثين طوال الليل. وكان رجال التحري المولجون بالحراسة يخابرون مركز الشرطة لاعلامه أن المشبوهين أطفأوا الانوار وأووا الى الفراش.

وشق غيليرت طريقه الى المركز، حيث تلاقت الأفواج المغيرة، وهو يعي ما عاني اولئك الشرطيون من توتر خلال الأشهر الماضية. وخطب فيهم، فشكرهم لبدء العمل في تلك الساعة الباكرة وتمنى لهم النجاح في المهمة. وختم كلامه بالآتي: "أظن أننا كلنا ننتظر يوماً عظيماً".

وبُعيد الخامسة عند الضحى، فيما لاحت خيوط الصباح الاولى خلف نهر التايمز، انطلقت السيارات الثمانون من مركز الشرطة، على أمل أن تبلغ أهدافها في وقت واحد هو السادسة إلا ربعاً. وفي السادسة تماماً جاء



صوت غيليرت عبر أجهزة الارسال يقول: "جميع العناصر المشتركة في عملية ملقد: تحركوا الآن".

واندفع الرقيب كلاولي الى البناء الذي يقطنه اوبرلاندر ليرى رأساً يبرز من نافذة في الطبقة الاولى. وصاح فيه على الفور: "اننا رجال شرطة، وفي حوزتنا أمر بتفتيش منزلك". وظهر طيف شخص في الداخل مر من أمام زجاج الباب الرئيسي واختفى سريعاً. عندئذ خلع كلاولي الباب بمطرقته واقتحم المنزل، وقبض على اوبرلاندر في الطبقة السفلى.

وأخذ كلب اوبرلاندر ينبح باهتياج فيما صعد ثلاثة شرطيين آخرين سلم المبنى. وفي طبقة اخرى وجدوا جورج غرونفيلد وزوجته نائمين، وهما يستريحان من رحلة الى اسرائيل، اشتريا خلالها بعض الصكوك المصرفية المزورة. وأعلن أحد الرجال: "اننا عناصر شرطة". ولم يضطرب الزوجان، إذ كانا يتوقعان حدوث هذا الأمر عاجلا أم آجلا، وقال غرونفيلد: "أتشربون الشاي أم القهوة؟"

في تلك الاثناء كان غيليرت في مركز الشرطة يعيش أطول دقائق حياته، متسائلا عن مدى نجاح المهمة وعما اذا كانت ستزوده بالحجج لمواجهة أدهى المزورين في العالم.

وفي السادسة والربع رن جرس الهاتف على طاولة غيليرت. وقال الصوت: "أهذا أنت أيها القائد؟" كان ذلك الرقيب طوني غوس، وهو يتكلم من فيركورت حيث يقيم فرنسيسكو فيوكا، وهو آخر اسم اضيف الى اللائحة. ولم يستطع غوس أن يتمالك نفسه على رغم برودة أعصابه. وراح يعلن متبهجاً: "يا سيدي القائد، لقد وقعت أعيننا على أكثر المشاهد طرافة وغرابة. لقد دخلنا وكر الجريمة".

وللحال ركب غيليرت سيارته وأوصله السائق الى بادينغتون في عشر دقائق فقط. وسار الى منزل من غرفة واحدة في احدى الطبقات الأرضية. وهناك، وسط أشياء كثيرة مزدحمة، وقف يجيل أنظاره في رسوم لم يشاهد نظيراً لها على شاشة السينما أو التلفزيون. وعلى احدى الطاولات وضعت العدة التقليدية التي يستخدمها المزورون، وهي حاجب واق للعينين ونظارات مكبرة. والى جانب الطاولة كانت آلة طباعة مع علب من الرصاص وصندوق شاي يحوي أوراقاً تطبع عليها الصكوك، فضلا عن آلات لطبع الرسوم وصنع الاختام المطاطة. وكانت هناك أيضاً تذاكر هوية ووثائق زواج وتلقيح واجازات سوق وأختام من دوائر الهجرة وحوالات مصرفية سياحية وحوالات مصرفية عادية، فضلا عن مئة جواز سفر وصكوك باسم عشرين مصرفاً.

وبين تلك الاوراق المكدسة ظهر دليل على أن أفراد العصابة كانوا على وشك تنفيذ عملية احتيال في مصرف اسرائيلي، وذلك بسحب نحو خمسة ملايين جنيه استرليني (١٠ ملايين دولار). وكانت الصكوك جاهزة، لا ينقصها سوى التوقيع الذي انتظر فيوكا أن ينسخه عن الصكوك التي حملها غرونفيلد قبل يوم من اسرائيل.

أما الغارات الاخرى فكانت مثمرة هي أيضاً. ففي منزلي اوبرلاندر

وفليشمن عثر على تذاكر سفر وحوالات سياحية مسروقة، وعلى أوراق نقدية مزورة وصكوك باسم ٢٥ مصرفاً وعدد آخر من جوازات السفر. ومن تلك الجوازات خمسة وعشرون صادرةعن سبع دول مختلفة وتحمل ١٢ اسماً، لكنها كلها تحمل رسم اوبرلاندر. وفي منزل آخر صادر رجال الشرطة بريد الصباح، وفيه رسالة تحمل رقم صندوق ايداع في أحد المصارف وتطالب بدفع بدل ايجار الصندوق الذي يحوي أربعة ملايين بيزيتا اسبانية (٤٠ الف دولار) مزورة، اضافة الى صندوق آخر اودع الماسات مسروقة بقيمة ٧٥٠ ألف جنيه استرليني (١،٥ مليون دولار). وبلغت قيمة الاشياء المصادرةخلال العملية نحو مئة مليون جنيه (مئتي مليون دولار).

وبعد يومين من دراسة الوثائق المصادرة واستجواب المعتقلين، وصادف ذلك عطلة نهاية الاسبوع، استقدم غيليرت جميع المشبوهين من أمكنة اعتقالهم المختلفة الى مركز الشرطة لقراءة الاتهام الرسمي عليهم. وفيما هم يدخلون القاعة الكبيرة اخذتهم الدهشة أمام رسومهم المعلقة على الجدران، وتحت كل رسم ذكرت الأسماء المستعارة التي تخص صاحبه.

إلا أن أفراد الحلقة المجرية كانوا يعتقدون أن الورقة الأخيرة ما زالت في أيديهم. ورمى اندريه بيرو تلك الورقة أمام غيليرت إذ أسر اليه بالآتي: "ان الأشياء المصادرة منا لم نستخدمها لأي عملية في بريطانيا. ونحن لم نؤذ أياً من مواطنيكم أو مصارفكم. فعملياتنا كلها تمت في بلدان اخرى".

فأجابه غيليرت دونما تردد: "اذا كنت تظن أن هذا يعفيكم من مواجهة العدالة البريطانية، فيؤسفني أن أعلمك أنك وقعت ضحية نصيحة قانونية خاطئة".

العدالة

أخيراً، في ٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧، وقف المتهمون الاثنا عشر أمام المحكمة الجنائية الرئيسية تمهيداً لاحدى أطول المحاكمات في تاريخ القضاء البريطاني. ودام الاستجواب ستة أشهر، وبلغت تكاليفه مليوني جنيه (٤ ملايين دولار).

ومن أجل دعم الحجج ضد أفراد الحلقة، حصلت الشرطة على خمسة آلاف رسم وعلى افادات مسجلة لـ٤٨٢ شاهداً. وعرضت الشرطة أمام المحكمة ٥٨٠٠ وثيقة، بلغ وزنها ٢،٥ طن واحتلت نحو الثلث من أكبر قاعة محكمة.

وكما أكد غيليرت أمام بيرو، لم يكن ممكناً التملص من الجرائم لأنها ارتكبت خارج بريطانيا. وأعلن القاضي هاينز رئيس لجنة الاستجواب: "التجريم يقتضي أن يكون التزوير حصل بدافع الاحتيال. والقانون لا ينص على أن هذا الدافع ينبغي تنفيذه داخل بلادنا".

وحكم على تافنل بسنتين سجناً وعلى غاز بثلاث وعلى غرونفيلد بأربع سنوات ونصف سنة. ونال كل من فليشمن وبيرو ست سنوات سجناً وفيوكا ثماني سنوات، فيما نال

اوبرلاندر حصة الأسد، وهي أربع عشرة سنة. واستأنف فيوكا واوبرلاندر الحكم، لكن استئنافهما رفض في يونيو (حزيران) ١٩٨٠. والطريف أن "الهدف" الذي قاد الشرطة الى الحلقة برُئت ساحته.

وانتهت المحاكمة من دون اجابة عن جميع الأسئلة. فأين ذهب المال الذي ابتز مما يزيد على ٤٠ مصرفاً وتجاوز الـ ٣٠٠ مليون جنيه (٦٠٠ مليون دولار)؟ فقد عثرت الشرطة على كميات هائلة من الصكوك المزورة، لكن الاوراق النقدية التي صادرتها اقتصرت على ١٨٠٠ جنيه استرليني (٣٦٠٠ دولار) و٣٥٠ دولاراً امريكياً، وجدت في صندوق ايداع في أحد مصارف لوغانو في سويسرا. والواقع أن أفراد الحلقة لم يكن لديهم المال الكافي لدفع أتعاب محاكمتهم. فاضطرت الهيئة المتهمة الى تحصيل المبلغ من الخزينة العامة، أي من مال المواطنين.

وعندما جرت الشرطة اوبرلاندر الى الاعتراف باسم الجهات التي تلقت الأموال المبتزة، أجاب مستعطفاً: "أرجو عدم الاصرار على هذا الأمر. فاذا عرفوا قتلونا... انها المنظمة... انها أكثر مما تساوي حياتي".

ترى اي منظمة كانت تقف وراء الحلقة المجرية؟

من الأجوبة عن هذا السؤال: "المافيا". إلا أن خطة للهرب وجدت في غرفة فيوكا، مع جوازي سفر وثلاث اجازات سوق ووصل مالي وتذكرة سفر مفتوحة التاريخ كانت كلها توجه أصابع الشك الى بودابست، عاصمة المجر.

ومهما يكن من أمر أهداف الحلقة المجرية وهوية أسيادها الرئيسيين، إلا أنها لقنت المصارف حول العالم عبراً قاسية. ففي أعقاب الاعتقالات، وجدت الشرطة أن بعض أفراد الحلقة عمد، على نطاق واسع، الى تزوير الرسائل الموجهة من مصرف الى آخر والتي تحمل أمراً بالدفع، فضلا عن تزوير الصكوك المصرفية.

وفي نهاية المحاكمة تلقى غيليرت - وقد حصل على ترقية من اسكوتلنديارد - رسائل تهنئة كثيرة من أماكن مختلفة حول العالم. وهو يفتخر بها جميعاً، لكنه يعتز باطراء لم يكن ينتظره. ذلك أن اوبرلاندر، عندما واجهه غيليرت بالرسوم الفوتوغرافية التي أدت الى افتضاح أمر الحلقة، قال: "عظيم، رائع". وبحركة نابعة من اصول اللياقة في اوروبا الوسطى، انحنى مقبلا يد غيليرت. وقال: "لا يسعني الا أن أشكركم أيها السادة. لقد فعلتم لنا ما لا يفعله العالم أجمع".

إلا أن الرجل الذي راوغ قوى الأمن طويلا في غير بلد لم يكتب له أن ينهي فترة عقوبته داخل السجن. فبعد سنتين من صدور الحكم عليه وأربع سنوات من اعتقاله، تدهورت صحة اوبرلاندر وضعف بصره، مما جعل وزير الداخلية يطلب من الملكة اليزابيت اصدار عفو عنه بدافع "الشفقة والرحمة". وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٠ رحل اوبرلاندر، الذي يحمل الجنسية الامريكية، الى الولايات المتحدة.

■ ديفيد مولر



صياد الكنوز البحرية

لم يكن برت ويبر يسعى الى الثروة وان يكن نجاحه سيأتيه بها على اي حال. ما سعى اليه قبل اي شيء آخر كان تحقيق مطمح حياته كلها بالعثور على الكنز الاسباني في البحر الكاريبي. حياته هو وتضحيات زوجته واولاده تسخرت لخدمة هذا الهدف الغريب ومع ذلك ظلت ابحاثه طوال ١٧ سنة تلاقي خيبة بعد اخرى. لكن ثقته بنفسه لم تتزحزح.

بقلم جوزف بلانك

في العام ١٦٤١ كانت سفينة القيادة لاسطول العالم الجديد الاسباني تبحر من فيراكروز في المكسيك ميممة شطر اسبانيا. فتحطمت في عاصفة هوجاء بعد اصطدامها بصخور ضحلة على بعد ١٣٠ كيلومتراً الى الشمال مما يعرف اليوم باسم جمهورية الدومينيك.

كان اسم السفينة "كونسبسيون".

ولم يعثر على اي من البيانات الثلاثة التي تفصل الحمولة المنقولة على متن هذه السفينة (واحد كان في السفينة نفسها واثنان في السفن المرافقة لها). لكن الجميع عرفوا ان الكنز الذي حملته "كونسبسيون" كان ضخماً. وقال الناجون من ركابها ان عنابر السفينة لم تتسع لاستيعاب الكنز كله.

اجرى الاسبان محاولات عدة للعثور على حطام السفينة على صخور ابروخوس لكنهم اخفقوا في جميع محاولاتهم. فتلك الكتلة الرهيبة من الصخور المرجانية التي تحطمت عليها السفينة يبلغ طولها ٦٥ كيلومتراً وعرضها كيلومتراً ونصف كيلومتر في بعض الاماكن. كذلك بحثت عن ذلك الكنز دول اخرى وجماعات من القراصنة الذين كانوا يعيثون فساداً في ما كان يسمى "البحر الاسباني".

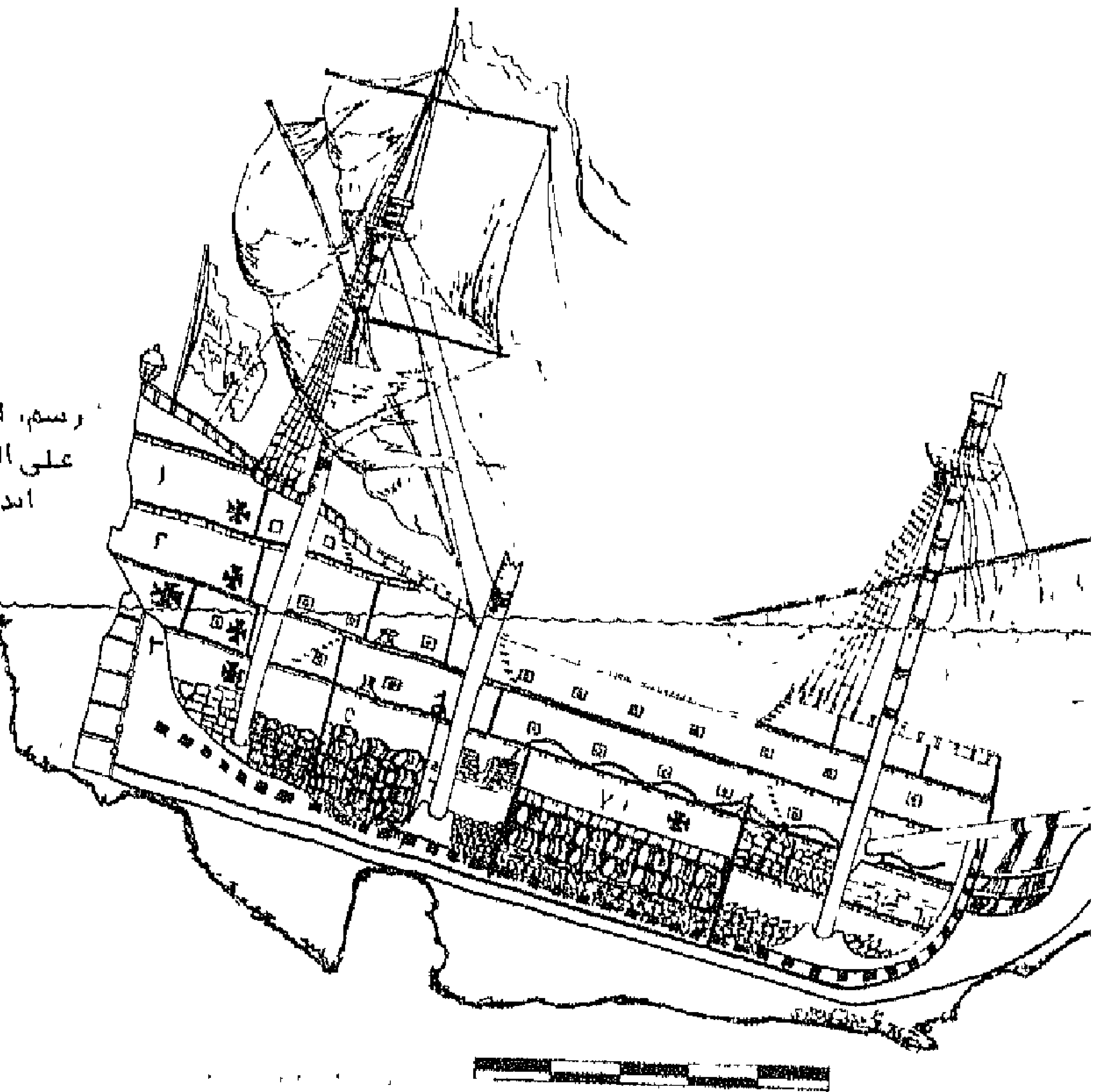
وفي العام ١٦٨٧، اي بعد غرق السفينة بـ٤٦ سنة، حصل وليم فيبس على معلومات عن موقع السفينة الغارقة. وكان فيبس في صباه مزارعاً في نيوانغلاند وبات قبطاناً تجارياً في بوسطن ودخل صناعة السفن. ولم يعرف قط من أعطاه تلك

المعلومات ولا الظروف التي احاطت بحصوله عليها .

سافر فيبس الى بريطانيا حيث تبين ان معلوماته مقنعة بحيث أتاحت له تنظيم بعثة انقاذ بحرية ملكية مولها دوق آلبمارل الثاني . وهكذا ابحر فيبس في حراسة سفينتين مسلحتين قاصدا جزر الهند الغربية حيث كان يأمل ان يجد السفينة "كونسبسيون" .

عبر القبطان فيبس المحيط الاطلسي في رحلة طويلة على متن السفينة "جايمس وماري" وألقى مراسيه في مرفأ "بويرتو بلاتا" على الساحل الشمالي لجمهورية الدومينيك . وزعم فيبس امام السلطات الاسبانية انه يقوم برحلة تجارية ، وتحت هذا الستار اوفد مساعده فرنسيس روجرز ، قبطان السفينة المرافقة "هنري" لبتحرى حطام السفينة مع فريق من الغواصين المحليين ، وبقي هو في المرفأ يراقب اي بوادر تشير الى تدخل خارجي محتمل في مهمته الحقيقية .

ألقى روجرز مراسي سفينة "هنري" خارج الكتلة المرجانية وأرسل قارباً وزورقاً خفيفاً للبحث عن الحطام . وتوفق الغواصون في العثور على حطام "كونسبسبون" التي وصفها روجرز بأنها "أغنى سفينة خرجت من جزر الهند العربية" . ووصف موقعها في سجل سفينته



رسم للسفينة "كونسبسيون" كما استقرت على الصخور لدى غرقها عام ١٦٤١ وقبل اندثار بدنها واشرعتها وصواريها .

١٠ قمرة الاميرال
٢٠ قمرة القبطان
٣٠ حمولة
٤٠ مخزن البارود
٥٠ مستودعات السفينة ومخازن الاثقال
٦٠ مخزن كرات المدافع
٧٠ حمولة ـ اصابع فضة ومخازن اثقال
+ مخبأ الكنز .

بتفصيل دقيق٠ ولكن لم يتح لأحد من صيادي الكنوز ان يقرأ هذا السجل حتى العام ١٩٧٨٠

عاد روجرز الى بويرتو بلاتا ليزف الى فيبس الخبر المفرح٠ وقضت السفينتان ٥٩ يوماً في موقع السفينة الغارقة ثم أبحرتا الى بريطانيا ناقلتين ما يزيد على ٢٩ الف كيلوغرام من الفضة في شكل نقود وسبائك وصفائح، واكثر من ١١ كيلوغراماً من الذهب في شكل سبائك مع اكياس من الدرر والحجار الكريمة٠ وكوفيء فيبس بنسبة مئوية من الغنيمة وشرف بمنحه لقب فارس، وفي النهاية عين حاكماً على مستعمرة خليج مساتشوستس٠ ومنذ ذلك الوقت عرفت صخور ابروخوس المرجانية باسم جديد هو "ضحال الفضة"٠

وعلى رغم معرفته أن ما حصل عليه لم يكن سوى جزء يسير من كنز السفينة "كونسبسيون"، لم يقم فيبس برحلة أخرى٠ غير ان اسطورة "كونسبسيون" لم يخبُ ذكرها قط، وظل حطامها يجتذب الباحثين عن الكنوز طوال ٣٠٠ سنة٠

خلال السنوات الاربعين المنصرمة حاولت بعثات كثيرة العثور على كنز "كونسبسيون" ومن بينها بعثة قادها المستكشف الفرنسي جاك كوستو لكن الكنز ظل بعيد المنال الى ان قرر برت ويبر نبشه٠

ولد برت في بلدة صغيرة قرب ريدنغ في ولاية بنسلفانيا٠ وهو قاسى انواعاً عدة من الامراض٠ ففي سنه الثانية اصيب بالاكزيما المزمنة(١) مع حكاك شديد لم تنجح فيه الادوية٠ وكان مصاباً بالربو الشعبي، فكان في نفسه صفير وهو يلهث طالباً الهواء٠

وعلى رغم اعاقاته الجسدية كان برت يحب الرياضة٠ وعندما كان في السادسة علمته اخته السباحة في جدول قريب، فعشق المياه٠ واخذه عمه مرة في رحلة صيد بحري عميق، ويقول برت في ذلك: "ما ادهشني لم يكن الصيد ولا المناظر حولي، بل كنت مزمعاً على معرفة ما في قاع البحر من اسرار"٠

في سنه العاشرة قرأ برت على علبة حبوب عرضاً بتقديم خوذة غطس هدية٠ وارسل برت القسيمة بالبريد الى العنوان المذكور٠ وحين وصلت اليه الخوذة فرح بها كثيراً واعتمرها طوال ساعات متخيلا نفسه يمشي على ارض البحر بين حطام السفن ويكتشف العجائب٠ وبعد ست سنوات بات يملك عدة غطس كاملة٠

وفي المدرسة الثانوية قرأ برت كل ما في المكتبة عن فيزياء الغطس وحوادث غرق السفن القديمة التي ما زالت تحمل كنوزها٠

قال مرة لأبيه: "أريد أن اكون غواصاً، فذلك هو العمل الوحيد الذي يستهويني"٠ وراح يتحرى امكان الانضمام الى برنامج لتدريب الغواصين في الاسطول الامريكي، غير ان داء الربو الذي كان يعانيه حال دون ذلك٠ فتحول مع والده الى استقصاء امكان انتسابه الى مدرسة الغوص في ميامي، ولاية فلوريدا٠ ولم يكن والده متحمساً للفكرة؛ غير أنه اعطاه المال اللازم لمتابعة

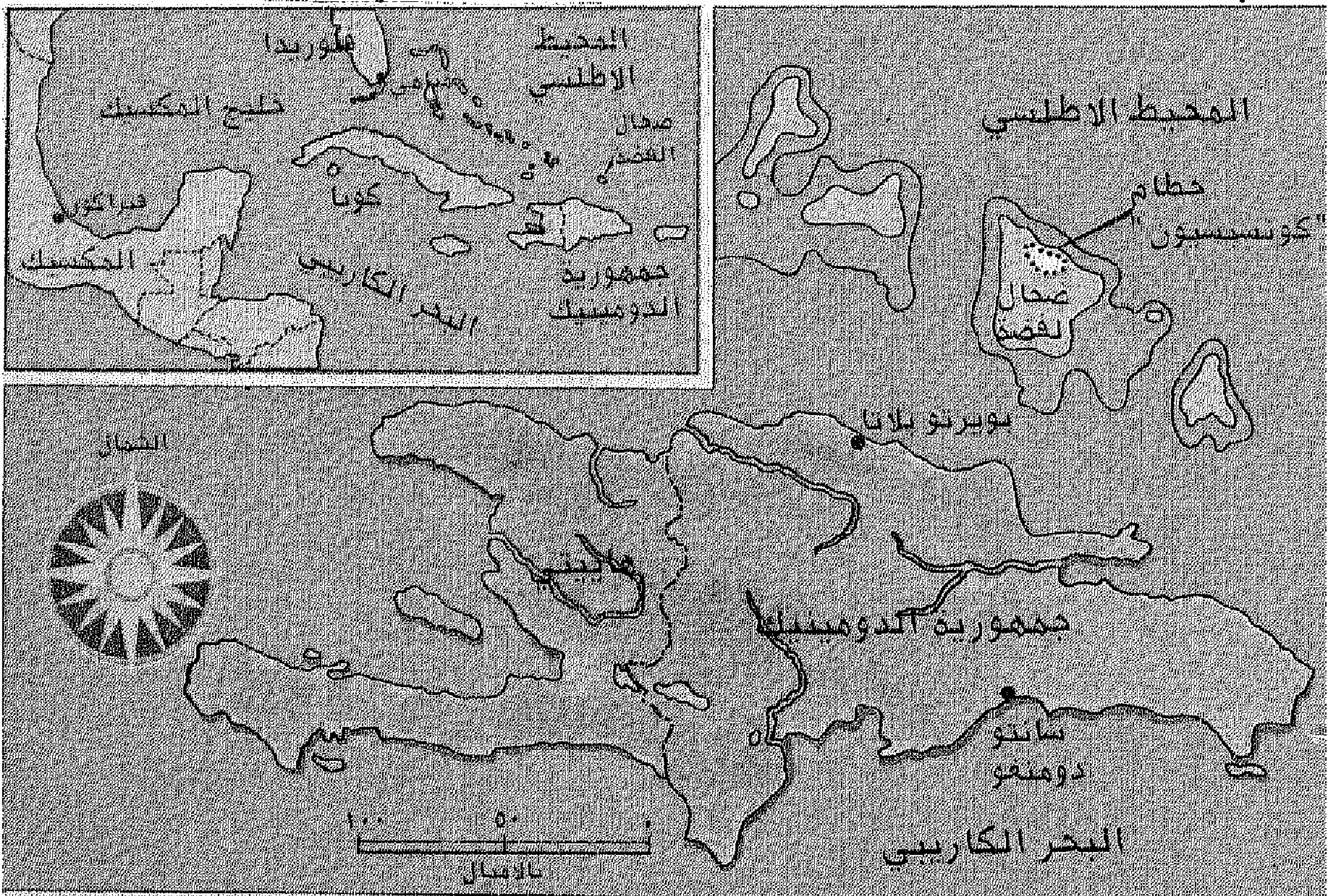
(١) مرض جلدي

برنامج التدريب ومدته اربعة اشهر٠
وجد برت الغوص امراً مثيراً وقال: "الغوص بالنسبة الي هو كتسلق الجبال بالنسبة الى هواة تلك الرياضة٠ أشعر أني هناك وحيد أتعاطى مع الطبيعة٠ وما قد يحدث لي يتوقف على حسن تقديري ومعرفتي٠ ففي قاع البحر، كما في شعاب الجبال، لا يمكنك أن تخدع نفسك، والأجدر بك أن تعرف من أنت وما حدود مقدرتك"٠

سمع برت في المدرسة ومن الغواصين المحترفين قصصاً كثيرة عن عشرات السفن الاسبانية التي تعثرت على الشاطىء الشرقي لولاية فلوريدا٠ وفي احدى الامسيات كان يقود سيارته الى مدينة بلانتايشن ليزور متحفاً حافلا بالعاديات المستخرجة من البحر والتي جمعها آرثر ماكي وهو باحث قديم عن الكنوز٠

حدق برت مأخوذاً الى السيوف القديمة من مختلف الانواع والاحجام وسبائك الفضة والذهب والنقود٠ وكان يتخيل الاثارة التي يبعثها في النفس العمل في قاع البحر والعثور على مثل هذه التحف٠ كان عمره آنذاك ١٨ سنة فأصبح هذا الحلم هاجساً لازمه وتملك مشاعره٠ ولم يكن ينظر الى حلمه كسبيل سهل للثراء، بل كل ما استحوذ عليه كان ما قد ينتهي اليه من انجاز٠

سعى برت الى لقاء القبطان ماكي الذي اعلمه انه يخطط لبعثة اخرى وانه سيباشر تجنيد طاقم بحارة في وقت قريب من موعد فراغ برت من برنامج تدريبه٠



هدف ماكي كان حطام سفينة تناهى اليه خبر غرقها قبالة محلة بدرو بانك على بعد حوالى ١١٠ كيلومترات الى جنوب غرب جامايكا. وأقنعت الابحاث ماكي ان الحطام هو لسفينة كنز اسبانية.

ويتذكر برت: "اهتدينا الى موقع السفينة الغارقة بمساعدة ادلاء من الجزيرة يعرفون الصخور المرجانية. وبدا لي ان عالماً جديداً تكشف امامي. استخرجنا أشياء كثيرة مكسوة بالمرجان، بينها مدافع وغدارات وبنادق قديمة وجرار من الخزف ونصول تهرأت مقابضها. كما عثرنا على تمثال فضي صغير. وكنت اعمل طوال ساعات يقظتي، وصرفت في قاع البحر وقتاً اطول من اي غواص آخر. كنت اهوى ذلك العمل. غير اننا لم نعثر على اي كنز ذهبي".

ولم يوهن الاخفاق عزيمة برت بل كان حافزاً يؤجج الحماسة في نفسه كما تقول ساندي، وهي رفيقة له في المدرسة تزوجها في ما بعد: "كان متحمساً للبحث عن الكنوز. ولم يكن له حديث سوى ذلك. كان مهووساً، وعندما يصغي المرء اليه لا يسعه الا ان يجاريه في حماسته".

حظ عاثر

وقف برت نفسه كلياً للبحث عن الكنوز، فدرس التاريخ البحري والخرائط والوثائق التي توافرت له عن الفترة التي تشمل ٣٠٠ سنة من عهد الاستعمار الاسباني بدءاً من العام ١٤٩٢.

دأبت الحكومات الاسبانية القديمة، كذلك التجار، على ارسال اسطولين الى العالم الجديد كل سنة يضم كل منهما بين ١٠ سفن و٣٠ سفينة. وكانت هذه تحمل في ذهابها الجنود والاسلحة والبارود والخيول والمؤن، وفي طريق العودة كانت لها مهمة واحدة: نقل المعدن الثمين والجواهر من العالم الجديد الى اسبانيا.

أصاب الاسبان في حدسهم أن في الكثرة اماناً، فلن تجرؤ سفينة قرصان على مهاجمة أسطول اسباني وان يكن صغيراً. لكن بعض السفن كانت تشرد عن الاسطول احياناً فتغدو غنيمة سهلة للقراصنة. وكانت العواصف العاتية والصخور الساحلية تهدد السفن العابرة بين الجزر الكاريبية على طول الساحل الشرقي لولاية فلوريدا وذلك قبل ان تغير مسارها وتيمم شطر اسبانيا. فيتلك الاعاصير العاتية كانت بعض السفن المنفردة تتعثر في المياه الضحلة بعد ان يقذفها الاعصار نحو الصخور المرجانية المغمورة بالماء.

وكان الناس يعرفون الكثير عن حمولة تلك السفن التي تحطمها الاعاصير وعن ظروف غرقها ومواقعها. فقد كان الاسبان يدققون في تحقيقاتهم. كل سفينة تحمل كنزاً كان لها ربان مسؤول عن تقديم بيان خاص قد يبلغ مئات الصفحات، يفصل فيه الاشياء الثمينة المنقولة على متن سفينته. والى ذلك كان غرق اي سفينة تعقبه جلسة محاكمة او تحقيق يستمع خلالها ممثلو التاج والممولون الخصوصيون الى جميع الناجين ويأخذون افاداتهم. وكان

كتبة، على غرار كتاب المحاكم اليوم، يسجلون هذه الافادات ويحفظونها.

كل ما قرأه برت شحذ رغبته وزادها تلهفاً. وفي العام ١٩٦٢ خرج في ثلاث حملات استكشافية. وفي ١٩٦٣ عمل غواصاً في حملتين، لكن جميع المشتركين في هذه الحملات آبوا خائبين.

هذه الخيبات أقنعت برت بأن حظه قد يكون أوفر في تحديد اماكن الكنوز اذا هو انطلق في حملة تخصه وحده من دون سواه ويعتمد فيها تقديره الخاص. فاقترض ٦٠٠٠ دولار من شريك لوالده وعاد الى ميامي حيث استأجر مركباً وطاقماً صغيراً من البحارة. وبعدما قارن بين ما تناهى اليه من اقاصيص مختلفة، توصل الى قناعة بانه قد يعثر على حطام سفينة قبالة الصخور البحرية في جوار كوبا. وأعقب هذا خروجه في استكشافات عدة لكنها كلها لم تؤدِ الى العثور على الكنز الذي كان يحلم به.

اخيراً سنحت الفرصة التي كان برت يتوق اليها. فعلى رغم الاخفاقات المتكررة التي لم تفت في عضده، خصوصاً في الفترة الاخيرة، فانه تابع العمل. وواتته الفرصة حين التقى وارثاً لتركة تجارية ضخمة أذهله الأمل بالعثور على كنز، وقد اجتذبه برت باحلامه، فوافق على شراء مركب وتجهيزه بأحسن معدات الغوص المتوافرة.

ظل برت نحو سنة يبحث عن حطام السفن على الصخور الساحلية في البحر الكاريبي. وفي احدى الليالي تعطل جهاز الرادار واصطدم المركب بحيد صخري امام ساحل كوبا. فعاد به البحارة الى ميامي من غير ان يحمله برت شيئاً في مقابل الجهد والمال الذي انفق، ففقد الممول اهتمامه بالمشروع.

بعد سنة كان احد اصحاب المصارف في نيويورك يسأل برت عن جدوى البحث عن الكنوز كطريقة للتوظيف المالي. فأخبره برت صادقاً ان تلك مجازفة، ويجب الا يوظف احد ماله في مثل تلك المساعي الا اذا كان قادراً على احتمال فقده. قال ان الكنوز تنتظر من يعثر عليها لكن اكتشافها عسير للغاية. فالسفن القديمة كانت تصنع من الخشب، وبعد قرون من التعرض لمياه البحر تندثر اخشابها واشرعتها. وحدها المعادن تبقى، كالفضة والذهب والمدافع وقذائفها الحديد والاجهزة المعدنية والمسامير التي تثبت اجزاء السفينة ويراوح طول كل منها بين ٢٠ و٤٥ سنتيمتراً.

حتى وان كنت فوق موقع الحطام مباشرة فلا يمكن عينك المجردة ان ترى سوى القليل من هذه الاشياء التي تكون في العادة مدفونة في الرمل او مكسوة بالمرجان الذي ينمو بين ٧،٥ و١٠ سنتيمترات كل سنة. غير ان من الممكن وجود بعض الادلة مثل مدفع بارز جزئياً او حجار كروية تبدو غريبة عن قاع البحر، وهي كانت تستخدم كأثقال في السفن الاسبانية لحفظ توازنها.

واوضح برت ان مباشرة البحث عن اي حطام بحري يجب ان تسبقه مراجعة لابحاث اساسية اجريت عن السفينة المحطمة وحفظت لدى الدوائر

الرسمية الاسبانية. كما يجب ان تتوافر للباحث معدات الكترونية لكشف المعادن الموجودة تحت الماء.

هل كان في ذهن برت حطام سفينة معينة؟ اجل، يبدو ان اهم ما جال في ذهنه كان السفينة الغارقة "آتوشا". فكثيرون من صيادي الكنوز المحترفين - او المنقذين كما يسمون انفسهم - بحثوا عبثاً عن هذه السفينة. وبعد مفاوضات حول المشروع وافق صاحب المصرف النيويوركي على دعم برت.

امل جديد

في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٥ سافر برت الى اسبانيا لاجراء بحوث في محفوظات العهد الاستعماري الاسباني في اشبيلية والمتحف البحري في مدريد. ورافقه امين سر ومترجم ومدققون محترفون. المهمة التي واجهتهم كانت هائلة، فالمعلومات التي سعى اليها برت كانت مطمورة في رزم من المخطوطات يضم كل منها الف صحيفة او الفين. اما عدد الرزم فكان عشرات الآلاف، من غير فهارس تدل على محتوياتها.

امضى برت ثلاثة اشهر يصور وينسخ ويفهرس مئات الوثائق المتعلقة ببناء السفينة "آتوشا" وتسليحها وكنزها وبحارتها وحمولتها. كانت هناك خرائط تشير الى مكان غرقها، الا ان تلك الرسوم كانت غير موثوقة في أي حال لأنها اعتمدت الافتراض وملاحظات من فوق سطح البحر. ويوضح برت ذلك: "البحث في المحفوظات يتطلب اختصاصيين مدربين، ذلك لأن الكتبة في وقت غرق السفينة "آتوشا" كانت لهم اصطلاحاتهم واختزالاتهم وتعابيرهم الخاصة. وحتى هؤلاء الخبراء قد يسهون عن بعض الاشارات التي يمكن ان تكون ذات اهمية كبرى لي، لأنهم في الغالب يملكون معرفة ضئيلة بالسفن الشراعية والابحار والجغرافيا وجيولوجيا تلك الجزر. كما ان سوء تفسير بعض الكلمات يمكن ان يغير مجرى بحث كامل".

تابع برت استقصاءاته على نحو متقطع سنوات عدة، معتمداً المعلومات التي عثر عليها في القسم الشمالي من جزر "فلوريدا كيز". فلم يهتدِ الى كشف ذي قيمة، كما ان جهود سواه من "المنقذين" الباحثين عن "آتوشا" ذهبت سدى.

ولكن فجأة انبثق أمل جديد امام ميل فيشر، احد منافسي برت الذي يضم فريقه اوجين ليون وهو مؤرخ يعنى بتاريخ اسبانيا واميركا اللاتينية ويقطن في فلوريدا. اكتشف ليون وثيقة نخرها العث في محفوظات اشبيلية حددت موقع غرق السفينة "آتوشا" في مكان يبعد ١٦٠ كيلومتراً الى الجنوب من المنطقة التي كان برت ينقب فيها. وكان بحاثة برت اغفلوا هذه الوثيقة(٢).

كانت هذه هزيمة اخرى لبرت. واخذ والده يتساءل اذا كانت خسارة "آتوشا" ستجعل ابنه يعزف عن مطامحه. ولم يكن الوالد يدري ان

---

(٢) بدأ فيشر استخراج كنوز "آتوشا" عام ١٩٧٢، لكنه حتى الآن لم يستخرج سوى نسبة يسيرة مما ادرج في بيان السفينة الغارقة.

صيادي الكنوز هم متفائلون بالفكرة وان نجاح الغد يمحو مئة اخفاق. وقال برت لأبيه: "هناك سفن أخرى، وسأعثر على احداها".

خلال سنوات تحدث برت مراراً مع جاك هاسكنز الذي درس على نفسه واصبح قادراً على قراءة الوثائق الاسبانية واجرى ابحاثاً تاريخية عن عشرات السفن الغارقة في البحر الكاريبي. وكان هو نفسه صياد كنوز، غير انه كان يمقت الناحية التجارية من عملية البحث مثل تأليف الشركات والعمل مع المحامين وجمع الاموال والتفاوض على العقود وقيادة طواقم البحارة. فاذا بدا له ان مشروعاً ما كبير جداً، اكتفى بالبحث والاستقصاء حتى يتوصل الى استنتاج يحدد اذا كان هناك امل في العثور على الموقع، ثم يحيل المعلومات التي يجمعها على جماعة منظمة في مقابل نسبة من الارباح.

بعد خسارة "آتوشا" تبادل برت وجاك المعلومات عن الاهداف المحتملة الاخرى. كان هاسكنز واثقاً من انه أصاب في تحديد موقع "العجائب" وهي سفينة غرقت عام ١٦٥٦ عند الجانب الشمالي من جرف "ليتل باهاما بانك" في جزر الباهاما.

بسط جاك خريطة امامه ووضع اصبعه على ملتقى خطين ترسمهما مجموعتان من الجرف الرملية وقال: "اظن انها في هذا الجوار".

اعاد برت النظر في الوثائق والخرائط المختلفة للجرف الرملي ووافق هاسكنز على ان الحطام لا بد وان يكون هناك، وربما امكن العثور عليه بواسطة الكاشف المغناطيسي.

كان برت أصبح خبيراً في استخدام هذا الجهاز الالكتروني، وهو كاشف يمسح الحقل المغناطيسي للارض ضمن مدى محدود. اي قطعة حديد ضخمة، كمدفع مثلاً، تبعث في سماعات الكاشف صوتاً حاداً أو تحدث في اللوحة الضوئية نتوءاً عن الخط العام.

لكن الخيبة كانت بانتظاره هنا ايضاً، فقد سبقه "منقذ" آخر الى هذا الحطام. وهنا تحتم على صاحب المصرف ان يوقف دعمه لمجازفات برت فارتد هذا الى عائلته في بنسلفانيا. وكان بين مجازفة واخرى يعمل في الزراعة ليشارك في اعالة اسرته. وهذه المرة أمضى سنة كاملة يبيع السيارات في الوكالة التي يملكها ابوه. ومع انه كان نشطاً واظهر مقدرة في هذه المجال، الا ان زوجته ساندي كانت تدرك ان قلبه لا يخفق لتجارة السيارات. ولذا شجعته على العودة الى البحر.

ولما كان يلبث في البيت اسابيع قليلة، فلم يكن في وسعه الارتباط بعمل دائم. وهكذا تحتم على ساندي ان تعمل. فكان برت يعتني بأولادهما الاربعة ويتابع اتصالاته ويطلع على تطورات حملات التفتيش ويخطط لمجازفاته المقبلة، بينما ساندي تخدم في حضانات الاطفال والمخازن التجارية وفي مصنع للاحذية.

"عملية فيبس"

توالت السنون ولم يلاق برت سوى الخيبة. واخذ معارف ساندي ينعتونها بالغباء لاحتمالها هذا النمط من الحياة، لكنها كانت تجيب: "انا اعرف ماذا افعل وزوجي يعرف ماذا

يفعل ولا يهمنا ما يفكر فيه الآخرون. ان مايقوم به زوجي انما هو من اجلنا نحن الاثنين ومن اجل أولادنا".

بعد خسارة السفينة "العجائب" عام ١٩٧٢ شعر برت بالكمد والتعاسة. ولبعض الوقت اعتقد ان القدر رصد له الا يعثر على كنز ابداً. وهو اكب على الدرس والتعلم طوال ١١ سنة وبات خبيراً في استخدام الاجهزة الالكترونية تحت الماء، لكن ذلك كله لم يجدِ.

ادركت ساندي ان زوجها يحتاج الى التشجيع والدعم فقالت له: "لا تقلق، ستنجح. انك تزداد خبرة مع مرور الوقت وستتغير الاحوال وترجح كفتك في النهاية".

وبينما كان برت يعمل لاعالة اسرته ظل متعلقاً بحلمه وتابع ابحاثه في مكتبة الكونغرس في واشنطن وفي المحفوظات الاسبانية، فاشتهر كفني حقق تجديدات وتطويرات في جهاز الكاشف المغناطيسي وصنع حاويات خاصة للكاشف تمكن من استخدامه تحت الماء. وهو لم يقطع اتصاله بهاسكنز، ويوماً بعد يوم وقع الرجلان أسيري سحر "كونسبسيون".

كان هاسكنز طوال سنوات اجرى ابحاثاً واسعة عن هذه السفينة في اسبانيا والمتحف البريطاني والجمعية التاريخية في مساتشوستس، فعثر على السجل الذي كان القبطان فيبس يدون فيه معلوماته وملاحظاته، وهذا أعطاه فكرة عامة عن المكان الذي يجب ان يبحث فيه فوق ضحال الفضة التي تمتد ٦٥ كيلومتراً.

غير ان سجل السفينة المرافقة "هنري" هو الذي كان يخفي سر موقع الكنز المدفون، لكن احداً لم يعثر عليه. وساورت هاسكنز خشية من أن ذلك السجل لم يعد موجوداً، فربما رمي عن غير قصد او أتلف خلال القصف الالماني لبريطانيا في الحرب العالمية الثانية.

تملكت الرجلين قناعة بعد ابحاثهما الشاملة ان حطام السفينة "كونسبسيون" لا بد وان يكون في قطاع مداه ٢٧ كيلومتراً من ضحال الفضة.

ان تجهيز سفينة مستأجرة تجهيزاً وافياً واكمال المسح المفصل لهذا القطاع يتطلب خمسة اشهر او ستة. وكان برت يحتاج الى ٤٠٠ الف دولار على الاقل لهذه المهمة، فراح يبحث عن الممولين فلم يلاقِ اي نجاح في بداية الأمر. وفي شهر يونيو (حزيران) وردته مخابرة من صديق طلب منه ان يطير الى شيكاغو ليبحث مشروع "كونسبسيون" مع صاحب مصرف في السادسة والثلاثين يدعى وارين ستيرنز.

تحدث الرجلان طوال ساعات في لقائهما الاول ثم اجتمعا مرتين قبل ان يخلص ستيرنز الى قرار. وهو يستعيد ذكرى ذلك: "لقد أثر بي ويبر عميقاً، فالصدق كان يشع من وجهه ولم يخف عني شيئاً، لا اخفاقاته السابقة ولا مدى معرفته وخبرته".

وفيما انصرف ستيرنز الى تهيئة المبلغ المطلوب أخذ برت يتفاوض مع حكومة الدومينيك. واتفقا على ان تأخذ الحكومة ٥٠ في المئة من اي كنوز يتم العثور عليها كضريبة على منح ويبر وفريقه براءة حصرية للبحث عن الكنز في ضحال الفضة وجوارها.

كما تأخذ الحكومة الدومينيكية على عاتقها حراسة الموقع ومنع تدخل اي فريق آخر من صيادي الكنوز، وتتعهد بأن تحمي الكنز بعد العثور عليه وتختزنه في القاعدة البحرية في سانتو دومنغو.

اصبحت المجازفة التي أطلق عليها اسم "عملية فيبس" على اهبة الانطلاق.

وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧ وصل برت الى الموقع والقى مراسيه خارج منطقة الهدف. وهو كان يعرف ان البحث لن يكون سهلا. ربما تكون "كونسبسيون" فقدت مراسيها الحديد وهي تحاول التملص من بين الصخور ولم تعد تحمل سوى المدافع النحاسية، في هذه الحال تغدو هدفاً مغناطيسياً ضعيفاً. والاسوأ من ذلك ان برت وفريقه واجها تحت الماء غابة مرجانية جميلة لكنها خطرة. كانت اعمدة المرجان تعلو ٢٠ متراً ولها رؤوس حادة كقرون الوعول لا تظهر فوق الماء الا عند الجزر البحري وتتخللها شبكة من الكهوف والأخاديد الضيقة.

اكب الرجال على العمل اسبوعاً بعد آخر وهم يدورون بالكاشف المغناطيسي حول تلك الرؤوس المرجانية. وكان على الغواصين ان يتحروا قاع البحر بصرياً حاملين أجهزة كشف عن المعادن، فيتسللون بين النوامي المرجانية الحادة كالشفار. وهم عثروا على حطام ١٣ سفينة لم يكن لأي منها قيمة تستحق الاخراج. وفي يونيو (حزيران) ادرك برت ان لا فائدة من مواصلة البحث. فقد كانت أعمدة المرجان تعوق الكاشف المغناطيسي. وقال: "لا يستطيع المرء ان يطلق طائرة ورقية دون مستوى رؤوس الاشجار في غابة صنوبر، وهذا كان شأننا مع النوامي المرجانية والكاشف المغناطيسي. لم يسعني استخدام الكاشف المغناطيسي على مسافة قريبة من القاع. فالكنز يرقد هناك بلا ريب، وكنت على يقين من اننا عبرنا فوقه مرات من دون ان نهتدي اليه".

اصيب برت وعدد من بحارته بالتسمم السمكي، كما ان الجروح الناشئة عن ملامسة النوامي المرجانية الحادة كانت تتلوث بالجراثيم ولا تبرأ. وخسر رئيس الغواصين بوب كولي ١٨ كيلوغراماً من وزنه، وظهرت على جلده بقع واسعة عارية من الشعر رافقها فقدان نسبة كبيرة من حاسة اللمس في اطراف أنامله.

وفكر برت في الامر وقوم الموقف طوال ساعات ثم اتصل هاتفياً بستيرنز واكد له ان مواصلة البحث عن الكنز عمل عقيم في تلك الظروف. وشعر برت لفترة انه اخفق كلياً.

الحلقة المفقودة

في رحلة العودة الى ميامي قال برت لكولي: "أظنني قدر لي الا اعثر على كنز قط. كنت مرات عدة على قاب قوسين من بلوغ غايتي، ولكن لسبب او لأخر لم ادركها وأرى اني لن ادركها ابداً. ثم تملكه الانقباض والكمد لما حمل زوجته في سبيل مطامحه.

وتناهى الى جاك هاسكنز ان سيدة كندية كانت تدرس وثائق من محفوظات اشبيلية عن اسطول ١٦٤١،

فاثار اهتمامها غرق السفينة "كونسبسيون" وبعثة الانقاذ التي قادها فيبس عام ١٦٨٧. والتقى هاسكنز المرأة في اشبيلية فاخبرته انها كانت تساعد بيتر ايرل الاستاذ في معهد الاقتصاد في لندن الذي يؤلف كتاباً عن هذا الموضوع. وكتب هاسكنز الى ايرل عارضاً عليه تبادل المعلومات.

وفي ابريل (نيسان) ١٩٧٨ أرسل ايرل الذي لم يكن ميالا الى البحث عن الكنوز، رسالة الى هاسكنز وردت فيهاعبارة كتبت عفواً وتقول: "بالمناسبة، عندي سجل فرنسيس روجرز، هل اطلعت عليه؟"

وحدق هاسكنز الى تلك العبارة وقد تسمر نظره. كل الوقائع كانت توحي بأن سجل السفينة "هنري" يحتوي على سر موقع "كونسبسيون". ولما كان القبطان فرنسيس روجرز عثر على موقع السفينة المنكوبة وعاد الى المرفأ ليخبر القبطان فيبس بالأمر، فلا ريب في انه قدم وصفاً دقيقاً لذلك الموقع.

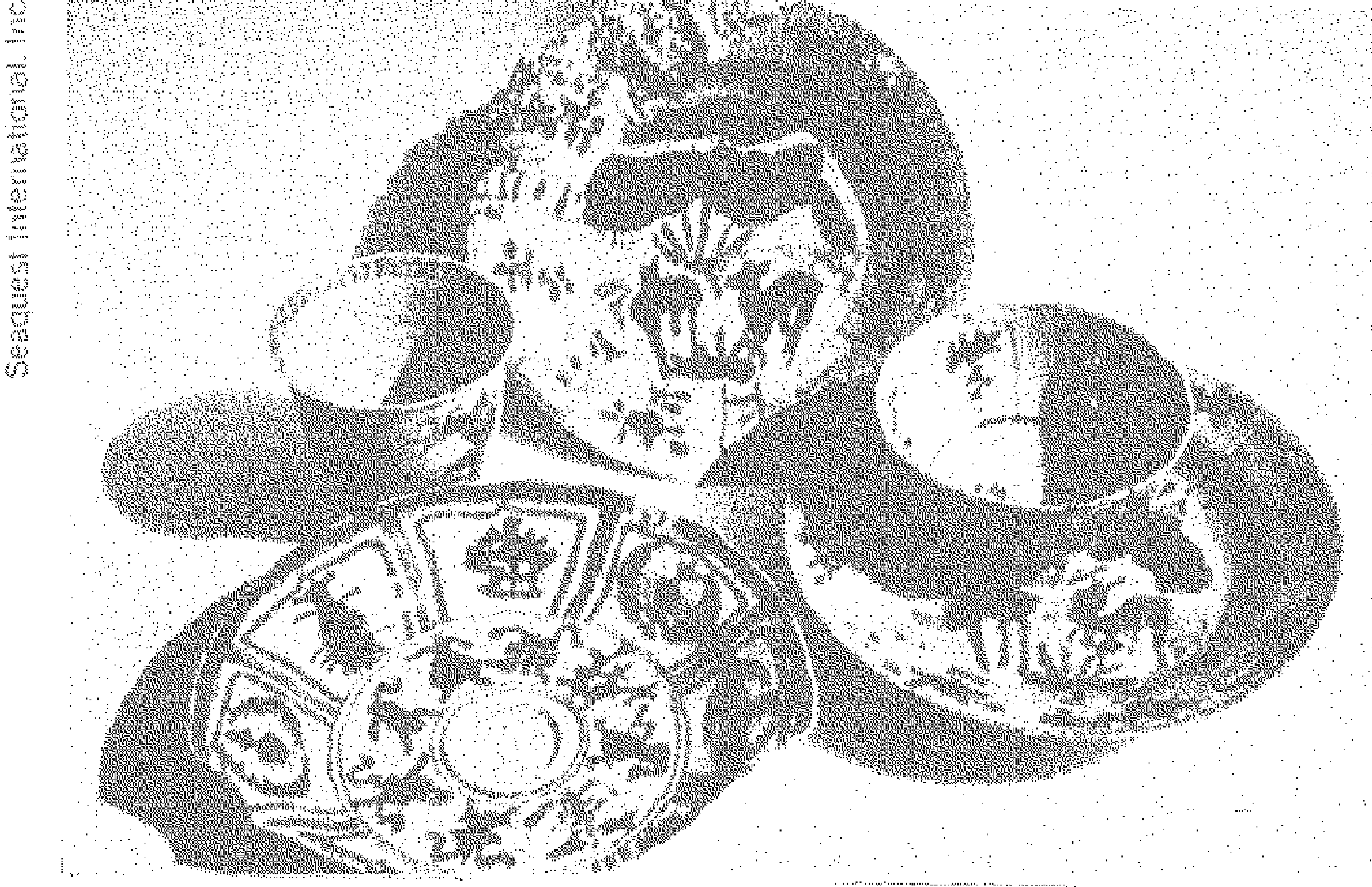
اتصل هاسكنز ببرت. وفي أقل من ٤٨ ساعة التقى الرجلان بالاستاذ أيرل في احد فنادق لندن، فأخبرهما ان السجل موجود في مكتب محفوظات "كنت" في ميدستون التي تبعد عن لندن مسافة ساعة في القطار. هذه المحفوظات اهداها الى المدينة قبل ثماني سنوات الايرل رومني المتحدر من سلالة أحد ممولي بعثة فيبس الثانية. وقد ظلت تلك المحفوظات بين مقتنيات العائلة الى حين اهدائها.

في اليوم التالي حضر برت وهاسكنز الى دار المحفوظات في المدينة ودخلا مكتب المدير وهما يحاولان اخفاء اضطرابهما. وطلبا بلهجة عفوية السماح لهما بالاطلاع على السجل. وراح هاسكنز يقلب الصفحات بسرعة اذ كان اسرع من برت في قراءة الخط السائد في القرن السابع عشر.

وهاهي! تفاصيل دقيقة عن خطوط العرض وأرصاد بحرية وارشادات عن السفينة الغارقة مع اوصاف للمجموعة المرجانية التي كانت تحتضن الكنز وكلها مبينة في أوضح صورة. بعدما قضى برت سبعة اشهر باحثاً فوق ضحال الفضة امكنه بسهولة ان يتصور موقع الكنز ويحدده في نطاق ١٦٠ متراً اعتماداً على الخريطتين اللتين وضعهما بحارة فيبس.

كاد برت أن يرقص فرحاً. لكنه قال لاحقاً: "كنت خائفاً من اخفاق جديد، فقد قهرتني الظروف مرات في الماضي. فما الذي سيحدث هذه المرة؟ هل سيقوم في وجهي ما يمنعني عن بلوغ أربي؟هل ستغرق سفينتي؟ هل ستتعطل الاجهزة؟ ثم ما هي الاوضاع الحالية للرمال التي تراكمت عبر السنين والنوامي المرجانية التي غيرت معالم المكان؟"

بسبب سجل برت القاتم لم يكن ممكناً كبح تلك التساؤلات المتشائمة لكنهاكانت عابرة وهو ايقن انه يمكن الاعتماد على سجل السفينة "هنري" للاهتداء الى الكنز. وتضاعفت ثقته بامكان العثور على الكنز عندما بلغه ان شركة كندية طورت كاشفاً مغناطيسياً أشد حساسية بعشرة



قطع من الخزف الصيني اخرجت من "كونسبسيون".

اضعاف من اي جهاز مماثل بحيث لا تخفي عنه اي قطعة حديد وان تكن مدفونة تحت خمسة امتار من الرمل او النوامي المرجانية.

التحفة الاولى

في ذلك الربيع عقد برت وستيرنز وزملاؤهما اجتماعات عدة مع ممولين محتملين بهدف توفير ٤٥٠ الف دولار لتمويل "عملية فيبس الثانية" لأن هذه تتطلب رجالا اكثر ومعدات اوفر وسفينة أكبر مما اقتضته المجازفة السابقة.

في ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٨، أوصلت ساندي زوجها الى المطار ليركب الطائرة الى ميامي. كان ايمانها بزوجها قوياً، غير انها كانت تدرك ان الوقت حان لحسم هذا الأمر معه، فهي سئمت المجازفات والاقامة في بيت مستأجر من غير ان يمكنها فتح حساب توفير في مصرف او ان تسدد براحة مصاريف العائلة. فقالت له: "اعثر على الكنز هذه المرة، لأني لم أعد احتمل هذه الحياة". فاجابها: "أعرف ذلك، وهذه افضل فرصة اتيحت لي".

في ميامي امضى برت وخمسة بحارة وتسعة من الغواصين، بينهم خمسة من اعضاء البعثة السابقة، ٤٠ يوماً يعملون في تحويل كاسحة ألغام بريطانية قديمة سفينة عمل.

وصلت البعثة الى ضحال الفضة في ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني). وفي اليوم التالي جربت البعثة اجهزتها في تلك المياه الغدارة وفحصت المعدات الالكترونية وجهاز الحفر على حطام سفينة من القرن السابع عشر عثر عليها في الحملة السابقة.

وفي الغد تفحص برت صوراً جوية للرؤوس المرجانية وقابلها بخريطتين رسمتا خلال بعثات فيبس القديمة، ثم اعاد النظر في المعلومات

المستقاة من سجل السفينة "هنري" وأجرى تقديراته الخاصة. بعد ذلك قاد زورقاً صغيراً مع فريق من بحارته الى بقعة تقع في وسط مثلث مؤلف من ثلاثة رؤوس مرجانية. وارتدى لباس الغوص والقى بنفسه في الماء. وناوله احد البحارة الكاشف المغناطيسي فيما هو يعوم على ارتفاع ١٥ متراً فوق قاع البحر.

وفي اليوم الثالث سمع برت صوتاً حاداً في السماعات الملتصقة بأذنيه، وكان واضحاً انه يجوس في منطقة اضطرابات مغناطيسية قوية.

فجأة وقع نظره على مسمار حديد من النوع الذي كان يستعمل قديماً في السفن الخشبية، كذلك على قطع اخرى من أجهزة السفن مدفونة في النوامي المرجانية. بعد ذلك لاحت له جرة خزفية مكسورة. كان يعرف من دراساته ان السفينة "كونسبسيون" وسواها من سفن الاسطول كانت تنقل جراراً ضخمة لتخزين الزيتون والماء وصمغ الصنوبر (كان يستخدم في معالجة الجروح). ثم بدت له مجموعة من الحجار الكروية الملساء التي كانت السفن الاسبانية تستعملها كأثقال.

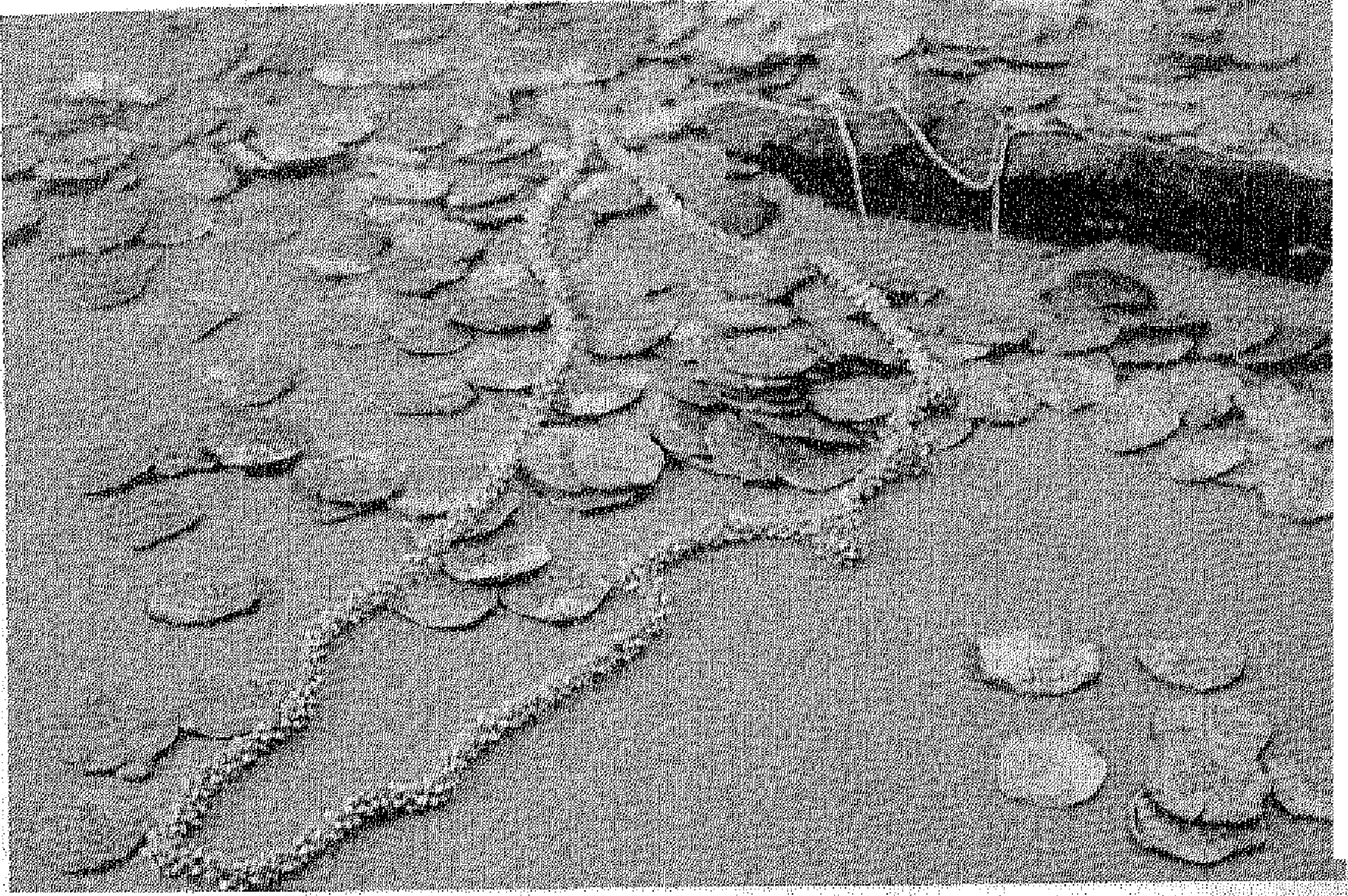
صعد برت الى سطح الماء وأمسك حافة الزورق بيد ونزع باليد الاخرى القناع وانبوب التنفس عن وجهه. حاول ان يكون رابط الجأش، لكنه لم يستطع ان يكظم نبرة اثارة حين قال: "هناك حجار اثقال واجهزة سفينة، اظننا ظفرنا بما نبحث عنه". ثم اومأ برأسه الى الغواص دوك لونغ وقال: "سأغوص مرة اخرى قبل هبوط الظلام".

اقتفى برت ورفيقه أثر حجار الاثقال وهما يتسللان بين جدران كثيفة من المرجان. فلاحت لهما جرة كبيرة، فأخذا بكل عناية يكسران النوامي المرجانية من حول قعرها وأخرجا التحفة الاولى الى سطح الماء. كانت جرة خزفية رائعة ظلت سليمة طوال نحو ٣٠٠ سنة.

"وجدتها! وجدتها!"

في ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) بدأ البحث الجدي بواسطة فريقين من الغواصين يضم كل منهما اربعة رجال وقد جهز بكاشف للمعادن. وبعد الظهيرة كان احد الغواصين الجدد واسمه جيم نايس يسبح بين النوامي المرجانية، فعثر على حجر أثقال في حجم برتقالة كبيرة مدفون في طبقة مرجانية. وما ان نزعه من مكانه حتى سقط شيء خلفه بدا مستديراً على نحو غير منتظم، يزيد قطره قليلا على ثلاثة سنتيمترات ولونه أسود ضارب الى الرمادي. وسبح نايس مسرعاً الى جهة برت وسلمه ذلك الشيء الذي عثر عليه. وللحال حدس برت في ما هو مدفون تحت تلك الطبقات المرجانية التي نمت عبر قرون. فذلك "الشيء" كان قطعة نقد فضية اسبانية من فئة الثمانية. ولو انها تحمل تاريخاً لأكد انها من السفينة "كونسبسيون". ولاحظ الغواص دون سومر أن عيني برت التمعتا. أتراه عثر على الدليل؟

عاد برت بالقطعة النقدية الى متن السفينة، فوضعها هنري تايلور الخبير في النقود في محلول من النيترات ليزيل ما تراكم عليها من المرجان، ثم في مغطس مكهرب



جزء من الكنز بعد تنظيفه. التاريخ على قطعتين نقديتين اثبت انهما من حمولة "كونسبسيون".



قطعتا نقد فضيتان كما اكتشفتا مدفونتين في المرجان.

لازالة الرواسب السوداء، وبعد تنظيفها بالفرشاة تكشف وجهها الفضي اللماع، غير أنها لم تكن تحمل اي تاريخ.

رجع برت الى فريق الغوص عند قاعدة العمود المرجاني حيث عثر الغواص نايس على القطعة الفضية. وقبل هبوط الظلام تم استخراج ١٢٨ قطعة نقدية أخرى ومبخرة فضية وعدد من سبائك الفضة (وهي في

شكل أقراص كانت تهرب غالباً).

في تلك الليلة انهمك البحارة في تنظيف النقود. واتضح ان قطعتين منها كانتا مؤرختين ١٦٣٩ و١٦٤٠ مما وفر دليلا لا يدحض على أن السفينة الغارقة هي "كونسبسيون" وقد تم العثور عليها أخيراً. وكانت ليلة قضاها الجميع في الابتهاج وتبادل التهاني.

حاول برت استخدام الهاتف للاتصال ببلاده. ولما كان الخط قناة اذاعية مفتوحة ويمكن الآخرين التنصت اليها بسهولة، اعتمدت طريقة الرموز. ولم يجب احد عندما اتصل بمنزله في بنسلفانيا وبشقة ستيرنز في شيكاغو، وكان برت يتحرق ليعلن للناس: "وجدتها! وجدتها!".

واتصل هاتفياً بكين بيل وهو صديق قديم كان يهتم بالشؤون القانونية للفريق، وقال له: "كين، هنا برت يتكلم. أخضر أثنان (وتعني بالرمز التحقق من هوية "كونسبسيون") ز - واحد - ز (وتعني: بعض الكنوز استخرجت)". وصاح بيل مأخوذاً: "ماذا تقول؟ انتظر؟ انتظر قليلا لأحضر صحيفة الرموز". وأخذ يبحث بعصبية، وفجأة تذكر معنى الرمز "أخضر اثنان" فشهق: "برت، لقد مرت عليك ١٧ سنة طويلة".

اتصل بيل بمنزل برت فأجاب اكبر ابنائه بود وعمره ١٤ سنة، فعلم منه ان ساندي كانت في بيت احدى صديقاتها فقال: "اتصل بأمك فوراً واخبرها ان والدك عثر على الحطام، وقل لها كذلك الا تخبر احداً بالأمر".

نفذ بود التعليمات بدقة وهتف لأمه: "يا أمي، لدي ما أود ان اخبرك به. لقد عثر والدي على الحطام ولكن يجب الا تخبري احداً بالأمر". وصاحت المرأة مشدوهة: "ماذا تقول؟" فكرر بود ما قاله مرتين وثلاثاً فصاحت: "لا استطيع أن أصدق!"

الكنز الكبير

منذ اللحظة التي تم اكتشاف حطام السفينة أستمر العمل في نقل الكنز دونما انقطاع طوال ايام العمل الاسبوعية على مدى تسعة اشهر. وطوال اسابيع ظل الغواصون والبحارة مبهورين بحجم التحف التي أخرجت من البحر. النقود الفضية كانت تشتمل على عشرات الوف القطع من مختلف الفئات اضافة الى قطع من الفضة من غير علامات مميزة (ربما كانت للتهريب) في شكل اصابع وأوتاد وسبائك وشمعدانات ومطافىء شموع وصفائح (كان يستخدمها الصاغة في اسبانيا) واوان للمائدة. ومن بين التحف الذهبية المستخرجة سلسلتان صنعتا يدوياً بدقة رائعة طول كل منهما متر ونصف متر وصندوق عطور فاخر منقوش بالذهب. وكان بينها ايضاً آنية من خزف "ماجوليكا" الفاخر صنع المكسيك و٣٦ فنجاناً من الخزف الصيني يرقى تاريخها الى عهد سلالة مينغ، كما عثر على ثلاثة أجهزة اسطرلاب (٣) قديمة (أحدها يرقى الى العام ١٦٣٢) وصندوق سفر مع قعر سري لاخفاء النقود الفضية التي وجدت مكدسة صفوفاً من اربع او ست طبقات.

---

(٣) آلة فلكية قديمة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم.

وخلال أربع ساعات من العمل في قاع البحر كان كل غواص يملأ أكياساً من النايلون باكثر من ١٥٠٠ قطعة نقدية. وكسر جاك هاسكنز طبقة مرجانية ودس يده في الثقب وأخرج حفنة من النقود. وقال: "تابعت مد يدي واخراج النقود مرة بعد اخرى".

وكان برت يعمل في الرمال بين جدران مرجانية يرتفع كل منها ستة امتار، وكانت منطقة جيدة، اذ استمر يحفر ويخرج النقود ساعة بعد ساعة وهو مأخوذ بما بين يديه حتى لم يعد يعير النوامي المرجانية اي ألتفات. وبعد عمل مضن جلس ليستريح. وأجال طرفه بكسل في الطبقات المرجانية التي لم يلتفت اليها من قبل، وفجأة أيقن أن سطح تلك الطبقات كان مرصوفاً بالنقود المسودة اللون.

وعمل الغواصون في اعماق تراوح بين ١٣ و١٨ متراً. وكانوا احياناً يحفرون الى عمق اربعة امتار وربع متر داخل الطبقات المرجانية في عمل متعب. وقال الغواص كوفي: "هذا العمل يماثل اشغال البناء الثقيلة، ولكن من ناحية الطاقة التي يبذلها العامل فان كل ساعة هنا توازي اربع ساعات على سطح الارض".

بقي اعضاء الفريق في موقع الكنز قرابة اسبوعين وفي نهاية هذه الفترة كان العمل الشاق بلغ بهم جميعاً شفا الضنك والارهاق الجسدي والعقلي. كانت آذانهم مسدودة طوال الوقت وجروح النوامي المرجانية لا تبرأ. كما أن أطراف اناملهم تهرأت من ملامسة النتوءات المرجانية الحادة.

وابرق برت الى الحكومة الدومينيكية طالباً حماية موقع الكنز، ثم أبحرت سفينته في رحلة الـ٢٨ ساعة الى سانتو دومنغو. هناك استراح البحارة ثلاثة ايام فيما نقل الكنز الى القاعدة البحرية لحفظه.

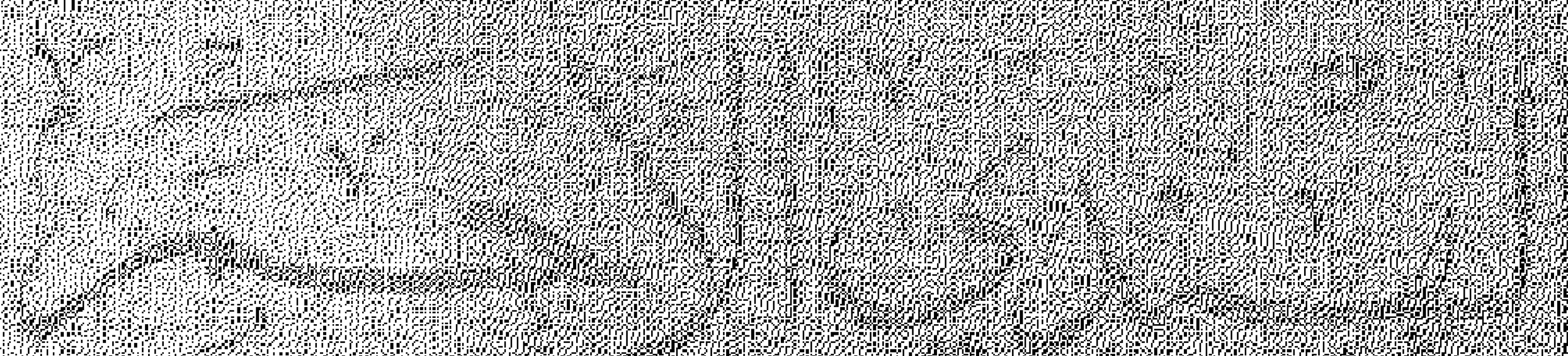
بعد ذلك تزودت السفينة بالوقود والمعدات وقطع الغيار ثم أبحرت عائدة الى ضحال الفضة.

يرفض برت وشركاؤه ان يفصحوا عن حجم الكنز الذي عثروا عليه. ولا ريب في ان كميات الفضة المستخرجة تقاس بالاطنان.ومرت بضعة اشهر قبل ان يتم تنظيف القطع النقدية التي استخرجت من قاع البحر وتقويمها وعرضها للبيع. ان قيمة الكنز ككل تعتمد على قيمته بالنسبة الى المتاحف وهواة جمع التحف النادرة وخبراء النقود. وتحدد التقديرات غير الرسمية هذه القيمة بعشرات ملايين الدولارات، وقد يكون هذا أضخم كنز يعثر عليه في هذا القرن.

بعد اسبوع من الاشعار المثير باكتشاف الكنز، طارت ساندي الى جمهورية الدومينيك لتلتقي زوجها في بويرتو بلاتا التي تبعد ثلاث ساعات بحراً عن ضحال الفضة. وكانت سفينة برت راسية في المرفأ عندما وصلت ساندي، وكان هو واقفاً في مؤخر السفينة. استقبلها بابتسامة عريضة أشرق بها وجهه، وشعرت أنه عثر على ما هو أثمن من الكنز، انه عثر على راحة البال والاعتزاز وأثبت جدارته. وقفزت ساندي الى متن السفينة وهتفت: "لقد نجحت! لقد نجحت!" ثم تعانقا بحرارة.

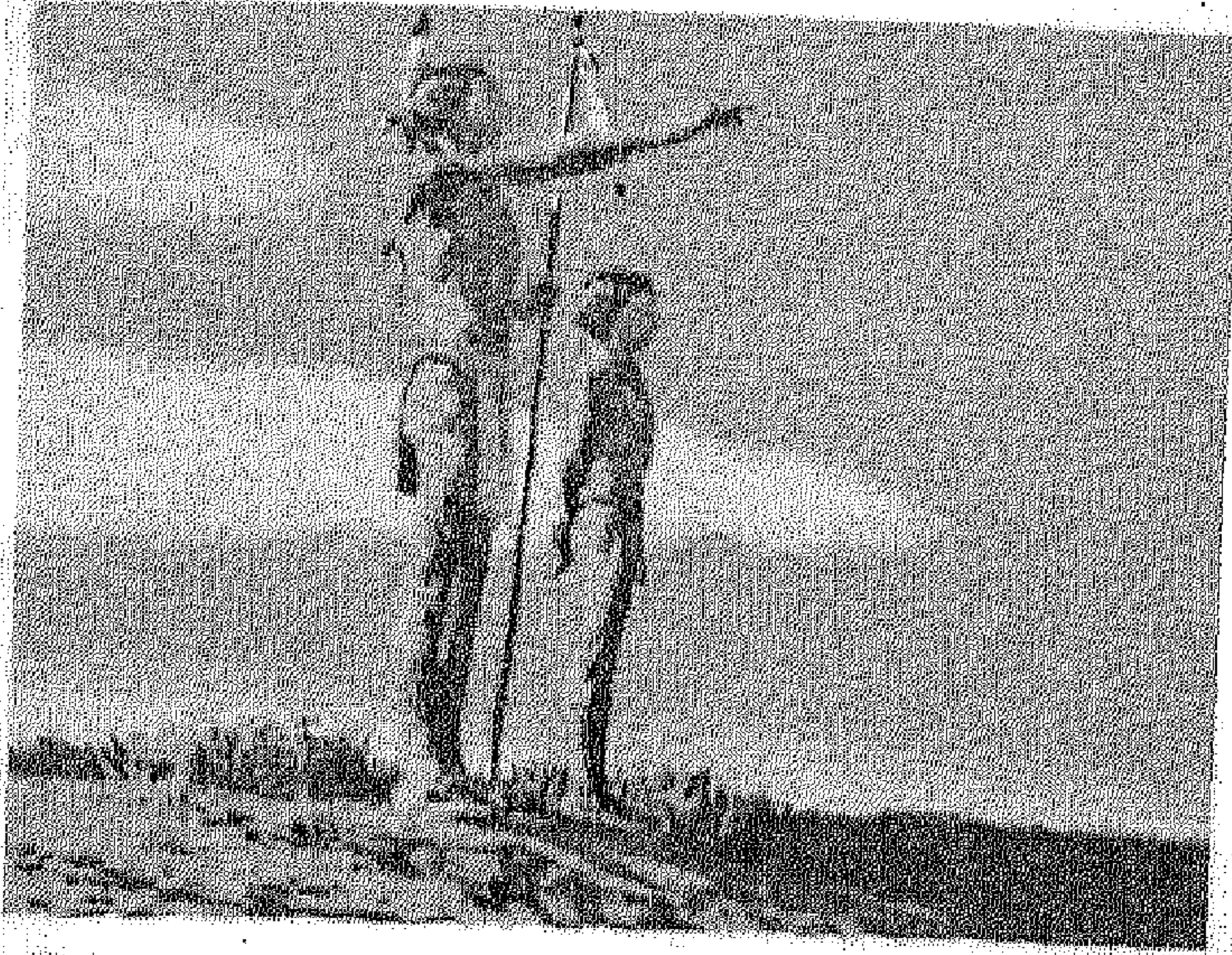
■ جوزف بلانك

كتاب الشهر



ملخص من كتاب بقلم جيمس ميتشنر





الهندي الأحمر

بقلم
جيمس ميتشنر

رواية جيمس ميتشنر حول الهنود الحمر تضم، الى الخيال الأدبي، حقائق تاريخية جمعها الكاتب بعناية من مراحل حياة اولئك القوم. وهي تدور حول قائد اسمه ليم بيفر. وينطلق الكاتب من حياته لوصف حياة الهنود الحمر في السهول والجبال التي قطنوها، مع وصف الحيوان الرئيسي هناك، وهو ثور البيسون الذي كان قوام حياتهم، ووصف بعض أهم المعارك التي خاضتها القبائل بعضها ضد بعض.

كان شعبنا قبيلة من الهنود الحمر الطوال والناحلين. وكانت تقاليدهم قديمة قدم الزمن، ومنها ايمانهم بـ"الانسان فوق" واستمدادهم البأس في المعارك من "المزمار المسطح" الذي يتعهده حارس خاص على الدوام ويجله قومنا كرمز مقدس. وكان ذلك المزمار من الاهمية بمكان، نظراً الى أن شعبنا يحيطه الاعداء من كل جانب. ولولا حماية هذا الطواطم(★) له لكان انقرض وامحى خبره.

وكان، في العام ١٧٥٦، أن تلك الفئة من شعبنا التي اعتصمت وقتياً بالسهول الواقعة بين شمال نهر بلات وجنوبه واجهت الازمة الاخيرة من سلسلة أزمات متعاقبة تعرضت لها القبيلة. فالهنود المحيطون بهؤلاء كانوا يملكون الجياد وهم على وشك امتلاك البنادق. أما شعبنا فلم تكن له هذه ولا تلك.

في ذلك العام بلغ أحد فتية القبيلة، القندس الاعرج، التاسعة من

(★) شيء يتخذ رمزاً للاسرة او العشيرة

عمره، ودخل عليه ابوه الذئب الرمادي لنقل الأخبار المحزنة. والواقع أن الذئب الرمادي هو الشقيق الأكبر لوالده، لكن القبيلة تسمي العم أباً أيضاً. وقال له الرجل وهو يشير الى اتجـاهات مختلفة: "لا يغيبن عن بالك أن شعبنا محاط بالأعداء. ففي الشمال قبيلة "داكوتا"، ورجالها مقاتلون أشداء. وفي الغرب شعب "اوت" الذي لا يوصف. وفي الجنوب "الكومانشي" الذين يمتلكون الجياد. وفي الشرق، خلف هضاب راتلسنيك والبراري الممتـدة وراءهـا، تعيـش قبيلة ناشطة يبدو أنها لا تقهر في المعارك". وعـض الذئـب الرمـادي شفته السفلى وانتابه غيظ أخرسه دقيقة. ثم رفع رمحه المريش وهزه نحو الشرق مهدداً وهو يقول: "انها قبيلة البونـي".

وأجلس الصبي على صخرة وتابع: "في الصباح اذ تنهض من النوم، وفي الليل قبل أن تأوي الى الفراش، وخصوصاً عندما تقف حارساً على التلة، لا تنسَ أن تنظر الى الأنحاء الأربع وتسأل نفسك: "أين يختبىء عدوي؟

"ولا تخشين الحرب أبداً. وأنبل فعل يدخله محارب في حسابه هو وضع يده على عدو في ساحة المعركة. ومن العار أن يموت المرء جباناً من غير أن يحقق هذا الشرف".

وكان القندس الاعرج يعرف كل شيء عن هذه الضربة الموفقة. فصغار القبيلة يتحدثون عنها على الدوام، وعن استعدادهم للانقضاض على واحد من الاوت وضربه باليد أو بالرمح لتسجيل هـذا الفخـر. كمـا انهـم مستـعـدون لمـواجـهـة واحـد مـن الكومانشي على صهوة جواده وانتزاع رمحه من يده. ذلك أن من يعجز عن هذه البطولة لا يستأهل احترام القوم. وطالما تفاخر القندس الاعرج أمام أترابه قائلا: "لا بد من أن اسجل ضربة ضد واحد من البوني". الا انهم لم يأخذوا كلامه على محمل الجد.

وصمت الذئب الرمادي طويلا ثم أضاف: "لا شيء يعمر الى الأبد الا الصخـور. والمحـارب يولـد لزمـنـه ويحارب كما كتب له "الانسان فوق". وعليه أن يحترم المزمار المسطح ويكسب ما أمكنه من انتصارات. واذا كان حظه سعيداً، فهو يقضي في المعركة ويداه على عدوه. وهكذا يسجل أعظم نصر: ان يموت عزيزاً".

وكان وجه الذئب الرمادي، متجعداً وقد ملأ الغبار شقوقه. كما كانت عيناه كئيبتين وصوته عميقاً. وفي تلـك اللـحظـة مـن الصمـت، أدرك القندس الاعرج أن أباه الحقيقي، "شمـس الظهيـرة"، قتـل. وأشـاح بعينيه وهو يسأل: "أكان مصرعه في ساحة المعركة؟"

ـ كان يحاول الانقضاض على واحد من البوني.

"وهل أفلح؟"

ـ كلا!

من العبث أن يحاول المرء الكذب في أمر كهذا. ففي المساء سيتحلق المـحـاربـون حـول نـار المـخـيـم ويسترجعون أحداث النهار، مقتصرين على تسجيل الانتصارات الحقة. وان موت محـارب شجـاع مثـل "شمـس الظهيرة" ليس تأكيداً لانتصاره.

وكانت أعراف القبيلة تسمح بأن

يشارك أربعة محاربين في تسجيل انتصار معين. وكان الرجل الأول الذي يقبض على العدو يصيح: "أنا لمسته أولا". ويتبعه الثاني والثالث والرابع. ولدى أنتهاء المعركة يجتمع المحاربون وشهود المعركة، ويقف أحدهم معلناً: "لقد كنت الأول في لمس قائد البوني". لكن الشهادة لا تصح ما لم يقم آخر ويقول: "لقد شاهدته يقبض على البوني قبل سواه".

أما قتل العدو فليس امراً يذكر. وعلى رغم ضرورته أحياناً، فهو لا يسجل انتصاراً حقاً. والكلام نفسه يقال عن سلخ فروة رأس العدو. فبعضهم يجمع فراء الرأس لتزيين خيمته. وربما أقدم محارب على قتل أحد افراد العدو وانتزاع فروة رأسه من غير أن يعد ذلك مأثرة اذا سبقه أربعة رجال الى لمس العدو نفسه.

وسأل القندس الاعرج "شمس الظهيرة مات؟"

- لقد حاول تسجيل انتصار، لكن البوني كان يمتطي جواداً وانقض عليه أولا.

"وهل رفعتم جثته وأعدتموها الى الدار؟"

- وحدها الصخور تعيش الى الأبد... لقد أخذ البوني جثته وسلخ فروة رأسه.

بطولة العجوز

في ربيع ١٧٦٤، عندما كان القندس الاعرج في السابعة عشرة، تنادى شعبنا الى اجتماع قرر فيه أنه من العار أن نبقى هكذا من غير جياد، علماً أن الكومانشي والبوني وحتى الاوت لهم ما يكفي منها. والجياد ليست ضرورةحربية فحسب، بل هي ضرورة حياتية أيضاً، اذ بدونها يضطر شعبنا الى مطاردة الثيران عدواً على الاقدام. وثيران البيسون هي قوام غذائنا. كما كان شعبنا، في ترحاله، ينقل امتعته على ظهور النساء والعربات البدائيةالتي تجرهاالكلاب.

وقال "الاذن الباردة" احد أبطال القبيلة الذي سجل انتصارات عدة في المعارك: "اني اصبحت عجوزاً وبدأت أسناني تتكسر. وقد قتل ابني وانطفأت رغبتي في العيش. واني أرى ضرورة الاغارة على البوني وأخذ ما امكن من جيادهم. وبعد ذلك أعتزل".

وكان شعبنا يدرك أن شرف المحارب هو الموت على هذا النحو. ووافق الجميع على منح الاذن الباردة هذا الامتياز. وتأثر القندس الاعرج بذلك الموقف البطولي، وطلب السماح له بالانضمام الى المغيرين. ونال الفتى المقدام ما تمناه.

وسار المحاربون شرقاً ثلاثة أيام. وكانوا في حر النهار ينامون في أماكن محجوبة، ومع الغسق يستأنفون الركض في وجهتهم. ثم يسيرون عادياً ليركضوا من جديد.

وبُعيد الغروب عصر اليوم الثالث، أرسل القندس الاعرج مع محارب شجاع يكبره قليلا لتحري مخيم البوني. وتسلل الاثنان وسط أشجار الحور القطني حتى أصبحا على بعد ٤٠٠ متر من العدو.

وهمس القندس الاعرج في اذن رفيقه: "يبدو أنهم جماعة صيد، لا جماعة حرب".

وأجابه الآخر: "انظر، ألا ترى جيادهم؟"
ولما عادا الى المخيم طلب الاذن الباردة الى القندس أن يتكلم أولا: "البوني قليلون هناك، لكن الجياد كثيرة. وهم مزمعون على التقدم نحونا".

وقبل الفجر ودع الاذن الباردة رفاقه الصناديد وتقدم بصمت. ووقف عند تلة تشرف على مخيم البوني الذين كان صيادوهم يتوافدون. ولما دخلوا كلهم، لوح الاذن الباردة بسلاحه لترويع الجياد. ورآه البوني وأدركوا أنه طليعة غارة كبيرة.

ونخس أحد قادة البوني حصانه وخفض رمحه، واتجه بسرعة نحو العدو الذي قيد نفسه الى وتد على قمة التلة. الا ان الاذن الباردة اتقى الرمح ببراعة فائقة، قابضاً على قصبته بيده اليمنى وضارباً الفارس باليسرى. وألقاه عن جواده مسجلا أحد أكبر الانتصارات في تاريخ شعبنا.

واحتدمت المعركة فيما بقي الاذن الباردة مكبلا في مكانه وهو يوجه رجاله. وسجلت انتصارات عدة قبل أن يستجمع البوني قوتهم ويجبروا جماعتنا على التراجع.

غير أن الاذن الباردة، الذي تعهد خوض المعركة حتى النهاية، ظل في مكانه مقيداً بالحبال المصنوعة من جلد البيسون وهو يحارب البوني بكل ما اوتي من شجاعة وقوة. ولا يجوز اعتاقه الا اذا تولى أحد القادة فك الوثاق بيديه. وتمسك بطلنا بالرمح الذي صادره في لحظات المعركة الاولى، وانتظر والدمع يسقط من عينيه الهرمتين أسفاً لعدم نجاح المعركة.

واتجه ثلاثة فرسان من البوني نحوه مباشرة. فاتقى رماحهم باعجوبة وأصاب برمحه قائمة أحد جيادهم. وتوقف الثلاثة لتفقد حصانهم الذي يعني لهم أكثر مما يعنيه ذلك المحارب العجوز. ولما استداروا لاستئناف هجومهم رأوا مشهداً مثيراً. ذلك أن محارباً شاباً ترك أترابه المتراجعين وعاد للقتال الى جانب العجوز. وكان ذلك الشاب القندس الاعرج. وهو انحنى فوق الاذن الباردة وفك وثاقه ثم وقف متحدياً.

وبمنتهى الحذق والجرأة صد المحاربان أعداءهم، متقين الرماح بهراواتهم، وأرغماهم على التراجع. وأسرع القندس الاعرج وراء أحدهم وأمسك به، وهكذا سجل انتصاراً بيناً لا نكير له.

ولما رأت جماعتنا المتقهقرة ما حصل، عادت لتحيط بالاذن الباردة ومنقذه. وتأكد جماعة البوني من اصرار رجالنا على متابعة المعركة، فسحبوا جيادهم واختفوا.

في تلك المعركة الشهيرة التي تناقل الناس أخبارها جيلا بعد جيل، كان عدد محاربينا أحد عشر رجلا وعدد البوني تسعة عشر. وجرح ثلاثة منا واثنان من العدو، من غير أن يقتل أحد.

إلا أن رجالنا العائدين استقبلوا بالعويل، إذ أنهم أخفقوا مرة اخرى في الحصول على جياد. ولم يكسب القندس الاعرج أي ثناء لتحريره الاذن الباردة. فهو تطاول على حق خاص بقيادة الحرب.

ذات صباح من العام ١٧٦٨، وكان

القندس الاعرج في الحادية والعشرين، هرع أحد الكشافة الى المخيم ومعه أنباء مثيرة. فهو شاهد قطيعاً من ثيران البيسون في الشمال الشرقي متجها نحو الأجراف الكلسية القريبة. وقامت القبيلة كلها لاعتراض الثيران.

فوق الجرف

بعد ثلاثة أيام من السير في ذلك الاتجاه، رأى قومنا القطيع عصر اليوم الثالث. وكان قطيعاً مؤلفاً من آلاف الثيران، قر الرأي على توجيهها نحو الأجراف من غير اثارة شكوكها.

وارتأى القادة أن يتوجه معظم أفراد القبيلة غرباً ويتقدموا وراء القطيع في نصف دائرة لصد تراجع الحيوانات، على أن تساعدهم فرقتان اخريان في الميمنة والميسرة. وكان القندس الاعرج أحد "الذئاب" السبعة، وهم سبعة أقوياء اختيروا للتمنطق بجلود الذئاب والزحف على القطيع.

وظل شعبنا يومين يتعقب البيسون. ومع اليوم الثالث تبين أن الحظ كبير لجر القطيع الى الأجراف. وأعطي "الذئاب" السبعة أفضل ما تمتلكه القبيلة من قسي وسهام، حتى اذا أخفقت الخطة أمكنهم قتل أكبر عدد من الثيران.

أما تقرير اللحظة التي يبدأ تشتيت القطيع فترك لمجلس كان من أعضائه الاذن الباردة، أعظم صائد بيسون فيهم جميعاً، الذي قال: "اني سأحتل الميسرة". وتلك أهم نقطة، لأنه اذا اخترقها القطيع شرد في السهل الفسيح وفر من قبضتهم.

وعهد الى قائدين اشتركا في حملات سابقة على البيسون، الانطلاق الى تفريق القطيع. وانقض الاثنان على رعيل الثيران بصرخة حادة. وفي الوقت نفسه تقدم رجال كثيرون من الصفوف الخلفية وهم يزعقون ويرمون الحجار على الثيران. وذعرت الحيوانات، وبدا أنها اضطربت كثيراً ولم تنشأ التحرك في اتجاه الأجراف. وكان القادة يتوقعون ذلك. عندئذ راح فريق من المسلحين العتاة يرمي طليعة الثيران بالحجار. وبعد لحظات من التردد كان الهنود خلالها يرفعون الصلاة الى "الانسان فوق"، شرع القطيع في تسلق الجرف.

لكن الثيران ما لبثت أن انحرفت نحو السهول. وبدا أن الحملة أخفقت وان شعبنا لن يكسب منّ لحوم تلك الحيوانات وفرائها سوى القليل الذي يحصل عليه من الرؤوس المصطادة بالسهام.

ومن موقعه في الميسرة تقدم الاذن الباردة لاعتراض القطيع. ورفع صوته الضعيف ولوح يديه نحو الحيوانات التي ارتدت قليلا الى الغرب. وسقط العجوز وداسته الثيران، ولكن بعدما صد القطيع عن الفرار.

وكمثل سيل الماء الذي ينحدر من أعالي الجبال لدى ذوبان الجليد، تدفق قطيع البيسون فيما وقفت جماعتنا تلوح له بالأيدي وتصرخ علها توقف زحفه. وفجأة أخذت الثيران تتدافع في اتجاه الجرف وقد سقط بعضها أرضاً بعد تكسر الأعناق والقوائم وعظام الظهور. وتصاعدت سحب الغبار في الجو يرافقها خوار نائح.

وتمددت الثيران النافقة والجريحة على سفح الجرف، وكانت نحو أربعمئة. وتولت النساء نحر أفضلها وانتزاع الألسن من الثيران الهرمة لاستخدامها في الاحتفالات.

وقال القندس الاعرج لنفسه وهو ينظر الى المشهد ويكبر خطة الاذن الباردة: "من السيىء صيد البيسون هكذا. فالحيوانات تراكمت بعضها فوق بعض بحيث لا تبلغها الا النسور النهمة. وكان يجدر أن يتم الصيد على متون الجياد". لكن طريقة الاذن الباردة كانت تقليداً توارثته اقوام تلك السهول الشمالية خلال ألف سنة.

وإذا ذاك خطرت له الفكرة الآتية: "من أراد الجياد فليذهب الى حيث هي". وهذا معناه، بالنسبة الى القندس الاعرج، الكف عن مقارعة البوني الذين لا يمتلكون سوى القليل من الجياد، وشن هجوم مركز على الكومانشي حيث تعيش مئات الأحصنة.

ثلاثة رجال شجعان

وضع القندس الاعرج خططه على مهل. وقر رأيه على اصطحاب اثنين من الشجعان معه. وراح يدرس مزايا أترابه طوال الأيام التي أمضاها قومه في جر أحمال البيسون الى مرتفعات راتلسنيك. لكنه كان يستثني الواحد منهم بعد الآخر.

وأخذ يركز اهتمامه على شاب مقدام اسمه الانف الاحمر، لم تنقص بلاهته وتبلد حسه من شجاعته. وهو من الفتية الذين صمموا أن يصبحوا قادة ذات يوم. ومنذ اتخاذه ذلك القرار، باتت جميع تصرفات الانف الاحمر خاضعة للقائد الكامن فيه. فكان يتكلم بصوت عميق ويتصرف بلياقة ويهز رأسه بحرص اذا عرض الكبار اقتراحاً. وأكسبته تلك الصفات تقدير قومه الذين تلمسوا فيه روح القيادة وأجلوا حماسته التي تدفعه الى التضحية بحياته عندما تدعو الحاجة.

وذات مساء قصده القندس الاعرج وسأله: "أأنت مستعد للانضمام إلي من أجل تحقيق أمر خطير... أعني من أجل الحصول على جياد؟"

وفكر الانف الاحمر قليلا ثم قال: "اني أفعل أي شيء للحصول على جياد لقبيلتنا". وربت كل من الشابين كتفي رفيقه.

بعد ذلك توجهت أفكار القندس الاحمر نحو رجل آخر اسمه ركبة الحور. وهذا مختلف تماماً عن رد نوز. فهو بدين وكثير الكلام ووجهه ابتسامة دائمة. إلا أنه يتمتع بميزة لا غنى عنها في المعارك، ألا وهي الولاء المطلق.

وحان اليوم الذي يعرض الثلاثة خطتهم أمام مجلس القبيلة. وأوكل القندس الاعرج ذلك الأمر الى الانف الاحمر الذي تكلم بالآتي: "اذا زحفت القبيلة كلها جنوباً لشن حرب على الكومانشي، فهم سيستعدون للمواجهة. وهكذا نخسر عدداً من رجالنا ولا نحصل، في المقابل، على جياد كثيرة. أما نحن الثلاثة فسنتقدم خلسة. واذا أخفقنا، فالقبيلة تفقد ثلاثة رجال فقط. لكن نجاحنا يعني كسب جياد كثيرة".

وبعد أخذ ورد طويلين وافق المجلس على الخطة، وعهد الى أحد آباء

القندس الثلاثة توجيه المحاربين المبتدئين، ووقف هذا قائلا: "تعرفون أن الكومانشي يعذبون أسراهم كثيراً. وقد قيل ان أسيرهم يموت احدى عشرة مرة. واذا أخفقت مهمتكم، فانتظروا حتى اللحظة الأخيرة، ثم ليأخذ كل منكم حياته بيده. وفي حال عجزه عن ذلك، فليقتله رفيقه قبل فراره... اتعدون بذلك؟"

وهز الثلاثة رؤوسهم بالموافقة.

ثم تقدم ابو القندس الاعرج منه وانتحى به قائلا: "لقد لاحظت أنك تراقب الورقة الزرقاء كثيراً هذه الأيام. ويبدو أنك مغرم بها". واطرق القندس من غير ان يجيب. فأضاف ابوه: "خلال حملتك سأكلم أخيها وأرى كم يريد من جلود البيسون". عندئذ اجاب القندس بكلام غدا حديث القبيلة كلها: "قل لأخيها ان مهر الورقة الزرقاء سيكون حصاناً".

وانطلق الثلاثة في رحلة طويلة الى الجنوب نحو أرض الكومانشي، متوقعين أن يتعقبهم اولئك القوم قبل بلوغهم غايتهم. لكنهم كانوا محاربين محنكين، فلم يتركوا أثراً لأقدامهم فوق الأرض التي وطئوها. وشاهدوا مرتين جماعات من الكومانشي يمتطون الجياد على قمم التلال. ولكن كان من العسير، حتى على صقور السماء، أن ترى الابطال الثلاثة وهم مختبئون بين الأعشاب.

وبعد أيام من مسيرتهم وصلوا الى نهر رقراق سمي في ما بعد "اركنساس". وكان نهراً كبيراً تتوسطه جزيرتان. وعلى الضفة المقابلة كانت تقوم قرية كبيرة للكومانشي، وفيها أجمة تؤوي نحو تسعين حصاناً.

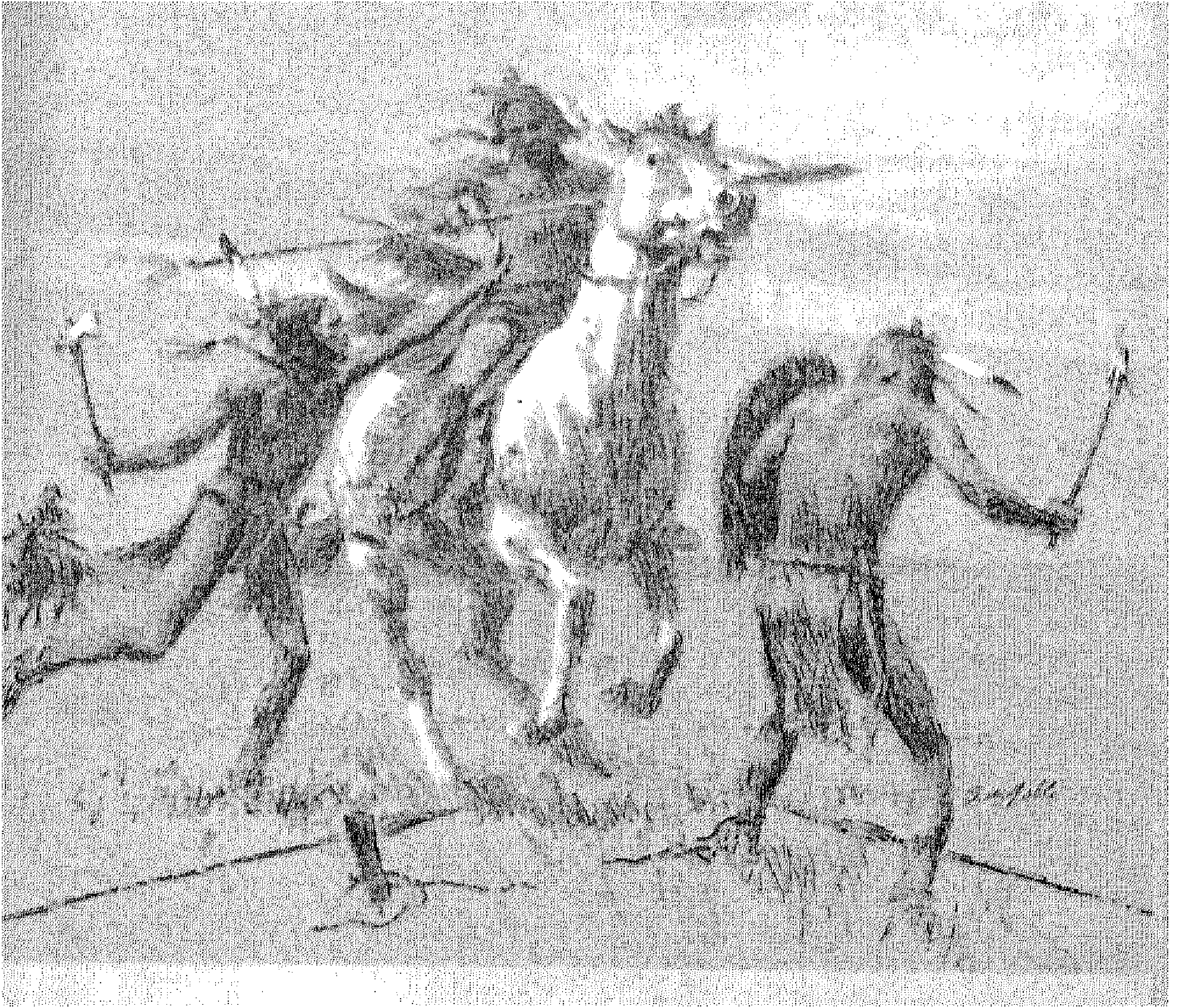
وبقي الثلاثة يومين متخفين على ضفة النهر الشمالية وهم يراقبون كل ما يحصل قبالتهم. ورسموا خطة بارعة تقضي بأن يقطعوا النهر قبيل منتصف الليل، قبل تبديل نوبة الحراسة. وهناك يتسترون تحت جناح الظلام ليبدأوا هجومهم قبل الفجر. ويتولى القندس الاعرج قتل الحارس الواقف على باب الحظيرة، فيما يقتل الانف الاحمر الحارس الآخر عند النهر. أما ركبة الحور فيخترق السياج ويجر شمالا ما أمكنه من جياد.

بعد ذلك يتوجه الثلاثة الى احدى الجزيرتين، ويمتطي كل منهم جواداً ويجرون الجياد الاخرى وراءهم. ولضمان نجاح العملية، ينبغي أن يعمد القندس الاعرج والانف الاحمر الى تفريق الجياد الباقية لكي يصرف الكومانشي انتباههم اليها ولا يتبعوهم سريعاً.

وسأل ركبة الحور بارتباك: "ترى هل يمكننا ركوب الجياد؟"

وأجابه القندس الاعرج: "اذا كان جماعة الاوت يركبون الجياد، فأنا أركبها كذلك".

وبلغ الثلاثة الضفة الجنوبية حيث انتظروا مرور الليل على أحر من الجمر. وكان حراس الكومانشي يأتون ويذهبون على نحو متقطع وهم لا يديرون بالا لعملهم. ثم تقدم حارسان الى سياج الحظيرة، ولكن سرعان ما عاد كل منهما الى خيمته للنوم. واتفق رجالنا على أن يهجم القندس الاعرج على حارس المخيم المنفرد تاركاً الانف الاحمر لمساعدة ركبة



الحور، غير أن الحارس الأخير عاد الى خيمته قبل طلوع الضوء . وهكذا بات المخيم كله خالياً من الحراس.

وتقدم رجالنا بهدوء وقد أفادوا من ظرف لم يكن في الحسبان، ومزقوا جزءاً كبيراً من السياج واختاروا ٢٩ حصاناً، مشتتين ما بقي من أحصنة. وقادوا الجياد نحو النهر وعبروا بها الى الجزيرة، وغادروا قبل أن يدرك الكومانشي ما حل بهم.

تلك كانت أدهى غارة يشنها شعبنا. فقد كان أبطالنا الثلاثة على مسافة بعيدة شمالاً، عائدين الى مرتفعات راتلسنيك، قبل أن يعبر المحارب الأول من الكومانشي النهر ولا حصان لديه.

"سأهب نفسي"

بعد وقت قصير من تلك الحملة الرائعة، أعاد أحد آباء القندس الثلاثة فتح مسألة الزواج أمامه، ورتبت الامور مع الوقت، ووفى الشاب بوعده، فقدم جواداً قوياً الى شقيق الورقة الزرقاء الذي قاد اخته الى القندس الاعرج أمام قادة القبيلة. وهناك مدت الفتاة ذراعيها نحو عريسها علامة القبول به زوجاً ونذر نفسها له.

ومنذ ذلك الحين دخل القندس الاعرج عالماً غريباً هو عالم الحياة الزوجية الذي حدد سلوكه بناء عليه. فلم يكن من الجائز، مثلا، أن يخاطب والدة زوجته قبل أن يمنحها هدية كبيرة. ومتى حاضت زوجته، تعين أن تنعزل في خباء خاص بالحائضات ولا تتحدث الى رجل أو طفل لئلا تجلب اللعنة عليه.

أما النعمة التي يحملها الزواج فهي ادخال المرء الى حياة الجماعة الحميمة. هناك يكون للرجل ثلاثة آباء أو أربعة وعدد مماثل من الأمهات، ويكون الاطفال ملك الجميع وتقع مسؤولية تنشئتهم على عاتق الجميع. وتتم تربية الاطفال من دون عقاب أو كلام قاس.

لقد كان مجتمع القبيلة مكاناً يتسنى فيه للفرد أن يفعل ماطاب له. وكان الزعيم يختار معارفه وجيرانه، ولا تنتقل اليه الزعامة بالوراثة. ولم يكن هناك ملك، لا في هذه القرية ولا في القبيلة ككل، بل مجلس من الكبار ينضم اليه أي بطل يقع عليه اختيار قومه. والحق أن ذلك المجتمع كان من أكثر المجتمعات حرية. وكانت عقائده مقتصرة على الايمان بـ"الانسان فوق" وبالمزمار المسطح واتباع التقاليد المتوارثة. انها طريقة حياة تلائم البدو الذين يقطنون السهول، حيث المساحة واسعة ولحوم البيسون لا تنفد.

في ذلك الوقت كان طول القندس الاعرج ١٨٠ سنتيمتراً ووزنه ٨٠ كيلوغراماً، مما أضفى عليه هيبة محببة. وكان شعره أسود طويلا وقد جعله في ضفيرتين بلغتا كتفيه، وتدلت من كل واحدة جديلة بيسون مزينة بأسنان ظبي الالكة. وكان لون بشرته فاتحاً. وكان معظم الأيام يرتدي مئزراً يستر عورته. أما في فصل الشتاء فكان يؤثر الملابس الطويلة التي تملأها خطوط مزينة بالريش. وكان يرتدي سترة مزركشة ويضع فوق كتفيه شالا خفيفاً من جلد البيسون.

وكان القندس الاعرج يحب عشرة قومه جميعاً، ولاسيما الاطفال والمحاربين الكبار. ولكم طاب له الانس الذي منحته اياه الحياة الزوجية. وظلت علاقته وثيقة مع آبائه الثلاثةوامهاته الثلاث وعدد كبير من أنسبائه. وكمعظم بني قومنا، كان القندس طيب السريرة ويتجنب الخصومة، لكنه لم يتخلّ قط عن ايمانه بأن قيمة الرجل الاخيرة ترتكز على الانتصارات التي يسجلها في المعارك.

وأحس القندس الاعرج رابطاً قوياً بينه وبين الاشياء الحية. وكان يفهم طبيعة البيسون أكثر من بقية الحيوانات، ويعرف جيداً كيف يتعقب الالكة والغزال. كما كان يعرف أين تختبىء القنادس وكيف توقع النسور في الاشراك بغية الحصول على ريشها.

وكان له من أدراكه ما أتاح له التكيف والعالم الذي يعرفه. وقد أردف ذاكرته الخارقة بقوة كبيرة على الملاحظة. وبما أنه عاش حياة بسيطة، فقد كانت مشاكله بسيطة. ونادراً ما كان يلجأ الى الفكر المجرد، لكنه اكتفى بعالمه الصغير الذي تحدده التقاليد والعادات.

أما وقد سلبه الزواج حصانه بعدما تولى مجلس القبيلة توزيع الجياد الباقية، فانه ارتأى القيام بحملة جريئة للحصول على المزيد من الجياد. ولكن لشن هذه الحملة بمفرده، كان عليه تنقية ذاته عبر تكريس نفسه للشمس. وبعد التفكير أياماً في ذلك الأمر وقف أمام زوجته قائلا: "عندما يعقد مهرجان الشمس، سأعلن تكريس ذاتي".

وارتعدت الورقة الزرقاء للفكرة، إذ ان هذا الأمر ستتبعه عواقب لا أحد يعرفها.

عذاب دموي

رقصة الشمس التي يقيمها شعبنا كانت احتفالا يدوم ثمانية أيام، ويدعى اليه أهالي القرى المجاورة لمعناه الروحي العميق. وكان المحتفلون يطوفون حول المزمار المسطح كي يمدهم بالقوة، ويؤدون طقوساً اخرى. وفي اليوم الرابع كانت الأوتاد تشد الى الأرض ويخطط بها مكان خاص للاحتفال، تحيط به أربع عشرة خشبة صفصاف تلون بالأحمر والأسود ويلف حولها سياج قصير من ورق الحور. وكان المزمار يوضع وسط ذلك المكان والى جانبيه جمجمتا بيسون كبيرتان ترفع كل منهما على قضيب خشبي حاد الرأس. وكان الصبية يرفعون أنظارهم الى تينك الجمجمتين ويرتعدون، متصورين يوماً يبلغون ويكرسون حياتهم للدفاع عن القبيلة.

وتقدم اثنان من الشجعان وقفزا داخل السياج، حيث رفع كل منهما جمجمة مع وتدها والحبال المتدلية منها وتقدم نحو شيوخ القبيلة منتظراً الخطوة التالية.

وبدأ الشيوخ بأحدهما، فغرزوا سيخاً تحت احدى عضلات ظهره المتوترة،ما لبث أن خرج من الناحية الاخرى وتدفق الدم غزيراً. وبعد التأكد من قوة السيخ، ربطوا به أحد طرفي سوط وعلقوا الجمجمة بالطرف الآخر قبل أن يضعوها في يدي الشاب. ومن غير أن تظهر عليه أي علامة للألم، رفع الجمجمة نحو الشمس ثم ألقاها أرضاً. وبقي مسمراً في مكانه فيما الشيوخ يعيدون الأمر مع رفيقه.

وقفز الشابان الى الأمام والجمجمتان تتحركان وراءهما فوق الرمل وتكادان أن تقتلعا عضلاتهما. لكنهما ثابرا على الرقص دونما كلل أو تذمر.

وراحت النسوة يغنين والشيوخ يحثون الشابين على الرقص وهما يجران الجمجمتين خلفهما على مدى ساعات وقد أخذتهما نشوة عميقة. وأخيراً علق قرن احدى الجمجمتين في شجرة صغيرة وغرز السيخ في عضلة الشاب وأفقده الوعي.

ولما حان دور القندس الاعرج ذهب اولا الى رفيقه ركبة الحور وقاده نحو الورقة الزرقاء. وهناك وضع يد رفيقه في يد زوجته وقال: "خذها ودعها تحمل جنيناً... هذه تقدمتي الاولى". ثم تراجع وهو ينظر الى الخباء الذي اقتيدت اليه زوجته والذي أعد خصيصاً لذلك الجزء من الاحتفال. وكانت تضحية ليم بيفر بزوجته دليلا على أهليته لتحمل العذاب اللاحق.

بعد ذلك تقدم من آبائه الثلاثة وهو يحمل سيخين حادين وحبلين طويلين جداً. ودنا والده الأكبر وتحسس ظهره حتى عثر على عضلته اليسرى. ورفع السيخ نحو الشمس ثم غرزه تحت العضلة وأخرجه من الجانب الآخر. وفعل والده الثاني الامر نفسه بعضلة الظهر اليمنى، وكان هذا ينظر الى عيني "ابنه" وهو يتلقى الألم من غير أن يرف له جفن.

ثم ربط الآباء الحبلين وأشاروا الى الجمهور. وقفز شاب وأمسك بطرفي الحبلين عن الأرض وتسلق عموداً أقيم وسط ساحة الاحتفال، ومرر الحبلين من ثقب في العمود. وتولى ثمانية رجال اقوياء شد الحبلين حتى ارتفع القندس مترين في الهواء وتدلى ثقله من السيخين اللذين اخترقا صدره.

وأحس الشاب ثقل جسده وقال لنفسه: "هذا سيقتلني". إلا أن عضلتي ظهره قاومتا الثقل. وكان في مرحلة الاحتفال الاولى، والشمس ترتفع نحو قبة السماء، يعاني الأمرين ويود أن يصرخ بأعلى صوته لوقف ذلك العذاب. ولكن عندما سامتته شمس الظهيرة غمره شعور لطيف، كأنما الشجاعة تكافيء أهلها. وأمضى الساعات الاربع الاخيرة في نشوة امكنه معها مواجهة العدو مهما بلغت قوته. وكانت الساعة الاخيرة مفعمة ببهجة بقيت ذكراها طوال أيام حياته. وكان ينتظر الخلاص من عذابه مع غروب الشمس.

وأنزله آباؤه الى الأرض وانتزعوا السيخين من ظهره. ورشوا الملح والرماد فوق جروحه النازفة. أما الملح فلتطهير الجروح، وأما الرماد فلابقاء علامات في جسد القندس الاعرج تؤكد تكريسه شخصاً متقدماً بين شعبنا.

وفي اليوم السابع استراح القندس في خيمة خاصة، وقد أصابته حمى قوية وشل الألم أطرافه. إلا أن شيوخ القبيلة الذين عانوا عذاباً كهذا في حداثتهم عرفوا كيف يهدئون من روعه ويعدونه لعذاب اليوم الأخير. وتحلق القندس الاعرج مع سائر أترابه الذين كرسوا للشمس حول المزمار المسطح واستهلوا رقصة على قرع الطبول وأصوات المنشدين. وكانوا يرقصون ووجوههم متجهة نحو الشمس.

وظلوا يرقصون ثماني ساعات وهم يسمعون صيحات التشجيع. وهدّهم الظمأ، لكنهم ثابروا على الرقص حتى كادت سيقانهم أن تتقوض. وتابع النظارة هتاف التشجيع الى أن غابت الشمس.

وعاد القندس الاعرج الى خيمته ذلك المساء، حيث كانت الورقة الزرقاء تنتظره. وبادرها قائلا: "اني مستعد للذهاب الآن".

هدية الشمس

كان القندس الاعرج وحيداً على طريقه نحو البوني قبل طلوع الفجر، من غير أن يخلف صوتاً أو أثراً في أماكن عبوره. وسار جنوباً نحو كنساس حتى أصبح في محاذاة النهر الكبير الأزرق. لكنه لم يعثر على أي صياد من البوني هناك. ثم انعطف نحو نهر اركنساس، وهناك شاهد مخيم صيد لجماعة البوني وفيه جياد

كثيرة. وعلماً أن نجاحه يقوم على ملاءمة الظروف، فانه اختبأ ثلاثة أيام وهو يراقب ما يحصل.

وفي اليوم الرابع أدرك أن فرصته حانت كمحارب منفرد. ذلك ان صيادي البوني ذهبوا بعيداً جداً نحو الغرب، ولا بد من أن يعودوا منهكين. يضاف الى ذلك التعب الذي خلفه لديهم ذبح ثيران البيسون في الايام الثلاثة الماضية. وهكذا قرر أن يشن هجومه هذه الليلة.

وغفا القندس الاعرج ولم يصحُ إلا وقد انتصف الليل. وراح يتنفس بعمق ويسترجع العهد الذي قطعه على نفسه أمام الشمس. وقرع صدره وهو يقول: "اني واحد من شعبنا! ساعدني أيها الانسان فوق".

وعند الفجر انسل الى طرف المخيم البعيد حيث أقام البوني عربات دفاعية. وهناك وجد أن الحارس بدل مكانه المعهود وبات يشكل خطراً عليه. وهكذا رأى من الضروري قتله. وفي تلك اللحظة صوت ذئب من فصيلة القيوط، فركض الحارس وراءه يرميه بالحجار. وسرعان ما هجم القندس على الحظيرة واختار جواداً أحمر أنيقاً وامتطاه وجر وراءه نحو عشرين حصاناً وأسرع شمالا.

وعلى الفور تبعه بعض خيالة البوني. وطلعت الشمس وزال الندى عن العشب وتفرقت بعض جياد ليم بيفر، لكن عدداً منها ظل وراءه. وتابع الفرسان المطاردة عبر السهول وقد ارتفع الغبار من حوافر جيادهم وهم لا يأبهون للأحصنة الشاردة.

والحق أن القندس الاعرج، بعد العذاب الذين عاناه في مهرجان التكريس، لم يعد يثنيه تعب ولا عجاج. وكان يزداد قوة وهو يسرع نحو نهر بلات. وما أن بلغه حتى وقف يتساءل كيف لجياده أن تعبر الماء.

وأنقذه الانف الاحمر الذي كان يطارد القنادس على ضفة النهر مع عدد من أترابه الأشداء. ولدى مشاهدتهم القندس الاعرج عبر السهل هبوا الى نجدته وأحاطوا به بالخيول. ولما رأى خيالة البوني ذلك المشهد عادوا على أعقابهم.

في ذلك المساء أثنى جميع القوم على القندس الاعرج الذي جر وراء فحله الاحمر ١٨ حصاناً وهو أعطى جواداً الى صديقه الانف الاحمر وأهدى آخر الى ركبة الحور وقدم فرساً رقطاء الى الورقة الزرقاء وترك الجياد الاخرى في عهدة مجلس القبيلة.

إلا أن الحملة لم تعد انتصاراً في سجل القندس الاعرج لأنه لم يلمس أياً من البوني خلالها. وهو لم يشأ أن يصف حملته، وللفضوليين الذين تساءلوا كيف أمكنه منفرداً مصادرة ١٩ حصاناً، اكتفى بالقول: "انها عطية الشمس".

مواجهة قاهر الموت

السنوات التي شهدت استيطان شعبنا الارض الواقعة بين نهري بلات كانت سنوات شاقة تعرض فيها شعبنا لهجمات الأعداء وظروف الحياة القاسية. ولكن تسنى لهم الاعتماد على حليف واحد هو "الشايين"، أفضل القبائل الهندية على تلك السهول.

لكن اولئك القوم كانوا أعداء ألداء ذات يوم. وقد حاربهم جد القندس الاعرج مراراً، حتى كان يوم اجتمع قادة القبيلتين وقرروا أنه من الغباء الاستمرار على هذا النحو، إذ أن هناك اموراً كثيرة مشتركة بين الشعبين. ومر قرن كامل لم يتحارب قومنا وقومهم.

ومن أصعب ما عاناه شعبنا أنه كان أسيراً لأعسر اللغات الهندية، وهي لهجة لا يتكلمها سوى ٣٣٠٠ شخص في العالم كله، وهذا عدد شعبنا. وكانت كل قبيلة من الهنود الحمر تتكلم لغتها الخاصة، علماً أن أياً من القبائل المعادية لم يكن عدد أفرادها يتجاوز كثيراً عدد أفراد قبيلتنا. فجماعة الاوت يعدون ٣٦٠٠ نفس والكومانشي ٣٥٠٠ والبوني نحو ٦٠٠٠. أما بنو شايين الذين اشتهروا في التاريخ فكانوا ٣٥٠٠ نسمة. وهم كانوا يتخاطبون بلغة من الاشارات يفهمها جميع قاطني السهول من الهنود الحمر.

وفي العام ١٧٧٦ أرسل اولئك القوم ممثلا لهم الى قبيلتنا. وقال هذا بلغة الاشارة: "الكومانشي أصبحوا بين نهري بلات واركنساس حيث يغيرون ويقتلون. وقد قررنا خوض الحرب ضدهم، ونحن نطلب مساعدتكم".

وذلك طلب لا يحتمل من شعبنا إلا الموافقة. وهكذا، في أواخر ذلك الصيف، انطلق جيش من الشايين يدعمه شعبنا، وتوجه جنوباً نحو الكومانشي كي يلقنهم درساً. وهناك، في الأماسي، بدأ المتحاربون يتحادثون عن شخص سمي "قاهر الموت".

وكانت الروايات عن ذلك الشخص الخارق تلخص بالآتي: "لقد واجهته مرة، وهو لا يقهر". وكانت جميع القبائل في تلك السهول تروي قصصاً عن ذلك البطل من الكومانشي الذي يمتطي صهوة حصانه الأسود ويبدو أنه يملك دواء يقصي عنه النبال فلا تخترقه.

من هنا غدا أفراد القبيلتين حذرين لدى بلوغهم نهر اركنساس. وراحوا يبحثون عن نقطة ملائمة لشن هجومهم. وأخيراً أشار عليهم الكشافة بأن عبور النهر وضرب الكومانشي من الناحية الجنوبية يؤمنان لهما دق إسفين يفصل الكومانشي عن حلفائهم من الاباش. وتشاور القادة في ذلك الاقتراح. وكان جماعة الشايين ممثلين بأربعة زعماء هم: اليد المكسورة، الذئب العاوي، الخرزة الرمادية، صائد البيسون. وقد ارتدوا بزاتهم الرسمية الكاملة خلال الاجتماع، مع قبعات مزدانة بريش النسور. وتمثلت جماعتنا بثلاثة زعماء هم: السهم القويم، الثعبان القافز، الذئب الرمادي. وعبر الاشارات ورسم الخطط على الرمل، توصل هؤلاء الى خطة رائعة كان يجدر بالقادة البريطانيين والاميركيين اللجوء اليها في معركتهم صيف ١٧٧٦.

إلا أن المجلس الحربي لم يغفل "قاهر الموت". وبعد نقاش طويل اقترح الذئب الرمادي أن تخصص كل قبيلة ثلاثة رجال تكون مسؤوليتهم الوحيدة محاربة ذلك البطل - الاسطورة.

ووقع الاختيار على القندس الاعرج

والانف الاحمر وركبة الحور الذين انضموا الى نظرائهم من القبيلة الاخرى. ووجههم صائد البيسون بالاشارات: "مهما حدث خلال المعركة، عليكم أن تنتظروا ظهور "قاهر الموت"، ولا تفعلوا شيئاً سوى محاربته".

وأضاف الذئب الرمادي: "من العبث أن ترموه بالسهام والرماح. وينبغي أن تضربوه بالهراوات حتى يموت".

وبدأت المعركة الكبيرة. وتبخرت الخطة التي رسمها القائد، على غرار ما يحصل في جميع معارك الهنود الحمر اذ يغدو كل محارب قائداً لنفسه. فقد استهل الشايين زحفهم على قرية للكومانشي. لكنهم صادفوا في طريقهم رجلا من تلك القبيلة، فحاول كل منهم أن يسجل انتصاراً ضده. ورموه بأحد عشر سهماً وقد غفلوا عن الخطة الرئيسية التي تقضي بمهاجمة القرية.

ولم يكن العدو أحسن حالا. ذلك أن الأباش نبهوا الى التحرك سريعاً للدفاع عن القرية. لكنهم، عوضاً عن ذلك، انقضوا على مجموعة صغيرة من الشايين الذين ضلوا طريقهم وهم يطاردون محارباً من الكومانشي. ولم يتقيد بالخطة الرئيسية سوى القندس الاعرج وفرقته.

واستحالت المعركة شجاراً صاخباً كتب فيه بعض التفوق للقبيلتين المغيرتين. ولكن ما لبثت أن ظهرت مجموعة صغيرة من الكومانشي يقودها فارس على جواد أسود. ذلك كان "قاهر الموت". وأثار ظهوره الجرأة لدى الحلفاء الذين شنوا هجوماً مضاداً على الشايين ظناً منهم أن ذلك من شأنه تشتيت شعبنا ورده على أعقابه.

غير أن القندس الاعرج وزملاءه الخمسة أسرعوا في اثر "قاهر الموت"، ونشب عراك قوي. والواقع أنه لا يقل بأساً عما وصف. وقد قتل واحد من الشايين في بداية المعركة. وحاول "قاهر الموت" أن يخترق الرجال الخمسة للانضمام الى المحاربين، لكن القندس الاعرج اعترضه فيما انقض عليه اثنان من الشايين بالهراوات. ولم يستطع التملص منهم، إذ أن القندس الاعرج قفز بجواده وعاجل "قاهر الموت" بضربات على رأسه جندلته أرضاً.

ولما اصبح البطلان على الأرض، اكتشف القندس الاعرج أن جسد "قاهر الموت" مصنوع من مادة تشبه الحديد. ذلك أنه حين هوى الى الارض أحدث سقوطه صليلا فوق الحجار. ووجد القندس نفسه أمام عدو مخيف، وخشي أن يصرعه بطرق سحرية.

وكان القندس أضاع هراوته. فاستجمع يديه ووجه صفعة قاسية الى وجه غريمه الذي خر أمامه منذهلا. وراح الشاب يكيل له الضربة بعد الاخرى وهو يسمع العظام تطحن في رأسه. وبعد ضربة أخيرة وجد رأس عدوه في وضع مغاير لبقية جسده، فأدرك أنه مات. وركب محاربا الشايين حصانيهما وهما يصيحان ويضحكان ويعلنان النصر. وركع القندس الاعرج على الرمل وأشار نحو غريمه القتيل وقال بلغة الاشارة: "لقد سقط دواؤه السحري العجيب".

في الصباح التالي سعى قادة

الكومانشي والأباش الى عقد اجتماع مع الشايين.وطلب زعماء القبيلتين الخاسرتين اطلاق الأسرى، فنفذ طلبهم. ثم عرضوا عشرين حصاناً في مقابل قميص "قاهر الموت" المزرد الذي ارتداه طويلا ورافقه في جميع حروبه.وعرض القميص أمام جميع المؤتمرين للتأمل فيه، وهو عبارة عن درع من حديد وفضة نبشت من ضريح مستكشف اسباني قضى في تلك الارض الغريبة عام ١٥٤٢. ومنذ ذلك الحين بقيت الدرع في حوزة الكومانشي. وقال أحد قادتهم، واسمه الماء العميق، بلغة الاشارة: "هذه الدرع لا تعني شيئاً لمحاربيكم. أما لمحاربينا فهي الدواء العجيب".

وأعقب ذلك فترة من الصمت، اخترقها القندس الاعرج بقوله: "نرضى بثمانين حصاناً". ووافق الماء العميق دونما تردد.

في تلك المعركة التي جمدت الجبهة الجنوبية نحو أربعين سنة، وبذلك كانت أعظم معركة بين الهنود الحمر طوال نصف قرن، قام ١١٣ رجلا من الكومانشي و٦٧ من الأباش بمحاربة ٩٢ رجلا من الشايين، يردفهم ٣٩ محارباً من شعبنا. وفقدت الجبهة الجنوبية ٢٨ رجلا بينهم "قاهر الموت"، فيما فقدت جبهتنا الشمالية ١٦ محارباً بينهم الذئب الرمادي.

ورجع المنتصرون وفي حوزتهم ٨٠ حصاناً من الكومانشي و١٩ حصاناً صادروها من الأباش. وأمضى الرجال امسيات عدة يسجلون الانتصارات، وأروعها طراً ما حققه القندس الاعرج بقتله "قاهر الموت" واكتشاف سر دوائه.

تسعة أحصنة

في العام ١٧٨٢، عندما كان القندس الاعرج في الخامسة والثلاثين، حدث اختلال رئيسي في

المنطقة لم يكن يعادله، من ية الايجابية، سوى ادخال الجياد لقبيلة.

في ذلك العام حصلت قبيلة البوني، عن طريق التجار البيض من سان لويس، على أسلحة نارية كثيرة مع التدريب اللازم لاستعمالها. وما أن علمت القبائل الغربية بالأمر وما بات يشكله البوني من خطر حتى اجتاحتها رغبة قوية في الحصول على أسلحة مماثلة. ولم يكن ذلك ممكناً وهي لم تبدأ الاتجار بعد مع البيض.

وحدث في تلك الآونة أن فرقة من شعبنا كانت مخيمة بالقرب من مرتفعات راتلسنيك. وركض صبي ذات صباح باكر وهو يقول: "محاربو البوني أصبحوا بين أشجار الحور". وللحال أرسل القادة كشافة عادوا بالنذير الآتي: "هناك خمسة عشر محارباً، معهم عدد من الجياد وأربع عصي سوداء".

وارتأى الزعماء اخلاء المخيم على الفور. ولكن سمح لثمانية محاربين، بمن فيهم القندس الاعرج، بالبقاء هناك لحمل البوني على الهجوم، علهم يصادرون ولو بندقية واحدة منهم.

وقال القندس الاعرج: "اننا نحتاج الى بعض الجياد لاستخدامها شركاً". فترك لهم القادة ١٦ حصاناً، أطلقوا ثمانية منها جنوب نهر بلات لاغراء البوني وحثهم على الهجوم.

وبدأت المعركة عندما تجمع محاربو البوني الخمسة عشر لجر الجياد عبر النهر.وما أن تفرق المتحاربون قليلا حتى انقض عليهم القندس الاعرج مع ركبة الحور في الوسط، فيما هجم محاربونا الآخرون عن الميمنة والميسرة.

وظن قائد البوني، بادىء الأمر،



أن في وسعه رد المغيرين من غير لجوء الى السلاح. الا أن هجوم الشابين كان من العنف بحيث لم تجدِ معه ردود الفعل التقليدية.

وانطلق دوي أعقبه دخان، وسقط ركبة الحور عن حصانه وصدره مضرّج بالدم. وعرف القندس الاعرج من ذلك المشهد أن رفيقه مات. فاتجه بجواده نحو محارب البوني الذي أطلق النار، وانتزع البندقية منه بكلتا يديه ثم اخترق صفوف البوني عائداً الى جماعته.

وقال وهو يلوح بالبندقية: "لقد حصلت عليها".

عندئذ هجم محاربونا في الميسرة على البوني وأرغموهم على التراجع. فانسحبوا وهم يطلقون النار ويجرون وراءهم ثمانية جياد اضافة الى الجواد الذي كان ركبة الحور يمتطيه.

وهكذا انتهت المعركة من غير نتيجة حاسمة. وخسر شعبنا تسعة أحصنة وفقدوا أحد كبار محاربيهم وهو ركبة الحور غير أنهم صدوا البوني وصادروا قطعة سلاح ثمينة منهم، كما صرعوا اثنين من محاربيهم.

ووجه القندس الاعرج رسولا الى زعماء القبيلة لابلاغهم أن في امكانهم العودة الى المخيم. وفي تلك الاثناء راح المحاربون يتفحصون البندقية. وعلى رغم أنهم شاهدوا الحديد من قبل وحصل بعضهم على خناجر صنعت منه، الا أنهم لم يروا كمية كهذه من الحديد جعلت في ذلك القالب الانيق. ووضعوا الحصى في ماسورة البندقية وظنوا أنها تغدو قذائف مميتة. لكن آلية تلك القطعة بقيت سراً مغلقاً بالنسبة اليهم.

ولما حان وقت تسجيل الانتصارات، أجمع المحاربون على أن القندس الاعرج احرز انتصاراً واضحاً بلمسه محارب البوني ومصادرة بندقيته. غير أنه، ذلك المساء عينه، بدد ما حصل عليه من مجد. فبينما كان ينظر الى الورقة الزرقاء تنصب الخيمة، سمع صليل أفعى بالقرب منها. واذا بها أفعى مجلجلة تكاد تنقض على زوجته.

ودفعته غريزته الى ضرب الافعى مرة بعد اخرى بعقب البندقية كما لو كانت هراوة.

وتحلق حشد من القبيلة حوله، وصرخت احدى النساء: "لقد قتل البطل أفعى ضخمة". لكن صبياً أضاف: "إلا أنه كسر الآلة الناطقة".

وتوافد المحاربون وقد صعقهم الخبر. ووقفوا ينظرون الى القندس الاعرج وهو يرفع البندقية من طرف ماسورتها وقد تحطم بيت النار فيها.

في الخباء

إن شعبنا، باعتماده ثور البيسون قواماً لعيشه، بات كالبيسون. وانقسمت تلك الحيوانات الخشنة فريقين، احتل أحدهما السهول شمال نهر بلات والآخر السهول الجنوبية. وهكذا انقسم شعبنا قبيلة شمالية واخرى جنوبية.

وكان القندس الاعرج وجماعته الصغيرة التي يقودها الثعبان القافز ينتمون الى الجنوب. وعلى رغم أنهم كانوا يتجهون شمالا بعض الاحيان نحو أرض الغراب، إلا أنهم كانوا يؤوبون على الدوام الى أرضهم الخاصة بين نهري بلات، حيث

ينصبون خيامهم بالقرب من مرتفعات راتلسنيك٠ ولكن لا يمكن القول انهم عاشوا هناك، اذ كانوا بدواً رُحلا يتبعون البيسون حيث يذهب٠

وازداد تنقلهم بعد حصولهم على الجياد٠ وكانوا يصنعون عرباتهم بالأعمدة التي ينصبون حولها الخيام٠ وكانت تلك الأعمدة تتداعى من كثرة استخدامها، فلا تعود صالحة للخيام٠

ولم يكن سهلا الحصول على أعمدة جديدة٠ ذلك أن شعبنا كان يمكث ١٨ شهراً في البراري الخالية من الشجر، باستثناء الحور القطني الذي لا يصلح خشبه لتلك الغاية٠ ولم يبقَ أمامهم سوى شراء الاخشاب من اخوانهم في الشمال، يحصلون على سبعة الواح منها في مقابل حصان٠

وبعد رحلة طويلة، أحب القندس الاعرج أن يتكىء ويراقب زوجته وهي تنصب الخيمة٠ فهي كانت تؤدي ذلك العمل ببراعة وأناقة٠ فتعمد أولا الى غرز الأعمدة الثلاثة في الارض، ثم تلف حبال البيسون حولها٠ وبعد ذلك تلتقط نحو اثني عشر قضيباً أقصر من الأعمدة وأقل استقامة وتصففها بين الحبال٠ وعلى ذلك الهيكل تلقي جلود البيسون المدبوغة تاركة مدخلا الى الخباء يواجه مشرق الشمس، كما هي عادة شعبنا٠ وكانت تترك فرجة في سقف الخيمة للتهوئة٠

وعندما تفرغ من ذلك كان القندس الاعرج يأخذ من العربة جلوداً غير مدبوغة وعلباً مصنوعة بجلد نصف مدبوغ يبدو أقرب الى الخشب منه الى الجلد٠ ومن تلك القطع كانت الورقة الزرقاء تصنع سريرين وعدة طبخ وسوى ذلك مما يحتاجان اليه٠

وكان القندس الاعرج يبني سريره بنفسه، فيمدد فوق هيكل خشبي فراشاً من قضبان الصفصاف اللينة ويلقي فوقها طبقتين من جلد البيسون القابل للطي٠ ويلقي وراءه، على جدار الخيمة، جلد بيسون نفيساً متوسط الحجم، لونته الورقة الزرقاء بأصباغ متعددة صنعت بها رسوماً تمثل مشاهد من حياة زوجها البطولية٠

وبما أن القبائل لم تكن تخوض الحرب في جميع الأيام والساعات، ولا تصطاد البيسون إلا اذا وجد، فقد كان القندس الاعرج يقضي الاسابيع الطوال متبطلا، لا كتاب لديه يطالعه ولا اجتماع قبيلة يشارك فيه٠

وفي تلك الاوقات كان يستدعي الاحداث الموهوبين الى خيمته، فيتحلقون حول سريره ويقص عليهم أخبار معاركه، خصوصاً مقارعته "قاهر الموت" ومصادرته البندقية الاولى٠ وكان يحرص على الدقة في روايته، فلا ينسى الاعتراف بفضل ركبة الحور والانف الاحمر، وقد مات الأول وبات الثاني زعيماً مرموقاً٠ ولم يكن القندس يدعي انتصاراً لم يسجله في الواقع، كذلك لم يكن أي من المستمعين يقاطعه ليسأل: "من شاهدك تسجل ذلك الانتصار؟"

لقد غدت انتصاراته جزءاً من تاريخ القبيلة وخلدتها زوجته على قطعة الجلد الصقيلة٠

مخيم الغرباء

في وقت متقدم من خريف ١٧٩٩ جاء الكشافة بخبر يقول ان اثنين من الرجال الاغراب شوهدا بالقرب من نهر بلات٠ ولم يكن لونهما أحمر

كالبوني الذين انطلقا من أرضهم ،كما لم تكن ثيابهما تشبه ثياب الهنود، وكان كل منهما يرتدي قلنسوة فرو ويجر وراءه عربة تنزلق بسهولة فوق الجليد، ويحمل بندقية بينما يحتفظ باثنتين اخريين في عربته، وهذا يعني أن الرجلين ثريان، إلا أنهما لم يركبا جوادين.

وما فتىء الكشافة يراقبون الرجلين, ويعودون يومياً بالخبر الآتي: "لقد ابتعدا قليلا نحو الغرب اليوم، وأحدهما قصير وذو بشرة دكناء كجماعة الاوت، والآخر أطول منه وعلى وجهه شعر ضارب الى الحمرة".

ولدى بلوغهما ملتقى نهري بيفر كريك وبلات، توقفا، ويبدو أنهما وجدا ما يروقهما، فنصبا خيمة ثابتة في ذلك الموضع، بعدما جرفا الثلج واقاما خيمة من اغصان الحور.

ولم يكن في وسع أي من "المخلوقين" الغريبين أن يلج الخيمة من غير أن ينحني.

وذات ليلة زحف القندس الاعرج حتى بات قريباً منهما، وانتظر حتى الصباح، ورآهما يخرجان ادوات صغيرة تلتمع في الشمس، وكان شاهد سلعاً مماثلة قبل وقت طويل، عندما كان شعبنا يتبادل التجارة مع قبيلة الغراب.

وتسلل القندس مرة اخرى الى مكان يشرف على الخيمة، فشاهد "المخلوق" الاطول يحاول صيد السمك على ضفة النهر، واستغرق القندس في النظر اليه، حتى فاته أن زميله الاقصر بات على مقربة منه ووقف يحدق اليه، وفي تلك اللحظة أدرك أن ذينك المخلوقين كانا رجلين مثله، وهرع الى الورقة الزرقاء يروي عليها ذلك الاكتشاف، وأخيراً قالت ولم يفارقها الشك: "اذا كانا مثلنا وشاءا العيش بيننا، وجب أن نتحدث اليهما".

فأجابها زوجها: "هذا عين ما فكرت فيه".

وأسرع نحو خيمة الغريبين ورفع يده تحية،وبدأ الرجل الأقصر يعرض أمامه بدهاء مجموعة السلع الصغيرة التي حملاها معهما، وبينها قطعة جلد غير مدبوغ مخططة بالخرز الملون البراق، وفي صرة اخرى كانت هناك ملاءات صنعت ليس بجلد البيسون الخشن، بل بمادة ناعمة وقابلة للطي، وفتح الغريب صرة اخرى ظهر منها شيء جميل صغير لم يشاهد القندس الاعرج مثيلا له في حياته،وهو قطعة معدنية صلبة تشبه ماسورة بندقية، لكنها بيضاء ومتلألئة.

وقال الرجل القصير: "فضة"، وكرر: "فضة"، ولما تقدم القندس ليلمس تلك القطعة، سحبها الرجل ووضع مكانها قطعة من جلد قندس غير مدبوغ، وقال مرة بعد مرة: "قندس"، وكان يعني أنه يود الحصول على جلود القندس في مقابل قطع الفضة، وللبرهان عن حسن نيته، وضع سواراً من فضة أمام الهندي.

وفي اليوم التالي جمع القندس الاعرج قبيلته وروى ما شاهد، وأكد أمام القادة أن الغريبين هما بشر قصدا ذلك المكان لغاية سلمية هي المتاجرة، وهكذا كدس في عربة كل ما توافر من جلود قندس غير مدبوغة وقاد حصانه الى حيث كان الزائران ينتظران مع سلعهما المغرية.

وبادرهما بأنه لا يريد حلى فضية ولا ملاءات مزركشة، وانه لا يرضى الا بالبنادق في مقابل تلك الجلود.

لكن الرجل الاطول، ذا اللحية الحمراء، اعترض قائلا لشريكه: "اذا حصلوا على بنادق، فهم سيغدون أسوأ من البوني". وسحب البندقية. لكن رفيقه أعادها ووضعها في يد القندس الاحمر وهو يقول بالفرنسية: "انهم سيحصلون على البنادق عاجلا أم آجلا. واذا زودناهم نحن بها، فهم يزودوننا بالجلود".

وهكذا تعرف جماعتنا على البيض وباشروا التجارة معهم وحصلوا على البنادق.

المعركة الأخيرة

في مطلع الخريف كانت أشجار الحور القطني التي تخطط ضفاف الأنهار والسواقي تبدو كالذهب الرجراج تحت الشمس، إذ تستحيل أوراقها حمراء متوهجة. إلا أن ذلك الجمال كان يزول سريعاً تحت ريح الشتاء التي تعري الاشجار من أوراقها الأخيرة.

لكن تحولات الخريف عام ١٨٠٣، حين بلغ القندس الاعرج السادسة والخمسين، حملت معها شؤماً. وهو لم يشأ أن يواجد شتاء آخر. وكان الشتاء في السنوات الأخيرة يحمل معه المزيد من الصقيع الى ذلك الهندي الذي سئم القعود في سريره وهو يسرد على الاحداث أخبار بطولاته الماضية. وكان ضيقه بدأ قبل سنوات عندما كسرت احدى أسنانه وهو يقضم قطعة من لحم البيسون المقدد، وفي السنة التالية كسرت سن اخرى ثم ثالثة ورابعة. وهكذا بات مضطراً الى الاقتصار على اللحوم الطرية الممزوجة بالدهن، وكان ذوقه يعافها.

وأتى الموت على رفاق صباه واحداً بعد آخر. ففي الشتاء الأخير مات الانف الاحمر بعد مرور سنوات على مقتل ركبة الحور. وتسلم الشبان شؤون القبيلة. وعلى رغم شجاعتهم فقد كانوا ضعفاء في التفاوض مع الكومانشي، كما تركوا البوني يتجهون بحرية نحو الغرب حتى حصر شعبنا في رقعة صغيرة من الأرض حول مرتفعات راتلسنيك. وازدادت هواجس القندس الاعرج بعدما هرع الكشافة الى المخيم يعلنون أن البوني قبضوا على فتاة صغيرة من قومنا للتضحية بها في أحد احتفالاتهم.

وزمجر قائلا: "ينبغي أن نسترد الفتاة بأي ثمن". قال هذا وهو يرفض أي بديل، كالمقايضة بها في مقابل قطعة أرض، أو عدد من الجياد أو الجلود أو البنادق. ومن غير اصغاء الى أي اقتراح أردف قائلا: "سوف نركب شرقاً ونستردها".

ودخل على زوجته بتأثر بالغ وظل يتحدث معها وقتاً طويلا. وهي كانت على دراية بما يجول في باله وبالعواقب الوخيمة بالنسبة اليها. غير أنها ساندته. فهو كان زوجاً فاضلا، بل أفضل من معظم رجالنا الذين، كمعشر الشايين، عاملوا زوجاتهم باللطف والوفاء. لذلك أعدت نفسها لسماع قراره الآتي: "عندما نهجم على البوني، سأقاتل حتى الموت أو النصر".

وأثار قرار القندس الاعرج التضحية



بحياته اندفاعاً قوياً في القبيلة، وتطوع عدد كبير من فتيانها لتسديد الضربة قبل هبوب عواصف الشتاء،وأعد المحاربون جيادهم ونظفوا بنادقهم بشحم البيسون،

وحان الوقت لتوجه المحاربين شرقاً، وكان يوماً بارداً تساقطت فيه الاوراق عن أشجار الحور، وودع القندس الاعرج زوجته وامتطى جواده ممتشقاً بندقيته،وأطلقت صفارة بدء الحملة، وغادر القندس أرضه للمرة الأخيرة،

وانطلق محاربونا بحذر نحو الشرق حتى بلغوا مخيماً كبيراً، ولكن لم يعرفوا ما اذا كان البوني يحتفظون بالفتاة في ذلك المكان أو في سواه،وكان انقضى وقت طويل على خطفها، ربما قتلت خلاله، وأقروا جميعاً بذلك الاحتمال، ما عدا القندس الاعرج الذي ما انفك يقول: "سنستعيد فتاتنا"،

وكان دوره في المعركة واضحاً: "سأربط نفسي بوتد في أرض المعركة، ولن احارب أي عدو يأتي إلي، بل سأنتظر مجيء قائدهم، الماء المتوحش، وأصرعه بنار بندقيتي، عندئذ سيصاب البوني بالذعر وتتشتت فلولهم فيما نسترد نحن الفتاة"،

ولم يشك أحد في أن القندس الاعرج سيفي بتعهده، وسيبدأ محاربونا معركتهم عند النقطة التي ثبت نفسه بها، واذا استطاع البطل تجريد طليعة العدو من معنوياتها، فهو سيكسب جماعتنا حظاً كبيراً بالنجاح،

وفي الصباح تحرك المحاربون تبعاً للخطة المرسومة، وانتظروا الى أن اختار القندس الاعرج موقعاً معرضاً لهجمات البوني، وهناك دق الوتد في صخر وربط نفسه به، وعلى الأثر انطلقت صيحات الحرب، وسد محاربونا المدخل الغربي الى قرية العدو،

وهجم البوني من جانبهم، وسرعان ما اكتشفوا القندس الاعرج حاملا بندقيته،وانحرفت عنه طليعة الخيالة خوفاً من بطشه، ولما رأى سائر محاربي العدو أنه لم يطلق النار، عاجله أحدهم بطعنة رمح في كتفه اليسرى، وانتزع القندس الرمح ومعه قطعة كبيرة من لحم كتفه، وكانت تلك بداية غير مشجعة،

ولم يظهر الماء المتوحش مع الفوج

الأول ولا مع الفوج الثاني. وتلقى القندس الاعرج طعنة رمح أخرى في ساقه اليسرى. وانتزع الرمح وشكه بجانب الآخر لاستخدامهما عند الحاجة.

ومع الفوج الثالث ظهر الماء المتوحش، وهو قائد طويل القامة ذو بشرة حمراء ومظهر وسيم. وظناً منه أن القندس الاعرج أصيب بجرح بالغ، فانه ذهب بحصانه مباشرة اليه. لكن بطلنا رفع بندقيته وجندل الماء المتوحش عن جواده وصرعه. ثم حشا البندقية وأطلق النار على محارب آخر.

عندئذ بدأ انسحاب البوني. لكن المحاربين المتراجعين كانوا يسحقون القندس الاعرج بجيادهم وبعضهم يطعنه بالرماح. ونزف الدم من جروحه الكثيرة، الى أن عاجله واحد من البوني بطعنة قاضية أصابت ظهره واخترقته وبرز الرمح من صدره. وأمسك بالرمح وهو ينشد اغنية الوداع قبل أن يهوي: "وحدها الصخور تعمر الى الأبد...".

وانتابته رعشة خنقت صوته. وبكل ما بقي له من جهد حاول سحب الرمح من صدره. لكن قواه خارت وسقط فوق غبار المعركة.

وأصدر الثعبان القافز أمراً بدفن القندس الاعرج كما يليق بقائد عظيم. وأقيمت منصة خشبية بين ثلاث أشجار حور على ضفة نهر بلات، وسجي فوقها جثمان ليم بيفر وقد وضع بجانبه الوتد الذي ربط نفسه اليه في ساحة المعركة، وفي اعلاه خيوط الشرف التي كانت تخفق مع الريح. وغطي جثمان البطل بملاءة، وعلق على احدى أشجار الحور رأس الحصان الذي كان الماء المتوحش يمتطيه وعلى شجرة اخرى ذيل الحصان نفسه. ومدد الرمح الذي اخترق جسده الى جانبه أيضاً. وهناك وجد القندس الاعرج راحته الاخيرة، فوق السهول التي أحبها كثيراً وعند النهر الذي قطعه مراراً.

الانتصار المر

كان منظر زعماء شعبنا جليلا عندما اجتمعوا لتسجيل الانتصارات في المعركة الاخيرة. وكانوا يرتدون طماقات جلدية عالية فوق أحذيتهم وقد زينوا ستراتهم بأسنان الظباء واعتمروا قبعات مرصعة بالحجار الملونة وريش النسور.

ووقف أحدهم قائلا: "ان القندس الاعرج سجل انتصاراً على الماء المتوحش والمحارب الذي طعن ساقه والآخر الذي طعن ذراعه. وبالرمح الذي انتزعه من جسده سجل انتصاراً على البوني ذي القميص الممزق والآخر الذي كان يمتطي جواداً بنياً. وحاول تسجيل انتصار على المحارب الذي ألقمه الرمح الأخير في ظهره، لكنه لم يتمكن من ذلك".

وهز الزعماء رؤوسهم. وقد تأمن لهم الهدوء سنوات عدة بفضل جرأة ليم بيفر، خصوصاً على الجبهة الشرقية. وبات عسيراً على البوني أن يغزوا أرضنا بعد تلك الهزيمة. وهكذا وجه شعبنا أنظاره نحو فصل الشتاء المقبل.

لكن وجهاً قاتماً لتقاليدنا برز في المخيم بعد مقتل القندس الاعرج. ذلك أن الورقة الزرقاء لم تبقَ زوجة

محارب، وهكذا فقدت حقها في خيمة مستقلة. واجهزت النساء، من انحاء القبيلة، على الخيمة ينتزعن اجزاءها لحاجاتهن الشخصية. ورفعت السنادات من الأرض ومعها أربطة البيسون، فيما اختفت القطعة التي تحمل سجلا لانتصارات القندس الاعرج.

وفي آخر النهار لم يبقَ لتلك المرأة من متاع في الدنيا سوى ما يستر جسدها. وكان قانون السهول واضحاً ولا يجوز تعديله، وهو أن أرملة البطل التي لا ابن لها يحميها ولا صهر يؤويها، لا بيت لها مطلقاً.

وفي الليلة الثالثة بعد وفاة القندس الاعرج هبت عاصفة قوية. ولم تجد الورقة الزرقاء مأوى تلوذ به سوى مربط الخيول المرتجفة. وكانت تشعر بالضعف لأنها لم تأكل ذلك اليوم. وهكذا لم تتذمر حين وجدت نفسها بين الخيول. وقد عرف القندس الاعرج، كما عرفت هي، أن عاقبة قراره الأخير لم تكن تقل عما تعانيه الآن. وهذا كان مصير امها وعماتها. وهي لم تكن تتوقع مصيراً افضل.

ومع الصباح كانت الورقة الزرقاء تجمدت حتى الموت. وتلك كانت طريقة عملية أعفت شعبنا من تحمل عبء عجوز انتفت الحاجة اليها.

لقد جاء موت القندس الاعرج في نهاية مرحلة هي أعظم فترة في تاريخ الهنود الحمر الغربيين. ففي بداية حياته اتجهت مجموعة الهنود الشماليين جنوباً سعياً وراء ثيران البيسون. وكانت تعبر السهول على أقدامها، وترغمها الحاجة على حصر نفسها في أماكن محدودة. لكن الموطن الجديد الذي وجده شعبنا لنفسه على نهر بلات أتاح لهم الحصول على الجياد ثم على البنادق. وهكذا طوروا طرائق حياتهم القديمة واكتسبوا مهارات جديدة.

والواقع ان تحالف شعبنا مع الشايين أفضى عن جوهر قوي، وان لم تدعمه كثرة العدد. فالشعبان لم يفوقا الآلاف السبعة عدداً. وهذا يعني أن عدد ذكروهم لم يتجاوز الآلاف الثلاثة، وان ألفاً واحداً من اولئك كانوا يحاربون.

ان الشايين والآراباهو - وهذا اسم شعبنا الذي عرفته به القبائل الاخرى - لم يشكلا أكثرية في أي مكان احتلاه. لكن تلك الحفنة من الرجال الطوال الذين لفحتهم الشمس كانوا يمتطون جيادهم وقد باتت جزءا من حياتهم، ويخوضون الحرب ببطولة ويعفون عند المقدرة. وهم أحسنوا قياد عصرهم وأرضهم. وذادوا عن بيوتهم بشجاعة وغادروا تلك السهول وهم يجرون الأمجاد وراءهم. وفي أيامهم الاخيرة فوق تلك السهول، كان أبطالهم يقيدون أجسادهم بالأوتاد ويتقون السهام الموجهة اليهم.

ترى هل شهدت البلاد الامريكية مجموعة سوى هذه، من ألف رجل، تركت بصماتها الدائمة في تاريخ الأمة؟

■ جيمس ميتشنر

ان نصف حقيقة نكتسبه بأنفسنا خير من حقيقة كاملة نستمدها من سوانا.

س.ر.

كتاب الشهر

روبنسون كروزو
في بلاد التماسيح

ملخص من كتاب

بقلم رود آنسل وراشيل بيرسي

روبنسون كروزو في بلاد التماسيح

رود آنسل "كاوبوي" اوسترالي في الثامنة والعشرين. كان يصيد السمك بمفرده عندما انقلب أحد زورقيه في مياه شمال اوستراليا النائية، وجذف بالزورق الآخر حتى بلغ نهر فيتزموريس. وعلى تلك الضفاف غير الآهلة أقام مخيماً بقي فيه، هو وكلباه، نحو سبعة أسابيع.

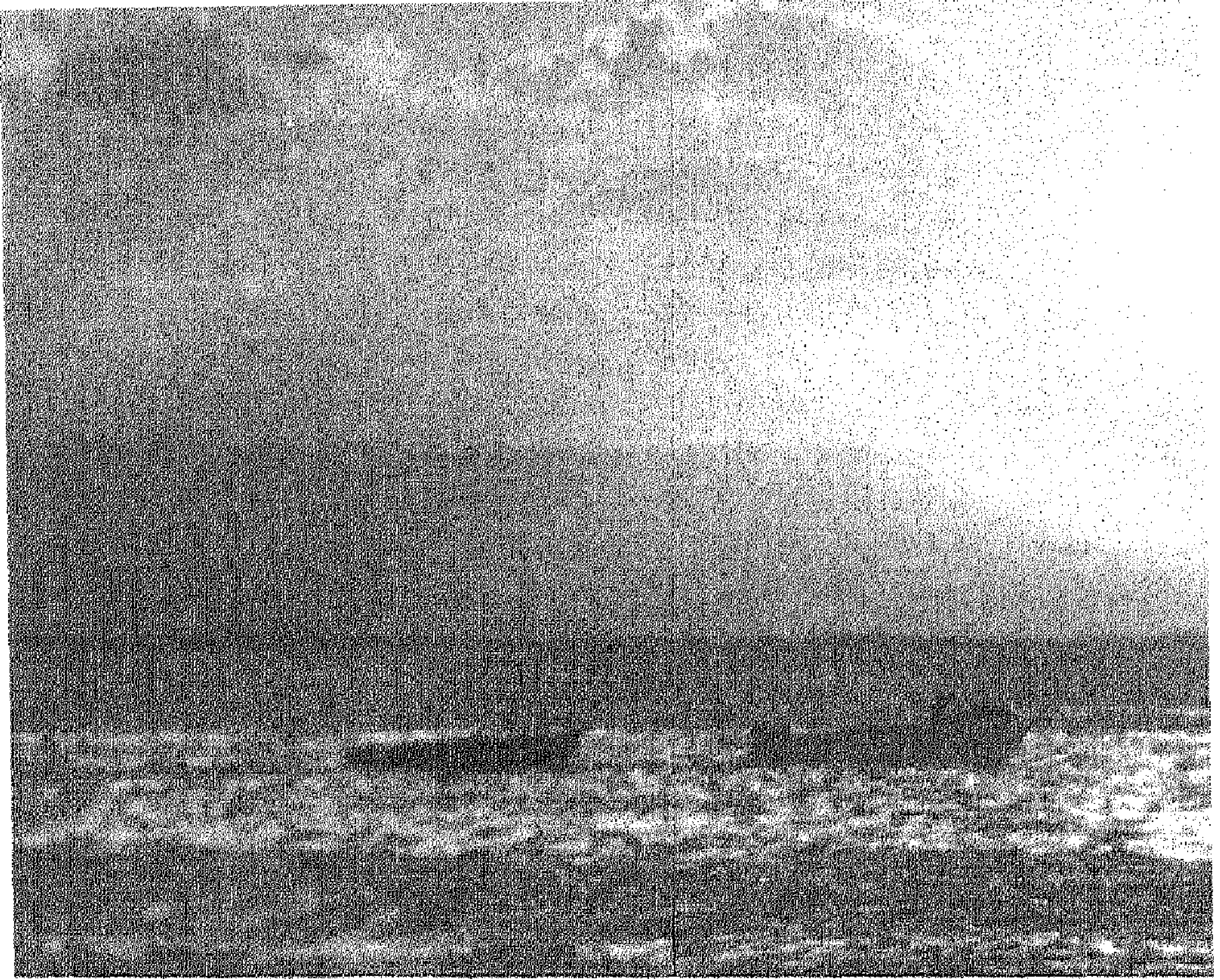
وهنا قصة "روبنسون كروزو" معاصر انتصر بمثابرته على عناصر الطبيعة القاسية. وقد صورت أحداث مغامرته في شريط وثائقي بعد سنة من حصولها. وهو يعيش اليوم مع زوجته وابنهما الصغير في جوار بلدة كاترين، شمال اوستراليا.



حدث ذلك في مطلع مايو (أيار) ١٩٧٧. ولا أتذكر التاريخ بدقة، إذ أن التقاويم وساعات الحائط لا تعني كثيراً لساكني الغاب.

أنا كاوبوي من حيث المهنة، أقبض على الثيران البرية وشبه البرية بعد مطاردتها في الفلوات. وكان علي، ذلك الوقت، الذهاب من كونونورا غرب اوستراليا الى الشمال للنظر في شروط اتفاق للقبض على الجواميس. غير أني قررت ارجاء الرحلة اسبوعين نظراً الى عدم أهمية الزمن في ذلك الجزء من الارض.

وكنتُ سمعت أن صيد السمك رياضة مغرية بالقرب من ثغر نهر فيكتوريا. وراقتني تلك الفكرة لأن المكان بعيد ولم تطرقه أرجل كثيرة. وليس عسيراً أن أبلغ المكان بسيارتي، وهي من نوع "تويوتا"،



واحملها زورقين من الالمنيوم، أحدهما طوله خمسة أمتار ونصف متر والآخر ثلاثة أمتار.

وقررت أن أحمل معي كذلك جروي كلاب مهجنين يبلغ عمر الواحد منهما ثمانية أسابيع، وهي السن التي يجدر فيها بدء تدريب كلاب الصيد. وتركت الكلبين الابوين في عهدة صديقة في كونونورا على أن تستغرق رحلتي كلها نحو شهرين.

والمسافة بين تلك البلدة وفيكتوريا ١٦٠ كيلومتراً. وغادرت قبل طلوع الضوء، في برودة الضحى ونضارته، وقد أطلت خيوط الشمس الاولى من وراء الجبال. ولازمت الطريق الرئيسية بادىء الامر ثم انعطفت وسط المزارع حتى وصلت الى النهر.

وتبعته الى أن بلغت مكاناً صالحاً لارساء الزورقين، وهو خليج صغير منحدر الضفاف.

ووضعتُ معظم عدتي في الزورق الاكبر الذي يقوم محركه في مؤخره. وهو قارب صغير يعول عليه، لكن معظم أحواض العوم انتزعت منه عندما تم اصلاحه أخيراً. وكان يمكنني، في حال توقف المحرك، استخدام القارب الآخر الذي يسير بمجذافين.

وملأت بالماء وعاءين يتسع الواحد منهما لثمانية عشر ليتراً. ذلك أن نهر فيكتوريا الناشط بحركة المد والجزر لا تصلح مياهه للشرب بعد خليج تمبر الذي يبعد ١٤٠ كيلومتراً داخل الماء. وكان لدي مقدار كبير من الوقود

وأدوات مختلفة وعدة صيد وذخيرة. ولم أحمل الكثير من الطعام لأني اردت الحصول على غذائي يومياً. واكتفيت ببعض الشاي والسكر والحليب المجفف والدقيق والملح، وقد حفظتها جميعاً في علب مع بعض الخضر والفاكهة المعلبة. كما حملت عيدان ثقاب وموقداً صغيراً على الغاز وعلبة كعك للكلبين، فضلا عن كيس نوم فيه ملابس داخلية وبندقية وخناجر وحجر للشحذ وقميصان وسروال وسترة قطنية. وكنت أرتدي سروالا قصيرا وقميصاً وقبعة، فيما تركت حذائي داخل السيارة التي اوقفتها بين الاشجار الخفيضة على ضفة النهر. وهي ستبقى في مأمن حتى أعود.

وفي وقت متقدم من العصر بلغت وسط النهر حيث عرض المياه نحو ثلاثة كيلومترات. ومن هناك يمكن الوصول الى قناة كوينز التي تقع ضفتاها في مرمى النظر. وكان يوماً جميلا استمتعت بالشمس والهدوء أنا والكلبان الصغيران في القارب. واصطدت بعض الاسماك ووقع نظري على عدد من التماسيح. وكانت المنطقة ما توقعت أن تكونه: أرضاً بكراً يخيم عليها الهدوء. ثم ظهرت الشمس الغاربة على هيئة كرة وردية ما لبثت أن أحالت لون الماء البني الى ما يشبه الصدأ.

وفجأة أحسست صوت اصطدام تحت القارب. وظننت أنه مر فوق تلة رمل أو خشبة كبيرة جرفها الماء. لكن القارب أخذ يترجح، ثم انقلبت العدة والكلبان في هذا الاتجاه وذاك. وبعد ذلك سقطت أنا وسط الرذاذ.

ولما عدت الى سطح الماء وجدتني محاطاً بكل الامتعة التي حملت، فيما الكلبان يسبحان طلباً للنجاة. ولم أشاهد من القارب سوى المحرك الذي نتأ بين الركام مع جزء من الزورق الصغير الموصول به وقد غمرته المياه حتى نصفه.

وبذلت غاية جهدي للوصول الى القارب. وفجأة وجدت نفسي متشبثاً به وقد عاد الى وضعه الطبيعي وأنا على سطحه من جديد. ترى أيعقل أن تكون سمكة قرش قلبتنا، وتلك المياه ملأى بها؟

وسبح باونسر، الجرو الرمادي الموشح بخطوط دكناء، الى أن حاذى القارب فرفعته اليه. أما الكلبة الصغيرة البيضاء، سيندي، فكانت تتخبط باضطراب. واضطررت الى القفز من القارب لانقاذها. ولما حملتها وخزتني عظمة نافرة من احدى قائمتيها الخلفيتين. ولم يكن في وسعي معالجة قائمتها المكسورة، واكتفيت بوضعها على أرضية القارب التي غمرها الماء.

ورفعت الحبل الذي يصل القاربين، لكن القارب الصغير أفلت ومعه العدة كلها. ومع اشتداد الريح لم يبقَ لي أمل في انقاذ ما ضاع. وأشكر الله على أن صرة الامتعة ظلت قريبة مني، فرفعتها الى القارب. والمؤسف أني فقدت ماء الشرب، لكني تمكنت من انتشال علبة بازيلا وعلبة حليب مجفف وعلبة ثالثة فارغة، مع علبة كبريت ابتلت عيدانها. ثم خيم الظلام فلم أعد ابصر شيئاً، وازداد عتو الريح.

ولم أدرِ كيف ولا أين فقد أحد المجذافين، وحملت المجذاف الباقي

وحاولت عبثاً عبور التيار الى أقرب ضفة، وانهال الموج على القارب، فأفرغت علبة الحليب واستخدمتها لنزح الماء باحدى يدي، فيما صارعت باليد الاخرى لتثبيت القارب أمام هياج الطبيعة. ترى أيجدي ذاك التعب كله؟ وسواء أفضت بي الريح والموج الى عرض النهر أو الى الشاطىء، فان حركة الماء هي سيدة الموقف.

غير أني ثابرت على تلك الوتيرة، أنزح الماء بيد وأجذف بالأخرى، مخترقاً أمواجاً ترتفع ثلاثة أمتار والرذاذ ينهمر كالمسامير... إنها أسوأ ليلة مرت في حياتي.

وأخيراً طلع ضوء النهار. وكان يحيطنا مجاز لا ينتهي من المياه الموحلة التي صفت قليلا ناحية الشمال الغربي حيث يتسع النهر. ولا بد من أن يكون انحسار المياه حملنا الى عرض النهر ثم أعادنا المد الى الشاطىء. لكنه لم يكن الشاطىء الذي انطلقنا منه، لأن هناك انحرافاً ظاهراً نحو الشمال. وكانت أقرب يابسة جزيرة طويلة منخفضة جذفت نحوها في اتجاه التيار.

النهر المجهول

قفز باونسر الى اليابسة وقد أسعده كثيراً أن يطأ الأرض مرة اخرى. وتبعته سيندي على ثلاث قوائم قبل أن أمد نحوها يداً، بينما غرزت عظمة قائمتها المكسورة في خاصرتها المدماة. ومعروف عن كلاب الصيد أنها، بطبيعتها، لا تكترث للألم. لكن سيندي تجبرت على آلامها الى حد لا يصدق. ولم يصدر منها أي تذمر أو أنين، بل وجدت حيزاً من الرمل الجاف اضطجعت فوقه.

أما أنا فقد نخر الارهاق عظامي. وأحسست كأن جسدي نُقع في محلول مالح. وجف الملح حول عيني وشفتي وبلغ مني الظمأ أيما مبلغ. وعز علي التفكير في ماء الشرب الذي ضاع مني، وواجهت الواقع المر، وهو أن علي كما على الجروين أن نقطع مسافة كبيرة بلا ماء.

وجلست للتفكير في ما حصل. ولم تكن لدي فكرة واضحة عن أسباب الحادث. واذا صح أن تمساحاً أو سمكة قرش هو الجاني، فلا يعقل أن يكون اكتفى بذلك بل لكان أهلكنا على الفور. أيعقل، اذاً، أنه حوت أصابه الذعر لدى بلوغه مياهاً ضحلة؟ ولكن ما جدوى التفكير في الاسباب؟ كل ما في الامر أن الواقعة حلت ونحن هنا لا ندري ما نفعل.

ولا بد من أني ابتعدت كثيراً عن نقطة انطلاقي. واذا امكنني الوصول الى قناة كوينز ونهر فيكتوريا، فسأبقى بعيداً ٥٠ كيلومتراً عن سيارتي وعن المياه الصالحة للشرب.

ولم يراودني أي وهم حول امكان انقاذي، إذ لا أحد كان يدري بمحنتي أو يتوقع وجودي في ذلك القفر. إلا أني في الوقت نفسه رفضت الاستسلام لليأس.

وأتاح لي ما رأيت من الساحل أن ادرك أن ثغر نهر فيتزموريس على مقربة منا. وهو نهر لا أحد يعرف عنه أكثر من أنه يعبر قفاراً مجهولة. فلا طرقات تدانيه ولا اناس يسكنون في جواره. لكني كنت أدري أنه أقصر من نهر فيكتوريا واضيق. ولم أجد بداً

من الابحار في تياره لبلوغ الماء. ولكن أيستغرق ذلك يومين أم أكثر؟

وتناولت خنجراً ضربت به علبة البازيلا. وشربت ماء العلبة وأكلت حبوبها. ولم يبقَ لدي من طعام سوى علبة سكر، لكن السكر لا يصلح مع الظمأ الذي أعانيه. وبعد ذلك تمددت تاركاً عيناً مفتوحة لمراقبة ارتفاع المد.

وفي ساعة مبكرة من العصر بلغت مصب نهر فيتزموريس والحرارة على أشدها. وكنت أضعت قبعتي. وهبت ريح أشبعت الجو بالملوحة وزادت حدة عطشي.

وبدت اليابسة بالقرب من مصب النهر لا تَعِدُ خيراً. فهي ملأى بأشجار المنغروف الاستوائية واجران الملح والتلال الحمر الجرد. وكانت الطيور قليلة في ذلك القفر الراكد. وبدت المياه أكثر حيوية من اليابسة، إذ كانت ترتفع فيها الدوامات عند صعود سمكة كبيرة الى السطح. ووقع نظري على خطمي تمساحين يجذفان وسط الماء بحثاً عن صيد.

وعدت الى القارب مجذفاً نحو الخليج. ورأيت فتحتين أو ثلاثاً في المياه أمامي، ولم أدر اياً منها هي الثغر الرئيسي. وكانت الشمس على وشك الغروب وقد أغرقت المدى بالخيوط الزهرية والارجوانية. وأسعفني الحظ في العثور على جزيرة صخرية صغيرة رسوت على شاطئها قبل انسدال الظلام.

وكانت تلك الجزيرة مكاناً تعساً، غير أنها أتاحت لي ارساء القارب الى صخرة وانزال صرة الامتعة. وكانت هذه مبتلة، لكن الاستراحة فوقها



كانت خيراً من التمدد على أرض عارية. ونام الكلبان الى جانبي. ولما غابت الشمس برد الهواء. وتمنيت أن اوقد ناراً وأتناول بعض طعام وشراب.

وكانت قائمة سيندي المسكينة تنزف بلا انقطاع والعظمة المكسورة تنتأ منها. والمؤسف أني لم أستطع مواساتها. وأخذتني سنة النوم قليلا، لكني خشيت الاستسلام للنوم العميق لئلا أسهو عن حركة المد صباحاً.

وما أن بزغت خيوط الضوء الاولى حتى نزلت الى الماء من جديد. وحملتني مياه المد بقوة الى ما بدا ثغراً لنهر. إلا أني كنت على يقين من أن النهر الحقيقي هو الى اليمين، وأن ما يبدو أمامي ثغراً ان هو الا شَبَه مضلل. وانعطفت الى اليمين وأنا أرجو أن أكون اتخذت القرار الصائب. وفجأة حملني تيار قوي الى فرجة كانت هي النهر الذي أقصد.



بعد عبور ثغره يغدو نهر فيتزموريس عميقاً وضيقاً ومحاطاً بالاجراف القاتمة. ولما بلغت ذلك المضيق أخذ القارب يهبط بشدة وسط التيارات. لكن كل مسافة جديدة يحملنا اليها التيار تقربنا من المياه الصافية.

ثم اتسع النهر وبدأت التماسيح تجري في أثر القارب بعد خروجها من مخابئها على الضفاف. وامتشقت بندقيتي وصوبتها نحو أحد تلك التماسيح وهو على بعد تسعة أمتار من مؤخر القارب. وأطلقت النار على التماسيح الاخرى علها تجفل وتتفرق. ونفق التمساح الذي صوبت عليه النار من غير أن تتفرق التماسيح الاخرى. فهي هناك في مياهها الاقليمية لا يعرف الخوف اليها سبيلا.

ومنحني اجتفاف جسدي شعوراً بالتحليق عالياً، لكني ثابرت على التجذيف وقد أغراني ذاك الشعور.

ولما تقدم العصر بدا أن النهر يضيق من جديد ليفضي الى سد على هيئة قمع. وسمعت صوتاً كالهدير يعلو كلما تقدمت. وكان أمامي في المسافة المعتمة ما يشبه جداراً تتدفق عليه مياه بيضاء. لكن علي انتظار الصباح قبل أن أتصدى له. وجذفت نحو الشاطىء فوقعت على جرف رملي. ونزلت هناك رابطاً القارب بجذع شجرة. وكنت من الارهاق بحيث تعذر علي البحث عن مكان القي عليه صرتي. فعدت الى القارب وقد جف جلدي بعد تعرضه يومين لحرارة الشمس.

وشرب الكلبان قليلا من الماء جعلهما يتقيآن. ونشلت بعض الماء بسترتي وصببته في علبة فارغة. وتذوقت منه قليلا كدت أن أشرَق بملوحته. وكنت على وشك فقدان صوابي وأستغرق في الهذيان، ناسياً المكان الذي أنا فيه ومستحضراً في خيالي اطيافاً من ماضي ومعارفي وبيتي وأهلي وعاجزاً عن التمييز بين الوهم والحقيقة.

وبدأت حركة المد وسط ظلام حالك. وكان علي انتظار الضوء قبل كشف طبيعة الجدار المنتصب أمامي. ومع تباشير الضحى شاهدت صخرين من رمل أحمر يتوسطان المياه كساعتين رمليتين.

وتقدمت بحذر. وكان الماء يتدفق من الفجوة بين الجلمودين مثل قطار سريع لا يتجاوز عرضه المتر. واستحال علي اختراق ذلك المجاز بالقارب. وبات لزاماً أن أنتظر حتى يأتي المد ويوسع الفتحة. ولم يسعني انتظار وقت الأمان، وهو تلك

المنيهات القليلة بين المد والجزر حين تهدأ المياه، لأن هذا يعني الانتظار ست ساعات طويلة، فيما كل ساعة باتت فاصلا بين الحياة والموت.

وهكذا أقحمت القارب وقد امتد أمامي نحو تسعين متراً من المياه البيضاء المزبدة التي تدل على وجود الصخور. لكني اجتزت المسافة بحذر.

القوت الضروري

جاهدت لابقاء القارب في مجرى التيار وأنا أرفض الاستسلام. وبلغ مني الارهاق حداً انفصلت معه عن نفسي وبت أرى شخصاً آخر يجذف.

وصاحت فوق رأسي أسراب الببغاء التي تلازم ضفاف الانهار ذات المياه النقية. إذاً، أنا اقترب من غايتي. وكانت الشمس ترتفع وتزداد حراً. وقبع الكلبان وقد أغمضا أعينهما بتجلد ومن غير تذمر.

وتابعت التجذيف وأنا لا أعي تماماً ما أفعل ولا أدري اذا كان القارب يتحرك الى الامام أم الى الوراء. لكن النهر أخذ يتشعب في منبسطات من الارض.

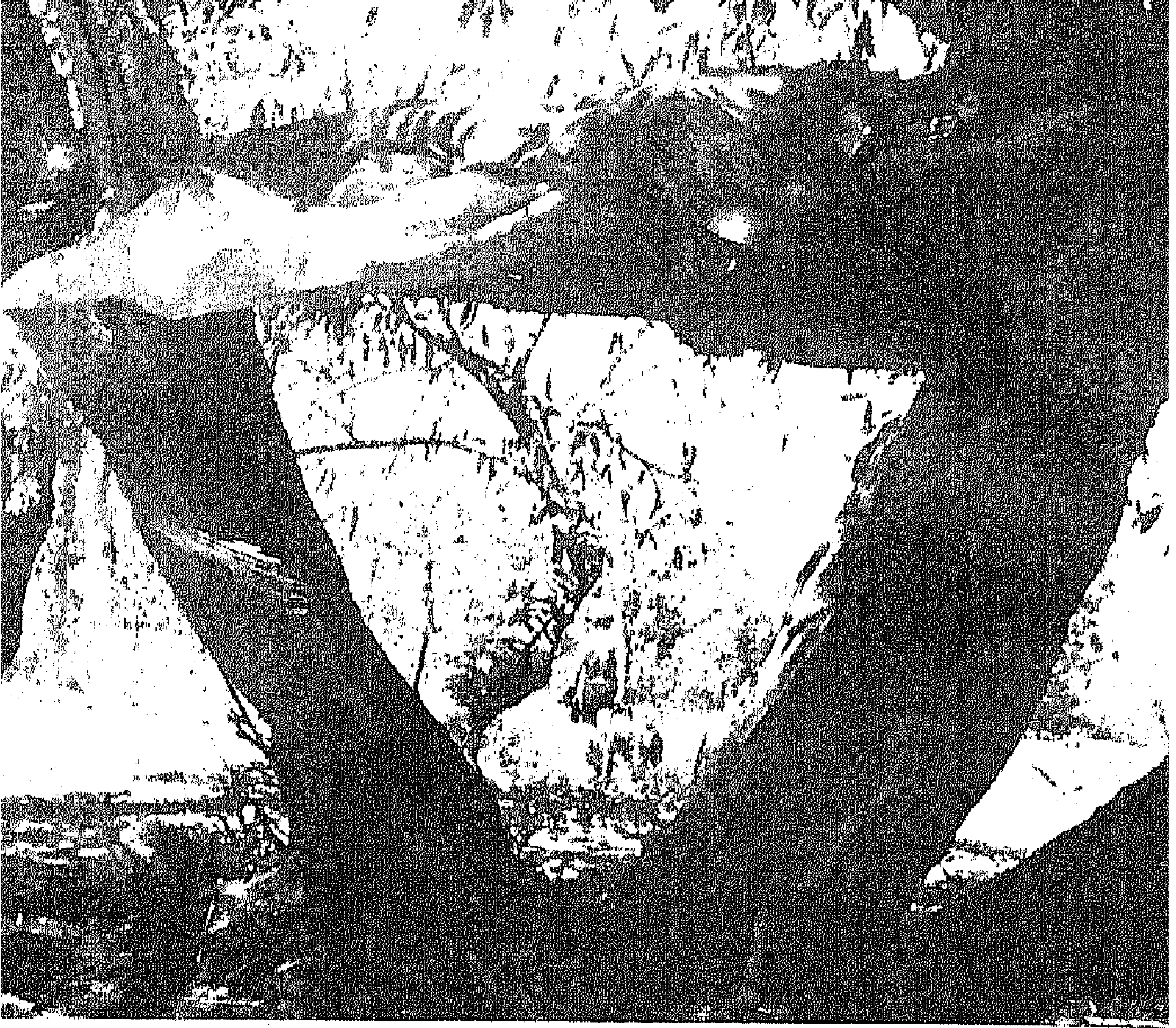
وبدأ الكلبان يئنان ويتنشقان الهواء. وانعطف القارب الى الشاطىء وتوقف من تلقائه. وقفز باونسر أولا وراح يغب الماء كالمجنون، فيما حاولت سيندي اللحاق به. وحذوت أنا حذوهما، وانحنيت فوق الماء أتجرعه بكل ما فيه من وحل. لكنه كان عذباً وصالحاً للشرب. وحاولت ألا أشرب كثيراً لئلا أتقيأ. ثم نزلت الى الماء وتركته يشبع مسام جسدي.

وعدت الى القارب وأنا أجذف بحثاً عن مكان صالح لنصب خيمة. ووقع نظري على ضفة معشبة ترتفع وراءها أشجار كبيرة. وبذلت ما بقي لي من قوة للوصول اليها.

وكانت تلك الضفة قليلة التضاريس، فأرسيت القارب في مكان آمن. ثم سحبت الصرة وجررتها نحواً من ١٨ متراً الى أن بلغت شجرة دراق برية ضخمة ذات أغصان ظليلة. ورجعت لاحمل بندقيتي والجروين اللذين عادا يغبان الماء، فشاهدت تمساحاً كبيراً يتهادى في محاذاة الضفة. وفتحت عليه نار البندقية، فأصبت خطمه وصرعته. وهكذا أدركت أن علي مراقبة الكلبين على الدوام ومنعهما من الذهاب وحدهما الى النهر.

ولما عدت الى شجرة الدراق اضطجعت على كيس النوم المبلل وغفوت والكلبين حتى الصباح. وأفقت وأنا لا أستطيع الحراك. فالجهد الذي بذلته طوال الايام الثلاثة الماضية هد جسدي. وكانت قدماي كالاسفنج، لبقائهما في الماء طويلا. وهكذا رحت أعرج محاولا المشي.

وفي طريقي الى النهر وقعت على معابر قطعان، وهذا طمأنني من ناحية القوت. وبعدما شربت تناولت بعض السكر، ثم ناديت سيندي لأتفحص جرحها. وكنت عثرت على أسلاك نحاسية في قعر القارب، فحملتها معي. وكان بعض الجلد واللحم "مات" على الجرح، فقطعته بسكين. ومن حسن الحظ أن الماء المالح منع الالتهاب. وعندما فرغت من تنظيف الجرح، أعدت العظمة



هذه هي المنطقة التي تاه فيها رود آنسل ونصب خيمة (الى اليمين) على ضفة النهر المعشبة تحت شجرة دراق.

المكسورة الى مكانها وانتزعت قطعة من قميص شددت العظمة بها ثم لففت حولها أسلاك المعدن. وتقبلت سيندي ذلك كله ببأس رائع.

وما أن فرغت من تلك المهمة حتى سمعت شيئاً يجري نحو النهر. واذا بي أزى بقرة كبيرة على بعد ٤٥ متراً. وحين دنت مني ألقمتها رصاصة من البندقية. ثم تناولت خنجراً ونحرتها.

وللحال سلخت بعضاً من جلد البقرة وأخرجت قطعاً من لحمها. وهرع الكلبان إلي وأكلنا حتى شبعنا. ولئن بدا غريباً أن يتناول المرء لحماً نيئاً، فالواقع أن من يعاني الجوع الشديد لا يعير هذا الأمر اهتماماً. بعد ذلك قطعت شرائح من اللحم حملتها معي الى الخيمة وعلقتها على أغصان الشجرة. وأكلت بعضاً منها قبل أن أخلد الى النوم.

وفي اليوم التالي لم أفعل أكثر من الأكل والنوم. فاستعادة العافية أمر مهم جداً ويستغرق وقتاً.

وبعد يومين من بلوغي ذلك المكان، وجدت أني أحتاج الى نار أطهو عليها طعامي وأستدفىء في

الليالي الباردة، كذلك لأرد عني التماسيح المغيرة واعطي اشارة لطائرة صغيرة قد يصادف مرورها فوقي.

ووجدت أن عيدان الثقاب التي في حوزتي تالفة. وتذكرت أن بدائيي اوستراليا يقدحون النار في وقت قليل بحفرهم ثلماً في قضيب لين ثم حك قضيب آخر في الثلم على نحو سريع. لكني كنت أجهل تنفيذ تلك الطريقة.

وقررت استخدام فتيل خرطوشة لتحقيق غايتي. وهي ليست بالطريقة الآمنة، لكني فعلت ذلك بمنتهى الحرص. وبعد فصل الرصاص عن الخرطوشة أفرغت البارود فوق كومة من العشب والورق اليابسين. وقدحت الفتيل برأس سكين مرات عدة قبل أن تسري النار الى البارود. وبقيت أذكي النار بعد ذلك لتبقى مشتعلة يوماً بعد يوم.

ولكم راقني تلك الليلة منظر النار وفوقها شريحة لحم رحت اراقبها والدهن يسيل منها. انه تقدم ملحوظ حقاً.

انتظار فصل المطر

وجعلت من جلد البقرة حبلا ربطت به الكلبين لئلا يذهبا الى النهر ويتعرضا لخطر التماسيح. وظل الكلبان يقضمان الحبل حتى علمتهما، ببعض تأنيب، ألا يفعلا ذلك.

ومنعاً لمرور الايام من غير بداية او نهاية، رحت اثلم شجرة صغيرة بالقرب من شجرة الدراق. وكنت أجعل فيها ثلماً كل يوم. ولئلا أنسى ما فعلت، كنت أستعمل كل يوم أحد الخنجرين وأتركه في الشجرة حتى اليوم التالي قبل استبداله بالآخر.

في نهاية اليوم الثالث كاد اللحم أن ينفد. وما بقي منه سرت فيه العفونة وأجهزت عليه الصقور والغربان الموجودة بكثرة في البقاع الشمالية. وفي الصباح التالي خرجت للصيد تاركاً الكلبين في وثاقهما أمام نار كبيرة منعاً للحيوانات المعتدية.

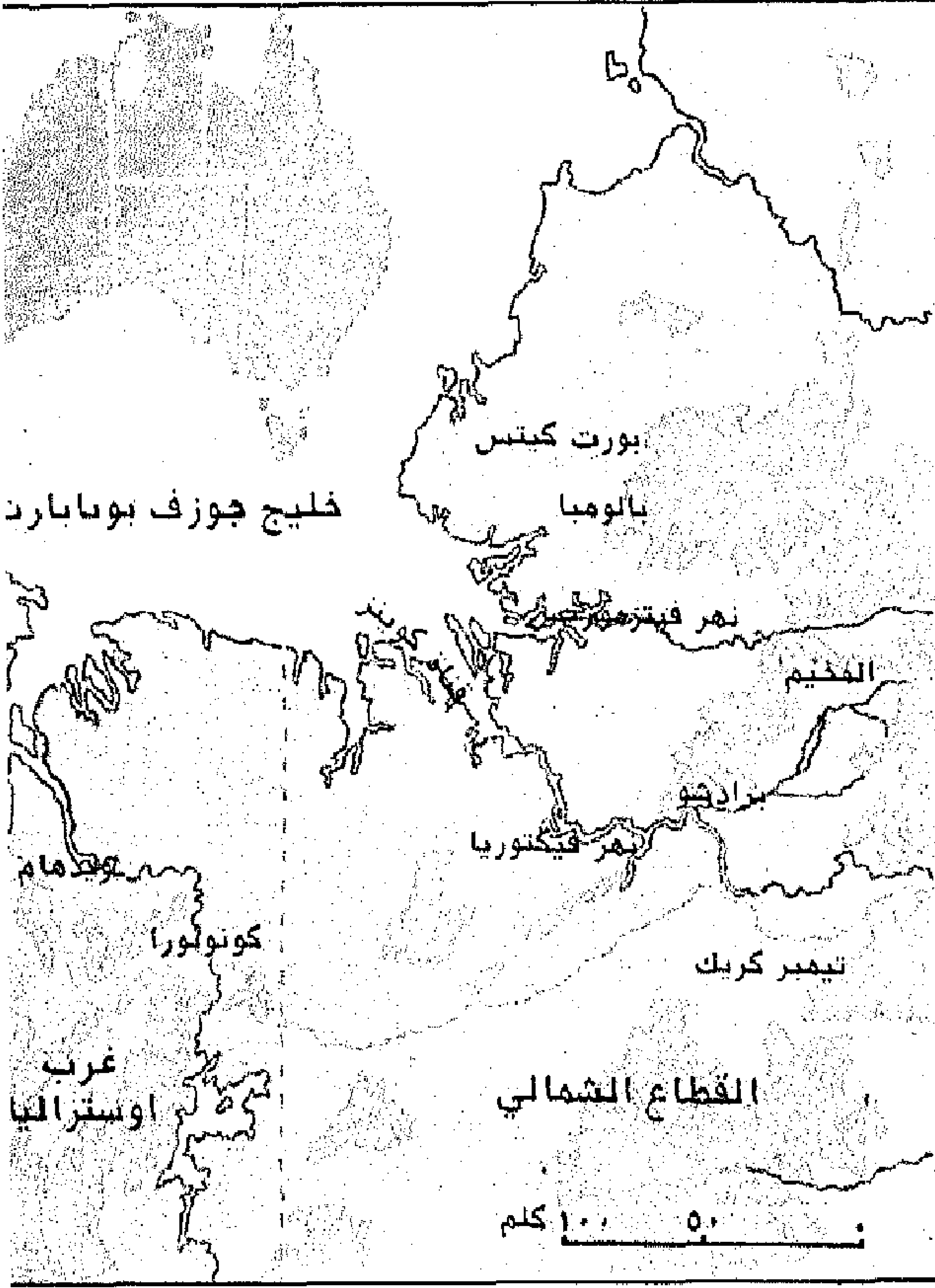
ورأيت أمامي هضاباً صغيرة تملأها الاعشاب الجافة وتتناثر فيها الاشجار، وبينها شجر الباوباب الاستوائي العريض الجذع وشجر الفلين وشجر الصمغ. ومع تقدمي تشكلت امامي غابة كثيفة تملأها الاشجار الخفيضة ونخيل البندنوس. وكانت الطيور في كل مكان. والحق أن منظر الريف كان رائعاً، الا أن المشاهد الطبيعية لم تغرني وأنا في تلك الحال.

وأفضت بي طرق القطعان الى مستنقع جاف، هو المكان المثالي الذي تألفه المواشي. وكنت حافياً مما خولني التسلل بين الاشجار من غير ضجة. لكني عجبت للاصوات المرتفعة التي سببها احتكاك سروالي وسترتي بالأماليد... انها المرة الاخيرة التي أذهب الى الصيد بأكثر من سروال قصير.

وصرعت جاموساً وسط المستنقع، وكان واحداً من جواميس قليلة شاهدتها هناك. واستغرق نقل لحمه الى المخيم رحلات عدة كنت أشحذ خلالها السكين مراراً. وجعلت معظم ذلك اللحم في شرائح علقتها على الشجرة كي تجف في الهواء والشمس. واللحم يجف سريعاً اذا قطع شرائح رقيقة وقل الدهن فيه.

وما أن تختم مسامه حتى يغدو في مأمن من الذباب والحشرات الطائرة· واذ يجف، يصبح في الامكان كسره مثل قطعة بسكويت·

وأحصيت ما بقي لدي من متاع· وكانت هناك البندقية ومعها ٣٧ طلقة، والخنجران وكيس النوم، والعلبتان الفارغتان وعلبة السكر، فضلا عن بعض الثياب· وهذا حسن في تلك الظروف· وكان لدي أيضاً حبل يمكنني استخدامه للقبض على الطرائد اذا كسرت رجلي أو رسغي وتعذر علي حمل البندقية، أو اذا نفدت الذخيرة لدي·



بعد ذلك اصطدت بقرة صغيرة سلخت جلدها بعناية وأخذته كله معي الى المخيم· وكنت صنعت حبلا من قطعة جلد، وصلته بالبندقية لا علقها على كتفي· فالخوض في تلك البراري عمل شاق خصوصاً اني أحمل العدة التي ظلت تسقط مني· ثم شاهدت ثوراً صغيراً وكنت أشعر بالاضطراب· فرفعت البندقية وعاجلته بطلقة أصابت خصيتيه· وقد وضعت في جرابيهما، بعد سلخهما، السكين وحجر الشحذ· وحملت الثور الصريع حول خصري بعد ربطه بقطعة جلد·

ولما وصلت الى المخيم ملأت جرابي الخصيتين رملا لكي يجفا· وصنعت حبلا من الجلد الطري· وأنا أذكر والدي وعمي اللذين علماني تلك الطرق النافعة، والاثنان يعملان في مزارع منعزلة ويفخران بصنع السلع اليدوية، ومنها الحبال التي تقتضي نقع الجلد في الماء قبل قطعه·

والحبل المجدول من ثلاثة "خيوط" لا يضاهيه حبل آخر صلابة· لكنني لم أكن أحتاج الى أكثر من حبل مزدوج· وبعد جدله علقته على الشجرة لكي يجف ووصلت به قطعة حديد·

وبعد يومين خرجت لاتفحص طبيعة الارض حولي· ولما عدت فكرت في وضعي ملياً، فتبين لي ان في امكاني الصمود طويلا هناك، ولكن علي العودة في نهاية المطاف·

وتبادر الى ذهني أن القطعان يجب أن تكون جاءت من مكان ما· ولكن

بدا أنها أمضت زمناً طويلا هناك، إذ ان جلودها كانت خالية من أي أثر للاختام أو للوَسْم الذي يدمغها به أصحاب المزارع. انها ماشية برية.

أين تكون الارض الآهلة إذاً؟ انها بعيدة بلا شك، والوصول اليها يعني أن أقطع الفيافي حافي القدمين. إلا أن المشكلة الكبيرة كانت جهلي منابع الماء في تلك الارض.

وفكرت عبثاً في طريقة أحمل بها ما يكفي من ماء. وبعضهم يصنع وعاء من معدة البقرة الداخلية، لكني أجهل مبادىء التمليح والتقديد الخاصة بذلك. واذا كان هذا الوعاء سيىء الصنع، فربما انشق وأنا وسط رحلة مرهقة لا سبيل فيها الى الماء.

كما أن قائمة سيندي لن تبرأ قبل أسابيع. ومن المستحيل أن أتركها وأمضي. إذاً علينا أن ننتظر فصل الامطار وننطلق، فلا يخيفنا الجفاف. والامطار الاولى تسقط في شهر اكتوبر (تشرين الاول)، أي بعد خمسة أشهر. وهذا يعني أنه كتب لنا أن نبقى في ذلك المكان الى أن يأتي المطر. ولم أخشَ ذلك لاني كنت على الدوام احب حياة القفار.

مطاردة الثيران

أظن أني رُبيت بالطريقة التي يدعوها معظم الناس تقليدية، وهي طريقة البراري الاوسترالية.

في أيام شبابه كان والدي يجمع الحيوانات البرية بالطراد، أي بركوب الخيل من حولها ومطاردتها الى جهة معينة. وبدأ عمي مطاردة الثيران وهو في السادسة عشرة. وعندما بلغ العشرين وضعت في عهدته محطة كبيرة اسمها "جو ـ جو"، وهي تقع غرب سبرينغشور في القطاع الجنوبي الاوسط من منطقة كوينزلاند. وكنت طفلا عندما انتقلت عائلتي الى هناك: والداي وأخي الاكبر واختاي.

والمنطقة برية وعرة المسالك. ولا سبيل الى القبض على حيواناتها الشاردة إلا بطرحها عن ظهور الخيل. ويبدأ الفارس بجولة سريعة، يتبعه فيها الثور الى أن يتعب ويخب على مهل. وإذ ذاك يترجل الفارس بسرعة عن حصانه بحيث لا يسمع الثور إلا وقع الحوافر التي تصم اذنيه، ولا يشعر الا وقد امسكه الفارس من ذيله. ويقطع هذا قرنيه عند رأسيهما المستدقين ويأخذه الى مزرعة ليضمه الى أمثاله من الثيران. بعد ذلك يوسم ويخصى اسوةبها. وتقوم كلاب خاصة على حراسة الثيران لمنعها من الفرار.

ولم أعرف من النساء من أتقن اصول هذه المهنة سوى عمتي نل. وهي ممتلئة الجسم وطولها ١٨٠ سنتيمتراً، لكنها بالغة الانوثة ويغطي رأسها شعر طويل أسود. وعمي أيضاً طويل وقوي. لكن أبي ـ وأنا مثله ـ قصير لا يزيد وزنه على ٦٠ كيلوغراماً. إلا أن طول القامة ليس شرطاً لمطاردة الثيران. ويكفي أن يكون الكاوبوي صحيحاً وقوياً. أما القبض على الثور فهو وقف على التوقيت المناسب.

وفي محطة "جو ـ جو" كان علينا، نحن الاحداث كذلك، أن نطارد الثيران ونقبض عليها. وقد بدأنا بالعِجّلات وانتقلنا الى الابقار ثم الى العجول. وكانت المطاردة تتم دائماً

على ظهور الخيل. ولدى بلوغي السابعة عشرة تركت البيت وذهبت شمالا حيث أصبحت مطارداً محترفاً.

وفي أقصى الشمال، حيث حرارة الشمس على أشدها، تتعذر المطاردة التقليدية على ظهور الجياد، وتضاف الى الجواد عربة ذات اربع عجلات، لا أبواب لها ولا نوافذ ولكن يعلوها سقف يقي الفارس حرارة الشمس. وبعد ارهاقه الثور يقفز الكاوبوي ويقبض عليه من ذيله أو يلطمه باحدى العجلات. واذا كانت الضربة قاتلة فأن الثور يرسل الى المسلخ.

عملت هناك بموجب عقد، وأحببت عملي كثيراً. فقد كان الراتب لائقاً كما كنت سيد عملي. وهي مهنة تلائم شاباً في سني، وان تكن تنطوي على بعض الاخطار. وقررت أن أصمدفي ذلك العمل حتى بلوغي الثلاثين، فأتركه وقد نجوت من الموت مراراً. لكن الاحداث تحصل عندما لا يعود المرء يكترث لها.

بيت في البرية

لم تخفني الافاعي في مخيمي على ضفة نهر فيتزموريس، إذ انها تكون كسولة في موسم الجفاف. ومرة شاهدت أفعى بنية كبيرة، فحملت عصا وقتلتها لاني خفت على الكلبين اللذين لا يعرفان أخطار الافاعي.

وكان المكان يعج بالنمال التي تأكل اللحم الاحمر، كذلك بالعقارب. ومعروف ان لسعة العقرب لا تفتك الا بالاجسام الضعيفة، لكنها تؤذي كثيراً.

وعلى رغم توافر اللحم إلا أني كنت أحتاج الى عناصر غذائية اخرى. ولا بد من وجود البطاطا البرية الحلوة في تلك الارض. والبدائيون يعثرون عليها بسهولة، أما أنا فوقعت على ثمرة او أثنتين منها. وكانت هناك بعض اشجار الجوز واللوز البرية، لكن التين البري كان فجاً في ذلك الفصل. وثمار الدراق والخوخ والتوت كانت خضراء ولا تصلح للأكل. وشاهدت عليقة ترتفع نحو نصف متر وهي محملة بالثمر. وكنت أقصدها بين وقت وآخر لاتناول عناقيدها اللذيذة.



وكان الطقس حاراً في النهار، لكنه بات أشد برودة مع الليل. ولم يبقَ النوم مريحاً على فراش فوق الارض العارية. وقطعت اثلاماً في أغصان شجرة الدراق الصلبة وأدخلت فيها قضيبين متوازيين. ومددت قضباناً صغيرة بينهما وضعت عليها أعشاباً يابسة. وبعد ذلك القيت الفراش وقد أصبح لي سرير. وهناك كان يهب النسيم العليل نهاراً ويلفني الدفء ليلا. والحق أن ذلك السرير المعلق غدا بيتاً لي.

وبقي علي أن أصنع مجذافاً آخر للقارب، ليس لأن المجذاف الواحد يضايقني بل لأني أردت اكتشاف الجانب الآخر للنهر.

وقطعت شجرة صغيرة مستخدماً السكين كفأس. واذا كان لي أن اختار لحياتي في البرية سكيناً أو بندقية لاخترت السكين. واستغرق قطع الشجرة نحو ساعة. وبعد ذلك قشرت اللحاء الكثيف عنها وشذبتها.

وكنت كل يوم آخذ الكلبين الى النهر للنزول الى الماء واللعب على الشاطيء. ولم تكن البندقية تفارقني، منعاً لاعتداء الجواميس. وكان باونسر يركض بعيداً ثم يعود، فيما تبقى سيندي الى جانبي.

وحرصت على الذهاب الى النهر في وقت مختلف يوماً عن الآخر لئلا أعود التماسيح على وقت معين. فمن عادة التمساح أن يراقب حيواناً أو أنساناً ينزل الى الماء كل يوم في الوقت نفسه، من غير أن يحرك التمساح ساكناً طوال ثلاثة اسابيع. الا أنه، في اليوم الثاني والعشرين، ينقض على ضحيته ويلتهمها بعد اطباق فكيه عليها كطلقة بندقية.

وكنت أستمتع بالجلوس على ضفة النهر المعشبة بعد سباحة قصيرة، فأصغي الى صداح الطيور التي تملأ المكان. وكانت أسراب الببغاوات المختلفة الاشكال والالوان تطير فوق رأسي، فيمتليء الفضاء بصوتها الاجش. ثم تتبعها العصافير الصغيرة من نوع الدوري والحسون والرفراف، كذلك اليمام الوديع.

وكان النهر يعج بصنوف الاسماك، ومنها البرمون والابراميس والسلور. وهناك أيضاً الراموح الذي يبرع أهل القبائل في اصطياده براعتهم في صيد بعض الطيور بالعصي. وهما أمران عجزت عن اتيانهما.

وقد خدمتني البندقية كثيراً، خصوصاً لدى بلوغي المكان والارهاق يهدني. ولكن علي الآن ضمان القوت، ولا بد من تدريب الكلبين على الصيد. وذات يوم اصطدت ولباً، والسهول المحيطة بالانهار ملأى بهذه الحيوانات الجرابية. ووجدت في ذلك مناسبة لتلقين باونسر درسه الأول في الصيد، فرميت الولب بعيداً لكي أثير لدى الكلب رغبة اللحاق به.

وأكلت الولَّب بعد شيه، وكان بمثابة تنويع في غذائي. أما الحيوانات الكبيرة التي اصطدتها فكان معظمها يذهب اهدارا.

وبعد مضي اسبوعين على وجودي في المخيم ـ وقد دلني على الوقت "التقويم" الذي كنت أحفره يومياً في جذع الشجرة ـ استعدت نشاطي. وبدأ العظم يلتحم في قائمة سيندي المكسورة، على رغم خطاها الثقيلة. وبينما كنت أغسل مكان الجرح، رحت أتكلم الى سيندي مطمئناً. أما هي فنظرت إلي برضا.

وذهبت مرة الى الصيد فرميت بقرة. وكانت الاصابة في كتفها قاتلة، لكنها لم تسقط فوراً. وأطلقت باونسر في اثرها، فبقي ممسكاً بخناقها حتى سقطت. وحين عاد إلي أطريته كثيراً وكان سروره لا يوصف.

استكشاف

ومن القفص الصدري لتلك البقرة جعلت سلة طوقتها بالجلد ووضعت فيها بعض شرائح اللحم وعلقتها بكتفي فيما حملت بيدي بعض اللحم.

ما أن فرغت من صنع المجذاف حتى انتظرت دخول المد وركبت

النهر. وكان في أحد انحائه سهل مغطى بالقصب الذي يرتفع مترين. وفي ضفاف اخرى شاهدت العشب والقصب على حافة الماء وقد تجمع بعضه على بعض وانحنى فوق الماء. وتداخلت قنوات صغيرة هنا وهناك كانت الحيوانات تؤمها للشرب. وهي مسالك قاتمة تبدو كالمجاهل. وظهرت قنوات أكبر كانت التماسيح تبرز على ضفافها مستريحة تحت الشمس قبل أن تعود الى النهر.

وكانت الضفاف عن جانبي عالية وعمودية وقد انعكست حمرة لونها على صفحة الماء. وبعد عشرة كيلومترات على هذا المنوال وجدت نفسي في مضيق ذي مياه عميقة خضراء تقوم عن جانبيها أجراف ملونة وبعض جيوب خضراء تكسوها نباتات معترشة تنحدر حتى تبلغ الماء.

وهدأت حركة الماء داخل المضيق. ونزلت في خلاء مقطوع الشجر كنت رأيته قبل قليل. واقتفيت آثار القطعان بين القصب حتى وصلت الى أرض تملأها أشجار تين برية ضخمة ويقوم وراءها سهل فسيح. وقررت اقامة مخيمي هناك لسهولة الصيد.

وكان القصب الكثيف يعج بقطعان الولب، كما ظهرت الطيور في كل مكان. وقد شاهدت جميع انواع العصافير وأسراباً من طائر القرلي المائي الذي يشبه صوته الضحك، كذلك الحمام البني واليمام وآكلات الاسماك والببغاوات على أنواعها وطيور الوروار الخضراء وآكلات العسل والهوازج وصقور البحر. وملأني الفرح لكل ما رأيته في تلك الارض.

وفي اليوم التالي قطعت النهر الى الضفة المقابلة وتسلقت الهضاب الحمر. وعن قمتها كُشفت لي مسافة ثلاثين كيلومتراً في جميع الاتجاهات، وكلها أرض برية. وتبين لي أن الارض التي أقمت عليها هي بمثابة راحة في القفر، تمتد نحو ١٥ كيلومتراً جنوباً وتحدها من الجهات كلها أراض وعرة.

وأزعجني ذلك المنظر لأنه أبعد عن ذهني امكان وجود رعاة بقر في ذلك المكان. وفيما أنا نازل عن التلال رأيت باونسر الذي قضم وثاقه وقطع النهر في اثري. وكنت قبل يومين لاحظت اضطراباً على الماء، فأسرعت والبندقية في يدي خوفاً على باونسر من تمساح مغير، لكني شاهدت ولباً روعه الكلب فقفز الى الماء وأخذ يقطع النهر نحو الضفة الاخرى.

وشارفت ذهيرتي النفاد، ففكرت في صنع رمح. ورأيت جذور أشجار نمت فوق الماء، فقطعت نحو ثلاثة أمتار من أحدها وجعلت منه رمحاً. وجاءت أوقات عانيت اليأس. غير أني كنت أؤمل بفكرة مشرقة، كفكرة الرمح، تعيد الي بعض قوة على الاستمرار وسط تلك الظروف العصيبة.

اني أعد نفسي شخصاً عادياً بالنسبة الى حياة الغاب والمقاييس القديمة. وأظن أني اكتسبت مواقفي من والدي ومن عمي اللذين حافظا على التقاليد الموروثة، وهي خير سبيل الى قياد القطعان في مزرعة "جو - جو"، تلك الأيام حين كانت المحطة معزولة. والاثنان أتقنا السيطرة على الجياد والقطعان، كما أتقنا صنع العدة التي يحتاج

اليها العمل. ولم يتهرب أي منهما من مسؤولية أخذها على عاتقه. وحاولت انا أن أحذو حذوهما. وقد أكملت شقيقتاي دراستهما. أما أنا وأخي فتركنا المدرسة في السادسة عشرة والخامسة عشرة. وبدا لي أن ما تعلمته في "جو ـ جو" وأنا أعاون والدي كان أكثر قيمة مما علمتني اياه المدرسة.

وأنا أفضل حياة الوحدة. صحيح أني أحب مقابلة الناس والحديث

يصدح بصوته العالي: "كير ـ لي... كير ـ لي".

والثيران أيضاً لها ما تقول. وكنت أسمعها تجمجم وهي في طريقها الى الماء، حتى اذا بلغت الضفة راحت تتناوش في ما بينها. وأحياناً كان يقف ثوران هرمان ساعات، الواحد منها يزعق في وجه الآخر مصدراً أصواتاً كما الصنوج. وكانت الاصداء تتردد من الهضاب عبر النهر. فتصحو



الحرارة الشديدة في الشمال تعوق استخدام الجياد. وهكذا يتم صيد المواشي في عربات ذات اربع عجلات.

اليهم، لكنني أفضل أن أعمل بصمت وأنا وراء القطعان. وربما كان ذلك عائداً الى تعلقي بالأرض. وهذا كله قواني على احتمال الوضع على ضفاف فيتزموريس.

والليالي التي أمضيتها في المخيم لم تكن صامتة. أجل، كانت هادئة، لكن الهدوء امر والصمت امر آخر. والاصوات في القفاز ترتحل بعيداً. وكانت أصوات الطيور تتناهى إلي من كل جانب، ومنها الكروان الذي

عليها الببغاوات أحياناً وتكررها هي الاخرى بطريقتها. وفي ضوء القمر كانت الاصوات تدوم الليل كله.

ومن الحيوانات الاخرى هناك كلاب الدنغو الضارية. والتي كانت منها على الضفة الاخرى بدت عجفاء إذ لم يكن لها ما يكفي من القطعان للاغتذاء. وكانت تلك الكلاب، عندما تنبعث اليها رائحة اللحم من مخيمي، تنزل الى ضفة النهر المقابلة وتقف هناك وهي لا تجرؤ على العبور وكانت

أصوات جماعات الدنغو من أجمل ما سمعته في تلك القفار.

وذات صباح شاهدت مجموعة من تلك الكلاب تتعقب حيوانا ضخماً على الضفة المقابلة. ورأيت الاعشاب تنحني تحت وطأة الحيوان الهارب الذي اختفى هو وكلبان يتعقبانه. وبعد ثلاثة أرباع الساعة عاد الحيوان الى البقعة نفسها يطارده كلب آخر من مجموعة الدنغو. وانضمت أربعة كلاب اخرى أو خمسة تتناوب على مطاردة الحيوان الهارب حتى قضت عليه.

السكر والملح

مرت علي أيام لم أفعل أكثر من التنزه أو الجلوس والتأمل. وكنت اذا خرجت الى الصيد ولم أحصل على طريدة، عدت أدراجي خائباً. أما اذا جرت الامور حسناً من ناحية الصيد والغذاء فكنت أعاني الوحشة. لذلك كنت احدث الكلبين ولا أبالي اذا هما بقيا صامتين. ولو لم يكن باونسر وسيندي معي لكان علي أن أقتني طائراً أو عجلا أو حيواناً من الولب يسليني في وحدتي.

وكتبت أشعاراً كثيرة... أعني أني نظمتها وحفظتها في ذاكرتي، إذ لم يكن لدي ما أكتب عليه. في محطة "جو ـ جو" كان عمي يروي أشعار البادية وينشد أغانيها وهو ينفخ في مزمار. وجعلني أحفظ جزءاً كبيراً من ذلك التراث الشعبي.

ونظمت في عزلتي شعراً أكثر من أي وقت سابق. ووجدت في ذلك رياضة عقلية تحملني على التفكير. وكثير من ذلك الشعر كان رومنطيقياً، ولكن من غير أن يكون موجهاً الى شخص معين. وكان غياب الناس، ولاسيما النساء، موحشاً جداً. وجعلني ذلك ادرك أنه لا يمكنني أن أقضي حياتي أعزب.

وكنت أفتقد السكر كثيراً. في الحالات العادية كنت اغافل الآخرين لأضع ست ملاعق سكر في فنجان شاي. أما في ذلك القفر على ضفة فيتزموريس، فكنت أحتاج الى السكر كمصدر للطاقة الجسدية. ومن دونه كنت أشعر بالضعف وأتعب حين اطارد القطيع.

وعرفت أن هناك قفير نحل في مكان ما حولي، لكني لم أتمكن من تعيينه. والنحلة هناك صغيرة وسوداء لا تتجاوز حجم ذبابة. لذلك كان المدخل الى قفيرها صغيراً. والقبائل المحلية تعرف كيف تبلغ القفير. فالبدوي ينتظر عند الشجرة ليرى نحلة، حتى اذا أضاعها بقي منتظراً سواها. والنحل دائماً يقطع أقصر طريق بين قفيره والماء.

إلا أن نظري ليس بقوة نظر أهل البادية. لكن مخيمي كان يقوم بين قفير النحل والنهر. وما لبث النحل أن ارتاد الحفرة التي يشرب منها الكلبان. وتذكرت طريقة كنت الجأ اليها في حداثتي لاعاقة طيران النحلة، وهي لصق قطنة صغيرة عليها ملئت صمغاً من شجرة. وهكذا تبطىء النحلة في طيرانها ويغدو تعقبها أسهل.

ونسلت خيوط قطن من قميصي وجربت الطريقة المذكورة على نحو عشر نحلات. ولما استجابت احداها لحيلتي، لحقت بها الى أن سقطت

أرضاً بعد عشرة أمتار، وسحقتها بقدمي من غير أن أدري، وهكذا عدت الى مشرب الكلبين لاستأنف العملية.

واستغرق تحقيق خطتي يوماً كاملا، لكني عثرت أخيراً على القفير الذي يبعد نحو أربعين متراً عن المخيم. وما أن وجدته حتى أجهزت عليه مرة واحدة، ولو كنت أكثر حكمة لثقبت قرص العسل وادخلت فيه قصبة امص منها قليلا كل يوم. ذلك كان القفير الوحيد الذي رأيته.

في أواخر الاسبوع الرابع كنت استكشفت المكان كله حتى التلال، وعرفت أين تذهب القطعان في الاحوال الجوية المختلفة، كما استمتعت بمناظر الطبيعة.

وسعيت الى بيض الطيور لتنويع غذائي. الا أن معظم الاعشاش كانت في الادغال الكثيفة أو في قمم الاشجار العالية. ولم آكل البيض إلا حين وقعت على عش للدجاج الرومي، واقتنصت دجاجة لأحيد قليلا عن اللحم الأحمر. وكانت حوصلتها ملأى بالحبوب، فطهوتها هي والحبوب، وبعدما أكلت لحمها صنعت بعظامها حساء.

وسبب نقص الملح والسكر تشنجاً لدي. ولم أجد حكمة في التجذيف الى الجزء المالح من النهر، إذ ان الملح الذي سأفقده عبر العرق يفوق ما سأحصل عليه. وكانت في النهر أسماك قرش صغيرة لا يتجاوز طول الواحدة منها المتر. وبما أن تلك الاسماك تعيش في المياه المالحة معظم الوقت، فاني قدرت أن لحمها يجب أن يكون مصدراً للملح. وهكذا ربطت قطعة لحم بحبل من الجلد ودفعت بها الى حافة النهر. ولما دنت احدى أسماك القرش من الضفة رميتها بالبندقية. وبعد شيها أكلت الجانب الطري من لحمها، لكنه لم يكن مالحاً كما تصورت.

وكانت قائمة سيندي بدأت تبرأ. وباشرت تدريبها ثم أخذتها معي للمرة الاولى الى الصيد. ولما ابتعدنا نحو كيلومترين عن المخيم ظهر قطيع أمامنا. وأطلقت باونسر الذي أسرع نحو بقرة على بعد مئة متر، وعضها من فكها الاسفل. وحاولت المقاومة بقرنيها، لكنه بقي متشبثاً بها وقوائمه ثابتة على الارض. وأسرعت اليه وأمسكت البقرة من ذيلها وأنا فخور بما أنجزه من غير مساعدة. ووجدت البقرة عجوزاً عجفاء، فتركتها تمضي.

ووقفت انادي سيندي التي غابت عن نظري. وعدت الى المخيم ونمت حتى الصباح، لكنها لم تأتِ. عندئذ قلت لنفسي: "لقد افترستها كلاب الدنغو". وأثارت تلك الفكرة أشجاني. إلا أن باونسر قفز فجأة من ضفة النهر الى مكان معشب، راح يلعب فوقه. وكانت سيندي هناك وقد تدلى فكها الاسفل علامة الخجل لأنها أمضت الليل بعيدة عنا. لكني طمأنتها لكي تشعر بالعطف. وهكذا رجعت الى المخيم معيدة إلي معنوياتي. لقد كان الكلبان مهمين جداً لي في ذلك المكان.

ومنذ ذلك الوقت صرت آخذ باونسر وسيندي معي الى الصيد. ولم أعد أخشى انقطاع الذخيرة. وكلما قبض أحدهما على طريدة كنت أنحرها فوراً.

وبعد نحو خمسة أسابيع من وجودي على ضفة فيتزموريس مرت طائرة صغيرة من فوقي. وهرعت كالمجنون الى النار لاذكيها بالاغصان الخضراء اشارة الى الاستغاثة. غير أن الطائرة عبرت قبل أن أتمكن من ايصال ندائي اليها.

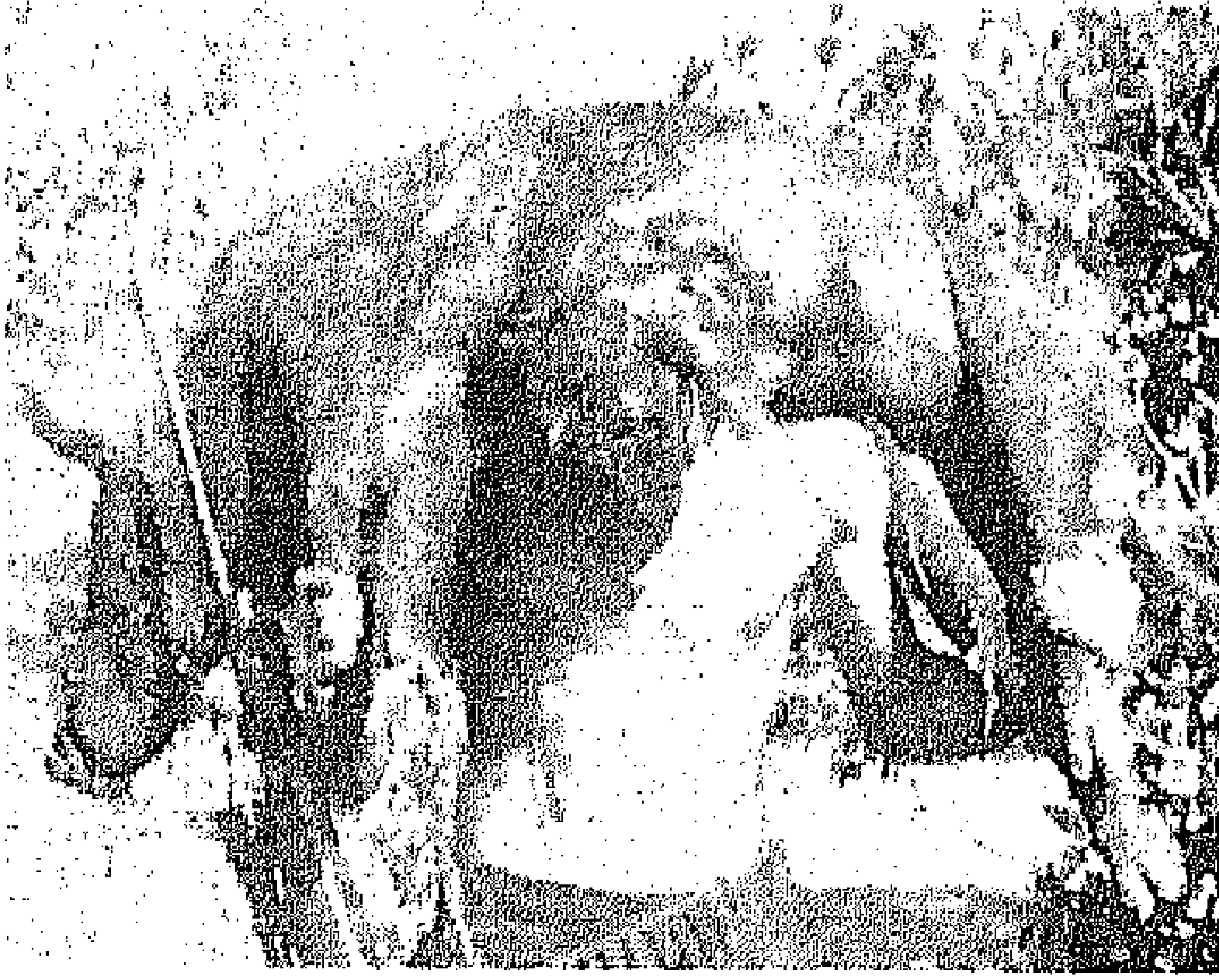
وازداد تشنج عضلاتي ومعه تضاءلت طاقتي. ولم أكن مريضاً حقاً، لكن قوتي لم تكن كما يرام. وغدت القطعان حذرة وصيدها يقتضي الذهاب أبعد يوماً بعد يوم. ثم ان جر الطريدة الى المخيم كان يستدر مني العرق، وهذا يعني نقص الملح من جسمي.

أيام جيدة، أيام رديئة

أكسبتني خبرتي تقديراً كبيراً للقفار الاوسترالية. وليست تلك القفار بالمكان الذي يسهل الحصول فيه على الطعام. وفي الامكان الحصول على الجوز واللوز وضروب الفاكهة البرية اذا سعى المرء اليها. لكنها لا تأتيه على طبق ضيافة. والحيوانات الجرابية المحلية لم تكن كثيرة، بل مبعثرة وتتمتع بحواس قوية للنظر والسمع والشم. ولو لم توجد بعض الابقار والثيران في تلك الارض لما أمكنني الصمود. ولكن لا يمكن القول ان القفار تعادي الانسان. انها لا تكترث له والحياة هناك تنطوي على عنصر من عدم الاستقرار.

وأظن أن هذه الحياة القاسية كانت ذات أثر في عقل الاوسترالي الابيض وحضارته وطرائق حياته. لكن هذا الاثر الذي لازمنا طويلا آخذ في الانحسار. وباستثناء الخطوط الساحلية الصغيرة، فان البلاد كلها قفار متواصلة. غير أن سكان اليوم كلهم مدينيون. وأهل المدن يجهلون البراري والقفار. انهم يجهلون اوستراليا الحقيقية التي تقوم شمالا.

والقفار تعطي سكانها نظرة مختلفة الى الحياة. فالبدو يعرفون أن الظروف سوف تبقى ضدهم. لكنهم لا يستسلمون لليأس، بل يقبلون هذا الواقع وينصرفون الى تحقيق ما هو



الوحوش البرية تدب في صحة جيدة.

في نطاق قدرتهم. وهذا النوع من العيش هو التزام الواقع، حيث يحصل المرء قوام حياته من الارض مباشرة. وهو في ذلك لا يتكل على احد. وهكذا تكون العلاقة صادقة بينه وبين نفسه.

وعلى ضفاف فيتزموريس يكتفي المرء بما هو أولي. ومع ازدياد حذر القطعان، كان علي التخلي حتى عن سروالي القصير الذي يحدث حفيفه على العشب أصواتاً ضئيلة.

وكانت الايام تحمل إلي القوة والضعف والأمل واليأس وارتفاع المعنويات وانقباض الصدر. وذات

يوم طاشت طلقتي بعدما طاردت القطيع طويلا. وكان ذلك رديئاً للغاية. فأنا أحتاج الى اللحم ولا يمكنني التخلي عن طلقة بندقية بهذه السهولة. لكني عدت ورميت ثوراً هرماً بالقرب من المخيم. ولحمه ليس بالفاخر، لكنه يسد الرمق ويغذي. وفي الليل سمعت عواء كلاب الدنغو وهي تجهز على الهيكل العظمي الذي رميته في الجوار.

ورحت افكر في الكائنات البرية، قويها وضعيفها، مثل كلاب الدنغو والجوارح والغربان والنمال والذباب. واستغرقت في التفكير وأنا أحفظ تلك الاشياء كلها في ذهني، علني أستطيع السيطرة عليها.

وبدأت أفقد حس الانتماء الى ذاتي بعد مكوثي طويلا ولا أحد أتكلم اليه. ولم أكن في حياتي العادية اقتني مرآة. إلا أني، على ضفة فيتزموريس، تمنيت كثيراً أن تكون لي مرآة. وأخذت علبة حليب فارغة ولمعتها حتى باتت تعكس الاشياء الخارجية. وشاهدت وجهي عليها وقد تبدلت سيماؤه، لكنه ظل وجهاً انسانياً. ولكن لم أبلغ المرحلة التي أخاطبه فيها. أما الكلبان فلم يبلغا المرحلة التي يستجيبان فيها لكلامي بأصوات منهما.

وهكذا لفتني الوحشة وألح علي الضعف. وكنت أتوق الى الجلوس مع أهلي لأروي أخباري وأقص على أبي ما حدث لي ونضحك معاً. وكنا في ما مضى، بعد جلسة صباحية رائقة، ننطلق الى مطاردة الثيران في المسالك الوعرة. وكنت إذا قبضت على عجل استعملت جميع الاربطة التي معي، بما فيها حزامي؟ وانتظرت أبي عله يحمل شيئاً نوثق به العجل. وبعد أن يطول انتظاري، كنت أنهض عن العجل وامسكه بذيله وأركض، فينزل سروالي الى الارض وتتعثر خطاي. وعندما أبلغ أجمة وقد هدني التعب، ارخي ذيل العجل واصارعه بين الاشجار، فأتلقى بعض كدمات من قرنه أو رقبته بينما تنال الشجرة نصيبها.

وكنت أتشدد بالفكرة الآتية: "لا بد من أن يأتي والدي قريباً". ثم أسمع صوتاً ورائي، ضحكة متطاولة تقارب الزعيق. وانظر لأرى أبي على حصانه الهرم. وأصيح به: "كف عن هزتك وتعال ساعدني". فيزداد ضحكه ولا يكترث لتوسلاتي.

وإذذاك يخور الثور الصغير ويهوي، فيما يتابع والدي ضحكه حتى يكاد يسقط عن الحصان.

أجراس في البعيد

كان مد النهر في ازدياد، وبدا أنه يحمل شيئاً معه. فقد سمعت رنيناً كما من شيء معدني. أيعقل أن يكون ذلك قارباً؟ وهرعت الى الشاطىء محاولا ألا أُمنّي نفسي بمكسب عظيم. وأخذ الصوت يقترب.

وبعد قليل لفظ الموج صهريجاً فارغاً سعته ٢٠٠ ليتر وحوله أخشاب طافية. انه برميل فارغ، لا غير! والله وحده يعلم من أين أتى.

ولا ريب في أن ذلك كان خيبة أمل. انه نهار سيىء، خفف من ردائته أني اصطدت بقرة كبيرة هي من أسمن الابقار التي رأيتها.

وبعد أيام نهضت وقد ارتفعت

الشمس. ويبدو أني استغرقت في النوم لعلة أصابتني وأعطتني الحمى والعرق. ولكن كان علي أن أذهب مرة اخرى للصيد، لأن ما بقي من البقرة شارف النفاد.

ونهضت بمشقة من الفراش وأذكيت النار، ثم جلست أشحذ الخنجرين قبل انطلاقي. وفيما أنا أحف سكيناً على حجر الشحذ، تراءى لي أني أسمع أجراس جياد. ونسيت ذلك الأمر بعدما خطر لي ان أصوات البراري شبيهة أحياناً برنين الاجراس.

وفجأة رنت الاجراس من جديد، فقلت لنفسي: "انها أجراس حقيقية! انها أجراس جياد".

وأسرعت الى حافة النهر، وتبين لي أن الاصوات آتية من الضفة الاخرى، ورأيت ولباً يقفز ليحتمي بالعشب. ولا بد من أن شيئاً أخافه.

ولم أعرف كيف بلغت زورقي ورحت اجذف كمجنون الى الضفة المقابلة. وربطت القارب بشجرة وتسلقت الضفة العالية وأنا أسير نحو مصدر الصوت. وكانت الاعشاب تلفني حتى العنق. وشققت طريقي محاولا الركض، لكني عجزت عن ذلك. وعدت أسير بطيئاً الى أن شاهدت قبعة سوداء طويلة فوق العشب. وأطلقت نداء حاداً، فجاءني جواب لا يقل حدة.

واذا بي أمام رجل يركب بغلا. كان ابيض يرتدي ملابس سوداء وقد ارتفعت قبعته فوق شعر أبيض وكست وجهه لحية بيضاء. ولما رآني فغر فاه.

وبادرته: "نهارك سعيد".

فأجاب: "من أين جئت؟ ما الذي أوصلك الى هنا؟"



قال لي: "من اين جئت؟ ما الذي اوصلك الى هنا؟"

وأخبرته كيف انقلب قاربي وكيف بلغت ذلك المكان قبل نحو سبعة أسابيع، وعرفني على نفسه، واسمه لوك ماكول، وتصافحنا.

وكان يرافقه ثلاثة رجال سود هم روبرت ورافاييل وكريستوفر، من عشيرة بالومبا التي تقطن على بعد ٤٢٥ كيلومتراً الى الشمال الغربي، وروبرت هو رئيس مجلس العشيرة، أما لوك ماكول فيدير قطيعها، وقد انتقلت العشيرة من ضفاف فيتزموريس الى بورت كيتس عام ١٩٣٩، وأخبروني أن أحداً لم يطأ تلك البقاع طوال السنوات السبع الفائتة.

وجذفت عائداً الى المخيم حاملا البشرى الى باونسر وسيندي وأنا أربتهما وأقول: "اننا عائدون الى البيت! ما رأيكما في ذلك؟" لكن المغفلين اكتفيا بهز ذنبيهما.

ولما رجعت الى الضفة الاخرى كان لوك وصحبه أقاموا مخيماً وأضرموا النار، ودعاني لوك الى الجلوس قرب النار وتناول فنجان من الشاي.

وسكبت الشاي من غلاية كبيرة في كوب معدني، واذ رفعت الكوب لأشرب، لاحظت أن لوك ينظر الي شزراً، فقلت لنفسي: "ترى أي خطأ اقترفت؟ اني لم أضع الملعقة المبللة في وعاء السكر، فما الخطأ؟" ثم تبين لي أن لوك ـ وهو رجل يتقن أعماله وتهمه التفاصيل الدقيقة ـ وضع الاكواب المعدنية في خط مستقيم، واني بدلت مكان أحدها قليلا وأنا أتناول كوبي، فأعدت الكوب الى مكانه والملعقة فوقه.

وابتسم لوك، وابتسمت أنا وقد سرني أني عدت الى مجتمع الناس.

وأمضينا ستة أيام على ظهور الجياد، نقطع الفيافي الوعرة والاجراف العالية تحت حر الشمس، إلا أن الرجال الثلاثة السود كانوا يعرفون المنطقة ومنابع الماء فيها. وانتابني الضعف والدوار والغثيان، ربما لأني عدت الى تناول الدقيق والسكر والملح بعد انقطاع. وارتأوا أن يتركوني في عهدة أحدهم ثم يرسلون طائرة مروحية في اثرنا. إلا أني شددت عزيمتي وبقيت معهم حتى بلغنا بالومبا.

وسرني أن أكون هناك وأكتشف من جديد الكهرباء والماء الساخن والنوم في سرير. لكني كنت متلهفاً للعودة الى كونونورا، وهكذا عرجت طائرة من داروين على مطار البلدة لتحملني. وحين أزمعت الطائرة على الهبوط فوق كونونورا، رحت أنظر الى التلال الحمر ومياه السد الخضراء. ونبض قلبي بالدفء والحب. إلا أن أحداً لم يكن ينتظرني على أرض المطار، إذ لم يعلم أحد بعودتي. ولم آبه للمسافة التي قطعتها من ذلك المطار الصغير الى المدينة، وان تكن طويلة. فهي المسافة الأخيرة التي تفصلني عن البيت. وحملت كيس النوم فوق كتفي.

ولما رأتني صديقتي قالت: "كنت أعرف أنك عائد في مثل هذا الوقت. كيف كانت رحلتك؟ أين ذهبت؟".

وتذكرت اغنية لأحد مطربي البادية، وهي شائعة في الشمال: "لقد تجولت قليلا... قال الرجل القادم من همبتي دو".

■ راشيل بيرسي
نقلا عن رود آنسل

سائح في الاسكا

كنت اسيح في الاسكا عندما ضيعت طريقي. وأوقفت مواطناً سألته أن يرشدني. وبعدما أنهى شرحه، قلت: "هذا المنعطف الذي تتكلم عنه، هل هو على بعد نصف كيلومتر تقريباً؟" فأجاب: "في الاسكا، ليس لدينا أنصاف كيلومترات".

ر.س.

ايطالية بالانكليزية

ذهبت امرأة انكليزية في العقد التاسع من عمرها الى ايطاليا حيث تقيم ابنتها المتزوجة. وظنا منها أنها ربما أمضت بقية أيامها هناك، التحقت بمدرسة لتعلم اللغة الايطالية. لكنها قررت ألا تبدأ التكلم بلغتها الجديدة قبل اتقانها.

وبعد سنة، اكتسبت ثقة بالنفس جعلتها تفتح حديثاً مع البستاني حول طريقة الاعتناء بالحديقة، لكنه ما لبث أن قاطعها بتهذيب قائلا: "سيدتي! لقد تعلمت قليلا من الانكليزية إبان الحرب. غير أني نسيت كل شيء الآن، ويؤسفني الا افهم انكليزيتك".

م.هـ.

كتاب الشهر

معركة ستالينغراد

ملخص من كتاب
بقلم وليم كريغ

معركة ستالينغراد

العام ١٩٤٢.

من مقره في جبال الالب البافارية كان ادولف هتلر يسرح النظر في قارة اوروبية باتت تخضع له. ومن المحيط الاطلسي حتى طرف آسيا، ومن شطآن النروج الى رمال ليبيا، باتت الجيوش النازية تحكم أكثر من ٣٠٠ مليون نسمة.

ولكن على بعد ٢٠٩٠ كيلومتراً، فوق سهوب روسيا المغبرة، ظهرت ثغرة أصبحت نقطة تحول حاسمة في مسيرة الحرب العالمية الثانية. وكانت معركة ستالينغراد أعظم معركة دموية سجلها التاريخ.

"خط القيصرة" هو قطعة أرض سبخة طويلة تمتد عبر مدينة ستالينغراد الروسية. هذه الارض التي كانت في الماضي حوض نهر عمقه نحو ٦١ متراً، تنحدر الى نهر الفولغا الذي تقوم ستالينغراد على ضفته الغربية المتعرجة كالأفعى.

الساحة الحمراء، وهي محور المدينة، ليست بعيدة. أما الممر نفسه فهو مكان مهجور يملأه القش والاشجار الخفيفة والمهملات. وكان الجيش، قبل سنوات، أقام حصناً تحت ذلك المكان. ويقول بعضهم انه بني بايعاز شخصي من جوزف ستالين زعيم الاتحاد السوفييتي آنذاك. وقد حُفر ذلك المخبأ عميقاً في ناحية الصدع الشمالية وجُعلت له أبواب حصينة. وكان داخله مترفاً حسب المقاييس العسكرية الروسية. فجدرانه مكسوة برقائق السنديان وفيه مرحاض عصري. وهو مركز ممتاز لقيادة عسكرية. إلا أنه هجر في ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٢.

وكانت ستالينغراد، منذ أواخر اغسطس (آب)، عرضة لقصف جوي ومدفعي ثقيل من الالمان أحال جزءاً كبيراً منها خرائب. وكانت فرقتان المانيتان طوقتا المدينة قبل اسبوع على نحو نصف دائري وباشرتا اجتياح الضواحي. وقصفت المدافع الالمانية خط القيصرة من غير شفقة، وتصاعدت ألسنة اللهب من مستودع للوقود وكادت النار ان تخترق جدران الحصن.

وكان نيكيتا خروتشيف، الذي حكم الاتحاد السوفييتي لاحقاً، مبعوث ستالين السياسي الى المجلس العسكري هناك. واقنعه القادة العسكريون بأنه خير لهم أن يغادروا ذلك المكان ويتخذوا لنفسهم مركزاً على الجانب الآخر من الفولغا، فخابر ستالين محاولا اقناعه. لكن الزعيم قال باهتياج: "هذا مستحيل! واذا وجد الجند أن قائدهم نقل مقره خارج ستالينغراد، فالمدينة ساقطة لا محالة." وكرر خروتشيف حججه حتى اقتنع ستالين وقال: "حسناً، ليكن ما تريدون إذا كنتم متأكدين من صمود المدينة."

غير أن الصمود لم يكن بالأمر اليقين. وقبل أن يغادر خروتشيف السرداب، استدعى الجنرال غوليكوف وطلب اليه أن يبقى هناك ليكون حلقة وصل مع الجيش الثاني والستين، وهو القوة الوحيدة التي بقيت لتصد الالمان عن ستالينغراد.

وغاب اللون من وجه غوليكوف، ورجا خروتشيف قائلا: "لا تتركني وحيداً! دعني أذهب معك. لقد قضي على ستالينغراد."



ياكوف غولدبرغ قائد مجموعة هجومية سوفييتية.

بعد ثلاثة أيام، أي في ١٢ سبتمبر (أيلول)، طار الجنرال فردريك باولوس قائد الجيش الالماني السادس الذي ضرب الحصار على ستالينغراد، الى بلدة فينيتسا الاوكرانية حيث اتخذ ادولف هتلر مقراً لقيادته في غرفة أقيمت من ألواح الخشب. وأمضى الجنرال ساعات مع الفوهرر يبحثان في أوضاع الجبهة. وقال لزعيمه إن المدينة يجب أن تسقط في أيام قلائل.

كان باولوس في الحادية والخمسين، طويلا وعلى شيء من الوسامة. وهو مثال القائد الالماني في أناقته تحت كل الظروف. وكان يرتدي قفازيه حتى في أرض المعركة لأنه لا يطيق الغبار. واقتصر اهتمامه المهني على الشؤون العسكرية. لذلك

ترك السياسة جانباً، وكان على قناعة بأن هتلر زعيم سياسي فذ وأن اجتياحه معظم اوروبا دليل على عبقريته العسكرية.

إلا أن زوجة باولوس التي دعاها أصدقاؤها "كوكا" لم تشاركه في آرائه. وهي كانت سليلة الملكية الرومانية وكارهة للنظام النازي. وفي خريف ١٩٤٠، عندما حمل زوجها الى المنزل خرائط متعلقة بغزو روسيا، احتجت كوكا على ذلك قائلة ان الحرب ضد الاتحاد السوفييتي غير مبررة اطلاقاً. وأضافت: "ما الذي سيحل بنا جميعاً، نحن الذين نبقى بعد هذه الحرب؟"

وفي محاولته تهدئتها، قال باولوس ان الحرب ضد روسيا ستنتهي في ستة أسابيع. لكن ذلك لم يسكن روعها. وتحققت مخاوفها في شتاء ١٩٤١ الرهيب، عندما لقي عدد كبير من الالمان مصرعهم بفعل الطقس والمقاومة الروسية العنيفة. غير أن الالمان عادوا الى الصعود عسكرياً حين بدأ الجيش السادس، بقيادة باولوس، حملته الجديدة ربيع ١٩٤٢، واحتل سريعاً بضعة آلاف من الكيلومترات المربعة في اوكرانيا. وفي أواخر يونيو (حزيران)، راح يشق طريقه وسط السهوب في اتجاه ستالينغراد.

وانضمت عناصر كثيرة من الجيش الروسي الى الهاربين من المدينة الذين روعتهم ضربات القوة النازية الماحقة. وكان هذا، بالنسبة الى باولوس، دليلا آخر على أن هتلر لا يقهر وأن الحق بجانبه.

في تلك الامسية تناول باولوس العشاء مع الجنرال فرانز هالدر، رئيس أركان الفوهرر، الذي وضع نظارتين وعلا شفتيه شاربان مشذبان. وكان الاثنان صديقين قديمين، وراحا يتكلمان عن حملة الصيف الناجحة.

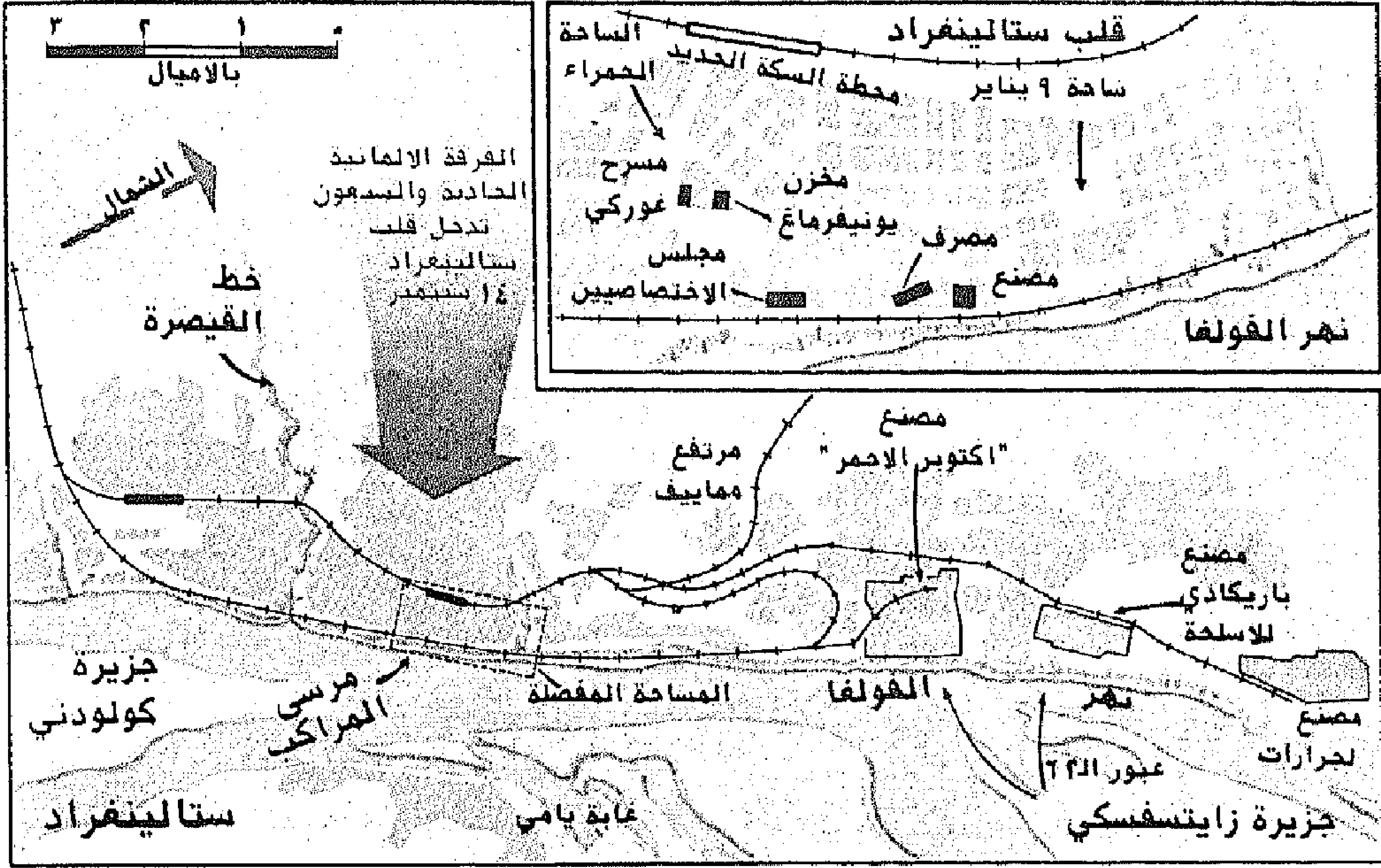
لكن هالدر، على نقيض باولوس، كان حذراً تجاه الرأي القائل بأن هتلر لا يقهر. وهو ما انفك، في الاسابيع الأخيرة، يلفت الفوهرر الى أن علامات الانهيار الروسي إن هي سوى وهم. ذلك أن موسكو ما زالت صامدة ولينينغراد تدافع ببسالة منقطعة النظير وجيش العدو لم يهزم بعد. يضاف الى هذا ان حملة الشتاء الماضي ارهقت المانيا، إذ دفن نحو ٨٠٠ ألف رجل، أي ما يعادل ٨٠ فرقة عسكرية، تحت التراب الروسي المغطى بالثلوج. والاغلبية الساحقة من الفرق الالمانية فقدت نصف قوتها.

وكان هالدر، قبل أشهر، دوّن في مفكرته الآتي: "النزعة الى الاستخفاف بامكانات العدو بلغت حداً غير معقول يغدو معه العمل الجدي مستحيلا."

لكن نصيحة هالدر أغاظت هتلر الذي بقي متغطرساً ومتمسكاً بإيمانه أن الرقاب الروسية أينعت وحان قطافها، وأن صفوة الالوية الالمانية لم تُقهر قط في المعارك.

إلا أنه في ستالينغراد، كما قال ونستون تشرشل لاحقاً، "دار مصراع القدر دورته." والحق أن مأساة بشرية ذات أبعاد ضخمة كانت تحاك خيوطها على ضفاف الفولغا.

لم تكن خطة هتلر الرئيسية تقضي



باجتياح ستالينغراد. وهو أمر قواته، التي تضم الجيش السادس بقيادة باولوس وثلاثة جيوش اخرى، بالزحف شرقاً عبر السهوب المغبرة الى حدود الفولغا، ثم الانعطاف جنوباً الى حقول النفط في القوقاز. إلا أنه عدل تلك الخطة في يوليو (تموز) بعدما استنتج مخبروه أن الروس فقدوا معظم الفرق القوية على ضفة الفولغا الغربية. وظناً منه أن الجيش الاحمر لن يستطيع الدفاع، أصدر هتلر أمره الى الجيش السادس باجتياح ستالينغراد.

الأرض المخضبة

وبلغت ثقته بمعلوماته وآرائه حداً جعله يوجه الجيوش الاخرى، في زوايا قائمة، الى القوقاز، فيما الجيش السادس يشق طريقه منفرداً في عمق الاتحاد السوفييتي. وحين عرض هالدر عليه تقريراً للاستخبارات الالمانية يقدر أن هناك أكثر من مليون جندي احتياطي شرق الفولغا لم يتم استدعاؤهم، سخر الفوهرر منه وسير عدداً من جنده في روسيا الى فرنسا وآخرين الى لينينغراد شمالا.

وعلى رغم تلك العوائق اندفع باولوس نحو الشرق ظافراً. وفي ٢٣ اغسطس (آب) احتل جيشه قطعة صغيرة على ضفة الفولغا شمال ستالينغراد.

وفي اليوم نفسه شن الالمان هجومهم الجوي الأول على المدينة. وانهالت القنابل فوق الاحياء السكنية المكتظة وسط ستالينغراد. وبفعل الجفاف الطويل الامد اندلعت النيران بسرعة وغمرت المدينة في ثوان.

وتقوضت معظم الابنية حول الساحة الحمراء. وانفجر خزان الماء بقذيفة واحدة وسقط مركز الهاتف وتعطلت الخطوط السلكية كلها.



قادة الجيش الروسي الثاني والستين في مقر القيادة. من اليسار: رئيس الاركان الجنرال نيقولاي كريلوف، الآمر فاسيلي تشويكوف، المفوض السياسي غوروف، آمر فرقة الحرس الثالثة عشرة الجنرال روديمتسيف.

وفي ذروة القصف عمد قادة المدينة الى تسيير الامور من مراكز طوارىء اقيمت في شبكة من السراديب. لكن المدينة نفسها استحالت خرائب خضبت بدماء القتلى. وفي مفكرته ذلك المساء، أجمل قائد الطيران فولفرام فراير فون ريشتهوفن عمليات النهار بالآتي: "لقد كسحنا الروس."

وهذا كان صحيحاً. فمن نصف مليون نسمة يسكنون المدينة قتل نحو أربعين ألفاً في هجوم ٢٣ - ٢٤ اغسطس (آب).

وكان نهر الفولغا خالياً من الجسور. وفي اليوم التالي ملأ المدنيون رصيف الميناء الرئيسي، أملا في الوصول الى الضفة الاخرى. لكن القنابل عادت تسقط من جديد، ولم تكن هناك مخابىء يلوذون بها. وراحت الحشود تنبطح على الرصيف كلما هبطت الطائرات وألقت حمم غضبها. وبات الشاطىء زَلِقاً من دماء الضحايا.

وكانت في النهر مراكب لم توفرها الطائرات. وما هو إلا قليل حتى غدا سطح النهر أحمر قانياً وعامت فوقه جثث حملها التيار على مهل كأنها على موعد مع بحر قزوين.

في الثاني من سبتمبر (أيلول) انضمت قوات باولوس في الشمال الى الجيش المدرع الرابع في الجنوب بحيث طوق الجيشان المدينة على هيئة نصف دائرة. ولم يبقَ أمام الروس، عسكريين ومدنيين، سوى النهر ومينائه طريقاً للامدادات. غير أن الناجين من الجيش الروسي الثاني والستين انتشروا بغير نظام في المدينة باحثين عن مخابىء. وفقد آمر الجيش، الكسندر لوباتين، ثقته بقدرته على انقاذ المدينة. ولما أسر بهواجسه الى قائده الجنرال اندري يرمنكو، نحي عن مركزه.

في تلك الاثناء كان خط القيصرة هجر وأقيم مقر قيادة جديد على ضفة الفولغا المقابلة، في غابة يامي. هناك عقد يرمنكو وخروتشيف اجتماعاً عاجلا لاختيار ضابط يخلف لوباتين. ووقع اختيارهما على الجنرال فاسيلي ايفانوفيتش تشويكوف، وهو رجل بدين تعلو وجهه آثار جروح ملتئمة ويغطي رأسه شعر أشعث. وكان قوي الارادة ولا يطيق اولئك الذين يجبنون بسهولة. وقد عقد لقاءه الأول مع يرمنكو في العاشرة من صباح ١٢ سبتمبر (أيلول)، اليوم نفسه الذي طار باولوس الى اوكرانيا للاجتماع بالفوهرر.

وبادر يرمنكو الآمر الجديد: "ان وضع الجيش دقيق ومضطرب."

وهز تشويكوف رأسه قائلا: "لن أخذلك."

وعبر النهر الى ستالينغراد، ومن هناك توجه الى خط القيصرة للاجتماع بمعاونيه. ولما وجد الحصن خالياً راح يسأل الجنود في الشوارع عن المركز الجديد. وأخبره أحدهم أن القيادة انتقلت الى تلة ممايبف. وهي حصن صخري يرتفع ١٠٣ أمتار، وقد حولت متنزهاً بعدما كانت مقبرة للتتار.

وقاد تشويكوف سيارته نحو التلة عبر الحطام وهو لا يصدق ما يراه من ضعف الامكانات الدفاعية. وأدرك أن في وسع الالمان اجتياح التلة في دقائق والسيطرة على المدينة كلها من هناك. كما لاحظ امراً آخر، وهو سقوط أوراق الاشجار كلها بفعل القصف، على رغم أن الفصل كان صيفاً.

اندفاع نحو النهر

صباح الرابع عشر من سبتمبر (ايلول) اقتحم اللواء الالماني الحادي والسبعون قلب مدينة ستالينغراد على جبهة عرضها ٣٢٠٠ متر. وكان الكابتن غيرهارد مونك (٢٨ سنة) يقود الفرقة الثالثة، أي كتيبة المشاة المئة والرابعة والتسعين، وهي تحاول احتلال بعض أبنية المدينة والسيطرة على ضفة النهر. واحتلال الالمان للميناء يعني تطويق ستالينغراد من جميع الجهات.

وقدر مونك أن حظه كبير في بلوغ الفولغا قبل الظلام. وقبل ذلك الوقت كان رجاله عانوا حرارة شمس السهوب وبعض هجمات من مؤخر الجيش الروسي. ولكن ما أن دخلوا شوارع المدينة المحتقنة حتى ارتفع عدد الضحايا في صفوفهم. ولم يعد مجدياً شن هجوم كاسح مفاجىء. ذلك أن القناصين فتحوا النار من نوافذ الطبقات الثالثة والرابعة، فأصبحت

أعمدة المباني مخرمة كالغرابيل، وانهمرت القذائف على أفراد الكتيبة الالمانية من مدافع خفيفة مستورة. ولكن في الثانية بعد الظهر تمكنت الفرقة الالمانية الثالثة من محاذاة محطة القطار الرئيسية بالقرب من الساحة الحمراء. وتلقى مونك أمراً باحتلال الميناء على نهر الفولغا.

وبقي مونك محافظاً على ثقته بنفسه على رغم الخسائر الكبيرة. وكان رجاله قبضوا على عدد من السعاة الروس الذين كانوا يركضون في الشوارع ومعهم رسائل مكتوبة بخط اليد. وظنا منه أن الاتصالات الهاتفية قطعت لدى الجيش السوفييتي الثاني والستين، قدر مونك ان في وسع كتيبته المستنزفة قطع الكيلومتر الأخير نحو الهدف.

في ذلك الوقت كان الجنرال تشويكوف يعاني وضعاً نفسياً أليماً. فبعد عودته الى خط القيصرة أخبر أن فرقة الحرس الثالثة عشرة ستعبر الفولغا لنجدته وان عليه السيطرة على الميناء كي تتمكن الفرقة من العبور.

واقتناعاً منه بأنه لن يقوى على صد النار الالمانية، لجأ تشويكوف الى اقامة سلسلة من التحصينات الصغيرة عند تقاطع الطرق. وتولى تلك التحصينات ١٥٠٠ متطوع من الشرطة السرية نظموا أنفسهم في فرق من عشرة أشخاص أو عشرين شخصاً. وكانت مهمة تلك الفرق تشكيل جدار لوقاية المرفأ، بحيث يمكن أفرادها الانقضاض على الالمان الزاحفين نحو الضفة. وهذا يرد عنهم خطر الطائرات المغيرة، إذ ان الالمان سيخشون عندئذ اصابة كتيبة المشاة التابعة لهم.

وهكذا وقف المتطوعون الروس على اهبة الاستعداد للتحرك في اتجاه الميناء، وهم على بعد كيلومتر الى الشمال الشرقي من مقر تشويكوف. وتشكلوا على هيئة قوس تطوق الضفة وهم في انتظار آمرهم الكولونيل بتراكوف الذي ذهب في مهمة استكشافية قصيرة. فهو أراد تعيين النقطة التي كان الالمان يحاولون الانقضاض منها، ومشى مع اثنين من معاونيه حتى ساحة ٩ يناير (كانون الثاني). وعلى رغم سماعهم قصفاً بعيداً، إلا أنهم لم يروا أي جندي الماني. وكانت الساحة خالية. ووقف بتراكوف قرب سيارة مهجورة لفحص الوضع.

وفجأة انطلقت قذائف الرشاشات عبر نوافذ السيارة، مجبرة بتراكوف على الانبطاح أرضاً. ثم انهالت القذائف المدفعية على الساحة وفقد بتراكوف الوعي. وأنقذه معاوناه، ولم يصحُ إلا وهو في خندق على حافة الفولغا. وكان الالمان هرعوا الى النهر واحتلوا عدداً من المباني على الشاطىء. ومن مراكزهم في بناية المهندسين السكنية والمصرف الحكومي المؤلف من خمس طبقات ومصنع الجعة، راح الالمان يصيحون: "الروس سيغرقون في الفولغا."

وشاهد بتراكوف فتى روسياً يسير في الخندق. وأوقفه وسأله عن اسمه، فقال: "كوليا". وأخبره أن العدو أرسله لتقدير القوة الروسية. فابتسم الكولونيل وطلب الى الصبي أن يخبره عن الالمان. وكان كوليا يعرف جيداً هوية العدو، فأخبر بتراكوف أن الكابتن غيندرلينغ يحاول دعم كتيبة

المشاة التي يقودها غيرهارد مونك عند الميسرة، ويريد السيطرة كلياً على الميناء قبل الظلام.

وعند الغسق أرسل غيندرلينغ عناصره من مصنع الجعة الى رصيف الميناء الذي يبعد ٧٠٠ متر. وشكل رجال بتراكوف الستون خط مصادمة حول الالمان، وراحوا يحاربونهم بضراوة على رغم النقص الكبير في ذخيرتهم. وفجأة برز زورق بخاري عند الضفة وأنزل صناديق من الذخيرة والقنابل. وارتفعت معنويات بتراكوف ورجاله بعد وصول الامدادات. وكان الكولونيل عثر على بندقية من عيار ٧٦ مليمتراً في شارع جانبي ووقف يدرس أجزاءها. وأمر رجاله بأن يهجموا لدى سماعهم الطلقة الخامسة من البندقية الجديدة.

وصوب بتراكوف بندقيته نحو مبنى المصرف وحشاها بتؤدة قبل أن يطلق النار. ولما وضع الطلقة الثانية سمع زورقاً بخارياً يقف في محاذاته وهو يحمل عناصر جديدة من فرقة الحرس الثالثة عشرة. لكن الالمان شاهدوا الزورق أيضاً ، وأحاطوه سريعاً بالقنابل.

وقفز آمر الفصيلة الجديدة الكولونيل بيلين الى الماء وركض نحو الخندق. وأدرك الروس أن الوضع ما زال محفوفاً بالاخطار، من غير أن يعرفوا أن الالمان على حافة الانهيار.

وبالقرب من محطة السكة الحديد وقف الكابتن مونك يحصي عناصره. ووجد أن معظمهم قضوا في يوم واحد في ستالينغراد. فهناك نحو مئتين من رجاله تمددوا ، بين قتلى وجرحى، في الشوارع المؤدية الى الساحة الحمراء. وقدر مونك أن محطة القطار هي الاخرى مكان خطير لرجاله، إذ انها ملأى بالحافلات التي يمكن أن يختبىء فيها القناصة الروس ويقضوا على قوته المتضائلة.

وهكذا ارتأى ألا يدخل المحطة، وطلب نجدة جوية غير أن الطائرات اخطأت اهدافها وألقت قنابلها على رجال مونك. ومع حلول الظلام جمع الكابتن عناصره الباقية في بناء المجلس الحكومي غير الناجز. ومن شرفة ذلك البناء أمكنه أن يرى الفولغا للمرة الاولى. وأحصى رجاله من جديد، فوجد أن لديه أقل من خمسين عنصراً لاحتلال الضفة.

مهمة عسيرة

على بعد ٤٥٠ متراً من معسكر مونك الموقت، كان أفراد فرقة الحرس الثالثة عشرة يتلقون التعزيزات على الشاطىء، وقد عبرت عناصر كثيرة من الضفة المقابلة وسط القصف. وفي الظلام تعثر الروس قليلا فوق خرائب اليوم السابق، لكنهم ما لبثوا أن شكلوا خطاً دفاعياً قبل الفجر.

وكانت الفرقة الالمانية الـ٢٩٥ سيطرت على تلة مماييف، واتخذت مقراً لها في برجين للماء محميين. إلا أن القوات الروسية حافظت على بعض مواقع حول التلة حيث راحت تحفر الخنادق. وكان الصوت مخيفاً، وشبهه جندي روسي بإبرتين من فولاذ تخترقان طبلتي اذنيه وتحفران نحو الدماغ.

ومن مقره في سرداب القيصرة حاول تشويكوف تقدير الوضع على

التلة، لكنه عجز عن ذلك بسبب المعلومات المتناقضة. وكانت الحرارة في الداخل لا تطاق. وخرج تشويكوف مراراً الى الهواء الطلق وهو غارق في عرقه. ولم يخشَ نار الرشاشات الالمانية التي كادت أن تصيبه، إذ انه فضل الهواء المنعش في الخطر على الجحيم الخانق ضمن السرداب.

ومن الارض المعشبة على ضفة الفولغا المقابلة كان آمر الفرقة الثالثة عشرة على وشك العبور الى ستالينغراد. والجنرال الكسندر روديمتسيف (٣٦ سنة) لم يكن غريباً عن ساحات القتال. ففي العام ١٩٣٦ ذهب الى اسبانيا تحت اسم "بافليتو غيشوس" وحارب قوات فرنكو مع الملكيين. ولما وقف على الضفة المقابلة هاماً بالعبور لم يصدق ما رآه. فالقصف المدفعي على ستالينغراد صبيحة الخامس عشر من سبتمبر (أيلول) طغى على نور الشمس. والقوارب التي حملت رجاله الى المدينة مزقها القصف. وفيما وقف روديمتسيف ينظر الى ذلك المشهد، تصاعد الدخان حول أحد المراكب، ثم انفجر هذا وغار في الماء بركابه الخمسة والستين جميعاً.

وركب روديمتسيف ومعاونوه قاربهم وأنزلوا رؤوسهم تحت حافته العليا اتقاء للشظايا. وتمكن الزورق من بلوغ الضفة الاخرى. ونزل روديمتسيف وركض نحو نصف كيلومتر شمالا الى مقره، وهو حجرة خفيضة رديئة التمويه جُعل لها سقف من ألواح الخشب الثقيلة.

وشاء الجنرال أن يعلم تشويكوف سريعاً بوصوله. فهرع نحو رصيف الميناء، ومن هناك اتجه غرباً وسار مسافة كيلومتر الى سرداب خط القيصرة، يرافقه خمسة من معاونيه. وفي تلك الرحلة القصيرة قتل ثلاثة من رجاله.

ولما رآه تشويكوف وقد غطاه الغبار، طوقه وسأله ان يوجز له الموقف. وقال روديمتسيف ان معظم عناصره عبروا النهر، ولكن ينقصهم نحو ألفي بندقية. وبعدما وعده تشويكوف بتلبية حاجته سريعاً، سأله عن انطباعه حيال تلك المهمة العسيرة، فأجاب روديمتسيف: "لا نيّة لدي بمغادرة المدينة."

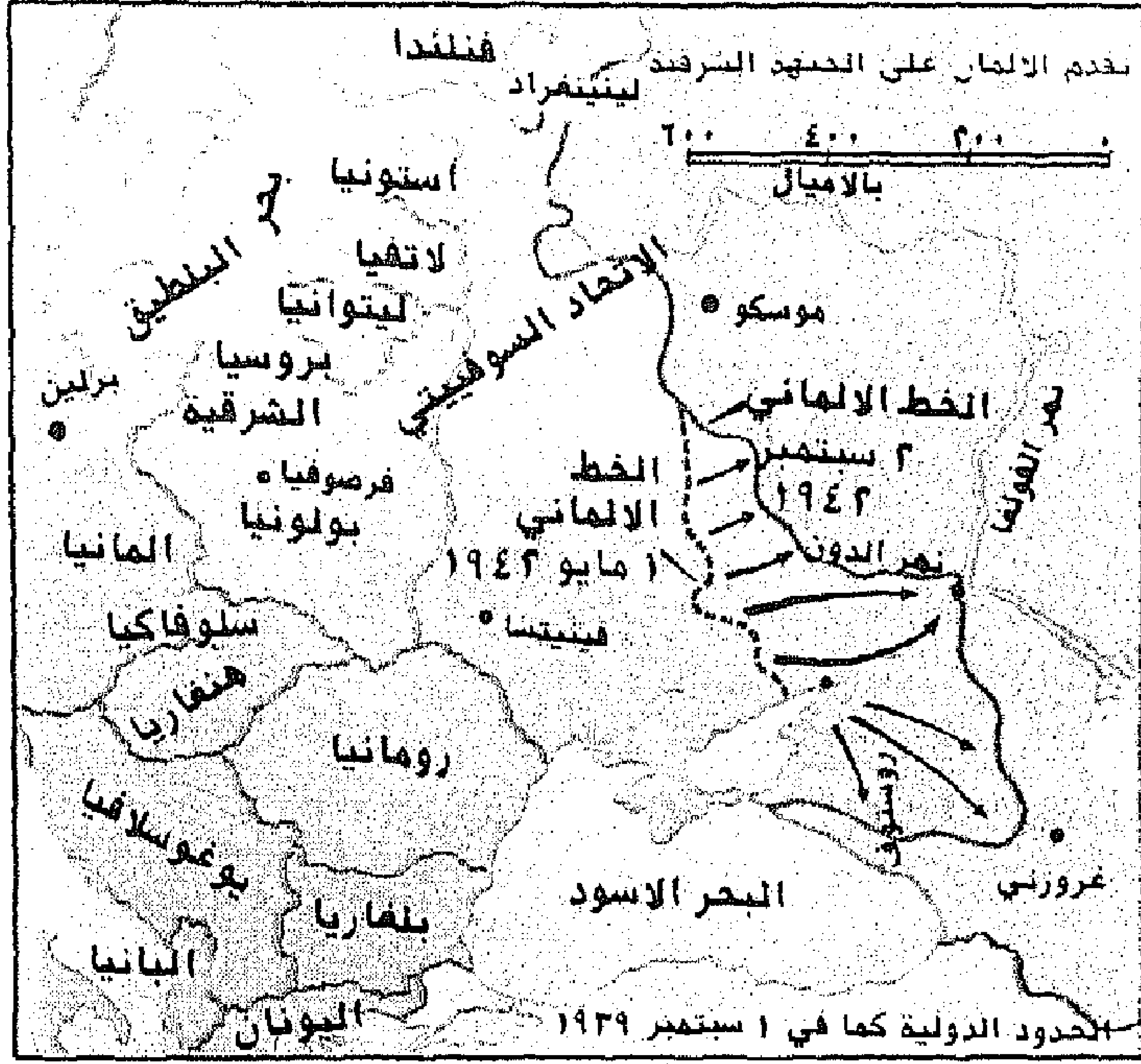
مهمة الدم

في ١٧ سبتمبر (أيلول) دخل رجال الصحافة الألمان مقر الجيش السادس في غولوبينكا، على بعد ٦٥ كيلومتراً غرب ستالينغراد، وألحوا على الجنرال باولوس كي يسمح لهم بإرسال خبر الى صحفهم مؤداه أن المدينة سقطت.

وقابلهم باولوس بابتسامة مرحة. وقال وهو يتفادى الرد على طلبهم: "في أي لحظة الآن، في أي لحظة."

إلا أن الجنرال راح يستمع داخل غرفته الى الموسيقى ويدخن السجائر واحدة بعد اخرى ويحاول تهدئة معدته التي فتك بها داء الديزنطاريا. والحق أنه فقد أمله في النصر السريع.

ومن خط القيصرة حتى سفح تلة مماييف، كان الألمان تحت رحمة القوة الروسية المتجددة. وعلى رغم أن فرقة الحرس الثالثة عشرة فقدت نحو ستة آلاف من عناصرها، إلا أنها أكسبت الروس أياماً ثمينة جداً.



وتدفقت تعزيزات اخرى من الاورال. ومن سيبيريا نفسها وصلت وحدة بقيادة الكولونيل نيقولاي باتيوك، وكان معظم رجالها شرقيين من جوار منغوليا وأعمارهم تراوح بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وهم لم يروا ألمانياً من قبل. وقد قطعوا نحو ١١٢٥ كيلومتراً الى الغرب وهم يمصون نبتة السوس. وباشروا قطع النهر صباح الثاني والعشرين من سبتمبر (أيلول) الغارق في الضباب.

وعبر السارجنت الكسي بتروف النهر وعُهدت اليه قيادة القطاع الشمالي قرب لاتشنكا. وطوال عشرة أيام أعطي دروساً سريعة في استخدام المدفع من عيار ١٢٢ مليمتراً. ولكن مع ضيق الوقت وعدم قابليته للتعلم سريعاً، طلب اليه مدربه الساخط أن يعلم نفسه.

وكانت معمعة الدم التي خاضها بتروف قاسية جداً. وقضى نحو نصف رجاله وهم يعبرون النهر. وبعد بلوغهم الشاطىء، سير بتروف ثلاثة كشافة لتقدير قوة العدو، فعاد اثنان منهم. ورفع بتروف منظاره لكشف مصير الفتى الثالث. ووجده ممدداً على الارض وقد زرع الالمان في بطنه حربة بندقية.

وانطلق بتروف وفرقته وهم يصرخون باهتياج. واقتحموا البيوت وكانوا يقتلون كل شخص يصادفونه. وعندما كان الالمان يرفعون الايدي استسلاماً، كان بتروف يطلق نار رشاشه عليهم جميعاً.

ومن رواق أحد المنازل سمع بتروف جندياً المانياً في الطبقة السفلية يتضرع قائلا: "يا ألله، دعني أعيش بعد هذه الحرب." لكن بتروف اسرع

الى مصدر الصوت ورفس باب الغرفة وأطلق النار على الرجل، ثم انطلق كالمسعور بين أقبية المنازل يصرع كل من يراه.

مفتاح المدينة

تابعت فرقة المشاة الالمانية تقدمها البطيء نحو الميناء. وواجهت جيوباً عدة للمقاومة، لكنها مسحتها كلها من طريقها وإن تكن دفعت الثمن غالياً. وفي الساحة الحمراء، قلب المدينة، تناثرت الجثث فوق العشب والارصفة.

وكان مخزن "يونيفرماغ" الكبير مهجوراً وقد تحطمت نوافذه وتناثرت الشخوص التي تعلق عليها الملابس بعدما اخترقها الرصاص. وفي الداخل تشابك الروس والألمان حتى الموت، واستحال المخزن مستودعاً للجثث.

وخلت أبنية مجلس السوفييت المحلي ونادي الجيش الأحمر ومسرح غوركي، وحطم الرصاص زجاجها وثقب جدرانها. أما المحلات القائمة على جوانب الطرق فقد حطمها الرصاص شر تحطيم، وسالت عصارة البندورة (الطماطم) العفنة والبطيخ الأحمر مختلطة بالدماء وبأشلاء الضحايا.

وفي مكان كان يؤوي مطعماً فخماً شرق الفتحة المؤدية الى خط القيصرة، بذل الاطباء والممرضات جهدهم لتفريغ الشاحنات من الجرحى الذين بلغ عددهم نحو ٦٠٠ جندي، بعدما تجاوز عدد ضحايا اليوم السابق السبعمئة.

وواصل الالمان زحفهم نحو الميناء. وظلت رشاشاتهم تقصف الحشود على الشاطىء، فيما الجنود الروس في خط دفاعي ريثما يتم نقل الجرحى الى المراكب. وتابع الالمان تقدمهم حتى سيطروا على الميناء. وباستثناء بعض جيوب للمقاومة، احتل الجيش الالماني السادس بضعة كيلومترات من شاطىء الفولغا شمال خط القيصرة وجنوبه. وبقي عليه احتلال منطقة المصانع شمال ستالينغراد.

إلا أن هذه الاخبار الطيبة لم تحرك ساكناً لدى ادولف هتلر الذي جلس في غرفته الخشبية في فينيتسا مقطباً يرفض الكلام. وكان قبل اسبوعين احتدم نقاش بينه وبين الجنرال البرت جودل حول سير المعركة. ومنذ ذلك الوقت رفض الفوهرر الاختلاط بمعاونيه. وفي ٢٤ سبتمبر (أيلول) استدعى فرانز هالدر وصرفه من الخدمة، بعدما أغاظه عصيان رجاله وعدم تسجيل تقدم على جبهتي القوقاز والفولغا. وذهب هالدر الى مقره وحزم أمتعته. ولكن قبل أن يغادر كتب رسالة الى صديقه وتلميذه فردريك باولوس يقول فيها أنه "استقال" ويشكره على "الولاء والصداقة" اللذين أظهرهما نحوه.

وتسلم باولوس رسالة هالدر فيما كان رجاله يعلقون الصليب المعقوف، شارة الحزب النازي والرايش الثالث، فوق مدخل محل "يونيفرماغ" الذي ثقبه الرصاص.

لكن باولوس لم يكن شديد الابتهاج، ولم يشأ اقامة احتفال خاص للمناسبة. ذلك أن العبور من الدون الى الفولغا كلفه نحو ثمانية آلاف قتيل و ٣١ ألف جريح من الالمان.

وهذا يعني أنه فقد عشرة في المئة من الجيش السادس. كما انه كان يدرك جيداً أن المعركة الحاسمة خلف الابواب. فالى الشمال من الميناء، أي شمال تلة ممايف المحاطة برجال المقاومة الروس، يقوم مفتاح المدينة، ألا وهو المصانع. هناك كان الجيش السادس يواجه التحدي الأخير وهو يعاني نقصاً في العدة والعدد.

وعاد باولوس الى مقره المنعزل في غولوبينكا على ضفة الدون الغربية العليا حيث راح يستمع الى الموسيقى ويحاول تهدئة نوبات الديزنطاريا. وبلغ تعب أعصابه حداً ظهر معه تقلص لاإرادي في عضلات خده، وهو ما يعرف بالعرَّة.

رحلات ليلية

في الخندق البدائي الذي اتخذه مقراً، راح فاسيلي تشويكوف يعد لهجوم مضاد وهو يتصبب عرقاً. وكان الجنرال تسلم لتوه رسالة من زوجته فالنتينا التي تقيم في كويبيشيف، على بعد ٦٤٥ كيلومتراً شمال شرق ستالينغراد، تقول فيها انها شاهدته في شريط أخباري قصير في السينما وتطمئنه الى حال أولادهما. وبدا من الرسالة أن معنويات زوجة تشويكوف مرتفعة.

إلا أن معلومات الجنرال كانت مغايرة. فقد أخبره معاونه أن ابنته الصغرى تعاني نوبات ديزنطاريا حادة وان العائلة بالكاد تحصل على ما يكفي من غذاء وكساء وحوائج اخرى. وتلك الاخبار المثبطة أضافت الى العبء النفسي الذي يحمله تشويكوف، وهو مهدد يومياً بالموت.

وأتى المرض عليه هو أيضاً، فظهرت حراشف الاكزيما القرمزية على جلده واضطر الى ربط يديه النازتين.

ومن حسن الحظ ان تعزيزات جديدة بدأت تبلغه عبر الجسور التي أقامها بعد خسارة الميناء، وأهمها المعبر ٦٢ وهو سلسلة من المراسي خلف "ساحة اكتوبر" ومصنع أسلحة "باريكادي". هناك أنزل معظم الجنود والعتاد خلف وقاء من الأوتاد الخشبية.

غير أن الجنود الذين كانوا يعبرون النهر ليلا ارتاعوا لرؤية المدينة تحترق والرصاص يلعلع في أرجائها. وكان المنظرون السياسيون معهم دائماً، يعملون بحماسة منقطعة النظير على تهدئة روعهم، فيوزعون عليهم مناشير عنوانها: "كيف تتصرف في حرب المدن،" ثم يتوزعون على الشاطىء منعاً لعودة بعض من تسول لهم نفوسهم الهرب الى الزوارق، وقد وضع كل منهم اصبعه على زناد مسدسه.

ومن موقعهم على تلة ممايف، كان الالمان يبصرون تلك الزوارق ويوجهون نحوها نار مدفعيتهم. لكن المفوضين السياسيين كانوا يقرأون الصحف بصوت مرتفع أو يوزعون الرسائل الواردة تشتيتاً للانتباه. وكان اذا أصيب بعض الجنود ونزل آخرون الى النهر للفرار، أفرغ المفوضون السياسيون رصاص مسدساتهم في أجساد الهاربين.

وعلى هذا النحو تم انزال نحو مئة ألف عنصر جديد على ضفة الفولغا في اكتوبر (تشرين الاول). لكن العديد منهم لقي حتفه سريعاً، ولم يبقَ لدى

تشويكوف إلا ٥٣ ألف جندي يمكنهم حمل السلاح. وفي أقل من شهر خسر الجيش الروسي الثاني والستون أكثر من ٨٠ ألفاً.

مبارزة عند الخط الفاصل

وسط استعداد الجيشين للمكاشفة الاخيرة، اندلعت معركة شخصية حامية عند الخط الفاصل. وكان المتحاربان قناصين متمرسين يعرف أحدهما شهرة الآخر. وهما الالماني الميجور كونينغز والروسي فاسيلي زايتسيف الذي تدرب على صيد الغزلان في جبال الاورال. وقد أغدقت الصحف الروسية على زايتسيف لقب "بطل قومي" بعدما قتل في الأيام العشرة الماضية أربعين ألمانياً. ولما عمت شهرة زايتسيف الآفاق، استدعت قيادة الجيش السادس القناص كونينغ من برلين للقضاء عليه.

وعرف الروس بوجود كونينغز من أسير الماني قال ان القناص يتجول في الصفوف الامامية لاكتشاف طبيعة الأرض. وبما أن زايتسيف كان يجهل خطط غريمه، كان عليه أن يدعه يقوم بالحركة الاولى.

ولم يحصل أي شيء خارق في الايام القليلة اللاحقة، الى أن خر قناصات سوفييتيان، كل بطلقة بندقية واحدة. وزحف زايتسيف الى حافة الخط الفاصل بين تلة مماييف ومصنع "اكتوبر الأحمر" لفحص ساحة المعركة. وبقي طوال بعد الظهر مع صديقه نيقولاي كوليكوف يراقبان الجهة الاخرى بالمنظار بحثاً عن علامة. وهكذا تغافلا عن المعركة الكبيرة التي تدور حولهما وراحا يبحثان عن رجل واحد. ثم أطبق الظلام وليس لدى زايتسيف اشارة واحدة عن مكان وجود كونينغز.

وعاد القناصان السوفييتيان الى خندقهما فجر اليوم التالي يراقبان أرض المعركة، من غير أن يعثرا على أثر لنقطة كونينغز. وفي صبيحة اليوم الثالث جاء مفوض سياسي اسمه دانيلوف الى زايتسيف وكوليكوف. ووقف الثلاثة يجيلون أنظارهم في المسافة علهم يدركون مصدر الرصاص المنهمر فوق رؤوسهم.

وفجأة اطل دانيلوف من الخندق وصاح: "هذا هو! سأدلكم على مكانه حالا." وما كاد ان ينهي كلامه حتى عاجله كونينغز بطلقة في كتفه. وعاد زايتسيف الى الخندق فيما حُمل دانيلوف على نقالة الى المستشفى.

ثم رفع زايتسيف منظاره من جديد، فرأى الى اليسار دبابة معطلة والى اليمين معقلا صغيراً. ولم يكترث للدبابة، علماً منه أن القناص الخبير لا يتخذ من هذا الموقع المعرض مركزاً. ووجد أن فتحة اطلاق النار في المعقل مسدودة.

وظل زايتسيف يدير منظاره، فوجد قطعة حديد وكومة حجار بين الدبابة والمعقل. وحاول قراءة أفكار كونينغز، فقرر أن ذلك الركام في الوسط هو خير مخبأ.

وعلق قفازاً على قضيب ورفعه على مهل، فأتت عليه طلقة سريعة. وأنزل زايتسيف القفاز وقد تأكد ظنه: ان كونينغز مختبىء تحت قطعة الحديد.

ووافقه كوليكوف قائلا: "لا شك في أن الافعى الماكرة هناك."

ووجد الاثنان نقطة تكون فيها شمس العصر خلفهما، بحيث تعمي بصر القناص الالماني. وفي الصباح التالي توجها الى مركزهما الجديد، وأطلق كوليكوف رصاصة في الهواء للفت كونينغز. ثم اختبأ الاثنان في الخندق. ومع العصر أتى عليهما الظل. وركز زايتسيف نظره على مخبأ القناص الالماني.

وفجأة التمعت قطعة زجاج على الحديد الواقي. ورفع كوليكوف خوذته بتؤدة فوق الخندق، فأطلق كونينغز النار عليها. ونهض كوليكوف وهو يصيح كما لو أصيب. ورفع كونينغز رأسه قليلا ليرى ضحيته، فعالجه فاسيلي زايتسيف بطلقة بين عينيه.

خطر من الشمال

طوال شهر اكتوبر (تشرين الاول) حارب الالمان بعناد من المصانع الرئيسية الثلاثة على تلة ممايف محاولين سحق المقاومة الروسية. وفي العشرين من ذلك الشهر تمت لهم السيطرة على مصنع الجرارات الزراعية ومصنع "باريكادي" الضخم للاسلحة. وعند نقطة أبعد الى الجنوب احتلوا الطرف الغربي من مصنع "اكتوبر الاحمر".

حرب الشوارع في ستالينغراد، اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٢.



ودارت المعركة من بناء الى بناء ومن سرداب الى سرداب ومن مخبأ الى مخبأ. وفي ثلاثة أيام فقط خسر تشويكوف ١٣ ألفاً من رجاله، أي ثلث القوة الباقية لديه. وفي ليلة ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) حُمل ٣٥٠٠ جريح الى مراسي الفولغا. وخلال انتظارهم عند المعابر كان النهر يرغي ويزبد بفعل القذائف. ولما وصلت الزوارق أخيراً، لم يبقَ في بعضها أي بحار ليرفع الجرحى.

أما خسائر الالمان فكانت كبيرة هي الاخرى. وفي أيام قليلة خسرت كتائب "الرواد" الباسلة، وعدد أفرادها ٣٠٠٠ رجل، ثلث هذا العدد. واعترف آمر الكتائب الخمس، الكولونيل هيربرت سيلي، بالخسارة في رسالة كتبها الى عائلته جاء فيها: "ان دموعاً كثيرة ستنهمر في المانيا... طوبى لمن ليس مسؤولا عن هذه التضحيات غير المبررة." وكان سيلي يرى أن ستالينغراد لم تعد تستحق الثمن المبذول من أجلها، وان الحرب انحطت الى معركة شخصية بين عناد ستالين وعناد هتلر.

وعلى رغم الانتصارات التي سجلوها، بقي الالمان عاجزين عن اجلاء الروس كلياً عن المدينة. وظلت الجبهة مجمدة أياماً.

ولكن برزت حركة مفاجئة من شمال نهر الدون. ووصل أكثر من ٢٠٠ ألف جندي روسي في قطارات ليلية من جوار موسكو وجبال الاورال، معززين بمدافع ثقيلة ونحو عشرة آلاف حصان جمعت عند نقاط تبعد ١٦٠ كيلومتراً شمال غرب ستالينغراد. وعمل المفوضون السياسيون بلا كلل على بث الحماسة في نفوس المقاتلين. وكان كل من الجنود الجدد يقف أمام علم فرقته ويتسلم سلاحه في احتفال رسمي وسط الاناشيد العسكرية والخطب الداعية الى الدفاع عن تراب الوطن.

ولم تكن تلك الاستعدادات خافية على الالمان. وفي ٢٧ اكتوبر (تشرين الأول) تلقى باولوس تقريراً عن الوضع مبنياً على اعترافات أدلى بها الهاربون الروس حول وصول تعزيزات جديدة ليس الى ضفاف الدون وحدها، بل الى جنوب ستالينغراد أيضاً في مواجهة جيش المدرعات الالماني الرابع. ويبدو أن الروس كانوا يستعدون للهجوم على جناحي الجيش الالماني.

وطالما قلق باولوس لامكان قيام هجوم كهذا. وكانت خطة استيلائه على ستالينغراد تعتمد على اقامة خط رديف عند الميسرة من شأنه ابقاء طريق الامدادات مفتوحة وصد أي اعتداء يأتي من الشمال. ومن سوء حظ باولوس أن ذلك الخط الرديف كانت تملأه عناصر من الدول التابعة.

ففي الطرف الشمالي الغربي انتشر أفراد من الجيش المجري الثاني عند أعلى نهر الدون. والنقطة التالية من النهر احتلها رجال من الجيش الايطالي الثامن. وأخيراً جاء الجيش الروماني الثالث. وقد وضع الالمان المتطوعين الايطاليين في الوسط ليفصلوا بين عدوين قديمين كان محتملا أن يتجاهلا الروس ويعتركا في ما بينهما.

وقد استقدمت الجيوش الثلاثة على نحو يعوزه النظام. فالجيشان المجري

والروماني كانا، في معظمهما، من المحازبين السياسيين غير المتمرسين في الشؤون الحربية. وفضلا عن عدم كفاية هذين الجيشين، فقد تسرب الفساد الى صفوفهما واجداً طريقه خصوصاً الى الانفار الصغار الذين كان ينقصهم الغذاء الكافي والقيادة الحسنة. وكان الضباط يسوطونهم عند أقل نزوة أو خطأ. ولدى احتدام المعركة فر عدد كبير من الضباط الى أوطانهم. والأسوأ من هذا أنهم كانوا مزودين بأسلحة من الحرب العالمية الاولى تخطاها الزمن.

ولم تكن حال الجيش الايطالي بأفضل من حال هذين. فأفراده الذين جُروا الى الخدمة من مكان قصي لم يرقهم التحالف بين المانيا النازية وايطاليا الفاشية. وهم لم يأتوا الى روسيا لأي قضية حيوية تعني ايطاليا مباشرة، وانما اقتيدوا الى هناك لأن بنيتو موسوليني اشترى ودّ هتلر بسواعد الجند الايطالي.

وفي لقائه الفوهرر في سبتمبر (ايلول) طلب اليه باولوس أن يمده ببعض دعم للعناصر الرديفة. فوعد هتلر خيراً. وكرر باولوس مخاوفه أمام هالدر الذي وعد بملاحقة هتلر حول الأمر. لكن هالدر سُرّح من منصبه من غير أن يحصل شيء.

"إنه الجنون بعينه!"

في المساحة الممتدة بين الدون والفولغا غرب ستالينغراد، ركز باولوس كامل قواته الهجومية للاستيلاء على المدينة، متخذاً من طرف الدون البعيد مستودعاً لمعظم ذخيرته. ووجد الروس في تلك البقعة غير الحصينة هدفاً للمرحلة الاولى من عمليتهم الدفاعية التي أطلقوا عليها اسم "اورانوس".

وفي السادسة والنصف من صباح ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) الباكر، استحال ظلام الضحى بين مدينتي سيرافيموفيتش وكلتسكايا لهباً برتقالياً عندما انطلقت النار من ٣٥٠٠ بندقية روسية. ووقف الجنود الرومانيون في خنادقهم يراقبون الانفجارات المدفعية تخترق صفوفهم وتقضي على المئات خنقاً. وغطى الرجال آذانهم التي أصمها دوي المدافع.

وما أن توقف القصف حتى انطلقت الدبابات الضخمة من نوع "ت - ٣٤" عبر الضباب والجليد الى صفوف القوة الرومانية المشتتة. وفر معظم الرومانيين وهم يزعقون بأعلى اصواتهم وقد روعهم زحف الدبابات، وكانوا من غير سلاح.

وفي غولوبينكا، على بعد ٨٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي، تلقى باولوس ورئيس أركانه الجنرال آرثر شميت نبأ الهجوم بهدوء. وبعد تحليل الوضع قال شميت: "في امكاننا الصمود." ووافق باولوس وأمر الفرقة المدرعة الثامنة والاربعين، وهي في قيادة الجنرال فرديناند هايم، بالزحف شمالا نحو ثغرة الدون.

في تلك الاثناء كان هتلر يضيع الوقت سدى في منتجعه الصيفي بيرغهوف على بعد ٢٠٩٠ كيلومتر غرباً وسط جبال الالب البافارية. ثم دخل قاعة اجتماعات هادئة وأكب

على آخر خرائط المعركة متفحصاً الموقع على ميسرة الجيش السادس. وقارن الامكانات برباطة جأش، ثم أصدر أمراً كان أول الاوامر المهلكة خلال الاسابيع القليلة اللاحقة.

وكان ذلك الأمر يقضي بأن يسرع الجنرال هايم جنوباً الى بلينوف حيث اخترق الروس الخطوط الالمانية أيضاً. وقاد هايم، وقد أغاظه الأمر، طوابيره على نحو الهدف الجديد على زاوية تكاد تبلغ ١٨٠ درجة عكس الوجهة التي كان باولوس اختارها قبل تبلغ أوامر الفوهرر.

ولم تدخل القوات الجوية تلك المأساة السهلية لأن عوامل الطبيعة من ثلج وصقيع كبلتها على الأرض. وكانت الدبابات الروسية، طوال النهار، تعبر السهوب البيضاء وتضرب التعزيزات الالمانية في أماكن تجمعها ومراكز اتصالاتها ثم تختفي في الضباب لتضرب تجمعات اخرى على بعد كيلومترات. وأربكت تلك الخطة الالمان وأفقدتهم معنوياتهم. وأفادت المعلومات المرسلة الى غولوبينكا أن الروس في كل مكان، وانهم على بعد ٦٤ كيلومتراً جنوب الدون و٨٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي منه. وكان الجنون ظاهراً في نبرات الضباط الذين خابروا قيادة الجيش السادس طلباً للنصيحة.

ودبت الفوضى في الصفوف الالمانية. واتخذ آمرو الفرق قرارات افرادية بنقل رجالهم شرقاً نحو ستالينغراد. وتحرك الرجال ببطء وهم يؤثرون العصيان، إلا أن الضباط أخافوهم بالاحكام العسكرية.

والى الناحية الجنوبية من ستالينغراد، تجمعت ثلاثة جيوش تحت إمرة يرمنكو على جبهة طولها ٢٠٠ كيلومتر، استعداداً للمرحلة الثانية من الهجوم المضاد. وفي العاشرة من صباح ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) فتحت مدفعية يرمنكو النار على الجيش الروماني الرابع قبالتها وأرغمته على الفرار. وبعد ساعات ابلغ يرمنكو موسكو، وهو لا يصدق ما حصل، أن لديه عشرة آلاف اسير. وأمرته القيادة بأن يعيد احصاءهم فجاء الرقم مطابقاً للأول.

أما الجنرال باولوس الذي روعه سقوط الجناحين، فارتأى انسحاب الجيش السادس من الفولغا في اتجاه الجنوب الغربي حيث يسهل عليه الدفاع.

غير أن الفوهرر كان له رأي آخر، وعارض توصية باولوس بقوله: "الجيش السادس سيبقى مكانه، على رغم انه مهدد وقتياً بالتطويق. وسنصدر أمراً لاحقاً حول الدعم الجوي."

وكان باولوس وشميت يمحصان رسالة هتلر حين وردتهما مخابرة هاتفية من الجنرال مارتن فايبغ قائد سلاح الطيران الثامن. ولما علم فايبغ بعزم الفوهرر على ارسال قوة جواً، خابر رئيسه الجنرال ريشتهوفن. وهذا بدوره خابر أحد المسؤولين عن الطيران في القيادة العليا وبادره بغيظ: "يجب أن توقفوا مسعاكم هذا. فالطقس الرديء هنا يمنع انزال ٢٥٠ ألف عنصر جواً. إنه الجنون بعينه!"

ذلك الليل هبت رياح لا ترحم عبر السهوب وأحالت الثلوج جبالا.



القتال في ستالينغراد من بيت الى بيت.

وهبطت الحرارة درجات تحت الصفر والجو ينذر سوءاً.

وفي الثانية عصر ٢٢ نوفمبر (تشرين الثاني)، فيما باولوس وشميت عائدان جواً الى مطار غومراك في طرف المدينة بعد رحلة الى مركز للاتصالات غرب ستالينغراد، عبرا فوق الارض الممتدة بين الدون والفولغا وشاهدا النار تتصاعد من مخيمات الجيش السادس الذي كان أفراده يحرقون كل ما لا يحتاجون اليه تحسباً لأي طارىء.

في اليوم نفسه سيطر الروس على جسر كلش، وهو طريق هروب الالمان عبر الدون. وفي اليوم التالي انضمت الدبابات الروسية من الجنوب الى المشاة في الشمال.

وراح الجنود الروس يرقصون فرحاً فوق الجليد وقد أخذتهم نشوة النصر. ففي أقل من ٩٦ ساعة ضربوا حصاراً تاماً حول الجيش الالماني السادس. وأصبح لديهم، داخل ذلك "الجيب" الضخم، ٢٥٠ ألف أسير عُزلوا وسط السهوب الجليدية.

إلا أن الخطوط الروسية ما برحت ضئيلة، وكان الجنرال باولوس على استعداد لاختراق ذلك "المرجل." وجمع عدداً من الجنود بأسلحتهم

ومدافعهم وخيولهم، وأعد العدة لاختراق الصفوف الروسية الى الجنوب الغربي.

وانقضت ساعات من غير أن يأمر باولوس جنوده بالتقدم. ذلك أن هتلر لم يكن اظهر "رضاه" على الهجوم. وأرسل اليه باولوس برقية اخرى تقول: "يا زعيمي! الذخيرة والعتاد يكادان ينفدان، ولا يمكن سد النقص سريعاً. وفي ضوء هذا الوضع أطلب اليكم اطلاق يدي للتصرف بما أراه ملائماً. ليحيَ الزعيم. باولوس."

وكانت تلك الرسالة في طريقها الى هتلر حين أصدر أحد معاوني باولوس الجنرال ولتر فون سيدليتز - كورزباخ أمراً الى فرقة المشاة الرابعة والتسعين باخلاء موقعها في الطرف الشمالي الشرقي، أملا أن يؤدي قراره الفردي الى التعجيل في انسحاب الفرق الاخرى وبالتالي اتخاذ باولوس قراراً بالانسحاب الجماعي من "المرجل."

ولكن ما كادت فرقة المشاة الرابعة والتسعين ان تغادر موقعها حتى أجهز عليها الجيش الروسي الثاني والستون. ومع الفجر غدت الفرقة الالمانية أثراً بعد عين اذ أطبقت عليها جحافل الجيش الأحمر.

ولما بلغت تلك الانباء هتلر جن جنونه. وفي برقية تحمل صفة الأمر الاعلى، أنب باولوس على عصيانه وأصر على "الاحتفاظ بجبهة الفولغا الحالية والجبهة الشمالية بأي ثمن،" مضيفاً أن "التعزيزات الجوية هي في الطريق."

والحق أن هتلر لم يكن على يقين من قدرة سلاحه الجوي على دعم الجيش السادس. وكان ينتظر الكلمة الاخيرة حول هذا الأمر من هيرمان غورينغ. وجدير بالذكر أن غورينغ كان سقط في نظر القيادة العسكرية الالمانية لعجزه عن اخضاع بريطانيا ووقف قصف الحلفاء لالمانيا نفسها. وهكذا وجد في طلب الفوهرر ظرفاً كي يعيد الاعتبار الى نفسه. وعلى رغم ما قيل له من أن الجيش السادس تلزمه خمسة أطنان من الامدادات يومياً، أجاب بثقة وكبرياء: "اني أستطيع تأمين هذا."

وهكذا ضاعت الساعات الثمينة. وفي بضعة أيام تحلقت ستون فرقة سوفييتية حول "المرجل." والى الجنوب والغرب وقفت ثمانون فرقة اخرى من الجيش الأحمر على أهبة الاستعداد لصد وصول أي تعزيزات الى باولوس.

في تلك الاثناء كان الطيارون الالمان في القواعد الجوية القريبة من ستالينغراد يبذلون ما في وسعهم لانجاح مهمة الدعم الجوي. وأرسلت طائرات "جو - ٥٢" من أماكن قصية، وكان بعضها قديماً لا يمكن الاعتماد عليه والبعض الآخر تنقصه الرشاشات وأجهزة الارسال. أما الملاحون على تلك الطائرات فكانوا خليطاً من قدامى المحاربين والمتخرجين الجدد.

وفي ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) توجهت الدفعة الاولى من الطائرات الى قاعدة بيتومنيك الجوية داخل "المرجل." وظلت يومين تقلع وتهبط حاملة الوقود والعتاد. وفي اليوم الثالث، وهو السابع والعشرون من نوفمبر (تشرين الثاني)، أوقفت الاحوال الجوية جميع العمليات. وراح

الجنرال فايبغ يحصي ما تم انجازه، فوجد أنه، في الساعات الثماني والاربعين الاولى ، نقل ١٣٠ طناً الى "المرجل." ثم دوّن في مفكرته الآتي: "الطقس رديء جداً. نحاول التحليق، لكن هذا مستحيل. العواصف الثلجية تلحق احداها الاخرى. الوضع مروع."

ووافق الجنرال فون ريشتهوفن كلياً على هذا الوصف. وبعد يأسه من الامدادات الجوية، خابر معاوني هتلر ليعلمهم ان على الجيش السادس أن يشق طريق الفرار قبل أن تشل حركته نهائياً. ورجا ريشتهوفن المعاونين أن يوصلوا رأيه الى هتلر، ففعلوا. لكن الفوهرر رفض تغيير خطته بحجة أن انسحاب الجيش السادس من ستالينغراد يعني "أننا لن ندخلها البتة بعد الآن."

ولما سمع ريشتهوفن هذا القرار، أدرك أنه وزملاءه القادة الآخرين ليسوا أكثر من دمى في يدي هتلر.

وفي ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) أرسلت أربعون طائرة مقاتلة من نوع "هي – ١١١" لتعزيز القوة الجوية "جو – ٥٢" المرابطة في ستالينغراد. وما أن حطت تلك الطائرات داخل "المرجل" حتى أنزل رجالها العتاد والذخيرة، وأفرغوا الوقود الاضافي من أجنحة طائراتهم لسد حاجة الجيش السادس الى الوقود. وفي ذلك اليوم وحده أنزل نحو مئة طن من الامدادات الحيوية. وذلك بث الشجاعة في باولوس وأقنعه بأن سلاح الطيران الالماني على وشك أن يفي بتعهده. لكن ذلك لم يتحقق. وعاد الطقس شنيعاً كما كان، ولم تتمكن الطائرات من شق طريقها الى الجيش المحاصر في اليومين التاليين.

ولكن على رغم الحصار بقي الجيش السادس محافظاً على نظامه وتنظيمه الممتازين. فالثلج كان يجرف دائماً عن الطرق الرئيسية، ومستودعات الوقود والطعام تسوزع المؤن المقننةعلى نحو بارع، والمستشفيات تؤدي عملها بأقل ما يمكن من فوضى، على رغم معالجتها ١٥٠٠ اصابة يومياً. ومن قاعدة بيتومنيك الجوية كانت طائرات "جو – ٥٢" و"هي – ١١١" تنقل ٤٠٠ جريح يومياً تحت أعين الاطباء اليقظة منعاً لفرار المتمارضين.

هذا كله يعني أن الجيش السادس كان يؤدي مهماته على نحو غير متوقع في تلك الظروف العصيبة. إلا أن علامات التهافت الوشيك كانت غير خافية. وفي ٩ ديسمبر (كانون الأول) سقط جنديان وماتا بسبب المجاعة.

"بعد الشتاء، ربيع آخر"

إن هتلر لم يترك الجيش السادس وشأنه نهائياً. ففي ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) أرسل الفيلد مارشال اريك فون مانشتاين، الذي أحرز الانتصار على فرنسا، لمعاونة باولوس، موكلا اليه فتح منفذ جنوبي تصل منه الامدادات الى الجيش السادس. لكن الفوهرر لم يطلب الى مانشتاين، في مراحل مهمته جميعاً، اخراج الجيش السادس من مكانه.

غير أن مانشتاين لم يباشر مساعيه المقيمة قبل ١٢ ديسمبر (كانون الأول). ذلك أن هجومه الى الجنوب

اوقف بأمر من هتلر وهو على وشك تحقيق غايته. وكانت ذريعة هتلر أن قوات مانشتاين ينبغي أن تهب لنجدة الجيش الايطالي المتراجع في الشمال.

وفي ذلك الوقت تحولت السهوب مدرجات للطائرات المتحطمة والمعطوبة. وكان عدد الطائرات المرسلة يومياً كبيراً، إلا أن معظمها لم يصل الى "المرجل" ليس بفعل رداءة الطقس فحسب، بل لأن الطائرات الروسية والمدفعية المضادة للطائرات ما انفكت تعترض الطائرات الالمانية على نحو متكرر، فترغمها على الانسحاب أو السقوط.

وأدى الخطأ البشري الى سلسلة اخرى من الاحداث المؤسفة. ومن تلك الاحداث ما نجم عن عدم سماح قيادة سلاح الطيران الالماني لضباطها بالاشراف على تحميل الطائرات. فقد كان الجنود الذين هدتهم المجاعة يفتحون الصناديق في قاعدة بيتومنيك الجوية فيعثرون فيها على مواد لا علاقة لهم بها. وذات يوم وجدوا الوفاً من أغطية السيلوفان التي تقذف بها القنابل اليدوية، لكنهم لم يعثروا على أي قنبلة. وفي يوم آخر تلقوا أربعة أطنان من المردقوش والفلفل وقت كانوا يأكلون الفئران حفاظاً على حياتهم. حتى لقد بلغتهم شحنة من ملايين الاصابع العازلة لمنع الحمل.

في تلك الاثناء كان الالمان في ستالينغراد يعانون نقصاً رهيباً في البروتيين. وذات يوم صادف الكابتن هاينز نايست (٣١ عاماً) ضابطاً ابتسم بمكر وقال: "أتريد شيئاً تأكله؟" فقبل نايست الدعوة بسرور، وجلس أمام صحن مليء بالبطاطا واللحم والمرق. ونظر الى الصحن وهو لا يصدق ما يراه، فبادره زميله بالآتي: "صدقني أنه ليس لحم انسان." وازدرد نايست كل ما يحتويه الصحن. وبدا من طعم اللحم أنه عجل. ولم يستفسر نايست عنه إلا بعدما أتى عليه. فأجابه زميله أنه آخر كلب دوبرمان لديه.

وفي ١٨ ديسمبر (كانون الأول) تفقد باولوس الجبهة. وشعر بالغم إذ شاهد جنوده يعانون ضعفاً جسدياً بيناً. وكانوا يمشون بمشقة ولا يكترثون للاوامر. وضمرت وجوههم وغارت العيون في محاجرها، وكانوا يحدقون أمامهم كما في فراغ. وعاد باولوس الى مقره مثبط العزم وجلس يكتب الى زوجته كوكا. ولم يكن باولوس بالرجل الذي يلقي همومه على الآخرين. لذلك اكتفى بالاسئلة العادية عن حالها وحال الاولاد، وختم الرسالة بعبارات متفائلة: "صحيح أننا نعاني بعض عسر الآن، لكننا سنتغلب عليه. وبعد الشتاء سيأتي ربيع آخر."

وجبة صارمة

تحمل أفراد الجيش السادس التقنين الغذائي والصقيع على نحو بطولي، يحدوهم الأمل بأن مانشتاين آت اليهم سريعاً. إلا أن عيد الميلاد جاء وقد أدركوا أن "المرجل" قد يكون ضريحاً لهم.

وأمضى الجنود الالمان ساعات العيد الاخيرة في وحدتهم الموحشة وهم ينقلون ابرة الراديو من موضع

الى آخر علهم يلتقطون خبراً من بلادهم على الموجة القصيرة. وأخيراً عثروا على اذاعة وزير الدعاية الالماني جوزف غوبلز، التي قيل انها تبث من حدود الرايش الثالث.

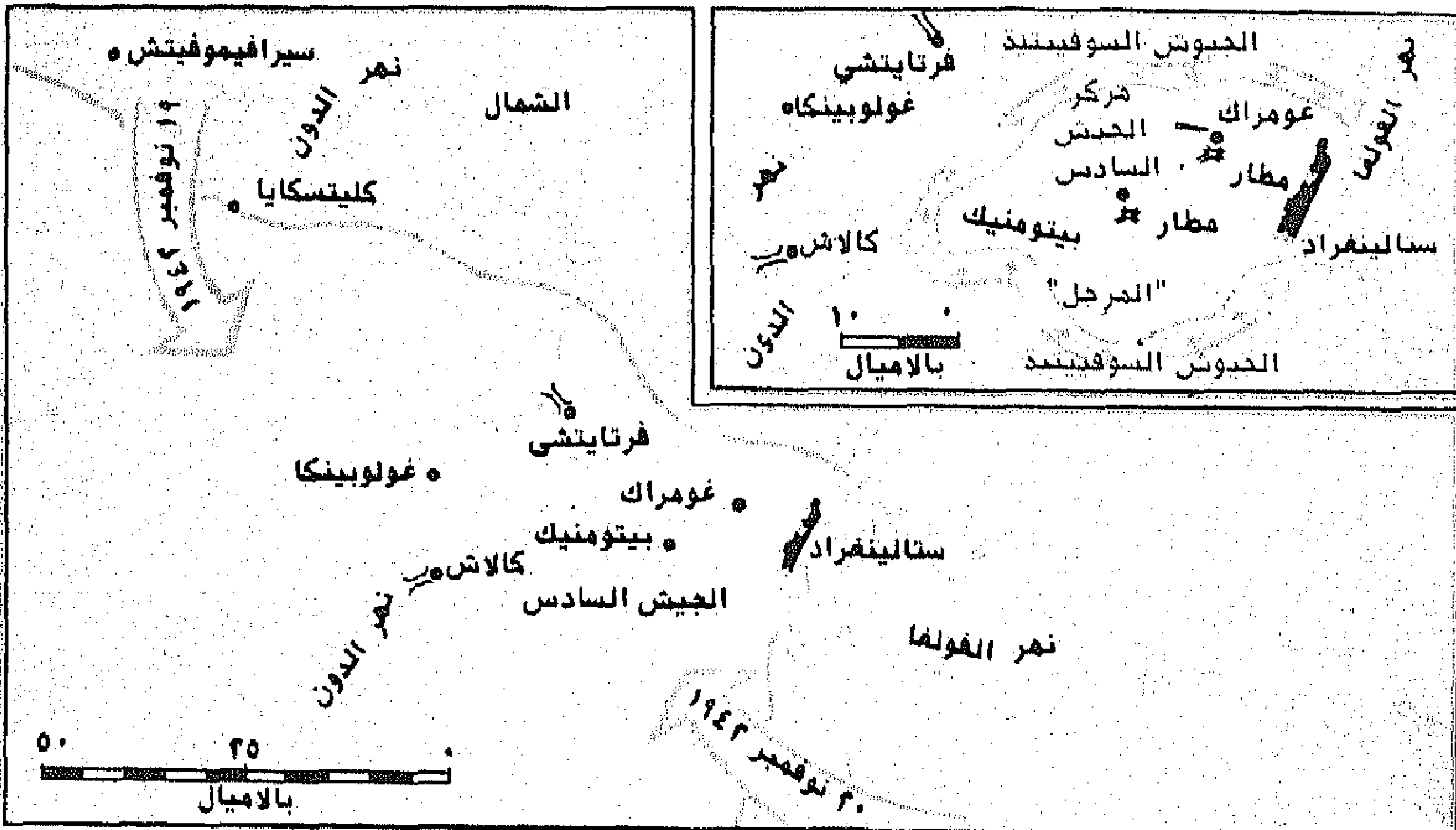
وانطلق صوت الراديو عبر الاثير: "ها نحن نتكلم من نارفيك." وتبع ذلك غناء لبعض الجنود المرابطين في ذلك المرفأ النروجي. وأضاف الصوت: "والآن، نحن في تونس." وتلا ذلك هتاف محلي ثم غناء. وفجأة قال غوبلز: "والآن، من ستالينغراد." وفيما نظر آلاف الجنود داخل "المرجل" بعضهم الى بعض مذهولين، سمعوا من الراديو موسيقى مبهجة تؤكد للمواطنين الالمان أن الامور تجري كما يرام على ضفاف الفولغا.

والواقع أن قوة الجيش السادس الجسدية والنفسية بدأت تنهار. وجاء التقنين الصارم الذي فرضه باولوس على وجبات الطعام ليفاقم الوضع.

ولم يكن أمام الجنرال المحاصر خيار آخر. لكنه انتظر مرور عيد الميلاد قبل أن يعلن القانون الجديد: "خبز: ٥٦ غراماً يومياً. للغداء: حساء من غير مواد دهنية. للعشاء: علبة لحم اذا أمكن. وفي حال عدم وجودها، المزيد من الحساء."

وكان هذا التقنين الصارم بمثابة رصاصة الرحمة توجه الى قوة الجنود المتضائلة. وكان باولوس يعي ذلك، وذكر قادته مرة اخرى بأن الجيش السادس على وشك الانهيار: "اطالب بتدابير فعالة للخلاص السريع من هذه الورطة... إلا إذا كانت المسألة تستحق التضحية بجيش كامل."

وذلك كان الاعتراف الأول من جانب باولوس بأن الجيش السادس ربما كان كبش فداء في يد هتلر. وبلغ عدد الجنود الذين ماتوا داخل "المرجل" يوم عيد الميلاد وحده ١٢٨٠ رجلا. ومع اقتراب رأس السنة سدت الطريق الى بيتومنيك بالثلج.



ومن الزوار الذين كانوا يترددون على القاعدة الجوية ضابط الاتصال لدى هتلر الميجور كولتسين فون زيتزيفيتز، وهو لم يكن ممن يسترون الوقائع، بل كتب تقارير يصف فيها الكارثة التي عاينها، وتجول من مكان الى آخر على طول الجبهة وعرضها، فدخل الخنادق الامامية والمستشفيات والمستودعات والغرف الرطبة تحت الارض، حيث تفشت أمراض كثيرة بين الجنود. وهناك رأى الجرذان والفئران تعض الاصابع الميتة في اقدام الجنود التي شلها الصقيع.

ولم يترك الميجور شاردة أو واردة إلا جاء عليها كي ينبه هتلر الى حقيقة ما يجري داخل روسيا. إلا أن تقاريره كان لها أثر غير متوقع في مقر قيادة الفوهرر في بروسيا. وأعلن الماريشال هيرمان غورينغ لدى الاطلاع عليها: "لا يعقل أن يكون أي ضابط الماني مسؤولا عن تقارير انهزامية من هذا القبيل. والتفسير الوحيد الممكن أن العدو صادر جهاز الارسال ووجه التقرير بنفسه." وهكذا أغفلت تقارير زيتزيفيتز على أنها دعاية روسية مضادة.

وفي العاشرة من ليلة ٣١ ديسمبر (كانون الأول) انطلقت المدافع الروسية حول "المرجل" تحية لرأس السنة. وكان سطح الفولغا استحال جليداً وراحت مئات الشاحنات تعبره يومياً محملة بالجنود والطعام. وامتلأت الخنادق الروسية على طول خط القيصرة الدفاعي بالمعلبات الامريكية. وتدفقت الذخيرة بحيث بات الروس يطلقون المدافع المضادة على كل الماني يشاهدونه.

وفي يوم رأس السنة عاد الانضباط الى الجيش الروسي الثاني والستين وقد أنعشته التعزيزات. ونظم الضباط حفلات من التمثيل والموسيقى والباليه، أحياها الفنانون الذين قصدوا الى ستالينغراد تكريماً لجيشهم. وبلغت الحماسة من عازف الكمان ميخائيل غولدشتاين حداً جعله يترك فرقته ويذهب الى الخنادق الامامية ويعزف منفرداً امام الجنود.

ولم يكن غولدشتاين رأى ساحة معركة مثل ستالينغراد التي مزقتها القنابل وملأتها الهياكل العظمية للجياد التي التهمها العدو بعدما نفقت. ودفعته الصدمة الى العزف ساعة بعد ساعة على مسامع اناس شنفت آذانهم الموسيقى. وعلى رغم أن الحكومة السوفييتية حظرت جميع الاعمال الموسيقية الالمانية، إلا أن غولدشتاين عرف أن المفوضين السياسيين من شأنهم غض النظر عن ذلك التدبير ليلة رأس السنة. ووصلت الانغام عبر مكبرات الصوت الى الناحية الاخرى، فتوقف القصف فوراً.

ولما فرغ غولدشتاين من أدائه، ران صمت عميق على الجنود الروس، ما لبث أن قطعه صوت آت عبر المذياع من الجانب الالماني. وقال الصوت بالروسية: "نرجوك أن تعطينا المزيد من باخ، ولن نطلق النار." وتناول غولدشتاين الكمان من جديد، وراح يعزف قطعة غافوتية راقصة.

عالم الأموات

في مطلع يناير (كانون الثاني) وجهت مراكز المراقبة الالمانية في الناحيتين الغربية والجنوبية من

"المرجل" رسائل انذار حول القوة الروسية المتزايدة. غير أن الالمان لم يستطيعوا امداد الجيش السادس بالمؤن والرجال قبل حدوث هجوم فعلي.

وعلماً منهم بعجز العدو التام، أقام الروس مطابخ كبيرة في الجبهة تنبعث منها روائح الطعام الشهية الى الجانب الالماني. وكان في ذلك عذاب للالمان أسوأ مما انطوت عليه رؤية الدبابات والمدافع.

وبدأ الهجوم عند الثامنة من صباح ١٠ يناير (كانون الثاني)، وهو اليوم الثامن والاربعون الذي مر على الالمان داخل "المرجل". وانطلق سبعة آلاف مدفع معاً. وبعد ساعتين طوق القصف الجبهة الالمانية من كل ناحية. وفي آخر النهار كان الجيش السادس يشق طريقه نحو ستالينغراد وقد انهارت معنويات جنوده بعد إبادة ثماني فرق كاملة. الا أن الفرقة المصفحة التاسعة والعشرين وحدها حافظت على القوة الكافية لضرب العدو في الناحية الغربية من الجيب. وبعد أيام سيطر الروس على قاعدة بيتومنيك الجوية وباتت النهاية وشيكة.

وبفقدان قاعدة بيتومنيك، استخدم الألمان مطار غومراك في طرف ستالينغراد الذي غص بآلاف الجرحى. وهبت الشاحنات تنقل الرجال المصابين الى المستشفيات التي عجزت عن استقبالهم جميعاً. فقضى بعضهم في الخارج، على بعد أمتار من غرف العمليات، حيث هبطت الحرارة الى ٣٠ درجة تحت الصفر.

وعندما حط طيار أرسلته القيادة من المانيا في مطار غومراك صبيحة ١٩ يناير (كانون الثاني)، استدعي فوراً الى قيادة الموقع حيث بادره باولوس صائحاً: "لماذا وعدتنا قيادة الطيران بارسال تعزيزات دائمة؟ لو قالوا لي ان هذا مستحيل، لكنت اخترقت جبهة العدو عندما كان وضع جيشي يسمح بذلك."

وأضاف باولوس بعدما أسكت الضابط الذي حاول ايضاح الأمر: "اننا نتكلم من عالم آخر غير عالمكم، من عالم الأموات. وإن وجودنا، منذ الآن، سيكون في كتب التاريخ فقط."

وفي ٢٢ يناير (كانون الثاني) حاول باولوس اقناع هتلر بأن الاستسلام هو المهرب الوحيد. لكن الفوهرر رفض قائلا: "الاستسلام مستحيل. والجنود سيدافعون عن مواقعهم حتى النهاية." وللحال غادر غومراك، متجهاً الى قبو في ستالينغراد.

في اليوم نفسه شاهد الكابتن غيرهارد مونك الذي كان أول من شق الطريق قبل أشهر الى ستالينغراد، منظراً لم يبارح مخيلته. فقد تلقى أمراً بمغادرة "المرجل" وتسليم مكانه لعناصر جديدة مختصة. وما أن حطت ثلاث طائرات "جو - ٥٢" في مطار غومراك حتى تدافعت اليها حشود من الجرحى سدت أبوابها. وراح قويهم يرفس الضعيف حتى غصت بهم الطائرات.

وصعد مونك الى طائرته فيما كانت شظايا المدافع الروسية ترجم الجنود. وتأهب الطيار للاقلاع، لكنه لم يستطع. ونظر مونك خارجاً ليرى نحو خمسين رجلا تعلقوا بجناحي الطائرة. ثم زادت الطائرة سرعتها،

فسقط الجنود واحداً بعد آخر، وارتفعت الطائرة مبتعدة عن الفولغا.

وفي صباح ٢٤ يناير (كانون الثاني) غدت الطريق الى ستالينغراد "معبراً للموت" كما دعاها سائقو الشاحنات الذي اجتازوا تلك الكيلومترات الثمانية المغطاة بالثلوج والدماء التي خلفها أفراد الجيش السادس الهاربون الى نقطتهم الاخيرة. وكانت سراديب المدينة القاتمة آنذاك تحوي أكثر من مئة ألف جندي الماني.

وراح الالمان ينصتون بخوف من أقبيتهم، علهم يسمعون وقع خطى الجنود الروس. لكن هؤلاء راحوا يصرفون الوقت بهدوء وهم يتنقلون بحذر في متاريسهم المغطاة بالثلج. وفي معارك جانبية كثيرة في أزقة المدينة استسلم عدد من الجنود الالمان.

وثمة من الالمان من نسي خوف الحرب وهو في صراعه ضد القمل. فقد ملأت تلك الحشرات الرمادية السراديب وأخذت تتكاثر بفعل القذارة. وغطت الجنود من رؤوسهم حتى أقدامهم وجرتهم الى شفير الجنون.

وانتقلت قيادة الجيش السادس الى مخزن "يونيفرماغ" الضخم في الساحة الحمراء. وكانت المباني حول الساحة كلها خربة من داخل. وتسلل باولوس بين تلك الابنية حتى بلغ سرداب المحل. وبينما كان معاونوه يقيمون مكاناً للاتصالات، أوى الجنرال الى مهجع تلفه الستائر ويحوي سريراً نقالاً ويدخله نور ضئيل من نافذة مقطعة.

وفي الحامية العسكرية الرئيسية التي حولت مستشفى يبعد نحو ١٦٠٠ متر شمال "يونيفرماغ"، اضطجع ثلاثة آلاف جريح الماني تحت رحمة ريح جليدية اخترقت شقوق الجدران. وفي غياب العقاقير الكافية، وضع الاطباء المرضى الاسوأ حالا في أمكنة معرضة للصقيع كي يموتوا أولا.

وكانت جثث القتلى تطوق المبنى وترتفع نحو مترين. وكلما توقف الجنود خارجاً طالبين الطعام، كانوا يحصلون عليه في مقابل حمل الجثث بعيداً ورصفها بعضاً فوق بعض.

وفي ليل ٢٨ يناير (كانون الثاني) انصبت مدافع الروس على المبنى وأشعلت فيه النار. واستحال المستشفى جحيماً وسقطت أجزاء كاملة منه الى الشارع. ووصف بعض الشهود لاحقاً كيف عاينوا الجرحى وهم ينتزعون الضمادات الملتهبة بجنون.

وفي سراديب كثيرة سعى الجنود الى مسدساتهم وأفرغوا رصاصها في صدوغهم. وانتقل القمل الذي عاش على أجسادهم أسابيع الى أجساد اخرى دافئة ما زالت الحياة تسري في عروقها.

وأخيراً، في ٣٠ يناير (كانون الثاني)، ذهب آمر الفرقة الحادية والسبعين الى باولوس قائلا: "فرقتي لا تستطيع المقاومة أكثر. الدبابات الروسية تقترب من المخزن، والنهاية وشيكة."

وتوجه باولوس نحو سريره وقد جلس على طرفه معاونه الكولونيل فيلهلم آدم. ومرت دقائق من غير أن يتفوه أحدهما بكلمة، الى أن قال

آدم: "سيدي، يحسن أن تنام الآن استعداداً للمثول أمام المحكمة غداً".

وبعيد منتصف الليل تمدد باولوس على سريره وغفا، فيما خرج آدم ليسأل آمر الفرقة الحادية والسبعين عن الامور المستجدة. وأجابه هذا: "هناك دبابة حمراء مرابطة في شارع مجاور وقد صوبت مدفعها نحونا". وأطلعت الجنرال شميت على المسألة، فقال ان الدبابة يجب ألا تطلق النار مهما كان الثمن. وهذا يعني أن على المترجم أن يذهب الى آمر الدبابة وهو يحمل علماً أبيض، ويطلب اليه التفاوض."

وعاد آدم الى غرفته ووقف يحدق الى قائده النائم. وقد تطورت العلاقة بينه وبين باولوس بحيث بات يجله ولا يرى هفواته. وراح آدم يعرض المراحل المشرقة التي حفلت بها حياة سيده العسكرية الرائعة. وكان باولوس شخصاً شريفاً أخضع ارادته كلياً لاوامر هتلر مما أفقده السيطرة على مصيره.

"هذا ينهي الأمر"

بذل الفوهرر جهداً أخيراً لمحو بعض معالم الكارثة، وهو اغداق الترقيات على كبار ضباط الجيش السادس، وأهمها الترقية التي نالها باولوس وهي لقب "فيلدمارشال" أي مشير. ومعروف أن أياً من الضباط الالمان الذين يحملون هذا اللقب لم يستسلموا في المعارك. وكان ذلك ايعازاً الى باولوس بالانتحار.

إلا أنه لم يقدم على الانتحار. وقبل الفجر خرج مترجمه الى الساحة القاتمة واتجه نحو الدبابة الروسية التي وقف في برجها ضابط سوفييتي شاب هو الملازم فيودور يلشنكو. وبادره الالماني: "قائدنا يود الكلام مع قائدكم."

فأجابه يلشنكو وهو يهز رأسه: "قائدنا لديه امور اخرى، وهو ليس هنا. وعليكم البحث معي."

وبعد الاتفاق على ثلاثة ممثلين روس، سارت الجماعة الى سرداب "يونيفرماغ". وطلب شميت الى الروس أن يعاملوا باولوس كأسير مميز ويرافقوه في سيارة لحمايته من غضب جنودهم. ووافق يلشنكو. وبعد ذلك أخذوه الى حيث باولوس. ودخل عليه وهو غير حليق، لكنه كان في بزته العسكرية الكاملة.

ولم يضيع الضابط الروسي وقتاً على الشكليات، لكنه بادر باولوس بقوله: "حسناً، هذا ينهي الأمر." وبعد ذلك حياه. ونظر المشير الالماني المهزوم الى عيني الضابط الروسي وهز رأسه ببؤس.

وهكذا انتهت معركة ستالينغراد.

وفي خمسة أشهر من القتال تحول ٩٩ في المئة من المدينة ركاماً. وهدم ٤١ ألف منزل و٣٠٠ مصنع و١١٣ مستشفى ومدرسة. إلا أن الضريبة البشرية كانت أعظم. فهذه المعركة، بضحاياها الذين بلغ عددهم المليونين من رجال ونساء، هي أكبر معركة دموية سجلها التاريخ.

وقد بلغت ضحايا الجيش الأحمر ٧٥٠ ألفاً بين قتيل وجريح ومفقود. وخسر الالمان نحو ٤٠٠ ألف جندي، والايطاليون أكثر من ١٣٠ ألفاً، والمجريون والرومان قرابة ٣٢٠ ألفاً.

أما بالنسبة الى المدنيين، فقد


المارشال فردريك باولوس بعد استسلامه، والى اقصى اليمين الكولونيل فيلهلم آدم.

أجري احصاء سريع تبين فيه أن ١٥٠٠ شخص بقوا في ستالينغراد من أصل نصف مليون نسمة. ومعظم الذين فقدوا ماتوا في أيام المعركة الاولى أو غادروا المدينة متخذين منازل وقتية في آسيا. ولا أحد يعرف عدد القتلى المدنيين بالضبط، لكن الرقم صاعق بلا ريب.

وتجدر الاشارة الى أن النسبة الكبرى من قوات المحور لم تقض في ساحة الحرب. وعندما استسلم الجيش السادس، أخذ الروس ما يزيد على ٥٠٠ ألف أسير من ألمان وايطاليين ومجريين ورومان. وخلال فبراير (شباط) ومارس (آذار) وابريل (نيسان) من العام ١٩٤٣ قضى ٤٠٠ ألف أو أكثر من هؤلاء، وقد لقي معظمهم حتفهم بعدما تركهم الروس يعانون المجاعة.

وبعد حسم معركة ستالينغراد، اتجه الروس غرباً بتصميم ودخلوا برلين مباشرة. ولا تزال قصة عبورهم الملحمية الى قلب المانيا حديث الاجيال. والحق أن الطريق التي قطعها الاتحاد السوفييتي نحو العظمة، أي نحو كونه قوة عالمية، بدأت على ضفاف الفولغا.

وعلى تلك الضفاف عينها شهدت المانيا النازية بداية نهايتها الفاجعة. وأخذ اليأس طريقه الى قلوب الكثيرين الذين طالما هتفوا بحياة الفوهرر في الاجتماعات الحزبية الحاشدة.

ولكن، في عبارات عسكرية صرفة وبسيطة، لا بد من القول ان سلوك الالمان، جنوداً وضباطاً، كان خارقاً.

وفي العام ١٩٤٤ تجول الجنرال شارل ديغول بين حطام المدينة الذي لم يرفع كله، ثم توجه الى موسكو لحضور استقبال. وهناك سأله مراسل صحافي عن الانطباع الذي خلفه المشهد لديه، فأجاب: ستالينغراد؟ انه شعب عظيم! عظيم حقاً."

ووافق المراسل وأضاف: "أجل، الروس..."

غير أن ديغول قاطعه فوراً بقوله: "اني لا أتكلم عن الروس، بل أعني الالمان. أليس عظيماً أن يكونوا تقدموا الى هناك؟"

■ وليم كريغ